شؤون فلسطينية

٨٦
كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩



# شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : الياس خوري

٨٦ **كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩**

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين ٠

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، رأس بيروت ـ لبنان ، ص٠ب ١٦٩١
تلفون : التحرير والتوزيع ٣٥١٢٦٠ ٠
برقيا : مرابحاث ، بيروت ٠

مدير التوزيع : **غازي دانيال**

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل٠ل٠ في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل٠ل٠ في اوروبا ، ١٢٥ ل٠ل٠ في بقية بلدان العالم ٠

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل٠ل٠ في جميع الدول غير العربية ٠

الغلاف للفنان
محمد القاسمي

محتويات

الصفحة

الصفحة

رسالة الأخ ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية في الذكرى الرابعة عشرة لانطلاقة الثورة الفلسطينية .

عام الجمر والنار
عام النور والأمل

ايها الاخوة رفاق الدرب الطويل

ايها الشعب الصامد المثابر

ايها الابطال في خنادق الثورة

مر العام الرابع عشر من عمر ثورتنا المظفرة ، لتدخل عامها الخامس عشر مزهوة بأكاليل الغار والانتصارات على جباهها ، ليسجل شعبنا في كتاب التاريخ ملاحم جديدة لنصره المؤزر الحتمي الاكيد ٠

مر هذا العام بتحدياته الشرسة ومؤامرته الخطرة ٠ مؤامرة فرض شروط الاستسلام على شعبنا وامتنا العربية ، تلك الشروط الصهيونية الامبريالية الامريكية التي يريدونها وصمة عار وذل لاجيالنا المقبلة تحت اعقاب الغزاة الحديدية ، ونير وسيطرة خططهم واطماعهم التوسعية الامبريالية الصهيونية الهمجية ٠

لقد تتابعت الاحداث في هذا العام ، وتتابعت معها القرارات التاريخية الثورية الحاسمة في مواجهتها ٠

اتخذ ثوارنا الابطال قرارهم الحاسم الثوري بالصمود ضد القـــرار العسكري الامريكي الاسرائيلي في الجنوب اللبناني جنبا الى جنب مـــع رفاقنا واخوتنا في السلاح من المقاتلين اللبنانيين الوطنيين الشـــرفاء ، لنسجل سويا انتصارا عسكريا عظيما لامتنا العربية طوال ثمانية ايـــام بلياليها ضد ما يقارب ثلث الجيش الاسرائيلي المدعوم بأحدث الاسلحـــة الامريكية واكثرها فتكا ، بل والمحرمة دوليا وانسانيا ، وتكسرت عـــلى صخرة البطولة والشجاعة والفداء والتضحية ، المؤامرة الخطرة لابـــادة الثورة وابادة قواتها وابادة قيادتها ــ وذهبت مع دخان المدافع مقولـــة بيرجنسكي « وداعا لمنظمة التحرير » باعتبارها كانت الضوء الاخضر لهذه الحملة العسكرية الاسرائيلية الهمجية ·

وبقيت الثورة خفاقا علمها ، قويا وجودها ، ثابتا جنانها باعتبارهـــا الحقيقة الثابتة الاصيلة في هذه المنطقة المهمة والحساسة والمليئـــــة بالمؤامرات والمحفوفة بالاخطار ·

ثم كان القرار الثوري الحاسم في تثبيت دعائم الثورة وكسر مخـــطط ضربها من الداخل ، حيث تفتتت على فولاذ هذا الاتون الثوري الاصيـــل جميع المحاولات وكل الضربات بما فيها محاولات التصفية واعمـــــال الاغتيالات · وخرجت الثورة كأقوى ما تكون ايمانا وثباتا ورسوخا ، امام هذه التحديات المتعددة والمتنوعة الاشكال والغايات ، وليبقى القرار الثوري قرارا ثوريا فلسطينيا دونما تبعية او خضوع ·

وجاء القرار الثوري الحاسم الثالث · القرار القنبلة الموقوتة التـــي فجرها شعبنا العظيم داخل ارضنا المحتلة في وجه ظلام مؤامرة كامب ديفيد ومؤامرة الحكم الذاتي ، وذلك عندما اطلق صيحة الحقيقة ، وصيحـــة الوجدان ، وصيحة الضمير الثوري ، وصيحة الارادة الفلسطينية ، بادانته لهذه المؤامرة ومواجهة جميع اشكالها وصورها واتجاهاتها ومراميهـــا واهدافها ·

ليس هذا فحسب ، ولكنه اتبع ذلك بهذا التصعيد العسكري المستمـــر والمتفجر لعمله النضالي وكفاحه المسلح من دون كلل او ملل ، وطبقا لخطة مدروسة وتخطيط ثوري ، متحديا كل امكانيات العدو وحلفائه وعملائـــه ، وليسجل بهذا مزيدا من الانتصارات والملاحم والاساطير البطولية لشعبنا وامتنا وتاريخنا ·

خرج شعبنا بمعجزته هذه ليتردد صوتها عاليا في المنطقة كلها ، وليذهل العالم بهذا الصمود وذاك التحدي ، وهذا الفهم العميق والثابت لابعـــاد الموقف · وليعطي الصورة الراسخة الواضحة لديمومة الثورة العارمة في

حنايا هذا الشعب العظيم ، شعب المعجزات ، شعب العطاء السخي ، شعب الشهداء والمقاتلين ، شعب القرار الفلسطيني المستقل والارادة المستقلة ، شعب التضحيات الجسام ، شعب الوعي الصادق ، وشعب الوعد الامين ·

ثم كانت هنالك قرارات اخرى عديدة ، مهمة ومصيرية في ابعادها السياسية والثورية وعلى مختلف الاصعدة ، وفي شتى المجالات · فكانت قرارات الصمود والتصدي ، ودورها الفاعل فيها · وكان دورنا في التحالف الاستراتيجي وفي الفرز الثوري لمعسكر الاعداء والاصدقاء في المنطقة العربية ومنطقة الشرق الاوسط وفي الساحة الدولية ·

لقد كانت مواقفنا واضحة في انطلاقتنا الاصيلة والثابتة مع الثوار والشرفاء ومع المجاهدين والصامدين في كل بقعة ثورية حقيقية ·

وكانت وقفتنا المبدئية والقومية ، مع كل موقف وحدوي في امتنا العربية، وخاصة ما جاء فيها في مشرقنا العربي ، وعلى ساحة التماس مع العدو في الجبهة الشمالية ·

كل هذا من خلال مفاهيم واضحة وثابتة ومبدئية ، نعطيها وتعطينا ، ندعمها وتدعمنا ، نقويها وتقوينا ، وليصب هذا كله في المجرى الكبير للعنفوان الثوري الجارف ضد جميع اشكال القهر والظلم والاضطهاد والعبودية · ضد الامبرياليين الجدد والقدامى · ضد صهاينة الداخل والخارج ، ضد الاستعمار القديم والحديث ·

لذا كانت هذه القرارات الثورية الحاسمة في هذا المعترك وهذه الدوامة، وسط رمال الشرق الاوسط المتحركة والخطيرة ، تمثل هذه الاصالة الثورية والشفافية المستقبلية والرؤى الصادقة والارادة الحديدية النضالية ، والايمان الراسخ العميق ·

لهذا كانت المسيرة بكل ابعادها الحضارية والانسانية ، وعلى مختلف الاصعدة ، فلسطينيا وعربيا ودوليا ، وبكل ما حفلت به من انفجار ثوري هادر حمل من التغييرات ورياح التغيير في هذه المنطقة الشيء الكثير والكثير جدا · بعضها في مجرى التطور التقدمي ومع تيار التاريخ ومصيره الازدهار والفوز ، وبعضها ضد مجرى التاريخ وضد منطق التطور وهذه مصيرها الهزيمة والفشل ·

وكان طائر البجع الفلسطيني وسط هذا كله عاملا ديناميكيا في صنع هذه القفزات التقدمية الفاعلة والنشطة ، ومرفرفا بجناحيه بين حلفائه في الدول الاشتراكية ورفاقه في دول عدم الانحياز واشقائه في الدول الاسلامية ·

من ايران ، البركان الهادر في آسيا ، الى الثوار الاحرار في افريقيا ، الى الاصدقاء العديدين في امريكا اللاتينية ·

قابضا بيد فولاذية على جذوره العميقة في اعمق اعماق الوطن ، واعمق اعماق التراب الفلسطيني ، مستمدا من هذا التراث للثورة الحق من جبل الرحمة في عرفات ، وانبلاج الحقيقة من مهد الرسالة ، لتتجاوب معه اصوات المضطهدين والمناضلين والمجاهدين بين جنبات الاقصى والصخرة والقيامة في القدس الحبيبة الاسيرة المكبلة ٠

ان معنى هذا كله ومغزاه ومحتواه هو الدعم الكبير من معسكر الاصدقاء والحلفاء والاشقاء ، وجميع القوى الديمقراطية والتقدمية ، وهو الذي يصب في الحتمية الثورية للنصر الاكيد ٠

ايها الاخوة الاحبة ،

يا شعبنا البطل ،

السنة الرابعة عشرة بما فيها من مفاجآت وبما فيها من عطاء وبما فيها من افاق وبما فيها من احداث ، سارت جميعها تخترق الصعاب وتصنع الملاحم ، وتشق الدرب وتطرق ابواب المجد ، وتكتب التاريخ بأحرف من نور ونار ، وثورة وايمان ، واصالة وعنفوان ، وحنكة وحكمة ٠
واستطاعت ان تحيل الحصار المضروب حول الثورة ، والذي يريد تصفيتها او اضعافها او احتواءها ، الى متراس ضارب بقوة دفاعا عن هذه الثورة وشعبها ومكتسباته ووجوده واهدافه ٠

ليس هذا فحسب ، وانما تمكنت ان تحقق المزيد من خطوات التوحيد والوحدة بين صفوفها ، وترص سواعدها باعتبارها الركيزة الهامة ومعيارا اساسيا لقدرتها على المواجهة والصمود والتصدي ٠ وحدة شعبها اينما تواجه في اماكن تجمعاته ، داخل الوطن وخارجه ، معبرا بذلك عن ذاته الثورية واصالته العربية وجذوره القومية ، بارادة صلبة وعزيمة جبارة ، ومشكلا بوحدة قواه المقاتلة تحت هذا العلم الخفاق مزيجا فريدا في الالتحام والتكامل ٠

وهنا لا بد لنا من ان نؤكد على اهمية الالتزام الديمقراطي قولا وعملا ، فكرا وممارسة ، وان نعي ان الديمقراطية التزام وعطاء من اجل الثورة وفي سبيل الشعب ، وليست مدخلا او وسيلة لتحقيق بعض الذات او بعض المكاسب التنظيمية الضيقة هنا او هنالك ، على حساب المبادىء والمثل

والاهداف ، وعلى حساب هذا الشعب البطل العظيم ٠

سنة بعد سنة ، والثورة تكبر ، تشتد وتتألق، وتصبح الثورة الفلسطينية ظاهرة ، رغم كل الحسابات والتوقعات للمخططات المشبوهة المعادية ، كبيرة بحجم الوجود ، واضحة بقوة الحقيقة ، دافعة في المسار التاريخي والتطور الطبيعي والحتمي ، الرسالة الحضارية والتقدمية لمسيرة الثورات ضد جميع اشكال الظلم والقهر والاستبداد ، نارا على رأس علم ، ونورا يهديها ، تتجمع حول مشاعل الثوار في فوهات بنادقهم ٠ وتصبح الثورة ، ثورتنا العملاقة ، هذه ، نقطة الانعطاف في هذا المجرى الحضاري والتقدمي في هذه المنطقة ، بكل ما تعنيه هذه المنطقة لاعدائنا ، في موقعها الاستراتيجي ومخزونها النفطي واحتياطيها الاقتصادي ٠ ولذا كان علينا ان نفهم السبب الدفين لهذا التكالب الشرس الذي يحاول ان يضرب الثورة ويقضي عليها ، لتبقى هذه المنطقة فريسة سهلة ، ولتستمر هذه الارض ميدانا يمارس فيه اعداؤنا خبراتهم الجهنمية لنهب خيراتنا وثرواتنا من دون رقيب او حسيب ، بل بمساعدة العملاء في امتنا العربية ، الذين اعمتهم العمالة فراحوا يفرشون الارض ٠٠ ارضنا الطاهرة المقدسة باتفاقات ومعاهدات مسمومة يسير عليها اعداء امتنا الى قلب هذه الامة ، يغرزون فيها خناجرهم المسمومة ويفرضون عليهم سيطرتهم الكاملة ، تحت شعارات السلام المزيف المبرمج والمخطط له ، والذي يشكل خطرا داهما ليس على فلسطين وحدها ، وليس على شعبنا الفلسطيني فقط ، وليس ضد ثوارنا الابطال بمفردهم ٠٠٠ ولكن ضد كل امتنا العربية ومستقبلها ومصيرها ٠٠ وضد هذه المنطقة المسماة في عرفهم منطقة الشرق الاوسط ٠٠٠ وبالتالي ما يشكل كل هذا من اثار عديدة وخطيرة على مجمل السلام العالمي ٠

وهنا لا بد ان تنطلق صيحتنا لكي يسمعها العالم اجمع ، وبالذات الاحصنة الخشبية التي تجر عربة كامب ديفيد ٠ وانني اطلقها باسم شعبنا وثواره وباسم جماهير امتنا العربية وشرفائها وباسم الاحرار والشرفاء في العالم اجمع ، انه لا سلام ولا امن ولا حل ولا استقرار في هذه المنطقة بالقفز على جوهر المشكلة والاساس فيها ، بالقفز على حقوق شعبنا الفلسطيني الوطنية الثابتة ، بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته الوطنية المستقلة فوق ترابه الوطني، تحت قيادته الوحيدة منظمة التحرير الفلسطينية ، والتي اعترف بها على كافة المستويات الصديقة والحليفة والعربية والدولية ٠

ونحن في هذا انما نشق طريقنا مع جميع هؤلاء الشرفاء والاشقاء والحلفاء والاصدقاء نحو السلام العادل والوطيد في الشرق الاوسط ٠ سلام دائم بعدالته ٠ سلام وطيد مع الحقيقة والاصالة والطمانينة المستمرة

فيه ، وليس سلام الاقوياء على الضعفاء · وليس سلام املاء شـــروط الاستسلام وفرض الهيمنة والسيطرة من خلال احلام الامبراطوريـــات الواهية واحلام المستعمرين ومستوطناتهم وحدود الامن ومصادر الميـــاه المؤدية الى منابع النفط ·

وليكن واضحا وضوح دم الشهداء ، ان ثورتنا العملاقة لم تنهزم امام هذا العدو الصهيوني ، امام آلته العسكرية الامبريالية · فلماذا نخضـــع لشروطه ونركع مع الراكعين لاوامر الاستسلام التي يفرضها عليهم · انها ثورة شامخة كالطود ، ثابتة كجبال بلادنا ، قوية بشعبها وثوارها ·

ولن ترهبنا الحملات العسكرية المستمرة ولا الغارات الجوية ولا البطش ولا الارهاب والقهر ولا الفاشيون والنازيون الجدد ·

فان نصرنا الحتمي آت طال الزمن ام قصر ، شاء اعداؤنا ام ابـــوا · فهذه ارادة التاريخ ، ارادة الدم والساعد العربي الفلسطينـــي ، ارادة الكبرياء في امتنا العربية ، ارادة الانتصار لكل ما هو شريف وشجـــاع وعادل في البشرية التقدمية جمعاء ·

هذه الحقائق يجب ان يعيها من يرسمون او يحاولون ان يرسموا خرائط المنطقة · خرائطها السياسية الجديدة او يحاولون ان يثبتوا تحالفـــات مقبلة متلونة ·

يجب ان يرسخ في اذهانهم ان كانت تستجيب او تصيخ السمع ، ان هذه المخططات للتصفية وللسيطرة والهيمنة وسحق الاوطان واستعبـــاد الشعوب على مائدة كامب ديفيد او بلير هاوس لن تمر الا على اجســـاد المناضلين والشرفاء والثوار في امتنا العربية ، وجميع المجاهدين الصادقين في هذه المنطقة برمتها ·

هذه ملامح سريعة وصورة عجلى لما نحن فيه وما نحن مقبلون عليه في عامنا الخامس عشر لثورتنا الجبارة العملاقة بمسيرتها الطويلة الشاقة ·
عام الجمر والنار ، عام النور والامل ·
عام الاحداث والمفاجآت المهمة ·
فهلا وعينا هذه المسؤوليات واثقالها ؟·
وهلا وعينا هذه التوقعات واحتمالاتها ؟ ·

يا شعبنا العظيم ··· يا شعب المعجزة المستمرة ··· يا شعبنا البطل والرمز والمثل والهدف · الطريق طويل وصعب وشاق · ولكن دائما وابدا هذا هو طريق الحرية والحياة والمجد والكرامة ·

حنانيك يا شعبنا وانت تحتضن مواكب الشهداء الابرار فيك ·

حنانيك يا شعبنا وانت ترنو الى معتقليك واسراك بزهوهم وكبريائهم ·

حنانيك يا شعبنا وانت تصنع المجد حولك ·

حنانيك يا شعبنا وانت تشق الظلمات الى النور بخطواتك الجبارة ·

حنانيك يا شعبنا وانت تصنع المعجزة كل يوم مع ثوارك ·

حنانيك يا شعبنا وانت تسطر الملحمة في كل منعطف مع مناضليك ·

وسنبقى معا كتفا الى كتف وساعدا الى ساعد حتى اسوار القــدس ليرتفع عليها علم واحد ، علم ثورتنا وعلم امتنا العربية بألوانه الزاهيــة الاربعـة ·

وانها لثورة حتى النصر .

اخوكم : ابو عمار

١٩٧٩/١/١

ياسر عرفات
يتحدث الى "شؤون فلسطينية" في ذكرى الانطلاقة :

ثورتنا : كلمة سرّ الأمّة

☐ في عيد الثورة ، نود ان نسال قائد الثورة : ماذا تحقق من الحلم ؟

● ونحن نقتحم العام الخامس عشر من عمر ثورتنا ، لا بد لنا ان نتذكر ان كثيرين قد تحدونا وشككوا في امكانية صدور البلاغ الخامس عشر ، واذا بهذه الثورة التي يقودها شعبها المعطاء ، تحقق القدرة على الحياة وعلى صياغة المعجزة · اني انظر الى الوراء قليلا واقرأ كلمات جون فوستر دالاس عن مصير الشعب الفلسطيني التي قال فيها ان من سوء حظ هذا الشعب انه يعيش بين الارجل · لا يستطيع دالاس الان ان يرى نهوض هذا الشعب بثورته التي تعتبر ، بعد الثورة الفيتنامية ، اهم واضخم ثورة في ايامنا · انها ثورة المستحيل التي واجهت وتواجه من صعوبة الظروف الموضوعية ما لم تواجهه اية ثورة حتى الان ، وواجهت من المؤامرات ما لم تواجهه اية ثورة حتى الان · وتصدت لضربات اضطرت امامها ان تحارب على اكثر من جبهة · فاية ثورة اخرى حاربت على كل هذه الجبهات كما تحارب الثورة الفلسطينية ؟

وهذه بعض عناوين ما حققته الثورة في مسيرة الدم والتضحية : لقد انتقل شعبنا من رقم في دائرة من دوائر الامم المتحدة ، ومن همسة دبلوماسية مترددة في اروقة من اروقتها ، ومن ملف في لجنة من لجانها ، اسمها هيئة الغوث الدولية ، الى شعب ثائر ، يحول التعامل مع الواقع الجديد الذي صاغه في هذه المنطقة من العالم ، الى شرط لتحديد وجهة التطور في اتجاه الحرب او السلام ·

لقد تحولنا من طوابير من اللاجئين تقف امام عطايا وكالة الغوث : كيس طحين ، حفنة فاصولياء ، علبة سردين ، بطانية ·· الى طوابير من المقاتلين لا تكتب التاريخ الجديد لفلسطين فقط ، وانما تحدد وجهة الامة العربية في السيطرة على مستقبلها الحر · ولم يقدم الثائر الفلسطيني اغناء لتجربة العمل العربي الثوري فحسب ، بل اغنى المسيرة الثورية العالمية بتجربة ثورية فريدة · ودعني اتذكر ··

☐ اخ ابو عمار ·· انك تجرف اسئلتنا ايضا ؟

● لا بأس ، فالمائدة كلها انقلبت · اتذكر انني كنت في الخليل في عام ١٩٦٤ ، وكنت اشارك مع بعض الاخوان في صناعة اول لغم من البارود والديناميت الذي يستعمل في المحاجر والكسارات ، للقيام بعملية تعلن بداية الانفجار في الصخر الجاثم على صدور شعبنا، وعلى قضيتنا، وعلى اسم فلسطين · كان من المفروض ان يقوم بالعملية محمد شرف احد اخواننا الذين استشهدوا فيما بعد ·

☐ من كنت يومئذ ؟

● كان لي اسم مستعار هو الدكتور · وكان رفيقي يقول لي : يا دكتور ، اريد ان اسألك : انك تكلمني عن الثورة منذ شهور ، وها انت منهمك منذ ثلاثة ايام في صناعة لغم واحد · فما هي هذه الثورة ؟ قلت له : يا محمود ! نحن لا نصنع لغما لاعلان الثورة ، بل نصنع صاعقا سيفجر المنطقة العربية ·

☐ هل فجرتها ؟

● انظر الى التحولات الجذرية في المنطقة العربية وعلى مستوى القضية الفلسطينية ، وعلى المستوى العالمي ، خلال مسيرة الاربعة عشر عاما · كيف كنا وكيف اصبحنا · كيف كان الواقع العربي وكيف صار · لقد استطعنا من خلال شلال الدم الذي لم يتوقف طيلة ١٤ سنة ان نقلب المعادلات · كل ذلك بفضل العطاء السخي الذي قدمه شعبنا ، في الداخل والخارج · لقد مر على التحقيق الاسرائيلي ٢٣٠ الف شخص حسب احصائية اسرائيلية ، مما يدل على مدى التفاف شعبنا حول ثورته ومشاركته في مسيرتها ، وعلى القدرة غير المتناهية للعطاء فيه · اضافة الى الدعم الذي يقدمه ابناء امتنا العربية الذين تمثل الثورة بوصلة مستقبلهم ، بغض النظر عن بعض المكدرات التي تحصل بيننا وبين اخوتنا

في المنطقة العربية ، فهذه الثورة تمثل ، كما اقول دائما ـ الوجدان العربي والضمير العربي في هذه اللحظة التاريخية الحاسمة من تاريخ امتنا العربية المعاصر ٠

وعلى المستوى العالمي ـ اننا نحظى بدعم وتضامن عالميين منقطعي النظير ، حتى اصبح الادراك العالمي غير قابل للتردد في ان فلسطين هي جوهر الصراع في هذه المنطقة ، وان الموقف منها هو الذي يحدد خيار السلام او الحرب ٠ ان ثورتنا هي اول ثورة تدخل الامم المتحدة ٠ كانت الامم تعنى بالدول ، فجاءت الثورة الفلسطينية وكسرت القاعدة ، ودخلنا هيئة الامم المتحدة اعضاء مراقبين ، اضافة الى كوننا اعضاء عاملين في جامعة الدول العربية ٠ قبل الثورة كانت فلسطين عبارة عن عضو مراقب في الجامعة العربية ، وعبارة عن رقم في احد ملفات الامم المتحدة ٠ ونحن اعضاء عاملون في دول عدم الانحياز ، وفي مكتب التنسيق لدول عدم الانحياز ٠ وفي بلغراد ، انتخبت فلسطين اخيرا احد النواب السبعة في دول عدم الانحياز ٠ ونحن اعضاء مراقبون في منظمة الوحدة الافريقية ٠ ونحن اعضاء عاملون في مجموعة الدول الاسلامية ٠ وآخر شيء البيان السوفياتي ـ الفلسطيني هل تفهم يا اخي ما معنى ذلك ؟ فللمرة الاولى يصدر الاتحاد السوفياتي ، وهو احدى القوتين الكبريين في هذا العصر ، بيانا مشتركا مع الثورة الفلسطينية متمثلة في منظمة التحرير الفلسطينية ، وذلك في زيارتي الاخيرة للاتحاد السوفياتي ٠ لقد كانت البيانات السابقة بيانات صحفية ، اما هذه المرة فقد صدر بيان رسمي مشترك ٠

بهذه الرؤية ، وبهذا المعيار ٠٠ معيار ما حققته الثورة من تحولات في الواقع العربي ، وفي الادراك والموقف العالميين ، وما حققته من انقلاب في الذات الفلسطينية ، وما خلقته من قيم ثورية جديدة في عملية تحويلها الفرد الفلسطيني من لاجيء الى مقاتل يبادر الى صنع مصيره بيده ، وبارادته الحرة ، وما احدثته من ثورة في المفاهيم والاشكال على مستوى الثقافة والفكر ، ومن اطلاق لطاقات شعبنا الابداعية ، بهذا المعيار تمكن المراجعة الصحيحة والدقيقة لمسيرة ثورتنا ٠ ومن المؤسف ان بعض الناس لا يرى الا الاشياء والمظاهر الهامشية من خطأ هنا الى مخالفة هناك ، او من خلال بعض اجهزة الاعلام من صحافة واذاعة تشوش وتدس علينا من دون انقطاع ، ولا يدقق في الابعاد الاستراتيجية التي خلقتها الثورة بخطاها الدؤوبة والمتلاحقة ٠ ولنتذكر قول الجنرال جياب ـ ان مجموع الانتصارات الصغيرة تشكل في مجموعها الانتصار الكبير ٠ وما معنى هذا التضامن العالمي مع شعبنا ؟ ان الناس لا تتضامن مع اشباح او مع نكرات ٠ الناس تتضامن فقط مع قوة فاعلة ومؤثرة لا

يستطيع ان يتجاهلها احد · هذا ما اعني بكلامي عن الرقم الفلسطيني الصعب ، الرقم الاساسي في معادلة الشرق الاوسط · قبل اربع عشرة سنة ، كان اي شرطي يحكم المخيم الفلسطيني في اية منطقة عربية · واليوم صارت الثورة الفلسطينية نقطة التغير الاساسية في المنطقة العربية ، وصار العالم كله ، ما عدا القوى ـ الامبريالية والصهيونية ، يتضامن مع الشعب الفلسطيني · وتلك هي اولى بشائر النصر ·

□ هل لنا ان نعرف من هو ياسر عرفات قبل نكبة ١٩٤٨ · ما هي بطاقته الشخصية ؟

● لا تحرجني بهذا السؤال · من العيب ان نتكلم عن انفسنا · من العيب وممنوع في الثورة ان نفعل ذلك · فالحديث فقط عن الشهداء الابطال صناع الانتصارات والمجد ·

□ نحن نحاول ان نتابع تطور وعي ، من النكبة ، الى العمل الطلابي ، الى المشاركة في العمل العربي من اجل فلسطين ، حتى تبلور العمل الفلسطيني المستقل· لذلك نسال عن بداية نشاطكم السياسي في المرحلة الاولى من النكبة ·

● عملت مع جيش الجهاد المقدس الذي كان يقوده البطل الشهيد عبد القادر الحسيني مدة من الزمن · ولكن ، كرست نشاطي بعد ذلك في المخابرات العسكرية لجيش الجهاد المقدس · كنت اعمل في جمع الاسلحة التي تركتها الحرب بين الحلفاء والمحور في الصحراء الغربية ومناطق قتال اخرى ، وارسلها انا واخواني الى القاهرة لكي ترسل الى فلسطين · في تلك الفترة فاجأتني المؤشرات الاولى لوعي المؤامرة الضخمة بكل ابعادها، وذلك من خلال تجربتي الشخصية التي اتاحها لي وجودي في الاستخبارات العسكرية لجيشنا الفلسطيني · واذكر ان نقاشا حصل بين الضباط ، وكنت وقتئذ ضابطا صغيرا ، حول دخول الجيوش العربية الى فلسطين · كنت من الناس الذين عارضوا ذلك الدخول · بالطبع لم يكن لرأيي قيمة، ولكنني احسست بالمؤامرة ·

□ لماذا عارضت دخول الجيوش العربية ؟

● كانت قوات الجهاد المقدس هي القوات الفلسطينية · أما جيش الانقاذ فهو مؤلف من القوات المتطوعة العربية التي دخلت فلسطين ، وكنا جميعا معها ، ولكن شعرنا ان هناك شيئا ، ان وراء الاكمة ما وراءها عندما بدأ الحديث عن دخول القوات النظامية ·

اليك هذا المثال : كنت في يوم من الايام مع بعض اخواني نشتري سلاحا قديما ، فوجدنا دبابة قديمة من الدبابات الالمانية ، وكان تاجر الخردة في القاهرة يريد التخلص من الدبابة فاشتريناها • وبذلنا كل الجهود لنوصلها الى فلسطين ، ولكن دون طائل • لم نجد اية وسيلة لايصال دبابة خردة الى فلسطين ، على الرغم من تسكعنا حوالي الشهر على ابواب الجامعة العربية ولم نتمكن من ارسال الدبابة ، في الوقت الذي كانت فيه الاذاعات العربية تقول كلاما اخر • ولا استطيع الان ان احصي الصعوبات التي كنا نواجهها لارسال الاسلحة القديمة التي كنا نشتريها من البدو في الصحراء ، فكل العراقيل كانت توضع ، من جميع الجهات ، امام وصول هذه الاسلحة الى ارض المعركة • فكيف تخوض الدول التي تمنعنا من جمع الاسلحة حربا حقيقية ؟• وانا لا انسى القرار الذي صدر بتسليم الاسلحة ، في بير زيت وغيرها ، الاسلحة التي تخص الجهاد المقدس ، وسجن المتطوعون الآخرون في الجنوب • لم تكن المسألة ، اذن ، مجرد احساس بالمؤامرة ، بل كنت شاهدا على المؤامرة ، فالسلاح الذي كنا نشتريه بحلي نسائنا كانت قد صدرت اوامر بتسليمه • لقد كانت نظريتنا أنا وبعض المعارضين ، ان هذه الجيوش التي ستدخل بأمر وتنسحب بأمر بعد ان ينام الشعب على احلام قوتها •

☐ ماذا كنت تفعل يومها ؟

● كنت طالبا في القاهرة • وهناك اجتمعنا في دار الشبان المسلمين ودار الاخوان المسلمين ، والذي جمعنا هو الاخ حامد ابو ستة الذي قال لنا : لا علم والوطن محتل • وقال : احرقوا الكتب فحرقناها لنلتحق بالنضال والحرب ، ثم كان ما كان فلجأنا بعد النكبة الى العمل في اطار رابطة الطلاب الفلسطينيين • وتلاحظون ان كثيرا من كوادر الثورة الفلسطينية مر في رابطة الطلاب هذه ، حين كنا قد فقدنا كل شيء •

☐ كيف تشكلت الرابطة ، ومن شكلها ؟

● كانت الرابطة موجودة قبلنا • وكان اول رئيس لها هو عبد القادر الحسيني عندما كان طالبا في الجامعة الاميركية • بعد ذلك تعثرت الرابطة • وحين اصبحت رئيسا لها حصلت على الشرعية • والسبب في ذلك يعود الى علاقتي مع قادة الثورة المصرية في ٢٣ يوليو •

□ متى نشات هذه العلاقة ؟

● اثناء اشتراكي في حرب القناة ضد الانجليز · وقد اشتركت في هذه الحرب عندما كنت طالبا في الجامعة ، واشتركت في كل النشاطات من التدريب الى القتال الى الاتصالات مع الضباط الاحرار ورجال الاحزاب في مصر · وقد كانت لنا اتصالات دائمة مع هؤلاء الضباط ، ومع الاخوان المسلمين ، ومع حزب مصر الفتاة ، والوفد · وكانت مصر حينئذ في حالة مخاض نتجت عنها ثورة ٢٣ يوليو · وقد ساهمت في هذه المرحلة بامكانياتي المتواضعة كمناضل فلسطيني من الامة العربية · وحين انتخبت رئيسا لرابطة الطلبة الفلسطينيين سنة ١٩٥٢ ، طلبنا من محمد نجيب ان يكون رئيس شرف للرابطة · وقد بقيت صورته معلقة في مكتب الرابطة حتى غادرتها سنة ١٩٥٦ على الرغم من انه لم يكن رئيسا · نحن لم ننزل صورته عن الجدار ابدا ، وتلك قصة مشهورة عن مواقفنا المبدئية ، اثناء هذه الفترة ، كمجموعة طلابية مناضلة ·

كانت احداث غزة تشدنا ، فقد كانت غزة تغلي بالانتفاضات · ولم يكن مجرد مصادفة ذلك الترابط بين ما كان يحدث في القاهرة بين جموع الطلبة الفلسطينيين وبين الانتفاضة التي قام بها المعلمون ورابطة المعلمين في غزة، اضافة الى نشاط الشباب الثوري الذي كان يقوم بعمليات عسكرية سنة ١٩٥٤ في غزة ، وكان اخوكم ابو جهاد وراء هذا النشاط مع اخوانه ·

□ من جيش الجهاد المقدس ، الى وعي المؤامرة ، الى اليأس ، فالانبعاث في النشاط الطالبي ، وهبات غزة ، كيف كانت البداية في ولادة فتح ؟

● لم تولد « فتح » في الفكرة اولا · لقد ولدت في رحم امة وفي رحم شعب · من الظلم ان نقول ان ياسر عرفات او اخوانه هم الذين انشأوا « فتح » ، فهي التي كانت هاجس جيل باكمله · فمن الغليان ، الذي كان يعتمل فيرحم الشعب ، من المخاض الذي وجد تعبيرا عنه في انتفاضة غزة ، وتحركات ، من رابطة الطلبة الفلسطينيين والمعلمين ، من تظاهرات تمبلر الى مخاض تجربة الوحدة الى حرب ٥٦ ، من هذا الاتون المشتعل كله ولدت فتح ·

علينا ان نتذكر الشباب الثوري الذي كان يعمل في غزة سنة ١٩٥٤ ، ويقوم ببعض العمليات الفدائية · لنتذكر ان الرئيس جمال عبد الناصر قد اتخذ قرارا بتشكيل مجموعات للفدائيين ، عندما لاحظ ان هنالك شيئا يغلي بعمل فدائي غير مسيطر عليه في غزة · وهنا نجد الرابط بين رابطة الطلاب الفلسطينيين في القاهرة ، باعتبارها الاطار الذي بقي يعمل

كمؤسسة في اعوام التيه الاولى ، وبين غزة التي بقيت تحمل اسم فلسطين . صحيح ان الضفة الغربية موجودة بكل الانتفاضات المتعددة التي فجرتها لكنهم حاولوا تحريرها من اسم فلسطين ، انما المنطقة الوحيدة التي ظلت تحمل اسم فلسطين هي غزة .

وعلينا ان نتذكر كم كابدنا لادخال ما يمكن ادخاله من الطلاب الفلسطينيين في الكلية العسكرية . وكيف ساعدتنا صلتنا الجديدة مع الضباط الاحرار من تحقيق هذه الامكانية ، بجانب المجموعات الفلسطينية الاخرى في كلية ضباط الاحتياط المصريين .

وحين جاءت سنة ١٩٥٦ وبعد حرب السويس وبما كانت تحمله من نهوض عربي على المستوى القومي ، لم نكن نرى على مستوى البعد الوطني [الفلسطيني] عملا قوميا ملموسا ينسجم مع هذا النهوض . لقد كانت اليقظة القومية كبيرة ، ولم يكن العمل من اجل فلسطين يحتل المرتبة الاولى من الالويات القومية . وكانت اللحظة الفارقة عندما قال جمال عبد الناصر لوفد من غزة انه لا يملك خطة لفلسطين « والذي يقول ان عنده خطة لفلسطين يضحك عليكم » . وهكذا حين بدأنا نتجمع تحت جناح حركة فتح ـ الفكرة كنا نعلم انه لا يوجد عمل عربي من اجل فلسطين . اي ان المناخ الموضوعي الذي اولد الفكرة هو غياب عمل قومي حقيقي لفلسطين كما عبر عن ذلك بصراحة الرئيس عبد الناصر . لقد كانت ولادة الفكرة استجابة لغياب العمل العربي الثابت المكرس للقضية الفلسطينية من جهة ، وانسجاما مع حالة النهوض القومي الذي عم المنطقة العربية ، وتعبيرا عن المخاض الوطني الفلسطيني الذي هو جزء من العمل القومي . ولا انفصام بين الجزء والكل . لذلك ليس قوميا من يفرط بجزء من الوطن او يبخل عليه او يتهرب منه تحت شعار شمولية الكل .

كنا نجتمع بعد حرب ١٩٥٦ . وبدأت فكرة « فتح » ترتدي طابع النضج . لم تكن « فتح » موجودة حتى الان . كنا نواة حركة فلسطينية هدفها تحرير بلادنا بالطرق المتعارف عليها لدى جميع الامم ، وفي الوعي العام العالمي بالنسبة لمضمون حركة التحرير . كانت بداية التجمع في غزة وفي مصر ، ثم في سوريا ، حيث جرت العلاقة مع اخواننا الفلسطينيين في سوريا في عامي ٥٧ و ٥٨ عبر قنوات الطلبة والخريجين ثم تبعتها العلاقة مع اخوتنا في الاردن . في ذلك الوقت ، وقت النهوض العربي والمخاض الفلسطيني ، كان ابناء شعبنا الفلسطيني يتكلمون عن الناصرية ، وعن القوميين العرب ، وعن البعثيين ، وعن الاخوان المسلمين وعن الشيوعيين وعن ... وعن ، ولم يكن للعمل الفلسطيني وعاء وطني ، ولم يكن هنالك عمل مكرس لفلسطين . لم نجد في كل هذه الاحزاب والحركات السياسية من يضع فلسطين رقما اولا في عمله القومي . لم تكن الاولوية

لفلسطين · وهنا ، ادركنا ضرورة وحتمية بلورة نشاط محدد مكرس للهم الفلسطيني ، في دائرة المنطلق القومي · لم تكن الاقليمية هي التي تنشط حوافزنا الوطنية ، بل ادراك جوهر الصراع على المستوى الحضاري والقومي المتمحور في القضية الفلسطينية ، فلا بد للشعب الفلسطيني ان يؤسس اطاره التنظيمي في سياق حركة النهوض العربي ، لتلبية المهام الوطنية الفلسطينية المباشرة · تصوروا الان لو ان الثورة الفلسطينية لم تبدأ ، اكانت فلسطين قادرة على اعلان انها الجوهر ؟ وهكذا تمت بلورة فكرة البحث عن الخاص الفلسطيني في العام القومي ، وولدت المسيرة الفلسطينية بزخم متناسق في جدلية العلاقة بين الخاص والعام ·

بدأت الاتصالات الاولى في الكويت ، حيث يوجد تجمع فلسطيني كبير على مساحة ضيقة تسهل الاتصالات فيها ، وحيث توفرت القدرة المالية لدى الطليعة · وكانت في قطر حركة اخرى اندمجت معنا في اللحظات الاولى من خلال اخيكم ابو مازن واخيكم الشهيد ابو يوسف النجار واخيكم الشهيد كمال عدوان ، وكثيرين غيرهم ، وذهبت الى السعودية ، بطريقة التهريب ، للاتصال باخوتنا هنالك ، وفعلا اتصلت بأخيكم الشهيد عبد الفتاح محمود وغيره ·

□ كيف اخترتم اسم الحركة ؟

● هي حركة التحرير الوطني الفلسطيني ، اختصارها « حتوف » وهي ليست كلمة مناسبة · حذفنا الواو فصارت « حتف » وهي ليست مناسبة لان شعارنا « ثورة حتى النصر » وليس « ثورة حتى الاستشهاد » ولذلك قلبنا الحتف ، فصارت فتح · اي قلبناها الى الفتح المبين ·

في ذلك الوقت لم تكن فتح الحركة الوحيدة · كانت توجد حركات كثيرة ، وهذا ما كنت اعنيه بقولي لك ان المخاض لم يكن فتحويا فقط ، بل كانت هناك كثير من النويات في سوريا وفي القدس · وبما ان فتح كانت النواة الاكبر فقد اندمجت فيها نويات اخرى كثيرة منذ اللحظة الاولى ، وبعضها رفض الاندماج وانتظر ، وبعضها لم يندمج ·

□ من اين جاء التاييد الاول ؟

● من الجزائر · بدأت صلتنا بالثورة الجزائرية ، وانا اسمي تلك المرحلة بمرحلة البعد الجزائري · وكان اول اتصال مع محمد خيضر ، فقد جاء الى الخليج واجرى اتصالات واسعة مع الفلسطينيين ، ومنهم ابو رؤوف ، وهناك قال لنا كلمته الشهيرة : لو كنت فلسطينيا ومعي قنبلة

لفجرت نفسي وفجرت العالم ٠

اول مكتب لفتح كان مكتب الجزائر ، وبموافقة الثورة الجزائرية ، كان ابو رؤوف مسؤولا عنه ٠ وكان يقع في شارع فيكتور هيجو ، ثم استلمه الاخ ابو جهاد ٠ ومن المصادفات الغريبة ان هذا المكان الذي ما زال مركز الثورة الفلسطينية في العاصمة الجزائرية كان تابعا لقائد فرنسي يستخدم قبوه لتعذيب الجزائريين ، ومن المصادفات الغريبة ايضا ان هذا القائد الفرنسي كان يهوديا ٠

[وفي عام ١٩٦٢ بدأنا باصدار صحيفتنا الاولى « فلسطيننا » بمساعدة الاخ توفيق خوري ، وهو لبناني ، وكان هاني الفاخوري احد المسؤولين عن تحريرها] ٠

ومن الجزائر انفتحنا على العالم ، وجرى اول لقاء بيننا وبين جيفارا في الجزائر ، حيث التقى به ابو جهاد ٠ ثم التقى بشو ان لاي ، ووجه الينا الدعوة لزيارة الصين فذهبنا انا وابو جهاد في عام ١٩٦٤ ٠ وحين فتحنا خرائطنا وقلنا لهم اننا نريد ان نعمل ثورة لم يصدقونا ، وقالوا : من الصعب ان تنجح هذه الثورة ، لان الظروف الموضوعية المحيطة بكم لا تسمح بذلك ٠ قلنا لهم ان المسألة جادة رغم كل الصعوبات ٠ ومن الصين توجه ابو جهاد الى هانوي وكوريا ٠

☐ **وماذا كان موقف جمال عبد الناصر من الحركة ؟**

● كانت اجهزة عبد الناصر تقدم له تقارير ضدنا ٠ وتوهمه اننا نعمل ضد عبد الناصر ٠ ويومها طرحوا الاعتراضات الثلاثة المعروفة : التوقيت، والتنسيق ، والتوريط ٠ كان ذلك بعد الانطلاقة في عام ١٩٦٥ ٠ ولم يقدم لنا اي دعم رسمي من مصر الا بعد حرب ١٩٦٧ ٠

ومن المهم ان نذكر ، لفهم الجو المحيط بعبد الناصر ، ان القرار الذي صدر عن القيادة العربية المشتركة برئاسة علي علي عامر قد اعتبر نشاط العاصفة خارجا عن القانون ولا بد من مواجهته ٠ وصدر قرار بملاحقة ومطاردة رجال العاصفة ٠ ومن غريب المصادفات انني كنت اثناء العدوان الثلاثي على مصر من ضمن قيادة علي عامر الموجودة في الزقازيق في المنطقة الشرقية، وهو الذي اصدر القرار فيما بعد بملاحقة رجال العاصفة٠

☐ **متى قابلت عبد الناصر اول مرة ؟**

● حاولنا الكثير ٠ ولكن لم يتم اللقاء الا بعد هزيمة ١٩٦٧ ٠ كنا اول من ذهب اليه كثوار بعد هذه الهزيمة ، وقلنا له اننا في فتح نضع انفسنا

تحت تصرف مصر وعبد الناصر · واذا خسرنا المعركة فذلك لا يعني اننا خسرنا الحرب · ومنذ ذلك الحين تولدت بيننا علاقة حميمة ، في الوقت الذي كانت السكاكين تنهال عليه بلا رحمة ·

□ اين كان ابو عمار حين تمت العملية الاولى التي اعلنت ميلاد الثورة الفلسطينية ؟

● كنت في القدس ·

□ لماذا كان اليوم الاولى من الشهر الاول هو الموعد ؟ هل لذلك دلالة او معنى خاص ؟ او ظرف سياسي معين ؟

● كان من المفروض ان نبدأ في سنة ١٩٦٤ · كان في القيادة اتجاهان : الاول يستعجل الانطلاقة · والثاني : يدعو الى الانتظار · وفي عام ١٩٦٤ اجتمع المجلس العسكري سرا ، في القدس مرة وفي عمان مرتين · وصوت اعضاء المجلس على عدم الموافقة على الانطلاقة سنة ١٩٦٤ · كان الوقت اواخر آب (اغسطس) وبداية ايلول (سبتمبر) حيث كان مؤتمر القمة الثاني منعقدا في الاسكندرية ·

كان اعضاء المجلس العسكري الذين يؤيدون اقتراح تأجيل الانطلاقة يقولون انا في حاجة الى ٥٠٠ قطعة سلاح لكي نبدأ ، و ٥٠ الى ٦٠ الف دينار · وكنت انا وابو ماهر ، عضو القيادة المركزية ، من انصار الاستعجال · وحينما اختلفنا رفعنا الامر الى اللجنة المركزية التي اخذت بوجهة نظر الاخرين · وهنا ، اذكر هواري بومدين ، قابلته في وزارة الدفاع عام ٦٤ وقال لي : اذهب واطلق طلقة واحدة ثم عد الي ·

وحين كنا نتناقش داخل الحركة : ننطلق او لا ننطلق ، كان مؤتمر القمة الثاني يقر تشكيل جيش التحرير الفلسطيني · كانت وجهة نظرنا ان الثورة لا تأتي بأوامر أو تعليمات · ولكن اكثرية اعضاء القيادة كانت تريد التريث ·

وهنا اذكر ابو يوسف يرحمه الله · كنا جالسين على الشاطيء الكويتي سألته : ما رأيك في ان نبدأ الانطلاقة ؟ نعمل عملية عسكرية نختار اسما لها · اذا نجحت تتبناها فتح ، واذا لم تنجح يكون الذين قاموا بها « شوية » شباب متحمسين ، وتستمر فتح في الاعداد الى ان تصبح الظروف مهياة · وافق ابو يوسف ، وجاء ابو جهاد من الجزائر ، والاخوة الآخرون من امكنة متعددة ، وتم الاتفاق على ذلك · وعين ابو يوسف

قائدا عاما للقوات ، وكنت انا قائد المجلس العسكري ٠

انني اذكر نتفا فقط هنا وهنالك ، ولا اسجل تاريخا للثورة ٠ حتى لا يعتب علي أحد في هذه العجالة من الامثلة ٠

كانت عناصرنا في ذلك الوقت تجوب الارض المحتلة ٠ وكنا واضعين مشروع المياه القطري نصب اعيننا ٠ وحصل اول اشتباك مع القوات الاسرائيلية في ١٩٦٤/٨/١٧ في منطقة بيسان ٠

كانت سنة ١٩٦٤ سنة خطيرة ٠ كاد الاسرائيليون ان يلقوا القبض على الكثيرين منا ، بل كادوا ان يلقوا القبض على ابو اياد في رام الله ٠ وهنا اتذكر نقطة هامة : صحيح اننا قررنا ان تكون الانطلاقة في ١٩٦٥/١/١، ولكن بعض الاخوان كان قد اقسم ان نفجر الثورة في ١٩٦٤ ، ولذلك كانت اول عملية في دير نحاس الساعة ١١ مساء يوم ١٩٦٤/١٢/٣١ ، وقد أستشهد احد شبابنا وهو الشهيد رمضان البنا تحت التعذيب في السجون الاسرائيلية ، وهو الذي كان قد أشرف على العملية ، ومن الذين اقسموا على ان تبدأ الانطلاقة عام ١٩٦٤ ٠

☐ اعلان الثورة في منطقة حساسة ، مليئة بالتناقض وآبار النفط والمصالح الاميركية ، كان بمثابة اعلان الحرب على المستحيل ٠ فكيف حددتم منذ البداية مسالة التحالفات ؟

● كان هذا السؤال واردا منذ البداية ٠ وكانت الجزائر اول من تحالف معنا واعطانا الدعم السياسي والاعلامي ٠ ولكن الجزائر بعيدة ، ولا بد لنا من حلفاء على خط التماس ٠ وقد وجدنا هذا الدعم في سوريا التي اقمنا معها علاقة خاصة بعد الثامن من اذار ٠ وانا اعتبر هذه العلاقة بين الثورة الفلسطينية وبين حزب البعث علاقة استراتيجية ذات اهمية خاصة ، لانها تتحقق على خط التماس ٠ وقد أمن الحزب بحركتنا ، وكان دعمه مظلة حماية لنا في تحركنا السياسي والعسكري ٠

اود ان اذكر في هذا السياق ان حافظ الاسد كان يهرب لنا بعض الاسلحة من دون علم قيادته ٠ ان العلاقة مع سوريا قد اعطت الزخم للثورة الفلسطينية ، خاصة وانه لم يكن من الممكن التحرك من لبنان علانية وكذلك من الاردن٠ فكانت سوريا نقطة الانطلاق٠ والنقطةالمحورية٠

وعلى مستوى الامة ، كنا نعرف ان حركتنا هي المعبرة عن نبض الامة العربية وعن طموحها في الحرية والتحرر ، وانها ستلتف حولنا ، ولن تبخل علينا بأي دعم ٠ وعلى المستوى العالمي ، كنا نعرف ايضا ان مسيرتنا هي جزء قوي من مسيرة احرار العالم ، والعالم لا يحترم الضعفاء ٠

□ **هل تصورتم ، حين اطلقتم الرصاصة الاولى ، ان تواجهوا هذا العدو الكبير من الاعداء، فمنذ عام ٦٥ الى الان وانتم تخوضون حروبا، في طريقكم الى فلسطين؟**

● بصراحة ، لا ۰ لم اتصور اننا سنخوض كل هذه الحروب ۰ كنت اتصور اننا سنواجه صعوبات كبيرة وشديدة في طريق التحرير ، ولكن لم اتصورها بهذا العنف وهذه الشراسة ۰

الان يمكنني ان اقول ما معنى الثورة الفلسطينية ، وما معنى شراسة الهجوم ، فبعد هذه التجربة العريضة نستطيع ان نعرف ان الثورة الفلسطينية تمثل هذا التحول الحضاري في المنطقة العربية ، ومن هنا يتكاثر علينا الاعداء ، وهم الامبريالية العالمية والصهيونية وعملاؤهما في منطقتنا العربية ۰ ان الحكاية ليست حكاية قطعة ارض نأخذها فينتهي الامر ۰ وما هو سبب هذه الشراسة في الهجوم ؟ السبب هو معرفتهم (اي الاعداء) لحقيقة ما تمثله الثورة الفلسطينية من مستقبلية لا تخص الفلسطينيين وحدهم ، او مستقبل نتائج التغيير التي تخلقها الثورة باعتبارها نقطة التغيير الحضاري في هذه المنطقة العربية ۰ من هنا تنشأ شراسة هجوم الاعداء الذين يفعلون كل شيء للحيلولة دون الميلاد العربي الجديد ، وما يمثله من آيات التحدي الحضاري۰ وفي المقابل كان التصميم الفولاذي والرائعمن شعبنا ۰ لذلك لم يتوقف شلال الدم لحظة واحدة ۰

لا تتصور مدى التأثر الذي اصابنا حين سقط اول شهيد ۰ وحين سقط اربعة شهداء في عملية واحدة كانت الضربة قاسية ، وكنت مع اخواني كأن على رؤوسنا الطير ۰ والان ، لا نستطيع تماما ان نحصي شهداءنا وضحايانا وخسائرنا ۰ كم خسرنا في معركة العرقوب الاولى والثانية ؟ كم خسرنا في القواعد المنشأة في ١٩٦٧ داخل الارض المحتلة ؟ لقد دمرت ٣٤ قاعدة لنا ، وانشأنا قواعد جديدة للانطلاق ولاستمرار الثورة ۰ كم خسرنا في الحرب الاخيرة في جنوب لبنان ۰ حين نرى هذه القائمة الطويلة من الشهداء ندرك معنى شلال الدم ۰ ومن المؤسف ان اكثر من نصف شهدائنا سقط فيالمعارك الجانبية للدفاع عنالثورة وعناستمرارها۰

□ **لحظات الخطر الحقيقي ، هل مرت الثورة بها الى درجة تبعث على القلق الشديد ؟**

● نعم ۰ كانت هنالك لحظات خطر ۰ ولكن لم افقد ايماني ولا مرة ۰

□ اخ ابو عمار ، بماذا تؤمن ؟

● انا رجل مؤمن بكل المعنى الديني ، ولم يهتـز هذا الايمان ابدا ولا لحظة من اللحظات ٠

وانا اؤمن بشعبي ، ولم افقد هذا الايمان ابدا ولا لحظة من اللحظات٠ هذا الشعب يعطي ما يفوق السؤال ٠ ولا مرة راهنا عليـــه الا وكـان مستعدا ٠ ان لبعض الشعوب قيادة تتقدمها ، اما الشعب الفلسطيني فانه كان دائما ، وعلى مجرى تاريخه اهم من القيادة ٠

□ متى كانت لحظات الخطر الحقيقي ؟

● دعني اعدل التعبير ، سمها لحظات القلق الشديـــد ٠ وهي كانت كثيرة : في عمان ، في جرش ، في عجلون ، وعندما طلعنا الى جبـــل الشيخ وقلت كلمتي الشهيرة ٠٠ يا سارية الجبل ٠٠٠ الجبل جبل الشيخ ٠٠ جبل الشيـــخ ٠

وفي بيروت كانت لحظة خطر ٠ وفي حرب الجنوب ايضا ٠ لكن ، وفي كل مرة ، تخرج الثورة اقوى مما كانت ٠ وقد سمى صديق سوفياتي هذه المسألة بالظاهرة الفلسطينية ٠ قال لي انه كان يتحدث مع مفكر اميركي عن الشرق الاوسط ، ولا يمكن لاحد ان يتكلم عن الشرق الاوسط دون ان يتكلم عن الثورة الفلسطينية التي اتفقنا على تسميتها بالظاهرة الفلسطينية التي تتعدى كل حسابات اجهزة الكمبيوتر ، فكلما اشارت العقول الحاسبة الى ان الثورة انتهت تتقدم الثورة بقوة اكبر ٠

□ ما هو سرهـــا ؟

● كما قلت قبل قليل : شعبنا احسن من قيادته ٠ قدرة هـذا الشعب على العطاء ، وعلى تجاوز الاخطار ، وعلى مواجهة التحديات هو ســـر الثورة ٠ خذ كامب ديفيد مثالا ٠ كنت قلقا من كامب ديفيد وتأثيراته على اهلنا في الارض المحتلة ٠ ولكن المفاجأة كانت اكبر مـن التوقـــع ، واذ بالقنبلة الزمنية الفلسطينية هي اهلنا في الارض المحتلة ٠ خذ مثالا آخر : اهلنا في فلسطين المحتلة ١٩٤٨ ، كل حسابات الكمبيوتر تقول انهم قـد لانوا امام شراسة المعاملة الاسرائيلية والاساليب الشيطانية في تطويقهـم واحكام الحصار حولهم ، واذ بهم اكثر مجموعاتنا الفلسطينية التصاقـا بالارض وقدرة على التحدي والاستهزاء بالعدو ٠

☐ هل تتوقع مزيدا من المعارك الجانبية بعد اتفاقيات كامب ديفيد ؟

● ما زلت اقول ان المعارك الجانبية لا تتوقف ، لان المعركة ليست معركة خاصة بالشعب الفلسطيني · الثورة الفلسطينية هي « كلمة سر » الامة ، هي نقطة التغيير ، واشارة المنعطف التاريخي · ولذلك لن تتوقف قوى الامبريالية والصهيونية المتضررة بهذا التغيير عن محاولة القضاء علينا · واذا لم تنجح في تحقيق هذا الهدف ، فمن مصلحتها على الاقل ان تؤخر مسيرتنا باشغالنا بحروب جانبية · ان الحروب والمعارك الجانبية قد اثرت كثيرا على مسيرة الثورة ، على الرغم من انها زادتها صقلا وتجارب وساهمت في احتكام الاطراف الى مصداقية التجربة ، واوضحت حدود التحالف ، واسقطت اقنعة · كان لا بد ان يحدث ذلك ، لان الثورة الفلسطينية ليست ثورة فلسطينية فقط ، وانما هي فلسطينية الوجه ، عربية العمق والقلب ، عالمية الابعاد ·

☐ كيف نحدد هذا البعد العالمي في تقاطعه العربي ؟

● الثورة الفلسطينية اليوم برؤياها الاستراتيجية الصحيحة استطاعت ان تحتل مواقعها في العالم باعتبارها ثورة تحرر عربية ، وباعتبار هذه الحركة جزءا لا يتجزأ من الحركة الثورية في العالم · وهو مصدر فخر وقوة لنا ان نلعب هذا الدور · وفي هذا الزمن الذي تتحمل فيه الثورة الفلسطينية مسؤولية طليعية وقياديه في المنطقة العربية ، في التغيير الذي يغير في العالم ، تتكامل لها كل الابعاد ·

☐ فتح هي العمود الفقري للثورة الفلسطينية التي تحتل هذا الموقع في حركة الثورة في العالم · كيف يحدد الاخ ابو عمار ، على المستوى النظري وعلى المستوى العملي ، طبيعة فتح الثورية ؟

● طبيعة اصدقائنا وحلفائنا وطبيعة اعدائنا هي التي تحدد تقدميتنا· وعملية تغيير الواقع التي تقوم بها الثورة في مواجهتها الامبريالية الاميركية والصهيونية تحدد على المستوى العملي هذه الطبيعة ·

☐ هل هذه التحالفات ثابتة ؟

● اكثر شيء ثابت في هذه المنطقة العربية هو تحالفات الثورة الفلسطينية ·

□ اخ ابو عمار ! انك تسير الى فلسطين ، فهل تسير في خط مستقيم ؟

● هل مشيت في حقل الغام ؟

□ لا ٠

● انا مشيت ٠ المشي في حقل الالغام لا يكون مستقيما ، والا انفجرت الالغـــام ٠

□ اخ ابو عمار ! باي معيار تحاكم السياسة العربية ؟

● بالموقف من فلسطين ٠ وليس هذا الكلام شوفينيا ٠ في لحظة مــن اللحظات كان الموقف من السيد المسيح هو الموقف من الثورة الحقيقية في العالم ٠ وفي لحظة من اللحظات كان الموقف من محمد (صلعم) معيار الموقف الصادق ٠ وفي لحظة من اللحظـــات كان الموقف من التفكيـــر الاشتراكي هو معيار التقدم ٠ لنتذكر فيتنام ، كان الوقوف معها يشكـــل الموقف الثوري العالمي وفي وقت كان الموقف من الثورة الجزائرية هو المعيار في امتنا العربية ٠ والموقف من الثورة الفلسطينية اليوم هو امتحـــــان لصداقية اي موقف ثوري ، واي موقف انساني ٠

□ بعد كامب ديفيد ، وبعد اخراج مصر من المعركة ، طرحت قمة دمشق مسالـة الخيارات الاستراتيجية ٠ وفي قمة بغداد ، التي عقدت تحت شعار الحـد الادنى ، توجت العلاقة الجديدة بين سوريا والعراق ، وبين منظمة التحريـــر الفلسطينيـــة والعراق والاردن ٠ كيف تقيمون هذا المؤتمر ، والى ايـــن وصلت الخيـــارات الاستراتيجيـة ؟

● في مؤتمر الصمود والتصدي في دمشق قلنا ان هنالك خيـــــارات واضحة أمام امتنا العربية ٠ وقلنا ان الخلل الاستراتيجي الذي حدث في المنطقة نتيجة خروج مصر من المعركة لا بد ان يعوض بقوة العرب مـــــن جهة ، وبالقوة الحليفة من جهة اخرى ٠ القوة الحليفـــة ليست اميركـا بالطبع ٠ القوة الحليفة هي اصدقاؤنا الاشتراكيون وفي مقدمتهم الاتحاد السوفياتي ٠ وفي مؤتمر بغداد لم يتغير هذا الفهم ، بضرورة حشد اكبـــر قدر من امكانيات العرب الذاتية وحلفائهم الاستراتيجيين ٠

في بغداد حدث النجاح الذي لم يكن يتوقعه الكثيرون ، فقبل المؤتمر كان اللقاء السوري ـ العراقي الذي قدم تعويضا كبيرا عن الخلل الاستراتيجي

بدخول الجيش العراقي طرفا مباشرا في الصراع يدعم سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية ٠

كل ذلك يقدم تعويضا ، بنسبة كبيرة ، للامكانيات العربية ، ولكن لا نستطيع الغاء التعويض الاخر الذي يجب ان يتم من خلال حلفائنا العالميين ٠ ما هي نسبة حاجتنا اليهم ؟ ذلك ما تقرره الايام القادمة ٠ لا شك ان هنالك كثيرين في المنطقة العربية ضد هذه العلاقة ، وخاصة الدول التي لا علاقات بينها وبين الاتحاد السوفياتي ٠

☐ **اذن ، ماذا تبقى من الخيارات ، واية صيغة حل تتحرك السياسة العربية في اتجاهها ، هل هي شيء من جنيف ، ام هي شيء من اللاسلم واللاحرب ؟**

● اولا يجب ان نعرف ان كامب ديفيد قضى على جنيف ، واعطى القرار ٢٤٢ صيغة جديدة متغيرة الى الاسوأ ٠ كان كامب ديفيد عبارة عن شروط وضعها بيغن ، وجملها كارتر ، ووقع عليها السادات ٠ الكل يعرف مساوىء كامب ديفيد من اضفاء الشرعية على الاحتلال الاسرائيلي، الى تهويد القدس ، الى اعادة سيناء منقوصة السيادة ، الى التدخل في السيادة المصرية داخل القاهرة ٠ فالحوار الدائر الان هو حول موقف مصر ، بعد التوقيع على معاهدة الصلح حول المادة (٦) واهمها التزاماتها العسكرية في الجامعة العربية ، وفي معاهدة الدفاع العربي المشترك ، بينما رئيس اركان مصر هو رئيس اركان الجامعة العربية ٠ اي ان الخيار المعروض على النظام المصري الان ، وكشرط للتوقيع على المعاهدة مع اسرائيل ، هو ان يختار بين اسرائيل وبين الامة العربية ٠

معنى ذلك ان اتفاقية كامب ديفيد تمس السيادة المصرية على القاهرة ذاتها ٠ واقرب مثال على ذلك انه عندما صوتت مصر في اليونيسكو ، وقبل ان توقع في بلير هاوس ، ضد تهويد القدس ، وعندما صوتت في الامم المتحدة مع فلسطين ، احتجت اسرائيل ٠

هذه هي حقيقة التسوية التي اوضحتها اتفاقيات كامب ديفيد ، فهل هناك تسوية اخرى مطروحة على الاطراف الاخرى لكي يصبح الخيار الاستراتيجي اقل الحاحا ؟

لا شيء اخر مطروح حتى الان ٠ لا شيء خارج هذا الاطار الذي حددوه للتسوية ٠ وحين فعلوا ذلك قالوا بوضوح ان لا شيء خارج الاطار ، لا شيء خارج الصلح بشروط المنتصر (وهو لم ينتصر) على المهزوم (وهو ليس بمهزوم) ٠

ونحن لم تنتصر علينا اسرائيل لكي نقبل هذا الصلح المهزوم · وانـــا دائم القول انه لم يسجل على الثورة الفلسطينية انهـــا هزمت امـــام الاسرائيليين · في حرب الجنوب · وفي الكرامة · والعرقوب الاولـــى والثانية والثالثة ، ومارون الرأس ، والخيام وجنوب البحر الميت ، في طول ارضنا المحتلة وعرضها لم نهزم في معركة عسكرية مع اسرائيل ، فلماذا اقبل بشروطها وبشروط الاميركيين ؟

ان الخيار الوحيد امام الامة العربية هو ان تعد نفسها للمواجهـــة الواضحة · ولن تستطيع المواجهة الا بالشروط التي وضعها مؤتمـــر الصمود والتصدي في دمشق : ملء الخلل الاستراتيجي وبناء القـــوة العربية من خلال التعاون والتنسيق مع الحلفاء الاشتراكيين ·

على مستوى الثورة الفلسطينية : لم نوقف ، ولا نوقف ، ولن نوقـــف القتال · منذ ١٤ سنة والقتال مستمر · ان معدل عملياتنا العسكرية حوالي عمليتين في اليوم ، وهذا العمل على المستوى العسكري ليس هينا · وهي تشغل ١١١ الف جندي وشرطي ورجل امـــن وحرس وطنـــي حسب احصائياتهم · ولكن يجب ان نضع في اعتباراتنا ان مناورات اعدائنـــا كثيرة ، وهم الان يتفننون في المناورة تلو المناورة من الترهيب الى الترغيب وعلى كافة المستويات ·

□ لنعد الى « فتح » ، هل لنا ان نسالك كيف تطورت واستطاعت ان تشكـــل مكانتها القيادية في الثورة · وما هي ؟ حركة ، ام جبهة ، ام نواة حزب ؟

● فلسطينية « فتح » هي تكريس لعروبتها وقوميتها · وكما قلت فـــي بداية حديثي ان العمل الفلسطيني هو عملية تخصص في اطار النضال في داخل الامة العربية · ولقد تميزت فتح في رؤيتها لمستقبل الصراع ، وفي قدرتها على التعامل مع الواقع الملموس بعقلية جديدة واعية ، وعلى الرغم من كل ما يواجهها من مخاطر · نحن قلنا بضرورة التخصص في العمـــل النضالي على الساحة الفلسطينية من اجل فلسطين · كان ذلك بمثابـــة جريمة كبرى في الماضي · ولكن التجربة والاحداث اثبتت صدق هـــذه الرؤية في هذا المجال · وقلنا انها غير خاضعة ولا تابعـــة ولا موجهة الا لارادة الشعب الفلسطيني · كان ذلك يعتبر اقليمية في لحظة من اللحظات، خاصة في زمن المد الجماهيري العربي ، ولكن حين يعلن عبد الناصر ـ كما ذكرت ـ عن عدم وجود خطة لتحرير فلسطين ، فانه يضيف سببـــا جديدا لضرورة القيام بعمل وطني هدفه الاول العمل الفلسطيني · بعد ذلك اقترحنا اسلوبا جديدا للنضال وكان فهمنا كالاتي : من البندقية ومـــن فوهة البندقية ترسم الخارطة السياسية الجديدة في المنطقة العربية · ثبت

ان ذلك صحيح ، فما من شعار رفعته فتح الا واصبح شعار الامة العربية٠ « الكفاح المسلح » اصبح شعارا في الامة العربية ٠ الثورة الجماهيرية . او ثورة الجماهير اصبحت شعارا للامة العربية ٠٠٠

ونحن نفهم ان فلسطين طريق الوحدة ، وليست الوحدة طريق فلسطين٠

ونحن نفهم ان الصراع مع اسرائيل انما هو صراع بين امتنا العربية وبين العدو الصهيوني الذي هو جزء لا يتجزأ من الامبريالية العالميـــة ، ونفهم اهدافه التوسعية ، ونحن نفهم ان الذي يريد ان يقارع الامبرياليـة العالمية يجب ان يقارعها في فلسطين اولا في هذه المرحلة ، وفي هــــذه المنطقـــــة ٠

ونحن نفهم انه لا تنمية جذرية في المنطقة العربية ما دام التحــــدي الصهيوني قائما ٠

وعلى صعيد الفكر الفلسطيني طرحنا فكرة الدولة الديمقراطية ، وهي اول مشروع حل حضاري يقدم ، وبرؤيا انسانية ، لحل المشكلة ٠ واول طرح عربي لها ٠

بعد ذلك قلنا السلطة الوطنية والدولة الفلسطينية على اي جزء محرر من التراب الفلسطيني ٠

وهكذا استطاعت الحركة ان تجسد آمال شعب ، وان تؤطر هذه الامال ضمن مفاهيم ثورية ، ومؤسسات نضالية على مختلف الاصعدة ، مــن النشاط الاقتصادي الذي تقوم به « صامد » الى العمل الانساني الــذي تقدمه جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني ، الى العمل الدبلوماسي في هيئـة الامم المتحدة ، الى النشاط العسكري الذي كانت قمته الحرب الخامسة في الجنوب اللبناني ، التي واجهت فيها الثورة الفلسطينية ، مع حلفائهـــا اللبنانيين ، حوالي ثلث الجيش الاسرائيلي ، الى العمل السياسي داخـل الساحة العربية ٠ وللثورة دورها البارز في حل المشكلات العربية الداخلية وفي التوسط ، مثل دورها في حل المشكلات ما بين مصر وليبيا ، بيـــن العراق والكويت ، بين اليمنين ، وبين السعودية وابو ظبي والامارات ٠ وفي العمل النضالي على الساحة الدولية ٠

☐ عن التركيب والبناء الداخليين لفتح ٠

● الخطأ الذي يرتكبه بعض الناس هو انهم يحاسبون « فتح » بالمقاييس الحزبية ، وهذا ظلم ٠ حتى التنظيمات الاخرى ، التي اكن لها الاحترام ، لها اهتماماتها ، ويأتي اهتمامها بالحرب بعد فتح ، التي تحمــل العبء

الاساسي في الحرب · ان ثورة تحارب وتخوض مثل هذه الحرب لا بد ان تنعكس الاثار العسكرية على مظاهرها التنظيمية · نحن لم نتوقف عن القتال ، وهذا مفخرة لنا ، معنى ذلك ان الاولوية عندنا للقتال وللعمل العسكري · وهذا يأخذ من رصيد اي عمل اخر · اعترف بان هنالك مشكلة تنظيمية ، ولكن ضغط المعارك يؤثر على المشكلة التنظيمية ، والا فسيكون حلها على حساب العمل العسكري · بينما الاحزاب تستطيع حل مشكلاتها التنظيمية بسهولة ·

ويجب ان تعرفوا ان فتح حركة تقدمية ، وليست جبهة او حزبا · انها حركة التحرير الوطني الفلسطيني وتمثل شمولية الشعب الفلسطيني بكل مشكلاته · ان فتح رقم لا يقبل القسمة ولا الجمع ولا الطرح · انما يقبل التفاضل والتكامل ·

□ هل ترون ان الظروف الان اكثر ملاءمة للوحدة الوطنية ؟ وباي معيار تحاكمون مختلف المنظمات الفلسطينية ؟

● بمدى ارتباطها بمصلحة الشعب الفلسطيني ، والتزامها باهداف نضاله · نحن نسعى الى ان نشكل جبهة قاعدتها البرامج المرحلية التي نتفق عليها داخل منظمة التحرير · ولذلك نحن ندعو الى الوحدة وليس الى التوحيد · ومن هنا اهمية ما استطاعت فتح ان تعمقه بمفاهيمها في الساحة الفلسطينية · ولا شك ان المصالحات العربية تساعد الان على الوحدة ، لانها تخفف المشكلات داخل الساحة الفلسطينية ·

[اجرى الحديث : محمود درويش ·
بالاشتراك مع : أحمد عبد الرحمن ·]

معـن بشـور

حقـائق وحدويـة في الثورة الفلسطينيـة

بعد مرور ١٤ عاما على ولادة الثورة الفلسطينية المعاصرة ، يمكننا ان نقول انه اذا كان صمود هذه الثورة واستمرارها ، رغم كل ما احيط بها من دسائس ومؤامرات ، هو دليل راسخ على القوة الموضوعية لوحدة النضال العربي ، فان نضال شعب فلسطين من خلال ثورته المسلحة كان قوة رئيسية من القوى التـي تشكل الحركة التاريخية للوحدة العربية ٠

ذلك ان هذه الثورة ، التي اضطرتها ظروف التشرد والتشتت ، ان تنطلق من خارج الارض المحتلة ، وان تبقي على وجودها المسلح الرئيسي في هذا القطـر العربي او ذاك ، ما كان ممكنا لها ان تستمر وتصمد كل هذه السنوات لو لـم تجد في الجماهير العربية وقواها القومية والوطنية سياجا منيعا ، لم تجده في العديد من الانظمة والحكومات العربية ٠

كما ان هذه الثورة التي ولدت في اجواء التراجع الوحدوي الذي شهدتـه مرحلة الستينات بعد انفصال ١٩٦١ ، والتي توجتها هزيمة الخامس من حزيران، لم يكن لها ان تحظى بهذا الالتفاف الجماهيري الكبير لو لم تجد فيهـا امتنـا العربية قوة قومية هامة فيها الكثير من ملامح الثأر لجريمة الانفصال من القوى التي صنعتها ونفذتها (الاستعمار ، الصهيونية والقوي المرتبطة بهما) ، بل فيها ايضا الكثير من ملامح الرد على هزيمة حزيران ذاتها ٠

ويوم جددت الثورة الفلسطينية انطلاقاتها في آب ١٩٦٧ ، ولم تكن قـد مرت اسابيع على الهزيمة ، لم تفعل ذلك استجابة لحاجات فلسطينية بحتـة ، لان الظروف الفلسطينية لم تكن بعد مهياة لتجديد انطلاقتها المسلحة ، بل كانت تفعل

ذلك بالدرجة الاولى استجابة لحاجة قومية وعربية ، حيث كاد جو الهزيمة واليأس يفتك بالمواطن العربي من المحيط الى الخليج ·

فمثلما كانت الرصاصة الاولى سنة ١٩٦٥ فيها الكثير من ملامح الرد على تراجع قومي اطلقه انفصال ١٩٦١ ، كانت كل القرارات الاساسية في حياة الثورة الفلسطينية باعثة لنهوض متواصل على الصعيد القومي ·

واذا كتب الكثير عن العلاقة بين فلسطين والوحدة العربية ، فان القليل القليل قد كتب عن العلاقة بين ثورة فلسطين المعاصرة وبين الحركة التاريخية للوحدة العربية ، واكتفى معظم المتعاملين مع هذه القضية بتبني احد شعارين ، اما (فلسطين طريق الوحدة) او (الوحدة طريق فلسطين) دون اي جهد حقيقي لبلورة هذه الشعارات فكريا واستراتيجيا وسياسيا ·

وحين انصب النضال العربي عموما ، وكفاح الشعب الفلسطيني خصوصا ، فى الاعوام التي تلت النكبة وسبقت الثورة ، على العمل اليومي باتجاه بناء الوحدة العربية كطريق وحيد للتحرير ، نجد ان هذا النضال الفلسطيني انصب في المرحلة اللاحقة على العمل المسلح ضد العدو الصهيوني باعتبار ان القتال ضد العدو هو الطريق الحقيقي باتجاه الوحدة · حتى ليبدو اليوم ، اكثر من اي وقت مضى ، انه من الضروري اعادة صياغة العلاقة بين النضال العربي والكفاح الفلسطيني على قاعدة جديدة وهامة ، يرتبط فيها نضال الوحدة بشكل عملي ويومي ملموس بمسألة التحرير ، كما يرتبط فيها الكفاح الفلسطيني من اجل التحرير على الدوام بآفاقه الوحدوية ·

ان الانطلاق نحو صياغة هذه العلاقة الجديدة ليس مهمة القوى الثورية الفلسطينية فقط ، وانما هو بشكل اساسي مهمة القوى الثورية والوطنية العربية، التي من واجبها ، بالدرجة الاولى ، ان تستوعب مجموعة من الحقائق والوقائع التاريخية والهامة المتصلة بالثورة الفلسطينية المعاصرة ، لتشكل على ضوئها نهجها الاساسي في صياغة العلاقة السليمة والصحية مع هذه الثورة ·

اولى هذه الحقائق هي ان الثورة الفلسطينية ، وان كانت في انطلاقتها الاولى فلسطينية التركيب والتركيز ، الا انها في مسيرتها الصاعدة كانت وحدوية التأثير وقومية التحريك ·

فحين تثبت دراسة التجارب الوحدوية في العالم ، ودراسة تاريخ الوحدة العربية القديم والحديث ، بأن اي وحدة قومية حقيقية لا تتحقق بشكل فعلي وناجز الا في جو المعركة الملتهبة مع الاعداء ، لان مثل هذه المعارك هي التي تستنهض طاقات الامم وتستنفر امكاناتها ، وتمكنها من تجاوز كل اسباب الانقسام الثانوية والعابرة ، تأتي ثورة فلسطين بتصديها المتواصل للعدو ، وابقاء الامة العربية في جو صراعها مع الصهاينة والامبرياليين ، لتشكل على الدوام دافعا وحدويا ،

ومحركا قوميا هاما في حركة النضال العربي المعاصر ٠

فكل عملية عسكرية ضد العدو الصهيوني ، سواء جرت من داخل الارض المحتلة او من خارجها ، هي عملية وحدوية بالضرورة ، ليس لانها توحد المشاعر العربية على امتداد الوطن الكبير فحسب ، وانما لانها ، بما تطلقه من تفاعلات وتحركه من تطورات ، انما تسهم في خلق اجواء التلاحم القومي والتقارب بين الاقطار على طريق التضافر والتماسك والوحدة ٠

وثاني هذه الحقائق ايضا ، ان الثورة الفلسطينية وهي في اجواء الدفاع عن ذاتها ، وعن حريتها ، وعن حقها في النضال ، انما تصطدم بالضرورة بكافة القوى والاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية التي تشكل عقبات موضوعية في وجه حركة الوحدة العربية ٠

فثورة فلسطين هي بالضرورة احراج مستمر ودائم للاقليميات العربية القائمة على مبدأ الانعزال والانكفاء عن اية ممارسة قومية تتعدى كيانها واقليمياتها ، فهي اولا تضع هذه الاقليميات على محك التماس المباشر مع العدو الصهيوني ، ومع اطماعه التوسعية وحقيقته العدوانية فتجد هذه الاقليميات نفسها امام طريقين لا ثالث لهما : اما طريق الاستسلام الكامل لارادة هذا العدو ، بما يعني ذلك من تفريط حتى بالسيادة الوطنية والاقليمية ذاتها ، واما طريق التصدي والمجابهة بما يقود اليه من توجه نحو توحيد الجهود والطاقات على الصعيد العربي ٠

كذلك ، فهذه الثورة تضع المنطلق الاقليمي ذاته تحت الاضواء ، فيضطر الى المجاهرة بحقيقته الاقليمية كي يتهرب من التزامه القومي بتبعات المجابهة مع العدو ، ويصبح من الصعب عليه الاستمرار في تضليله القومي الى ما لا نهاية ٠

بل ان هذه الثورة باستمرارها انما تضعف ، ثالثا ، الاقليمية الفلسطينية ذاتها بما تمثله من فئات وقوى ومصالح ، لان استمرار الثورة هو رهان على التفاف الجماهير العربية حولها وبالتالي رهان على قوة وحدة النضال العربي التي يتراجع امامها منطق الاقليميين الفلسطينيين الذين يبنون كل تحليلها على الخذلان العربي ، والتنكر العربي ، والتخلي العربي ٠

ان التجربة اللبنانية مثلا اثبتت كيف ان الثورة الفلسطينية تمكنت من ان تهزم اقليميتين على الاقل في آن معا ٠ اقليمية لبنانية متعصبة تمثلت بأعلى درجاتها في الحركة الطائفية الانعزالية التي وصل بها رفضها لتحمل اعباء الوجود الفلسطيني في لبنان الى درجة الارتماء في احضان العدو الصهيوني ٠ واقليمية فلسطينية ضيقة الافق وجدت ان كل منطقها ينهار تحت شلالات الدم اللبناني المتدفق لحماية ثورة فلسطين ٠

ففي لبنان ، وقبل تواجد الثورة الفلسطينية على ارضه ، نجحت الكيانية

اللبنانية ، كتكوين سياسي تقف وراءه الحركة الانعزالية الطائفية ، في تقديم نفسها الى اطراف متعددة ، بل متناقضة احيانا ، على انها الصيغة المثلى للمجتمع اللبناني ، وتمكنت هذه الانعزالية الطائفية ان تخفي جوهرها الفاشي المتعصب خلف مظاهر من الديمقراطية والتعايش جعلتها تنجح في تضليل قطاع واسع من القوى والانظمة والفئات داخل لبنان وخارجه ·

بل واستطاع نجاحها هذا ان يجعل لها بريقا في اكثر من كيان عربي ، ممن حاول ان يحذو حذو « الصيغة اللبنانية » هذه ، وان يبرر كيانيته او انفصاليته او اقليميته بالمبررات التي تمده بها هذه الصيغة اللبنانية ذاتها · فكان عصر ازدهار الكيانية اللبنانية الى حد كبير هو ذاته عصر انحسار الافكار الوحدوية العربية ، وبدا وكأن الوضع اللبناني الخاص والمتميز ، لم يعد وضعا خاصا ومتميزا ، بل ظهرت عدة محاولات لتعميمه ومد هذه « الخصوصية » الى خارج لبنان ايضا ·

حتى جاءت الثورة الفلسطينية الى ارض لبنان ، فتنبهت الانعزالية الطائفية منذ اللحظات الاولى للخطر الذي يحمله وجود هذه الثورة عليها ، وعلى ركائزها الفكرية والسياسية ، وبشكل خاص على عملية الخداع التاريخية التي نجحت بها طيلة العقود الماضية ·

فمع وجود هذه الثورة اصبح من الصعب جدا على هذه الحركة الطائفية الانعزالية ان تستمر في عملية خلط الخطوط والالوان ، وفي التداخل بين حدود الوطن وحدود الكيان ، وفي اخفاء الناب الطائفي الكاسر وراء قناع التعايش الكاذب ، والامتيازات البشعة وراء « الضمانات المشروعة » ، والوحشية الدموية وراء دعاوى الحضارة والمدنية ، والارتباط المفضوح بالعدو الصهيوني خلف الحديث عن (الوجه العربي) للبنان ·

واذا كان مصير هذه (الخدعة التاريخية) التي اسمها (الكيانية اللبنانية) هو الانكشاف آجلا ام عاجلا ، فلقد ساهمت الثورة الفلسطينية في معارك الدفاع عن نفسها ، ومن خلال التحامها بالجماهير اللبنانية ، في التعجيل بكشف هذه (الخدعة التاريخية) على اوسع نطاق ، بحيث اصبح اصحابها اليوم في عزلة شبه كاملة حتى عن اكثر القوى المحلية والعربية والدولية التي كانوا يعتمدون عليها ·

بل وعلى قاعدة هذا الانكشاف التاريخي ، اتضح الترابط العميق بين المصير اللبناني والمصير العربي ، وبين القضية اللبنانية والقضية العربية ، وبين الامن اللبناني والامن القومي العربي ، وبدا واضحا ان عروبة لبنان قد رسخت الى الابد ، وان مشاريع العزلة والانفصال فيه قد هزمت الى الابد ايضا ·

فاذا لم يكن هذا انجازا وحدويا ساهمت في صنعه ثورة فلسطين ، فماذا يكون اذن ؟! ٠

وثالثة هذه الحقائق : ان ثورة فلسطين ، كتعبير اصيل عن الحركة القومية العربية المعاصرة ، في نضالها ضد اعدائها الامبرياليين والصهاينة ، انما تسهم من خلال سعيها الحثيث لحشد اوسع الطاقات العربية والعالمية ، الى بلـــورة عملية للمضمون الحقيقي للقومية العربية من خلال اتصالها بالماضي عبر التراث، وبالمستقبل عبر حركة التقدم ٠

فبين ما يجري اليوم في ايران ، وما يجري في القرن الافريقي ، يمكننا ان نتلمس عبر موقــف الثـــورة الفلسطينية الملامـــح الاصيلـــة لعلاقة العروبـة بحركتين تاريخيتين في هذا العالم : الاسلام والماركسية ٠

واذا كان الفكر القومي التقدمي في الاربعينات والخمسينات ممثلا بحركتي البعث والناصرية قد رفض تلك المحاولة الخطرة لوضع العروبة في وجـــــه الاسلام ، او لوضعها في وجه الماركسية ايضا ، فان في الموقف الفلسطينـــي اليوم مما يحدث في ايران ، وفي القرن الافريقي ، تعبيرا ايجابيا عن تلك العلاقة الهامة التي تربط العروبة بالاسلام كتراث ، وبالماركسية كتتويج للفكر الانساني المعاصر ٠

فالموقف المبكر الذي اتخذته ثورة فلسطين من حركة النضال الايرانية بقيادة الامام الخميني ضد الشاه ، لا تنبع اهميته من كونه دعما لحركة معارضة تناضل ضد نظام متحالف مع العدو الصهيوني فحسب ، ولا حتى في كونه اضعافـــا لنظام ذي اطماع واضحة في الارض والثروة العربية ، ويشكل تهديدا مباشرا للحدود الشرقية للوطن العربي فحسب ، بل ان اهميته الكبرى انما تنبع مـــن كونه ترجمة عملية وملموسة للعلاقة الهامة بين العروبة والاسلام ٠ فالاســـلام بالنسبة للعروبة ، ليس كأي دين لاية قومية ، بل هو بالنسبة اليها الاعظم بيــن ثوراتها ، والاعمق بين حضاراتها ، والاكثر امانة لتراثها ، فمن حقه عليها ان تكون معه حيث يكون مناهضا للاستبداد ، داعية للعدل ، مناضلا في وجه كل اشكال الظلم والطغيان ٠

والعروبة بالنسبة للاسلام ليست كأية قومية لاي دين ، بل هي لغة الاسلام ومهد انطلاقته وهوية رسوله ودعاته الاوائل ٠ بها انتصر الاسلام على اعدائه ، ومعها صنع اعظم مساهماته الانسانية ٠ لذلك من حق العروبة عليه ان يكــون نصيرا لها على اعدائها ، معينا لها في معاركها ، عدوا للغاصبين في اراضيها ، وحربا على الطامعين في خيراتها ٠

واذا لم يكن هذا هو جوهر العلاقة بين ثورة فلسطين وانتفاضة ايران ، فماذا يكون اذن ؟ ٠

العروبة عبر ثورة فلسطين تناصر الاسلام الثائر على الظلم والطغيان في ايران · والاسلام عبر انتفاضة ايران يساند العروبة المكافحة من اجل الحرية في فلسطين ·

وفي القرن الافريقي تواجه العروبة تحديا من نوع اخر · انه التحدي الذي يريد ان يضع العروبة في وجه اصدقائها في العالم ، بل ان يضع التحرر في وجه التقدم ، والقومية في وجه الماركسية مرة أخرى ·

ففي الساحة الارترية ، حيث تقاتل الجماهير من اجل استقلالها الوطني وحقها في تقرير المصير منذ اكثر من ١٧ عاما ، وحيث اسهم قتالها هذا في اسقاط النظام الامبراطوري المتحجر في اثيوبيا ، تطورت الظروف والاحداث بشكل متسارع ادى الى وصول نظام اثيوبي يحظى بدعم وتأييد المعسكر الاشتراكي الصديق للعرب وفي مقدمته دعم وتأييد الاتحاد السوفياتي وكوبا ·

وفي الموقف من صراع من هذا النوع بين حق قومي ووطني يجب صونه والدفاع عنه تحت اي ظرف من الظروف ، وبين قوى صديقة وحليفة ينبغي تطوير علاقة الامة العربية بها الى درجة كبيرة ، تقف الحركة القومية العربية امام امتحان صعب ودقيق ·

ومثلما نجحت ثورة فلسطين في التعبير عن العلاقة الخاصة بين العروبة والاسلام في موقفها من انتفاضة ايران ، تنجح اليوم في التعبير ايضا عن تلك العلاقة الخاصة بين العرب واصدقائهم في العالم في موقفها من احداث القرن الافريقي حين بنت هذا الموقف على قاعدتين اساسيتين ومتكاملتين في آن معا :

الاولى : دعم الشعب الارتري في نضاله من اجل حقه في تقرير المصير ·

الثانية : بذل كل الوسائل من اجل الوصول الى حل سلمي وديمقراطي لهذا النـزاع ·

فالقاعدة الاولى تعبير عن التزام قومي واضح ··· والقاعدة الثانية تعبير عن حرص اكيد على تجنب الصراع المسلح مع قوى التقدم في العالم واخضاع اي تناقض او تعارض معها لمبدأ الحوار السلمي والحل الديمقراطي ·

ان ترابط قاعدتي الحل هذا يشكل بدون شك التعبير الواضح عن موقف الحركة القومية العربية بمضمونها التقدمي والانساني · لم يكن ممكنا لثورة فلسطين ان تصل الى هذا الموقف لو لم تكن في حقيقتها وجوهرها حركة قومية تقدمية ، ووحدوية عربية اصيلة ·

ورابعة هذه الحقائق : ان حرص الثورة الفلسطينية على استقلالية قرارها السياسي ليس موقفا اقليميا او كيانيا ، وان كانت قوى متعددة تحاول تصويره

على هذا النحو ، بل هو الاخر تعبير عن تلاقي تجربتين هامتين معا : تجربة النضال الفلسطيني منذ مطلع هذا القرن مع الانظمة العربية ، وتجربة النضال العربي عموما مع الحكام العرب ايضا ٠

فحرص الثورة على استقلالية قرارها السياسي ، هو بالدرجة الاولى ، حرص على حريتها في متابعة النضال تحت كل الظروف ، وفي مختلف الاوضاع ٠ ذلك ان التنازل عن استقلالية هذا القرار لقوى رسمية عربية او دولية انما يجعل النضال الفلسطيني باسره تحت رحمة هذه القوى التي تجد نفسها مدفوعة اما بعامل التواطؤ او بعامل الخوف او مراعاة لموازين القوى السائدة ، الى تجميد النضال الفلسطيني او انهائه ٠

وبهذا المعنى ، يمكننا ان نقول انه اذا كان استمرار النضال الفلسطيني المسلح ضد العدو الصهيوني دافعا مهما باتجاه وحدة النضال العربي ، ومحركا رئيسيا على المستوى القومي ، فان الحرص على استقلالية القرار الفلسطيني يصبح حرصا على استمرارية النضال وبالتالي على استمرارية الدافع باتجاه وحدة النضال العربي ٠

كذلك فان حرص الثورة الفلسطينية على استقلالية قرارها السياسي هو حرص على الحفاظ على موقع خاص لشعب فلسطين وحقوقه في كافة المداولات السياسية الدائرة حول ما يسمى (بأزمة الشرق الاوسط) ٠

وقد بدا واضحا ، خلال السنوات الخمس التي تلت حرب تشرين ، ان هذا الحرص الفلسطيني على الموقع المستقل الخاص ، والتمثيل المستقل الخاص ، والكيان المستقل الخاص ، قد كان احد ابرز اسباب الارتباك الذي واجهته مخططات التسوية الامبريالية في المنطقة ٠ وان كافة الجهود الامبريالية والصهيونية كانت تتركز حول التنازل الفلسطيني عن هذا الموقع المستقل ، والتمثيل المستقل ، والكيان المستقل ، لمصلحة جهة عربية اخرى من اجل تسهيل الوصول الى تسوية بالشروط الاميركية او الاسرائيلية ٠

فعلى الرغم من « وحدوية » المشروع الذي يحمل اسم (المملكة العربية المتحدة) فانه كان اكثر انسجاما مع مخططات التسوية من مشروع استقلالية القرار الفلسطيني ، وبالتالي فان الاستقلالية هنا ، وبهذا المعنى ، وفي هذا الظرف بالذات ، هي برنامج عملي مناهض للمشاريع الامبريالية والصهيونية المطروحة ٠

وبقدر ما يشكل ارباك التسويات المطروحة فرصة لاستمرار النضال العربي على طريق الوحدة والتحرر ، تشكل استقلالية القرار الفلسطيني ، كعامل ارباك لهذه التسويات الحريصة على الغاء الوجود المستقل للشعب الفلسطيني ، عاملا هاما على طريق توفير الظروف لوحدة النضال العربي ٠

وليس ضروريا التأكيد في هذا المجال بأن الاستقلالية بهذا المعنى هي شعار مرحلي يحمل في مضمونه شيئا من الاعتراض على مجمل الاوضاع العربية الراهنة ، وشيئا من الاشتراط من اجل توفير ضمانات جدية على الصعيد العربي في المستقبل ، وان هذه الاستقلالية ليست شيئا ازليا وسرمديا ، وانما سرعان ما تجد طريقها الى الاندماج في اي توجه وحدوي جدي باتجاه فلسطين ومع الفلسطينيين انفسهم ٠

ذلك انه ، كما لا وحدة بدون وحدويين ، ولا اشتراكية بدون اشتراكيين ، فلا فلسطين بدون فلسطينيين ايضا ٠

فاستقلالية القرار الفلسطيني بهذا المعنى هي اصرار على عدم تكرار التجارب السابقة التي تمت فيها مصادرة حق الفلسطينيين بالنضال باسم الوحدة ، وتم فيها مصادرة حقهم في توحيد شتاتهم وبعث شخصيتهم الوطنية باسم المصلحة القومية العليا ٠

ان اية صياغة جديدة لعلاقة متطورة بين النضال العربي والكفاح الفلسطيني، وبين الوحدة العربية وثورة فلسطين ، تتجاهل هذه الحقائق ، تقع في الاخطاء ذاتها التي وقعت فيها التجارب السابقة ٠

ان موقفا خاصا لفلسطين ، شعبا وثورة ومنظمة تحرير ، في اي عمل عربي وحدوي ، هو الترجمة الحقيقية للدور الخاص الذي لعبه النضال الفلسطيني في خلق اجواء نضال الوحدة ، ووحدة النضال ٠

حازم صاغية

عناوين حول لبنان وفلسطين من ضمن منظور التحرر القومي

اذا كان حل المسألة الفلسطينية هو العمود الفقري في قضية التحرر القومي في هذه المنطقة التي تشمل سوريا الطبيعية ومصر على الاقل ، ففي حالة لبنان بالتحديد ، ثمة تعادل بين المسألتين اللبنانية والفلسطينية ٠

فهنا لا ينوجد اي حيز جدي لاستقلالية يتمتع بها التناقض مع « الطبقة الحاكمة » عن التناقض مع اسرائيل ٠

ولئن كان لبنان يعيش مرحلة البحث عن التعريف القومي ، والصراع الدموي على الطريق الى « الذات » القومية ، فالاشتباك مع اسرائيل هو الذي يحكم سيرورة الوضع اللبناني ، وهو الذي يحدد الكثير من التفاصيل والتناقضات الثانوية ذات الطبيعة الاجتماعية في لبنان ٠

ان البحث عن الهوية جعل فلسطينية اللبناني شرطا لعروبته ، وهذا ما لا يتوافر بالنسبة نفسها في اي من الاقطار العربية ، اذا استثنينا الاردن ٠

والعلاقة تطال هنا عديدا من المسائل : فتركيب حالة من العزلة تفترض لاستقرارها امدا طويلا من التوازن بين العرب واسرائيل ، هو بالضرورة وموضوعيا تركيب مرتهن بموقع اسرائيل ، واستطرادا ، فاي صعود تحرري عربي منقاد بالضرورة لتحدي هذا التوازن الذي يعادل حالة العزلة ٠

الامر الاخر ان توازنا طائفيا مؤسسا على العزلة عن العرب ، لا يمكن أن ينهار لصالح النضال العربي بعيدا عن الصراع ضد اسرائيل ، اذ ان الصهيونية هي الانعزالية الكبرى والانعزالية الام التي تجدد قوة الانعزاليات الاخرى بقوة السلاح والمال والايديولوجيا ٠

وبهذا المعنى يمكن ان يقال ان الصراع ضد المارونية السياسية في لبنـــان (وضد كل انعزالية اخرى) هو صراع غير قابل للحسم وطنيا وقوميا وتقدميـا الا بوصفه جزءا من صراع جذري ضد اسرائيل يقود في نهاية الامر الى تحرير فلسطين ، وهذا ما تعرفه اسرائيل والانعزاليات جيدا ٠

وهنا تصبح الفلسطينية سمة الجذرية العربية وشارتها ، بل هنا يكمن فهـم الحقيقة التي تهمل غالبا ، ومفادها ان للجذرية العربية مقياسين متلازمين تلازم وجهي الصورة الواحدة : تحرير فلسطين وتحرير لبنان ٠

كذلك فهنا ، وعند هذا الملتقى ، يتبلور الحديث عن الوحدة العربية بوصفها تتويجا لنضال جذري تخوضه جماهير الامة العربية ضد معوقات التجزئـــة والقطريـــة ٠

على ضوء هذا التصور سنحاول فهم العلاقـــة بين النضالين اللبنانـــي والفلسطيني ، اذ كثيرا ما يساء فهم هذه العلاقة بوصفها دعوة لالحاق النضال اللبناني والجهد النضالي اللبناني بالنضـــال الفلسطيني والجهـــد النضـــالي الفلسطيني ٠

وحقيقة العلاقة غير ذلك ، اذ هي تدور اساسا حول الحاق النضالين اللبناني والفلسطيني بالنضال العربي القومي العام ٠

لكن ضمن هذه العمومية العربية ثمة خصوصيات قطرية تجعـــل الثـــورة الفلسطينية هي الاسبق الى الثورة العربية ، بل هي القائم مقامها بانتظارهـــا دون ان تكون بديلة عنها ودون ان تلغيها ٠

في هذه الحدود يمكن القول ان فعل الثورة الفلسطينية في لبنـــان والاردن يوازيه فعل الثورة العربية في الامة العربية كلها ، وان قيام المسالة الفلسطينية بدور العمود الفقري في قضية التحرر القومي لسوريا الطبيعية ومصر ، يوازيه قيام القضية العربية بدور العمود الفقري في قضية التحرر الوطني والقومـــي لشعوب آسيـا وافريقيا وخصوصا العالم الاسلامي ٠

لكن اذا قبلنا الفرضية التي تقول ان افق تحرير فلسطين قومي بالضرورة ، وان القوى القادرة على التحرير هي قوى عربية تبعا لطبيعة المعركة وطبيعـــة الخصم وطبيعة المستفيدين من تحرير فلسطين ٠٠ اذا قبلنا هذه الفرضية بـات التساؤل عن جدل القومي والقطري في الثورة الفلسطينية تساؤلا متصلا فـــي الآن نفسه بالعمل القطري الوطني والعمل القومي المركب ، وهذا يطال الساحة اللبنانية بالتأكيد ٠

فلئن ولدت الثورة الفلسطينية في عام ١٩٦٥ ، فانها لم تنم وتصبح احـــد العوامل الفاعلة في الحياة السياسية العربية حتى هزيمة حزيران ١٩٦٧ ٠

وبمعنى آخر : جاء تنامي العمل الوطني القطري في وقت كان معه العمـــل الوطني القومي يتعرض لهزيمة مـرة ٠

بالطبع هذا الكلام ابعد ما يكون عن تجميل كارثة حزيران كونها اسهمت في الانطلاقة النوعية للمقاومة ٠٠ وهو أبعد ما يكون ، ايضا ، عن اطلاق حكـــم السقوط ، اكان « تاريخيا » او غير تاريخي ، على العمل الوطني القومي وقواه٠

فالذين ارادوا في الامس ان « يسرحوا » الجيوش « ويعدموا » عبد الناصر باسم المقاومة ، قد يلجأون اليوم الى « اعدام » المقاومة ، اما لانها ليست الثورة القومية العربية المرجوة ، واما لانها لم تصل الى المستوى الفيتنامي !

والذين « اسقطوا » قيادة البورجوازية الصغيرة ورهنوا عقولهم بقـــيادة « الطبقة العاملة » لا بد انهم فجعوا بان المقاومة ليست « عمالية » ولا يمكن ان تكـــون ٠

على اية حال ، فلئن كان العمل الوطني القطري قد نما في ظل تدهور العمل الوطني القومي ، فالاكيد ان الاول لا يمكن ان يستمر وينتصر ما لم يأت ذلـــك ضمن انطلاقة العمل الوطني القومي وانتعاشته ٠

وهنا تكمن جدلية العلاقة بكل حدودها وضوابطها ومحاذيرها ٠

فالقطرية الوطنية الفلسطينية تستطيع ان تلعب في هذا الحيز دورا كبيرا بل الدور الاكبر في انعاش العمل القومي ٠

فلماذا يحصر الكلام عن القطرية الفلسطينية تحديدا دون بـاقي القطريـــات الوطنية ؟

ثمة اسباب عديدة تدعو لتمييز هذه القطرية الوطنية عن غيرها من القطريات، واعتبارها القطرية الاكثر قدرة على نفي ذاتها والاندراج من جديد في العمـــل القومي الذي يستوعبهـا ويتجاوزها جدليا ٠

□ فتلك القطرية تعي ان مشكلتها لا يمكن حلها الا بجعل الجهد النضالـــي للامة العربية كلها ينخرط في الصراع ٠

□ وهي قطرية لا يمكن للامبريالية ان تصل معها الى اية تسوية والى اي حل نظرا لطبيعـة المسالة الفلسطينية وحماية الغرب لاسرائيل ٠

□ وهي قطرية تحمل السلاح مما جعلها منذ ١٩٦٧ تمثـل منـارة تحررية للشعب العربي في جميع اقطاره ، وجسرا يجدد الارتباط القومي بين هذه الاقطار عبر منحه شحنات ايديولوجية متواصلة ٠

وفي جدلية العلاقة نفسها تتمتع القطرية الفلسطينية بميزة قد تبدو ملتبســة

للوهلة الاولى على النضال القومي ، ومفادها انها قطرية يجتمع عليها الشعب الفلسطيني نظرا لقصر المسافة بين التوازنات الموروثة عن « المجتمع الفلسطيني» قبل ١٩٤٨ من دينية وعشيرية ، وبين الثورة الفلسطينية التي اجادت تمثيل تلك التوازنات حتى التطابق تقريبا (وهذا ما لا نجده في باقي القطريات الوطنية) •

هنا نجحت الثورة في تطويع البنيان القطري الداخلي تمهيدا لادخاله في مشروع قومي يطال المنطقة ، وحققت « الوحدة الوطنية » او الاجماع القطري على انجاز مهمة قومية •

لكن هنا أيضا كمنت مخاطر الصياغات القطرية واحتمالات نزوعها الى الثبات ، خصوصا وان ذلك يحدث في ظل تفتت عربي عام وانعدام اية مركزية في العمل القومي ، بل في ظل استشراء قطريات رجعية تحييها وتعيد انتاجها القوى والطبقات الحاكمة •

فالشعب الفلسطيني بتحقيقه قطريته الوطنية عرف اشباعا جعله التخثر القومي العام يبدو اشباعا كاملا •

وهنا يكمن جذر المعضلة المطروحة موضوعيا على الثورة الفلسطينية : فالتحطم العام الذي ولدت في خلاله القى عليها مهام ، بل جعلها بديلا مؤقتا عن حركة الثورة العربية ، ومثل هذه المهام البدلية اكبر من اية حركة قطرية وطنية على حدة •

وبهذا المعنى يمكن القول ان الثورة الفلسطينية والشعب الفلسطيني هما خميرة الثورة العربية ، واذا جاز الاستطراد ، فأي تقدم على المستوى النضالي القومي اما ان يوسم بالشارة الفلسطينية واما ان ينحرف عن قصده القومي •

لكن الخروج من المعضلة ليس على الارجح بالامر اليسير ، اذ كل استمرار للواقع العربي الراهن والرجعي هو استمرار بالضروة للقطرية الوطنية الفلسطينية ، والواقع العربي الراهن لا يحمل اية تباشير واعدة •

وكل استمرار للقطرية الوطنية الفلسطينية هو بالضرورة انهاك للثورة الفلسطينية وتحميلها اكثر مما يمكن ان تحمل موضوعيا •

لا شك ان التصورين المتعارضين يستحيلان على ضوء هذا التصور المقدم الى موضوع للنقد ، والتصوران المعنيان هما :

☐ تأجيل الثورة الفلسطينية بانتظار الثورة العربية •• وهو تأجيل بالاضافة الى استحالته بجعل الثورة العربية مستحيلة هي ايضا ، اذ مثل هذا المشروع هو نتاج تراكمي في نهاية الامر •

□ بدلية الثورة الفلسطينية الكاملة والدائمة عن الثورة العربية واعتبارهـا اكثر من خميرة للثورة العربية ·· وهو تصور مجحف بحق الثورتين معا : منهك للثورة الفلسطينية ومعدم للثورة العربيـة ·

على ضوء هذه الصورة يمكن اعتبار الاندراج في الثورة الفلسطينية اندراجا مؤجلا في الثورة العربية وليس الحاقا للجهد النضالي اللبناني بالجهد النضالي الفلسطيني ·

وهذا يوفر الافق الوحيد المتاح امام النضال القومي في لبنان ، اذ علـى قاعدة مجتمعة ركبت على التوازن بل التوازنات «ما قبل الرأسماليـة » يصعب الحسم والاختراق الى « القومي » ·

والفلسطينية في هذه الحال لا تقدم للبنانين طريقا الى العروبة فحسب ، بـل تعطيها ايضا الجذرية المطلوبة في الصراع ضد الامبريالية والانعزالية اللبنانية، اذ تورثها تلك الاستحالة الموضوعية للسلام الفلسطيني مع الامبريالية ، وهذا ما يندر خارج المساحة الفلسطينية وفوهة بندقيتها ·

في المقابل ·· اذا كان شرط الفعالية اللبنانية في نضال الامة العربية هـو ادخال التوازنات المحلية في حلقة المشروع القومي الثوري للمنطقة ، فالثـورة الفلسطينية ، بانتظار الثورة العربية ، هي المؤهلة لتشـكيل الاسـتقطاب الذي يبحث عنه مئات الالاف ممن تعارضوا مع الولاء اللبناني كما أرساه « لبنـان الكبير » ولبنان « الميثاق والصيغة » ·

فايز صايغ

السياسة الاميركية في عهد الرئيس كارتر تجاه الصراع العربي - الاسرائيلي

(١) مقدمة

هناك اليوم اربعة مذاهب تتنازع الانظمة العربية ، فيما يتعلق بسبل مواجهة عدونا الصهيوني واسترجاع الحقوق العربية المغتصبة ، كلها او بعضها ٠

فهناك المذهب الذي يقول بتحرير الارض العربية المحتلة كلها ، في فلسطين وخارجها ، وباسترجاعها ـ كما اخذت منا ـ بالقتال ، ولا يقبل بديلا عن عودة الشعب الفلسطيني الى فلسطين المحررة ليمارس فوق ترابها حقه في تقرير مصيره ٠

وهناك المذاهب الثلاثة الاخرى التي تؤمن بجدوى العمل السياسي لتحرير بعض الارض (اي الاراضي العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧) ولاستعادة بعض حقوق الشعب الفلسطيني ، وتسعى الى عقد تسوية سياسية على هذه الاسس ٠

اما في اطار **ثلاثي** (يضم امريكا والجانبين العربي والاسرائيلي) ٠

او في اطار **ثنائي** ، في مفاوضات عربية اسرائيلية مباشرة ودون وساطة ٠

ومن المعروف ـ وان لم يكن من المعترف به ـ ان المذهب الاخير ، وهو الذي بزغ الى الوجود في التاسع عشر من نوفمبر ١٩٧٧ وما لبث ان وصل الى نهاية طريقه المسدودة ، خلال ساعات ، ثم حاول اصحابه (في السادس والعشرين من نوفمبر ، اي خلال اسبوع واحد) توسيع اطار عملهم ليضم اطرافا اخرى ، قد تصبح فعلا منذ ذلك التاريخ في حكم المنتهي !

ومن المعروف كذلك ان المذهب الثاني (اي السعي الى تحقيق التسوية السياسية في اطار دولي) يجد نفسه الان معطلا ، وان المذهب الثالث (اي العمل

السياسي في الاطار الثلاثي : الامريكي ـ العربي ـ الاسرائيلي) هو الـــذي يحتكر اليوم ساحة العمل السياسي للتسوية ٠

ومهما كان موقف اي منا من هذه المذاهب ، فمن الواضح اننا جميعـا نتفق على ان للدور الذي تلعبه الولايات المتحدة الامريكية ـ خيرا كان ام شرا ، وفق وجهة نظر كل منا ـ اهمية خاصة ، وكدت اقول حاسمة ، في تقرير مصيـــر المساعي السياسية (ايا كان اطارها) للتسوية ، كما ان لذلك الدور الامريكـي خطورة في تقرير نتائج الكفاح من اجل التحرير ٠

ولهذا ، فاني اجد ان من المفارقات المذهلة في الساحة العربية اليـــوم ان حقيقة السياسة الامريكية تجاه صراعنا المصيري ، واهدافهـــا ، ومراميها ، محاطة بكثير من الغموض والابهام ، رغم اهمية الدور الامريكي في تقريـــر مستقبل ذلك الصراع ٠

بل انه ليبدو لي ، ان الذين يعلقون اكبر الامال على السياسة الامريكية ، هم الغارقون في اكبر الاوهام حولها ـ عندما يتحدثون عن « التحسن » في تلـــك السياسة وعن تحول امريكا المزعوم نحو الحياد حيال الصراع العربي الاسرائيلي بدلا من الانحياز الامريكي السابق نحو اسرائيل ٠

ولذلك ، فانه من الواجب القومي علينا ان نحدد بوضوح اين تقف امريكـــا اليوم ، في عهد الرئيس كارتر ، ازاء قضيتنا المصيرية : قضية الصراع العربي الاسرائيلي بصورة عامة ، وقضية فلسطين ، شعبا ووطنا ، بصورة خاصة ٠

ومن واجبنا ايضا ان نسال : هل تمثل سياسة الرئيس كارتر تحولا نحـــو الحياد فيما بيننا وبين اسرائيل ؟

ومن واجبنا ان نعرف ، بدقة وموضوعية ، ما هو تصور الحكومة الامريكية الحاليــة للتسوية السياسية في الشرق الاوسط بجميع عناصرها ٠

ومن واجبنا ، اخيرا ، ان نتساءل : الى اي حد هي مستعدة لان ترمي بثقلها من اجل نقل ذلك التصور الى حيز الواقع ٠

وفي سبيل الاجابة على هذه الاسئلة ، يحسن بنا في البدء ان نقارن الموقــف العام لادارة الرئيس كارتر تجاه قضيتنا المصيرية بمواقف الادارات الامريكيـــة الســـابقة ٠

(٢) مقارنة سياسة كارتر بسياسات اسلافه

لقد مرت السياسة الامريكية تجاه فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي في اربـــع مراحـــل :

(١) في المرحلة الاولى ـ التي امتدت من بدء تدخل الحكومة الامريكية مباشرة بالقضية الفلسطينية حتى عقد اتفاقيات الهدنة العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٩ ـ سخرت الحكومة الامريكية جميع طاقاتها للحصول على تاييد دولي لفكرة انشاء دولة يهودية في فلسطين (في قرار التقسيم) ، وللاعتراف بتلك الدولة عند قيامها ، ولادخالها في عضوية الامم المتحدة ، واخيرا لتنظيم وضع تلك الدولة في المنطقة عن طريق ربطها باتفاقات عسكرية وشبه سياسية (اتفاقيات الهدنة الاربع) مع جميع الدول العربية المجاورة لها ٠

تلك كانت مرحلة التجني الاصلي ـ « والخطيئة الاصلية » ـ التي اسفرت عن نقل الدولة اليهودية من حيز الامل الصهيوني الى حيز الواقع ، في فلسطين وعلى حساب الشعب الفلسطيني وحقوقه ومصالحه ٠

(٢) بعد هذا ، ابتدأت مرحلة جديدة ، امتدت من عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٦٧ كانت هذه مرحلة محاولة امريكا اقامة نوع من التوازن بين الدولة الدخيلة ودول المنطقة ، والمحافظة على الوضع الراهن الجديد الذي نشأ عن قيام اسرائيل ٠

وقد جسدت امريكا المبدأ العام الذي قامت عليه سياستها في تلك المرحلة في « البيان الثلاثي » الذي صدر في ٢٥ ايار ١٩٥٠ عن امريكا وبريطانيا وفرنسا والذي رمى الى تجميد الخطوط العسكرية التي توقف عندها القتال (خطوط الهدنة) وتحويلها الى حدود فعلية ٠ وقد تمثلت تلك السياسة في عزم امريكا على الحؤول دون قيام اي عدوان عسكري من قبل اي فريق عبر تلك الخطوط ، ودون حصول اي توسع اقليمي او تبديل في تلك الخطوط عن طريق العنف ٠

وتبعا لذلك ، فقد اشتركت امريكا في ادانة مجلس الامن التابع للامم المتحدة لجميع العمليات العسكرية التي قامت بها اسرائيل عبر خطوط الهدنة ، كما اشتركت ايضا في حمل اسرائيل على الانسحاب من سيناء ، وذلك بعد غزوها لمصر ، بالتواطؤ مع بريطانيا وفرنسا ، ووصول قواتها الى قناة السويس عام ١٩٥٦ ٠

وعلى الرغم من ان امريكا ظلت تتحدث ، طوال تلك الفترة ، عن رغبتها في الوصول الى تسوية دائمة للصراع العربي الاسرائيلي ، فانها لم تقم باي نشاط فعلي لتحقيق ذلك الغرض ٠ ولعلها كانت تدرك ان الوضع النفسي في الوطن العربي لم يكن ليشجعها ، في تلك الاونة ، على التطلع الجدي الى اقامة تسوية تعترف فيها الدول العربية باسرائيل ٠ لذلك ظل هدفها الاول في تلك المرحلة هو المحافظة على انجازات المرحلة السابقة (اي وجود اسرائيل ضمن خطوط الهدنة) والحؤول دون قيام اى تهديد عربي جدي للوجود الاسرائيلي ، ودون حصول اي توسع اقليمي من جانب اسرائيل ٠

هدف السياسة الامريكية في تلك المرحلة ، اذن ، كان يقتصر على المحافظة على الوضع الراهن الذي فرضته احداث ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ في المنطقة ، سواء الاحداث الدولية في الامم المتحدة او الاحداث العسكرية في فلسطين ٠

اما قضية فلسطين ـ وهي اصل الصراع العربي الاسرائيلي وسبب نشوئه وجوهره ـ فقد دأبت امريكا في تلك المرحلة على تناسيها ، او على تقليصها الى قضية لاجئين يصار الى اغاثتهم واعالتهم مؤقتا ريثما يتم ذوبانهم النهائي في جسم المجتمع العربي ٠ (وهذا يفسر اسباب الفتور ، ان لم نقل الجفاء ، الذي استقبلت به امريكا قيام منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ ، حتى حينما كانت نشاطات المنظمة مقتصرة على العمل السياسي والاعلامي) ٠

وعلى الرغم من ان سياسةالحكومة الامريكية في تلك المرحلة كانت تمثل « تحسنا » نسبيا ، بالمقارنة بسياستها في المرحلة السابقة ـ اذ انها رمت الى التوازن بين اسرائيل والدول العربية ، واثمرت عن تقييد نزعة التوسع الاقليمي المتأصلة في الحركة الصهيونية وفي اسرائيل ـ فان تلك المرحلة (الثانية) قد تميزت ايضا ، وفي الوقت عينه ، بظهور التناقضات الجذرية بين الاهداف الامريكية في الشرق الاوسط وتطلعات حركة التحرر الوطني التي بزغت في الوطن العربي في تلك الفترة عينها ٠

ففي حين كان انحياز امريكا نحو اسرائيل ، في المرحلة الاولى ، عاملا رئيسيا من عوامل فتورها نحو النضال العربي للتحرر من الاستعمار ، اصبح عداء امريكا لحركة التحرر الوطني في المرحلة الثانية ، ومقاومتها للنزعة نحو الوحدة القومية والتحرر الاقتصادي وعدم الانحياز ، عاملا مؤثرا في تحديد نوعية « الحياد » الامريكي تجاه الصراع العربي الاسرائيلي ٠ وقد تجلى هذا الاثر بصورة خاصة في اواخر الفترة التي نتحدث عنها الان ـ الى ان جاءت حرب ١٩٦٧ ، فرمت امريكا « بحيادها » عرض الحائط ، واحجمت عن تطبيق سياسة « البيان الثلاثي » التي كانت قد طبقتها بحزم قبل عشر سنوات ٠

وجدير بالذكر ان المسؤولين الامريكيين ـ من الرؤساء المتعاقبين ، ونواب الرئيس ، ووزراء الخارجية ، وسواهم ـ ظلوا يؤكدون في كل مناسبة ، من عام ١٩٥٠ وحتى عشية حرب حزيران ١٩٦٧ ، ان « البيان الثلاثي » هو ركن السياسة الامريكية في الشرق الاوسط ٠ بل انهم ظلوا يؤكدون ذلك حتى نشوب الحرب (كما فعل غولدبرغ في مجلس الامن بالامم المتحدة في ايار ١٩٦٧ ، والرئيس جونسون في خطاب رئيسي القاه في ٣ حزيران ١٩٦٧ ، ووزير الخارجية دين راسك في تصريح ادلى به صباح ٥ حزيران ١٩٦٧) ٠٠٠ ولكن ، منذ ذلك التاريخ لم يأت اي مسؤول امريكي على ذكر ذلك البيان في اي تصريح او بيان سياسي ٠

(٣) ابتدأت المرحلة الثالثة في حرب حزيران ١٩٦٧ واستمرت حتى مجيء كارتر الى الحكم في يناير ١٩٧٧ ٠

في تلك المرحلة ، تجاهلت امريكا مبادىء « البيان الثلاثي » وتنكرت لالتزامها ـ بموجب ذلك البيان ـ بمنع اعتداء اي فريق على اراضي الفريق الاخر عبر خطوط الهدنة ، ناهيك عن احتلاله لاراضي الفريق الاخر ، ولتعهدها بحمل المعتدي على الجلاء ٠ فلم يعد الانسحاب غير المشروط مطلبا امريكيا ٠ بل ان امريكا انتهجت ، بدلا عن ذلك كله ، سياسة جديدة تقوم على محاولة اجراء « مقايضة » بين الانسحاب الاسرائيلي من جهة ، وابتزاز الاعتراف باسرائيل من قبل الجانب العربي مقابل ذلك الانسحاب ، من الجهة الاخرى ٠ ولم تعد امريكا تتحدث عن التزامها بصيانة امن الفريقين معا ، او عن ضمانها لسلامتهما الاقليمية ، بل باتت تتحدث عن التزامها بصيانة امن اسرائيل وسلامتها ، ومضت تترجم ذلك الالتزام عمليا بتقديم المعونات العسكرية والمالية السخية الى اسرائيل ـ وذلك لاقناع العرب بانه لا أمل لهم في تحرير اراضيهم بالقتال ، وان املهم الوحيد في تحرير اراضيهم المحتلة حديثا انما يتحقق عن طريق التسوية السلمية على اساس المعادلة الامريكية : اي المقايضة بين الانسحاب والاعتراف ٠

فاذا كانت المرحلة الاولى قد تميزت بالتأييد المطلق للهدف الصهيوني باقامة دولة يهودية في فلسطين ، واذا كانت المرحلة الثانية قد تميزت بالسعي الامريكي للمحافظة على الوضع الراهن في المنطقة ولمنع اي فريق من تخطي او تعديل خطوط الهدنة بالعنف ، فان المرحلة الثالثة تميزت بالسعي نحو هدفين بديلين : اما المحافظة على الوضع الراهن الجديد ، الذي نتج عن حرب حزيران ١٩٦٧ (اي التوسع الاقليمي الاسرائيلي ، باحتلال سيناء وغزة والضفة الغربية والجولان) ، وضمان استمرار التفوق الاسرائيلي العسكري الذي يحول دون استرجاع العرب اراضيهم المحتلة حديثا بالقوة ، او استبدال هذا الوضع بوضع جديد ، عن طريق تسوية شاملة تقوم على مبدأ المقايضة بين الانسحاب والاعتراف ٠

واذا كانت الوثيقة الدولية التي تقدمت بها امريكا في المرحلة الاولى لتبرير سياستها هي **قرار التقسيم** الصادر عن الجمعية العامة للامم المتحدة في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، واذا كان **البيان الثلاثي** الصادر عن امريكا وبريطانيا وفرنسا في ٢٥ مايو ١٩٥٠ هو قاعدة السياسة الامريكية في المرحلة الثانية ، فان ركن السياسة الامريكية في المرحلة الثالثة كان **قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢** ، الصادر في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ٠

وقد ظلت هذه السياسة هي المسيطرة في امريكا في الفترة الاخيرة من عهد

الرئيس جونسون ، وكذلك طوال عهد الرئيسين نكسون وفورد ـ الى ان جاء الرئيس كارتر الى البيت الابيض ، فأدخل الى السياسة الامريكية عناصر جديدة ٠

(٤) استنادا الى مجمل اقوال جيمي كارتر ، كمرشح للرئاسة ثم كرئيس ، والى جميع تحركاته السياسية ، يمكننا تلخيص سياسة امريكا في عهده بما يلي :

(أ) ان امريكا تعتقد اليوم ان المحافظة على الوضع الراهن الناشىء عن حرب حزيران ١٩٦٧ لم تعد ممكنة ، بعدما بدا من العرب من تشبث بمطلب استرجاع اراضيهم التي احتلت خلال تلك الحرب وبعدما انجلى من عبر خلال حرب تشرين الاول ١٩٦٣ ٠ وهي تدرك كذلك ان النهج الذي اتبعه كيسنجر في سياسة خطوة فخطوة قد بلغ نهاية المطاف ولم يعد الاستمرار فيه ممكنا ٠ وبالتالي ، فانها باتت مقتنعة بأنه لا بد من اجراء تسوية شاملة للصراع العربي الاسرائيلي، تستبدل حالة الاضطراب التي دامت ثلاثين عاما بحالة جديدة من السلام في المنطقة ٠ (ولهذا ، فقد بذل كارتر من الجهد « لحل » ما يسمى بقضية الشرق الاوسط اكثر مما بذل لحل اية قضية دولية اخرى . خلال الشهور الخمسة عشر الاولى من ولايته) ٠

(ب) الا ان قاعدة الحل الذي ينشده كارتر ليست قرار التقسيم ، ولا البيان الثلاثي ولا قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ـ رغم تأكيده باستمرار على اهمية هذا القرار كأساس للتسوية ٠

بل ان الحل الذي ينشده كارتر يطالب الجانب العربي بأكثر مما طالبه القرار رقم ٢٤٢ ، ويطالب اسرائيل بأقل مما طالبها به ذلك القرار ٠

فالقرار رقم ٢٤٢ طالب اسرائيل بالانسحاب وفقا لمبدأ عدم جواز احتلال الاراضي بالقوة ٠ اما كارتر فانه يطالب اسرائيل بالانسحاب ، لا من جميع الاراضي التي احتلتها بالقوة ، بل الى حدود تتفق هي والعرب عليها في مفاوضات حرة بين الفريقين ٠ كما انه لا يرى ان الانسحاب الاسرائيلي معناه عودة السيادة العربية الكاملة الى المناطق التي يتم جلاء القوات الاسرائيلية عنها ٠

ثم ان القرار رقم ٢٤٢ طالب الدول العربية بالاعتراف باسرائيل وبالتعهد بعدم الاعتداء عليها ، في حين ان كارتر يطالب الدول العربية باقامة سلام كامل وعلاقات طبيعية مع اسرائيل ، تتعدى الاعتراف الى تبادل التمثيل الدبلوماسي وفتح الحدود وتأمين حق السفر والانتقال والتبادل التجاري والثقافي بين الفريقين ، والى اخر ما تضمه عبارة « السلام والعلاقات الطبيعية » من معان ٠

لقد تجاوز كارتر القرار رقم ٢٤٢ بشقيه ـ وكان هذا التجاوز ، في جانبيه ، لصالح اسرائيل وعلى حساب الحقوق والمصالح والكرامة العربية ٠

ولما كنت سوف اتحدث بعد قليل عن تصور ادارة كارتر للتسوية السياسية بجميع عناصرها ، فسأكتفي الان بأن اسجل هذا التبدل في السياسة الامريكية الذي اجراه الرئيس كارتر ، لاخلص من ذلك الى القول بأن سياسة كارتر ، اذا قورنت بسياسة اسلافه ، تمثل مزيدا من الانحياز نحو اسرائيل بالقياس الى ما كانت عليه السياسة الامريكية في المرحلتين الثانية والثالثة ، ولا تشكل تحولا نحو الحياد ازاء الصراع العربي الاسرائيلي ٠

ان سياسة كارتر لا تمثل عودة سياسة التوازن التي انتهجتها امريكا في المرحلة الثانية (ولا سيما في عهد ايزنهاور) ، بل انها في الحقيقة تكملة لسياسة المرحلة الاولى ـ سياسة ارساء قواعد الدولة اليهودية في قلب منطقتنا العربية ٠

ان من يزعم بان كارتر ينتهج سياسة محايدة تجاه الصراع العربي الاسرائيلي هو اما مضلل (بكسر اللام) او مضلل (بفتحها) ٠

وان العرب الذين يتوهمون ان موقف امريكا قد بات في عهد كارتر اقرب الى الموقف العربي مما كان عليه في الماضي هم ضحايا « الخدعة البصرية » ، لانهم هم الذين اقتربوا من الموقف الامريكي ، وليس العكس ٠

ان امريكا لم تقترب منا ، بل ان بعض الانظمة العربية هي التي انتقلت من المواقع العربية ـ سواء الاصلي منها والمستحدث ـ لتستقر على مقربة من الموقع الامريكي ٠

(ج) سياسة امريكا في عهد كارتر تقوم على التاكيد ، بشكل اقوى من سياسة اي رئيس امريكي سابق ، على الالتزام الامريكي ببقاء اسرائيل ، وبأمنها ، وبسلامتها ، وبخيرها ٠

ان سلامة اسرائيل وخيرها هما الهدف ٠ وجميع الاجراءات التي ترمي امريكا الى اقامتها مشروطة ، اصلا ، بضمانها لسلامة اسرائيل وبخدمتها لخير اسرائيل ٠ اما اثر تلك الاجراءات على امن الوطن العربي وسلامته وخير شعوبه ـ او على امن الدول العربية فرادى ـ فأمر ثانوي اذا قورن بأثرها على اسرائيل ٠

(د) وابرز دليل على الاولوية التي توليها امريكا لاسرائيل في سياستها هو المقياس المزدوج الذي تقيس به امريكا الامور ، دوما لصالح اسرائيل ٠

لا اريد ان اثقل مقالي بالامثلة · ولكني اجد لزاما علي ان اشير الى حفنة من عشرات الامثلة التي تؤكد ما اقول :

مثال اول : في التاسع من مارس ١٩٧٨ ، سئل كارتر في مؤتمر صحفي عما اذا كان يعتزم تلبية طلب تقدمت به حكومة الصومال لتزويدها بالاسلحة ، وذلك لصد هجوم من اثيوبيا قالت امريكا ان الاتحاد السوفياتي وكوبا تعززانه ، فأجاب بأن المبدأ الذي تلتزم به الحكومة الامريكية هو ان لا تزود اي بلد بالاسلحة، حتى الدفاعي منها ، ما دام ذلك البلد يحتل اراضي بلد اخر ·

وفي المؤتمر الصحفي نفسه وفي سواه من المؤتمرات الصحفية ، اشاد الرئيس كارتر بضخامة العون العسكري الذي ما فتئت امريكا تقدمه لاسرائيل منذ ١٩٦٧ · اي ، منذ احتلالها للمزيد من الاراضي العربية · واكد بأن امريكا لن تستخدم التهديد بقطع السلاح عن اسرائيل من اجل حملها على الانسحاب من الاراضي العربية ·

مثال اخر : في مؤتمر صحفي عقده في فرصوفيا في ٣٠ ديسمبر ١٩٧٧ ، اكد الرئيس كارتر ، ردا على سؤال يتعلق ببلدان اوروبا الشرقية ، ان حكومته تعترف لكل بلد بحقه في الاستقلال الكامل ، وبحقه في ان لا يربط مع اي بلد اخر بأية ارتباطات لا تعبر عن رغبته الحرة واختياره الحر ·

وفي ذلك المؤتمر الصحفي عينه ، كما في سواه من المؤتمرات ، عندما سئل عن حق الفلسطينيين في الضفة الغربية بتقرير مصيرهم ، قال بأن امريكا لا تؤيد استقلالهم بل تريد لهم ان يكونوا مرتبطين بالاردن ·

مثال ثالث : في ٢٨ اكتوبر ١٩٧٧ انهت الجمعية العامة للامم المتحدة مناقشتها الطويلة لبند جديد ادرج على جدول اعمالها بناء على طلب من مصر ، يتعلق بموضوع المستعمرات الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، ثم مضت للتصويت على مشروع قرار معتدل جدا في ادانته لاسرائيل ، وكانت للتصويت مع ذلك المشروع اهمية خاصة ، لان تلك كانت اول اختبار عملي لموقف ادارة كارتر في الامم المتحدة من الصراع العربي الاسرائيلي ، ولان ادارة كارتر كانت قد ادانت سياسة زرع المستعمرات الاسرائيلية في المناطق المحتلة طوال الشهور السابقة · ولذلك ، فقد كانت الاعين كلها مركزة على المندوب الامريكي ، السفير اندرو يونغ ، عندما اعتلى المنصة ليفسر تصويت وفده على ذلك القرار · وقد استهل يونغ كلمته المختصرة جدا بتأكيده تأييد امريكا لمنطق القرار (الذي لم يعارضه سوى مندوب واحد ، هو مندوب اسرائيل) · ولكنه مضى يقول : « ان الولايات المتحدة قد تحملت مسؤولية خاصة ، بوصفها احد رئيسي مؤتمر جنيف للسلام في الشرق الاوسط · وتلك المسؤولية تتطلب منا ان نبقى محايدين ، وان نقف في معزل عن اي جهد من هذا النوع قد يعتبر ماسا بالقضايا المعقدة التي

ستبحث في جنيف • ولذلك فقد امتنعنا عن التصويت على هذا القرار » •

الا ان هذا المنطق ـ اي منطق الامتناع عن التصويت على اي قرار يتعلق بأية قضية ستبحث في جنيف ـ لم يؤثر على تصويت امريكا الفعلي على القرارات اللاحقة التي جرى التصويت عليها فيما بعد في تلك الدورة •

بل ان امريكا ، التي استمرت في **الامتناع** عن التصويت على القرارات التي تعلن انها توافق على روحها ومضمونها ، بحجة الحياد ، لم تتردد عن معارضة جميع القرارات الاخرى التي تخالف السياسة الامريكية • (وهكذا ، فقد صوت الوفد الامريكي **ضد** القرارات : رقم ٢٠ ، المتعلق بالتسوية في الشرق الاوسط ، ورقم ٤٠ ، المتعلق بحقوق الشعب الفلسطيني ، و ٩١ج و ١٦١ و ١٧١ ، حول الاوضاع في المناطق المحتلة) •

وهكذا ، فقد اتضح ان « الحياد » الامريكي في الامم المتحدة كان معناه **الامتناع** عن التصويت على القرارات التي توافق عليها الحكومة الامريكية ، والتصويت **ضد** القرارات التي لا توافق عليها • (وجدير بالذكر ان الوفد الامريكي لم **يؤيد** في تلك الدورة سوى القرارات الهامشية وذات الصفة الانسانية ، لا السياسية ، من القرارات المتعلقة بالشرق الاوسط) •

ويمكننا ان نسوق عشرات الامثلة التي تعبر عن استمرار امريكا في الانحياز نحو اسرائيل ، واستخدامها مقياسا مزدوجا لصالح اسرائيل •

(٣) تصور امريكا للتسوية

ننتقل الان الى تحليل عناصر التسوية السياسية الشاملة التي ترمي ادارة الرئيس كارتر الى تحقيقها في منطقتنا •

اولا : العنصر الاول ، والاهم ، هو اقامة سلام تام وعلاقات طبيعية كاملة بين الفريقين ، تضم فيما تضمه الاعتراف القانوني والدبلوماسي ، وتبادل التمثيل الدبلوماسي ، والحدود المفتوحة ، وحرية التبادل التجاري والثقافي والانساني ، والخ •

واذا عدنا بالذاكرة الى اول تحديد رسمي للشروط الاسرائيلية للتسوية ـ وهو الذي ورد في بيان ابا ايبان امام الجمعية العامة للامم المتحدة في ٨ اكتوبر ١٩٦٨ ـ وجدنا ان ما يقوله كارتر في هذا الشان هو نسخة طبق الاصل عما قاله ايبان منذ عشرة اعوام •

ثانيا : العنصر الاقليمي ، او ما يسميه الاسرائيليون « تحديد الحدود الامنة والمعترف بها » ، ويسميه العرب « الانسحاب الاسرائيلي » •

وبالنسبة لهذا العنصر ، فان كارتر ــ مع تأكيده على وجوب قيام اسرائيل بالجلاء عن بعض المناطق العربية المحتلة ــ يؤكد في الوقت نفسه ما يلي :

(أ) ان مدى الانسحاب يتقرر بموجب اتفاق الطرفين ، في اطار مفاوضات مباشرة ، وليس بموجب الانصياع للمبدأ القانوني الثابت القائل بعدم جواز حيازة الاراضي بالقوة ٠

(ب) ان الانسحاب اذن لن يكون الى مواقع ٥ يونيو ١٩٦٧ ٠

(ج) ان التنازلات الاقليمية الناتجة عن ذلك لن تكون تنازلات متبادلة ، بل تنازلات من الجانب العربي وحده ٠

(د) ان الانسحاب لا يعني عودة السيادة العربية الكاملة الى المناطق التي يتم جلاء القوات الاسرائيلية عنها ، بل انه مشروط بالاتفاق المسبق على ترتيبات ثنائية ودولية في تلك المناطق غرضها صيانة امن اسرائيل وضمان سلامتها ٠

(هـ) ان بين هذه الترتيبات احتفاظ اسرائيل بقواعد عسكرية في المناطق المحتلة بعد « الانسحاب » منها ٠

(و) وأود ان استطرد قليلا في هذا المجال ، لاتحدث عن جانب من جوانب هذا العنصر ، هو الجانب المتعلق بالمستعمرات في المناطق العربية المحتلة ٠

فان البعض يتوهم بأن كارتر قد اتخذ موقفا حازما في معارضة سياسة اسرائيل في بناء المستعمرات في المناطق المحتلة ، مع ان الواقع هو ان موقف كارتر يمثل تراجعا عن المواقف التي وقفها اسلافه من هذا الموضوع ٠ ويتضح ذلك التراجع مما يلي :

(١) عندما يشجب كارتر سياسة اسرائيل في بناء المستعمرات ، فانه يمضي الى تلطيف وقع هذا الشجب وتمييع اثره ، فيتبرع بايجاد العذر لبيغن في انتهاج تلك السياسة ، وذلك بالتذكير بأن بيغن جاء الى الحكم بعد حملة انتخابية تعهد فيها بالاستمرار ببناء المستعمرات ، وبأنه لا يستطيع التنكر للوعود التي قدمها للشعب الاسرائيلي اثناء الانتخابات ٠

(٢) ثم ان كارتر يميز بين تكثيف المستعمرات القائمة ، من جهة ، وبين زرع مستعمرات جديدة ، فيشجب هذا دون ان يعارض ذلك ٠

(٣) ثم انه ينادي بوقف بناء المستعمرات الجديدة فقط اثناء استمرار عملية السعي للوصول الى تسوية ٠

(٤) وكما مر بنا ذكره ، فان كارتر اصدر تعليماته الى وفده في الامم المتحدة بأن يمتنع عن التصويت على قرار يدين سياسة زرع المستعمرات ٠

(٥) وان كارتر يؤكد بوضوح ان امريكا لا تعتزم القيام بأي عمل فعلي للرد على استمرار اسرائيل في زرع المستعمرات ، مكتفيا بشجب ذلك في تصريحاته • هذا ، مع العلم بأن امريكا ملزمة قانونيا ، بموجب المادة الاولى من اتفاقية جنيف الرابعة ، بأن تضمن تقيد اسرائيل بأحكام تلك الاتفاقية كلها (وبينهـا احكام المادة ٤٩ التي تحرم بناء المستعمرات في المناطق المحتلة) ، ومع العلم ايضا بأنه ، لولا المساعدات المالية الامريكية التي تستخدمها اسرائيل في بناء المستعمرات ، لما كان بوسع اسرائيل ان تستمر في برنامج الاستعمار المكثـف القائم حاليا •

(٦) ثم ان كارتر لا يطالب بهدم المستعمرات الاسرائيلية عند انسحاب القوات الاسرائيلية من المناطق المحتلة ، بل يقول ان مصير المستعمرات يجب أن يقـرر في المفاوضات المباشرة بين الفريقين العربي والاسرائيلي •

ثالثا : واما العنصر الثالث من عناصر التسوية ، كما تتصورهـا ادارة الرئيس كارتر ، فيتصل بتسوية القضية الفلسطينية كجزء من التسوية الشاملة •

ولقد بات من عادة المراقبين والمحللين ان يقولوا بأن ادارة كارتر تختلـف عن جميع الادارات الامريكية السابقة في أنها اعترفت بالعنصر الفلسطينـي كواحد من العناصر الرئيسية الثلاثة لما يسمى بقضية الشرق الاوسط ، وانها ادركت ان حل القضية الفلسطينية شرط لا بد منه لحل القضية الاوسع • وهذا القول صحيح الى حد ما (مع ان الواقع التاريخي يثبت ان ادارة فورد هـي التي بدأت بالاعتراف بالعنصر الفلسطيني في القضية الاوسع ، وذلك في بيان سوندرز في ١٢ تشرين الثاني ١٩٧٥) ، لكنه ينطوي على مفارقات خطيرة لا بد من الانتباه اليها •

فقبل مجيء الرئيس كارتر الى الحكم ، كان من الامور المسلم بهـا ان الانسحاب الاسرائيلي ، عندما يتم ، سوف يترك مصير المناطق المحتلة لابنائها • اي انه كان مقبولا ان مستقبل المناطق العربية المحتلة يصبح ، بعد الجـلاء الاسرائيلي ، شأنا عربيا يقرر طبيعته العرب انفسهم •

وكان معروفا ان الجانب العربي كان قد حدد موقفه من مصير المناطـق الفلسطينية المحتلة ، بعد ان يتم الجلاء الاسرائيلي عنها ، وذلك في مؤتمر القمة العربي السابع المنعقد في الرباط في اواخر تشرين الاول ١٩٧٤ ، وفي قراري المجلس الوطني الفلسطيني الصادرين عن الدورتين الثانية عشرة (في مطلع حزيران ١٩٧٤) والثالثة عشرة (في اواسط اذار ١٩٧٧) •

الا ان كارتر ، عندما بادر في مطلع ولايته الى الدعوة الى اقامة وطـن للفلسطينيين (ابتداء من بيانه في كلنتون في ١٦ اذار ١٩٧٧) ، مضى في

الوقت عينه الى ربط تحديد طبيعة هذا « الوطن » وارضيته الجغرافية بالمفاوضات المباشرة التي تتم التسوية الشاملة من خلالها ٠

اي ان مسالة المناطق الفلسطينية ، المحتلة بعد الجلاء الاسرائيلي ، لم تعد في تصور كارتر شأنا فلسطينيا ، بل ولم تعد شأنا عربيا ، بل انها اصبحت خاضعة للموافقة الاسرائيلية ، لانها اصبحت خاضعة لاتفاق الاطراف المشتركة في اقامة التسوية الشاملة ، وبينها اسرائيل ٠

واذا كان بيان كلنتون لم يكن كافيا لاحكام هذا الربط بين مستقبل المناطق الفلسطينية المحتلة وبين الموافقة الاسرائيلية ، فان ادارة كارتر قد اكدت ذلك الربط بشكل لا غموض فيه ، وذلك في الخطاب الذي ألقاه نائب الرئيس مونديال في سان فرانسيسكو في ١٧ يونيو ١٩٧٧ ٠

وهكذا ، فان ادارة كارتر ، بعد ان قلصت قضية فلسطين ، شعبا ووطنا ، الى قضية المناطق الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ ومن تبقى من سكانها فيها ، ثم اخضعت مستقبل تلك الاراضي وسكانها لمشيئة الاطراف المتفاوضة ، وبالتالي « للفيتو » الاسرائيلي ، مضت الى استبعاد الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، اي منظمة التحرير الفلسطينية ، من الاشتراك في عملية صنع مصير تلك المناطق الفلسطينية وسكانها ٠

واخيرا ، وبعد ذلك كله ، اسفرت ادارة كارتر عن وجهها الصحيح ، اذ حددت الجزء الاخير من مخططها « لحل القضية الفلسطينية » ـ اقصد بذلك معارضتها الصريحة للسيادة الفلسطينية في اي جزء من فلسطين ، ولاقامة دولة فلسطينية ٠

وباختصار ، فان اقصى ما تقدمه ادارة كارتر للشعب الفلسطيني ، كتسوية نهائية لقضيته ، هو ما يلي :

ان جزءا من الشعب (لا يتعدى ثلثه) قد يتاح له ان يمارس جزءا من حقوقه (باستثناء حقه في العودة وحقه في السيادة واقامة دولة مستقلة) في جزء من وطنه (تبلغ مساحته ١٨ بالمئة من مساحة فلسطين) ، وذلك لا اليوم ولا غدا ، بل بعد مضي عدة سنوات على قيام السلام الكامل بين الدول العربية واسرائيل ، ووفق ما يتفق عليه في مفاوضات بين بعض الدول العربية واسرائيل (تخضع نتائجها طبعا للموافقة الاسرائيلية) وقد يشترك فيها فلسطينيون بصفة ما اذا توفر فيهم شرطان : ان لا يكونوا منتدبين من منظمة التحرير الفلسطينية ، وان توافق على هويتهم اسرائيل وامريكا والدول العربية المعنية بالامر ! ٠

(٤) مدى استعداد امريكا لانجاز التسوية

ان تسوية هذه عناصرها ، هي اقصى ما تقدمه ادارة كارتر لانهاء الصراع العربي الاسرائيلي · ولكن ادارة كارتر ، التي تواجه معارضة اسرائيلية متزايدة حتى لهذه « التسوية » ، تصر باستمرار على انها لن تلجأ الى « الضغط » على اسرائيل لحملها على القبول ، او لفرض التسوية عليها ، ولن تلجأ الى قطع المعونات المالية والعسكرية السخية التي تقدمها امريكا الى اسرائيل ، ولا الى تخفيضها ، من اجل تحقيق التسوية ·

وليس لمثل هذه التأكيدات المتواصلة سوى نتيجة عملية واحدة : تطمين اسرائيل بأنها لن تخسر مصدر رزقها الاكبر اذا هي رفضت القبول بالتسوية الامريكية ·

واذا قال قائل ان مثل هذه التأكيدات الامريكية قد لا تعبر تعبيرا صادقا عن نوايا الحكومة الامريكية ، بل قد يكون الدافع اليها هو الاعتبارات السياسية المحلية ، وحاجة الحكومة الى تطمين انصار اسرائيل في الكونغرس والرأي العام ، والى تخديرهم ، كان جوابنا على ذلك القول : ان تكرار مثل هذه التأكيدات ، مهما كان الدافع ، من شأنه ان يخلق مناخا سياسيا يصعب فيه على الحكومة الامريكية (ايا كان رئيسها) ان تمارس الضغط اللازم عند الحاجة ، ومن شأنه كذلك ان يستثير عقبات في طريق عملها السياسي الرامي الى تحقيق التسوية الامريكية لقضايا الشرق الاوسط ·

(٥) امكانيات التبديل في السياسة الامريكية

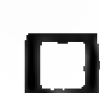
بعد ان وصفنا ملامح السياسة الامريكية ، في عهد الرئيس كارتر ، تجاه الصراع العربي الاسرائيلي ، وحددنا عناصر التسوية التي تنشدها امريكا لذلك الصراع ، لا بد لنا ان نسأل : هل في الامكان حمل امريكا على تعديل هذه السياسة ؟ هل في قدرة العرب ان يمارسوا من الضغط على امريكا ما يجعلها تقلع عن الانحياز لاسرائيل وتتجه نحو الحياد ؟ وما هو السبيل الى ذلك ؟·

ان جوابي على هذه الاسئلة ذو شقين :

اولا : ان التطلع الى نقل امريكا من موقع الانحياز لاسرائيل الى موقع الانحياز للعرب هو تطلع غير واقعي ، وليس له اي حظ من النجاح في المستقبل المنظور ، وذلك على الرغم من ان المبادىء التي تتغنى بها امريكا ، حكومة وشعبا ، والمصالح الوطنية الامريكية على اختلاف انواعها ، كليهما معا تدعوان امريكا الى ذلك ! ·

ثانيا : ان امكانية حصول **تحول نسبي** في الموقف الامريكي ، **يخفف** درجة انحيازها لاسرائيل **ويقربها من الحياد** ، يتوقف تحقيقها علينا **نحن** ٠

فالى ان نقوم نحن بتبديل اسلوب تعاملنا مع انفسنا ومع العالم ومع امريكا ، فمن السخف ان نتوقع ان تقوم امريكا بتبديل سياستها لصالحنا من تلقاء نفسها ٠



ان الشروط التي يجب توافرها ـ اي التي ينبغي على العرب توفيرها ـ تتصل كلها باضفاء شيء من المصداقية على « الضغط » العربي على امريكا ، او بالايحاء بأن العرب جادون في صراعهم مع اسرائيل وجادون بالتالي في مطالبتهم لامريكا بالاقلاع عن انحيازها لعدوهم بالتزام موقف الحياد حيال الصراع العربي الاسرائيلي ٠

اولا : ان المؤمنين بامكانية انهاء الصراع العربي الاسرائيلي ، بشكل يصون الحقوق والمصالح العربية ، بالوسائل السياسية والسلمية مدعوون لان يذكروا ان **نجاح العمل السياسي مرهون بمصداقية التهديد باللجوء ، في حالة فشله ، الى الاساليب البديلة** ٠

من لا يتأهب للقتال عندما يشرع في خوض معركة سياسية مصيرية قد يجد نفسه نتيجة لذلك يواجه واحدا من الاحتمالات الثلاثة الاتية : اما الرضوخ لتسوية تقوم على اسس غير مرضية ٠ او فشل المساعي السياسية ، وتجميد الوضع الراهن لمدة طويلة ٠ او اللجوء الى القتال دون التأهب المسبق له ٠

واما من يتاهب للقتال فيما هو يخوض المعركة السياسية المصيرية ، فهو الذي قد لا يجد نفسه مضطرا الى اللجوء اليه ـ لان ادارة المعركة السياسية من موقع القوة هي وحدها التي تضمن الفوز في تلك المعركة ٠

وعندما اتحدث عن التاهب للقتال ، فاني لا اتحدث عن تكديس السلاح الحديث وتعبئة الجيوش وتدريبها فقط ، بل اتحدث ايضا عن **تعبئة المجتمع باسره واعداده نفسيا وخلقيا للتضحية والبذل** ٠

اننا اخذون في بناء مجتمعات جديدة تقوم على الترف والتبذير ، وعلى التمتع بالثروة المستحدثة الى اقصى الحدود ، في الوقت الذي تئن فيه بعض مجتمعاتنا الاخرى من الحرمان ـ ومع هذا ، فان انظمتنا ، في هذه المجتمعات وتلك ، تلهث وراء التسوية السياسية وتغرق الشعب بالامال بان السلام بات على الابواب ٠ وفي مثل هذا الحال لا يمكن لاحد ـ ابتداء من امريكا واسرائيل ـ

ان يكترث بما يصدر عن تلك الانظمة من تهديدات ، بانه اذا لم تتم التسوية في هذا التاريخ او في ذاك ،فاننا سنلجأ الى القتال لصيانة مصالحنا واسترجاع حقوقنـــا ٠

ثانيا : وكما انه من الخطأ ان « نضع البيض كله في سل واحد » وتنهج سبيل العمل السياسي الى درجة اهمال السبل الاخرى ، فكذلك من الخطأ ان نرتمي في احضان امريكا ، معلقين عليها وحدها كل املنا ، الى درجة اهمال علاقاتنـــا بمصادر القوة الاخرى في العالم ــ ولا سيما تلك التي وقفت الى جانبنا في محننا الماضية ، وليس هنالك ما يدعونا الى الشك في انها سوف تقف الى جانبنا في المحن الاتية ايضا ٠ عندما نرتمي في احضان امريكا ، نجعل من انفسنا ، رهائن ــ بل اسرى ــ في يديها ٠

ثالثا : مصداقية الضغط العربي على امريكا ، وفعاليته ، ترتفعان او تنخفضان بالنسبة الى صدور ذلك الضغط عن صف عربي متماسك ، او صدوره عن عالم عربي متفكك تنخره التناقضات وتشله الانشقاقات ٠

رابعا : ليس لاي محاولة ضغط تصدر عن اي حاكم اي حظ بالتأثير والنجاح اذا لم يكن الفريق الاخر ، الذي يمارس الضغط عليه ، مؤمنا بان ذلك الحاكم يعبر عن ارادة شعب متماسك يقف وراءه ٠ ان مصداقيتنا تظل معدومة او شبه معدومة ما دام الشعب ليس شريكا مع حكامه في صنع السياسة الوطنية ، ولا سيما في القضايا المصيرية ٠

خامسا : كثيرا ما تنتهج حكوماتنا اسلوبا ساذجا في التعامل الدبلوماسي ٠ ففي حين تتبع قيادات اسرائيل ، بحذق ومهارة ، النهج المالوف والذي يتلخص بمبدأ « خذ وطالب » نجد بعض الانظمة العربية المشتركة في عملية المفاوضـــة تنهج نهجا طفوليا شعاره « اعط اولا ثم طالب » ! والامثلة على ذلك في الاونة الاخيرة ، عديدة ومعروفة ٠ كما ان فشلها جدير بان يكون عبرة للمعتبرين ٠

سادسا : كل ما ذكرت حتى الان يتصل بالشروط التي ، اذا توافرت ، اضفت شيئا من المصداقية على ما قد نمارسه من ضغط على امريكا من الخارج ، بغية حملها على الاقلاع عن انحيازها نحو اسرائيل واتباع نهج جديد محايد ٠ ولكن هذه الشروط جميعها ، لو توافرت على افضل وجه ، تظل غير وافية لتحقيـق غرضها ٠ لانها جميعا تتعلق بمخاطبة صانع السياسة الامريكي بمنطق المصلحة الوطنية الامريكية ٠ ولكن الرئيس الامريكي ، ايا كان ، ليس دوره دور « رجل الدولة » فقط ، بل هو ايضا ــ وربما كان ذلك في الدرجة الاولى ــ « رجـــل سياسة » ، بقاؤه في الحكم وبقاء حزبه من بعده ، مرهون بتوافر الاعتبارات السياسية الداخلية الملائمة ، وبينها رضى القوى الضاغطة في المجتمع الامريكي وتاييدها ٠

ثم ان الرئيس الامريكي ، ايا كان ، قد اصبح مقيدا في الاونة الاخيرة برضى الكونغرس عن مبادراته السياسية في الحقل الخارجي – ولا سيما بعد فيتنام ، ووترغيت ، وتمرد الكونغرس على الرئاسة واستيلائه على بعض سلطاتها الدستورية ·

جميع هذه الاعتبارات تتعلق بحرية **الرئيس الامريكي** ، **ايا كان** ، في تبديل السياسة الخارجية الامريكية وتعديلها تعديلا جذريا متجاوبا مع الضغوط الخارجية التي تمس المصلحة الوطنية · **الا ان هناك اعتبارات اخرى تتعلق بالرئيس كارتر بالذات** ·

فهو يعاني ، اكثر من اسلافه ، من صعوبات خاصة تقيد حريته في اتخاذ المبادرات الجريئة في السياسة الخارجية · فهو قد جاء الى الحكم من خارج المؤسسة الحاكمة وقد حمله الى سدة الرئاسة نقده الجارح لتلك المؤسسة اثناء الحملة الانتخابية وبالتالي فهو لا يجد في اوساط المؤسسة الحاكمة تجاوبا كبيرا مع مبادراته السياسية ·

ثم ان حزبه (الديمقراطي) اكثر عراقة في الانحياز لاسرائيل من الحزب المعارض (الجمهوري) · وبالتالي ، فان اية مبادرة منه للاقلاع عن الانحياز لاسرائيل من شانها ان تلقى مقاومة اوتوماتيكية من الحزب الحاكم (بسبب تراثه المؤيد لاسرائيل) ·

لذلك ، فان الواجب يقضي على الجانب العربي ان يمارس الضغط على الرئيس الامريكي لا من خارج امريكا فقط ، بل ومن داخلها ايضا · فان اسرائيل تمارس ضغطها كله من داخل امريكا – معتمدة في ذلك على ثمار خمسين عاما من النشاط الصهيوني الذكي في امريكا ·

واني اعتقد ان امكانية العمل العربي داخل امريكا ، من خلال قطاعات امريكية مؤثرة ، امكانية قائمة · (ولا اقصد بذلك العمل الاعلامي النظري المجرد ، بل العمل الاعلامي السياسي الضاغط) ·

واعتقد كذلك ان هناك قطاعات مؤثرة في المجتمع الامريكي مؤهلة لان تتجاوب مع العمل العربي وتمارس هي – باسم المصلحة الوطنية الامريكية او باسم المبادىء الامريكية – الضغط على حكومتها لانتهاج سياسة محايدة تجاه الصراع العربي الاسرائيلي ، متحررة من الانحياز لاسرائيل فهناك الامريكيون من اصل عربي – وهم مؤهلون – بحكم تراثهم ، لان يكونوا جسرا بين العالم العربي وامريكا · وهناك عشرات الملايين من الامريكان السود ، وهم مؤهلون – بحكم انحدارهم من افريقيا ، وبحكم عطفهم الطبيعي على اماني بلدان العالم الثالث عامة وضحايا العنصرية خاصة – لان يكونوا مصدر تفهم عميق للمطالب العربية الحقة · وهناك قطاع ضخم – قطاع رجال الاعمال والتجارة والصناعة في

امريكا ـ بنفوذهم الواسع في المؤسسة الحاكمة ، وبحسهم المرهف لمصلحة امريكا ومصلحتهم هم في ازالة عوامل التوتر الكامنة في العلاقات العربية الامريكية ·

وهناك ، من الناحية الاخرى ، قطاع رجال الدين والمؤسسات الكنيسة ، التي حملت لواء مطالبة الحكومة الامريكية ـ باسم مبادىء العدالة ـ باتخاذ سياسة تتجاوب مع اماني الشعب الفلسطيني بالكرامة ، واماني الشعوب العربية الاخرى في تحرير اراضيها من الاحتلال الاسرائيلي ـ ·· هذه القطاعات الاربعة مؤهلة لان تكون نواة قوة ضاغطة تطالب حكومتها بالنزاهة والحياد حيال الصراع العربي الاسرائيلي ·

وهي تنتظر منا عملا يحركها وينشطها ·

انها مؤهلة لان تصبح عاملا داخليا يكسر الاحتكار الصهيوني للضغط على الحكومة الامريكية فيما يتعلق بقضايانا · **فان ازمتنا في امريكا تتلخص في ان هناك اكثرية صامتة ـ لانها جاهلة او لا مبالية ـ بينما هناك اقلية ملتزمة باسرائيل تحتكر ممارسة الضغط على الحكومة والكونغرس والرأي العام في كل ما يتعلق بقضايانا · حاجتنا الماسة ، اذن ، هي الى تحريك فئة اخرى ، لتتحدى ذلك الاحتكار وتكسره ـ حتى يصبح النقاش حول قضايانا نقاشا مفتوحا ولا يظل ، كما كان حتى الان ، نقاشا من جانب واحد ، وحتى يصبح الضغط الذي تتعرض له الحكومة ضغطا متوازنا ولا يظل ضغطا من طرف واحد ·**

فهل ترانا نقوم بما يتوجب علينا لكسر الاحتكار الصهيوني بتحريك قطاعات ضخمة في المجتمع الامريكي مؤهلة للتجاوب معنا ؟ ان اجابتنا على هذا السؤال ـ بالعمل وليس فقط بالقول ـ هي المقياس الذي به يقاس مدى جديتنا ·

والى ان يكون جوابنا ايجابيا وفعالا ، فان وضعنا في امريكا سوف يظل كما كان عليه منذ ثلاثين عاما ، كما حلله المؤرخ الشهير ارنولد توينبي عندما تساءل عن السبب الذي حدا بامريكا ١٩٤٧ بان ترمي بثقلها في الميزان لصالح قرار التقسيم ، ثم اجاب على سؤاله بنفسه ، مشيرا الى الضغط المنظم الذي مارسه الصهيونيون الامريكيون على حكومتهم ، وقائلا :

« ··· اما العرب فقد كانوا غائبين عن المسرح الامريكي ··· وكما يقول المثل : ان الغائب ، دوما ، هو الملوم ··· » ·

أديب ديمتري

هزيمة العقل وجذور الصهيونية

١ ـ هزيمة العقل ٠٠ من العقلانية الى الرومنسية الرجعية

« يا منبع الضلال الذي لا يغيض ـ ايها السم الذي يفسد استقامة المشاعر الطبيعية ، وحقيقة القلوب ـ يا فتنة الغافلين ـ ايها العقل ، لقد جئت لادمر الهياكل ـ التي اقيمت لك ٠٠٠ » ٠

(من قصيدة لشيلي ضد العقل سنة ١٧٠٨)

ما كان لقوى الرجعية والتخلف والردة ، الاقطاعية والدينية ، ان تسلم بالهزيمة او تلقي بأسلحتها في يسر ، لتتخلى عن أملها في العودة ، واستعادة عهود السلطة والمجد ٠ وبرغم الضربة الساحقة التي تلقتها في ختام القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر ، على يد الثورة الفرنسية ، وعلى الرغم من تساقط عروشها ، ونظمها البالية ، امام زحف جيوش الثورة والغزوات البونابرتية ، الا انها لم تفقد الامل في استراجاع مواقعها ٠ كما لم يهدأ الصراع الطبقي بانتصار الثورة الفرنسية ، بل على العكس تفاقم وانتشر على الساحة الاوروبية كلها خلال القرن التاسع عشر ٠ وسيشهد العصر تعاظما في الحركات الثورية ، والحركات المضادة في نفس الوقت ، وتحولات سياسية واجتماعية واقتصادية على مدى العصر كله ، تعكس عملية الاستقطاب والتمايز الاجتماعي والطبقي التي ترتبت على نمو وتبدل مراكز القوى الاقتصادية والاجتماعية والطبقية في خلاله ٠ فالطبقة الوسطى المظفرة التي استولت على السلطة في بعض البلدان الاوروبية الغربية او شاركت فيها بقدر اعظم ، انقسمت

على نفسها الى اقسام وشرائح ، وكذلك تزايد نضج الطبقة العاملة الصناعية وبرز دورها ، كما تفاقمت حدة الصراع بينها وبين الطبقة الراسمالية ٠

ومن العوامل المؤثرة الاساسية خلال القرن المكننة والتصنيع ، او ما يسمى بالثورة الصناعية والاثار الاقتصادية والاجتماعية البعيدة التي ترتبت عليها (١) ، منها الثراء السريع والفاحش للطبقات البورجوازية الصاعدة والبؤس والشقاء المقابل للشعب العامل ٠ وبالرغم من استمرار مثل الديمقراطية والمساواة التي جاء بها القرن الثامن عشر ، فان التنظيم الصناعي الذي جاءت به البورجوازية النامية خلال القرن التاسع عشر ، والذي اصبحت له السيطرة على العقول ، كان ينطوي في الواقع على نمط اجتماعي مصاحب في التنظيم يحمل بذور معاداة الديمقراطية (٢) ، ومعاداة الطبقة العاملة ، مما فاقم الصراع بين القوى الديمقراطية الليبرالية والقوى المعادية للديمقراطية من النبالة القديمة او الطبقات الراسمالية ٠ وقد وصلت الموجة الرجعية في اوروبا الى ذروتها اثر سقوط نابليون سنة ١٨١٥ وقيام الحلف المقدس ٠ وقد شهدت اعوام ١٨١٩ ، ١٨٢٥ سيلا من التشريعات والاجراءات المعادية للطبقات الشعبية ، كما شهدت تراجعا وانتكاسا لمكتسباتها الديموقراطية خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ٠ ففي انجلترا صدرت قوانين القمح والقوانين التي تحرم دخول الاراضي ، وكلها لمصلحة طبقة كبار ملاك الاراضي، ووصلت بالفلاحين الى حافة المجاعة والثورة العنيفة ٠ كما تتمثل هذه الذروة الرجعية في الغاء المبدأ القانوني الذي يمنع حبس الناس دون محاكمة مشروعة Habeas Corpus (١٨١٧) ٠ وفي فرنسا استلم الملكيون المتطرفون زمام السلطة من جديد سنة ١٨٢٠ ، واستطاع مترنيخ ان يحصل سنة ١٨١٩ على مراسيم كارلسباد ، وان يبعد قيصر روسيا عن مغازلة حركات الاحرار ، وان ينال منه تأييدا مطلقا للنظام الرجعي ، وبلغت هذه الذروة في بروتوكول تروباو (٣) Protocol of Torppeau المناهضلجميع الاجراءات الثورية والاصلاحية في اوروبا ٠

ويرسم لنا برتراند رسل الصورة الشاملة للحياة العقلية خلال القرن التاسع عشر يقول : ان هذه الحياة كانت اكثر تعقيدا مما كانت عليه خلال القرن السابق ويرجع ذلك الى العديد من الاسباب ٠ فقد اسهمت امريكا وروسيا اسهاما هاما في حياة العصر ، واصبح هناك اهتمام اكثر بالشرق وبخاصة الهند (٤) ، وحقق العلم الذي احتل المكانة التي شهدناها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر انتصارات في البيولوجيا والكيمياء الحيوية والجيولوجيا ، والامر الثالث ان انتاج الالة غير من التركيب الاجتماعي تغييرا كبيرا ، فقد افسح امام الناس رؤية جديدة ، وفهما جديدا لقواهم في علاقاتهم بالبيئة ٠ ورابعها الثورة العميقة التي هبت ضد النظم والمؤسسات العتيقة في الفكر

والسياسة والمذاهب الاقتصادية ، مما فتح الباب لمهاجمة مؤسسات ومعتقدات كانت تبدو راسخة مخلدة · وقد اخذت ثورة العصر هذه اشكالا مختلفة تماما : رومنسية وعقلانية · اما العقلانية فتبدأ بالفلاسفة الفرنسيين الى الفلاسفة الراديكاليين الانجليز ، حتى تكتسب عمقا جديداعند ماركس ، اما الرومنسية فتمتد من بايرون الى شوبنهور ، فنيتشه حتى موسوليني وهتلر (٥) ·

رد الفعل ضد عصر العقل

كادت ان تكون السيادة للعقل مطلقة ، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فقد كان العقل هو المحرك للفكر ، وللثوريين ، كما كان الايمان بالعلم وبالمستقبل ، وبمثل الديموقراطية والحرية والمساواة والسلام · كانت الرأسمالية تنمو ، والبورجوازية تصعد ، وآفاق المستقبل تنفتح امامها بلا حدود · ويتجمع وراء رايتها كل الشعب · ولكنها بعد ان قادت عدة ثورات مظفرة ، وأمسكت بزمام السلطة في العديد من البلدان ، او شاركت فيها بنصيب وافر ، جلبت معها ايضا الشقاء ، بل والمزيد من الفقر والافقار للطبقة العاملة والفلاحين ، كما سحقت ازمات الرأسمالية المبكرة تحت أقدامها اقساما عريضة من الحرفيين والتجار والبورجوازية الصغيرة · فكان الشك ، خاصة تحت تأثير هيوم · وبدأ نقد العقل · وفي سنة ١٧٨١ قدم كانت مؤلفة الاشهر « نقد العقل الخالص » وقد حاول فيه ، بتحليله لطبيعة المعرفة ، وقدرة العقل البشري ، التدليل على ان العلم وطرق الميكانيكا والفيزياء الرياضيين تصلح لوصف العالم بينما هي تعجز تماما عن الكشف عن حقيقة العالم · فالعلم يقدم لنا وصفا صادقا للحوادث الظاهرة اي الاشياء كما تبدو في الظاهر ، وكما يسمح لنا تركيب عقولنا واسلوب عملها اختبارها ولكن العلم ليس في وسعه اثبات شيء عن العالم الحقيقي او العالم في ذاته ، وكما يبدو لعقل كامل ، ومنزه عن كافة النقائص كعقل الآله (٦) ·

ومعنى ذلك ان العالم الحقيقي اكثر اتساعا مما تصفه العلوم بطريقتها العلمية ، وعلومنا لا تشمل ، ولا تستطيع ان تشمل ، كل شيء ضمن افقها ونحن نملك خبرات اخرى ، خبرات الضمير والجمال والدافع الديني · وهي خبرات ، برغم انها ليست خبرات علمية او عقلية بالمعنى الصحيح ، وبرغم استحالة ادخالها في اطار الفيزياء الميكانيكية ، الا انها خبرات قوية وهامة لا يمكن اهمالها او اعتبارها مجرد تصورات وهمية (٧) ، كما انها تظل مستعصية على الفهم ، الى ان نفترض بان العالم في الحقيقة ، هو شيء مختلف عما يستطيع العلم البرهنة على وجوده · ولما كنا لا نستطيع قط ان نعرف علميا حقيقة الكون في ذاته ، وجوهره الحقيقي ، ولا يمكن ان نتخطى في معرفتنا العقلية والعلمية الظواهر ، فلا مندوحة لنا من ان نعتمد على

شيء اخر هو الايمان ، وذلك لاسباب علمية مستمدة من حاجتنا الى العيش ، والى ممارسة الحياة العملية · ولا بد ان نبني حياتنا على هذا المزيج من العقل والشعور الذي يشكل الطبيعة البشرية ، فلا بد ان نعمل بوحي من واجب اخلاقي ولا بد ان نستشعر احتراما دينيا لشيء في الكون اعظم ، كما لا مندوحة لنا من الاعجاب بجمال في الاشياء لا يمكن تعليله علميا ، وان الكون يدار بشكل ما بقانون اخلاقي · وما دام العلم يعجز عن اثبات او نفي الحقيقة الواقعة فلا بد ان نركن الى الايمان ·

الرومنسية ترفض العقل

بدا هذا الدفاع العقلي من جانب كانت عن الايمان مقنعا ، واستقبله الرومنسيون بحماس · فعندما نادى كانت بان العلم محدود الافق ، فقد فتح الباب واسعا لعدد لا يحصى من الطرق الاخرى اللاعقلانية في الوصول الى المعتقدات الفلسفية والاخلاقية والدينية · وبالرغم من ان فلسفة كانت «النقدية» هي فلسفة ليبرالية تقدمية في الجوهر ، تتصدى لفكر الاقطاع ومفاهيمه الجامدة، وتعبر عن قوى البورجوازية الالمانية الصاعدة والضعيفة في نفس الوقت ، الا انها استغلت في مراحل تالية ، وبالاخص في النصف الاخير من القرن التاسع عشر لمساندة فلسفات الردة اللاعقلانية وكأنما اصبح نقد كانت للعقل جواز مرور لشق ممرات جديدة ، عبر مجاهل الحدس اللاعقلانية (٨) · فاذا كان « النقد » قد اثبت ان كل ما يمكن معرفته عن طريق العقل يقف عند الظواهر ، فقد ضاعت سدى ، كل جهود العلماء ومكتشفات العلم ، واصبحت كل الطرق ، غيبية كانت او حدسية او عقلية ، تستوي ، وتستحوذ على نفس القدر من الاحترام · وبذلك اقامت الفلسفات الرومنسية الرجعية ابنيتها الفكرية على وهم « نقد العقل » داعية الى ان الانسان في جوهره ليس عقليا ، وان طبيعته تكمن في الاساس في الغرائز والمشاعر والاحاسيس المبهمة · وبعبارة اخرى فان الشاعر او القديس اصدق من العالم · وليس الدين علما يقام البرهان على صحته بل شأن من شؤون القلب · والاخلاق ليست علما بل هي في الجوهر الارادة الطيبة ، وليس الفن مسألة شكل وتركيب بل غنى في العاطفةوالشعور · والمجتمع ليس مشروعا جامدا مؤسسا على المصلحة الذاتية بل كائن حي كبير ، تشد اعضاؤه بعضها البعض ، ذو سعي حثيث لتحقيق غايات ومثل تبدو غامضة مبهمة ·

الرومنسية بين الثورة والثورة المضادة

ومع ذلك فلم تكن الرومنسية في منبتها حركة للردة او مناهضة العقل ، بل

على العكس ، فقد اقترن مولدها في القرن الثامن عشر بالحركة السياسية والثورية · وكانت في الاصل ، وخلال هذه المرحلة الثورية ، ثورة ضد المعايير الاخلاقية والجمالية الجامدة والمروثة ·وقد نشأت في جو مشبع بروح العطف على مآسي الفقراء ودعوات الحكمة ، وهجر مباهج البلاط والقصور وفساد الحياة المترفة ، للعيش في احضان الريف الهادىء بلا طموحات ، للاستمتاع بملذات الدعة والسلام (٩) ·

وبالرغم من اقتران الرومنسية في الاصل باسم روسو ، الا انها كانت في بدايتها المانية في الاغلب ، حمل لواءها الشعراء الثائرون والملقبون « بشعراء العاصفة والتوتر » من أمثال جوته وشيلر ، كما وجدت تعبيرها في انجلترا لدى كوليردج ووردزورث وشيلي وبيرون ، وفي أمريكا ايمرسون وثورو · Thoreau

هؤلاء الرومنسيون ، الاوائل ، وهم ينتمون لجيل الثوريين في القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ، وان جاء تاكيدهم على جوانب اخرى في الطبيعة البشرية غير العقل ، فقد ارتضوا المثل الاعلى الطبيعي الذي كان يسود الفكر في القرن الثامن عشر ، ولكنهم فسروه تفسيرا جديدا · ويبدو هذا واضحا في فكر روسو الذي يعد الينبوع الاول للحركة الرومنسية · لقد اله روسو « الانسان الطبيعي » حتى ضاهى في ذلك العقليين ، ولكن ما هو طبيعي عنده في الطبيعة البشرية ، لم يكن مبنيا على نظام الطبيعة الآلي النيوتوني ، بل على خبرته الشخصية · وفي رأيه ان الانسان الطبيعي ليس هو ذاك الذي يفكر تفكيرا عقليا منطقيا ، ويحكم على الاشياء على اساس ما تحققه من نفع شخصي، بل هو ذاك الذي يشعر ويتاثر · والعقل والذكاء في رأيه من صنع البيئة الاجتماعية ، التي تشكل طبيعة الطفل المرنة وتفسدها بادخالها قسرا في قوالب تقليدية غريبة عنها ·

كانت الرومنسية في عصرها الاول ، تضيف وقودا للثورة في كل مكان ، تلك التي اشعلها انصار المذهب العقلي ، وكانما بها نصوغ شعرا وغناء المشاعر التي تحركها في وجدانات العصر ، المبادىء التي يصوغها العلماء والمفكرون العقلانيون (١٠) · وكان ذلك كله يوحي من التحولات الاجتماعية الجذرية التي حملتها معها نهايات القرن الثامن عشر · ذلك ان الرومنسيين والعقليين مهما اختلفوا ، فقد اتفقوا على أمر واحد هو الايمان بالفردية · ومن هنا فان كلا الفريقين كان هو التعبير الفكري او الوجداني عن مطامح الطبقات الوسطى الصاعدة · وكان روسو وبنتام ولوك من الفلاسفة الانجليز المعنيين ، يجمعهم نفس الهدف ، وهو التحرر من قيود العصور الوسطى الاقطاعية · كان الهدف واحدا بالنسبة لجميع الثوريين ، عقليين او رومنسيين ، وهو خلق الفرد وبناء

شخصيته ، واصبح هذا الفرد وحريته هو العنصر الاهم ۰ واذا كان العقليون قد ركزوا على نسق الطبيعة العام بوحي من رؤى العلم النيوتوني ، الالي والكوني، فقد توجه الرومنسيون الى ما هو اخص في الطبيعة البشرية ، وفي الفرد ۰ كان مثلهم الاعلى ليس في انتشار المعرفة العقلية والعلم ، بل في نمــو الملكات ، وانماء الامكانات الفذة والكامنة في الانسان ، نموا كاملا ۰۰ نمو الانسان مــن الداخل ، او باطن الانسان ضد المعتقدات المتوارثة والمؤسسات المصطنعة (١١)۰

ولا شك ان تأكيد الرومنسيين الملحوظ على الفردية كان حافزا قويا للمذهب الفردي الاقتصادي ، الذي كان يبني نظام المصنع والرأسمالية الحديثة ۰ وكان هؤلاء يدعون ايضا الى الاعتماد على النفس ، كانت الثورة الصناعية في جانب الاجراء من كل صنف ومذهب ۰ الكل كانوا يتجمعون حول صيحة الحرية ،والتي كانت تعني بالنسبة اليهم : الحرية الاقتصادية والفردية والمنافسة الحرة وحرية العمل ۰ وفي حقل السياسة كانت هذه الحرية تعني على وجه التحديد استـلام الطبقة الوسطى لزمام السلطة الفعلية ۰ وكانت المساواة تعنى الغاء الامتيازات الاقطاعية والطائفية والدينية ، وان يصبح لكل انسان فرص متساوية ، بصرف النظر عن طبقته او دينة او هويته ۰

مفتاح النظرة الرومنسية أذن سواء في الادب او الفلسفة او السياسة هــو ثورة الغرائز والعواطف الفردية ضد القيود الاجتماعية ، وبالرغم مــن ان الرومنسية عموما كانت تجنح نحو الكاثوليكية ، الا ان هناك عنصرا بروتستنتيا لا يخفى في نزعتها الفردية (١٢) : والواقع ان العناصر الثورية والمحافظـة تختلط اشد الاختلاط في التيارات الرومنسية ، وبرغم المنبت الثوري للرومنسية، فقد حملت منذ البداية عناصر الرفض للعقلانية ، وتغليب الغرائز والعواطف على العقل ۰ وقد تحولت الفلسفة المثالية خلال القرن التاسع عشر بوجه الخصوص، وبتأثير من الفلسفات المثالية الالمانية ذات النزعة الرومنسية ، والتي كان لهـا الغلبة والسطوة خلال القرن ، الى فلسفة ذاتية (١٣) ۰ وسنشهد فــي هــذه الفلسفات ايضا ، الاختلاط الشديد بين العناصر الثورية والرجعية ، بين نزعات التمرد والمحافظة في نفس الوقت ، حتى تستقطب الامور في النهاية بين تيارين: تيار الثورة ، وتيار الردة والنكوص ۰

ولا شك ان سيادة الفكر الالماني بدءا بكانت وليبنتز ، كان من العوامـل ذات الاثر البعيد في القرن التاسع عشر ، وكان هذا الدور البارز والنشط للفكـر الالماني يرجع الى الظروف التاريخية التي مرت بها هذه الامة بعد ان تحولـت طرق التجارة عنها الى الغرب ، وبعد ان مزقها الاصلاح الدينــي ، وحــروب الثلاثين ۰ مزق ما بقي من وحدتها منــذ الامبراطورية الرومانيــة المقدسة ، وتحولت الى مجموعة من الامارات تحت رحمة فرنسا ، وفي القرن الثامن عشر لم تنجح سوى دولة المانية واحدة هي بروسيا ، في مقاومة الفرنسيين ، وهــو

السبب الذي من اجله اطلق اسم الاكبر على فردريك (١٤) • ولكن بروسيا نفسها عجزت عن الوقوف في وجه نابليون واصيبت بهزيمة منكرة في يينا Jena مما كان له اثره البعيد في البعث القومي ، وفي الفكر القومي الذي سيطغى على أوروبا خلال القرن التاسع عشر •

يضاف الى المؤثرات العميقة خلال العصر ، والتي جعلت من القرن التاسع عشر ، مرحلة بالغة التعقيد بالقياس الى القرن السابق له ، اثر الداروينية التي طرحت مفهوم التطور كمفهوم علمي ، وحركة الكائنات العضوية وتطورها البيولوجي ، كجزء لا يتجزأ من العلم الطبيعي ، فكسرت الالية النيوتونية وفتحت ثغرة خطيرة في تصوراتها الميكانيكية والآلية • وأصبح داروين بالنسبة للقرن التاسع عشر ، ما كان جاليليو ونيوتن للقرن السابع عشر (١٥) •

وكانت الرومنسية الثورية في البداية ثورة ضد النظر الى العالم باعتباره مجرد نظام آلي ، وطبيعة راكدة باردة ، فالحياة والعالم وخبرة الانسان اكثر غنى ورحابة •

والواقع ان الفلسفة الالمانية الرومنسية والتقدمية كما عبر عنها فختة (١٦) ، ومن بعده تلميذه شلينج ، كانت قد طرحت جانبا الثنائية الفجة للمذهب العقلي، ثنائية المادة والروح ، كما طرحت الشكلية الكانتية ، ووصلت الى مفهوم عضوي حيوي للعالم بالمضمون الصوفي عند سبينوزا ، مضمون وحدة الوجود •الوحدة بين الله والطبيعة ، بين العقل والعالم الخارجي • وقد اضاف هؤلاء الفلاسفة الرومنسيون الالمان : فختة وشلينج وهيجل الى مفهومهم في وحدة الوجود ، مفاهيم النمو والتطور والتقدم • هذا المفهوم الجديد لم يعد يرى في العالم مجموعة من الاشياء تحكمها العلل والاسباب من الخارج ، وتعمل بضبط الآلة ، بل كائن عضوي هائل وحي ، يتطور على الدوام بفعل قواه وقوانينه الداخلية •

هؤلاء الفلاسفة كانوا متشربين بعمق تراث الفكر المسيحي ، كما ورثوا الى جانبه العقيدة العقلانية ، عن اولوية العقل وقوته المطلقة ، فأحالوا مفهومهم الجديد هذا عن التطور الى مجرد تطور روحي عقلي في الاساس (١٧) • اما هدف التطور عندهم فهو الحرية التي رأوا فيها مظهر الالوهية في العالم • والحقيقة ان الاولوية التي اعطاها هؤلاء الفلاسفة التقدميين في الاساس للحرية يعكس بصدق موقعهم الاصيل في السياسة والاجتماع • فتصور العالم كعملية Process وحركة ونمو وتطور ، انما يرسم معالم النظام الاقتصادي الجديد الذي كانوا يدعمونه ، كما يمثل مرحلة اساسية في الانتقال من المفهوم الميتافيزيقى الجامد للعالم الى المفهوم التاريخي والجدلي (١٨) • وعندما جعلوا من الحرية هدفا للتاريخ ، فقد عبروا عن نزوعات البورجوازية الثورية الصاعدة التي كانت تتمسك بمبدأ الحرية في الاقتصاد والاجتماع والسياسة•

ولكن العناصر الثورية والرجعية ، تختلط في فكر هؤلاء الفلاسفة كما سبق وذكرنا ، وبقدر ما فتح الطريق للفكر الراديكالي والثوري خلال القرن التاسع عشر ، فقد مهد الطرق ايضا لانتقال الرومنسية الى صف الرجعية والمحافظة والردة : فقد وقف فخته مع الحركة والتطور ولم تغب عنناظريه الامال الثورية لعصره ، فجعل نقطة التركيز في فكرة المستقبل الذي لا بد من الاعداد له ،رافضا الماضي المهترىء والحاضر الجامد الذي لا يتحرك ، ولكنه احال النشاط الثوري الى نشاط العقل والارادة الاخلاقية ، فهو يوتوبي خيالي ، ينأى عن العالم الخارجي ، ويلغي وجوده ، كما يلغي الحاضر ، باحثا عما ينبغي ان يكون ، عاكسا ضعف البورجوازية الالمانية وعجزها في حقيقة الامر عن مواجهة قساوة الواقع ٠

اما شلينج فقد وضع الاساس لحركة الردة ، والعزوف عن الحاضر ، والتلفت الى الماضي ، عندما جعل الاصل والمنبع هو العنصر الحاسم في كل نمو وتقدم ٠ فالماضي هو ما ينبغي ان نتوجه نحوه ونصعد اليه حتى نصل الى الحقيقة والحرية ٠ اما الماضي المثالي فيتجسد امامه في صورة العصور الوسطى ٠ فذاك زمان الروحانية السامية ، المفعمة بالقوة ، ومنها تحركت الروح بطريقة فاعلة ، لتتخلل كل عناصر الحياة والعالم ، وتحقق الاتحاد بين الروح والمادة، ولتتجسد في شكلها المحدد في اعمال الفن ، وخاصة في الكاتدرائيات الرائعة ٠

لقد جنح شلينج بعكس فخته الى التعلق بالماضي ، وكان له تأثيره العميق في رومنسية الثورة المضادة (١٩) ٠

ثم جاء هيجل وهو ارسطو او عقل القرن التاسع عشر ، واقرب الفلاسفة الرومانسيين الالمان الى المذهب العقلي ، ليدفع النظرة الحيوية العضوية للكون الى آفاق الجدل : جدل الحركة والتاريخ ٠ لم تعد الحركة هي هذه ــ الحركة المفردة الجزئية للاشياء التي يحكمها قانون السببية والآلية النيوتونية ، بل يتعين لكي نفهم ونفسر اي شيء او حادث فيالعالم ، تحديد مكانته الخاصة في المجموع العظيم للاشياء ، وليست الصلة بعلة سابقة هي التي تعطينا المعرفة الصحيحة ، بل الصلة بكامل عملية العالم العظيم ٠ فلا شيء يوجد في ذاته وبذاته ، بل كجزء من عالم بأسره مؤلف من افراد يرتبط بعضهم بالبعض الاخر، وكل شيء مدرج بالضرورة في هذا العالم ومتميز عنه ، ولكي نفهم ونعرف ، الاشياء او بتعبير ادق الفكرة التي يتجسد فيها جوهر الاشياء والواقع ، فلا بد ان ننظر في حركتها وتطورها خلال الزمان والمكان ٠ حركتها خلال التناقض والجدل وهو المنطق الذي يحكم هذه الحركة ٠ لا بد ان ننظر الى الحقبةوالواقع خلال التاريخ ٠ فالزمان والحركة يلعبان الدور الاعلى في مفهوم هيجل ٠

فلسفة التاريـخ :

هذا المفهوم الجديد للعلم وللحركة ، ادى بالمذهب الرومنسي الى موقف كان له تأثيره البالغ في القرن التاسع عشر ، ولعله ابعد المواقف تأثيرا • فاذا كانت الغاية من المعرفة تأليف الاشياء في كل اوسع ، واذا كانت الطبيعة حية ونامية ، واذا كان عنصر الزمن يلعب هذا الدور الحاسم ، الذي اعطاه له هيجل ، واذا كانت المشاعر التي تربط الناس بجماعاتهم الكبيرة ، فـــان التاريـخ البشري والتقاليد والتراث تصبح لها اهمية حيوية فحضارات الامم مثل المؤسســات والافكار وحتى الافراد هي نتاج نمو طويل ، لا يجوز الحكم عليها الا من خــلال معرفة كاملة بماضيها وتاريخها • وبذلك حلت التولدية والتاريخية كمنهــج للنظر في الاشياء والافكار محل الطريقة التحليلية والميكانيكية ، وصار مقياس كل شيء ليس حظة من المعقولية او النفع بل اصله وتاريخه •

وبالتدريج فقد اصبح المعقول هو التقليدي الموروث ، بعد ان كان النافـع فيما مضى هو المعقول ، ووجدت الرجعية والمذاهب المحافظة في هذه المفاهيم الثورية والتقدمية في الاصل : مفاهيم التطور والنمو وفلسفات التاريخ ـ تبريرا لها ، تستند اليه في التمسك بالقديم او النكوص اليه •

الرومنسية تتحول الى الرجعيـة

عندما تصبح المشاعر الملتهبة لا العقل ، والماضي الغابر ، هو معيار الحقيقة، وهو المحك ، فمن السهل ان تنقلب الامور ، وينتقل السلاح من يد الثوريين الـى ايدي الثورة المضادة• منالسهل ان تصبح العادات والتقاليد الموروثة، والمشاعر الدينية المشدودة بحبال الماضي ، والى السلف الصالح والازمان الغابرة هــي الموئل والملاذ ، وهي الامر الطبيعي والمقدس الذي لا يجوز الخروج عليــه او انتهاك حرماته • ففي غيبة العقل ، والنقد العقلي ، تتجمد المشاعر والعواطف ، وتصبح كل محاولة للتغيير ، هي خروج على الطبيعة البشريــة وانتهــاك لمقدساتها ، وتصبح الثورة والتغيير عملا غير انساني ، لا يتسق مع الطبيعة •

وقد وقف ، الرومنسيون الاوائل كما رأينا ، مع الانسان وحريته وتقدمه ،ومع تغيير المؤسسات والمعتقدات من اجل تحرير العواطف الانسانية واطلاق الطاقات وانماء الفردية والتفرد • ولكن القوى التي كان العقل قد الزمها جحورها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والتي بدأ صوتها خافتا ضئيلا طوال عصر التنوير • اخذ صوتها يرتفع ، ويشتد ، بعد ان تفجرت الصراعات الدامية خلال الثورة الفرنسية ، وبعد هزيمة نابليون وقيام الحلف المقدس ، واستعادة الرجعية الاوروبية لمراكزها وسيطرتها في العديد من البلدان • بدأ تيار اللاعقلانية يقوى

ويشتد ، ووجد في تيارات الرومنسية وشعرائها ومفكريها حليفا ومطية في كثير من الاحيان · فمن السهل ان تتبدل المشاعر ، وتفقد العاطفة اتجاهها دون قيادة العقل· لذلك تحول كثير من الشعراء الرومنسيين من امثال كوليردج ووردزورث من الحماس الاول للثورة الفرنسية ، الى الاشمئزاز والنفور نتيجة الصراعات الدموية ، ونتيجة الحملات البونابرتية التي اصطدمت بنمو وتفجر المشاعرالقومية الوطنية على الصعيد الاوروبي كله · وكان الايسر للقوى الرجعية السياسية والدينية ، التي عجزت عنمواجهة سلاح العقل ، ان تجد ضالتها في مناشدة الغرائز ، والعواطف والقلب البشري ·

لقد قلبت القوى المحافظة فلسفات التاريخ الثورية والتقدمية ، ومفاهيم الرومنسيين عن النمو والتطور الى ادوات لوقف كل نمو ، ومناهضة كل تطور وتغيير · جدل التاريخ الذي يعبر عن منطق حركته وتقدمه عبر مراحل يقود كل منها الى ما يليها صوب الحرية · وهو الجانب العبقري في فلسفة هيجل للتاريخ ، والذي سيكون له ابعد الاثر في الفكر البشري التقدمي على يد اليسار الهيجلي ، هذا الجدل ، والمفهوم التاريخي الجديد ، استغل اسوأ استغلال من جانب المحافظين اعداء التنوير والثورة · فقد استغلت « المدرسة التاريخية الوطنية » في المانيا هذا المنطق لتبرير كل ردة تاريخية ، ودعم كل نظام او مؤسسة او دولة مهما كانت رجعيتها · اصبح المفهوم الهيجلي ، عن التفتح والحركة في التاريخ يعني لدى رجال هذه المدرسة تبرير المحافظة والثبات والجمود تحت شعار « دعه يعمل » بمعنى منع اي عمل ثوري او تدخل من جانب قوى التغيير ، حتى تتاح الفرصة للنمو الطبيعي والتفتح ، والتغير من الداخل، من الذات · وبذلك استبعد العقل كقوة للتغيير والحركة ، وتجمدت الاشكال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ووجدت الرجعية تبريرا لجمودها ولمناهضة قوى الثورة · واصبح سافيني هو الداعية النظري والرسمي لهذا التطبيق الجديد لمذهب ونمو الرومنسي ، في مصلحة المحافظة والرجعية والثورة المضادة (٢٠) ·

بهذا المنطق اصبح الحاضر مشدودا الى الماضي ، واكتسب الماضي اهمية مطلقة ، واصبحت محافظة الامة على كيانها المستمد من الماضي ، تعني الجمود بل الارتداد الى هذا الماضي ، فليست الامة اليوم سوى امتداد للامة الازلية ، وهي في حاضرها انما تجسد ارث الماضي · واصبح هذا الفكر هو جوهر مفهوم القومية الرجعية ، الذي سيكتب له الغلبة والسيطرة خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر · وبذلك انقلب المفهوم الرومنسي عن النمو والنضج من الداخل الى قوة محافظة ومناهضة للثورة ·

وقد بدأ بالفعل رد الفعل الرومنسي منذ احداث ١٧٩٤ الدامية في فرنسا ،

وسقوط اليعاقبة واعدام روبسبيير ٠ بدأت خيبة الامل ، وموجة اليأس ٠ بعد الآمال التي انعشتها الثورة الجديدة ٠ وجاءت الاحداث التاليـــة حتى سقـــوط نابليون ، واستعادة اقطاب الرجعية في الحلف المقدس لزمام السلطة والسطوة، ليزيد من خيبة الامل عمقا واتساعا ٠٠ فكان الانسحاب الرومنسي من حاضـر مؤلم الى ماض موهوم ، يبدو هو الحل الافضل ، وبالاخص بالنسبة للطبقـات الوسطى الحائرة والمسحوقة ٠٠ لقد خفف الكتاب الرومنسيون ضغوط الحاجات الانية بالرجوع الى الماضي ، وبعث الكنوز العظيمة التي ابدعتها عبقرية الازمان الغابرة ، فاخضعوا ارادة الاحياء وضمائرهم لارادة الاموات (٢١) ، بعثت من جديد افكار ومعتقدات كانت موجة العقل قد كسحتها ولكنهم اشعلوا خيال اوروبا وملأوا عقولها بالاشباح وذكرى القلاع القديمة ، وقلوبها بالعظمة والمجد ٠ ردوا الاعتبار لكل قديم ، حتى روما المقدسة في العصور الوسطى ، ووجدوا فـــي ميثولوجيا الشعوب معينا لا ينضب ، وتحمسوا للعرق النقي ، كمـــا فعـــل مولرفي حماسه للعرق والدم ٠

ان الماضي ، في اعين من تأخذ بخناقه ازمات الحاضر وهمومـــه ، يكتسي بهالة من الابهة والجمال الرومنسي ، مهما حمل في طياته من قبـح وقذارة ٠ وتتلفت الطبقات والفئات المسحوقة والتي ترزح تحت وطأة اليأس وخيبة الامل ، الى مثل الحرية والاخاء والمساواة وهي المثل السامية لعصر العقل والاستنارة، فلا تجد مهربا سوى الى الجنة المفقودة في الماضي ٠ زمان الدعة والاستقـــرار وتهيم اعجابا بجمال العصور الوسطى الغابر ويبدو الملوك في ابهة الملك ، وبرغم كل ما اقترفوا من مظالم وبشاعات ، برونق اخـــاذ ، في اعيـــن الرومنسيين الحيارى ، وحتى رجال الدين تفتقر لهم خرافاتهم وخزعبلاتهم ٠ ولا يبقى مـــن ذكراهم سوى الكاتدرائيات البالغة الروعة والجمال التي خلفوها وراءهم ٠ وقد خلق الفن القومي فيالناس ميـــلا الى معتقدات الماضي وطقوسه ، وبعثـــت الكاثوليكية من جديد في المانيا وفرنسا ، وهي مدينة في هذا الاحياء لاجـــواء الخيال والهيام بالماضي والحنين المشبوب الى جنان العصور الوسطى ممـــا اشاعه الرومنسيون الرجعيون ٠

اصبح المثل الاعلى المتمثل في الانسان الطبيعي والحياة الريفية الوادعة هما البديل عن مثل العقل والتقدم ، والشغل الشاغل للعقول والقلوب في القـــرن التاسع عشر ٠٠ والتي ملأتها اوهام الرومنسية واحلامها اصبح الفلاح الساذج والوادع يجسد اعظم الفضائل في المجتمع ، في مواجهة بؤس العامل الاجير ، وموجة التصنيع والحضرية القاتلة !! وارتفع الى مصاف الامل الذي ترنو اليه وتتطلع الرجعية الجديدة ، من الاقطاعية المهذبة ، على يد طبقة من الفرســـان السمحاء ٠ وجاء مترنيخ ليعدد بمختلف الحجج مزايا الامير القدير والمدرب ، الذي تحيط به كوكبة من النبلاء ، المخلصين ٠ وتغنى البعض بقناعة العصـــور

الوسطى ، في مقابل شراهة الاعمال الجديدة والاستغلال البشع والمنافسات الرأسمالية المدمرة · وداعب الرومنسيون الامل في تصحيح اخطاء الماضي ، والعودة الى الرسالة النبيلة للاسلاف القدامى ، لكي يصبحوا خداما في مملكة الله ، وفرسانا في نظام جديد من الفروسية الاجتماعية (٢٢) ·

٢ ـ الدين في القرن التاسع عشر · الرومنسية في الدين

بدا الدين في القرن التاسع عشر عاجزا لا حيله له ، في مواجهة هجمات العقل العاتية ـ كما بدا لقادة عصر العقل ان كل جزء من التقليد اليهودي المسيحي قد تداعى واندثر · فقد ادى نمو العلم الميكانيكي والنقد العقلي والعلمي للتوراة ، ثم انفجار قنبلة التطور الداروني عام ١٨٥٩ الى صدام مباشر بين الدين والعلم ، تبدى وكانما لا حل له · وبدلا من محاولات التأقلم والتلاؤم مع عصر العقل والعلم ، بدأنا نشهد على العكس ، خلال القرن التاسع عشر ردة عارمة ، وانحسارا شديدا في تيارات العقلانية في الدين ، وتراجعا في مذاهب البروتستنتية الاصلاحية ، كما تمثلت في اللوثرية والكالفنية في عصر العقل والتنوير وارتفعت في المقابل ، موجة عاتية من النقد والتشهير تشترك فيها جميع الكنائس والمذاهب ، ضد العقل والعلم ، وبالاخص ضد افكار داروين والداروني·

وفي اجواء الرومانسية السائدة والازمة الاجتماعية المحتدمة ولدت خلال القرن ديانة جديدة ، واحياء ديني عماده العاطفة والقلب كطريق للايمان ، والحدس طريقا للمعرفة بديلا عن العقل ،ووقع الصدام بالضرورة بين الدين والعلم ، بعد ان استحال التوفيق بين هذه التيارات والمذاهب الدينية الجديدة السلفية والرجعية ، وروح العلم الحديث · فقد تحول المذهب الانجيلي في انجلترا ومذهب التقوى في المانيا الى دعامة هامة للرومنسية ، وكانت بدورها تنهل من معين الشعراء الرومنسيين ، لتزكي المناخ الرومنسي السائد وتمده بوقود جديد · واصبح لهذه المذاهب دورها في صياغة اخلاق الطبقة الوسطى الجديدة ، وفي اشعال العواطف والنزعات العاطفية بين جميع طبقات الشعب · وكلا المذهبين اكد على تقوى القلب وعلى الدين باعتباره تجربة روحية عاطفية لا علاقة لها بالعقل · وكانت ممارسة الطقوس والتركيز على الترتيل والانشاد الديني والوعظ من سمات هذه المذاهب ، مما اسهم في نشر اجواء مفعمة بالغيبية واحلام الخلاص والعودة الى الماضي (٢٣) ، تستمد الهامها ومثلها من العصر الوسيط ·

وقد ظهرت حركة « التقوى » Pietism اول الامر في المانيا ، في اواخر القرن السابع عشر ، كرد فعل ضد المذهب العقلي المتطرف الذي كانت تعتنقه فرق المتالهين ، التي انكرت الوحي (٢٤) ، بل وايضا ضد المذهب العقلي

المعتدل الذي كانت تدعو اليه اللوثرية : ومجمل دعوات انصار « التقوى » هؤلاء تتركز حول « ديانة القلب » والتأكيد على عجز العقل ، وعلى طريق الايمان باعتباره الطريق الوحيد الى المعرفة الصحيحة ، ورفض كافة الحجج والبراهين العقلية ، سواء جاءت مناصرة للحقيقة الدينية او ضدها ·

وقد وجدت هذه الدعوات الرافضة للعقل والمبشرة بايمان القلب والعاطفة ، دفعة قوية على يد المذهب الانجيلي ، الذي انتشر في انجلترا وامريكا ، ابان حركة الاحياء الديني ، في مستهل القرن التاسع عشر · وقد طرح الانجيليون المذهب العقلي « العقيم » جانبا ، واستبدلوا بالبرهان العقلي التجربة الدينية المباشرة ، تجربة الخلاص ونقاوة القلب ، وكانت عملية الاتجاه ايضا ، فقد شغلت القضايا الاجتماعية التي برزت ابان عصر التصنيع ، حيزا كبيرا من اهتمامهم وشكل وليم بوث William Booth سنة ١٨٥٩ « جمعية النهضة المسيحية » و « دكاكين الهداية » في اعشاش لندن واحيائها الشعبية · وكذلك تشكل « جيش الخلاص » بروتستانتيا مقاتلا ، لا يهتم كثيرا بالتقاليد الكنسية او الطقوس ، بل يركز على « العودة الى الايمان » والى « احضان المسيح » كسبيل لحل القضية الاجتماعية (٢٥) ·

أما الشكل الآخر من الاحياء الديني في ذلك العصر ، فلم يكن يوجه كبير اهتمام الى القضايا الاجتماعية ، بل يدعو الى الاحياء ، والى الاستغراق في جمال المسيحية ، واستجلاء الحقيقة التاريخية التي جسدتها ، ويركز على الطقوس وتقاليد الكنيسة على شاكلة الكاثوليكية ويمزج بينها وبين تعاليم البروتستانتية بخلاف المذهب الانجيلي · ونشأ عن هذا التيار اعادة تأسيس نظم للرهبنة في اطار الجماعة الانجيليكانية ·

ومع ذلك فقد كان الاهتمام بالقضايا الاجتماعية ظاهرة عامة في الاحياء الديني لذلك العصر ، الى جانب انبعاث الطقوس والتقاليد الكنسية ، وذلك في مواجهة الحركة الجماهيرية المتصاعدة والمتفاقمة ، ونشهد هذا ايضا في حركة الاحياءالكاثوليكي · وقد عبر عن هذا الاحياء شاتوبريان في كتابه « عبقرية المسيحية » سنة ١٨٠٢ وهو بمثابة الاعتذار للمسيحية ضد الرفض من جانب التنوير والثورة الفرنسية ، ودفاعا لا يقوم علىاساس من المنطق والعقل بل بمثابة الثورة على « معميات العلم والعقل » من اجل تفسير اعاجيب الحياة الخالدة التي لا يملك العلم ولا العقل لها تفسيرا او تعليلا ·· والمسيحية هي الاسمى ، لانها وحدها التي يمكن ان تفسر جوهر الانسانية وماهيتها ، بينما يعجز العلم · كما لم يقم الدفاع عن الكاثوليكية على دعامات تاريخية او لاهوتية بل على اسس رومنسية باعتبارها تجسيدا للانسجام بين مجموع الاشياء حيث تخرج من المركز – من روما – قوافل التبشير والكرادلة وغيرها من خدمات

الكنيسة لتغطي سائر المعمورة ، اضف اليه ان طقوسها تحتوي علـــى الاسرار الالهيـــة ٠

دفاع شاتوبريان عن الكاثوليكية لا يمثل ظاهرة معزولة ، فقد كانت الرومنسية تميل الى الكاثوليكية ، وكان احياء الكاثوليكية بدفع من القوى المحافظة علـى نطاق القارة، وكعلامة على ذلك اسست البابوية الجزويت سنة ١٨١٤٠ وحاولت الكاثوليلكية مواجهة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الملحة بطريقة واقعية ودون مساس بجوهر العقيدة ٠ فقد دفعت ثورة سنـة ١٨٤٨ الكنيســـة الكاثوليكية الى النزول في خضم النشاط الاجتماعي والسياسي ، بعد ان كانت تكتفي بمجرد الدعم للنظم المحافظة والرجعية ٠ وكان تركيز الكنيسة على مفاهيم المحبة والرفق والاحسان في المسيحية بديلا عن الصراع وعلى المفهوم التعاوني على النمط الوسيط في النقابات المهنية التي كانت تجمع بين العمال واصحاب المهن وتحقق التعاون بينهم في اطار من التراحم المسيحي ٠ وقد نظم الاسقـف كتلـر ، Kettler في المانيا العمال المهرة في « ميثاق العمال الكاثوليك » (٢٦) ، وهو اصل نقابات العمال المسيحية وكان الهدف غرس كبرياء العمل في مواجهـة الوعي الطبقي الذي يبذره الماركسيون وكان مفهوم الدولة التعاونية الابويـــة الرحيمة ايضا شائعا في الفكر المحافظ تدعمه الكنيسة في مواجهة الافكـــار الليبرالية والاشتراكية وبديلا عنهـــا ٠

لقد تحولت جميـــع تيارات الاحياء البروتستنتية والكاثوليكية الى أدوات مباشرة في يد القوى المحافظة والرجعية ، كما شملتها حركة ردة كاملة عن عصر العقل والاستنارة ، وعودة الى الكثير مما عفا عليه الزمن ، والى بعض الركائز الاقتصادية الجامدة والمنفرة ـ بعدما القى بهـــا المذهب العقلي والمسيحيـــة الاصلاحية في طي النسيان ٠٠ هذه التيارات في مجموعها تتميز بضيق الافق ، وبالنزوع الغيبي والفج ، والتمسك الحرفي بالتوراة ٠ بعد ان حولت بصرهـــا صوب الماضي ، ادارت ظهرها للعقل ، ولكل مكتسبات العلم والثقافة الدنيويـة وللمستقبـل ٠

امل الخلاص ٠٠ اليهودي

لم يختلف وضع اليهود ، والديانة اليهودية كثيرا في هذا المناخ الفكـــري والاجتماعي والسياسي المسيطر على العقل الاوروبي ، وعلى المواطن الاوروبي مسيحيا كان او يهوديا ٠ وقد رأينا كيف يضم الرحم الاوروبي الواحد التوأمين معا ، مهما بدا الصراع بينهما احيانا دمويا قاسيا ، ولكن الثقافة المسيحيـــة اليهودية ظلت على الدوام خلال التاريخ الاوروبي كله وبالاخص في العصـــر الحديث ، بعد ان تساقطت اسوار الغيتو ، تتبادل التأثيـر ، لانها تنتمـي فـي

الحقيقة الى جذر اجتماعي واحد ، مهما اختلفت العقائد والثقافات والممارسات الدينيـــة الطائفية ، كما انها تنهل من منبع واحد ٠

ولقد شهدنا كيف امتدت شرايين الحياة الاوروبية الجديدة في عصر العقـل والاستنارة ، لتمد الجميع بالدم الجديد ، وبنبض الثورة الفكرية والسياسيةالتي اجتاحت اوروبا خلال هذه المرحلة ، وكيف انعكس الاصلاح الديني المسيحي ، وموجة العقلانية والليبرالية السياسية في حركة الاصلاح الديني اليهودي خلال القرن الثامن عشر ٠ وقد تمثلت في حركة الاندماج القومي والذوبان الشاملة ، والتي اصبح لها السيادة بين طوائف اليهود الاوروبية خاصة في الغرب ، وقد كان لليهود بجميع فئاتهم وطبقاتهم ، وبالاخص البورجوازية اليهودية اسهامـــها البارز في حركة الثورة « الاوروبية » ، وبالاخص في ثورات ١٨٣٠ و ١٨٤٨ في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وفي حركة المطالبة بالحقوق المدنيـــــة والمساواة بين الجميع ، والتي اتت ثمارها في التشريعات التي توالت خلال هذه الفترة في اعقاب الثورة الفرنسية ، وفي جميع دول الغرب ، كما شملت جميع الديانات والطوائف وعلى رأسها اليهود ٠

لقد اصبح اعتناق المسيحية ، كتعبير اقصى عن نزوعات الاندماج والوحـدة من الامور الشائعة بين اليهود المتحررين ، خاصة بين الطبقات الوسطى ،والذين كان لهم دورهم البارز في نفس الوقت في دفع حركة الرومنسية خاصة فـــي المانيا ٠ فقد اعتنقت المسيحية على سبيل المثال راشيل ليفين Rachel Levin (٧١ ١٧ ـ١٨٣٣) وهنـــرييت هـــــرتز Hanriette Herz (١٧٦٤ ـ ١٨٤٧) وكانت صالوناتهما تسيطر على الحركة الثقافية في برلين ، كما اعتنقها ايضـــا المؤلف الموسيقي فيلكس مندلسون Filix Mendelssohn (٢٧) ٠

ومع الانقلاب الصناعي وانتشار المكننة ، وتفاقم المعاناة بينجماهير الطبقـــة العاملة والشعب لتزايد حدة الاستغلال وتكدس الثروة ،وتفاقم الصراع كنتيجة لذلك ، بين البورجوازية التي ارتفعت مداخن مصانعها تشق الفضاء ، والشعب العامل ، يضاف اليه فشل الثورات الليبرالية في مطلع القرن ، وخيبة الامل في شعارات الليبرالية ونداءاتها ٠ لهذه الاسباب مجتمعة تعاظمت موجة الرومنسية الرجعية السياسية والفكرية والدينية كما رأينا تعبيرا عن الضياع وفقدان الثقة في العقل واليأس ، الذي تردت اليه جماهير الطبقة الوسطى بوجه الخصوص ، تلك التي كانت تسحق يوما بعد يوم تحت اقدام البورجوازية المكتنزة ، المسيحية او اليهودية لا فرق ٠ كان لا بد ان يفرز هذا الصراع غير المتكافيء والــــردة الغالبة على الساحة الاوروبية السموم والغيبيات التي تخفي حقيقة الصـــراع وتسلب الوعي ٠ منذ ذلك الحين بدأت في الانتشار الافكار العرقية ، ومعـــاداة السامية ويعنينا في هذا السياق انتشار مفهوم « غير المسيحي » Monchristian

وهو الوصف الذي ينطبق بالاخص على اليهودي ، الذي اعتبر كائنا مجردا عن المشاعر المسيحية الحقيقية ، كما تعوزه الرحمة والانسانية · وبرزت موجة في الادب ، سواء في الروايات او المسرحيات تصور اليهودي على انه المادي الجشع ، وانتشرت المقابلة بين « الالماني » الذي يتصف بالمشاعر الانسانية والمسيحية الحقيقية ، واليهودي المجرد منها ·

ومن الطبيعي ان يكون لهذه الردة الرومانسية في الفكر والسياسة والدين ، انعكاساتها وظلالها اليهودية ايضا ، في نطاق الدين اليهودي والحاخامين اليهود · فعلى نقيض العقلانية وتيارات الاصلاح الديني اليهودي التي تمثلت في حركة الهاسكالاه وغيرها ، نشهد في هذه الفترة صعود دعوات جديدة قديمة في اطار ما اصطلح على تسميته « بالصهيونية الدينية » قبل ان تظهر الى الوجود « الصهيونية السياسية » وكانت بلا شك هي المقدمة والمدخل اليها ، وللردة الفكرية والسياسية التي ستصيب بشكل خاص جماهير اليهود المسحوقة مع شعوبها ، وكما انتشرت افكار « الخلاص » و « جيش الخلاص » و « دكاكين التوبة » في الشرق من لندن وفي غيرها ، تدعو الجماهير المطحونة الى الخلاص عن طريق الدين وتقوى القلب والعودة الى « احضان المسيح » · فقد انعكست اصداء هذه الافكار الرجعية في مفهوم « للخلاص اليهودي » ايضا يدعو للعودة الى التلمودية وتراث القبالة الصوفي اليهودي ، وفقط العودة الى اورشليم من جديد والى الامل المسيائي اليهودي القديم الذي كانت قد اسقطته اليهودية الاصلاحية · وفي هذه الفترة بالذات ارتفع صوت الحاخام يهوذا القالي (٢٨) حاخام عاصمة الصرب سنة ١٨٢٥ ، وقد دعا في كتاباته الى خلاص اليهود بالارتداد الى اساطير القبالة الصوفية والتلمودية ، ونشر في سنة ١٨٣٤كراسة «اسمعي يا اسرائيل» اقترح فيها اقامة مستعمرات يهودية في فلسطين لكي تكون مقدمة ضرورية « للخلاص المنتظر » ويتم الخلاص الذاتي بالدعوة الى عقد جمعية عامة كبرى وقيام صندوق قومي لشراء الاراضي ، وهي الافكار التي تبناها هرتسل فيما بعد · وفي سنة ١٨٣٤ كتب كتابه عن « الخلاص الثالث » وفسر الخلاص الجديد على اساس الاستيطان في فلسطين بقصد تعمير الارض الخراب « واعتبر العودة الجماعية ، بمثابة بداية للخلاص الذي وعد به جميع الانبياء (٢٩) · وكانت هذه الدعاوى تلاقي رفضا من الغالبية الساحقة من اليهود ولكنه ظل يعمل بدأب على بعث النصوص التلمودية والاساطير القديمة لدعم دعاواه ، موليا وجهه شطر الماضي جريا وراء الامل الرومنسي » ·

ومن ابرز ممثلي تيار الردة الديني هذا ، الحاخام رفي هيرشن كاليشر (١٧٩٥ ـ ١٨٧٤) والذي ظل حاخاما لبلدة نورن ببولندة طيلة اربعين عاما ، وواجه بعناد حركة الاصلاح الديني اليهودي ، وظهر كتابه « السعي لصهيون » سنة ١٨٦٢ وقد استشهد موسى هس بمقاطع من هذا الكتاب في كتابه « رومة

والقدس » الذي ظهر في العام نفسه (٣٠) ، وقد اعتبر العذاب والشقاء الذي يلاقيه اليهود بمثابة امتحان للايمان وبداية لحدوث الخلاص عن طريق التطوع للذهاب الى فلسطين بقصد الاستيطان · وقد نشأت معارضة قوية لدعوته في اوساط الاتقياء المتدينين ولكنه اتهم كل معارضة لافكاره ، في تشجيع الاستيطان وشراء الاراضي وقداسة العمل في الارض ، بانها من عمل الشيطان ، وراح يطوف البلدان الاوروبية محرضا اليهود على تنفيذ مشروعاته على امل الخلاص، مما حمل جماعة من اليهود على شراء ارض في ضواحي يافا سنة ١٨٦٦ حيث قامت جمعية الاليانس الاسرائيلية التي تأسست فيفرنسا ١٨٦٠ بانشاء المدرسة الزراعية لتشجيع شراء الاراضي واقامة المستوطنات الزراعية (٣١) ·

وفي دعاوى هؤلاء الحاخامين الرجعيين تختلط الحجج التلمودية السلفية بنزوعات القومية الرجعية والردة الى الماضي الذائعة في ذلك الحين ، بالعرقية التاريخية ، لتمهد الطريق للصهيونية السياسية في اطار امل الخلاص المسيائي الرومنسي امل البورجوازية الصغيرة المطحونة ، يهودية كانت او مسيحية ·

والواقع ان هذه التيارات النيوصوفية المناهضة للعقل ، جمعت فئات من المسيحيين واليهود ، ولحمت ما بين عناصر الردة والنكوص في كلا الثقافتين ، في اجواء مفعمة بالحس التاريخي والاساطير ورؤى الماضي الرومنسية ، وتنبؤات بمجيء المسيح لابعاد العالم عن الشرور والحروب · وقد اعلن البعض ان بابل في طريقها الى السقوط لتقوم المملكة الخامسة للصالحين !!·

الحواشي

(١) بدأت الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في بريطانيا بالتحول منالصناعة اليدوية المانيفاكتورية الى الصناعة الآلية ، وقد انتشرت مع بداية القرن التاسع عشر بسرعة فائقة الى بقية اجزاء اوروبا ، في فرنسا والمانيا وايطاليا والنمسا وروسيا وغيرها ·

ثم جاءت الثورة في ميدان المواصلات منذ بداية القرن التاسع عشر ليكون لها اثرها ، الضخم على تطور الصناعة في اوروبا ، وكان من آثار هاتين الثورتين ، النمو السريع للرأسمالية في القرن التاسع عشر ، ونمو مدن صناعية كبرى في اوروبا والولايات المتحدة وكانت ثورة التصنيع في انجلترا اسرع ، وقد اكتملت تقريبا في النصف الاول من القرن التاسع عشر ومن هنا كانت آثارها المصاحبة اكثر وضوحا ·

وقد ترتب على هذا النمو السريع للصناعة وللرأسمالية الاوروبية، استقطاب اجتماعي مقابل ، حيث تبلورت طبقتان اساسيتان هما البورجوازية الصناعية من جهة ، والبروليتاريا من الجهة الاخرى ، أما الطبقات الاخرى وهي الفلاحين والنبالة والبورجوازية الصغيرة ، فقد كان دورها اصغر ·

وفي البلاد التي كان الفلاحون فيها اكثر عددا بالنسبة للبروليتاريا مثل المانيا وفرنسا فقد ظلت النبالة وكبار ملاكالارض تلعب دورا اكثر بروزا ، وبرغم الثورات البورجوازية خلال القرن فقد استطاعتهذه الطبقات استعادة السلطة والسيطرة على

الساحة في اكثر من موقف ٠

(2) B. Russel, *History of Western Philosophy*, p. 756.

(٣) صدر بيان سنة ١٨٢٠ اثر اجتماع في تروپاو بين قيصر روسيا ومترنيخ وبروسيا ، يؤكد أن الدول الثلاث لن تعترف ابدا بحق اي شعب في الحد من سلطة مليكه ، كما هدد بشن الحرب لمصلحة الملوك، وضد الثورات اينما تكون٠ [**اوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين**، أ ج جرانت، جـ ١ ص ٢٩١]٠

(٤) كانت البورجوازية تحتاج الى موارد رخيصة للمواد الخام كما تحتاج الى اسواق جديدة ، واعتبرت الحروب الكولونيالية عمليات مربحة جدا ٠ وبدأت انجلترا وهي اكثر الدول الرأسمالية تقدما تتقدم الصفوف ٠ ففي سنة ١٨٢٩ استولى المستعمرون البريطانيون على اسام في حربهم مع بورما ٠ وفي سنة ١٨٣٩ استولوا على عدن ، وخلال الثلاثينات نشبت الحروب ضد افغانستان واجزاءمن الهند ، وفي سنة ١٨٤٣ استولوا على الهند ، وفي سنة ١٨٤٦ على كشمير وجزء من البنجاب٠ وبين ١٨٣٩ و١٨٤٢ احكمت بريطانيا قبضتها على الصين في حرب الافيون واستولت على هونج كونج ٠ وفي سنة ١٨٣٠ استولت فرنسا على الجزائر٠

(5) Russel, *op. cit.* p. 746.

(٦) راندال ، **تكوين العقل الحديث**، جـ٢ ص ١٨ ٠

(٧) المصدر نفسه ، ص ٤١ ٠

(٨) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤٢ ٠

(9) Russel, *op. cit.* p. 701 .

(١٠) راندال ، **مصدر سبق ذكره** ، جـ٢ ص ٣٩ ٠

(11) Geonge I. Mosse, *the Culture of Western* Europe, Rand Mcnally College Publ . Chicago p. 22.

(12) Russel, *op. cit.* p. 705 .

(13) *Ibid*, p. 708 .

(14) *Ibid*, p. 747.

(15) *Ibid*, p. 752.

(١٦) فيلسوف الماني ١٧٦٢ ــ ١٨١٤ ٠

(17) A. Cornu , *The Origin of Marxian Thought*, p. 12. 13.

(18) *Ibid*, p. 15.

(19) *Ibid*, p. 19.

(٢٠) راندال ، **مصدر سبق ذكره** ، جـ٢، ص ٥٧ ٠

(٢١(**المصدر نفسه**، جـ ٢، ص ٥٨ـ٥٩٠

(٢٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٨٢ ٠

(23) Mosse, *op. cit.* p. 15.

(٢٤) مذهب التاليه Geism وهو الذي يقرر وجود الله كصانع للعالم وينكر الوحي ٠

(25) *Ibid*, p. 25.
(26) *Ibid*, p. 236.

(27) *Ibid*, p. 36.

(٢٨) ١٧٩٨ ــ ١٨٧٨ ٠

(٢٩) انيس صايغ ، **الفكرة الصهيونية النصوص الاساسية** ، بيروت ، مركز الابحاث ، سنة ١٩٧٠ ، ص ٩ ٠ وكذلك : اسعد رزوق ، **التلمود والصهيونية** ،مركز الابحاث ، ١٩٧٠ ، ص ٢١٢ ٠

(٣٠) صايغ ، **المصدر نفسه** ، ص ١٢ ٠

(٣١) **المصدر نفسه** ، ص ١٢ ٠

سمير كرم

"الدولية الاشتراكية"
إطار التراجعات النظرية والسياسية

من الظواهر التي صاحبت انتكاس النظام الحاكم في مصر عن المواقع العربية بالنسبة للقضايا القومية ـ الاستراتيجية والتحررية والسياسية والاقتصادية ... الخ ـ تراجع النظام نفسه على الصعيد الداخلي الى مواقع « الاشتراكية الديموقراطية » . وقد روجت اجهزة الاعلام والتنظيمات السياسية الخاضعة للنظام الحاكم في مصر لايديولوجية الاشتراكية الديمقراطية ، بشكل خاص خلال الفترة القصيرة التي سبقت تشكيل « الحزب الوطني الديمقراطي » ، الذي الفه رئيس النظام انور السادات ، في توقيت يتوافق ـ توافقا سياسيا وعقائديا ـ مع توجهاته الجديدة التي سار فيها صوب الصلح مع اسرائيل بعد تمتين التحالف بينه وبين الامبريالية الاميركية .

من ثم لم يكن من قبيل المصادفات ان لعبت « الدولية الاشتراكية » دورا ظاهرا ـ ولو بشكل جزئي ـ على الاقل في التأثير في سياسة النظام المصري ، وتسهيل قنوات الاتصال بينه وبين الصهيونية ومنظماتها ودولتها (اسرائيل) .

ولقد لمع اسم « الدولية الاشتراكية » في السياسة المصرية خلال الفترة التي سبقت مباشرة زيارة انور السادات للكيان الصهيوني في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ . ولم تلبث ان تكشفت بعض جوانب مساهمة « الدولية الاشتراكية » كمنظمة وكأحزاب منفردة في التمهيد لهذه الزيارة وتشجيع تلك السياسة . والدلائل كثيرة على ان مؤتمرات « الدولية الاشتراكية » لعبت دورا كأطار للقاءات مصرية ـ اسرائيلية رسمية وشبه رسمية ، حزبية وحكومية . وفي تلك الاثناء تقدم الحزب الحاكم في مصر (« حزب مصر العربي الاشتراكي » في

مرحلة ما قبل تشكيل « الحزب الوطني الديمقراطي ») لعضوية « الدولية الاشتراكية » كواحد من الاحزاب المعتنقة لمبادىء وافكار الاشتراكية الديمقراطية التي تدين بها احزاب « الدولية الاشتراكية » ، المنتشرة بصفة خاصة في اوروبا الغربية وآسيا (وعلى نطاق اضيق في بعض بلدان اميركا اللاتينية وافريقيا)٠

ولقد عرفت الجماهير العربية ـ والمثقفون العرب خاصة ـ « الدولية الاشتراكية » ، خلال سنوات الخمسينات والستينات بوجه خاص كواحدة من المنظمات العالمية التي تلعب فيها الصهيونية دورا فعالا وتتمتع بنفوذ سياسي وعقائدي كبيرين ٠ وذلك من خلال مواقفوقرارات اتخذتها هذه المنظمة على مدى تلك الفترة ، في صف قضايا اسرائيل ومواقفها ، وفي صف قضايا الصهيونية وتأييدا لمبادئها واهدافها ٠

وفي الوقت الحاضر ٠٠ حين يتجه النظام المصري الى اعتناق الاراء النظرية والسياسية للديمقراطية الاشتراكية ، ويتقدم الى عضوية « الدولية الاشتراكية » كاطار جديد لعلاقاته بالمنظمات الحزبية والعقائدية ، تلقى الاضواء خاصة في مصر على هذه المنظمة وعلى الاحزاب المشاركة فيها ٠

والملاحظ انه لا « الدولية الاشتراكية » ولا الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية لقيت من اهتمام الدارسين والباحثين العرب ما يمكن من فهم الوقع العقائدي والسياسي لها في الصراع الايديولوجي والسياسي الذي يميز المرحلة الحالية من التطور العالمي ٠ فغالبا ما اقتصرت الاهتمامات العربية على مجرد السرد الاخباري لقرارات « الدولية الاشتراكية » فيما يتعلق بازمة الشرق الاوسط على مدى السنوات الماضية ، كلما عقدت مؤتمرات هذه المنظمة ٠

ولعله قد آن الاوان لالقاء نظرة اكثر جدية على المنظمة تضع في بؤرة الاهتمام اتجاهاتها ومبادئها النظرية والعقائدية العامة ، واستراتيجيتها السياسية ، اكثر مما تركز على القرارات والبيانات التي تعكس المواقف الجزئية اليومية ذات الطابع السياسي المتغير ٠

بل لعلنا مضطرون لان نبدأ مثل هذه النظرة من نقطة البداية الاولى ، اي بتعريف مبدئي بالدولية الاشتراكية ، طالما ان مثل هذا التعريف يكاد يكون (فيما اعلم وفيما انتهت اليه محاولات جادة للبحث والتنقيب) غائبا تماما عن الادبيات النظرية والسياسية العربية ، حتى على المستوى الصحفي ، فضلا عن المستوى الاكاديمي الاكثر جدية والاشد اهتماما بالجوانب النظرية والفكرية ٠

ولقد انعقد المؤتمر الرابع عشر للدولية الاشتراكية في « فانكوفر » في الفترة من ٣ الى ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ٠ وخصص المؤتمر لبحثموضوع « السلام والتنمية » ٠ وقد اعلن المؤتمر قراراته في ١١/٦ مؤيدا مفاوضات

السلام في الشرق الاوسط ، وقال بيان المؤتمر في هذا الصدد « ان حل النزاعات بالطرق السلمية يتطلب قبول حلول وسط واقعية ، وتحقيق مطرد في مواجهة الصعاب ، ويتعين وضع مثال عملية السعي الراهنة لاقرار السلام في الشرق الاوسط في الاذهان ، ويجب ان يلقى اولئك الذين يقومون بمثل هذا العمل تأييدا صريحا وايجابيا ٠ »

وبطبيعة الحال فانه يمكن الخروج باستنتاج عام وبسيط للغاية عن منهج « الدولية الاشتراكية » في رؤية مشكلة الشرق الاوسط ، او اي مشكلة دولية اخرى ، قائمة من خلال مثل هذه الفقرات التي تصدر عن قراراتها بصورة تكاد تكون ثابتة ومكررة ٠ ولكن من المؤكد ان هذا النوع من الاستنتاج لا يغني عن محاولة فهم للخلفية العقائدية التي تقوم عليها « الدولية الاشتراكية » ، والتي تجعل بالامكان – بناء على ذلك – فهم دورها في الصراعات السياسية الدولية ٠ وتوقع الكيفية التي يمكن ان يجيء عليها سلوكها السياسي تجاه المشكلات المعاصرة المختلفة ٠ وقد لا يهم هذا الامر كثيرين ، ولكنه يهم بالتأكيد من يريدون رصد الادوار التي يمكن ان تقوم بها في خلق اطر سياسية واحدة تتحرك داخلها اسرائيل والنظم العربية الداخلة في « عملية السلام » ٠ واذا كان الاهمال قد طال « الدولية الاشتراكية » من جانب « المنشقين السياسيين » العرب طوال الحقبة التي تميزت فيها هذه « الدولية » بتبني سياسات اسرائيل ضد وطننا العربي ، فأنه لم يعد من الجائز امتداد هذا الاهمال – او اللامبالاة ٠ أما الحقبة التالية ، التي بدأت لتوها – والتي تتميز فيها هذه « الدولية » بتبني دور الجمع بين احزاب اسرائيل الصهيونية وأحزاب العرب الانتهازية والمستسلمة تحت شعار « الاشتراكية الديمقراطية » ٠

خلفية تاريخية

ولنعد الى سؤال البداية : ما هي الدولية الاشتراكية ؟

لا بد للاجابة بوضوح على هذا السؤال من عودة الى خلفية تاريخية تبدأ بتكوين « الدولية الاولى » ٠

في العام ١٨٦٣ وقعت انتفاضة كبرى في بولندا ضد الحكم الروسي ، ادت الى إثارة العمال الداعين سياسيا في جميع انحاء اوروبا – الى جانب الليبراليين من غير ابناء الطبقة العاملة – لتأييد الثوار البولنديين والتضامن معهم ٠ وقدمت منظمات الطبقة العاملة في فرنسا وبريطانيا خاصة ، التماسات الى الحكام في البلدين باتخاذ موقف تأييد للبولنديين ضد السلطة القيصرية الروسية ، ولكن شيئا من هذا لم يلق اية استجابة ٠ ونظم العمال الفرنسيون والانكليز معا مظاهرات تأييد لحرية بولندا في ٢٢ تموز (يوليو) ١٨٦٣ ٠ ولم

يكن من شأن هذه المظاهرات ان تساعد الثوار البولنديين في شيء · ولكن قبل فض هذه المظاهرات وافق ممثلو الجانبين على تكوين « رابطة الدولية للعمال » لتبني قضية وحدة الطبقة العاملة في نضالها من أجل تحسين احوالها الاقتصادية والاجتماعية ، بل من أجل وصول العمال الى السلطة · وقبيل عقد الاجتماع الافتتاحي لهذه الرابطة دعي كارل ماركس ـ الذي كان يعيش آنذاك في المنفى في لندن ـ لتمثيل العمال الالمان في الاجتماع · ولكنه وافق على الحضور فقط بصفة « مراقب » · واسفر الاجتماع فعلا في لندن عن تأسيس الرابطة واتخاذ مقرها الرئيسي في العاصمة البريطانية ، وتشكيل لجنة برنامج وعهد الى ماركس بمهمة وضع اللائحة المنظمة لنشاط الرابطة وكذلك برنامج عمل لها · وبالفعل وضع ماركس دستورا لـ « الدولية » (وهو الاسم الذي اصبحت تعرف به الرابطة) يقوم على اساس ان « تحرير الطبقة العاملة ينبغي ان يتم بأيدي العمال انفسهم » ، وان « غزو السلطة السياسية اصبح المهمة الاساسية للطبقة العاملة » · واقر هذا الدستور بالاجماع ·

وحققت « الدولية » نجاحا مبكرا اذ اخذت الاحزاب السياسية العمالية تتألف في ايطاليا وفرنسا وبلجيكا والمانيا وغيرها ، واخذت ترتبط بعلاقات وثيقة مع النقابات والتنظيمات العمالية الاخرى في بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية · وقد اعتبرت « الدولية » في ذلك الوقت على درجة من القوة بحيث اخذت الاتجاهات الثورية المتباينة تبذل اقصى المحاولات للسيطرة عليها · وقد نجح ماركس في الابقاء على سياسة « الدولية » وبرنامجها عن طريق ابعاد موضوعات الصراع والخلافات خارج جدول اعمال مؤتمرات الدولية في ذلك الوقت ·

وفي العام ١٨٦٧ ـ وكان عام اضرابات عمالية عامة في جميع انحاء العالم الصناعي ـ نجحت « الدولية » في اتخاذ اجراءات مشتركة تتجاوز الحدود الاقليمية للاقطار ، حتى ان رابطات اصحاب الاعمال فشلت في جلب اشخاص اجانب الى بلادها من اجل كسر الاضرابات · وفي ذلك الوقت قدرت الصحف المحافظة عدد اعضاء « الدولية » بما يربو على سبعة ملايين عامل · الامر الذي اثار انزعاجا شديدا بين نظم الحكم في العالم الصناعي خاصة ·

الا ان « الفوضويين » بزعامة باكونين وتنظيمهم المسمى « التحالف الديمقراطي ـ الاجتماعي » كانوا قد عقدوا العزم على اخضاع « الدولية » لبرنامجهم ، وهو برنامج الثورية الفورية بالوسائل العنيفة ، وتدمير المؤسسات القائمة من أجل انتصار « الفوضوية الاممية » · عارض ماركس هذا البرنامج بشدة وقاد الديمقراطيين الاشتراكيين العلميين ذوي الاتجاه العلمي الواقعي ضده من مؤتمر الى مؤتمر للدولية · ولكن نتيجة هذا الصراع الضاري الذي

استمر فيما بين المؤتمرات اضعف « الدولية » واشاع الالتباس في اتجاهاتها وبرنامجها وأهدافها · وبلغ الصراع ذروته بطرد باكونين منها ، ونقل المقر الرئيسي للدولية من لندن الى نيويورك ، حيث اصبح من الصعب على ماركس ان يتابع ادارتها من لندن، وحيث اصبحت مقطعة الخيوط معجذور الطبقةالعاملة النامية في اوروبا · وانتهى الامر بها الى ان حلت في العام ١٨٧٦ ·

الدولية الثانيـة

ادى حل « الدولية » الى ترك الطبقة العاملة في البلدان الصناعية دون منظمة دولية موحدة لجهودهم ونضالاتهم ، في وقت تعددت فيه الاحزاب والتنظيمات الاشتراكية في العالم ، ولم يكن التضامن السياسي – دون منظمة موحدة – كافيا في مثل تلك الظروف · وهكذا تأسست « الدولية الثانية لرابطة العمال » في باريس في العام ١٨٨٩ (بعد وفاة ماركس بست سنوات) · وقد لعب الديمقراطيون الاشتراكيون الالمان دورا اكبر من الدور الذي لعبوه في تأسيس « الدولية الاولى » وجاءت « الدولية الثانية » تنظيما اقل تماسكا ، ولم تتمتع بتأييد اصيل من الطبقة العاملة كالذي تمتعت به « الدولية الاولى » خاصة في سنواتها الاولى ، لانها كانت اكثر من سابقتها واقعة تحت سيطرة المثقفين الديمقراطيين – الاشتراكيين · وشغلت لسنوات طويلة بقضية ما يسمى « المراجعة » التي تزعمها كاوتسكي بحيث لم يكد يكون لها موضوع آخر تشغل به ·

وكان اهم قرار اتخذته « الدولية الثانية » قرارها في مؤتمر عقدته في امستردام في العام ١٩٠٥ بعدم السماح لزعماء الاحزاب الديمقراطية الاشتراكية بقبول مناصب في حكومات بورجوازية ائتلافية · وقد روعي هذا القرار حتى جاء مؤتمر الدولية الثانية في كوبنهاغن في العام ١٩١٠ حيث تقرر ان تشترك الاحزاب العمالية وكل الاحزاب والحركات الاشتراكية الوطنية في عمل مشترك من أجل منع اقطارهم من الدخول في حروب بعضها ضد بعض · وعندما جاءت الفرصة فيالعام ١٩١٤ ، وكان الحزب الديمقراطي الاشتراكي الالماني اقوى الاحزاب الاشتراكية في العالم ، وقف هذا الحزب ضد القرار المناهض للحرب ، حيث لم يعارض التعبئة العامة في المانيا ولا قرار توفير امدادات الحرب الذي اتخذه الرايخ الالماني ، ورفض دعوة الطبقة العاملة الالمانية الى اضراب ضد الحرب · وهكذا فقدت « الدولية الثانية » فاعليتها ، وانهارت باندلاع الحرب العالمية الاولى ·

ومنذ انهيار « الدولية الثانية » ، وبصفة خاصة منذ اندلاع ثورة اكتوبر

الاشتراكية في روسيا في العام ١٩١٧ انقسمت الحركة الاشتراكية العالمية الى اتجاهين متنازعين بمرارة · اتجاه مثلته « الدولية الثالثة » (التي اصبحت تعرف باسم « الكومنترن ») التي ضمت الاحزاب العمالية والشيوعية المؤيدة للثورة البلشفية ، واتجاه مثلته « الدولية الاشتراكية » التي ضمت الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية المناهضة للشيوعية ، الاولى تدعو للاستيلاء الثوري على السلطة بواسطة العمال ، والثانية تدعو اليه بواسطة العمل السلمي البرلماني في ظل حق الانتخاب العام · الاولى تسعى الى تحقيق «الثورة العالمية» وان آمنت بنظرية « الاشتراكية في بلد واحد » كبداية لهذه الثورة العالمية ، والثانية لم تحاول مطلقا ان تضفي على مذهبها اي معنى او تطبيقا عالميا · الاولى انعكست نظرتها العالمية في تأييد حركات التحرر الوطني الاستقلالية في المستعمرات في جميع انحاء العالم ، والثانية لم تستطع حتى واحزابها في السلطة ان تمنح تأييدا حقيقيا لحركات التحرر الوطني ، اذ انحصرت فلسفه دعاتها في نزعة « تطورية » دفعتهم الى التفكير – لا في ثورات او انتفاضات في المستعمرات – بل على اكثر تقدير في تقدم تدريجي نحو صور محدودة من الحكم الذاتي يمكن ان تتلاءم مع الحكم الاستعماري او تتفق معه ، في البلاد المستقلة سياسيا ، في تعاون سلمي مع المستثمرين الاجانب · وتحتفظ فيها حكوماتها بنوع ما من النظام ·

ذلك ان الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية التي تشكلت منها « الدولية الاشتراكية » كنقيض ومناهض لـ « الدولية الثالثة » (الكومنترن) كانت بطبيعة تعاقدها السياسية والاجتماعية « تنفر من الثورة في بلادها » (كتعبير المؤرخ الاشتراكي البريطاني كول ، وهو نفسه من الاشتراكيين الديمقراطيين) ، ومن ثم فانها جنحت الى عدم تحبيذ الثورة في المناطق المستعمرة او شبه المستعمرة · وحتى عندما كانت تتخذ مواقف (غير عملية في معظمها) ضد التمييز العنصري مثلا كانت تفكر في زوال هذه الظواهر تدريجيا لا بالعنف ·

بالاضافة الى ذلك كان كثير من الاشتراكيين الديمقراطيين يحسون بنفور شديد من النزعة القومية – التي كانت في بلادهم تمثل نفوذ الرجعيين والعسكريين في الغالب – ولم يفرقوا بين النزعة القومية في البلاد المستقلة والنزعات المماثلة في البلاد الخاضعة للحكم الاجنبي ، ولم يكونوا بأي حال مستعدين لانتهاز اية فرصة لاثارة المشاكل في وجه الدول الرأسمالية الكبرى بالوقوف الى جانب اية حركة وطنية تقاوم سيطرتها ·

تلك كانت المفاهيم العامة لزعماء الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية الذين حاولوا احياء « الدولية الثانية » · وقد بدأوا باعلان ان الاشتراكية والديمقراطية ، التي كانوا يعنون بها الحكم البرلماني ، لا يمكن ان يفترقا · وقد

ضيقوا من مفهوم الاشتراكية بحكم عدائهم الشديد للشيوعية ، بحيث اصبحت مذهبا لغرب اوروبا في جوهره اكثر منه مذهبا عالميا · « واخفقوا في حمل اية رسالة الى الجماهير في المناطق المستعمرة وغير النامية ، بل والى اي شخص ليس في مركز يسمح له بالسير مطمئنا في الطريق البرلماني » ·

اشتراكيون ضد الاشتراكية

وقد واجهت الديمقراطية الاشتراكية عاقبة ما انطوت عليه من نواقص في اواخر الثلاثينات وفي الاربعينات ، عندما صعد النازيون الى السلطة في المانيا. وشرعوا مع بداية الحرب العالمية الثانية في اجتياح اوروبا · وهو نفسه الوقت الذي كانت فيه الازمة الاقتصادية للنظام الرأسمالي قد حولت البطالة الى سرطان خبيث ينخر في قوىالطبقةالعاملة · ولم تستطع الاشتراكية الديمقراطية ان تحرز اي تقدم في تلك الفترة ، وانطوت ساكنة امام العاصفة ، وتحولوا ـ حسب تعبير المؤرخ كول ايضا ـ « الى اشتراكيين لم يعودوا حتى يهدفون الى تحقيق الاشتراكية » ·

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية ، كشفت الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية كلية عن وجهها المناهض للاشتراكية بصورة تامة ، عندما قامت الاحزاب التي كانت تتكون منها « الدولية الاشتراكية » قبل انهيارها بمحاولة لوضع سياسة عامة فيما يتعلق بخطة مارشال لانعاش الرأسمالية الاوروبية الغربية · ولكنها اخفقت تماما في ذلك · الا انها نجحت في اعادة تجميع نفسها حول العداء للشيوعية ، خاصة بعد قيام «الديمقراطيات الشعبية» في بلدان اوروبا الشرقية · وهكذا انعقد المؤتمر التأسيسي لـ « الدولية الاشتراكية » بصورتها الحالية في فرانكفورت (المانيا الغربية) في تموز (يوليو) ١٩٥١ ·

والحقيقة التي تتضح سريعا في رؤية ظروف نشأة « الدولية الاشتراكية » في صورتها الاخيرة هي أنها جاءت كواحدة من نتائج « الحرب الباردة » ، أي كنتيجة من نتائج اشتداد حدة الحملات التي شنتها الرأسمالية الغربية على الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الاخرى ، واشتداد حدة حملات الامبريالية البريطانية والفرنسية للتشبث بمستعمراتها في آسيا وافريقيا ، مع بداية بوادر المخططات الاميركية الرامية للحلول محل الاستعمار القديم في تلك البلدان ، في مرحلة ما بعد الاستقلال السياسي ·

لقد ترافق مؤتمر فرانكفورت الذي اعاد تأسيس « الدولية الاشتراكية » على اسس معادية للاشتراكية صراحة ، مع تأسيس منظمة حلف شمال الاطلسي ، ومع صعود ايزنهاور الى السلطة ومعه وزير خارجيته الشهير جون فوستر

دالاس ، ومع بداية الحرب الاميركية العدوانية في كوريا ، وبداية طرح مشروعات الاحلاف العسكرية العدوانية في الشرق الاوسط وحوض البحر الابيض المتوسط لفرض الحصار على الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية وللتربص بحركات التحرر الوطني ٠

فهل كانت « الدولية الاشتراكية » في سياق هذه الاحداث والتطورات جزءا من تيارها ام تيارا مقاوما ومناهضا لها ؟

هذا السؤال تجيب عليه سياسات « الدولية الاشتراكية » واحزابها خلال ربع القرن الماضي ، وتجيب عليه مواقفها ومنطلقاتها النظرية والعقائدية ٠

واهم السمات العامة لايديولوجية الاشتراكية الديمقراطية يمكن ايجازها في النقاط التالية :

□ القول بنظرية الدولة بوصفها « جهازا فوق الطبقات » ٠

□ القول بنظرية « الاقتصاد المختلط » الذي يجمع بين القطاعين العام والخاص ، وهي نظرية تذهب الى انه لن تكون في النهاية اشتراكية ولا رأسمالية انما نظام يمزج بينهما ٠

□ الاخذ بالاتجاه الاصلاحي ـ لا الثوري ـ فيما يتعلق بمواجهة مشكلات التطور الاقتصادي والاجتماعي ، وحتى فيما يتعلق بمسائل اساسية مثل تصفية الاستعمار وتحليل مشكلات الحرب والسلام ٠

□ الدعوة الى مد نطاق «التعايش السلمي» بين البلدان ذات النظم الاجتماعية المختلفة بحيث يشمل المجال الايديولوجي ايضا ٠

□ انتهاج ايديولوجية معادية للماركسية تقوم على نقدها من مواقع بورجوازية بحتة واعتبارها « غير ملائمة » للعصر ٠ مع التركيز على الاهتمامات والقيم « الروحية » و « الفردية » ٠

□ التخلي عن المطالب الاجتماعية الاساسية ، وبالتحديد عن تشريك وسائل الانتاج ، والاخذ باقتصاد رأسمالية الدولية الاحتكارية ٠

□ التعاون مع وتشجيع الشركات المتعددة الجنسية كشكل جديد من اشكال الاحتكار والهيمنة الامبريالية ، ليس فقط في البلدان الصناعية ، وانما في البلدان الصغيرة والنامية والحديثة الاستقلال ٠

وهكذا انتهى الامر بالاشتراكية الديمقراطية في عهد دوليتها الحالية الى الوقوف في صف الامبريالية والسيطرة البورجوازية الاقتصادية والاجتماعية ، والتخلي تماما عن الاشتراكية العلمية ونظرية الثورة ، والتسلل الى الطبقة

العاملة ـ خاصة فياوروبا الغربية ـ بالافكار الليبرالية والاصلاحية والمعادية للاشتراكية • واصبحت ايديولوجية الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية بمثابة الايديولوجية الاصلاحية للبورجوازية الاوروبية وتوابعها •

وتستند هذه الايديولوجية الى اسس فلسفية تجريدية ومثالية وميتافيزيقية ، مما يجرد مفاهيم الاحزاب التي تعتنقها من محتواها الاجتماعي ويضفي عليها طابع تبرير السيطرة البورجوازية باسم الديمقراطية ، وباسم معارضة « الدكتاتورية » •

وقد ادت هذه المفاهيم المجردة الى اعتناق وجهات نظر في المشكلات الوطنية والدولية تفضي بطبيعتها الى استنكار رجعي للمصالح الحقيقية للاستقلال الوطني للشعوب التي تناضل ضد الامبريالية ، والى تبرير سياسات « فوق ـ قومية » بدعوى « الدولية » مع نبذ الاممية الاشتراكية الحقة بدعوى الدفاع عن المصالح الوطنية للاقطار الاشتراكية •

وعلى وجه الاجمال تفضي ايديولوجية الاشتراكية الديمقراطية الى انكار للتناقض الواقعي والاساسي بين النظامين الاشتراكي والرأسمالي ، ومن ثم انكار التناقض المبدئي للعصر الراهن وللخط الاساسي الذي يسير فيه التقدم الاجتماعي •

واليوم تشكل الاحزاب الاصلاحية المندرجة تحت لواء « الدولية الاشتراكية » وقيادتها الاساس التنظيمي للتيار الايديولوجي والسياسي المناهض للاشتراكية، والذي يتمثل في صيغ زائفة من الاشتراكية تحمل اسم « النماذج الجديدة من الاشتراكية » • وعلى هذا الاساس تعمل احزاب « الدولية الاشتراكية » جنبا الى جنب مع الدول الامبريالية ومنظماتها واحزابها في محاولات تحطيم الاشتراكية من الداخل ، وفي محاولات لجذب الحركة الاشتراكية في العالم الى مواقع اليمين • ولهذا تلحق نشاطات « الدولية الاشتراكية » واحزابها ضررا خطيرا بحركة الطبقة العاملة وبحركة التحرر الوطني على السواء ، بالدفاع عن الرأسمالية في صورتها الجديدة واستبدال النضال من اجل الاشتراكية بدفاع عن اشتراكيات موهومة من نوع «الاشتراكية الاخلاقية» ، «الانسانية الجديدة»•

مفاهيم اساسية

وقد نصت وثائق « الدولية الاشتراكية » الصادرة عن مؤتمرها التأسيسي في فرانكفورت في العام ١٩٥١ (وكذلك برامج الاحزاب المشتركة فيها) على عدد من المفاهيم النظرية الاساسية التي تعكس حقيقة الايديولوجية السياسية :

اولا ــ المفهوم القائل بان « النظرة الى العالم هي نظرة محايدة » ، وهو

المفهوم البديل للاشتراكية العلمية وللايديولوجية الماركسية التي تخلت عنهـــا الدولية واحزابها منذ نهاية « الدولية الثانية » · ويرمي هذا المفهوم الى تأكيد « الحرية الروحية » لاعضاء الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية في اختيـار اي نسق من الآراء والافكار ووجهات النظر سواء كان نسقا علميا او دينيا ·

ويذهب منظرو هذه الاحزاب الى ان اي نظرة الى العالم هي بالضرورة نظرة ذاتية وفردية ، ولهذا فانه ليس باستطاعة حزب ان يعبر عن نظرة الى العالـــم يعتبرها مشتركة بين جميع اعضائه · وبالنتيجـة فـــان رفض هذا المفهـــوم الاعتراف بالطابع الطبقي للنظرة الى العالم يستخدم في تغطية تبني هـــذه الاحزاب وزعمائها الايديولوجية البورجوازية ·

وفي هذا الصدد ايضا يذهب منظرو « الدولية الاشتراكية » الى ان الاشتراكية كمثل اعلى هي هدف مشترك لجميع الناس ، ولكنها هدف يقبله الجميع ، كل من زاوية مختلفة في الحياة · وبالنتيجة يؤدي هذا الرأي الى طمس الفرق بيـــن الاوساط الديمقراطية الواسعة التي تتخذ موقفا ايجابيا بصورة عامة ومن المثل العليا للاشتراكية (دون ان تفمهما في بعض الاحيان) والطليعة الثورية التي لا تستطيع ان تنتصر في صراعها من أجل الاشتراكية الا اذا ارتكزت على نظريـــة علمية في الاشتراكيـــة ·

ثانيا ـ المفهوم القائل بـ « تحول الرأسمالية » · وهو مفهوم يتفق تماما مع النظرية البورجوازية في « التحول الرأسمالي » · وعلى حين يقول المنظـرون الرأسماليون ان هذا «التحول» سيؤدي في النهاية الى قيام « مجتمع استهـلاك جماعي » او الى « مجتمع رفاهية » او « نظام تكنوقراطي » ··· الخ ، فـــان منظري « الدولية الاشتراكية » يذهبون الى ان هذا التحول يؤدي (او هو قـد ادى بالفعل) الى اقامة اشتراكية ديمقراطية او اشتراكية انسانية ·

ولقد ظهرت منذ قيام « الدولية الاشتراكية » كتب عـديـــدة لايديـولوجيي الاشتراكية الديمقراطية ـ من أمثال جون ستراتشي (**الرأسمالية الحديثـــة** ـ ١٩٥٦) وريتشارد كروسلاند (**مستقبل الرأسمالية** ـ ١٩٥٦) و ج·د· كـــول (**الرأسمالية في العالم الحديث** ـ ١٩٥٧) · وكلها تحـاول البرهنـــة على ان الرأسمالية نمت وتحولت الى اشتراكية ، وان نظرية الثورة الاشتراكية قد فقدت مصداقيتها · ويقول بندكت كاوتسكي ـ الذي يعتبر المعد الرئيسي لبرنامـــج الحزب الاشتراكي النمساوي ـ ان الرأسمالية قد أصبحت بالفعل اشتراكيـــة ديمقراطية · ولكن آخرين يذهبون الى ان الرأسمالية هي في سبيلها الى اتمام هــذا التحـــول ·

يصف بعض منظري « الدولية الاشتراكية » هذا التحول بانـــه « الثـــورة الصناعية الثانية » ، وهي في نظرهم ثورة علمية وتقنية احدثت « رأسماليـــة

جديدة » او « اشتراكية » ، بل يذهب بعضهم الى ان العالم الصناعي على اعتاب « ثورة صناعية ثالثة » قوامها التشغيل الآلي الذاتي (الاوتوميشن) والطاقة الذرية والمعدات الالكترونية · وان من شأن هذه « الثورة » ان تخلق « الاشتراكية الديمقراطية » دون ثورة اشتراكية ·

ويقدم هذا المفهوم بشكل واضح على زعم غير علمي بان من شأن التطورات التكنولوجية ان تقضي تلقائيا على كل تناقضات الرأسمالية ، بما فيها التناقضات الاجتماعية ، وان من شأن « الثورة التكنولوجية » ان تقضي تماما على كل فقر وحاجة ، وهو ما تنص عليه برامج احزاب الدولية الاشتراكية جميعا تقريبا ·

ثالثا ـ مفهوم « راسمالية الشعب » ، الذي يذهب الى انه تجري في ظل حكومات احزاب الاشتراكية الديمقراطية عملية تشريك رأس المال ولمهام الدولة الاقتصادية · وقد افاض في شرح هذا المفهوم احد منظري هذه الاحزاب وهو عالم الاقتصاد والاجتماع الفرنسي جوزيف شومبيتر في كتابه الشهير **الرأسمالية ، الاشتراكية والديمقراطية** · وقد تبنى الحزب الاشتراكي الفرنسي ـ على سبيل المثال ـ هذا المفهوم رسميا في كراس له تحت عنوان « انحدار الراسمالية وخلافتها » (١٩٥٧) · وقد كتب مقدمة لهذه الكراسة زعيم الحزب الاشتراكي الفرنسي الاسبق غي موليه (رئيس وزراء فرنسا ابان العدوان الثلاثي على مصر في العالم ١٩٥٦) ، وقال في هذه المقدمة « ان كتاب شومبيتر قام بدراسة للولايات المتحدة الاميركية ، وهي بلد اقتصاد حر ، وتوصل الى الاستنتاج بأنها تتحرك صوب الاشتراكية » ·

وفي مناسبة الذكرى التسعين لتأسيس « الدولية الاولى » (وكان ذلك في العام ١٩٥٤) قال امين عام « الدولية الاشتراكية آنذاك ـ جوليوس براونتال ـ» «ان التطور الحادث فيكل مكان اليوم يبتعد عن الدولية الرأسمالية التييوجهها دافع الربح الى دولة الرفاهية الاجتماعية · ويجري حقن النسيج الرأسمالي بخيوط اشتراكية متعددة ، وهناك انتقال من الرأسمالية الى مجتمع اشتراكي »·

ويمضي انكار الثورة الاشتراكية من جانب منظري « الدولية الاشتراكية » الى حد يقول معه احدهم ـ اندريه فيليب ـ « هناك تدخل حاسم متزايد باطراد من جانب الدولة في الاقتصاد ، ونحن نعيش في نظام ··· يعتريه تحول كامل· فلم نعد في نظام رأسمالي ، ولكننا لسنا كذلك في نظام اشتراكي : ونجاح التخطيط والتدخل العام ينقلنا الى مجتمع فترة الانتقال ، التي هي في ارتقاء سريع لاقصى حد » ·

هكذا اصبحت الاشتراكية الديمقراطية بمثابة دفاع متخف عن الراسمالية في المجالات الايديولوجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولم تعد تربط

« الدولية الاشتراكية » اية علاقة ايجابية مع الاشتراكية بمفهومها العلمي الرامي الى اقامة مجتمع اشتراكي ، بالقدر نفسه الذي لم تعد فيه تربطها – نظريا – اية علاقة بالنضال العملي من اجل الاشتراكية ومن اجل حقوق الطبقة العاملة « الاممية » في البلدان الرأسمالية المتقدمة وفي البلدان الخاضعة للسيطرة على السواء · واصبحت احزاب « الدولية الاشتراكية » معنية باهداف « اخلاقية » من النوع الذي يعبر عنه قول غي موليه الزعيم الاسبق للحزب الاشتراكي الفرنسي : « ان همنا الرئيسي هو دعم ارتقاء علاقات داخل المؤسسة بين صاحب العمل وعماله ··· ان تنظيم العلاقات بين اصحاب العمل والعمال يساعد – دون اية اجراءات مثيرة – على وضع اساس اكثر متانة للسلام الاجتماعي » ·

هكذا في عبارة صغيرة من ثلاثة اسطر يلغي موليه الحاجة الى الثورة الاشتراكية ويحدد هدف الاحزاب « الاشتراكية » بانه تنظيم وترتيب العلاقات بين اصحاب الاعمال والعمال · ويرفع راية « السلام الاجتماعي » مكان راية النضال من اجل وصول الطبقة العاملة الى السلطة ·

ان هذا الاتجاه اليميني الجارف في الآراء النظرية لزعماء ومنظري « الدولية الاشتراكية » والاحزاب المنضوية تحت لوائها هو في الواقع ، انعكاس لتحولهم الى مواقع الدفاع عن المصالح الرأسمالية على اساس استمرار الجوانب الحالية للتطور الاجتماعي · وهكذا تحول مفهوم « الاشتراكية الديمقراطية » في اساسه الى واحد من اخطر ادوات التمويه الايديولوجي الذي يقوم على الزعم بأخذ افضل ما في الضدين : الرأسمالية والاشتراكية · فقد انتهى الامر ببعض الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية الى التسليم بضرورة بقاء الملكية الخاصة الرأسمالية والمنافسة وحتى الاحتكارات الرأسمالية « شرط الا تهدد الحرية والعدالة ودور الاحزاب وتعددية النظم » · وبطبيعة الحال ليس من قبيل تهديد الحرية والعدالة والتعددية شتى الحملات المعادية للماركسية ، حتى ان صحيفة « نيو غيزلشافت » – الصحيفة النظرية للحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني، دعت الى « اجراء دراسات اكثر جدية للماركسية لاستخدامها على نحو افضل ضد الشيوعية » ! وتحدثت الصحيفة نفسها في وقت لاحق عن ضرورة العمل من اجل « اكمال الثورة الناقصة في الاقطار الشيوعية » ·

٧٧ مليون صوت

ان « الدولية الاشتراكية » في صورتها الراهنة تضم اربعة وخمسين حزبا اشتراكيا وعماليا عدد اعضائها جميعا يقدر بنحو ١٦ مليون عضو · ويقدر عدد الاصوات التي حصلت عليها هذه الاحزاب في آخر انتخابات عامة بنحو ٧٧

مليون صوت · وكما ذكرنا فان معظم هذه الاحزاب يتركز في اوروبا الغربية بالاضافة الى ثمانية احزاب في آسيا (اكبرها الحزب الاشتراكي الياباني) ، وستة احزاب في اميركا اللاتينية (اكبرها الحزب الاشتراكي التشيلي) وثلاثة احزاب في افريقيا (السنغال ومالاغاش وموريشيوس) · اما الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية في الولايات المتحدة وكندا واستراليا ونيوزيلندا فهي تفتقر الى القوة التي تتمتع بها الاحزاب الماثلة في شمال وغرب اوروبا ·

وكان الحزب العربي الوحيد الذي تربطه في السابق علاقات بالدولية الاشتراكية هو الحزب الاشتراكي التقدمي الذي كان مشتركا في مكتب الاتصال الاسيوي للدولية الاشتراكية في سنغافورة ، الا ان هذا الحزب انسحب فور انضمام الحزب العمالي الاسرائيلي كعضو كامل في الدولية ·

وتكشف متابعة المواقف السياسة والتركيبة التنظيمية لهذه الاحزاب عن استمرار تزايد قوة التيار اليميني فيها على حساب اليسار · وكانت اوضح ظواهر هذا التحول الى اليمين تولي هلموت شميت رئاسة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني بدلا من فيلي برانت · والملاحظ ان هذا الاتجاه يزداد وضوحا في الاحزاب « الاشتراكية الدولية » الموجودة بالفعل في السلطة · في حين يكون التيار اليساري اغلب في هذه الاحزاب وهي في المعارضة ، واوضح مثال في هذا الصدد هو الحزب الاشتراكي الفرنسي ·

وبطبيعة الحال فان الاحزاب اليمينية التي تتولى السلطة في دول اوروبا الغربية والشمالية هي الاحزاب التي تتمتع بالنفوذ الاقوى داخل « الدولية الاشتراكية » ، وتلعب اكبر الادوار في توجيه خطها السياسي وبالتالي قرارات مؤتمراتها العامة والفرعية · ومنذ نشأة « الدولية الاشتراكية » بصورتها الحالية في العام ١٩٥١ وهي تتبنى مواقف التبعية للولايات المتحدة الاميركية وتؤيد فكرة التحالف الاطلسي منذ البداية ، وكانت من اوائل الدعاة لاقامة « نظام للدفاع الجماعي الاوروبي » بالتنسيق مع الولايات المتحدة · واصدرت في مؤتمرها الذي عقد في روما في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٢ ـ بعد عام واحد من تأسيسها ـ عددا من القرارات التي تدعو الى اقامة تحالف اطلسي لا يقتصر على المجال العسكري انما يشمل المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية · كما كانت « الدولية الاشتراكية » من اوائل المنظمات التي ايدت انضمام المانيا الغربية (في العام ١٩٥٢) الى التحالف الاطلسي ، وقبل الانضمام الفعلي اليه بنحو ثلاث سنوات ، وهو موقف اسهم في تعميق حدة الحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي في ذلك الوقت ، الامر الذي جعل الاحزاب الشيوعية في العالم تتهم « الدولية الاشتراكية » بأنها اداة لتحقيق السياسة الاميركية في اوروبا الغربية ومناطق العالم الاخرى ، وبأنها تفتقر الى نظرة

صحيحة لدور حركات التحرر الوطني وحتى لنضال الطبقة العاملة التي تزعم انها تقوم باسمها ٠

وقد تعرضت « الدولية الاشتراكية » واحزابها لاختبارات حقيقية في ظروف عالمية معينة ، كان منها العدوان الثلاثي البريطاني ـ الفرنسي ـ الاسرائيلي على مصر عام ١٩٥٦ ٠ اذ وقفت « الدولية الاشتراكية » موقف التأييد من العمليات العسكرية ضد نظام جمال عبد الناصر ولحساب الاحتكارات الرأسمالية العالمية، وتأييد اسرائيل ضد كل الدول العربية وبلدان الحياد الايجابي والعالم الثالث ٠

ثم كانت حرب فيتنام وتطور الدور العدواني الاميركي فيها من اوائل الستينات الى اوائل السبعينات اختبارا قاسيا وطويلا ساعد على كشف مدى ولاء « الدولية الاشتراكية » للسياسة الاميركية على طول الخط ٠ وقد كان لبعض الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية من الحرب الفيتنامية موقف معارض متميز ، خاصة الحزب الاشتراكي الديمقراطي السويدي ٠ فبينما اصر الحزب السويدي على ادانة التدخل الاميركي وعمليات القصف والابادة الجماعية التي تمارسها الولايات المتحدة ضد الشعب الفيتنامي ، فأن غولده مئير رئيسة وزراء اسرائيل وزعيمة حزب العمال فيها دافعت بشدة عن سياسة الولايات المتحدة في مؤتمر « الدولية الاشتراكية » في لندن في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣ ،ونجحت في الحيلولة دون اتخاذ قرار بادانة الولايات المتحدة ٠٠ وكان مما قالته في خطابها امام ذلك المؤتمر « اننا ما كنا لنستطيع الاجتماع هنا لولا الولايات المتحدة » ٠

وفي السنوات نفسها التي امتنعت فيها « الدولية الاشتراكية » عن ادانة السياسة الاميركية في فيتنام ، كانت تصدر قرارات ادانة حادة الصياغة ضد الاتحاد السوفياتي بسبب سياسته فيما يتعلق بهجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل ٠ وقد صرح ابا ايبان (وكان وزيرا للخارجية الاسرائيلية) في ١٠/١٢/١٩٧٢ اثناء انعقاد مؤتمر للدولية الاشتراكية في باريس ضم ١٩ حزبا من احزابها ، بان للدولية « اثرا هاما في حمل الاتحاد السوفياتي على السماح لليهود بالهجرة وفي تعبئة الرأي العام العالمي بهذا الخصوص » ٠

وقبلها كان المؤتمر الذي عقدته الدولية الاشتراكية في هلسنكي في شهر ايار (مايو) ١٩٧١ قد كشف انحيازها الكامل لاسرائيل ضد الاقطار العربية ، حيث اصدر قرارا بشأن الشرق الاوسط قال فيه ان الدولية الاشتراكية تلاحظ بقلق ازدياد سباق التسلح اخيرا عن طريق ارسال اسلحة متطورة جديدة الى مصر وسوريا ، وانها تحث على المحافظة على ميزان التسلح بين اسرائيل وجيرانها العرب !

ومن المهم في هذا الصدد ان نذكر موقف التحدي الذي اتخذته « الدوليـــة الاشتراكية » من الحكومة الفرنسية بسبب سياستها غير المؤيدة لاسرائيل فـــي الشرق الاوسط ، وذلك عندما وجهت « الدولية » الدعوة الى غولده مئير رئيسة وزراء اسرائيل لحضور مؤتمرهافي باريس في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣ ٠ وكانت الظروف غير مؤاتية على الاطلاق لاستقبالها في العاصمة الفرنسية بسبب الاجواء التي نشأت عن قيام المخابرات الاسرائيلية باغتيال ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس محمود الهمشري ٠ وقد اصرت « الدولية » وغولده مئير على حضور المؤتمر رغم ما صرح به وقتها رئيس الوزراء الفرنسي ، من انهـا اذا حضرت فلن تكون لها غير صفتها الحزبية ، ولن تجري السلطات الفرنسية معها اية اتصالات ٠

والحقيقة ان قبول حزب العمال الاسرائيلي في عضوية « الدولية الاشتراكية » كان في اساسه بمثابة انحراف خطير عن مسار الحركة الاشتراكية العالميـــة ونظرتها الى القضايا المعاصرة ، بل وموقفها الايديولوجي العام ، وحتى علمانية هذه الحركة ٠ فقد كان قبول هذا الحزب تأييدا للسياسة العنصرية التي يقـوم عليها ، وهي ضربة لمفهوم « الاممية » والمضمون الحقيقي للاشتراكية القائم على ازالة كل اشكال الاختلافات العنصرية والدينية ٠

ولقد لعب حزب العمال الاسرائيلي داخل «الدولية» دورا مؤثرا انعكس فـــي قرارات مؤتمراتها حتى في اشد الظروف خطورة ٠ فنجد ان مؤتمرهـــا الـــذي عقد في « زيورخ » في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٧ – بعد حرب حزيـــران (يونيو) – اصدر قرارا ينص على الحق المطلق في الوجود والسيادة لاسرائيل وجميع دول المنطقة ، الى جانب حرية الملاحة في قناة السويس ومضايق تيـــران لجميع الدول ايضا ، بالاضافة الى نزع سلاح المنطقة ، وحل « مشكلة اللاجئين» وفي ظل وسائل فعالة لحماية امن وسلامة جميع دول المنطقة داخل حدود آمنـــة ومعتــرف بهـــا ٠

وهو قرار يعكس بصورة تكاد تكون حرفية وجهة النظر الاسرائيلية ٠

وفي اعقاب الحرب العربية الاسرائيلية في العام ١٩٧٣ طلبت غولده مئيـــر بصفتها نائبة رئيس « الدولية الاشتراكية » عقد مؤتمر عاجل للدولية ،واصرت على عدم عقده في مالطة – كما كان مقررا – وذلك بسبـــب تصريحــــات لرئيس وزراء مالطة منتوف ايد فيها الجانب العربي وادان اسرائيل ٠ وبالفعل عقـــد المؤتمر في لندن في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ ٠ وكان هدف اسرائيل من عقده التأثير على مواقف حكومات واحزاب دول اوروبا الغربية التي تأثرت سياساتها ازاء الشرق الاوسط بعامل الحظر النفطي ، وكذلك فتح قنوات حوار غير مباشرة مع الدول الافريقية التي كانت قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع

اسرائيل • وذلك بالاضافة الى استخدام « الدولية الاشتراكية » ـ كما فعلت دائما ـ كمنبر اعلامي لمخاطبة الرأي العام العالمي ، وخاصة لتأليبه على العرب بسبب سياسة الحظر النفطي •

وقد اسفر هذا المؤتمر عن قرار بارسال وفد برئاسة مستشار النمسا برونو كرايسكي (في آذار ـ مارس ١٩٧٤) من اجل تقصي الوضع في منطقة الشرق الاوسط • ومن المؤكد ان مهمة هذا الوفد كانت احد المداخل الى التطورات اللاحقة التي حدثت في المنطقة ، والتي دفعت الى مفاوضات الصلح بين النظام المصري واسرائيل •

المراجع

(1) Cole, G.D.H., *A History of Socialist Thoght,* London, 1960.

(2) Nairn, Tom, *The Left Against Europe,* London, 1972.

(3) Modrzhinskaya, Yelena, *Lenenism and the Battle of Ideas,* Moscow, 1972.

(4) Vaizey, John, *Social Democracy,* London, 1971.

(5) Caute, David, *The Left in Europe since 1784,* London, 1966.

(6) Jackson , Hampden , *Marx Proudhon and European Socialism,* New York, 1966.

(7) Taylor, A.J.P., *Europe : Grandeux and Decline,* London, 1977.

(8) Hayms , Edward , *A Dictionary of Modern Revolution.* London, 1973.

(٩) مجلدات مجلة السياسة الدولية ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ •

(١٠) مجلدات يوميات فلسطينية ، بيروت ، مركز الابحاث ، م•ت•ف•

الياس شوفاني

مع المبعدين

التغريبة

التغريبة ، لغة ، اسم المرة من التغريب ، وهو النفي او الابعاد الى بلد غريب . والتغريبة عرفا ، او قل عند القرويين الفلسطينيين ، هي « تغريبة بني هلال » . وبنو هلال قبيلة بدوية ، زعيمها ابو زيد . وابو زيد بطل شعبي . وكذلك كان الزير ، وعنتر ، والظاهر بيبرس ، وغيرهم . والقرويون في مجالسهم ، خاصة في ليالي شتائهم ، يسخرون وقتهم في الاصغاء الى قصصهم الشعبية . والقصص كثيرة ومأثورة . منها المحفوظ ومنها المكتوب . اما الاسفار والاهوال فبطلها السندباد ، وهي للاطفال . واما الحرب والنزال ، وكذلك الحنين الى الاوطان ، فابطالها ابو زيد وامثاله ، وهي للرجال . وقصاص القرية شخصية طريفة ، مؤسسة تقليدية بحد ذاته كثيرا ما يتوارثها الابناء عن الآباء . والقصاص هو « المقصد » ايضا ، الذي يغني القصيد . ويتسابق الناس الى دعوته ليسهر معهم . واذا قصد للكلام ، فانما على فرش منضدة ، وكتابه بين يديه . صفحات ابلاها التقليب ، بين دفتين من الجلد . وفوق الكتابة ، او على هوامشها ، علامات وايات . النثر للقراءة ، وباسلوب ، والشعر للغناء ، وهو القصيد . وابو زيد سيد اهل القصيد ، او هكذا اعتبره الفلاحون . « والتغريبة » حديث الناس في المجالس والسهرات . اما بعد قيام اسرائيل ، فقد اكتسبت « التغريبة » معنى جديدا . الواقع انه في اواخر عهد الانتداب ، اخذت شمس « التغريبة » بالغروب . ثم اشرقت مع قيام اسرائيل ، في كساء جديد . التطويق والتجميع والتحقيق والتغريب ـ كلمات اصبحت رائجة بين الناس . ولها مدلولات معينة . وعلم المعاني بحر واسع . والالفاظ

تكتسب معان جديدة ، تبعا للمكان والزمان · وللعرب الفلسطينيين ، تحت الاحتلال الصهيوني ، قاموس مصطلحات سياسية ، لم يدون بعد · ومنها التغريب والتغريبية ، والابعاد ، والتجميع ، ولم الشمل ، وتفريقه ، والاملاك المتروكة ، والحاضر غائب ··· الخ · وتغريبتنا فريدة · وهي بعد ان فقهت اسبابها ، لم اسبر غورها ، تفسيرا او قياسا · لا اعرف لماذا سمح اليهود لاهالي قريتنا ، معليا ، أن يعودوا الى بيوتهم ، ومنعوا آخرين · لماذا ابعدوا نفرا منهم ، بعد اشهر على الاحتلال ، ثم سمحوا لهم بالاقامة فيها ، بعد ان تسللوا اليها رجوعا · لقد وضعت الهاغاناه الخطتين جيم ودال (جيمل ودالت) في حرب ١٩٤٨ ، لترحيل السكان العرب من مدنهم وقراهم ، ولاحتلال الارض بلا اصحابها · هذا ما درج الناس على تسميته « الاستيطان الاجلائي » ، وهو الذي تميز به الاستيطان الصهيوني عن اترابه · فلماذا ابقت اسرائيل، وبعد قيامها ، مائة وخمسين الف عربي، معظمهم في الجليل ؟ هل لانه كانجزءا من الدولة العربية ، حسب قرار التقسيم ؟ ربما ، ولكن جميع التعليلات لا تبدو متماسكة · وعلى اي حال ، فان جميع القرى الدرزية ، في الجليلين ، الاعلى والاسفل ، ظلت على حالها · اما الطوائف الاخرى ، فقد نزحت بنسب متفاوتة · وكانت هجرة المسلمين اوسع · ومع ذلك، فقد ظلوا الاغلبية ، اكثر من النصف ، بين العرب الفلسطينيين الذين آثروا الاحتلال على التشريد · اما لماذا رحلت البروة وبقيت دير الاسد مثلا ، فليس للامر قانون يحكمه · وفي هذا المجال ، الشاذ هو القاعدة · وافرغت البلاد من سكانها ، ولم يبق فيها الا اشلاء مجتمعات ، اكثرها قروي ، فيما خلا الناصرة·

لا اذكر لذلك اليوم تاريخا بالذات · ولم اعثر ، الى الآن ، على من اعتبره ذا اهمية ، فدونه وجعل له ثبتا · ولكنه محفور في ذاكرتي ، ومرتبط بلفظ « اسرائيل » · هو يوم التغريب والغربة والاغتراب ··· فمنذ قامت ، اسرائيل، لم يعد لي « هناك » مقام · هي جاءت فذهبت انا · وقامت هي فسقطت انا · سقطت من الوطن ، ومن الارض والاهل معا · هكذا تكونت صورة اسرائيل في وجداني ، غداة ذلك اليوم · وتحدد موقفي منها · وجودها الغاء لوجودي · كنت يافعا ، لم اتجاوز الخامسة عشرة · واسرائيل تعتبرني خطرا على امنها، فتقذف بي عبر الحدود · كيف تحدد موقفا من حدث كهذا ؟! « الحق بأبيك » هكذا صرخ ضابط التحقيق الصهيوني في وجهي · ورفعيده ، وهم ان يصفعني · ورأيته يضع اشارة (×) الى جانب اسمي في اللائحة امامه · واشارة (×) تعني الشطب · فشطبت من عداد المواطنين · وبلغ الامر امي ، فنظرت الينا ، اخي وانا ، وقالت بصوت متهدج : « الاباء يأكلون الحصرم ··· » ، او ما شابه · فعرفت انها ضعفت امام المحنة ،وهي التي صبرت على الكثير · ولكن لا مجال للنقاش · الشاحنة تنتظر ، والعسكري الاسرائيلي ينهرنا : « يلا ــ يلا»! وما هي الا ساعات ، واذا بنا عبر خطوط الهدنة ، في المثلث الشمالي ·

والمثلث ، الكبير والصغير ، اسماء تعلمناها من كتب الجغرافيا · وظلت في خيالنا مجرد اسماء ، نستظهرها للامتحان · لم يسبق لي ان دخلته ، فتعرفت عليه عندما اجتزته مطرودا من البلد · لكن بعض الرجال ، ممن كانوا معنا في المجموعة ، عرفوه · كان بينهم جندي سابق · خدم في قوات الحدود الاردنية ايام الانتداب ، في ما كان يعرف ب « عسكر ابو حنيك » او « الزنار الاحمر » · لان غلوب باشا (ابو حنيك) بنى هذه القوات واشرف عليها · وكان جنودها يتمنطقون بزنار احمر عريض ، فعرفوا به · وتولى صاحبنا هذا قيادة المجموعة دون منازع ، لعلمه بطبيعة الارض · اما انا فقد عدت اليها بعد سبع سنوات تقريبا ، عام ١٩٥٥ ، عندما كنت ادرس جغرافية فلسطين ، في دورة جامعية · وعندها لم يعد المكان على خط وقف اطلاق النار · لقد دخل ضمن « الخط الاخضر » · وهو الخط الذي رسمته اسرائيل حدودا لها حتى عام ١٩٦٧ ·ودرج البعض على تسميته « خط الهدنة لعام ١٩٤٩ » · هناك عند مدخل وادي عارة الشمالي ، بالقرب من مجدو ، في وسط مرج بن عامر ، « كبونا » · وكانت قرى ام الفحم ، وعارة ،وعرعرة ، ومصمص ، وغيرها كثير في المثلث ، لا تزال في ايد عربية · ثم ضمت الى المناطق المحتلة ، ضمن اتفاقية مع الاردن · لقد ارادوه لنا تيها ،كتيه بني اسرائيل · والا فلماذا رموا بنا الى الاردن، وليس الى لبنان، الذي هو على مسافة سفر سبت ؟ ولكننا عدنا جميعا ، الى ارض ميعادنا ·

عند فجر ذلك اليوم ،افاق الناس على عسكر الاحتلال ، وقد طوق القرية ، ونصب الحواجز على كل مداخلها · وانتشر بعضهم على سطوح المنازل ، وفي الاماكن المشرفة · كانت ليلة شتاء جليلية ، قارسة البرد ماطرة ، كما يليق بقرى الجليل الاعلى · وسرى الخبر كالحمى في جسم القرية · وكانت اشاعات قد سرت قبل ايام ، تفيد بأن اليهود « يكبون » اعدادا من العرب الى خارج الحدود · ولكنها مجرد اشاعات · اذ لا اذاعات تنشر الخبر ، ولا صحف · والاوامر العسكرية بمنع التجول قلصت الاتصال بين الناس · لقد احكموا الطوق على القرية ، ومنعوا الناس من الخروج الى اعمالهم · وعند الشروق ، نادوا على الاهالي بمكبرات الصوت · وامروهم بالتجمع في ساحة القرية · تقاطر الرجال الى الساحة · وظل النساء والاطفال في البيوت · وانتشر الجنود في الطرقات يسوقون الرجال والشباب الى مكان التجمع · تحسب الناس للعواقب· وفضل البعض المجازفة والاختباء ، على التسليم ، ومنهم اخي الاكبر · ذهبت انا واخي الثاني الى مكان التجمع · اعتقدنا ان صغر سننا سيشفع بنا · وبقيت امي ، ومعها الاخوة الثلاثة الصغار ، في البيت · تركت البيت الى غير عودة·

اهلا ، اهلا ! استقبلنا احد المخبرين ، ممن تعاونوا مع سلطات الاحتلال منذ البداية ، لا تخافوا ، فانا وراءكم حتى النهاية · وكان كذلك · سالنا عن اخي الاكبر · فاجبنا بأن لا علم لنا به · اوصانا ، واكد علينا ، ان ندخل غرفة

التحقيق معا ، فسينتظرنا هناك ، ويشرح للضباط احوالنا ، ويتوسط المسألة · الناس حوله يستفسرون ، وهو يطمئنهم ويقول : لا بأس عليكم : توكلوا علي ! راح يجول بين الناس ، يتفقد الغائبين · وبدأت مجموعات صغيرة من الجنود تندفع باتجاه بعض البيوت ، بحثا عمن تخلف · رأينا بعضهم يساق الى مكان التجمع ، وقد اشبعوه ضربا وركلا · انتظرنا وصول اخي الاكبر ، ولكنه لم يفعل · سمعنا بعض الطلقات ، فخشينا الاسوأ · لكن شيئا من ذلك لم يحصل · لقد اقتربوا من المكان الذي اختبأ فيه · فانذره اخي الاصغر ، باشارة اتفقا عليها · انسل من مخبئه ، وولى هاربا · رأوه ، فاطلقوا عليه النار · لكنه نجا · لقد حصل على بعض التدريب العسكري ، خلال سنتين من القتال · ولى وجهه شطر المشرق ، في المنحدر الشرقي من التل الذي تقوم القرية عليه · افلت من الطوق ، واخذ طريقه الى لبنان ·

كانوا يعدون للانتخابات العامة للكنيست الاولى ، بعد قيام الكيان ، وارادوا احصاء الناس من اجلها ، فكانت فرصة للتخلص من بعضهم ، وتخفيف عددهم· تحدد موعد تلك الانتخابات بتاريخ ٢٥ كانون ثاني (يناير) ١٩٤٩ · وسارعت السلطة الى انجاز المهمة ، فارسلت عسكرها يجوب القرى العربية ، يطوقها ، ويجلي اهلها عنها · دفعت بالمبعدين من شمالي البلاد الى الاردن · اما الذين جيء بهم من جنوب البلاد ووسطها ، فقد حملوا الى الحدود اللبنانية · كان الابعاد انتقائيا ، بضع عشرات من كل قرية · طردوا من معليا حوالي ثلاثين شخصا · بعضهم لاسباب معروفة واضحة · والبعض الآخر ، لم اجد تعليلا لابعاده · أما انا واخي ، وكذلك أمي ، فلاسباب تتعلق بنشاط والدي · وكان بالامكان تفسير الذرائع لابعاد بعض الآخرين · فمنهم من شارك في القتال ايام الحرب · ومنهم من ذهب ضحية فساد المخبرين · لقد كثروا بعد الاحتلال · ولكن كان معنا في المجموعة من لم نجد اي تفسير لابتلائه · وظل هؤلاء يندبون حظهم ويلومون انفسهم على ما صدر منهم من كلام مع ضابط التحقيق · لربما اخطأوا استعمال الكلمات امامه ، وهو اعجمي لم يفهم عليهم · ام ان الامر اختلط عليه ، فأخذهم بجريرة غيرهم · وعلى اي حال ، فقد ظلت المجموعة متماسكة تعمل كوحدة ، حتى وصلنا بيروت ، بعد اسبوعين · وهناك تفرقنا، وذهب كل في طريقه ·

امام ضابط التحقيق

كان قصير القامة ، ينادونه « هاري » · يتكلم العربية بلكنة المانية · كتلة من اللؤم والحقد والعقد · هذا هو ضابط التحقيق ، وصاحب الحل والعقد · تكفي اشارة منه للطرد من البلد ، وايماءة منه للبقاء تحت الاحتلال · لقد اتخذ له مقرا في بيت على طرف الساحة · وتحت امرته بضع مساعدين · منهم من

ارتدى الملابس المدنية ، ومنهم من كان في بزة عسكرية • وتميز بينهم رجـل فارع الطول ، احمر الشعر ازرق العينين • صقلبي تقاسيم الوجه وتقاطيـع البدن • وعليه كسوة من الفرو السميك ، وفي يـده سوط من الجلد • كـان يذرع الغرفة ذهابا وايابا ، وينظر الى الماثلين امام الضابط شزرا • وعلـى الطاولة الواسعة ، الى جانب الضابط ، بضع افراد ، وبيـن أيديهـم اوراق وملفات • والناس في العراء ، والبرد القارس ينهش اطرافهم حتى الجوانح • في العاشرة ، بدأوا ينظمون الناس في طوابير من اجل ادخالهم على الضابط • واحتار الناس في امرهم : ايتسابقون ، كالعادة ، الى اول الصف ، فيقضـون امرا كان مكتوبا ، ويتقون شر البرد • ام يتحملون البرد ، دفعا لشر المواجهـة وتأجيلا للقضاء المحتوم • ازفـت الساعـة • اصبحنـا ، اخـي وانـا ، على مقربة من مدخـل الغرفـة • العيـون شاخصـة الـى شبـاك مطل على ما يجري فـي الداخـل • يمثـل المـرء امـام الضابـط ، يعطي اسمه ، فيقلب المساعدون اللوائح التي في ايديهم • فان عثروا على قيد له بدأ التحقيق • والا امره بالانصراف • فيخرج من الباب الخلفي ، ويهرول الى بيته • اما الذين ادرجت اسماؤهم في اللوائح ، فيطول التحقيق معهم• اسماؤهم وافعالهم ونشاطهم ••• الخ • وان بدا الشك في صدق كلامهم ، تولى امرهـم صاحب السوط • ويعلو الصراخ والتوسل • والمخبر في ركن من الغرفة ،يؤدي المهمة عبر حاجبي عينيه • ويصدر الحكم ، والكلام في الاعجمي • فاما ان يدفع الواحد نحو الباب الخلفي برفسة شديدة ، واما ان يقاد من شعره الى غرفـة مجاورة • لقد اتضح الامر • الناس فئتان : ناجية وهالكة • والناجون يطلـق سراحهم • ويؤمرون بالعودة ، سريعا ، الى بيوتهم ، والتزامها دون تجول • والهالكون يحتجزون في الغرفة المجاورة ، ومصيرهم على كف عفريت • فكروا في السجن والاعتقال ، او بالتوقيف لمزيد من التحقيق ، وجلاء الامور • ولكـن احدا لم يطرأ على باله ان المسألة تتعدى كل ذلك ، الى الطرد والابعاد • وخابت الامال• جاء دورنا • فدخل اخي اولا • ووقفت انا على الباب، ارقب عن قرب•فما ان ذكر اسمه ، حتى انهال عليه الصقلبي بسوطه • كان عنيدا جريئا • لـم ينبس ببنت شفة • ورايته يكاد يختنق كيدا • والسوط يرتفع ويهوي على رأسـه وبدنه •لم يجروا معه تحقيقا • دفعوه الى غرفة المحتجزين دفعا • فارتطم انفه بالباب ، وسال دمه • عرفت ماذا ينتظرني ، ودخلت • الا انهم اكتفوا منـي بالدفع الى داخل الغرفة • وقعت على وجهي بين الناس القاعدين على الارض ، امتثالا للاوامر • واغلقوا الباب علينا • وقعدنا ننتظر القادم الجديـد الينا • صرنا حوالي العشرين • وعند الثانية بعد الظهر ، فرغت الساحة ، امرونـا بالنهوض ، وخرجنا بانتظام ، بين صفين من الجنود الى الشاحنة • ولم اصدق ما رأته عيناي • كانت امي ، برفقتها جندي صهيوني ، تنتظر عند الشاحنة • وكان دمعها على عرض وجهها • صعدنا الى الشاحنة ، وتحركت بنا •

لم يكن لاحد منا علم بوجهة رحلتنا · ولكن امي راحت تلوح بيدها · تودع القرية ، والشاحنة تسير · لقد عرفت اننا في طريقنا الى الغربة · اسر لها بذلك احد الجنود · مهاجر جديد من مصر · اوكلت اليه مهمة احضارها من البيت ، لتنضم الينا · وكانت الاوامر التي في يده ، ان يحضر جميع افراد العائلة · لكنه ، حسب رواية امي ، « ابن حلال » · لقد « رق قلبه » عندما رأي انباءها الصغار · فاشفق عليهم · كان يعلم ماذا ينتظرنا من شقاء · فاخذها جانبا ، وسألها عما اذا كان لنا اقارب في البلد · نصحها بان تترك الابناء الثلاثة عند احدهم · ففعلت على مضض · ذكر لها اننا سيرمي بنا الى خارج الحدود · واعتقدت أن الحدود لبنانية ، فهي الاقرب · وعبر الحدود ، في رميش ، لنا اقارب يستضيفوننا ، ريثما نتدبر امرنا · ولكن الطريق الذي سلكناه كان في الاتجاه المعاكس · وخاب ظنها · وارتبكت في حكمها على ذلك الجندي· هل فعلا قدم لها نصيحة ، ام انه غشها · وبدا عليها الضياع · زوجها فيلبنان وابنها الاكبر ، وهو العزيز عليها ، في طريقه الى حيث والده ·وابنان آخران معها في شاحنة ، تسير الى عالم مجهول · وثلاثة اطفال في البلد ، برعاية والدتها العجوز · هذا نصيبها وقدرها ·

ورأينا موتنا باعيننا

سارت بنا الشاحنة غربا · عند مفرق الكابري ، توقعنا ان تنعطف بنا يمينا· فتوصلنا الى رأس الناقورة ، او الى مكان على الحدود اللبنانية · وتفرغ هناك حمولتها · لكنها جنحت يسارا · هذه الكويكات والشيخ داهود ، قرى عربية مقفرة · بيوتها كئيبة مهجورة · وهذه المكر وكفر ياسين · اهلها فيها ، ولكنها شاحبة حزينة · تطل عليها من عل ابو سنان · وبجوارها القرى الدرزية : جث وجولس ويركا · كلها ظلت عامرة بسكانها · وقطعنا الطريق المؤدي من عكا الى صفد ، مرورا بمجد الكروم ، دير الاسد ، البعنة ، ساجور ، الرامة · وكلها ظل اهلها فيها · اما فرادي ، السموع ، ميرون ، الصفصاف ، عين الزيتون ، فقد رحل اهلها عنها · واتجهنا جنوبا · هذه البروة ، وقد اخلاها اهلها وهذه طمرة وعبلين · وقد بقي اهلهما فيهما · وهناك في الافق شفا عمرو · بلدة كبيرة · بقربها وقعت معركة هوشة والكساير ، بقيادة شكيب وهاب · وقصته مع كتيبته معروفة · قلنا وجهتنا سجن الدامون · لكن الشاحنة انحرفت يمينا ، ودخلت طريق مرج بن عامر · على يميننا « مشمار هاعيمك » · وهناك قاتل فوزي القاوقجي اولى معاركه ، ودحر · وتستمر الشاحنة ، تنهب طريق المرج· الى مدخل وادي عارة ، على مقربة من مجدد ·

كانت الساعة حوالي الرابعة · وقد آذنت شمس النهار على الغروب ·توقفت الشاحنة في حقل فسيح مفتوح · وقفز الجنود الذين رافقونا · اخذوا مواقع ،

في حلقة حولنا . ونزلنا الى الارض . امرونا برفع ايدينا فـــوق رؤوسنا . فامتثلنا . نظرنا ، فاذا بقايا هياكل عظمية متناثرة بالقرب منا . لقد وقعت هناك معركة بين الهاغناه والجيش العراقي . وايقنا للحظة بقرب النهاية . فتشونـــا وجردونا من كل ما نملك . اخذوا الحلى والنقود . وقالوا : امامكـم الحدود الاردنية ! تقدموا في خط مستقيم! اياكم والنظر الى الوراء او محاولة الهروب . ومن يفعل يمت ! وهدأ روعنا . فمشينا في الحقل المزروع بالتنباك الذي لم يقطفه اصحابه . تقدمنا حتى اشرفنا على الوادي . فجأة انهال علينا الرصاص . بدأ الجنود الاسرائيليون يطلقون النار فوق رؤوسنا . فاجابهم الحرس من الجانب الآخر . ووقعنا بين نارين اخذنا الارض . وزحف احدنا بضع عشرات مـــن الامتار . فهبط في منحدر الوادي . وامن الرصاص من خلفه . ثم انتصـــب وكوفيته في يده ، يلوح بها ويصيح : نحن عرب ، نحن عرب ! وتوقف الرصاص.

كنا اسعد حظا من مجموعة المبعدين التي سبقتنا الى المكان . وكانت قادمـة من شفا عمرو ، ومرت بتجربتنا كلها . وكونها الاولى من نوعها ، ذاق افرادها الامرين . لم يصدقوهم عند الحدود . واعتبروا ارسالهم خدعة اسرائيلية مـن اجل ارسال بعض الجواسيس . تحملوا الكثير فوق مصابهم . وعندما وصلنـا نحن ، اقتنع الحرس بان المسألة نهج اسرائيلي جديد . لـم يضايقونـــا ابدا . قادونا عبر الوادي ، بين حقول الالغام ، الى عارة . وصلناها بعد الظلام . اخذونا الى جامع القرية ، لنبيت ليلنا هناك . جمعوا لنا بعض الفرش .واتونـا بما تيسر من طعام . وانتشر الخبر . فجاءنا رجل يستطلع الامر . كان هـــذا شرطيا سابقا خدم في قرى الشمال ايام الانتداب تعرف علينا ، واتضح انه كان يعرف والدي جيدا . حملنا معه الى بيته ، واوانا . وتداعى القوم ، فتوزعوا الباقي في بيوتهم . قضينا في عارة ليلتين . وفي صباح اليوم التالي ، وصلت الى القرية شاحنة ، تقل ضابطا عراقيا وسائقه . كان الضابط شابا وسيمـا ، صاحب نخوة . جمعنا في مقر قيادته ، وحملنا في شاحنته الى جنين . اخذنا الى احد المعسكرات هناك . واستصدر اذنا للشاحنة ، لتقلنا الى نابلس . وفي هذه الاثناء ، قدموا لنا بعض الطعام ، وزودونا كلا ببطانية . تلحفناها وصعدنا الى الشاحنة . وعند المساء وصلنا الى نابلس .

نابلس ـ عمان ـ بيروت

لم يكن بيننا من يعرف احدا في نابلس . فهي بعيدة عنا ، لا تربطنا بهـــا صلات . وفي طريقنا اليها من جنين ، تداولنا في مصيرنا ، استقر رأينا علـى ضرورة التكافل والتضامن حتى نصل الى بيروت . وهناك ، يتولى والـــدي امرنا . وكلنا اثنين منا ، يتوليان انجاز المهمة . لم يكن معنـــا قرش واحد . والمجموعة كبيرة ، تحتاج الى طعام ، وملابس ، وتكاليف سفر . لقد تركنـــا

بيوتنا كما نحن ، لم نحمل معنا شيئا . في جنين ، طرحت امكانية ارسالنا الى احد مخيمات اللاجئين ، فرفضنا . كنا نخشى ان دخلناها ، وتم تسجيلنا في احدها ، ان يطول بنا المقام فيها ، ان لم يكن ذلك نهاية مطافنا . عقدنا العزم على مقاومة كل عرض كهذا ، ايا كان مصدره . وعندما وصلنا الى نابلس ، اخذونا الى مبنى البلدية ، حيث دائرة اللاجئين . انتظرنا هناك ساعة ، او بعضها . اقنع مبعوثانا الموظف المسؤول باننا سنتابع سفرنا الى بيروت . فصرف لنا بعض التموين ، وتركنا وشأننا . كان همه ان نتصرف عنه ، ليستريح منا فلديه الكثير من امثالنا . تذكر احد المسنين بيننا ، ان في نابلس او ضواحيها ، راهبة من معليا ، تقيم في احد الاديرة هناك . سألنا عن دير الكاثوليك ، فدلونا عليه . ذهبنا جميعا اليه ، نحمل ما تجمع لدينا من طعام ومتاع . قرعنا باب الدير ، فاطل علينا من نافذة في الباب ، راهب في مقتبل العمر . وما ان رآنا حتى انقلب مزاجه . حاولنا اقناعه بادخالنا الى باحة الدير ، فأبى . سألناه عن الراهبة ، ابنة بلدنا، فافادنا انها غائبة عن المكان . طلبنا مواجهة رئيس الدير ، فاغلق النافذة في وجوهنا ، وانصرف . والدير محاط ، كالعادة ، بسور عال . صممنا على الدخول اليه ،والبقاء فيه ، ريثما تتيسر امورنا . قرعنا الجرس مرات عديدة ، حتى خرج رئيس الدير الينا . كان اسمه « ابونا فروجي » . مربوع القامة ، يميل الى البدانة تجاوز الخمسين من عمره . اراد اقناعنا بالانصراف لليلتنا هذه ، على ان نعود في الصباح ، فيقدم لنا ما في استطاعته من عون . قلنا ان حاجتنا الى ديره ، اكثر منها الى مساعدة . ودار بيننا حوار طويل عبر النافذة ، والباب موصد . وبينما نحن في اخذ ورد ، انضم الى الحوار رجل محترم ، يقيم مع عائلته في الدير . تبين لنا فيما بعد ، انه من وجهاء الطائفة الكاثوليكية في يافا . رحل عنها عندما احتلها اليهود . ولجأ الى نابلس ، فاقام مع عائلته في الدير . لقد خصصوا له جناحا في المبنى الكبير . تدخل الرجل لصالحنا ، والح على رئيس الدير بايوائنا . وما ان فتح خادم الدير الباب الكبير حتى اندفعنا كلنا الى الباحة . وبدا الارتياح على وجوه الجميع . لقد ضمننا مأوى ، نبيت فيه . اولانا الرجل الكريم عناية كبيرة . حصل لنا على بعض التموين والملابس . كما استأجر لنا شاحنة تقلنا الى عمان . وزودنا « ابونا فروجي » برسالة الى مطرانية عمان ، توصي باستقبالنا ، وتقديم العون لنا .

في عمان ، كان المطران عساف هو راعي ابرشية الروم الكاثوليك . زاربلدنا، تعرفنا اليه عن قرب ، وكنا نجله . وعندما وصلنا الى المطرانية ، في ساعات بعد الظهر ، لم نجده هناك . كان في المبنى بعض العائلات المسيحية ، النازحة من حيفا ، التي سبق ان التقينا بها . ومنها من اعرفهم جيدا . فتحوا لنا باب الصالة ، في المبنى الجديد . وأقمنا بها حتى غادرنا عمان الى بيروت .

وعندما عاد المطران ، جلس الينا ساعات طوال يستمع الى قصتنا · كانت همومه كثيرة · فابناء طائفته النازحون يتوافدون عليه تباعا · وهو لا يتوانى عن خدمتهم · جند المطران كل العاملين عنده لخدمتنا ، وترتيب امر سفرنا ، في اسرع وقت ، الى بيروت ·

بقينا في عمان بضعة ايام · لم تكن لدينا بطاقات هوية ، ولا جوازات سفر· والعلاقات الدبلوماسية بين سوريا والاردن مقطوعة · وتوجب علينا ترتيب اوراق سفرنا عن طريق سفارة لبنان في عمان · لكن ذلك لا يجوز قبل الحصول على هوية اردنية · وكل ذلك يحتاج الى وقت · فاينما ذهبنا ، كنا نصطدم بعبارة تعالوا غدا · وعدنا في الغد ، وضاع وقتنا في التسكع بين اروقة المكاتب ، ننتظر من ينادي علينا لتسلم هذه الوثيقة او تلك · اخيرا تمت جميع المعاملات الرسمية · اعطونا تأشيرة مرور جماعية ـ ترانزيت · لا يجوز لنا ، بموجبها ، التوقف في سوريا · وهكذا كان · واجتزنا سوريا ليلا الى بيروت ·

وبلغنا في عمان ان الجيش الاردني قد فتح باب التطوع للفلسطينيين · وانه يجند الشباب ، ممن انهوا دراستهم الثانوية · يدخلون مدرسة للضباط فيتخرجون بعد ستة اشهر · استهوتني الفكر · كنا نسمع عن الجيش الاردني وعن قدراته القتالية · لم يحصل ان عرفناه عن قرب · معلوماتنا عنه مصدرها الصحف والاذاعات · كذلك القصص التي تناقلها المتطوعون الفلسطينيون في قوات الحدود الاردنية ـ الزنار الاحمر · لقد انضم اليها بضع افراد من القرية· « ابو حنيك » كان اسطورة · تعامله مع القبائل ، بناء جيش البادية ، تنظيم الجيش الاردني ··· الخ · راودتني احلام كثيرة عن الجندية ، وقتال العدو الصهيوني · لقد طردونا من البلد ، ولم يبق امامنا الا القتال · لكنها احلام تحطمت على صخرة عناد امي · لقد اصرت هذه ان نرافقها الى بيروت ، حيث يحسم والدي الامر · تجولنا في شوارع عمان أياما · وذات يوم ، ونحن في السوق ، تعالى الضجيج · دراجات نارية ، وسيارات جيب ، تخترق الشارع المكتظ بالمارة · الجنود يدفعون الناس ويأمرونهم بالتزام الرصيف · ومر موكب « سيدنا » · كان الامير في سيارة مكشوفة ، والى جانبه غلوب باشا ، ابو حنيك · صفق المصطفون على جوانب الطريق ، ولوح الامير بيده · استرعى انتباهي ، عندما مر الموكب من امامي ، قصر قامة الرجلين · وتغيرت صورة ابو حنيك في وعيي· ومرت الايام · والتقيت ب « السير جون باغوث غلوب » في الولايات المتحدة ، عام ١٩٧٢ · كان في جولة في امريكا ، القى فيها محاضرات عن الشرق الاوسط · عرض لانجع الطرق من اجل الحفاظ على المصالح الامبريالية في المنطقة · وكنت استاذا لتاريخ الشرق الاوسط في جامعة ماريلاند · التقيته في جامعة جورجتاون · في واشنطن العاصمة · تجاذبنا اطراف الحديث · ذكرته

بايام عمان · لم يبد متحمسا للكلام في الموضوع · كان همه ان تقدم اليه دعوة لزيارة ماريلاند ، والقاء محاضرة هناك · وهي بأجر مقطوع · فاعتذرت · لقد اصبح صاحبنا مؤلفا كبيرا ، قلت في نفسي · كتب عدة مجلدات في التاريخ العربي · ركز فيها على الجانب العسكري · اما في محاضراته ، فقد دعا الى تقليص الدعم الاميركي لاسرائيل · وحث صانعي القرار الامريكي على اعتماد بعض النظم العربية حماة للمصالح الغربية في الشرق الاوسط · هكذا كان معظم المحسوبين علينا ، في انجلترا ، كما في امريكا ·

تعاقدنا مع سائق شاحنة طحين ، يعمل على خط بيروت ـ عمان · كنا في السوق عندما وصل · « مائة وعشرون ورقة ، لا تنقص فرنك » · وافقنا ، شرط ان يتم الدفع في بيروت · افهمنا السائق بصريح العبارة ، اننا لا نملك نقدا او عينا ، نسدد له حسابه · وشرحنا له ان والدي سيدفع له المبلغ في بيروت · قبل الرجل ، وكان سيعود بالشاحنة فارغة ، على اي حال · تحركنا عند الثانية بعد الظهر · احتطنا في عمان للطريق · الفصل شتاء ، وسنعبر جبال لبنان في الليل · والبرد شديد ، والشاحنة مفتوحة · عليها غطاء يستر ولا يقي · ومع ذلك ، كنا سعداء · لقد نجحنا · فها نحن في الطريق الى بيروت اخيرا · هناك ابي واخي الاكبر · ومن هناك سنتصل لمعرفة ماذا جرى للاخوة الثلاثة الصغار · وفي بيروت سيكون لنا بيت نأوي اليه · والاهم اننا نجونا من شبح مخيمات اللاجئين ، الذي ظل يرافقنا طوال رحلتنا · كانت محطتنا الاولى في درعا ، عند الحدود السورية · وصلناها بعد حلول الظلام · وترجل السائق حاملا بيده كل الاوراق الرسمية · غاب عنا ، وطال انتظارنا · ثم عاد برفقة شرطي من المخفر · وافضى هذا بان الضابط يريد استجلاء ملابسات قضيتنا · انتدبنا اثنين منا ، من ذوي الخبرة والحنكة ، اصطحبناه لمواجهة الضابط · وتعاقب علينا افراد شرطة المخفر · هذا يعدنا ، وذاك يتحققمن هويتنا · اجروا تفتيشا دقيقا للشاحنة · لم يقتنعوا بأن ما لدينا من حطام الدنيا لا يستحق التفتيش · وانتهت الاجراءات القانونية · واصطحبنا شرطي الى الحدود اللبنانية · كانت مهمته ضمان عدم نزولنا في الاراضي السورية وعبرنا الشام ليلا ، الى المصنع ·

توقفنا طويلا في درعا · وفي ساحة المخفر تحلق بعض الناس حولنا ·سمعوا قصتنا ، ورثوا لحالنا · كان احدهم يصغي لكلامنا باهتمام بالغ · تبين لنا انه فلسطيني · عرفناه من لهجته ، وقدرنا انه من ابناء الجليل الاسفل · لقد لجأ هو الآخر الى درعا حديثا · كانت له صلات قربى ببعض اهلها · وافادنا انه يعرف بلدنا ، وانه نزلها مرارا · سألنا عن بعض اهلها ، فاجبناه · وانسل الرجل من بيننا ، دونما اعلان · استغربنا الامر منه · ثم عاد ومعه اهل بيته يحملون معهم ما تيسر من طعام وشراب · كان يود لو استطاع استضافتنا في

بيته · وغادرنا المكان ، بعد ان شكرناه كثيرا · ورفض التعريف بنفسه · تملص من الاجابة عن اي سؤال عنه ، او عن بلده ، « فلاحمن فلسطين » ، قالها ولـم يزد · ومضى كل في طريقه ·

عبرنا المصنع ، عند الحدود اللبنانية ، دون مشكلات · وكانت محطتنا التالية في شتورا · وصلناها بعد منتصف الليل · كان سائقنا قد تعب · الظاهر انـه اعتاد التوقف عند احد المقاهي ليستريح · نزلنا جميعا من الشاحنة ، بعـــد ان كاد دمنا يجمد في عروقنا من شدة البرد · اكتفى كل منا بكوب من الشاي الساخن · فالقروش القليلة التي كانت معنا ، بقيت من ميزانية صغيرة منحنـا اياها مطران عمان · تابعنا سفرنا باتجاه بيروت · وعند ظهر البيدر ، اعترضتنا عاصفة ثلجية · وبدأت شاحنتنا تتأرجح · وعلمنا في الغد ان الطريق قطـــع لبضعة ايام · وعند الفجر ، اعلن سائقنا اننا وصلنا الى بيروت ، واننا فـــي فرن الشباك · هناك كان بيته ، فدعانا اليه · كانت هذه دعوة تمويه · ولم يكن ليتركنا قبل ان نسدد الحساب · واستقل اخي الترام الى رأس بيروت ، حيـث يقيم والدي ، عند ابنة عمي · وعادا والمبلغ المرقوم معهما · دفعناه وانصرفنا· في ذلك اليوم ، حصل والدي على مبلغ من المال ، من مطرانية الكاثوليك فـــي بيروت ، وزعه على المجموعة · كان رأيه ان يعود الناس الى القريـــة · حـث الشباب منا على محاولة الوصول الى الجنوب ، والتسلل عبر الحدود ، رجوعا الى البلد · وقد فعل البعض ذلك على الفور · وتفرقت المجموعة ·

خمسة اشهر في بيروت

في رأس بيروت ، كان والدي يقيم في منزل ابنة اخيه · لم تكن « الحمراء » بعد · بل بيوت متناثرة بين البساتين وكثبان الرمل الاحمر · وكانت هذه تحبه وتكرمه ، وتعتبره مثل والدها · لقد مات ابوها ، وهي طفلة · فتولى والـــدي شأنها · حملها معه الى السنغال في صباها · اما هو فقد هاجر الى افريقيـــا الغربية هربا من الخدمة العسكرية في الجيش التركي · استدعوه الى الجنديـــة في اواخر الحرب العالمية الاولى ، فهرب · وهناك ، تزوجت ابنة اخيه من مغترب لبناني ، عاد معها بعد حين ، واستقر في بيروت · ونزلنا عندهم في البيـت ، واقمنا في جناح منه ·

لدى وصولنا ، كان قد انقضى اسبوعان على ابعادنا ·وفي هذه الاثناء ، كان اخي الاكبر قد وصل بيروت ، وابلغ والدي بامر طردنا من البلد · وعاد هو لتوه الى رميش ، ومنها الى معليا ، متسللا عبر الحدود · علمنا انه دخلها قبـــل وصول مأموري الاحصاء · فدخل في عداد المواطنين ، وحصل على بطاقة هوية اسرائيلية رسمية· وكان سيل النازحين والداخلين، من البلد واليه ، لا ينقطع ·

فالحدود شبه مفتوحة ، والناس يغدون ويروحون · ونقل الينا بعضهم ان الاخوة الثلاثة الصغار بخير · وبلغنا ايضا ان بعض الذين ابعدوا معنا ، قد عـــاد واستقر في البلد · طاردتهم الشرطة فترة ، ثم سكتت عنهم بكفالة من مطـران الطائفــة فـي حيفــا · واخــذت فكــرة العــودة تراودنــي · فاتحت ابي في الامــر ، قبـل انقضاء شهر علي في بيروت · لم يوافق · لــم يكـن يريد ان يعيش كابوس التغريب والطرد ثانية · لقد قاسى كثيرا خلال اسبوعين طويلين ، لم يستطع ان يقف لنا فيهما على اثر · كان قانعا بانقسام العائلة الى نصفين ، ولم يرد ان تتفتت الى اثلاث وارباع · ومرت الايام تباعا ، واكلنـي الضجر · لم يكن لي ما اعمله في بيروت · جعلت انحر وقتي اجوب شــوارع المدينة ، دونما هدف · وانتقلت العدوى الى امي · اما اخي الثاني ، فقد وجد له عملا عند قريب لنا · وكانت لهذا مصالح واسعة ، شركة مقــاولات كبيرة · عرض علي الانضمام الى فرعها الجديد في الكويت · واستهوت الفكرة ابـي ، ظنا منه ان ذلك قد يثنيني عن عزمي العودة الى البلد · وجهد القريب فــي اغرائي بالامر · ووقفت امي معي في رفض العرض ·

وذات يوم ، عاد والدي الى البيت ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة · زف الي الخبر · قضى ساعات صباحه في مقر الهيئة العربية العليا · وكان يتردد على المكان ، يلتقي فيه باصدقاء قدامى ، يتحدثون في السياسة ، ويتداولون فــي امورهم · لقد رصدت الهيئة عددا من المنح الدراسية · وباستطاعتي ، ان شئت ان اتقدم بطلب الى الجامعة الاميركية · وتكاليف الدراسة على حساب الهيئة · وصدم الرجل عندما جاءه ردي ، سريعا وقاطعا : لن ابقى في بيروت ! وانتهى الامر عند ذلك الحد · واصبحت القضية مسألة ترتيبات تقنية ، تؤمن عودتيالى البلـد ·

بيروت ـ رميش ـ معليـا

خلال السنوات الاولى بعد الاحتلال ، راجت بين عرب الجليل مهنة التهريب · تشكلت شبكات واسعة لتهريب البضائع الاستهلاكية ، وغيرها ، الى اسرائيل · عاد الوضع على الحدود الى ما كان عليه ايام الحرب العالمية الثانية · وشارك في تلك العمليات عدد كبير من سكان قرى الشمال · دخلوا في شراكات مــع يهود ، كانوا يسوقون البضاعة في المدن · ومنهم من كان ينقل بعض انواعها الى قطاع غزة ، فسيناء ، فمصر · واثناء اقامتي القصيرة في بيروت ، التقيت بعدد من هؤلاء · كنت اعرفهم سابقا في فلسطين · وفي ترددي الكثير على السوق، كنت اعثر عليهم يتبضعون · اتفقت مرارا مع جماعات منهم ، على ان انضــم اليهم في طريق عودتهم · لم اكن اعرف الطريق · وخشيت الوقوع فريسة سهلة

في ايدي الدرك اللبناني ، او حرس الحدود الاسرائيلي ٠ وفي كل مرة كـــان والدي يحبط خطتي ٠

اخيرا وصل الى بيروت راعي ابرشية الروم الكاثوليك في حيفا ، المطـــران حكيم ، البطريرك الحالي (١٩٧٨) لتلك الطائفة في المشرق ٠ التقى والدي ، سأله عن الاوضاع ، واستوضح امكان عودتي الى البلد ٠ وعد المطران ببحث المسألة بعد رجوعه الى حيفا ٠ انتظرت ، وطال انتظاري دون جدوى ٠ فحزمت امري ،وقررت السفر ،على اي حال ٠ انتهزت فرصة وجود عــم لي ، الحـــاج ظاهر ، ، مختار قرية رميش اللبنانية ، في بيروت ٠ ورضي ابي على مضض ، ان ارافق العم الى بيته ، وان ابقى هناك حتى يؤمن ارسالي الى البلد ٠ وبقيت عنده يومين ، خرجت بعدها مع جماعة من المهربين ، الى فلسطين ٠

قضى صحبي النصف الاول من ليلهم يوضبون بضاعتهم ٠ جعلوها في رزم يسهل حملها على الظهر ٠ ولما انتهوا من عملهم هذا ، غفوا لساعة او اكثـــر قليلا ٠ وعند الثانية بعد منتصف الليل ، تحركنا جميعا نحو الحدود ٠ كـــان هؤلاء قد خبروا الطريق جيدا ، لكثرة ما مشوها ، ذهابا وايابا ٠ وفي رحلاتــهم المتكررة ، رصدوا تحرك دوريات الحدود الاسرائيلية ، وعرفوا نهجها ٠ كانوا يعرفون ان ساعات ما قبل الفجر ، هي الاكثر امنا لعبور الحدود ٠ وفي اقل من ساعة كنا على تلة مشرفة ــ تلوع الراهب ٠ كانت هذه تطل على الطريـــق الحدودي ، بين رأس الناقورة والنبي يوشع ٠ عليها تسير الدورياتالاسرائيلية في سيارات مصفحة ، وعلى المسارب المؤدية اليها تنصب الكمائن ٠ قعدنـــا على شرف من الارض ، يطل على قطعة من الطريق طويلة ٠ هناك مزقت هويتــــي الاردنية ٠ لم اعد بحاجة اليها ٠ ولم تكن لدي رغبة في الاحتفاظ بها ٠ انتظرنا حتى مرت المصفحة ، وابتعدت عن طريقنا الى الشرق ٠ هرولنا نزولا في المسرب الى الطريق ، قطعنا بسرعة ، واختفينا في الارض الوعرة ، تغطينا الاحـــراج الكثيفة ٠ كانت هذه النقطة الاكثر خطورة ٠ وجددنا في سيرنا نحو مرج عكبرة، الى الشمال الشرقي من فسوطة ٠ لقد اصبحت داخل البلد ، عدت مرة اخرى الى فلسطين ، ولكن دونما بطاقة هوية ، او اي مستند رسمي يعرف بي ٠

وافترقنا في مرج عكبرة ٠ اخذ صحبي طريقهم باتجاه وادي القرن ٠ هناك كانوا يخزنون بضائعهم المهربة ، ريثما يؤمنون تسويقها ٠ وكان طبيعيا انيخفوا عني مخابئهم ٠ دلوني على الطريق الى فسوطة ، وانصرفوا ٠ ارتأيت التوجه الى فسوطة اولا ، تحاشيا لامكان ان ينكشف امر عودتي ٠ لقد كثر المخبرون وتغلغلت المخابرات الاسرائيلية في القرى العربية بعد الاحتـــلال ٠ وخفت ان قصدت بلدي ، معليا ، في وضح النهـــار ، ان يصدفني احـــد هؤلاء ، فيشي بي الى السلطة ٠ اما في فسوطة ، فدائرة معارفي محدودة ، وامكان انكشاف

امري ضئيل • كانت الفكرة ان ابقى فيها يوما او يومين ، استطلع خلالهما الاوضاع ، واضع ، بالتشاور مع اقربائي هناك ، خطة لتحركي • طلبت من صحبي ، قبل افتراقنا ، نقل خبر عودتي الى اخي الاكبر ، الذي كان قد عاد الى القرية• وارتفعت الشمس، واطلت علي فسوطة فوق تلها• يممت وجهي شطرها، وسرت في الحقول المفتوحة صوبها • تحاشيت السير على الطريق الزراعي ، تحسبا للمفاجآت • لم يكن معي ما يثير الشبهة • فانا بمفردي ، وليس علي ما يسترعي الانتباه • وصلت الى بيت اقربائي ، وراح رب البيت يمطرني باسئلة عن والدي وامي وتفاصيل « تغريبتنا » • اما زوجته ، فقد بدا عليها الارتباك • كانت سلطات الاحتلال قد اصدرت قانونا يقضي بطرد من يؤوي نازحا من البلد، او على الاقل ، بدفع غرامة مالية كبيرة • واحتارت العائلة في امرها • هناك الشرف والكرامة واواصر القربى والصداقة الخ ، وهناك السلطة والاحتلال والقمع والبطش • وحسمت انا الامر • تناولت طعام الغداء معهم ، واستودعتهم منطلقا الى وادي القرن • والوادي فسيح ، وانا اعرف ارجاءه • لنا فيه ارض وبساتين وطواحين ، طلبت منهم ابلاغ اخي ان يلقاني في احدى الطواحين • وصلتها عند الغروب ، وبت ليلتي فيها ، مع عمالها •

في الغد ، جاءني اخي • تداولنا في الامر • واستقر رأينا على ان ابقى انا في الطاحون • ويعود هو لمراجعة المطران • استنفرنا عمال الطاحون للحراسة رصدنا جميع الطرق المؤدية اليها • اتفقنا على كلمة سر • لكننا لم نضطر الى استعمالها • كانت اشارة لانذارنا بالخطر • تحسبنا ان تداهمنا الشرطة • في الليل ، لم تكن هناك مشكلة • الشرطة الاسرائيلية لا تدخل الوادي الموحش ليلا ومع ذلك ، واحتياطا ، اتخذت من مغارة مبيتا لي • اما في النهار ، فظلت المراقبة مستمرة ، من نقطة رصد مشرفة ، في السفح المقابل من الجبل • لقد جهد المطران لدى السلطات في استصدار اذن لي بالبقاء في البلد • ونجح اخيرا • فحمل الي اخي قصاصة ورق ، عليها بعض كلمات بالعبرية • لم افهم فحواها • ولكنني حملتها وذهبت ، متوجسا شرا ، الى مأمور التسجيل •فاصدر لي هذا وثيقة اقامة مؤقتة • كانت بطاقة حمراء اللون ، ذاع صيتها ، وعرفت ب « الهوية الحمراء » • اما بطاقة الهوية العادية ، شهادة المواطنية الحقة ، فكانت زرقاء ، كلون « درع داوود » • وبدات اقامتي المؤقتة في فلسطين المحتلة• وطالت اربع عشرة سنة • الى حين سفري لاستكمال تحصيلي الجامعي في الولايات المتحدة • وخلال اسابيع قليلة ، وصلت امي بالطريقة نفسها ، وكذلك اخي الثاني ، الذي لم يطق البقاء في بيروت • وحصل على « هوية حمراء » • واعتقد انهما لا يزالان الى اليوم (١٩٧٨) ، مقيمين مؤقتا ، في الارض المحتلة •

مكرم يونس

المشروعات الاسرائيلية لتوطين اللاجئين (١٩٦٧-١٩٧٨)

منذ اغتصاب فلسطين ، والاعلان عن قيام « دولة اسرائيل » على ارضها ، ونشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ، بعد طردهم من وطنهم عنوة ، وبقوة السلاح ، كان الموقف الاسرائيلي من هذه المشكلة يرتكز على نقطتين :

الاولى – دعوى ان الذين نزحوا من « ارض – اسرائيل » انما نزحوا بطلب من الدول العربية ، دون ضغط من اسرائيل ، وهذا يستوجب عليهم ، باعتبارهم المسهمين في نشوء المشكلة ، ايجاد حل لها ٠

وقد عبر عن هذا الموقف موشي دايان قائلا : « بالنسبة لحل مشكلة لاجئي عام ١٩٤٨ ، الموجودين خارج حدود اسرائيل ، هذه المشكلة يجب ان تجد حلها في الدول العربية التي انتهى اليها اللاجئون ، ذلك ان اسرائيل استوعبت في الوقت نفسه عددا مماثلا من المهاجرين اليهود ، الذين اضطروا للهرب من البلاد العربية ، ونحن نرى في هذا عملية تبادل للسكان ٠ واعتقد ان العرب سيضطرون ، عاجلا ام اجلا ، الى التسليم بهذا التبادل السكاني ، واستيعاب لاجئي ١٩٤٨ في بلادهم ، لان اسرائيل لن تستقبلهم ، لا طوعا ولا قسرا » (١) ٠

الثانية – وهي ان اسرائيل ، من « منطلق انساني » فقط ، مستعدة للاسهام في حل هذه المشكلة ، بدفع تعويضات للاجئين ، كي يتمكنوا من تسوية اوضاعهم حيث يريدون في الدول العربية ٠

لم تأت هاتان النقطتان من الفراغ ، فاسرائيل تنظر الى هذه المشكلة ، من منظور الحركة الصهيونية ، التي تنفي ان هناك شعبا فلسطينيا ، وبالتالي فان شعبا غير موجود لا يمكنه ان يخلق مشكلة ٠

من هذا المنطلق ، تزعم اسرائيل ، والحركة الصهيونية ، أن هذه مشكلة عربية ، نجمت في الاساس عن سياسات خاطئة انتهجتها الانظمة العربية ، وتبعا لذلك ، فهي المسؤولة

عنها ، وحلها يكون باستيعاب اللاجئين في مجتمعاتها ، مع منحهم كامل الحقوق التـــي يتمتع بها اي مواطن عربي ، في اية دولة عربية ٠

حول هذا الموضوع ، وتجسيدا للسياسة الاسرائيلية ـ الصهيونية ، قال عضو الكنيست شلومو روزن ـ من « مابام » ، حزب العمال الموحد ، المتزعم للطروحات الاشتراكيـــة ، والرافع شعار اخوة الشعبين العربي واليهودي ، والمساواة بينهما في برامجه الانتخابية ـ : « نحن لم نخلق مشكلة اللاجئين ، لقد خلقت هذه المشكلة نتيجة هجوم الدول العربية على اسرائيل ، بهدف احباط قرارات الامم المتحدة ، الخاصة باقامة دولة اسرائيل ، وقد ظهرت هذه المشكلة الى حيز الوجود وفقا لنصائح الزعماء العرب ، وعلى مسؤوليتهم » (٢) ٠

اذن ، الموقف الاسرائيلي ، في هذا الشأن ، يتلخص بالتالي : عدم وجـــود لاجئيـــن فلسطينيين داخل الارض المحتلة من فلسطين عام ١٩٤٨ ، وعليه ، فليست هناك مشـــكلة تتطلب حلا من اسرائيل ، او تضغط عليها ٠

وقد بقي هذا الموقف الاسرائيلي على حاله من الرفض لحل المشكلة ، ولقرارات الامـــم المتحدة في هذا الشأن ، داعيا الى توطين اللاجئين الفلسطينيين ، في لبنان ، سوريـــا ، الاردن ، مصر ودول الخليج ، حتى العام ١٩٦٧ ، اي عام عدوان الخامس من حزيران ، وسقوط الضفة الغربية ، وقطاع غزة ، في يد الجيش الاسرائيلي ٠

بعد هذا العدوان وجدت اسرائيل نفسها مسيطرة على مئات الالاف من اللاجئين ، ومـن هنا كان لزاما عليها ، بحكم الوضع الجديد ، التعاطي مع هذه المشكلة ٠ بعد هذا العدوان، اصبحت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ذات شقين ، بعد ان كانت اسرائيل تحصرها في قالب واحد ، وترى ان حلها كامن في موافقة الدول العربية على توطينهم في اراضيها ، وتسـلم التعويضات الاسرائيلية ـ الامريكية ـ الالمانية ، لتوزيعها عليهم ٠

الشق الاول من المشكلة متعلق بالدول العربية ، وقد اعفت نفسها اسرائيل من مشقـــة البحث عن حل لهذا الشق ٠

اما الشق الثاني ، والخاص بلاجئي المناطق المحتلة بعد عدوان الخامس من حزيـــران ١٩٦٧ ، فقد طرح نفسه ، وبقوة ، على اسرائيل ٠

اثارة المشكلة لاول مرة :

على هذا الاساس ، كان لا بد لاسرائيل ، مضطرة ، وبحكم الوضع المستجد ، ان تسعى الى بحث الشق الثاني من المشكلة ، اي مسألة اللاجئين في الضفة الغربية وقطاع غزة ٠ وكان اول من بادر الى التحدث فيها ، واثارتها ، على الصعيد الرسمي ، نائب رئيـــس الوزراء ووزير الهجرة والاستيعاب ، في حكومة التكتل الوطني ، يغئال الون ٠ ففي اليـوم الاول من انتهاء الحرب ، « توجه الون الى رئيس الحكومة ليفي اشكول ، مطالبا اياه ، بأن يشرع فورا في درس وسائل حل وتصفية قضية اللاجئين ، في الضفة الغربية ، وقطـــاع غـزة » (٣) ٠

وقد جاء رد اشكول معبرا تماما ، ومنسجما مع موقف الحكومة منها ، هذا الموقف الذي استمر منذ قيام الدولة ، فقد قال : « ان اسرائيل لا تستطيع وحدها تحمل العبء ، وانهـا ليست مشكلتنا على وجه التحديد ، انما ليسـت ، عـلى اي حال ، مشـكلة ذات طابـع استثنائي » (٤) ٠

ثم كلف الدكتور رعنان فايتس ، رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية ، باعداد مشروع للحل ، الا ان الون ، كان اول من قدم تصورا كاملا للتسوية مع الاردن ، يتضمن ما يرتأيه لحل قضية اللاجئين ، هذا اذا لم تكن القضية هي المحور الرئيسي في تصور الون ·

ففي تموز ١٩٦٧ ، اي بعد شهر تقريبا من الحرب ، طرح الون في كتابه « مشروع الون » افكارا لحل القضية ، كمدخل للتسوية السلمية مع الدول العربية ، ومع الاردن تحديدا ، وكاتجاه لتصفية قضية اللاجئين الفلسطينيين ، على الصعيدين العربي والدولي ·

النقاشات النظرية ، والمواقف الرسمية والحزبية

قليلون هم اعضاء الحكومة ، واعضاء الكنيست ، الذين لم يشتركوا في مناقشة مشكلة اللاجئين ، سواء كان ذلك في نقاشات جلسات الكنيست ، او على صفحات الصحف · ولا غرابة ، فقد عكست اراؤهم ومواقفهم من هذه المشكلة ، اراء ومواقف احزابهم وكتلهم في الكنيست ، وبالتالي عكست السياسة الاسرائيلية تجاه المشكلة ، والمصلحة الاسرائيلية الكامنة خلف انهائها ، ووأدها كليا ·

ففي المناقشات الاولى في الكنيست عام ١٩٦٨ ، كان المتناقشون ينطلقون من موقف اسرائيل السابق ـ لا حل لمشكلة اللاجئين كليا الا في الدول العربية ـ اي ، من المقولة الشهيرة لدافيد بن ـ غوريون ، عام ١٩٥٦ ، اي بعد احتلال قطاع غزة خلال العدوان الثلاثي على مصر ، حين قال : « ثمة لاجئون كثيرون ، ربما سيسعى معظمهم للهرب الى الدول العربية ، اذا ما وضعت سفن جاهزة للابحار من ساحل غزة » (٥) ·

هناك ضرورة هامة جدا للاطلاع على المناقشات بين اعضاء الكنيست ، حول مشكلة اللاجئين ، ليس لكون هذه المناقشات تعكس السياسة الاسرائيلية تجاه المشكلة فحسب ، بل لانها تعكس النوايا الصهيونية لضم أراضي الضفة والقطاع ، وتعكس ايضا منهجية التفكير الصهيوني · وهذه نماذج مما قدمه بعض المسؤولين الاسرائيليين في هذا الصدد ، والتي طرحت اثناء مناقشات مشكلات توطين اللاجئين في الكنيست ·

رئيس الحكومة ليفي اشكول : تحدث رئيس الحكومة مطولا امام الكنيست في ١٩٦٨/٨/٧ عن المشكلة ، الا انه نفى تماما بأن اسرائيل قادرة على حلها من الناحية العملية ·

وقال اشكول : « انا لا اعرف ما اذا كانت كل الجماهير الاسرائيلية تعتقد ان بالامكان حل المشكلة ··· لكن اعطوني الارض والاموال والمياه ··· انني لا اعترف بحل المشكلة ، هنا ، في اسرائيل ، وان عدد اللاجئين في الضفة لا يؤثر على البناء الديمغرافي في الدولة ··· وانا ساكون راضيا ، اذا قبلت الدول العربية مشورتنا ومساعداتنا التقنية ، وهذا كل ما نستطيع تقديمه من اجل حل هذه المشكلة » (٦) ·

لقد عبر رئيس الحكومة ليفي اشكول عن وجهة النظر الرسمية للحكومة ، ازاء مشكلة اللاجئين ، ونصب نفسه في طليعة المعارضين ، داخل الحكومة والكنيست ، لمشاريع توطين وتأهيل اللاجئين ، داخل الحدود الطبيعية لفلسطين ·

وزير الخارجية ابا ايبن : اما ابا ايبن ، فقد تحدث في شكل ضبابي وغامض ، وطرح حلولا للقضية ، وهو يعلم سلفا ،ان الدول العربية لن تقبل بها ، ولن تأخذها على محمل الجد ، حيث قال : « لقد كان لدى الحكومة الاسرائيلية نية لاثارة مشكلة اللاجئين ، امام

الجمعية العامة للامم المتحدة ، لكن ، وفي ١٩٦٧/١١/٢٢ ، اتخذ مجلس الامـن قـراره الشهير ٢٤٢ ، الذي يقضي بأن تبحث هذه المشكلة في اطار المفاوضات لاحلال السلام ، ومن ضمن باقي الموضوعات التي يعالجها الدكتور يارنغ ، مبعوث الامم المتحدة الى الشـرق الاوسط . لقد ارتأت اسرائيل عدم تقديم اقتراحات مفصلة لحل المشكلة . وبالمقابل اوعزنا الى مندوبنا في الامم المتحدة ميخائيل كومي ، ليعلن عن استعداد اسرائيل اجراء مشاورات ومفاوضات حول هذا الموضوع مع الحكومات العربية ، وحكومات اخرى ، بهدف صياغة مشروع لحل مشكلة اللاجئين ، بالتعاون مع دول المنطقة ودول اخرى ، خلال مدة خمس سنوات ... علاوة على هذا ، فان توقيت الجمعية العامة ، غير ملائم لبحث المشكلة وتقديم مشروع مفصل من جانب اسرائيل . لقد جاء موقفنا في الامم المتحدة مطابقا لقـرارات الحكومة بهذا الشأن » (٧) .

النائب شلومو روزن (مبام) : استعرض روزن المشكلة منذ نشوئها ، والقى المسؤولية في خلقها على الدول العربية ، وطالب بتوطين وتأهيل اللاجئين داخل المناطق المحتلة التي تسيطر عليها اسرائيل ، بما في ذلك سيناء ، قائلا : « لقد احدثت حرب الايام الستة تغييرات جوهرية . ففي المناطق التي استولى عليها الجيش الاسرائيلي قرابة مليون عربي ، منهم حوالى ٢٢٠ – ٢٤٠ الف لاجيء ، بهذا تكون قد توفرت لدينا الان ، فرصة غير عادية ، لتحريك وزحزحة المشكلة من نقطة الجمود ، كي نثبت للعالم بأن مشكلة اللاجئين يمكن حلها ... لقد مضت سنة كاملة دون عمل شيء ، فهل تنوي الحكومة تخليد هذه المشكلة والاستمرار في تجاهلها الى الابد ؟ . وهنا اقترح اقامة بعض القرى والمباني السكنية ، على سبيل التجربة ، واتباع سياسة اقتصادية واجتماعية لزيادة الانتاج ورفع المستوى المعيشي ، وهذه خطوات تؤدي بالنهاية الى تأهيل اللاجئين ، بواسطة تشغيلهم في الزراعة والصناعة والخدمات ، وبالتالي دمج اللاجئين في الحياة العامة . هناك البعض ممن يوصون بسياسة اقتصادية معينة ، تؤدي في النهاية الى تشجيع هجرة اللاجئين الى البلاد العربية ، بالنسبة لهؤلاء ، لا اعتقد ان بمقدورنا فعل هذا » (٨) .

النائب جدعون هاوزنر (الاحرار المستقلون) : طرح هاوزنر خلال النقاش في الكنيست، نقطتين ، الاولى ، تشير الى التريث في وضع اية مشاريع ، او اتخاذ قرارات ، الى ان تتضح صورة الموقف بالنسبة لمصير سكان المناطق المحتلة . والثانية ، هي ان الحكومة كفت عن التفكير في هذا الموضوع ، هادفة الحفاظ على الوضع الراهن للمشكلة ، اي ثمة اعتراف بوجود المشكلة ، وامتناع عن تقديم حلول لها . وقد اقترح بعد ذلك :

« أ – اقامة احياء انتاجية بالقرب من المدن في الضفة الغربية ، وتفريغ مخيمات اللاجئين .

ب – اقامة مستوطنات وقرى زراعية في سيناء ، وتوفير المياه عن طريق مشروعات تحلية ماء البحر .

ج – تطوير مشروع للاعداد المهني للاجئين ، بمساعدة المهنيين المحليين المدربين ، اضافة الى مهنيين مدربين من جانبنا . لكن ، ربما كان هناك مجال للانتظار والتريث ، قبل طرح هذا الموضوع ، وذلك للتأكد من الذين يرغبون في البقاء تحت سيطرة اسرائيل من اللاجئين » (٩) .

النائب موشي اونا (المفدال) : القى اونا بالمسؤولية واللائمة على الدول العربية ، لانها لم تقم بأي عمل نشط وفعال في هذا الاتجاه . وكرر ، بعد ذلك ، المقولات الداعية الى المقارنة بين هجرة اليهود من البلاد العربية ، وهجرة العرب من فلسطين ، داعيا الى توطين

هؤلاء قياسا الى توطين اولئك· مضيفا: «لذلك، فنحن مطالبون بتوطين اللاجئين، على ان يتم ذلك في القرى والمدن في المناطق العربية ، وليس في اماكن زراعية ، لان قسما كبيرا منهم لـن يكون مرشحا للعمل في الزراعة ، كما يجب ان يكون واضحا ان عملية كهذه لا يجب الا ان تتم في المناطق العربية الموجودة حاليا ، ولا يبدو توطين اللاجئين في اوساط المستوطنين اليهود عملية معقولة ، واي مشروع ، يخرج عن هذا الاطار سوف نقاومه » (١٠) ·

النائب شموئيل تمير (المركز الحر) : بارك شموئيل تمير اجراءات الحكم العسـكري في المناطق المحتلة ، بعد عام ١٩٦٧ ، والتي تمثلت في عمليات الطرد وهدم البيوت ، وعدم السماح للعرب الذين غادروا الارض المحتلة اثناء الحرب بالعودة ، لكنه اعتبر هذا عملا غير كامل ، وقال : « ان مبادرة اسرائيلية لحل مشكلة اللاجئين العرب الموجودين فـــي المناطق الواقعة تحت السيادة الاسرائيلية ، سواء عن طريق دفع تعويضات سخية ، لمـن يختار بارادته مغادرة البلاد ، او عن طريق تأهيل من يختار البقاء · ان مبادرة كهذه ، الى جانب مبادرة موازية لها ، وعاجلة جدا ، للاستيطان اليهودي الشامل في المناطق المحتلة ، من شأنها ان تفرض السيادة الاسرائيلية كاملة على هذه المناطق » (١١) ·

النائب موشي ارام (حزب العمل) : ارام كالاخرين ، اعفى اسرائيل من مسؤولية خلق هذه المشكلة ، وقال : « والان ، وبعد حرب الايام الستة ، بقيت مشكلة اللاجئين قائمـة ، تواجه وتتحدى شكل وصورة اسرائيل · وان كل مبلغ يستثمر في مشروع تأهيل وتوطين اللاجئين ، وفي اقامة مشاريع تنمية في المناطق [المحتلة] ، سيكون له مردود مضاعف ، من الناحية الامنية » · واضاف : « اذا ما تقدمنا باندفاع وحماسة نحو عملية التنفيـذ ، فلن نكون في حاجة الى خبرات في حل مشكلات الاستيعاب والتوطين ، بل نحن في حاجـة الى زخم ومبادرة نابعة منا ومن مصلحتنا · ولا اشك في ان الاستمرار في هذا المشروع سوف يجر قوى كبيرة وكثيرة ، وامكانيات دولية كبيرة للاسهام في حل المشكلة » (١٢) ·

النائب اوري افنيري (كتلة هاعولام هازيه) : اما اوري افنيري ، فقد رأى ان هـــذه مشكلة ملحة ، وجدية · واعتبر ان مشكلة اللاجئين ، هي المفتاح لمشكلة «ارض – اسرائيل»، وبالتالي فانها هي المفتاح لمشكلة السلام في المنطقة كلها : « ان حلا حقيقيا لمشكلة اللاجئين، يكون ممكنا فقط اذا جاء وفقا لرغبة ورأي الشعبين ، الشعب الاسرائيلي ، والشعـــب الفلسطيني ، من خلال جهود مشتركة · هذه الجهود يجب ان تكون جزءا من اتفاق شامل بين الشعبين، اتفاق ينهي حالة الحرب في البلاد ، عن طريق وضع ميثاق بين الدولتين . دولة اسرائيل ، وبين الجمهورية الفلسطينية التي ستقام · والا فان اسرائيل تهدف الى ضم المناطق ، وطرد سكانها ، وفرض سيطرتها على المناطق التي يسكنها مليون عربي ، الـــى جانب الحفاظ على طابع اسرائيل كدولة يهودية · هذه المشكلة ، التي يقوم عدد من النواب، من ذوي اصحاب نوايا ضم المناطق ، بتشويشها بصورة بلهاء » (١٣) ·

النائب توفيق طوبي (راكاح) : حمل توفيق طوبي بشدة على الحكومة وسياستها تجاه مشكلة اللاجئين ، مشيرا الى لاجدوى هذه الاقتراحات : « كان بودي فهم المشاعر الانسانية لاصحاب الاقتراحات من النواب · لكن ، عندما لا يستند هؤلاء في اقتراحاتهم الى اساس الاعتراف بالحقوق الاساسية والمشروعة للاجئين – حقهم في حرية الاختيار بين الحصـول على تعويضات او العودة والسكن في وطنهم – فانهم يحصلون على اجوبة ساخـــرة وملتوية ، على غرار اجابة رئيس الحكومة · ان رد الحكومة على هذه الاقتراحات ، مبني في الاساس على سياسة عدم احترام حقوق اللاجئين ، بل تجاهل هذه الحقوق وانكارها · ففي اعقاب حرب الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ اقتلع حوالي نصف مليون لاجيء للمرة

الثانية ، معظمهم من لاجئي عام ٤٨ـ١٩٤٩ ، وهم الان يعيشون في ظروف لاانسانية » (١٤)· واستطرد طوبي قائلا أن هناك موقفا اخر يجسد تنكر الحكومة الاسرائيلية لهذه المشكلة ، وهو « انه من مجموع ١٧٧ الف لاجيء ، من لاجئي حرب الخامس من حزيران ، الذين قدموا طلبات وفقا لقرار الجمعية العامة للامم المتحدة ، من اجل العودة الى منازلهم التي كانوا يسكنونها قبل الحرب ، سمحت اسرائيل لاربعة عشر الفا فقط بالعودة من هذا العدد · وان الطريقة التي ما زالت تدغدغ احاسيس سلطات الاحتلال هي الاستمرار في اتباع سياسة قمعية تجاه سكان المناطق المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بهدف زيادة هجرة السكان العرب من البلاد ، وبالفعل ، اضطر حوالى ٢٢ الفا من السكان العرب ، الى ترك وطنهم خلال الشهور الخمسة الاولى من عام ١٩٦٨ نتيجة لهذه السياسة ، والطريقة الوحيدة لحل هذه المشكلة هي الاعتراف بالحقوق الاساسية والمشروعة للاجئين » (١٥) ·

انتهاء مرحلة وبداية اخرى

لقد تميزت المناقشات والاراء ، منذ ان اثيرت المشكلة لاول مرة في الكنيست في اب ١٩٦٨ بعدم الجدية ، ولم تكن تهدف الا لتحقيق استعراض اعلامي امام الراي العام العالمي · وكان من ابرز رموز هذه المرحلة ليفي اشكول ، الذي عارض تقديم اية حلول لهذه المشكلة ، واجاب بصورة سافرة وملتوية كي يتمكن من فرض سياسة شديدة في الضفة وقطاع غزة · ففي عهده تقرر ادخال وحدات من حرس الحدود ، ووحدات من سلاح المظلات ،للعمل في الضفة والقطاع ، وزيادة موجات القمع في معالجة المشكلات الامر الذي كان يجعل اشكول ودايان يعتقدان ، بأن هذه السياسة سوف تؤدي ، الى هجرة عشرات الالاف من اللاجئين الى الخارج ·

اما المرحلة الثانية ،فقد بدأت حوالى عام من المرحلة الاولى ، حيث عاد وزير الخارجية ابا ايبن ليتحدث امام الكنيست عن هذه المشكلة باللهجة والطريقة نفسها ·

وزير الخارجية ابا ايبن : « ان موقف اسرائيل لم يتغير بالنسبة للمشكلة ، وقد عرضته بالتفصيل امام الجمعية العامة للامم المتحدة في ١٩٦٨/١٠/٨ ، وان اقتراحي امام الجمعية العامة لا يزال قائما ، وهو عقد مؤتمر عالي قبل احلال السلام ، تشترك فيه حكومات دول المنطقة ، والدول التي تسهم في تمويل وكالة غوث اللاجئين ، من اجل وضع خطة خمسية لحل المشكلة · اما في مفاوضات السلام مع الدول العربية ، فاننا على استعداد لاجراء بحث اساسي وشامل حول مشكلة اللاجئين ، والتعويضات ، والتطوير ، والتأهيل ، وكل الامور الاخرى · اضافة الى هذا ، فان الولايات المتحدة تؤمن وتؤيد وجهة نظرنا التي تتلخص في عدم امكانية حل مشكلة اللاجئين ، الا في اطار سلام شامل في الشرق الاوسط » (١٦) ·

شمعون بيريس ، وزير بلا وزارة : قال بيريس ، الوزير المسؤول عن مشكلة اللاجئين : « ان حل مشكلة اللاجئين ، يجب ان يتم ضمن تسوية اقليمية شاملة ، كجزء من اتفاق سلام ، هذا هو الموقف المعلن والمعروف لحكومتي · واقترح هنا عدة نقاط :

أ ــ بلورة مشروع عام وشامل ، والاعلان عنه ، ليس كحل جزئي ، لانه قد يجد معارضة من جانب الدول العربية واللاجئين انفسهم ·

ب ــ ان اللاجئين انفسهم تعودوا طريقة الحياة الحالية في المخيمات ، البنية الاجتماعية، والزعامة التقليدية التي تقودهم ، وعلى وجبات الطعام التي تصرف لهم من وكالة الغوث · ومن المشكوك فيه امكانية نقلهم من حياتهم هذه الى حياة اخرى ، والى مكان اخر ·

ج – ان حلا سياسيا ، اجتماعيا ، واقتصاديا ، يتطلب ظروفا وامكانيات ، خلال فترة قصيرة ، وبالتأكيد فالحل لا يكمن في يد دولة كاسرائيل ، واقعة في حالة حصار وحالة حرب » (١٧) ·

بعد تلك المرحلة ، عاد النائب جدعون هاوزنر ليتحدث عن تقصير اسرائيل في حل المشكلة ، قائلا : رغم كل المشاريع التي طرحت ، فلم ينفذ اي مشروع باستثناء بعض البنود الملائمة للسياسة الحالية للحكومة « من واجبنا ان نطلع اللاجئين على الحقيقة ، بأن لا يجب عليهم الاستمرار في حياة الانتظار الوهمية للعودة الى ديارهم التي هجروها ، بل علينا ان نفتح امامهم كوة امل ، وان نقدم لهم تسوية دائمة ، ونضع نهاية لعملية تنمية مشاعر الكراهية والانتقام ··· واقول انهم لا يريدون الهجرة ، وهم مصممون على البقاء في المخيمات ، واثارة القلاقل لنا ، والان امامنا طريق واحد ، هو القيام بأي عمل بناء شجاع ، كي نبدأ في حل المشكلة » (١٨) ·

النائب رؤوفين ارزي (مبام) : تحدث ارزي عن مشكلة اللاجئين ، وقال ان كل المشاريع ستبقى كلاما لا معنى له ، اذا لم نبدأ التطبيق · « هناك واقع جديد ، جاء في اعقاب حرب عام ١٩٦٧ ، وهذا الواقع يخص ٣٥٠ الف لاجيء في الضفة وقطاع غزة وان عملا مستقلا من جانب اسرائيل ، وبمساعدة من عناصر خارجية ، الى حد معين ، من شأنه ان يثبت بأن اسرائيل ترغب في تحريك المشكلة كلها من حالة الجمود · ان المشكلة العاجلة والملحة هي تصفية مخيمات اللاجئين ، ونقلهم الى مساكن في المدن والقرى ، بالقرب من مراكز الصناعة واماكن العمل · [وعلى الرغم من] ان تخفيف الكثافة في هذه المخيمات ، عمل انساني وامني ، الا انه سيحول المشكلة تدريجيا الى مشكلة يتعلق حلها بعملية التطور الاقتصادي ، ومجال التشغيل » (١٩) ·

النائب مئير يعري (مبام) : قدم يعري سكرتير عام حزب مبام سابقا ، برنامجا للسلام في المنطقة · ومن خلال هذا المشروع تحدث عن مشكلة اللاجئين ، وعن كيفية حلها · « على الحكومة الاسرائيلية السعي لحل مشكلة اللاجئين الموجودين تحت سيطرة اسرائيل ، بواسطة برنامج جريء للانتاج ، في مجالات الصناعة والزراعة ، والابقاء على مخيمات اللاجئين وتطويرها تبقى مساكن طبيعية ودائمة لهم » (٢٠) ·

وزير الهجرة والاستيعاب يغئال الون : تحدث الون ، عن ان اسرائيل لا تستطيع ، وانها ليست مضطرة ، الى حل مشكلة اللاجئين العرب ، وحدها · « ان احد الخيارات ، هو ان نعمل ضمن نطاقنا قدر الامكان ، وبالتعاون مع اللاجئين انفسهم ، وبمساعدة دولية ، من اجل بداية الحل في الضفة الغربية وقطاع غزة · كما اننا لا نرى الحل بالتوطين الزراعي للاجئين ، لان اللاجئين في غالبيتهم ليسوا مزارعين ، والزراعة الحديثة تتطلب مكننكة لا عملا ··· يجب ان يكون الحل مبنيا على اساس اقامة صناعة تتطلب الكثير من الايدي العاملة ، وجزءا صغيرا في الزراعة ، كما يجب توطين اللاجئين الذين يتم اخلاء مخيماتهم منهم ، في قرى نموذجية ، وليس القصد بناء مدن جديدة لهم ، وانما استيعابهم في المجتمع العربي العادي ، وان مدينة العريش ، يمكنها ، لدى تخطيطها ، على المدى البعيد ، استيعاب جزء كبير من اللاجئين · ويستطيع الكثيرون الاستيطان في قطاع غزة نفسه، خارج المخيمات · وان الاخلاء الجزئي للمخيمات – رغم انه يتم في الغالب لاسباب امنية – بداية مشجعة ، وفرصة مناسبة لتنفيذ بداية الحل » (٢١) ·

النائب اميل حبيبي (راكاح) : ركز اميل حبيبي في كلمته امام الكنيست على النوايا الكامنة وراء مشاريع توطين اللاجئين ، فقال : « لقد قرأنا في الصحف عن عدة مشاريع ،

منها مشروع المراخ ، لنقل اللاجئين من قطاع غزة الى منطقة الضفة الغربية ، وهـــذا المشروع كما نشر ، [يهدف الى] تنظيف قطاع غزة من معظم سكانه العرب ، لتسهيل عملية ضمه لاسرائيل ، وايجاد يد عاملة رخيصة ، واسكان مهاجرين يهود بدلا منهم فـي هذه المناطق المحتلة · ان كل من يهتم حقيقة بحل مشكلة اللاجئين ، عليه ان يبدأ فـورا في اعادة لاجئي حرب ١٩٦٧ · وعلى اعضاء الكنيست المهتمين بالامر مطالبة الحكومـة بالسماح بعودة ٢٢ الف لاجيء طردوا من ثلاث قرى في منطقة اللطرون ، وهي عمواس ، يالو ، وبيت نوبا · لقد دمرت هذه القرى تماما ، وطرد سكانها بعد حرب ١٩٦٧ ، دون ان يكون هناك اي سبب عسكري لذلك ، وان معظم سكان هذه القرى الان لاجئون داخـــل المناطق الواقعة تحت سيطرة الجيش الاسرائيلي ، وليس هناك ما يمنع الحكومة مـــن اعادتهـم » (٢٢) ·

المشــاريع

في اعقاب حرب حزيران عام ١٩٦٧ ، قدمت مشاريع عديدة لتوطين ونقل اللاجئين وتصفية مخيماتهم · فمن هذه المشاريع ، ما اتخذ طابع الشروع الخاص بالمشكلة ، ومنها ما اتخـذ طابع الاجراءات التي تهدف الى خلق وضع مستقر اولا ، يفي من ثم بغرض تصفية القضية الفلسطينية ، بعد تصفية مشكلة اللاجئين ·

الا ان هذه المشاريع ، كافة ، لم تخرج الى حيز التنفيذ ، الا في بعض اجزائها على شكل اجراءات نفذتها سلطات الحكم العسكري · وتجدر الاشارة الى ان بعض هذه المشاريـــع جاء على شكل عمليات تسوية مع بعض الحكومات العربية ، كالاردن ، والبعض الاخـــر عبارة عن « مشاريع تنمية » تشمل المناطق المحتلة ، وكيفية اعدادها لتوطين اللاجئين ·

مشروع الون

طرح الون مشروعا متكاملا للتسوية مع الاردن في عام ١٩٦٨ ، ومن بين ما يضمنـــه المشروع ، نقل سكان بعض المناطق وتوطينهم في الضفة الغربية والعريش · ثم تحدث الون مطولا ضمن هذا المشروع عن مشكلة اللاجئين وكيفية حلها ، قائلا : « ان اسرائيل وحدها لا تستطيع حل المشكلة بأسرها ، او الجزء الاكبر منها ، من الناحية الاقتصادية ، السياسية والديمغرافية · فالمشكلة تقع في خانة تبادل سكان ، حيث استوعبت اسرائيل اليهـــود ، والدول العربية استوعبت اللاجئين العرب ، بنفس العدد تقريبـا عـلى اساس اثنـــي وقومـــي » (٢٣) ·

اما الان ، وبعد ان اضطرت اسرائيل للتعاطي مع هذه المشكلة ، واصبحت كل مخيمات اللاجئين في الضفة وقطاع غزة تحت السيطرة الاسرائيلية ، فان الون يتعهد بأن تبـــدأ اسرائيل بالبحث عن حلول لهذه المشكلة : « الحقيقة ، ان الحل الكامل كان متاحا لو اننا توصلنا الى سلام شامل مع الدول المجاورة ، على اساس من التعاون الاقليمي ، لذا ، علينا الاقدام على المهمة فورا ، وهذا من شأنه ان يقرب السلام ، ناهيك عن ان هذه مشكلـــة انسانية وسياسية من الدرجة الاولى » (٢٤) ·

وفيما يلي خطوط عريضة من مشروعه ، مقتبسة من نصوص كتابه الموضوع في هـذا الصـدد :

« توطين اللاجئين من قطاع غزة الى جانب اللاجئين من الضفة الغربية في الضفة الغربية نفسها ·

تكثيف الزراعة ، والتنمية الصناعية الملائمة ، والخدمات اللازمة سيتيح ذلك · كذلك توطين جزء من اللاجئين في شبه جزيرة سيناء · والافضل ان نقوم ، فورا ، ببناء قرية نموذجية على حسابنا الخاص ، كي تكون مثلا وبرهانا للعالم · لكن علينا ان نقوم بهذا العمل دون ان يفسر على اننا ننفرد في تحمل مسؤولية حل مشكلة اللاجئين · بعد تفريغ قطاع غزة من اللاجئين ، يجب ضمه الى اسرائيل ، وليس الى منطقة الاستقلال الذاتي ــ اذا وجدت بعد ذلك منطقة كهذه ــ ولا موجب لاعادته الى الحكم المصري ، بل يجب ضمه الى اسرائيل دون لاجئين » (٢٥) ·

دايان ومشروع غير متكامل

طرح دايان ، وزير الدفاع انذاك ، وفي هذا الاطار ، مشروعا غير متكامل ، وذلك بعد عام ١٩٦٨ · وقد تناول من خلاله الجانب الامني ، بمعنى الشروع في اتخاذ اجراءات امنية ، هدفها تحقيق ثلاث نتائج :

« ا ــ تصفية المخيمات تحت ستار تخفيف كثافة السكان في هذه المخيمات ــ خاصة مخيمات قطاع غزة ــ بشكل تدريجي · من الناحية العملية ، تجسد هذا الامر في عدة قوانين اقرها دايان بصفته وزيرا للدفاع ، منها العقاب الجماعي ، الابعاد ونسف البيوت ، وشق الطرقات الامنية في المخيمات ، اضافة الى حالة الذعر وعدم الاستقرار مما يشجع هجرة اللاجئين الى الضفة الغربية ، وربما الى خارج حدود فلسطين ·

ب ــ توزيع اللاجئين في قرى جديدة ، عن طريق الاغراء بالمساكن الافضل ، والخدمات العامة ، واماكن التشغيل ، وبالتالي تحقيق الهدف نفسه ·

ج ــ تجريد اللاجئين من صفة لاجيء ــ بعد نزوحهم من المخيمات ــ واسكانهم وتشغيلهم· وهذا الامر يسقط مشكلة اللاجئين في تصور الرأي العام العالمي، ويعفي اسرائيل من البحث عن حلول للمشكلة ، كما يسقط بند الفلسطينيين في اية مفاوضات سلام ، او تسويات جزئية او شاملة » (٢٦) ·

ان مشروع دايان ، وان كان مختلفا ، منحيث الشكل ، عن المشروعات الاخرى التي طرحت في هذا المجال ، يحقق اهداف المشاريع الاخرى ذاتها ، انما يمتاز عنها بعدم اثارته لردود فعل عنيفة · فالمشروع لا ينص على توطين اللاجئين ، بل على ايجاد الحلول للعائلات التي تهدمت منازلها بسبب العقاب الجماعي ، او شق الطرقات الامنية ، وتخفيف كثافة السكان · اضافة الى هذا ، فان دايان اشار الى ان اماكن السكن المعدة ربما تكون في العريش ، وربما في الضفة الغربية ، وربما خارج اسرائيل كليا ·

النقاط الثلاث في المشروع

« ١ ــ اتخاذ تدابير ردع وعقاب جماعي ضد السكان العرب الذين يتعاونون مع [الفدائيين] في المخيمات ·

٢ ــ تخفيف كثافة سكان المخيمات الكبيرة ، خاصة مخيم جباليا ، الشاطيء ، ومخيم

رفح في قطاع غـزة ·

٣ ـ اقامة احياء سكنية جديدة ، تخترقها شوارع عريضة ذات مواصفات امنية معينة · اما بالنسبة لهذه الاحياء فليس ضروريا ان تكون في المخيمات نفسها ، بل يمكن ان تكون في الضفة الغربية ، او في العريش ، ولكن لن تكون داخل الحدود الاسرائيلية لما قبـــل الرابع من حزيران ١٩٦٧ » (٢٧) ·

لقد قدمت الصحف الاسرائيلية غطاء كاملا لمشروع دايان ، الذي اتخذ طابع الاجراءات التي تنفذها سلطات الحكم العسكري :

« ان الازدحام في مخيمات اللاجئين يجعل مهمة قوات الامن الاسرائيلية صعبة للغاية ، حيث ان اكثر من عشر سكان مخيمات قطاع غزة (٣٥٠ الف نسمة) يتجمعون في مخيـم جباليا ، هذا المخيم الذي وقعت فيه ، في الفترة الاخيرة ، معظم عمليات [الفدائيين] ضد قوات الامن · فالمخيم مزدحم « بالمخربين » ، والسكان لا يساعدون في اعمال الكشـــف عنهم ، ولو ان اسرائيل اخرجت من مخيمات اللاجئين في القطاع ١٥٠ الف لاجيء كمرحلة اولى ، ووزعتهم في مدن الضفة الغربية ، فستنخفض ، دون شك ، عمليات « القتـــل والارهاب » في القطاع · خاصة ، ان في مدن الضفة الغربية اماكن كافية للسكن والعمل ايضا » (٢٨) ·

مشروع رعنان فايتس

قدم الدكتور رعنان فايتس ، وهو مهندس زراعي ، وعضو مجلس امناء معهد التخنيون في حيفا ، ورئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية منذ عام ١٩٦٣ ، عدة مشاريع في مراحل مختلفة ، تتعلق كلها بحل قضية اللاجئين الفلسطينيين ، بشكل مباشر وغيـــر مباشر · وقد جمعت كلها ، فيما بعد ، تحت عنوان : « مشروع فايتس » · وهو مشروع لا يعالج قضية اللاجئين فقط ، بل يعالج في الاساس عدة مشكلات ، منها المشـــكلة الفلسطينية ، التسوية مع الاردن ، تنمية اسرائيل اقتصاديا ، بحيث تكون هذه التنميـــة متلائمة مع الوضع السياسي ، والوضع الاجتماعي ·

في اطار معالجته للمشكلة الفلسطينية ، والتسوية مع الاردن ، طرح فايتس بعـــض النقاط المتعلقة بشكل مباشر بقضية اللاجئين الفلسطينيين اجمالا ، ولاجئي قطاع غـــزة تحديـــدا ·

جاءت الخطوط العريضة لمشروع فايتس الاول عام ١٩٦٩ حول توطين نحو ٥٠ الـــف لاجيء في منطقة العريش ، والضفة الغربية · « ركز المشروع على تخفيف كثافة السكان داخل مخيمات اللاجئين ، وتوطينهم على اساس ١٠٪ في الزراعة ، والباقي في الحـــرف الصناعية والخدمات العامة ، في اماكن ثابتة ، تقام لهذا الغرض ، ومن ثم دفع تعويضات للاجئين الذين سيكونون في حاجة الى المال لشراء المساكن الجديدة ، وترتيب حياتهـــم الجديدة ايضا ··· وان في الامكان ايضا ايجاد مناطق في الضفة الغربية ، يتم توطيـن اللاجئين فيها على اساس تجمعات صغيرة ، وربما متوسطة ، على الا تأخذ طابـــع المخيمات » (٢٩) ·

لقد اعتمد رعنان فايتس ، في مشروعه ، على دراسة اجرتها الوكالة اليهودية ، خـلال السنوات الاخيرة ، وعلى مادة احصائية جمعت لهذا الغرض · ومن مبادىء هذا المشروع، الذي هو حصيلة مشروعات سابقة ، وقف التدهور في مسالة المشكلة الفلسطينية ـ عـلى

حد قوله ـ « على ضرورة تقليل الاختلاط السكاني ، وتخفيف انتقال العمال العرب من مناطق التجمعات السكانية العربية الى اسرائيل ، وذلك للحيلولة ، في المستقبل ، دون حدوث توترات اجتماعية وطبقية مستمرة على اساس قومي » (٣٠) ·

ومن اهم ركائز فايتس في مشروعه ما يلي :

١ ـ ان النظام الاقتصادي ، والحياة الاجتماعية في التجمعات العربية ، هما في حاجة الى رعاية موجهة من اجل رفع مستوى معيشتها بوتيرة ملائمة ، وتمكين القادة ، والطبقة المثقفة فيها ، من التفرد في الفعل والتعبير ·

ب ـ يجب ان يتضمن كل حل سياسي ، منح جميع المقيمين في اسرائيل ، حقوقا مدنية متساوية ، وكذلك حق تقرير المصير للعرب الفلسطينيين ، لكي يتمكنوا من اقامة سلطة ، ونهج حياة خاصين بهم ·

ج ـ منح المناطق العربية حرية التعبير ، من خلال السعي الدائم لتحسين مستوى معيشة السكان المقيمين فيها ، والاستيعاب الاقتصادي للاجئين الفلسطينيين في المناطق الواقعة تحت سيطرة اسرائيل · اضافة الى ذلك ، تحافظ اسرائيل على خيارات مفتوحة لحل سياسي ، يتيح حق تقرير المصير للفلسطينيين من اجل الاعتراف بها [باسرائيل] والتوصل الى اتفاق شامل معها بشأن تعايش سلمي (٣١) ·

اضافة الى هذا ، تضمن المشروع اقتراحا لتقسيم اسرائيل والمناطق المحتفظ بها الى ثمانية الوية (كانتونات) خمسة منها تضم سكانا يهود بشكل اساسي ، الثلاثة منها تضم سكانا عربا · و « الالوية اليهودية » هي :

١ ـ لواء صفد : اقضية صفد وطبريا وهضبة الجولان ·

٢ ـ لواء حيفا : اقضية يزراعيل (مرج ابن عامر) وعكا وحيفا والخضيرة وغور الاردن ، حتى شمالي اريحا ·

٣ ـ لواء تل ابيب : اقضية الشارون (السهل الساحلي) وبتيح تكفا والرملة ورحونوت وتل ابيب وكذلك ضواحي اللطرون ·

٤ ـ لواء (اسدود) : اقضية عسقلان والقدس (فيما عدا مدينة القدس) وغوش عتسيون ·

٥ ـ لواء بئر السبع : اقضية بئر السبع ومشارف رفح وغور الاردن جنوبي اريحا ·

هذه هي الالوية (الكانتونات) اليهودية التي يقترحها مشروع رعنان فايتس ، وهي عمليا تشمل كل فلسطين ، بحدودها الطبيعية ، باستثناء عدة مدن عربية ، ليست اقضية ، في الضفة الغربية وقطاع غزة · هذا ، اضافة الى المناطق المحتلة من دول اخرى كسوريا ومصر ، حيث ضم كل هضبة الجولان الى لواء صفد ، ومشارف رفح ، التي يقع الجزء الاكبر منها في سيناء ، الى لواء بئر السبع ·

اما الالوية العربية فهي :

١ ـ لواء نابلس : اقضية جنين وطولكرم ونابلس ورام الله واريحا ·

٢ ـ لواء الخليل : اقضية الخليل وبيت لحم ·

٣ ـ لواء غزة : قطاع غزة ·

ستكون مدينة القدس ، في هذا التقسيم ، وحدة قائمة بحد ذاتها • على ان يقام في كل لواء ادارة خاصة به ، تتولى الشؤون الداخلية في مجالات التنمية والخدمات • امـــا الحكومة المركزية فانها ستمارس ، في الاساس ، شؤون الامن ، والخارجية ، والمالية ، وكذلك تنسيق اعمال الالوية ، والاشراف عليها •

فاقامة علاقات مالية واقتصادية مباشرة ، بين الالوية العربية ، وتأمين مصـــــادر المساعدات من دول مختلفة ومؤسسات دولية ، والبدء في دفع تعويضات للاجئين العرب ، المقيمين في المناطق « المحتفظ بها » ، كل هذا ، سيتيح توظيف اموال بصورة متواتـرة ، الامر الذي سيساعد على تقليص الفجوة في مستوى المعيشة بين فئات السكان في الالوية المختلفة ، وتوطين اللاجئين بصورة دائمة من خلال اعادة تأهيلهم • ان تواتر النمـــــو الاقتصادي سيؤدي الى حد بعيد الى تقليص تشغيل العرب في الالوية اليهودية •

والتنمية المتواترة في الالوية العربية ، وقدر معين من الادارة الذاتية ، ستمكنان جميـع ممثلي السكان العرب ، وخصوصا القادة والمثقفين ، من حرية التعبير ، وسينخرط هؤلاء، ويتم استيعابهم ، سوية ، مع اللاجئين المقيمين الان في تلك الالوية •

كما ان هذا الاطار سيتيح نقل فائض المياه من الليطاني ، بواسطة القناة القطريـــــة (تحويل مياه نهر الاردن) من اجل تطوير الالوية العربية : نابلس ، الخليل وغزة ، وكذلك من اجل تطوير الخدمات العامة ، التي ستكون لازمة لاقامة منطقة تجارية حرة في غزة • فالطاقة الكامنة في هذه الالوية ، اضافة الى استخدام فائض مياه الليطاني ، فـــــي مقدورها حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ، خاصة وان كمية هذا الفائض تصل الى ٤٠٠ مليون متر مكعب ، وهناك محطات اولية لنقل المياه من مجرى الليطاني ، عبر جبـــــل الظهيرة ، الى وادي مرجعيون الذي يصرف مياهه في غور الاردن •

بناء على معطيات وكالة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين ، كان ٦ر١ مليون لاجيء فلسطيني مسجلين في العام ١٩٧٤ ، حسب التوزيع التالي :

الضفة الغربية : ٠٠٠ر٢٩٠ نسمة • قطاع غزة : ٠٠٠ر٣٢٥ نسمة • الاردن : ٠٠٠ر٦٠٠ نسمة • لبنان ٠٠٠ر١٩٠ نسمة • سوريا ٠٠٠ر١٨٠ نسمة • اما داخل الالوية المقترحة ، نابلس ، الخليل وغزة ، فيوجد ٠٠٠ر٦٠٠ لاجيء • وهؤلاء يمكن استيعابهم ، اقتصاديا ، في المناطق العربية ، في الزراعة والصناعة اللتين يمكن تطويرهما فيها • ولا مانع مـــن توسيع اطار التنمية ، وملاءمته لاستيعاب جميع اللاجئين الفلسطينيين ، وبذلك يمكن توفير حل اقتصادي واجتماعي ملائم ودائم لهذه المشكلة المؤلمة (٣١) •

مشروع دوف زاكين

اضافة الى مشاريع كل من الون ، دايان وفايتس ، قدم عضو الكنيست السابق دوف زاكين ـ من حزب مبام ـ مشروعا اخر لحل قضية اللاجئين الفلسطينيين • ورغم ان هذا المشروع جاء في غلاف انساني ، الا انه يحمل في طياته اهداف المشاريع الاخرى نفســها تقريبا ، بل يتخطى مشروع رعنان فايتس من حيث خطورته على اللاجئين ، في سعيه لتصفية القضية نهائيا ، دون التطرق الى تضمين مشروعه استعادة جزء من اللاجئين المقيمين في الدول العربية ، كما طرح فايتس •

وفيما يلي تلخيص لما ورد في مشروع زاكين :

أ ـ افراغ المخيمات تدريجيا : عن طريق منح حوافز اقتصادية ، اهمها تقديم مساكن بسعر رمزي ، في مناطق بلدية قريبة من اماكن التشغيل الجديدة ، التي سيتم انشاؤها ، وتحسين الخدمات العامة في المدن العربية ، في الضفة الغربية وقطاع غزة ، (التعليم والشؤون الاجتماعية والصحة) ، من اجل خلق دافع يحدو باللاجئين الى الخروج من المخيمات · كما ينبغي ان تكون المساكن الجديدة منتشرة في المدن ، والا فانها تعود لتحمل طابع مساكن اللاجئين · وان سرعة اخلاء اللاجئين من المخيمات ، بمعدل اربعة الى خمسة الاف عائلة في السنة ، سيؤدي الى حل المشكلة خلال ثماني سنوات · اضافة الى ذلك ، ستكون هناك حاجة الى الاهتمام ، بصورة خاصة ، بالجماعات التي ترتبط معيشتها بوجود المخيمات (العاملون في جهاز وكالة الغوث) والحيلولة دون اسكان احد بدلا من اولئك الذين يغادرونها · وبالضرورة ، فان هذا المشروع سوف يوفر اماكن عمل كثيرة ، يدفع الى انتشار العاملين ، مخففا بذلك من بؤر تواجدهم ·

ب ـ قيود الزراعة : يظهر التحليل الاقتصادي ، انه في حال التوجه الى تنمية المناطق المحتفظ بها ، وتنفيذ مشاريع توطين اللاجئين ، سيكون اسهام الزراعة اسهاما ضئيلا في زيادة العمالة ، حيث لن يتجاوز تقديرها ١٥٪ تقريبا · وهذا الاستنتاج تمليه قيود السوق، ومصادر المياه المحدودة · وعلى الرغم من ان الانتاج الزراعي سيزداد نموه ، في المناطق ، الا انه لن تكون هناك اية زيادة في التشغيل ، بل قد يحدث العكس ·

ج ـ التنمية عن طريق التصنيع : ان تنمية المناطق ، وتأهيل اللاجئين ، على المدى البعيد ، يجب ان يتما عن طريق التصنيع ، خاصة وان حجم الصناعة في الضفة الغربية والقطاع محدودة · انما يسهل قربها من السوق ، ووجود ايد عاملة رخيصة نسبيا ، اقامة صناعة جديدة ، وتوسيع الصناعة الحالية ، التي تقوم على استخدام العمل المكثف ، خصوصا في تلك الصناعات ذات الطابع المحلي ، مثل صناعة الغزل والنسيج ، الملابس ، الاحذية ، صناعة الاغذية وتعليب الفاكهة ، والنجارة (٣٢) ·

ضمن دوف زاكين مشروعه لتوطين اللاجئين ، مقترحات شخصية ايضا ، استند في بعضها على الابحاث النظرية والميدانية ، منها :

« ١ ـ تشكل مخيمات اللاجئين ، في حالتها الراهنة ، عاملا يساعد على الاحتفاظ بالمشكلة · وفي هذا الحال ينبغي ان يكون هدف السياسة الاسرائيلية ، اخلاء هذه المخيمات · ومن اجل ذلك وضعت حوافز لتشجيع اللاجئين للخروج « طوعا » منها ·

٢ ـ ان سياسة بديلة ، تحاول التقليل من الفوارق بين سكان المخيمات ، وعامة السكان في القرى والمدن ، عن طريق تحويل المخيمات الى اماكن سكن عادية ، في الظروف القائمة، لا تستطيع سبر جذور المشكلة ، وتحقيق الحل ·

٣ ـ اذا تبين ان الاستعداد الموحد لدى غالبية سكان المخيمات غير موجود ، للخروج من مساكنهم ، رغم كل الحوافز ، يجب اذ ذاك القيام بعمل مباشر ، يؤدي الى تجميد الميزة الاقتصادية الاساسية للسكن في المخيم ·

٤ ـ الحوافز لاخلاء المخيم هي وسيلة لتنشيط عملية كانت قائمة في الماضي ، وهي جزء من تغيير اعم واشمل · لذا ينبغي الحذر من خلق انطباع بأن هذه السياسية تهدف الى القضاء على وضع اللاجىء ·

٥ ـ الاجراءات العامة التي تخدم حل مشكلة اللاجئين ، هي في الواقع : السكن في

المدن ، والحصول على خبرة فنية في الزراعة والصناعة ، ورفع مستوى الحياة ، ودعم احتمالات تحسين الظروف المعيشية » (٣٣) ٠

الاجراءات العملية للتوطين

ان المشروعات التي طرحت ، وتم تنفيذ بعض بنودها ، ليست الا مشروعات مستندة على ركائز من بحث الخبراء ، بتكليف من الحكومة نفسها ، ولم تأت عرضا ، او نتيجة اجتهادات فردية ٠

والنص التالي يدعم هذا المذهب : « افادت الابحاث الميدانية التي قام بها عدد كبير من خبراء الاسكان والزراعة والعمل ـ بتكليف من الحكومة ـ ان هناك مكانا لثمانية الاف عائلة من اللاجئين في الضفة الغربية ، وان معظم الاراضي الصالحة لاستيعاب المزيد من اللاجئين عائدة الى الحكومة الاردنية والاقطاعيين ٠ كذلك وجد خبراء المياه ، ان في الضفة الغربية حوالى ١٢٠ مليون متر مكعب من المياه ، وهذه كميات غير مستغلة ، يمكن استثمارها في هذا المشروع » (٣٤) ٠

لقد قامت الحكومة ، في هذا الصدد ، باجراء تعداد للسكان في المناطق لعدة اهداف ، وكبداية لوضع مشاريع تصفية للمخيمات ، وقد جرى هذا التعداد السكاني عقب حرب حزيران ١٩٦٧ ٠

وفيما يلي الجدول النهائي للتعداد السكاني :

« ـ اللاجئون وغير اللاجئين ، في الضفة الغربية وقطاع غزة ، الذين يحصلون على مساعدات من وكالة الغوث الدولية : ١٨٣٫٠٠٠ في الضفة الغربية ٠ ٢٥٩٫٠٠٠ في قطاع غزة ٠

ـ [الذين عاشوا] داخل « الخط الاخضر » [من ارباب العائلات] ، قبل عام ١٩٤٨: ١٢١٫٠٠٠ في الضفة الغربية ٢٢٨٫٠٠٠ في قطاع غزة ٠

ـ هجرة [ارباب العائلات] من « الخط الاخضر » : ١٠٥٫٠٠٠ الى الضفة الغربية ، ٢٠٧٫٠٠٠ الى قطاع غزة ٠

ـ ساكن ـ مخيم ـ لاجيء : ٥٦٫٤٠٠ فيالضفة الغربية ١٧٢٫٥٠٠ فيقطاع غزة (٣٥) ٠

اذا تم اخذ نسبة اللاجئين في الحسبان ، على ذمة الزعم الاسرائيلي ، ممن يحصلون على مساعدات من وكالة الغوث ، فانما يتبقى هناك ٤٤٣٫٠٠٠ لاجيء من حقهم الحصول على مساعدات من الوكالة ٠ وهذا العدد اقل بحوالي ٧٢ الف نسمة من تسجيل وكالة غوث اللاجئين ، الذي بلغ اللاجئون ، في تعداده ٥١٥ الفا ٠

يسكن في قطاع غزة حوالي ٣٤٠ الف نسمة ، من بينهم ٢٢٠ الف لاجيء يسكن ١٦٠ الفا منهم في ثمانية مخيمات للاجئين في القطاع : ففي مخيم جباليا ٣٦ الف لاجيء ، وفي مخيم الشاطيء (غربي مدينة غزة) ٢٧ الفا ، في النصيرات ١٥ الفا ، وفي مخيم البريج ٩ آلاف ، والمغازي ٩ الاف ، ودير البلح ٨ الاف ، ومخيم خان يونس ٢٦ الفا ، ورفح ٣٠ الف لاجيء ٠ وهناك حوالي ٦٠ الفا يسكنون خارج المخيمات ، وخاصة في مدن غزة خان يونس ، رفح ، دير البلح (٣٦) ٠

في عام ١٩٧١ ، تحدث العميد شلومو غازيت ، منسق العمليات في المناطق المحتلة ، عن اجراءات اسكان اللاجئين ، فقال : « ان اي حل دائم لمشكلة قطاع غـزة » يجب ان يشمل بصورة اساسية اسكان قسم من اللاجئين خارج الحدود الحالية للقطاع ، كما يجب نقل عشرات ، وربما مئات الالاف من السكان ، الى خارج حدود القطاع ، اي الى الضفة الغربية وشمال سيناء ··· وقد نقلنا حتى الان اكثر من الف عائلة من مخيم جباليا والشاطيء في القطاع ، وهذا العدد يضم حوالي ٨ الاف نسمة · كما شرعت السلطات ببناء منازل بالقرب من رفح سيناء ، وبالقرب من خان يونس ، ودير البلح ، كما اننا ننوي اخراج ٦٠ ــ ٧٠ الف نسمة من المخيمات الحالية في قطاع غزة الى منازل في اماكن اخـرى » (٣٧) ·

بدات المرحلة الاولى من عملية شق الطرق الامنية في المخيمات ، وهدم البيوت وطـرد اللاجئين من اماكن سكنهم في العام ١٩٦٩ · وفي هذه المرحلة ، التي نفذتها سلطات الحكم العسكري عنوة ، وبالتهديد ، تم تحقيق ما يلي :

١ ــ هدم ١٠١١ منزلا في جباليا ، كانت تسكنها ٩٢٤ عائلة ، يبلغ عدد افرادها ٦٥٠٢ نسمة ، اي حوالي ١/٨ من سكان المخيم · وقد تدبر حوالي ٢٧٦٣ منهم امورهم بانفسهم، في قطاع غزة · و ٢١٦٨ « وافقوا » على اقتراح الحكم العسكري بالانتقال الى العريش· كما ان ٨٠ عائلة رتبت امورها في مخيمات اللاجئين في رفح وخان يونس · كذلك سكنت ٤٥ عائلة في قرية جباليا ، ١٠ عائلات في دير البلح ، وانتقلت ٩ عائلات فقط الى الضفة الغربية · هذا ، ولا يزال مصير ٧٩ عائلة غير معروف ·

٢ ــ في مخيم الشاطيء القريب من مدينة غزة ، قامت سلطات الحكم العسكري بهـدم ٥٩١ منزلا . (٧ منازل فقط كانت خالية) ، اي ان ٥٩١ عائلة ، يبلغ عـدد افرادهـا ٤٠٣١ نسمة ، اضطرت الى الانتقال قسرا ، كما اضطرت ٥٦ عائلة الى الانتقال الىبيوت اخرى في المخيم · و ٣٦٧ عائلة تدبرت امورها في مدينة غزة وضواحيها · كما انتقلت ٨٦ عائلة الى العريش ، و ٥ عائلات الى دير البلح ، و ١١ عائلة الى الضفة الغربية ، اما العائلات الباقية ، وعددها ٢٥ عائلة ، فلا يزال مصيرها مجهولا ·

٣ ــ اما في مخيـم رفـح ، فقـد اقدمـت سـلطات الحكـم العسـكري على هـدم ٢٤٨ منزلا ، كانت تسكنها ٣٩٠ عائلة ، يبلغ عدد افرادها ٢٨٥٨ نسمة · وقد رفضت ١٢١ عائلة من هذه العائلات الخروج من المخيم نفسه ، و ٧١ عائلة وجدت اماكن سكن لها في مدينـة رفح ، و ٤٦ عائلة نقلت الى العريش ، ١٧ الى خان يونس ، ٧ عائلات الى الضفـة الغربية ، عائلتان الى غزة ، و ٤ عائلات عادت الى مخيم اللاجئين في جباليا ، ولا يزال مصير ١١٩ عائلة غير معروف · اضافة الى ذلك ، اقتلعت ٦٠ عائلة ، لم تهدم منازلها ، ونقلت الى الضفة الغربية (٣٨) ·

تم كل هذا ، تحت ذريعة الامن ، لكن المغزى الواضح هو ان المسألة كلهـا لا تتعـدى تصفية المخيمات ، وفقا لقرارات مسبقة من الحكومة ، وهذا ما اشار اليه العميد شلومو غازيت بقوله : « بان عملية تخفيف الكثافة السكانية في المخيمات ، وتوطين اللاجئين ،تتم بناء على قرارات اتخذتها لجنة وزارية في وقت سابق » (٣٩) ·

في اطار هذه الاجراءات ، وفي المرحلة الاولى ، تم شق طرق في جميع المخيمـات التسعة في قطاع غزة ، وحتى في المخيمات الصغيرة ، كالمغازي الذي لا يزيد تعدادسكانه عن تسعة الاف نسمة ، تم شق طريقين متقاطعين ، ادتا الى هدم اكثر مـن ٢٥٠ منـزلا ،

وبالتالي اجلاء سكانها الى رفح المصرية والعريش ، والى الضفة الغربية ، حيث بدأت هذه العائلات تحتل معسكرات الجيش الاردني هناك · « لقد تم اسكان حوالي ٤٠ عائلة من اللاجئين في ٢٥ منزلا في معسكر الجيش الاردني الواقع في وادي دوثان على الطريق الرئيسي بين جنين ونابلس · ويجري الان اصلاح وترميم منازل اخرى ، في معسكرات اخرى ، في الضفة الغربية لهذا الغرض » (٤٠) ·

لم يقتصر بناء الوحدات السكنية بهدف توطين اللاجئين على معسكرات الجيش الاردني في الضفة الغربية فقط ، بل بدأت سلطات الحكم العسكري ، في تاريخ ١٩٧٢/٣/١٠ ، في اقامة وحدات سكنية في قطاع غزة : « فقد بدأ العمل ببناء ثلاثة احياء سكنية للاجئين، اثنان بالقرب من مدينة رفح ، والثالث بالقرب من مدينة خان يونس ، وذلك بمعدل اربع وحدات سكنية في اليوم ، وسيتم بناء حوالي ١٥٠٠ مسكن في الاحياء الثلاثة ، الى جانب هذا ، بدأت سلطات الحكم العسكري بتوزيع ١٢٠٠ قطعة ارض حددت للبناء ، على اللاجئين · وفي المرحلة الاولى هذه تنوي السلطات نقل ما يقرب من ١٦ الف لاجيء الى المساكن الجديدة ، بعد نصف سنة تقريبا » (٤١) ·

من ناحية اخرى « تقوم سلطات الحكم العسكري في قطاع غزة ، وفي اطار المرحلة الثانية بتعيين اربعة مواقع جديدة في منطقة بيت لاهيا ، في شمال قطاع غزة ، لاقامة احياء سكنية عليها ، ستخصص لعائلات اللاجئين التي سيتم اجلاؤها من مخيم جباليا خلال السنة القادمة · وبهذا يمكن نقل نحو ٧٠٠٠ لاجيء من مخيم جباليا الى نطاق المجلس المحلي في بيت لاهيا ، كما سيتم نقل عدد مماثل الى نطاق المجلس المحلي في قرية جباليا ، وبهذا ، تكون السلطات قد نقلت من مخيم جباليا ما يقرب من ٢١ الف لاجيء فقط خلال المرحلة الاولى والثانية ، والجدير بالذكر ، ان احصاء هذا المخيم بعد حرب ١٩٦٧ بلغ فقط ٣٦ الف لاجيء · كما سيتم ، خلال شهر كانون الثاني من العام ١٩٧٣، اسكان الحي الاول الجديد ، الذي اقامته السلطات ، والواقع غرب مدينة رفح المصرية (اي خارج حدود قطاع غزة) ، وقد اطلقت اسرائيل على هذا الحي اسم « افشلوم » ، ويضم حوالي ٥٠٠ وحدة سكنية ، ستكون ٢٤٠ وحدة منها جاهزة في مطلع كانون الثاني·· اضافة الى ذلك ، سيجري اقتلاع نصف عدد سكان مخيم الشاطيء ، من اجل شق الطرق الواسعة داخل هذا المخيم » (٤٢) ·

من ناحية اخرى ، فقد استأنف الجيش الاسرائيلي ، في اواخر شهر تشرين الثاني عام ١٩٧٢ ، عمليات الهدم في المخيم ، وذلك بعد توقف استمر حوالي سنة ونصف السنة · لقد وصفت الصحف الاسرائيلية هذه العملية « بانها المرحلة الثانية من عملية تخفيف الكثافة السكانية في مخيمات قطاع غزة ، واعادة تخطيطها من جديد ، وشق طرق متقاطعة داخلها، ثم تقسيمها الى احياء لتسهيل مهمة قوات الامن الاسرائيلية » (٤٣) ·

كل هذا في اطار المرحلة الاولى والثانية ، من ضمن المشروع الذي سبق ان وافقت عليه الحكومة والذي يقضي ، « بنقل حوالي ١٣٥ الف لاجيء من مخيمات القطاع ، واسكانهم في مدن وقرى قطاع غزة ، رفح المصرية العريش وفي الضفة الغربية · ان هذا المشروع يهدف بالاساس الى تخفيف الازدحام في المخيمات ، ويتضمن المشروع بناء ٢٠٠٠ وحدة سكنية في القطاع ، و ١٠٠٠ وحدة سكنية في الضفة الغربية ، بعضها قائم في معسكرات الجيش الاردني ، وحوالي ١٢٠٠ وحدة في العريش ، و ٦٠٠ وحدة في رفح المصرية · اما مواصفات هذه الوحدات السكنية ، فان الشقق ستكون نوعين : الاول شقق مساحتها ٣٠ مترا مربعا ، والثاني ٤٠ مترا مربعا ، بمواصفات بناء معينة » (٤٤) ·

بعد حرب تشرين الاول ١٩٧٣ ، توقفت عمليات الحكم العسكري في قطاع غزة ، لفترة استمرت حوالي اربعة شهور تقريبا ، الا ان اسرائيل ، وبعد توقيع الاتفاقيات الجزئية مع الحكومات العربية ، اعتبرت أن الوضع لم يتغير ، وان الاستمرار في عملية اقتلاع اللاجئين وتصفية هذه المشكلة امر ممكن ، بل ومهم ، لاعادة رسم الخريطة السياسية في المنطقة بالشكل الذي تريده هي ٠

على هذا الاساس « اقامت سلطات الحكم العسكري ، استمرارا للمشروع القديم ، حيا اخر للاجئين في رفح الغربية ، فيه ٢٠٠ وحدة سكنية ، وذلك في العام ١٩٧٤ ٠ اما في العام ١٩٧٥ فقد شرعت السلطات في بناء ٣ الاف وحدة سكنية ، موزعة بين خان يونس ، ورفح ، والشيخ رضوان بالقرب من غزة » (٤٥) ٠

في اعقاب المرحلة الاولى من بناء المساكن للاجئين في قطاع غزة ، بدأت حملة نقد شديدة توجه الى نوعية هذه المباني ، وتفضح النوايا الصهيونية الكامنة خلف اقامة مبان من هذه النوعية ٠ وفي اطار هذه الحملة تحدثت بعض الصحف قائلة : « اننا نخطيء عندما نبني للاجئين العرب ، مساكن بدائية وسيئة الى هذا الحد ، خاصة ان نوعية البناء غير مرضية ، وان مساكن حي ابراهيم ، بالقرب من رفح ، تعيدنا الى فترة المعسكرات المؤقتة (معبروت) التي كانت تقام للمهجرين الجدد من اليهود ، والبناء الرخيص الذي تلاها ، ولما يمضي وقت طويل حتى تشققت تلك البيوت ، التي بنيت بسرعة ، وانهار جزء كبير منها ٠٠٠ ومن المؤسف ان فكرة ممتازة كهذه ، تشكل بداية لحل مشكلة اللاجين ، قد بدأت بمستوى متدن كهذا في التنفيذ ، وللاسف ان نظرة توفيرية ضيقة الافق ، قد وجهت مخططي المساكن الجديدة ٠ واخشى ان تكون الاسباب المالية قد اختبأت خلف افتراض ان هذه المساكن هي اكثر بكثير مما كان يحلم به اللاجئون » (٤٦) ٠

المصلحة الاسرائيلية في تصفية مشكلة اللاجئين

برزت المصلحة الاسرائيلية ، في تصفية مشكلة اللاجئين ، بشكل واضح في اقوال العديد من السياسيين الاسرائيليين ٠ منذ قال موش كرميئيل وزير السياحة في حكومة المعراخ عام ١٩٧٢ : « ان حل مشكلة اللاجئين ، هو مصلحة اسرائيلية خالصة ، اذ ان استمرار هذه المخيمات في وضعها الراهن ، من شأنه المحافظة على العداء الشديد للدولة، وينمي كراهية كبيرة لها ٠٠٠ وان مشاريع نقلهم الى الضفة الغربية والعريش ، وربما بعملية نزوح جزئية الى الخارج ، من شأنها ان تجعل المخيمات تسير في طريق الانكماش والتفكك ، وهذا يحدد خريطة المستقبل المحتملة للبلاد ، خاصة ، اننا نصر على ان يبقى قطاع غزة ضمن حدود دولة اسرائيل بصورة دائمة ٠٠٠ وهكذا فان مصلحة اسرائيل ،التي ترغب في الحفاظ على طابعها اليهودي ، هي تفريغ القطاع من سكانه ، وجمعهم في الضفة الغربية والعريش لتلافي احتواء اقلية عربية بهذا العدد ، [الامر] الذي قد يؤثر تأثيرا كبيرا وخطيرا على البنية الديمغرافية لاسرائيل مستقبلا » (٤٧) ٠

ولم يخف دوف زكين ، بدوره ، هذا المنحى المرتبط بمصلحة اسرائيل فقال : « ان استمرار مخيمات اللاجين عامل يساعد على استمرارية القضية ، وان ما فعلناه فيمخيمات قطاع غزة ، كان عبارة عن عملية مركبة ، اشتملت على شق الطرقات الامنية ، وهدم المنازل ، وتخفيف الكثافة السكانية وهدفها القضاء على الكراهية والحقد ضدنا ، وتأمين الهدوء ، وعدم انضمام الشباب العرب الى [المنظمات الفدائية] » (٤٨) ٠

المخطط النهائي رهن التسوية

يتضح من خلال هذه المشاريع التي طرحت ، انها مشاريع لم تناسب السياسة الاسرائيلية على الاقل في المرحلة الحالية ، لذلك لم يصل اي منها الى حيز التنفيذ ، الا في بعـــض اجزائها ، وان سلطات الحكم العسكري في الضفة الغربية وقطاع غزة ، هي التي نفــذت هذه الاجزاء دون ان تعلن انها من ضمن هذا المشروع او ذاك ٠ فالحكومات الاسرائيليـة المتعاقبة ، منذ عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، لم تتمسك باي مشروع ، سواء كان لالون او لدايان او لفايتس ، بل عمدت الى تنفيذ ما يناسبها في كل مرحلة ٠

لقد نقل عدد كبير من اللاجئين الى الضفة الغربية والعريش ، واعداد اقــل خرجت من فلسطين ، نتيجة لسياسات وممارسات معينة من قبل سلطات الحكم العسكري التــي كانت اداة التنفيذ لمشروع غير معلن ، يرمي الى تنفيذ طوعي من قبل اللاجئين ، بعد خلق حالة من عدم الاستقرار والترهيب ٠

وعلى الرغم من ان هذه السياسة ، تجاه مشكلة اللاجئين ، بقيت غامضة لدى العديد من الاسرائيليين انفسهم حتى حرب تشرين ١٩٧٣ ، الا انها توقفت كليا بعد الحـــرب ٠ وبدأت الاجراءات تأخذ منحى اخر تماما ، وهو الاستيطان اليهودي في القطاع والضفة ٠ وعدم المساس بمشكلة اللاجئين الى حين اتخاذ قرار مستند الى ما يتم التوصل اليه من تسويات مع مصر ، وبعض الدول العربية الاخرى ٠

ويمكن القول ، ان هذه السياسة الاسرائيلية بالنسبة للاجئين ، كانت تبدو في ظاهرها مجرد طفرات موسمية ، تهدف للسيطرة تماما على القطاع والضفة من الناحية الامنية ، الا انها ، في حقيقة الامر ، شكلت صورة واضحة المعالم لمنحى المشروعـــات الاسرائيلية ، مستقبـــلا ٠

الحواشي

(١) **معاريف** ، ١٩٧٣/٦/١٨ ٠

(٢) **محاضر الكنيست** ، ١٩٦٨/٨/٧ ، ص ٣١٢٠ ٠

(٣) **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٢/١٢/٨٠

(٤) **المصدر نفسه** ٠

(٥) **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٢/١٢/٨٠

(٦)**محاضر الكنيست** ، ١٩٦٨/٨/٧ ، ص ٣١٢٤ ـ ٣١٢٥ ٠

(٧) **المصدر نفســه** ، ١٩٦٨/٣/١١ ، ص ١٣٦١ ٠

(٨) **المصدر نفسه** ، ١٩٦٨/٨/٧ ، ص ٣١٢٠ ـ ٣١٢١ ٠

(٩) **المصدر نفسه** ، ص ٣١٢٣ ٠

(١٠)**المصدر نفسه** ، ص ٣١٢١_٣١٢٢٠

(١١) **المصدر نفسه** ، ص ٣١٢٦ ٠

(١٢) **المصدر نفسه** ، ص ٣١٢٢_٣١٢٣٠

(١٣) **المصدر نفسه** ، ص ٣١٢٧ ٠

(١٤) **المصدر نفسه** ٠

(١٥) **المصدر نفسه** ٠

(١٦) **المصدر نفسه** ٠

(١٧) **محاضر الكنيست** ، ١٩٦٩/٥/٢١ ص ٢٦٦٥ ٠

(١٨) **محاضر الكنيست** ، ١٩٧٠/٢/١٨ ص ٨٧٥ ٠

(١٩) **المصدر نفسه** ، ص ٨٧٤ ـ ٨٧٥ ٠

(٢٠) **المصدر نفسه** ، ص ٨٧٢ ـ ٨٧٣٠

(٢١) **دافار** ، ١٩٧٠/١/٢٢ ٠

(٢٢) محاضر الكنيست ، ١٩٧٠/٢/١٨
ص ٨٧٨ ٠

(٢٣) يروحام كوهين ، « تخنيت الون »
(« مشروع الون ») ٠

(٢٤) المصدر نفسه ٠

(٢٥) المصدر نفسه ٠

(٢٦) هآرتس ، ١٩٧١/٧/٢٨ ٠

(٢٧) المصدر نفسه ، ١٩٧١/٧/١٤ ٠

(٢٨) المصدر نفسه ، ١٩٦٧/٧/١٢ ٠

(٢٩) هآرتس ، ١٩٧٧/١/٢٣ ٠

(٣٠) عل همشمار ، ١٩٧٦/١٠/٧ ٠

(٣١) المصدر نفسه ، ١٩٧٢/٨/٤ ٠

(٣٢) المصدر نفسه ، ١٩٧٢/٨/١١ ٠

(٣٣) المصدر نفسه ٠

(٣٤) هآرتس ، ١٩٦٧/٧/١٢ ٠

(٣٥) يديعوت احرونـــوت ، ١٢/٨/
١٩٧٢ ٠

(٣٦) معاريف ، ١٩٧١/٧/٢٦ ٠

(٣٧) معاريف ، ١٩٧١/٨/٢٠ ٠

(٣٨) دافار ، ١٩٧١/٩/٦ ٠

(٣٩) المصدر نفسه ٠

(٤٠) هآرتس ، ١٩٧١/٨/١١ ٠

(٤١) المصدر نفسه ، ١٩٧٢/٢/١٧ ٠

(٤٢) معاريف ، ١٩٧٢/١٠/١٩ ٠

(٤٣) دافار ، ١٩٧٢/١٢/١٤ ٠

(٤٤) هآرتس ، ١٩٧١/١٠/٢١ ٠

(٤٥) دافار ، ١٩٧٥/٤/٢٢ ٠

(٤٦) حوتام ، ١٩٧٣/٢/١٦ ٠

(٤٧) المصدر نفسه ، ١٩٧٢/٨/٢٥ ٠

(٤٨) حوتام ، ١٩٧٢/١٢/١ ٠

أحمد صدقي الدجاني

منظمة التحرير الفلسطينية والحوار العربي - الأوروبي

انشغلت منظمة التحرير الفلسطينية كحركة تحرير وقيادة للثورة الفلسطينية وكجزء من الجسم العربي بالحوار العربي الاوروبي منذ ولادة فكرته ، وبروز هذه الفكرة على مسرح السياسة الدولية · واتخذت المنظمة من هذا الحوار موقفا محددا يتصف بالايجابية ، كما ساهمت في تجربته بفعالية · وانشغل الحوار العربي الاوروبي منذ ولادة فكرته بقضية فلسطين وبتمثيل منظمة التحرير فيه وبالدور الفاعل الذي تقوم به المنظمة في نطاقه · وسنحاول في هذا البحث تسليط الضوء على موقف المنظمة من الحوار ومكان قضية فلسطين فيه من خلال تتبع مسار الحوار وتحليل ما شهده هذا المسار من احداث وما اسفر عنه من نتائج ·

برزت فكرة الحوار العربي الاوروبي على مسرح السياسة الدولية في اعقاب حرب تشرين ١٩٧٣ بعد ان اكتمل الحمل بها وتضجت بفعل عوامل محددة ، وذلك حين اصدرت دول المجموعة الاوروبية التسع تصريحها المعروف بيان ٦ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٧٣ حول موقفها من الصراع الدائر في منطقة الوطن العربي ، ثم أصدرت الدول العربية المجتمعة على مستوى القمة في الجزائر بيانا موجها الى اوروبا الغربية يوم ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٧٣ استجابت فيه للتحسن الذي اظهره البيان الاوروبي في موقف الدول الاوروبية التسع من قضية فلسطين (١) · وحين ننظر في مضمون هذا البيان نجد ان مقدمته عبرت عن انشغال دول المجموعة الاوروبية بالاسهام في حل شامل لمشكلة الشرق الاوسط ، وحددت النقاط الاربع الاولى فيه تصور هذه الدول لبلوغ هذا الحل ، وجاءت النقطة الاخيرة لتعبر عن استشعار الدول الاوروبية للروابط التي تربطها بالوطن العربي وتوجهها لتطوير علاقاتها معه ·

وقد سجل العرب في بيانهم انهم « يتطلعون بمزيد من العناية والاهتمام لبوادر التفهم لموقفنا التي بدأت تبدو في دول اوروبا الغربية » ، واعلنوا استعدادهم المخلص للتعاون في الجهود المبذولة في نطاق الامم المتحدة لارساء السلام العادل في المنطقة ، وطالبوا اوروبا

الغربية باتخاذ موقف واضح منصف من قضيتهم بعد ان ذكروها بالمصالح المشتركة التـــي تربطها بالوطن العربي ·

تتالت الاتصالات بينمجموعة الدول التسع والدول العربية بعد اعلان المبادرة الاوروبية والاستجابة العربية لها · وتأثرت هذه الاتصالات بمواقف اطراف اخرى شغلتهـــا فكـرة الحوار وفي مقدمة هذه الاطراف الولايات المتحدة الامريكية والكيان الاسرائيلي · ونشير من بين هذه الاتصالات الى الزيارة التي قام بها وفد من وزراء عرب لكوبنهاغن فـــي منتصف كانون الاول ١٩٧٣ بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الاوروبي فيها ، حيث تباحثوا في الخطوط العريضة للتعاون العربي الاوروبي مع دول المجموعة ·· كما نشير الى اللقـــاء الذي تم بين امين عام جامعة الدول العربية ومندوب الماني عن دول المجموعة خـــلال الاسبوع الاخير من شهر مايو ١٩٧٤ في اعقاب اجتماع دول المجموعة في غمنتش بالمانيا ، والى المفكرة الاوروبية التي سلمت للعواصم العربية بعد ان قرر وزراء خارجية الـــدول التسع في اجتماعهم يومي ١٠ و ١١ حزيران ١٩٧٤ مفاتحة الجانب العربي بموضـــوع الحوار · وجاء اجتماع وزير خارجية فرنسا ورئيس لجنة المجموعة بوزيـــر خارجيـــة الكويت والامين العام للجامعة العربية يوم ١٩٧٤/٧/٣١ في باريس ليكون اول لقاء رسمي بحثت فيه فكرة الحوار وطرح فيه تصور لكيفية المباشرة فيه ولعمل لجنته العامة ، وفي ١٩٧٤/١٠/٢٠ تم اتصال بين الجانبين في القاهرة لبحث ترتيبات عقد الاجتماع الاول للجنة العامة للحوار ، وقدم الجانب الاوروبي ورقة عمل تتناول الجوانب التنظيمية والاجرائية ، واتفق الجانبان على ان ينعقد الاجتماع الاول قبل انعقاد مؤتمر القمة الاوروبي الذي كان محددا له موعد في شهر كانون الاول ١٩٧٤ (٢) ·

لم ينعقد هذا الاجتماع الاول في الموعد الذي تم الاتفاق عليه وتأجل الى أجل غيـــر مسمى · وذلك بسبب بروز عقبة اساسية أثارها الجانب الاوروبي ، تلك هي موضـــوع التمثيل الفلسطيني في اللجنة العامة ·

وقد طرح موضوع تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية في اللجنة العامة للحوار علـــى الدول العربية لاول مرة خلال اجتماع ممثل الجانب العربي في لجنـة الحوار العربـــي الاوروبي الذي انعقد يوم ١٩٧٧/١١/١٢ · وكان مجلس الجامعة العربية قد حدد هـدف هذا الاجتماع في قراره بتاريخ ٧٧/٩/٤ الذي نص على التوصل الى موقف عربي موحـد حول الموضوعات التي سيشملها الحوار العربي الاوروبي في اجتماع اللجنة العامة الاول·

جاء هذا الطرح حين أعلم رئيس اللجنة الاعضاء في اليوم الثاني للاجتماع ان الجانب العربي تلقى خطابا من الجانب الاوروبي تعرض لترتيبات جلوس اعضاء الوفود حـــول مائدة المشاورات ، وقد اشير فيه الى جميع الوفود العربية دون ذكر وفد منظمة التحريـر الفلسطينية · وكان الجانب الاوروبي قد اقترح قبل ذلك ان تكون عضوية اللجنة العامـــة مفتوحة للدول التسع ، فضلا عن ممثلي الهيئة الاوروبية في الجانب الاوروبي وترك الامر في تمثيل الجانب العربي لقرار يتخذه مجلس الجامعة العربية . وقد صدر هذا القـــرار ونص على ان تكون عضوية اللجنة العامة مفتوحة لكافة الدول العربية والامانة العامـــة للجامعة على ان تستعين بالمنظمات والاجهزة العربية ذات الصلة بموضوع الحوار · كما أعلم رئيس اللجنة الاعضاء انه اجرى اتصالا بسفير فرنسا ممثل المجموعة وابلغه علـــى سبيل الحزم والحسم ان وفدا فلسطينيا يجب ان يكون ممثلا مع سائر الوفود العربيـــة ، وان السفير وعد بنقل وجهة النظر العربية والرد عليهـــا ·

ناقشت الدول العربية الاعضاء هذا الموقف الاوروبي واتفقت آراؤها على التمسك بتمثيل

فلسطين في الجانب العربي ، « باعتبار فلسطين عضوا في الجامعة العربية » ، « ولا يجوز للجانب الاوروبي ان يتدخل في تمثيل الوفود العربية » ، « ولان اساس الحوار في الواقع هو القضية الفلسطينية » ، « ولان هذا الموقف الاوروبي موقف سياسي وليس اجرائيا » ٠

كما اتفقت آراؤها على أن تكون الموافقة النهائية على حضور اجتماع اللجنة العامة مرتبطة بحضور الوفد الفلسطيني الى جانب الوفود العربية المشتركة في الحوار ، وتركت للامين العام ان يتابع اتصالاته مع الجانب الاوروبي (٣) ٠

لم يرد الجانب الاوروبي على وجهة النظر العربية قبل الموعد المحدد لاجتماع اللجنة العامة ٠ فتأجل الاجتماع بعد أن قطع الجانبان شوطا كبيرا في التحضير له ٠ وكان السبب المباشر في التأجيل هو موقف الجانب الاوروبي الرافض لتمثيل منظمة التحرير الفلسطينية في الحوار ٠ وقد اتخذه وهو يدرك ان موضوع تمثيل المنظمة في الجانب العربي امر يخص العرب وتحكمه انظمة الجامعة العربية ويكتسب اهمية خاصة عند الدول العربية ٠ كما اتخذه وهو يدرك انه يعرض فكرة الحوار لازمة حادة قبل ان يبدأ تنفيذها رسميا ٠ وهنا يثور التساؤل ٠٠

ما هي الملابسات التي احاطت بهذا الموقف الاوروبي ؟ وما هي الاسباب الحقيقية التي اوصلت اليه ؟ في مجال الحديث عن الملابسات نشير الى ان الفترة التي سبقت اتخاذ هذا الموقف شهدت حدثين بالغي الاهمية على صعيد القضية الفلسطينية ٠ كان اولهما صدور قرار عن مؤتمر القمة العربي السابع المنعقد بالرباط في تشرين الاول ١٩٧٤ ، باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد لشعب فلسطين ٠ وكان الاخر دعوة منظمة التحرير الى الاشتراك في مناقشات الامم المتحدة والقاء رئيس اللجنة التنفيذية الاخ ياسر عرفات خطاب فلسطين في الجمعية العامة وسط مظاهر كبيرة يوم ١٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ ٠ ولقد كان لصدور قرار الرباط صداه القوي في الاوساط الاميركية والاوروبية ، ورأت فيه بعض قياداتها اخلالا بالمعادلة التي كانت تحاول الحفاظ عليها من اجل بلوغ تسوية تتفق مع مصالحها وآرائها ٠

كذلك كان لدعوة المنظمة للاشتراك في مناقشات الجمعية العامة صداه القوي على صعيد الرأي العام الدولي ٠ كما كان للمشاركة الفلسطينية في تلك الدورة اثرها الكبير في ابراز المنظمة كممثل لشعب فلسطين واتخاذها حجما يفوق الحجم الذي ارادت الولايات المتحدة الاميركية تحديدها ضمنه ٠

ويمكننا ان نشير الى سببين مترابطين كانا وراء اتخاذ الموقف الاوروبي ٠ أولهما موقف الولايات المتحدة الاميركية من الحوار العربي الاوروبي ٠ والاخر اختلاف الدول الاوروبية وبفعل عوامل اخرى حول أمور تتعلق بالحوار ٠

لقد اتخذت الولايات المتحدة موقفا معاديا للحوار حين برزت فكرته في اعقاب حرب رمضان وبرز رد فعل اميركي سريع على المبادرة الاوروبية ، فأعلنت الولايات المتحدة يوم ١٩٧٤/١/١١ عدم موافقتها على مبادرات اوروبا « الجانبية » ٠ واقترحت عقد مؤتمر للطاقة في واشنطن تواجه الدول المستهلكة فيه الدول المنتجة ٠ وذلك لتقطع الطريق على دول المجموعة الاوروبية وتصرفهم عن حوار الدول العربية في موضوع الطاقة الذي كان العامل الحاسم في طرح فكرة الحوار بعد أن تأثرت اوروبا الغربية كثيرا بالحظر النفطي العربي في اعقاب حرب رمضان ٠ وقد لبت الدول الاوروبية التسع دعوة الولايات المتحدة واشترطت استبعاد اعطاء تجمع الدول المستهلكة صفة المؤسسات ٠ وكان هذا الشرط بناء

على طلب من فرنسا · وحين عقد هذا المؤتمر في ١٩٧٤/٢/١١ بواشنطن تجاوز التفويض الاوروبي باحداث لجنة تنسيق وهي شكل من أشكال المؤسسات ، مما ادى الى رفض فرنسا المشاركة في اعمال تلك اللجنة · ونتج عن اندلاع هذه الازمة في مجموعة دول السوق ارجاء اجتماع مجلس وزراء المجموعة الذي كان مقررا بتاريخ ١٩٧٤/٢/١٤ · وحرصت الولايات المتحدة على تكثيف تحركها في الدول التسع لتمنع اندفاعها في اتجاه الحوار مع العرب · وقد نقل مسؤول كبير في المجموعة الاوروبية لكاتب هذه السطور ان وزير الخارجية الاميركي بذل جهدا كبيرا في هذا المجال وكان مما ردده على مسامع وزراء خارجية الدول التسع قوله « انتم مخطئون حين تقبلون الجلوس مع عشرين دولة عربية ومخطئون حين تقبلون الجلوس مع منظمة التحرير الفلسطينية » ·

وحين جاءه الرد الاوروبي « ان هذه مسألة تخصنا » ، وستتدبر امرنا فيها أكد الطلب منهم ان لا يتضمن الحوار « حديثا في موضوع الطاقة او بحثا في المسائل السياسية » وقد ظهرت آثار هذا الضغط الاميركي خلال اجتماعات مجلس وزراء ــ المجموعة الاوروبية ، وتحفظت بريطانيا على قرار وزراء المجموعة في ١٩٧٤/٢/٤ ، الذي وافق على مبدأ الحوار العربي الاوروبي لعدم وجود حكومة لها انذاك ثم اصطدم مجلس وزراء الدول التسع في اجتماعه يوم ١ و ١٩٧٤/٢/٢ بمعارضة الحكومة البريطانية الجديدة التي التزمت بالدفاع عن وجهة النظر الاميركية الرامية الى ضرورة الالتزام بمبدأ « المشاورات المسبقة » بين اطراف الكتلة الغربية بكل ما يتصل بموضوعات « ذات اهمية كبرى » · وقد اعتبرت بريطانيا ان رسم سياسة خارجية مشتركة لدول المجموعة مرتبط بمبدأ تحديد العلاقات بين اوروبا والولايات المتحدة ، وان التشاور الاوروبي الاميركي من الشروط المسبقة له · ويمكن القول ان وجهة النظر هذه كانت تجد لها صدى بين عدد من دول المجموعة التي كانت تؤمن بأن مستقبلها السياسي مرتبط باقامة علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة ·

وقد تأثرت هذه الدول بطلب كيسنجر وزير الخارجية الاميركي من المجموعة ان تبقى السياسة بعيدة عن الحوار · وتجدر الاشارة هنا ان سياسة كيسنجر في هذا المجال انطلقت من تطلعه لتقييد الدور السياسي للقوى الاوروبية في منطقة الوطن العربي ، ومن حرصه على أن يحتفظ لنفسه بزمام المبادرة لبلوغ تسوية سلمية في المنطقة ·

اختلفت الدول الاوروبية بفعل هذا الموقف الاميركي ، وبفعل عوامل اخرى حول أمور تتعلق بالحوار · وقد ظهر هذا الاختلاف في مناسبات عدة · ونشير كمثل مناسبة التصويت على القرار القاضي بدعوة منظمة التحرير الفلسطينية الى الاشتراك في مناقشات الجمعية العامة للامم المتحدة عام ١٩٧٤ · فقد صوتت فرنسا وايطاليا وايرلندا الى جانب القرار في الوقت الذي عارضته هولندا والدانمرك وبريطانيا ، وامتنعت بقية دول المجموعة عن التصويت · وحين طرحت قضية تمثيل المنظمة في الحوار ظهر ميل من فرنسا وايطاليا وايرلندا للموافقة بينما عارضت بريطانيا وهولندا والدانمرك والمانيا الغربية بحجة عدم اعتراف الدول الاوروبية بالمنظمة · وهناك امثلة أخرى على الاختلاف الموجود بين دول المجموعة حول قضايا سياسية واقتصادية · وقد لمسها الجانب العربي خلال تجربة الحوار حين بدأت · وظهرت بوضوح حقيقة ما قاله تايلور « من ان الجماعة الاوروبية اذا كانت تشير غالبا الى نقص الترابط بين العرب ، فانها في احيان كثيرة اكثر انقساما حول مسائل اقتصادية وسياسية من الدول العربية » (٤) ·

ويمكن ان نرجع هذا الاختلاف الى تباين السياسات الصناعية في دول المجموعة ، والى تباين سياساتها نحو المنطقة العربية · كما نلاحظ ان تجربة التعاون السياسي بين دول المجموعة جاء لاحقا لتجربة التعاون الاقتصادي ، لان المجموعة بدأت كسوق ، وكثيرا ما

يسمع اعضاء الجانب العربي من الجانب الاوروبي في معرض تبريره لتأجيل بحث الجانب السياسي من الحوار ، ان التعامل بين دول المجموعة لرسم سياسة موحدة لها شيء جديد ، وهو يخضع لوزراء الخارجية بينما تعود الامور الاقتصادية للهيئة الاوروبية · وقد كانت قضية الصراع العربي الاسرائيلي هي اول قضية تتعامل معهـا المجموعة على الصعيد السياسـي ·

لم تنقطع اتصالات الجانبين العربي والاوروبي بعد تأجيل الاجتماع الاول للجنة العامة· واصبح من بين اهداف هذه الاتصالات التغلب على العقبة التي ابرزها الموقف الاوروبـي من تمثيل منظمة التحرير · وقد اكد وفد اوروبي في اجتماع له بالامين العام للجامعـة العربية ورئيس الجانب العربي يوم ١٩٧٥/١/١٨ اهتمام المجموعة الاوروبية بالحوار ورغبة الجانب الاوروبي في التعاون مع الجانب العربي وحرصه على استمرار الاتصال · وعقب ذلك تقدم سفير ايرلندا باعتباره الممثل للرئاسة الدورية للمجموعة بمذكرة تضمنت بعض الافكار حول الخطوط العريضة للمجالات التي سيشملها الحوار وطلبت التعرف على وجهة النظر العربيـة بشأنهـا ·

شغلت المجموعة الاوروبية في تلك الاثناء بالتفكير في مخرج لعقبة التمثيل ، وتوصلت في اجتماعها بدبلن يوم ١٩٧٥/٢/١١ الى اقتراح محدد يتلخص في ان يتم الحوار على الصعيد الفني لبحث المسائل والموضوعات التي سيشملها التعاون بين الجانبين ، وان يكون هذا الحوار بين وفد يمثل الجامعة العربية ووفد يمثل المجموعة الاوروبية ، على أن يكون من المفهوم ان الوفد العربي يضم أعضاء فلسطينيين · وهكذا حاول هذا الاقتراح معالجـة الامرين المترابطين اللذين اوصلا الجانب الاوروبي الى تأجيل اجتماع اللجنة العامة الاول· فالجزء الاول من الاقتراح يعني قصر الحوار على الجانب الفني منه الذي يركز علـى المسائل الاقتصادية ويتجنب تماما البحث في السياسة · والجزء الاخر من الاقتراح يحاول الالتفاف حول تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية بالاقرار بوجود ممثليها ضمن وفد عربـي واحـد ولا تبرز فيه الهويات القطرية ·

ابدى الامين العام للجامعة العربية استعداده لعرض هذا الاقتراح على الجانب العربي بعد ان سجل امام الجانب الاوروبي انه يجب ان يكون مفهوما ان الاجتماع على مستـوى الخبراء لا يكون بديلا عن اجتماع اللجنة العامة ، ولكنه يعد تمهيدا له ، وان الخبـراء الفلسطينيين سيشتركون على قدم المساواة مع زملائهم من الخبراء العرب الاخرين وستقوم منظمة التحرير الفلسطينية بتعيينهم · وفي ابريل ١٩٧٥ قرر مجلس الجامعة العربية قبول الاقتراح الاوروبي ، وفوض الامين العام للجامعة اجراء اتصالات بالجانب الاوروبي لعقد الاجتماع المشترك الاول لخبراء الجانبين في النصف الاول من يونيو (حزيران) ١٩٧٥ · وطلب في قراره من الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية ان تبادر بتعيين خبراء على مستوى عال لتمثيل الجانب العربي في هذا الاجتماع · كما طلبت من الامين العام ان يدعو الـى اجتماع للخبراء العرب يسبق الاجتماع المشترك بغرض صياغة موقف عربي موحد ، وتحدد يوم ١٩٧٥/٥/٢٠ موعدا لهذا الاجتماع · وبينما كان الاعداد جاريا لعقد الاجتماعين جاءت الانباء من بروكسل تعلن عن توقيع المجموعة الاوروبية اتفاقا تجاريا مع اسرائيل يـوم ١٩٧٥/٥/١١ تتمتع الدولة الصهيونية بموجبه بافضلية جمركية · واحاطت اسرائيل هـذا التوقيع بحملة اعلامية واعتبرته انتصارا اقتصاديا وسياسيا على الدول العربية · كـما كان لهذا الحدث رد فعل غاضب في الاوساط العربية ، وخيم على الحوار جو ملبد ·

وسط هذا الجو الملبد انعقد اجتماع الخبراء العرب ، واتجهت الانظار الى منظمـة التحرير لترى الموقف الذي ستتخذه من الحوار بعد مجموع التطورات التي حدثت منـذ

اعتراض المجموعة الاوروبية على التمثيل الفلسطيني ٠

وكانت منظمة التحرير قد وقفت مع فكرة الحوار في مؤتمر القمة العربي السادس بالجزائر ، وأسهمت في صياغة البيان العربي الموجه لاوروبا الغربية الذي صدر عنه ، ثم اكدت موقفها من الحوار في مؤتمر القمة السابع الذي انعقد بالرباط في اكتوبر ١٩٧٤ ، واثيرت في جلسات المؤتمر المغلقة مسألة حضورها وكان التوجه العام هو حضورها كعضو لان فلسطين « عضو في الجامعة العربية منذ انشائها » (٥) ٠

واتخذ ممثل المنظمة في اجتماع لجنة الحوار العربي الاوروبي الذي انعقد للتحضير لاجتماع اللجنة العامة موقفا مؤيدا لفكرة الحوار ومؤكدا على اهمية الجانب السياسي فيه ومتمسكا بحضور المنظمة جلساته (٦) ٠ تولى مجلس ادارة الصندوق القومي الفلسطيني مهمة تمثيل المنظمة في اجتماع الخبراء ، واوفد ممثلين عنه للمشاركة (٧) ٠ وطالب وفد المنظمة في الاجتماع بان يكون الموقف العربي مستجيبا للتطورات التي جرت على صعيد العلاقات العربية الاوروبية وليس مجرد رد فعل انفعالي ٠ وانطلق من هذا التحديد لطبيعة الموقف المطلوب الى شرح رؤيته للمرحلة التي تمر بها العلاقات العربية الاوروبية بعد حرب رمضان منتهيا الى القول بضرورة الحوار ، ومركزا على اهمية الجانب السياسي فيه مع ابراز الصفة الحضارية للحوار وشموليته لجوانب عدة وطرح وفد المنظمة تصوره للاسلوب الامثل لبلوغ الاهداف العربية في اجتماع الخبراء ٠ واكد ترابط جوانب الحوار في المجالات الاقتصادية والثقافية والسياسية ، وامكانية الوصول من طرح اي موضوع فيها الى طرح رؤيتنا السياسية (٨) ٠

لقي طرح المنظمة في هذا الاجتماع قبولا واسعا بين الاعضاء العرب ، وحسم هذا التوجه التوزع الذي كان موجودا بين الاستمرار في الحوار وبين قطعه ٠ واسند المجتمعون لوفد المنظمة مهمة صياغة مشروع ورقة العمل العربية في صورته النهائية ومهمة طرح الجانب الثقافي للحوار خلال الاجتماع المشترك ٠ وأسفر اجتماع الخبراء العرب عن اتخاذ موقف عربي فاعل ، ولم يكن ذلك سهلا وسط الحملة الاعلامية الصهيونية التي احاطت بتوقيع الاتفاق التجاري بين المجموعة الاوروبية واسرائيل ٠ وقد جاء هذا الموقف الفاعل منسجما مع الظروف المحيطة بالصراع العربي الاسرائيلي ومع الاهداف العربية التي من بينها استمرار تحويل الموقف الاوروبي من العدوان الاسرائيلي عما كان عليه قبل حرب رمضان للانتقال به الى معارضة احتلال الاراضي العربية ثم الى الضغط على اسرائيل للانسحاب ٠٠ وصولا لما هو اكثر من ذلك من خلال علاقات التعاون القائم على المصالح المشتركة ، والتي من بينها ايضا ايجاد علاقات عربية أوروبية تساهم في رسم صورة دولية افضل وتسهم في تحقيق الامن والسلام القائم على العدل ٠

وكانت قد ابرزت داخل اوساط المنظمة قبل هذا الاجتماع وجهتا نظر حول الموقف الذي يجب ان تتخذه المنظمة من الحوار ٠ وقد رأت وجهة النظر الاولى ان الموقف يجب أن يتسم بالتشدد ويصل بالاجتماع الى حد وقف الحوار ان لم يعد الجانب الاوروبي عن اتفاقيته مع اسرائيل ، وان لم يعترف بمنظمة التحرير ٠ وكان تقدير اصحاب هذا الرأي ان الاوروبيين ليسوا صادقين في توجههم وان من الضروري وضعهم على المحك ، بينما رأت وجهة النظر الاخرى ان الموقف يجب ان يتسم بالعقلانية ويصل بالاجتماع الى صنع موقف عربي واحد فاعل يبرز منظمة التحرير ويباشر ايجاد حقائق ملموسة في العلاقات العربية الاوروبية تفرض على الجانب الاوروبي ان يغير من مواقفه لصالح الحق العربي ٠ وكان تقدير أصحاب هذا الرأي ان اسلوب التشدد لا ينسجم مع مفهوم الحوار وان الموقف الدولي يقتضي تعريف العالم بالوجه الحضاري للثورة الفلسطينية ٠

وقد انتهى اجتماع الخبراء العرب بترجيح وجهة النظر الثانية ، وكان النجاح الـذي حققه في حد ذاته مثلا صادقا على سلامتهـا ٠

طالب الجانب العربي في نهاية اجتماع الخبراء ايضاحات محددة من الجانب الاوروبي بشأن الاتفاقية التي ابرمتها دول المجموعة مع اسرائيل وما ان كانت تشمل الاراضي المحتلة وأصدر بيانا سياسيا بشأن الحوار ٠ وتلقى ردا اوروبيا اعتبره مرضيا فتقرر البـدء بالحوار على الصعيد الفني في موعده ٠ وانعقد اجتماع الخبراء الاول ـ بالقاهرة مـن ١٠ ـ ١٢ يونيو (حزيران) ١٩٧٥ وصدرت عنه مذكرة مشتركة ٠ وتلاه انعقاد اجتمـاع الخبراء الثاني بروما خلال الاسبوع الرابع من شهر يوليو (تموز) ١٩٧٥ ، ثم انعقـد اجتماع الخبراء الثالث في ابو ظبي خلال الاسبوع الرابع من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٥ ٠ وصدرت عن هذين الاجتماعين ورقتا عمل ٠ شاركت منظمة التحرير الفلسطينية في هذه الاجتماعات بفعالية ، واتخذت من الحوار موقفا مبدئيا تحدده عوامل ثلاثة هي هدف التحرير وحقيقة المضمون الانساني للثورة الفلسطينية والتزام منظمـة التحريـر الفلسطينية القومي باعتبار فلسطين جزءا من الوطن العربي ، وادراك المنظمة لصـورة عالمنا المعاصر وكتله وتقسيماته ٠ واوضحت المنظمة ان هذه العوامل مجتمعة « تقـول بضرورة الحوار في عصرنا وترى امكانية قيام علاقة بين الوطن العربي واوروبـا الغربية يحكمها من ناحيتها المبادىء والمصالح ، ونستطيع من خلالها ايجاد حقائق تعرض علـى اوروبا ان تغير من مواقفها لتقف مع الحق العربي » (٩) ٠ وسلطت الاضواء على منظمة التحرير في هذه الاجتماعات بفعل الموقف العربي الفاعل الذي حرص على ابراز اشتراكها، واسندت الوفود العربية لوفد المنظمة دورا خاصا في اجتماع القاهرة فتحدث رئيسه عـن الحوار في جوانبه الحضارية والثقافية باسم الجانب العربي (١٠) ٠

وكان اشتراك المنظمة بدوره عاملا أساسيا في صياغة هذا الموقف العربي الفاعل واغناء افاقه السياسية والحضارية ٠ وعهد الجانب العربي الى رئيس وفد المنظمة بصياغة كلمته في اجتماع روما كما اختار ممثل المنظمة للرئاسة العربية للجنة الثقافة والعمل والشؤون الاجتماعية ٠ وحددت المنظمة استراتيجية واضحة تجاه الحوار انطلقت في تحديدها مـن انتمائها القومي ونظرتها الشمولية ٠ وقد شرح ممثلها في الحوار هذه الاستراتيجية فقال « تتميز نظرة المنظمة لفكرة الحوار العربي الاوروبي بأنها شاملة تتجاوز المصالح الانيـة الصغيرة ٠ ومن هنا فهي ترى الحوار ضرورة مستقبل تفرضه عبرة تاريخ مشترك وحقائق عالمنا المعاصر ٠ وقد اورثتها هذه النظرة وممارسة شعب فلسطين العربي لواجبه النضالي في نطاق تصعيد ثورته ثقة بقدرتها وقدرة الوطن العربي على النفاذ للمجموعة الاوروبية وايجاد حقائق بالموقف العربي الواحد تفرض على هذه المجموعة تجسيد ما التزمت به في بيان ٦ نوفمبر (تشرين الثاني) الانتقال الى موقف اكثر تقدما، يتجاوز الحديث الاوروبي غير المنطقي عن سياسة التوازن بين الدول العربية واسرائيل » (١١) ٠

وشاركت المنظمة في اجتماع ابو ظبي بوفد قوي كان له دوره في صياغة موقف عربـي واحد خلال اجتماع الجانب العربي ٠ فقد طرح على هذا الاجتماع تصور الجانب الاوروبي لاستمرار الحوار واجتماع اللجنة العامة التي استمر الجانب العربي يطالب بانعقادها ٠ وتضمنت رسالة الجانب الاوروبي استعداده لعقد اجتماع اللجنة العامة على اساس أن يتم في صورة وفد اوروبي واحد ووفد عربي واحد على غرار صورة لقاء الخبراء ٠ وحددت مستوى التمثيل بمستوى السفراء ، وان تكون مهمة اللجنة العامة التنسيق بين اعمـال اللجان المختلفة يمكن لها ان تبحث موضوعات اخرى يتفق عليها اذا طلب الجانب العربي٠

وبدا واضحا بعد طرح هذا التصور ان آراء الوفود العربية موزعة تجاهه ٠ وقـد

تراوحت مواقفها بين التشديد على ضرورة عقد اللجنة العامة فورا وقبل الاجتماع المشترك، وبين الفراغ من اجتماع الخبراء الثالث وعدم عقد اي اجتماع آخر حتى تنعقد اللجنة العامة · وبعد أن أعلن وفد المنظمة موقفه المبدئي من الحوار حدد رأيه فيما يتعلق باجتماع اللجنة العامة ان الحوار العربي الاوروبي لا يجوز ان يقتصر على الجانب الاقتصادي ، بل لا بد ان يشمل شتى الجوانب لانه حوار حضاري يركز خصوصا على الجانب السياسي، لانطلاقه من ارادة سياسية لطرفيه ولان المناخ السياسي يؤثر كثيرا على تقدم الحوار في الجانب الاقتصادي · ونادى بضرورة عقد اجتماع للجنة العامة باسرع وقت ممكن ، ولا بأس ان تبدأ بمستوى السفراء على ان يكون واضحا انها ستصل الى اجتماع وزراء الخارجية · ولا بد ان تبحث اللجنة العامة فضلا عن التنسيق بين اعمال الخبراء الجانب السياسي من الحوار · كما اعلن الوفد ان منظمة التحرير لا ترى مانعا من ان يتم الاجتماع على غرار اجتماع الخبراء « لانها تتجاوز كسب بروز الشخصية الفلسطينية من الواقع العربي الاقليمي في سبيل بروز الحقيقة القومية الواحدة وظهور العرب كجانب واحد متماسك في الحوار · ولان الصورة الراهنة ـ كما ظهر من تجربة الاجتماعين السابقين ـ هي افضل الصور لجانبي الحوار (١٢) · وتقدم وفد فلسطين باقتراحات محددة بشأن الاستراتيجية العربية تجاه الحوار وطريق الاتصال بين الامانة العامة والدول العربية ·كما عهدت الوفود العربية لرئيس الوفد بصياغة كلمة الجانب العربي ·

يهمنا بعد هذا العرض لدور وفد المنظمة في هذه الاجتماعات ان نعرض لما دار فيها بشأن قضية فلسطين · فعلى الرغم من انها انعقدت تحت لواء « الخبرة الفنية » ليتجنب الجانب الاوروبي بحث الامور السياسية في الحوار ، الا انها شهدت حديثا سياسيا متصلا سواء في خطابات الافتتاح او خلال الاتصالات الثنائية ·

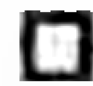
وقد أقر الجانبان في مقدمة المذكرة المشتركة التي صدرت عن اجتماع القاهرة « ان الحوار العربي الاوروبي ينبثق من ارادة سياسية مشتركة برزت على اعلى مستوى بقصد اقامة علاقات خاصة بين المجموعتين » · كما اشار الجانبان الى ان بروز فكرة الحوار مرتبط بحرب ١٩٧٣ ، وحددا فهمهما للابعاد السياسية للحوار فانها في جوهرها محاولة اعادة اكتشاف وتجديد وتنشيط الروابط التي تؤثر على المنطقتين المتجاورتين (١٣) · وطرحت كلمة الجانب العربي في اجتماع القاهرة الجانب السياسي من الحوار بوضوح ، بينما اوجزت كلمة الجانب الاوروبي الحديث عنه مع تسليمها باهميته (١٤) · وناقش الجانب العربي في كلمته الافتتاحية بروما الموقف الاوروبي من الاحتلال الاسرائيلي عمليا بمناسبة قرار صدر عن البرلمان الاوروبي عرض بالعمل الفدائي ، وتحدث عن مواقف دول اخرى تحاول عرقلة الحوار · كما تناولت كلمة افتتاح الجانب العربي في اجتماع ـ ابو ظبي عرضا وافيا للاحداث السياسية الهامة التي جرت على الصعيد الدولي وعلى صعيد قضية فلسطين بوجه خاص من مؤتمر هلسنكي للامن الاوروبي الى مناقشة قضية فلسطين في الامم المتحدة ومواقف الدول الاوروبية من منظمة التحرير الفلسطينية الى سياسة الاحتلال الاسرائيلي في الاراضي العربية المحتلة ، وطرحت ما يمكن ان يكون عليه الموقف الاوروبي ليسهم في بلوغ سلام عادل في المنطقة · وتعرض الجانب الاوروبي في كلمته لقضية فلسطين بايجاز واشار الى تفسير مواقفه الاخيرة في الامم المتحدة (١٥) ·

وسجل الجانبان في مقدمة الورقة المشتركة «ضرورة ان يوضع في الاعتبار البعد ـ السياسي من الحوار حتى يتسنى له ان يتطور على النحو المنشود وأن يتواصل بطريقة فعالة » · ولقد وجد الجانب الاوروبي نفسه وجها لوجه في هذه الاجتماعات الثلاثة مع منظمة التحرير الفلسطينية التي وصف الجانب العربي موقفها المبدئي من الحوار

بالايجابية واعلن « انه كان عاملا حاسما في دفع الجانب العربي للشروع في الحوار وشق طريق امامه بعد ان كاد يصل الى طريق مسدود » (١٦) · واقبل اعضاء الجانب الاوروبي على الاحتكاك بالوفد الفلسطيني والاتصال باعضائه ، وتحولوا من التحفظ الشديد في مسلكهم تجاه وجوده في اول يوم من اجتماع القاهرة الى الاقبال عليه بعد ذلك · واثمر هذا الاحتكاك نتائج غير مباشرة في التعريف بالصورة الحضارية للمنظمة وفي طرح وجهة نظرها وكسب اصدقاء لها في الجانب الاوروبي ، وطرح بالحاح عليه مسألة التعامل معها والاعتراف بها ·

وضاعفت منظمة التحرير الفلسطينية خلال هذه الفترة من اهتمامها بمتابعة الحوار فزادت عدد اعضاء وفدها الى اجتماعاته ، واتخذ مجلس ادارة الصندوق القومي الفلسطيني قرارا بان يكون احد اعضائه مسؤولا عن شؤون الحوار العربي الاوروبي · وتعزز هذا القرار بقرار اتخذته اللجنة التنفيذية اقر تشكيل وحدة للحوار في المنظمة (١٧) · وكانت المنظمة اول عضو عربي في الجامعة يشكل وحدة للحوار تنفيذا لاقتراح برز في اجتماع الجانب العربي في ابو ظبي · يهمنا قبل ان نختم حديثنا عن مرحلة اجتماعات الخبراء في الحوار ان نربط موقف المنظمة هذا بالمرحلة التي كان يمر فيها النضال الفلسطيني لنتعمق فهم هذا الموقف · ولقد عرضنا لرؤية المنظمة الاستراتيجية للحوار ، ونضيف ان النضال الفلسطيني دخل بعد حرب رمضان مرحلة جديدة برز فيها الوجود الفلسطيني على مسرح السياسة الدولية ، ودخلت منظمة التحرير كممثلة لشعب فلسطين المحافل الدولية ، فبعد الاعتراف بها كممثل شرعي في مؤتمر الرباط على الصعيد العربي ، جاء خطاب فلسطين في الامم المتحدة واعترفت المنظمة الدولية بمنظمة التحرير كعضو مراقب ، وتتالى اعتراف دول عدم الانحياز والدول الاشتراكية بالمنظمة ·

والقى ذلك كله مسؤولية جديدة على كاهل الثورة الفلسطينية هي مسؤولية التعامل السياسي مع الاسرة الدولية · واصبح لزاما على المنظمة ان تقرن الكفاح المسلح الفلسطيني ضد المحتل بالطرح السياسي الذي تشرح فيه اهدافها وتحدد فيه مطالبها · وقد اقتضى ذلك تقديم صف من الكفاءات الفلسطينية لتتولى هذه المسؤولية ·



دخل الحوار العربي الاوروبي مرحلة جديدة بانعقاد الاجتماع الاول للجنة العامة بمدينة لوكسمبورج من ١٨ الى ٢١ مايو ١٩٧٦ · وقد توصل الجانبان الى الاتفاق على دعوة اللجنة العامة بعد ان حققت اجتماعات الخبراء على الصعيد الفني هدفها ومثلت مرحلة تمهيدية ناجحة · وجاء اجتماع لوكسمبورج على مستوى السفراء ليبحث في مسار الحوار وفي المسائل السياسية المتعلقة به · وسبق الاجتماع المشترك اجتماع للجانب العربي استهدف صياغة الموقف العربي الواحد · وقد حدد وفد المنظمة في الاجتماع العربي المهام التي يجب انجازها على صعيد اللجنة العامة « بانها مباشرة الحوار في الجانب السياسي الذي طال انتظارنا لبحثه ثمانية عشر شهرا » · وطرح اقتراحا بتقويم مسار الحوار على صعيد الجانب العربي قبيل انفضاض الدورة وتحديد مستلزمات استمرار السير فيه · وكلف الجانب العربي رئيس وفد المنظمة بكتابة كلمته ورئاسة لجنة الصياغة التي ستتفق مع الجانب الاوروبي على البيان المشترك (١٨) ·

كان الحديث السياسي في اجتماع اللجنة الاول شاملا · وقد طرح في صورة بيان

سياسي عربي واخر اوروبي القاه رئيسا الجانبين ، ثم في صورة بيانين تكميليين علق فيهما كل جانب على ما طرحه الجانب الاخر في بيانه . والقى رئيس وفد المنظمة بتكليف من الجانب العربي البيان التكميلي العربي . وتلا ذلك اجتماع مشترك للجنة الصياغة التي قامت في واقع الامر بمهمة لجنة سياسية ناقشت خطوط البيان المشترك واقرته . وسجل البيان العربي الاهمية الخاصة التي يكتسبها الاجتماع من بحثه السياسة العامة للحوار ، وذكر بالنظرة العربية الشاملة له ثم بالهدف العربي منه والاسلوب الامثل فيه وهو اسلوب المصارحة . وانطلق يعرض صورة الواقع القائم في المنطقة بعد مضي ثلاثين شهرا على صدور بيان ٦ نوفمبر ، وركز على تشبث الكيان الصهيوني باحتلال الاراضي العربية ، واستمراره في مخططاته التوسعية ببناء المستعمرات الاستيطانية العنصرية وممارسته ابشع انواع العسف والاضطهاد على شعب فلسطين العربي . وحذر الخطاب من حدوث التفجر الشامل في المنطقة ومن الخطر الذي يتهدد أمن الوطن العربي وأمن اوروبا . وتناول الخطاب بعد ذلك قضية فلسطين مركزا على الموقف الاوروبي منها وما يمكن للجانب الاوروبي ان يقوم به لمعالجتها، وما يمكن للتعاون العربي الاوروبي ان يحققه لبلوغ سلام عادل في المنطقة ، وبحث في علاقة دول المجموعة الاوروبية بالكيان الصهيوني منذ بيان ٦ نوفمبر (تشرين الثاني) وعلاقتها بالدول العربية وبمنظمة التحرير الفلسطينية، وطالب فيما يخص علاقة اوروبا الغربية باسرائيل بأن تتخذ الدول الاوروبية مواقف واضحة وغير مترددة في المجال الدولي بمعارضة العدوان والاحتلال ، وانتهاج سياسة اقتصادية تلجم اسرائيل عن الانسياق وراء اوهام التوسع ، والتعبير باساليب مختلفة عن استيائها من استمرار الكيان الصهيوني في تحدي الارادة الدولية والتوقف عن مد اسرائيل بالسلاح. وعارض الخطاب الرأي الاوروبي الذي يبرر سياسة دول المجموعة بانه تجسيد لسياسة التوازن وطرح مفهومه لهذه السياسة . وسجل فيما يخص علاقات دول المجموعة بالدول العربية وبالمنظمة ما حدث من تقدم بهدف تحقيق فهم اكبر وامكانية نمو هذا التقدم من خلال الاهتمام بقضية فلسطين والاعتراف الكامل بمنظمة التحرير وبحق شعب فلسطين في العودة . وختم الخطاب بشرح وجهة النظر العربية في اهم القضايا التي تتصل بأمن وسلام العالم .

أما البيان الاوروبي فقد عرض بايجاز العلاقات التاريخية بين العرب واوروبا ، ثم ارخ لفكرة الحوار وشرح اهدافه وحدد المهام التي يجب انجازها في اجتماع اللجنة العامة . واوضح وعي الجانب الاوروبي للمعنى السياسي للحوار .. وتتبع انشغال دول المجموعة بأمن البحر الابيض المتوسط وموقفها من مأساة النزاع في منطقة الوطن العربي . وحدد هذا الموقف كما جاء في بيان ٦ نوفمبر (تشرين الثاني). وأوضح ان اوروبا الغربية لا تريد ان تحل محل الجهات المعنية مباشرة، ولكنها ترغب ان تسهم في حدود امكانياتها . وتطرق لمشكلة فلسطين واشار الى المعونات التي قدمتها الدول الاوروبية لاغاثة اللاجئين، واوضح انه ثبت ان حل مشكلة فلسطين يطرح نفسه بالحاح من الوجهة السياسية . وانتهى من ذلك الى القول « بان الدول التسع ترى ان المسألة التي تطرح نفسها الآن هي الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في التعبر عن هويته الوطنية » . وعرض الخطاب الى العلاقات الاقتصادية بين دول المجموعة واعضاء جامعة الدول العربية ، وما طرأ عليها من تحسن خلال السنوات الاخيرة ونوه بالتعاون على صعيد مؤتمر التعاون الاقتصادي الدولي وقارن بينه وبين الحوار ورأي ان العمل فيها يتكامل ولا يتناقض . وعبر عن اقبال الجانب الاوروبي على اعمال اللجنة العامة بروح بناءة .

وجاء البيان التكميلي الاوروبي ليشير الى نقاط الاتفاق التي ظهرت في بياني الجانبين خصوصا فيما يتعلق باهمية اجتماع اللجنة العامة والنظرة للحوار والتعبير عن النيات

الصادقة في تفهم مشكلات الوطن العربي · وعلق البيان على ما جاء في الخطاب العربي بشأن بيان ٦ نوفمبر (تشرين الثاني) واعتباره نقطة تحول في الموقف الاوروبي ، بـــان انشغال اوروبا بنزاع « الشرق الاوسط » قديم وهو نابع من وعيها للروابط التي توصلهـا بالعالم العربي » الا ان التعاون السياسي للدول التسع لم يقم الا منذ عام ١٩٧١ » ·

كما اكد الخطاب « ان التعاون السياسي للدول التسع امر جديد ، وهناك صعوبـــات امامه وهو عملية طويلة الامد ولا تزال في بدايتها » · وأوضح ان الجانب الاوروبي سجل بكثير من الاهتمام الاعتبارات التفصيلية التي اوردها الجانب العربي في خطابه « وهـذه تقدم مادة غزيرة للتأمل والتفكير في المناقشات التي سوف تدور بيننا في اطار اعمالنـــا المتصلة بالوضع في الشرق الادنى · ونحن قد اخذنا علما بالاهمية القصوى التي تعلقونها على القضية الفلسطينية وعلى الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني · ونحـــن نعتبر هذه المشكلة مشكلة ذات طابع سياسي وتشكل عاملا حاسما في اية تسوية للنزاع · واثبتالخطاب النقاط الاربعالواردة في بيان٦ نوفمبر (تشرينالثاني) بنصها· واشار الى ان هذا البيان لم يكن الا مساهمة اولى على طريقحل القضية حلا شاملا، واوضح ان المجموعة الاوروبية اخذت علما بالمسائل التي تشغل بال الجانب العربي خصوصا ما يتعلق منهـــا بالارض المحتلة ، واكد أن القوة والامر الواقع لا يجوز ان يكونا عناصر لعلاقات دوليـــة مستقرة · وان الحوار سيحقق مناخا مؤاتيا لتفهم أفضل لسياسات كل منا · ونبه الخطاب بالمقابل الى المشاكل الاوروبية حيث « تعبر اوروبا فترة عصيبة من الازمة الاقتصاديـــة » · وأوضح ان الروابط الاقتصادية بين المنطقتين تدفع الى الانجاز العملي في هذا الحوار ·

تناول البيان التكميلي للجانب العربي الذي القاه رئيس وفد المنظمة تقويم تجربة الحوار مشيرا الى جهد الجانبين لتعرف كل منهما على الاخر وذكر « ان هذا الحوار يتـم بيـــن طرفين كانا الى وقت قريب في موقع التصادم الكامل ، وطبيعي من ثم ان يكون لهمـــا منطلقان في النظر الى الامور ·· ويدفعنا هذا المعنى ان نتترع بالصبر ويفرض قبل ذلك ان نفتح اذهاننا لما يقوله كل منا للاخر كي يحقق حوارنا هدفه ، ولا يسمى «حوار الصم» · وانتقل الخطاب الى الحديث عن جوانب الاتفاق التي ظهرت في كلمات الجانبين بغيـــة الخروج بنتائج محددة تمثل ارضية مشتركة · ومن بين هذه الجوانب الاتفاق في النظرة الى الحوار ونشأته وجذور فكرته وعوامله واهمية الجانب السياسي فيه ، والاتفاق على حقيقة أن أمن دول المجموعة الاوروبية مرتبط بأمن الوطن العربي وعلى ضرورة الانشغال بقضايا امن سلام العالم من حولنا ، والاتفاق على استشعار القلق من الصراع الذي تشهده منطقتنا وعلى ان استتباب السلام هدف مشترك علينا ان نتعاون لبلوغه · وانتقل الخطاب بعد ذلك الى التساؤل « اين يكمن الاختلاف بيننا اذن ؟ · وما هي نقاط هذا الاختلاف ؟ » وصارح بان الاختلاف القائم ليس بالقليل وهو كامن في تطبيق المبادىء على الواقـــــع القائم في المنطقة · وناقش ما جاء في حديث الجانب الاوروبي عن قضية فلسطين فوصف اسلوب التعبير الاوروبي بانه « اسلوب يحاول الدوران حول حقيقة ساطعة لا مناص من الاعتراف بها » ووصف الموقف الاوروبي بانه موقف متردد بدون مبرر في التعامـل مـــع قضية شعب فلسطين وتسمية الامور بتسمياتها ، ورد بحزم على الاشارة التي وردت بشأن المساعدات الانسانية لابناء فلسطين موضحا ما قدمته اوروبا الغربية اقترن بمسؤوليـــة كبيرة تقع على كاهلها في تطور الاحداث التي ادت الى نكبة فلسطين منذ بروز المشكلـــة اليهودية فيها مرورا بتصريح بلفور وفرض الانتداب الى قرار التقسيم « ولا نقول ذلـــك لنتحدث عن ذنوب يكفر عنها لاننا لا نفعل كما يفعل غيرنا ، وانما لنأخذ من التاريــــخ عبرته » · وانتهى الخطاب من استعراض الموقف الاوروبي الى طرح اسئلة محددة علـــى الجانب الاوروبي ·· « الم يئن الاوان لان يعلن حق شعب فلسطين في ان يعيش في سلام

وأمن ويقيم دولته الوطنية على ارضه ؟

الم يئن الاوان لان تعترف دول المجموعة بمنظمةالتحريرالفلسطينية التي هي الممثل الوحيد لشعب فلسطين ؟ ألم يئن الاوان لان تعبر دول المجموعة عن موقف انساني ازاء ما يتعرض له شعب فلسطين في الاراضي المحتلة ؟ » وطالب الخطاب بموقف اوروبي قاطع يعلن ضرورة انهاء احتلال الاراضي العربية وارسى مبدأ ان العرب لا يطالبون اوروبا بما هو اكثر من استطاعتها ، وطالبها باتخاذ موقف تجاه اسرائيل تضغط عليها به معنويا وماديا · وختم الخطاب بالدعوة الى الانتقال من مرحلة اعلان المبادىء الى مرحلة ممارسة هذه المبادىء وتطبيقها على الواقع القائم (١٩) ·

قصدنا من اثبات هذا العرض التفصيلي للحوار السياسي في الاجتماع الاول للجنة العامة ان نتعرف على مكان قضية فلسطين في هذا الحوار ورؤية كل من الجانبين لهذه القضية واسلوب كل منهما في معالجتها · وان نتعرف ايضا على الافكار التي تبنتها منظمة التحرير التي اعلنتها باسم الجانب العربي بشأن ما ينبغي ان يكون عليه الموقف الاوروبي· خصوصا وان هذا الحوار السياسي كان هو الاساس الذي انطلق منه البحث في الجوانب السياسية بعد ذلك · وقد لقى الطرح العربي تقدير الجانب الاوروبي الذي وصفه « بالعملية والعقلانية والتحديد » · وكان التعليق الذي تردد في الاوساط الاوروبية بعد القاء الخطاب التكميلي « ان العرب طرحوا امورا محددة واسئلة واضحة لن يجد الجانب الاوروبي مناصا من تقديم الاجابة الواضحة عليها في اجتماع اللجنة القادم » · ولقد ابرز الآن تايلور في دراسته عن الحوار المبدأ الذي طرحه الجانب العربي الخاص بعدم مطالبة اوروبا بما هو اكثر من استطاعتها وقال « ان على الاوروبيين ان يقروا بان المطالب السياسية للدول العشرين ـ يقصد العربية ـ لا تتصف في حقيقة الامر بالغلو ·· فالعرب لا يريدون ان تضاعف اوروبا من دورها ، ولكنهم في الوقت نفسه لا يرحبون بتقليص هذا الدور » (٢٠) ·

لقد استطاع الجانب العربي في اجتماع لوكسمبورج ان يحقق هدفين هامين وضعهما نصب عينيه في الحوار · اولهما مباشرة الجانب السياسي منه بعد ان تأجل بحثه بطلب من المجموعة الاوروبية وطرح قضية فلسطين كبند رئيسي أول في هذا الجانب وثانيهما ابراز منظمة التحرير كناطق بلسان الدول العربية ليقف الاوروبيون امامها وجها لوجه توطئة لاعترافهم بها · وصدر عن هذا الاجتماع بيان ختامي تناولت البنود ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ منه الجانب السياسي بوضوح · ونص هذا البيان في البند ٧ « شرح كلا الجانبين وجهة نظرهما حول قضية فلسطين وأزمة الشرق الاوسط · وسجل الجانبان باهتمام كبير البيانات التي ادلى بها كل منهما ، واقرا ان حل مشكلة فلسطين على اساس الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني هو عامل حاسم للتوصل الى سلام دائم وعادل » ·

حرصت منظمة التحرير الفلسطينية ان تتابع نتائج اجتماع لوكسمبورج فتقدمت في شهر يوليو ١٩٧٦ بمذكرة الى الامانة العامة للجامعة العربية بهدف « التحضير لاجتماع اللجنة القادم وبمناسبة مضي عام على مباشرة الحوار على الصعيد الفني والفراغ من اجتماع اللجنة العامة الاول » وسجلت في مجال تقويم مسار الحوار انه « بانعقاد اللجنةالعامة وبحثها الجانب السياسي استكمل الحوار اطاره وابعاده ودخل مرحلة جديدة تشتد فيها الحاجة الى الوضوح والتحديد » · واعتبرت ان بيان لوكسمبورج تضمن نقاطا سياسية واضحة تتعلق بقضية فلسطين « ومثل في محصلته بداية لا بأس بها » وبقيت هناك اسئلة محددة طرحها الجانب العربي بشأن الموقف الذي يجب ان تتخذه دول المجموعة الاوروبية

لتجسيد المبادىء التي اعلنتها في بيان ٦ نوفمبر (تشرين الثاني) عمليا٠ ولاحظت أن موقف الجانب الاوروبي اتسم في بحثه للابعاد السياسية للحوار «بالتحفظ والتردد مع الحرص على الاستمرار في الحوار ، كما انه التزم بالحد الادنى من مواقف الدول التسع مع الحق العربي ٠ فبدا وكأن الدول المتخلفة في مواقفها شدت اليها الدول الاكثر تقدما » ٠ وأوضحت ان الجانب العربي « يتوقع مع ما يتطلبه مناخ الحوار ان تشد الدول الاكثر تقدما الدول المتخلفة الى موقفها » ٠ كما أوضحت انه لا يمكن للحوار ان يحقق تقدما في الاجتماع القادم « ما لم يتقدم الجانب الاوروبي في موقفه من قضية فلسطين ويقدم اجوبة محددة على الاسئلة التي طرحها الجانب العربي » ، وان ذلك « يقتضي جهدا عربيا يبذل على صعيدي العمل العربي الموحد والعلاقات الثنائية بين الدول العربية ودول المجموعة التسع » ٠ وحددت ما هو مطلوب على صعيد العمل العربي الموحد بان الحاجة تزداد الحاحا للتقدم على طريق « وضع استراتيجية عربية واحدة للتعاون بغية تحديد مجالات واساليب وحجم التعاون العربي والاوروبي وتوظيف هذا التعاون لصالح الجانب السياسي من الحوار » ٠ وأما على صعيد العلاقات الثنائية « فالحاجة ملحة لتوظيف هذه العلاقات لصالح الحوار القائم بصوره عامة ولصالح جانبه السياسي بصورة خاصة » ٠ وقد لوحظ في مسار الحوار على مدى عام اننا كعرب لم نستخدم هذه الورقة الفعالة الموجودة بأيدينا في الوقت الذي حققت فيه هذه العلاقات الثنائية وفي المجال الاقتصادي خصوصا ارتفاعا كبيرا استفادت منه دول المجموعة الى حد كبير » ٠ وطالبت ان نباشر هذا التوظيف ونركز فيه على الدول التي عرفت بمواقفها المتخلفة ٠ وذكرت بالموقف الايجابي الفاعل الذي اتخذته منظمة التحرير الفلسطينية من الحوار كجزء من الجانب العربي « لتضع عربته على القضبان واعطت تجربته الوقت اللازم لمباشرة الجانب السياسي فيه متذرعة بالصبر » ثم طالبت كي لا يفشل الحوار وفي مجال التحضير للاجتماع القادم ان تقوم جميع الدول العربية « باتصالات ثنائية مع دول المجموعة التسع وتوظيف علاقاتها معها بغية اتخاذها الموقف المطلوب » ، وان يعقد اجتماع عربي على مستوى وزراء الخارجية ، يخصص لاقرار استراتيجية عربية واحدة للتعاون العربي في مجال الحوار العربي الاوروبي » (٢١) ٠

كانت هذه المذكرة موضع البحث في اجتماع مجلس الجامعة العربية خلال شهر سبتمبر (ايلول) ١٩٧٦٠ وقد تبنى المجلس الاقتراحين وأصدر قرارا باجراء الاتصالات الثنائية وقرارا آخر بالطلب الى وزراء الخارجية النظر في وضع خطة عربية متكاملة للحوار ٠ وتشكلت اللجنة العربية للحوار التي تختص باعداد تصور مشترك للموقف العربي في النواحي السياسية والفنية في اللجنة العامة المشتركة ، وباعداد بيان الجانب العربي والنظر في تقارير اللجان واقتراح الاعتمادات اللازمة ، والتي تتكون من مندوب متخصص تعينه كل دولة عضو ورؤساء ومقرري اللجان وممثلي الامانة العامة ، واجتمعت هذه اللجنة في الفترة من ٢٠ الى ٢٢ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٦ وحضرت لاجتماع اللجنة العامة الثاني وقررت اجراء الاتصالات الثنائية واعتماد مضمون مذكرة منظمة التحرير في هذه الاتصالات ، وكلفت ممثل فلسطين باعداد مشروع كلمة رئيس الجانب العربي في اجتماع تونس من الناحية السياسية ٠ وخصصت مبلغا مبدئيا قدره خمسة عشر مليون دولار لتمويل الدراسات التمهيدية ودراسات الجدوى والانشطة الخاصة بالحوار (٢٢) ٠

ونظر وزراء الخارجية العرب اثناء اجتماعهم في اطار مجلس الجامعة العربية يوم ١٩٧٧/١/١٥ في مذكرة المنظمة وفي توصيات اللجنة العربية واكدوا على ضرورة استمرار الحوار العربي الاوروبي ودفعه الى الامام وتطويره نحو التعاون المثمر ٠ كما اقروا

توصية اللجنة العربية بشأن تخصيص مبلغ من الصندوق العربي للانماء الاقتصـــادي والاجتماعي للمشاركة في تمويل الدراسات ٠

وجاء اجتماع اللجنة العامة الثاني في تونس بين ١٠،١٢ فبراير (شباط) ١٩٧٧، فكان مناسبة لمتابعة الدور الذي تقوم به منظمة التحرير في الحوار العربي الاوروبي ٠ وقد استطــاع الجانب العربي ان يتفق على موقف عربي قوي خلال اجتماع اللجنة العربية يوم ٨ فبراير، (شباط)، واقر مشروع البيان الذي كتبه رئيس وفد فلسطين تنفيذا لقرار اللجنة العربية كما عهد اليه بالتحدث باسم الجانب العربي في اللجنة التي تبحث الامور السياسية وبالقاء البيان التكميلي ٠

كان البيان العربي في هذا الاجتماع شاملا في تناول مسار الحوار والجانب السياسي فيه واتصفت لغته بالتحديد والوضوح ٠ وقد اخذ بعين الاعتبار الظروف التي كانت تحيط بقضية فلسطين على الصعيد الدولي ، ومن بينها تأجيل اعلان تصريح لنـــدن لـــدول المجموعة بطلب من الادارة الجديدة في واشنطن ، وكان من المتوقع اعلانه قبيل اجتمـــاع تونس ٠ وتضمن هذا البيان ملاحظات الجانب العربي على مسار الحوار وارسى مبادىء تحكم معالجة المشكلات الدولية ثم ركز الحديث على الخطر الذي يتهدد أمن المنطقتين العربية والاوروبية بسبب استمرار العدوان الاسرائيلي ٠ وشرح بالتفصيل السياسة الصهيونيـة الماضية في اقامة مستوطنات جديدة وفي ممارسة العسف على عرب فلسطين والاراضـــي المحتلة ، وعرض للسياسة الاوروبية تجاه المنطقة والموقف الاوروبي من الصراع على ضوء ما وصل اليه الحوار ، وسجل ما حدث فيه من تقدم محدود وما اعتوره من نقص واضح في الموقف الاوروبي وتأكيدا للمبادىء التي اعلنها ، او اضيفت اليه عند الالقاء فقرة ردت على ما جاء في البيان العربي أشارت بأن المجموعة الاوروبية لا يمكن ان تسمح لاخرين ان تحدد لهما ما يجب ان تكون عليه علاقات المجموعة باسرائيل ونفت التفسيرات العربيـــة لتصريحات مستر كروسلاند وزير الخارجية البريطاني ورئيس المجموعة ٠ وجاء البيـان التكميلي العربي حاسما في ضرورة تناول جميع ما يخص العلاقات العربية الاوروبية مـــن موضوعات وفي مقدمتها علاقة المجموعة باسرائيل وفي اعادة تقدير التقدم الذي حدث في الموقف الاوروبي والمطالبة بالممارسة العملية ٠ كما جاء البيان التكميلي الاوروبي واعـدا بمزيد من الجهد وببذل جهود دبلوماسية تؤكد موقفه المبدئي وقد اتصف الحـــوار فـــي اللجنة (١) بالصراحة وانتهى الى صياغة بيان مشترك سجل تأكيد الجانبين « قلقهمـــا البالغ ازاء الامن في الشرق الاوسط واحتمالاتها بالنسبة للامـــن الاوروبي والعالمـي ، وادراكهما الكامل للاخطار الكامنة في استمرار الجمود في الموقف الحالي ، واهتمامهما المشترك في اقامة سلام دائم وعادل »٠ كما اكد على « ان حل قضية فلسطين على اساس الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني عامل حسم في تحقيق سلام عادل ودائم »٠ وعبر الجانب الاوروبي من جديد عن وجهة نظره في انه « لن يمكن حل النزاع في الشرق الاوسط ما لم يتم ترجمة حق الشعب الفلسطيني في التعبير الفعال عن هويته الوطنية الى واقع ٠ واكد موقفه من قضية القدس وسياسة المستوطنات » (٢٣) ٠

استطاع الجانب العربي في اجتماع تونس ان يتقدم خطوة في الحوار السياسي مــــع الجانب الاوروبي ٠ كما استطاع بابرازه وفد فلسطين وبالجهد الذي بذله هذا الوفد ان يفرض وجود منظمة التحرير الفلسطينية كحقيقة كبيرة في الحوار العربي الاوروبي ٠

وحرصت وحدة الحوار في منظمة التحرير ان تعرض تجربة المنظمة في الحوار علـــى المجلس الوطني الفلسطيني في دور انعقاده الثالث عشر بالقاهرة في مارس (آذار) ١٩٧٧ ٠٠٠

فقدمت تقريرا اضافيا عنها • واصدر المجلس الوطني قرارا سجل فيه انه « بعد أن اطلع على مسار الحوار العربي الاوروبي ، ودرس الدور الفاعل الذي قامت به منظمة التحرير كجزء من الجانب العربي يؤكد اهمية هذا الحوار ويعبر عن ارتياحه لاستكماله وللتقدم الذي حققته بعض دول المجموعة الاوروبية في مواقفها من قضية فلسطين والاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية • ودعا المجلس دول المجموعة لتطوير موقفها الذي عرضته في بيان تونس وتجسيد هذا الموقف سياسة عملية تعارض الاحتلال الاسرائيلي وتسهم في تمكين شعب فلسطين من ممارسة حقوقه الوطنية الثابتة في وطنه » • وانتخب المسؤول عن الحوار في المنظمة عضوا في القيادة الجديدة واصبح الحوار مهمة من مهام عضو في اللجنة التنفيذية •

وانشغل الجانب العربي بعد اجتماع تونس بتقويم مسار الحوار • وقامت منظمة التحرير بدور خاص في هذا التقويم بحكم المكانة الخاصة التي احتلتها داخل الحوار كما ساهمت في التأثير على الموقف الاوروبي مع عدد من الدول العربية كي يصدر تصريحه الجديد الذي يطور فيه تصريح ٦ نوفمبر (تشرين الثاني) وقد قام المسؤول عن الحوار بزيارة ناجحة لالمانيا الغربية في شهر يونيو (حزيران) ١٩٧٧ سبقها اتصال مفيد بالهيئة الاوروبية ببروكسل خلال مشاركته في اجتماع لجنة الثقافة والعمل •

وحرصت منظمة التحرير ان تتقدم للدول العربية عن طريق الامانة العامة للجامعة بمذكرة تقوم فيها مسار الحوار خلال سنته الثانية اسوة بما فعلته في السنة الاولى وقد عرضت في هذه المذكرة للمرحلة الجديدة التي دخلها الحوار بعد اجتماع تونس • « والتي انتقل فيها من البحث في المبادىء والعموميات الى البحث في التطبيق والتفاصيل واوجزت حصيلة عملية التقويم التي تمت • وشرحت اسباب الركود الذي احاط بالحوار قبل اعلان تصريحلندن ثم قومتالتصريح ورأت فيهتطويرا محدودا لبيان٦ نوفمبر (تشرين الثاني) •بما تضمنه من نص على ان حل النزاع في المنطقة لن يكون ممكنا ما لم يترجم الحق الشرعي للشعب الفلسطيني في ان يعطي تعبيرا حقيقيا لكيانه الوطني الى واقع يأخذ في الاعتبار ضرورة اقامة وطن لهذا الشعب ، وبتقريره انه « لا يمكن ضمان امن دول المنطقة عن طريق احتلال الاراضي بالقوة » ، وباشارته غير المباشرة للسياسة الاسرائيلية التوسعية حين طالب الاطراف « ان تمتنع عن اي تصريح او سياسة يمكن ان تشكل عقبة امام السعي الى السلام » • واوضحت المذكرة ان طبيعة المرحلة الجديدة تكشف عن اهمية التقدم بالجانب السياسي من الحوار •

وتبين بالنسبة للجانب الفني منه اهمية استكمال الدراسات الاولية ، واهمية ايجاد مناخ صالح عن طريق مضاعفة الاتصال بين الخبراء والتوعية الاعلامية التي تقدم الحوار لشعوب المنطقتين • وحددت متطلباتها على رسم السياسة العامة للحوار سياسيا وفنيا « بتحديد الاهداف السياسية التي يبغي الجانب العربي الوصول اليها ، والقضايا السياسية التي يطرحها للبحث مع ترتيبها بحسب الاولوية • والاتفاق على الاستراتيجية العربية في شتى مجالات التعاون ، وتحديد المشروعات التي تقدم للبحث » • وعلى صعيد التمويل اللازم « لتنفيذ هذه الاستراتيجية على المدى القصير وعلى المدى الطويل والتحديد الواضح لمصادر هذا التمويل ولاساليب الانفاق منه » • وعلى صعيد « تطوير الجهاز الكفوء القادر على النهوض بمتطلبات الحوار وتحقيق انتظام سير العمل » • وانتهت المذكرة باقتراح محدد لتوفير هذه المتطلبات •

كما حرصت منظمة التحرير أن تتقدم بمذكرة اخرى تطلب فيها من الامانة العامة ورئاسة

الجانب العربي الاتصال بالجانب الاوروبي في ثلاث مسائل محددة تتعلق بالاحتلال الاسرائيلي في مجال وضع البيانات المشتركة على محك التنفيذ ٠

وقد عرضت المذكرتان للبحث في اجتماع وزراء الخارجية العرب في نطاق مجلس الجامعة خلال دورة سبتمبر (ايلول) ١٩٧٧ ووافق عليها المجلس ، واصدر قرارا بشأن التمويل وبشأن متابعة الحوار ٠٠

وبعد ٠٠٠٠

يتضح من هذا العرض ان منظمة التحرير الفلسطينية اتخذت من الحوار العربي الاوروبي موقفا مبدئيا يؤيد فكرة الحوار ويؤمن بضرورتها وسط الظروف المحيطة ٠ واعتمدت فيه اسلوبا واضحا يقوم على ايجاد الحقائق والتدرج في بلوغ الاهداف ،وانطلقت في ذلك كله من الايمان باهمية التضامن العربي والعمل العربي الموحد ، وحاولت انتطرح اسلوبها تجربة ناجحة في مجال التضامن العربي ٠ وما تزال تجربة المنظمة في الحوار مستمرة وكانت قد حققت حتى عام ١٩٧٧ بعض النتائج الايجابية لقضية فلسطين على الصعيد الاوروبي، ولكن لا يزال امامها ان تحقق الكثير في مجال الانتقال بالموقف الاوروبي الى مزيد من تأييد الحق العربي ، وفي مجال اقناع اوروبا الغربية بالتأثير على الولايات المتحدة الامريكية وتتطلع المنظمة والدول العربية على الخصوص الى اعتراف دول المجموعة الاوروبية اعترافا كاملا بمنظمة التحرير والى اتخاذ موقف حازم يدين الاحتلال الاسرائيلي والى تحرك اوروبي يقنع الولايات المتحدة أن تخفف من حدة تأييدها لاسرائيل ٠

واضح مما سبق ان موقف منظمة التحرير الفلسطينية من الحوار ينسجم مع المرحلة التي يمر بها النضال الفلسطيني كما يرى البعض ويطرح نموذجا جديدا في النضال السياسي يتفق مع مرحلة النضج التي وصلتها الثورة الفلسطينية ٠ ويبقى أن نعرض لمسار الحوار خلال عام ١٩٧٨ ولمستقبله على ضوء ما جرى في اجتماع اللجنة العامة الثالث الذي انعقد ببروكسل في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٧ وما شهدته المنطقة العربية من احداث في اعقاب هذا الاجتماع كان لها تأثيرها العميق على العمل العربي الموحد ٠

ولعل اكبر ايجابية حققها هذا الموقف هو ان منظمة التحرير اصبحت بموجبه ، وكما قال احد المسؤولين العرب ، الممثل الامين للامة العربية في الحوار (٢٤) والمعبر الصادق عن ارادتها ٠

الحواشي

(١) يراجع ، للتعرف على العوامل المحددة ، التي انضجت فكرة الحوار العربي الاوروبي ، وللتعرف على العلاقات العربية الاوروبية : احمد صدقي الدجاني، **الحوار العربي الاوروبي** ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ص ٣٣ ــ ٦١ ، ١٩٧٦ ٠

(٢) **المصدر نفسه** ، ص ٢٥ ــ ٣٢ ، حيث اوردنا اهم الاتصالات التي جرت ، وابرز الاحداث الخاصة بالحوار ٠

(٣) انظر الدجاني ، **مصدر سبق ذكره**، مجلد رقم ١ ، والمقتطفات هي من اقوال بعض المندوبين العرب في ذلك الاجتماع ٠

(٤) **مصدر سبق ذكره** ، في المتن ٠

(٥) الدجاني ، **مصدر سبق ذكره** ، جلسته يوم ١٩٧٤/١١/١٤ ، حديث الامين العام المساعد ٠

(٦) مثل المنظمة في هذا الاجتماع السيد عبد اللطيف ابو حجلة ، مدير عام الدائرة السياسية في المنظمة ٠

(٧) كان وفد المنظمة برئاسة كاتب هذه المقالة ، باعتباره عضوا في مجلس الصندوق والمجلس المركزي ، وبعضوية

الدكتور محمد ربيع عضو مجلس الصندوق .

(٨) الدجاني ، مصدر سبق ذكره .

(٩) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ ، من المؤتمر الصحفي لرئيس وفد فلسطين في اجتماع ابو ظبي .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٧٤ ، وكذلك محاضر اجتماعات الحوار العربي الاوروبي .

(١١) من حديث لكاتب المقالة الى جريدة المحرر ، بيروت ، ٧ آب ، ١٩٧٥ .

(١٢) انظر الدجاني مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٣ ، وكذلك محاضر اجتماعات ابو ظبي ، وتقرير وفد المنظمة عن الاجتماع .

(١٣) الدجاني ، مصدر سبق ذكره ، الوثيقة رقم ١١ ، ص ٢٢٢ .

(١٤) المصدر نفسه ، الوثيقة رقم ١٠ ، ص ٢١٠ .

(١٥) المصدر نفسه ، الوثيقة رقم ١١ ، ص ٢٤٥ .

(١٦) من كلمة الافتتاح في اجتماع ابو ظبي .

(١٧) صدر قرار مجلس ادارة الصندوق في تشرين الثاني ١٩٧٥ ، وتلاه قرار اللجنة التنفيذية بتكليف احمد صدقي الدجاني بوصفه عضوا في مجلس ادارة الصندوق وعضوا في المجلس المركزي بمسؤولية الحوار . وضمت وحدة الحوار د. نعيم خضر، ود. محمد ربيع والمهندس عدنان درباس ، والمهندس علي اليسير ، والسيد سعيد كمال .

(١٨) من تقرير مسؤول الحوار العربي الاوروبي عن اجتماع لوكسمبورغ . ويراجع مقال احمد صدقي الدجاني عن الاجتماع في الاهرام ، القاهرة ، ١٥/٦/١٩٧٦ .

(١٩) ملف اجتماع لوكسمبورغ .

(٢٠) المصدر نفسه .

(٢١) ملف الحوار في منظمة التحرير الفلسطينية .

(٢٢) تقرير اللجنة العربية للحوار ، ومحاضر اجتماعات الحوار العربي الاوروبي .

(٢٣) يراجع ملف اجتماع تونس .

(٢٤) جاء هذا القول في معرض التعليق على الكلمة المنظمة ، وشرح ممثل فلسطين فيها ، خلال اجتماع مجلس الجامعة ، ١٩٧٧ .

الهلال الأحمر الفلسطيني

حملت حكومة الانتداب البريطاني بعض بذور تطورها الرأسمالي الى فلسطين ، حيث بدأ بانشاء الادارات المحلية ، ولما كانت هذه الادارات في حاجة الى كوادر محلية ، أولت مسألة التعليم جزءا من اهتمامها · ونتيجة للاوضاع الاقتصادية المتردية لمعظم السكان ، اقتصر دخول المدارس التبشيرية ، الباهظة التكاليف ، على عدد ضئيل من ابناء الموسرين ·

كان عدد المدارس الثانوية الكاملة ، عام ١٩٤٥ ، لا يتعدى الثلاثة ، ولم يتعد عدد الثانويات غير الكاملة ثلاثة عشر · اما ميزانية التعليم فكانت ٥٪ ، في حين بلغت ميزانية الشرطة ٢٦٪ · وقدرت ميزانية الصحة ، في افضل احوالها ، ٤٪ من ميزانية حكومة الانتداب ، رغم الامراض الداهمة ، وعلى رأسها الملاريا وامراض الاطفال ·

لقد كانت سياسة الحكومة ، صحيا ، مقتصرة على انشاء مستشفيات لخدمة الجالية البريطانية ، اما المستشفيات الخاصة فكانت مرتفعة التكاليف ، تتعدى كلفة الاقامة لليلة واحدة النصف جنيه فلسطيني · وفي مقابل هذا ، بدأت البلديات بانشاء مستشفيات تابعة لها، وقد ارتفع عددها حتى لم تخل منها مدينة · فبات الوضع الصحي ، عام ١٩٢٨ ، كالتالي :

عدد الاطباء الفلسطينيين ١٥٨ ·

عدد الاطباء غير الفلسطينيين ٦٥٥ ·

عدد الاسرة في المستشفيات الحكومية ٣٤٣ ·

عدد الاسرة في المستشفيات الخاصة ١٧١٧ ·

بيد ان عدد الاطباء الفلسطينيين ارتفع، في العام ١٩٧٣ ، الى ١٩٠ طبيبا · وفيما تشير تقارير حكومة الانتداب الى ان نسبة الاطباء ، في العام ١٩٤٨ ، كانت طبيبا واحدا الى ست مائة وستين مواطنا ، الا انها نسبة لاتشير الى واقع حقيقي ، اذ كان معظم الاطباء من اليهود المهاجرين الذين يعملون في مستشفيات يهودية ، ولا يدخلون القرى العربية · ولكن الوضع الصحي خالطه شيء من التحسن فيما بعد ، كما انحسرت الوفيات بين الاطفال ، فقارب ٧٦ في الالف مع العام ١٩٤٦ ·

ومع مجيء النكبة ، وما خلقته من شتات للشعب الفلسطيني ، تركزت المسؤولية الصحية في مخيماته في يد وكالة الغوث التي اتبعت سياسة حجب لمعوناتها عن الكثيرين ، بحكم انهم لا يحملون بطاقات اغاثة ، تمهيدا لتقليص خدماتها ·

ولعل ابرز ما يمكن ملاحظته في خدمات وكالة الغوث (الاونروا) هو التالي :

١ ـ عدم شمول الخدمات الصحية جميع اللاجئين ٠

٢ ـ تقتصر خدماتها الصحية على عيادات قصيرة الدوام ، بحيث لا تتجاوز اليومين في الاسبوع ٠

٤ ـ لا تشتمل معوناتها من الادوية الا على انواع محددة ٠

٥ ـ لا تشمل خدماتها بعض الحالات المرضية الخاصة بالقلب ، او العلاج بالاشعة ٠

٦ ـ عدم فعالية الوكالة اساسا ، اذ ما زالت المخيمات مرتعا للاوبئة والاوساخ ٠

ازاء هذا الوضع ، لم تجد الثورة الفلسطينية بدا من سد هذا النقص الكبير في الخدمات الصحية ، فأنشأت حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » مؤسسة الشؤون الاجتماعية والخدمات الطبية ، والعديد من المراكز الصحية والعيادات ٠ لكن الانجاز الكبير كان « جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني » ، التي انشئت في ١٩٦٨/١٢/٢٦ ، ثم استقلت كمؤسسة في المؤتمر الوطني للعام ١٩٦٩ ، واتخذ قرار باعتبارها جهازا صحيا للشعب الفلسطيني ، فوضعت « فتح » جميع مستوصفاتها ومستشفياتها تحت يد هذه الجمعية ٠

اما اهداف جمعية الهلال الاحمر ، فقد تحددت في نشرة لجنة الاعلام ، العدد الاول ، سنة ١٩٦٩ ، وهي :

١ ـ تجسيد الكيان الفلسطيني وشخصيته الوطنية في هيئة تعنى بالشؤون الصحية والاجتماعية للفلسطينيين ، على الصعيدين المحلي والعالمي ٠

٢ ـ رعاية المناضلين في الثورة ، بتقديم العناية الصحية والتجهيزات الاسعافية ، وانشاء المستشفيات والمراكز الطبية ، وتوفير سيارات الاسعاف ولوازمها ٠

٣ ـ رعاية شؤون الاسرى والجرحى والمعتقلين في السجون الاسرائيلية ، عبر تبادل التقارير بينها وبين جمعية الصليب الاحمر الدولي ، وهيئة الامم المتحدة ، لحفظ حقوق هؤلاء وفق المبادىء الدولية٠

٤ ـ رعاية شؤون الفلسطينيين في المناطق المحتلة ، صحيا ، ومعيشيا ، واجتماعيا ، والعمل على تأمين الاتصالات بين المقيمين في الداخل واخوانهم في الشتات ، عبر الصليب الاحمر الدولي ٠

٥ ـ تبني المسائل الاجتماعية والصحية والثقافية للفلسطينيين على النحو التالي :

أ ـ تأسيس مراكز صحية ٠

ب ـ انشاء مراكز اجتماعية تعتمدعلى بعض الانتاجات اليدوية كالحياكةوالخياطة والتطريز ، وتسويقها ٠

ج ـ تيسير سبل التعليم والتثقيف ،عبر انشاء مراكز ثقافية ، ومراكز محو الامية ٠

د ـ انشاء اندية رياضية ٠

٦ ـ اقامة دورات تمريض واسعاف ٠

٧ ـ توزيع المساعدات الدولية على اللاجئين ٠

٨ ـ المشاركة في حال حدوث كوارث محلية او خارجية ٠

هذا ، وقد بلغ عدد العيادات الطبية التي اقامتها جمعية الهلال الاحمر ، بعد سنة من تأسيسها ، اي في العام ١٩٧٠ ، ٧٦ عيادة ٠ ولهذه العيادات طابع خاص ، تحدد من كونها تجاوزا لعيادات الطب التجاري ، ولانها :

١ ـ أقيمت بمساعدة الجماهير التي وعت ضرورة البحث عن مخرج من ذلك

التجاهل المقصود لحاجاتها الطبية من قبل هيئة الاغاثة ·

٢ ـ وهي تعبير عن عمل اجتماعي سياسي تشارك فيه الجماهير ذاتها ·

وعلى الرغم من الصعوبات التي تواجه مشروعا كهذا ، واولاها العفوية ، الا ان الامور انتظمت فيما بعد ، نتيجة للالتفاف الجماهيري على الجمعية ، ونتيجة لتدفق المساعدات العربية والدول الصديقة من بعثات طبية وأدوية · وأهم من هذا كله ، هو الطابع السياسي الثوري للعاملين فيها ، اضافة الى الازمات التي مرت ، وتمر ، فيها الثورة ، كالغارات الاسرائيلية او المواجهات المسلحة مع من يحاولون ضربها ، حيث تتكافل الجهود في الالتفاف حول هذه المؤسسة ، حرصا على دورها الفعال والضروري ·

ايلول ··· والهلال الاحمر

كان اول التحديات التي واجهتها الجمعية هو الصدام بين المقاومة والجيش الاردني في ايلول · ولمواجهة هذا الوضع انشأت الجمعية ٢٠٠ مركز اسعاف في المدن والمخيمات ، كما وزعت حقائب الاسعاف على جميع محاور القتال ، بما في ذلك سياراتها وكوادرها الطبية · وجهزت قافلة طبية محملة بالادوية والتموين ، وتشتمل على ١٣٠ طبيبا ، و ٢٥٠ ممرضة وممرضا ، ٥٠ اختصاصية اجتماعية، ١٠٠ سائق ، ٣٥ اداريا ، وقد قسمت القافلة الى تسع فرق تغطي اربد وجرش والسلط وعمان والزرقاء والبقعة ، الا ان السلطات الاردنية استولت عليها ، ومنعتها من تأدية مهامها · وقد خسرت الجمعية، نتيجة الاشتباكات والقصف ، جميع منشآتها ومراكزها :

أ ـ مستشفى الكرامة/عمان ·

ب ـ مستشفى الشهيد عبد الرحمن عودة/اربد ·

جـ ـ العيادات المركزية/الحسين ·

د ـ مقر الجمعية في جبل عمان ·

هـ ـ ١٤ سيارة اسعاف ·

و ـ جميع مراكز الاسعاف ·

لقد كان قدر الجمعية ان تبني المنشآت لتهدمها الحروب · وآخرها كان مستشفى تل الزعتر ، الذي بلغت تكاليفه مليون ليرة لبنانية ، وادى مهامه مدة سنة ونصف السنة خلال الحصار ·

الهيكل الاداري

عضوية الجمعية مفتوحة لجميع ابناء فلسطين ، ولجميع العرب المؤمنين بأهداف الثورة · وينتخب الاعضاء ممثلين عنهم ليمثلوهم في المؤتمر العام للجمعية ، الذي يمثل اعلى سلطة ، وظيفته :

١ ـ محاسبة المكتب التنفيذي عن اعمال الجمعية ، خلال الفترة ما بين انعقاد مؤتمرين ·

٢ ـ مناقشة وتعديل النظام الاساسي ·

٣ ـ مناقشة تقرير المسؤول المالي ، والتصديق على موازنة السنوات المالية ·

٤ ـ اقرار الخطة العامة للجمعية ·

٥ ـ مناقشة ما يدرج في جدول اعماله·

٦ ـ قبول استقالة ، او اقالة ، المكتب التنفيذي ·

٧ ـ انتخاب المجلس الاداري العام ·

٨ ـ انتخاب اعضاء المكتب التنفيذي الجديد للجمعية ·

اما المجلس الاداري ، فهو السلطة الاعلى في الجمعية اذ يغيب المؤتمر . ويتشكل من رئيس المؤتمر العام ، او احد نائبيه ، ومن أعضاء المكتب التنفيذي العشرة ، ومن عشرة اعضاء اخر ينتخبهم

المؤتمر ، ومن امناء سر المجالس الادارية للفروع ، وثلاثة اعضاء يرشحهم المكتب التنفيذي · وصلاحيات المجلس الاداري هي الاشراف على تنفيذ الخطط التي يضعها المؤتمر ، ومحاسبة المكتب التنفيذي والمطالبة بانعقادات طارئة للمؤتمر بعد موافقة ثلثي اعضائه ، وتعيين مكتب تدقيق لحسابات الجمعية ، وتحديد ما يتعلق بممتلكاتها وكيفية الحفاظ عليها ، ومن ثم استثمار اموال الجمعية ، وتعليق عضوية عدد من اعضاء المكتب التنفيذي · اما المكتب التنفيذي ، فهو السلطة الاعلى في غياب المؤتمر والمجلس الاداري ، ويتشكل من احد عشر عضوا ، وصلاحياته هي : ادارة شؤون الجمعية ، الاشراف ومتابعة تنفيذ الخطوط المرحلية للمجلس الاداري العام ، المقررة في المؤتمر العام · اعداد مشروع ميزانية كل سنة جديدة ، واقرار الوسائل الممكنة لتمويل الجمعية ، وكذلك الاشراف على الانتخابات في الاقاليم ، وتعيين ممثلي الجمعية في مجلس محافظي اتحاد جمعيات الصليب الاحمر وغيرها ، وتعيين مدراء الاجهزة ، ومدراء المستشفيات ، ومدقق ومحاسب عامين ، اضافة الى تعيين اللجان المؤقتة للفروع حين انتخاب اللجان الدائمة ·

جهاز الشؤون الاجتماعية

بدأ عمل هذا الجهاز مع بداية تأسيس جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني ، في ظروف مادية وبشرية غير مؤاتية ·

وقد انتقل ، مع تطور المفاهيم والممارسة، من مرحلة الاكتفاء بتوزيع المعونات والمساعدات ، شأنه في ذلك شأن وكالة الغوث ، الى مفهوم يعتمد المشاركة الاجتماعية ، متوزعا مهامه كالتالي :

١ ـ دعم صمود الاهل في الارض المحتلة ·

٢ ـ تقديم العون لكل المتضررين من العدوان العسكري ·

٣ ـ الاهتمام بالاسرة الفلسطينية عبر التعليم والتأهيل المهني ·

٤ ـ احياء التراث الفلسطيني ·

٥ ـ تقديم المساعدات العينية للاسر المحتاجة ·

وقد خص هذا الجهاز الطاقات النسوية باهتمامه ، لما يتصفن به من مقدرة في محاكاة التطريز القديم ، وما يتصل من ذلك بالاثاث والالبسة ، فعمد الى انشاء معرض دائم للتراث الفلسطيني في العام ١٩٧٢ ، ويشتمل على اقسام عدة ، منها قسم الازياء الذي يتضمن ما امكن جمعه من اثواب قديمة للعرض فقط ، الى جانب ازياء موضوعة على نسق قديم ، وهي للبيع · وثمة قسم للمطرزات الخاصة بالارائك وما اليها ، وقسم اخر للتحف الفنية الصدفية منها والخشبية ، اضافة الى قسم خاص بالرسوم ·

ومما لا شك فيه ، ان اهتمام جهاز الشؤون الاجتماعية بالمرأة ، قد هيأ فرصة مواتية لها لتلحق بالثورة ندا للرجل ، متكافئة معه وعيا ، ومشاركة اقتصاديا · اما قناةتواصلها هذا فكان ، عموما ، عبر معاهد مهنية انشأها الجهاز ، خاصة بالتعليم والتطريز والخياطة واللغات والسكرتارية والاعمال اليدوية · وقد بلغ عدد الخريجات ، في العام ٧٦ ـ ٧٧ ، ٣٢٠ فتاة ·

وتجدر الاشارة ، ايضا ، الى ان جهاز الشؤون الاجتماعية ليس الجهاز الوحيد في القيام بمهام اجتماعية ، انما هناك مؤسسة الشؤون الاجتماعية واسر الشهداء ، التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، والمشرفة ، بشكل اساسي ، على اعالة وتعليم ابناء شهداء الثورة الفلسطينية ·

جهاز الخدمات الطبية

من الواضح ان جهاز الخدمات الطبية

هو الاكثر تماسا مع الجماهير ، والاكثر مشاركة لها في مشكلاتها ، ومنها ان هذه الجماهير تتعامل مع الجهاز كملكية خاصة ، وهذا ما يشكل عقبة امام تطبيق نظامه على نحو ذي جدوى · وحين تطالب الجماهير هذا الجهاز بتأدية دوره كاملا، ولها الحق في ذلك ، فانما تغفل عن بعض العقبات التي يعيشها الجهاز في شكل دائم ، واهمها ارتفاع نسبة الدوران بين العاملين (اي الالتحاق بالعمل والاستقالة منه في فترة وجيزة) وهذا يشكل عبئا في تهيئة كوادر وعاملين اكثر خبرة ، لان الفتر الزمنية القصيرة لا تسمح بذلك·

ويعود سبب الدوران الى عوامل ، منها : انخفاض المخصصات ، والوضع السياسي القلق ، والمشكلات الادارية على كل صعيد،

وثمة عقبات أخرى يعيشها الجهاز ، تتلخص في نقص الاخصائيين الدائميين والمتفرعين ، وهو نقص عائد الى مسألة المخصصات ايضا ، ومسألة الوضع السياسي ، هذا ، اضافة الى نقص الامكانيات المادية ، ونقص الاجهزة والمعدات وقطع الغيار ·

دائرة الطب الوقائي

لا يتجاوز عمر هذه الدائرة ثلاث سنوات ، اذ جاءت نتيجة للحرب اللبنانية ، اثر غياب السلطة والفعاليات الصحية الرسمية · وكان هدف الدائرة هو توجيه الانظار الى المشكلات الصحية المتفاقمة ، عبر المسؤولين ، وعبر العمل الجماهيري الطوعي ·

وتقوم الدائرة بتوزيع منشورات للوقاية من بعض الاوبئة ، كالكوليرا مثلا ، او الدعوة الى التلقيح ضد شلل الاطفال ، وقد بلغ عدد الاطفال الذين جلبهم اهلهم ، تلبية لنداء الدائرة ، ٧٠٠ الف طفل في العام ١٩٧٧ ·

الخدمات العلاجية

كان الاهتمام بالخدمات العلاجية من المهمات الاساسية المطروحة على الجمعية· اذ فرض ازدياد الاعمال الحربية توسيع المستشفيات وبناء مستشفيات جديدة ، وهنا استأثر العمل الجراحي بالحصة الكبرى من الخدمات ، وانعكس ذلك على الميزانية التي خصصت لاعمال علاجية أخرى ، اذ امتصتها اعمال الجراحة ·

كان الاهتمام محصورا في تجهيز مستشفى جراحي مركزي واحد ، لكن الواقع فرض اتجاها آخر ، يقضي بمد كل مخيم بمستشفى ، على ضوء تجارب سابقة قاصرة في عمان ، وفي بيروت ، على الرغم مما لاقى هذا التوجه من صعوبات في تأمين الكوادر المتخصصة ، انما تم تنفيذ ذلك ·

لقد تم تجهيز معظم المستشفيات المتواجدة في المخيمات ، ومعظم المراكز الطبية ، عبر مدها بالاجهزة الاساسية اللازمة للعمل الجراحي الطارىء . لتقوم هذه المراكز بدورها الى جانب المستشفى المركزي الجديد (مستشفى غزة) ، الذي لا يزال العمل فيه جاريا لرفع مقدرته الاستيعابية · كما تم تجهيز مستشفى « عكا » كمركز متخصص ببعض الجراحات · ثم بدأ الاهتمام يتوجه الى الاختصاصات الطبية الاخرى ، فأنشىء مستشفى للاطفال (الناصرة) ،ومستشفى للتوليد والامراض النسائية في ١/١/ ١٩٧٨ · وهناك خطة لايجاد مركز خاص بالولادات السابقة لاوانها في مخيم « صبرا » ، ومركز للعزل ·

وتجدر الاشارة هنا الى ان ثمة خدمات علاجية لم يتم التطرق اليها بعد ،ونقصد بها تحديدا ، الطب النفسي · وليس مرد ذلك عدم الاهتمام ، بل النقص في وجود الاطباء النفسانيين · كما ان هناك اختصاصات اخرى لم يجر التطبيب بها

وفق ما تقتضيه ، مثل امراض الدم والغدد والامراض الجلدية ، اذ يجري تحويل حالات من هذا النوع الى مؤسسات خاصة، او الى مراكز في دول صديقة · ويضاف الى هذا نقص في التجهيزات المخبرية ، وما الى ذلك من أجهزة معقدة ودقيقة ، كلها امور قيد الدرس ·

أما المستشفيات العاملة ، والتي تعود حيازتها الى جمعية الهلال الاحمر ، فهي :

في لبنان : ٨ مستشفيات ، تتسع لـ ٤١٠ اسرة ·

في سوريا : مستشفى واحد ، يتسع لـ ٦٠ سريرا ·

في مصر : مستشفى واحد ، يتسع لـ ٢٠ سريرا ·

أما العيادات التابعة للهلال الاحمر ، فهي :

في لبنان : ١٤ عيادة

في سوريا : ٤ عيادات ·

في مصر : عيادتان ·

العلاقات العامة

منذ ١٩٦٩ تقوم جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني بحضور كافة المؤتمرات الدولية والعربية ، التي تشارك فيها هيئات وجمعيات صحية ، وينطلق عمل الهلال على هذا الصعيد ، من عدة توجيهات :

١ ــ تمثيل واثبات الشخصية الفلسطينية الوطنية في المحافل الدولية ·

٢ ــ لفت الانظار الى الاوضاع الصحية للشعب الفلسطيني في الارض المحتلة ،وفي المخيمات ·

٣ ــ فضح الاساليب اللا انسانية للعدو الصهيوني التي يتبعها في معاملة السجناء الفلسطينيين ·

٤ ــ طلب الدعم لنضال الشعب الفلسطيني ، وحقه في العودة وتقرير مصيره ·

وتشكل هذه النقاط مرتكزا اساسيا لعمل جمعية الهلال الاحمر في الخارج ·

هذا ، وقد انشأت الجمعية عدة فروع لها في البلاد العربية ، وهي سوريا ، مصر ، الكويت ، قطر ، دولة الامارات ، ليبيا ، الجزائر · اضافة الى عدة جمعيات فرعية تؤازر عمل الهلال الاحمر في دول اوروبا الغربية ، والولايات المتحدة الامريكية · كما تقيم الجمعية شبكة واسعة من العلاقات مع جمعيات وهيئات دولية مختلفة ، وقد بلغ عدد الوفود الزائرة ٨٨ وفدا في الفترة ما بين العامين ٧٥ ــ ٧٧ ، منها اثنا عشر وفدا من جهات رسمية دولية · وتتضمن هذه الزيارات ، ايضا ، بعثات طبية ، اسهمت في حل العديد من المشكلات الطارئة ابان احداث المنطقة ·

جهاز التثقيف الصحي

لا يتجاوز عمر هذا الجهاز السنة ونصف السنة ، وقد استحدث بعد الاحداث اللبنانية نتيجة للاعتبارات التالية :

١ ــ وضع سياسة تعليمية صحية متكاملة ·

٢ ــ الحاجة المتزايدة الى الكوادر ·

٣ ــ الحاجة الى وضع برامج تعليمية للاطباء والمرضين في الجمعية ، من اجل رفع مستوى الكفاءة الفنية ، ودراسة المشكلات اليومية التي تعاني منها الجمعية ·

٤ ــ وضع سياسة للبعثات الى الخارج ·

وفي هذا السياق بدأ تجهيز مدرسة دائمة للتمريض في العام ١٩٧٧ ، ساهمت

في تجهيزها عدة جهات ، منها اليونيسيف ومن ثم بدأ تجهيز مدرسة اخرى في صور منذ ايلول ١٩٧٨ ، ويبلغ عدد طلابها الآن ما يقارب المائة · ويقوم بالتدريس فيها اطباء من الجمعية ، استنادا الى مناهج التمريض في الدول العربية ·

عبد العزيز اللبدي

مؤسسة صامد

جمعية « معامل ابناء شهداء فلسطين» « صامد » ، اسم معروف وتجربة غنية تملك كل امكانات التقدم والتوسع في المستقبل ، كمؤسسة انتاجية اقتصادية اجتماعية تابعة للثورة الفلسطينية ·

بين ١٩٦٨ ـ ١٩٧٨ تطورت « صامد » من هيئة ذات طابع اجتماعي تأهيلي محدود ، الى مؤسسة تقوم بدور اقتصادي انتاجي ، اضافة الى دورها التأهيلي · هذا التطور ، كان استجابة لتنامي حركة المقاومة الفلسطينية ، وما وضعته التجربة من مهام وطنية واجتماعية ·

أولى المهام الاجتماعية التي طرحت نفسها على الثورة الفلسطينية ، كانت رعاية اسر الشهداء ، حيث شكلت « مؤسسة الشؤون الاجتماعية ورعاية اسر الشهداء والاسرى » ، والتي كانت تطويرا وتجميعا للنشاطات الجزئية والمحدودة ، التي بادرت بها جهات مختلفة ، وعلى الاخص « القطاع النسوي للثورة ، والعاملات منه في الشؤون الاجتماعية بصفة خاصة » ، اللواتي اولين الاهتمام للاناث من عائلات الشهداء بالدرجة الاولى ، ولذا نلحظ ان النشاط الانتاجي في البداية كان عبارة عن اعمال « الخياطة والتطريز » التي كانت تنتج في المشاغل التي انشئت في مخيمات الاردن ، او عبر نشاط منزلي حيث تستطيع المرأة ان تقوم بعمل منتج دون ان تضطر للانتقال الى المشغل ، وفي هذه الحالة ، كانت المؤسسة تقدم المواد اللازمة ، تشتري الانتاج باسعار تشجيعية وتسوقه عبر المعارض والنشاطات الخيرية المتنوعة التي تنظمها او تشارك فيها ·

بعد نجاح التجربة في الاردن ، وتواجد حركة المقاومة الفلسطينية وبشكل فعال في الساحة اللبنانية اثر انتفاضة ١٩٦٩، شهدت المخيمات الفلسطينية في لبنان نشاطا متزايدا على غرار النشاط الذي قام في مخيمات الاردن · واذا كانت التجربة في مخيمات الاردن محكومة بالظروف والمهمات التي افرزتها حركة المقاومة ، وتحديدا مسألة رعاية اسر الشهداء ، فالتجربة على الساحة اللبنانية ، كانت محكومة بظرف موضوعي خاص لم يكن من الممكن تجاوزه ، فقد كانت هنالك مسألة التمييز ضد فلسطينيي لبنان الذين كانوا مضطرين للحصول على « اجازة عمل » بما تعنيه هذه المسالة من « عدم مساواة في الحقوق الاجتماعية والاقتصادية » · واسترادا السياسية ، الامر الذي حدد اطار العمل في مهمتين مركزيتين ، حل ما امكن من مشاكل اسر الشهداء ومشاكل المواطن الفلسطيني على الساحة اللبنانية · وبالذات من ناحية العمل ·

المهمات الجديدة ، فرضت نظـــرة ، وبالتالي سياسة جديدة للعمل و « بدأت تنمو فكرة خلق اطار مؤسسي واضـح ، يوفر مجال التأهيل والعمل لاسر الشهداء، ويفسح المجال لتشغيل ابناء الخيمـات ، بالشكل الـذي يوفـر حـلا لمشاكلهـم الاقتصادية ، وفي الوقت نفسه يقدم خدمة للثورة الفلسطينية ٠

لم يكن من الممكن انجاز الهدفين معا ، الا من خلال تطوير الوضـــع السابق ، وبشكل ثوري ، وخلق الاطار الاقتصـادي التنظيمي الذي يستطيع انجاز الهدفيـــن معا ، وكان ان اوكلت هذه المهمة في صيف ١٩٧٠ ، الى مؤسسة « صامـــد » ، اي « معامل ابناء الشهداء » والتي حـددت اهدافها بـ « تأمين حياة حرة كريمة لابناء الشهداء وعائلاتهم ، وذلك بتأهيلهـــم وتشغيلهم كي لا يكونوا عالة على الثورة، يأخذون ولا يعطون » و « تشغيل اكبر عدد ممكن من ابناء شعبنا في المخيمات » ولا يمكن تحقيق هذين الهدفين ، الا من خلال « خلق مشروع استثماري انتاجـــي ، يستهدف تأمين عائلات الشهداء ، بدلا من ان يكونوا عبئا على الثورة » ٠ وبذلـك وضع على عاتق « صامد » هدف بعيـــد المدى كانت تدرك انه « من المتعذر تأمينـه في الوقت الحاضر ، الا انه سيتحقق في المستقبل القريب » وذلك حسب ما جاء في تقرير داخلي عن نشاط المؤسسة ومن اجل تحقيق هذا الهدف الذي انشئت من اجله، بدأت « صامد » في تأسيس العديد مـــن المعامل في المخيمات وفي فتح المعـــارض لتسويق منتجاتها ، من ضمن سياســـة عنوانها « معمل في كل مخيم كخطـــوة اولى » ٠ ساعد « صامد » على ان تخطو الى الامام بسياستها هذه ، وجـــود يـــد عاملة سبق لها ان مارست العمـــل او تعاونت في النشاطات التي سبقت قيام صامد ، وتحديدا العمل مع القطـــاع النسوي ، الامر الذي قاد في البداية الى انتاج ، يتطلب يدا عاملة نسائيـــة ، كالتفصيل والخياطة وحياكة الصـوف ٠ ومن ضمن سياسة « الاكتفاء الـذاتي » بدأت « صامد » وبشكل متصاعد ، تؤمن نسبة لا بأس بها من الملابس التيتحتاجها الثورة ، الامر الذي فتح مجالا تسويقيـا ثابتا امام منتجات « صامد » ، وفي الوقت ذاته ، امكـن توفير مبالـــغ كبيرة علـى الثورة ، نظرا لانخفاض اسعار منتجـات « صامد » بالقياس للبضائع الاخـــرى الموجودة في السوق ، رغم ان مستـــوى الجودة واحد ٠

استلزم التوسع الذي شهدته «صامد»، اعادة النظر في الجوانب الاداريةوالمالية والتنظيمية التي كانت تحكـــم عمـــل المؤسسة ، لكي تصبح اكثر تناسبا مـــع الدور الاقتصادي ـ الاجتماعي الذي انيط بها ، لذلك ، وفي صيف ١٩٧٢ ، تقـــرر انشاء « مجلس تنفيذي » للمؤسسة ، وتم فصلها نهائيا عـــن « مؤسسة الشـؤون الاجتماعية لرعايـــة اسر الشهـــداء والمعتقلين » كما والحقت « بصامد » كافة المراكز المهنية ذات الصفة التأهيلية ، ولم تعد مهمتها في ضوء الوضع الجديـــد محصورة في تأهيل ابناء الشهداء فحسب، بل تأهيل وتدريب اي فلسطيني يريد العمل داخل مؤسسة « صامد » ٠ وبذلك اعطيت المؤسسة شخصية معنوية مستقلة ، وثبتت لها ادارة ، ذات صلاحيات واساليب عمل واضحة ومحددة ٠ وفي الوقت ذاته تـــم توحيد وتركيز مختلف اوجه النشاطـــات الاقتصادية ، الامر الذي ادى الىاستغلال افضل للامكانيات البشرية وغيـــــر البشرية ٠

تعبيرا عن المرحلة الجديدة من نشـــاط « صامد » اتخذت ادارتها اجراءات تكفـل تجاوز السلبيات التي لحقت بالعمل مـــن جراء التوسع السريع في انشاء المعامل ، والمشاغل ، ولذلك اعطي الاهتمام المناسب للتنظيم الاداري ، والمراقبة الدوريـــة ، واستيعاب مزيد من القدرات الفنية فـــي قطاع الانتاج لتحسين مستواه ، ورســم

سياسة تسويقية تتناسب وخطة «صامد» بالتحول الى مؤسسة انتاجية ، تأخذ المعايير الاقتصادية في عين الاعتبار ،عند وضع المشاريع · وقد كان واضحا ان « صامد » بسياستها الجديدة هذه تفتح مجالا للاستثمار ، يفيد الشعب الفلسطيني اجتماعيا واقتصاديا ، ولا يتضارب هذامع هدف اجتماعي آخر الا هو رعاية اسر الشهداء وتلبية متطلباتها ، وفي الوقت ذاته يقلل من الاعباء المالية عن كاهل الثورة ، كون « صامد » قد اتبعت مبدأ تلقي القروض ، بدلا من المساعدات ، كما كان يحدث في السابق ، وهي مسألة القت على عاتق المؤسسة « مسؤولية الاعتماد الذاتي ، وتوسيع نشاطها من خلال ارباحها » ·

تم تسجيل المؤسسة لدى الدولة اللبنانية في ١٥/١١/١٩٧٣ ، بعد تلكوء وعراقيل رسمية ، على الرغم من انطباق شروط وزارة الداخلية اللبنانية على مؤسسة « صامد » ، اذ كانت الاعتبارات السياسية للنظام اللبناني ذلك الحين وراء التأخر الذي حصل ·

وضع للمؤسسة نظام داخلي يحدد اهدافها ، ووسائلها ، وقد حددت المادة الثالثة غاية الجمعية بالتالي :

« (أ) استيعاب اكبر عدد مكن من ابناء وبنات شهداء الثورة الفلسطينية في مراكز مهنية ، تتبع الجمعية ، وذلك لتأهيلهم بمهنة شريفة تؤمن لهم العيش الكريم · (ب) استيعاب اكبر عدد ممكن من ابناء وبنات شهداء فلسطين ، ومن المتضررين في سبيلها ، للعمل في مرافق الجمعية · (ج) رفع المستوى المعيشي والثقافي والاجتماعي لاسر شهداء فلسطين وللجرحى والمتضررين من اجلها · (د) توفير السلع التي تنتجها الجمعية لابناء المخيمات واسر الشهداء · (هـ) التعريف بتراث الشعب الفلسطيني واعطاء الاولوية لازياء هذا الشعب في جميع المعارض والمناسبات · (و) العمل على تأمين مورد ثابت لاسر الشهداء والمتضررين · (ز) تشجيع انتاج ابناء شعب فلسطين بمختلف الوسائل » ·

اتت المادة الرابعة من النظام الداخلي لتحدد الاعمال التي ستقوم بها صامد لترجمة اهداف المؤسسة ، وذلك بـ « (أ) انتاج وتصنيع جميع السلع ذات الطابع الفلسطيني الفولكلوري · (ب) انتاج وتصنيع احتياجات اهالي المخيمات من ملبوسات وخلافها · (ج) انتاج وتصنيع احتياجات المعارض والاسواق الخيرية التي تقيمها الجمعية · (د) انتاج ايه حاجيات او سلع تساعد على اعانة اسر الشهداء والمتضررين · (هـ) تشغيل ابناء وبنات شهداء فلسطين والجرحى والمتضررين واعطاءهم الافضلية على غيرهم » ·

امتلاك « صامد » لشخصية معنوية ، ولاهداف وسياسة عمل واضحة ، امكنها من التحول الى مؤسسة انتاجية ، حيث وسعت ونوعت انتاجها ، والذي اصبح يتسع لمجالات متعددة متجاوزة النشاط الحرفي الذي انطلقت منه ، نحو التحول الى بدايات متواضعة لصناعة فلسطينية ، امكنها من اجتذاب المزيد من اليد العاملة، خصوصا الفنية منها ، واتاح لها توسعها وزيادة حجم انتاجها من وضع الاسس العلمية للعمل الانتاجي ، وهو الامر الذي لم يكن ممكنا في ظل النشاط ذي الطابع الحرفي المحض ·

« صامد » وان امتلكت شخصية معنوية مستقلة ، باعتبارها مؤسسة اقتصادية انتاجية ، فهي جزء من الثورة الفلسطينية تتقدم بتقدمها ، ومهمتها الاستجابة لمتطلباتها الاقتصادية والسياسية· والتعبير عنها في اطار تخصصها · بالاضافة الى تصنيع ما يمكن تصنيعه من مستلزمات الشعب والثورة ، كانت « صامد » المجال الذي فتح امام العامل الفلسطيني ، الذي

حورب في قوت عيشه وعلى الاخص بعد الحملة التحريضية التي شنتها السلطات اللبنانية ضد تشغيل الفلسطينيين اثر حوادث ١٩٧٣ بين المقاومة والسلطة اللبناية · وبعد سقوط « تل الزعتر »بادرت « صامد » وفي حدود امكاناتها ، لفتح المشاغل والمعامل ، في الاماكن الجديدة لمهجري تل الزعتر ، مقدمة بذلك خدمة اقتصادية اجتماعية سياسية للمهجرين ، وللثورة الفلسطينية ، في الوقت نفسه ·

كذلك فقد كانت « صامد » الاطار الذي استطاعت الثورة الفلسطينية من خلاله ان تترجم علاقات الاخوة والصداقة والتعاون التي تربطها بالعديد من الدول، وخصوصا بعض الدول العربية والافريقية، والتي هي بأمس الحاجة للمساعدات الفنية ، وخصوصا في القطاع الزراعي·

ونلاحظ اثر المساعدات التي قدمت ، بالعديد من المزارع النموذجية والناجحة التي تديرها « صامد » في السودان ، والصومال واوغندا وغينيا ·

كذلك فقد استفادت « صامد » من علاقات الثورة الفلسطينية بالدول الاشتراكية ، والتي استقبلت العديد من البعثات الفنية الفلسطينية ، التي نظمتها مؤسسة « صامد » ، وقد كان للخبرات التي حصلت عليها تلك البعثات اثر حاسما في زيادة عدد الكوادر الفنية ، وبالتالي زيادة حجم المكننة في معامل المؤسسة ، والتي كان لها اثرها في تحسين وزيادة الانتاج كما ونوعا ·

وعلى هذا الصعيد ، فقد اوكلت لصامد مجمل علاقات الثورة الاقتصادية بالخارج سواء من خلال الاتفاقيات الاقتصادية الموقعة مع العديد من البلدان ، اوالمشاركة في المؤتمرات والمعارض الاقتصادية الدولية ، حيث كانت « صامد »ومنتجاتها تلقى كل اعجاب وتشجيع ·

« صامد » الآن

خلال الفترة القصيرة التي مرت على قيام المؤسسة ، يمكن القول انها قد قطعت شوطا بعيدا في تنفيذ البرنامج الذي وضعته لنفسها على المدى القصير ، لناحية ايجاد مؤسسة ذات هيكل اداري وتنظيمي واضح يصلح كقاعدة للعمل ، وقادر على التطور في ضوء ما افرزته التجربة الماضية من خبرات · وعلى الجانب الثاني فقد امكن تحقيق الشعار الذي رفعته صامد في بداية عملها ،«معمل في كل مخيم » والوعد الذي قطعته على نفسها بتحقيق قدر من الاكتفاء الذاتي للثورة وللشعب الفلسطيني ·

بلغ عدد العاملين في المؤسسة سنة ١٩٧٧ « ١٠٥١ » شخصا منهم « ١٥٧ » في الاقسام الادارية المختلفة من تأهيلية ومالية واعلامية وتسويقية ، في المشاغل والمعامل الصناعية يشتغل « ٥٢٩ » عاملا يتوزعون على « ١٥ » مشغلا ، بمتوسط قدره حوالي ٣٥ عاملا في المشغل الواحد، يختلف عدد العاملين من مشغل لآخر ، حسب طبيعته ، اكبر مشغل ويتخصص في انتاج الملابس ، يعمل فيه « ٨٤ » شخصا ، في حين يبلغ عدد العاملين في مشغل التحف الشرقية خمسة افراد فقط· المشاغل الصناعية تتوزع على المجالات التالية : الخياطة والملبوسات ، البطانيات ، الجلود الاثاث والموبيليا ، البلاستيك ، الحدادة والصيانة ·

تتبع المؤسسة سبعة مشاغل للتطريز يعمل فيها « ٢٣٦ » عاملة ، اكبر المشاغل يستوعب « ١٠٢ » عاملة · يضاف لعدد المتفرغين في مشاغل التطريز التالية للمؤسسة « ١٧٠٠ » سيدة غير متفرغة وتعمل بالقطعة ، ولا يعتبرن من القوة العاملة في « صامد » · واما العاملون في المجال الزراعي فقد بلغ ٢٩ شخصا ، يتوزعون على خمس مزارع تابعة للمؤسسة ·

بين ١٩٧٢ ــ ١٩٧٧ زادت القيمة الاجمالية للمباني والعقارات التابعة للمؤسسة من ٦٣ الف ليرة لبنانية الى

٤١٩ الف ليرة ، وأما العدد والالات فقد ارتفعت قيمة المبالغ الموظفة بها وخلال نفس الفترة من ٤٢ الف ل٠ل٠ الى ٨٥٠ الف ليرة ، كذلك ارتفعت قيمة المبيعات السنوية من ٥٦٧ الف ليرة سنة ١٩٧٣ الى ٦ مليون و ٢٤ الف ليرة سنة ١٩٧٧ ، وارتفعت المشتريات ايضا خلال الفترة نفسها من ٢٢٤ الف ل٠ل الى ٤ مليون ليرة ٠

الاجور والمرتبات التي تدفعها « صامد» كانت تبلغ سنة ١٩٧٣ ، ١٥٢ر٦٨٦ الف ليرة ، ارتفعت الى مليونين و ٧٠٥ آلاف ليرة لبنانية سنة ١٩٧٧ ٠ موزعة كالآتي : ٥٤٢ الف ليرة للعاملين في الادارة ١٦٨٢ر١ مليون ليرة للعاملين في المعامل والمشاغل ، و ٣١٤ الف ليرة للعاملين في الزراعة ، وما تبقى اي ١٥ الف ليرة لبنانية دفعت كأجور للعاملات بالقطعة في مجال التطريز ٠

في محاولة من « صامد » لتحسين قدرتها التنافسية في السوق الداخلي والخارجي ، ولضمان تسويق منتجاتها والحصول على المواد الاولية من مصادرها الرئيسية ، بادرت لانشاء شركة تجارية شبه مستقلة ، مهمتها تنظيم الاتصالات الدولية وعقد صفقات الشراء والبيع ٠

وادراكا من « صامد » لضرورة تطوير قدرتها الادارية والفنية ، ولكي تكون قادرة على انجاز الدراسات الضرورية للدخول في مجال تنفيذ الانشاءات والتجهيزات الكبيرة ، انشأت قسما للدراسات كنواة لعمل اوسع في المستقبل ، وليؤمن للمؤسسة حاجتها من الدراسات المطلوبة، سواء بشأن ما هو قائم الان او ما تخطط لعمله في المستقبل ٠ وفي هذا الاطار تصدر عن « صامد » مجلة شهرية .وهناك تخطيط وطموح بأن تصبح هذه المجلة ، مجلة تتخصص وتعنى بالشؤون الاقتصادية فيما يتعلق بالاقتصاد الفلسطيني داخل وخارج الوطن ٠

يتبع « صامد » قسم للانتاج السينمائي، قدم بعض البدايات الطيبة ، كفيلم « يوم الارض » والذي كان عبارة عن وثيقة تحاول ان تؤرخ وان تقدم الحدث السياسي سينمائيا ، وهو نموذج للعمل المتوخى من قسم السينما، اي خلق سينما ثورية تخدم النضال الفلسطيني ٠

بعد التوسع الذي شهدته المؤسسة وتنوع نشاطاتها كان من الضروري اعادة النظر بهيكلها الاداري ، بالشكل الذي يضمن تخصصا افضل ، فكان ان استحدث منصب نائب مدير المؤسسة ، وبدلا من مجلس تنفيذي واحد، ارتؤي اخيرا اعتماد ثلاثة مجالس تنفيذية ، للانتاج الصناعي وللانتاج الزراعي وثالث للانتاج السينمائي وكل مجلس يضم في عضويته المعنيين مباشرة ، ادارة وانتاجا ٠ ونظمت العلاقة بين هذه المجالس الثلاثة والادارة المركزية للمؤسسة بالشكل الذي يتيح اكبر قدر من التخصص وفي الوقت نفسه الانسجام بين الاقسام المختلفة ٠

ان وظيفة « صامد » في المستقبل ، كما يتصورها المسؤولون عن المؤسسة ، هي تأدية دور القطاع العام الفلسطيني ٠ ان « صامد » ، وهي تتوسع في نشر الورش والمعامل الصناعية الصغيرة في كافة الاماكن التي يتواجد فيها شعبنا ، وعلى الاخص المخيمات تدرك جيدا ان هذه الورش والمعامل هي البدايات الطبيعية والضرورية لقيام صناعة فلسطينية في المستقبل ، لان العنصر البشري المدرب ، هو اكثر العناصر اهمية في العملية الصناعية ٠ وهذا الغرض يتحقق من خلال مزيد من عمليات التأهيل والتدريب والتوسع في استيعاب اليد العاملة في القطاعات الانتاجية ٠

ان التجربة والخبرة التي تعطيها « صامد » للعاملين فيها ، انما هي في النهاية ذخيرة للمستقبل ، وهي مسألة

سياسية بالدرجة الاولى · خصوصـــــا وانها تتقاطع مع هدف اخر لا يقل اهمية ، الا وهو محاولة وقف النزف البشري الذي يتعرض له المخيم الفلسطيني يوميا ،حيث تتزايد الاعداد المهاجرة هنا او هناك بحثا عن فرصة عمل مناسبة ، ستحاول «صامد» ان تؤمنها ، وفي ذلك أسهام لا بأس به في الحفاظ على تجمعات الشعب الفلسطينى وعدم تفتيتها وبعثرتها اكثر ، وهو امـر ينطبق على فلسطينيي الداخل والخـــارج في آن واحد معا · وبالتأكيد فان «صامد» ستكون قادرة على انجاز هدفها هذا فيما لو تمكنت من ان تنفذ وعدا قطعته علـى نفسها بان تكون «معهدا غير تقليدي لاعداد ولتطوير الانسان العامل الفلسطيني » ·

وهي مهمة الجميع ·· وليس مؤسســـــة « صامد » فقط ·

محمد حسنين هيكل :

حديث المبادرة

بيروت شركة المطبوعات
للتوزيع والنشر ، ١٩٧٨

اثارت زيارة السادات لاسرائيل ، كانعطاف حاد وخطير ، في مجرى الصراع العربي - الصهيوني ، ردود افعال قوية ومواقف مختلفة على الصعيدين العربي والمحلي المصري ، وكذلك على الصعيد العالمي . واذ اتسمت مواقف وردود الافعال العربية ، الرسمية منها وغير الرسمية ، بالمراوحة بينمواقف التحفظ والمعارضة « الهادئة » وبين مواقف الرفضوالادانة التامة لتلك الزيارة ، فان المواقف الاخيرة ، تراوحت ، هي الاخرى، بين رفض وادانة الزيارة بحد ذاتها كـ « فعلة شائنة » وكـ « خيانة عظمى » وبين رفض وادانة الزيارة ، باعتبارها الثمرة الطبيعية ، والمحصلة لنهج سياسي كامل ومحدد لكيفية ادارة الصراع العربي - الصهيوني ، وهو نهج له مقوماته وشروطه واسبابه ، التي شكلت ، بدورها، المقدمات والمداخل التي مهدت لزيارة السادات لاسرائيل .

وحول المسالة الاخيرة ، دار ويدور نقاش واسع في صفوف التقدميين والوطنيين العرب ، عقدت من اجلها ندوات حوار ، وكتب بصددها الكثير من المقالات والدراسات ، سواء على صفحات الصحف والمجلات ، او في مؤلفات مستقلة .

لقد ابدى الكثير من قوى حركة التحرر الوطني العربية ، وخاصة المصرية منها رايها بطبيعة نهج وسياسة الانظمة العربية المعنية ، في كيفية ادارة الصراع ومواجهة العدو الصهيوني - الاميركي ، وثبتت آرائها ومواقفها تلك بكتابات ووثائق علنية ، منذ وقت مبكر ، سبق زيارة السادات لاسرائيل بسنوات ، بل ان بعضها يعود الى ما بعد الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ . ولم تضف تطورات الاحداث ومنها الزيارة ، الى تلك الاراء والمواقف جديدا ، سوى التأكيد على مصداقية ما ذهبت اليه سابقا ، في التحذير من ، وفي ادانة كامل نهج وسياسات المساومة و « السلام الاميركي » التي تدير به انظم العربية المعنية الصراع ، والمستند الى اوهام تحقيق « السلام العادل » عبر الولايات المتحدة الاميركية وركائزها العربية في المنطقة ، وعبر ادارة الظهر للاتحاد السوفيتي او معاداته ، وكذلك عبر تقديم المزيد والمزيد من التنازلات ، الى درجة الاستسلام والخضوع لشروط العدو الصهيوني - الاميركي .

واذ تتحدد اهمية تلك المواقف ومصداقيتها ، بانطلاقها من مواقع وطنيه وثابتة في ادانتها المستمرة لكامل النهج والسياسات التي ادت الى الزيارة ، وليس الزيارة فقط ، فان ما يكتسب اهمية استثنائية في وظيفته اكثر من ذلك ، هو رفض ومعارضة الزيارة و « المقدمات والمداخل » التي مهدت لها ، من قبل اوساط من نفس « معسكر الزيارة » و « التسوية الاميركية » ، والتي دفعها الخلاف معه ، بسبب التفاصيل ، وربما لاسباب اخرى ، الى التمايز عن بقية

قوى ذلك « المعسكر » ، وتقدمها لابداء انتقادات هامة لتلك الزيارة ، وللنهج والسياسات التي ادت اليها .

ضمن هذا الاطار يأتي كتاب « حديث المبادرة » لمحمد حسنين هيكل ، الذي صدر في الصيف الماضي في بيروت .

واهمية الكتاب ، لا تأتي من كون صاحبه ، هو من ابرز الصحفيين المصريين والعرب ، الذي يتصف بسعة المعلومات التي توفرها له شبكة علاقاته المحلية والعربية والدولية ، ولا من موقعه القريب ولفترة زمنية طويلة من صانعي القرار السياسي في مصر ، بل ان تلك الاهمية تأتي ، اضافة الى ذلك ، من كون هيكل يعتبر من ابرز واوائل منظري ومروجي الدعوة لـ « تحييد اميركا » والدعوة لـ « السلام الاميركي » ، بل ومن اشد المتحمسين لانتقاد الاتحاد السوفيتي والتشكيك بصداقته للعرب .

ومن هنا يمكن القول ، ان كتاب «حديث المبادرة » هو بمثابة شهادة علنية هامة ، يدلي بها ابرز من روج ودعا لـ « السلام الاميركي » بعد أن « عدل » مواقعه ، لحظة البدء بالتطبيق الفعلي لتلك الدعوات في المنطقة .

ولن يقلل من اهمية الكتاب ـ الشهادة، القول بأن صاحبه لم يتخل بعد عن جوهر نهج وافكار « المعسكر » الذي ينتمي اليه، بل على العكس من ذلك تماما ، فان هذا الرفض والاعتراض على الزيارة ومقدماتها ، وبصرف النظر عن طريقة « الادلاء » بتلك الشهادة ، هو دليل هام على افلاس هذا النهج ومأزقه ، حيث لا يعجز اقرب الناس اليه ، من الدفاع عنه او تبريره فقط ، عندما ينتقل الى الانجاز الفعلي بطريقة لا تتطابق مع الاوهام والتصورات التي افترضوها قبل ذلك ، وانما الانتقال الى مواقع نقده ومعارضة نتائجه .

ماذا في « حديث المبادرة » ؟

يحافظ هيكل في هذا الكتاب على اسلوبه الصحفي المميز بطابعه « الروائي» ويحشد كبير من الاستشهادات المعروفة والتي يمكن العودة اليها والتأكد من صحتها ، اضافة الى استشهادات «خاصة» به ، حصل عليها من شخصيات «مرموقة» أو من جلسات سرية «وصلت اليه» ، وهي ما تحتمل التصديق او عدمه . والكتاب عبارة عن احاديث عن زيارة السادات لاسرائيل التي اصطلح على تسميتها « مبادرة السلام » يفتتحها الكاتب بتمهيد عن « المقدمات والوقائع والنتائج » يليها خمسة احاديث عن « المقدمات والمداخل » والاحداث التي مهدت للمبادرة ، ينتقل بعدها لكتابة خمسة احاديث اخرى لما يسميه «صباح ليلة الفرح » يسرد فيها وقائع واحداث الزيارة ثم يلقي نظرة جديدة على الناحية الاخرى » وهي عبارة عن قراءة في فكر وسياسة القادة الاسرائيليين ، ثم يختتم الكتاب بعدد من الاحاديث عن « الحوار الضائع » التي يعرض من خلالها مأزق المفاوضات المصرية ـ الاسرائيلية وطريقها المسدود !

وفي هذه الاحاديث ، يوجه هيكل نقداً، ليس فقط للمبادرة الساداتية ، « للتصور المصري للسلام » بل وايضا للتصورات العربية الاخرى لـ « السلام » وخاصة « جبهة الصمود والتصدي » . كما وانه يعود ، بنقده للمبادرة ، الى « المقدمات » التاريخية والمداخل الممهدة لها منذ ثورة ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ ، ولازمة الفكر السياسي المصري والعربي خلال تلك المرحلة .

وفي سياق احاديثه يتطرق الى عرض موقف الشعب المصري من المبادرة الذي اصبح « مقبولا وبكل الرضا » (ص ٨٠). الا ان هيكل ، ورغم اعترافه بـدور

الاعلام الساداتي فيخلق الاوهام التـــي تحولت « الى جرعات تخدير يذهب بالوعي وبالعقـل » (ص ٨٥) ، فـأن تفسيـره لظاهرة « القبول والرضا » يستعير فـــي احيان كثيرة ، نفس حجج ذلك الاعلام ، فيصب بالتالي ، في طاحونته ·

اما الموضوعات الابرز في تلك الأحاديث التي تستوجب العرض والتوقف عندهـــا فهي الحديث عن المبادرة ذاتها ، ثم طبيعة رؤية هيكل للموقفين الاميركي والسوفييتي من المبادرة ولدورهما في صراع المنطقة ·

« المبادرة » تستنفد نفسها

بعد ان يعلن هيكل بان « مبادرة السلام قد استنفذت نفسها كأنها « نيزك » تساقط من نجم بعيد » (ص ١٦٤) يؤكد انهـــا « لم تحقق هدفها ، اكثر من ان الموقـــف عاد بعدها – وفي ظرف اسابيع – الى ما كان قبلها ، وهو انتظار الضغط الاميركي على اسرائيل يقنعها بالانسحاب وبحقوق الشعب الفلسطيني » (ص١٦٤) ولذلك فان ما نتج عن المبادرة هو ان « الازمة مـــا زالت على حالها واسوأ » (ص١٦٥) ·

أما على الصعيد الاسرائيلي فهي بمثابـة مكسب كبير لانها في « حد ذاتهـا ابعـد اثرا من اي شيء يلحق بها » (ص ٥٠)·

ولتفسير سبب اعتبار الزيارة مكسبـا كبيرا لاسرائيل ، رغم « فشل » المبادرة ، فأن هيكل ، وبعد رصده ومتابعته لسياسة ونهج الانظمة العربية المعنية – وخاصـــة نظام السادات – ومراقبته وكيفية ادارتها للصراع ، منذ حرب اكتوبر وحتى المبادرة يصل الى استنتاج هام يصيب به قلـــب تلك السياسة وجوهرها فيقول ان « بعض العـــرب ··· يتصورون ان التنـازلات الجزئية هي الطريق الى الحل · والحقيقة ان التنازلات الجزئية ليست طريق الحـل الا على منطق اسرائيل ·· اي ان كـــل تنازل جزئي تحصل عليه اسرائيل معنـاه الاقتراب خطوة من التنازل الكلي ·· » (ص ٩) ·

اقام هيكلاستنتاجه هذا على ركيزتين اساسيتين : اولهما ، مازق نهج السادات وتهافته ،وخاصة منذ حرب اكتوبـــــر وحتى فشل المبادرة · وثانيهما ، التصلب والثبات في الموقف الاسرائيلي ، والاصرار على عدم اعطاء اي تنـــازل جوهـــري للسادات ، رغم التنازلات الكبيرة التـي قدمها · ووصلت ذروتهـــا بزيارتـــه لاسرائيل · وهكذا اصبحت معادلة مازق السياسة المصرية هي : اسفنجة ساداتية في مواجهة الصخرة الاسرائيلية !

لتوضيح ذلك وتفسيره ، يعرض هيكل مطولا طبيعة الموقــــف الساداتي قبـــل المبادرة وبعدها ، وما يقابله من المواقف الاسرائيلية · فمنذ اتفاقيات « الفصل بين القوات » التي عقدت بعد حرب اكتوبـــر على الجبهات العربية « كان العرب قـــد اعطوا وقدموا من الدلائل والتاكيـــدات والتنازلات ما لم يخطر على بال احـد ، حتى راسمي السياسة الاميركية في اكثر احلامهم جموحا وغرقا في الخيال » (ص ٢٦١) · واكثر من ذلك ، فأن هيكـــل يتساءل « ما الذي اخذه العرب في مقابـل كل ما اعطوه للولايات المتحدة ولاسرائيل وهو هائل هائل ··· هائل الى غيـــــر حدود ؟! » (ص ٢٧٠) ·

وتعني سياسة التنازلات هـــذه ، ان اسرائيل تحول ما تأخذه الى « حقائـــق سياسية » تزيد من تصلبها ، وتمنحهـــا القدرة على تحويل ذلك مجددا ، الـــى عوامل قوة اضافية ، تستخدمها فــــي الفترات اللاحقة من الصراع ·· وهكذا !

وبهذه السياسة الساداتيـــة تحقـــق « الهدف الاميركي باخراج مصر مـــن الصراع » (ص ١٧٥) وانتزع « سـلاح الرفض المصري » (ص ٢٣٤) ثم راحت

تلك السياسة تسير « بغيـــــر بوصلة » (ص ٧٥) ٠

وبالتعاكس مع ذلك تماما ، وبمواجهته، يتصرف قادة العدو الاسرائيلي : المزيـد من الثبات والتصلب في مواقعهم والمزيـد مـــن الغطرسة : ففي صراع الشـرق الاوسط : كما يقول مناحيم بيغن ــ هناك « ورقة واحدة رابحة ، وهذه الورقة هي الارض المحتلة ، وهذه الورقة في يدنـــا ولن نتركها لغيرنا الا على شروطنا » (ص ١٧٨) وليس امام العرب وسيلة ــ يضيف بيغن ــ « غير التوجه الى اسرائيل مباشرة وقبول ما نعرض عليهم » (ص ١٨٩) ٠ أما اذا ذهب العرب الى اسرائيل ، كما ذهب السادات ، فان بيغن يسخر بشكـل مهين من ذلك في جلسة عمل مغلقة مـــع « مجموعة الرؤساء اليهود في الولايـات المتحدة » حيث قال « كان مجيئه ــ السادات ــ بالنسبة لي انه نظر في شروطنـــــا فأعجبته ، ومن ناحيتي فقد اعجبني ان شروطنا اعجبته » (ص ١٩٠) ٠

ان المقارنة المطولة التي يجريها هيكل بين منطق ونهج السادات ، وبين منطـــق ونهج اسرائيل وقادتها ، هي التي دعتـه الى التأشير على الانحطاط والانحدار فـي السياسة المصرية منذ حرب اكتوبر حتـى الآن ، والتي كانت المبادرة فيها محطـــة « كشفت عربيا ٠٠ كشفت الافكار ٠٠كشفت المواقف ٠٠ وكشفت القدرات » (ص ٦) ، وهي التي جعلته ايضا يتساءل ، امـــام الدنيا كلها ، مندهشا « هل هناك فـــي الدنيا من يقبل بالتعامل على اساس السلام مع دولة لا تعرف حدودها ولا نعرف مـــن هو شعبهـا » (ص ٢٨٧) ٠

لقد بدا هيكل وهو يعرض سياســـــــة السادات والمبادرة التي نتجت عنها ،وكانه يستعير منطقه والفاظه ممن كان يعارضهم من الوطنيين والتقدميين العرب والمصريين الا انه عندما يتطرق الى قضايا اخرى في احاديثه ، يبدو وكأن قوة الجذب لمعسكره ومواقفه القديمة ، كانت اقوى من قدرته في التمرد عليهـا ٠

المبادرة والدور الاميركي في الصراع

في تناوله للدور الاميركي والسياســة الاميركية في المنطقة ، يتخذ هيكل موقعين في النظرة اليهما : الاول ، استخدام مـا يراه من « سلبيات » لتوجيه المزيد من النقد والادانة لسياســــة السادات ومبادرته ٠ الثاني ، العودة للترويج للدور الاميركي في الصراع ، لـ « اقتناعه » بامكانيـــة توجيه « الضغط » على اسرائيل ٠

من الموقع الاول ، يرى هيكل ان هدف عزل مصر واخراجها من الصراع هـــو هدف اميركي واسرائيلي ترافق مع بداية الصراع في المنطقة ،وقـــد استطـــاع « كيسنجر » ان يصيغ للادارة الاميركيـة خطورة وحيوية هذه المسألة على الشكــل التالي : اذا ظلت مصر فكرة وتيـــارا وحركة تاريخية ، فانه سيكون في حاجـة اليها لحل ازمة الشرق الاوسـط ، واذا استطاع ان يحول مصر الى حدود ــوتعداد سكان ٠٠٠ فان مصر هي التي ستكون في حاجة اليه لحل ازمة الشرق الاوسـط » (ص ١٧٥) لذلك فان الكل يـــرى « ان اخراج مصر من حلبة صراع الشـــرق الاوسط يغير موازينه » (ص ١٧٧) ٠ ومن هنا فان ادراك القيادة الناصريـــة لهذه الحقيقة ، حال دون تحقيقها ٠

وحينما كان هيكل ، يسهب ويفصل في « المقدمات والمداخل » التاريخية للمبادرة، ويبرز ايجابيات السياسة الناصرية ــوذلك في معرض رده علىمنتقديها ــ وقـــف متسائلا « اليس استبعاد التوازن الدولي في المنطقة يؤدي الى بعض ما نرى فـــي المنطقة الان ، كمسرح مستباح للنفـــوذ

الاميركي ؟٠٠ اليس استبعاد السلاح السوفيتي في المنطقة يؤدي الى بعض ما نرى اليوم من استبعاد السلاح اساسا كعنصر من عناصر الحل لما نسميه ازمة الشرق الاوسط ؟ » (ص ٦١) ٠ ومن الموقع الآخر ، الذي يتناول فيه الدور الاميركي في صراع المنطقة ، يحاول ان يلقي باللوم والمسؤولية على السادات وحده مبرئا السياسة الاميركية من ذلك ، فرغم انكشاف الدور الاميركي في تشجيع السادات « وترتيب » زيارته الى اسرائيل فان هيكل يعتقد بأن « الولايات المتحدة فوجئت ولم تفاجأ في الوقت ذاته بزيارة القدس » (ص ١١٩) ٠ بل ان « الرئيس كارتر كان يشعر بقلق ، لان العملية على النحو الذي تمت به سوف تؤدي الى استبعاد دور سورية والى تعقيد المشكلة الفلسطينية باكثر مما هي معقدة » (ص ٥٠) ٠

ورغم ان هيكل نشر في كتابه نصوص الاتفاقيات التي عقدت بين الولايات المتحدة واسرائيل ـ كشرط اسرائيلي لتوقيع اتفاقية سيناء ـ والتي تظهر بوضوح التطابق في مصالح البلدين ، والتعهدات الاميركية بالدعم والاسناد الكاملين لاسرائيل ، فأنه رغما عن ذلك ، يعلن صراحة « انني واحد من الذين يعتقدون ان الولايات المتحدة تستطيع ان تمارس بعض الضغط على اسرائيل ٠ ولكن الضغط لا يتحرك وحده ومن تلقاء نفسه ، وانما هو يتحرك بفعل ضغوط اخرى عليه هو نفسه ، وهذه الضغوط مصدرها عربي ودولي » (ص ٢٠٧) ٠ وكذلك فان « اهتمام السعودية بالصراع العربي الاسرائيلي هو الذي يؤدي الى ادخال عنصر الضغط الاميركي على اسرائيل » (ص ٢١٧) ٠

وهنا يطفو على السطح ، الخلل الكبير والتهافت في منطق هيكل حول « الضغط الاميركي » و « الدور السعودي » بذلك ٠ فاذا كان هذا الضغط قد توقف بسبب المبادرة التي صمتت ازاءها «دول الصمت» كما يقول هيكل نفسه ، فلماذا لا يتحدث عن عدم وقوع هذا الضغط قبل المبادرة ؟ بل طيلة الفترة التي استلم السادات بها السلطة في مصر وخاصة بعد حرب تشرين ؟ واذا كان الاعتراض هنا على فقدان عناصر الضغط العربية والدولية وفقدان التوازن ، بسبب تفريط السادات بها ، فلماذا لم يتحقق هذا الضغط ابان فترة حكم عبد الناصر ؟ والا فما هي الشروط التي يفترضها هيكل للدور الاميركي وضغوطه ؟ لقد اجاب السادات على ذلك قبل هيكل ، فتوجه الى القدس ٠ ولما خابت آماله هناك ، عاد ليمارس لعبة الوهم مجددا ، بانتظار الضغط الاميركي !

هيكل والموقف السوفييتي

في الفصل الذي خصصه هيكل في كتابه للحديث عن موقف الاتحاد السوفييتي من المبادرة وعن دوره في صراع المنطقة، يتغافل عما اعترف به في اكثر من مكان من احاديثه ، عن اهمية السلاح السوفييتي ، وعن التوازن الدولي في المنطقة الذي يسببه وجود الاتحاد السوفييتي فيها ومنذ البدء وضع لحديثه عنوانا مثيرا اسماه « الاتحاد السوفييتي افكاره ومشاعره » ، خلاصته « ان الاتحاد السوفييتي كان يشعر بالمرارة في حلقة وعلى طرف لسانه » (ص ١٣٣) ٠ وسبب ذلك يعود الى انه ، بمبادرة السادات «واجه » نكسة سياسية محققة في الشرق الاوسط » (ص ١٤٢) ، حيث « اضاع الهيبة فضلا عن ضياع الرصيد ٠٠ وفوجىء بالتطورات الاخيرة ولم يملك غير متابعتها بشعور بالبلاهة لا يستطيع مداراة تعبيره عن وجهه » (ص ١٤٤)٠ ورغم ذلك فان هيكل يرى ، ان الفهم

المستجد للصراع العربي الاسرائيلي ، لم يمنع الاتحاد السوفييتي من « تقديم اقتراحات لا تختلف كثيرا عن مضمون زيارة القدس » (ص ١٣٥) ثم يضيف « لا اظن ان الاتحاد السوفييتي خائف من نجاح في الشرق الاوسط لا يشترك في صنعه » (ص ١٤٢) ٠

هذا العرض « الكاريكاتوري » لموقف السوفييت ، الواضح في تناقضاته ، لم يتعمد هيكل عدم ذكر اية كلمة فيه عن حقيقة وجوهر موقف الاتحاد السوفييتي وسياسته من الصراع في المنطقة ، والتي تنشر ويؤكد عليها باستمرار ، بل انه تحدث عنه بشماتة قبلية . فقد فيها « رصانته » ، ثم راح يحمله قسطا متساويا من المسؤولية فيما يجري : « ان الاتحاد السوفييتي مسؤول عما حدث مسؤولية الآخرين ، فقد كانت له اخطاؤه القاتلة وكان له اسلوبه الغليظ بالكلمات والتصرفات » (ص ١٤٤) ٠

والمفارقة هنا ، ان هيكل الذي كان يشير في احاديثه الاخرى وهو ينتقد سياسة السادات ، الى هدف اميركا بابعاد السوفيات من مصر والمنطقة ، بل ووضعه هذا الهدف في رأس قائمة تعداد التنازلات « الهائلة » التي قدمها السادات ، فانه هنا ، يقوم باعادة الاعتبار للموقف الاميركي بالنسبة للموقف من الاتحاد السوفييتي فيقول « كانت الولايات المتحدة تعتذر لنفسها بأنها تريد دوره (اي الاتحاد السوفييتي) لكن اصدقاءه العرب هم الذين لا يريدون (؟) ٠٠وخرج بعض العرب لمطاردته خارج حدود الاقليم العربي وكأنهم موكلون بمطاردته حيث يكون ، وكأنها حرب صليبية ضده » (ص ١٤٤) ٠

هكذا يبدو هيكل مرة اخرى ، شديد الارتباك والتخبط ، بل وتعمد السذاجة ، والا فما هي مصلحة السادات المباشرة ، في معاداة السوفيات وابعادهم عن مصر ،دون اشتراط ذلك والالحاح عليه من قبل الولايات المتحدة ، حيث تضعه في رأس اهدافها في المنطقة ؟

ماذا اراد هيكل ان يقول في احاديثه ؟

اذا ما استثنينا الوظيفة الهامة التي تؤديها انتقادات ومعارضة هيكل للمبادرة ولنهج السادات وسياسته ، فان مواقفه الاخرى من اميركا والاتحاد السوفييتي ودول « الصمود والتصدي » ، تؤدي وظيفة معاكسة لذلك تماما ٠ فهل اراد هيكل ان « يوازن »في مواقفه ام انه اعتبر ما تحدث فيه برنامجا صالحا للعمل وادارة الصراع ؟

في الصفحات الاخيرة من كتابه قال « ان سنة او سنتين هي فترة كافية لتغيير اوضاع العالم العربي ، ولخلق موازين جديدة فيه » (ص ٢١٠) ٠ بيد ان هيكل الذي كشفت له المبادرة ،المواقف والافكار والقدرات ، اوصلته الى الاستنتاج بأن « القوة العربية على فرض وجود الكفاية فيها لا تستطيع ان تفرض السلام لانها لا تعرف اي سلام تريد » (ص ٢٧٨) ، ذلك لان الاختلاف كبير بين « القيم السائدة » ، ومراحل التطور والمواريث والحضارة ، خاصة وان اسرائيل « تملك قرابة عشرين قنبلة نووية » (ص ٢٨٧) ٠

ربما لم يكن هيكل يرمي الى تصوير « الطريق المسدود » ، ولا الى رسم افاق سوداء ، لمستقبل الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، الا انه عرض افكاره « بامانة » وعلى الاخرين ان يفكروا ! لكن الحقيقة غير ذلك ٠ وهذه الحقيقة تكمن في جوهر المنهج الفكري والسايسي لهيكل ومدرسته ٠ فهو اذ ينتقد مبادرة السادات ونهجه وسياسته ، لا يستطيع او لا يريد ان يرى النهج والسياسة الاخرى ذات الطابع الوطني والديمقراطي ، والتي لا تمثلها النظم العربية القائمة بالضرورة ٠

فالنهج النقيض هو السياسة الوطنية الصلبة التي تربط صراعها ضد اسرائيل بحليفها الاساسي الولايات المتحدة الاميركية ، وكذلك ركائزها في المنطقة العربية . السياسةالوطنية التي تقيم تحالفا قويا واستراتيجيا مع حلفائها واصدقائها في العالم وخاصة الاتحاد السوفييتي ، وتستخدم كل اشكال النضال الفاعلة ،بما فيها المواجهة المسلحة النظامية والشعبية ، والتي تمثل المقاومة الفلسطينية المسلحة نموذجا لها .

وهذا الذي لا يستطيع ان يقوله هيكل لاسباب عديدة ، كان قد اكد عليه باحاديثه ، وبشكل غير مباشر ، حين اكد على انحدار وانحطاط نهج السادات ، كنموذج للسياسة العربية السائدة ،وهكذا فاننا بهذا التاكيد ، وبتلك «الشهادة » في مبادرة السادات ، نستطيع ان نرى الوجه الآخر لكتابه « حديث المبادرة » !!

حليم احمد

صادق العظم :

زيـارة السادات وبؤس السلام العادل .

بيروت دار الطليعة ، ١٩٧٨

قبل زيارة السادات الى اسرائيل ، اصدر ـ صادق جلال العظم ـ كتابه « سياسة كارتر ومنظرو الحقبة السعودية» حاول فيه اعطاء وجهة نظر مخالفة ،لتلك التي راح يروج لها ، دعاة « الحقبة » ، فيما يخص السياسة الاميركيةفي منطقتنا. ولم يخرج في حينه ـ وكالعادة ـ عن حدود واطار المساجلة . وفي الوقت الذي كان قد عمد فيه الى كشف ابعاد «النظرية» التي يقف ضدها ، ظل يتعثر واصابه العجز عن اعطاء ملامح متكاملة ، لنظريته او لنظرته . ولعله كان قد احس بالنقص الذي عانت منه محاولته الاولى . والدليل ما يفعله هنا في كتابه الجديد « زيارة السادات ، وبؤس السلام العادل » .

فالزيارة ، وما حدث بعدها من ردود فعل ومواقف ، وما اثارته من تصورات واحاط بها من تحليلات . اضافت ـ على ما يبدو ـ معطيات جديدة كانت غائبة ، اوضحت جوانب جديدة من الصراع الدائر في المنطقة ، ومن وجهة الاحداث ، واتجاهها ، في الوقت ذاته عملت هذه « الزيارة » كحدث خطير ، وفريد من نوعه ، على اظهار مواقف كافة القوى على السطح . فبقدر عنف الخطوة التي اقدم عليها ممثل النظام المصري ، وبقدر « سفورها » اتجهت ردة الفعل المضادة في الاتجاه المعاكس لتكشف عن كل مخزونها ، ومدخراتها ، وما عندها .

اما العظم ، واذ يضع نفسه في موقع « المقتنص » للكل ، ويذهب من هنا للعب لعبته ، فانه لا يسلم هو الاخر من قانون « الحدث » بل يقع ضمن اسره ليبادر من جهته لاطلاق كل ما في جعبته . وليجد نفسه مضطرا لدخول الميدان بمنطق ، وتوجه ، من قرر خوض معركة فاصلة .

وانطلاقا من نفس الفكرة التي انطلق منها في كتابه الاول ، والقائلة : ان ما جرى ويجري من ترد في اوضاع حركة التحرر العربية ، هو نتيجة لصيرورة طويلة ، يعمد هنا الى تحليل حدث « زيارة السادات الى اسرائيل » . في حين يأخذ هذه المرة وجهة التدليل بالملموس على واقع « التردي » في هذه الحركة وفي الواقع العربي عموما . فيعمد الى تقصي

مواقف القوى الممثلة لهذه الحركة ـ او بعضها ـ من « الزيارة » والكيفية التي واجهتها بها ، محاولا بذلك ملاحقة جذور حالة العجز وخلفيته ، عبر مناقشة ومساجلة شملت ، العديد من القوى الوطنية ، والحركات ، والكتاب والمفكرين الوطنيين ، والانظمة ـ خاصة منها تلك التي سعت لـ « الصمود والتصدي » للخطوة الساداتية ٠

واذ يعمد « العظم » الى اجراء جردة في المقالات ، والبيانات ، والتصريحات الصادرة عن الاحزاب والقوى ، والمؤتمرات ، والقادة السياسيين ، فانه يفعل ذلك من خلال موشور يحدد اطيافه مسبقا بالتالي :

١ ـ ان مواقف هذه القوى قد انطلقت من محاكمة خطوة « السادات » باعتبارها « نوعا من الشذوذ الشخصي الفاجيءعن الخط الوطني السليم ، او نوعا من الارتكاب الفردي لخطيئة قومية بحق الامة تستدعي الادانة الاخلاقية لشخصه والتنديد الادبي والوطني ـ الخطابي في مجمله ـ بقراره ـ ص ٧ ـ ٨ » وان كل ما صدر عن هذه القوى ظل دون المطلوب الذي يحدده الكاتب قائلا « ذكرت اكثر من مرة انه عند القيام باية محاولة مهما كانت اولية ومتواضعة ـ لتقديم تحليل يتصف بشيء من الجدية لزيارة السادات الاسرائيلية ، لا بد من العودة بها الى خلفيتها التاريخية والسياسية ، او بتحديد اكبر لا بد من ارجاعها الى الاتجاه العام الذي سيطر تدريجيا وتصاعديا على تلك الخلفية وحدد بصورة متعاظمة ، ملامحها الرئيسية ، توجهاتها الحاسمة ـ ص ١٦ ـ ١٧ » وهو يرى ان هذه الخلفية قائمة في « الهزيمة العسكرية والسياسية الكبيرة التي لحقت بحركة التحرر العربي وقواها وانظمتها في حزيران ١٩٦٧ ، ونما بفضل جملة الانهيارات الوطنية التراجعات التحررية التي جاءت متتابعة في اعقاب الهزيمة ونتيجة لفعلها التفجيري ٠ كما استمد الاتجاه المذكور مقدارا كبيرا من القوة والحيوية نتيجة انفضاح مسؤولية حركة التحرّر العربي بقياداتها وتنظيماتها، وانظمتها عن تراكم العفن وتزايد عوامل الانحلال والتفكك ليس في جسمها وجسم مؤسساتها وجيوشها فحسب ، بل جسم الامة المنخور اصلا ـ ص ١٧ ـ »٠

٢ ـ بعد هذا التحديد لجذور « خطوة السادات » التي ترفض الادانة الشخصية لتلقي اللوم على حركة التحرر وعلى « جسم الامة المنخور اصلا » مع كل ما يتضمنه هذا الرأي من « قدرية » يرفضها العظم ويعاديها ٠ ينطلق الكاتب الى تأكيد رأيه منطلقا من اعتبار كل ما هو قائم على جبهة قوى التحرر ٠ وليدا مريضا لجسم منخور ومريض وبعد ان يوكد بان الردة قد انتصرت وعهد الثورة ولى يؤكد جازما « ان جميع المحاولات التي برزت خلال السنوات العشر الماضية للتصدي لهذا التيار الجارف وتطويق مضاعفاته السلبية والتخفيف من الآثار المدمرة للانهيارات الوطنية والتحررية التي تلازمت مع صعوده قد اخفقت ـ ص ١٨ » ثم ان هذه المحاولات « لم تكن سوى عقبات صغيرة ومعيقات مؤقتة ما لبث ان جرفها التيار اليميني ـ الامريكي الصاعد عربيا وازاحها من طريقه بدون كبير عناء وبدون دفع ثمن يذكر او تكبد اية خسائر مهمة ـ ص ١٩ » ، وهو لا ينسى هنا ان يذكر ايضا « القوى العربية الوطنية والتحررية والثورية ان تعترف بشجاعة ان هذا الاتجاه السياسي اليميني ـ الامريكي الصاعد عربيا (بقيادة تحالفات طبقية محلية واقليمية مسيطرة تقف على رأسها بورجوازيات الكومبرادور والبترو دولار) قد تحول تدريجيا وعلى امتداد السنوات العشر الاخيرة الى تيار جارف ـ ص ١٨»

ولا يعني هذا التذكير ان الكاتب يتخلى عن اعتقاده بوقوع قوى حركة التحرر تحت طائلة وتأثير « التيار الجارف » المضاد ، الامر الذي يدعونا للتساؤل عن هوية تلك

القوى التحررية والثورية « الفتية » التي يذهبلتذكيرها . يؤكد ذلك سعيه اللاحق لاثبات رأيه ، مطبقا على (منظمة التحرير الفلسطينية ـ الحركة الوطنية اللبنانية ، منظمة العمل الشيوعي ـ الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين . عدا عن قوى جبهة الصمود والتصدي ، ومنظمات فلسطينية اخرى ...) يجعل منها هدفا لاثبات واقعة سقوط هذه الحركة في حبائل المرحلة السوداء الحالية ، وتيار الردة الجارف .

٢ ـ ينطلق في محاكمته هذه من اتجاهه للربط ما بين مساعي الحل السلمي السابقة على زيارة السادات ، ومواقف هذه القوى منه ومن مشروع « الدولة الفلسطينية » وكيف اصبحت مطلبا « وطنيا » بعد ان كانت « مؤامرة امريكية » . واذ يلاحق السلسلة حلقة حلقة ، باتجاه الانهيار فانه يعيد الى الذاكرة تباين المواقف ، وتراجعها ، لا على صعيد الانظمة وحسب ، بل على صعيد حركة المقاومة وفصائل حركة التحرر الوطني ايضا .

ذلك هو جوهر ما يريد « صادق العظم» ان يقوله في كتابه هذا . ان حالة التردي عامة وان ليس ثمة امل في شيء . وان الموقف من زيارة السادات اسطع دليل ، بدلالة واقعة موقف كافة القوى من هذه الزيارة . واخيرا فان « الرافضين » لها ليس لهم حق الرفض ، لانهم جزء من العوامل العميقة التي ادت اليها ، وانها « فعل امة منخورة » . لا فعل فرد او نظام .

وعلى العموم فان مثل هذا الرأي قد يطرح ، وقد يكون له صدى ، كما ان احساسا بواقع الهزيمة وضخامتها قد يكون قائما وبعمق وسعة في اوساط عديدة من الجماهير وبين مناضلين ومثقفين تقدميين ، يلتقون مع العظم في تشخيصه « للحالة » والجهر بها . ولكن الكثيرينمن هؤلاء وحتى في اوساط تلك القوى التي يجعل العظم منها هدفا لنقده وهجومه . قد لا يلتقون معه في النتائج التي يصل اليها والايحاءات والحلول التي يطرحها .

واذ يذهب العظم الى اسقاط معظم الفكر والممارسة السياسية التحررية العربية ، فانه يضع نفسه بذلك امام واجب هو شرط لاعطائه حق الاسقاط هذا ـ ذلك هو واجب عدم الاسهام في تعميق حالة التدهور والانحطاط . وهذا بالضبط ما تؤديه اية محاولة شبيهة بمحاولاته لا تعطي الحلول . ولا تشخص العلل بدقة . ولا تمتاز تبعا لذلك بالجدية والعمق والشمول اللازم والضروري في حالة كهذه . ان حالة التردي يجري الشعور بها عادة من قبل الجماهير مثل حالة الصعود . والدليل على ذلك الموقف الذي تعبر عنه هذه الجماهير في مرحلتنا . والمهم ليس عكس هذا الاحساس وتعميمه بحالته الفجة ، بل بلورته وتعميقه ، ونقله من مملكة الحس الى مملكة الادراك ، لا العمل على تشويهه وحرف مسار تطوره الطبيعي والحتمي .

فهل عمل العظم على الارتفاع بهذا الحس ؟ هل سعى الى اغنائه ؟ هل نقله خطوة الى الامام ؟ . علينا لكي نجيب على هذا السؤال ان نلاحق الكاتب محاولين استقصاء ما اضافه، نظريا، لهذا الحس عدا عن دعوته الى ضرورة اصلال النهج العلمي في دراسة خطوة السادات ونظامه ، باعتباره وليدا طبيعيا لما سبقه وابنه الشرعي ـ وهذا ليس انجازا لا يعرفه احد ـ نعم لقد حاول ان يعطي تحليلا لطبيعة « الانظمة العسكرية ذات المنشأ البرجوازي الصغير » (١) . لم يتميز بأية ميزة عن العديد من التحليلات التي رأت منذ سنوات بعيدة ان هذه الانظمة عاجزة عن السير قدما في طريق الثورة ، وانها تحمل في احشائها عناصر

---

(١) ترد هذه المحاولة في ما لا يزيد على صفحة واحدة من الكتاب (ص ٤٤ ـ ٤٥) .

الارتداد – الذي يرى العظم ان السادات خرج منها – وحاول ان يرى وضع المقاومة الفلسطينية من منطلق « ان العجز في مواجهة حملات التطويق والابادة المتنوعة الاشكال والمستويات التي شنها اليمين العربي – بدعم اسرائيلي ضمني وغير مباشر احيانا ، وبتدخل اسرائيلي عسكري مكشوف ومباشر ومتمم في احيان اخرى – هي المسؤولة عن انتقال الثورة الفلسطينية من الدعوة لتحقيق اهدافها الوطنية عن طريق حرب التحرير الشعبية الطويلة الامد الى الدعوة لتحقيق اهداف اخرى مختزلة عن طريق احلال « السلام العادل والدائم والمشرف » – ص ٤٩ » • ولسنا ندري كيف تخلى العظم هنا عن موضوعه « الامة المنخورة » ؟ لماذا يا ترى لا يعيد الى هذا السبب حالة المقاومة الفلسطينية ما دام قد اقره وتبناه من البداية ، ام انه يرى الشعب الفلسطيني ، ليس من هذه الامة ؟•

لقد حاول في موضع اخر الرد على دعاوى ضغوط « اللوبي » الصهيوني على الادارة الامريكية معتبرا اياها ترددا لصدى ما تشيعه الاوساط الاعلامية الامريكية • ويعود لتفنيد الوهم الشائع حول امكانية الضغط والتأثير التي يملكها العرب من خلال « البترول » على امريكا ، مؤكدا « غياب اية سيطرة حقيقية تمارسها التحالفات الطبقية العربية الحاكمة ، الموالية كليا للولايات المتحدة والملتحمة مصلحيا معها ، على قوة الاموال العربية والبترول العربي – ١٢٣ » وهو يسعى طويلا لكي يثبت هذه الحقيقة • ثم يعود محاولا الكشف عن طبيعة السياسة الامريكية متهما العقل العربي بعدم القدرة على استيعابها « يبدو لي ان العقل السياسي العربي ، بشكل عام ، يجد صعوبة « بنيوية » – هنا يعود الى العلة الاصلية من جديد – في استيعاب سياسة ديناميكية مائعة وملتبسة كهذه – ص ١٤٣» في حين يكشف لنا عن طريقته هو في فهم واستيعاب هذه السياسة « بشكل هذا الخيط الثابت في السياسة الامريكية جزءا اساسيا من استراتيجية عامة تعمل ليس على فرض الترتيبات اللازمة في « الشرق الاوسط » بهدف تسوية الصراع العربي الاسرائيلي بصورة نهائية ومتوازنة نوعا ما ، بل تعمل على احتواء هذا الوضع المتفجر والتحكم بمجرياته قدر الامكان وتهدئته حين تستدعي المصلحة ذلك ، حتى يتحقق الهدف الاستسلامي المشار اليه اعلاه ، وتتطلب عملية التهدئة المذكورة ابقاء التوتر الذي يولده الصراع تلقائيا في مستوى ملائم من الارتفاع او الانخفاض بما يتناسب مع متطلبات عملية تنفيذ السياسة الامريكية في السيطرة على منطقتنا ويخدم الحاجات العملية لتلك السياسة • انها استراتيجية برغماتية مرنة قابلة للتكيف مع الظروف الطارئة والتلاؤم مع تقلبات الاحداث المستجدة ، والاهم من ذلك انها اثبتت عن نجاح باهر خلال السنوات العشر الماضية – ص ١٤٠ » وهذا على اية حال رأي ، قد يحمل بعض الصحة يأخذ فيه العظم دليلا ومقياسا لتفسير المواقف الامريكية من القضايا العربية ، وللتدليل على « قصور العقل السياسي العربي » في مواجهتها •

وهو يلخص اخيرا اراءه قائلا « اكدت في مطلع هذه الدراسة ان انتقال الوطن العربي من « المرحلة الناصرية » الى مرحلة « الحقبة السعودية » عبر هزيمة حزيران ١٩٦٧ وبفعلها (وليس عبر وفاة عبد الناصر او بفعلها) انطوى على قيام التيار اليميني – الرجعي – الامريكي الصاعد عربيا بتدمير جميع الضوابط الوطنية والكوابح التقدمية التي كانت حركة التحرر العربي قد ارستها بالنسبة لاي تعامل مع العدو الاسرائيلي والامبريالي في المنطقة • من ضمن هذا السياق يمكننا القول ان زيارة السادات شكلت دلالة كبيرة وهامة على انتهاء التيار اليميني الرجعي من عملية التدمير المذكورة ، بعد ان حقق اهدافه منها ، وعلى انجازه الناجح لمهمات احكام سيطرته

السياسية (بعد سيطرته الاقتصادية) على الحياة العربية ومقدراتها ، كما شكلت الزيارة دلالة على طبيعة المستقبل الذي تعمل القوى الممثلة لهذا التيار على صنعه للوطن العربي عموما — ص ٢٣٢ » ٠

هذه هي بوجه عام التصورات الرئيسية التي يتضمنها كتاب العظم عن السياسة الامريكية وعن الواقع السياسي العربي ٠ ولنتساءل الان ، هل يتناسب حجم هذه الاستخلاصات والاراء مع حجم النقد الموجه للواقع العربي ولواقع حركة التحرر العربية ؟ ٠

سنعمد للاجابة على هذا السؤال ، الى تسجيل ملاحظاتنا ، من دون الدخول في الجزم والقطعية التي اتبعها الكاتب في عرض تحليلاته وارائه ٠ وعلى العموم فان منهج صادق العظم وموقفه ، يحتاج الى تقييم — ولو اولي — وذلك واجب من الواجبات التي تفترضها المرحلة ، كما صورها العظم في كتابه ٠ ويستلزم ذلك — على ما نرى — اجمال ملاحظاتنا في النقاط التالية :

١ — ان « صادق جلال العظم » ابتداء من كتابه الشهير (النقد الذاتي بعد الهزيمة) وفي مجمل كتاباته اللاحقة ظل يتبع منهجا نقديا ، يتميز بالجذرية الشاملة ٠ والتي تصل الى حد التجريد ، المميز لموقف « المثقفين » من هواة النقد ، وطلاب الكمال المطلق في كل عمل ، هذا مع اختلاف كون كتابات « العظم » تتحلى بالذكاء والجدية التي يكشف عنها ما تتضمنه هذه الكتابات من ادلة على الجهد

غير ان هذا كله لم يمنع هذه الكتابات من ان تنتهي الى القول : بأن ثمة تخلف وعجز « بنيوي » وتاريخي ، عجز في الوعي وفي تركيبه ، يتجلى في الملمات والمواقف الحاسمة والصعبة منعكسا على السلوك والموقف السياسي في الوطن العربي ٠ واذا كان هذا الحكم قد تركز على الانظمة العربية في « النقد الذاتي بعد الهزيمة » بصورة اساسية — وان لم تسلم البنية بمجملها من النقد — وتركز على تيار معين ومحدد في « سياسة كارتر ومنظرو الحقبة السعودية » فانه يعود ليتخذ صفة الاطلاق في هذا الكتاب ٠ ان اقوالا مثل « جسم الامة المنخور اصلا » وان العقل السياسي العربي « يجد صعوبة « بنيوية » في استيعاب سياسة ديناميكية مائعة وملتبسة كهذه » برغم انها ترد عرضا ، وما بين السطور ، فانها تمثل في الواقع ، الخلفية التي تحكم موقف الكاتب ،وتحدد زاوية نظره ٠

٢ — وليس هنالك من ينكر بحال ، اهمية وضرورة مثل هذا الاتجاه ، في معالجة قضايانا الملحة والراهنة ٠ على العكس من ذلك ، فان مثل هذا المنهج في النظر والتحليل ، مفيد من حيث اثره في تعميق الوعي بالاحداث ، وبالاتجاهات السائدة والمتصارعة في الواقع العربي ، انه يظل عندما يطرح بالطريقة التي يطرحه بها « العظم » محصورا في اطار الحس ٠ وعلى الاغلب فانه يؤدي الى تعميق نزعة الاستنكاف والعزوف عن المبادرة ، وذلك بسبب من افتقار هذا المنهج الى الاهتمام بالاسباب العميقة ، افتقاره الى اية محاولة للبحث في مصادر العجز البنيوي ، والمرض اللاصق بجسم وعقل الامة ، من اين اتى ، وهل ثمة علاج له ام لا ؟ ٠ ان العظم يختار دائما النتائج ليسلط عليها هجومه ، في حين يترك الاسباب وراءه محولا اياها الى « شتيمة » قدرية تنتهي في اغلب الاحيان لتترجم بصيغة : هذه هي النتائج سوداء كما ترون وذلك ليس بالامر المستغرب « فالجسم منخور اصلا » والعقل معطل وعاجز « بنيويا » ٠

وبفعل وقوع « العظم » تحت اسر هذا المنهج فانه لا يسلم في اغلب الاحيان من الخطأ ومن استسهال اعطاء الاحكام القاطعة ، والمطلقة ، واخيرا فهو يبتعد عن الديالكتيك ، وينحو غالبا الى التجريد والميكانيكية ٠ ان النظرة الديالكتيكية

تستوجب اخذ الظواهر بكل عناصرها ومكوناتها لا قطعها عن مسار صيرورتها او اجتزاء هذا المسار ٠

٣ ـ ولن ينفي هذا التقدير الذي عرضناه حول منهج العظم بوجه عام ، وحول منهجه الذي اتبعه في كتابه « زيارة السادات وبؤس السلام العادل » كما سبق وقلنا ، اهمية بعض الافكار الواردة في كتابه الاخير وفي مجمل كتاباته الاخرى ٠ ولكن من الضروري الانتباه الى الاخطاء المنهجية والاخطار المترتبة عليها والناجمة عنها ٠

نذكر ذلك انطلاقا من اتفاقنا مع « العظم » على خطورة المرحلة ، وضخامة المصاعب التي تلقيها على عاتق الحركة التحررية العربية والقوى الثورية في الوطن العربي ، الامر الذي يتطلب من مفكري هذه الحركة وقادتها انتباها اكبر لوسائلهم ونشاطهم النظري والعملي ٠ ولعل جبهة النظرية هي اليوم الجبهة الاكثر مسؤولية وخطورة ، فعليها يتوقف الشيء الكثير في مجال تقرير وجهة سير الصراع واتجاهاته اللاحقة ٠

ومن ابرز مهمات هذه الجبهة واكثرها الحاحا ، مهمة بناء وعي مضاد لحالة التدهور والردة الطاغية ، الامر الذي لا يمكن تحقيقه من دون العودة الى الجذور والى المكونات البنيوية والتاريخية بغية فحصها وتشخيص مصادر عللها ٠ لقد اكد العظم على ولادة مرحلة السادات من رحم النظام الناصري الذي ولد وهو يحمل في احشائه عوامل الردة والتراجع ٠ لكنه نسي ان يلاحظ بأن «مرحلة الناصرية» هي الاخرى وليد وثمرة نضال طويل تعود بداياته الى بواكير عصر النهضة في الوطن العربي ، وان الاجابة بأن الاصل « منخور » لا تجيب على شيء ولا تترك سوى الحيرة والاستسلام لـ « عدالة البؤس » ٠ وعدا عن اهمية هذه المسألة فان ثمة ضرورة ملحة لان يجري الكشف عن آلية العلاقة التاريخية والآنية ، فضلا عن العلاقة المستقبلية القائمة بين واقعنا والعالم ، من منطلق البحث عن مستجدات الصلة مع الغرب والتطورات الحاصلة على هذه الصلة ، استنادا الى العلم والوقائع ٠

ومثل هذه المهمات لا يمكن انجازها فعلا بسيادة منطلق تبسيطي كذلك الذي يحسم « العظم » به الامور قائلا : ان « السادات » هو التطور الطبيعي والحتمي لـ « عبد الناصر » وعبد الناصر ما هو الا التطور الطبيعي والثمرة الطبيعية لجسم منخور اصلا ٠٠٠ الخ ٠

٤ ـ ان السياسي يحدده الاقتصادي ، ولهذا فان اعطاء حكم عن السياسة الامريكية مثلما يفعل صادق العظم ، يظل قابلا للاجتهاد ، ولن يكتسب قيمة فعلية اذا لم يرتكز الى تحليل مكونات هذه العلاقة على صعيد آلية وطبيعة ارتباط التبعية الاقتصادية القائم بين الانظمة العربية والامبريالية الامريكية ٠ وليس يكفي في هذا الميدان التقاط ظواهر عامة والتعكز على اراء مبعثرة وشائعة لاعطاء وتكوين احكام سياسية خطيرة كتلك التي يطلقها العظم ٠

واذا كان العظم يأمل ـ وهو يأمل كما يتأكد من كتاباته ـ بأن يسهم في اغناء نظرة قوى حركة الثورة في الوطن العربي، فانه بهذا يلزم نفسه بشروط اكثر قسوة من تلك التي حددها لنفسه في كتابه هذا ٠

ولهذا ، وبسبب قسوة الظروف الراهنة، فان كتاب « صادق العظم » الاخير ، يفتقد الى الكثير من القيمة التي احتواها مثلا كتابه « النقد الذاتي بعد الهزيمة » من حيث ايقاظه للوعي وتوجيهه وجهة ناقدة ٠ والسبب ، هو التهاب والحاح مهمة صياغة عناصر البديل على صعيد الوعي من جهة ، وحساسية وخطورة الايحاء بافتقاد الامل بشيء ، في وقت يبدو فيه الظلام مطبقا ، والحاجة الى شعاع نور اثمن ما يمكن تقديمه ، وعلى قاعدة سليمة ٠

امير حيدر

شهريات

المقاومة الفلسطينية

الحوار الفلسطيني ـ الاردني

المصالحة الفلسطينية ـ الاردنية التي تمت في قمة بغداد بعد ان اعلن الملك حسين استعداده للتعامل مع منظمة التحرير بقلب مفتوح ، وجدت مجراها العملي في المناقشات الفلسطينية الداخلية ثم في الحوار العلني · فحين اجتمع المجلس المركزي في دمشق (١١/٢٣) كان على رأس جدول اعماله بحث موضوع الحوار مع الاردن ، واعلن الفاهوم بعد انتهاء المناقشات ، ان المجلس وافق على بدء الحوار على قاعدة قرارات القمة العربية في بغداد ، وقرارات قمة الجزائر والرباط · وصدرت في جو هذه الموافقة على بدء الحوار ثلاثة تعليقات فلسطينية · فقد اعلن خالد الفاهوم بصفته رئيسا للوفد الفلسطيني الذي سيتوجه الى الاردن ان « الهدف من المفاوضات هو وضع حد للخلافات الهامشية القائمة بين الجانبين، وتعبئة الجهود والموارد العربية من اجل احباط اتفاقيتي كامب ديفيد » · واعلن زهير محسن بصفته عضوا في الوفد المحاور ، انه يسجل « بارتياح تقديرنا البالغ للموقف الوطني الذي عبر عنه الاردن مؤخرا ، فيما يتعلق بالتطورات الاخيرة التي شهدتها المنطقة ، ونتطلع الى بناء علاقات تعاون ايجابي عميق مع الاردن » · ومن جهتها اعلنت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في بيان صدر عن اجتماع لجنتها المركزية ، موافقتها على مشروع الوحدة الوطنية الفلسطينية، مع تحفظ على بند الحوار مع الاردن · وقالت الجبهة انها « تعتبر العلاقة مع الاردن هامة واساسية ، ولكن ليس من خلال النظام بل من خلال العمل الجاد بين صفوف الجماهير » ، واكدت الجبهة انها تحتفظ بحقها في الممارسة حسب قناعاتها ·

وقد وصل الوفد الفلسطيني الى عمان يوم ١١/١٥ ، وكان مكونا من خالد الفاهوم رئيسا ، ومحمود عباس وخالد الحسن (فتح) وزهير محسن (الصاعقة) وعقد مع الوفد الاردني برئاسة مضر بدران رئيس الوزراء ثلاثة اجتماعات ، تخللها لقاء مع الملك حسين ، وصدر عن المحادثات بيان مشترك ·

اعرب الفاهوم بعد الجلسة الاولى من المفاوضات عن « تقدير منظمة التحرير لموقف الاردن والملك حسين من التطورات الاخيرة في المنطقة » · وقال زهير محسن بعد الجلسة الثانية (١٩/٢٦) ان التعاون مع الاردن « سيأخذ في الاعتبار مستقبلا، الظروف الداخلية للاردن ، وكذلك الظروف الاقليمية ، كما سيكون محدود النطاق » واكد ان « اي بحث بوجود عسكري فلسطيني هو خارج عن الموضوع » · واوضح ان « المحادثات تستهدف فقط مضاعفة التنسيق والتعاون لمواجهة نتائج اتفاق كامب ديفيد واحباطها » · اما محمود عباس فقد سجل تفاؤله

بالحادثات وارتياحه لها بتصريح قـال فيه « ان اول منطلقات الحوار مع الاردن هو احساسنا العميق والصادق واحساس الاخوة في الاردن العميق والصادق ايضا بالمصير المشترك ... يضاف الى هذا ، الحاجة الى رابطة قوية لمستقبل الشعبين الشقيقين » . وقال « لا نتصور أننـا سنجد في هذا الحوار اية عقبات ،والروح الايجابية التي قابل بها الملك حسين الوفد عززت الامل لدينا باننـا مقبلون على مستقبل مشرق مليء بالامل » .

ثم عقدت جلسة مفاوضات ثالثة صدر بعدها بيان مشترك (١١/٢٨) اكد على :

ـ رفض مقررات كامب ديفيد .

ـ التصدي لمشروع الحكم الذاتي .

ـ تأكيد مبدأ « سيادة الدولة الاردنية على ارضها وشعبها ، واستقلالية العمل الفلسطيني داخل منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني » .

ونكر مصدر اردني بعد صدور البيان انه تم الاتفاق على « تشكيل عدة لجان مشتركة تجتمع في عمان بعد اسبوع ، لبحث المسائل التي لم تتم تسويتها بعد ». ونقلت وكالات الانباء عن احد اعضاء الوفد الفلسطيني دون ان تذكر اسمه ، ان « المنظمة قررت عدم التدخل في الشؤون الداخلية للاردن ، وان تطالب بالحفاظ على استقلالها في مواقعها وقراراتها » . واضاف « اتفق الجانبان على جميع المسائل السياسية التي جرى بحثها » .

وصدر رد الفعل الاول على المفاوضات بعد انتهائها من الجبهة الشعبية ، التي طالبت في بيان علني « باقفال باب الحوار مع الاردن » انسجاما مع موقفها المقر من قبل لجنتها المركزية (١١/٢٩) ، وحين اجتمعت اللجنة التنفيذية (١٢/٤) برئاسة ياسر عرفات لدرس نتائج الحوار ، لم يصدر عنها اي بيان او تصريح حول الموضوع ، ولكن جريدة « السفير » اللبنانية اجرت مقابلات مع ست منظمات فدائية اوضحت موقف كل تنظيم من مبدأ الحوار ومن نتائجه، ونشرت هذه المقابلات يومي ١٤ ، و ١٢/١٥ ، واظهرت موافقة كافة التنظيمات مع مبدأ الحوار ، مع تفاوت في طرح الشروط والاصرار عليها ، باستثناء الجبهة الشعبية .

موقف فتح

تحدث هاني الحسن عضو المجلس الثوري لحركة فتح عن المباحثات فقال : ان حركة فتح توافق على فتح الحوار مع الاردن بدليل مشاركة اعضائها في الوفد، وان هذا الحوار لم يبدأ الا بعد موافقة جميع فصائل المقاومة عليه ، وذلك من خلال الموافقة التي تمت في اجتماع المجلس المركزي على وثيقة الوحدة الوطنية .

وعدد هاني الحسن ثلاثة مبررات لقرار قبول التفاوض هي :

١ ـ ان افشال كامب ديفيد يعتبر المهمة الراهنة لكل الثوريين العرب .

٢ ـ ان مشاركة الاردن لمنظمة التحرير بتوزيع المال (اشارة لقرار قمة بغداد بتشكيل صندوق مشترك بين الاردن والمنظمة لدعم صمود الاراضي المحتلة) ، افضل بكثير من ان يشارك السادات في « بلير هاوس » .

٣ ـ اذا استمر الاردن بالتزامه بقمة بغداد والوقوف ضد كامب ديفيد ـ وهذا ما يشك به البعض ـ فهذه خطوة هامة لافشال كامب ديفيد .واذا ما نكث الاردن بعهده ـ وهذا ما يعتقده كثيرون ـ فاننا سننتقل الى موقف المجابهة .

وحدد هاني الحسن ثلاثة شروط تضعها « فتح » للحوار :

١ ـ استمرار الاردن في عدم المشاركة في اتفاقات كامب ديفيد ٠

٢ ـ استمرار الاعتراف الاردني بمنظمة التحرير كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني في كل اماكن تواجده ، مع الترجمة العملية لهذا الموقف ٠

٣ ـ اقدام الاردن على توفير المتطلبات العملية للعلاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية وخاصة على صعيد الاتصال مع شعبنا فيالارض المحتلة بمختلف الوسائط ٠

وقيم هاني الحسن نتائج المفاوضات بقوله انها سجلت اربع نقاط هامة هي :

١ ـ الحصول على اقرار اردني جديد لمواجهة كامب ديفيد ومقاومة مؤامرة الحكم الذاتي ٠

٢ ـ اتفق على تأجيل بحث العلاقات المستقبلية مع الاردن ٠

٣ ـ اتفق على مبدأ الافراج عن المعتقلين السياسيين ٠

٤ ـ اتفق على انشاء عدة لجان للتنسيق ٠

وحول نقطة السيادة « التي نالت اكبر حيز من الجدل » قال هاني الحسن « وردت في البيان المشترك الصيغة التي تتحدث عن سيادة الدولة الاردنية وعن استقلالية عمل منظمة التحرير كممثل شرعي وحيد٠

ونحن طبعا لسنا ضد السيادة بمعناها القانوني ، ولكننا مع التمسك بالمعنى الشمولي لما ورد في الجزء الآخر من النص والذي يتحدث عن منظمة التحرير وحقها في تمثيل شعبها ٠٠٠ ان سيادة الاردن مترابطة مع هذا الفهم القائم على وحدة تمثيل الشعب الفلسطيني » ٠ واضاف «ان الفقرة المذكورة قد لقيت تفسيرات متناقضة من كلا الجانبين ، وهي مسألة جوهرية تحتاج الى جلاء وتأكيد ، ومجال ذلك سيكون في جولات المفاوضات المقبلة » ٠

موقف الجبهة الديمقراطية

حددت الجبهة الديمقراطية موقفها بلسان امينها العام نايف حواتمة الذي اكد ان موقف الجبهة كان دائما « مع الحوار على قاعدة الترجمة العملية الملموسة لقرارات الجزائر والرباط وبغداد (قرارات القمم العربية) » ٠ وكشف حواتمة النقاب عن ان الحوار الفلسطيني ـ الاردني تمخضعن وثيقة سميت « اطار العمل المشترك » وهي وثيقة لم تنشر رسميا حتى الآن ، وقال ان ما جاء في هذه الوثيقة يبرز رفض السلطة الاردنية الاعتراف بمضمونقرارات القمم العربية حول القضية الفلسطينية ٠ وحدد حواتمة ستة شروط للحوار مع الاردن هي :

١ ـ حق منظمة التحرير في التواجد السياسي والتنظيمي في صفوف ثلث شعبنا في شرقي الاردن ٠

٢ ـ الحق في الانطلاق المسلح من الاراضي الاردنية ٠

٣ ـ المنظمة هي الممثل الوحيد دون مشاركة السلطة الاردنية في تقرير مصير شعبنا ٠

٤ ـ اطلاق المعتقلين في السجون الاردنية ٠

٥ ـ العفو العام عن جميع كوادر الثورة ٠

٦ ـ حرية الجماهير الفلسطينية في الاردن في الانخراط بصفوف الثورة ٠وفي نقاشه لنتائج الحوار ، سجل حواتمة ان الوثيقة التي توصل اليها الوفد المفاوض تتناقض مع الشروط التي وضعها، وهي تنص على :

١ ـ حرمان المنظمة من العمل فيصفوف شعبنا ، تحت شعار خضوع المواطنين للقوانين والسيادة ٠

٢ ـ حرمان المنظمة من اي عمل مسلح ينطلق من الاردن ٠

٣ ـ الزج بالمنظمة والاردن للعمل المشترك تجاه المشاريع والحلول السياسية المقترحة ·

٤ ـ مشاركة الاردن للمنظمة في الاراضي المحتلة ·

٥ ـ النص على اعتماد السياسة الاردنية في العلاقات الدولية ·

ومن الواضح ان ملاحظات حواتمة هنا تنطلق من وثيقة «اطار العمل المشترك» التي لم تنشر رسميا حتى الآن ·

موقف جبهة التحرير العربية

واكدت «جبهة التحرير العربية» بدورها تاييدها لمبدأ الحوار بقولها على لسان امينها العام عبد الرحيم احمد الذي قال ان « موقفنا من مسألة الحوار مع النظام الاردني نابع من وجدانية الموقف الفلسطيني المتمثل باجماع كل فصائل الثورة (اشارة لاتفاق الوحدة الوطنية)، كما ان اتفاقات كامب ديفيد فرضت على القوى الرافضة لها ان تلتقي وتتحاور ·

وحصر عبد الرحيم احمد شروط الحوار مع الاردن ببندين :

١ ـ رفض اتفاقات كامب ديفيد ونتائجها ·

٢ ـ تاكيد الالتزام بمقررات القمم العربية لجهة الاعتراف بالمنظمة كممثل شرعي وحيد ·

وذكر ان طبيعة المرحلة تفرض « ان نؤجل بعض المسائل والامور التي نراها ضرورية لاقامة علاقات مقبولة مع النظام الاردني » ·

وفي تقييمه للنتائج اعتبر ان « ما تحقق فيالجولة الاولى للحوار بداية طيبة » ·

موقف الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة

سجلت الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة بلسان امينها العام احمد جبريل ، المرتكزات التي ترى انها تشكل قاعدة العلاقات التاريخية بين الشعب الفلسطيني والنظام الاردني · واوضحت ان الجبهة، قررت الموافقة على فتح الحوار معالاردن على ضوء تلك المرتكزات ، ولكن ضمن ضوابط اهمها :

١ ـ الارتكاز على اللقاء السوري ـ العراقي واستثمار العلاقات النامية بين الجماهيرية الليبية والاردن ·

٢ ـ ان نضع وبشكل مسبق في حسابنا كل مستويات الطرح بحديها الادنى والاعلى استكمالا لمقومات هذا الحوار ، آخذين بالاعتبار ترك عاداتنا القديمة ،ونبذ السلوكية الدونكشوتية ، والذهاب الى الصيد ببندقية وخرطوشة واحدة ·

وذكرت الجبهة انها لا تستطيع ان تخفي حذرها بل ارتيابها بأنه بدون هذه الضوابط ··· نجد انفسنا وبشكل اوتوماتيكي نعمل ونصب في طاحونة الملك حسين ومن يلتقي معه من الفلسطينيين بغية تمرير التسوية الاستسلامية ·

أما بشان تقييم نتائج المباحثات ،فترى الجبهة انها « لا تتعدى التبادل في الافكار. مع تغليفها بالعواطف المتبادلة » ·وذكرت « ان هناك بعض النقاط الجديرة بالبحث والاهتمام ونحن بصدد تقييمها بدقة » ·

موقف الصاعقة

وقالت منظمة الصاعقة بلسان أمين سرها زهير محسن ، انها « في هذه المرحلة مع مبدأ الحوار بقناعة تامة . ونعتقد ان الظرف الراهن يوفر فرصة مثالية لاجراء حوار ناجح ومثمر مع الاردن في خدمة استراتيجية العمل الوطني المرحلي الذي يتركز حول مناهضة اتفاقيات كامب ديفيد ·

وأعتبرت الصاعقة في تقييمها لنتائج

المفاوضات بانه امكن للمرة الاولى تحقيق نتائج مشجعة وافضل مما كان يتوقعه الكثيرون » وتعتبر ان ما انجزه الوفد في عمان خطوة جيدة كبداية لتطوير العلاقات ··· ونعتقد ان متابعة الحوار يمكن ان تؤدي الى خطوات اخرى اكثر تطورا ، والى ضمان أنسجام الاردن بصورة افضل واكثر ثباتا مع العلاقات الجديدة بين سوريا والعراق ومنظمة التحرير » ·

ومن الجدل الذي دار حول المباحثات قالت الصاعقة « لقد حاولت بعض الاطراف الفلسطينية المعارضة او المتحفظة على الحوار مع الاردن ، التركيز على اشارة المسائل الخلافية التي يصعب حلها الآن ، والتي نحن من جانبنا لا نستعجل وضع حلول لها في الوقت الحاضر » · وختمت الصاعقة قائلة ان « هذا لا يعني اننا تنازلنا للاردن عن شيء ، او انه تنازل لنا ، وانما يعني ان هذه المسائل موجودة في ملف العلاقات الاردنية ـ الفلسطينية لكي تبحث في المستقبل في مناخ افضل » ·

موقف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

امام موافقة المنظمات الخمس السابقة على مبدأ الحوار ، واختلافها في تحديد شروطه وضوابطه ، وتقييم نتائجه ، انفردت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بلسان امينها العام ، بتاكيد موقفها المعلن مسبقا ، والداعي الى رفض الحوار مع النظام الاردني من حيث المبدأ · قالت الشعبية : « نحن غير موافقين على الحوار ، وناضلنا من أجل حذف اي فقرة في البرنامج السياسي يمكن الاستناد اليها لاقامة مثل هذا الحوار مع النظام الاردني ، وعندما اقرت الفقرة سجلنا ··· تحفظنا على ذلك كما سجلنا كافة تخوفاتنا المشروعة » ·

وعددت الشعبية اسباب رفضها لمبدأ الحوار بما يلي :

١ ـ لان مؤامرة التسوية مستمرة ··· والقوة الاساسية التي تستند اليها الامبريالية في المراحل القادمة لعملية التسوية هي النظام الاردني ·

٢ ـ ان عودة المقاومة لساحة الاردن بهدف تعبئة الجماهير الفلسطينية ··· لا يمكن ان يتم الا من خلال النضالات الجماهيرية ·

٣ ـ أن الاسس والشروط والمواصفات التي وضعت نظريا سيجرى الحوار على اساسها لن تتوفر عمليا في ظل الوضع القائم ·

وأعلنت الشعبية رفضها للوثيقة التي اسفرت عنها المفاوضات فركزت على الفقرات التالية :

ـ الفقرة التي تنص على احترام القوانين الاردنية ·

ـ البند القائل بـ « تجنب ما من شأنه ان يعطي العدو اي مبرر لتنفيذ مخططاته ضد الاردن » ·

ـ البند الذي ينص على « التشاور » المباشر والسريع حول المعلومات والعروض السياسية التي يتلقاها اي من الجانبين ·

ومع استمرار هذا الحوار وصل الى عمان يوم ١٢/١٥ وفد فلسطيني برئاسة حامد ابو ستة عضو اللجنة التنفيذية وعضوية محمود عباس وعضوين اخرين · وقالت مصادر فلسطينية أن الوفد سيقوم بمهمة متابعة القضايا العالقة وليس بمهمة التفاوض ·

وبانتظار تجديد التفاوض ذكر المصدر ان لجنة رباعية من فصائل المقاومة ،تقوم بصياغة ورقة عمل فلسطينية على ضوء الملاحظات التي ابدتها المنظمات على نتائج مباحثات عمان « وتكون ملزمة لاعمال اية وفود تتابع الحوار مع السلطة الاردنية » ·

العمليات الفدائية

واصلت المقاومة الفلسطينية عملياتها

الفدائية بالداخل بنفس الوتيرة المرتفعة التي حافظت عليها في الاشهر السابقة . ومن ابرز العمليات التي تمت واعترفت بها اسرائيل :

☐ ٣ عمليات فدائية انجزت فى الذكرى الاولى لزيارة الرئيس المصري انور السادات الى القدس المحتلة . تم في العملية الاولى (١١/١٩) تفجير سيارة عسكرية كبيرة قرب اريحا وقتل في الحادث ٤ اشخاص وجرح ٣٥ . وتم في العملية الثانية تفجير عبوة ناسفة في حيفا ادت الى جرح شخصين ، اما العملية الثالثة فقد تمت في القدس، ولكن البوليس استطاع العثور على القنبلة قبلانفجارها وتمكن من اتلافها . وقامت اسرائيل في اليوم التالي (١١/٢٠) باعتقال العشرات من الفلسطينيين للتحقيق معهم ، فيما اعلنت واشنطن تنديدها رسميا بهذه العمليات ووصفتها بانها « عنف مجنون ليس هناك ما يبرره » .

ونفذ الفدائيون عمليتين جديدتين يوم ١١/٢٦ ، الاولى في مستوطنة كريات اربع قرب الخليل حيث فجروا احد الابنية الرئيسية في المستوطنة ، والثانية فيالقدس المحتلة ، حيث ادي انفجار عبوة ناسفة عند موقف سيارات خاص لنقل الجنود الى اصابة شخص بجراح . وقامت اسرائيل على اثر العمليتين بحملة اعتقالات جديدة في اوساط المواطنين .

وفي ١٢/١٢ قام الفدائيون بوضع متفجرتين داخل مستوطنتين اسرائيليتين في الضفة الغربية ، الاولى في مستوطنة شيلو والثانية في مستوطنة كريات اربع . ويلاحظ في هذه العمليات الاخيرة انها تتم داخل المستوطنات الاسرائيلية ، في الوقت الذي يركز فيه الاعلام الاسرائيلي على ان هذه المستوطنات واحة امان لساكنيها .

وقد كان من النشاط البارز الذي قام به الفلسطينيون الى جانب العمليات العسكرية ، التظاهرات التي نظموها فيمدينة اوسلو بالنروج يوم ١٢/١٠ بمناسبة تسليم بيغن ومبعوث السادات سيد مرعي جائزة نوبل للسلام . وقد وفدت هذه المظاهرات من مختلف المدن الاوروبية ، وشارك بها طلبة فلسطينيون وعرب ، وشغلت بضجيجها الصحافة العالمية عن التغطية الواسعة لانباء تسليم الجائزة .

وفي هذه الاثناء عادت اسرائيل من جديد الى سياسة نسف منازل عائلات الفدائيين الفلسطينيين الذين يتم اعتقالهم او توجه لهم تهمة المشاركة بالعمل الفدائي. او مهمة حماية الفدائيين وعدم التبليغ عنهم ، وهي سياسة كانت قد توقفت عنها خلال الاشهر الماضية بعد ان مارستها بكثافة في سنوات الاحتلال الاولى للضفة الغربية وقطاع غزة . ففي ١٢/٣ نسفت منزلين لفدائيين سجينين يواجهان تهمة بتنفيذ عمليات عسكرية قبل عام . وقد بادر ياسر عرفات فورا الى ارسال مذكرة احتجاج حول الحادث الى كورت فالدهايم امين عام الامم المتحدة طالبا توزيع المذكرة على اعضاء مجلس الامن (١٢/٥) . وفي اليوم التالي (١٢/٦) اعلن ناطق باسم الامم المتحدة ان « فالدهايم قلق من قيام اسرائيل بتهديم منازل يملكها مواطنون عرب فيالضفة الغربية » . وقامت في اليوم نفسه مظاهرات في رام الله ضد سياسة نسف المنازل .

يوم التضامن

احتفلت الامم المتحدة يوم ١١/٢٨ ، بيوم التضامن مع الشعب الفلسطيني ، والذي يصادف ذكرى صدور قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ . واصدرت كل دول العالم (باستثناء واشنطن وتل ابيب) بيانات وجهتها الى الامم المتحدة تحيي نضال الشعب الفلسطيني وتدعو لاستخلاص حقه . وتلقى ياسر عرفات

رسائل عديدة بالمناسبة من رؤساء بعض الدول العربية وبعض الدول الاشتراكية ، كما وجه رسالة خاصة بالمناسبة الى فالدهايم ·

اما على الصعيد الفلسطيني فقد شهدت الضفة الغربية مسيرات عدة ،واغلقت المدارس أبوابها ، وحدثت عدة صدامات مع سيارات البوليس الاسرائيلي في المدن الرئيسية · اما في بيروت فقد جرى تنظيم مهرجان خطابي حاشد في جامعة بيروت العربية ، خطب فيه الاخ ابو عمار·

وكان عرفات قد افتتح يوم ١١/٢٠ بدمشق مؤتمر الاتحاد العام لعمال فلسطين والقى فيه كلمة اكد فيها ان المنظمة « ستقاوم اقتراح الحكم الذاتي بشدة » وقال « لسنا ضد السلام ولكننا نريده سلاما عادلا يرتكز على الحقوق الوطنية الكاملة والثابتة للشعب الفلسطيني » · واكد انه لا بد من التنسيق والتضامن مع حلفائنا الحقيقيين في المنظومة الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي » ·

ملحق

فيما يلي النص الرسمي الذي نشرته صحيفة « النهار » البيروتية في ١٢/١٨/ ١٩٧٨ لمشروع « اطار العمل المشترك » الذي توصل اليه الوفد الفلسطيني في مباحثات عمان ، والذي اشار اليه قادة المقاومة في احاديثهم المنشورة حول موقفهم من المفاوضات ونتائجها :

اولا ـ المبادىء العامة

١ ـ ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وبالتالي فان الاردن يتعاون معها بهذه الصفة في سبيل تامين الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني على صعيد العمل داخل الارض المحتلة وعلى الصعيدين العربي والدولي ·

٢ ـ ان اكثر المتضررين من العدوان الصهيوني هم الشعبان الاردني والفلسطيني مما يرتب عليهما مسؤولية العمل المشترك لتوجيه النضال والدعم العربيين في اتجاه نصرة هذه القضية لمواجهة العدوان الصهيوني ومخططاته ·

٣ ـ يرتكز العمل السياسي المشترك بين الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية على اساس قرارات قمتي بغداد والرباط خصوصا في ما يتصل بتحقيق مفهوم السلام العادل الذي يقتضي الانسحاب الشامل من الاراضي المحتلة بما في ذلك القدس العربية ، واستعادة الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني ·

٤ ـ تلتزم منظمة التحرير الفلسطينية باحترام القوانين الاردنية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للاردن · وان جميع المواطنين في الاردن متساوون امام القانون ، وان اي نشاط سياسي في المملكة يخضع لهذه القوانين والمؤسسات الاردنية ·

٥ ـ تؤكد الحكومة الاردنية على استقلال المنظمة وعدم التدخل في شؤونها وحرصها على ابتعاد المنظمة عن اية تاثيرات من شانها الانتقاص من استقلالها ·

٦ ـ يؤكد الجانبان اهمية بناء القدرة العربية ويعملان من اجل تحقيقها في اطار قرارات قمة بغداد ·

٧ ـ رفع مستوى تمثيل المنظمة في الاردن بما يتماشى مع متطلبات التنسيق المشترك ·

٨ ـ تجنب ما من شانه ان يعطي العدو الصهيوني اي مبرر لتنفيذ مخططاته ضد الاردن ، واتخاذ اللازم من الاجراءات ·

وانطلاقا من المبادىء السابقة يعمل الطرفان في المجال السياسي على :

١ ـ التنسيق على اعلى الدرجات في العمل السياسي في المجالين العربي والدولي على أساس قمتي الرباط وبغداد نصا وروحا ·

٢ ـ التشاور المباشر والسريع حول المعلومات والعروض السياسية التي يتلقاها اي من الجانبين في شكل رسمي او غير رسمي بهدف تحديد موقف مشترك في سائر المجالات المتصلة بالصراع العربي ـ الاسرائيلي وقضية فلسطين ·

٣ ـ التشاور المسبق لتنسيق المواقف وتكامل التحرك فيمجال النشاط السياسي في الساحات العربية والدولية والامم المتحدة والمنظمات الاقليمية ·

٤ ـ بذل الجهد المشترك من اجل المحافظة على وحدة الموقف العربيوالتزامه بمقررات الرباط وبغداد · واتخاذالوسائل العملية في المجالات الدولية المختلفة لجعل مقررات الرباط وبغداد هي البديل العملي من اتفاقي كمب ديفيد ونتائجهما ·

٥ ـ العمل على وقف الهجرة اليهودية الى اسرائيل وتشجيع الهجرة اليهودية المعاكسة من اسرائيل الى الخارج ·

ثانيا ـ في المجال الاعلامي

يتم تخطيط الاعلام المشترك وتنفيذه بهدف مساندة العمل السياسي المشتركعلى النحو الاتي :

أ ـ تعميق التناقضات لدى العدو الصهيوني وزعزعة ثقة العدو في مستقبل اجياله ·

ب ـ كشف المخططات الاسرائيلية والعمل على احباطها ·

ج ـ تعبئة الجماهير الفلسطينية في الارض المحتلة بما يحقق دعم الصمود ، واحباط مشروع الحكم الذاتى الذى يكرس الاحتلال ·

د ـ تاكيد البديل السياسي من مقررات كمب ديفيد كما طرحته مقررات قمة بغداد·

مكافحة الاعلام الصهيوني والاسرائيلي·

ربط الامن الاوروبي بالسلام والاستقرار في الشرق الاوسط ·

تحييد أصدقاء اسرائيل وكسب اصدقاء جدد للقضية العادلة ·

ربط المصالح الاقتصادية الغربية لتحقيق السلام العادل في المنطقة وفق المفهوم العربي له ·

ثالثا ـ في الارض المحتلة

أ ـ احباط الحكم الذاتي الذي يكرس الاحتلال ·

ب ـ وقف الهجرة والنزوح ·

ج ـ تحويل الطاقات العربية عن العمل في مؤسسات العدو الانتاجية الى العمل في مؤسسات الضفة والقطاع والقدس ·

د ـ توفير الامكانات المالية والمادية اللازمة لبناء واقع انتاجي فلسطيني ذاتي·

هـ ـ تحسين مستوى الخدمات والمرافق العامة ·

و ـ تشجيع المؤسسات الجماعية ذات الاهداف الوطنية وتطويرها ·

ز ـ الربط الدائم بين الضفة وغزة كوحدة وطنية واحدة بما فيها القدس ·

في المجال التنفيذي :

انشاء لجان مشركة متخصصة لوضع البرامج موضع التنفيذ ·

بلال الحسن

المناطق المحتلة

كان من نتائج اتفاقيتي كامب ديفيد ، ان شهدت المناطق المحتلة ، تحديدا اكثر وضوحا في المواقف ، مشفوعا بتخوفات المرحلة الجديدة ، سواء بالنسبة لموقف سكان المناطق المحتلة او بالنسبة للموقف الاسرائيلي ، فقد غدا الموقف العام لسكان المناطق المحتلة موحدا ، بعد ان غابت ، تحت وطأة خطورة الحدث ، وجوه فريق « الولاء المزدوج » وفريق الولاء لسلطات الاحتلال ، وانصهرت جميع الشرائح الاجتماعية والتيارات السياسية المختلفة في موقف موحد ضد مشروع الادارة الذاتية ، ومع م·ت·ف كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني . واخذت عملية فرز المواقف تسير في اتجاه جديد : اتجاه « الاعتدال » او « التصلب » في الموقف ضمن الموقف العام الواحد المؤيد لمنظمة التحرير ، خلافا لما كان عليه الوضع سابقا حين كانت تتحكم في عملية فرز المواقف ، اطراف ثلاثة ، وان تباينت في قوتها ونفوذها ، سلطات الاحتلال ، النظام الاردني ، و م·ت·ف·

اما الموقف الاسرائيلي فقد غدا هو الآخر يتسم بوضوح اكثر وحدة اشد · ولعل « التقرير الاولي » للجنة المدراء العامين خير شاهد على ذلك ، فضلا عن الاستمرار في سياسة خلق الوقائع الجديدة ومصادرة الاراضي وهدم البيوت ، ووضع مشاريع استيطانية ضخمة لمرحلة الاعوام الخمسة القادمة تستهدف بكل وضوح وصراحة تهويد اكبر قدر من الاراضي الفلسطينية المحتلة منذ العام ١٩٦٧ ، تحت غطاء مشروع الادارة الذاتية الذي كانت سلطات الاحتلال تدعو اليه منذ مطلع السبعينات ، وتحققت دعوتها ، مع الهزيمة الواضحة لاول دولة عربية في كامب ديفيد ·

عبرت جماهير المناطق المحتلة عن موقفها تجاه مشروع الادارة الذاتية في سلسلة المؤتمرات الوطنية المتتالية التي عقدت في اماكن متعددة من الضفة الغربية وقطاع غزة (انظر شؤون فلسطينية ، المناطق المحتلة ، عدد ٨٤) وكان اخرها مؤتمرا نابلس ورام الله · ففي السابع من تشرين الثاني عقد مؤتمر جاهيري في كلية النجاح في نابلس اشترك فيه قرابة خمسة آلاف شخص ، على رأسهم رؤساء البلديات والمجالس المحلية ، وممثلون عن الطوائف الروحية والاتحادات المهنية والعمالية ، كما اشترك فيه مندوبون عن الحركة الوطنية في قطاع غزة ، برئاسة الدكتور حيدر الشافي رئيس الهلال الاحمر في القطاع ، وهاجم المؤتمرون بشدة اتفاقيات كامب ديفيد ، وشنوا هجوما عنيفا على الرئيس السادات الذي وصف في المؤتمر بلقب « بلفور الجديد » ، كذلك ترددت في المؤتمر عبارات ، اعتبرتها وسائل الاعلام الاسرائيلية بمثابة مؤشر لمسار الموقف الفلسطيني نحو التصلب ، فضلا عن انها « استفزاز » لمشاعر الاسرائيليين مثل عبارة ضرورة «العودة الى يافا وحيفا » المنسوبة الى رئيس بلدية رام الله · ويبدو ان اعصاب عضو الكنيست شموئيل توليدانو (داش) لم تتحمل مثل هذه العبارات ، فقدم اقتراحا

عاجلا الى الكنيست (دافار ، ٧٨/١١/٨) لمناقشة ما اسماه بـ « التفوهات الشاذة» في مؤتمر نابلس ، ضاربا مثلا عليها : التعرض للرئيس السادات والتفوه بكلام « خطير » كالعودة الى يافا وحيفا ·

الى جانب ذلك عقدت الحركة العمالية الفلسطينية مؤتمرا في مدينة رام الله في اوائل كانون الاول الماضي ، اعلن فيه المؤتمرون رفض الحركة العمالية الفلسطينية لقررات كامب ديفيد ، والتمسك بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني (قرارات المؤتمرين في آخر التقرير) ·

استمرارا للتحرك الجماهيري ضد مشروع الادارة الذاتية ومجمل سياسة الاحتلال ، جرت مؤخرا سلسلة من التظاهرات الوطنية ، رفع خلالها المتظاهرون الاعلام الفلسطينية ، وسط شعارات تندد باتفاقيتي كامب ديفيد ، وتشيد بمنظمة التحرير الفلسطينية · ففي التاسع عشر من تشرين الثاني ، جرت تظاهرات طلابية في رام الله ضد مشروع الادارة الذاتية ، واصطدم المتظاهرون خلالها بقوات من الجيش الاسرائيلي · كما عمت المنطقة الشمالية من الضفة الغربية مناشير موقعة باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تدعو السكان لـ «التصدي بالقوة » (هآرتس ، ٧٨/١١/٢٠) ضد تنفيذ مشروع الادارة الذاتية · وفي مناسبة « يوم التضامن العالمي مع شعب فلسطين » في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عادت التظاهرات الوطنية وعمت عددا من مدن وقرى الضفة الغربية مثل رام الله وحلحول وبيرزيت ومخيم الجلزون ·

التحرك الاميركي في الضفة الغربية

وسط المد الوطني العام في الاراضي الفلسطينية المحتلة منذ العام ١٩٦٧ المتمثل في سلسلة المؤتمرات والانتفاضة الشعبية، وتمحور الشرائح الاجتماعية المختلفة في موقف واحد موحد : رفض اتفاقيات كامب ديفيد وتأييد م·ت·ف ، تحركت الادارة الاميركية في محاولة منها لجمع شمل القوى « المعتدلة » والتوفيق بينها وبين الموقف الاسرائيلي ، وارسلت لهذا الغرض السناتور روبرت بيرد زعيم الكتلة الديمقراطية في الكونغرس الاميركي الى القدس للاجتماع بعدد من شخصيات الضفة الغربية · وقد اجتمع بيرد عند مطلع كانون الاول الماضي في مبنى القنصلية الاميركية في القدس العربية بخمسة من الوجوه التقليدية : انور نسيبة من القدس ، طوني بقرجيان مدير وكالة الغوث في القدس ، حكمت المصري من نابلس ، الياس فريج من بيت لحم ، والمحامي عزيز شحاده من رام الله · ومن الجدير بالذكر ان بيرد وجه الدعوة الى ١١ شخصا ، بيد انه لم يوفق بالاجتماع الا بالرموز الآنفة الذكر بعد ان رفض الاخرون الاجتماع به · ووفق ما ذكرته المصادر الاسرائيلية ، حاول بيرد في الاجتماع دفع هؤلاء للتفاوض حول مصير الضفة الغربية « بناء على رغبة الرئيس الاميركي » واعدا اياهم بدعم اميركا لحل القضية الفلسطينية بجوانبها المختلفة · واعرب الخمسة امام بيرد عن معارضتهم لاتفاقيتي كامب ديفيد ، موضحين انه « يجب ، من اجل حل قضية الشعب الفلسطيني في جميع اماكن تشتته ، اشراك م·ت·ف في المفاوضات »· وشن الخمسه هجوما عنيفا على سياسة اسرائيل تجاه المناطق المحتلة ومشروع الادارة الذاتية بالذات · فقد اوضح حكمت المصري ان « من يعرض مشروعا كهذا يعيش في الوهم ، ويضلل الآخرين » ، كما قال عزيز شحادة « منذ البداية ، ونحن نشك في نوايا اسرائيل ، ويتضح الآن اننا لم نكن على خطأ ، اذ لا تتوفر هنا رغبة صادقة لمحاولة مواجهة القضية المؤلمة · بل تتوفر محاولة لخداعنا وخداع العالم » · اما الياس فريج

فقد تساءل بعد اشادتـــه بالسياســـة الاميركية ، امام بيرد : « كيــف يمكـن الحديث حول الحكم الذاتي والتحدث في الوقت نفسه حول استمرار قيام الحكـم العسكري ومواصلة الاستيطان في الضفة برمتها · كل من يتابع ما يجري في الضفة يرى ان النشاط الاستيطاني لم يتوقــف، ولو ليوم واحد » · (انظـــر معاريف ، ٧٨/١٢/٣) ·

لم ينجح بيرد في محاولته الرامية الى خلق مجموعة من الزعامـــة التقليديـــة للتفاوض باسم الفلسطينيين ، لسببيـــن اساسيين : الهوة التي تعمقت كثيرا عقب مشروع الحكـــم الـــذاتي بيـــن الفهـــم الاسرائيلي للمشروع وبين الموقف العـــام لفئة الزعامة التقليدية ، وتعاظم نفـــوذ وقوة م·ت·ف في المناطق المحتلة ، حيـث اصبحت مواقف جميع الشرائح الاجتماعية تستمد موقفها منها ، وان تفاوتت فـــي الطرح ، من الموقف العام لمنظمة التحرير·

وقد واجهت جمعية الصداقة البريطانية العربية – على الرغم من الاختلاف فـــي الاهداف مع السناتور الاميركي – مـــا واجهه بيرد ، حين ارسل اربعة رؤســـاء بلديات : بيت لحم ، الخليل ، رام اللـه ونابلس ، عند اوائل تشرين الثاني ، الـى الجمعية برقية اعربوا فيها عن اسفهـــم لعدم تمكنهم من تلبية الدعوة التي وجهتها اليهم للاشتراك في حوار فـــي البرلمان البريطاني حول قضايا الشرق الاوسـط . اعتقادا منهم ان الدعوة يجب ان توجـــه بالاصل الى م·ت·ف الممثل الشرعـــي الوحيد للشعب الفلسطيني ·

ولم يحد عن هذا الموقف وفق المصادر الاسرائيلية ، سوى رئيس بلدية غـــزة رشاد الشوا الذي لبى الدعوة ، وتوجـه الى لندن وزار اثناء جولته عاصمتيـــن عربيتين ، بيروت وعمان ، وفي الاخيـرة اجتمع بالسفير المصري هناك · وقد امتنع الشوا عقب عودته عـــن الادلاء بايـــة تصريحات صحفية ، الا ان الصحـــف الاسرائيلية نقلت على لسان المقربين منـــه انه « لا يعارض بشكل قاطع فكرة اقامـــة حكم ذاتي في المرحلة الاولى في قطـــاع غـــزة » ·

الفهم الاسرائيلي لمشروع الادارة الذاتية

لعل « التقرير الاولي » للجنة المـدراء العامين التي شكلتها الحكومة الاسرائيلية عقب التوقيع على اتفاقية كامب ديفيـــد برئاسة الدكتور بن اليسار المدير العـــام لمكتب رئيس الحكومة ، يعتبر خير مؤشر لمسار الموقف الاسرائيلي نحو المزيد مـــن التطرف والتعنت ، ويعطـــي صورة ادق واوضح عن الفهم الاسرائيلي لمسألة مشروع الحكم الذاتـي ·

ففي اواخر شهر تشرين الثاني ،توصلت اللجنة الى تقرير اولي لها يعتمد خمســة مبادىء تحدد معالم الموقف الاسرائيلـــي تجاه الحكم الذاتـــي ، وتتلخص هـذه « المبـادىء » بالتالـي : (١) الاستيلاء والسيطرة على مليون دونم من الاراضي وكذلك السيطرة على منابع ومصادر المياه في الضفة الغربية ، (٢) الاستمـرار فـي النشاط الاستيطاني اليهودي وتشكيـــل مجالس اقليمية يهودية فيمناطق الحكـم الذاتي يسري عليها القانون الاسرائيلي ، (٣) بقاء الحكم العسكري بشكل محدود ، بعيدا عن التجمعات السكانية العربية، (٤) حظر قيامجلس تشريعي، (٥) حظر النشاط الامني والسياسي ضد اسرائيل ·

لا تحتاج هذه « المبادىء » الى مزيـد من الشرح للتوصل الى الاستنتاج القائل بانها اسوأ من الاحتلال الحالي الذي يزعم ان المناطق المحتلة هي « مناطق محتفـــظ بها » لحين التوصل الى سلام ، وذلـــك لكونها تهدف الى تخليد احتلال ما هـــو « محتفظ به » سلفا قبل او مع تحقيـــق السلام · الا ان ما يثير الاهتماموالدهشة، وربما ايضا التقزز ، هو التبريـــرات السخيفة التي تمسحت بها لجنة المـــدراء

العامين بالنسبة للاستيلاء على مليـــون دونم من اراضي الضفة الغربية وقطـاع غزة ومصادر المياه • فقد اوصت اللجنة بضرورة الاستيلاء على مليون دونم مـن « اراضي الدولة » في الضفـة الغربيـة وقطاع غزة ، على ان تكون هذه الاراضي تحت « وصاية دولة اسرائيل » باعتبارها اراض كانت تابعة للتاج الهاشمي (الضفة الغربية) . وبما انه « ليس هنالك تمـة سبب لان تكون الادارة الذاتية التـي ستقام ، الوريث للتاج الاردني » ، فـان الواجب يتطلب من دولة اسرائيـل الاستمرار في الاحتفاظ بهذه الاراضـي الى ان تجد لها حلا في مفاوضات بيـن المورث والوريث !

اما بخصوص الاحتفـاظ بمصادر المياه في الضفة الغربية ، فلم يلجأ المـدراء العامون في تقريرهم الى سلاح الوراثة ، بل الى سلاح قلما يخطر على بال ، فقد ادعوا انه يتوجب على « دولة اسرائيل » الاستمرار في الاحتفاظ بمصادر المياه في الضفة بسبب « الخوف على مصادر الميـاه داخـل الخــط الاخضـر » اي داخـل الكيان الاسرائيلي • ويكمن الخوف هنا من احتمال ازدياد نسبة الملوحة في ميـاه « اسرائيل » الجوفية ، في حال سيطـرة العرب على مياههم الجوفية • وكأن عامل الخوف هذا قانون يبيحللمجتمعات البشرية الاحتفاظ بمصادر مياه الغير ، للحفـاظ على مستقبل عذوبة مياههم الجوفية •

الى جانب ذلك اعاد تقرير اللجنـة التمسك بمصادر المياه الى عامل خـوف آخر ، اكثر عقلانية ، يتمثل في الخشيـة من احتمال اغلاق الحكم الذاتي لمصادر المياه في وجه المستوطنات القائمـة ، او التي من المقرر اقامتها مستقبلا •

ومن الجدير بالذكر هنا ، ان اسرائيل قدمت الى الادارة الاميركية دراسات حول موضوع مصادر المياه في الضفة الغربية ، واشارت المصـادر الاسرائيلية الى ان الولايات المتحدة الاميركية ، نظرت بعيـن العطف والتفهم لمطالب اسرائيل بمصـادر المياه في الضفة الغربية •

النشاط الاستيطاني ومصادرة الاراضي وهدم البيوت

على الرغم من المفاوضات مع مصر ، استمرت سلطات الاحتلال الاسرائيليـة في نشاطاتها المعهودة داخل الاراضـي العربية المحتلة • وقد اتسمت هذه الفترة بازدياد وتيرة الاستيطان في الاراضـي السورية والفلسطينية كتعويض عن الوتيرة التي خمدت تماما في الاراضي المصرية • ففي الاراضي السورية جرى الاحتفال في الثالث عشر من تشرين الثاني الماضي • بتدشين مستوطنة كيشت رسميا ، بالقرب من الحشنية في هضبة الجولان • وكانـت المستوطنة قد اقيمت قبل اربعة اعـوام ونصف بصورة « غير شرعية » • وارتأت سلطات الاحتلال اضفاء صفة « الشرعية » عليها في هذه الفترة • وتحتوي المستوطنة في الوقت الحاضر على ٤٨ وحدة سكنيـة تضم ٣٠ عائلة • ويجري العمل لتوسيعها • واشار المتحدثون في الاحتفـال الى ان « الاستيطان في البلاد يعين الحدود » وان المستوطنة اقيمت على اراضي سبط منسى! (منشية) •

تأتي اقامة هذه المستوطنة عقب القـرار الذي اتخذته الحكومة الاسرائيلية بتكثيف الاستيطان في المناطق المحتلة • وكانـت اللجنة الوزارية لشؤون تكثيف المستوطنات برئاسة رئيس الحكومة مناحيم بيجن قـد خصصت في الحادي والثلاثين من تشرين الاول مبلغ ٦٠٠ مليون ليرة لهذا الغرض. وتوطين ٦٠٠ عائلة يهودية اخرى فـي مستوطنات الضفة والجولان•الىجانب ذلك عقد في التاسع من تشرين الثاني اجتماع في مكتب وزير الزراعـة اريئيل شارون اشترك فيه مسؤولون عن وزارة الدفـاع تمخض عن قرار يدعو الى البدء باقامة

٩٠٠ وحدة سكنية ، واستكمال شق طريق رئيسية بين السهل الساحلي والاغوار عبر منطقة نابلس ، واقامة عدد من المستوطنات في الضفة الغربية ، وتعزيز الاستيطان القائم في الاغوار وهضبة الجولان بالمباني الجديدة ·

اما فيما يتعلق بالنشاط الاستيطاني خلال فترة الاعوام الخمسة القادمة – (اي خلال فترة الحكم الذاتي) فقد كشف النقاب مؤخرا عن خطتين استيطانيتين تهدفان الى تهويد اكبر قدر من الاراضي الفلسطينية المحتلة منذ ١٩٦٧ · تعتمد الخطة الاولى ، المسماة بـ « الخطة الاساسية» الخاصة بقسم الاستيطان التابع للوكالة اليهودية ، على اقامة ٨٤ مستوطنة في الضفة الغربية ، بتمويل يصل الى ٥٤ مليون ليرة · ومن المقرر ، وفق هذه الخطة توطين ٢٧ الف عائلة يهودية في مستوطنات جديدة و ١٦ الف عائلة في المستوطنات المقترح اقامتها و ١١ الف عائلة في اطار خطط التكثيف · اي ان الخطة ترمي الى غرس قرابة ربع مليون مستوطن يهودي خلال فترة الاعوام الخمسة القادمة في الضفة الغربية · وربما تكون هذه الخطة الطموحة خير تفسير لرغبة اسرائيل في الاحتفاظ بمليون دونم من اراضي الضفة خلال فترة الحكم الذاتي ·

اما الخطة الثانية ، فتتعلق بقطاع غزة ، وتخص الوزير شارون · وقد وافق عليها كل من رئيس الحكومة مناحيم بيغن ، ووزير المالية سمحا أرليخ ،وتعتمد على اقامة مدينة يهودية في قطاع غزة ، كتعويض عن مستوطنة يميت في الاراضي المصرية · ومن المقرر لهذه المدينة الجديدة، وفق الخطة ، احتلال منطقة تبلغ مساحتها ٥ر١٤ الف دونم تقع بين خان يونس ورفح·

الى جانب الخطط الاستيطانية المستقبلية ، استمرت سلطات الاحتلال في الاستيلاء على مزيد من الاراضي العربية في الضفة الغربية متذرعة بالحجة الواهية المعهودة ، حجة الامن · فقد استولت في النصف الاول من شهر كانون الاول الماضي ، على مساحات واسعة من الاراضي في منطقتي الخليل وبيت ساحور ، ففي الخليل تم الاستيلاء على اراضي ملاصقة لمستوطنة كريات اربع تخص في معظمها الشيخ محمد علي الجعبري ، وذلك لخدمة اغراض تكثيف المستوطنة · وفي بيت ساحور تم الاستيلاء على اراضي بالقرب من مستوطنات غوش عتسيون بغرض تكثيف الاستيطان هناك ودعمه ·

وفي غضون ذلك اثيرت قضية مصادرة ٢٤٠٠ دونم في بيت ايل واراضي واسعة اخرى في طوباس امام « محكمة العدل العليا » الاسرائيلية · وقد غصت قاعة المحكمة بالعرب واليهود من فئة المستوطنين لسماع قرارها بأمر المصادرة · وقامت سلطات الامن بمنع اعداد كبيرة من العرب من دخول القاعة ، من بينهم كريم خلف رئيس بلدية رام الله وابراهيم الطويل رئيس بلدية البيرة ، مما تسبب بحدوث اشتباك بالايدي مع قوات الشرطة · وقد دافع « محامي الدولة » عن « شرعية » أمر المصادرة على اساس ان « تاريخ دولة اسرائيل مليء بنماذج من الحالات التي تشكل فيها المستوطنات عاملا هاما للغاية في الفهم الامني · واقيمت المستوطنات في بيت ايل وطوباس لاغراض عسكرية ، وتعتبر عاملا مهما في التشكيل الامني للجيش الاسرائيلي وللمنطقة » ·

وبناء على هذا « الفهم » لم ير في مصادرة الاراضي ما يتناقض والمواثيق الدولية او حتى مع اتفاقيات كامب ديفيد·

وقد اجلت المحكمة اصدار حكمها ، المعروف سلفا ، الى موعد « لاحق » وتمشيا مع سياستها الرامية الى خلق واقع جديد على انقاض الواقع الاصيل ، قامت سلطات الاحتلال مؤخرا بهدم منازل عربية ففي الثالث والعشرين من تشرين الثاني فوجىء العرب القاطنون في

جبل المكبر بجرافة يصحبها عدد من المسلحين اليهود تتجه نحو بيت يخص مواطنا عربيا لتقوم بهدمه بصورة « وحشية » كما ذكر السكان العرب لمراسلي الصحف ، دون انذار مسبق بالامر بعملية الهدم وقد اعترف المتحدث باسم « ادارة اراضي اسرائيل » ردا على الاسئلة التي وجهت اليه بهدم المنزل ، الا انه كذب الادعاء القائل بوجود اسلحة بايدي المرافقين لآلة الهدم ، ومع ذلك عاد، تحت ضغط الاسئلة ، وناقض نفسه بالقول، حين تساءل : « من في هذه الايام وفي الظروف القائمة اليوم في البلاد لا يسير مسلحا ؟ » ·

وفي الثالث من كانون الثاني اقدمت سلطات الاحتلال على هدم منزل آخر ، بحجة ان لصاحب البيت ابن معتقل بتهمة تصفية العميل عبد النور جنحو من رام الله · وقد واجه اهالي القرية عملية الهدم بالتظاهرات ضد قوات الاحتلال التي هرعت الى البلدة وفرضت عليها حظر التجول ·

لا يقتصر النشاط التوسعي في الاستيلاء على الاراضي ومياهها الجوفية لتسخيرها لاغراض الاستيطان ، تمهيدا لاقتلاع السكان الاصليين والقذف بهم بل يتعدى ذلك ويمتد الى الاماكن المقدسة .

كما حدث مؤخرا للحرم الابراهيمي . ففي اعقاب « تقسيم » الحرم عقب الاحتلال الى قسمين ، احدهما خصص للعرب ، والآخر لليهود ، اخذت انظار غلاة المستوطنين تصبو نحو « القسم » العربي· ففي الحادي والعشرين من تشرين الثاني ، قام حوالي ٧٠٠ مستوطن من كريات اربع بمحاولة للتوسع في « القسم الاسلامي » حسب تعبير الصحف الاسرائيلية . ولم يكف هؤلاء عن « احتلالهم » الا بعد تدخل قوات من الجيش ؟

نص قرارات مؤتمري نابلس ورام الله

مؤتمر نابلس : في السابع من نوفمبر الماضي عقد في كلية النجاح في نابلس مؤتمر وطني حضره معظم رؤساء البلديات والمجالس المحلية وممثلون عن الغرف التجارية والمهنية والعمالية والاندية الخيرية والطوائف الروحية · وكذلك عدد من الشخصيات الوطنية من قطاع غزة ·

واقر المؤتمرون بالاجماع القرارات التالية :

اولا ـ ان هذا المؤتمر ان هو الا امتداد طبيعي لمواقف الرفض الجماهيري لاتفاقيات كامب ديفيد وملحقاتها . التي عبر عنها شعبنا في مؤتمراته الشعبية المقرة ، والتي كان على رأسها المؤتمر الشعبي في القدس ··· وقد اجمعت هذه المؤتمرات الشعبية على رفض نتائج كامب ديفيد جملة وتفصيلا وعلى علاتها ومن اساسها ·

ثانيا ـ ان رفض شعبنا لهذه الاتفاقيات ليس رفضا لتفصيلاتها فحسب. وانما رفض لها كمنهج استسلامي فرضته القوى المعادية لشعبنا وامتنا · لقد اجمعت الامة العربية على رفض هذه الصفقة التي انجزها نظام السادات لانها بعيدة كل البعد عن تحقيق الحد الادنى لصالح شعبنا العربي الفلسطيني وامتنا العربية ، وحتى ان فيها تفريط بالتراب الوطني المصري ، انتقاص من سيادة مصر على ارضها ·

ثالثا ـ بناء عليه فان المجتمعين يرون ان افضل رد على هاتين الاتفاقيتين هو ليس مجرد الرفض فقط . بل لا بد من :

أ ـ على المستوى الفلسطيني الالتفاف الجماهيري حول م·ت·ف، والتأكيد على ضرورة الوحدة الوطنية ·

ب ـ على المستوى العربي . التفاف كل القوى الوطنية الرافضة لنهج السادات في برنامج عمل موحد ، لافشال هذه المؤامرة وحشد الطاقات والجهود من اجل تحقيق السلام العادل ·

جـ ـ على المستوى العالمي ، لا بد من تعزيز التعاون مع كل اصدقاء شعبنا ، وعلى راسهم منظومة الدول الاشتراكية والدول الوطنية المتحررة ، ومع كل القوى المعادية للاستعمار ٠

رابعا ـ ان مشروع الادارة الذاتية التي خصتنا به اتفاقية كامب ديفيد ان هو الا محاولة لاستلاب حقوق شعبنا العربي الفلسطيني ، واضفاء الشرعية على استمرارية الاحتلال ، لهذا فاننا نؤكد من جديد رفضنا لمشروع الادارة الذاتية شكلا وموضوعا ٠

خامسا ـ اننا من هذا المؤتمر نحيي ميثاق العمل الوحدوي الذي تم الاتفاق عليه بين سوريا والعراق ، ونطالب القطرين بضرورة الاسراع بتنفيذ ما جاء في هذا الميثاق ٠

سادسا ـ اننا نطالب كل الانظمة العربية بضرورة تحمل التزاماتها التاريخية في هذه المرحلة المصيرية من تاريخ شعبنا وامتنا ٠

وانا نحي جماهير شعبنا في الداخل والخارج ، ونذكر شهداءنا الذين قدموا ارواحهم على مذبحة الشرف فداء لوطنهم»٠

المؤتمر العمالي الفلسطيني في رام الله

في اوائل كانون الاول الماضي ، عقدت الحركة العمالية الفلسطينية مؤتمرا في مدينة رام الله ضم جميع النقابات العمالية في الضفة الغربية ٠ واعلن المؤتمرون تمسكهم بالمبادىء التالية :

« اولا : التاكيد على ما جاء في بيان الاتحاد العام لنقابات العمال في الضفة الغربية ٠

ثانيا : التاكيد على ما جاء في مقررات مؤتمر القدس الوطني العام وكافة المؤتمرات الشعبية الاخرى التي عقدت في بيرزيت وبيت لحم وغزة ٠

ثالثا : التاكيد على وحدة وموقف الطبقة العاملة في المناطق المحتلة كطليعة نضالية لشعبنا الفلسطيني في نضاله الوطني من اجل حقه في العودة وتقرير المصير ، وبناء دولته الفلسطينية المستقلة بقيادة م٠ت٠ف ٠

رابعا : ان الطبقة العاملة في المناطق المحتلة ترفض رفضا قاطعا مشروع الحكم الذاتي الذي يكرس الاحتلال الاسرائيلي ، وينظم بقاءه ، ولا يتمشى مع اماني وتطلعات الشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة ٠

خامسا : ان المؤتمرين يؤكدون على رفضهم لكل الاصوات المشبوهة التي تروج لمشروع الحكم الذاتي ، وتعتبرهم اعداء حقيقيين لشعبنا الفلسطيني ٠ كما وان المؤتمرين يرون ان رابطة قرى الخليل هي احدى اشكال خلق قيادات بديلة لشعبنا التي يجب مقاومتها ٠

سادسا : يؤكد المؤتمرون على ان م٠ت٠ف٠ هي الممثل الشرعي الوحيد لشعبنا الفلسطيني في كل اماكن تواجده ٠

سابعا : يؤيد المؤتمر قرارات مؤتمر الصمود والتصدي العربية والميثاق المنبثق عن اللقاء السوري العراقي ، ويطالب العراق بالانضمام الفوري لجبهة الصمود والتصدي ، ويطالب الجبهة بضرورةتعزيز العلاقات ورفعها الى مستوى التحالف الاستراتيجي مع قوى التحرر في العالم والمعسكر الاشتراكي وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي ٠

ثامنا : اننا نحيي جماهير الشعب المصري الشقيق وطبقته العاملة ، وحركته الوطنية التقدمية في نضالها ضد النظام الساداتي الخائن ٠

تاسعا : اننا نطالب مؤتمر بغداد باتخاذ خطوات عملية ضد النهج الاستسلامي في العالم العربي وعلى رأسه نظام السادات ٠

عاشرا : ان المؤتمرين يشجبون الدور الاردني المشبوه في محاولاته تمثيل شعبنا الفلسطيني بديلا عن م٠ت٠ف٠

حادي عشر : ان الطبقة العاملة الفلسطينية في الارض المحتلة ترى ان البديل الحقيقي لمواجهة وقبر كافة الاشكال التآمرية هو النضال الجاد والشاق بمختلف اشكاله ، وتنظيم الجماهير الشعبية وتحقيق الوحدة الوطنية ضمن جبهة وطنية تقدمية مناضلة » ·

عبد الحفيظ محارب

اسرائيليات

١ ـ الموقف الاسرائيلي في مفاوضات السلام

السابع عشر من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨ ، هو الموعد المحدد حسب اتفاقات كامب ديفيد ، لتوقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل · وحتى قبل حلول هذا الموعد بأسبوع ، ما زالت هناك مسائل معلقة ، لم يجر الاتفاق عليها بعد بين البلدين ، ربما ستؤدي الى تأجيل عملية التوقيع على معاهدة السلام الى اجل غير مسمي · وفي هذه الاثناء ، يبذل وزير الخارجية الاميركي ، سايروس فانس ، جهدا خاصا ، في التنقل ما بين اسرائيل ومصر ، في محاولة لانهاء المفاوضات السياسية ، وايجاد مخرج للقضايا المعلقة ، قبل الموعد المقرر ·

وكانت الحكومة الاسرائيلية قد صادقت بتاريخ ٧٨/١١/٢١ ، على مسودة معاهدة السلام مع مصر ، بالصيغة التي تم الوصول اليها في محادثات «بلير هاوس» فيواشنطن ، اعتمادا على صيغة حل الوسط ، التي اقترحها الرئيس الاميركي كارتر (دافار ، ٢٢ /٧٨/١١) · واهم ما تتضمنه مسودة المعاهدة تلك ، المقدمة التي تقول ان اتفاقات كامب ديفيد يجب ان تكون اساسا للسلام ، ليس فقط بين مصر واسرائيل ، وانما ايضا بين اسرائيل وكل من جاراتها العربية الاخرى التي تكون مستعدة للتفاوض معها من اجل السلام ، وفقا لذلك الاساس · وان الطرفين مقتنعان بأن الاتفاق بينهما ، خطوة هامة في السعي الى سلام شامل في المنطقة ، وفي التوصل الى تسوية شاملة للنزاع العربي ـ الاسرائيلي ·

وتنص المعاهدة ، كما نشرت في المصادر الاسرائيلية ، على انهاء حالة الحرب بين اسرائيل ومصر ، والتزامهما بإقامة سلام بينهما ، وكذلك استعداد اسرائيل للانسحاب الى الحدود الدولية في سيناء ، واعترافها بالسيادة المصرية على كل شبه الجزيرة· وقد وردت تفاصيل الانسحاب في ملحق خاص وخرائط مرفقة ، ذكر فيها ان الاشارة الى قطاع غزة خارج الحدود الدولية لسيناء ، لا يعتبر تحديدا لمركزه · كذلك تتحدث المعاهدة عن التزام الطرفين بانشاء علاقات سلام بينهما ، جرى تفصيلها في ملحق خاص ايضا · كذلك تتطرق الى التزام مصر بالامتناع عن اعمال ارهابية ضد اسرائيل ، والعمل على منعها · وهناك بند خاص ايضا حول ترتيبات الامن بين الطرفين ، ودور الامم المتحدة بموجب المعاهدة · وقد ارفق هذا البند بملحق خاص حول الترتيبات العسكرية في سيناء · وبالنسبة للممرات المائية ، فأن المعاهدة تضمن حرية الملاحة

في قناة السويس ومضائق تيران وخليج العقبة . وحسب النص فأن الاتفاق بين البلدين لا يتأثر بتقصير او عمل اي منهما في علاقاته مع طرف آخر ، ونصوص المعاهدة هي المفضلة في حال وجود تناقض بينها وبين اتفاقات اخرى . والنقطة الاخيرة التي تشير اليها ، هي التزام الطرفين بحل النزاعات بينهما الناشئة عن تطبيق او تفسير المعاهدة بواسطة المفاوضات او التحكيم (ملخص عن النص الكامل لمسودة المعاهدة . هآرتس ٧٨/١١/٢٦) .

لقد طالبت مصر بادخال تعديلات على موضوعين اساسيين ضمن المعاهدة : الموضوع الاول يتعلق بالربط بينها وبين مسألة بدء تطبيق الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، حيث يطالب المصريون تحديد موعد لاجراء الانتخابات لمؤسسات الحكم الذاتي ، اقصاه كانون الاول ١٩٧٩ . ويجري هذا التحديد في رسالة خاصة مرفقة بالمعاهدة . والموضوع الثاني ، هو تعديل البند السادس الذي يمنح المعاهدة افضلية على باقي معاهدات مصر مع العالم العربي ، خاصة معاهدة الدفاع العربي المشترك . وحسب المقترحات المصرية الاخيرة التي حملها فانس الى اسرائيل ، فأن مصر تراجعت عن المطالبة بتعديل هذا البند في مسودة المعاهدة واكتفت بحذفه والاشارة اليه في رسالة مرفقة بها . بالاضافة الى ذلك ، فهي تطالب الان باعادة فحص المعاهدة بعد مضي خمس سنوات ، وعدم تبادل السفراء بينها وبين اسرائيل ، حتى تشكيل مؤسسات الحكم الذاتي (رآ ، ٧٨/١٢/١٤) .

وكانت الحكومة الاسرائيلية ، قد رفضت في قرارها الصادر في ٧٨/١١/٢١ موضوعي « الربط » وتعديل البند السادس في المعاهدة ، الذي يمنحها الافضلية على باقي معاهدات مصر ، كما ذكرنا ، معلنة عن استعدادها للتوقيع على معاهدة السلام مع مصر ، بالصيغة التي تم الوصول اليها في محادثات واشنطن . وجاء في هذا القرار ايضا ان الحكومة الاسرائيلية مستعدة لبدء المفاوضات بشأن اتفاق حول بدء تطبيق الحكم الذاتي الاداري في الضفة الغربية وغزة ، بعد التوقيع على معاهدة السلام بينها وبين مصر دون تحديد لوقت (دافار ، ٧٨/١١/٢٢) .

وقد عادت الحكومة الاسرائيلية واكدت رفضها المطالب المصرية في جلسة خاصة عقدتها في تاريخ ٧٨/١٢/١٥ ، اثر زيارة فانس الى المنطقة ، محملة مصر مسؤولية فشل المفاوضات حتى الآن ، ومتهمة الولايات المتحدة بالانحياز الكامل لها .

وقد شرح وزير الخارجية الاسرائيلي دايان ، موقف حكومته بقوله : « ان اسرائيل تعارض مبدئيا طلب مصر تحديد ربط ملزم بين مواعيد محددة لاخلاء سيناء واقامة علاقات ديبلوماسية منتظمة. وبين التقدم في مجرى اقامة الحكم الذاتي . ان المصريين يطالبون بجدول زمني صعب ، تبدل اسرائيل بموجبه الحكم العسكري بأدارة محلية في اطار الحكم الذاتي ، خلال تسعة اشهر» (دافار، ٧٨/١١/١٩) . واضاف دايان انه «حتى في كامب ديفيد جرى الاتفاق على ادارة مفاوضات بشأن صلاحيات الادارة المحلية حتى يتوصل الاطراف الى اتفاق . ومن يستطيع المراهنة على حل جميع المشاكل خلال هذه الفترة ؟ فالحديث يدور حول صلاحيات الادارة الذاتية ومشكلة المستوطنات والاراضي ومركز المستوطنات اليهودية المجاورة للقرى العربية . ومشاكل القضاء والمياه وما شابه . اضافة الى ذلك هنالك مشكلة القدس والامن الداخلي والحرب ضد « فتح » في المناطق . يجب التوصل الى اتفاق بشأن جميع هذه المواضيع قبل الانتخابات لمؤسسات الحكم الذاتي » (المصدر

نفسه) · وعلق رئيس الحكومة بيغن على مطالب مصر بقوله : « اننا نعارض كل جدول زمني ··· بالنسبة لتطبيق الحكم الذاتي من اجل السكان العرب في الضفة الغربية وغزة · لسنا على استعداد لادخال قوة من الشرطة المصرية الى غزة، او أي مكتب ارتباط مصري [كما طالبت مصر] » (معاريف ، ٧٨/١١/٢٠) · وعدد بيغن شروط اسرائيل الثلاثة ، التي « لا تستطيع التراجع عنها ، بالنسبة لتطبيق الحكم الذاتي في الضفة والقطاع بقوله ··· اولا ، بقاء الجيش الاسرائيلي في هذه المنطقة كما اتفق عليه في اطار كامب ديفيد ، ثانيا ، ضمان امن اسرائيل ثالثا ، استمرار الاستيطان اليهودي في المنطقة » (المصدر نفسه) ·

٢ مخاوف السلام لدى الاسرائيليين

يلاحظ انه كلما طالت المفاوضات السياسية بين مصر واسرائيل ، حول تحقيق معاهدة السلام بينهما ، تزداد مخاوف الاسرائيليين وشكوكهم بجدوى السلام يوما بعد يوم · وهذه المخاوف ليست من نصيب المعارضة فقط ، التي تشهد انهيار سياستها في المناطق المحتلة ، خاصة في سيناء ،وانما داخل التكتل الحكومي ايضا ، الذي يشهد خلافات وصراعات حادة بين اعضائه · فالنائبة المعارضة غيئولا كوهين من ليكود، بادرت الى تشكيل « وسط المخلصين لمبادىء حركة حيروت » ، وهدف اعضائه الاطاحة ببيغن وافشال محادثات السلام الجارية ·

ومن خلال الوقوف على اراء كبار السياسيين والكتابمن مختلف الفئات الحزبية في اسرائيل ، يمكن التعرف على بعض دوافع ترددهم وخوفهم من السلام المرتقب مع مصر ·

اولى هذه الدوافع هو الخوف من ان يكون اتفاق السلام مع مصر ، والانسحاب الكامل من سيناء ، سابقة بالنسبة للجبهات الاخرى · وقد اعلن وزير الدفاع الاسرائيلي عيزر وايزمان ، امام الرئيس كارتر ان السادات يخطيء اذا كان يعتقد ان « سابقة سيناء » يمكن تطبيقها على الجبهات الاخرى (نقلا عن يوسف حاريف، معاريف ، ٧٨/١١/١٧) · كذلك تحدث وزير الخارجية السابق يغآل الون حول مخاوفه ازاء هذا الموضوع بقوله : « كيف ستكون ردة الفعل في العالم – خاصة في دول صديقة – اذا اعلن الرئيس الاسد يوما ما انه على استعداد للتوقيع على السلام ، في حال انسحاب كامل على غرار سيناء · سنجد انفسنا في ضائقة صعبة وماذا سنفعل اذا انضم اليه الملك حسين ايضا ، وطالب بالسلام مقابل الضفة ؟ ان هذا الامر يمكن ان يحدث ، خاصة وان تأييد الولايات المتحدة مضمون لهم ··· اضف الى ذلك ان هنالك استراتيجيين عرب ، يعتقدون انه ليس من سبيل للقضاء على اسرائيل ، الا بواسطة تحجيمها الجغرافي – استراتيجي ، وبعد ذلك ترك خيبة الامل الاسرائيلية تفعل فعلها في المعنوية القومية ، من اجل زيادة النزوح وتقويض المجتمع · عندئذ ما عليهم سوى انتظار الساعة الملائمة ، سياسيا واستراتيجيا ، لتوجيه الضربة الاخيرة · اننا بطبيعتنا ذوو نفس قصير ، ولا ندرك معنى النفس الطويل – الذي يعتبر ميزة قومية للعرب · الله مع الصابرين – يقول العربي – وقليلو الصبر كالكافرين · انهم يراهنون على المجرى التاريخي الذي يعمل لصالحهم ، سواء من الناحية السياسية او من ناحية التكاثر الطبيعي لدى العرب في اسرائيل والمناطق ، ثم من ناحية الضعف الذي بدأت ملامحه تظهر في المجتمع اليهودي في اسرائيل » (من مقابلة معه ، ملحق هآرتس ، ١٩٧٨/١١/١٧) ·

والعامل الثاني هو الخوف من الحكم الذاتي · لقد تحول مشروع الحكم الذاتي ، بفعل اتفاقات كامب ديفيد ، من

مشروع دائم ، حسب الصيغة الاسرائيلية الاولية ، الى مشروع مؤقت لفترة خمس سنوات . « لقد اصبح واضحا بالنسبة لجزء كبير من الاسرائيليين ، ما سيؤدي اليه الحكم الذاتي ... انه الدولة الفلسطينية في الطريق » (اهرون غيفع ، دافار ، ٧٨/١١/٢٠) . واكبر المتخوفين من هذا الاحتمال ، هم زعماء المعارضة بيريس ورابين وغيرهم ، الذين بداوا يراهنون على امكانية فشل المفاوضات حول تطبيق هذا المشروع في المستقبل . وقد اعلن رئيس الوزراء السابق رابين ، انه « اذا استطاعت اسرائيل ، الاصرار على مواقفها السياسية في هذه المفاوضات ، حتى اذا لم يتحقق اتفاق في سنة ١٩٨٠ ـ فانها لتستطيع الوصول الى سنة ١٩٨١ دون مجابهة حامية مع الولايات المتحدة . وذلك لسبب بسيط ، وهو ان انتخابات

الرئاسة في الولايات المتحدة ستجري في سنة ١٩٨٠ » (يديعوت احرونوت ، ٧٨/١٢/١)

ان فشل المفاوضات اذا كان سيريح البعض ، فانه حسب رأي البعض الآخر ، سيلحق ضررا باسرائيل على صعيد علاقاتها مع الولايات المتحدة ومصر ، خاصة بعد توقيع معاهدة السلام . لذلك فان اسرائيل معنية على لسان رئيس حكومتها بيغن ووزير الخارجية دايان ، بالبدء فورا بالمفاوضات حول تطبيق الحكم الذاتي ، فورا بعد توقيع معاهدة السلام مع مصر ، وان كانت لا توافق على الالتزام بجدول زمني للتطبيق . وما يقلق اسرائيل في الاساس هو معارضة السكان الفلسطينيين في الداخل لمشروع الحكم الذاتي . « فاذا استمر عرب المناطق في معارضتهم هذه ـ وهذه الامكانية قائمة حتى اذا وقع السادات على معاهدة السلام ـ فان اسرائيل لن تستطيع تشكيل « المجلس الاداري » وفق انتخابات في المناطق . وثمة شك كبير اذا كانت الليبرالية التي ستتبعها اسرائيل حسب

فكرة دايان ، ستحررها من الضغط المصري ـ الاميركي المشترك .

« ان عدم اقامة الحكم الذاتي يعني عدم تحقيق احد المركبات الاساسية في اتفاقات كامب ديفيد . ولا يمكننا الافتراض ان اية خطوة اسرائيلية فردية، على غرار تقليص وجود الحكم العسكري في المناطق المدارة ، ستعتبر بمثابة ملء للفراغ » (فولص ، هآرتس ، ٧٨/١١/٢٤) .

والمخرج الوحيد في رأي الكاتب ، سيكون « ضغطا اميركيا على اسرائيل لتبديل موقفها من م.ت.ف. ، وكأنما لا وجود للحكم الذاتي ، دون استعداد المنظمة للسماح للنشيطين العرب المحليين بالمشاركة في تأسيسه » (المصدر نفسه).

وما سيزيد المفاوضات تعقيدا ، هو انه بالاضافة الى معارضة الفلسطينيين في

الداخل لاخذ دورهم في تشكيل الحكم الذاتي ، فان اسرائيل تواجه مشاكل كثيرة ومعقدة في نظرها ، من شانها ان تؤدي الى فشل هذه المفاوضات ، واولها « التركيز على ضمان مستقبل المستوطنات في غوش عتسيون وغور الاردن ، وضمان المصالح الامنية الاسرائيلية في المنطقة ... ثم ضمان « اسرائيلية » القدس الموحدة » (المصدر نفسه) . وقد تطرق احد اعضاء بلدية القدس والمسؤول عن شؤون القدس الشرقية سابقا ميرون بنبنيستي ، الى موضوع المفاوضات المقبلة حول الحكم الذاتي بقوله : « ليس سرا ان الاميركيين ... اعدوا اقتراحات مفصلة حول صلاحيات الحكم الذاتي . ويمكن الافتراض ، انه عندما يحين الوقت لعرض هذه المقترحات ، ستطرح الحكومة الاسرائيلية مطالبها بشأن اراضي الدولة والمستوطنات ... وحسب اسلوب الاميركيين سيتجاوزون هذه الامور ، مطالبين برد واضح حول المسائل الاخرى . والمشكلة هي ان هذه « المسائل

الاخرى» هي الاساس ٠ لان طابع العلاقات المستقبلة بيننا وبين جيراننا الفلسطينيين سيتحدد ليس على اساس الواقع الاصطناعي في الجيوب الاستيطانية ومعسكرات الجيش ، وانما في مجمل القضايا اليومية للشعبين ٠ وتشمل هذه القضايا : الجمارك والتخطيط والتصنيع والكهرباء والضرائب والنقل والزراعة والعملات والمصارف ، واعادة اسكان اللاجئين والمياه ، ثم تنقل العمال والتجارة » (دافار ، ٧٨/١١/٢٤) ٠

ويضيف بنبنيستي قائلا : « هناك سؤال جوهري ، من وراء هذه المسائل التقنية ـ هل نحن على استعداد فعلا للسماح للفلسطينيين بادارة شؤونهم بانفسهم ، واعتبارهم متساوين ، ام ان قصدنا هو اقامة بانتوستان ، الهدف منه تخليد الوضع القائم ، تحت ستار جديد » (المصدر نفسه) ٠

٣ ـ الثمن الاقتصادي للسلام

رغم تفاؤل الكثيرين في اسرائيل ، من ان السلام سيحقق منافع اقتصادية جمة ، فأن هناك قلقا كبيرا من الثمن الاقتصادي الذي ستدفعه اسرائيل مقابل السلام ، خاصة في السنوات الاولى بعد توقيع المعاهدة مع مصر ٠ وستعتمد اسرائيل على الولايات المتحدة في تمويل حاجاتها الاقتصادية بعد السلام ٠ وقد عدد شمعون بيريس العوامل التي تجعل ثمن السلام باهظا بالنسبة لاسرائيل ، فذكر ان الاقتصاد الاسرائيلي لا زال يتحمل العبء الاقتصادي لخمس حروب كبيرة ،خاضتها اسرائيل خلال الثلاثين سنة الاولى منذ قيامها ٠ [كذلك] فأن اسرائيل ملزمة بالحفاظ على الجهاز الامني بشكله الحالي، حتى بعد تحقيق السلام مع مصر ٠٠٠ وسيكلف نقل منشآت الجيش الاسرائيلي من سيناء الى النقب نحو ٤٫٥ مليار دولار خلال ثلاث سنوات ٠ وستستهلك هذه المنشآت جزءا كبيرا من اراضي النقب ، خاصة من الاراضي السهلية ، حيث يحتاج المطار الواحد مثلا الى نحو ٤٠ الف دونم من الاراضي السهلية ٠٠ واخيرا ، ستضطر اسرائيل بعد اتفاقات كامب ديفيد ، الى اعادة تنظيم قواتها في الضفة الغربية وغزة ٠ ومهما حدث ، سواء اقيم الحكم الذاتي ام لا ـ فان الوضع في هذه المناطق سيكون مختلفا تماما عما كان عليه في السابق ٠ فاذا تم تطبيق الحكم الذاتي، سيضطر الجيش الاسرائيلي الى اعادة تنظيم قواته ٠ اما اذا لم يطبق ، فسنشهد فترة من عدم الهدوء السياسي ، وازديدا حدة المشاعر القومية لدى السكان ٠٠ الامر الذي يلزم تشديد الاجراءات الامنية » (يديعوت احرونوت ، ٧٨/١١/٢٤) ٠

على اي حال ، فان كبار الخبراء الاقتصاديين في اسرائيل يعتقدون ان السنين الثلاث الاولى بعد توقيع معاهدة السلام مع مصر ، ستكون صعبة من الناحية الاقتصادية ، وربما يبدأ الانفراج بعد ذلك ٠

٤ ـ السلام كمخرج

اذا كان هناك من يخشى السلام في اسرائيل ، او يتخوف من بعض نتائجه ، فأن هناك ايضا من يخشى عدم تحقيقه في الوضع الراهن ، وبعد التطورات السياسية المتلاحقة في المنطقة خلال السنة الاخيرة ٠ فدايان يقول ، من الافضل الوصول الى اتفاق سلام الآن ، على الانتظار سنتين او ثلاثا ، حيث تكون الظروف اسوأ بالنسبة لاسرائيل ٠ « انني ارى ما يحدث في ايران وما حدث في اثيوبيا ، وانظر الى تزويد الطائرات والاسلحة الاميركية للسعودية . وانساءل : اذا اعلنا اننا لا نريد الاتفاق مع مصر الان ، هل نستطيع الاستمرار في العيش بهدوء ، والبقاء في المناطق بواسطة الحكم العسكري ؟ هل نستطيع الاستمرار هكذا جيلا او جيلين ؟ ام اننا بعد سنتين سنأسف على هذه الفترة حيث كان

السادات مستعدا للسلام ، وكارتر مستعدا لفرض علاقات طبيعية » (دافار ، ٢٩/١١/٧٨) · ان الوقت لا يعمل لصالح اسرائيل ، في نظر بعض السياسيين والكتاب الاسرائيليين ، اذ ان التطورات في العالم وفي الشرق الاوسط يمكن ان تكون لغير صالحها · واكثر ما يقلق هؤلاء هو تطور العلاقات الاميركية – العربية ، كما يدعون ، على ضوء المصالح الاميركية في العالم العربي ، الامر الذي بات يقلقهم ويدفعهم الى اتهام اميركا بالانحياز للعرب · « فالولايات المتحدة كدولة كبرى لها مصالح استراتيجية في الشرق الاوسط ومصالح قومية ايضا في الحصول على النفط من هذه المنطقة · ان علاقات اسرائيل – العرب ، تبدو عاملا هاما في تطور مركز الولايات المتحدة في المنطقة » (الياهو سلفطر ، هآرتس ، ٢٦/١١/٧٨) ·

لذلك يرى البعض ، وعلى راسهم دايان ووايزمان ، ان تنظيم العلاقات مع مصر، بواسطة توقيع معاهدة السلام معها ، امر ضروري بالنسبة لاسرائيل ·

حنه شاهين

قضايا دولية

كان الحضور الفلسطيني على الساحة الدولية خلال الشهر المنقضي (كانون الاول ، ١٩٧٨) كثيفا بصورة ملفتة وعميقة الدلالة في الوقت نفسه ·

لم يكن ذلك مجرد انعكاس لمنافسة احتفالية مثل « اليوم العالمي للتضامن مع الشعب الفلسطيني » ، انما كان بالاحرى انعكاسا للعلاقات المتشابكة السائدة على هذه الساحة الدولية بشكل عام ، والدور الذي تمثله القضية الفلسطينية على خطوط تقاطع هذه العلاقات الدولية بشكل خاص ·

فنحن نلاحظ « حضورا فلسطينيا » ليس فقط في تطورات ازمة الشرق الاوسط المباشرة خلال الشهر المنقضي – بما فيها تطورات المفاوضات المصرية – الاسرائيلية والدور الاميركي فيها والتأثيرات والمؤثرات العالمية المحيطة بها – انما نلاحظ هذا الحضور في تطورات دولية اخرى ذات طابع حاد ، وان تكن ذات علاقة مباشرة بالقضية الفلسطينية ، مثل احداث ايران والتصاعد الذي بلغته ثورة جماهيرها الشعبية ضد النظام القائم بزعامة الشاه، ومثل التطورات المتصلة بالعلاقات العربية السوفياتية · ومثل الحلقة الجديدة من مواقف رومانيا ذات الطبيعة الخاصة فيما يتعلق بالصراع العربي الاسرائيلي ، الذي ظهرت في معارضة بوخارست بيان حلف وارسو في شقين ، احدهما يتعلق بتطورات الصراع العربي – الاسرائيلي ومحاولات « الحل المنفرد » بين مصر واسرائيل ، اذ اتخذت رومانيا – مرة اخرى – موقفا منفردا داخل حلف وارسو في صف اسرائيل ، حتى مذبحة « غويانا » البعيدة التي تمثلت في عملية « الانتحار الجماعي» لاعضاء جماعة « معبد الشعب » ادخلت فيها اجهزة الاعلام الاميركي ، والغربي عامة ، عنصر حضور فلسطيني !

وتتبع تطورات الاحداث على مدى هذا

الشهر كفيل بايضاح مدى كثافة «الحضور الفلسطيني» ، وايضاح دلالات هذا الحضور ومغزاه بالنسبة لكل موقع على خريطة العلاقات الدولية ٠

فشل لكامب ديفيد

التطور الابرز الذي حمله شهر كانون الاول (ديسمبر) فيما يتعلق بالمحاولات الاميركية ـ المصرية ـ الاسرائيلية للتوصل الى « معاهدة سلام » بين مصر واسرائيل، هو انقضاء موعد المهلة التي حددتها اتفاقات « كامب ديفيد » لتوقيع هذه المعاهدة ، وهو يوم ١٢/١٧ ، اي اليوم الذي يوافق مرور ثلاثة اشهر على توقيع اتفاقات « كامب ديفيد » (كارتر ـ السادات ـ بيغن) ٠

وقد انقضت الاسابيع السابقة على هذا التاريخ في شد وجذب بين « التفاؤل » و « التشاؤم » بشأن امكان التوصل الى اتفاق بين مصر واسرائيل ٠ ولم يكن هذا الشد والجذب شأنا من شؤون الاعلام في الاطراف الثلاثة المشاركة في هذه المحاولة انما كان شأنا واضحا من شؤون الاطراف نفسها وممثليها على اعلى مستوى ٠ اذ اخذت تصريحاتهم تتراوح بين « الامكان » و « الاستحالة » ٠

فنجد ـ على سبيل المثال ـ ان الرئيس الاميركي كارتر صرح في يوم اجتماعه بمصطفى خليل رئيس وزراء مصر ـ الذي اوفده حاكم مصر انور السادات الى واشنطن لنقل وجهة النظر المصرية ـ بأنه غير راض ومستاء بسبب التقدم البطيء في المفاوضات المصرية ـ الاسرائيلية ٠ ولكنه يؤكد في التصريح نفسه ان المعاهدة ستبرم مهما كانت الصعوبات ٠ وقال : « انني مستاء نوعا ما ، ولكن النكسات لم تعد اخطر من بعض الصعوبات التي واجهناها خلال الايام الـ ١٣ في كامب ديفيد ٠ اني اعرف ان الرئيس السادات ومناحيم بيغن يريدان توقيع معاهدة سلام » ٠ وقد ذهب كارتر في هذا التصريح الى حد كبير في تبسيط الامور اذ قال ان كلا الطرفين يثير العقبات « بسبب التفاوض عبر الصحافة » ٠ (١٢/١) ٠

في اليوم نفسه (١٢/١) كانت القاهرة تنشر مضمون رسالة بعث بها السادات الى كارتر مع خليل على انه يتلخص في ثلاثة مبادىء (الاهرام) :

ـ الربط بين المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية والحكم الذاتي للفلسطينيين ٠

ـ النوايا الصادقة لاسرائيل ٠ ـ احترام اتفاقيتي « كامب ديفيد » ٠

وبالاضافة الى هذه المبادىء الثلاثة حددت رسالة السادات الى كارتر اربعة اجراءات ، لازمة لتنفيذ هذه المبادىء :

☐ صيغة رسائل يتم تبادلها بين مصر واسرائيل تكون متطابقة ، تحدد بجدول زمني اجراء مفاوضات بعد شهر من التوقيع والتصديق على المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ، وتتناول خطوات قيام مؤسسات الحكم الذاتي الكامل في الضفة الغربية وغزة ٠

☐ تحديد موعد اجراء الانتخابات في الضفة الغربية وغزة على اساس أن يتم التفاوض على الموعد المحدد لذلك ٠

☐ يتم انهاء الحكم العسكري الاسرائيلي بعد قيام مؤسسات الحكم الذاتي في الضفة وغزة بشهر واحد ٠

☐ يتم تحديد فترة متفق عليها لتحقيق هذه الخطوات في اطار الاقتراح الاميركي، الذي نص على ان الفترة لا تزيد على عام واحد ٠

بالمقابل قال موشي دايان وزير خارجية اسرائيل في حديث لصحيفة « يديعوت احرونوت » : « بصراحة لم اعد اعرف

ما اذا كنا قد اقتربنا من السلام فعلا ، ولو كان الامر يتعلق بمجرد ابرام المعاهدة مع مصر لكنت اكثر تفاؤلا من ذلك بكثير. بيد ان معارضينا المصريين يصرون على عدم امكانية ابرام سلام منفصل ، واذا اشترط المصريون بنودا ملزمة تربط السلام مع مصر بحل وطني للمشكلة الفلسطينية فسوف تتعقد الامور بدرجة لا يسعني معها ان اجد ردا » . (١٢/١) .

واللهجة التي يعكسها تصريح دايان هذا ، تنعكس بدرجة او بأخرى في تصريحات ومواقف المسؤولين الاسرائيليين على مدى الاسابيع التي سبقت الموعد الذي حددته اتفاقات « كامب ديفيد » لتوقيع المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية . الامر الذي يؤكد ان الاسرائيليين كانوا اكثر تصورا لطبيعة الصعوبات من الطرفين المصري والاميركي . ويؤكد ايضا ان اسرائيل قررت الالتزام الحديدي بما اعلنته قبل ذلك (وعلى لسان دايان ايضا) من انه يتعين على مصر ان توقع على مسودة المعاهدة كما هي او ترفضها كلية .

وعاد الرئيس الاميركي للوقوع في خطأ تبسيط الامور ، عندما اصدر ، بعد اجتماع استمر ٣ ساعات مع مصطفى خليل رئيس وزراء مصر (١٢/٢) ، نداء مستعجلا من اجل استئناف « محادثات الصلح » بين مصر واسرائيل .

اما رئيس الوزراء المصري فقال ان كارتر سيواصل دفع الجهود الاميركية الى الامام لكي يكون بالامكان استئناف المفاوضات المصرية ـ الاسرائيلية وتتويجها بنهاية سعيدة . وشدد على رغبة مصر في اقامة علاقة قوية بين « معاهدة السلام » وبين المشكلة الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة .

واللهجة التي عكسها تصريح خليل ـ وهي لهجة استمرت دون انقطاع تقريبا من جانب كل المسؤولين المصريين ـ توضح ان استراتيجية « الدبلوماسية المصرية » تعول بشدة على الدور الاميركي وعلى امكانية ممارسة واشنطن ضغطا على اسرائيل ، يحملها على تخفيف صلابة موقفها من المسألتين اللتين شكلتا في النهاية العقبتين الرئيسيتين امام الاتفاق على صيغة « المعاهدة » : (أ) الربط بين السلام مع مصر والحكم الذاتي للضفة الغربية وغزة ، (ب) عدم مقدرة مصر على منح الافضلية لالتزامات المعاهدة مع اسرائيل على التزاماتها التعاهدية مع الدول العربية (وخاصة اتفاقية الدفاع العربي المشترك الموقعة عام ١٩٥١) .

في هذا الجو ـ وعند نهاية زيارة خليل لواشنطن ـ اعلن في العاصمة الاميركية رسميا (١٢/٥) ان وزير الخارجية الاميركي سايروس فانس سيزور مصر واسرائيل لاجراء محادثات مع السادات وبيغن تتناول وسائل استئناف « مفاوضات السلام » بينهما .

وبينما قالت « وكالة انباء الشرق الاوسط » المصرية ان قرار كارتر بايفاد فانس الى المنطقة يدل على « تصميم الولايات المتحدة على تضييق وتسوية الخلاف القائم حاليا بين مصر واسرائيل». قالت « اذاعة اسرائيل » ـ « ان زيارة فانس الى المنطقة تستهدف انقاذ مفاوضات السلام من الانهيار » . أما وزارة الخارجية الاميركية فقالت ان مهمة فانس هي « كسر الجمود » الذي يحيط بالمفاوضات المصرية ـ الاسرائيلية .

في اليوم التالي للاعلان عن زيارة فانس كان موشي دايان وزير الخارجية الاسرائيلي يبدأ زيارة رسمية ـ هي الاولى لوزير خارجية العدو ـ الى سويسرا . وصرح (١٢/٦) بانه ليس على علم بأي اقتراح جديد بحل وسط قد يحمله فانس لتسوية الخلاف المصري ـ الاسرائيلي . ونفى انباء اذيعت في القاهرة بان اسرائيل وافقت على جدول زمني

لاقامة الحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة مقابل موافقة القاهرة على المادة السادسة من المعاهدة والتي تعطي الاولوية للمعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية على ارتباطات مصر الاخرى · وقال دايان ان تاريخ ١٢/١٧ الذي تحدد في « كامب ديفيد » « ليست له في الواقع اهمية خاصة ، وليس هناك ما يحول دون مواصلتنا المفاوضات بعد ذلك التاريخ والوصول بها الى خير نتيجة » ·

وسط هذه التصريحات والتصورات ، كان ابرز تصريح استوقف المراقبين بشدة ونال الكثير من الاهتمام والتحليل التصريح ـ الانذار الذي وجهه الرئيس الاميركي كارتر في حديث الى الصحفيين (١٢/٧) حيث قال ان عدم توصل مصر واسرائيل الى « معاهدة السلام » قبل الموعد النهائي المحدد لها في ١٢/١١ « سيكون امرا خطيرا للغاية ولهمضاعفات عكسية بعيدة المدى » · واضاف « ان الولايات المتحدة تعتبر بوضوح الموعد النهائي للتوصل الى اتفاق بين مصر واسرائيل امرا مهما جدا جدا ، وربما اهم في هذه المرحلة مما يعتبره مناحيم بيغن رئيس وزراء اسرائيل والرئيس انور السادات » · واستطرد قائلا : «اذا تخطينا الموعد في ١٢/١٧ ··· فان هذا سيلقي شكوكا حول ما اذا كان المصريون والاسرائيليون سينفذون البنود الصعبة لمعاهدة السلام القادمة » ·

لقد حمل هذا التصريح بلهجته الانذارية عددا كبيرا من المراقبين الى القول بانه لم يعد امام القاهرة وتل ابيب الا الرضوخ لرغبة الرئيس الاميركي ، خاصة وان كلا هذين الطرفين ينتظر الحصول على « ثمن » للمعاهدة في صورة مساعدات اقتصادية وعسكرية ضخمة ·

كما اضفى هذا التصريح على مهمة فانس ، قبل ان تبدأ ، طابع اللمسة الاخيرة التي تسبق التوقيع على المعاهدة ·

وبالنتيجة ، ساد جو يوحي بان توقيع المعاهدة اصبح امرا مؤكدا ، وفي غضون الايام العشرة الفاصلة بين اليوم الذي ادلى فيه كارتر بهذا التصريح وموعد المهلة التي حددتها اتفاقيات ، كامب ديفيد » ·

ولكنه كان من الواضح ايضا ، ان كارتر يعبر عن شعوره بالاحباط نتيجة ما انتهى اليه انتصاره في « كامب ديفيد » من نتائج سلبية ، اكثر مما كان يستخدم سلاحا فعالا لتحويل تلك النتائج ·

وعشية موعد وصول وزير الخارجية الاميركي الى الشرق الاوسط نشرت صحيفة « الاهرام » المصرية (١٢/٧) مجموعة « تعديلات » تنوي مصر ادخالها على مطالبها لعقد معاهدة صلح مع اسرائيل وهي :

تبادل خطابات تكون لها قوة المعاهدة بالنسبة للبنود الرئيسية موضوع الخلاف وتوقعها مصر واسرائيل ، واميركا كضامن للتنفيذ ·

وحددت الصحيفة « النقاط الرئيسية موضوع الخلاف » فيما يلي : « (١) ايجاد الارتباط بين تنفيذ المعاهدة واقامة الحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة عن طريق تحديد مواعيد انتقال الحكم الذاتي لسكان الضفة وغزة وتحديد اختصاصاتالمجالس الجديدة لتعمل كحكومة تحل محل المجلس العسكري وليست مجرد مجالس بلدية · (٢) بالنسبة لاجراء الامن الوارد في المادة الرابعة من مشروع المعاهدة ، والذي يقسم سيناء الى ثلاث مناطق بحيث ينتهي الانسحاب من المنطقة الاولى خلال ٩اشهر على الاكثر · فان مصر ترى انالاجراءات الامنية المنصوص عليها في هذه المادة لا يمكن ان تدوم الى الابد لان الطرفين يمكنهما الدخول في مفاوضات بشأنها كلما رأى كل طرف ذلك · (٣) بالنسبة للالتزامات المصرية الخاصة بالمادة السادسة في مشروع المعاهدة ، فان مصر ترى انه لا داعي اطلاقا للفقرة الثانية الواردة في المشروع ، كما ان الفقرة

الخامسة لا يجب ان تفـــرض علينا اي اولوية ، ايمانا من مصر بانه طالما تـــم التوصل الى سلام حقيقي فليس هناك اي احتمال للحرب » ٠

وفي اليوم السابق لوصول فانس الــى المنطقة (بادئا بالقاهرة) استقبل الرئيس السوري حافظ الاسد في دمشق السناتور روبرت بيرد زعيم الاغلبية الديمقراطية في مجلس الشيوخ الاميركي ، وتسلم منــه رسالة من الرئيس كارتر ٠ وكان بيـــرد يقوم بجولة في المنطقة كمبعوث لكارتـــر زار خلالها مصر واسرائيـــل والاردن والسعودية وسوريا ٠

وصرح مصدر رسمي سوري (١٢/٨) بان المبعوث الاميركي عرض على الرئيس السوري موقف الولايات المتحدة بالنسبة لتسوية مشكلة الشرق الاوسط ، وخصوصا موقفها بالنسبة لاتفاقيتي كامب ديفيد ٠ وان الرئيس السوري شرح بـــدوره للسناتور بيرد « ان اتفاقيتي كامب ديفيد تتعارضان كليا مع قرارات الامم المتحـدة حول حل ازمة الشرق الاوسـط » ٠ وان الرئيس الاسد اكد تمسك العرب باقامـــة سلام عادل ودائم في المنطقة يقوم علــى الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي العربية المحتلة واستعادة الشعب الفلسطيني حقوقه الثابتة ، بما فيها حقه في اقامـــة دولة مستقلة على ترابه الوطني ٠

وصرح المبعوث الاميركي نفسه بـــان الرئيس السوري « استمع باهتمام الــى الرسالة التي حملتها اليه بوصفي مبعوثا خاصا للرئيس كارتر وزعيما للاغلبيـــة الديمقراطية في الكونغرس » ٠ ووصـف بيرد الرئيس السوري بأنه « رئيس دولة عظيم » ٠

وتحدث السناتور بيرد عن جولتـــه فقال ان هدفها « حث الدول التي زارهـــا على الاشتراك الفعلي في مفاوضات السلام الجارية في اطار اتفاقيتي كامب ديفيد ٠ واشار الى ان الاتفاقيتين كانتـــا موضوع نقد عنيف من رؤساء الدول الذين اجتمع بهـم » ٠

وقد اكد هذا الجانب من تصريح بيرد ان الولايات المتحدة تشعر بان احدى نقاط الضعف الخطيرة التي تعاني منهـــــا سياستها بين مصر واسرائيـل هي أخفاق السادات في اشراك اي طرف معه ٠

وعشية وصول فانس ــ وفي تل ابيب ــ اعلن مناحيم بيغن (١٢/٨) انــه كـان مستعدا لتوقيع معاهدة السلام مع مصـر في الاسبوع الماضي ، وانه على استعداد لتوقيع المعاهدة في غضـــون اسبوعين ٠ واوضح انه انما يشير بذلك الى النـص الاصلي لمسودة معاهدة الصلح المصرية ــ الاسرائيلية كما اعد في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي٠٠

ونفى بيغن ان تكون تصريحات الرئيس الاميركي كارتر قبل يومين ــ بان عـــدم توقيع مصر واسرائيل على المعاهدة قبـل ١٢/١٧ سيكون امرا خطيرا للغايـــة ــ هي بمثابة انذار نهائي » ٠

مهمة فانس

بدات زيارة فانس للمنطقة بوصوله الى القاهرة (١٢/٩) في رابع جولة له في الشرق الاوسط هذا العام ، مع ملاحظـــة ان اول جـولة تقتصـر عـلى الطرفيـــن المشتركين في المفاوضات المباشرة وهمـا مصر واسرائيل فقط ٠ وهو أمر له دلالته بالنسبة لطبيعة ردود الفعل التي تلقتهـا اتفاقات كامب ديفيد وسياسة الولايـــات المتحدة ومواقف السادات عامة من جانب الاطراف الاخرى العربية ٠

وفي البداية قالت مصادر دبلوماسيـة في واشنطن ان فانس سيقترح على مصر واسرائيل تمديد مهلة التوقيع على المعاهدة شهرا آخـر ٠

وصرح الرئيس الاميركي نفسه (امـام مؤتمر للحـــزب الديمقراطي في ولايـة

تنيسي) بانه « على ثقة من ان مصر واسرائيل ستوقعان قريبا على معاهدة للسلام في الشرق الاوسط على الرغم من التأخير والعوائق » · وقال ايضا « ان الطريق الى السلام في الشرق الاوسط صعب ومخيب للامال بالتأخيرات والمآزق· ولكن بعد خمس سنوات من آخر الحروب وثلاثة آلاف عام من الكراهية والحقد اجدني على ثقة من أن دعاءنا سيستجاب، وستوقع قريبا معاهدة سلام عادل ودائم بين مصر واسرائيل » ·

وتكشف لهجة كارتر في هذا التصريح تراجعا عن « الانذار » الذي وجهه قبل ايام الى الطرفين المعنيين بضرورة ان يتم التوقيع فيحدود المهلة المحددة · فبدلا من تاريخ ١٢/١٧ حلت كلمة « قريبا » وهي كلمة مطاطة للغاية · وهذا التراجع بدوره يكشف عن شعور كارتر بضعف قدرات الولايات المتحدة على الحسم في هذه المسألة ·

صاحبت بداية محادثات فانس في القاهرة (١٢/١٠) انباء تفيد انه سيقوم بجولة مكوكية بين القاهرة وتل ابيب في محاولة لكسر جمود الموقف والتغلب على العقبات واستئناف المفاوضات ، وان فانس « لن يغادر المنطقة الا بعد الاتفاق على موعد توقيع معاهدة الصلح بين مصر واسرائيل ·

وقبل ان ينتقل فانس في اليوم التالي (١٢/١١) الى اسرائيل صرح في مؤتمر صحفي (حضره السادات ولم يدل بأي تصريح ورفض ان توجه اليه اية اسئلة) صرح وزير الخارجية الاميركي بانه يعتقد انه تم احراز تقدم فيما يتعلق بالعقبتين الرئيسيتين امام استئناف المفاوضات المصرية – الاسرائيلية ، « الا اننا لم نتوصل بعد الى مباحثات نهائية بشأن تلك المسائل » ·

وفي واشنطن (١٢/١٢) قال الرئيس كارتر – في مؤتمر صحفي – انه اذا لم تتوصل مصر واسرائيل الى احترام الموعد الذي حددته اتفاقات كامب ديفيد فان ذلك « سيخلق سابقة خطيرة » · واضاف « ان الرئيس انور السادات ، على استعداد فيما يبدو لانهاء المفاوضات في اسرع وقت ممكن ، واتمنى ان تتخذ اسرائيل الموقف نفسه » · كما اعلن انه لن يتردد في الدعوة الى لقاء قمة ثلاثي جديد « في حال فشل كل المحاولات الاخرى » ، ولكنه اكد ان الخلافات القائمة بين مصر واسرائيل « ذات اهمية قليلة اذا ما قورنت بالخلافات الكبيرة التي جرى حلها من قبل ·

ويمكن اعتبار تصريح كارتر هذا بمثابة اول اشارة الى ما اعتبره المراقبون – خلال فترة مهمة فانس في الشرق الاوسط وبعد النتيجة التي انتهت اليها – ميلا اميركيا الى الموقف المصري اكثر منه الى الموقف الاسرائيلي · وهو تقديم للموقف الاميركي يتناول موقف أميركا من شكل واسلوب التفاوض الاسرائيلي اكثر مما يتناول جوهر الموقف الاسرائيلي · ذلك ان الولايات المتحدة لم تعلن حتى بعد انتهاء مهمة فانس الى الفشل على يد اسرائيل تأييدا صريحا للموقف المصري بشأن قضيتي « الربط » و « الالتزامات العربية لمصر » ·

وفي القاهرة – في اليوم نفسه (١٢/١٢)، اعلنناطق اميركيان فانسحمل معه الى اسرائيل بعد ثلاثة اجتماعات مع السادات افكارا جديدة بشأن طرق حل عقدة المفاوضات · وسئل هذا الناطق عما اذا كانت « الافكار الجديدة » مصرية او اميركية فرد بقوله : « ان الافكار قد نشأت من المحادثات التي عقدت هنا » ·

لم يذع شيء كثير عن محادثات فانس في اسرائيل · الا انه فجاة في اثناء وجوده هناك (١٢/١٣) اعلن الناطق الاميركي جورج شيرمان ان فانس قرر قطع مهمته والعودة الى واشنطن في اليوم التالي ، وذلك نتيجة مكالمة تليفونية بينه

وبين كارتر · وامتنع الناطق الاميركي عن ذكر اسباب هذا القرار · وقال ان فانس سيسافر الى القاهرة ليعود منها الى واشنطن ·

وقالت اذاعة اسرائيل ان فانس « سيغادر صفر اليدين ودون ان يتمكن من الحصول على موافقة اسرائيل على المقترحات التي حملها من القاهرة » ·

ولم تلبث الحكومة الاميركية ان انسحبت من موقف تركيز الاهتمام الشديد على الموعد المحدد لتوقيع المعاهدة ، الى اعلان على لسان الناطق بوزارة الخارجية الاميركية (١٢/١٤) انها تؤيد « فترة راحة ·· لتعطي الفرصة لكل طرف لكي يفكر مليا في المواقف الجديدة لشركائه وان يقرر كيفية مواصلة المفاوضات » ·

في الوقت نفسه ، اشار الناطق الاميركي بما وصفه بابداء الرئيس السادات للمرونة المطلوبة ، وقال ان الاسرائيليين يرفضون ان يلزموا انفسهم حتى في المستقبل بتنظيم انتخابات خلال عام من اجل اقامة حكم ذاتي في الضفة الغربية وغزة· واضاف : « اظن ان من الصحة القول ان المسألة باتت الآن بايدي الحكومة الاسرائيلية » ·

واستطرد الناطق الاميركي قائلا : « لا اعرف ما ستفعله الحكومة الاسرائيلية · واذا قبلوا هذه المقترحات (التي حملها فانس من القاهرة) فسيكون هناك سلام على ما نفترض · اما اذا لم يفعلوا ذلك فاني بصراحة لا اعرف ما سيحدث » ·

كذلك اعلن الناطق باسم الخارجية الاميركية انه « لا يوجد اي تفكير حتى الآن في العودة الى مؤتمر قمة آخر » ، وان البيت الابيض لا يعرف ما ستكون الخطوة التالية او ما يجب ان تكون اذا لم تتحرك اسرائيل لانهاء مأزق المفاوضات ·

لم يكن قد بقي شيء يزيد التأكيد بأن اسرائيل قد فضلت البقاء على موقفها من نقطتي الخلاف : الربط والتزامات مصر العربية ، وان مهمة فانس انتهت بالفشل ، وانتهى كل امل راود اي من الاطراف في ان يتم توقيع المعاهدة في الموعد المحدد ·

الا ان القرار الذي اعلنه مجلس الوزراء الاسرائيلي في اليوم التالي (١٢/١٥) برفضَ « الافكار الجديدة » التي حملها فانس من القاهرة الى تل ابيب كان بمثابة اول تصدع من الداخل في البنيان الذي شيد في « كامب ديفيد »· لقد اعلن بيغن ان مجلس الوزراء الاسرائيلي رفض المقترحات الجديدة ، وان اسرائيل مستعدة للتوقيع على مسودة المعاهدة بصورتها التي اعدت في « بليرهاوس » ، وان مسؤولية الفشل في التوقيع على المعاهدة تقع على عاتق مصر· وان اسرائيل « ترفض كل المقترحات الجديدة ، وكذلك التفسير الاميركي لها »·

واوضح بيغن ان « مصر تقدمت بمطالب جديدة لا يمكن لاسرائيل القبول بها ، وهي ارجاء العلاقات الدبلوماسية بين مصر واسرائيل الى ما بعد اقامة الحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة ، واعادة النظر في معاهدة السلام خلال خمس سنوات . وتعديل مادة تعطي المعاهدة المصرية – الاسرائيلية اولوية على التزامات مصر السابقة نحو الدول العربية ، وتحديد موعد لاقامة هيئات الحكم الذاتي في المناطق المحتلة ·

وتحدث بيغن عن الموقف الاميركي فقال انه كان موقفا منحازا ومرهقا · واضاف « ان لاسرائيل دورا مركزيا في حماية مصالح العالم الحر · واني لعلى ثقة من ان الولايات المتحدة ستفهم هذا وتبذل كل ما في وسعها لتعزيز موقفنا » ·

واكد ان الرفض الاسرائيلي اتخذ بالاجماع بموافقة جميع الوزراء ·

وصرح وزير الخارجية دايان بقوله : « في التحليل الاخير لا اعتقد انهم (الاميركيون) سيفرضون تسوية على

اسرائيل ، اذ انه من المستحيل فرض اي شيء على اسرائيل » .

وقد كان تصريح دايان بمثابة استباق او استجلاب لردود الفعل ضد اي بادرة للضغط على اسرائيل من جانب الادارة الاميركية . وقد اثمر تصريحه فعلا ، اذ لم يلبث « مسؤول اميركي كبير » (يعتقد انه فانس نفسه) اعلن ان قرار استدعاء فانس للعودة الى واشنطن « لا يعني انه شكل من اشكال توجيه الضغط على اسرائيل » .

وساعد على استصدار التصريحات النافية لامكان حدوث ضغط اميركي على اسرائيل ما قاله السناتور بيرد امام مجلس الشيوخ اثر عودته من جولة في الشرق الاوسط (١٢/١٣) ، من ان الكونغرس لن يوافق على مساعدة الولايات المتحدة لاسرائيل الا في حال وقف اسرائيل الاستيطان . اذ لم يلبث الناطق باسم الخارجية الاميركية هودينغ كارتر ان صرح في مساء اليوم نفسه بأن مساعدة الولايات المتحدة لاسرائيل غير مرتبطة بمشكلة المستوطنات ولا هي مشروطة بهذه المسألة. وقال ان السناتور بيرد توقف عن كونه مبعوثا للرئيس كارتر اثر عودته من الشرق الاوسط . واضاف المتحدث انه منذ ٣٠ سنة والولايات المتحدة تتعهد بشكل اساسي الاحتياجات الامنية الاسرائيلية ، وهذا التعهد قائم بحد ذاته .

وجاءت تصريحات الرئيس كارتر (١٢/١٥) تعقيبا على فشل مهمة فانس اكثر ليونة بكثير من لهجته قبل اسبوع واحد . فقد قال « توصلنا مع الرئيس السادات الى موافقة من جانبه على نص المعاهدة وان المسائل المعلقة المتبقية ستستكمل على وجه السرعة » . وقال « ان واحدة من المسائل المهمة هي ما اذا كان من الضروري اولا وضع هدف بمطلب نهائي دون ان يحدد بضرورة تشكيل حكم ذاتي في الضفة الغربية وغزة بحلول نهاية عام ١٩٧٩ » . واضاف : « انني شخصيا لا ارى كيف يمكن ان ينطوي ذلك على صعوبة للاسرائيليين خاصة وانه ليس امرا ملزما ، بل مجرد هدف يسعى اليه » . وقال ان مسألة عقد مؤتمر قمة ثلاثي مرة اخرى هي احتمال قائم دائما . « ولكن ذلك لن يكون الامر الذي افضله ، وانني بالتأكيد لن تكون لدي اعتراضات وسوف اشجع على عقد اجتماع بين الرئيس السادات ومناحم بيغن معا في اي وقت ... غير انني اعتقد بالنسبة لهما ان اعتزام الحضور الى هنا في اي وقت في المستقبل قد يكون خطأ لان لدي مشكلات دولية ملحة ... لقد وضعنا في الحقيقة قدرا غير عادي من الوقت والجهد في الشرق الاوسط ، انني لا استطيع اهمال مشكلات اخرى من اجل تحقيق هذا الهدف » .

وقد سئل كارتر عما اذا كان سيعيد تقييم السياسة الاميركية ازاء اسرائيل ، فأجاب : « لا . ان سياستنا مع اسرائيل ومع الشرق الاوسط تقوم على ان امن اسرائيل امر حيوي للغاية وقدرتها على حماية ذاتها بصورة كافية وقدرة الشعب الاسرائيلي على العيش بسلام تعد امرا مهما جدا قبل اي شيء اخر يتعلق بالشرق الاوسط » .

واكد كارتر ان تصريحات بيرد لم تكن بتوجيه منه ، وان بيرد انما كان يتحدث « بصفته الشخصية » .

وتصريحات كارتر هذه تسد المنافذ تماما على التفسيرات ، التي شرعت بعد فشل مهمة فانس ، تسجل نجاح « الدبلوماسية المصرية » في خلق التناقض بين مواقف اسرائيل واميركا .. وتصوير هذا « التناقض » الزائف بأنه سينتهي الى ضغط اميركي يحطم ضلوع اسرائيل ! .

فلسطين في الامم المتحدة

بدأت الجمعية العامة للامم المتحدة مناقشتها للمسألة الفلسطينية (١٢/٥) في وقت تصادف مع ردود الفعل التي

نشأت عن حملة نسف منازل ابناء الشعب الفلسطيني التي قامت بها سلطات العدو الصهيوني في الاراضي العربية المحتلة ٠ ولهذا فان مذكرة رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ياسر عرفات ، الى الامين العام للامم المتحدة كورت فالدهايم ضد هذه الحملة قد عممت على وفود الدول الاعضاء مع بداية مناقشة الجمعية العامة للقضية ٠

وفي اليوم التالي للمناقشة (١٢/٦) وافقت الجمعية العامة بأغلبية ١٠٠ صوت ضد ٤ (الولايات المتحدة واسرائيل وكندا وغواتيمالا) على قرار يندد باستمرار احتلال اسرائيل للاراضي الفلسطينية والعربية الاخرى ٠ ونص القرار على « ان السلام (في الشرق الاوسط) غير قابل للقسمة ، ويجب ان يستند الى تسوية شاملة في مؤتمر جنيف وباشتراك كامل من منظمة التحرير الفلسطينية » ٠ ونص كذلك على انه « طالما لم تجل اسرائيل عن جميع الاراضي الفلسطينية والاراضي العربية الاخرى ، ولم يحصل الشعب الفلسطيني على حقوقه الوطنية الثابتة ولم يتمكن من ممارستها ، فلن يتحقق اي سلام شامل وعادل ودائم »٠

ودعا القرار بالحاح جميع الاطراف المعنية للعمل على تحقيق تسوية شاملة لجميع جوانب المشكلة ٠ وهي اشارة واضحة الى ان تسوية « كامب ديفيد » ليست هي التسوية الشاملة التي يمكن ان تحقق سلاما عادلا ودائما ٠

واتخذت الجمعية العامة في الوقت نفسه ، قرارا اخر ، يتعلق بالتحديد بـ « المسألة الفلسطينية » ، ويرتكز على مناصرة « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في العودة وحقه في الاستقلال والسيادة الوطنية »٠ ونص على ضرورة اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في كل الجهود التي تبذل تحت رعاية الامم المتحدة والخاصة بالشرق الاوسط ٠ ونص القرار في هذا الصدد على ان « اية حلول لمشكلة فلسطين يجب ان تتم في اطار الامم المتحدة » ٠

والملاحظ ان الولايات المتحدة اتخذت موقفا هجوميا عنيفا ضد القرارين ، في الوقت الذي كانت تواصل فيه دورها بالنسبة للتسوية المصرية ـ الاسرائيلية بالزعم بأنها تهدف من ورائها الى تسوية شاملة ٠ وعلى الرغم من ان المندوب الاميركي في الامم المتحدة دافع ـ اثناء مناقشات الجمعية العامة ـ عن اتفاقات « كامب ديفيد » ، وذهب الى حد القول بأن هذه الاتفاقات بالنسبة للفلسطينيين « تتضمن حلا يعترف بحقوقهم المشروعة ومطالبهم العادلة ، ويتيح لهم حق المشاركة في تقرير مستقبلهم عن طريق المفاوضات التي تهدف الى حل المشكلة الفلسطينية من جميع جوانبها » ٠

كما يجدر بالملاحظة ان القرارين المذكورين للجمعية العامة ، والاعتراض الاميركي الحاد عليهما ، جاءا بعد ايام قليلة من احتفال الامم المتحدة باليوم العالمي للتضامن مع الشعب الفلسطيني (١١/٢٩) ، واعتراض الولايات المتحدة ايضا على هذا الاحتفال ، فان الولايات المتحدة قاطعت الاحتفال ، وقدمت « مذكرة احتجاج شديدة اللهجة الى امين عام الامم المتحدة على اقامة هذا الاحتفال » ٠

وقال هودنغ كارتر المتحدث باسم وزارة الخارجية الاميركية « ان هذا الاحتفال ينطلق من روح المواجهة ، ولا يساعد في البحث عن حل عادل للنزاع في الشرق الاوسط » ٠ (١١/٣٠) ٠

واوضح الناطق ان الرئيس الاميركي طلب من اندرو يونغ، رئيس الوفد الاميركي في المنظمة الدولية ، القيام ببعض المساعي لدى فالدهايم « لوضع حد لنشاطات اللجنة الخاصة بحقوق الفلسطينيين الثابتة ، المسؤولة عن تنظيم الاحتفالات بيوم التضامن » ٠

ولم يكن هذا الموقف الاميركي مختلفا كثيرا عن موقف اسرائيل التي احتج مندوبها في الامم المتحدة على الاحتفال ، واعلن ان الامم المتحدة بهذا « تمجد منظمة ارهابية » ، وان الاحتفال « يستهدف تدمير دولة عضوة في الامم المتحدة (اسرائيل) وان ذلك يعد خرقا لميثاق الامم المتحدة » ٠

وفي ١٢/١٥ اتخذت الجمعية العامة للامم المتحدة (اللجنة السياسية) ، قرارا اخر ، يدعو مجلس الامن لفرض حظر اجباري على امداد اسرائيل بالاسلحة ، او اية تجهيزات او مواد او تكنولوجيا نووية ٠ وعبر القرار عن « القلق العميق ازاء التزايد السريع والمستمر للقدرة العسكرية الاسرائيلية ، والجهود التي تبذلها اسرائيل من اجل الحصول على اسلحة ذرية ، واستخدام اسرائيل للقنابل العنقودية ضد مخيمات اللاجئين وضد الاهداف المدنية في جنوب لبنان» ٠ واعتبر القرار ان هذا التزايد في مقدرة اسرائيل العسكرية « يشكل تهديدا للسلام والامن الدوليين » ٠

وادان القرار اسرائيل لتكثيف تعاونها العسكري مع جنوب افريقيا ٠

وقد حصل القرار على موافقة ٧٢ دولة ومعارضة ٣٠، وامتناع ٣٧ عن التصويت٠ واخفقت الولايات المتحدة في الحصول على اغلبية لاقتراح تقدمت به يعتبر مسألة فرض الحظر من « المسائل المهمة » التي تستلزم الموافقة عليها الحصول على اغلبية ثلثي اعضاء الجمعية العامة الحاضرين ٠

وقد تابعت الولايات المتحدة حربها الدبلوماسية ضد قضية الشعب الفلسطيني على الصعيد الدولي في مجال اخر ٠ ففي رسالة من جيمس ليونارد المندوب الاميركي لدى وكالة التنمية الدولية التابعة للامم المتحدة (١٢/١١) هددت الولايات المتحدة بالتوقف عن المساهمة المالية (١١٥ مليون دولار) في برنامج التنمية التابع للامم المتحدة الذي تتولى تنفيذه هذه الوكالة ، اذا اتخذت قرارا بتقديم مساعدة الى الفلسطينيين ٠ واعرب المندوب الاميركي في رسالته عن اعتقاد حكومته بأن من شأن خطوة كهذه ان تؤدي الى وصول اموال الى منظمة التحرير الفلسطينية ٠ وقال ان مثل هذا القرار « محاولة غير مقبولة كليا لتسييس مساعدات الامم المتحدة وخاصة برنامج التنمية ٠٠٠ » ٠ وقال : « اود ان اكون واضحا تماما ٠ لن تقوم الولايات المتحدة بأية برامج طوعية تابعة للأمم المتحدة اذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية هي التي ستحصل على المساعدات ، فمنظمة التحرير ليست عضوا في الامم المتحدة ، كما انها ليست وكالة متخصصة » ٠

وعلى الرغم من جسامة هذا التهديد الاميركي فان اللجنة الاقتصادية والمالية التابعة للجمعية العامة للامم المتحدة ، وافقت (١٢/١٣) على قرار يدعو برنامج الامم المتحدة للتنمية وسائر الوكالات الدولية الى تكثيف جهودها « من اجل تحسين الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية للشعب الفلسطيني ، وباقامة مشروعات محددة تخدم هذه الغاية ، دون المساس بسيادة البلدان العربية المضيفة ، والى تقديم اموال كافية لخدمة هذه الاهداف »٠

ووافقت اللجنة في هذا القرار على اقتراحات سابقة للمجلس الاقتصادي والاجتماعي للامم المتحدة طلبت بشكل محدد من وكالات المنظمة الدولية « التشاور والتعاون مع منظمة التحرير الفلسطينية في اقامة مشروعات المساعدة للفلسطينيين »٠

وقد تمت الموافقة على القرار بأغلبية ٩٣ صوتا ، ضد خمسة اصوات (الولايات المتحدة ، اسرائيل ، كندا ، مالاوي ، استراليا) ٠

وخارج الاطار الرسمي للدبلوماسية الاميركية ، واصلت الولايات المتحدة حربها الاعلامية ضد القضية الفلسطينية ، وبصورة اخص ضد منظمة التحرير

الفلسطينية · وجدت مناسبة لذلك حتى في مذبحة غويانا التي عرفت بحادث الانتحار الجماعي لجماعة « معبد الشعب » في مدينة « جونز تاون » في غويانا · فقد نسبت صحيفة « نيويورك تايمز » الاميركية (٢١/٣) الى محام يدعى تيموثي ستوين - محامي جيم جونز الزعيم الاميركي لتلك الجماعة - الزعم بأنه كان لجونز علاقة مع منظمة التحرير الفلسطينية · ونسبت اليه تصريحاً يقول فيه ان جيم جونز اشار عليه قبل موته ان يحول هذه الحسابات الى منظمة التحرير الفلسطينية ··· وربما فعل ذلك بنفسه قبل موته ·

على ان هذا الربط بين الجماعة المنتحرة وقوى سياسية خارجية قد شمل - في روايات الاعلام الاميركي - الى جانب منظمة التحرير الفلسطينية ، كلا من الاتحاد السوفياتي وكوبا وسوريا ايضا !

جائزة نوبل
·· ومظاهرة تأييد لفلسطين

تحولت مناسبة تسليم نصفي جائزة نوبل (١٢/١٠) الى مناحيم بيغن وممثل السادات (سيد مرعي) الى مظاهرة تأييد للقضية الفلسطينية · ولم تنعكس المظاهرة فقط في النشاط التظاهري الذي قام به مؤيدو القضية ، انما انعكست بدرجة كبيرة ، في اجراءات الامن التي لم يسبق لها مثيل من جانب الحكومة النروجية لحماية بيغن وممثل السادات ·

لقد اضطرت السلطات النروجية الى نقل مقر احتفال التسليم لاول مرة في تاريخ الجائزة من جامعة اوسلو الى قلعة قديمة (اكرشوس) تطل على مدخل مرفأ العاصمة « خشية تعريض حياة بيغن لاي خطر » · ونقل بيغن فعلا بطائرة هليكوبتر من مطار اوسلو الى القلعة ·

في هذا الوقت كانت مجموعات من الشباب المحتجين على تقديم الجائزة للارهابي بيغن ، والمؤيدين للقضية الفلسطينية ، قد ربطوا انفسهم بالسلاسل الى مدخل القلعة وارتدوا الكوفيات الفلسطينية ولطخوا انفسهم بلون الدم · واطلق فريق اخر من المتظاهرين في منطقة القلعة بالونات تحمل اعلام فلسطين ·

وفيما كانت الجائزة تقدم داخل القلعة، كان مئات المتظاهرين يلوحون بالاعلام الفلسطينية ويرددون « بيغن ارهابي » ·

وفي وسط اوسلو سارت مظاهرة ضخمة من عدة الاف - في درجة حرارة دون الصفر - تأييدا للثورة الفلسطينية ·

في اليوم التالي (١٢/١١) احتجت السفارة الاسرائيلية في اوسلو لدى حكومة النروج على بيان اصدره المتحدث باسم وزارة الخارجية النروجية ، بشأن مظاهرات التأييد للقضية الفلسطينية والاحتجاجات على منح جائزة نوبل لبيغن ، وكان من بينها احتجاجات من مسؤولين نروجيين ·

انتفاضة ايران

فيما اشتدت مظاهر الثورة الشعبية العارمة ضد شاه ايران ونظامه ، كانت انعكاسات التوقعات بسقوط هذا النظام وما تعنيه هذه التوقعات بالنسبة لواقع المنطقة وتطوراتها تجد بعدا يتعلق بالصراع العربي - الاسرائيلي في هذه التطورات ·

في حديث ادلى به ريتشارد هيلمز المدير الاسبق لوكالة الاستخبارات المركزية الاميركية (سي· اي·اي·) والسفير السابق للولايات المتحدة في طهران (٧٣ - ١٩٧٦) لمجلة « تايم » الاميركية (١٢/١٨) قال هيلمز : « ليست المصالح الاميركية والبريطانية والالمانية الغربية والفرنسية فقط هي المعرضة للخطر في ايران ، فالاسرائيليون ايضا لهم مصلحة ضخمة في ايران ونفطها · ومن المؤكد انهم يمكن ان يجدوا طريقة ما لمساعدة

الشاه » · كما قال هيلمز « ان المشكلة الحالية في ايران تقزم الى جانبها كل اعتبارات السياسة الخارجية الاخرى في الوقت الحاضر ، بما في ذلك مسألة التوصل الى اتفاق نهائي على معاهدة سلام مصرية ـ اسرائيلية » ·

ويعد هذا الربط بين احداث ايران والعقبات التي تواجه محاولات التوصل الى « معاهدة سلام » مصرية ـ اسرائيلية ذا مغزى ، تدل عليه دعوة هيلمز المكشوفة لان يعهد الى اسرائيل بدور لمساعدة شاه ايران ضد الثورة الشعبية « بطريقة ما »·

في الوقت نفسه قالت صحيفة « فرانكفورتر الجمانيه » الالمانية الغربية (١٢/٩) ان اوساط الاقلية اليهودية في طهران بدأت تتحرك لدعم موقف الشاه ومناهضة المعارضة · وان بعض زعماء اليهود يتهمون اية الله الخميني الزعيم الروحي والسياسي للمعارضة الشعبية الايرانية ، بـ « اللاسامية »· وان المخاوف بدأت تنتاب الاقلية اليهودية في ايران (وهي اكبر اقلية يهودية في الشرق الاوسط واسيا كلها) حول مستقبلها · ونقلت الصحيفة الالمانية الغربية عن « مصادر مقربة من الوكالة اليهودية » ان اسرائيل بدأت تعد العدة لاجلاء الاف اليهود الذين يرغبون في مغادرة ايران ، وزادت بشكل ملحوظ مبعوثيها الى المدن الايرانية التي تتواجد فيها جاليات يهودية كبيرة ·

وقد اعلن اية الله الخميني في باريس (١٢/١١) انه اذا عزل الشاه واقيمت في ايران الجمهورية الاسلامية فانها ستقطع العلاقات مع اسرائيل · وقال :« ان اسرائيل هي عدوتنا ، ولن تحصل منا على نفط ايراني » ·

ويلاحظ ان اذاعة اسرائيل حرصت على اذاعة تصريح الخميني هذا بالتحديد وتكراره في نشراتها الاخبارية ·

س·ك·

قضايا عسكرية

صفقات جديدة من الذخائر الهجومية لاسرائيل

تستمر الولايات المتحدة الاميركية في تزويد اسرائيل بمزيد من الاسلحة والذخائر ، خاصة المتطورة منها وذات الصفة الهجومية ، رغم كل ما يبدو على السطح الديبلوماسي الخارجي من خلافات في الرأي بين الدولتين حول عقد اتفاقية الصلح بين مصر واسرائيل ·

فقد نشرت مجلة « انترناشيونال ديفنس ريفيو » (المجلة الدفاعية الدولية)، في عددها الصادر في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨ ، اخبار صفقات جديدة عدة عقدت مؤخرا بينالولايات المتحدة واسرائيل تضمنت النوعيات والكميات التالية من الاسلحة والذخائر ·

☐ صفقة قيمتها نحو ٣٦٫٤ مليون دولار تشمل ١٠٠ قنبلة منزلقة من طراز « وول اي مارك ١ » ، و ١٠٠ قنبلة اخرى من الطراز نفسه ، ولكن من نوع « مارك ٢ » ذات المدى الابعد والاكثر دقة في التوجيه · وكلا النوعين حصل السلاح

الجوي الاسرائيلي من قبل على كميات منهما مماثلة تقريبا ، في السنوات التي اعقبت حرب ٧٣ والتي شهدت تدفقا هائلا من الاسلحة المتطورة الاميركية على الترسانة العسكرية الاسرائيلية ، خاصة الجوية منها ، ليكون السلاح الجوي الاسرائيلي اكثر قدرة على التغلب على الاسلحة الدفاعية العربية المضادة للطائرات والمضادة للدبابات ٠

والنوع الاول من هذه القنابل المنزلقة (وهي قنابل مزودة باجنحة صغيرةوزعانف تجعلها تهبط ببطء سابحة في الجو نحو الهدف ، بواسطة توجيه تختلف وسائله من حيث نوعية تطوره) يبلغ وزنه ٤٩٩ كلغ ، وطوله ٣٤٤ سم وقطره ٣٨سم، ويتم توجيهه بواسطة كاميرا تليفزيونية مثبتة في مقدمة القنبلة ، تنقل صورة الهدف الى شاشة خاصة بمقصورة الطيار ومن ثم يوجهها نحوه حتى تصيبه ٠ وقد دخل هذا النوع من القنابل المنزلقة الخدمة بالسلاح الجوي الاميركي عام ٦٧ ، واستخدم خلال الحرب الفيتنامية ضد الاهداف الحيوية ، مثل بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات والمصانع والجسور الخ ٠ اما النوع الثاني من القنابل المذكورة والمسمى « مارك ٢ » فيبلغ وزنه ١٠٦١ كلغ منها ٩٠٧ كلغ من المتفجرات ، وطوله ٤٠٤ سم وقطره ٤٥٫٧ سم ، ويوجه ايضا بكاميرا تليفزيونية ، ولكنه يختلف عن النوع الاول من حيث وجود جهاز الكتروني به يسمح للطيار بتثبيت صورة الهدف فيذاكرة الحاسب الالكتروني الملحق بالكاميرا ، ثم يبتعد بطائرته عن منطقة الهدف مناورا ضد الاسلحة الارضية المضادة للطائرات ، تاركا القنبلة متجهة بمفردها نحو الهدف ولكن مع استمرار رؤيتها على الشاشة الخاصة بالمتابعة الموجودة في مقصورته ٠ ومن الواضح ان النوع الاخير المذكور مقصود به تقليل درجة المخاطر التي تتعرض لها الطائرة نسبيا ، كما ان ثقل كمية المتفجرات الموجودة توضح ان هذه القنابل مخصصة للتعامل مع الاهداف الحيوية مثل بطاريات الصواريخ والجسور والمطارات ٠

وكلا النوعين يضمنان للطيار قدرة نسبية افضل في اصابة الاهداف المحمية حماية قوية بالدفاعات المضادة للطائرات، في حالة عدم تعرض الطائرة للاصابة من مسافة بعيدة نسبيا عن الهدف ٠

□ والصفقة الثانية التي عقدتها اسرائيل مع الولايات المتحدة ، تتعلق بنوع اخر من القنابل المنزلقة ، يسمى « ج ب يو ــ ١٥ » ذات التوجيه البصري الالكتروني مع توابعها من قطع الغيار واجهزة الاشغال والتوجيه الخ ، وتبلغ كميتها ١٠٠ قنبلة ، قيمتها مع توابعها المذكورة نحو ١٩٫٦ مليون دولار ٠ وستكون هذه الصفقة هي الثانية بعد الصفقة الاولى التي عقدت عام ٧٤وشملت ٢٠٠ قنبلة ٠ ويبلغ وزن المتفجرات التي توجد في كل قنبلة من النوع المذكور ٩٠٠ كلغ ٠ ويجري توجيه القنبلة نحو الهدف بواسطة كاميرا تليفزيونية مركبة في مقدمتها متصلة بجهاز نقل المعلومات ،الذي ينقل الى الطيار صور الهدف ، فيقوم بتوجيه القنبلة بصريا بالوسائل الالكترونية ٠ وهناك نوعان من هذه القنابل ، احدهما مصم للاستخدام من ارتفاع كبير ، ولذلك فهو مزود باجنحة مستوية ٠ والثاني مخصص للاستخدام من ارتفاعات منخفضة او متوسطة ولذلك فهو مزود باجنحة صليبية الشكل ، والنوع الاخير هو الذي اشترته اسرائيل مؤخرا نظرا لانه يلائم تكتيكاتها الهجومية الجوية ، من حيث غلبة الطيران المنخفض او المتوسط عليها ، وندرة الطيران المرتفع بها ٠ وهناك طريقتان لاطلاق القنابل من النوع الثاني ، اي ذات الاجنحة الصليبية الشكل ، احداهما طريقة المسار المباشر التي يتم خلالها تحديد الهدف

وتوجيه القنبلة قبل اطلاقها ، حيث تطير سابحة على خط قريب من خط رؤية الشخص الموجه · والطريقة الثانية تعرف باسم طريقة المسار غير المباشر ، حيث يتم توجيه القنبلة نحو الهدف بعد اطلاقها من الطائرة المهاجمة بواسطة جهاز ربط او نقل المعلومات العامل بين الطائرة والقنبلة ، اي بين الكاميرا التليفزيونية الموجودة في مقدمة القنبلة والشاشة الموجودة في مقصورة الطيار ويجري التوجيه اثناء مسار القنبلة يدويا منواقع الرؤية البصرية ، او بضبط وتثبيت صورة الهدف وترك ذاكرة الحاسب الالكتروني توجهها ، ومن ثم يمكن للطائرة ان تبتعد عن منطقة الهدف · وتجري حاليا في الولايات المتحدة تطويرات على هذه القنابل بحيث تكون اجهزة ربط ونقل المعلومات الخاصة بها اكثر قدرة في المستقبل على مقاومة وسائل التشويش الالكتروني المضاد ، وليمكن ايضا توجيهها بالاشعة تحت الحمراء حتى يمكن استخدامها خلال الليل او في ظروف الرؤية الجوية الصعبة (ضباب وخلافه)، اذ ان طريقة التوجيه البصري الالكتروني لا تصلح الا نهارا وفي ظروف الرؤية الجيدة ·

□ والصفقة الثالثة ، ضمن الصفقات المذكورة آنفا ، تتعلق بشراء اسرائيل لمائتي صاروخ جو ـ ارض (يختلف الصاروخ عن القنبلة المنزلقة الموجهة بان له محرك دفع خاص به يزيد من مداه عن القنبلة) من طراز « شرايك » المضاد لاجهزة الرادار الارضية العاملة مع بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات ، وذلك بهدف تدميرها وتعطيل فاعلية الصواريخ م/ط ·

والـ ٢٠٠ صاروخ « شرايك » الجديدة، التي تضمنتها الصفقة الاميركية ـ الاسرائيلية الاخيرة ، تضم ١٠٠ صاروخ من نوع « أ ج م ـ ٤٥ أ ـ ٩ » و ١٠٠ اخرى من نوع « أ ج م ـ ٤٥ أ ـ ١٠ » ،

وكلا النوعين تطوير للصاروخ « شرايك » القديم ، الذي حمل الارقام من ١ الى ٨، والتي كانت عرضة لوسائل التشويش الالكتروني السابقة وتتعطل قدرتها على متابعة البحث والتوجيه نحو مصدر الذبذبات الرادارية الارضية ، نتيجة لتوقف الرادار الارضي عن البث مثلا او تغييره للموجة التي يعمل عليها · وقد استخدمت الانواع الاولى من صواريخ « شرايك » حتى الرقم ٦ خلال الحرب الفيتنامية ، وكذلك خلال حرب الاستنزاف المصرية عام ١٩٧٠ ضد رادارات بطاريات صواريخ « سام ـ ٢ » و « سام ـ ٣ » · ولكنها لم تكن فعالة بالدرجة المطلوبة نظرا لنجاح الوسائل الالكترونية المضادة لها، او لمجرد أقفال الرادار الارضي الذي يكون رادار الصاروخ « شرايك » قد التقط ذبذباته وتوجه نحو مصدرها · أما الانواع الحديثة من « شرايك » فقد زودت بذاكرة الكترونية يتم تثبيت احداثيات الرادار المعادي بها فور التقاطها والمضي نحوه بغض النظر عن ايقاف الرادار من عدمه، حتى لا يطيش الصاروخ عن الهدف · والمفروض فيها ايضا انها ذات قدرة افضل على التعامل مع الرادارات ذات الموجات المتغيرة · ولكن راداراتصواريخ « سام ـ ٦ » ذات الموجات الثلاثةالمتتابعة التغير اثناء انطلاق الصاروخ ، قادرة على الاستمرار في توجيه الصاروخ « سام ـ ٦ » نحو هدفه وتشويش اتجاه صاروخ « شرايك » نحوها في الوقت ذاته ، وعموما فأن اجهزة الرادار الحديثة ، ومن ضمنها الاجهزة السوفييتية تزود حاليا بشاشات خاصة توضح لها ما اذا كانت ذبذبات موجات رادارها قد التقطها رادار صاروخ معاد ام لا منمسافة كافية لاتخاذ اجراءات مضادة ، تشمل سرعة تحريك جهاز الرادار نفسه (بحكم انه يكون مركب على آلية ذات محرك دائر طوال وقت التشغيل القتالي) ، او اقفال الارسال او سرعة تغيير الموجات

الخ · وتلك قصة طويلة من قصص الحرب الالكترونية المستمرة من دون توقف ، منذ الحرب العالمية الثانية ، اي منذ أن استخدم البريطانيون الرادار لاول مرة عام ١٩٤٠ في نظام دفاعهم الجوي ·

هذا ، ومن المعروف ان صاروخ « شرايك » يبلغ طوله ٣٠٤٨ر سم وقطره ٢٠ سم ووزنه ١٧٧ كلغ ، من ضمنها متفجرات تزن ٦٦ كلغ ، وسرعة الصاروخ ٢ ماك ، اي ضعف سرعة الصوت ، ومداه نحو ١٦ كلم · وتستخدمه طائرات «الفانتوم » و « سكاي هوك » و « كفير » الاسرائيلية ، في محاولاتها اسكات بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات الموجودة لدى اجهزة الدفاع الجوي العربي ، التي اثبتت فاعلية كبيرة في حرب ١٩٧٣ ·

☐ اما الصفقة الرابعة فتتألف من ١٧٠ صاروخا جو ــ جو بعيدة المدى من طراز « أ ي م ــ ٧ ف سبارو » تبلغ قيمتها ٢ر٢٤ مليون دولار · ويبلغ طول الصاروخ المذكور ٦٥ر٣ وقطره ٢٠ سم ووزنه ٢٠٠ كلم من ضمنها رأس متفجر وزنه ٣٠ كلغ ، ويستخدم في توجيهه الرادار نصف النشط (Semi — Radar Guidance) ويبلغ مداه نحو ٢٥ كلم · وهو تطوير للانواع السابقة من صواريخ « سبارو » من حيث تحسين التوجيه الراداري وقوة التأثير عند الاصابة والقدرة على المناورة ضد مناورات الطائرات التي لا تزيد قدرتها على المناورة عن ٧ اضعاف قوة الجاذبية الارضية ، وهذا معناه انه غير ملائم لمواجهة مناورات « الميغ ــ ٢٣) مثلا التي تستطيع ان تناور بقوة ٥ر٧ جاذبية ارضية · الا ان احدى مزايا الصاروخ الجديد انه يستطيع التوجه نحو طائرات تحلق اسفل الطائرة التي اطلقته ·

وعموما فأن هذه الصفقة تعني ان الطيران الاسرائيلي يسعى لزيادة قدرته على الاعتراض الجوي بعيد المدى ضد المقاتلات العربية الحديثة · وتستخدم طائرات « الفانتوم » وطائرات « ف ــ ١٥ » الاسرائيلية الصاروخ « سبارو » نظرا لامتلاكها رادارا كبيرا نسبيا قادرا على توجيهه الى المدى البعيد نسبيا (٢٥ كلم) ·

☐ والصفقة الخامسة ، والاخيرة ،التي اشارت اليها المجلة العسكرية المذكورة ، هي كمية جديدة من القذائف شديدة الانفجار الخاصة بمدافع الهاوتزر بعيدة المدى وذاتية الحركة الاميركية الصنع من طراز « م ــ ١٠٧ » عيار ١٧٥ مم ، التي يبلغ وزن الواحدة منها ٦ر٦٦ كلغ ، ويصل مداها الاقصى الى نحو ٦ر٣٢ كلم · وتبلغ قيمة الصفقة ٢ر١٤ مليون دولار · ومن المعروف ان الجيش الاسرائيلي استخدم هذه المدافع خلال حرب ٧٣ ، وقد دمرت بطارية منها في ضربة الطيران المصري الاولى يوم ٦/١٠ قرب القناة · كما استخدمها مرارا في قصف مدن وقرى الجنوب اللبناني ، خاصة خلال الهجوم الشامل الذي شنه في اذار (مارس) ١٩٧٨ · ومن المعروف ايضا ان لدى الجيش الاسرائيلي نحو ٦٠ مدفعا من النوع المذكور ، وان هناك عددا آخر متعاقد على توريده مع الولايات المتحدة لزيادة قدرة سلاح المدفعية الاسرائيلي على الرمي بعيد المدى · والمدفع « م ــ ١٠٧ » عيار ١٧٥ مم مركب على شاسيه دبابة ويبلغ وزنه الاجمالي ٢٨ طنا ، وسرعة سيره على الطرق ٥٦ كلم /ساعة، ومدى سيره على الطرق ٧٢٥ كلم بدون تزود جديد بالوقود ، ويتألف طاقمه من ٥ افراد ، وتتبعه عربة ذخيرة مماثلة في صفاتها وقدرات سيرها للمدفع ذاته · وتؤكد لنا نوعية وكمية هذه الذخائر دقيقة التصويب (القنابل المنزلقة الموجهة وصواريخ « شرايك ») ، وقذائف المدفعية الثقيلة بعيدة المدى ، التي تعاقدت عليها اسرائيل مع الولايات المتحدة أن الدولة

الصهيونية ماضية في شحن ترسانـــة اسلحتها الهجومية بسرعة وجدية تأهبـا لضربتها « الوقائية » ، اي هجومهـا المضاد المسبق ، الذي تعد لتنفيذه ضـد الجبهة الشمالية والجبهة الشرقية حـال توصلها الى صلح منفرد مع مصر يسمح لها بحرية الحركة ضد الجبهات المذكورة.

البحرية الاسرائيلية تدعم قوتها النارية

ذكرت موسوعة « جينز » للبحريـة ، التي تصدر في بريطانيا سنويا ، في كتابها الجديد الصادر عن عـام ١٩٧٩ ، ان البحرية الاسرائيلية طورت تسليح زوارقها الصاروخية من طراز « ريشيف » ، التـي يوجد منها لديها ما بين ٦ و ٨ زوارق ، بحيث اصبح يشتمل على ٤ صواريـخ سطح – سطح من طراز « هاربـون » الاميركي الصنع ، فضلا عن الصواريخ السبعة الاصلية من طراز « غابرئيـل » المطور ، والمدفعين الآليين « اوتو ميلارا » عيار ٧٦ مم والرشاشين مـن طـراز « اورليكون » عيار ٢٠ مم . والمعروف ان هذه الزوارق تشكل القـوة الضاربـة الرئيسية في البحريـة الاسرائيلية ، بالاضافة الى الاثني عشر زورقا مـن طراز « ساعر » . ويبلغ وزن الزورق فئة « ريشيف » بحمولة كاملة ٤٥٠ طنـا ، وطوله ٥٨ مترا (٩ر٦٠ مترا في الزوارق الجديدة الزائدة عن السنة الاولـى) ، وعرضه ٨ر٧ امتار وعمق غاطسه متـران و ٤ر٠ ، وهو مزود باربعة محركات ديزل يبلغ اجمالي قوة دفعها ١٠٦٨٠ حصانا ، واقصى سرعة له ٣٢ عقدة (٥٩ كلم – ساعة) ومدى عمله بسرعة ٣٠ عقدة (اي ٦ر٥٥ كلم / ساعة) نحو ٢٤٠٠ كلم ، اما مداه في حالة السرعة الاقتصادية فيصل الى نحو ٧٢٠٠ كلم .

والمعروف ان صواريـخ « غابرئيل » السبعة التي يحملها الزورق فئة «ريشيف» هي من النوع المطور الذي يبلغ مداه نحو ٤١ كلم . واضافة ٤ صواريخ جديدة من طراز « هاربون » الى تسليح هذه الزوارق دون انقاص عدد الصواريخ « غابرئيل » او المدافع ٧٦ مم ، (وان كنا لا نعرف بدقة الكيفية التي ستوضع بها الصواريـخ الجديدة على الزوارق) ، سيزيد كثيـرا من قوتها النارية ويجعلها اقـوى زوارق الصواريخ في العالم ، بل ربما الفرقاطات ايضا ! ذلك لان صواريخ « هاربون » ، التي حصلت اسرائيل منها علـى ١٠٠ صاروخ على الاقل ، يمكن ان يصل مداها الى نحو ١١٠ كلم ، وفي هذه الحالـة تستخدم طائرة في تزويـد الحاسب الالكتروني الخاص بالصاروخ بالمعلومـات الخاصة بالهدف والارتفاع اللازم ، خـلال مرحلة التوجيه الاخيرة التي تتم فيمـا يزيد عن مدى الافق ، بالنسبة للـزورق الذي اطلقه . ويبلغ طول الصاروخ ٥٧ر٤ امتار وقطره ٣٤ سم ، ووزنه ٦٣٥ كلغ . منها ٢٢٧ وزن الرأس الشديد الانفجار ، ويتم توجيهه في المرحلة الاخيرة مـن رحلته بواسطة الرادار ذي الموجـات المستمرة . ويمكن استخدام الصواريـخ « هاربون » ليس فقط من فـوق ظهـر الزوارق او السفن الحربية الاخرى ،وانما ايضا بواسطةالطائرات أو من داخـل الغواصات ايضا . واذا صحت معلومات موسوعة « جينز » هذه فان الـزوارق الاسرائيلية المذكورة ستكـون بمثابـة فرقاطات صاروخية قوية تستطيع الاشتباك بفاعلية مع اهداف بحرية تبعد عنهـا اكثر من ١٠٠ كلم ، وأخرى تبعد عنها ٤٠ كلم، فضلا عن قدرتها على الرمي السريـع بنيران المدافع من مدى يصل حتى ١٦كلم.

الامر الذي يقطع باهمية الدور الـذي ستلعبه البحرية الاسرائيلية في اي حرب مقبلة ، خاصة بعد ان اصبحت تمتلـك الغواصات الثلاث الحديثة من طـراز « فيكرز » (والتي يمكنها أيضا استخدام صواريخ هاربون) ، وبعد ان تتسلم الـ ٢

« كورفيت » (سفينة حراسة صغيرة) الجاري بناؤهما في احواض « حيفا » ، والتي سيبلغ وزن الواحدة منها نحو ٨٥٠ طنا وستسلح بالصواريخ المختلفة والمدافع وبطائرة هليكوبتر مسلحة بالصواريخ (المضادة للغواصات غالبا)، وتعرف هذه « الكورفيت » حتى الآن بأسم « كيو ـ ٩ » · ولا شك ان ذلك كله سيزيد من حجم التحديات التي تواجهها البحريات العربية في كلا البحرين : الابيض والاحمر ·

تعديلات اسرائيلية فيطائرات «ف ـ١٦»

ذكر المراسل العسكري لصحيفة « جيروزاليم بوست » الاسرائيلية ، في ٧٨/١٢/١٣ ، نقلا عن مصدر وثيق الصلة بشركة ديناميكس الاميركية ، انالطائرات المقاتلة من طراز « ف ـ ١٦ » الخمس والسبعون التي طلبت اسرائيل شراءها من الولايات المتحدة (ضمن صفقة الطائرات الثلاثية الشهيرة التي تضم ٥٠ طائرة « ف ـ ٥ اي » لمصر و ٦٠ طائرة « ف ـ ١٥ » للسعودية و ٧٥ طائرة « ف ـ ١٦ » و ١٥ طائرة « ف ـ ١٥ » لاسرائيل) سوف تزود باجهزة رادار وانظمة الكترونية اسرائيلية خاصة ، وان هذه التعديلات ستسمح للطائرات المذكورة باستخدام صواريخ جو ـ جو من صنع اسرائيلي · والارجح ان اسرائيل تريد من هذه التعديلات تقليل كلفة الطائرة نسبيا ، فضلا عن جعلها قادرة على استخدام صواريخها جو ـ جو قصيرة المدى من طراز « شفرير » للسبب ذاته · اذ ان الطائرة « ف ـ ١٦ » مزودة بجهاز رادار صغير نسبيا من صنع شركة « وستنغهوس » وزنة ١٢٢ كلغ يؤديمهاما متعددة بالنسبة للبحث والمتابعة في القتال الجوي والهجوم الارضي ، ولما كانت الصناعة الجوية الاسرائيلية (شركة « التا ») تنتج بالفعل جهاز رادار مشابه من طراز « م ـ ٢٠٢١ »المتعدد المهام والبالغ وزنه مع الهوائي ١٢٠ كلغ ، فانه يكون اكثر اقتصادا استخدامه في طائرات « ف ـ ١٦ » ، خاصة وانه يستخدم على طائرات « الكفير » · وهو يستخدم في حالات الاعتراض الجوي ، والاشتباك الجوي عن قرب ، والقصف الارضي ، ويتابع تضاريس الارض ، ويقوم بالمسح الجوي · ويبحث عن هدفه تلقائيا ويعطي حاسبة الرماية معلومات عن بعد الهدف ، وهو مزود بآلة حاسبة ترقيمية ويعمل في جميع الحالات الجوية · وكان قد صمم اصلا خصيصا لطائرة « ارييه »الاسرائيلية المنوي صناعتها في المستقبل · ويمكن هذا الرادار الطائرة « ف ـ ١٦ » الاسرائيلية من استخدام صواريخ « شفرير » الاسرائيلية الصنع ، المخصصة لقتال المهارشة (القتال المتلاحم) بدلا من الصواريخ المماثلة تقريبا في القدرات من طراز « سايدويندر » الاميركية التي تستخدمها الطائرة « ف ـ ١٦ » اصلا ·

(يبلغ مدى « شفرير » نحو ٥ كلم ويوجه بواسطة رأسه الباحث عن الاشعة تحت الحمراء) · والهدف الاسرائيلي من هذه التعديلات هو تقليل النفقات نسبيا ودعم الصناعة الجوية والالكترونية المحلية سعيا على طريق الاعتماد على الذات قدر الامكان ·

اسرائيل تبيع طائرات « نيشر » للارجنتين

قالت صحيفة « هآرتس » في ١٢/٦/ ٧٨ ان الارجنتين تسلمت الدفعة الاولى من صفقة تضم ٢٦ طائرة اسرائيليةالصنع من طراز « نيشر » (اي النسر) ، وتبلغ القيمة الاجمالية للصفقة ١٨٠ مليون دولار · وطائرة « نيشر » هي نسخة اسرائيلية مطابقة للطائرة الفرنسية المعروفة بأسم « ميراج ـ ٥ » ، التي كانت اسرائيل قد تعاقدت على شراء ٥٠ طائرة

منها من فرنسا ، ولكن ألجنرال « ديغول » الغى الصفقة المذكورة عقب عدوان اسرائيل على مطار « بيروت » عام ٦٨ ، ثم بدأت اسرائيل في تصنيع هيكل الطائرة اثر حصولها على التصميمات الخاصة بها من مهندس سويسري اتهم بعد ذلك بالتجسس لحساب اسرائيل ، وزودتها بمحرك فرنسي من طراز « اتار ٩ سي » ٠ وقد حلق النموذج ألاول منها في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٩ ، ثم بدأ انتاجها عام ١٩٧٢ ، وشارك عدد منها في حرب ١٩٧٣، ويقال ان هناك ٣٠ طائرة منها ما زالت في خدمة السلاح الجوي الاسرائيلي حاليا ، وانه تم استخدام نحو ٤٠ طائرة من الطراز المذكور في حرب ١٩٧٣ ٠

وقد اعتبرت طائرة « نيشر » مجرد مرحلة انتقالية مؤقتة على طريق تصميم وتطوير وانتاج الطائرة « كفير » ، التي طور هيكلها عن «الميراج» ، وعدل ليناسب تزودها بمحرك اميركي من النوع المستخدم في « الفانتوم » ٠ ومن ثم اصبح الاستمرار في انتاج الطائرة « نيشر » الاقل تطورا من « كفير » امرا لا لزوم له. وبالتالي اصبح بيعها للخارج ضروريا للحصول على موارد مالية جديدة لدعم انتاج وتطوير الصناعة الجوية الاسرائيلية ، خاصة طائرات « كفير » وطائرات « ارييه » المنوي انتاجها في المستقبل ٠ ولم تعترض الولايات المتحدة على بيع هذه الطائرة ، اي « النيشر » ، الى الارجنتين كما سبق لها ان اعترضت على بيع طائرات « كفير » الى احدى دول اميركا اللاتينية ، نظرا لعدم احتواء « النيشر » على محرك اميركي او معدات الكترونية اميركية ، منعا لمنافسة الصناعة الجوية الاميركية في اسواقها التقليدية ٠

وفي الوقت ذاته فان الصفقة المذكورة تناسب الارجنتين من حيث قطع الغيار والصيانة نظرا لان سلاحها الجوي يضم ١٦ طائرة « ميراج ــ ٣ اي » ، فضلا عن سبع طائرات اخرى من الطراز نفسه تحت الطلب ٠

محمود عزمي

يـزهار سـميلانسكي

خـربـة خـزعـة

اثارت هذه القصة ، عند صدورها عام ١٩٤٩ ، ضجة غير عادية في الاوســاط الصهيونية التي رات فيها خطر انقلاب على الوعي الصهيوني العام الذي يدعي الحق على ارض فلسطين ، ويؤسس الدولة « بايد نظيفة » ، لان هذه القصة تظهر الوجه الآخر لهذا التاسيس وهو : تهجير شعب ، بايد قذرة ٠

تستند القصة « خربة خزعة » الى وقائع شارك الكاتب يزهار سميلانسكي فيها ، عندما كان ضابطا في استخبارات فرقة الجيش الاسرائيلي المكلفة بتهجير سكــان قرية « خربة خزعة » وتدمير بيوتها ٠ كان الكاتب شاهد عيان ومشاركا في العمليةـ كما اعترف هو بنفسه للرد على الذين اتهموه بالتضليل ـ من مرحلة التخطيط حتى انتهاء التنفيذ في خريف ١٩٤٨ ٠

ما هي خربة خزعة ؟ انها الاسم المستعار لكـل القـرى التي تاسس المشـروع الصهيوني على انقاضها ٠ يقول الكاتب : « ما رايته سبب لي صدمة ٠ وكانـت القصة ردة فعل كاتب » ٠ وعلى الرغم من ان دوافع تسـجيل الكاتب وقائع هذه الجريمة كانت دوافع اخلاقية من نوع « الشعور بالذنب » الا ان العملية التي تتعدى خصوصيتها لتسم الممارسة الصهيونية كلها بطابعها ، تصلح لتكون رمزا شديـد التطابق لعملية انشاء المشروع الصهيوني ٠ ومن الصعب ان يكون استدراج عذابات الجندي الاسرائيلي امام مشاهد التدمير والتهجير والاهانة التي هي من صنع يديه تعويضا كافيا عن الجريمة التي ارتكبها حتى لو كان فردا في مجموعة ، لان العملية الاسرائيلية كلها قامت على هذا النحو ٠

من هنا اهمية هذه القصة التي تطرح ، سواء كانت تدري او لا تدري ، الصميم الاسرائيلي علانية ٠ فالادب الذي يقول ما لا تقوله السياسة والاعلام قد اعلــن الفضيحـة ، فضيحـة « الشـرعية » الجهنمية المشـروطة بنفـي الاخريـن ، التـي قامـت عليهـا اسـرائيل ٠ لذلـك ايضـا ، وبعـد ثلاثيـن سـنة مـن العمليـة ومن كتابتها في قصة ، ثارت الضجة من جديد على كل المستويــات الاسرائيلية ، الادبية والشعبية والسياسية ، بمناسبة اقدام التلفزيون الاسرائيلي على تحويــل

القصة الى حلقات تلفزيونية · سر هذه الضجة ان كل اسرائيلي سيرى وجهه الاخر على شاشة التلفزيون ، سيرى ما لم يره من قبل تحت حجاب غسيل الدماغ اليومي ، سيرى الى اي مدى لم يكن شرعيا ولم يكن نظيفا · وقد كتبت صحيفة « معاريف » : « ان هذه القصة تشكل شهادة دامغة على السلب والنهب والحرق والتدمير والتهجير الجماعي الذي مارسته المنظمات الصهيونية ضد العرب الفلسطينيين وقراهم التي دمرت لتسهيل الاستيطان اليهودي على انقاضها » ·

ونحن لا نخفي ان نشرنا الترجمة العربية لهذه القصة لا تحركه دوافع التعرف المجاني على الادب العبري ، بقدر ما نفهم ان علاقتنا به هي علاقة صراع · ولذلك نعامل هذا النص كوثيقة ادانة ، دون ان تجرفنا القوة الكامنة في الادب ، والقادرة على استدرار الدموع من عيون القتلة ·

ـ ١ ـ

صحيح ، ان ذلك كله قد حدث منذ زمن بعيد ، ولكنه ، ومنذ ذلك الوقت لم يتركني ، قررت ان اغمره في صخب الايام ، وان اقلل من شأنه وأثلم حده في دفق الاعمال ، بل ونجحت ، في بعض الاحيان ان اصل الى هزة كتف حصيفة ، معتبرا ان كل ذلك الامر لم يكن ، في نهاية المطاف ، رهيبا الى هذا الحد ، وشكرت نفسي على الصبر ، الذي كما هو معروف ، توأم الحكمة الحقة · ولكنني كنت اعود واستيقظ بين حين واخر من جديد ، مستغربا كم من السهل ان أغوى ، وان أضلل مفتوح العينين ، وانضم بكليتي الى هذه العصبة الكبيرة من الدجالين ـ المجبولة جهالة ، ولامبالاة دونية ، وانانية مستهترة مطلقة ـ مستبدلا حقيقة كبيرة بهزة كتف متذاكية لمجرم قديم · فعزمت على ان لا اتجاهل الامور اكثر من ذلك ، وان كنت لم أحسم بعد ما هو المخرج ، اذ خيل الي انه سيكون من الافضل لي على اية حال ، ونظرا لذلك ، ان ابدأ وأروي ، بدلا من ان اخرس واصمت ·

يمكنني الرواية بالترتيب · ان ابدأ بأحد الايام المشرقة ، احد ايام الصحو الشتائية ، وان ادقق في وصف الانطلاق والرحلة ، حين كانت الطرق الترابية مرتوية بأمطار اليومين الاخيرين ، والاسيجة الشجرية المحيطة بالبيارات . كانت داكنة ورطبة وارجلها ، كما هي دائما ، تلعقها قطعان قراص اخضر متشابك رطب · وحلت الظهيرة ، ظهيرة منعشة ممتعة التريث ، ولكنها كنهجها تدحرجت وامست اصيلا مكفهرا ، وكل شيء كان قد امسى من خلفنا منهيا ومنتهيا ·

ولكن ، قد يكون من الافضل لوّ انني ابدأ بشكل مغاير ، واذكر مباشرة ذلك الذي كان منذ البداية غاية اليوم كله ، « امر القتال » رقم كذا وكذا ، في كذا وكذا من الشهر ، والذي كان في ذيله ، في البند الاخير المسمى عرضا « متفرقات » ، منصوصا على طول سطر ونصف ، بأنه وان كان يتحتم علينا تنفيذ المهمة بحزم ودقة ، فلا بد من ، ومهما يكن من امر ، « عدم السماح بالتجاوزات ـ هكذا كان مكتوبا ـ وبالتصرف الاهوج » ، وقد جاء ذلك لكي يدلك حالا ، على ان وراء الاكمة ما وراءها ، وان كل شيء ممكن حدوثه (وان

كان مخططا له سلفا ومتوقعا) · ولا يمكن تقدير هذه الخاتمة النزيهة حق قدرها ، الا بعد ان تعود الى البداية ، وتستعرض فيما تستعرض ذلك البند الموقر « معلومات » ، الذي سرعان ما حذر من خطر متزايد لـ « متسللين » و « نوى عصابات » ولـ (وهذا تعبير رائع) مبعوثين « بمهمات معادية » ، وكذلك البند الذي يليه ، والاكثر وقارا ، الذي يتحدث بوضوح عن انه يتحتم علينا « جمع الاهالي ابتداء من النقطة الفلانية (انظر في الخارطة المرفقة) وحتى النقطة الفلانية (انظر في الخارطة نفسها) ـ وتحميلهم بالشاحنات ونقلهم الى ما وراء خطوطنا ، نسف البيوت الحجرية وحرق الاكواخ الطينية ، اعتقال الشباب والمشبوهين ، وتطهير المنطقة من « قوات معادية » والخ والخ ـ اذ يتضح الان بأية امال كبيرة واية نزاهة عبيء الخارجون الى المهمة بعد ان القي على عاتقهم كل ذلك الـ « احرقوا ـ انسفوا ـ اعتقلوا ـ حملوا ـ اطردوا » كي يهبوا ويحرقوا وينسفوا ويعتقلوا ويحملوا ويطردوا بأمانة كبيرة وبكل ما تحمله الحضارة بالذات من رزانة ، وهذا دليل على الرياح التي تهب ، وعلى الثقافة الجيدة ، وربما هذه الروح اليهودية العظيمة ايضا ·

وهكذا حدث عندما انطلقنا ذلك الصباح الشتائي البهي المنعش ، في طريقنا جذلين ، مغسلين ، شبعين ومهندمين جيدا ، وهكذا ، في هذه الريح الخفيفة ، نزلنا في المكان الذي نزلنا فيه ، بالقرب من القرية الفلانية ، التي لم تبد للعيان بعد ، فأرسل فصيلنا للالتفاف ، بينما ارسل الاخرون بعضهم للاسناد من الخلف وبعضهم لكي يدخل القرية · وكالمعتاد لا افضل من الانضمام الى الفصيل الملتف · وكان هذا الفصيل يتقدم في منطقة مجهولة ، ويوغل في الوجود المغتسل ، المطهر ، للحقول ، في ريح ناعمة نقية · في كروم بعضها محروث (قبيل المطر) وبعضها معشوشب (في اعقاب المطر الاول) ـ وجميل ان تغوص في شعاب مطينة ، بباحات تزلج من ماء راكد وأوحال رخوة ، الى ان يتدفق فيك صباك ، وان لم يعد الصبا تماما ، حيويا · حتى ان ثقل « صندوق العمليات » المعن في كف اليد تجريجا قد يتغير الان ويبدو وكأنه ليس الا مجرد شيء يخص السير في جماعة ، السير ، لنقل ، الى العمل ، او ، حتى ولو ، على سبيل المثال ، في سرب دوري مغرد · كنا نخوض في الوحل ، متحادثين ، لاعبين ومغنين ، بطمأنينة وانشراح ، وكان واضحا : لن تكون اليوم حرب بالنسبة لنا ، واذا كان ثمة من يتهيب امرا ، فلسنا نحن ، وليكن الهه معه ، اما بالنسبة لنا فانه يوم نزهة ·

كنا قد وصلنا بعد ذلك الى احدى التلال ، فرحنا نفرك ايدينا مستدفئين تحت سياج صبار ، مستعدين لان نتناول اي شيء من الطعام ، لو لم يجمعنا ذلك الرجل ، قائد الفصيل مويشي الفلاني ، وشرح لنا الامور ، والمنطقة ، والمهمة · وتبين لنا وفقا لذلك ان البيوت القليلة التي تلوح في منحدرات تل اخرى هي خربة ـ خزعة ، وان كل تلك البيارات والحقول من حولنا ما هي الا ملك للقرية تلك ، وان مياهها الوفيرة ، وارضها الطيبة ، وزرعها الرائع ، كان قد ذاع صيتها كما ذاع صيت اهلها ، اولئك الحقيرين ، هكذا يقولون ، الذين يساعدون العدو · جاهزون لكل اذى ، لو اتيحت لهم الفرصة فقط ، او ، على سبيل المثال ، لو انهم كانوا يصادفون اولئك اليهود ، لكانوا بالتأكيد يبيدونهم دون رحمة ـ هؤلاء هم ، وهذه خصالهم · وحين انعمنا النظر الى تلك البيوت ، الواقعة خلف اطراف تلك التلة ، تفصلنا عنها الاشجار والبساتين الوارفة ، وآبار المياه المتناثرة هنا وهناك · اكتشفنا انه لا توجد اية مشكلة في خربة خزعة كلها ، وانها لا تستوجب اي توسع اخر في الشرح فعلا · وفي الناحية المقابلة كانت ثمة اشجار جميز متفرقة ،

طاعنة في السن ، على ما يبدو ، ومزدهرة ، وكأنها فقدت كل ما يمت للنبات بصلة ، بل جماد ضخم • ثم عاد احدنا بعد ذلك ببرتقال فأكلنا •

كنا قد اتجهنا منحدرين في اثلام بليلة ، رمادية ، لم يسعفهم الوقت لزرعها ، فدفعنا بوابة خشبية كبيرة في سياج طيني ، وصعدنا في طريق ضيق ، في جادات صبارية مفروشة بالروث ، رطبة الطحلب ، تشعب الخزام فيها والشاهنرج ، ونباتات خصبة غير مزهرة ترزح تحت حملها الرمادي الرطب ، وتتوارى في مخبأ السياج ـ ثم عدنا وتسلقنا التلة التالية • ومن هنا كانت التلة مكشوفة امامنا ، فاتخذنا مواقعنا ، ونصبنا المدفع الرشاش وكنا جاهزين لان نبدأ • وبعد ان اخبرنا ذلك الذي كان يتكب على جهازه مستمعا متحدثا الى قمع اللاسلكي بنغمة طقوسية ، بأنه لا يزال لدينا ثمة وقت لساعة الصفر • بحثنا فوجد كل منا مكانه الجاف للجلوس او التمطط والانتظار بهدوء لبدء الامور •

ومن كالجنود يعرف الانتظار ، اذ ليس من ساعة تمر ولا مكان لا يكون فيهما جنود ينتظرون وينتظرون • انتظار في المواقع ، انتظار في الهجوم ، انتظار قبيل اطلاق النار ، انتظار في توقف اطلاق النار ، ثمة انتظار متوتر مضطرب ، وثمة انتظار ممل ، يأكل ويحرق كل شيء ، دونما نار او دخان ، ودونما حدود او نهاية • نعثر على مكان ما ونسويه ثم نتمدد وننتظر • واين لم نتمدد بعد ؟ •

في السابق ، وفي اليوم الذي بدأنا ندخل القرى المحتلة فيه ، وما زال شيء يخدرك ، كان من الافضل لك ان تقف طيلة النهار او تمشي كي لا تجلس على تلك الارض ، التي هي ليست ارض حقول وانما بقعة تراب عفنة ، موبوءة بغضا ، بصقوا عليها اجيالا ، واودعوها بولهم وبرازهم وروث ابقارهم وجمالهم ـ تلك البقع من التراب المحيطة بالاكواخ، المصابة بعث نفايا مساكن انسانية متراصة وحقيرة ، كل شيء كان قذرا ، وتمقت ان تأخذ شيئا بيديك ـ وفي ساعات ما بعد ظهر ذلك اليوم ، كنا جميعا متحلقين ، متمددين بملء قاماتنا منذ وقت طويل ، فوق ذلك التراب السقيم ، مضطجعين بارتخاء ، وبقلوب خالية ، ونضحك حتى الدموع احيانا •

هه •• ايام الواقع • كان لنا هناك ذات مرة قزم ، انقر الوجه داكنه ، اجعد الشعر صوفيه ، وكان يرفه عن قلوب الخلق بحركات غريبة من وجهه ، ويشوهه بشتى الاشكال المطلوبة لذلك ، وهو يلبس قميصا داخليا متسخا ، وللمرة الالف كان كمن يخابر باللاسلكي ، يخابر ويخابر بصوت اجش : « هل تسمعينني ؟ هل تسمعينني ؟ انا في التل انا في التل ، في ، في خربة ، في خربة ، واريدك ، وانتظرك ، هل تسمعينني ؟ حول ! »• فيستجيب الجمهور بسهولة له ويرد بقهقهة مستهترة . كان الفزع من توقفها يطيل عمرها اكثر مما تحتمل •

كلاب نفقت ونتنت ولم نكترث • ايام كاملة في الغبار المقفر والملل المنتن ، وفي الخطر المتربص والقذارة التي لا خلاص منها • رابضون وننتظر الحدث الذي قد يأتي ، او اي شيء ما • لم يعد ثمة من حكيم واحد يعبأ برش نفسه اتقاء للبراغيث • نربض في حفرة ظليلة ونضجع • وحين تدور الشمس نرمقها بنظرة مؤنبة دون ان نحرك ساكنا • فلتتفجر الشمس ولكنك لا تتحرك • وعندما تهب ريح بحرية عذبة في النهاية ، وترفع الغبار قليلا وتحرك ستائر قاذورات الغبار الخمسينية الغاضبة المعلقة ، يشتعل الرجاء الطيب فيسك حالا • وسرعان ما ينصهر النحيب الحزين في اعماقك ، وتشرع في تذكر الفتيات • شيء ما يخصهن كلهن حيث هن • وشيء ما لواحدة منهن ـ الا ان الريح كانت وقبل ان تطوي

جناحيها ، تتحول الى تيارات متعكرة ، فتفسد بقوتها الجارفة ذلك النزر القليل من الجمال – ولا يبقى منه غير شيء من الكدر الملوث في النهاية · وسرعان ما تصبح ثمة حاجة لدينا للانتقام ، للتكسير والتحطيم ، وعلى الاقل للدوس بالارجل · كانوا يجلدون الجمل الذي يدور بالناعورة المصطكة المشرشرة حتى يباس اليد ، ويركلون ذلك العربي العجوز الذي تبقى هنا فللا ليستخدم في سحب المياه ، والذي لشدة رغبته في ان يكون نافعا، ولكي لا يصبح في عداد الموتى ، كان يتشبث برسن الجمل ويدور معه سوية ، يدور ويدور ساعات طويلة ، هو والجمل معا · كانوا يطلقون النار على كلب ذاهل عشرات الطلقات الى ان يردوه قتيلا ، ينهالون على اي واحد بجدل مميت ، ثم يعودون ويسقطون في الملل والبطالة ثانية ، وفي وجبة طعام موحدة ومقيتة ، يقضمون ويفتتون ويقذفون العلب الفارغة برمية يد ، بركلة قدم لتقريبها من الجحيم اكثر ، ويلحقونها بأعمال مشينة مماثلة ، وينتظرون الحدث الذي قد يقع ، قد يطرأ فورا ، فليحدث اي شيء ، والى الجحيم ! ·

وحين كانت تحل الظهيرة ، وهي مغبرة عندنا ، وتغمز بنسغ حر متقطر في البعيد ، تغمز وتومىء الى اشياء ليست ، على ما يبدو ، من هذا العالم ، ولن تجيء اليك ، تتوقد بمتعة يوم تموزي على وجه ارض مترامية الاطراف ، مغبرة بالصفرة ، لا ظل فيها ولا مفر ، على عكس كل ما في الرطوبة تماما – وحين كانت الظهيرة تتوقد في طريقها – كانت الساعات تتهادى وتتهادى ، مستحيية ، وتتآكل حزنا كبيرا ، كما العدم ، الذي يزحف متثاقلا ، وينزلق فيساوي بين كل الاشياء ، حتى لتصبح كلها سواء ، مسطحة وتافهة ، فيفقد احدنا اعصابه ويقفز مهاجما من فوق التل يصرخ بالرجل عند البئر المعتصرة باحتكاك الناعورة دفقات دفقات متقطعة ، والدبابير تخوي على كل نقطة تنفلت منها ، ثم يصرخ ويكرر بثورة متصاعدة :

« اوخز النذل في مؤخرته ! فليدر ، فليتزحزح قليلا ، فليتزحزح ذلك القذر ! » ·

هكذا هي الانتظارات · واما ذلك اليوم الشتوي الرائع ، فوق تلك التلة المغروسة ، وكل ما حولنا كان اخضر ريان – لم تكن تلك سوى عسكرة لرحلة مدرسية ، حين لا ينبغي عليك الا ان تبتهج وتحتفل بالساعات الجميلة – ومن ثم تعود الى البيت ، الى امك · كنا نضطجع ونستلقي على ظهورنا ، وعلى جوانبنا ، وملء قاماتنا ، وارجلنا تلوح في كل اتجاه بحرية تامة ، وألسنتنا تدور بارتياح ، تلهج وتجتر ثانية ، وكل ما ألقي على عاتقنا في هذه العملية – كان مهما كقشرة ثوم ، القرية التي هناك ، والمتسللون الذين فيها ، وكل ما اودعه الشيطان هنا معنا · فلسنا مدينين بشيء ، ولسنا ملزمين بشيء ، ولا مبالين بشيء ·

وبغض النظر عن اشياء كثيرة ، قد لا يكون كل ذلك الا برهانا اخر ، على ان هذه الحرب قد طالت ، في رأي الجميع ، اكثر ممّا يجب ، وقد آن الاوان ، ربما ، لان يأتي اطفال اخرون لكي يكملوا اللعبة ، اذا ما استحال الامر دونها ·

وفي البساطة ذاتها وفي عدم الحيلة ذاته التي انبثقت فيها الثرثرة قبلا من خلال متعة التمدد الخالي ، سرعان ما ماتت وانتهت ، من خلال ما نسميه وباختصار : خواء القلب · بقينا متمددين وصامتين · الى مثل هذا الحد كنا نعلم علم اليقين ماذا سيقول من ، ومن سيقول ماذا ، وكيف سيلوي شفتيه حين سيقول ما سيقوله ، بل وما هي عادته في صمته – الى هذا الحد الذي كنت تسارع فيه فتوقظ الثرثار من جديد كي لا يصمت – لولا الكسل ·

وقد لا يكون ذلك ، بل لان الافكار تاتي من خلال التمرد العاطل وتتسلل ، ونحن نعرف : ان الافكار تبدأ ــ فتبدأ معها الامور ، وتبدأ المشاكل ، فالافضل ان لا نبدأ بالتفكيــر · وبالمناسبة ، لقد كان اثنان منا او ثلاثة ، كما اتضح ، يغفون تماما · زيادة على ان احد الشباب ، كان ، وللمرة الثالثة او الرابعة ، قد شرع يغني بنصف صوت نصف مقطع من اغنية واحدة ، وتوقف لانه لم يعرف اكثر من ذلك ، او لانه لم يرغب في قول المزيد · حتى ذلك الذي كان يلهو بالقاء الحجارة الصغيرة لمسافات قصيرة ، وكان قبل دقيقة واحدة من شروعه في لعبة القاء الحجارة الشهيرة على اصدقائه والتظاهر بالبراءة ، كان قــد سئم وشبك يديه تحت راسه هابطا الى الخلف ، وسرح بعينيه الشاخصتين الى اغصان شجرة العناب العجوز وفي السماء الواسعة المتلبدة عند قمتها تماما ثم ترتفع بتحليق قوي الى الاعالي المستعصية (والتي لم يعرها اي انتباه او يلتفت اليها !) ــ الى هــذا الحد ــ اصبح واضحا لنا فجأة ان لا امل لدينا · اننا لن نحظى بما كان ذات مرة · مرة ، منذ امد قريب · وان شيئا اخر من اساسه ، وقاتما ، مغروس في اعماق اعماقنا منــذ زمن بعيد ، ولا خلاص ·

اذا ما استمرت هذه الضجعة ــ اظننا سنبدأ بالاقتتال ·

ــ ٢ ــ

اقفل عامل اللاسلكي ، الذي كان قد استقبل « اقفل لربع ساعة » ، جهازه الذي كان يئز طيلة الوقت ، وانضم الينا متوجها بالسؤال الى شموليك :

« هل تعرف يا شموليك ؟ »·

انقلب شموليك على جنبه يستدير اليه برفعة من حاجبيه قائلا : « مم ؟ » ·

« ماذا تقول في هذه القوة الخارقة للحياة عند الحمار ؟ » ، قال عامل اللاسلكي ·

« وكيف عرفت ذلك ؟» قال شموليك ·

« لقد رميت في الامس واحدا ، بثلاث رصاصات ولم يمت ! » ·

« اين غرزتها ؟ » ·

« واحدة هنا في العنق ، وواحدة هنا في الراس تحت الاذن ، والثالثة بجانــب العيــن » ·

« وبعده ؟ » ·

«لم يمت · تابع سيره » ·

« هراء · هذا مستحيل » ·

« انني اقسم ! في الامس ، بالقرب من المعسكر · لقد خرجت لكي اجرب البندقية فرأيته يتبختر عند السياج ، وحالا رميته » ·

« من اي مسافة كان ذلك ؟ » ·

« لا شيء ، عن قرب · عشرة امتار ، او ما يقارب ذلك » ·

« ولم يمت ؟ » ٠

« اين ! لقد تابع سيره ٠ وبعد ذلك سقط » ٠

« آه ! » ٠

« عندما اصيب في عنقه رفع رأسه ونظر الي ٠ كان الدم يتدفق منه كما لو كان يتدفق من صنبور ــ فماذا فعل هذا الحمار ــ لقد عاد يقضم العشب ٠ عاجلته تحت الاذن فقفز قفزة واحدة وظل واقفا ينظر الي ٠ لا ، لقد اثار ذلك غضبي ، فرميته في عينه ، من مسافة اقرب ، فسار في العشب عدة خطوات الى الامام ٠ ثم ، رويدا ، رويدا ، وبلا اية رغبة ، سقط وتمدد ٠ قوة حياة خارقة ، أليس كذلك ؟ » ٠

« رصاصة بندقية انجليزية كانت تنهيه فورا ، وببساطة ٠ هذه هي ميزتها ــ كالحديد »٠

« ولكن عن بعد كهذا عن قرب كهذا ! » ٠

« اما انا فقد رميت حمارا في مؤخرته ذات مرة فسقط فورا ٠ لقد خرجت له من مؤخرته مثانة ضخمة ، بينما دس رأسه في الرمل وسقط » ٠

« استغرب ذلك » ، انضم ثالث للحديث ، « اذ بالنسبة للجمل مجرد ثانية واحدة ويسقط ٠ يقلب العنق خلفه وهوب : يا لله ، سقط ٠ لماذا يكون الامر بالنسبة للحمار مغايرا اذن ٠٠٠ » ٠

ذلك الذي كان يغني بنصف صوت بين الفينة والاخرى ، حان وقته لمرة اخرى وشرع يغني بنصف صوت نصف المقطع الذي يعرفه ، وثمة من يرافقه بصيحة استحسان مفاجئة ٠ بطلنا ، قائد الفصيل مويشي ، التفت اليه وقال :

« لا تصرخ هناك ٠ اضطجع بهدوء » ٠

وانتصب قليلا على مرفقه لكي يضيف الى كلامه نظرة ٠ وما دام الامر كذلك فقد نظر الى ساعته قائلا :

« ما الذي دهاهم هناك ، متى سنبدأ ؟ » ٠

« ما الذي يسوؤك هنا ؟ » اجابه واحد من خلال نومه دون ان يفتح عينيه ٠

« على العموم ، كنت انظم الامور هنا بشكل مغاير » ، قال مويشي ، ثم استوى آخذا اول عود يصادفه يشير به من حولنا : « كنت ازرع لهم الالغام » ٠ لم يعترضه احد ٠ تحمس مويشي قائد الفصيل :

« سيكون ذلك رائعا ، انظروا ، فاذا كانت القرية هناك ولا يستطيعون الهروب اليها ، فالى اين يهربون ؟ قبل كل شيء الى هناك ٠ حسنا ٠ وهناك نزرع لهم الغاما قافزة ٠ أعرابي واحد يتفجر وعشرة ينبطحون على الارض ٠ وفورا يغير الاخرون اتجاههم ويندفعون الى هنا ، الينا ، الى فوهة المدفع الرشاش هذا مباشرة ، ويقعون في الشرك بكل بساطة ! »٠

« هذا صحيح ! » نهض النائم جالسا ، « هيا بنا ، ولماذا لا ؟ » ٠

« لا ادري ! لقد قرروا ان يكونوا نباتيين ٠ ان نطردهم الى التلال وهذا كل شيء ٠ غدا

يعودون مرة اخرى · ومرة اخرى نطردهم بعد غد · وفي النهاية نعقد اتفاقا : ثلاثة ايام هم هنا ، وثلاثة ايام في التلال ، ثم يتعلق الامر بمن يعاف اللعبة اولا » ·

« لم تعد هذه حربا ، انها لعبة اطفال » · ادلى برأيه النائم الذي كان قد تمطى لتوه ، وهو شاب جميل الشعر اشقر الشارب ، وكوفيته حمراء معقودة حول عنقه بنفس الاهمال المنسجم مع المشهد ، ويبدو عليه جيدا ان امه كانت لا تزال قبل اشهر قليلة توبخه بشدة كلما كان يعود الى البيت متأخرا ·

« اين تلك الايام » ، قال شخص نحيف · غابي ، وهو من اولئك الذين نشأوا بيننا والنظارات الشمسية فوق انوفهم ، شعورهم لم تمشط مرة ، ووجوههم لم تغسل ، ويسيل المخاط من انوفهم ، فينشقونه الى ان تهرع الاصابع والاكمام بكامل طولها للنجدة ، وينهمكون ابد الدهر بآلة ما (وكان رامي المدفع الرشاش هذه المرة ، قالها منهيا بيده كمن يرمي شيئا غير ذي قيمة خلفه · والى ماذا ترمز كلماته اذا لم تكن الى اننا قبل شهر او شهرين ، فقط ، كنا نفرك ايدينا مستدفئين في كنف سياج الصبار قبل الانطلاق ، والسكوت الذي كان يسود عندها كان سكوتا اخر · سكوت لئلا يخرج الصوت فينفضح امرنا ، لئلا يخرج الخوف ويصرخ فيكبل ايدينا وارجلنا ، وبأن الحظ الذي انقذ حياتك حتى اليوم لن يخونك هذه المرة ، وانه كان يسخر منك حتى الان ـ سكوت ما قبل المعركة المخجل المتوتر ، والتعلات الصغيرة والملتوية لتجاهله ـ فكم جميل ورائع ان نجلس اليوم ونقول باهمال : اين تلك الايام ، مجازا لـ : آه لقد مرت الايام العظيمة ·

وبالطبع ، فاننا لم نجتهد لتفسيرات مختلفة · حتى ولو لم نبدأ · ولم نسمع مما قاله سوى : وبعد ، ما هذه الجلسة العبث ـ الامر الذي سرعان ما عبرت موافقتنا الصريحة عليه بالنظرة التي رمقنا بها بطلنا مويشي ، والمشكلة انه كان لا يزال مستلقيا على ظهره ويمضغ البسكويت ، ويعتصر عينيه في وجه السماء المتوقدة فذهبت نظرتنا عبثا · وسرعان ما اتضح لنا ان لا شيء يستحثنا · كما اتضح ان الحياة تأخذ مجراها سواء كان ذلك على هذا النحو او ذاك · فمن حالفه الحظ يستلقي على ظهره ويتمتع بعالمه ، ومن لم يسعفه فانه لا يدين لاحد بشيء ، حين يلفه النسيان ويكون كمن لم يكن · فأي يوم جميل يجالسنا · وهذا السهل يمتد امامنا · لقد انجذبنا اليه فجأة وكنا ننعم النظر فيه بتثمين شهواني ، كمن يثمن مهرة اصيلة ·

« كم من الدونمات هنا ؟ » قال غابي ·

« بضعة الاف طيبة » ، اجابوه · وسرعان ما رحنا نمنحها ما شئنا من مقاييس ، متحدين الاف وعشرات الالاف من الدونمات هنا وهناك بخبرة وبساطة ، معبرين ببرمة شفتين واسعة حولها · فنتذكر ونتذاكر امورا تتعلق بالاراضي الثقيلة ، والثقيلة نوعا ، وفي النزاز والسلاج ، وتصريف المياه والري بشكل عام · بل وافترض احد ان ثمة في هذه الارض مستنقعا ، وفي المستنقع بطا ، وسنصطاد البط ، ونقطع رأسه وننتفه ثم نشويه على السفود ، ثم نحضر القهوة وعدة فتيات ، ونغني ونبتهج ونستمتع بالحياة · ومن تحتنا ، كانت الارض مقسمة بالاسيجة الشجرية الى مربعات واسعة وضيقة ، منقطة هنا وهناك ببقع خضرة داكنة ، وهنا وهناك مكورة بقمم الاشجار الكروية ، وبالتلال الموشحة بزهر « الصفير » ، وبالقسائم المحروثة هنا وهناك ـ كان السهل مفروشا بالسكينة ، ولا يخجله شيء ، ولا اثر لآدمي على الارض ، ونشيد أرض خصبة يرنم بالازرق والاصفر

والبني والاخضر وبكل ما بينها ، تستدفيء في شمس الاصيل ، ترنو الى نور وذهب والى قلبها المرتعش خصبا ٠ وتنزف ٠

« فلياخذهم الشيطان » ، قال غابي ، « اية اماكن جميلة لديهم ! » ٠

« كانت ! » اجابه عامل اللاسلكي ، « انها الان لنا » ٠

« على مكان كهذا » ، قال غابي ، « كان شبابنا يقاتلون كمن لا اعرف ماذا ، وهؤلاء يهربون ، انهم لا يحاولون حتى القتال ! » ٠

« دعنا من هؤلاء الاعراب ــ انهم ليسوا رجالا » ، اجاب عامل اللاسلكي ٠

« سأخبرك ماذا » ، قال غابي ، « انك بقدر ما تراه جميلا لديهم الان ــ فانه ، عندما ناتي الى هنا ، سيكون اجمل الف مرة ٠٠ ثق بذلك ! » ٠

« اين ! لقد كان شيوخنا يكسرون رؤوسهم ذات يوم من اجل قطعة ارض ــ اما اليوم ، فاننا نأخذها بسهولة ! » قال عامل اللاسلكي ، وعاد الى جهازه ، وهو يفرغ خاطره ، على ما يبدو ، ويفكر في امور شتى وشذر ٠

تعاظمت الشمس ، واعتدل النهار في السهل ٠ لن اعرف لماذا تملكني شعور بالوحدة المقيتة فجأة ٠ كان من الافضل لو انني تركت كل شيء في تلك اللحظة وذهبت الى البيت ، المعارك ، العمليات ، المهمات ، كانت كلها غريبة عني ٠ وكل اولئك العرب القذرون ، المتسللون لاحياء نفوسهم القاحلة في قراهم المهجورة ، اصبحوا مقيتين مقيتين الى حد الغضب ، فما الذي نريده منهم ، اي دخل لنا ، لشبابنا وايامنا العابرة ، بقراهم المقملة المبققة ، المقفرة ، الخانقة ، فاذا ما كان قد تبقى لنا ان نحارب ، فتعالوا نحارب وننهي حربنا ٠ واذا ما كانت الحروب قد انتهت فدعونا نذهب الى البيت ٠ لم يعد ثمة طاقة على الاحتمال لا هنا ولا هناك ٠ هذه القرى الخاوية اصبحت تثير الاعصاب ٠ لقد كانت القرى ذات مرة ، شيئا ما نهاجمه ونحتله ، بالاقتحام ٠ واليوم ما هي الا خواء فاغر فاه يصرخ صراخ صمت بائس ومشؤوم على السواء ٠

هذه القرى الخاوية ، سيأتي اليوم الذي تبدأ فيه بالعويل ٠ تمر بها ، فتلقاك فجأة ، وبكل براءة ، ودون ان تعرف من اين ، عيون جدران ، وساحات وازقة خفية ترافقك دونما حديث ٠ صمت دمار مهجور ٠ فتنقبض كليتاك ٠ وفجأة ، وفي عز الظهيرة او قبل الغروب تبدأ القرية التي كانت قبل لحظة فقط مجرد وشي اكواخ مقفرة ، يلفها صمت اليتيم ، صمت قاس ونحيب جنائزي يفطر القلب ــ تبدأ هذه القرية ، الكبيرة البائسة ، وتغني غناء الاشياء التي فارقتها روحها ، اشياء ادمية عادت الى جمادها وتوحشت ، غناء نذير كارثة مفاجئة ساحقة كان قد تجمد وظل كلعنة توقفت على الشفاه ، وخوف ، يا اله العالمين ، خوف مروع يصرخ من هناك ، وبريق هنا وهناك ، بريق ثار ، يدعو الى الحرب ، واله انتقام يطل ! ٠٠٠ هذه القرى الخاوية ٠٠٠ ألست مذنبا حقا الى حد ما هنا ، ام ماذا ؟ اشباح ضخمة لاشياء لم يصدق موتها في البارحة بعد ، متشابكة ، هامدة ، مطوية ، متلاصقة ، كسؤال يطرح نفسه ، او ملاحظة جانبية ، كتلك التي لا بد ان نبدي بها شيئا ما عن شيء ليس هو اياه ، ليس هذا البتة ، الذي يترك فيك تجهما كريها ، كنوع من الشفقة على متسول ، مشوه قذر ، لا تثير الا الغضب وانقباض النفس ، الذي لا حل له الا التخلص منه ، وان تنتزع نظرة غاضبة وتقذف بها هذه القرية ، تلك التي

ما اسمها ؟ تلك التي امامنا ، وان تترجم هذه النظرة الى لعنة واضحة ، بحيث تكون في نهاية الامر ، هي الوحيدة التي تسمع مدوية ، ويمتعة بالغة ، الى الحد الذي يتذوق فيها كل سامع لها طعم متعته النابعة من ذاته ، فلكل علته ، اذ ان اللعنة ، كما هـــو معروف ، لها منتفعوها ·

— ٣ —

كان الامر قد وصل · فصيلنا يفتح النار على اسفل القرية وعلى البيوت العالية المواجهة لنا · فصيل الاسناد الذي في المؤخرة يفتح النار على دائرته ، والفصيل الثالث يتمركز في اعلى القرية ومن هناك يسيطر عليها · وسرعان ما فتح المدفع الرشاش فمه ونطق بعدة صليات ، برقة ، كما لو لم يكن من شأنها ان تؤذي ، كما لو كانت رماية للتسلية · في البداية ، كشط شبابيك بيت مبيض بالكلس (كلس عربي ضارب الى الزرقة) ، ومصراع اخضر ، ومن ثم طبل على بيت طيني عال ، وسرعان ما خوت النيران على طول زقـــاق واسع ، ثم خرجت وقفزت متناثرة على واجهات الجدران والاسوار وبين الاشجار ، التي كانت الشمس قد بدأت تغسلها من داخل رؤوسها الكثيفة · (وكانت هذه المرة تختلف تمـــام الاختلاف عن مرات سابقة ، حين يفتح مدفعك الرشاش نيرانه ، وينسيك للحظة خوفـــك السابق ، كي يعطي الاشارة للخوف الاخر بالاغارة ، الخوف الاساسي ، خوف ها ـ هو ـ ذا قادم حقا ، والذي كل ما هو آت بعده ثمل بالسكر والخدر) ·

انهينا كركرا واحدا ، وبدأنا الثاني · لم يجبنا احد · كانت خراطيم نيراننا تقطـــع الهواء الذي كان ينسكب ويطير خلف مسيلها بأزيز حاد ، ثم ينسد فجأة ويعود الـــى صمته ، دون ان يعرف انه قد وصل الى نهايته · رجلنا ، مويشي ، اخذ المنظار اليــه لاستطلاع الامور ·

« رائع » ، قال مويشي ، « لقد فاجأناهم تماما · اضرب الى اليمين قليلا · تلـــك البيوت · صباح الخير يا جمعة · يهود جاؤوكم الى القرية ! » تابع مويشي بمتعة ·

كنا نستلقي على بطوننا ونشهد المسرحية ونستمتع ، واصابات غابي تزيدنا انفعـــالا كحكمة مويشي ، واعيننا تجول المنطقة علها تقع على صيد ·

وكنا الان نسمع طلقات فصيل الاسناد من الناحية الاخرى ، التي كانت تشكل ما يسمونه « نيران متقاطعة » رائعة · « ثمة ما يدغدغهم هناك في حواصلهم قليلا ، ها ·· ها » ، قال شخص ما · ودون ان انتبه بدأت استرجع فجأة كيف كان ذلك عندنا ، في البيت · قبل ايام ليست بالبعيدة ، وقبل ايام بعيدة ، بعيدة جدا ، بل ومن خلف عتبة صمت طفولة بعيدة ـ حين كانت الطلقات تلعلع فجأة ، طلقات من الحدود ، وطلقات من خلف البيارات. طلقات من التلال البعيدة ، طلقات ليل ، او طلقات ما قبل الفجر ، واشاعات ، وتعتيم اضواء ، وثمة ما هو كبير وجدي يهدد ويقلق ، وجري ، واسرار ، واصغاء متوتر ، واشباح ظلالية تخرج بالبنادق ، غريبة وطقوسية ، تركض في منحدر الطريق ، واصوات متوترة وشخص ما يهشها ويأمرها بالصمت ـ وسرعان ما كان يرتسم لي بدقة ووضوح ، كيف انه في نفس البيت ، ذلك البيت الابيض الزرقاوي والنافذة الخضراء ، يعتدل الان شخص ما فوق ما كان يفعله في خوف مفاجيء ، ثمة من يتوقف في البيت الطيني عـــن اكله ، وثمة من يهمس في مجموعة البيوت الى اليمين من كان يحدثه في هذه اللحظة :

ـ اطلاق نار ! ـ قشعريرات تدب ، امعاء تغثي بما حوت ، ام ما ترتعب حتى الموت ، تخرج ، تجمع اطفالها بوخزة قلب يكاد يتوقف · كيف يحل سكون الشلل الذي تتركه الحيرة « ربما ليس نحن ، عطفك اللهم ! » المشهورة ، كيف تتوقف الصلاة في لحظة ما في الفراغ ، لحظة طويلة قديمة خفية تتأرجح قبل ان تحسم ، وفي قلب كل واحد وقلوبهم كلهم معا ، يدق طبل ـ التكوين ويصرخ : خطر ، خطر ، خطر ! فيتجاهلون ، ثم يضطرون لان يفكروا من جديد ويتخذوا القرار الحاسم بسرعة ، فأزيز الرصاص يقرر بحزم : العملية تبدأ ! ·

« كان من الافضل لو قصفناهم بعدة قذائف هاون » ، قال شموليك الذي التمعت فيه شرارة المعركة وكان جاهزا لاضرامها ، وبدا كمن كان يسمع عويل انقضاض القذيفة ، ورعد غبار اصابتها ، ومن دون ان يكلف نفسه جهد كلمة واحدة ألغى مويشي عرضه القتالي هذا بهزة رأس خفيفة وانعقاد حاجبين · الا ان شموليك لم يهدأ · اخذ المنظار اليه وألقى نظرة من حوله ، وهو يدير مفاتيح الاتجاه الى الاعلى والى الاسفل ·

« لا ارى شيئا هناك » ، قال ، وستكون النتيجة اننا نحتل قرية خاوية ! » ·

« اعطني المنظار » ، هكذا اجابه مويشي ولم يضف · فعقد شموليك يديه حول ركبتيه متسكعا بعينيه بين رفاقه ، عله يجد من هو اكثر دماثة ·

« هيي ، غابي ، قال شموليك فجأة وهو يميل على عامل اللاسلكي المتكىء على جهازه ·
« ماذا دهاك ؟ » قال غابي ·

« لا شيء · مؤسف ان لا تكون رفقلي الان هنا » ·

« اتفتقدها ؟ » ·

« هووو » ·

ومرر يده في الهواء كمن يمسد جيدا جميلا خلسة ، يغمره شعر كثيف عطر يتحدر فوقه ، يدغدغ ويشع دفئا ، وسحب سيجارة بأصابعه المتسخة بهزة ثرثارة من علبته التي كانت قد اقتطع في رأسها هلال صغير بقدر ما يسمح بولادة سيجارة واحدة فقط ، ثم اشعلها من خلال تأملات ودخان كثيف ·

« اهلا ! » صاح شموليك فجأة بالعربية ، حين تبدد الدخان الكثيف الذي نفث ، « اليكهم هناك ، انهم يهربون ! » واشار بيده في اتجاه الكروم قرب التلال التي تكبل البساتين ارجلها على طول حدها · وبمشقة فائقة ، بسبب المنطقة المبترة والخلفية المخططة للتلال ، استطعنا ان نكتشف ، مواصلين خط اصبعه الممدودة ، ثلاثة اشباح سرعان ما اختفت بين الاشجار ·

« أمنذ الان يهربون ؟ بهذه السرعة ؟ وبدون اية طلقة ؟ » ·

« ثق ان اوائل الهاربين هم اكبر الانذال » ·

« سأخنثهم ! » قال غابي · على الرغم من ان الهدف كان ان نتركهم يخرجون ليس الا · اذ انهم كلما اكثروا من الخروج بأنفسهم كلما قلت المشاكل عندما ندخل القرية وتبدأ كل تلك العملية الحقيرة المترتبة على طردهم ·

« يهربون ··· حتى ولا طلقة واحدة ، أنذال ! خنثهم ! » قال شموليك الذي كان يهتاج اكثر فأكثر ·

فحرف غابي المدفع الرشاش واطلق عدة صليات ، بينما كان مويشي الذي يستكشف بالمنظار يوجهه · كنا كلنا نتركز في نفس البقعة الفارغة من الارض ، والتي تحدها التلال من هذه الناحية ، وصفوف اشجار تبتعد وتتزاحم من الناحية الاخرى · مجموعة اخرى من الاشباح اطلت · اشباح ظلالية كانت تتحرك متباعدة ، ربما كانوا قد اندفعوا ، الا ان اندفاعهم هذا كان قد تلاشى باتساع المنطقة ، وتحول الى نوع من تخبط الدودة التافه·

« ارم الان » ، قال شموليك ، « خذ الى اليمين قليلا » · « لم تصب » ، قال مويشي من خلال المنظار ، « الى اليمين اكثر والى اعلى · الان ! ارم الان ! » ·

تحمسنا · شرارة الصيادين الكامنة في كل انسان كانت الان قد توقدت فينا بقوة ·

« اليك هناك ايضا ! » زأر احدنا وهو يدل على حقل اخر كانوا يركضون فيه كالنمل ، اشباح كثر ، والذين كان اندفاعهم العبي يتبدد اكثر كلما كان الحقل اكبر · اخذت المنظار الي ورايتهم · مجموعة خلف مجموعة ، ربما عائلة خلف عائلة ، وربما متساوي الجهد في الهرب خلف متساوي الجهد في الفرار ، رباع وخماس وسداس ، وفرادى ، ونساء باديات جيدا بمناديلهن البيض فوق لباسهم الاسود ، واللواتي كان جريهن يبطؤ ، على ما يبدو ، تعبا واختناقا ، الى مشي لحظة ، ثم يستحث ويستحث ويعود لان يكون جريا ثقيلا ، فيه من التضحية بكل القوى والنفس اكثر مما فيه من السرعة لاثبات ان ما من جهد الا ويبذل كي يكون جريا · لكي تفلتن من يد القدر · وفي نفس اللحظة كانت مجموعة اخرى من ثلاثة تظهر وهي تصعد التل بوضوح ·

« اليك هناك ! » صحت مرشدا غابي :

« ألف ومئتان الى يمين الشجرة المنفردة ! يمكن اصطيادهم جيدا ! » · ولسبب ما ، وفي نفس اللحظة تغثيت ، ويدي لا تزال ممدودة في نشوة السكر في اتجاه الهاربين الذين اكتشفتهم · احسست وكأن شخصا ما يصرخ في داخلي صراخا مغايرا ، كعصفور جريح ، وبينما كنت لا ازال مفاجأ من هذين الصوتين ، اطلق غابي في اتجاههم عدة صليات ، فقال مويشي : « فلتذهب الى الجحيم ! انك لا تحسن اصابة شيء ! » · وبكثير من الدهشة احسست بانفراج ما ، ربما كان هكذا : « فليخطيء آخ ، فليخطئهم ! »· وسرعان ما نظرت حولي كي لا يكون ثمة من كان قد ضبطني ، بما بدا وكأنني أفسدت ، ثم عدت حالا اجيل عيني في ذلك المر في الحقل ، متتبعا تلك الاشباح الذاهلة ، التي كانت تتخبط وتحاول الخروج منه والارض لا تتسع لها ، الا اذا افلحت في الوصول الى ما وراء تلك التلال ، عبر ذلك الافق ·

« أصبت ! » صرخ ·غابي

« اين ؟ » احبطه شموليك ثاقب البصر ، « اعطني الرشاش ، مويشي ـ فليعطنيه للحظة ! » ·

« اما انا فسأخنث هؤلاء هناك بالبندقية ! » · قال احدنا ، أرييه ، وركع على ركبتيه ، مصوبا بندقيته بدقة وأصمنا بانفجار غير متوقع · قفز حالا واطلق ثانية · والصياد كان بكامل قوته واتقاده · الى ان قام مويشي وقال :

« كفوا عن هذه الضجة · انتم ابطال انتم · انكم تحسنون الرماية كما عجوزي · كفوا وكفى » ·

وعندها قال أرييه : « بالتأكيد ! فليعطني الرشاش لحظة وسترون ! » ·

وهذا ما قاله شموليك ايضا فغضب غابي جدا · وعلا الصراخ · ودعوا للشهادة العالم كله · موقع الشمس في السماء ، ودائرة السلاح ، ولون التلال والنباتات والحقول ، وكون الهدف متحركا ، والبعد الذي يتراوح بين الالف ومئتين والتسعماية متر ، وتذاكروا ، ودقوا الاصابع في الفراغ ، مرة الى الاعلى واخرى الى الوجوه مباشرة ، وبسخرية وتفنيد وبحرفية وبانتصار للعدل الاوحد العظيم ـ والتي ركع أرييه وربض نتيجة لها كلها خلف المدفع الرشاش ، والجميع ابتعدوا ، وهم يحتجون ويتشبثون بآرائهم ، وافسحوا مكانا ، وموبشي اختار له بالمنظار مجموعة من اربعة رجال كانوا قد وصلوا لتوهم حافة التلال ، واطلوا بثيابهم الداكنة جيدا ·

« هيا ، هذا هو » ، قال موبشي ، خمس صليات وعليك ان تخنث واحدا منهم على الاقل » ، قال والصق منظاره بعينيه · اما نحن فكنا نزم اعيننا اثره ، زم ما قبل الطلقة الاولى · واولئك الاربعة قبالتنا ، والذين كانت قواهم قد خارت في هذه اللحظة بالذات تماما فحولوا جريهم الى سير بطيء منحن ، انحدروا واحدا تلو الاخر الى بطن واد صغير ، وواحدا تلو الاخر صعدوا خارجين منه ، وحين صعد الاخير توالت الصلية الاولى ، والاربعة شوهدوا يسقطون · الا ان ثلاثة منهم نهضوا وانطلقوا بجري زاحف في اتجاه مخبأ الشجيرات القديمة ·

« واحد لصفر ! » صاح شموليك وانحنى قليلا اجلالا لغابي · وفي اللحظة نفسها نهض الرابع وراح يجري هو الاخر خلف رفاقه ·

« استنا يا قديش ! » ، قال غابي لشموليك بالعربية وانحنى قليلا في اتجاهه ·

تتابعت عندها الصلية الثانية ، ثم تبعتها الثالثة · سقط الاربعة على البعد كلهم · شخص ما كان قد اختنق في داخلي · الزمن توقف للحظة وكل شيء كان غير مهم · تطاولنا باعناقنا كي نحسن الرؤيا ، لكي نرى جيدا · موبشي لم يقل شيئا · وفجأة نهض اثنان وجريا ، وقبل ان نستوعب ما الذي حصل قفزا وغابا بين الشجيرات · ثم قام اخر وجرى · وحين قام الرابع انهمرت الصلية الرابعة ، تقوس للحظة ، مكث قليلا وانتصب ، صلية خامسة · لم يركض ، ولكنه مشى · ثم قرر على ما يبدو ان يزحف · وفجأة راح يتدحرج وابتلعته الحشائش · لم يكن ثمة معنى لاطلاق النار اكثر · المباراة لم تحسم · كان الامر كله قد اتسخ ولم يعد ثمة رغبة في الجدل · شعرت انه لا يمكن لي الا ان اقول كلمة ، فقلت :

« اتركوهم وشأنهم ـ على اية حال لن تصيبوا ··· عبثا ··· مؤسف ··· » وتلعثمت كلماتي ، الا ان احدا لم ينتبه ·

« فليذهبوا الى الجحيم » ، قال أرييه موجزا · نهض وهو ينفض عنه كريات التراب وعوالق اخرى · الا ان عامل اللاسلكي اخرجنا من الغم حين اخبرنا بأنهم ارسلوا لنا سيارة واننا سوف ننطلق بها لنفتش الاكواخ التي في البيارات والكروم ثم ندخل القرية ·

ــ ٤ ــ

كنا نسير على رسلنا في الاعقاب الموحلة للجيب ، الذي ابرز كل مقدرته اللولبية في القفز على اربع من فوق تلك الحفر كلها والاوحال الكثيرة ، التي اجبرت بعد كل تلك الاجيال الهادئة المتعاقبة من الاقدام العارية وحوافر الحمير ، ان تحمل ندبين ينزفان وحلا وصمتا ، على امتداد طولها ٠ اطلاق النار لم يعد يسمع ، اللهم الا برهة هنا وبرهة هناك ، عرضا ، ولو انك كنت هنا وحدك ، وتوقفت عن المسير ، ثم اصغيت قليلا لكنت بالتأكيد تسمع كيف كانت شفة الارض تتمصمص ، وتشرب وترضع وتلعق الماء بهدوء ، وكيف كانت بقايا احزان الخريف الجاف المروع تختفي وتتهدد باستسلام كالاغفاء اثناء الرضاعة ٠

واخيرا ، وحين اعتدلت الطريق وهدأت من كل تعرجهاتها ومراوغات تبخترها ، السافرة شبرا فتحجبه شبرين بأسيجة من صبار وسنط ، واغصان مغروسة ومتداخلة في ثنايا سلك شوكي قديم صدئ ، واصبحت وبكل بساطة طريقا ترابيا يؤدي الى السهل ــ توقفت سيارة الجيب ، والمدفع الرشاش المثبت فوقها كان من المفروض ان يؤمن الطريق الممتد بطوله الى الامام ، بينما ننطلق نحن وندخل الاكواخ والباحات لتفتيشها ٠ ونظرا لذلك ، فليس اسهل عليك من ان تتجاهله ، ببساطة ، تنكره ــ فما كان يهمني هو ان الامر قد بدأ ٠ كنت اتوق الى ساعة تبدو لي فيها الامور على غير ما تبدو للجميع ٠ بالنسبة لي ، يريحني ان اكون مع الجميع ، واكره ان اشعر خلاف ذلك ، ولا اريد ان اكون مميزا عن الجميع بأي شيء ٠ ففي النهاية دائما خيبة امل كبيرة ٠ وكل صدع تافه يتكشف ويفغر فاه ويشرع بالصراخ ٠ امسكت نفسي وخرست ٠

كان يبدو انه لم يسكن تلك الاكواخ احد منذ زمن ابعد مما يكون بالامس او أول من امس ٠ محاصيل خوف وغلال اشاعات سوء حصدت ارتباكا في غير اوانه ، وتخبط دودة سارعت الى استباق حتفها ٠ نركل الخوخة التي تتوسط البوابة الخشبية الكبيرة في اسوار الطين ، وندخل الباحة المربعة التي تتوسط كوخا على ضلعها من هنا وكوخا آخر على ضلعها من هناك ٠ احيانا ، وحين كانت اليد تطال والفرصة تواتي ، بادر هؤلاء واضافوا كوخا طينيا فوق سقف بيت البئر ، ثم شذبوا كرما او كرمين واقاموا لهم عريشة ، بل واحضروا الحجارة الاسمنية ، التي ليست في حاجة الى تبييض ، وان كانت اطرافها غير متقنة الصنع كلها على الاقل ، شجيرات فلفل وباذنجان خريفية تنثنت الى الاسفل بين الاعشاب ، وتعفنت عند الصنبور ، وورود برعمت في جمهرة اعشاب دنيا توحشت وتطاولت، ومسارب مدت الى مكان داخل الكرم ٠ ركلة اخرى واستعراض لا مبال داخل دار خلت من ساكنيها ، ومخزن تراكم الغبار فيه فوق بيوت العنكبوت الجاذبة كما لو كانت دهنية ٠ جدران حرصوا على تزيينها بشتى الوسائل ، مسكن مبيض بالكلس واسع الافريز مدهون بالازرق والاحمر للزينة ، في اعلى الجدران اصاغر مجد معلقة ، بقايا اهتمام سقطت على الارض ، وآثار حكمة ــ نسائية ــ بنت لها ــ بينها ، وتحرص على تفاصيل كثيرة فات اوانها ، نسق كان مفهوما لشخص ما ، وفوضى وجد فيها شخص ما رجليه ويديه لراحته ؟ بقايا اوان جمعت واحضرت حسب الحاجة والمناسبة ، ترتبط بافراح واحزان خاصة جدا ، وغريب لا يفهمها ، ابلاء تتكشف عن تعودها ، انماط حياة فقدت معناها ، كد صار الى نقيضه ، بكامة كبيرة ، ومعمعة حطت على الحب والضجيج ، والكد ، والآمال ، والساعات الجميلة وغير الجميلة ــ جثث لن تصار الى قبرها ٠

الا اننا كنا قد تعبنا من مشاهدة مثل تلك الاشياء ، ولا قبل لنا لمثلها ٠ نظرة واحدة ٠ وخطوة ـ خطوتان تكفيان للباحة ، للبيت ، للبئر ، للماضي وللحاضر وصمتهما المصغي ٠ ولو أن ثمة شاعوبا مهملا او طورية صالحة ، او مفتاح مواسير مهماوجيداـ كانت لا تزال تغري برفعها ، وتقييمها باليد ، تقييم ابتياع واقتناء ، وتقييم اشياء تجمل ان تكون في مكانها ، بل وتثير الرغبة احيانا ، وبالمناسبة ، في اخذ موتور البئر والانابيب ، خمس انشات ، والقرميد من اعلى ، والاجر من اسفل ، والالواح الخشبية (فدائما لها ثمة استعمال في فنائنا) ـ ونقلها الى البيت ، وثمة متعة مدغدغة جدا في اقتناص المتعة السهلة ، والاثراء دفعة واحدة ، بان ترفع مشاعا وتجعله ملكا لك ، ان تغتصب لنفسك ، وسرعان ما راحت المشاريع ترتسم ، منها وبها ، وقد اصبح واضحا ما الذي يمكن فعله في كل ذلك وكيف ـ لو لم نكن حتى الآن في كثير من القرى ، وجمعنا ورمينا وحرقنا ودمرنا الى ان عافت نفوسنا ذلك ـ فنأخذ الطورية حالا او الشاعوب المناسب المتروك ، ونرميه علىالارض بازدراء ، او نصوبه على ما امكن من الاشياء التي سرعان ما كانت تتناثر قطعا مهشمة ، فنتحرر من الاهانة في عدم استعماله ـ بدمار ملموس ، مرة واحدة والى الابد ، فينعدم صمته وينقطع ٠

وفي المقابل ، فاننا عندما ابتعدنا ووصلنا الى الكروم المحاذية للقرية ، مثلت لنا الشواهد في الباحات والبيوت التي كانوا قد هجروها قبل وقت قصير ٠ فالفراش كان لا يزال ممدودا ، والنار بين الاثافي لا تزال تداخن ، والدجاج ينبش النفايا برهة وكأن شيئا لم يكن ، ثم يفر زاعقا كالذبيح ٠ كلاب تستروح مرتابة ، تقترب ولا تقترب ، تنبح ولا تنبح ، والادوات التي كانت في الحديقة لا تزال بكامل انهماك حياتها ٠ والصمت لم يأت بعد الا كالذهول والدهشة ، وكأن الامر لم يحسم بعد ، وقد يعود الى سابق عهده ٠في احدى الباحات كان ثمة حمار يقف منتصبا ومن فوقه اكداس ، تنقلب وتسقط على الارض ، فرش والحفة ملونة ، كان طبل الرعب قد دق اثناء تحميلها الخاطف « ها هم يفشونك ! » وصرخ : الى الجحيم كل شيء ، اهربوا ! وفي الفناء المجاور ، حيث كان ثمة حاكورة خضروات في طرفه ، اشتال بطاطس مدللة متللة جميلة ، كانت لدانة تربتها واخضرارها الناصع تدعوانك وتدعوانك لان تعود الى البيت بسرعة وتعكف على زراعة البطاطس الجميلة ـ في ذلك الفناء المجاور كان ثمة خروفان يلتصقان ذاهلين في زاوية السور ، حائرين تماما (شاهدتهما بعد ذلك يثغيان فوق سيارتنا الشحن ، وجرة المياه الضخمة كانت تتكفيء على العتبة ، تنضح بقايا مياهها مستسلمة في بركة نصفها داخل الغرفة والنصف الآخر خارجها ٠ وبعد هذا الفناء مباشرة كانت ثمة قطعة ارض محروثة حديثا ثم تليها ضواحي القرية ٠

وما ان خرجنا الى الطريق ، حتى رأينا جملا محملا بالادوات المنزلية والفراش قبالتنا ، ورسنه مقطور الى برذعة حمار يسير امامه ، محمل هو الآخر بالادوات المنزلية ، وغرابيل كبيرة واكداس ثياب ، كان يقف ويقضم من الاعشاب التي كانت تحت سياج السنط بمتعة فائقة ، وهو يغوص في خصبها بازدراء كامل لشريكه في الحبل ، الذي كان يرفع رأسه الصغير الى قمة عنقه برعب ، ثم ينتحي به الى الخلف ما استطاع ، كما لو كان يتفادى صداما ، ثم يقذف من داخله غرغرةحقد، ورغاء فزع ، وهو ينذف رائحة عرق جمال دهنية كريهة ٠ تحفز لمشهد الجيب حالا للتحرك والالتفاف والهرب ، لولا حبل الرسن المشدود الى برذعة الحمار ، فراح يشده ويهزه بقوة متزايدة ، الا ان الحمار لم يعر ذلك الاضطراب الابلي انتباها ، ولم يلتفت الى شيء ، سوى تغذية نفسه بشهية ٠ قفز شاؤولنا حالا

وراح يغرغر للجمل غرغرة منيخة لكل وكيه ، ويربت له على عنقه المائل بانتصاب الى الخلف ، بماسورة البندقية مهدئا ، والجمل يتمسك باللغة المفهومة لديه ، فيغرغر ويصب جام غضبه ، وهو ينوي الركوع على قائمتيه الاماميتين ، مزبدا باكيا محتجا ـ الا انه كان قد اطل علينا في تلك اللحظة من بين السياج الكثيف عربي يخرج باسطا يديه في اتجاهنا ويتقـدم نحونـا ٠

« يا خواجا » ، قال العربي ، الذي كان ابيض اللحية قصيرها ، وهو لا يزال يسير ٠

رفع شاؤول بندقيته في وجهه حالا وصاح بنا : « انظروا من جاء ! » ٠

« يا خواجا » ، عاد الرجل وكرر بصوت من قرر وليكن مهما يكن من أمر ٠

« الله يعطيك ، يا خواجا » ٠٠٠

« يا الله ! » قال شاؤول وهو يسحب الاقسام ٠

« يا خواجا » ، انتحب العجوز وهو يبسط يديه بتعاقب ويشير الى الجمل ، متنفسا بصعوبة ، رعبا وليس عن وهن به ،« الجمل يا خواجا ، ناخذ الجمل ونذهب ! » وكان قد اصبح اثناء حديثه الى جانب بهيمته ويتشبث بحزام بطنها بيده السمراء المتيبسة ٠

« ماذا يخلط » ، قال شاؤول لويش الذي كان يجلس في مؤخرة الجيب ٠ وسرعان ما تراجع الجيب حتى وصل الجمل بادبارة واحدة عصفت بالجمل حتى قطع الحبل المشدود الى برذعة الحمار (الذي اضطرب للحظة لسقوط الاشياء عن ظهره ثم عاد الى الاعشاب المخخة في اعماق السياج الشجري بهدوء) فنفض العجوز من مكانه بخبطة مفاجئة ، الى حد انه استدار مع كل رعبة قائلا للجمل كلمة كان بالفعل يستحقها ، ثم عاد والتصق برجله متحولا الى جزء منه ، يتأمل الجيب الذيكان يرهصه صدرا الى صدر ، بقلب واجف ٠

« من انت ، ماذا انت ، من اين انت ، وماذا تريد ؟ » كانت كلها تتلخص في الكلمة الوحيدة التي قالها مويشي له« ايش ؟ » بنبرة منغمة وتكميك باهم واصبعين ٠

« الجمل ، يا خواجا ، الاغراض ٠٠ ناخذها ونذهب من هنا ، الله يبارك فيكم ٠ ناخذ الجمل ونذهب ٠٠٠»

« اسمع يا ختيار ! » قاله له مويشي ٠

« اي نعم يا خواجا ، الله يعطيك يا خواجا » ، رغا العجوز متزلفا وكان مستسلما ومخلصا ومؤملا ومصليا وجاهزا لاي شيء ٠

« عليك ان تختار » قال مويشي : « نفسك او الجمل » ٠

« خواجا ! » ارتعب العجوز ٠

« يا نفسك يا جمل ! » اصر مويشي ساحبا نبراته وحاجبين « وعليك ان تفرح لاننا لا نقتلك » ٠

« خواجا ! » ، كان العجوز قريبا من البكاء ، وضع يده على قلبه ، « الله » ، حاول ان يقول ، « بحياة الله » ، ـ اقسم فجأة وضرب على صدره الاشيب ، كما لو كانت تنقصه كلمة واحدة كبيرة شارحة ومقنعة ٠ « احنا رايحين ـ رايحين » ، قال العجوز ، « وما

معنا شي، والكل ظل هون ، اشار الى الارض من حوله او على بيت معين ، « شوية هدوم وكسوة » ، تسارع لسانه عله يستطيع حشر الكثير من الشرح بقليل من البقاء وبسط كفيه كانسان امام ربه ·

« يا لله ! » حكم مويشي : « امشي ·· يالله ! »

« طيب ! » قال العجوز ، « طيب ماشين » ، وانحنى قليلا باذعان اقرب الى صدمة القلب ثم تراجع عدة خطوات ، « ماشين ··· يا خواجا » ، عاد وتوقف وهو يحاول ان يقـول ذلك مـرة اخرى ·

اطلق اريبه النار فوق رأسه ، فتقيأ العجوز واصطكت ركبتاه ، استدار وتحسس الهواء بيديه لحظة ثم تهادى ثانية · كان يبدو اننا كنا جميعا شركاء في امتعاض ما ، او ان ثمة افكارا مختلفة كانت قد راودتنا · الا ان اريبه قال حينئذ :

« اسمع لي يا مويشي ، الافضل ان انهيه هنا · ما حاجتك الى هذه الجيفة ؟ وليعرفوا ولو مرة اننا لا نلعب » ·

« فلتجلس انت هنا بهدوء » ،قال مويشي · التفت العجوز ليستمع الى النقاش ، وقد خيل اليه ان ثمة ترددا في الامر قد ثار لدينا ، قد يكون فرصة يستغلها ، استدار نحونا ، طاقية صغيرة على رأسه ، لحيته بيضاء وقفطانه مخطط مفتوق على صدره الاشيب · استدار وبسط يديه متمتما : « يا خواجا ··! »

« امشي ! » ـ صرخ مويشي بصوت ليس بصوته · ومشى العجوز · وصل الى مفترق الطريق وانحنى فيه · واختفى · وبدا للحظة وكان عبئا قد نزل عن كاهلنا ·

« هل رأيتم كهذا ! » قال غابي ونظف انفه ·

« ما كنت ادعه يذهب هكذا ··· وله من الوقاحة مع ذلك ان يأتي ويطلب » ، قال اريبه· « تصوروا يهوديا في مكانه وعربا في مكاننا ! ··· اين ! لكانوا ذبحوه ببساطة » · وكان يبدو عليه ان عنده ما يقول اكثر مما قاله مائة مرة ، ولكنه همس بدلا من ذلك شتيمـــة بفحيح افعـــى ·

« ما الذي نفعله بهذا الجملوبالحمار ؟ » قلت ·

« فليختنق هذا الجمل وهذا الحمار » ، قال مويشي ، ثم سرنا قدما ·

كنا نلتف حول القرية من جنوبها ، ونصعد التلة حين تكشف السهل على حين غرة عـن يميننا ، في بواكير ضوء النهار الشتوي ، المنجلي اخيرا ، اللازوردي المتذهب ، الجارف كريح متقاطعة ، كبحر يمد ، فيتدفق خضرة وسمرة وصفرة ، بقع فـــرح واتساع صدر ، فسيفساء حقول ، مسالك خطوها ـ بساط حكمة فلاحين نسيج اجيال . سرنا قدما ·

« اقول لكم ان ذلك خطأ » ، تمتم اريبه ·

« ماذا ؟ » قال مويشي ·

« اننا تركنا ذلك العجوز » ·

« دعك منه ذلك العجوز » ، اجابوه ·

« دعك ، دعك » ، احتج اربيه ، الامر عندكم هكذا بسيط ، وانا اقول لكم انه خطـــا وسوف تذكرون ما اقول ! »

حين توقفنا في ظل جميزة ضخمة ، ممتلئة ، غير مستديرة المحيط ، بل مكتظة كنجمة غير متساوية الاطراف ، وكل اوراقها المتساقطة تتعفن تحتها ، ترقـــط الارض بطحالب صغيرة ، بخواتم نور صغيرة ، ـ كانت القرية قد اصبحت مكشوفة من تحتنا ، باحـــات باحات · بعضها بيوت حجرية واكواخ طينية في غالبها ، وهاوية اسفنجية لصمت هائل ، حتى ان اصواتنا ، وطلقة هنا وطلقة هناك ، ونهيق حمار في مكان ما ، والتي تمزقت كلها الى صيحات ، وكذلك ازيز جهاز اللاسلكي ـ غاصت كلها كذرات صغيرة فيها سرعان ما اختفت دونما اثر · شرعنا في تقشير انفسنا من ثياب الشتاء الدافئة ، وتدبرنا امرنـــا لراحة ، بينما كان مويشي يستكشف السهل امامنا ، وليس لاستقصاء جمالـــه بالطبع ، اشعلنا السجائر ، اكلنا البرتقال وثرثرنا بشتى الامور ، وكنت لا ازال اشعر جيدا كـــم غريب انا هنا ، وينكرني مكاني ·

« يهربون ، يهربون » ، قال مويشي ، « شدوا العربات ، وحملوا الجمال ، ويهربون »·

« انذال » ، قال شموليك ، « لا دم فيهم للاقتتال » ·

« اين ! » قال يهودا ، وهو ديك يافع ويسعى للظهور كأحد الديكة العتيقة في المزرعة ، يفخر بالفلاحة ، والمدحلة المهدة ، والمحراث القرصي ، والمازوت ، ولشدة الثقة بالنفس فانه لا يجهد نفسه بلفظ « الراء » الا كما يلفظ « الحاء » : « الاصح واضح » ، قـــال يهودا ، دونما تنميق ـ « ليس لهم اي قدرة على الصمود ! » نفخ شفتيه دافعا ذقنه الـــى الامـــام ·

وهنا صعقنا صوت انفجار قوي مفاجيء وعمود دخان ابيض تعالى من اسفل القريـــة باضطراب (وسرعان ما طغى الصمت يطمس الضجة ، وليس المفاجأة ·)

وحين نظرنا الى مويشي ، قال ان فرقة التدمير قد باشرت عملها · اما نحن ، فاننـــا مقبلون على انهاء مهمتنا ·

« كل ما هنالك ؟ يعني ـ اننا لم نفعل اليوم شيئا ! » قال غابي كابحا نفسه ، وحـــرر المدفع الرشاش ·

تتابعت في الحال قذيفتان ضخمتان بدتا كما لو كانتا مثانتين تنتفخان بسرعة قصـــوى وتنفجران ، يندفع عالم من الصمت المدوي ويعود فينصب في حفرة كبيرة كانت قد افرغت، غير ان صوت القذيفة كان بالنسبة للهاربين كتدفق الماء الى بيت نمل · حيث كنت تستطيع وبلا منظار تمييز ارتباك متزايد ، واندفاع مستعجل ، وكانت تسمع اصوات بعيدة واصوات اخرى من القرية التي كانت حتى الان ساكتة ، اصوات عويل ، واصوات فزع وبعـــض الطلقـــــات ·

والآن وبعد ان تدبرنا امرنا بمثل هذه الراحة في ظل الجميزة ، وزن مويشي الامـــور وارتأى انه من الافضل لنا ان نغادر هذا المكان ونتجه الى مسلك صغير بالذات ، كـــان مسيجا باشجار عناب متقصفة ، كانت قد اعوجت اغصانها التي تبقت بشكل غريـــب وتشعبت في الفراغ باشواكها الكثيفة واوراقها القليلة · وصلنا نهاية الشعب فوجدنا هناك قناة صغيرة محفورة بعرض الطريق تركت مهدمة من جانبها ، فاثـــــارت السخرية مـــن

سذاجتهم ، وذكائهم العسكري ، بل من وجود حافريها الاحمق كله . وبينما كنا لا نـزال نسخر من ذلك ، والى الامام من هذه القناة قليلا ، في طرف الطريق الواسع ، التي مـر بها الهاربون على ما يبدو ، حيث كان يتلوها من الجانب الآخر كرم بحافة ترابية مغروس راسها بالصبار ويتلوها جرف واد عميق ، معشوشب الضفتين ــ وعلى شفا الجرف كان ثمة شبحان يجلسان كبومتين فوق غصن ، اسودان ، متكريلان ، قطعة واحدة ، راسـا وجسما .

قفزنا ، اثنان او ثلاثة اليهما ولكننا سرعان ما جفلنا واقفين لما رأينا : عجوزيـن طاعنتين في السن ، ترتديان ثوبين زرقاوين وتوشحان بمنديلين اسودين ، وتربضـان جامدتين ، منكمشتين حتى الفزع ، كانتا مسخين تفوح منهما رائحة القبور المعدة لهما ، شيء لا آدمي ، نتن حتى الغثيان ، عيونهما صدفية زرقاوية في تغضن الوجه المتعفـن ، وتنظران الى المجهول امامهما ، ربما بفزع شال ، ربما ببله سخيف ، كانتـا قد جرتا حتى هنا ، على ما يبدو ، بقوة اقربائهما بين [illegible] ف والمخدات والسلال والامتعة ، وهنـا ، ومن خلال ذعر مفاجيء ،او في خضم التوحس ، تساقطتا ، او دفعتا ، وتركتا ، معرضتين للشمس كخلدين في عز الظهيرة ، كعاهة خبيثة اودعوها عقر البيت على الدوام وتكتشفت على حين غرة بكل فظاعتها ــ وها هما امامنا . وما الذي تفعله بهما ــ اذا لم تبصـق عليهما بقرف وتتسل دون ان تنظر اليهما ، ثم تولي هاربا من هنا بعيدا ــ فزعا !

« هاكم ، هاكم ، اقول لكم » : قال شموليك وتلوى [illegible] .

« ستموتان » ، قال الفلاني شلومو .

« فلياخذهما الشيطان » ، قال اربيه .

« انه الرعب ! » قال شلومو .

« كنت افرغ فيهما رصاصتين رأفة بهما وانهيهما » ، قال اربيه

« ستموتان ، انظر ، لن تستطيعا الحياة » ، كرر شلولو وقال .

ودون ان نلتفت الى الخلف ، تابعنا طريقنا صاعدين يسارا .

ترجمها عن العبرية
توفيق فياض

جدول بالعمليات العسكرية

لقوات الثورة الفلسطينية من ١٨/٩ - ١٣/١٢/١٩٧٨

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر الرقم	البلاغ العسكري التاريخ
١ ـ	٩/١٨ /٧٨	٣٠ر١١	البيرة ـ احد باصات العدو العسكرية	هجوم	قنبلة	عشرة جنود بين قتيل وجريح		اعطاب الباص ، وقتل وجرح (١٠) من افراد العدو	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٣٤	٩/١٨ /٧٨
٢ ـ	٩/١٧ /٧٨	٠٠ر١٦	القدس ـ مكتب مخابرات العدو في شارع اوريهودا	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	(٢)	(٥)	تدمير وتصدع جدران المكتب واعطاب سيارة تابعة له	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٢٥	٩/١٨ /٧٨
٣ ـ	٩/١٨ /٧٨	٠٠ر١٣	القدس ـ داخل احد باصات شركة ايجد	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	(١)	(٤)	تدمير الباص ، وقتل السائق وجرح اربعة آخرين بينهم خبير المتفجرات	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٢٦	٩/١٨ /٧٨
٤ ـ	٩/١٨ /٧٨	٠٠ر٥	القدس ـ الشبكة الرئيسية لكابلات الهاتف	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة			تدمير وقطع كافة الكابلات ، اصابة بعض معدات الورش المجاورة باضرار	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٢٧	٩/١٩ /٧٨
٥ ـ	٩/٢٠ /٧٨	٠٠ر١٢	حيفا ـ مستودع ذخيرة عائد لجيش العدو في شارع بن يهودا	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	عشرة افراد بين قتيل وجريح		تدمير واتلاف كميات كبيرة من الذخائر ـ تدمير شاحنتين عسكريتين واعطاب ثالثة ـ تدمير المستودع تدميرا تاما ، واصابة المستودعين المجاورين باضرار بالغة	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٢٨	٩/٢٠ /٧٨
٦ ـ	٩/٢١ /٧٨	٤٥ر٢٠	القدس ـ احد باصات شركة ايجد المعدة لنقل المتطوعين الاجانب	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	تدمير الباص تدميرا تاما ـ اعطاب احدى سيارات الشرطة المكلفة بمرافقة الباص ـ اصابة ثلاثة افراد بجراح	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٢٩	٩/٢١ /٧٨
٧ ـ	٩/٢٢ /٧٨	٣٠ر٦	القدس ـ موقف سيارات العدو في ... الخليل	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	خسائر مادية لحقت بسيارتين فقط	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٣٠	٩/٢٢ /٧٨
ـ	٩/١٢ /٧٨	١٥ر٨	يافا ـ سيارة احد ضباط مخابرات العدو في شارع شعاري متنور رقم (٧)	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	تدمير السيارة بعد اشتعالها بالنيران	[illegible]		ـ	٧٨/١٣١	٩/٢٢ /٧٨
٩ ـ	٩/٢٧ /٧٨	١٥ر١١	القدس ـ مدخل سينما اوريجيل في شارع هيلل	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	(١)	(٣)	وقوع بعض الاصابات في صفوف رجال الشرطة والحرس المدني ـ تدمير احد المحلات تدميرا كاملا ـ تدمير ما لا يقل عن عشر واجهات لمحلات تجارية ـ تدمير سيارتان، واعطاب اكثر من خمس سيارات	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٣٢	٩/٢٨ /٧٨
١٠ـ	٩/٢٩ /٧٨	٠٠ر٩	بئرالسبع ـ محطةالبنزين التي تزود سيارات العدو العسكريةبالوقود	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	اصابة ثلاثة من افراد العدو ـ نشوب حريق كبير في المحطة وتدمير شاحنتين	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٣٣	٩/٣٠ /٧٨
١١ـ	٩/٢٩ /٧٨	٠٠ر١١	عسقلان ـ احد مراكز التموين لسيارات العدو العسكرية والاستراحة الملحقة به	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	جرح ما لا يقل عن ستة (٦) من افراد العدو		تدمير جزء كبير من مبنى مركز التموين	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٣٤	٩/٣٠ /٧٨
١٢ـ	٩/٣٠ /٧٨	١٥ر١٦	رفح ـ اسفل سيارة احد ضباط الامن ، امام مركز الشرطة	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	اصيب اثنان من افراده		تدمير السيارة تماما واصابة مبنى الشرطة باضرار كبيرة	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٣٥	١/١٠ /٧٨
١٣ـ	٩/٣٠ /٧٨	١٥ر٨	الخليل ـ بالقرب من حاجز الشرطة امام مركز البريد	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	اكتشف العدو العبوات وفجرها في مكانها	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٣٦	١/١٠ /٧٨
١٤ـ	٩/٣٠ /٧٨	٢٠ر٢١	القدس ـ شارع هرتسل ـ موقف الباصات	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	اصابة الموقف باضرار ، وتحطيم زجاج بعض الابنية المجاورة	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٣٧	١/١٠ /٧٨
١٥ـ	٩/٣٠ /٧٨	مساءا	ايلات ـ الاهداف العسكرية جنوب ايلات	قصف	صواريخ	ـ	ـ	اصابة الاهداف العسكرية ووقوع خسائر بشرية ومادية ـ قتل وجرح عدد غير محدد من افراد العدو	٢ ـ	٣ ـ	٤ ـ	٧٨/١٣٨ ٧٨/١٤٠	٢ /١٠ /٧٨

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر	تاريخه
١٦ـ	٧٨/١٠/١	١٥ر٦	القدس ـ بنك تفحوت	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	تدمير واجهة البنك ـ تحطيم واجهات عدد من المحلات التجارية وتصدع جدرانها ـ تدمير واعطاب عدة سيارات	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٣٩	٧٨/١٠/ ٢
١٧ـ	٧٨/١٠/٢	١٥ر٧	دورا ـ مكتب العمل	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	(١)	اصابة احد حراس المكتب ـ وقوع اضرار بالغة بداخله واتلاف محتوياته	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٤١	٧٨/١٠/ ٣
١٨ـ	٧٨/١٠/٣	١٥ر١٠	مستوطنة يميت جنوب مدينة رفح	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	اكتشفت العبوات وتم تفجيرها على الشاطىء	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٤٢	٧٨/١٠/ ٣
١٩ـ	٧٨/١٠/٣	مساءا	نابلس ـ احد الباصات التابع لاحدى الشركات السياحية	هجوم	قنبلة حارقة			اصيب الباص باضرار بالغة واندلعت النار في داخله	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٤٣	٧٨/١٠/ ٥
٢٠ـ	٧٨/١٠/٥	٠٥ر٩	القدس ـ بناية تستخدم للتحقيق مع المواطنين الفلسطينيين	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	اكتشفت العبوات قبل انفجارها بوقت قليل	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٤٤	٧٨/١٠/ ٥
٢١ـ	٧٨/١٠/١١	١٥ر١٧	مدينة معلوفا ـ المحطة المركزية للباصات	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	اكتشفت العبوة من قبل خبراء المتفجرات	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٤٥	٧٨/١٠/١٢
٢٢ـ	٧٨/١٠/١٢	٢٠ر١٨	الرملة ـ سوق الخضار المركزي	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	اكتشفت العبوات قبل انفجارها بقليل	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٤٦	٧٨/١٠/١٣
٢٣ـ	٧٨/١٠/١٣	٠٥ر٨	كريات اربيه ـ مصنع الزيوت	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة		اصابة سبعة من افراد العدو	تدمير واحراق قسم من المصنع	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٤٧	٧٨/١٠/١٣
٢٤ـ	٧٨/١٠/١٧	١٥ر٧	القدس ـ احدى شاحنات [illegible]	تفجير	عبوات ناسفة [illegible]		اصابة اثنين من افراد شرطة العدو	تدمير الشاحنة كليا	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٤٨	٧٨/١٠/١٧
٢٥ـ	٧٨/١٠/١٦	٣٠ر١٣	بات يام ـ مكتب مخابرات العدو	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	غير محدد	اصابة عدد من افراد العدو ـ احتراق محتويات المكتب وتصدع جدرانه	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٤٩	٧٨/١٠/١٧
٢٦ـ	٧٨/١٠/٢٦	٢٠ر٨	بئرالسبع ـ احدى واجهات العرض لاحد حوانيت السوق الرئيسي	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	قتل وجرح عدد غير محدد من افراد العدو		تدمير وتصدع عدد من جدران الحوانيت وتحطيم واجهاتها	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٥٠	٧٨/١٠/٢٦
٢٧ـ	٧٨/١٠/٢٦	٣٠ر٢١	تل ابيب ـ ساحة الكاشري كلاب	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	قتل وجرح ما لا يقل عن خمسة		تحطيم زجاج لثلاث واجهات قريبة من مكان الانفجار	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٥١	٧٨/١٠/٢٧
٢٨ـ	٧٨/١٠/٣٠	٢٥ر٢٠	مستوطنة رامات جبان ـ موقف سيارات في بناية تابعة لمخابرات العدو	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	تدمير واحراق عدد كبير من السيارات التابعة لمخابرات العدو ـ احراق مستودع للوقود ـ احراق محتويات الطابقين الاول والثاني	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٥٢	٧٨/١١/ ١
٢٩ـ	٧٨/١١/٥	٣٠ر١٠	تل ابيب ـ محطة الباصات المركزية الواقعة في شارع هاعالياه	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	تضرر عدد من الباصات التابعة لشركة ايجد	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٥٣	٧٨/١١/ ٦
٣٠ـ	٧٨/١١/١٤	٥٠ر١٩	القدس ـ موقف باصات شركة ايجد في شارع تلبيوت .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	اصابة عدد غير محدد من افراد العدو ـ تحطم عدد من السيارات المجاورة لمكان العبوات .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٥٤	٧٨/١١/١٥
٣١ـ	٧٨/١١/١٩	٠٥ر١٣	يافا ـ مكتب مخابرات العدو مقابل سينما الحمرا .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	٤	تصدع جزء كبير من مدخل وجدران المكتب ـ تحطم زجاج اكثر من(٨) محلات تجارية في المنطقة .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٥٥	٧٨/١١/٢٠
٣٢ـ	٧٨/١١/١٩	٣٠ر١٥	القدس ـ داخل احد باصات العدو المتوجهة الى القدس .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	٤	٢٧	تدمير الباص تدميرا تاما .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٥٦	٧٨/١١/٢٠

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	أسير	جريح	المصدر	تاريخه
٣٣ـ	٧٨/١١/١٩	١٤٫٠٠	القدس ـ الوسط التجاري الواقع بين شارعي الملك جورج ويافا .	تدمير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	اصابة عدد غير محدد من افراد العدو ـ تدمير مداخل ثلاث محلات ، وتحطم زجاج عدد اخر منها .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٥٧	٧٨/١١/٢٠
٣٤ـ	٧٨/١١/٢٤	٢٢٫٤٠	مستوطنة « الكامبيادا » ـ الشارع الرئيسي .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	قتل وجرح عدد من المستوطنين الصهاينة ـ تدمير وتصدع جزء كبير من مدخل وجدران المبنى القريب لمكان العبوة ـ تحطم عدد من السيارات الواقفة في الشارع .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٥٨	٧٨/١١/٢٧
٣٥ـ	٧٨/١١/٢٦	١٢٫٠٥	كريات اربع ـ السوبر ماركت .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	مقتل وجرح عدد غير محدد من افراد العدو ـ تصدع جدران السوبر ماركت وانهيار بعضها ـ اتلاف معظم محتويات السوبر ماركت .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٥٩	٧٨/١١/٢٧
٣٦ـ	٧٨/١١/٣٦	١١٫٠٥	القدس ـ سيارة صهريج عسكرية محملة بالوقود داخل مستودعات العدو العسكرية بالقرب من مدرسة عين فاريم .	تفجير	عبوات لاصقة حارقة	اصابة عدد من جنود العدو		اندلاع النيران بسيارة الصهريج .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٦٠	٧٨/١١/٢٨
٣٧ـ	٧٨/١١/٢٧	٨٫١٥	يافا ـ السوق المركزي .	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	ـ	ـ	اصابة عدد غير محدد من افراد العدو بجراح ـ تدمير محل تجاري واندلاع النيران فيه ـ اتلاف محتويات المحلات المجاورة .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٦١	٧٨/١١/٢٨
٣٨ـ	٧٨/١١/٢٨	٨٫٠٥	القدس ـ مدخل قيادة شرطة المنطقة الجنوبية	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	اكتشفت العبوات وابطل مفعولها .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٦٢	٧٨/١١/٢٨
٣٩ـ	٧٨/١٢/ ٩	٨٫٤٠	تل ابيب ـ احد المباني الرئيسية في شارع ارلو برو .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	وقوع عدد من الاصابات في صفوف العدو ـ تدمير جزء كبير من المبنى ـ تصدع عدد من جدران المباني المجاورة .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٦٣	٧٨/١٢/١٠
٤٠ـ	٧٨/١٢/١٢	١٤٫٠٥	مستوطنة « شيلو » ـ احد المحال التجارية في السوق المركزي .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	اصابة عدد غير محدد من المستوطنين ـ تدمير المحل التجاري تدميرا تاما .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٦٤	٧٨/١٢/١٣
٤١ـ	٧٨/١٢/١٢	١٤٫٥٥	كريات اربع ـ السوبر ماركت .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	اصابة عدد كبير من افراد العدو المتواجدين داخل السوبر ماركت ـ اتلاف جزء كبير من محتوياته ـ تصدع احد جدران المبنى .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٦٥	٧٨/١٢/١٣

اعترافات العدو

٧٨/١٢٤ صرحت اذاعة العدو قائلة :
« القيت اليوم قنبلة « دفاعية » على سيارة باص كانت تنقل جنودا في مدينة البيرة ، لم تقع اصابات ، ولم تحدث اضرار ، انفجرت القنبلة على الشارع » (راا الساعة ١٣ ، ص ٣٨٦ الاحد ١٩٧٨/٩/١٧ ، العدد ١٥٨٦) .

٧٨/١٢٥ صرحت اذاعة العدو قائلة :
« وجد غرض مشبوه في الباص ، وقام خبير المتفجرات بتفجيره في ساحة خالية ، وتبين من التحقيق ان الغرض كان عبارة عن راديو » .

(راا الساعة ١٣ ، ص ٣٨٦ الاحد ١٩٧٨/٩/١٧ العدد ١٥٨٦) .

٧٨/١٢٨ صرحت اذاعة العدو قائلة :
« بأن الانفجار وقع في مخزن للخردة ، وادى الى اصابة اربعة عمال بجروح (...) » .
(راا الساعة ١٣ ، ص ٤٧١ الاربعاء ١٩٧٨/٩/٢٠ ، العدد ١٥٨٨) .

٧٨/١٣٤ صرحت اذاعة العدو قائلة :
« انفجرت عبوة ناسفة موقوتة في المحطة المركزية في اشكلون « عسقلان » ولم يصب احد بأذى » .

(راا الساعة ٩ ، ص ٦٧٤ الجمعة ١٩٧٨/٩/٩ ، العدد ١٥٩٥) .

٧٨/١٣٨ صرحت اذاعة العدو قائلة :
« اكتشف زورق حراسة تابع لسلاح البحرية الاسرائيلية بعد ظهر امس سفينة مخربين تابعة لمنظمة فتح » .
(راا الساعة ١٣ ، الاحد ١٩٧٨/١٠/١ ، ص ١٦ العدد ١٥٩٦) .

٧٨/١٥٠ صرحت اذاعة العدو قائلة :
« وقع انفجار في سوق بئر السبع صباح اليوم ولم تقع اصابات واوقف عدد من المشبوهين » .

(راا الساعة ١٠ الخميس ٢٦/١٠/١٩٧٨ ص ٣٥٧، العدد ١٦١١) ٠

٧٨/١٥٢ صرحت اذاعة العدو قائلة : « صعق السكان في رامات جان مساء امس من انفجار حدث في خزان بنزين لاحدى السيارات وقد اشتعلت النيران في ثلاث سيارات مجاورة ايضا ولا يعرف حتى الان سبب هذا الانفجار » ٠

(راا الساعة ٩ الثلاثاء ٩٧٨/١٠/٢١ ص ٤٦٦ ، العدد ١٦١٥) ٠

٧٨/١٥٥ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : (٠٠٠) في الانفجار الذي حدث في يافا جرح شابان جراحا طفيفة نتيجة انفجار مادة مشبوهة قرب سينما الحمرا ٠

« را١١٠ الساعة ١٩٫٠٠ الاحد ١٩٧٨/١١/١٩ ص ٣٢٨ العدد ١٦٣٠ » ٠

٧٨/١٥٦ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : (٠٠٠) سقط اليوم أربعة قتلى في باص ايجد بالقرب من « متسبيه يريحو » وهناك اكثر من ثلاثين جريحا نقلوا الى مستشفى هداسا ومستشفى شعاري تسيدك ٠

« را١١٠ الساعة ١٩٫٠٠ الاحد ١٩٧٨/١١/١٩ ص ٣٢٨ العدد ١٦٣٠ » ٠

٧٨/١٥٧ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : (٠٠٠) في القدس اكتشفت شحنة ناسفة كانت مخباة داخل سجادة ملقاة على الرصيف في مفترق الشوارع يافا ـ الملك جورج ـ شتراوس٠

« را١١٠ الساعة ١٩٫٠٠ الاحد ١٩٧٨/١١/١٩ ص ٣٢٨ العدد ١٦٣٠ » ٠

٧٨/١٥٨ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : (٠٠٠) شحنة صغيرة من المواد الناسفة انفجرت الليلة الماضية في « الكامبيادا » (٠٠٠) وكان هناك شخص من مستوطنة « الون شيوت » يدعى يعقوب ميدان اصيب باصابة طفيفة بقدمه ٠

« را١١٠ الساعة ١٧٫٠٠ الاحد ١٩٧٨/١١/٢٦ ص ٤٤٦ العدد ١٦٣٥ » ٠

٧٨/١٥٩ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : انفجرت عبوة ناسفة قبل نحو ساعة في السوبر ماركت في كريات اربع ولم تقع اصابات ٠ الا ان الانفجار تسبب باضرار بسيطة (٠٠٠)

« را١١٠ الساعة ١٢٫٠٠ الاحد ١٩٧٨/١١/٢٦ ص ٤٥٣ العدد ١٦٣٥ » ٠

٧٨/١٦٠ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : في معسكر حربي قرب عين مكارم القريب من القدس شبت امس النار في شاحنة بنزين فأصيب جندي بحروق بسيطة ٠

« را١١٠ الساعة ٧٫٠٠ الاثنين ١٩٧٨/١١/٢٧ ، ص ٤٧٢ و ٤٨٠ العدد ١٦٣٦ » ٠

٧٨/١٦٤ صرحت اذاعة العدو بالعملية
١٦٥ قائلة : انفجرت عبوة ناسفة قرب سياج مستوطنة ستيلو ولم يصب احد ، ولكن حصلت اضرار بسيطة ٠ وقبل فترة قليلة انفجرت عبوة ناسفة موقوتة في سوبر ماركت في كريات اربع ، ولم تحصل اصابات هناك (٠٠٠) ٠

« را١١٠ الساعة ١٨٫٠٠ الثلاثاء ١٩٧٨/١٢/١٢، ص ٢٢٤ العدد ١٦٥٠ »٠

محمد قدورة

Palestine Affairs

No. 86, Jan. 1979

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

السعــر: ٥ ل.ل. في لبـــنان
٦ ل.س. في سوريـــا
٦٥٠ فلســاً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولـة الامارات العربيـة
٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربيـة
٧٥٠ درهـماً في ج.ع.ل.

شؤون فلسطينية

٨٧/٨٨ شباط/آذار (فبراير/مارس) ١٩٧٩



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : الياس خوري

شباط / آذار (فبراير / مارس) ١٩٧٩ — ٨٧ / ٨٨

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، رأس بيروت ـ لبنان ، ص.ب ١٦٩١
تلفون : التحرير والتوزيع ٣٥١٢٦٠ .
برقيا : مرابحاث . بيروت .

مدير التوزيع : **غازي دانيال**

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل.ل. في اوروبا ، ١٢٥ ل.ل. في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف للفنان
ضياء العزاوي

المحتويات

سقوط امبراطورية

سقطت امبراطورية · ليس من حظ الناس ، في كل العصور ، ان تشاهد سقوط امبراطورية ، وامبراطورا يحمل خزينة وحاشية صغيرة ليبحث عن تأشيرة دخول ، فيرفض السادة في واشنطن ، ويرحب به السادات في جزيرة صغيرة في اسوان ، وتكون المناجاة بين ملك اضاع ملكه وبين ملك باع ملك الشعب لبنجو !· وليس من حظ كل الناس ، في كل العصور ، ان تصطاد الليالي كلها في لحظة الفجر الاولى ، بين هبوط طائرة قادمة من باريس وفرار امبراطورية من غضبة ملايين تخرج الى الشارع ، وتستولي على ذاتها التي ضيعها القمع والارهاب قرونا · ننام على ليل وعبودية ونصحو على فرح وحرية · هل كانت الامبراطورية من ورق ؟ هكذا اوحى ايقاع الانتصار بسؤال سريع · لا ، لم تكن من ورق ، بل كانت احدى القلاع الكبرى لاطلاق الشرطة في وجه الباحثين عن الرغيف ، والمأوى ، وفلسطين · كانت الجبهة الامامية الاولى في جسد الشرق الذي لا دور له في التاريخ الا ان يبقى خارج التاريخ سوقا للكوكا كولا ، والمعلبات ، وشراء الاسلحة التي تستهلك الدخل القومي لقمع النبض القومي · كانت الماضي ، واقبية التعذيب المحروسة باحدث الطائرات ، ولم تكن من ورق ، الا عندما اكملت الجماهير الايرانية شروط هجومها على القلعة · منذ عقود بعيدة وايران الاخرى ، ايران الرفض والنبض ، ايران التقدم والاسلام الذي يستقطب الجماهير فتعطي حركة الالتفاف حوله مضمونه الثوري ، وبوصلة الخروج من الماضي الى المستقبل · منذ عقود بعيدة وايران الاخرى تستجمع قبضتها وتعد انفجارها لتطيح بالقلعة حتى تحولت الى ورق · ماذا يقول الشاعر اليوناني ؟ « الكلمات ورق والقصائد ورق · المدينة كلها ورق · يكفي عود ثقاب لاشعالها · عود ثقاب ، عود ثقاب » ·

سقطت امبراطورية · وليس من حظ الناس ، دائما، ان تشاهد امبراطورية تنهار ، وطاووسا فارسيا يبحث عن آخر الملوك ، وعن عرش لا يثبت الا على هواء ، وعلى تصريح اميركي لا يوافق على صناعة السياسة في شوارع طهران·

هل سقط الشاه وحده ؟ ان متوالية السقوط التي بدأت من يوم يفتتح عصرا ستمتد الى كل ما له صلة بمقولة « حفظ التوازن » التي لا ترى في هذه القارة بشرا ينتجون ويفكرون ويحلمون ويتحررون · لا ترى فيهم الا براميل من الكاز لا دور لها في الحضارة الا حماية سكان غرب البحر الابيض من برد الشتاء · ان الهيكل يقف على اعمدة متأرجحة · فمن يسند الامبراطورية الاميركية في الشرق ؟ ومن يسند امبراطورية الامن الصهيوني على ضفاف الخليج ؟ ومن يسند امبراطورية التردد في الصراع العربي ـ الصهيوني الذي اسبغت على جوهره كل آيات التضليل والتزييف ليبقى ، كما هو قبل هذه اللحظة صراع الاكثر جدارة في خدمة اميركا : اليهود ام العرب ! او : من هو خليفة الشاه ، بيغن ام السادات ، ام مقاولون جدد لا يحبون اليهود ولا يحبون اليسار ايضا ؟ اسئلة تولد الآن كما تولد الفطريات ، لان الكل يضحي بشاه لم يعد له جاه ، الى درجة قد يحاول معها الكثيرون ، ممن يصيبهم انهيار ما من انهيار الامبراطورية ، ان يندسوا تحت عباءة الخميني الواسعة ، لاقتناص لحظة قد تكون مواتية للانتقام من عملية الخروج من الماضي بالتكيف مع الوضع الجديد ليكون عودة الى الماضي · اذ يبدو من المستحيل الآن ان يتقدم احد الى حلبة الصراع باسم الشاه ، ولذلك ستحاول الثورة المضادة ان تتقمص اشكالا فكرية قد لا تكون « الجملة اليسارية » ، او التزمت العقائدي ، او طرح المقارنة بين الماركسية والدين ، او البرهنة على سقوط الايديولوجيات الحديثة ، الا اسماءها المستعارة · ولاستبعاد مهمة تحديد العدو الرئيسي لاهداف الثورة الشعبية الايرانية وشعوب الشرق عامة ، سيأخذ الحديث عن صراع الشعوب ضد « الدول الكبرى » زخما خاصا منذ الآن في اجهزة الاعلام العالمية والعربية التي يصيبها من مصير الشاه نصيب · وستكون المعركة على صياغة شكل المستقبل الايراني ، الذي يؤثر في شكل حاضر المنطقة ومستقبلها ، احدى المعارك التي تضاهي او تفوق معركة اسقاط الامبراطورية ·

وسقطت امبراطورية · وليس من حظ الناس في كل العصور ان تشهد سقوط امبراطورية · لقد شاهدنا ، اكثر من مرة ، دبابة تحمل مكبر صوت ومشروع ملك في بزة ضابط تتقدم من الاذاعة وتعين المملكة جمهورية · وشاهدنا معارك وطنية ، ولكننا شاهدنا اكثر من ذلك معارك الاستيلاء على السلطة وعلى الامل · ولذلك ، ما زال طلبة المدارس يختارون الكتابة عن زمن

آخر يتمنون العيش فيه ، فليس كل واحد منهم يعرف ان الانسان ابن زمانه · الآن ، ومنذ خروج الملايين الى شوارع المدن الايرانية وامتلاكها ذاتها وطاقاتها يختار الجميع هذا العصر ، عصر التحولات الكبـــرى والخيبات الكبـــرى والانتصارات الكبرى · هذا العصر الذي بدأ بثورة اكتوبر الكبرى التي دشنت مرحلة الانعطاف الحاسم في تاريخ البشرية ، هذا العصر الذي تعيد ثورة ايران تأكيد سمته الاساسية ، بعدما قدمت لنا التذبذبات الطارئة والسياسات الهادئة، او حاولت ان تقدم لنا اغراءات على امكانية اطفاء هذا البريق ، وعلى قدرة الامبريالية على النجاة من ازمتها واغتصاب سمة العصر · اليوم ايران ، وغدا ماذا ؟ كل الاحتمالات مفتوحة لاتساع بوابة العصر الجديـد ، ولشن الهجمـات المضادة للدفاع عن آخر القلاع · لقد استطاعت يـــد الشعب الايراني ان تفكك آلة الامبراطورية الرهيبة قطعة قطعة ، وان تلقي بمئات السنيـــن مـن القهـــر والاعتداء الى سلة المهملات · فالتقى فرح الفقراء الايرانيين الذاهبين الى وعد المستقبل المفتوح بفرح الفقراء العرب الذاهبين الى معاركهم الكبيرة ، من اجل الخبز والحرية وفلسطين معا · وبانهيـــار امبراطوريـــة الشاه الاميركية ـ الصهيونية ـ الرجعية تنهار اسوار عالية ارتفعت على فجر العرب المضطهد ، وبتحرر المواطن الايراني من كابوس السافاك تتحرر امكانيات الشرق الاوسط من الهيمنة الاميركية ومن الارهاب الوطني معا ، ويشتد الخناق على قلعة الغـزو الصهيوني التي لا تستخلص من عبرة الشاه الا مهارة الابتزاز ، لانها بقيـــت الجزيرة الوحيدة « القادرة » على حماية المصالح الاميركية · لهذا يقول حليـف السادات الاسرائيلي بيغن عن انتصار ثورة ايران بانها بداية « عصر الظلمات » ، صحيح ، ان نور الشعوب ظلام لاسرائيل · وصحيح ، ان الفجر الجديد الطالع في الشرق هو فجر فلسطين ، لان سقوط اية قلعة من قلاع الظلم والعبودية ،واي تحرر لشعب من الشعوب ، هو تحرير للطريق الفلسطيني الممتد الى تحريـــر فلسطين ، من العقبات والحصار ، لان القضية الفلسطينية جزء من قضية الحرية في هذا العصر . ولان الصهيونية احدى بقايا بقع الظلام في هذا العصر ·

سقطت امبراطورية ، وليس من حظ الناس في كل العصور ان تشاهد سقوط امبراطورية تشكل احد احجار الزاويـــة للهيمنـــة الاميركية على الشرق · ان تكوينا جديدا للعالم يتكون في هذه اللحظات · ومهما يكن شكل ايران الغد ، فان ذلك لا يغير حقيقة واضحة : ان العالم اليوم ليس هو عالم امس ، والزلزال الذي ضرب امبراطورية الشاه لم يهز ايران وحدها ، فان مكانة ايران وقدراتها وموقعها لا يتيح للكرة الارضية ان تكون كما كانت قبل زلزال ايران · كل شيء جديد ، وكل شيء جديد · وعيدان الثقاب لا يبللها المطر ·

محمود درويش

عيد فلسطين في طهران

كان الفرح الفلسطيني الكبير بانتصار ثورة ايران فرح الذين اخترقهم الفجر في اشد ساعات الليل حلكة · وقبل ان يطلع كل ابناء الشعب الفلسطيني ، في الوطن والمهجرة ، على حقائق العلاقات الثورية الخاصة التي تربط ثورتنا بالثورة الايرانية منذ زمن بعيد ، استدارت كل القلوب الى القدس التي جعلها انتصار طهـران اقـرب · هكذا يصـــوغ الفلسطينيون شمسهم من كل شعاع يطلع على الارض ، لاننا حلفاء النور والحرية · وحين يتحدث الايرانيون عن فلسطين في مثل هذه القدسية ، فانهم يعبـرون عن موقـف ثورتهـم العام من الظلم والاستعباد ، وعن الموقف الخاص تجاه فلسطين التجسيد المكثف لصراع العدل والظلم ، وعن فهم خاص لما ينبغي ان يقـوم به الاسلام في تحريـر فلسطين ، المليئـة بالرموز المقدسة ، من مؤسسة العنصرية والكراهية الاسرائيلية · وحين يقوم الاخ ياسر عرفات ، قائد الشعب الفلسطيني ، بزيارة طهران في اوج معركتها مع بقايا الشاهنشاهية في الداخل ومؤامرات الامبريالية والرجعية ، فانه يقدم اشارات مؤثرة عن طبيعة العلاقات الايرانية ـ الفلسطينية الاستراتيجية والسياسية والعاطفية ، وعن الامكانيات الثوريـــة الهائلة التي تفتحها ثورة ايران لنضال الشعب الفلسطيني · وحين يرفع ياسر عرفات علم فلسطين في افق طهران ، فانه يرفعه في افق عالم جديد ، يتكثف فيهالتعبير عن حقيقة من هو المحاصر ، تاريخيا ، في هذه المنطقة · وحين تقول ايران الثـــورة لياسر عرفات : « انتصارنا هو انتصاركم · نعادي من يعاديكم ونسالم من يسالمكم » ويرد عليه عرفات : « اننا ثورتان في ثورة وشعبان في شعب » ، لا يستطيع احد ان يتساءل : ماذا قدمـت ايران لفلسطين ؟ لان اجابة ابو عمار واضحة : « هذه الثورة قدمت للمنطقة فجرا جديدا وعصرا جديدا » · ولذلك ، من حق ابناء الشعب الفلسطيني ان يفرحوا لا كما يفـــرح الاخرون ، فانتصار ايران انتصار واضح لعملية تقدم الثـورة الفلسطينية من النصـر وانتصار لتحالف ثورتنا مع الشعوب في كفاحها من اجل الحرية والتقدم الاجتماعـــي والتحرر · وعلى المستوى المباشر ، كان أول قرار اتخذته السلطة الثورية الايرانية فـــي مجال العلاقات الدولية هو بتر آخر علاقة بين ايران واسرائيــــل ، وتحويـل مقـر البعثة الاسرائيلية في طهران الى مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية بحضـور الاخ ياسر عرفات · ويأتي هذا القرار بعد اعلان الثورة الايرانية ان اسرائيل لن تحصل على نقطة نفط واحدة من ايران · هكذا استقبلت ايران قائد الثورة الفلسطينية : اليوم ايران وغدا فلسطين ، وحين تتحول زيارة قائد الثورة الفلسطينية الى عيد من اعياد ايران ، فليس ذلك لان ياسر عرفات هو الزائر الاول لايران الثورة ، بل لانه الثائر الاول الذي تحالـف مـع الشعلـة الايرانية منذ البداية ، ولانه ··· من فلسطين ·

ايـام تهـز العـالم

الاربعاء ١٩٧٨/١/٣١

☐ قال اية الله الخميني : « السادات خادم اسرائيل » ٠

☐ قام « الحرس الامبراطوري » بعرض مفاجيء في شوارع طهران ، وقـــد قالت مصادر دبلوماسية ان هذا تحذير علني للامام الخميني ، يهـــدف الى ان الجيش لا يزال سيد نفسه ٠

☐ غسل متطوعون الشارع الممتد من مطار طهران الى مقبرة «بهجة الزهراء» بالماء والصابون ، استعدادا لاستقبال الخميني ٠

☐ المقر الذي اعد لاستقبال الامام مؤلف من غرفة واحـــــدة متواضعة ، لا مناضد فيها ولا مقاعد ، باستثناء ثلاث سجادات ٠ تقع هذه الغرفة في احـــدى مدارس البنات ، وقد ضمخت طوابقها بماء الورد ٠

☐ ذكرت وكالة « اليونايتدبرس » انها تلقت مكالمة من مجهول قال فيهـــا : « سنفعل كل شيء من أجل ايقاف رحلة الخميني » ٠

☐ كتب مراسل صحيفة « هيرالد تريبيون » : ان مجموعة من الشباب كانت تحيط برجل يحمل في يديه قنينة كازوز وبنزين وكاز وخرقة قماش ، وكان الرجل يحاضر بهدوء حول افضل مزيج لكوكتيل المولوتوف ٠

وكان محاضر اخر يتحدث لمجموعة اخرى عن كيفية التصرف عنـــد انتزاع بندقية من يد جندي او شرطي : « استعمل كل رصاصة لقتل جندي اخر ، عندئذ تحصل على ٢٠ رصاصة أخرى » ٠

الخميس ١٩٧٩/٢/١

□ قال اية الله الخميني : « لقد ولى عهد الملكية » · « اطلب من المثقفين والقادة واحزاب المعارضة ان يبقوا متحدين مع الحركة الدينية » · « سأضرب هذه الحكومة، وسأقدم أعضاءها للمحاكمة» · « اننا لسنا ضد السينما، ولكننا ضد الاباحية في الفن » ·

□ قال شاهبور بختيار انه سيبقى في الحكم على الرغم من مطالبة الامام الخميني باستقالته ·

□ قالت الملايين : « في الشتاء يأتي الربيع · اشرقت شمس ايران ، وولى شيطان الظلام الى المغرب » ·

□ قالت وكالة « فرانس برس » ان عدد الذين استقبلوا الامام يقدر بخمسة ملايين ، او ستة ملايين ، أو ما يزيد على ذلك ·

□ قال قطب زادة ، احد معاوني الخميني : « سيتمكن الخميني من اقناع الجيش بالانضمام الى الشعب » ·

□ قطع الجيش خطوط الاتصال الهاتفية بين طهران والخارج · وقام آخرون بقطع البث التلفزيوني لخطاب الخميني فجأة ، ووضعوا بدلا عن ذلك صورة الشاه مصحوبة بالنشيد الامبراطوري ·

□ قال هودينغ كارتر ، الناطق بلسان وزارة الخارجية الاميركية « اننا نرغب بشدة في عودة الاحوال السلمية الى ايران » ·

□ قال انور السادات : « لن اسمح ابدا بظهور آيات الله مصريين » !

الجمعة ١٩٧٩/٢/٢

□ قال آية الله الخميني : « اننا ننظر الى بختيار على انه انسان عادي » · « اننا نريد جيشا وطنيا ، لا جيشا عميلا » ·

□ قال شاهبور بختيار : « ان عودة الخميني لا تعني لي شيئا » · « سأفتح حوارا مع الخميني ، ولكن بشروطي انا » · « خطر الخميني في الداخل اقل منه وهو في الخارج » ·

□ راح الشبان يلوحون بأيديهم للامام ، فيرد التحية بيد واحدة احيانا ، وبكلتا يديه في أحيان اخرى · وعندما بدأوا يلقون اليه بقبعاتهم كان يتبسم برضى ، ثم يتلقفها ويعيدها اليهم بجذل ·

□ ذكرت « اليونايتدبرس » ان منظمة تطلق على نفسها اسم « منظمة حماة

الدستور ، هددت النواب الذين استقالوا من المجلس بالقتل اذا لم يعمدوا الى سحب استقالاتهم ٠

□ قال بعض المراسلين « ان الشعب الايراني يتحدث عن فلسطين حديث الواثق من تحريرها بعد انتصار الثورة الايرانية » ٠

□ كتبت صحيفة « دافار » الاسرائيلية « ان الجنرالات في ايران قد يقررون انه لم يعد هناك مجال للتسوية امام الصراع ، وانه حان الوقت للعمل ضد مؤيدي الخميني ووضع حد لتصريحاته حول عدم شرعية حكومة بختيار ٠٠ نتيجة تلك التطورات قد تخرج ايران مخربة وجريحة ٠ ولكن لا شك انها ستكون في حالة افضل من احتمال سيطرة الخميني ٠٠٠ واذا حكم على حكومة بختيار ان تخلي مكانها للانقلاب فان الانقلاب العسكري افضل من الانقلاب الديني » ٠

□ ياسر عرفات : « لن تتوقف آثار انتصار الشعب الايراني عند حدود ايران، بل ستمتد لتضرب الوجود الامبريالي ــ الصهيوني في فلسطين ٠ انهيار شاه ايران هو انهيار لكل الانظمة العميلة للامبريالية الاميركية ، والتي تعمل لعقد تسوية استسلامية على حساب الشعب الفلسطيني وثورته المسلحة » ٠

السبت ١٩٧٩/٢/٣

□ قال آية الله الخميني : « نفضل حل مشكلاتنا بالطرق السلمية ، لكن اذا استمر بختيار بتأييد امريكي وبريطاني ، وحتى باستدعاء قوات اسرائيلية ، ضد ارادة الامة ، فسنعمل ما تمليه الضرورة » ٠

□ قال بختيار : « اذا اراد الخميني تأليف حكومة اسلامية في مدينة قم المقدسة فسأسمح له بذلك ٠٠٠ سيكون لنا فاتيكاننا الصغير ٠ الا أنني ، فعليا ، لست على استعداد للسماح له باقامة حكومة فعلية ، وهو يعرف ذلك » ٠

□ ذكرت الصحف الايرانية ان آية الله الخميني ثبت عمدة طهران في منصبه وكان العمدة قد اعلن استقالته قبل مقابلة الامام ، وصرح بأن حكومة بختيار غير شرعية ٠

□ قال البروفسور بني صدر ، المستشار الاقتصادي للخميني ، انه سيعيد النظر في جميع اتفاقات النفط ، بعد أن يتسلم منصبه ٠

□ صحيفة النجم الاحمر السوفياتية اتهمت اجهزة المخابرات الاميركية بأنها وراء مجموعة من العسكريين يزعم افرادها انهم شيوعيون ·· وتستهدف خلق مصادمات مع الجيش لاطلاق يد الزمرة العسكرية الرجعية ·

الاحد ١٩٧٩/٢/٤

□ قال آية الله الخميني : « ادعو بعض القادة العسكريين الى استعفـــاء انفسهم ، وذلك من اجل مصلحتهم ومصلحة الشعب » ·

□ قالت بعض المصادر ان الامام حدد مهلة ، اقصاها شهر واحد ، لسقوط حكومة بختيار ·

□ قال بختيار : « لن اخضع للعنف وللمسيرات ولقنابل المولوتوف ، وسنرد بالرصاص على الرصاص » ·

□ قال ابراهيم يزدي ، احد المقربين من الخميني : « يستطيع بختيار البقاء رئيسا للوزراء في احلامه فقط ، كما كان هيلا سيلاسي امبراطورا لاثيوبيا فـي ايامـه الاخيـرة » ·

□ قال مقربون من الامام ان حكومته ستكون من ذوي الخبرة في الحقــل السياسي ·

□ ذكرت بعض الانباء اخبارا عن اقامة « محاكم شعبية » في عدة اقسام من البـــلاد ·

□ كتبت « هيرالد تريبون » اعترف مسؤولون في البنتاغون ان حكومة ايران تواجه صعوبات في دفع رواتب ٥٠٠ الف عسكري ايراني ، واشار المسؤولون الى ان هذا يمكن ان يؤدي الى تحويل الجيش الى معسكرات متقاتلة ·

جاء هذا الاعتراف بعد الاعلان عن الغاء صفقات سلاح مع الولايات المتحدة تبلغ قيمتها ١٢ مليار دولار ·

□ الرئيس الاميركي جيمي كارتر وجه انتقادا لوكالة الاستخبارات المركزيـة بسبب النقص في انجازاتها بالنسبة للاضطرابات التي شهدتها ايران ·

الاثنين ١٩٧٩/٢/٥

□ قال آية الله الخميني : « اني أطلب رأي الايرانيين في الحكومة المؤقتة ، وأريدهم أن يعبروا عنهذا الرأي بمسيرات وتظاهرات فيطول البلاد وعرضها».

□ الامام الخميني يكلف بازركان بتشكيل الحكومة الجديدة ، وبازركان هو هو احد اتباع رئيس الوزراء الراحل محمد مصدق .

□ قال بختيار : « لا توجد سوى حكومة واحدة ، وشرعية واحدة في ايران»، ثم هدد بازركان بالاعتقال اذا أجرى اية اتصالات .

□ قال بازركان : « الحكومة الجديدة لن تكون حكومة ظل ، بل ستتولى مقاليد الامور بالفعل . اننا جادون تماما ، ومصممون تماما » .

□ هددت منظمة تدعى « المناضلون من اجل الدستور » بأنها ستغتال جميع اعضاء الحكومة المؤقتة .

□ اندرو يونغ ممثل الولايات المتحدة في الامم المتحدة : « اي شخص يدافع عام ١٩٧٩ عن ملكية مثل ملكية الشاه لا يدخل في حسابه السنوات المائتين والخمسين من التاريخ » .

□ ياسر عرفات : « ما يجري في ايران ضربة هائلة للامبريالية العالمية ، بقيادة الولايات المتحدة ، التي راهنت دائما على ايران الشاه وزودته بترسانة رهيبة من الاسلحة ليكون الذراع الضاربة ولتصبح ايران اهم حلقات الدفاع الاميركي في حلف الناتو وغيره من الاحلاف الاميركية » .

الثلاثاء ١٩٧٩/٢/٦

□ استولى رجال الثورة على مقاليد الامور في مدينة اصفهان ، بعد اجبار الجيش على مغادرتها .

□ قال بختيار : « لن أرضخ للمتظاهرين ، ولا للحكومات التي تخلقها خيالات الشعب » . وأضاف : « اقبل الحكومة التي شكلها الخميني كمجرد نكتة فقط » .

□ ظهرت دوريات ليلية في طهران ، مؤلفة من ميليشيات شعبية .

□ قال الدكتور يزدي ، احد المقربين من الخميني : « لقد مضى زمن حل المشكلات بواسطة انقلابات عسكرية » ·

□ ظهرت طائرات مقاتلة في سماء طهران اثناء التظاهرات المؤيدة لبازركان·

□ احد المراسلين الاجانب الذي وصف المتظاهرين بانهم يقودون بلادهم بقطار سريع نحو العصور الوسطى ، رد عليه احد المتظاهرين بقوله : اننا نقود انفسنا نحو الحرية سيدي ·

□ مردخاي غور ، رئيس اركان سابق للجيش الاسرائيلي « ان المفهوم الذي يستند اليه مشروع بروكينغز هو مفهوم خاطيء فالاحداث في ايران ستجبر الاميركيين على تغيير سياستهم ، ذلك ان دولة اسرائيل هي القوة الوحيدة التي تستطيع اعادة الهيمنة الاميركية الى المنطقة » ·

□ قال مسؤولون اميركيون ان رحلة براون الى الشرق الاوسط تستهدف التأكيد لرؤساء حكومات الشرق الاوسط ان الولايات المتحدة تنوي ان تلعب دورا قويا وثابتا في المنطقة · وان ترددها حيال ايران يجب عدم تفسيره على انه علادمة للضعف ·

الاربعاء ١٩٧٩/٢/٧

□ تم الاستيلاء على مدينة شيراز ·

□ الثوار يوزعون بطاقات خاصة، ويقومون بمهام الشرطة لمكافحة الفوضى·

□ قالت رئاسة اركان القوات الايرانية المسلحة ان على السياسيين وحدهم تدبير امور الازمة بعيدا عن العسكريين ·

□ مؤيدو الخميني يحتلون مباني اربع وزارات ·

□ وزارة الخارجية الاميركية قالت انها ستستمر في اعتبار اردشير زاهدي صهر الشاه ، سفيراً معتمدا لايران في الولايات المتحدة ·

الخميس ١٩٧٩/٢/٨

□ نزلت الملايين الى الشوارع تلبية لدعوة الخميني الى التظاهرات ·

□ حمل بختيار على الامام الخميني قائلا انه « رجل غيور وجاهل وكاذب ومدمر » ، وهدد بالقاء القبض على حكومة بازركان اذا حاولت الانتقال الى مكاتب الوزارات ·

□ قرأ رجال الدين بيانا جاء فيه : « اخطرت كل حكومات العالم ان الشعب لن يفي ، منذ الآن ، بأية اتفاقات وعقود لا تؤيدها الحكومة المؤقتة في ايران »·

□ حمل بعض العسكريين المؤيدين للخميني لافتة كتب عليها : « بختيار ، ان كانت لك السيطرة على القوات المسلحة ، فماذا يفعل الجنرال الاميركي هايزر في ايران ؟ » ·

□ أقيمت محطة ارسال تلفزيونية صغيرة ، بثت اخبار وصور الخميني ·

□ أعلن زعيم حزب « توده » (الحزب الشيوعي الايراني) وقوف حزبه « بكل قوته وراء الامام آية الله الخميني » ·

الجمعة ١٩٧٩٢/٩/

□ قال بازركان ، موجها كلامه الى بختيار : « اذا كنت انسانا فأطع ارادة الشعب واستقل » ·

□ فرقة « الخالدون » الموالية للشاه تهاجم قاعدة جوية اعلن افرادها مبايعتهم للخميني ·

□ بازركان يعلن برنامج حكومته ·

□ أعلن بختيار استعداده لاجراء حوار مع بازركان ·

□ صرح رئيس هيئة اركان حرب الجيش الايراني عند رؤيته صورا لافراد من الجيش في تظاهرة مؤيدة للخميني : « هذا مونتاج خسيس » ·

□ الملك الحسن الثاني – ملك المغرب : « اذا ما انهارت ايران فان عملية زعزعة الاستقرار من اقصى العالم الى أقصاه ستسير بسرعة متزايدة · ان التآكل المستمر سيصيب دول الخليج والكويت والسعودية ، حيث الاماكن المقدسة ، اذا ما استقرت الشيوعية في ايران · ان تسعمائة مليون مسلم يرتعدون الان » ·

□ شليزنغر وزير الطاقة الاميركي :

« ان خسارة النفط الايراني قد تكون اكبر خطورة على العالم من الخطر

العربي على النفط عـام ١٩٧٣ » ٠

السبت ١٩٧٩/٢/١٠

□ قال آية الله الخميني ، اذا لم يوضع حد لاعمال القتل ، واذا لم تعـد فرقة الحرس المهاجمة الى ثكناتها ٠٠٠ فانه سوف يتخذ قراره الاخير ، وسوف تقع المسؤولية على عاتق المعتدين ٠

□ قال بختيار : « من الصعب التفاوض مع ناس يقودهم زعماء ملتزمـون كالحمير » ٠ « حاشية الخميني نوع من حديقة الحيوانات » ٠

□ المدنيون المسلحون يصطدمون بالحرس الامبراطوري في قتـال ضـار ، ويقتادون عشرات الجنود الى « سجن الشعب » ٠

□ سقوط ١٥٠ قتيلا ، و ٣٠٠ جريح ، والمتاريس في كل زاوية ٠

□ هنري كيسنجر وزير الخارجية الاميركي السابق : « على الولايـات المتحدة وضع برنامج سياسي يمكن ان تثق به الدول التي تتعرض لتهديدات » ٠

□ ياسر عرفات . في رسالة الى الامام الخميني : « لحظة تاريخية نشعـر فيها بان ساعة تحرير المقدسات في فلسطين قد اقتربت كثيرا وكثيرا جدا باذن اللـه » ٠

« تحياتي وتمنياتي القلبية داعيا المولى عز وجل ان يوفقكم في الجهاديـن الاصغر والاكبر وانتم تقودون المسيرة التاريخية لشعبنا وجماهيرنا الشقيقة في ايران البطلة ، التي ستكون ملحمتها وطريقها باذن الله الى اسوار القدس » ٠

وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) : تلقى ياسر عرفات رسالة مـن منظمـة « مجاهدي الشعب » الايرانية الذين خرجوا مؤخرا من سجون الشاه تشكر فيها المقاومة الفلسطينية ، وحركة فتح بصورة خاصة . على المساندة التي قدمتها لهم في كفاحهم ضد نظام الشاه ٠ وتعهدوا بان تقطع ايران الامام الخميني كل صلات لهـا باسرائيل ، وعرضوا ان تكون ايران قاعدة للثورة الفلسطينية اذا ضـاقت عليهـا ساحة العمـل ٠

الاحـد ١٩٧٩/٢/١١

□ قال آية الله الخميني : « يجب توخي اليقظة التامة على الرغم من اننا على عتبة النصر » ٠

□ بختيار يقدم استقالته ، ويختفي ٠

□ جاء في بلاغ للجيش : « للحيلولة دون انتشار الفوضى ، ولمنع اراقة الدماء ، قرر المجلس الاعلى للجيش الاحتفاظ بحياده » ٠

□ اقتحم الثوار مبنى السفارة الاسرائيلية في طهران ، ثم كتبوا على واجهته بالخط العريض : « سفارة فلسطين في طهران » ٠

□ ذكرت صحيفة « الجمهورية» القاهرية ، ان سفارة مصر في طهران تعرضت لهجوم من جموع المتظاهرين ٠

□ ياسر عرفات :

« سماحة الامام آية الله روح الله الخميني ــ دام ظله ٠ وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ٠ ان انتصار الثورة الايرانية الذي بلغ الذرى العظيمة في التاريخ الانساني هو انتصار مدو للثورة الفلسطينية ، فهذا الانعطاف التاريخي هو بداية عصر جديد في المنطقة يحمل بشائر انتصار شعوب هذه المنطقة ٠ ان ضربات الشعب الايراني بقيادتكم المؤمنة الشجاعة هي انذار ونذير للامبريالية الاميركية والصهيونية والاستعمار والقوى العميلة ٠ وهذا الاشعاع الثوري الهائل الذي يتفجر من ايران المجاهدة ينير بضيائه سماء وطننا الحبيب الغالي : فلسطين » ٠

□ مكالمة تليفونية بين قائد الثورة الفلسطينية ابو عمار ، وبين مندوب قائد الثورة الايرانية الامام الخميني :

« ابو عمار : ان قلبي وقلوب شعبنا العربي الفلسطيني في فلسطين المحتلة وفي الشتات تنبض في صدر البطل آية الله ، اية الثورة ، وقائد المسيرة ، آية الله الخميني ٠

مندوب الخميني : ثورتكم هي قلب ثورتنا وهي مهجة القلب ٠ منذ اللحظة الاولى وانتم معنا ٠ شعاراتكم على حيطان طهران وصوركم في ايدي مناضلينا٠

ابو عمار : كيف الحال عندكم ؟

مندوب الخميني : نحن على مشارف النصر ٠ الآن اكلملك والانفجارات وزخات الرصاص تدوي ٠ كل شاحنة وكل عربة ركاب ملأها العمال والطلاب بأكياس الرمل تحولت الى متاريس ثابتة ومتحركة ٠ اننا نتقدم ٠ لقد بدأ شعبنا هجومه العام ٠ انتظروا اخبارا مفرحة في الساعات المقبلة ٠

ابو عمار : اعتبروا هذا الجسد الفلسطيني متراسا لكم ٠ ان قوتنا بكم لا حد لها ، واعتزازنا بنضالكم البطولي اصبح الخبز اليومي لمقاتلينا ٠ كم اتمنى

ان اكون الى جانب ابي وقائدي آية الله · هل تسمعني ؟

مندوب الخميني : نعم اسمعكم ·

ابو عمار : ثورة حتى النصر · مندوبكم وصل ·

مندوب الخميني : ومندوبكم الخاص ايضا ومعه الرسالة · ونحن على مشارف النصر · رسالتكم الاخيرة افرحتنا كثيرا · لقد ترجمت وطبعت ووزعت كمنشور الى اللقاء فوق جبل المكبر في القدس الذي يذكره آية الله دائما · الى اللقاء يا ابا عمار · ان سفارة احدى الدول ستكون مكتبا لمنظمة التحرير الفلسطينية·

ابو عمار : ثورة حتى النصر ·

☐ مظاهرات في الخرطوم ، بقيادة اتحاد طلبة جامعة الخرطوم ، تحمل صورا لآية الله الخميني وتردد شعارات مؤيده له ، وتستنكر الموقف المصري والمغربي والاميركي تجاه الموقف في ايران ·

☐ اكد الحزب الشيوعي القبرصي ان عتادا حربيا واجهزة تجسس اميركية تم نقلها من ايران الى قواعد عسكرية بريطانية في قبرص ·

الاثنين ١٩٧٩/٢/١٢

☐ قال آية الله الخميني : « الآن ، وبعد سقوط جهاز الدكتاتورية ، يجب ان لا نترك للعدو فرصة ليقول ان الفوضى قد عمت » ·

☐ تقدمت مجموعة من الثوار ورجال الدين الى قصر نيافاران ، فسارع الحرس الى الاستسلام ، وبكى العديد منهم وهم يتركون دباباتهم ويسلمونها للثوار · وكان هؤلاء الحراس قد اقسموا ، البارحة ، ان يدافعوا عن القصر حتى الموت ·

☐ انتقل مهدي بازركان الى مقر رئاسة مجلس الوزراء ليباشر مهماته ·

☐ قال احد الوزراء المستقيلين : « بختيار حي ، وهو يختبيء في مكان ما من طهران » ·

☐ اندفعت الجماهير نحو سجن « افين » السياسي ، واطلقت سراح جميع سجنائه ·

☐ تحول المقر الرئيسي لشرطة الشاه السرية « السافاك » الى شعلة من نار·

☐ القاء القبض على حاكم مدينة طهران العسكري ، ومحاكمته ·

☐ مقتل قائد القوات البرية الايرانية بدري لورستاني ، وكذلك الحاكم

العسكري لاقليم خوزستان ٠

□ حواجز لاشبال تتراوح بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، ترشد المارة، وتدقق في اوراق السائقين ٠

□ الجنود يحتشدون امام مقر الخميني ، ويصرخون : « نحن اشقاء » ، ثم يحتضنون الجماهير ٠

□ براون وزير الدفاع الاميركي : « يجب ان لا يشك احد في رغبتنا وقدرتنا على ان نكون اصدقاء اوفياء » ٠

□ دافار الاسرائيلية : « كما فعل الشاه في شهور الصيف والخريف الماضية فعل قادة الجيش الايراني فكانوا لينين اكثر من اللزوم الى ان انتهت في النهاية قدرتهم على الردع ٠ ولن تكون اسرائيل مسرورة طبعا من انتصار الخميني ، وعلينا ان نعيد النظر فيواقعنا كما ستفعل بقية دول المنطقة وخصوصا عندما تتحول تصريحات الخميني الى سياسة فعلية » ٠

الثلاثاء ١٣/٢/١٩٧٩

□ قال آية الله الخميني في نداء موجه الى الامة بعد الانتصار الساحق للثورة : « اهنيء الامة الايرانية المسلمة باسقاط امبراطورية دامت ٢٥٠٠ عام، وادعو الشعب لكي يستعد لمواصلة النضال ٠٠٠ عليكم ان تظلوا موحدين متضامنين ، فان طبقة اجتماعية بمفردها لا تستطيع تذليل كافة الصعوبات التي تقوم على طريق انجاز النصر الكامل ٠ لا تدعوا شعلة الثورة تنطفيء ، فقد ورثنا بلدا في حالة ضياع ٠ وعليكم التزام الهدوء والنضال ، فالوقت ليس مناسبا للقيام بالمظاهرات والاستسلام للفوضى ، وعلى الشعب ان لا يعتقد بأن النصر يعطيه الحق في الفوضى ٠٠٠ أظهروا للعالم انكم قادرون على اختيار طريق السعادة دون حقد او فوضى ، ولا تنهبوا ، او تصبوا العذاب على اعدائكم ، فسوف يحاكمون وفقا للشريعة الاسلامية ٠ لا تهاجموا رجال الجيش، أو أقسام الشرطة ومراكز الدرك ، لانهم اصبحوا معنا ، وبيننا ، ونحن معهم ، يجب جمع كل الاسلحة الموجودة في ايدي الشعب وتسليمها الى أئمة المساجد واللجان المسؤولة ٠ ان بيع الاسلحة محظور ، وليس من احد سوى اللجان الثورية يحق له حمل اي سلاح ٠ ان الاسلحة هي ملك الشعب ، ولا يجب ان تقع في ايدي اعداء الاسلام ٠ وان ايدي الخونة الذين ما يزالون يتآمرون ، وأولئك الذين يحاولون ترويع الناس ، او الذين يقتلون ويدمرون ، سوف تقطع ٠٠٠ايران تعيش اليوم أدق لحظات تاريخها ، فلا تدعوا اعداءكم يتسللون الى صفوفكم ، واكتشفوا اولئك الذين يمتنعون عن تسليم السلاح ٠ ان الدولة

يجب ان تصان ، وان الفوضى يجب ان تنتهي · واحرصوا على ان لا تختلفوا، فالعقبات امامنا عديدة ، وعلينا ان نرسي دعائم ايران الاسلامية الانسانية · نحن جميعا اشقاء ، ولا يجب ان تقوم مشكلة بين الشيعة والسنة · ويتعين ان تكون الاقليات الدينية واثقة من اننا لا نضمر لها شرا ، وسنتمكن من العيش معا ، بحكمة وبعدل ورضى · سوف نسعى لتحقيق رفاهية كل الشعب ، وسيعيش الجميع معنا عيشة طيبة » ·

□ تم القاء القبض على شاهبور بختيار ، وعلى بقايا الجنرالات الفارين ·

□ اعضاء حكومة الشاه المعتقلون يتبادلون الاتهامات بعضهم ضد بعض على شاشة التلفزيون الايراني ·

□ انترناشيونال هيرالد تريبيون : رفضت تركيا فكرة انزال مظليي البحرية الاميركية في اراضيها ، من أجل ارسالهم الى ايران لانقاذ الرعايا الاميركيين ·

□ بيغن في خطاب لوفد النداء اليهودي الموحد مشيرا الى احداث ايران : « الاضطراب يحيط بنا من جميع الجهات · ويتكون لدى الانطباع . احيانا ،بان العصور المظلمة قد عادت · وأنني امل أن الاحداث الاخيرة ستجعل العالم الحر يدرك بصورة افضل دور اسرائيل كحصن مستقر للحرية والديموقراطية » ·

الاربعاء ١٤/٢/١٩٧٩

□ الامام الخميني يدعو الى تسليم السلاح ، وعدم التعرض للسفارات والاجانب ·

□ مسلحون يقتحمون السفارة الامريكية في طهران ، ويحتجزون السفير الذي اطلق سراحة بعد تدخل الخميني . حيث طوقت مجموعة تابعة للامام المهاجمين . وكانت الحصيلة اربعة قتلى وبعض الجرحى ·

□ « بقايا » رجال السافاك يهاجمون مبنيين للاذاعة ، ثم يلوذون بالفرار ·

□ اعلنت اذاعة عبادان في تعليق لها ان لا مكان للصهيونية بعد اليوم في ايران ، ولا سفارة لاسرائيل في ايران ، ولا نفط بعد اليوم للصهيونية ·

□ معارك عنيفة بين جيوب « السافاك » ورجال الثورة في تبريز ·

□ الاعلان عن تشكيل حزب « محبي الوطن الايراني » ، وهو حزب سيعمل من اجل تشكيل حكومة ديمقراطية في ظل جمهورية اسلامية يقودها الخميني ·

□ علا النشيد الوطني الفلسطيني من « اذاعة صوت الثورة الايرانية »، وقد علق المذيع قائلا : « هذا تعبير عن الصداقة والتعاضد الايراني مع القضية الفلسطينية » ·

هادي العلوي

الثورة الايرانية
والتشخيص الصائب لجبهة الاعداء

تتحدد ثورة الشعب الايراني الراهنة بقيادة الخميني ارتكاسا لواقع طويل الامد عاشته بلاد فارس تحت حكم الاسرة البهلوية ٠ وهي تندرج بذلك في تيار الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار الغربي بشكليه : القديم ـ الانكلو فرنسي، والجديد ـ الامريكي ٠ ومن حيث القيادة ، تأتي الثورة استمرارا لتيار متفرد يبدأ بحركة المشروطة التي قادها الملا محمد كاظم الخراساني في مفتتح القرن العشرين من مدينة النجف ضد الاسرة القاجارية للمطالبة بالحكم البرلماني ، وهو ما تعنيه كلمة « المشروطة » اي الحكم المقيد بدستور وبرلمان ، ويتواصل في ثورة العشرين العراقية التي قادها اتباع الخراساني وتلامذته من مدينة النجف ايضا ، ضد الاحتلال الانكليزي للعراق ٠ ومن ثورة العشرين تفرعت ثورة ايرانية مجهضة هي ثورة الكاشاني ـ مصدق في اواخر الاربعينات واوائل الخمسينات ٠ والكاشاني هو السيد ابو القاسم ، المرجع الديني الكبير الذي اشترك مع والده السيد مصطفى الكاشاني في ثورة العشرين ثم هرب بعد فشلها ومقتل والده الى ايران ليواصل من هناك ثورته على الانكليز ٠٠ هذا قبل ان يقع في حبائل الدبلوماسية الامريكية التي حولته ضد مصدق ، وانتهت به من زعيم شعبي يحمل على الاعناق الى فرد عادي لا قيمة له قضى شيخوخته مغمورا لا يسأل عنه احد ، ومات فلم يمش في جنازته احد ٠

الثورة الايرانية الجديدة خطوة اخرى على هذا الدرب الوعر ، تقودها زعامة تتصل من حيث هويتها بذلك المجرى الثوري الذي بدأ في النجف عند اوائل القرن الحالي ٠٠ وحتى الآن ، فقد اثبتت هذه الثورة قدرتها على مجابهة

الدبلوماسية الامريكية وحين نذكر الدبلوماسية الامريكية فانما نعني بذلك القوة الخارقة التي استدرجت اكثر من تسعين بالمئة من الحركات الوطنية لما بعد الحرب العالمية الثانية ،واستطاعت ان تلوي رقاب الاغلبية الساحقة من الزعماء الوطنيين في القارات الثلاث لتحولهم من « رؤساءدول » الى « حكام اقاليم » ٠٠ لكن قيادة الخميني تبرهن انها ادهى من الامريكان ٠ ومن هنا منشأ الاستقطاب بين الطرفين ، وهو استقطاب يمنع ليس فقط من التفاهم بل ومن محض الكلام ! لان الكلام مع الامريكان له درب واحد يؤدي الى نتيجة واحدة هي مصافحة الشاه ، وهو ما انتهت اليه مباحثات المرحوم ابو القاسم الكاشاني مع أفرل هاريمان ٠ ويؤكد لنا مجرى الاحداث ان ما حدث للثورة الايرانية هناك لن يتكرر هنا ٠ فالخميني يجلس على اكداس من التجارب المرة لا تسمح له بان يتذوق « حلاوة المساومة » ٠ وقد تم ، منذ انطلاقة الثورة ، تشخيص العدو من منطلق واقعي حصيف يرتبط بمستوى رفيع من الوعي السياسي ٠

لكن الدبلوماسية الامريكية ، وهي اذكى دبلوماسية فيالعصر الحديث ، تبقى مهما يصبها من انتكاسات في اية جولة متشبثة باداة الاستدراك ، وهي لا تفقد رشدها مهما كانت شدة الصفعة ٠ وعند هذه النقطة يمكن التساؤل عن هوامش رافقت الثورة الايرانية وراحت تند بين المرة والاخرى فتتلاقفها وكالات الانباء الغربية وصحافة الغرب ، وفروعها في بلداننا ، في محاولات ذكية بارعة لنقلها من هامش القضية الى متنها ٠ ولعلي لا املك ما يخولني حق اسداء النصح لهؤلاء العمالقة الذين يهزون العروش ، لكن المسلمين تتكافأ دماؤهم ويجير عليهم أدناهم ، فليسمحوا لي بان اذكرهم ببعض الحقائق ٠٠

ان عدو الشعب الايراني هو الولايات المتحدة الامريكية ٠ حقيقة معروفة لقادة ايران ٠ والولايات المتحدة هي عدو كل الشعوب المستضعفة ، والسارق الاول لخيرات هذه الشعوب ٠ وهي كذلك السند الاول والاخير لنظام الشاه ، ولسائر الانظمة التي تماثله في العالمين العربي والاسلامي من جمهورية او ملكية ٠ وليس ثمة من عدو يتدخل مباشرة وصراحة ضد الثورة الايرانية غير الولايات المتحدة وادواتها المكشوفة والمقنعة من الحكام العرب وغيرهم ٠ واذا قدر للثورة الايرانية ان تفشل ، لا سمح الله ، فان فشلها لن يكون الا على يد الولايات المتحدة ٠ ذلك ان اية قوة اخرى لا تستطيع ولو افترضنا انها ارادت ، ان تقوم بنفس الدور الذي تقوم به الامبريالية الامريكية في ايران ٠ومن هنا فان الحديث عن اي خطر آخر يمكن ان يهدد الثورة لا يتعدى ان يكون واحدا من اثنين : اراجيف مخططا لها ، او اوهاما ناشئة من ضعف الوعي السياسي ٠ ولا بد ان يتطرق الى الذهن ، هنا ، موقف الاتحاد السوفييتي ٠ وانا مع ذلك اقول ان السوفييت لا يملكون من الحوافز ، ناهيك عن الوسائل ، ما يدفعهم الى ان يلعبوا في ايران دورا سلبيا ، ويمكنني القول أكثر من ذلك

ان السوفييت هم على صعيد العلاقات الدولية ، في مقدمة الدول التي ستستفيد من التغيير في ايران • ذلك ان سقوط الشاه على يد الشعب الايراني بقيـــادة الخميني سيعقبه بالبديهة ازالة اخطر القواعد العسكرية على حدود الاتحـــاد السوفياتي ، وهي خدمة عظمى تقدم لامن السوفييت • اما على صعيـد العلاقة بالثورة ، فباستثناء التصريح الصحفي المتسرع الذي صدر حول قيادة الثورة وتزكية للشاه فان اجهزة الاعلام السوفييتية تلقى الان بثقلها الى جانب الشعب الايراني • وهي اذ تعلن هذا التأييد لا تجهل من يقود الثورة في ايران وتعرف جيدا انها لو انفصلت عن آية الله لتعطلت وعاد الشاه الى عزه والامريكان الى مواقعهم • وليس امام السوفييت غير هذا الخيار وهم يحرصون على وضـــع ايديهم بايدي المكافحين ضد الاستعمار • ومن الجهة الاخرى ، فان دعمهـــم يمكن ان يوفر رافدا مأمون العواقب لاية ثورة تملك قيادة واعية ، مستقلة ،قادرة على صنع قراراتها بنفسها ، وقادرة على تلمس الحـــدود المعقولـة للعرفـان بالجميل • وانه لمعروف تماما ان المعسكر الاشتراكي يقف على النقيض مـــن المعسكر الامبريالي بقيادة الولايات المتحدة • والمعسكر الاشتراكي هو جملـــة الدول التي تتبنى الاشتراكية الماركسية وترفض الرأسمالية بصرف النظر عـــن حدود واشكال هذا الرفض والتبني ، وبصرف النظر عن خلافات هذه الدول مع بعضها • وهي من هذا المنطلق تجد نفسها تلقائيا مع ثورات الشعوب مـــن اجل التحرر الوطني •

والثورة الايرانية ، كتحرك وطني معاد للاستعمار ، لا تملك خيار المجابهـــة مع طرفين متناقضين الى هذا الحد وهي اذ تتحرك ضد الشاه فمن البديهي ان تكون النقيض الحاد لمعسكر الشاه ، وهو المعسكر الامبريالي الـــذي تقـــوده الولايات المتحدة ، وينحشر في داخله من هم على شاكلة الشاه مـــن ملـــوك ورؤساء جمهوريات • ويعني هذا بدوره ان الثورة لا تحمل تناقضا اساسيا مع المعسكر الاخر ، وبالتالي فلا مصلحة لها في التوجه ضده • واذا اردنا ان نكون منطقيين اكثر فهي احوج الى التحالف معه منها الى مجابهته ، وهي لا تفعـل ذلك ، ان فعلته ، عن ضعف ذاتي ، بل عن ضرورة موضوعية تترتب على نفس القرار الثوري بالمجابهة مع الولايات المتحدة • ولا ينال من اهمية هـــذا القرار ان تتعارض وجهات النظر او حتى المصالح احيانا ، فالقيادة الواعية المستقلـة تعرف كيف تتعامل مع الاصدقاء دون ضرر •• ولا ضرار •

وقد يتوارد هنا حديث العقيدة •

وهي لعبة ماهرة مارستها الامبريالية في السابق ، وتمارسها اليوم ، ويلعبها في نفس الوقت فريق من المؤمنين ، او المحسوبين على الايمـــان ، عمالـــة للامبريالية او ارتباطا بمصالح الطبقات العليا ، او تزمتا دينيا خالصا لوجـــه

الله · ومهما اختلفت الدوافع فالنتيجة واحدة : تسخير الايمان لامور لا علاقة لها به ، من تثبيت العروش ، على اختلافها : ملكية وجمهورية ، ومن خدمة المآرب الاجنبية التي تسرح وتمرح في ديار الاسلام ، من باكستان الى الحرمين ، ومن الرباط الى جاكارتا ·· وما يميز الثورة الايرانية ارتباطها بهذا الايمان ، لكن مع انفصامها عن مرتكساته ، وهو ما اغضب اقواما يحملون نفس هويتها الايمانية ودفعهم الى مصارحتها بالعداء منذ ولادتها ، والى التنادي للدفاع عن عرش البهلوي · ومعروفة للجميع بيانات الازهر الشريف في مصر واسعافات حكام السعودية والخليج وما جاورهم للعرش الجريح ·· ويبدو مع ذلك ان هناك من يعلن اغتباطه بايمانية الثورة ، لا من اجل عينيها ، بل لكي يضعها في مقابل عدوه الطبقي ، المعسكر الاشتراكي · وصحافة الكويت ، المعتدلة ، شاهد على ما ندعي · ويشكل ذلك احد مكامن الخطر على ثورة ايران، وهو بحد ذاته صدى بعيد لدبلوماسية البيت الابيض ، التي تتحكم برقاب هؤلاء المؤمنين · لكن قيادة الثورة قادرة بوعيها على ان تتجنب هذه المداحض فلا تنساق مع نزعة متزمتة تضيع عليها فرص النجاح او تشوه اهدافها · ومع ان العقيدة مصدر غنى لاية حركة اصيلة ، فينبغي ان لا تحول دون حرية التحرك ، اي ان لا تصبح قيدا بدلا من ان تكون وسيلة للانطلاق كما هي طبيعتها وفي تاريخ السياسة الاسلامية سوابق يمكن التأسي بها · من ذلك تحالف الحارث بن سريج مع الاتراك المشركين ضد الامويين المسلمين · وقد التجأ الحارث الى حلفائه المشركين بعد اندحاره عسكريا اما جيوش نصر بن سيار حاكم خراسان المسلم وعاش في بلاد الشرك ثلاثة عشر عاما · وقبله التجأ ابن الاشعث الى رتبيل احد ملوك المشركين في آسيا الوسطى بعد فشل انتفاضته ضد الحجاج بن يوسف الثقفي ، وهي من الحركات المشهودة في تاريخ الاسلام ، وكان ابن الاشعث قد اعلنها باسم الحسن المثنى وانضم اليه فيها كبار فقهاء ذلك الوقت كالشعبي وابن ابي ليلى وسعيد بن جبير ·

وقد شهد العصر الحاضر تحالفات مماثلة · فقد بادر الشريف حسين بعد ان تيقن من غدر الانكليز وتنكرهم لوعودهم الى الاتصال بالبلاشفة طالبا منهم العون · وتشير الروايات المنقولة عن قدماء المجاهدين الحجازيين الى ان الشريف حسين اوفد ابنه الملك علي الى الاتحاد السوفييتي عام ١٩٢٢ وانه قابل هناك لينين وعرض عليه خطوط القضية العربية التي ثار الشريف من اجلها · وتقول الروايات ان لينين تفهم نوايا القيادة الحجازية وحاول اسنادها بالقدر اليسير الذي كان لدى البلاشفة آنذاك · ويقف وراء هذه البادرة الخطرة اسراع الانكليز في تعبئة عبد العزيز بن سعود لاكتساح الحجاز والتخلص من الشريف حسين · وفي العراق ، كشفت الوثائق التي عرضت في المتحف البريطاني عن رسائل متبادلة بين قادة ثورة العشرين وقادة البلاشفة · وتتضمن

احدى هذه الوثائق تقريرا للمخابرات البريطانية عن الاتصالات بين الشيخ عبد الكريم الزنجاني والسفارة السوفييتية في ايران بواسطة شخص عراقي يدعى عباس العطري • وهذا الرجل لا يزال حيا ، وقد اجرت معه جريدة « طريق الشعب » العراقية حديثا أكد فيه من جهته ما ورد في تقرير المخابرات البريطانية • ولا يغير من هذه الحقيقة تغير موقف الشيخ الزنجاني فيما بعد ، او اعتزاله السياسة بعد ان تقدمت به السن وما رافق ذلك من ملابسات يصعب اكتناه حقيقتها •

ومن الامثلة البارزة في هذا المنحى ، ذلك التنسيق المكشوف الذي كان يتم بين الشيخ مهدي الخالصي والسوفييت • والخالصي من قادة ثورة العشرين العراقية ، وهو ممن رفض القبول بنتائجها التي حددها الانكليز فعارض الملك فيصل الاول وأصر على التحرير الكامل للعراق من أي نفوذ اجنبي • وقد نفاه الانكليز الى ايران لكنه واصل من هناك نضاله ضدهم بدعم من الاتحاد السوفييتي • ولم يكن ثمة ادنى تورية او تقية في هذا التنسيق ، فحين مات الخالصي في مدينة مشهد اعلنت القنصلية السوفييتية هناك الحداد عليه ، من دون سائر المؤسسات الايرانية والاجنبية !

وللفكر الاسلامي القديم مسالك على نفس الخط قد يدهش لها المؤمن المعاصر الذي اعمته السلفية ، وقد يعتبرها ضربا من الهرطقة والمروق ، لكنها مع ذلك محفوظة في مظانها • وحسبي ان اذكر منها في هذه العجالة تأويلات لمفهومي الكفر والشرك ترد في مصادر الشيعة عن الامامين الصادق والباقر ، اللذين فرقا بين الكفر والشرك فحددا للاول مفهوما يتضمن ماهية الطغيان ووصفا الثاني على ملاك العقيدة • وقد صرح الامام الصادق ان الكفر اشد من الشرك لاقترانه بالعتو والعناد • وفي هذا تساهل واضح فيامور العقيدة وتشدد في امور السياسة العملية والسلوك الاجتماعي • ولهذه التأويلات اصول في القرآن منها الآيتان ١١٦ و ١١٧ من سورة هود : « فلولا كان من القرون قبلكم اولو بقية ينهون عن الفساد في الارض ، الا قليلا ممن انجينا منهم • واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين • وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون • » ويرد عن ابن عباس في تفسير الآيتين ان الله لا يعذب على الشرك اي على امور العقيدة ، وانما يعذب على الفساد ، اي على الظلم والطغيان • وفي وقت لاحق افتى السيد ابن طاووس مرجع الامامية في القرن السابع بتفضيل الكافر العادل على المسلم الجائر • ومن المؤسف ان تنطوي هذه الاتجاهات النيرة في غمامة التفسير الرجعي الازهري للاسلام وتاريخه فتصبح في حكم المنسي والمنكر بل ويصبح الحديث عنها مقارنا للالحاد على انها لتبقى امانة في عنق اولئك الناس الذين لم يتلوث تاريخهم بعطايا الملوك ، وبينهم وبين تلك الخطوط المشبوهة حواجز لا يصح ولا يمكن عبورها • ولا بد لمن يتصدى للفعل

الثوري ان يتميز عن الذين سخروا دين الله للبغايا واللوطيين ، ووضعوا القرآن على موائد مونت كارلو ليعلنوا عن انفسهم من هناك حمـــاة للكتاب والسنة ، والذين افتوا بالصلح مع اسرائيل واعلنوا البراءة من ابو ذر الغفاري وثبتوا نسبا علويا لكل من اراده من الملوك ·

ان ثورة الخميني تجري على حدود التزام دقيق يفصله عن الوضع الازهري خيط كالصراط : خطر وحالك في آن واحد · وانه لخيار عسير بين أن تكـــون حنبليا فتفضل دين مونت كارلو على دين ابو ذر ، او ان تكون ثوريا فتكـــون صديقا لكل الثوريين وان خالفوك في العقيدة ، وعدوا لكل الطغاة واللصوص وان شاركوك في الايمان · وليس هناك من خط ثالث ·

كان يحي بن عبد الله بن الحسن يناجي ربه وهو هارب من هارون الرشيد :

اللهم اشكر لي اخافتي قلوب الظالمين ·

والخميني مشكور لاخافته قلوب الظالمين وتهديد عروشهم وهو مطالب بـــان يخيف قلوب المتاجرين بالايمان من اعوان الظلمة ، الذين يلعبون على شعارات ثورية ليخلقوا لها اعداء وهميين ويصرفوها عن اعدائها الفعليين ·

اليـاس شوفـاني

السـلام الاسـرائيـلي

اسرائيل والسلام ضدان لا يلتقيان · قد يتفاعلان ، ويؤثر احدهما في الاخر سلبا او ايجابا ، ولكنهما لا يتطابقان · فاسرائيل قاعدة عدوان على الامة العربية ، والعدوان لا ينسجم مع السلام · والعدوان الاسرائيلي لم يدحر بعد ، كما ان حركة الجماهير العربية لم تستسلم لذلك العدوان او ترضخ لاملاءاته · ولقد سئم الناس الكلام عن السلام ، من اسرائيل او معها · وحتى المستوطنين الصهاينة انفسهم ملوا كلام قادتهم عن السلام ولغوهم فيه ، فدرج بينهم القول : « سلام ، سلام ··· ولا سلام » · واللغو الصهيوني عن السلام ليس له فـي الواقع ما يبرره ، كما ان الممارسة الصهيونية ، منذ بدء استيطانها في فلسطين والى يومنا هذا ، افقدت ذلك اللغو مصداقيته · والمفاوضات الجارية الان ، والتي بدأت منذ حرب تشرين ، ليس هدفها السلام ، وانما التسوية · وهذه تحتمل الكثير من التفسير والتأويل · وفي حالها الراهن ، كما آلت اليه بعد « كامـب ديفيد » ، لم تعد لها علاقة بالسلام ، او بالتسوية في مفهومها الدارج ، وكما يعيها الناس العاديون ، ليس في المنطقة فحسب ، وانما في العالم اجمع · والذي جرى في « كامب ديفيد » ، هو بالفعل مؤامرة على سلام شعوب المنطقة ، وليس « اتفاق اطار لتسوية شاملة للنزاع فيها » ، كما يقال زورا · فما هو السـلام الاسرائيلي ؟ وهل اسرائيل فعلا جادة في انجاز تسوية شاملة ، تقوم عـلى المعادلة البسيطة : انسحاب من المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ ، مقابل الاعتراف بشرعية قيامها ؟ وقبل الدخول في موضوع الاجابة على هذين السؤالين ، تجدر

الاشارة الى بعض منطلقاتنا في فهم الكيان الصهيوني ، والتي تشكل اساسا لتفسيرنا لما يجري على صعيد التسوية ٠

اسرائيل قاعدة متقدمة للعدوان على الامة العربية

في فهمنا لاسرائيل ، ننطلق من انها حصيلة عمل مشترك ، اسهم فيه الاستعمار الغربي ، كل دولة فيه ودورها في حينه ، بقسط اوفر بكثير من المجهود الذاتي للحركة الصهيونية في اطارها اليهودي ٠ وعلى اي حال ، فان الصهيونية نفسها نشأت على ارضية ذلك الاستعمار ، وظلت جزءا عضويا منه ٠ وفي العمل الصهيوني ، كان الدفع الاستعماري اكبر بكثير مما قدمه اليهود انفسهم للمشروع ٠ فالشراكة التي قامت بين الاستعمار والصهيونية اليهودية لم تكن قط متكافئة ، وانما كانت الحصص فيها تعكس موازين القوى بين الاطراف المساهمة ٠ وعليه ، كانت حصة الاستعمار نصيب الاسد ، بينما ظل نصيب اليهودية فيه ضئيلا ٠ وكانت للاستعمار الغربي مصلحة في المشروع الصهيوني تفوق اضعاف اضعاف مصلحة اليهودية ، اذا سلمنا بأن لهؤلاء مصلحة في الصهيونية على الاطلاق ٠ ونظرا لطبيعة الشراكة في هذا المشروع ، فقد جير مردوده لصالح الشريك الاكبر فيه ، ولخدمة مصالحه اساسا ٠ وهكذا ، خلال ثلاثين عاما على قيامها ، قدمت اسرائيل للاستعمار اكثر مما حققت لذاتها ٠ وقد اصابت هذه نجاحا اكبر في تحقيق مهمتها الامبريالية ، مما استطاعت تحقيقه على صعيد اهدافها اليهودية : « حل المسألة اليهودية » ، وبناء ذاتها اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا ٠ وليس ادل على ذلك من تنامي العلاقات ، خاصة بعد حرب تشرين ، بين العواصم العربية وواشنطن ، عاصمة « البلد الام » (المركز الامبريالي) للكيان الاستيطاني الصهيوني ٠

ان فهما صحيحا لطبيعة الكيان الصهيوني ، وبالتالي تقويما سليما للمهام الموكلة اليه من قبل الذين بادروا الى طرح فكرة اقامته ، لا يستقيم الا اذا تم الربط بين الانطلاق للمباشرة في المشروع ، وبين الظواهر السياسية التي واكبت ذلك ، في الزمان والمكان المحددين ٠ والصهيونية تحولت الى مشروع سياسي ، ظاهر هدفه هو بناء دولة يهودية ، تكون باليهود ، ومن اليهود واليهم ، وعلى ارض فلسطين ، قلب الامة العربية ، وباطنه انشاء قاعدة امبريالية متقدمة في وسط العالم العربي ، لضرب حركته القومية وتفتيته ، في وقت اشرفت فيه الامبراطورية العثمانية على الانحلال ، وتكالبت على تقسيم ممتلكاتها الدول الاستعمارية ، كما برزت في بعض نواحيها الحركة القومية العربية ٠ وكان ذلك في نهاية القرن الماضي ٠ وفي تلك الفترة ، كانت السلطنة العثمانية ، اخر امبراطوريات القرون الوسطى الاسلامية ، قد ناهزت الستة قرون من عمرها ، وقد شاخت ولم تعد تقوى على الذود عن حياضها ٠ وبينما راحت الدول

الاستعمارية الغربية تتوثب للانقضاض على ما تبقى من اراضي الامبراطورية الواسعة ، وتتناحر على تثبيت مواقعها في تلك الاراضي من خلال نظام الامتيازات ، اعدادا لبسط نفوذها عليها عندما يحين الوقت ، انطلقت الحركة القومية العربية ، تنادي بالاستقلال للاقطار العربية ، من منطلق وحدتها ، على الاقل في مشرقها • وعلى هذه الخلفية جاء تبني الدول الاستعمارية لفكرة المشروع الصهيوني ، واقامة الدولة اليهودية في داخل الوطن العربي ، عامل تفتيت لبقاعه ، وقاعدة عدوان على شعوبه ، وكابحا لحركة جماهيره المتطلعة الى الاستقلال والوحدة ، مناقضة بذلك التوجه الاستعماري فيه • وهكذا ، ومن جهة نظر الشريك الاكبر والاهم في المشروع الصهيوني ، كان الهدف من اقامة اسرائيل ان تصبح هذه قاعدة متقدمة للعدوان ، مهمتها الاساسية التصدي لحركة الجماهير العربية ، وضربها • وهذه الاخيرة ، لم يكن مركزها في فلسطين ، ولا شكل الشعب الفلسطيني عنصرا متميزا فيها ، وانما شكلت ارضه ، من ناحية موقعها الاستراتيجي ، وارتباطها بالتراث اليهودي القديم ، اكثر الاقاليم العربية ملاءمة لاقامة القاعدة • ولما كانت مصلحة هذا الشريك في المشروع هي تطويره كقاعدة عسكرية متقدمة ، فقد انعكس ذلك على طبيعة الكيان الصهيوني ونمو مؤسساته • ونظرة سريعة الى تلك المؤسسات توضح الفارق الشاسع بين تنامي بعضها على حساب البعض الاخر • والواضح ان المؤسسة العسكرية هي الاكثر تطورا في الكيان ، نظرا لارتباط نشاطها المباشر بمصالح الشريك الاكبر • والمشروع من وجهة نظر هذا الشريك ، ايا كان في كل مرحلة ، لم يكن قط مشروعا اقتصاديا بحد ذاته ، وانما وسيلة للنفوذ الى ثروات الامة العربية واستغلالها • ومقابل هذا التطور في المؤسسة العسكرية ، تبرز هشاشة باقي المؤسسات في الكيان ، من اجتماعية واقتصادية وسواها ، والتي لا تزال فجة • ولم يلبث الكيان ، حتى قبل الاعلان الرسمي عن قيامه ، ان تحول الى « قلعة » ، قوامها الالة العسكرية ، يقوم بضعة ملايين من المستوطنين اليهود بخدمتها • فالاساس فيه هي الالة العسكرية ، التي يجري تجيير جميع الطاقات لتطويرها ورعايتها • وهكذا اصبح الجيش في اسرائيل اغلى من الكيان وأعز •

وما دام الكيان في جوهره قاعدة عسكرية ، فان ما يقرر مصيره ، ولو مرحليا ، نجاعة نشاطه العسكري ، ومردود هذا النشاط على البلد الام الامبريالي ، وبالتاكيد ، ليس ميزان مدفوعاته ، او حساب الربح والخسارة في اقتصاده • ويبقى العامل الحاسم في اعتماده من قبل البلد الام ، واصرار هذا البلد على تثبيت دعائم الكيان ، هو موقعه في الاستراتيجية العالمية لذلك المركز الامبريالي ، الولايات المتحدة ، وليس ازدهار الكيان الاقتصادي او عجزه • والواقع ان اسرائيل ما زالت منذ قيامها تعيش في عجز اقتصادي ، ومعدل

الدخل القومي العام فيها لا يوازي ديونها السنوية · وهذه ظاهرة فريدة من نوعها في العالم · ومع ذلك ، يستمر الكيان في التطور ، ويرتفع مستوى معيشة المستوطنين فيه ، ولهذا الوضع دلالة هامة ، اذ به تتميز اسرائيل عن اترابها من الكيانات الاستيطانية ، روديسيا او جنوب افريقيا ، حيث الهدف الاساسي من الاستيطان هو الاستغلال الاقتصادي للرقعة الجغرافية التي يقوم عليها ، وليس عاملا مساعدا لتهيئة الظروف الملائمة لاستغلال المناطق المجاورة على يد البلد الام الامبريالي ، كما هو الحال بالنسبة الى اسرائيل · والهدف الامبريالي من المشروع الصهيوني لم يكن قط محصورا في فلسطين ، وانما ، وبالاساس ، في العالم العربي ككل ، خاصة في مشرقه · من هنا ، يبقى اهتمام البلد الام ، وهو في هذه الحالة الولايات المتحدة الاميركية ، بالقاعدة المتقدمة ، اسرائيل ، متوقفا على تقدير الاولى لاهمية الثانية في ضمان مصالحها في المنطقة · وما دامت التقديرات في هذا المجال ايجابية ، فان الولايات المتحدة ستستمر في تقديم الدعم الاقتصادي اللازم للحفاظ على بقاء القاعدة ـ اسرائيل · والخطر الاساسي على المصالح الاميركية في المنطقة انما يأتي من حركة الجماهير العربية · وما دامت هذه الاخيرة حية فاعلة ، فستبقى الولايات المتحدة تمد اسرائيل بما تحتاج من الوسائل للتصدي لتلك الحركة · وانطلاقا من تقديرنا بأن الصراع سيستمر في المنطقة ، فاننا لا نرى ، على الاقل في المستقبل المنظور ، امكان تخلي اميركا عن اسرائيل ، كما يذهب البعض ، او امكان احداث شرخ بينهما كما يقول اولياء هؤلاء ، ممن هم اقل طموحا في تطلعاتهم ، وثقة في قدرتهم على الفعل في الساحة الاميركية · وفي مسار مفاوضات التسوية ، عبر اكثر من خمس سنوات منذ حرب تشرين ، عبرة لذوي الالباب ، ومؤشرا لمن ينوي صادقا الوصول الى تقدير صحيح للموقف في هذا المجال ·

المشروع الصهيوني لم يستكمل بعد

كلما واجه الكيان الصهيوني ازمة ، خاصة عندما تكون قيادته بصدد اتخاذ قرار في مسألة مصيرية ، ترتفع فيه الاصوات التي تنادي بالعودة الى المبادىء الصهيونية ، واعتمادها اساسا في التصرف ازاء الازمة الراهنة · ولكي يستطيع تحقيق الاهداف التي طرح من اجلها ، كان لا بد لهذا المشروع من ان يكون استيطانا اجلائيا · وقد ترتب على ذلك تجسيده على مراحل ، وفقا للظروف السياسية الدولية ، وتبعا لتوفر المستوطنين اليهود · والمشروع اليوم ، لا يزال في طور البناء ، ولم يستكمل نموه بعد · اذ انه لم ينجز المهمات الموكلة اليه من الاستعمار الغربي بعد تماما ، كما انه لم يحقق بعد ما اعلنته الصهيونية من اهداف لها على الصعيد اليهودي · فالقاعدة العسكرية لم تنجح الى الان في تطويع الحركة القومية العربية ، وهي قد فشلت الى الان في تصفية الثورة الفلسطينية · وهذه مهام لا تزال امامها · وعلى الصعيد اليهودي ، رفعت

الصهيونية شعار « حل المسألة اليهودية » ، وكان القصد تجميع اكثرية اليهود في فلسطين في كيان سياسي ، يبسط حمايته وهيمنته على الاقلية المتبقية في الجاليات المنتشرة في بقاع العالم • والذي حصل بعد ثلاثين عاما على قيام الكيان ، وحوالي القرن من العمل الصهيوني ، ان اخفقت الصهيونية في انجاز هذه المهمة المركزية • فقد تجمعت في الكيان اقلية من المستوطنين اليهود ، تنظر الى الاكثرية الباقية في اماكن شتاتها كعنصر اساسي في حماية الكيان وتدعيمه • ومع ذلك . تبقى مسألة تهجير اليهود الى اسرائيل ، واستيعابهم هناك ، مهمة مركزية في العمل الصهيوني الراهن • وتبقى اسرائيل تتطلع الى تدفق المهاجرين اليهود اليها . املا في ان يصبح بمقدورها تهويد « ارض ــ اسرائيل الكاملة » واستيطانها • وهذا ما يسميه قادة العمل الصهيوني « امل الاجيال » •

والاحزاب الاسرائيلية بمجملها ، فيما خلا الحزب الشيوعي الاسرائيلي ــ راكاح ، هي احزاب صهيونية • وعليه ، فاذا دأبت هذه القوى السياسية في اسرائيل على اعتماد الصهيونية عقيدة ، وهو ظاهر الامر ، فانها لا بد ان تواصل سعيها لاستكمال مشروعها ، والا فقدت مبرر وجودها • واذا واصلت اسرائيل الصهيونية عملها في تحقيق اهدافها كاملة ، فانها بالطبع لن تعمد راغبة الى تحديد حدودها الجغرافية والبشرية والسياسية ، قبل انجاز المهمة التي وضعتها نصب عينيها • وهذا يعني صب جهودها في احباط اية تسوية نهائية ، لا تلبي طموحها • وبالفعل فقد نجحت الصهيونية ، طوال مرحلة بناء الكيان ، والى يومنا هذا ، في عرقلة كل المساعي لتسوية الصراع في المنطقة ، قبل ان تحقق اهدافها • والاهداف بعيدة المنال ، وكذلك التسوية السلمية في تقديرنا • ففي المفاوضات الجارية منذ حرب تشرين ، يتضح تماما ان اسرائيل تسعى من خلالها لانتزاع ما قصرت عن الوصول اليه منذ قيامها • وهي كذلك لا تقبل في التسوية ما يشكل عقبة امام استكمال مشروعها في المستقبل • والاكيد انها تنظر الى التسوية كمحطة اخرى على طريق انجاز المشروع • وقد سبقتها محطات اخرى : مؤتمر بازل ، وعد بلفور ، قيام الكيان • ويجيء الان ، وعن طريق التسوية ، دور انتزاع الاعتراف بشرعية قيام الكيان ، على ان ينتقل الى ضمان مقوماته في مراحل لاحقة ، قد تختلف في مداها الزمني ونهجها في التنفيذ • ولا يساورنا شك في ان اسرائيل تسعى من خلال المفاوضات على التسوية ، الى تسهيل مهمة استكمال المشروع الصهيوني بعدها ، سواء في جانبه الامبريالي ام في جانبه الصهيوني اليهودي •

حدود امن اسرائيل تمر في عواصم دول المواجهة

في الحديث عن التسوية السياسية ، عندما يدور الكلام عن « امن اسرائيل » يبدو وكأنه ارسال على موجات متقاطعة ، بل متضاربة • ويبرز ذلك بشكل

يستثير الاشفاق في كلام الرئيس السادات عن ذرائع اسرائيل الامنية · فهو يتذمر ويشكو من ان شريكه في المفاوضات لا يثمن جيدا ما قدمه له من ضمانات ، وما هو على استعداد للقبول به نزولا عند رغبات ، او املاءات ، ذلك الشريك النكد · والواقع ان السادات ، وغيره كثير ، ينطلقون في مفهومهم لكلام اسرائيل عن امنها ، من منطلقات لا تمت الى الكيان الصهيوني بصلة · فما دامت اسرائيل قاعدة للعدوان على الامة العربية ، مهمتها الاساسية التصدي لضرب حركة الجماهير فيها ، وهذه ليس مركزها داخل فلسطين المحتلة ، فان مجال نشاط الكيان العدواني يصبح بطبيعة الحال ، خارج حدود استيطانه في الغالب · وهذا ما يسميه قادة الكيان مجازا « امن اسرائيل » · فهذا الامن في عقيدتهم ، لا يتوقف على ما يجري داخل حدود الاستيطان ، او ما يحصل عندها ، وانما ، وبالاساس ، على ما يجري خارجها ، وبالتحديد ، في عواصم دول الطوق · وعليه ، فذلك الامن لا يستتب الا اذا تحكم الكيان بالمسارات السياسية في تلك العواصم ، واستطاع من خلال ذلك ، ضبط توجهاتها · وهذا ما يجب وعيه عند الكلام عن « امن اسرائيل » في اطار التسوية الجارية · ولذلك فهي غير معنية بالضمانات ، لان هذه تتوقف عند الحدود ولا تهمها معاهدات الدفاع ، لانها تخطط ان تبقى في موقع الهجوم · وهناك من قادة الكيان من يرى ان معاهدة دفاع ، حتى مع الولايات المتحدة ، تضع العلاقات القائمة بينهما في اطار رسمي ، سيكون من شأنها الحد من حرية اسرائيل في العمل العسكري عندما تجد الفرصة مناسبة لتنفيذ اغراضها · اي انها تقلص هامش حرية اسرائيل في اتخاذ القرار ، دون التنسيق المسبق مع واشنطن · والفهم الخاطىء للامن كما تعنيه اسرائيل ، يكمن وراء التفسير الذي يطرحه البعض لنشاطها العسكري خارج حدود استيطانها ، كما هو الحال في الجنوب اللبناني مثلا ، وكأن الهدف منه اقامة حزام امن عبر تلك الحدود · ان من يقيم حزام امن عبر حدوده ، هو الذي يبني خطته العسكرية على اساس البقاء في موقع الدفاع · اما الذي يبادر الى الهجوم ، فلا تعنيه ، في تقديرنا ، احزمة الامن · واذا تذرع بهذه الحجة ، فانما هي للتمويه على حقيقة النوايا ·

وهذا المفهوم الاسرائيلي للامن ، يكمن وراء المقولة الدارجة ، والتي قبل بها المشاركون في مفاوضات « التسوية السلمية » من الطرف الآخر ، بأن اسرائيل، حتى تستطيع الدخول في مفاوضات جدية للتسوية ، يجب أن تطمئن الى تفوقها العسكري · وهكذا ، وفي حين يدور الكلام عن التسوية والسلام ، تنقلب اسرائيل الى ترسانة اسلحة · ومع ذلك ، تستمر المفاوضات معها ، سنة بعد أخرى ، دون الالتفات الى المفارقة القائمة بين السلام المتزايد للالة العسكرية الصهيونية ، على عكس ما يجري في الجانب الآخر ، رضوخا لاملاءاتها · وفي هذا المجال ، كشف مردخاي غور ، الرئيس السابق لاركان الجيش الاسرائيلي ،

في مقابلة تلفزيونية ، بتاريخ ١٩٧٩/١/٧ ، يوم خلع بزته العسكرية وتحول الى جنرال في الاحتياط ، انه خلال مفاوضات اللجنة العسكرية المصرية ـ الاسرائيلية في القاهرة ، بعد لقاء الاسماعيلية ، طالب الوفد الاسرائيلي رسميا، بتقليص الجيش المصري ، وابعاد ما تبقى منه عن الحدود مع اسرائيل · واضاف انه اذا كان هناك مبرر للاحتفاظ بجيش مصري كبير نسبيا ، بدعوى « التصدى للتغلغل الشيوعي في القارة الافريقية » ، فانه لا مانع لدى اسرائيل في ذلك ، شرط ان تثبت مصر ذلك عمليا ، باحداث تغييرات جذرية في مواقع انتشار قواتها العسكرية ، وطبيعة تأهبها القتالي ·

واسرائيل ، في تقديرنا ، انطلاقا من فهمنا لطبيعتها ، ومن خلال تقييمنا لمواقفها في المفاوضات الجارية ، لن تنجز تسوية مع عاصمة عربية ، يحكمها نظام وطني · كما انها سترفض ، كما فعلت مع مصر ، التقدم في المفاوضات مع عاصمة عربية ، تصر على الاحتفاظ بجيش و طني ، يرى مهمته الاساسية الدفاع عن ارض الوطن ، والقتال لحماية مصالح الامة ، ومن اجل تحقيق اهداف الجماهير العربية العريضة في الاستقلال والوحدة · كما انها ستصر ، وكما فعلت مع مصر ، على حرمان جيوش الدول العربية التى تتفاوض من مصدر سلاح مضمون وموثوق ، وستشترط « تنويع مصادر السلاح » ، لاعادة تلك الجيوش الى ما كانت عليه قبل حرب ١٩٥٦ ، وقبل عبد الناصر · كما انها ستطلب مقابل التسوية مع اية عاصمة ، تخلي هذه عن القضية الفلسطينية ، في بعديها القومي والوطني ، اي التنازل ، بالاضافة الى القضية القومية عن « الحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني · وهي قبل الاقدام على تسوية كهذه ، ستدفع الطرف الآخر ، كما حصل في الماضي ، الى ضرب الثورة الفلسطينية وتصفية مكتسباتها ، وبالتالي تفريغ منظمة التحرير الفلسطينية من اي مضمون· وبكلام آخر ، فان اسرائيل لن ترضى بتسوية تقطع مهمتها الامبريالية في المنطقة قبل انجازها ، لان ذلك سينعكس سلبا على مبدأ اعتمادها كشرطي للمنطقة ، وبالتالي امكان طرح تساؤلات حول نجاعة فاعليتها في خدمة البلد الام · كما انها لن ترضى بتسوية من شانها ان تضع عقبات في طريق انجاز مشروعها الاستيطاني ، في جانبه اليهودي ، اي على الصعيد الفلسطيني · وفي تقديرنا ، انها ستقاوم بكل شراسة ، حصول الفلسطينيين على « حقوقهم المشروعة » ، والاكيد انها لن تسمح راضية بقيام دولة فلسطينية · وكل تخل عن هذه المواقف، تعتبره اسرائيل خطرا على امنها ، وليست مجرد مواقف لن ترضى بها ، وانما لن يكون باستطاعة المؤسسة الحاكمة فيها اتخاذ القرار الحاسم بشأنها ·

اسرائيل جزء من النظام الامبريالي الاميركي

عندما تتضارب وجهات النظر السياسية بين اسرائيل وواشنطن ، يوصف

الخلاف ، ومن الطرفين ، بانه تناقض بين حكومة اسرائيل والادارة الاميركية . ولكنه لم يحدث قط ان وقع خلاف كهذا ، ودار الحديث عنه بمصطلحات اسرائيل ضد اميركا ، او العكس . وعندما يقع خلاف كهذا ، فانما يجري حسمه عـادة داخل المؤسسة الحاكمة في امريكا ، ومن خلال تداخل أجنحتها . واذا اشتـد الخلاف يصار الى التغاضي امام الرأي العام الاميركي ، الذي تكونه الصحافة هناك ، وهي على العموم جزء من المؤسسة . واذا اندلع الخـلاف ، وحصلت المواجهة ، فانما تدور المعركة على الساحة الاميركية . فتكون معركة داخلية ، وليس بين طرفين منفصلين . والتقييم الاسرائيلي للسياسة الاميركية انما ينطلق من قاعدة عزو تلك السياسة لهذا الرئيس او ذاك ، او لهذا الجهـاز او ذاك . وهكذا يتحرك اللوبي الصهيوني بيـن الادارة والكونغرس ، وبين وزارتـي الخارجية والدفاع ، عندما يحدث الخلاف ، ويتصرف كمجموعة ضغط داخلية. حتى من الناحية المراسيمية الشكلية .

والولايات المتحدة اليوم ، تلعب دور البلد الام الامبريالي للكيان الصهيونـي بكل حذافيره . وكانت بداية هذا المسار في مؤتمر بلتمور الصهيوني عام ١٩٤٢، حيث تم نقل مركز النشاط الصهيوني من انجلترا الى اميركا ، تقديرا بان هـذه ستتزعم العالم الرأسمالي بعد الحرب ، وستكون صاحبة المصلحة الكبرى فـي المشروع الصهيوني . واندمجت الصهيونية في النظام الامبريالي الاميـركي ، واصبحت جزءا عضويا منه . واسرائيل ، كقاعدة عسكرية ، ارتبطت باكثـر القوى السياسية رجعية فيالولايات المتحدة في المجمع الصناعي الحربي . وهذا الاخير لا يهمه من اسرائيل سوى جيشها ، فعمل على تطويره ، مما انعكس في نمو الالة العسكرية الاسرائيلية بشكل يفوق باقي مؤسسات الكيان . وبسبـب اهتمام هذا المجمع بالجيش الاسرائيلي ، ونظرا لفاعليته في السياسة الاميركية، ظلت مسألة بناء ذلك الجيش ، وتزويده بالمعدات العسكرية اللازمة ، لا جـدال فيها . وعلى هامش هذا الاهتمام تطورت الصناعة العسكريـة في اسرائيـل ، كامتداد للمجمع الصناعي الحربي في الولايات المتحدة ، الذي يـزود تلـك الصناعة برأس المال والتكنولوجيا اللازمين . وبسبب الاهمية التي يعلقها المجمع على نشاط الجيش الاسرائيلي ، كان الدعم العسكري الضخم الذي تتلقـاه اسرائيل من اميركا ، والذي بلغ بعد حرب تشرين ثلاثة مليارات من الدولارات سنويا ، اي بمعدل الف دولار للفرد الاسرائيلي كل سنة . هذا طبعا الى جانب المساعدات الاقتصادية الاخرى ، التي تأتي من مصادر متنوعة ، من ضمنهـا الجباية اليهودية ، والتي تبلغ حوالي الف وخمسماية مليون دولار سنويـا . فيصبح الفرد الاسرائيلي يتلقى ما قيمته الف وخمسماية دولار مـن الدعـم الاميركي سنويا .

وعندما يبرز خلاف في وجهات النظر بين الحكومة الاسرائيليـة والادارة

الاميركية ، ترتفع بعض الاصوات ، على اطراف القوى السياسية الفاعلة في اسرائيل ، سواء عن اليمين او اليسار ، تنادي بضرورة توسيع هامش الاستقلال الاسرائيلي في صنع القرارين ، السياسي والاقتصادي · وهذه الاصوات تجد لها تجاوبا ، ولو آنيا ، بين جمهور المستوطنين هناك · وهؤلاء ، نظرا لوعيهم الزائف ، قد يذهبون بعيدا احيانا ، انطلاقا من وهم الاستقلالية في واقع التبعية شبه المطلقة · اما المؤسسة الحاكمة في اسرائيل ، فهي على العموم تعي موقع كيانها في النظام الاميركي ، ولا تشط عن الطريق · ومن مآخذ المعارضة الحالية على حكومة بيغن ، ان هذه الاخيرة قد اقحمت نفسها في خلاف مع الادارة الاميركية ، عندما حاولت التحرك في التسوية دون تنسيق مسبق مع واشنطن ، كما فعلت هي عندما كانت في السلطة · ولكن هذه التبعية لا تعني أن حكومة اسرائيل لا تملك هامشا من الاستقلال في الحركة مطلقا · وهي عندما تفعل ذلك ، فانما على اساس تقديرها لموازين القوى في الساحة الاميركية ، من معها ومن ضدها · وقد تخطىء احيانا في التقدير ، كما حصل في « عملية الليطاني » في الجنوب اللبناني ، اذار (مارس) ١٩٧٨ · وعلى اي حال ، فان تقدير حجم هامش استقلالية اسرائيل في اي تحرك سياسي او عسكري ، انما يجب ان يتم في ضوء طبيعة هذا التحرك بالذات · فالغارة على احدى قواعد الثورة الفلسطينية مثلا ، لا تستلزم الضوء الاخضر الاميركي مسبقا ، كما لو كانت الطائرات الاسرائيلية ستغير على الظهران مثلا · وعليه فلا يجوز التعميم ، ولا يصح القول بأن اسرائيل لا تقوم باية صغيرة او كبيرة ، قبل أن تحصل على الموافقة الاميركية اولا ·

المؤسسة الحاكمة في اسرائيل عاجزة عن اتخاذ قرار « التسوية النهائية »

قام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ ، في ظل معادلة سياسية دولية معينة · ولكنه فشل الى الآن في تحقيق ما ادعى بانه مهمته المركزية على الصعيد اليهودي « حل المسألة اليهودية » · وبدلا من ذلك ، فقد نجح في خلق « المسألة الاسرائيلية » ، التي هي تعبير عن عدم قدرة مستوطني الكيان على التكييف مع ظروف المنطقة والانسجام مع شعوبها · وفي أية عملية سلام او تسوية ، تلبي الحد الادنى المطلوب عربيا · لا بد للكيان ان يحسم في مسألة حدوده الجغرافية والبشرية والسياسية ، وذلك قبل استكمال نموه وتحقيق ذاته · والكلام طبعا عن المرحلة الحالية · وقد احجم الكيان عن ذلك الى الان ، خاصة وأن عليه المضي في تسوية كهذه ، في ظل معادلة سياسية دولية ، تختلف عن التي كانت لدى قيامه ، وفي ظل موازين قوى في المنطقة ، تختلف عن التي سادت في الاربعينات · ولذلك ظل قادة الكيان يناورون لكسب الوقت ، ويحاولون القاء تبعة الرفض على الجانب العربي، علهم يحققون من خلال عملية التسوية، وضمن

مسارها الطويل ، الذي يستغرق سنين عديدة ، ما اخفقوا في تحقيقه خلال ثلاثين عاما على قيامه · وواضح من التطورات السياسية في المنطقة ، منذ ان بدأت مفاوضات التسوية بعد حرب تشرين ، ان اسرائيل تسعى لتغيير المعادلة السياسية في المنطقة ، وقلب موازين القوى فيها ، بحيث ينجم وضع يبيح لها التعويض عما مضى ، وذلك من خلال عملية التسوية ذاتها ·

والكيان الصهيوني استيطاني بطبيعته ، وبالتالي فنموه يتوقف على تدفق المستوطنين عليه · وعندما يفشل المشروع الصهيوني في حمل اليهود على الهجرة الى فلسطين ، فانما يفشل في نقطة انطلاقة المركزية · وازاء التسوية ، اية تسوية شاملة ودائمة ، يجعل هذا الفشل من مبدأين اساسيين ومتكاملين في الايديولوجية الصهيونية ، هما تكامل الارض ووحدانية الشعب ، مبدأين متناقضين · والهدف الصهيوني الثابت هو اقامة دولة يهودية صرفة ، او في اغلبيتها الساحقة ، على « ارض – اسرائيل الكاملة » · وبدا في مرحلة بناء الكيان ان لا تناقض بين هذين المبدأين ، بل على العكس ، يكمل احدهما الآخر · ولكن ، ونظرا لعدم تدفق المهاجرين اليهود ، وازاء عملية التسوية ، بدأ يتضح التناقض بينهما ، على الاقل مرحليا · فالكيان ان اراد تسوية نهائية فورية ، فانه يواجه خيارا بين مسألتين : فاما دولة ثنائية القومية على « ارض – اسرائيل الكاملة » ، واما دولة يهودية في غالبية سكانها ، ولكن في حدود اضيق من « ارض – اسرائيل الكاملة » · وأي الخيارين لا يحقق الهدف الصهيوني الاساسي ·

وعليه ، فان الكيان ، اذا تمسك بمنطلقاته الاساسية ، فانه لا يستطيع انجاز تسوية دائمة · وفي اقصى الاحوال ، ستكون هذه التسوية بالنسبة اليه ، محطة أخرى على طريق تنفيذ المشروع الصهيوني · ويبدو ان القيادة الصهيونية باتت مقتنعة بعدم امكان الوصول الى الاهداف الصهيونية النهائية في هذه المرحلة · وفي اطار الكلام عن التسوية الراهنة ، انقسم المستوطنون الصهاينة في فلسطين، حول هاتين المسألتين – تكامل الارض ووحدانية الشعب – الى تيارين متكافئي القوة · فنادى احدهما بالاحتفاظ بالارض ، رغم وجود العرب عليها ، وذهب الآخر الى ضرورة اعادة التجمعات السكانية العربية الى الاردن ، مع الاحتفاظ بجزء وافر من الارض ، حيث الكثافة السكانية ضئيلة · والتيار الاول في الحكم اليوم ، بينما الثاني في المعارضة · ويطرح التيار الاول مشروع بيغن للتسوية ، القائم على فكرة « الادارة الذاتية » للسكان العرب في المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ · وان جاز لهذه التسوية ان تمر ، فان الحسم فيها لن يقود الى تحقيق الهدف الصهيوني الاصلي · وعندها سيواجه الكيان احد احتمالين : فاما ان ينكفيء عن صهيونيته ، ويأخذ منحى جديدا ، تحدد طبيعته التسوية وشروطها وكذلك تطورات الصراع في المنطقة في المرحلة التالية ، واما ان يعتبر التسوية

مرحلة اخرى على طريق تحقيق اهدافه · والصهيونية ، المعروفة ببراغماتيتها ، قد تعمد الى الخيار الثاني · واذا نجحت مؤامرة كامب ديفيد ، وتمت حسب مشروع بيغن ، مسألة تكامل الارض على حساب مبدأ وحدانية الشعب ، فانه يمكن طرد السكان العرب في المستقبل ، او افراغ المناطق من سكانها بشتى الطرق · وحتى لو انقلبت الامور ، وتحققت ، وفقا للمشروع الاسرائيلي المضاد ، الذي يطرحه حزب العمل ، وحدانية الشعب على حساب تكامل الارض، افلا يمكن استكمال تهويد الارض في مرحلة لاحقة اذا توفرت الظروف الملائمة ؟ وفي ممارسة الصهيونية في الماضي عبرة لمن يعتبر ·

وما دام المستوطنون الصهاينة منقسمين بشكل متعادل حول هاتين المسألتين الاساسيتين ، مما ينعكس على المؤسسة الحاكمة ، نظرا لوجود لعبة ديمقراطية في الكيان ، وبما ان مسائل مصيرية كهذه لا تحسم عادة باكثرية ضئيلة ، فالارجح ان قيادة الكيان ستتحاشى الحسم في الموضوع ، على الاقل في المستقبل القريب · والانقسام الداخلي حول الموضوع ، هو الذي يعطي الانطباع بأن تلك القيادة عاجزة عن اتخاذ القرار بشأنه · وعندما طرحت حكومة العمال مشروعها للحل الوسط الاقليمي ، وتكلمت عن انسحاب ، ولو جزئي ، من الضفة الغربية ، اشتدت عليها المعارضة ، وبالتالي سقطت في الانتخابات · وعندما طرح بيغن مشروعه للادارة الذاتية ، ثارت عليه المعارضة الحالية ، وما كان مشروعه ليمر لولا ان ربطه بالتسوية مع مصر ، فسكتت عنه المعارضة ، علما بأن البحث الجدي في موضوع الضفة سيتأجل الى ما بعد توقيع المعاهدة مع مصر ، وعندها ستخلق الظروف لاعادة طرح الموضوع مجددا · ويبدو ان القيادة الاسرائيلية ستبقى عاجزة في المستقبل المنظور ، عن اتخاذ قرار حاسم بشأن الضفة والقطاع ، يحظى بتأييد الاكثرية ، سواء كان ذلك بناء على مشروع بيغن ام المشروع النقيض · واذا فشلت المفاوضات مع مصر ، فسيكون بذلك ما يكفي القيادة الاسرائيلية مؤونة تحمل عبء اتخاذ القرار ، وستحاول ابقاء الوضع على ما هو · واذا انجزت التسوية مع مصر ، ولن يكون ذلك الا اذا قبلت مصر بالفصل بين الاتفاق الثنائي مع اسرائيل ، وبين مسالة تنفيذ الادارة الذاتية ، فعندها ستخلق اسرائيل من العقبات ما يبقي الوضع على ما هو · ولكن لا مجال لاتخاذ قرار نهائي في هذه المرحلة بالنسبة الى الضفة والقطاع ، سواء في هذا الاتجاه او ذاك ·

تذويب الشعب الفلسطيني هدف مركزي للعمل الصهيوني

الفكر الصهيوني غيبي بطبيعته ، فهو يقوم على مبادىء من القومية الثقافية، اقرب الى العنصرية منها الى الليبرالية · وبالنسبة الى الشعب الفلسطيني ،

اقامت الصهيونية مشروعها ، وبنت اعلامها ، على تغييبه · وذلك انطلاقا من التغيب المادي ، حيث نفت وجود ذلك الشعب ماديا ، عندما طرحت شعار « أرض بلا شعب ، لشعب بلا ارض » · ولما لم يعد بامكانها الامعان في هذا الباطل ، انتقلت الى تغييب الفلسطينيين حضاريا ، فجردتهم في اعلامها من جميع معالم التمدن ، وادعت لنفسها فضل كل عمران في البلد ، اذ عزته الى استيطانها ، مقابل التخريب الذي سببه سكان البلد الاصليين له · وانتهت الصهيونية في المرحلة الاخيرة الى تغييب الفلسطينيين سياسيا · وهي تنكر عليهم حقهم في تقرير مصيرهم السياسي · والطروحات الصهيونية عامة ، تصر على عدم الاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني ، كما ان احد الاهداف المركزية للعمل الصهيوني هو اذابة الشعب الفلسطيني بشكل كامل · وفي السنوات الاخيرة ، بدأ يبرز نوع من الاعتراف بوجود قضية لذلك الشعب ، يجب حلها ، ولكن ليس في فلسطين · وظل اصرار اسرائيل على استبعاد منظمة التحرير الفلسطينية ، وعدم الاعتراف بشرعية تمثيلها لشعبها ، في مكانهما · وتبدي السياسة الاسرائيلية مقاومة عنيفة لاقامة دولة فلسطينية ، في الاراضي التي قد يتم الانسحاب منها · وهي تقول بضرورة حل القضية الفلسطينية من خلال الاردن اصلا ·

لقد وعى قادة العمل الصهيوني ابعاد مشروعهم الاستيطاني مبكرا · وادركوا ألا مجال لتحقيق اهدافهم الا بالقهر العنصري ، وبالعنف الفاشي ازاء الشعب الفلسطيني وعرفوا انطلاقا من وعيهم متطلبات تجسيد مشروعهم ، الا مكان لهم في فلسطين الا بتشريد شعبها الاصلي ، ومن ثم بناء كيانهم على خرابه · فعمدوا الى انجاز المهمة بشتى الطرق وبالسرعة القصوى · ومنذ البداية ، توجه العمل الصهيوني نحو تهويد الارض والسوق والعمل ، هذا الى جانب العمل الجاد لبناء اداة العدوان العسكرية · وما تهويد الارض الا اقتلاع الفلاحين العرب منها · وليس العمل العبري سوى استبعاد العمال العرب من عملية الانتاج في البلد · وما السوق اليهودية الا مقاطعة المنتوجات العربية · اما الاداة العسكرية فمهمتها ضمان تنفيذ هذه السياسة ، وبالقوة المسلحة عند الحاجة · وقد كان لنجاح الصهيونية في تحقيق هدفها المركزي ـ اقامة الدولة اليهودية ، ولو على جزء من فلسطين ، اثر كبير في تقرير سياستها المستقبلية · فالنصر العسكري الذي احرزته في حرب سنة ١٩٤٨ ، زاد من ثقتها بنفسها ، وعزز القناعة لدى قيادتها بامكان تحقيق المشروع الكامل في مرحلة قريبة تالية · اما نجاحها في طرد مئات الالوف من العرب الفلسطينيين وتشريدهم ، ومن ثم افلاحها في قطع طريق العودة عليهم · فقد قوى فكرة التغييب لديهم · وراحوا يتصرفون انطلاقا من مبدأ ان السكان المحليين في فلسطين هم عنصر غير ثابت على الارض ، يمكن طردهم اذا توفرت القوة اللازمة لذلك · وما زال ذلك نهجهم في

التفكير ازاء حل قضية الفلسطينيين · ففي عقيدتهم ان من يملك القوة السياسية يستطيع تقرير العلاقة بين السكان والارض · والتوجه الصهيوني هو لقطع علاقة الفلسطينيين ببلدهم ·

الارضية الاسرائيلية للتسوية

منذ أن بدأت المفاوضات السياسية على التسوية السلمية ، لم يـأل قـادة اسرائيل جهدا في عرقلة مسارها · الى ان جاء مؤتمر « كامب ديفيد » ، وبدا وكأن اتفاقا قد حصل بين مصر واسرائيل ، ولكن سرعان ما تبين ان العقبات امام التوقيع على معاهدة سلام بين الطرفين لا تزال كثيرة ، وان الطريق الى انجاز تسوية شاملة بينهما ، لا تزال طويلة · ومع ذلك لم يترك قادة اسرائيل فرصة تفوتهم دون اللغو في الكلام عن السلام ، والاسراف في اللغط عن تطلعات اسرائيل الى تسوية شاملة ونهائية للنزاع في المنطقة · بما ينسق مع التراث اليهودي ، وينسجم مع الاعراف الصهيونية · ولم يفتهم في هذا المجال الكلام عن اهمية السلام لانجاز المشروع الصهيوني ، وتثبيت دعائمه ، الى ان جاءت مبادرة السادات ، وما انطوت عليه من تنازلات سعيا لانهاء الصراع في المنطقة، بشكل يضمن لاسرائيل بقاءها وامنها ، ومن اعلان حرب تشرين خاتمة الحروب العربية ـ الاسرائيلية ، فكشفت زيف الكلام الاسرائيلي عن السلام · ثم جاء مؤتمر « كامب ديفيد » ليكشف بدوره زيف كلام السادات عن « التسوية العادلة »، التي طالما تبجح بانه يصر عليها · والذي فعله السادات في « كامب ديفيد » ليس الا اشتراكه في المؤامرة ، الى جانب اسرائيل وامريكا ، على شعوب المنطقة وسلامها ، وخاصة على الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية ، المتمثلة في ثورته·

الواقع ، ان الكيان الصهيوني كان وما يزال ، يرفض التسوية بمعناها الدارج وكما يفهمها الناس العاديون ، متمثلة في المعادلة البسيطة : انسحاب مقابل اعتراف · اي التسوية القائمة ، بشكل او باخر ، على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، وهي لا تتناقض جذريا مع شعار ازالة اثار العدوان ، الذي طرح بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ · والاكيد ، ان مثل هذه التسوية ، ان جازت ، فانها ستكون انجازا ضخما للكيان ، اذ انها ، على الاقل نظريا ، ستحل عقدة الاعتراف بشرعية الكيان ، وتحول القضية من صراع على وجود ، الى نزاع حول طبيعة ذلك الوجود · اي انها تحرف الصراع عن قيام الكيان وتركزه على مقوماته · ومع ذلك فقد رفضت اسرائيل هذه التسوية كما اتضح خلال خمس سنوات من المفاوضات عليها · وفي نظر القيادة الصهيونية ، لا تلبي هذه التسوية الحد الادنى المطلوب للكيان على الصعيد الجغرافي ، كما انها لا تؤمن بالضرورة متطلباته على الصعيدين ، السياسي والامني · وفي مقابل التسوية بمفهومها

الشائع ، طرح قادة الكيان مشاريع متعددة للتسوية ، يحاولون عبرها تحقيق اطماعهم على الصعيد الجغرافي ، كما يصارعون ويناورون ، وقد يلجأون الى القتال احيانا ، كما حدث في الجنوب اللبناني ، اذار (مارس) ١٩٧٨ ، في سبيل انجاز المهمة الموكلة اليهم في المنطقة · وعبر المشاريع الاسرائيلية للتسوية، يسعى قادة الكيانلضمان مقوماته ، سواء ما يتعلق منها بمهماته في المنطقة ، ام بالعلاقات الاقتصادية والسياسية مع الدول العربية ، ام بالعلاقة مع البلد الام : مساعدات اقتصادية وعسكرية ، ودعم سياسي ومعاهدات ··· الخ · وعندما يطلع المؤتمرون في « كامب ديفيد » ، ويعلنون انهم قد توصلوا الى اتفاق حول الخطوط العريضة لتسوية شاملة في المنطقة ، فالاكيد ان هذه الخطوط لا تتطابق مع خطوط التسوية بمفهومها الشائع ، وانما تتقاطع معها · وربما كان في كلام بيغن ، الذي زفه نائبه ، يغئال يادين ، لينقله بدوره الى المستوطنين في اسرائيل ، اكبر دليل على أن ما تم الاتفاق عليه في « كامب ديفيد » ، لا يمت بصلة الى التسوية التي كان يدور الكلام عنها ، اذ قال : « لقد حصلت المعجزة، وحصلنا بفضلها على السلام والارض معا ·

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ ، اصر مجلس الامن بالاجماع ، قراره رقم ٢٤٢ ، الذي يدعو الى انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية التي احتلتها في الحرب · وقبلت اسرائيل القرار شكلا ، ولكنها رفضت الالتزام بتنفيذه فعلا، متذرعة بانه لا يلزمها بالانسحاب الكامل · وعلى اي حال ، فقد كان تصرفها بعد الحرب ، يفضح بشكل صارخ قبولها اللفظي للقرار · ولم تمض فترةقصيرة على القرار ، حتى كشفت اسرائيل عن سياستها ازاء المناطق المحتلة ، والقائمة على مبدأ التوسع والضم الزاحف · وكان الخلاف بين اطراف المؤسسة الحاكمة في اسرائيل ، ينحصر في حجم الاراضي الواجب ضمها ، انطلاقا من اعتبارات تتعلق بالطابع الديمغرافي (السكاني) لاسرائيل · ففي تلك الحرب ، احتلت اسرائيل ارضا تفوق مساحتها هي باربعة اضعاف · وكذلك ، وصل عدد العرب الفلسطينيين الواقعين تحت احتلالها الى المليون ونصف المليون تقريبا · ومن جهة اخرى ، لم تحدث هجرة واسعة الى اسرائيل ، تلبي متطلبات الاستيطان في المناطق التي احتلت حديثا · ومع ذلك كان جمهور المستوطنين الصهاينة ، باغلبيته ، يدعم اكثر اطراف المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة تصلبا ، خصوصا في مسألة الانسحاب · وبرز في اسرائيل بقوة تيار « ارض ـ اسرائيل الكاملة»، الذي دعا الى ضم جميع المناطق المحتلة ، ورفع شعار عدم الانسحاب « حتى ولا من شبر واحد » · وانضوى تحت لوائه العديد من الاحزاب اليمينية والدينية ، وعدد غير قليل من حزب العمل الحاكم ايضا · وراحت اسرائيل بعد الحرب ، توسع استيطانها ليشمل الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة ، وحتى سيناء · كما بدأت تخطط لالحاق تلك المناطق بالاقتصاد الاسرائيلي ، وشرعت منذ البداية

باستغلال طاقة العمل المتوفرة فيها · ومن موقع الشعور بالقوة ، والطمانينة اليها كرادع لدول المواجهة العربية ، والمبالغة في تقدير القوة الذاتية ، والحجم الحقيقي لها ، ناهيك بالاستخفاف بالهيئات الدولية وقراراتها ، انتهجت اسرائيل سياسة ، جعلت التسوية بعد حرب حزيران (يونيو) ، امرا مستحيلا · وذلك رغم ان العرب اكتفوا بعد تلك الحرب بطرح شعار ازالة اثار العدوان ، والذي يتفق وقبولهم بالقرار ٢٤٢ · ولكن مع ذلك ، واستباقا لامكان ان تطرح اطراف او هيئات دولية مشاريع للتسوية من عندها ، وانطلاقا من ان نتائج الحرب تتيح لاسرائيل مجالا لانجاز تسوية تلبي اطماعها التوسعية ، وتنتزع من العرب الاعتراف بها ، بشروط تمليها هي ، فقد طرحت في اسرائيل عدة مشاريع للتسوية ، كان اولها « مشروع آلون » ، القائم على مبدأ « الحل الوسط الاقليمي» والذي تقدم به صاحبه في تموز (يوليو) ١٩٦٧ ، قبل انقضاء شهر على وقف اطلاق النار في حرب حزيران ·

مشروع آلون : الحد الاقصى من الارض بالعدد الادنى من الفلسطينيين

ينتمي الون الى مدرسة فكرية صهيونية ، تقدم « وحدانية الشعب » على « تكامل الارض » ، وتدعو الى الحفاظ على مبدأ « يهودية الدولة » ، حتى ولو كان ذلك على حساب المبدأ الصهيوني الداعي الى تكامل « ارض ـ اسرائيل »· ومن هنا ، جاء مشروعه في جوهره ، قائما على ضم اكبر مساحة ممكنة من الارض ، بحجة الضرورات الامنية ، واقل عدد ممكن من السكان العرب ، حرصا على « النقاء العنصري » للدولة اليهودية · وهو اذ ينطلق من مبدأ حق « الشعب اليهودي التاريخي » في استيطان « ارض ـ اسرائيل » ، يأخذ بعين الاعتبار المشكلات الديمغرافية التي تترتب على ذلك · وفي حين يدعو الى التوسع الاستيطاني ، بذريعة حاجة اسرائيل الى « حدود قابلة للدفاع عنها » ، يريد المحافظة على الطابع اليهودي السائد للكيان · والى جانب هذا وذاك ، يأخذ الون في حسابه الواقع الدولي والعربي ، وامكان ان يلقى مشروعه قبولا ما · وفي الجولان يريد الون الاحتفاظ بالهضبة ، التي تؤمن السيطرة على منابع نهر الاردن ، وتعزز امن المستوطنات اليهودية في الشمال · اما الباقي ، فيرى الون اعادته الى سوريا ، بعد الاتفاق على تجريده من السلاح · وفي سيناء يريد الون ضم شريط ، يتسع احيانا ويضيق اخرى ، بمحاذاة الحدود الدولية بين مصر وفلسطين ، ويمتد من العريش الى محاذاة ايلات ، ثم بموازاة شاطيء خليج العقبة الى شرم الشيخ · ويعيد ما تبقى من شبه الجزيرة الى مصر ، بعد ضمان تجريده من السلاح · وفي فلسطين ، يدعو الون الى ضم جزء كبير من الاراضي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، خصوصا غير الاهلة بالعرب بكثافة، بما في ذلك القدس ، التي ستبقى موحدة ، عاصمة لاسرائيل · وتعاد الى

الدولة الاردنية ـ الفلسطينية ، كما يسميها ، التجمعات السكانية العربية · في الضفة والقطاع · وهو ، بطبيعة الحال ، يرفض قيام دولة فلسطينية مستقلة ، كما يرفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية او منح الشعب الفلسطيني حق تقرير المصير ، ويغلف حله للقضية الفلسطينية بكلام منمق ، كالادارة الذاتية ، والتعبير عن الهوية في الجزء الشرقي من « فلسطين التاريخية » ، والذي سيصبح دولة اردنية ـ فلسطينية · وعلى هذا الاساس ، يريد الون عقد سلام شامل وكامل ، ربما على مراحل ، مع الدول العربية ، بما فيه اقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية ··· الخ ·

ورغم ان الون قدم مشروعه لحكومة اشكول لمناقشته ، بعد شهر واحد على وقف اطلاق النار في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، الا ان تلك الحكومة لم تبحث في المشروع بشكل رسمي ، ولم تقره او ترفضه ، وكذلك فعلت حكومات لاحقة ، شارك فيها الون جميعا ، وبمناصب مختلفة · ومع ذلك ظل مشروعه بمثابة « المخطط الهيكلي » الفعلي للاستيطان في المناطق المحتلة ، خصوصا في الضفة الغربية ، حتى وصول بيغن الى الحكم ، في ايار (مايو) ١٩٧٧ · وكان من اهم اسباب ارجاء الحكومة الاسرائيلية البحث في « مشروع الون » لدى تقديمه ، كونها في حينه حكومة « ائتلاف وطني » ، تضم جميع الاحزاب الصهيونية ، وهي الحكومة التي تشكلت عشية حرب حزيران ، ومن اجلها · وكان واضحا ان مناقشة المشروع ستؤدي · بالضرورة ، الى تفجير الخلافات داخل تلك الحكومة ، وبالتالي الى حلها · ومنذ ان قدم مشروعه ، ظل الون يعمل في الحكومات التي شارك فيها ، وهي الحكومات التي ترأسها على التوالي اشكول ، ومئير ، ورابين ، من اجل تبني مشروعه كموقف لاسرائيل ، سواء للمفاوضات ام للاعلام ، ام للرد على مشاريع مطروحة من خارج اسرائيل ، ولكن دون جدوى ·

وخلافا لرأي الاكثرية في الحكومات التي شارك فيها ، رأى الون ضرورة ان تمتلك اسرائيل مشروعا للتسوية ، تطرحه في المحافل الدولية وعلى الدول العربية ، كأساس للمفاوضات وقد ذهب الون الى ذلك ، انطلاقا من قناعة ذاتية بملاءمة الظرف السياسي لخطوة كهذه ، واستباقا لامكان ان تطرح اطراف معينة ، خارج اسرائيل ، مشاريع للتسوية ، قد لا تتفق ونوايا الاخيرة ، مما قد تضطرها الى الرفض ، والظهور بمظهر المتصلب امام الرأي العام العالمي ، وهذا في اعتقاده ، ليس في مصلحة اسرائيل ، خصوصا اذا صدر مثل هذه المشاريع عن الولايات المتحدة · واعتقد الون أن الدول العربية ، وما ظنه احاق بها من ارتباك بعد الهزيمة ، ستكون اكثر طواعية لقبول الاملاءات الاسرائيلية· وكذلك فقد توقع ان اتفاقا مع دول المواجهة العربية ، يضمن تسوية ما للقضية الفلسطينية ، سيقطع الطريق على تنامي الحركة الوطنية الفلسطينية · وتولدت

لديه قناعة بان اسرائيل ، من موقع القوة التي تتمتع بها في اعقاب النصر الباهر ، سيسهل عليها تحقيق اهدافها الاستراتيجية بالنسبة الى ضمان امن الكيان ومقوماته ٠ وعلى اي حال ، فقد احس آلون بان هناك فرصة تاريخية لتثبيت اركان الدولة اليهودية ، وانتزاع الاعتراف العربي بها ، فنادى بالاسراع الى انتهازها وعدم تفويتها ٠

وحتى سنة ١٩٧٣ ، حين بلور حزب العمل ، بعد مناقشات شاملة ومستفيضة مشروعا عرف باسم « وثيقة غليلي » ، ظل آلون الوحيد بين زعماء حزب العمل، الذي يملك تصورا شاملا للتسوية ، والذي يطرح مشروعا مبلورا للتفاوض بشأنها ٠ وحتى بعد ان وضع حزب العمل « وثيقة غليلي » ، واتبعها ب « وثيقة المبادىء الاربعة عشر الموجهة » ، وذلك بعد حرب تشرين اول (اكتوبر) ١٩٧٣، ظل حزب العمل ، لاسباب سياسية ، داخلية وخارجية ، يتحاشى الالتزام بمشروع مفصل ، او بخريطة للتسوية ٠ وخلال فترة طويلة ، استكانت قيادة الحزب الحاكم الى قرار اللاقرار ٠ ووجدت فيه مخرجا لها من ازمة العلاقات المتوترة بين اجنحتها ، وفي الوقت ذاته ، ذريعة للابتزاز ، سواء من امريكا ام من العرب، برفض اعلان موقف صريح قبل دخول الدول العربية المعنية في مفاوضات مباشرة مع اسرائيل ٠ ولكن ذلك لا يعني ان زعماء حزب العمل ، او بعضهم على الاقل، لم يكن لهم موقف ، او مواقف ، من مسألة المناطق والحدود والتسوية ٠ وتفاوتت تلك المواقف في قربها او بعدها من مشروع آلون ، الا ان الموقف العام لقيادة حزب العمل ظل يحوم حول مقولة « الحل الاقليمي الوسط » ، على جميع الجبهات ، دون العودة الى حدود ما قبل حرب حزيران ، ودون القبول بقيام دولة فلسطينية ٠

دايان : شرم الشيخ دون سلام ، خير من سلام دون شرم الشيخ

ظل موشيه دايان خلال فترة انتسابه الى حزب العمل ، سواء في الحكومة ام خارجها ، ابرز المعارضين لمشروع آلون ، يؤيده في ذلك ، دون البروز العلني ، الوزير يسرائيل غليلي ، الذي عرف بقربه من رئيسة الحكومة انذاك ، غولده مئير ٠ اما شمعون بيرس ، ويتسحاق رابين ، فقد اتخذا موقفا وسطا بين هذين، مع اختلاف فيما بينهما ، على مفهوم التسوية وشروطها ٠ وكان موقف ابا ايبن الاقرب الى مشروع الون ، في حين دعا بنحاس سابير الى اعادة جميع المناطق المحتلة لقاء تسوية شاملة ٠ وكان دايان يرفض بشدة ، فكرة الانسحاب من الضفة والقطاع ، مهما كان المقابل ٠ وهو صاحب شعار « شرم الشيخ بدون سلام ، خير من سلام بدون شرم الشيخ » ٠ وفي الجولان ، دعا دايان الى مضاعفة الاستيطان ، وعدم التنازل عنه ، واذا جرت مفاوضات مع سوريا ،

فيجب ان تكون في شأن سواها · ومع ان دايان لم يترك صغيـــرة او كبيرة ، تتعلق بالمناطق المحتلة او التسوية ، تمر دون اتخاذ موقـــف منهـا ، وكانـت مواقفه متناقضة احيانا ، يلعب فيها العامل الشخصي دورا كبيرا ، الا انه لم يبلور ، طوال بقائه في حزب العمل ، مشروعا متكاملا للتسوية كما يريدهـا · وبعد الانتخابات الى الكنيست التاسع ، ايار (مايو) ١٩٧٧ ، انسلخ دايان عن حزب العمل ، والتحق بحزب ليكود الحاكم ، حيث تولى منصب وزير الخارجية في حكومة بيغن · وبحكم موقعه في هذه الحكومة ، يصبـــح شريكا لمشروع التسوية الذي تقدم به بيغن ، في لقاء القمة في الاسماعيلية ، وهو المشروع الذي لا تزال اسرائيل تفاوض على ارضيته ، مع تعديلات طفيفة ، ادخلت في « كامب ديفيـد » ·

بيغن : الارض اولا

على العكس من الون ، ينطلق بيغن في مشروعه ، من المبدأ الصهيونـــي القاضي بتكامل « ارض ـ اسرائيل » ، تاركا انجاز مسألة « وحدانية الشعب » الى مرحلة مستقبلية · فالارض في نظره هي العنصر الثابت ، اما الســـكان العرب عليها ، فهم عامل متغير ، والمهم امتلاك القوة السياسية والعســـكرية لفرض ذلك · ويرى بيغن ان الظروف مهيأة لضم المناطق المحتلة ، ويســـعى لاستغلالها · وعندما يتكلم عن الحل الوسط الاقليمي فانما يعني بذلك سيناء ، وربما الجولان ، الا انه يصر على عدم الانسحاب من الاراضي التي كانت تشكل فلسطين في عهد الانتداب · وبها يختلف بيغن عن قيادة حزب العمل ، التـــي طرحت ، بصورة اخرى ، الحل الوسط الاقليمي على الجبهات الثلاث ، لاعتبار الظرف السياســـي والمســألة الديمغرافية · امـــا موقف الطرفين من الدولـــة الفلسطينية ، وكذلك مفهوم التسوية والجسور المفتوحة ، فيكاد يكون متطابقا ·

ومشروع بيغن يترك ، ضمن الحدود التي يراها ، ثلاثة جيوب عربية كبيرة · وهو يتحدث عن منح اثنين منها ادارة محلية ذاتية ، وهما الضفة الغربيـــة وقطاع غزة ، من دون الجليل · وما دام المشروع يرمي الى ضم هذه الجيوب ، فان تطويقها وحصرها يصبحان ضرورة امنية حيوية وملحة · فالضفة الغربية، التي يعيش فيها نحو سبعمائة الف فلسطيني ، مطوقة بالاستيطان الصهيوني ، قبل سنة ١٩٦٧ ، من جهات ثلاث : الشمال والغرب والجنوب · ولذلك ، عمدت اسرائيل ، بعد الاحتلال الى اكمال الطوق عليها في غور الاردن ، وعلى امتداد النهر · ومن هنا تصر اسرائيل على ان يكون نهر الاردن حدها الامني · هذا بالاضافة الى اختراق الضفة الغربية وبترها ، عن طريق الاستيطان ، لتفتيت بنائها الاقتصادي والاجتماعي ، وبالتالي السياسي ، بعد عزلها عن التوجه نحو

العالم العربي ، وقطع صلة الثورة الفلسطينية بها ، سياسيا وعسكريا ٠ وفي قطاع غزة اربعمائة الف من الفلسطينيين تقريبا ، وهو مطوق من الشمال والشرق ، والى الغرب منه البحر ، ولاكمال الطوق من حوله ، بنت اسرائيل المستوطنات في مشارف رفح ، وظلت تؤكد اهميتها الامنية ، وبالتالي ضرورة ضمها ، الى ان تم الاتفاق على الانسحاب منها في « كامب ديفيد » ٠ اما الجليل ، فان احكام الطوق عليه يتم عبر النشاط الصهيوني في الجنوب اللبناني ، والذي كان الاجتياح الاسرائيلي له في اذار (مارس) ١٩٧٨ ، اخر مظاهره ٠

وبالاضافة الى ذلك ، يتحدث مشروع بيغن عن ضرورة احتفاظ اسرائيل ، ولضرورات امنية ، بثلاثة مطارات شرقي سيناء : احدهما في مشارف رفح (ايتام) ، والثاني غربي ايلات (عتسيون) ، والثالث في شرم الشيخ (اوفيرا) ٠ وبذلك تنوي اسرائيل ضم شريط في سيناء ، يمتد على طول الحدود الدولية بين فلسطين ومصر ، من العريش الى ايلات ، ويسير بمحاذاة شاطىء خليج العقبة الى رأس محمد ، على البحر الاحمر ٠ ومع ذلك فان اسرائيل تدعي الاعتراف بالسيادة المصرية على سيناء ، ومع الزمن ، ستعيد هذه الاراضي الى مصر ، على ان تبقى مجردة من السلاح ، وعلى الا يعبر الجيش المصري خط ممري متلا والجدي ، في غربي سيناء ٠ ومشروع بيغن لا يتعرض للجولان ، ومن الواضح ان مخططه التوسعي يضم الجولان ، او الهضبة على اقل تقدير ، لتأمين السيطرة على منابع نهر الاردن ، ولحماية المستوطنات اليهودية في الحولة والجليل ٠ هذا بالاضافة الى اصراره على ان تتضمن التسوية الشاملة مع دول المواجهة العربية ، علاقات واقتصادية ٠٠٠ الخ ٠ وعلى اساس هذا المشروع فاوض بيغن السادات ، وعلى اساسه اختلف معه ، وأوصل المفاوضات الى حافة الانهيار ٠ ثم عادا واتفقا ، بعد ادخال بعض التعديلات على مشروع بيغن ، تتعلق اصلا بالسيادة المصرية على جميع سيناء ، في « كامب ديفيد » ، ولكن سرعان ما عادا واختلفا ، وعاد بيغن يهدد بسحب مشروعه والمطالبة باجراء تعديلات جذرية على الحدود الدولية مع مصر ٠

الادارة الذاتية بانتوستان مرحلي الى ان تتم تصفيته

لم يكن بيغن اول من طرح الادارة الذاتية لسكان المناطق المحتلة في اسرائيل٠ فالون مثلا ، طرح الفكرة بعد حرب حزيران مباشرة ، في مشروعه الذي لم يحظ بدراسة جدية من قبل حكومته ، ولم تتبناه بصورة رسمية اية حكومة اسرائيلية بعد ٠ وقد اثار طرحها من قبل حكومة رابين ، في نهاية عام ١٩٧٥ ،

اهتماما واسعا ٠ فكانت هناك ردود فعل قوية عليه من الاطراف المعنية ، كما اولته الصحف الاسرائيلية عناية كبيرة في تعليقاتها وتحليلاتها ٠ وفي تلك الصحف كان شبه اجماع على مسألتين : اولا ، ان الفكرة جاءت متأخرة ، وانها ربما كانت ستلقى نجاحا لو انها طرحت بعد الاحتلال مباشرة ٠ ثانيا ، انها تلاقي معارضة شديدة من قبل سكان المناطق ، وحتى من قبل الزعامة التي تراهن عليها سلطات الاحتلال لتجسيد الفكرة ٠ وأوحى العديد من تلك الصحف ان الهدف من مشروع الادارة الذاتية هو تشجيع قيام زعامة محلية في المناطق المحتلة ، تصبح مع الوقت ممثلا شرعيا للشعب الفلسطيني هناك ، بدلا من منظمة التحرير ، ويمكن من خلالها انجاز تسوية ما ، تمكن من استمرار نمط العلاقة القائمة في حينه بين سلطات الاحتلال وسكان المناطق ٠
وقد برز هذا التفكير في اقامة ادارة ذاتية في الضفة والقطاع ، بعد قرارات الرباط ورفع يد الاردن عن ذلك المناطق ، فجاء الطرح الاسرائيلي على هذه الخلفية ، موجها في الاساس ضد قرارات الرباط ، وليس تحركا جديا لمنح السكان حكما ذاتيا ٠ فما دام الاردن لم يعد مرشحا ليكون شريكا في المفاوضات على مستقبل الضفة والقطاع ، واسرائيل لن تتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ، او تقبل بها شريكا في حل قضية المناطق المحتلة ، لم يبق امام حكومة اسرائيل للمناورة سوى اعلان رغبتها في منح سكان المناطق حكما ذاتيا ، يخرجهم من وصاية الاردن ، ويقطع الطريق على احتلال منظمة التحرير محله ٠

وعندما طرح مشروع الادارة الذاتية ، ايام ولاية رابين (١٩٧٥) ، كانت الثورة الفلسطينية تخوض معركة مصيرية في لبنان ، في مواجهة مؤامرة تستهدف ، اولا وقبل كل شيء كسر شوكة هذه الثورة ، وتطويع منظمة التحرير ، ودفعها الى هامش النشاط السياسي في المنطقة ، بعد ان احرزت مكتسبات سياسية كبيرة ، في الرباط والامم المتحدة ٠ وقد جاء طرح المشروع بعد انجاز اتفاقية سيناء ، وتعثر المفاوضات على تسوية مرحلية موازية في الجولان ، واشتداد الخلاف بين سوريا ومنظمة التحرير من جهة ، وبين مصر من الاخرى ٠ وكل ذلك ، بعد ان انتزعت المنظمة قرارات الرباط والامم المتحدة ، واستمر بروزها على الصعيد السياسي ، واتسع نطاق الاعتراف الدولي بها ، مما انعكس في ترسيخ تمثيلها للشعب الفلسطيني ، والتفاف هذا الشعب حولها ، وفي المناطق المحتلة بالذات ٠ وقد حمل كثيرون في اسرائيل حكومة رابين ، مسؤولية بروز المنظمة كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ٠ وبدا للكثيرين ان القيادة الاسرائيلية ، بزعامة رابين ، مرتبكة في تعاملها مع الموضوع الفلسطيني ٠ فلا هي قادرة على شطبه من المعادلة السياسية ، وبالتالي من الخريطة الجغرافية ، ولا هي اثبتت جديتها في قطع الطريق على

منظمة التحرير ، بالتوصل الى حل مع الاردن · وفي نفس الوقت لم تعمل على ايجاد قيادات بديلة في الضفة والقطاع ورعايتها · هذا ولا تنفك تعلن رفضها الاعتراف بمنظمة التحرير والدخول معها في مفاوضات للتسوية · وعلى ارضية هذا الارتباك ، وبهدف الخروج من مأزقها الداخلي ، الذي حال دون امكان اتخاذها قرارا بشأن الضفة والقطاع ، ومواجهة الضغوط الخارجية لاستمرار التحرك في مسار التسوية ، نظرا لان منظمة التحرير تستغل تعرقل التسوية لتثبيت مواقعها ، طرح وزير الدفاع الاسرائيلي آنذاك ، شمعون بيرس ، فكرة الادارة الذاتية ، عام ١٩٧٥ · وبذلك لم تكن هذه في حينه الا مناورة للرد على قرارات الرباط ، اذ ان الموقف الثابت لحزب العمل ، كان « الحل الوسط الاقليمي » على الجبهات الثلاث ، والذي ترجمته العملية اعادة المناطق المأهولة بكثافة سكانية عربية ، في الضفة والقطاع ، الى الاردن ، ضمن اتفاق تسوية شامل معه · ولا يزال هذا موقفه الى اليوم ، انطلاقا من مبدأ الحفاظ على « يهودية الدولة » ، ودرءا لامكان قيام دولة فلسطينية مستقلة بين اسرائيل والاردن ·

وفي اطار مفاوضات التسوية ، خاصة بعد مبادرة السادات ، واجهت حكومة بيغن نفس المشكلة ازاء المسألة الفلسطينية · فهي كما ذكرنا ، لا تعترف بمنظمة التحرير ، وتصر على عدم التعامل معها ، بأي شكل كان · وهي كذلك ، تنطلق في مشروعها للتسوية من مبدأ الاحتفاظ بالارض ، وعدم اخلائها لصالح اي طرف كان ، بما في ذلك الاردن · وقد اعلن بيغن موقفه هذا مرارا ، كما سبق لدايان وجاهر به ، عندما كان في السلطة وكذلك خارجها ، مؤكدا على ضرورة الا تنسحب اسرائيل من الضفة والقطاع · ولكن مثل هذا المشروع يبقي ، ولو مرحليا ، ثلاثة جيوب عربية كبيرة داخل الحدود المطروحة للكيان · وهو بطبيعة الحال ، يخلق ازمة ديمغرافية ، تتعلق بأحد اهم المبادىء الصهيونية — يهودية الدولة · وحاليا على الاقل ، لا مجال لطرد هؤلاء السكان العرب ، خاصة وان المفاوضات على التسوية جارية ، والكيان لا يغص بالمستوطنين ، ولا هو محط انظار موجات المهاجرين اليهود · لذلك ، يبقى اهون الشرور ، من وجهة نظر بيغن ، الحل المرحلي المتمثل في الادارة الذاتية ، وهو ما كان دايان يدعو اليه دائما ، وربما كان احد الاسباب الرئيسية في اختيار بيغن له وزيرا للخارجية ·

الواقع ان بيغن لا يريد لأي طرف عربي سيادة سياسية غربي النهر · وليس طرحه للادارة الذاتية الا من هذا القبيل · وهو يرى فيه امكان التمويه على حقيقة نيته في ضم المناطق المحتلة ، على الاقل خلال فترة المفاوضات · اما هدفه البعيد المدى ، فهو بسط السيادة الاسرائيلية على تلك المناطق ، والتخلص من سكانها بطريقة او بأخرى · وفي « كامب ديفيد » حصل بيغن على جزء كبير مما يريده من السادات على هذا الصعيد · فبعد ان رفض السادات مشروع

بيغن في البداية ، واعلن اكثر من مرة ، اصراره على انسحاب اسرائيل من الضفة والقطاع ، بما فيها القدس الشرقية ، وان هذا الامر يأخذ اولوية على مسألة سيناء ، مما ادى الى عرقلة المفاوضات بعد المبادرة ، كما في جميع المؤتمرات اللاحقة ، عاد السادات وقبل بمشروع بيغن للادارة الذاتية ، بدلا من الدولة الفلسطينية ، التي ظل ينادي بضرورة قيامها • وبعد « كامب ديفيد » ، عاد الخلاف واندلع بين الطرفين حول قضية تنفيذ الادارة الذاتية ، وربط ذلك بالاتفاق على معاهدة السلام مع مصر • والواضح ان بيغن لن يقبل بذلك ، لانه لم يكن ينوي تنفيذ المشروع كما فهمه السادات اصلا •

قيام الدولة الفلسطينية يحول دون امكان انجاز المشروع الصهيوني

منذ ان دخلت اسرائيل في مفاوضات التسوية ، والى ان حققت نجاحها الاكبر في « كامب ديفيد » ، ظل موقفها من مسألة « الدولة الفلسطينية » ، ثابتا لا يتزحزح • فهي انطلاقا من الموقف الصهيوني التقليدي ازاء الشعب الفلسطيني ، القائم على مبدأ تشريده وتذويبه ، ليتسنى للكيان تأمين قاعدة عدوانه ، رفضت ، وبصورة قاطعة ، البحث في امكان حل « القضية الفلسطينية » عن طريق اقامة دولة فلسطينية • واصرت على موقفها هذا ، حتى نجحت في تثبيته في اتفاقات « كامب ديفيد » • وقد وعى قادة الكيان معنى قيام دولة فلسطينية ، بغض النظر عن طبيعة الحكم فيها ، وابعاد ذلك على استكمال المشروع الصهيوني في المستقبل • وبالامكان القول انه ، فيما خلا بعض الفئات الهامشية في الكيان ، والتي لا اثر لها في صنع القرار السياسي ، هناك اجماع لدى القوى السياسية في الكيان ، على رفض اي مشروع ، من شأنه ان يعطي الفلسطينيين فرصة اقامة كيان سياسي مستقل • وسواء انطلق المشروع الاسرائيلي للتسوية ، من مبدأ « الحل الوسط الاقليمي » ، وهو ما يتبناه حزب العمل المعارض ، ام من مبدأ « ارض ـ اسرائيل الكاملة » ، الذي يتبناه حزب ليكود الحاكم ، يبقى القاسم المشترك لهذه المشاريع ، على الاختلافات التفصيلية بينها ، اذا جاز لها ان تمر وتؤدي الى تسوية ، انطلاقها جميعا من مبادىء صهيونية ، تهدف في الاساس الى انجاز مرحلة اخرى على طريق استكمال المشروع الصهيوني • وفي كلتا الحالتين ، سيكون قيام دولة فلسطينية مستقلة حائلا دون امكان تحقيق الهدف النهائي ـ دولة يهودية على ارض ـ اسرائيل الكاملة • ومن هنا قال اصحاب « الحل الوسط الاقليمي » بضرورة اعادة التجمعات السكانية العربية في الضفة والقطاع ، مرحليا ، الى الاردن ، ضمن اتفاقية تسوية ، تضمن بقاء الجسور مفتوحة ، للبضائع والناس على حد سواء ، واستمرار الهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية ، من خلال حق الاستيطان في تلك المناطق ، والاقرار بأن نهر الاردن هو الحد الامني

لاسرائيل ، والحاق الاقتصاد في تلك المناطق بالاقتصاد الاسرائيلي · وهذا يمهد الطريق لاستكمال المشروع في المستقبل ، عن طريق تهويد الارض ، واخلائها بشكل او بآخر ، من سكانها العرب · اما اصحاب مذهب « ارض ـ اسرائيل الكاملة » ، فهم يرون الحل عن طريق وضع اليد اليهودية على الارض ، وتحويل التجمعات السكانية العربية الى بانتوستانات ، تحت غطاء الادارة الذاتية ، على ان يتم تهجيرهم ، بشكل او بآخر ، في المستقبل · وعلى رغم الخلاف التكتيكي بين جناحي الاحزاب الصهيونية ، يبقى هدفهما الاستراتيجي واحدا ، وهو في جوهره يتناقض مع قيام دولة فلسطينية · ومن هنا ، كان هذا الموضوع غير قابل للنقاش من جانب قيادة الكيان ، فيما ابدى هؤلاء ، وفقا لمراحل المفاوضات ، مرونة اكثر بالنسبة الى باقي المواضيع المطروحة في اطار التسوية · فبالنسبة الى الموضوع الفلسطيني ، كان الموقف الاسرائيلي صهيونيا ، ينطلق من مبدأ عدم قطع الطريق على استكمال المشروع الصهيوني في المستقبل · اما فيما يتعلق بباقي المناطق المحتلة ، فكانت القيادة الاسرائيلية ، ولا تزال ، ترى فيها اوراق مساومة ·

ورغم موقف اسرائيل الواضح من مسألة الدولة الفلسطينية ، ورغم تصريحات قيادتها القاطعة في هذا الشأن ، فقد اعتبر البعض ، اذا افترضنا حسن النية ، ان موقف اسرائيل هذا انما هو للمساومة ، ولن يلبث ان يتبدل عندما يلوح الفلسطينيون للكيان بالاعتراف · وعندما لم يترك قادة اسرائيل مجالا للشك بأنهم يعنون ما يقولون ، وانهم في غنى عن هذا الاعتراف ، اذا كان مشروطا بمبدأ التبادل ، برز الرهان على أن ضغط هذه الدولة او تلك ، ضمن مسار التسوية ، سيفرض على اسرائيل الرضوخ ، والقبول بما يعتبره العالم حلا عادلا للنزاع في الشرق الاوسط ، والذي يتضمن اقامة دولة للفلسطينيين ، اسوة بغيرهم من شعوب المنطقة · ولتعزيز مصداقية هذا الرهان، كثر الكلام عن قوة العرب ، وعن فاعليتهم من خلال نفطهم وتضامنهم ··· الخ · وعلى ارضية التسوية ، بمسارها المعهود ، وتحت تأثير هذا الحدث او ذاك ، او بواسطة هذه الدولة او تلك ، او بفعل نشاط هذا التيار او ذاك ، اقحمت منظمة التحرير الفلسطينية في التسوية ، وانقسمت تنظيماتها الى « رافض » و « قابل » ، دونما واقع ملموس لذلك · وغني عن البيان ما ترتب على ذلك من توتر داخل المنظمة ، ومن هدر للطاقات في غير مكانها · الى ان جاء مؤتمر « كامب ديفيد » ، فحسم المسألة ، وأظهر ان الرهان على امريكا ، وعلى « عرب امريكا » ، لم يكن موفقا جدا · ففي « كامب ديفيد » ، تنكر السادات لجميع التعهدات التي قطعها على نفسه ازاء الفلسطينيين ومسألتهم ، وخذل انصاره ، ممن شجعوه على المضي في طريقه ، وخيب آمال من تطلع الى الفرج على يديه · اما أسرائيل ، فانها عندما شعرت ببعض الليونة في كلام واشنطن ،

واستشفت امكان تعديل موقفها ، تحت ضغط لوبي النفـط العـربي ، فتحـت معركتها مع الادارة الاميركية ، ووضعت الامور بشكل لا لبس فيه : فاما نحن واما السعودية · وحسمت امريكا لصالح السعودية في صفقة الاسلحة المثلثة الجوانب ، كي تمول هذه الصفقة بأكملها . ولصالح اسرائيل في المســألة الفلسطينية ، كما جرى في « كامب ديفيد » · وقبل السادات بذلك ، فدخـل شريكا صغيرا في الحلف الجديد ، واخذ تعهدا باستعادة السيادة على سيناء ، مقابل تنازله عن القضية الفلسطينية ، وانضمامه الى جانب اسرائيل ضــد وحدة الشعب الفلسطيني ، ووحدة نضاله ومصيره · ففي « كامب ديفيـد » ، وبغض النظر عن الكلام المنمق ، الذي يصدر عن اطراف ذلك المؤتمر ، انتزع بيغن موافقة المؤتمرين على مشروعه للضفة الغربية وقطاع غزة ، وهذا الاساس في نظره ، مقابل التنازل للسادات عن سيناء ، وهي التي كانت ورقة مساومة منذ البداية · وبعد « كامب ديفيد » ، عندما أحس بيغن بأن السادات ينـوي احتلال مكان الاردن ومنظمة التحرير في حل القضية الفلسطينية ، عن طريق ربط التوقيع على معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ، بتنفيذ مشروع الادارة الذاتية ، رفض ذلك وقطع المفاوضات ·

اتفاقات « كامب ديفيد » نواة « حلف بغداد » جديد

شبهه البعض بـ « مؤتمر يالطا » للشرق الاوسط ، ووصفه اخرون بـ « كوليس صفقة الخيانة » للقضية الفلسطينية ، وقال غيرهم ان « كامب ديفيد » هذا ، هو طريق العودة الى « حلف بغداد » مجددا · انعقد في ٧٨/٩/٥ ، وانتهى في ٧٨/٩/١٨ · اثنا عشر يوما بلياليها ، دأب المؤتمرون فيه على حياكة المؤامرة · وانتهى هؤلاء الى اعلان وثيقتين ، مع الاشارة الى بضع وثائق اخرى ، ستبقى سرية · اما الوثيقتان المعلنتان ، فترسم احداهما الخطوط العريضة لـ « حل النزاع في المنطقة » ، وسميت « اطارا للسلام في الشرق الاوسط » ، وتفصل الثانية شروط التسوية المنفردة ، وسميت « اطارا لمعاهدة سلام بين اسرائيل ومصر » · وستنجز الاتفاقية الثانية خلال ثلاثة اشهر ، ليصبـح بامكــان الطرفين التعاون في تنفيذ الاتفاقية الاولى ، خلال فترة زمنية طويلة · وبعـد التوقيع على الاتفاقية الثانية ، تقام بين مصر واسرائيل « علاقات طبيعية » ، دبلوماسية وسواها ، وتعترف اسرائيل بسيادة مصر على سيناء كلها ، على ان يترجم ذلك عمليا بانسحابها منها ، خلال فترة زمنية قد تطول ثلاث سنوات · وفي المرحلة الاولى يتم الانسحاب الى خط في وسط سيناء ، يمتد من العريش الى رأس محمد ، على ان تبقى هذه المنطقة مجردة من السلاح ، وعـلى ان يكون حد تقدم القوات المصرية خط الممرات الى الغرب · وفي نفس الوقت ، يجري العمل على تمهيد الطريق لتنفيذ الاتفاقية الاولى ، بدءا بالضفة الغربية

وقطاع غزة ، ووفقا لمشروع بيغن ، القاضي بعدم انسحاب اسرائيل منهما ، ومنح سكانهما ادارة مدنية ذاتية ، ربما باشتراك الاردن في تحقيق ذلك ٠

وحتى لو تركنا الوثائق السرية جانبا ، فالمعلنة منها تكفي للدلالة على ان مؤتمر « كامب ديفيد » ، لم يكن مؤتمرا للسلام في المنطقة ، ولحل النزاع فيها بصورة عادلة ، كما كانوا يتبجحون ، وانما هو بالاساس ، مؤامرة على شعوب المنطقة العربية وسلامها ٠ وهكذا ، فهو لا يمت بصلة الى التسوية التي كان الناس العاديون يتحدثون عنها ، منذ حرب تشرين ٠ وعلى هذه الشعوب ، وخصوصا قيادات القوى السياسية الوطنية فيها ، ان تعي ذلك جيدا ، وتتصرف على اساسه ، بأقصى درجات الجدية ٠ ونقول ان مؤتمر « كامب ديفيد » هو مؤامرة على سلام شعوب المنطقة ، لانه يتم بالخفاء ، وراء ضباب كثيف للتعتيم على ما يجري فيه ، وبرعاية الولايات المتحدة ، زعيمة المعسكر الامبريالي في العالم ، وبالطبع ، وفقا لمصالحها هي ، وعلى حساب مصالح جماهير الامة العربية ، ولن يتم تنفيذ حلقات المؤامرة الا بالعنف والقهر ٠ وهو مؤامرة لانه ينطلق من الاعتراف بالكيان الصهيوني ، كما هو ، بطبيعته الاستيطانية العدوانية ، وبارتباطه بالامبريالية ٠ بل اكثر من ذلك ، فاتفاقات « كامب ديفيد » تنطلق من تصور تحالف نظام السادات مع اداة العدوان على شعوب المنطقة ، اسرائيل ، لتنفيذ المؤامرة ٠ واسرائيل من موقع قوتها ، لن تشارك في تنفيذ ما يضر بمصالحها ، وانما الواضح ان السادات هو الذي سيقدم خدماته لها ، ليتسنى لها انجاز ما قصرت عنه خلال ثلاثين عاما من قيامها ، وكل ذلك تحت غطاء التسوية ٠ والمؤتمر ، كما هو واضح للجميع ، مؤامرة لتصفية الحركة الوطنية الفلسطينية ، واحباط نضالها بضرب ثورتها ، وتفسيخ الشعب الفلسطيني ، وتفتيت وحدته ، نضالا ومصيرا ٠ ولذلك قبلت به اسرائيل ٠ ولما تراجع السادات عن بعض ما تم الاتفاق عليه ، رفضت اسرائيل ذلك ، واصرت على تنفيذ الاتفاق بنصه وروحه ٠ ومن هنا تعرقل مفاوضات « بلير هاوس » ، وجمودها الراهن ٠

وقد جاء مؤتمر « كامب ديفيد » بنتائجه ، تتويجا لمسار بدأه السادات في حرب تشرين ، وربما قبلها ٠ اما من زاوية نظر الكيان الصهيوني ، فهو محطة اخرى على طريق انجاز المشروع الصهيوني في مرحلته الحالية ، التي بدأت بحرب حزيران ، وما ترتب عليها ٠ ومنذ بدء مفاوضات التسوية ، بعد حرب تشرين ، كان واضحا ان السادات يريد تسوية تتفق واهداف تلك الحرب ، من زاوية نظره ، وبشروط تتناسب وما اعتبره نتائج لها ٠ اما اسرائيل فقد دخلت التسوية ، وفي ذهنها صورة مختلفة لنتائج حرب تشرين ، وارادتها تسوية بشروط تجسد اهدافها من حرب حزيران ، وتتلاءم مع نتائجها الواضحة ٠ وبدا الى حين ، ألا مجال لحسر الثغرة بين المتفاوضين ، وانه لا بد من حرب اخرى

تحسم الامر · وفي « كامب ديفيد » ، حسم الامر سلما ، فخرج بيغن بنصيب الاسد ، محققا بذلك الاهداف الاساسية من حرب حزيران ، وتاركا للسادات نصيب الضبع ، كما يليق به ، على ارضية مفهومه لحرب تشرين ونتائجها · فلقد ارادها هذا حرب تحريك ، رغم ارادة الجماهير العربية ، التي دفعت بأبنائها الى القتال ، فخاضه هؤلاء بكل بسالة ، ووضعوا المستوطنين الصهاينة ، ولاول مرة منذ ١٩٤٨ ، امام السؤال المصيري حول مستقبل وجودهم في المنطقة العربية · الا ان السادات ، استكمالا لمخططه من الحرب ، طلع بمشروع التسوية السلمية ، وباقتراح مؤتمر جنيف ، ليصار الى تحريف الاسئلة المصيرية ، وتحويلها الى اسئلة جغرافية · وبدلا من مواصلة النضال على ارضية ما حققته حرب تشرين ، من اجل دحر العدو ، سياسيا وعسكريا ، بعد ان تم وضعه امام اسئلته المصيرية ، عمد السادات الى التسوية ، والى الارتماء في احضان امريكا ، فانتهى في القدس ، ثم في « كامب ديفيد » · وصارت التسوية مسألة جغرافية تفصيلية ، على الاقل في جانبها المعلن ، تتعلق بعدد الكيلومترات التي سيتم الانسحاب منها · وصار السلام حربا على القوى الوطنية العربية ، بدلا من ان يكون صياغة جديدة للوجود الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ، تطهره من عنصريته ، وتخرجه من انعزاليته الغيتوية ، وتفصم ارتباطاته العضوية بالامبريالية ، وبالاختصار ـ تنهي المسألة الاسرائيلية التي خلقها هذا الوجود بطبيعته الاستيطانية · وصار السلام استسلاما للامبريالية الاميركية ، وترسيخا لنفوذها في المنطقة ، بدلا من أن يكون تحررا من ذلك النفوذ ومظاهره واعوانه ، وتصفية لمصالحه الاستعمارية في العالم العربي ·

ومنذ البداية ، سارت التسوية المطروحة بتنسيق تام وواضح بين اسرائيل وامريكا ، نحو الالتفاف على مؤتمر جنيف ، وباتجاه السير « خطوة ـ خطوة » على طريق الاتفاقات الثنائية · وكان هدف الطرفين من ذلك واضحا : اخراج الاتحاد السوفياتي من مفاوضات التسوية ، والحؤول دون ترسيخ التضامن العربي في اثنائها ، وابعاد منظمة التحرير الفلسطينية عن المشاركة فيها · ومعروف ان فكرة مؤتمر جنيف كانت مصرية في اساسها ، بينما كانت فكرة الحل المرحلي ، على خطوات تجري ثنائيا مع كل دولة عربية على حدة ، هو الخط الاسرائيلي ، الذي طرح حتى قبل الحرب · وسرعان ما تنازل السادات عن مشروعه ، وانضم الى اسرائيل وامريكا في مسار الخطوة ـ خطوة ، بايقاع كيسنجر · ومسار الخطوة ـ خطوة ، يوفر لاسرائيل المدى الزمني الذي كانت تحتاج اليه للخروج من مأزق نتائج حرب تشرين · كما يفسح المجال امام واشنطن لاخراج الاتحاد السوفياتي من اللعبة ، ومن ثم الانفراد بانجاز تسوية على هواها · وتبين فيما بعد ، ان السادات اصبح اكثر الاطراف حماسا لفكرة ابعاد الاتحاد السوفياتي عن مفاوضات التسوية · والتقى هؤلاء جميعا مع

النظام الاردني في تأييد التسوية المرحلية ، بينما بقي الاتحاد السوفياتي يعارض هذا الخط ، ويدعو الى عقد مؤتمر جنيف ، ومعه من المشاركين اصلا في المؤتمر ، سوريا فقط · وهكذا بدأ العمل بنجاح على تفتيت القوى العربية ، وعلى تصديع صفها ، الذي تكون بصورته الهشة في حرب تشرين · وفي « كامب ديفيد » ، مرورا باتفاقية سيناء ، ومبادرة السادات بزيارة القدس ، قدم السادات ، لامريكا واسرائيل ، ما ارادتاه من التسوية على هذا الصعيد ·

وبعد ان اصبح السادات في قفص كيسنجر ، صارت له مصلحة واضحة ومفهومة ، في ان يبقى معه رفيق هناك · فكان لا بد له من ان يرعى بقاء اسرائيل راضية عن التسوية ، خوفا من نسفها · وهكذا ، خلق ولوج السادات باب المفاوضات ، خطوة ـ خطوة ، على ايقاع كيسنجر ، ديناميكية خاصة . كان طبيعيا ان تنتهي به الى زيارة القدس ، والى « كامب ديفيد » · فبعد ان تم اتفاق الفصل بين القوات على الجبهتين ، المصرية والسورية ، توجهت الانظار في المنطقة ، كما في واشنطن ، الى الضفة الغربية ، والى الاردن والملك حسين· وطرحت في حينه ، مقولة التعادل والتكافؤ بين الجبهات ، وضرورة السير بخطى وئيدة ، ولكن على الجبهات الثلاث · وكانت الادارة الاميركية مهتمة جدا بانجاز اتفاق ما ، ولو كان رمزيا ، في الضفة الغربية ، يثبت الملك حسين شريكا في المفاوضات الجارية مع اسرائيل ، ويقطع على منظمة التحرير الفلسطينية طريق انتزاع حق تمثيل الشعب الفلسطيني في التحركات السياسية الجارية في المنطقة · الا ان حكومة رابين ، التي لم تكن قد ثبتت اقدامها في الحكم بعد ، لم تجرؤ ، ولاسباب داخلية اساسا ، على التحرك في هذا المجال ·

وكان رابين يخشى ان يؤدي اتفاق في الضفة الغربية الى انتخابات عامة في اسرائيل ، تذهب بحكومته ، وتقضي على مستقبله السياسي الناشيء · فكان اسهل عليه ان يخوض معركة مع الادارة الاميركية ، من ان يدخل حلبة الصراعات الداخلية ، وهو لا يزال حديث العهد في الحكم · واندلع في اثر ذلك خلاف بين حكومته ، وبين الادارة الاميركية ، وبدا وكأن نهاية رابين السياسية قد اصبحت وشيكة · ولكن سقوط رابين ، وبالتالي اجراء انتخابات عامة في اسرائيل ، كان يعني تجميد التسوية لفترة قد تطول ، ربما الى سنة · هذا في حالة نجاح حزب العمل في الانتخابات · واذا نجح ليكود ، فستكون التسوية على كف عفريت ، او هكذا كان التقدير · وعليه اصبحت قوة رابين في ضعفه ، فانبرت حكومة السادات لانقاذ الموقف ، وطرحت تأجيل البحث في مسألة الضفة الغربية ، والانصراف الى انجاز اتفاق مرحلي اخر في سيناء ، اذ كان همها الحفاظ على مسار التسوية ، مما ترتب عليه صرف الانظار عن جميع المشاكل الشائكة ، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية · اما التوجه نحو الجبهة المصرية ثانية ، فقد كان مريحا لحكومة رابين ، ومشجعا للرئيس

السادات على المضي في التسويات المرحلية ، كما كان مقبولا للادارة الاميركية ٠ وخرج رابين من محنته بعبرة ان التصلب ، ورفض الرضوخ للضغط ، يقويان من مركزه داخليا ، خاصة بعد ان اكتشف مدى اهتمام كل من مصر والولايات المتحدة بتحاشي الجمود في مسيرة التسوية المرحلية ، خشية ان يؤدي ذلك الى استئناف المفاوضات في مؤتمر جنيف ، حيث يدخل الاتحاد السوفياتي شريكا في رعاية المؤتمر ، على قدم المساواة مع الولايات المتحدة ٠ وهكذا ، فان خوف السادات من مؤتمر جنيف ، حيث عليه الالتزام بالحد الادنى من التضامن العربي ، وحيث يمثل الاتحاد السوفياتي موقعا موازيا لموقع الولايات المتحدة ، وهو بطبيعة الحال ، يأخذ مواقف تعتبر موالية للعرب ، مما يحرج السادات في عدائه له ، اصبح نقطة ضعف في موقفه في المفاوضات، وبالتالي علة لابتزازه، استغلتها اسرائيل ، وكذلك امريكا ، وبلغت حدها الاقصى في « كامب ديفيد » ٠ فكلما بدا السادات متصلبا ، يصار الى تهديده بالعودة الى جنيف ، وباعادة الاتحاد السوفياتي شريكا في رعاية المفاوضات ، فيتراجع ، وهكذا حصلت اتفاقية سيناء الثانية ، وغض النظر عن اتفاق « فك الارتباط » مع الاردن في الضفة الغربية ، وانتزعت منظمة التحرير قرارات الرباط والامم المتحدة ، ووقعت الحرب اللبنانية ٠

وبعد ان انتزعت منظمة التحرير الفلسطينية قرارات الرباط ، وبعد النجاحات السياسية التي احرزتها في الامم المتحدة ، عام ١٩٧٤ ، كان طبيعيا ان تعمد المنظمة ، في ضوء المنطق الصحيح للامور ، الى التحرك باتجاه طرد اسرائيل من المنظمة الدولية ، واحتلال مكانها هناك ممثلا شرعيا وحيدا لجميع الفلسطينيين ٠ وكان قرار كهذا قد اتخذ في مؤتمر القمة في الرباط ٠ وفي مؤتمر الدول الاسلامية ، في جدة ، طرح المشروع بجدية ، ونال تأييد المشتركين في المؤتمر بالاجماع ، بمن فيهم مصر ٠ ثم اعيد طرح المشروع في مؤتمر الدول الافريقية في كمبالا ، من اجل الحصول على تأييد تلك الدول للمشروع ٠ وهنا ظهرت معارضة الحكومة المصرية للموضوع واضحة جلية ٠ وكذلك كان الحال فى مؤتمر دول عدم الانحياز في ليما ـ بيرو ٠ وهذا الانقلاب في الموقف المصري الرسمي ، يعود بالواقع الى كون اسرائيل ، عندما عادت عجلة المفاوضات الى التحرك ، اشترطت على مصر العمل من أجل احباط السعي لطردها من الامم المتحدة ، مقابل ابداء استعدادها لاستئناف المفاوضات ، ووافقتها على ذلك حكومة الولايات المتحدة ٠ اما الحكومة المصرية ، فان حرصها على مصير التسوية ، ورغبة منها في انجاز الاتفاق المرحلي ـ كما قال السادات في تصريحه في الخرطوم ، وهو في طريقه الى كمبالا ـ لم يكن بوسعها سوى القبول بالشرط ٠ وهذا بالطبع انحراف عن قرار مؤتمر القمة في الرباط ، وهو تصرف يمليه منطق التسوية المطروحة ، والذي لا يجيز العمل على طرد اسرائيل

من الامم المتحدة ، في حين تجري معها مفاوضات على اساس قرار صادر عن المنظمة الدولية اياها • وكان اخطر ما في امر تصرف الحكومة المصرية حيال مسألة طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، هو السابقة المستهجنة ، على الاقل عربيا ، من قيام نظام عربي ، رغبة منه في تمرير خطه السياسي ، بالدفاع عن مصالح العدو ، وبالعمل على احباط محاولات ضرب هذه المصالح • وتم السكوت العربي على تصرف السادات ، مما شجعه ، بطبيعة الحال ، على المضي في خطه • وتمادى السادات في سلوكه طريق الانحراف عن الاهداف القومية ، وحتى الاقليمية المصرية ، فطلع بمبادرته ، زيارة القدس ، حيث تعهد بألا يشن حربا اخرى على اسرائيل ، واعترف لها ولمستوطنيها ، ليس بالحق الوجودي في فلسطين فحسب ، وانما ايضا بالحق التاريخي ، مما قلب المعايير رأسا على عقب • وفي « كامب ديفيد » ، تقدم السادات خطوة كبيرة اخرى نحو انجاز التحالف التام مع اسرائيل وامريكا ، ضد النقيض الطبيعي للوجود الامبريالي والاستيطاني والرجعي في المنطقة ، حركة الجماهير العربية ، وفي مقدمتها موضوعيا ، بغض النظر عن الظرف الذاتي ، الثورة الفلسطينية • ومنطق هذا التحالف يملي وجود مصالح مشتركة بين اطرافه ، هي ايضا محور جاذبيته لاطراف عربية ، وغير عربية ، اخرى ، قد تنضم اليه في المستقبل •

ودخول السادات في حلف مع امريكا واسرائيل يعني ، اولا وقبل كل شيء ، الاقرار بشرعية مصالح هذين الحليفين في المنطقة ، ومن ثم المشاركة الفعالة في ضمان تلك المصالح ، املا منه في احراز بعض المكاسب ، له وللطبقة التي يمثلها ، على هامش تلك المصالح • ومصلحة امريكا الاولى في المنطقة هي بسط هيمنتها عليها ، وبالتالي ضرب حركة الجماهير فيها ، وابعاد الاتحاد السوفياتي عنها • وتعمل اسرائيل في خدمة تلك المصالح ، كونها جزءا من المعسكر الامبريالي ، تتبنى اهدافه • ولكن لاسرائيل مصلحة اضافية خاصة ، تنبع من طبيعتها الذاتية ، هي ضرب حركة الشعب الفلسطيني الوطنية ، وتشريده وتذويبه • وكان طبيعيا ان تلتقي امريكا معها على هذا الصعيد • وقد ثبتت ، المرة تلو الاخرى ، ان كلام واشنطن عن « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » ، لم يكن سوى عملية خداع ومراوغة • اذ كيف يمكن ان ترضى امريكا بتجسيد تلك الحقوق ، التي تعني بالضرورة القضاء على الكيان الصهيوني ، مع همها بالمحافظة عليه كأداة عدوان على حركة الجماهير العربية ، النقيض الرئيسي للوجود الامبريالي الاميركي في المنطقة • ان كل ما يملكه الكيان الصهيوني من مقومات ، هو على حساب الشعب الفلسطيني ، وبالتالي ، فكل ما قد يسترده هذا الشعب ، في اطار « حقوقه المشروعة » ، سيكون على حساب ذلك الكيان ، مما سيضعفه بطبيعة الحال ، ويقلص فاعليته في اداء مهمته الامبريالية • وكذلك ، فان « احقاق الحقوق المشروعة للشعب

الفلسطيني » ، يعني بالضرورة القضاء على الكيان الصهيوني ، على الاقل في صورته الاستيطانية العنصرية ، وبالتالي العدوانية ·

ان قبول امريكا بما يضمن « الحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني ، يعني انها تتبنى حلا للنزاع في الشرق الاوسط ، يختلف جذريا عن توجهها الراهن · وهذا يعني تخليها عن سياستها الامبريالية في المنطقة ، وهو منطق لا يستقيم مع توجهاتها العالمية في هذه المرحلة · ان فقدان امريكا هيمنتها على الشرق الاوسط ، خاصة بلدان النفط فيه ، يعني بالضرورة فقدانها الهيمنة على اقتصاد كل من اوروبا الغربية واليابان ، وبالتالي زعزعة اركان موقعها كزعيمة للمعسكر الرأسمالي · وقد جاء مؤتمر « كامب ديفيد » ليثبت ان منطق حل « النزاع العربي ــ الاسرائيلي » ، مع الاصرار على انه « في جوهره قضية الشعب الفلسطيني ، ومن خلال التحالف مع امريكا ، على اساس ان مصلحة هذه مع العرب ، وانه لا بد من « وضع الامور في نصابها » ، واستبدال اسرائيل بقوى عربية اخرى ، تأخذ دورها في خدمة المصالح الاميركية ، وبالتالي دق اسفين بين واشنطن واسرائيل ، كان خاطئا من اساسه ، اذا افترضنا حسن النية · واتضح لكل ذي بصيرة ، ان منطق مهادنة امريكا ، طمعا في انجاز مكاسب على حساب اسرائيل ، ينتهي الى منطق مبادرة السادات لزيارة القدس ، ومؤتمر « كامب ديفيد » ، حيث انضم هذا الى التحالف القائم بين واشنطن واسرائيل · وهذا يقود الى تقدير الموقف بالنسبة الى مؤتمر جنيف ، والاساس الذي يقوم عليه قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، واعادة النظر في التقييمات لمدى امكان تحقيق تسوية في هذه الاطارات · وبالنسبة الى جنيف ، كان واضحا ان الدولتين العظميين عزلتا بقية اعضاء مجلس الامن ، وكذلك الامم المتحدة من المشاركة في التسوية · ولكن ما لبثت واشنطن ان عزلت الاتحاد السوفياتي ، وانفردت هي في رعاية التسوية ، على ارضية المشاريع الاسرائيلية· وفي المعادلات الراهنة ، وضمن النهج السائد في المنطقة ، لا مجال لتسوية خارج هذا الاساس ، بما يترتب عليها من نتائج واضحة المعالم ·

لقد كان انحراف السادات نحو امريكا ، وما يمثله وجودها ، ويتطلبه استمرار هيمنتها على موارد الثروة الطبيعية في العالم العربي ، واضحا منذ حرب تشرين · اما الجديد في « كامب ديفيد » ، فهو ايغال السادات في نفوذه الى قلب المعسكر الامبريالي ، وقبوله كشريك صغير فيه ، له ما لباقي الشركاء ، وعليه ما عليهم ، ولو على مستوى متدن ، يتناسب وحجم فاعليته في خدمة المشروع · وطبيعي ، انه كي تقبل به اسرائيل شريكا في اداء المهمة الامبريالية في المنطقة ، وبالتالي مستفيدا ، ولو مرابعا ، من مردود هذه الخدمات ، ان تقتص منه رسم الدخول ، وتشترط عليه القبول بموقفها من قضية الصراع في المنطقة ، وخاصة من قضية الشعب الفلسطيني ، وبالتالي الاسهام في حلهما ،

بما يتناسب ومشاريعها هي للهيمنة على المنطقة وتصفية الحركة الوطنية الفلسطينية · وبالتحديد ، فان اسرائيل لن ترضى بالسادات شريكا ، الا ضمن حلف يرمي الى تصفية كل ما هو وطني في العالم العربي · وهكذا قايضت اسرائيل السادات في « كامب ديفيد » ، فعرضت اعادة سيناء الى السيادة المصرية ، مقابل تخليه عن مواقفه السابقة ازاء منظمة التحرير الفلسطينية ، وعن كل كلامه السابق عن تمثيلها الشرعي للشعب الفلسطيني ، على أن يتم التسلم والتسليم بشكل متواز · ومن اجل كل ذلك ، كان لا بد للسادات من ان ينجز اتفاقيتين في « كامب ديفيد » ، احداهما تتعلق بسيناء ، والاخرى بالمنطقة عامة ، لان انجازه حلا منفردا مع اسرائيل ، لا يؤدي الغرض · فاسرائيل لن تقدم له سيناء ، ان لم يعنها هو على تصفية حركة الشعب الفلسطيني الوطنية · ولكن اسرائيل لن تسمح للسادات بالدخول في الشراكة وكأنه يمثل الجانب العربي بأكمله ، وبالتالي ينافسها على موقعها المفضل في واشنطن · من هنا فالمطلوب منه اسرائيليا ، هو تمهيد الطريق لتسوية على ارضية المشاريع الصهيونية ، دون التطلع الى احتلال مواقع جديدة في المنطقة ، وعلى الخصوص في فلسطين · وفي تعامل اسرائيل مع السادات عظة لكل من تبنى منطق الخوض في المفاوضات ، من منطلق تحسين شروط التسوية الاميركية ، القائمة في جوهرها ، على المشاريع الاسرائيلية ·

الخلاف ، على ماذا ؟

تقول الاطراف الثلاثة المشاركة في المفاوضات الجارية ، امريكا ومصر واسرائيل ، ان العقبات الاساسية امام توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ، برعاية الولايات المتحدة وضمانتها ، قد ازيلت · ويذهب بعضهم الى حد القول بأن اكثر من ٩٠٪ من بنود المعاهدة قد تم الاتفاق عليها · ومع ذلك ، فقد مر الموعد المحدد لتوقيع المعاهدة (٧٨/١٢/١٧) دون ان يحصل ذلك، وبالرغم منه ، حصل السادات وبيغن على جائزة نوبل للسلام ، « تقديرا لجهودهما في سبيله » · وتصدر احيانا تصريحات من جميع الاطراف ، تقول بأنه لا تزال هناك مشاكل صعبة ، يجب حلها قبل التوقيع · وفي تقديري ان هذا الكلام صحيح · فصحيح ان القضايا الاستراتيجية قد جرى ترتيبها · فقد انضم السادات الى معسكر واشنطن ، حيث اسرائيل ، وبالتالى تكييف لظروف التعايش هناك · فلا خلاف حول القبول بالتسوية الاميركية ، وتوسيع النفوذ الاميركي وترسيخه في المنطقة ، ولا خلاف كذلك ، على ابعاد الاتحاد السوفياتي عنها · ولا اعتراض على انهاء « الصراع القومي » ، بالاعتراف باسرائيل ، والتحول الى ضرب كل ما هو وطني في المنطقة ، تحت غطاء « مقاومة النفوذ الشيوعي » · ولا مانع لدى السادات من التخلي عن الاهداف

القومية في الاستقلال والوحدة ، على اقل تقدير · كما لا يرى ضيرا في الدخول في حلف جديد ، على غرار « حلف بغداد » السابق ، تكون نواته اسرائيل ومصر وامريكا ، وتنضم اليه مستقبلا اطراف عربية وغيرها · واذا كانت اسرائيل ستصبح ركنا اساسيا في هذا الحلف ، فلا حرج لدى السادات في النزول عند رغباتها في ضرب الثورة الفلسطينية ، وتصفية منظمة التحرير ، وتجاوز قرارات الرباط وغيرها ، والعمل على تفسيخ الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية ، وتمزيق وحدة نضاله ومصيره · وهذا هو الاساس · اما « العقبات الهامشية » المتبقية ، فهي لا شك صعبة ، ولكنها جميعا تتعلق بتوزيع المغانم ، من يأخذ ماذا · فالتسوية كما يراها السادات ، والى حد كبير اسرائيل ايضا ، هي خدمة للمصالح الاميركية ، وعليه فلا بد ان تعوض امريكا على وكيليها ، وتقسم السوق بينهما ·

اسرائيل لن تقبل بالسادات شريكا متكافئا

تثمن اسرائيل جيدا موقعها في الاستراتيجية العالمية للامبريالية الاميركية · وترى مبرر الخصوصية التي تحظى بها هناك فرادتها في العلاقة مع البلد الام · وهذه العلاقة ، مهما كانت وثيقة ، ومن طبيعة خاصة ، فانها في نهاية المطاف تقوم على المبدأ الرأسمالي الازلي : العرض والطلب · اما الطلب فهو متوفر ، واما العرض فيتوقف على النجاعة · وهناك منافسون لاسرائيل في عرض خدماتهم · والقيادة الصهيونية تعي جيدا مغزى الكلام العربي ، الذي ما زلنا نسمعه منذ سنين : « ان مصلحة امريكا معنا ، فلماذا لا تعاملنا هذه اسوة باسرائيل ؟ » · اي لماذا لا تستعملنا لخدمة اغراضها ، كما تفعل مع اسرائيل · ومن منطلق تنازع البقاء حتى تحاول اسرائيل قطع الطريق على اي طرف عربي يحاول الدخول الى الساحة الاميركية كمنافس لها · ومع ان انجاز مهمتها ، وبالتالي نجاعة فاعليتها في نظر البلد الام ، يتوقفان على نجاحها في تطويع الاطراف العربية لارادة امريكا ، الا انها في نفس الوقت لا تريد ان تدخل هذه الاطراف ، بمحض ارادتها ، متطوعة للخدمة ، وبالتالي منافسا لها · ومن هذا المنطلق تتأرجح نظرة اسرائيل الى السعودية ، بين الرفاقية والعداء · فهي تقدر اهمية السعودية لامريكا ، ولها ايضا بالواسطة ، اذ من اين ستحصل على مليارات الدولارات سنويا ، لولا النفط السعودي ، وامواله المودعة في الخزائن الاميركية · ولكنها بالمقابل ايضا ، تخشى ان تدخل السعودية في منافسة معها على تطويع حركة الجماهير العربية للادارة الاميركية ، بواسطة اموالها · واسرائيل لا تريد للسادات النجاح في تقديم نفسه الى واشنطن وكيلا عن الساحة العربية بأكملها ، وانما تريد حصره في مصر ، اي انها تريد ان تعقد معه اتفاقية ثنائية ، ليبقى دوره محجما · وكذلك فهي تريد ان تحول دون امكان

ان يحتل موقع الملك حسين او منظمة التحرير في حل القضية الفلسطينية · ومن هنا اصرارها على عدم الربط بين معاهدة السلام التي ستوقعها مع مصر ،وبين تنفيذ مشروع الادارة الذاتية ، باشتراك مصر · ولا تريد حتى الالتزام بجدول زمني ، يعطي السادات فضلا في ذلك · والسادات يصارع لتحسين شـــروط دخوله الى النادي ·

اسرائيل تريد عزل مصر عربيا

تقول الاطراف المفاوضة بأن ما يعرقل مفاوضات « بلير هاوس » ، ويعيــق التوقيع على مسودة الاتفاقية ، التي صاغتها واشنطن ، هو بالاساس البنــد السادس منها ، والذي ينص على افضلية المعاهدة مع اسرائيل على اية معاهدة اخرى لمصر مع اي طرف اخر · والمقصود بذلك هو ارتباطات مصر ، في اطار الجامعة العربية ، خاصة « ميثاق الدفاع المشترك » · ويقول دايان : « اننا لن نشتري بيتا ، كان قد بيع سابقا » ، لن نقبل من مصر تعهدات ، افرغتها مــن مضمونها اتفاقات ملزمة سابقة · وفي دفاعه عن اتفاقات « كامب ديفيد » امام الكنيست الاسرائيلي ، طالبا موافقته على الاتفاق ، بما فيه اخلاء المستوطنات في مشارف رفح ، كانت حجة بيغن الاساسية المقارنة بين « تنازلات » اسرائيل هذه ، واخراج مصر من دائرة الصراع معها · وعلى هذا الاساس حصل على تأييد الاكثرية · وعلى لسان مردخاي غور (مقابلة تلفزيونية في ٧/١/٧٩) ، طلب الوفد الاسرائيلي في مفاوضات اللجنة العسكرية من مصر ، تقليــص جيشها ، فادعى الوفد المصري ضرورة الحفاظ على جيش كبير نسبيا ، « لمكافحة الشيوعية في المنطقة » ، فجاء الرد الاسرائيلي ، انه اذا كان الامر كذلك ، فلا بد اذن من اجراء تعديلات جذرية على انتشار القوات المصرية ، ونوعية تأهبها القتالي · وقال الوفد الاسرائيلي بأنه يرى في نقل مصر جيشها من خط المواجهة مع اسرائيل ، الى خطوط اخرى ، تتلاءم والمهمة الجديدة لذلك الجيش ، الدليل على صدق نية مصر في عقد سلام مع اسرائيل · والواقع ان السادات قــد استجاب لمعظم الطلبات الاسرائيلية في هذا المجال · فقد ضـرب التضـامن العربي ، وعزل مصر ، وهو يلوح بتقليص الجيش المصري ، بعد « تطهيره » من العناصر المعارضة لسياسته · وكذلك فقد تعهد السادات بألا يجتاز الجيــش المصري ممري المتلا والجدي · وعندها يتبادر السؤال : ما فائدة المطارات في شرقي سيناء ، والتي ستسلمها اسرائيل لمصر ، اذا كان ليس للجيش المصري ان يصلها ؟ والكلام عن تحويلها الى مطارات مدنية كلام فارغ · والســؤال الحقيقي : من سيستعملها فعلا ، ولاية اغراض ؟ واذا كانت امريكا ســتبني مطارات جديدة لاسرائيل في النقب فعلا ، فماذا ستفعل بتلك القواعد في شرقي سيناء ، وهي قواعد جوية ضخمة ؟ والظاهر ان « أمن البحر الاحمر » سيوفر

الحل الملائم لهذه المسألة · واذا كانت امريكا شريكا كاملا في المفاوضات ، فأين موقعها في الترتيبات العسكرية ، التي تحيطها الاطراف بستار كثيف من السرية ؟·

اسرائيل تريد اقامة « علاقات طبيعية » مع مصر وسيناء تحت الاحتلال

بموجب نص المعاهدة ، الذي قبلت به اسرائيل ، بعد ان تمت صياغته في مفاوضات « بلير هاوس » ، ثم تراجعت عنه مصر ، ووقفت واشنطن معها الى حد معين ، تلتزم مصر باقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع اسرائيل ، عند التوقيع على المعاهدة · وكان المفترض ان يتم هذا التوقيع في ٧٨/١٢/١٧ ، اي بعد ثلاثة اشهر على انتهاء مؤتمر « كامب ديفيد » · ولكن الانسحاب الاسرائيلي من سيناء سيتم على مراحل ، تستغرق ثلاث سنوات · وهو مشروط باثبات مصر حسن نيتها في تحقيق السلام ، كما تريده اسرائيل طبعا· والا فانها لن تنجز جانبها من الاتفاق · وهذا أمر ليس من السهل على المصريين ابتلاعه · ولكن اسرائيل تقول انها اذا انسحبت ، فانما تسلم عينا ملموسا ، هو سيناء ، وبالمقابل تقدم مصر تعهدا لفظيا ، يسهل العدول عنه · فاذا حنثت مصر بعهدها ، فسيكون من الصعب على اسرائيل استرداد سيناء دون حرب · ولذلك فهي تصر على استمرار الاحتلال ، حتى يثبت صدق نية مصر · وبالاضافة الى ذلك ، فان اسرائيل ، كما تدعي ، تحتاج الى فترة زمنية طويلة لاخلاء منشاتها العسكرية ، واقامة البديل لها ، بالاضافة الى المال اللازم لبنائها ، وهو يصل في تقديرها الى مليارات الدولارات · وتطالب اسرائيل الولايات المتحدة بتحمل هذه النفقات · وقد حصلت على تعهد بذلك ، ولكن لا بد من الانتظار · وفي اسرائيل ، لا توجد مطارات تستوعب سلاح الجو ، بعد النمو الذي طرأ عليه اثناء مفاوضات التسوية ، ولذلك فلا بد لها من الاستمرار في استعمال مطارات سيناء ، حتى تقيم البديل لها في النقب · وهذا قد يستغرق عدة سنوات ، ليست هي على استعداد لتأجيل اقامة «علاقات طبيعية » مع مصر حتى تستكمل ·

اسرائيل تريد امتيازا لاستغلال نفط السويس

احدى اهم نقاط الخلاف في مفاوضات التسوية بين مصر واسرائيل ، هي مسالة استغلال آبار النفط في خليج السويس · وكانت اسرائيل تنقب عن النفط هناك منذ عدة سنوات ، وزاد نشاطها في هذا المجال ، بعد ان اعادت لمصر آبار ابو رديس · وقد وجدت نفطا في آبار « علما » · وتقدر كمية النفط المستخرجة

من هذه الآبار الان بما يوازي احتياجات اسرائيل من النفط الخام · وهي تطالب بان تعطيها مصر امتيازا ، بشروط مفضلة للاستمرار في التنقيب عن النفط وضخه ، في خليج السويس · وقد اشتد اصرار اسرائيل على ذلك ، بعد احداث ايران ، اذ سارع وزير الطاقة الاسرائيلي ، موداعي ، للاعلان بان معاهدة السلام مع مصر لن توقع دون حصول اسرائيل على الامتياز المطلوب· وبالمقابل ترفض مصر طلب اسرائيل هذا ، وتطالب من جانبها بالتعويض عليها عن النفط الذي استخرجته اسرائيل خلال سنوات احتلالها لسيناء · والى جانب النفط ، تطالب اسرائيل بعدد من الامتيازات الاقتصادية الاخرى ، كصيد الاسماك على الشواطىء المصرية مثلا ، ومشاريع مشتركة اخرى في سيناء · وعلى العموم ، فانه بعد موجة الحماس الاولى ، التي اجتاحت اسرائيل لما قد تدره السوق المصرية على الصناعات الاسرائيلية ، اخذت التقديرات تأخذ طابعا اقل تفاؤلا ، وبدا ان الفوائد التي قد تجنيها تلك الصناعة من افتتاح السوق المصرية عليها ، ليست مغرية الى حد كبير · والاكيد ان ذلك سيلعب دورا في موقف اسرائيل من التسوية مع مصر ·

ماذا بين حكومة بيغن وادارة كارتر

خلال ثلاثين عاما على قيامها ، قدمت اسرائيل للامبريالية الاميركية اكثر مما حققت لذاتها · فقد اصابت نجاحا في تحقيق مهمتها الامبريالية ، اي ضرب حركة الجماهير العربية ، اكبر من النجاح في تحقيق المهمة الصهيونية الذاتية ، « حل المسألة اليهودية » ، وبناء ذاتها اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا· وبسبب هذا الفارق في مجالات انجاز الكيان ، تبرز بعض الخلافات بينه وبين البلد الام ، واشنطن ، فيما يتعلق بشروط التسوية ، فامريكا راضية الى حد كبير عما آلت اليه اوضاع الحركة القومية العربية ، وبالتالي فهي راغبة في انجاز تسوية تضمن تثبيت الوضع الراهن في اجزاء كبيرة من العالم العربي ، وتستكمل من خلالها ، اي التسوية ، المهمة في الاجزاء الاخرى ، حيث الاوضاع لم تنضج بعد للانفتاح الكامل على أمريكا · ويبدو ان البلد الام ، بعد أن استطاع الكيان ، بعمله العسكري المستمر ، حروب ٥٦ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ونشاطه السري والارهابي والتآمري خارج حدوده ، يرى ان الساحة اصبحت مهيأة لتسوية تليق بنتائج نشاط الكيان · في حين شعر الكيان ، وكأن الصفقة تتم على حساب مصالحه الذاتية ، من هنا كان الكلام عن خلاف بين الولايات المتحدة واسرائيل ·

وفي الخلاف الراهن في مفاوضات « بلير هاوس » ، تقول المصادر الاسرائيلية بأن الادارة الاميركية تقف الى جانب اسرائيل في موقفها من البند

السادس من مسودة معاهدة السلام ، والى جانب مصر في البند الثاني من تلك المسودة ٠ اي أن واشنطن توافق اسرائيل على عزل مصر عن العالم العربي ، بدعمها ضرورة ان تأخذ المعاهدة مع اسرائيل افضلية على اية معاهدة اخرى، بين مصر واية دولة اخرى ٠ وهذا بطبيعة الحال ، يتلاءم مع المخطط الاميركي لاقامة الحلف الجديد ، الذي لا بد وان تكون له الافضلية على اية ارتباطات اخرى لمصر مع الدول العربية خاصة ٠ ولكن واشنطن تؤيد مصر في ضرورة البدء في تنفيذ الادارة الذاتية ، لتوفر الغطاء العربي للسادات من جهة ، ولاشراك الاردن في التسوية من الاخرى ٠ وبينما تريد اسرائيل ان تكون المعاهدة مع مصر ثنائية في جوهرها ، فان الولايات المتحدة لا تعارض ذلك ، وانما تريد للمعاهدة ان تصاغ في نمط يمكن تطبيقه مع اطراف عربية اخرى ، قد تدخل التسوية ٠ ولكن الولايات المتحدة ، وكذلك مصر ، توافقان على بقاء الجيش الاسرائيلي في مواقع محددة في الضفة والقطاع ، ولا تعترضان على بقاء المستوطنات الاسرائيلية هناك ٠ وهما تطالبان اسرائيل بالتوقف عن بناء المستوطنات الجديدة في المناطق المحتلة ، ولكنهما لا تعترضان على تكثيف المستوطنات القائمة ٠ والجدير بالذكر ان مسودة المعاهدة هذه قد صيغت على ايدي موظفين في الادارة الاميركية ، كحل وسط بين مقترحات الوفدين ، الإسرائيلي والمصري ٠ وقد وافق عليها الوفد المصري ، برئاسة وزير الحربية الجديد ، وعضوية وزير الخارجية ٠ ثم عادت الحكومة المصرية وتراجعت عن قبول هذا ، في حين اعلنت اسرائيل قبولها للمسودة ، وتمسكها بها ٠ ووقفت الولايات المتحدة الى جانب مصر في ضرورة ادخال بعض التعديلات على مسودة الاتفاقية ٠ وعلى هذا الاساس توقفت المفاوضات ٠

وهناك بعض الخلاف بين حكومة بيغن وادارة كارتر ، على حجم المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي تطلبها الاولى من الثانية ، مقابل اخلائها المنشآت العسكرية في سيناء ، وتمويل بناء الخطوط الجديدة والقواعد الجوية البديلة٠ وتطلب اسرائيل مبلغ ٢٥ مليار دولار من واشنطن ، تعويضا لها على ذلك ٠ ولم توافق الولايات المتحدة على الالتزام بذلك المبلغ ، نظراً لما قد يثيره ذلك من معارضة داخلية في امريكا ، خاصة وأن مسألة « المساعدات الاقتصادية الاميركية » ، الى الدول الاخرى ، تلعب دورا كبيرا في الانتخابات للرئاسة الاميركية ، وهي لا تحظى بتأييد واسع في صفوف الناخبين الاميركيين ٠ وقد عرض بيغن على ادارة كارتر ان يكون المبلغ المطلوب قرضا طويل المدى ، وبفائدة صغيرة ، فأثار ذلك معارضة شديدة في اسرائيل ، اضطرت بيغن الى التراجع والسكوت ٠ وما تزال هذه المسألة قيد الحوار ٠ وكذلك فان اسرائيل، اسوة بما فعلته في اتفاقية سيناء الثانية ، ستطالب بتامين مصدر مضمون لاحتياجاتها من النفط ، وكذلك تغطية بعض تكاليف ذلك ٠ وتأخذ هذه المسألة

اهمية اكبر اليوم ، نظرا للتطورات السياسية في ايران ٠

ماذا بعد ؟!

واضح أن التسوية السياسية في المنطقة ، وهي تسوية اميركية على ارضية المشاريع الاسرائيلية ، تواجه اليوم ازمة حادة ، خاصة بعد احداث ايران ٠ فقد ارادت المؤامرة الاميركية في التسوية ، ان تخلق من خلالها حلفا بين دول المنطقة الموالية لامريكا ، يكون هدفه الاساسي الحفاظ على المصالح الامبريالية في المنطقة ، والتصدي لحركة الجماهير فيها ، واخراج الاتحاد السوفياتي منها ٠ وكانت ايران تشكل ركنا اساسيا في هذا الحلف ٠ وبانهيار حكم الشاه العميل ، تصدع هذا الركن ، مما ترك خللا في الحلف المزمع بناؤه ٠ وعليه فلا بد من اعادة الحسابات من جديد ٠ وبينما يدعو السادات ، ولاسباب واضحة ، الى ضرورة الاسراع في التوقيع على معاهدة السلام ، وانجاز التسوية في المنطقة ، ويحث الولايات المتحدة للضغط على اسرائيل ، بعد الذي جرى في ايران ، فان حكومة بيغن توافق على ضرورة انجاز التسوية ، ولكن بفتور كبير ، كي لا يقال انها ترفض التسوية ، وتتحمل تبعة ذلك ٠ ولكن الواضح أنها ليست على عجلة من امرها ٠ وهذا يشير الى موقفها من السادات ومن انجاز تسوية معه ٠ والاكيد انها ستعيد حساباتها هي الاخرى ٠ اما الولايات المتحدة ، فانها تدعو الى التريث ، وتقول بان المعاهدة ستوقع في نهاية الامر ، ولكن ذلك قد يستغرق بعض الوقت ٠ والظاهر ان الولايات المتحدة قد احست بسوء تقديرها للوضع الجماهيري في المنطقة ، والمعادي لنفوذها فيها ٠ واخذت تشعر بالارض تسحب من تحت مخططاتها لترتيب اوضاع المنطقة وفي تقديرنا ان جميع اطراف التسوية قد اخطأت في تقديراتها عندما خاضت في مفاوضات التسوية ، سواء تلك التي راهنت على جنيف ، ام التي راهنت على تحسين شروط التسوية من خلال التوجه نحو واشنطن ، متجاهلة بدورها الوضع الجماهيري ٠ وخلال خمس سنوات من مفاوضات التسوية ، اتضح لكل ذي بصيرة الى اين تسير هذه التسوية برعاية الولايات المتحدة ، وماذا يمكن لاسرائيل ان تطلبه وتحصل عليه ، وما الذي ستقدمه بالمقابل ٠ واليوم والتسوية تواجه ازمة شديدة ، لا مبرر للقوى السياسية المترددة ازاءها في انقاذها من مأزقها ، وبالاحرى لا مبرر لقوى التصدي في الوقوف مكتوفة الايدي ازاء هذه الفرصة الذهبية للاجهاز عليها ٠

حنـه شاهـين

اقتصاديات السلام المصري ـ الاسـرائيلي

توقعـات واحتمـالات

اذا كـان بعض البنود السياسية الرئيسية في مسودة معاهدة السلام المقترحة بين مصر واسرائيل ، كما تم التوصل اليها في محادثات بليـر هاوس فـي واشنطن ، خلال الاشهر الاخيرة من السنة الماضية ، ما زال موضع خلاف بين الطرفين حتى الآن ، الامر الذي يؤخر توقيع المعاهدة ، فان البنود الأقتصادية والتجارية في مسودة المعاهدة تلك ، باتت امرا متفقا عليه ، بصورة كاملـة ٠ واهم هذه البنود ما ورد في المادة الثالثة منها ، وهو ان العلاقات الطبيعية التي يوافق الطرفان على اقامتها بينهما « سوف تتضمن الاعتراف الكامل والعلاقات الديبلوماسية والاقتصادية والثقافية ، وانهاء المقاطعة الاقتصادية والحواجـز المميزة امام الانتقال الحر للاشخاص والسلع ٠٠٠ » (١) ٠ وقد جرى تفسيـر هذه المادة فيملحق خاص مرفق بمسودة المعاهدة ، اهم ما جاء فيه ، ان الطرفين « يوافقان على الغاء الحواجز التي تمنع اقامة علاقات اقتصادية طبيعية بينهما، ووضع حد للمقاطعة الاقتصادية التي يفرضها طرف ما ضد آخر ٠ كذلك يبـدأ الطرفان ، بصورة عاجلة قدر الامكان ، مفاوضات بينهما خلال فترة لا تتجـاوز ستة اشهر بعد انتهاء المرحلة الوسطى من الانسحاب ، بهدف ابرام اتفاق تجاري يؤدي الى علاقات اقتصادية مفيدة » (٢) ٠ ويتمثل المكسب التجاري الذي حققته اسرائيل في مسودة.المعاهدة ، في المادة الخامسة منها ، والتي تنص علـى ان « سفن اسرائيل والشحنات البحرية المتجهة اليها او القادمة منها ، سوف تتمتع بحق المرور الحر عبر قناة السويس ومداخلها في خليج السويس والبحـر الابيض المتوسط ، على اساس اتفاقية ١٨٨٨ التي تنطبق على جميع الـدول ٠

وسوف يعامل حاملو الجنسية الاسرائيلية ، والسفن والشحنات الاسرائيلية ، مثلهم مثل الاشخاص والسفن والشحنات المتجهة الى اسرائيل او القادمة منها، معاملة غير تمييزية في كل الامور المتعلقة باستخدام القناة • [كذلك] يعتبر الطرفان مضائق تيران وخليج العقبة ممرات مائية دولية ، مفتوحة لجميع الدول من اجل حرية الملاحة والطيران • وسوف يحترم الطرفان حقوق كل منهما في الملاحة والطيران الى اي منهما ، عبر مضائق تيران وخليج العقبة » (٣) •

يستخلص من ذلك ، ان معاهدة السلام المقترحة ، سوف تحقق لاسرائيل علاقات اقتصادية وتجارية كاملة مع مصر ، بالمعنى المتبع دوليا ، بين اي بلدين يقيمان علاقات طبيعية بينهما • والسؤال المطروح الان في اسرائيل ، وحتى قبل توقيع معاهدة السلام ـ التي يبدو توقيعها مسألة وقت لا اكثر في نظر زعماء اسرائيل ـ وعلى اعلى المستويات ، هو الى اي مدى ستستفيد اسرائيل من مرحلة « السلام الاقتصادي » هذه ، وهل ترغب حقا في علاقات اقتصادية وتجارية كاملة ، ام انها تسعى الى استغلال هذه المرحلة لصالحها ، وفرض هيمنة اقتصادية على مصر ، وانطلاقا منها الى البلدان الاخرى في المنطقة في المستقبل؟ ثم اذا كان هذا هو هدفها ، فهل تستطيع ذلك ، باقتصادها شبه المنهار ، وحتى بمساعدة اصدقائها في الخارج ؟

قبل الاجابة على هذه الاسئلة ، لا بد من التطرق الى جملة مميزات تميز الاقتصاد الاسرائيلي في الفترة الحالية على الاقل ، تكون بمجملها نقطة انطلاق غير مشجعة في نظر معظم خبراء الاقتصاد الاسرائيليين ، للمرحلة المقبلة •

اولا ، الاعتماد على المساعدات الاميركية السنوية في تحويل نشاطات الاقتصاد الاسرائيلي في المجالين العسكري والمدني ، حيث يبلغ معدل ما تحصل عليه اسرائيل سنويا من الولايات المتحدة مليارى دولار • ويتوقع ازدياد هذه المساعدات بعد التوقيع على معاهدة السلام مع مصر ، نظرا لالتزام الولايات المتحدة بتمويل انشاء قاعدتين جويتين في النقب ، بدلا عن قواعد سيناء •ثانيا، العجز الكبير في ميزان المدفوعات الاسرائيلي ، الذي بلغ نحو ٣١٠٠ مليون دولار سنة ١٩٧٨ (١٨٠٠ مليون دولار دون الواردات الامنية) ، ثم المستوى المرتفعجدا للديون الخارجية لاسرائيل التي بلغت سنة ١٩٧٨ نحو ١٢ مليار دولار (٤) • ثالثا ، التضخم المالي السريع ، حيث بلغ معدل ارتفاع الاسعار سنة ١٩٧٨ نحو ٤٧٪ ، زيادة على معدله سنة ١٩٧٧ • رابعا ، توقف النمو الاقتصادي « منذ ازمة النفط الكبيرة قبل خمس سنين » اثر حرب ١٩٧٣ • «وقد كان التحسن في النمو الاقتصادي سنة ١٩٧٨ ، نتيجة تزايد الطلب ، في الاستهلاك الخاص والعام ، مما لم يساهم في تحسين ميزان المدفوعات »(٥) • خامسا ، نفقات الامن المتزايدة في اسرائيل ، حيث يجري تخصيص ثلث الميزانية العامة لاغراض الامن ، وبمعنى آخر « ٢٠٪ من مجموع المصادر التي يمتلكها

الاقتصاد · كذلك فأن ربع الطاقة البشرية في الاقتصاد تستغل يوميا في العمل الامني – في الجيش النظامي الدائم والاحتياط ، وفي الانتاج الامني وما شابه»·

هذه هي اهم المميزات ، او المشكلات ، التي تميز الاقتصاد الاسرائيلي حاليا· وقد حاولت اسرائيل كثيرا ، خاصة خلال السنوات الاخيرة ، ايجاد مختلف الحلول لها ، ابتداء من تخفيض قيمة الليرة لتشجيع الصادرات وانتهاء بالاقتطاع من الميزانيات العامة ، لكبح الطلب والاستهلاك ، ولكن حلولها هذه لم تجد نفعا حتى الآن · فهل تجد اسرائيل الحلول الملائمة لمشكلاتها الاقتصادية هذه ، في مرحلة السلام المقبلة ؟ وكيف سيكون تأثير هذه المشكلات على سياستها الاقتصادية المقبلة في مرحلة السلام مع مصر ؟

ثلاث سنوات صعبة

التوقع السائد والاكيد لدى مختلف الدوائر الاقتصادية في اسرائيل ، ان المشكلات الاقتصادية المذكورة ستزداد حدة خلال السنوات الاولى بعد توقيع معاهدة السلام مع مصر · فهذه المعاهدة تلقي اعباءا امنية جديدة على اسرائيل ستكلفها اقتصاديا مبالغ طائلة ، تتمثل في اقامة خط دفاعي جديد في النقب ، عوضا عن الخط الذي ستنسحب منه في سيناء · ويشمل هذا الخط قاعدتين جديدتين ، ومراكز للجيش ومستوطنات جديدة لاستيعاب مستوطني رفح وما شابه ، وقد اعلن وزير المالية سمحا ارليخ ان اسرائيل تنتظر ثلاث سنين صعبة من الناحية الاقتصادية ، « وهذا هو الثمن الذي سيطلب من اسرائيل دفعه مقابل المصاريف المترتبة على عملية السلام· ويبلغ هذا الثمن نحو ٦٠ مليار ليرة» (٦)· كذلك اوضح ارليخ ان اسرائيل اعلمت الولايات المتحدة انه دون الحصول على مساعدات مالية لن يكون بامكانها التوقيع على معاهدة السلام · وانها تطالب الآن بمبلغ ٣ مليارات دولار [كدفعة اولى] لتمويل الانتشار الجديد للجيش الاسرائيلي في النقب » (٧) · وقد اجرى خبراء وزارة المالية الاسرائيلية ابحاثا مطولة حول هذا الموضوع ، ولكن تقديرهم الاولي ، انه اذا لم تحصل اسرائيل على كامل المبالغ المطلوبة بالعملة الصعبة ، في اطار المساعدات الاميركية ، فسيواجه الاقتصاد مشاكل صعبة في الموارد المحلية ، وستحدث نفقات كثيرة بالليرة الاسرائيلية ، مما سيقوي من سرعة التضخم المالي · « وقد ذكر في هذه المباحثات ايضا ، انه خلال سنة ١٩٧٤ التي كانت « سنة التحصينات » وصل معدل التضخم المالي الى ٥٦٪ · كذلك سيكون من الصعب توفير المتطلبات العادية كالطاقة البشرية والنقل ومعدات البناء »(٨) · ويتوقع نائب وزير المالية يحزكيئيل بلومين ان يصل معدل التضخم المالي خلال الفترة المقبلة ، بعد توقيع معاهدة السلام مع مصر ، الى ١٠٠٪ · « اننا نتوقع تصعيدا ضخما في البناء

الامني · والحديث يدور حول عشرات المليارات من الدولارات وحتى اذا حصلنا على دولارات لبناء القاعدتين الجويتين ، فاننا سنضطر الى طباعـــة الاوراق النقدية ، لكي ندفع للعمال · وهكذا سيتصاعد التضخم المالي ··· اننا نتوقع ٣ ـ ٤ سنوات صعبة ، ليس لها مثيل في اسرائيل » (٩) · وحلل رئيس اتحـاد الصناعيين ابراهام شفيط الوضع الاقتصادي خلال هذه الفترة بقولـــه : « ان تجميع مئات الملايين من الامتار المكعبة من الاتربة ، وبناء معسكرات ومطـارات وطرق ومخازن (جميعها ضرورية ، ولكنها ليست منتوجات زراعية وصناعية) سيؤدي الى ان تتحول الدولارات الى ليرات اسرائيلية ، وتتدفق الامـــوال الى جيوب المواطنين دون زيادة في الانتاج والصادرات · والسؤال ليس اذا كـان خمسون او مئة الف مواطن سيتحولون الى اثرياء ، فهذه مسألة اجتماعية في اساسها · فالتضخم له ثمن سلبي وبديل ايجابي ايضا · سنضطر الى استثمار ما بين ٣٠ ـ ٦٠ مليار ليرة في النقب ، على شكل استثمارات غير انتاجـية · واذا تحقق لنا نتيجة ذلك ، نقب جديد ذات ركيـزة جديدة ـ بالامكان القـــول عندئذ اننا دفعنا ثمن التضخم المالي ، ولكننا حققنا فائدة » (١٠) ·

اضافة الى التضخم المالي السريع المتوقع خلال هذه الفترة، هناك اخطار اخرى متوقعة ، خاصة بالنسبة لفرعي البناء والصادرات · فالمقاولون وعمال البنـاء سيفضلون العمل في التحصينات الجديدة على حساب البناء السكني ، الامرالذي سيزيد النقص القائم في المساكن ، الذي يعتبر من اهم المشاكل الاجتماعية القائمة حاليا · اضافة الى ذلك ، فان الحكومة الاسرائيلية ستضطر خلال هذه الفتـرة، من اجل تمويل الاعمال الامنية هذه ، الى اقتطاع جزء من الميزانيات الاجتماعية، مما سيخلق خيبة امل كبيرة ، وينسف توقعات البعض من ان السلام سيحقـــق الرفاهية خاصة للطبقة الفقيرة من الاسرائيليين ·

كذلك يتخوف البعض من خطر انتقال جزء كبير من العاملين في الفـــــروع الصناعية المعدة للتصدير ، الى ورشة البناء في النقب ، خاصة وان هذه الفروع بدأت تعاني خلال الفترة الاخيرة من مشاكل كثيرة بسبب الغاء حوافز التصدير وتعويم قيمة الليرة ، بموجب السياسة الاقتصادية الجديدة ·

فترة انتقالية نحو عهد جديد

مهما كانت مشكلات هذه الفترة ، والاخطار المترتبة عليها بالنسبة للاقتصـاد الاسرائيلي ، فانها تعتبر في نظر كثيرين داخل اسرائيل ، بمثابة فترة انتقاليـــة ضرورية ، نحو عهد اقتصادي جديد ، يحمل الكثير من الاحتمالات بالنسبـــة للاقتصاد الاسرائيلي · والاسرائيليون متفائلون جدا بهذه الاحتمالات ، وقـــد عادوا يتحدثون عن « الاستقلال الاقتصادي » الذي كثيرا ما حلموا به في الماضي،

دون ان يتحقق منه شيء • فالاعتماد على المساعدات الخارجية خاصة الاميركية، كان يزداد سنة بعد اخرى ، حتى بالنسبة الى وجبه القطور ، على حد قول ارليخ نفسه • والان بدأ الاسرائيليون يشعرون انهم على ابواب مرحلة جديدة مليئة بالفرص والاطماع ، حتى راحوا يتساءلون ، وبجدية ، كيف يمكن استغلال هذا الوضع لمصلحتهم ، لكي يكون لهم في المستقبل الدور الاكبر في اقتصاد المنطقة•

وقبل التطرق الى اهدافهم في المستقبل القريب والبعيد ، التي بدأ الحديث عنها صراحة ، لا بد ان نذكر ميزتين اساسيتين لهذه المرحلة الجديدة ، مرحلة « السلام الاقتصادي » على حد قولهم : اولا ، السلام مع مصر سيمكن اسرائيل من تخفيض نفقات الامن لديها بشكل ملحوظ ، وتسريح جزء كبير من الطاقة البشرية العاملة في مجال الامن ، خاصة من العاملين في الجيش الدائم والاحتياط • وتعتبر هذه المسألة غير ثابتة ، بأعتبار ان تحقيقها يتعلق بمدى كبير بالموقف على الجبهة الشرقية ، وكثافة العمل الفدائي داخل اسرائيل ، الذي تتطلب « مقاومته » طاقة بشرية كبيرة من قوى الامن والجيش • وتراهن اسرائيل في هذه الحالة ، على ان الوضع الامني سيسوده الهدوء التام ، مع خروج مصر من دائرة الحرب ، اذ ان الدول العربية الاخرى لا تستطيع القيام بأي عمل حربي ضدها من دون مصر ، كما اعلن ذلك رئيس الحكومة الاسرائيلية بيغن في الكنيست بعد اتفاقات كامب ديفيد (١١) • وبناء على هذا الافتراض ، بدأ الحديث حول الانتقال من اقتصاد الحرب الى اقتصاد السلام ، يتخذ طابعا جديا ، حتى باتت المشكلة في نظر حاكم بنك اسرائيل سابقا ، موشي زنبار ، مثلا ، تتمثل في كيفية استيعاب وسائل الانتاج ـ الاموال والطاقة البشرية ـ التي ستتحول من القطاع الامني الى قطاع العمل المدني الانتاجي (١٢) •

اما الميزة الثانية للعهد الاقتصادي الجديد ، فهي التبادل التجاري الحر بين اسرائيل ومصر ، وما يهم اسرائيل هنا هو فتح السوق المصري على مصراعيه امام البضائع الاسرائيلية ، وبناء عليه يجري التخطيط لتوسيع الفروع الصناعية المعدة للتصدير ، وفق ما يتلاءم مع الوضع الجديد • ويطالب موشي زنبار بوضع « اسس ثابتة بين اسرائيل ومصر ، لزيادة الصادرات الاسرائيلية بواسطة فتح حقيقي وعملي ـ وليس نظريا ـ للسوق المصرية ، وربما اسواق عربية اخرى ، امام البضائع والخدمات الاسرائيلية • يجب ان يكون السلام بمثابة رافعة لتوسيع الصادرات الاسرائيلية ، وضمان مصادر تسويق سهلة » (١٣) • وهنا تبرز بوضوح حدة المطامع الاسرائيلية ، فالجميع يتحدثون حول الطريق الانسب والامثل لاختراق واستغلال السوق المصرية ، وكيف ستتحقق اهداف اسرائيل اخيرا في توسيع صادراتها وحل مشكلة عجزها التجاري ، حتى وصل بعضهم الى حد المطالبة « بأن تحصل مصر على المساعدات الاميركية ليس على شكل بضائع اميركية او نقدا ، وانما بواسطة بضائع تكون مصر ملزمة بشرائها من

اسرائيل بتمويل اميركي » (١٤) ٠

على الرغم من هذه الرغبة الكبيرة في اختراق السوق المصرية ، والامال الواسعة بتوسيع فرع الصادرات ، فان هناك بعض الشكوك في اسرائيل حول احتمال النجاح في الوصول الى المستهلك المصري بصورة مفيدة ومربحة ٠ فرئيس اتحاد الصناعيين ابراهام شفيط مثلا ، يعتبر ان القطاع الانتاجي في اسرائيل لا يتلاءم مع متطلبات السوق المصرية ٠ « لقد نافست اسرائيل صناعات اوروبية واميركية ممتازة ٠ وما تنتجه ـ اما انه ما زال غير ملائم للسوق المصرية ، او ان المصريين ينتجونه بأنفسهم وغير محتاجين اليه على شكل واردات من اسرائيل ٠٠٠ يجب ان يتبدل الكثير في مستوى المعيشة وفي القوة الشرائية لدى المستهلك المصري ، لكي يصبح مستهلكا للبضائع الاسرائيلية . ولا اعتبر ان هذا الحلم يمكن تحقيقه على المدى القصير » (١٥) ٠

الصناعة الاسرائيلية امام تحد كبير

اضافة الى العقبات التي قد تعترض طريق تسويق الصادرات الاسرائيلية في السوق المصرية ، والتي مصدرها نفور المستهلك المصري « لاسباب غير موضوعية وتاريخية » على حد تعبير موشي زنبار ، فان هناك عقبات محلية ايضا . يمكن ان تؤثر على حجم هذه الصادرات او زيادتها نتيجة توسيع فروعها الصناعية . وبالتالي على امكانية تسويقها في السوق المصرية ٠

اولى هذه العقبات هي التكلفة العالية في الفروع الصناعية المعدة للتصدير وبالتالي ارتفاع اسعار منتوجاتها ٠ وربما هذا هو القصد الاساسي من وراء حديث شفيط ، بأن الصناعة الاسرائيلية غير معدة للسوق المصرية ٠ ويتحدث حول هذه النقطة ايضا الخبير الاقتصادي الاسرائيلي دافيد كوخاف ، الذي يقول : « يجب الا يعترينا الوهم بأن تتحول مصر على امتداد بضع سنوات الى سوق رئيسية للصادرات الاسرائيلية ، فالصناعة والزراعة في اسرائيل في تركيبها الاساسي ، مخصصان للتصدير الى البلدان الصناعية المتطورة ذات الدخل العالي ، وليس مصادفة ان نحو ٩٠٪ من مجموع الصادرات الاسرائيلية مخصص لبلدان اوروبا واميركا » (١٦) ٠

اما اسباب ارتفاع التكلفة في الصناعة الاسرائيلية فكثيرة ومتنوعة ، اهمها . سياسة الكشف التي تتبعها اسرائيل بالنسبة للصناعات المعدة للتصدير ٠ وتهدف هذه السياسة الى تطور طبيعي لهذه الصناعات في ظروف المنافسات من جانب الواردات ٠ واذا اخذنا في الاعتبار ان الواردات الاسرائيلية في معظمها من البضائع الاوروبية والاميركية ، نستنتج ان ظروف المنافسة صعبة وتتطلب الكثير من الجهد والنفقات ٠ اضافة الى عامل المنافسة ، فان النقص في المواد الخام

وفي الطاقة البشرية هما من الامور الاساسية التي تساعد على رفع التكلفة في الصناعة المعدة للتصدير • فاسرائيل تعاني من نقص شديد في الموارد الطبيعية ومصادر الطاقة (النفط والغاز) وفي امكانيات الحصول على طاقة كهربائية رخيصة ومواد خام زراعية هامة • كذلك فهي بعيدة عن اسواق الصادرات ومصادر استيراد المواد الخام ، ونتيجة ذلك فان تكاليف الشحن لديها باهظة • بالنسبة للطاقة البشرية في القطاع الانتاجي ، فان اسرائيل تعاني من نقص كبير بها ، وعلى حد قول رئيس اتحاد الصناعيين شفيط فان هذا القطاع ينقصه اليوم الكثير من الايدي العاملة حتى ان « هناك عدة طلبات لمنتوجات صناعية الى بلدان خارجية بقيمة نصف مليار دولار لا تستطيع المصانع في اسرائيل انتاجها وتزويدها بسبب النقص في الطاقة البشرية » (١٧) •

على الرغم من هذا الواقع ، يطمح كثيرون في اسرائيل الى توسيع الفروع الصناعية المعدة للتصدير بهدف استغلال فتح السوق المصرية ، مبررين طموحهم هذا في ايجاد حلول سريعة للمشاكل التي تعترض طريق التقدم الصناعي في اسرائيل • فالمنافسة مع البضائع المصرية غير واردة في نظرهم ، الا انهم لا يجدون تفسيرا لماذا سيفضل المستهلك المصري مثلا ، البضائع الاسرائيلية على البضائع الاوروبية والاميركية ، خاصة وانها لا تقل سعرا او تزيد جودة ؟• وحسب دراسة اعدتها هيئة التخطيط الاقتصادي في وزارة المالية الاسرائيلية ، يتوقع ان تصل قيمة الصادرات الاسرائيلية الى مصر خلال السنة الاولى بعد التوقيع على المعاهدة ، الى مئة مليون دولار كحد اقصى • وستشمل هذه الصادرات منتوجات كيماوية مثل المبيدات وادوية زراعية والات زراعية ومواد غذائية معلبة وغيرها (١٨) • مقابل ذلك تطمح اسرائيل بالحصول على النفط والقطن غير المصنع من مصر في مجال التبادل التجاري بينهما • وهناك من يحذر من الاعتماد على مصر في موضوع الطاقة ، « فالمشكلة هنا ان احدا لا يعرف كم من النفط تستطيع مصر ان تصدر ، وعلى امتداد كم من الوقت ••• والخطر أن تضع اسرائيل موضوع الطاقة كله ، من فرط الحماسة ، في السلة المصرية ـ وهذا ليس جيدا ••• اذ ربما وصلت مصر الى وضع لا يعود لديها نفط للبيع ـ عندئذ ستبقى [اسرائيل] مع سلة فارغة • ان كل من لا يملك طاقة ، لا يستطيع ان يسمح لنفسه بكماليات من هذا النوع » (١٩) • على اي حال فان الاتجاه السائد في اسرائيل ، هو عدم الاعتماد كليا على النفط المصري في المستقبل ، خاصة بعد تجربة ايران ، التي دفعت السلطات الاسرائيلية الى بدء البحث عن مصدر ثابت للطاقة ، حتى وان كان ذلك الولايات المتحدة نفسها •

التحذير من الطاقة البشرية الرخيصة من مصر

كان موضوع الطاقة البشرية الرخيصة من مصر ، اكثر الامور التي جذبت

الاسرائيليين ، منذ زيارة السادات الى القدس · وقد كثر الحديث عنها وتشعب ، وكان يتمحور حول نقطة واحدة : احتمال استغلال هذه الطاقة في اسرائيل ، في شتى المجالات ـ الزراعة والصناعة والخدمات والبناء ـ كطاقة رخيصة ، بالطريقة نفسها التي استغل بها العمال من المناطق المحتلة بعد حرب ١٩٦٧ · ويبدو أن الظروف التي ستعيشها اسرائيل ، بعد توقيع معاهدة السلام ، والمتمثلة في ورشة البناء الكبيرة في النقب ، ستساعد على استقدام الاف العمال المصريين لاستغلالهم في بناء المنشآت العسكرية والاستيطانية هناك ، وفي مشاريع اخرى داخل اسرائيل · وقد بدأت تسمع اصوات التحذير من جانب كبار المسؤولين والخبراء الاقتصاديين لما قد يولده هذا الامر من ضرر على الاقتصاد والمجتمع الاسرائيلي · فرئيس اتحاد الصناعيين شفيط يعتبر ان « نصف مليون عامل مصري رخيص ،يسكنون اكواخا متعفنة ، بينما يقوم الاسرائيليون بدور الافندية ـ هو بمثابة نهاية دولة اليهود ، انه نهاية الخاصية القومية واليهودية للدولة ، ودفع الحياة بها نحو النمط الشرقي ، ثم تنكر كامل ومطلق لقيم العمل والارتزاق اليهودي الجديد » (٢٠) · وفي مذكرة اعدها خبراء وزارة العمل حول المخاطر الاقتصادية والاجتماعية ، بعد فتح الحدود مع مصر ، ورد تحذير واضح من ان « فتح الحدود امام طاقة عمل غريبة ورخيصة وغير كفؤة ، وبأعداد كبيرة جدا ، يمكن ان يؤدي الى تقويض الاستقلال الاجتماعي القومي لاسرائيل · ان هذه المشكلة قائمة الان وربما ازدادت خطورة في المستقبل » (٢١) · وتجدر الملاحظة في هذا السياق ، ان الاقتصاد الاسرائيلي اعتاد خلال السنين العشر الاخيرة على طاقة عربية من المناطق المحتلة · « ففي السنين الاولى بعد حرب ١٩٦٧ ، تراوح معدل عدد العمال العرب من المناطق المحتلة في اسرائيل بين ٣٠ـ٤٠ الفا ، وفق ما سمحت به السلطات هناك · بعد ذلك ازيلت الحواجز واليوم يعمل في اسرائيل اكثر من ٧٠ الفا · ورغم ان هؤلاء العمال يشكلون فقط ٤ر٥٪ من سائر العمال في اسرائيل ، فان نسبتهم عالية جدا في عدد من الفروع ، فهم يشكلون نحو ٣٠٪ من المأجورين في فرع البناء ، ٢٥٪ من العاملين في الزراعة ، ونحو ٢٠٪ في الخدمات الصحية والضيافة والنقل و ٧٪ من عمال الصناعة ··· واذا كان هذا الوضع قد بدأ يولد مشاكل اقتصادية واجتماعية معقدة ، فكم بالحري عندما ستتدفق طاقة بشرية هائلة من مصر التي يسكنها اكثر من ٤٠ مليون انسان » (٢٢) ·

اضافة الى « الانعكاسات الاجتماعية » التي قد تولدها مسألة تشغيل طاقة بشرية رخيصة من مصر ، فان البعض ، ايضا ، يحذر من هذه الطاقة لانها قد تؤدي الى تخفيض انتاجية العمل في اسرائيل ومستواها التكنولوجي· « فاصحاب المبادرة سيفضلون استخدام عمال بأجر رخيص بدلا من الاستثمار في العمل المهني وفي التقدم التكنولوجي » (٢٣) ·

وانطلاقا من هذه المحاذير يتحفظ الجميع تقريبا من مسؤولين وكتاب من مسألة استخدام عمال مصريين في اسرائيل ، الا ان التحذير شيء والواقع شيء اخر ، وقد يجيء يوم ـ اذا ما وقعت معاهدة السلام بين الطرفين ـ يتدفق فيه الاف العمال المصريين الى النقب وغيره من المناطق ، الا اذا تم استيعابهم في دائرة العمل في مصر او منع وصولهم الى اسرائيل · واكثر ما تخشاه اسرائيل هنا هو هروب المستثمرين الاسرائيليين الى مصر حيث الطاقة البشرية الرخيصة والربح الوفير ·

مشاريع مشتركة وتصدير الخبرة

اذا كان هناك نفور معين في اسرائيل من امكانية استخدام آلاف العمال المصريين ، كما رأينا ، بالاضافة الى عدم تأكد واضح من القدرة على اكتساح السوق المصرية على المدى القريب ، لعدم ملاءمة الصناعة الاسرائيلية مع متطلبات هذا السوق ـ فأن هذا لن يمنع اسرائيل من محاولة استخدام شتى الوسائل الاخرى للاستفادة من العلاقات الاقتصادية مع مصر ، بما يعود عليها بالفائدة · واول ما تتطلع اليه هو التعاون في المجالين الزراعي والسياحي ، فاسرائيل تدعي ان لها خبرة واسعة في الحقل الزراعي ، « وبينما يسود عدم الوضوح في مجال الصناعة ، فأنه يتوقع ان يحدث تعاون فوري وصادرات وفيرة في المجال الزراعي · ولقد اعلن المصريون سلفا انهم مهتمون بمساعدة اسرائيلية كبيرة من اجل تطوير الزراعة لديهم · وفي هذا الاطار يمكن اشراك خبراء زراعيين ومصانع لانتاج معدات الري والكيماويات وشركات هندسية · وتأمل اسرائيل ان تصدر خلال السنين المقبلة [لمصر] معدات ومنتوجات [زراعية] بعشرات الملايين من الدولارات » (٢٤) ·

ومن بين مخططات التعاون التي يدور الحديث حولها في هذا المجال ايضا ، هو ما ذكره نائب رئيس الحكومة المصرية حسن التهامي بعد اتفاقات كامب ديفيد ، حول « احياء النقب بمياه من النيل » · وتعقب المصادر الاسرائيلية حول ذلك بقولها ان هذا المشروع ـ اي نقل المياه من النيل الى النقب ـ هو فكرة المهندس الاسرائيلي اليشاع كلي ، احد مسؤولي شركة تاهال [تخطيط المياه في اسرائيل] ، وكان قد اعلنها قبل سنوات ، « على اساس انها مشروع يعود بالربح على كل من اسرائيل ومصر ، اذ يمكن بواسطته حل مشكلة المياه في اسرائيل على المدى البعيد بواسطة الحصول على واحد بالمئة فقط من مياه النيل، اي ٨ر٠ مليار كوب من مجموع ٨٠ مليار كوب سنويا » (٢٥) · ويدعي واضع المشروع ايضا انه مع تنفيذه يمكن حل بعض مشاكل الري في المناطق العربية

ايضا : ري شمال سيناء ، تزويد المياه لقطاع غزة ، وتزويد مياه اسرائيلية من المشروع القطري الى الضفة الغربية ٠

اضافة الى ذلك فان اسرائيل تطمح في اقامة مشاريع مشتركة مع مصر ، على غرار تطوير مشترك للطرق البرية والجوية والبحرية التي تربط بينهما ، ثم مشاريع لتشجيع السياحة الدولية الى كل منهما ٠ كذلك طرحت عدة افكار حول انشاء محطة ذرية مشتركة في سيناء لانتاج الطاقة ، وحتى لتحلية مياه البحر ٠ والنقطة الاساسية التي يشير اليها الخبراء الاسرائيليون هنا ، هي ان هذه المشاريع يجب ان تعتمد على مصالح مشتركة للطرفين وعلى مسألة الربح الاقتصادي ، لانه بالامكان عندئذ الحصول على تمويل لها من مصادر دولية واميركية (٢٦) ٠

عوامل النجاح والفشل

هذه هي مجمل التوقعات الاسرائيلية ، حتى الان ، لمستقبل العلاقات الاقتصادية مع مصر ، في حال التوقيع على معاهدة السلام بين الطرفين ٠ ويمكن ان نلاحظ هنا انها تنطلق جميعا من المصلحة الذاتية وكيفية استغلال الوضع الجديد لخدمة الاقتصاد الاسرائيلي وتطويره ٠ فأسرائيل ترغب في تطوير صادراتها الى مصر في المستقبل ، وفي تقوية التعاون في المجالين الزراعي والسياحي بالاضافة الى المشاريع المشتركة كما رأينا ، فهل يتحقق لها ذلك كله على المدى البعيد ؟ وما هي عوامل النجاح والفشل في كل ما تخططه ؟

ان اول ما يلزم اسرائيل للبدء في عملية الانطلاق الاقتصادي في عهد السلام هو استثمارات واسعة جدا في جميع المجاولات ، خاصة في الصناعة ٠ ويحتمل ان تحقق اسرائيل بعض النجاح في هذا المجال بمساعدة خارجية خاصة من اصحاب رؤوس الاموال اليهود في الخارج ، فالمؤتمر اليهودي العالمي بادر الى تشكيل لجنة دولية برئاسة البارون غي دي روتشيلد ، رئيس الفرع الفرنسي للعائلة اليهودية الثرية ، للبحث في متطلبات اسرائيل الاقتصادية في عهد السلام المتوقع مع مصر ٠ وتتالف هذه اللجنة من عشرين اقتصاديا واصحاب رؤوس اموال من الولايات المتحدة ودول اميركية واوروبية، وقد عقدت اول اجتماع لها في نيويورك برئاسة الدكتور كيسنجر ، وزير الخارجية الاميركي السابق (٢٧) ٠ ومتطلبات اسرائيل الاقتصادية في عهد السلام لا تشمل الاستثمارات فقط ، وانما استمرار تدفق المساعدات اليهودية ايضا ، التي تحصل عليها اسرائيل في اطار الجباية ، خاصة وان هناك خوفا كبيرا لدى المسؤولين الاسرائيليين من انخفاض هذه المساعدات او انقطاعها انذاك ٠ وتسعى اسرائيل جاهدة ايضا لضمان

استمرار المساعدات الاميركية لها في فترة السلام ، حتى بعد انتهاء مرحلة بناء القواعد العسكرية في النقب • واذا كانت اسرائيل راغبة في تدفق الاستثمارات والمساعدات اليهودية والاجنبية عليها ، فأنها لا تبدي رغبة البتة في تدفق رأس مال عربي • وحسب المذكرة التي اعدها خبراء وزارة العمل فأن « رأس المال هذا ، الذي سيستثمر في القطاع الخاص ، من شأنه ان يؤدي الى تغيير العلاقة بين القطاع الحكومي والعام والخاص • وربما ادى الى اضعاف اجهزة الرقابة القائمة وخلق احتكارات تحت سيطرة اجنبية في المفصل الرئيسي في المجتمع الاسرائيلي » (٢٨) • واذا استثنينا مسألة « رأس المال العربي » الذي تخشاه اسرائيل ، يبقى السؤال ، هل تستطيع اسرائيل بمساعدة استثمارات يهودية واميركية صرفة منافسة الاستثمارات العربية والاجنبية في مصر وحتى في دول عربية اخرى • فالهدف هو توسيع الصادرات الاسرائيلية لاكتساح السوق المصرية ثم لاحقا الاسواق العربية الاخرى ، ولكن ما المانع من ان يكون الاتجاه عكسيا ، حيث تبذل مصر جهدا في تطوير صناعتها في حال توفر الاستثمارات ، خاصة وان معظم المقومات الاخرى لهذا التطور من طاقة بشرية ضرورية ومواد خام وغيرها متوفر لديها • عندئذ ستفقد اسرائيل تفوقها التجاري او سيطرتها الصناعية واذا كانت مهتمة فعلا باستمرار التبادل التجاري فعليها الخوض في لعبة المنافسة • والاسرائيليون متنبهون لهذا الاحتمال ، لذلك فهم يخشون جدا من تطور صناعتهم في اتجاه متطلبات السوق المصرية فقط ، والحل الاضمن في نظرهم هو التوجه والتركيز على الصناعات التي تتطلب الكثير من الخبرة والتقنية ، وفي الوقت نفسه لا تتطلب الكثير من الطاقة البشرية ، وربما يكون هذا لمصلحتهم على المدى البعيد •

اذن فعوامل النجاح والفشل قائمة بالنسبة لتطور العلاقات الاقتصادية بين مصر واسرائيل ، فأذا كان تجاوب السوق المصرية مع البضائع الاسرائيلية يخدم مصلحة اسرائيل على المدى القصير ، فأن تطور الصناعة المصرية في المقابل يخدمها على المدى البعيد ، لانه سيضطرها الى اتباع المنافسة كما ذكرنا • والمنافسة مفيدة لاسرائيل على اي حال ، فهي تضطرها الى تطوير صناعتها واتباع اسس تكنولوجية حديثة • والخوف الاسرائيلي ليس ناتجا عن عامل المنافسة بحد ذاته ، وانما من احتمال استثمار رؤوس الاموال العربية الضخمة، في مشاريع صناعية وانمائية في مختلف البلدان العربية ، خاصة في مصر • وهل بامكانها المنافسة في هذا المجال ؟• الحل على المستوى الرسمي ، وفق السياسة الاقتصادية التي اقرتها حكومة ليكود بعد توليها السلطة ـ هو تحويل اسرائيل الى مركز مالي دولي ، واحتلال نفس المكانة التي كانت تحتلها بيروت قبل الحرب • واذا كان جو عدم الاستقرار الامني غير كفيل بتحقيق هذا الهدف ، فأن جو السلام الذي سيسود بعد توقيع معاهدة السلام ربما يساعد في تحقيقه • وحسب قول احدهم فأن المطلوب فقط في هذا المجال هو « الاستمرار

في تشجيع البورصة في تل ابيب وتمكين القاهرة وامراء النفط من المضاربة بها » (٢٩) ٠ وهنا ايضا تثور التساؤلات والتحفظات حول جدوى هذه المسالة خاصة وانها تتناقض مع « الهدف الصهيوني في العمل والانتاج » ٠ فبموجب هذه السياسة « ستتحول [اسرائيل] خلال عشر سنوات وربما اقل ، الى مركز مالي اقليمي ، ويتحقق حلم ارليخ ، وفي البداية سيسر كثيرون وتكون كسويسرا وفادوز ــ والحياة هناك جيدة كما نعلم ٠ ولكن في المرحلة الثانية ستبدأ المشاكل٠ سيبدأ مرة اخرى مجرى الكراهية القومية بالاضافة الى الكراهية الاقتصادية ٠ وسيضطر اولادنا واحفادنا الى الدفاع مرة اخرى ليس عن بيت وملجأ لليهود هذه المرة ، وانما عن مركز مالي ٠ واسرائيل كهذه لن تكون مركز جذب للمهاجرين ، ولن يبدأ فيها مجرى تركيز الشعب اليهودي اقليميا ٠٠٠» (٣٠) ٠

على اي حال ، فأن الانطلاق من اقتصاد الحرب الى اقتصاد السلام ، رغم كل ما كتب حوله من توقعات واحتمالات ، يبقى نجاحه او فشله رهينة العامل الامني في الاساس ، فالامن مطلوب اقتصاديا كما هو مطلوب عسكريا ، وما دام الوضع غير مستقر على الجبهة الشرقية ، وبالنسبة للنشاط الفدائي ، فأن اسرائيل ستضطر الى الحفاظ او حتى زيادة نفقاتها العسكرية ، رغم تحييد مصر ٠ ويبقى هذا الامر احد التوقعات الاكيدة على اي حال ، في المدى القريب والمتوسط ٠

الحواشي

(١) الاهرام ، ١٩٧٨/١١/٢٢ ٠
(٢) هآرتس ، ١٩٧٨/١١/٢٦ ٠
(٣) الاهرام ، ١٩٧٨/١١/٢٢ ٠
(٤) نقلا عن موشي زنبار ، حاكم بنك اسرائيل سابقا ، معاريف ، ٧٨/١٠/٢٧٠
(٥) المصدر نفسه ٠
(٦) ر٦٦ ، ١٩٧٩/١/٣ ٠
(٧) المصدر نفسه ٠
(٨) معاريف ، ١٩٧٨/٩/٢٠ ٠
(٩) معاريف ، ١٩٧٨/٩/٢٤ ٠
(١٠) في مقابلة معه ، معاريف ، ١٩٧٨/١٠/١٢ ٠
(١١) هآرتس ، ١٩٧٨/٩/٢٦ ٠
(١٢) معاريف ، ١٩٧٨/١٠/٢٧ ٠
(١٣) المصدر نفسه ٠
(١٤) زنبار ، مصدر سبق ذكره ٠
(١٥) معاريف ، ١٩٧٨/١٠/١٣ ٠
(١٦) معاريف ، ١٩٧٨/٩/٢٢ ٠
(١٧) معاريف ، ١٩٧٨/١٠/١٢ ٠
(١٨) معاريف ، ١٩٧٨/٩/١٩ ٠
(١٩) دوف غنحوفسكي ، يديعوت احرونوت ، ١٩٧٨/١٠/١ ٠
(٢٠) معاريف ، ١٩٧٨/١٠/١٣ ٠
(٢١) يديعوت احرونوت ، ١٩٧٨/١١/٩ ٠
(٢٢) يسرائيل تومار ، يديعوت احرونوت ، ١٩٧٨/١٠/٢٦ ٠
(٢٣) المصدر نفسه ٠
(٢٤) دافيد ليفكين ، دافار ، ١٩٧٨/٩/٢٢ ٠
(٢٥) راجع نص المشروع في معاريف ، ١٩٧٨/٩/٢٧ ٠
(٢٦) د٠ كوخاف ، مصدر سبق ذكره ٠
(٢٧) يديعوت احرونوت ، ١٩٧٨/١١/١٩ ٠
(٢٨) يديعوت احرونوت ، ١٩٧٨/١١/٩ ٠
(٢٩) يسرائيل تومار ، يديعوت احرونوت ، ١٩٧٨/١٠/١٣ ٠
(٣٠) المصدر نفسه ٠

اميــل حبيبي

المعجــزة

١ ـ قمح ودم

لنبدأ بالتجربة الشخصية التالية :

في احد تلك الايام ، التي تكررت علينا منذ « حرب الايام الستة » كما تتكرر اغنية « الهيبز » : « اعط السلام ولو فرصة واحدة » ، او الدراويش : « الله حي، الله حي » ! وكنت خارجا من مطعم في حي « العجمي » بيافا بعد ان تناولت افطاري طبقا من الفول المدمس ، اذا بجماعة من الناس ، وجوههم سمراء وشعورهم فاحمة وقاماتهم خامرة وثيابهم اسمال ، يتحلقون سيارتي التي كنت اوقفتها على رصيف الشارع أمام الساحة المعروفة باسم ذلك الحي ٠

فلما اقتربت من السيارة وايقنوا انني صاحبها تدافعوا نحوي ان : اي عمل يا أدون ؟ وراودوني بلغة عبرية كظيمة ٠ فلم يخرج من بين شفتي سوى ابتسامة صامتة لا هي عربية ولا هي عبرية لم استطع ان أفك فكي من عقالها الا بعد ان تحركت بي السيارة بعيدا عنهم ٠

اولئك كانوا عشرات من العمال العرب ٠ طلعوا مع الفجر من مدينة غزة ومن القرى القريبة منها ـ ما يسمى « قطاع غزة » ـ بعد ان فاضت بهم مكاتب العمل العسكرية في المناطق المحتلة ٠ وكانوا يحتشدون في هذه الساحة كما احتشد غيرهم في ساحات مدن اخرى في البلاد ٠ وكانوا يعرضون عضلاتهم على مقاولين اسرائيليين يأتون في سياراتهم ويحملون فيها من يختارونه من

هؤلاء العمال للعمل في البناء وفي الزراعة وفي التنظيفات وفي غيرها من الخدمات البلدية ·

وهؤلاء ليسوا ممن يسمون ، رسميا ، « العمال المنظمين » · ان « العمال المنظمين » هم اولئك الذين ترسلهم الى أماكن العمل مكاتب عمل اقيمت في اطار الجهاز العسكري الذي يتولى الحكم في المناطق المحتلة · وتشير الاحصاءات الرسمية الى ان عددهم قد بلغ ، الان ، حوالي ٦٧ الف عامل (١) وان نسبتهم الى مجموع العمال في اسرائيل قد بلغت ٤ر٥ بالمئة · وبلغت نسبتهم في اعمال البناء ٣٠ بالمئة ، وفي الزراعة ٢٥ بالمئة وفي اعمال التنظيف والخدمات (البلدية) ٢٠ بالمئة · وبين الحمالين ٧ بالمئة (٢) ·

وبلغ معدل الاجر الشهري (في سنة ١٩٧٦) ، للعامل « المنظم » من المناطق المحتلة ويعمل في اسرائيل ، ١٣٥٤ ليرة اسرائيلية او ما يعادل ٤٨ر٤ بالمئة من معدل الاجر الشهري للعامل الاسرائيلي (٣) · ومما لا شك فيه ان القيمة الحقيقية لهذا الاجر قد انخفضت الان نظرا لسقوط قيمة العملة الاسرائيلية ، حتى اصبح الدولار الواحد يساوي الان ما بين ٥ر١٨ و ١٩ ليرة اسرائيلية ·

أما العمال ، الذين التقيتهم في ساحة العجمي بيافا ، فهم من بين الوف العمال غير المنظمين الوافدين يوميا على ما يسمى « اسواق العمل الحر » في المدن الاسرائيلية · وكل هؤلاء العمال ، « المنظمين » منهم وغير المنظمين ، لا يتمتعون بأية ضمانات اجتماعية · ويقضون ساعات عديدة من حياتهم اليومية في السفر الى اماكن العمل وفي العودة منها · والعديد منهم يتكلف اجور السفر من قريته الى المدينة ثم يعود دون ان يجد « سيدا » يشتري قوة عمله · وهناك « اسياد » يفضلون ان يبيت عمالهم في مكان العمل نفسه · ويغلقون عليهم الابواب بالمفاتيح « حفاظا على امن الدولة » · وفي ١٩٧٦/٣/١٤ احترق حتى الموت ثلاثة من العمال العرب من غزة كان « السيد » قد اقفل عليهم ابواب مشغله في تل ابيب ليبيتوا فيه · فشب حريق فلم يستطيعوا الافلات منه · ونقرأ في الصحف اسبوعيا تقريبا ، عن « حوادث عمل » يذهب ضحيتها عمال من غزة او من احدى القرى المحتلة في الشمال وفي الشرق وفي الجنوب ·

لقد انتابني الحرج حين التقيت هؤلاء العمال لاول مرة · وذلك لان مزيجا من الشعور بالخجل وبالعجز تملكني · فكيف ، كيف قيض لهذا الشعب ان يلف ويدور ، منذ حوالي اربعين عاما ، في حلقة مفرغة تطحنه ثم تطحنه دون ان يستطيع الفكاك منها والانطلاق نحو حريته التي يستحقها ، « على الاقل » ، شأنه شأن بقية الشعوب ؟!

فأنا ، مثل بقية ابناء جيلي ، اذكر العمال « الغزاوزة » · هكذا كنا نسمي ، في الثلاثينات وفي الاربعينات ، العمال القادمين من غزة ومن جنوب فلسطين

عموما • وكانوا يعملون في أشق الاعمال وبأبخس الاجور في يافا وفي حيفا وفي القدس وفي اللد والرملة وغيرها •وكانوا يبيتون في الخرائب ووراء جدران الابنية التي لم يتموا تشييدها وعلى قارعات الطرق •

وفي مستهل حياتي السياسية والادبية ـ وكلاهما امر واحد ـ نشرت قصة قصيرة عن حادث واقعي جرى امام عيني في العام ١٩٤١ : عن سيارة ضخمة ، شبيهة بناقلة الدبابات ، كانت تعبر « شارع الملوك » بحيفا وقد امتلأت بالقمح • وكان القمح يتسرب منها الى ارض الشارع ، حبات حبات ، كما ترشح قطرات الماء من شربة فخار • فاذا بشاب « غزاوي » ، في مثل سني آنذاك (١٩ عاما) يركض وراءها محاولا ان يلتقط حبات القمح• ثم حاول القفز على ظهر السيارة• فوقع بين عجلاتها • فاختلط دمه بحبات القمح الذهبية • واما السيارة الضخمة، الشبيهة بناقلة الدبابات ، فظلت تنهب بعجلاتها المطاطية « شارع الملوك » الذي اصبح اسمه اليوم ، في « دولة اسرائيل » ، « شارع الاستقلال » ! حتى غابت عن انظارنا وابتلعتها المدينة الصاخبة •

واخذت لهذه القصة عنوان « قمح ودم » !

لقد تبددت اوراق المجلة التي نشرت فيها هذه القصة • فأضعت كل اثر لها • وظللت عبثا ، ابحث عنها ثلاثين عاما حتى التقيت اصحابها ، مرة اخرى وبعد ثلاثين عاما !

قمح ودم ••• ارض ودم ••• شعب يعيش في دوامة دم ••• تطحنه وتطحنه •

ولكنه باق ولا يفنى •

٢ ـ باق ولا يفنى

ان هذه الحقيقة الضخمة ، عن ان هذا الشعب يأبى الفناء ، تزداد شموخا وسطوعا وادهاشا ، حتى كأنها « المعجزة » ، كلما تعمقنا في اغوار المأساة التي ابتلى بها هذا الشعب وكشفنا عن القوى السوداء التي خططت مؤامرة القضاء عليه ومحوه من الوجود •

وهذه الحقيقة ، المعجزة ـ وكم من شعب اجترح المعجزات بنضاله وتضحياته وبدأبه ـ قد نبهتني اليها عيون العمال « الغزازوة » الذين التقيتهم في ذلك اليوم البائس ، في ساحة العجمي بيافا بعد غياب ثلاثين عاما ، كما نبهت نيوتن التفاحة الساقطة فوق رأسه الى جاذبية الارض •

عيونهم هذه هي التي دفعتني ، فيما بعد ، الى كتابة القصة عن « الوقائع

الغربية في اختفاء سعيد ابن النحس المتشائل » ٠ واعتبر هذه القصة استمرارا، بعد ثلاثين عاما ، لتلك القصة عن « القمح والدم » التي ضاعت ٠ اما هم فلم يضيعوا ولن يضيعوا٠ ولقد اردت ان يبقى ذكرهم، كما هم باقون ، طول الوقت٠

« ولقد رأيتهم ، في ساحة العجمي بيافا ، شبانا في عمر الثمر ٠ من غزة وجباليا وبيت لاهية وبيت حنون ودير البلح وخان يونس ورفح ٠ يتمايلون على سيارة السيد المقاول كتمايل شواهد القبور فوق اخوتهم الشهداء في مقابر غزة (٤) ٠ فآمنت بان الاحياء يستطيعون ، هم ايضا ، ان يبقوا في وطنهم !

« ورايتهم في ساحة باريس (ساحة الحناطير فالخمرة في الزمان الاول) ، في حيفا التحتا ، شبانا في عمر نوارة اللوز والمشمش اللوزي والتفاح ابي الخد الاحمر ، من قلقيلية وطول كرم وجنين وطوباس والسيلة واللبن ، ينتظرون سيارة المقاول ٠ فيتحسس سواعدهم ويروح النظر في قاماتهم المشوقة ٠ فيمتطي منهم من اشتد ساعده وقست ساقه ٠ فاستعدت حالنا قبل عشرين عاما فآمنت بأن هذا الشعب لا يفنى » (٥) ٠

وقد يصاب بعض القراء ، الموجودين خارج بلادنا ، بالدهشة من تأكيدي على ان استمرار الشعب العربي الفلسطيني في البقاء هو ما يشبه المعجزة ٠ فأي شعب زال من الوجود ؟

الهنود الامريكان ، في امريكا الشمالية ؟!

حتى هم يخرجون الان ، وبعد حوالي اربعمئة عام ، من المحتجزات ويطالبون بحقوقهم القومية !

ومع ذلك فان حكام اسرائيل يريدون اقناع انفسهم انه في مقدورهم ، وفي الربع الاخير من القرن العشرين بالضبط ، ازالة الوجود القومي للشعب العربي الفلسطيني في وطنه ٠

لقد كانت معركتنا ، في الداخل ، ومنذ البدء ، معركة مستمرة ضد هذا الوهم الاجرامي والجنوني ٠ ان معركتنا هذه مستمرة في اوضاع آنية شديدة الصعوبة والتعقيد حيث استطاع حكام اسرائيل ، اخيرا ، ان يعتمدوا على الخيانة العلنية التي أقدمت عليها الرجعية العربية متمثلة بانور السادات لتعزيز هذه الاوهام في رؤوسهم وفي رؤوس تلك الاوساط الاسرائيلية التي تتأثر بهم ٠

ورفيقنا ماير فلنر (٦) صدق حين قال ، تعقيبا على « اتفاقيتي كامب ديفيد » التي وقعها في ١٩٧٨/٩/١٨ كل من مناحيم بيغن وانور السادات ووقعها ، « شاهدا » ، جيمي كارتر :

« هناك احساس لدى الجمهور (الاسرائيلي) بان حكومة بيغن صنعت سلاما٠

ولذلك يقيمون الافراح وحلقات الرقص · ولكن هناك ، ايضا ، معارضون » ·

« ان كل انسان ذي ضمير يعرف اننا لا نستطيع أن نرقص على دمار الشعب الفلسطيني » ·

« ان اتفاقيتي كامب ديفيد هي محاولة للقضاء على الشعب العربي الفلسطيني · ولم تحلا اية قضية اساسية · بل ابعدت السلام العادل والثابت · فبدون أحقاق حق الشعب العربي الفلسطيني في اقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني لن يكون هناك سلام · وكل تسوية هي موقتة وتحمل في طياتها اخطار انفجارات جديدة · ان الاحمق فقط من يتوهم انه بالامكان القضاء على حق شعب من الشعوب » (٧) ·

ولكن ، هكذا تصرف ولا يزال يتصرف حكام اسرائيل ، وكل من يقف وراءهم، تجاه الشعب العربي الفلسطيني ووجوده وحقوقه · وحين يكون الحمق سياسيا، ويكون اصحابه مسؤولين عن مقدرات دول وشعوب ، تتعرض هذه الشعوب للويلات وللكوارث ·

لقد تباهى احد المسؤولين الكبار في الوكالة اليهودية (٨) انه كتب في مذكراته ، في سنة ١٩٤٠ ، ما يلي : « يجب ان يكون واضحا لنا انه لا يوجد مكان في هذه البلاد لشعبين سوية · فبوجود العرب لن نستطيع ان نحقق هدفنا بأن نصبح شعبا مستقلا في هذه البلاد الضيقة · والحل الوحيد هو ان تكون ارض اسرائيل ، او القسم الغربي من ارض اسرائيل على الاقل ، بدون العرب · ولذلك فما من طريق آخر سوى نقل العرب من هناك الى بلد مجاور · علينا ان ننقلهم دون ان نترك اثرا لاية قرية ولاية حمولة » ·

ورئيس وزراء اسرائيل الحالي ، مناحيم بيغن ، كان تباهى بان مجزرة دير ياسين – التي اقترفتها منظمة عسكرية بقيادته في ١٩٤٨/٤/٩ وادت الى مقتل حوالي (٣٠٠) من الاطفال والنساء والرجال العرب الفلسطينيين العزل ، بدم بارد ، قد ساعدت على جلاء العرب عن فلسطين ·

وحين تساءلت غولده مئير ، في سنة ١٩٧٣ وكانت رئيسة للوزراء آنذاك : « اين هو هذا الشعب العربي الفلسطيني » ، كانت تستخلص النتائج « المنطقية» – في نظرها – من ممارسات السياسة الاسرائيلية الرسمية ازاء الشعب العربي الفلسطيني ، ذلك الباقي منه في وطنه صبرا وذلك الذي شردوه ، طوال الاعوام الثلاثين الماضية ·

لقد عشنا الاعوام الاولى ، منذ قيام اسرائيل ، نهب القلق اليومي ان نجد انفسنا ، في كل لحظة، محمولين في سيارة عسكرية تقذفنا الى ما وراء الحدود· وكان طرق جار زائر على الباب يوقفنا على اقدامنا في انتظار « المكتوب »· وكم

من قرية عربية القي اهلها باجسامهم تحت عجلات تلك السيارات العسكرية ليمنعوها من ترحيل اخوتهم واخواتهم · وكان رفاقنا، الشيوعيين اليهود، يقفون دائما معنا تحت تلك العجلات· فاذا داستنا داستهم واذا تراجعت امامنا تراجعت امامهم · لقد كانوا قلائل · ولكنهم دائما ادركوا ـ ونادوا بذلك ـ ان مصير شعبهم مرتبط بمصير شعبنا · « فبدون الشعب العربي الفلسطيني لا يمكن تحقيق سلام عادل وثابت » (٩) ·

واشد الاحباط ، الذي عانيناه في تلك السنوات المأساوية ، واشد المرارة كانا حصيلة تلك الطبول الفارغة التي قرعتها الرجعية الحاكمة في العديد من الاقطار العربية آنذاك عن « القاء اليهود في البحر » وغير ذلك من الشعارات المماثلة · كانت صرخاتنا ، صرخات المقتلعين يوميا من جذورهم الملقى بهم ـ فعلا ويوميا ـ في صحارى الغربة الموحشة بعد ان مسحت قراهم عن وجه الارض ، تضيع في جوف تلك الطبول فلا يسمع العالم غيرها ولا يكون لها من نتيجة سوى انها ساعدت حكام اسرائيل على قلب الحقيقة رأسا على عقب وعلى اخفاء الحقيقة الاساسية ، والقائمة بالفعل على ارض الواقع ، انهم هم ـ وبممارساتهم اليومية ـ الذين كانوا يلقون بالعرب في بحار الخيام ومعسكرات اللاجئين · كانوا ، هم هم وما زالوا ، يتوهمون انه من الممكن بناء مستقبل شعب على خرائب شعب آخر ·

ولقد ادركنا ، منذ اللحظة الاولى ، ان مواقف الرجعية العربية هذه غير صادرة فقط عن التعصب القومي الاعمى ولا فقط عن جهلها المثير والذي عناه شاعرنا القديم بقوله : « يا أمة ضحكت من جهلها الامم » ، بل هو صادر ـ في الاساس ـ عن ارتباطها بمخططات الامبريالية ، هذه الامبريالية التي كانت معنية (ولا تزال معنية) بمنع الشعب العربي الفلسطيني من ممارسة حقه الشرعي في تقرير المصير ومعنية بدعم حكام اسرائيل في اطماعهم التوسعية وفي تحويلهم الى « قبضاي » لحماية مصالحها النفطية والاستعبادية وللمحافظة على عروش اعوانها في الشرق الاوسط ·

ويجب ان تصبح هذه الحقيقة واضحة الان بعد ان وصل انور السادات بين شقي الحلقة المفرغة ، بين الشعارات المتطرفة وممارسات الخيانة الفعلية ·

ونحن، حين نستمع الى أنور السادات وهو يبرر خيانته بدعوى هذه الشعارات نفسها وبأنها اساءت الى القضية الفلسطينية وبأنه جاء الى اسرائيل مستسلما لكي يطمئن شعب اسرائيل على ان العرب « قرروا ان لا يلقوا اليهود في البحر »

وان هذه الشعارات هي « ٧٠ بالمئة من المشكلة » ، نشعر بالمرارة نفسها التي اصابتنا ونحن نعاني من سياسات حكام اسرائيل العنصرية ، من التشريد ونهب الارض وهدم البيوت • ثم كان حكام اسرائيل ، واعتمادا على هذه الشعارات ، يضعوننا في وضع المعتدي ويسجنون اطفالنا لان علما اسرائيليا فوق مدرستهم وجد ممزقا !

وحين نتحدث عن « المعجزة » ، التي اجترحها الشعب العربي الفلسطيني ، في تحديه ممارسات ازالته من الوجود ، فأننا نرى امام اعيننا ، وأساسا ، هذا الدور الذي قامت به الرجعية العربية وتريد ان تنهيه الان ، بانور السادات، نهاية « منطقية » !

٣ ــ حقيقة السياسة الاسرائيلية الرسمية

لقد كان واضحا لنا ، منذ البداية ، ان حكام اسرائيل قد بنوا ممارساتهم الفعلية على قاعدة سياسة مخططة استهدفوا بها اقتلاع الشعب العربي الفلسطيني من وطنه •

ويصبح هذا الامر واضحا الان بعد ان اجمع هؤلاء الحكام ، السابقون والحاليون ، على رفض الاعتراف بالشعب العربي الفلسطيني وبحقوقه القومية الشرعية حتى ولو وافق هذا الشعب على اجراء التسوية العادلة • وموشى ديان ، وزير الحرب السابق والخارجية الان ، ردد اكثر من مرة ان حكام اسرائيل لن يعترفوا بالشعب العربي الفلسطيني وبحقه في تقرير المصير وفي اقامة دولته المستقلة الى جانب دولة اسرائيل حتى ولو اعترف هذا الشعب باسرائيل •

هذه هي الحقيقة الاساسية ، في النزاع الاسرائيلي ــ العربي ، منذ بدايته • ولما كانت الامبريالية الامريكية مسؤولة عن هذا الموقف ، المسؤولية الاساس ، فنحن لا نستطيع ان ننسى دور الرجعية العربية الحاكمة في التغطية ، عن سبق عمد واصرار ، على هذه الحقيقة الاساسية •

لقد استمرت عمليات طرد العرب من بلادهم حتى بعد ان عقدت اتفاقية رودس، (ابريل ١٩٤٩) •

وبعض الامثلة فقط ــ من كثير :

في ١٩٤٩/٦/٥ طرد سكان قرى الحصاص وقبطية والجاعونة ، في منطقة صفد • وازيلت هذه القرى من الوجود •

وفي ١٩٥٠/٨/١٧ جرى طرد جميع الباقين من اهالي مجدل عسقلان في

الجنوب (اكثر من الفي ـ ٢٠٠٠ ـ نسمة) واجلوا بالقوة الى مدينة غزة ٠

وفي ١٩٥١/١/٢٤ جرى طرد سكان ١٣ قرية عربية في وادي عارة في المثلث بعد ضمه الى اسرائيل ٠

وفي ايلول ، ١٩٥٣ جرى طرد سكان قرية ام الفرج قرب نهاريا ٠ ثم دمرت كليا ٠

وفي النقب ، في جنوب البلاد ، كان يعيش قرابة ٤٨ الف عربي في سنة ١٩٤٨ وكانوا يقطنون المنطقة القريبة من قطاع غزة وحول بئر السبع وبئر عسلوج فقامت السلطات الاسرائيلية بابعاد معظمهم الى الاردن والى شبه جزيرة سيناء حتى لم يبق منهم ، في السنوات الاولى لقيام اسرائيل ، سوى ١٣ الف مواطن٠

هذه أمثلة قليلة فقط من عملية لم تتوقف ، حتى الان ، بل توسعت لتشمل هضبة الجولان السورية المحتلة والضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين ٠

واحصاءات الامم المتحدة نفسها تشير الى ان اكثر من نصف مليون عربي فلسطيني قد اضطروا الى اللجوء الى ما وراء الحدود من الضفة الغربية وقطاع غزة خلال وبعد العدوان الحزيراني في عام ١٩٦٧ ٠

لقد قام جيش الاحتلال الاسرائيلي ، في اليوم الرابع من ايام « حرب الايام الستة » بطرد اهالي قرى اللطرون (في الضفة الغربية ـ عمواس ويالو وبيت نوبا ـ حوالي عشرين الف نسمة ، دون قتال ٠ اضطروهم الى السير في الظلام عشرات الكيلومترات ، اطفالا ونساء وشيوخا ، دون طعام او شراب ٠ ثم هدموا هذه القرى عن بكرة ابيها وحرثوها واقاموا في مكانها ـ تعبيرا عن « التطور » وعن « المدنية » ـ منتزها عاما « بارك كندا » ٠ وهذا هو المصير نفسه الذي آلت اليه قرى الجفتلك في غور الاردن ٠ فقد ازيلت ، ايضا ، من الوجود بعد ان طرد منها اهلها البالغ عددهم ، هم ايضا ، حوالي عشرين الفا ٠ وحين سئل وزير الحربية انذاك ، موشى ديان ، لماذا هدم هذه القرى ، اجاب : للقضاء على الجرذان التي عششت في بيوتها !

أنني ، بتقديمي هذه الامثلة القليلة ، لا ارغب في اجراء احصاء ٠ انما اريد ان ادعم بالوقائع حقيقة وجود مخطط استهدف ويستهدف ازالة الشعب العربي الفلسطيني من الوجود ٠ ولنقل : قوميا ! فاذا استمر هذا الشعب في البقاء وازداد تلاحما واصرارا على حقوقه القومية العادلة فهذه هي « المعجزة » التي لم يحسب لها حساب اولئك الذين لم يتعلموا من هزيمة آلتهم الحربية الجبارة في الفيتنام فلم يعلموا اولادهم ٠ بل وقفوا معهم ، في ازقة الشرق الاوسط المعتمة، يلعبون لعبة « الورقات الثلاث » في كامب ديفيد ٠

٤ ـ لا « معجزة » بل نضال صحيح

« المعجزة » ، التي انحدث عنها ، صدمت حكام اسرائيل ولا تزال تصدمهم ٠ لكن شوفينيتهم الخرقاء تحول دونهم والاعتراف بان « المعجــزة » ـ اذا كانت موجودة حقا ـ فهي انه لا يزال موجودا ، في الربع الاخير من القرن العشرين ، رجال سياسة يتوهمون انه في مقدورهم ان يزيلوا من الوجود اي شعب مـــن الشعــوب ٠

هذه الحقيقة صدمت روبين بركات حين كان سكرتيرا عاما للهستدروت ٠ وفي ١٠/٣/١٩٥٥ هتف ، متألما ، هتافه المشهور : لم نكتسب خبرة في علاقاتنــا مع الاقليات (يعني :العرب) ٠ فقد حسبنا ان تكون اسرائيل دولة يهودية نقية بدون اقليـــات » ٠٠٠

وامنون لين ، النائب العنصري (عن الليكود) والذي يتباهى بكرهه للعرب، صاح مندهشا : « حتى حادث كفرقاسم (١٠) المؤلم لم يؤد الى هرب العرب الى ما وراء الحدود » (١١) !

وحتى التباكي على « خطر تعريب » هذه المنطقة او تلك في اسرائيل ، بعـد ثلاثين عاما من طرد العرب وهدم قراهم ومصادرة اراضيهم وانشاء المستوطنات اليهودية عليها، هو ـ بالاضافة الىكونه عملا عنصريا مكشوفا ـ اعترافـضمني بان السياسة العنصرية في زمننا هي سياسة خرقاء وفاشلة حتما ٠

بمختلف الوسائل جرى اجلاء الاكثرية الساحقة من الشعب العربي الفلسطيني عن المناطق التي اصبحت ، فيما بعد ، « دولة اسرائيل » ٠ ومن اصل ٥٨٥ قرية عربية كانت قائمة في حدود اسرائيل الحالية (بدون المناطق التي جرى احتلالها في عام ١٩٦٧) هدمت ٤٧٨ قرية عربية ولم يبق سوى ١٠٧ قرى عربيـــــة ٠ وانخفضت نسبة العرب ، في هذه المناطق من ٥٢ بالمئة الى ٩ر١٧ بالمئة فـــي سنة ١٩٤٩ (لم يبق منهم في اسرائيل سوى اقل من ١٧٠ الــــف نسمة) ٠ واستمرت هذه النسبة فيالانخفاض حتى وصلت ، في عام ١٩٥٠ ، الى ٩ر١٢ بالمئـــة ٠

وبمختلف القوانين ، وبالاجراءات العسكرية ، صادرت السلطات الاسرائيليـة الاغلبية الساحقة من اراضي القرويين العرب ٠ وتشير الاحصاءات الحكومية ، في العام ١٩٥٢ ، الى ان القرويين العرب كانوا يملكون ويزرعون ٠٠٠ر٢٥٠ر١ دونم (١٠ دونما يساوي هكتارا واحدا) ٠ وفي العام ١٩٥٣ ، وبموجب قانون خاص ، صادرت السلطات ما يقرب من مليون دونم من هذه الاراضي بالاضافة الى الاراضي التابعة للوقف الاسلامي وتبلغ مساحتها حوالى ٧٠ الف دونم ٠

وفي الجليل ، الذي يدعو المسؤولون الى الاسراع في « تهويده » ، كـــان

موجودا ، قبيل قيام دولة اسرائيل ، ٢١٠ قرى عربية • فجرى هدم ١٣٥ قرية منها وتشريد اهاليها والاستيلاء على اراضيهم • ولم يبق الان في الجليل سوى ٧٥ قرية عربية • وتستمر السلطات في مصادرة اراضي العرب دون ان تلوح في الافق اية نهاية لهذه الممارسات العنصرية •

ويتحدث « علماء » في اسرائيل عن « خطر الانفجار السكاني العـــربي » • وغولده مئير تعلن انها تستيقظ من منامها مذعورة حين تتذكر انه في كل لحظة يولد طفل عربي جديد في اسرائيل !

لقد انشأ وزير الزراعة الجديد (فيحكومة ليكود) ، ارييل شارون ، فرقـا متحركة مسلحة ، سميت « الكوماندو الاخضر » تجوب انحاء النقب وتطلـــق الرصاص على اغنام البدو وتدمر ابارهم وتصادر اراضيهم وتحاول نقلهم، بالقوة الى محتجزات خاصة •

ومؤخرا ، وبحجة ان «الوضع الديموغرافي» في الجليل يتحول بسرعة لصالح العرب ، « بشرتنا » الصحيفة المطلعة « هآرتس » (١٩٧٨/٨/١١) ان «شخصية كبيرة » اعلنت ، بعد ان قامت بزيارة الجليل ، قائلة : « يظهر انه لا يوجد مـــن طريق سوى احضار الكوماندو الاخضر الى الجليل او اقامة فرقة مشابهة » ••

ان كل مطلع يعرف ان السلطات تملك من الاراضي العربية المصادرة مساحات شاسعة ، في الجليل وفي غير الجليل ، للمحافظة على ما تسميه « التهويد » • فالقضية ليست ، اذن وفي الاساس ، اقامة مستوطنات يهودية • اذن ، ماذا ؟ الا يحق لنا ان نفكر بان التمادي في هذه السياسة العنصرية والجنونية يقـود هؤلاء المتمادين الى « العمل » على « تخفيض » عدد العرب في الجليل وفي غيـر الجليـــل ؟

الى اين ، وكيـف ؟

ان الجماهير العربية ، تدعمها القوى الديمقراطية اليهودية في اسرائيل وعلى راسها الشيوعيون ، لا يمكن ان تنتظر من احد ان يجيبها على هذا السؤال بـل توحد صفوفها وتشن اوسع نضال جماهيري مفتوح دفاعا عن مجرد بقائها فـي وطنهـــا •

وارجو الا يساء فهمي حين اعود واؤكد دور الشيوعيين ، اليهود والعرب ، الايجابي • انني عالم بحساسية العديد من الوطنيين ازاء هذه المسألة • ولكن ، هل اقيم لهم من الحجارة ، « اولادا لابراهيم » كما جاء في الانجيل ؟ لقد كانت المأساة اكبر من ان يتحملها اي فريق آخر • وهل يستطيع اي كاتب منصف ان يؤرخ لتاريخ العرب في اسرائيل ، بل لتاريخ الشعب العربي الفلسطيني ، فـي نضاله الحديث ، دون ان يذكر هذا الدور ؟

وفي المناطق المحتلة عام١٩٦٧ ؟

يكفي ان نستعيد ، بكل المدلولات ، ما كان ليفي اشكول ، وهو رئيس للوزارة، يردده من اسف لان حكام اسرائيل مضطرون ، « هذه المرة » ، ان يأخذوا اهالي المناطق المحتلة (وكان يسميهم « العروس ») اذا ارادوا ان يأخذوا ـ اي ان يضموا الى اسرائيل ـ المناطق المحتلة (وكان يسميها « الدوطة ») ٠ اي ان « هذه المرة » تختلف عن « المرة السابقة » ـ عن « المرة السابقة » ـ عن العام ١٩٤٨ !

الم تكن هذه الحقيقة كافية حتى يدرك حكام اسرائيل انه لا « فكاك » مـــن الشعب العربي الفلسطيني وما من بديل عن التفاهم مع هذا الشعب وعلى اساس احترامـــه ؟

المرة تختلف عن « المرة السابقة » ـ عنالعام ١٩٤٨ !
وفي بلاد الغربـــة ؟

ان حكام اسرائيل يعرفون ان الرجعية العربية ، التي تبيع شعوبها واوطانهـا وخيرات شعوبها من المستعمر الاجنبي بصحن من العدس ، مستعدة دائما على التفريط بهذا الشعب « المشكلة » ، الشعب العربي الفلسطيني ٠

ولكن ، الم تؤد مذابح ايلول (١٩٧٠) في الاردن الى سقي حـــق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير المصير بدماء هذا الشعب والى صقلها على نـــار الامـــه ؟ لقد ضحت الرجعية اللبنانية بلبنان كله في محاولتها تدمير الشعـب العربي الفلسطيني فلم تدمر سوى نفسها ٠

انه لامر ناجع حقا ، وبعد هذه التجربة ، ان يعود حكام اسرائيل (في حلف مهلك مع الامبريالية الامريكية) ، الى المقامرة على « مجزرة لبنانية » جديـــدة يقترفها ، هذه المرة ، الحكم الساداتي الرجعي في مصر ٠

فهذا الحكم ، مثله مثل الرجعية اللبنانية ، يتوهم انه بتدميره الشعب العربي الفلسطيني ـ بتقديمه هذا الشعب « كبش ضحية » ، سينقذ نفسه من الدمار ٠٠٠

صحيح ان القضية الفلسطينية هي اساس النزاع في الشرق الاوسط ٠ ولكنها ليست اساس البلاء ٠ هذان امران مختلفان ٠

ان اساس البلاء هو رغبة الامبرياليين في الاستمرار في نهب خيـرات الشرق الاوسط ، خصوصا البترولية ، وترتيب الاوضاع السياسية والاقتصادية في دول الشرق الاوسط ترتيبا يتفق وهذه الرغبة ٠ انهم يرغبون ، قبل كل شيء اخر ، بالقضاء على حركة التحرر الوطني العربية وتصفية مكاسبها ومنع الشعـــوب العربية من مواصلة مسيرتها نحو التحرر السياسي والاجتماعي ٠

ولذلك كان على انور السادات ، كي ترضى عنه الادارة الامريكية ، ان يفرط بمكاسب الشعب المصري الاقتصادية والسياسية ، ان يفـــرط بسياسة مصـــر المستقلة وان يفرط بنظامها الاجتماعي المتقدم ، بل يفـــرط بالشعب العربـــي الفلسطيني وبحقوقه ·

فهل من الممكن ان ترضى الشعب المصري ، في المدى التاريخي ، هذه السياسة وان يرضيه هذا الحكم ؟ من الواضح ان الجواب هو سلبي كما كان سلبيا في مصر في عهد الحكم الملكي الرجعي وفي العراق وفي السودان وفي اليمن وفي ليبيا وغيرها ·

اننا لا نستهين بهذه « المجزرة السياسية » التي اقـدم عليهـا انور السادات بحق الشعب العربي الفلسطيني بحق الشعب المصري نفسه · ولكن نتيجتها لا يمكن ان تكون مختلفة عن المجازر السابقة والحالية التي تعرض لها ويتعرض لها الشعب العربي الفلسطيني · انها ستجر كوارث جديدة على شعوبنا ، ولكنها لا يمكن ان تحقق السلام الذي تنشده الشعوب ·

فالتعاون بين الرجعيات الحاكمة في خدمة الامبريالية وعلى حساب الشعوب، لم ولا يمكن ان يؤدي الى تسوية قضايا العلاقات بين الشعوب · ما من طريقـة الى تحقيق السلام في الشرق الاوسط الا اذا كان سلاما عادلا · لقد استطـاع الشعب العربي الفلسطيني ان يحافظ على وجوده وان يشحذ نضاله العادل من اجل حقوقه القومية لانه وجد طريقه الى انصار الحرية والسلام في العالم اجمع·

حينئذ لم يفقد امله ولم ير ما يراه السادات بان الامبريالية « قادرة علـــى كل شيء » · وحين كانت اقسام من قيادات هذا الشعب ، وبسبب مصدرهـــا الطبقي ، تصاب باليأس كانت اما ان تنطوي على نفسها واما ان تنتهج سبيـل المغامرة والسياسات غير العادلة التي تقود الى الامر نفسه ـ الانطواء علـــى النفس ·

وعلينا ان نلاحظ ان الطعنة التي وجهها انور السادات ـ بالنيابة عن الرجعية العربية كلها ـ الى الشعب العربي الفلسطيني تستهدف ، فيما تستهدفه ، رمي هذا الشعب وقياداته في مهـــاوي اليأس ؟ ان اخطر شيء على الشعب العربي الفلسطيني في الوقت الحاضر ـ وتبعا لذلك : اخطر شيء على قضية السلام ـ هو الوهم بان المخطط الامبريالي ـ الصهيوني ـ الرجعي العربي ـ متحقـــق لا محالـــة ·

ان تلك الاوساط العربية ، التي عادت من جـديد الى المزايدة علـى الشعب العربي الفلسطيني وعلى حقوقه ، هي اوساط تساعد على نشر اليأس وعلـــى تمرير المؤامرة الامبريالية ·

ا نالاخطار على السلام وعلى حقوق الشعوب جدية وتتفاقم · ولكن ، بالمقابل علينا ان نرى ان الرجعية اصبحت تمارس خيانتها على المكشوف· ان الامبريالية تقامر على الانظمة المعفنة التابعة لها مقامرة الخسران على ثيابه الداخلية ·

من الضروري ، اكثر من اي وقت مضى ، المحافظة على وحـــدة الصـف الوطنية والتشبث بالسياسة العادلة والعقلانية التي تؤيدها كل الشعوب والدول المتحررة والمحبة للسلام · فبذلك فقط لا تعود « المعجزة » معجزة بل امرا طبيعيا ومفهوما في الربع الاخير من القرن العشرين ·

ان تجربتنا في بلادنا ، خلال ثلاثين عاما من الصمود في اقسى الاوضـاع ، تؤكد هذه الحقائق المضيئة ·

ان طريق الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية هو طريق مسدود · لـم يؤد ولن يؤدي الى السلام المنشود · وما من طريق للخروج من حلقة الـدم المفرغة سوى طريق الشعوب ــ سلام الشعوب ·

هذا ما اردت ان اقوله لاخوتي العمال من غزة الذين التقيتهم في صباح يوم من الايام في ساحة العجمي بيافا · ولكنني اجلت هذا القول حتى اقوله ليس باسم حزبي وحده · واعتقد ان هذا اليوم قد جاء !

الحواشي

(١) من بيان اللجنة المركزية للاحصاء (لجنة حكومية) الى الصحف ، فـي ١٩٧٨/٧/١٢ ·

(٢) من تصريح لمدير قسم الخدمات في وزارة العمل ، باروخ حقلائي ، «الاتحاد»، ١٩٧٨/٩/١٩ ·

(٣) من كتاب الاحصاءات السنـوي *Statistical Year Book* رقم ٢٨(١٩٧٧)·

(٤) الاشارة الى ما انتشر من يقين في غزة وفي بقية انحاء المناطق المحتلة ، في اواخر ايلول ١٩٧٢ ، عن تحرك الشواهد فوق قبور الشبان الاربعة في مقبرة حـي الشجاعية في غزة ــ مصطفى عبد القادر وحسين سليمان وعون سعيد ونوفـل شمالي الذين صرعهم رصاص الاحتلال ·

(٥) « الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل » القدس ، منشورات صلاح الدين ، صفحة ١٠٦ ·

(٦) الامين العام للحـزب الشيوعـي الاسرائيلي (ركاح) ·

(٧) الاتحاد ، ١٩٧٨/٩/٢٣ ·

(٨) يوسف فايس في مقال ظهر فـي صحيفة «دافار» ، ١٩٦٧/٩/٢٩ ·

(٩) من بيان المكتب السياسي للحـزب الشيوعي الاسرائيلي حول اتفاقية كامب ديفيد ، « الاتحاد » ، ١٩٧٨/٩/١٩ ·

(١٠) « حادث كفر قاسم » هو مجزرة كفر قاسم الرهيبة التي اقترفتها فرقة من حرس الحدود التابعة للجيش الاسرائيلي في الساعـة الخامسة مـن مسـاء ١٩٥٦/١٠/٢٩ ، (بداية العدوان الثلاثي على مصر) وقتلت ، بدم بارد ، ٤٩ من اهالي القرية العربية كفر قاسم (مواطني دولة اسرائيل) وبينهم ١٣ امـراة و ١٥ طفـلا ·

(١١) من مقال بقلم امنـون ليـن ، « يديعوت احرونوت » ، ١٩٧٥/١٢/١٩ ·

كريم مروه

ظاهرة الارتداد في مصر

من إنقلاب ١٥ مايو إلى إتفاقية كامب ديفيد

ان ظاهرة الارتداد التي شهدتها وتشهدها مصر ، والتي حولت مصر من مركز للتقدم خلال سلطة عبد الناصر الى مركز للتراجع والثورة المضادة خلال حكم السادات ، لم تنبت بشكل مفاجىء ، ولم تستو في فراغ ، خارج الظروف الموضوعية · بل كانت لها مقدماتها وجذورها على قاعدة الصراع الاجتماعي الطبقي الذي لا توقفه النوايا ولا الارادات في مجتمع ما تزال الراسمالية هي علاقات الانتاج السائدة فيه ·

احتدام الصراع داخل النظام الناصري وضده

وفي الحقيقة فان المجتمع المصري ، في الفترة الاخيرة من حياة الرئيس عبد الناصر ، كان يعج بالتناقضات والصراعات التي تفاقمت الى حد التفجر باشكال مختلفة وفي مجالات متعددة ، شملت كلا من المدينة والريف · وكان جوهر هذا الصراع اجتماعيا طبقيا ، وكان قطباه : قاعدة اجتماعية واسعة من العمال والفلاحين والفئات المسحوقة من البورجوازية الصغيرة عبر عبد الناصر موضوعيا عن مطامحها في التحرر والتقدم ، وفئات من البورجوازية وجدت في حركة عبد الناصر ما يتناقض مع مصالحها الاساسية · الا ان هذا الصراع لم يحسم ، ولم يكن من الممكن ان يحسم ، لصالح القوى الثورية · لان هذه القوى وجدت في وضع ذاتي صادرت فيه السلطة السياسية حقها وقدرتها بالتحرك السياسي ، واستبدلت فيه مبادراتها بالقرارات · وحرم في هذا الوضع على

القوة الاجتماعية الاكثر جذرية فيها ، الطبقة العاملة ، ان يكون لها تنظيمها السياسي الثوري ، الحزب ، وتنظيماتها الديمقراطية الجماهيرية المستقلة . بينما حافظت البورجوازية كطبقة على قدرتها في التحرك السياسي ، وعلى تطوير هذه القدرة ، داخل السلطة ومؤسساتها التشريعية والتنفيذية وخارج السلطة ايضا . ووجهت خط تحركها المضاد ، في بادىء الامر ، ضد التحولات الاجتماعية الاقتصادية وبغاية اجهاضها وافراغها من محتواها التقدمي . ومن ثم ضد السلطة السياسية نفسها ، وتحديدا ضد قيادة عبد الناصر بالذات ، بغاية التضييق على حركتها وازاحتها وصولا للاستيلاء على هذه السلطة . وبكلام اخر ، فلقد كانت تتحول مسألة التحولات الاجتماعية الاقتصادية ذاتها ، مسألة الحفاظ عليها وتطويرها ، الى موضوع صراع محتدم بين قوى غير متكافئة من حيث القوة والقدرات الاقتصادية . ولكنها غير متكافئة ، بخاصة من حيث القدرات السياسية . وهو الامر الاخطر الذي يشير اولا ، ومجددا ،الى الثغرات العضوية الاصلية في النهج السياسي الذي كان يقود العملية الثورية . ويطرح ، ثانيا ، مسألة ارتباط تلك التحولات وافاق تطورها ومصائرها بالسلطة السياسية كمسألة مركزية . ولا يوصد الباب ، ثالثا ، بوجه الصراع الاجتماعي ، بل هو يشرعه ولمصلحة القوى المحافظة والرجعية . بهذا المعنى ، يعود السبب الاساسي لاحتدام الصراع الى ان عبد الناصر كان يحاول تحديد موقفه في اختيار طريق تقدمي لتطور مصر دون ان يحسم في مسألة اساسية ذات وجهين متلازمين : السلطة اولا ، ثم الحزب والنظرية الثورية التي يستند اليها . ان بقاء عبد الناصر في موقف اللاحسم هذا مع استمراره في محاولة السير بمصر على طريق تقدمي ، ايقظ لدى القوى الطبقية السياسية المعادية للثورة كل الغرائز الشرسة ، وشجع الفئات العليا والمتوسطة من البورجوازية على التصدي لسلطته من اجل قلبها ، او احداث التغيير في موقعها لصالح البورجوازية قبل ان تتوفر الظروف لاحتمال تحولها الى سلطة مستقرة لصالح الطبقة العاملة . وبالاضافة الى ارتكاز هذه القوى في تحركها الرجعي على نقطة الضعف الاصلية في بنية النظام الناصري ، فلقد استفادت هذه القوى من الضعف العام الذي مني به هذا النظام بعد هزيمة حزيران والخلل الذي احدثته هذه الهزيمة في مؤسسات الدولة . ولم تنجح المحاولات التي قام بها الرئيس عبد الناصر لاصلاح هذه المؤسسات واحداث بعض التغيرات فيها في ازالة هذا الخلل .

ومن العوامل الحاسمة في فشل هذه المحاولات ، كونها انطلقت الى موجبات التصدي للقضية الوطنية والقومية المتفاقمة بعد حرب الخامس من حزيران من فصلها لا من ربطها بالقضية الاجتماعية ، وذلك في مرحلة باتت سمتها الاساسية

هي الترابط بل التشابك الموضوعي بين القضية الوطنية والقضية الاجتماعية ٠ لكن السلوك السياسي للقيادة كان يفترق عن موجبات هذا التشابك ، على مستوى التدابير التي اتخذت في تلك الفترة وعلى مستوى الموقف من القوى الطبقيـة السياسية ٠ ومن ذلك ، على سبيل المثال ، تعديل قانون التعاون الزراعي لمصلحة اغنياء الريف عام ١٩٦٩ ، التراجع عن تطبيق قرارات اجتماعية وسياسيـة سابقة يعكس تساهلا صريحا تجاه الرأسمالية التجارية والعقارية ، السكوت عن تعميم مفهوم رجعي « بالوحدة الوطنية » ينعش ، عمليا ، القوى والاتجاهـات اليمينية ، قمع التحرك الجماهيري الواسع في نوفمبر ٦٨ ٠٠٠ مما كان يصب ، في النهاية ، في افراغ « بيان مارس » (٦٨) من محتواه الوطني التقدمي مـن جهة ، ويفسح في المجال ، من جهة اخرى ، امام القوى الطبقية المعادية للثورة لان ترفع رأسها وتغذي عملية الفصل بين القضيتين : الوطنية والقومية والقضية الاجتماعية ، وتجهر بمسؤولية التحولات الاجتماعية الاقتصادية عن الهزيمـة العسكرية ٠ ولقد كان هذا الواقع ايذانا ببدء تحرك داخلي رجعي يتكفل ، مـن موقعه ، بنقل الهزيمة العسكرية للنظام الناصري الى الهزيمة السياسية الكاملة، مستفيدا ، الى ذلك ، من الصعوبات المتزايدة امام قيادة عبد الناصر في مواجهته للمشكلات المتفاقمة في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ٠ وظلت هذه الصعوبات تتفاقم ، وظل النظام الناصري اسيرا لها ، عاجزا عن ايجاد المخرج منها ، الى ان بلغت ذروتها في العامين الاخيرين من حياة الرئيس عبد الناصر٠ ان قسما كبيرا من هذه المشاكل نجم عن الازمة العامة التي ترتبت عن العـدوان والتي استمرت مدة طويلة دون حل بات الالحاح بضرورة توفره ظاهرة عامة ، مصريا وعربيا ، تجلت بوجهين مترافقين : احسـاس الناس والجماهير ، في الداخل وعلى الصعيد العربي ، بوطأة الهزيمة وبما يشكل ذلك من عناصـر ضاغطة تستدعي الاستجابة لها ، وحصول تغيرات نوعية جديدة هامة علـى المستوى العربي الشعبي والرسمي باتجاه الرد على الهزيمة ٠ ولقد تجسدت هذه التغيرات ببروز المقاومة الفلسطينية تأخذ بيدها القضية الفلسطينية وتطرحهـا بمحتوى نوعي جديد كحركة تحرر وطني ، وبانتقال السلطة السياسية في كل من ليبيا والسودان الى القوى الوطنية والديمقراطية ، وبالتحول التقدمي في السلطة في اليمن الجنوبية٠ ولم تكن هذه الظاهرة العامة بمجمل عناصرها ومضامينها الثورية والديمقراطية مجرد رد على هزيمة الخامس من حزيران ، بل كانت ، في الوقت نفسه ، تعبيرا عن غليان عربي عام بضرورة التغيير وباتجاهه ٠ كانت ، بمعنى من المعاني ، تفجرا لطاقات الحركة الثورية العربية تتطلع الى احتلال مصـر موقعها المعين المحدد في قلب هذا التغيير ، وتنتظر منها ان تلعب الدور الاساسي العائد اليهـا فيه ٠

لكن مصر ، في تلك الفترة ، لم تكن قادرة على القيام بهذا الدور · فعبد الناصر ، من جهته ، لم يعد قادرا على ممارسة زعامته وقيادته وتحكمه السابق بمجاري الصراع وتوجيهها · كما ان ردود الفعل العامة على الهزيمة ، على اهميتها ، لم تتمكن بدورها من ايقاف الهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية ضد حركة التحرر الوطني العربية التي تستهدف ، فيما تستهدف ، جني ثمار الهزيمة العسكرية انهيارا سياسيا كاملا للنظام الناصري · وهي الهجمة التي باتت تأخذ طريقها وتحرز المواقع فيداخل مصر نفسها · فالبورجوازية المصرية باتت على عجلة من امرها لازاحة عبد الناصر ولاستلام السلطة مباشرة ·

من هنا ، كان عبد الناصر يفتش عن حلول تمنع الانهيار او تؤجله · ولكنها لم تكن الحلول المطلوبة لمواجهة الاوضاع المتفاقمة ، من وجهة نظر القوى الصاعدة ، وبحكم اندفاعها الثوري · وفي هذا السياق من الظروف الصعبة وضع الرئيس عبد الناصر امام الموافقة على مشروع روجرز الذي لا بد من وضعه في مكانه الطبيعي كواحد من مخططات الهجمة الامبريالية · ولقد كانت الغاية الاصلية من هذا المشروع وضع عبد الناصر في المأزق من اجل اسقاطه ، خاصة وان هذا المشروع اشترط ، من جهة ، ايقاف حرب الاستنزاف ، وترافق، من جهة اخرى ، بتوجيه الضربة الموجعة للمقاومة الفلسطينية في ايلول ١٩٧٠ · ولقد خلق هذا الوضع بحد ذاته ، مناخا جديا ملائما لقيام قوى تعارض عبد الناصر وسط الجماهير الشعبية ، للمرة الاولى ·

في هذه المرحلة ، وفي هذا السياق ، بدأ عبد الناصر يدفع من رصيده الشعبي ومن سلطته الفعلية ثمن كل سياسته السابقة : ثمن سياسته في فترات الاقدام والجرأة في التصدى للامبريالية وللقوى الرجعية ، وثمن سياسته في فترات التردد التي طبعت مواقفه وفي فترات الهزائم · وان الضربة التي وجهت للنظام الناصري في حرب حزيران لم تكن ، في الحقيقة ، مجرد انذار ترفعه القوى الامبريالية والصهيونية والرجعية بوجه عبد الناصر من اجل ان ينكفىء ويضع حدا لطموحاته في توحيد الامة العربية وتحرير ثرواتها الوطنية . بل كانت تستهدف الاجهاز على قيادته وكل تجربته · كانت ترمي ، في النهاية ، الى الاسراع في احداث التغيير داخل مصر وفي موقع مصر ودورها المحدد في الوضع العربي العام ، اي الى الوصول بمصر مباشرة بعد هزيمة ٦٧ الى الوضع الراهن المتجسد بوصول السادات الى السلطة ·

وبهذا الصدد ، فلقد اكد تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني الصادر في اواخر ١٩٧٠ على ان هذه الفترة هي بداية مرحلة جديدة ، مبينا ان الاتجاه العام فيها هو بدء هجمة امبريالية صهيونية رجعية شرسة جديدة تستهدف قمع حركة التحرر الوطني العربية وتحقيق كامل اهداف الامبريالية في السيطرة الكاملة السياسية والاقتصادية على شعوبنا العربية ·

وفي ظروف هذه الهجمة ، كان على عبد الناصر من الموقع الذي يحتله في قيادة حركة التحرر الوطني العربية ان يختار طريقا اكثر حزما في العداء للامبريالية وفي مواجهتها ، واكثر استنادا الى القاعدة الجماهيرية الواسعة الداعمة لقيادته · ولكنه لم يتخذ القرار في اللحظة الحاسمة ، وتحديدا بعد التاسع والعاشر من حزيران غداة الهزيمة ، عندما خرجت ملايين مصر والعالم العربي ترفض تخليه عن المسؤولية في قيادة شعب مصر والامة العربية ، مع يقينها بانه يتحمل قسطا اساسيا من المسؤولية عن وقوع الهزيمة · عندها كان عليه ان يحسم في اختيار الطريق · وحينما تردد في هذا الاختيار فاته الوقت ولم يعد يملك ، تجاه تراكم الاحداث وتعمق تأثيرها السلبي على مجرى التطور ، لا القدرة ولا الادوات لكي يختار ويحسم · فالصراع الطبقي الذي كان يحتدم ويتفاقم في المدينة والريف كان يجد تعبيرا عنه داخل السلطة نفسها ، بسائر مؤسساتها واجهزتها ، ومن رأس الهرم فيها الى اسفله · بحيث لم تعد هذه المؤسسات والاجهزة تلك الاداة الرئيسية المطواعة المنسجمة مع خياراته ، كما في السابق · ان انعكاس الصراع على السلطة لم يكن بمعنى انها لم تعد بمنأى عن هذا الصراع وحسب ، بل ، اساسا هنا ، بمعنى أن القوى البورجوازية التي تمكنت من التسلق والاستقرار في مؤسسات السلطة اندفعت باقصى امكانياتها لاستخدام موقعها هذا من اجل حسم الصراع المحتدم لمصلحتها المطلقة · لقد وجدت نفسها في مواجهة ظروف نوعية جديدة لمجرى الصراع واتساعه ولمضامينه الطبقية النوعية ، فاستنفرت كل قدراتها الذاتية لقمع اي تحرك من شأنه ان يدخل مصر في عملية تطور جديدة لغير صالحها الاقتصادي والسياسي · ولم تكن مخاوف البورجوازية من الطابع الجديد لاحتدام الصراع بلا اساس · فهي لم تر في حركة التاسع والعاشر من حزيران مجرد انتفاضة جماهيرية تطالب بعودة عبد الناصر ، بل اعتبرتها انتفاضة موجهة ضدها ، ضد مجيئها الصريح الى الحكم · كما تسارع قلقها حيال ظاهرة جديدة من التحرك الجماهيري الواسع في المدينة : ظاهرة اختراق الطبقة العاملة المصرية القيود القانونية والبوليسية (مسيرة عمال المصانع في حلوان) ، مع ما استثار هذا التحرك العمالي من تحرك طلابي وشعبي عريض لم يعد يهاب القمع · لم تتوقف البورجوازية طويلا عند مطالب هذا التحرك ، وهي الواثقة من قدراتها على اجهاضها (الامر الذي حصل بالنسبة لبيان ٣٠ مارس) ، ولكنها توقفت مليا عند هذا التحرك بحد ذاته ، وبطبيعة القوى الطبقية المشاركة فيه · ورأت فيذلك مؤشرا على بداية عملية استقطاب اجتماعي لا يقل شكل التعبير فيه خطورة عن مضمونه · لا سيما ان هذه العملية لم تقتصر على المدينة بل طالت الريف ، هو

الاخر ، وعلى اساس اجتماعي جديد وبمستوى من الوعي الطبقي آخذ في التبلور. فالصراع الاجتماعي كان يحتدم في الريف ، على ارض الواقع ، ولم يبق مكتوما الا في وسائل الاعلام الرسمي . ولم تكن حادثة كمشيش هي الحالة الفريدة الاولى المتفجرة ، تدليلا على احتدام هذا الصراع ، كما انها لم تكن الاخيرة. لقد وجه الاصلاح الزراعي الضربة الحاسمة لعلاقات الانتاج الاقطاعية في الريف المصري . وهو بهذا المعنى يكتسب الجانب الثوري من مضمونه . لكنه ، وبسبب من عدم جذريته ، ادى الى احلال علاقات الاستثمار الرأسمالية في الزراعة ، والى تمايز اجتماعي جديد على قاعدة هذه العلاقات . وعلى هذا الاساس المادي ، بدأ يتخذ الصراع في ريف مصر طابعا اكثر تقدما واكثر احتداما . وفي مجاري هذا الصراع ، كانت قوى الرأسمالية الزراعية تمتلك القدرات المتنوعة والمتعددة ما يمنحها المواقع الاقوى ، سواء في « الاتحاد الاشتراكي » الذي هو السلطة السياسية الاولى في القرية ، او في « الجمعية الزراعية » التي هي بمعنى من المعاني ، مكان السلطة الاقتصادية فيها ، او المكان الذي كانت تطرح فيه وتعالج المصالح الاقتصادية للفلاحين . فلا يبقى من المظاهر الرسمية المعبرة عن صراحة ذلك الصراع سوى دوائر البوليس التي تثبت سجلات الشكاوى فيها ان معظم هذه الشكاوى في القرى المصرية تدور على النزاعات الاقتصادية الاجتماعية بين كادحي الريف المصري وبين مستثمريهم ، بين العمال الزراعيين وبين اصحاب العمل ، بين مستأجري الارض وبين مؤجريها. وعلى اساس من هذا التمايز الاجتماعي الذي بدأ يتخذ طابعا اكثر حدة وشمولية ، في المدينة والريف ، بدأ يتجلى وعي طبقي عام في مصر استنفر بمواجهته البورجوازية في المدينة والريف بأشكال متعددة من المواقف السياسية والتحالفات التي تعني في ما تعنيه ، استباق قيام التحالف الثوري بين الطبقة العاملة والفلاحين ، وقد استوت اسسه المادية . انها ، بالواقع ، المرة الاولى التي تشهد فيها مصر هذا التحرك الذي تشترك فيه في آن معا جماهير العمال والفلاحين .

ومن اشكال تجلي هذا الوعي الطبقي كان التمسك بعبد الناصر نفسه من قبل القوى الاجتماعية الواسعة ذات المصلحة بالتغيير . لقد اصبح الصراع على عبد الناصر ، في الفترة الاخيرة من حياته ، قضية هامة من قضايا الصراع المحتدم . ان عددا من اقرب المتعاونين معه لم يترددوا في لحظات معينة من ان يسفروا عن موقف معاد لعبد الناصر ، مناهض لخطه العام ، متعارض مع المبادىء والافكار التي يدعو للالتزام بها . وفي حالات عديدة ، كان يجري قمع العمال والفلاحين والطلاب الذين كانوا يضربون ويتظاهرون تحت شعارات

الناصرية ومبادئها ، دفاعا عن مصالحهم وعن هذه المبادىء · كانوا يقمعون باسم عبد الناصر وباسم سلطته وباسم الثورة التي قادها · ولم يكن عبد الناصر ليستطيع منع ذلك الا في الحالات النادرة ·

لقد كان من شأن ذلك كله ان يؤدي تدريجيا الى تحول داخل اجهزة السلطة باتجاه معاد لتوجهاتها ، يصب ، في النهاية ، في خدمة مصالح البورجوازية وتعزيز مواقعها داخل السلطة وفي المجتمع ·

في سياق هذه العملية الاجتماعية والسياسية العامة ، تكمن اسباب ما حصل من تغيرات بدت وكأنها مفاجئة غداة غياب الرئيس عبد الناصر واستلام السادات للسلطة في مصر وسلوكه منذ البدء نهجا مغايرا لنهج عبد الناصر ، متنكرا للمبادىء الاساسية لثورة ٢٣ يوليو · وبكلام اخر ، فان وصول السادات الى السلطة ، وبالمنهج الذي يمثله ، لم يكن حادثا طارئا بل كان من الناحية الموضوعية ، تطورا طبيعيا ـ وان لم يكن حتميا ـ من داخل الاسس الاجتماعية والسياسية التي راحت تتكون في احشاء النظام · وهو ، بهذا المعنى ، تعبير ، في عملية الصراع ، عن هجمة القوى البورجوازية الرجعية المصرية ، وعن رغبتها الجامحة ، لوضع اليد على السلطة · وقد حظيت ، الى ذلك ، بكل اسباب الدعم من قبل القوى الخارجية الامبريالية والرجعية العربية التي تعتبر ، من وجهة مصالحها ، ان التحكم بوضع السلطة في مصر هو مفتاح الوضع في المنطقة ككل · لقد كانت هذه القوى ترى ان تمكنها من اجراء التعديل النوعي في اساس توجهات هذه السلطة ومواقفها ، يمكنها ، بالتالي ، من وضع مصر خارج المعادلة الثورية في حركة التحرر الوطني العربية · مما يسمح لها ، من وجهة نظر مخططاتها ، أن تحجم اية تغيرات او ردود فعل ثورية قد تواجه تنفيذ هذه المخططات على الصعيد العربي ·

الارتداد الساداتي نهج متكامل

بوضع ظاهرة الارتداد في مصر ضمن عواملها وظروفها الموضوعية الداخلية، وفي اطار واهداف الهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية على حركة التحرر الوطني العربية ، نرى ان ما جرى في مصر منذ انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١ حتى اتفاقية كامب ديفيد هو نهج منسجم متكامل كان يتتابع في الافصاح عن جوهره الواحد حلقة اثر حلقة وتدبيرا اثر تدبير ، على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية · وليس هذا النهج ، في النهاية ، سوى تعبير حاد عن استنفار القوى الرجعية محليا وعربيا وامبرياليا كل امكانياتها في الصراع الاجتماعي الطبقي المحتدم على صعيد مصر الداخلي ، وعلى صعيد المنطقة ، وبالارتباط الوثيق بالصراع الطبقي الاشمل على الصعيد العالمي · وبهذا المعنى هو نهج

متكامل لانه يستوي على اساس طبقي واحد ، اي يعبر عن مصالح طــرف اجتماعي محدد في هذا الصراع هو القوى الرجعية ، على الاصعدة الثلاثة · وبهذ المعنى ايضا كان لا بد من ان يبقى منسجما الى النهاية ، حتى ذروتــه الخيانية ، اي انه لا رجعة عنه بالنسبة لمن يمثله ويقود عملية فرضه وتحققـه العملي· واذا كانت مسألة تناول مضمون هذا النهج الطبقي واهدافه على الاصعدة

واذا كانت مسألة تناول مضمون هذا النهج الطبقي واهدافه على الاصعـدة الثلاثة ، محليا وعربيا وعالميا ، قد لا تستلزم التوقف التفصيلي عند كل محطة من محطاته ، فهي تستلزم ، بالمقابل ، التوقف عند الدلائل العميقة الاساسية لكل محطة سياسية واقتصادية في هذه السلسلة ، باتجاه رؤية الجوانب الثلاثــة الاساسية التالية معا في كل منها :

الاول : طبيعة هذه المحطة او تلك بما تملك ، بحد ذاتها ، من ايحاء او تعبير صريح عن المضمون العام للنهج ·

والثاني : بما تحمل من عناصر تمهد وتهيء للحلقة او المحطة التالية ·

والثالث : بما تظهره كل حلقة من تشابك او تقاطع بين نتائج تدابيرها المتخذة محليا وبين نتائجها على صعيد الصراع العربي والعالمي · اي ان كل تدبير او اجراء محلي مصري كان يسقط اهدافه وانعكاساته ، في الوقت نفسه ، على مجمل الصراع وحركته وقواه ·

ففي حالة مصر ، يكتسب هذا التناول اهميته النظرية القصوى ، لما يطرح من جوانب وقضايا كلية الارتباط بواقع حركة التحرر الوطني العربية وبآفـــاق تطورها في هذه المرحلة النوعية الجديدة التي تشكل ظاهرة الارتداد في مصـر واحدة من ثلاث ظاهرات اساسية فيها · الاولى ، هي ظاهرة الارتداد هذه · والثانية ، هي ظاهرة الحرب الاهلية في لبنان · والثالثة ، هي ظاهرة التحـول النوعي في اليمن الدمقراطية وقيام اول سلطة للطبقة العاملة على ارض عربية · كما يكتسب هذا التناول ، في الوقت نفسه ، اهميته السياسية الملحة الراهنـة على مستوى تحديد الموقف المنسجم السليم من هذه الظاهرة ، وعلى مســتوى تحديد مواجهة ناجحة لها ، وعلى مستوى الوقوف بحزم ضد امكانية تكــرار هذه الظاهرة في بلدان عربية اخرى لا تنعدم فيها الاسس الموضوعية لمثل هــذا التكــرار ·

نقول انه في حالة مصر يكتسب هذا التناول الاهمية القصوى بجانبيهـــا النظري والسياسي · لماذا ؟ لان مصر كانت تسير في خط تقدمي من التطــور الداخلي يجري الارتداد عنه بشكل كامل ، مما يطرح ، هنا ، مسألة طبيعــة السلطة السياسية على انها هي العامل الحاسم في تحديد طبيعة التحولات ·

ولان مصر كانت تحتل موقعا طليعيا في قيادة حركة التحرر الوطني والقومي والاجتماعي العربية يجري الان التحول عنه كليا ، وتنقل مصر الى موقع يعزلها عن هذه الحركة ويجعلها مركزا مشاركا وقائدا في قمعها وتصفية منجزاتها . مما يشير الى انتقال فعلي للاجنحة اليمينية في حركة التحرر الوطني الى مواقع القوى المعادية لهذه الحركة . ولان مصر كانت بحكم موقعها وخطها المعاديين للامبريالية ، جزءا مكونا من الحركة الثورية العالمية يجري ، اليوم ، دفعها الى التحالف مع الامبريالية وتحويلها الى اداة من ادواتها والى مركز من مراكز الثورة المضادة .

انطلاقا من رؤية الاسس الاجتماعية التي كانت تتكون في الفترة الاخيرة من سلطة عبد الناصر ، وبرؤية الصراع الاجتماعي الآخذ بالاحتدام ، يشكل انقلاب ١٥ مايو ، بحد ذاته ، انتصار الطرف الرجعي في هذا الصراع ، ويعلن وصول البورجوازية الى السلطة تمسك قضيتها بيدها . اذ ما هي ، في الحقيقة ، مضامين المواقف والاجراءات التي سارعت السلطة المصرية الجديدة الى اتخاذها فور ترؤس السادات وطوال العامين الاولين من حكمه ؟ ولمصلحة من كانت هذه المواقف المتخذة على الصعيدين السياسي والاقتصادي ؟ .

على الصعيد السياسي ، نتوقف ، اولا ، عند مجموعة من المواقف تفصح ، في جوهرها ، عن بداية تعديل نوعي عام في موقع مصر داخل حركة التحرر الوطني العربية باتجاه انسحابها الى موقع الرجعية العربية وصفها . فالتدخل العسكري المباشر ضد حركة هاشم العطا في السودان كان يعني ، عدا عن جذوره الطبقية ، فاتورة اولى تسددها القيادة المصرية الجديدة لحساب الرجعية العربية ولتطمئنها الى ان تعاطي « مصر الجديدة » بالقضايا العربية سيكون بالاتجاه الرجعي المغاير لتعاطي مصر الناصرية الوطني المعادي للامبريالية والرجعية في اليمن الشمالية ، كمثال . اما المظهر الثاني الممهد لهذا الانسحاب باتجاه الرجعية فكان السكوت عن اطلاق حملة اقليمية قديمة جديدة في مصر تطالب بانكفاء مصر عن العالم العربي ، تشكك بانتمائها العربي ، وتنادي ، صراحة ، بفك ارتباط مصر بالقضية القومية عموما والقضية الفلسطينية بشكل خاص . واذا كانت هناك قوى اخرى غير السادات نسبت لنفسها اطلاق هذه الحملة والترويج لها ، فمما لا شك فيه ان السادات نفسه واجهها بالتشجيع ، سواء بشكل مباشر عندما اقدم على تعديل التسمية لمصر من « الجمهورية العربية المتحدة » الى « جمهورية مصر العربية » بكل ما ترمز اليه هذه الخطوة ، وسواء بشكل غير مباشر عندما لم يقف بوجه تلك القوى ، او عندما كان وقوفه بوجهها شكليا تماما . بيد ان حقيقة الامر في هدف هذا « الانكفاء الاعلامي » هي التستر على انخراط فعلي جديد في الوضع العربي ومن الموقع الرجعي ، وان كان هذا

الانكفاء يجمع ، بحد ذاته ، حول السلطة الجديدة قوى تقليدية معينة انتعشت بعد غياب عبد الناصر · لكنه يسهم ، من جهة اخرى ، في غرس البدايات الاولى لخط سيتكامل لاحقا : خط الفصل بين قضية احتلال الاراضي المصرية وقضية احتلال الاراضي العربية الاخرى ، بين القضية الوطنية المصرية والقضية القومية العربية · واذا كانت القوى البورجوازية والرجعية قد نشطت ، في فترة ما بعد الهزيمة ، لتحميل التحولات الاقتصادية والاجتماعية مسؤولية الهزيمة بغية الانقضاض عليها فها هي ، الان ، تنشط باتجاه تحميل انخراط مصر في القضية القومية مسؤولية الهزيمة ومسؤولية الضيق الاقتصادي والاجتماعي ، بغية احداث التأثير العام الداخلي باتجاه خروج مصر من المعركة القومية اولا ، وباتجاه التمهيد للقبول بحلول استسلامية للقضية الوطنية المصرية ذاتها ·

اما المظهر الثالث لبدايات هذا التعديل النوعي العام في موقع مصر العربي فيبقى في اقدام السادات ، في سنة حكمه الاولى ، على توثيق العلاقات المباشرة مع الرجعية العربية ، ومع الرجعية الايرانية · اي توثيق العلاقة لا مع قوتين رجعيتين وحسب ، بل مع اهم ركيزتين سياسيتين رجعيتين للامبريالية الاميركية في المنطقة ، واهم دولتين اقتصاديتين منتجتين للنفط ، تشغلان موقعا رئيسيا بالغ الاهمية في كل استراتيجية الامبريالية الاميركية على مستوى المنطقة وعلى الصعيد العالمي · ولم يكن هذا الاختيار مجرد انحياز في العلاقات الخارجية للقوى الرجعية · بل كان يشكل بداية عملية للتوجه الى الولايات المتحدة الاميركية واظهار استعداد النظام المصري للتفاهم مع قوى ومقتضيات استراتيجيتها في المنطقة · وبدأ يشير ، من ناحية اخرى ، الى رغبة ، مكتومة بعد ، عند النظام المصري باستعداده لاكثر من التفاهم ، باستعداده للاندراج ضمن محور ويصب ، ثالثا ، في بلورة سياسة السادات النظامية العاملة على اجراء تبديل نوعي في تحالفات مصر الخارجية ·

وهنا ، نتوقف ، ثانيا ، عند حلقة من اهم الحلقات المعبرة عن مضمون هذا النهج على الصعيد السياسي · وهي البدء بقطع العلاقة مع الاتحاد السوفياتي والمتجسد بقرار انهاء خدمات الخبراء العسكريين السوفيات الذي اقدم عليه السادات في بداية العام الثاني لتوليه رئاسة النظام المصري (يوليو ٧٢) · ولم يعن هذا القرار ، في الحقيقة ، وبكل ما رافقه واستتبعه من خطوات مصرية ساداتية بهذا الصدد ، مجرد قطع العلاقات مع الاتحاد السوفياتي – على خطورة هذه الخطوة بحد ذاتها – بل كان استبدالا مباشرا لهذه العلاقات ولمضامينها التقدمية بالعلاقات مع الولايات المتحدة الاميركية وبمضامينها الرجعية · اذ ما هي ، اساسا ، وظيفة هذا القطع مع الاتحاد السوفياتي بالنسبة للنهج الساداتي ؟ وما هي دلالاته الاساسية على صعيد النزاع العربي (والمصري) –

الاسرائيلي وعلى صعيد العملية السياسية الاجتماعية داخل مصر نفسها ، وعلى صعيد كل مواجهة حركة التحرر الوطني العربية مع الامبريالية ؟

أ ــ ان انهاء العلاقة مع الاتحاد السوفياتي يعني ابعاده عن الصراع الدائر في المنطقة ، اي الغاء فعل عنصر قوة اساسية ومحددة للصالح العربي التحرري العام في هذا الصراع • كما يعني على صعيد مصر ذاتها ، تجريد مصر من اهم قدراتها السياسية والاقتصادية والعسكرية الحاسمة في مواجهتها لمهمات ازالة اثار عدوان ٦٧ • فنهج القطع مع الاتحاد السوفياتي ، كان ، اذن ، مؤشرا على كونه نهج تفتيت لا تجميع عناصر المواجهة مع اسرائيل ، نهج عزل مصر في هذه المواجهة واضعافها •

ب ــ لكن هدف ابعاد السوفيات عن الصراع العام في المنطقة ، هو هدف امبريالي اميركي بالدرجة الاولى • فهو يراد له ان يمكن الولايات المتحدة الاميركية من الغاء عامل اساسي لاجم لبسط سيطرتها المطلقة على المنطقة ، وهو يستهدف اطلاق يدها في تنفيذ مخططاتها • وبهذا المعنى ، كان نهج السادات ، عبر هذه الخطوة ، يمهد للوصول الى وضع يوفر للولايات المتحدة تفردها في حل النزاع • ويمهد لتشكيل قاعدة سياسية جديدة تجري على اساسها التسوية تسوية اميركية استسلامية •

جـ ــ هذه القاعدة السياسية الجديدة لحل النزاع العربي ــ الاسرائيلي كانت ترمي ، في النهاية ، لا الى مجرد ادخال الولايات المتحدة كطرف وحيد في الوساطة والتسوية ، بل ترمي عبر ذلك الى اجراء التعديل النوعي في محتوى الصراع العام الدائر في المنطقة ، الذي هو في جوهره صراع ضد الامبريالية • ان كل تعاطي الاتحاد السوفياتي بالنزاع العربي ــ الاسرائيلي كان يتحدد انطلاقا من اعتباره جزءا محوريا من الصراع العام بين حركة التحرر الوطني العربية وبين الامبريالية • وكل الجهود التي بذلها الاتحاد السوفياتي في اطار ايجاد تسوية قابلة للحياة لهذا النزاع كانت تنطلق من هذا الاعتبار ، وبالتالي ، من الحفاظ المبدئي والسياسي على حقوق العرب الكاملة في استعادة الاراضي المحتلة في حرب ٦٧ ، وعلى الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني بتقرير مصيره وباقامة دولته الوطنية المستقلة •

وبهذا المعنى فان سياسة طمس او تغيير جوهر الصراع تلغى التناقض مع الامبريالية للوصول ، استطرادا ، الى الغائه مع دركيها الاول في المنطقة : اسرائيل • وهذه هي ، في النهاية ، الوظيفة الخطيرة التي كانت ترتسم ، ضمنا ، في وعي واضعي ومنفذي النهج الساداتي ، لمسألة القطع مع الاتحاد السوفياتي • اذ ما هو ، عمليا ، مدلول شعار تنويع مصادر الاسلحة وممارسته لاحقا ، بالنسبة لبلد بنيت كل قدرته العسكرية على السلاح السوفياتي ؟ انه ، تفتيت هذه

القدرة وانهاؤها · اي ان القطع مع السوفيات ، كان يعني ، على هذا المستوى ، التحضير لانهاء القدرة العسكرية القتالية المصرية ، التحضير لحل الجيش المصري ، انطلاقا من ان شعار التنويع لم يكن لتنويع السلاح لان السادات لم يحصل على سلاح جديد · فكان الشعار نزعا لسلاح الجيش المصري ، في الواقع العملي · هذا من جهة · ومن جهة ثانية ، كان ذلك يؤدي الى تعزيز الفرص امام التسوية الاميركية التي لا تفترض استبعاد الاحتكام للسلاح نهائيا في حل النزاع ، بل تعمد لاستبعاد السلاح المصري تحديدا ، وتضاعف من قدرة اسرائيل العسكرية من اجل ان يظل التوازن مختلا في المنطقة لصالحها ·

د ـ وعلى صعيد العملية الاجتماعية الداخلية في مصر ، كان هذا الموقف بانهاء العلاقة مع الاتحاد السوفياتي تعبيرا مباشرا عن مصلحة الفئات العليا من البورجوازية المرتبطة بالاحتكارات العالمية ، في مجرى الصراع الاجتماعي الطبقي الداخلي ، مصلحتها في الاجهاز علىكل خط التطور التقدمي لمصر ، ومصلحتها في الاجهاز على كل عنصر قوة مادي من شأنه ان يساعد قوى التغيير في صراعها ضد هذه الفئات ، ومصلحتها في تصفية كل ما من شانه ان يساهم في تشكيل قاعدة اقتصادية مستقلة او مناهضة ، بهذا الحد او ذاك ، لشبكة العلاقات الرأسمالية والامبريالية التي استنفرت كل القوى الرجعية من اجل تسييدها في مصر · وعلى هذا الاساس ، فان قطع العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، وبمضامينها الاقتصادية هنا ، كان يستهدف ، من جهة ، سد الافق بوجه تطور للقطاعات المنتجة مستقل عن تقسيم العمل الرأسمالي · كما كان يستهدف ، من جهة اخرى ، خلق الارضية الملائمة لنهج تعميق تبعية مصر للاحتكارات الامبريالية والذي يشكل « الانفتا ح الاقتصادي » ابرز تعبير عنه ·

هـ ـ لقد اظهر السادات قطع علاقات مصر بالاتحاد السوفياتي بأنها تجسيد « للاستقلالية عن القوتين العظميين ، وبكون خطوته تعبيرا عن اقامة علاقات متوازنة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية » ، على حد تعبير بعض الاوساط التي تأبى رؤية الصراع العالمي كما هو وتسميته بما هو : الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية ، بين المعسكر الاشتراكي وبين المعسكر الامبريالي ، بين الثورة والثورة المضادة · وعدا عن انعدام الاساس الموضوعي لهذه « الاستقلالية » ولهذا « التوازن » المزعومين ، فأساس موقف السادات هو التضليل ، بمعنى تغطية التحاقه النهائي بالولايات المتحدة الاميركية ·

ان الموقف النقيض الصحيح لنهج السادات في موضوع العلاقة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية ، بين النظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي ، هو الخط السياسي الذي يستند الى تحديد علمي لموقع القوى الطبقية على الصعيد العالمي ، لموقع كل من النظامين العالميين المتناقضين المتصارعين ، ولموقع حركة التحرر الوطني في هذا التناقض وهذا الصراع ·

وفي هذا الاطار ، فان اي حديث عن « الاستقلالية » بالمعنى الذي اراد ان يوحي به السادات ، ربما روجت له بعض القوى اليمينية في حركة التحرر الوطني العربية ، يتناقض مع الظروف الموضوعية لنضال حركة التحرر الوطني العالمية المعاصرة ، الظروف التي تحددها ميزة عصرنا وسمته الرئيسية بأنه عنصر انتقال البشرية من الرأسمالية الى الاشتراكية والذي تشكل فيه هذه الحركة جزءا من الثورة الاشتراكية ٠

هذا التوجه الرجعي في علاقات مصر الخارجية ، كان يترافق ، على الصعيد الداخلي ، بجملة من الاجراءات السياسية والتشريعية والاقتصادية التي تستهدف الاسراع في تثبيت القاعدة الاجتماعية والاقتصادية لسلطة البورجوازية ٠ وفي هذا السياق ، تشكل حملة « الديمقراطية » التي اطلقها السادات **الحلقة الثالثة** الهامة في حلقات نهجه العام ، اخذت على عاتقها مهمة حشد كافة قوى وفئات البورجوازية والرجعية التقليدية ومختلف الفئات الاجتماعية التي تضررت من الاجراءات الناصرية حول السلطة المصرية الجديدة ٠ فباسم هذه « الديمقراطية »، عمد السادات الى الغاء كل القيود التي كانت تحد ، بهذه الدرجة او تلك ، من حرية الحركة السياسية والاقتصادية لكافة هذه القوى المحافظة والرجعية (الغاء الحراسات ، اعادة الاملاك المؤممة ، فتح مجالات الاستثمار امام القطاع الخاص) ، وباسمها ايضا ، وفي الوقت نفسه ، فرض العديد من القيود على الطبقة العاملة وتحركها وتصفية العديد من مكتسباتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ٠ وشنت بموجبها حملات الاعتقالات والقمع والعزل السياسي والثقافي ضد كل الشيوعيين واليسار الناصري ، والقيادات العمالية والفلاحية والطلابية٠ اما المضمون الاقتصادي لهذه « الديمقراطية » ، لهذا الانفتاح السياسي المطلق على اليمين والرجعية ، فقد تجسد « **بالانفتاح الاقتصادي** » الذي فتح ابواب مصر على مصاريعها امام الرساميل والاستثمارات العربية والاجنبية ٠

ان تركيب عناصر هذه الحلقة الخطيرة النتائج كان قد بدأ مع وصول السادات الى الحكم (ايلول ١٩٧١) ، عبر اصدار سلسلة من القوانين تستدعي التوظيفات الاجنبية والعربية ، وتقدم الضمانات المذهلة لعمل وانتقال الراسمال الاجنبي ٠

الا ان هذا الانفتاح الذي اراده السادات تدفقا للرساميل الاجنبية على مصر لم يكن ، في الواقع ، كما اراد له ٠ بل شكل الاساس ، عبر هذه السلسلة من التشريعات والقوانين ، لدخول قسم من الرساميل العربية والاجنبية وظفت في قطاعات غير منتجة (التجارة ، الخدمات) واحكمت اخضاع مصر للاحتكارات العالمية ، دون أن تؤدي الى توسيع وتنشيط الحركة الاقتصادية فيها ٠ وقد ادى

هذا « الانفتاح الاقتصادي » الى تعزيز الدور القيادي للرجعية وللامبريالية الاميركية في توجيه السياسة المصرية · وبرؤية الفترة الزمنية القصيرة لهذه العملية الاقتصادية الكبرى التي لم تعتمد كليا آلية التطور الرأسمالي الداخلي ، يمكن الاستنتاج بأن ثمة قرارا سياسيا امبرياليا بهذا « الانفتاح الاقتصادي » يترافق ويتزامن مع الهجمة الامبريالية الشاملة ولخدمة اهدافها الاساسية ·

بهذه الحلقة الاقتصادية ، تكتمل عملية اعادة صياغة مصر من وجهة نظر مصالح الامبريالية التي لم تتناقض مع مصالح الطبقة العاملة وجماهير الكادحين فقط ، بل ايضا مع مصالح فئة واسعة من البورجوازية المرتبطة بالانتاج المحلي انتعشت في ظل العلاقات المتطورة مع الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية ·

في هذا السياق من التطور الذي يبدو متكاملا في نهج السادات ، لا بد من التوقف عند حرب تشرين وتحديد موقعها بشكل موضوعي ، آخذين بعين الاعتبار انها لم تكن حربا مصرية وحسب بل كانت حربا عربية اشتركت فيها كل القوى العربية ، سياسيا واقتصاديا وعسكريا · وفي الواقع فان الظروف التي ادت الى الحرب تختلف عن النتائج التي اسفرت عنها · وفي هذا الاطار ينبغي التاكيد على ان الحرب نشأت كحاجة موضوعية فرضها استمرار العدوان الاسرائيلي والضغط الشعبي العربي بما في ذلك ضغط الشعب المصري وقواته المسلحة بشكل خاص ، من اجل وضع حد لهذا العدوان واستعادة الاراضي العربية المحتلة ومساعدة الشعب الفلسطيني على استعادة حقوقه · فهي ، اذن ، بهذا المعنى حرب وطنية ولكن السادات حاول ان يستفيد من هذه الظروف التي سبقت ورافقت الحرب ، معتمدا في ذلك على خطة اميركية متكاملة من اجل تأييداستمرار نهجه السياسي ، والوصول في هذا النهج الى تحقيق اهداف محددة اضطرته الانتصارات التي برزت خلال الحرب الى الكشف المبكر عن جزء منها تجسد في الخطاب الذي انهى به الحرب ، وضمنه برنامجا يجهض بشكل واضح الانتصار الذي حققه الجيش المصري بعبور القناة ، وحول هذا الانتصار الى هزيمة · وانتهى هذا البرنامج من التراجع الى توقيع اتفاقية فك الارتباط في الكيلو ١٠١ ، والذي كان الخطوة الاولى باتجاه توقيع اتفاقية سيناء وصولا الى اتفاقية كامب ديفيد · فالطريق الى هذه الاتفاقيات انما هيأها موقف السادات في حرب تشرين ومنها · وفي غضون ذلك ، كانت تظهر اكثر فأكثر ملامح تكون وتحرك محور جديد على المستويين الاقتصادي والسياسي ، محور واشنطن ـ الرجعية ـ القاهرة · أي بدات تتضح ، بكلام اخر ، الابعاد النوعية الجديدة للهجمة الامبريالية الشاملة على المنطقة ·

ما هي دوافع استمرار هذه الهجمة ؟ وما هي اهدافها ؟ وما هي نقاط الارتكاز الاساسية في خطتها العامة ؟ ٠

ان تركيز هذه الهجمة على المنطقة العربية يجد دوافعه في ضعف الامبريالية وتراجعها عموما ٠ لا سيما بعد الهزيمة السياسية والعسكرية التي منيت بها في فيتنام وفي مناطق اخرى من العالم ٠ لكن الدوافع المباشرة والخصوصية لهذه الهجمة تكمن في محاولات الامبريالية حل ازمتها الاقتصادية والنقدية والطاقية ، وبخاصة في الولايات المتحدة الاميركية ٠ وهذا ما جعل الهجمة الامبريالية على المنطقة تستهدف ضمان عناصر القوة والطاقة : النفط العربي واستقرار امواله في المؤسسات المالية الاميركية ٠ وبهذا الصدد ، فلقد قدرت الرساميل العربية التي تدخل يوميا الى الولايات المتحدة بـ ٢٠٠ مليون دولار (ف٠ رولو ـ جريدة « لوموند » الفرنسية : ١٢ـ١٣ـ١٤ حزيران ١٩٧٤) ٠ ان ضمان ذلك يستدعي ، تحديدا ، اعادة ترتيب الوضع العام في المنطقة بشكل يحقق الاستقرار السياسي والامني الطويل الامد لصالح السيطرة الاميركية ٠ والوصول الى هذا الاستقرار يشترط ، من جهة مباشرة اولى ، حل النزاع العربي ـ الاسرائيلي الذي يستلزم بدوره حل القضية الفلسطينية ٠ لكنه حل يجري البحث عنه من وجهة مصالح الولايات المتحدة ، فهو بطبيعته معاد ، اذن ، لحركة التحرر الوطني العربية ٠

بيد ان توفير ذلك الاستقرار يشترط ، من جهة دائمة ثانية ، تصفية كاملة لكافة قوى حركة التحرر الوطني العربية ، الاقل جذرية فيها والاكثر جذرية ، في الانظمة وخارج الانظمة ، كقوى منظمة وكحركة شعبية ٠ فعبر هذه التصفية الكاملة تتمكن الامبريالية من ترتيب للاوضاع نهائي يقضي على كل احتمالات تغيير وطني وتقدمي لاحق ٠ لكن الضلوع الامبريالي المباشر بهذه العملية التي ستتخذ حتما الطابع العسكري في بعض الاحيان تبقى مسالة محفوفة بالمخاطر ٠

اذ من شان ذلك ان يؤجج المجابهة ويدفع بالتناقض مع الامبريالية الى المزيد من الاحتدام والتفجر ٠ فلا بد ، بالتالي ، من البحث عن قوة اخرى لا يستثير تدخلها العسكري مثل هذه المخاطر او يحد ، على الاقل ، من مدى اضرارها ٠ ويصعب، بهذا الصدد ، ان تمثل اسرائيل مباشرة هذه القوة ، اذ من شان ذلك ان يؤجج النزاع العربي ـ الاسرائيلي بدل ان يحله ، ويلغي فرص الاستقرار بدل ان يوفرها ٠ ومن هنا، كان تخطيط الامبريالية الاميركية وسعيها لتشكيل قوة قمع عربية قادرة بالمعنيين الاقتصادي والعسكري على تنفيذ تلك المهمة ٠

لقد مورست الضغوط المتعددة الاشكال على سائر البلدان العربية الوطنية

للتوجه بشكل عام · لكن مصر كانت محط انظار ومساعي الامبريالية واسرائيل والرجعية · فلماذا اختيرت مصر من وجهة نظر المشروع الامبريالي ؟ لان مصر، بالدرجة الاولى ، كانت تحتل الموقع القائد في حركة التحرر الوطني العربية · فكان لا بد أن يجري التركيز عليها لتغيير موقعها · ولان مصر ، ثانيا ، طرف مباشر واساسي في النزاع مع اسرائيل ، بل هي الطرف الاقوى والمحدد من بين سائر الاطراف العربية الاخرى في هذا النزاع · فمعها وبها تتوافر شروط انجاح حل النزاع العربي ـ الاسرائيلي بشكل افضل · ان الحل ، على الاقل ، لا يبدأ الا معها · وفي هذا الاطار يمكن الاستشهاد بما كتبه شمعون بيريز قبل حرب حزيران ٦٧ :

« علينا ان نلاحظ اولا ان ليس ثمة من نقص بالمرشحين العرب للسلام مع اسرائيل · يوجد مرشحون من درجة ثانية وثالثة ورابعة (لبنان مثلا ، الاردن ، تونس) ، لكن ما ينقص هو المرشح رقم ١ ، ولقد كان هذا المرشح وسيبقى على الدوام ، كما يبدو ، مصر » (مجلة « الازمنة الحديثة » الفرنسية ـ عدد خاص عن النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، ١٩٦٧) ·

ولان مصر ، ثالثا ، بحكم امكانياتها وقدراتها كأكبر بلد عربي ، وبحكم موقعها الاستراتيجي عربيا وافريقيا ، تملك من المؤهلات ما يجعلها المرشح رقم ١ لا للتصالح مع اسرائيل وحسب ، بل المرشح الاول لان تشكل هي قوة القمع المطلوبة ، فيما لو نجحت الامبريالية واسرائيل والرجعية بتحويلها عن موقعها الطبيعي بشكل نهائي ·

بعد فك الارتباط في سيناء ، بدأت الولايات المتحدة الاميركية بتسريع نشاطها لحل النزاع العربي ـ الاسرائيلي · نشطت لحله بالانطلاق ، **اولا** ، من سعيها الحثيث لاستبعاد الاتحاد السوفياتى عن التعاطي بالحل · لما يوفره تفردها من ضمانات لانجاح حلها المعادي بطبيعته للشعوب العربية وللشعب العربي الفلسطيني ·

ونشطت لهذا الحل ، بالانطلاق ، **ثانيا** ، من سعيها الحثيث لاستبعاد القضية الفلسطينية عن النزاع العربي ـ الاسرائيلي · وهو استبعاد لا يمكن ان يتم الا بتصفية هذه القضية · وفي هذا السياق ، فجرت الحرب الاهلية اللبنانية عام ١٩٧٥ **بهدف اول** هو الاجهاز على الوجود الفلسطينى الوطني السياسي والعسكري ، **وبهدف ثان** مترابط معه هو تثبيت تركيبة سياسية رجعية فاشية تؤمن ارتباط لبنان بالامبريالية · وبهذين المعنيين ، اختير لبنان ليكون البلد العربي الثاني ، بعد مصر ، المسفر عن تحالفه النهائي مع اسرائيل والمنخرط بالحل الاميركي العام والمسهل امر تعميمه · كما استهدف المشروع الاميركي توريط سوريا في الازمة اللبنانية ، واشغال بلدان عربية اخرى في معارك وصراعات تفرض عليها الانكفاء ·

ونشطت لهذا الحل ، بالانطلاق ، **ثالثا** ، من الحفاظ على التفوق الاسرائيلي السياسي والعسكري وتعزيزه ، في مشاريع التسوية التي طرحتها للتداول ، وعلى ارض الواقع نفسه ، بما يعكسه هذا من ثقة مطلقة لديها بثبات التركيبة الاسرائيلية كضمانة اولى ، ومن قلة او انعدام ثقتها حتى بالتركيبات العربية التي تشكلها هي او بتلك التي تشارك في تثبيتها ·

ونشطت لهذا الحل بالتركيز ، **رابعا** ، على اجرائه باسلوب المفاوضات المباشرة بين اطراف النزاع ، باسم اقامة علاقات طبيعية بين اسرائيل وكل جيرانها العرب · لكن اندفاع السادات بزيارته الى اسرائيل فضح جوهر الموقف الاميركي المصر على اسلوب التفاوض المباشر · فعبر هذه « المبادرة » الخيانية التي تشكل بحد ذاتها التجسيد الكامل لنهج السادات ، كان يتضح ان اميركا تسعى الى الغاء التناقض العربي ـ الاسرائيلي ، الى كسر طوق العزلة عن اسرائيل ، اي الى ادخال اسرائيل جزءا طبيعيا عضويا مكونا في المنطقة · مما يتيح لاسرائيل ، من جهة ، ان تنتقل من مجرد كونها دركيا للامبريالية لان تصبح قاعدة سياسية واقتصادية وعسكرية للمصالح الامبريالية · ومما يعزز ، من جهة ثانية ، قدرتها ، وباستمرار ، التحكم بمصائر الوضع العام في المنطقة ، بمصائر تطور دول المنطقة وثرواتها النفطية · ومما يمكنها ، من جهة ثالثة ، لان تمارس بنجاح مهمة تشديد تبعية هذه الدول وبلدان المنطقة لعلاقات السيطرة الامبريالية ·

ونشطت الولايات المتحدة الاميركية لحلها العام للوصول ، **خامسا** ، الى اقامة التحالف السافر بين اسرائيل ومصر · وهذه هي ، في الجوهر ، اتفاقية كامب ديفيد التي تشكل ذروة كل ذلك النهج ، ومطافه النهائي ، وحلقته الاخيرة · فعلى اساس هذا التحالف بين اسرائيل ومصر يقوم التحالف الرجعي العربي العام مع اسرائيل · بما يعنيه ذلك من استكمال قوى ومقتضيات ضرب حركة التحرر الوطني العربية · وعلى اساس هذا التحالف ايضا ، والقائم على قاعدة الغاء التناقض العربي ـ الاسرائيلي ، تثار تناقضات جديدة في المنطقة بين الدول العربية نفسها · وترفق بتناقضات مماثلة بين بعض الدول العربية وحركات تحرر ناهضة في افريقيا وفي غيرها من المناطق المحيطة بالعالم العربي· وهذا ما عبر عنه دايان بشكل واضح في حديث له نقله هيكل اكد فيه ان اسرائيل لا تستطيع ان تشعر بالاستقرار الا في الوقت الذي تجد فيه ان التناقض الاساسي في البلدان العربية ليس معها وانما بين هذه البلدان نفسها من جهة ، وبينها وبين المناطق المجاورة من جهة ثانية · اي تتحول المنطقة العربية ، وفق هذا الحل الامبريالي العام ، الى مركز للثورة المضادة ·

ان الطابع الجذري لاهداف هذه الهجمة ، في ظروف الازمة التي تواجهها

الامبريالية ، يفسر ، اولا ، اندفاع الولايات المتحدة الاميركية للتدخل مباشرة ، وبكل ثقلها ، لا في صياغة خطوط الحل وحسب ، بل وفي تفاصيله ، وفي التفاصيل اليومية لمسيرة محاولات فرضه وتنفيذه · فأزمة الطاقة ، من جهة ، تتفاقم ، ويشتد معها ويتسارع تأزم العديد من المشكلات السياسية والاقتصادية والمالية امام الامبريالية الاميركية ذاتها ، وامام الدول الامبريالية الاخرى ، وفيما بينها جميعا · ان اوروبا الغربية واليابان يتزايد ارتباطهما الوثيق اكثر فأكثر وباستمرار بثروة الشرق الاوسط النفطية · لكن بعض المصادر يؤكد ان الولايات المتحدة الاميركية ستجد نفسها مضطرة هي الاخرى لاستيراد نصف استهلاكها النفطي من المنطقة ، ابتداء من العام ١٩٨٠ · (« استراتيجيات من اجل الشرق الاوسط » ـ كتاب فرنسي صادر في ١٩٧٤) فتغدو هذه الازمة عنصر ضغط متزايد يجبر الولايات المتحدة على التسريع بانجاح حلها العام · كما ان التغيرات والتطورات السياسية والاجتماعية المتسارعة في مناطق اخرى محيطة بالعالم العربي وفي افريقيا (الحبشة ، افغانستان ، وايران مؤخرا ···) تشكل بدورها ، من جهة اخرى ، عنصر ضغط اخر باتجاه انجاز الحل ·

لكن هذا الطابع الجذري لاهداف هذه الهجمة . وعلى مستوى المنطقة العربية نفسها ، يفسر ، ثانيا ، طابع العنف والشمول الذي تتصف به مراحل او حلقات هذا الحل ، لا سيما الاخيرة السافرة منها · ان في زيارة القدس واتفاقية كامب ديفيد استفزازا عنيفا لتاريخ امة بكاملها ، لتراث شعوبنا النضالي بأكمله · ان فيهما كسرا عنيفا لجملة من المفاهيم والقيم · ان حلا تترافق اهدافه مع مثل هذه المظاهر المتحدية لا يسعه الا ان يكون عنيفا كيما يضع الجميع امام تحققه كأمر واقع ، كحقيقة قائمة لا مناص من التسليم بها · اي لكي يستبق ، سلفا ، امكانيات مواجهته ويقضي عليه في المهد · وبهذا المعنى « بدا نهج السادات بمدلولاته وبالذروة الخيانية التي انتهى اليها ، وكأنه يضع حركة التحرر الوطني العربية امام مرحلة جديدة · ولا شك بأننا فعلا امام مرحلة نوعية جديدة من المواجهة الشاملة للهجمة الامبريالية الشاملة التي تشكل ظاهرة الارتداد في مصر واحدة من اهم ركائزها ومظاهرها ·

تعمق مأزق النهج الساداتي واتساع قاعدة مواجهته

ان هذا العرض لتاريخ نشأة وتطور نهج السادات يشير بوضوح الى انه ولد في غمرة الصراع الذي لا يزال يتفاقم ويحتدم بين نوعين من القوى الطبقية والسياسية · القوى التي تريد ان تدفع مصر ، تطويرا لثورة ٢٣ يوليو ، باتجاه اكثر تقدما ، والقوى التي تريد ان تلغي كل اثر لانجازات العهد الناصري والسير بمصر بطريق تطور رأسمالي طفيلي خاضع بشكل مطلق للاحتكارات الامبريالية

منفذ لارادتها على صعيد المنطقة وخارج حدودها · ان هذا الصراع هو صراع قديم متجدد · وقد رأينا كيف انه كان يتفجر بأشكال مختلفة في عهد الرئيس عبد الناصر · وهو بهذا المعنى صراع جوهره طبقي ، اي صراع بين ما تمثله مصالح الطبقة العاملة وحلفائها بمن فيهم اوساط واسعة من البورجوازية الصغيرة ، وبين الفئات العليا من البورجوازية المرتبطة مصالحها بالامبريالية واحتكاراتها · وهذا الصراع الذي كان يجري في فترة اشتداد الهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية لم يتوقف ، بل تعمق محتواه ، وان كان واضحا حينذاك ان ميزان القوى فيه يميل ، بفعل عوامل عديدة ولا سيما بفعل هذه الهجمة ، لصالح القوى اليمينية والرجعية · وكان طبيعيا ان يحقق نهج السادات اهدافه ولكن ذلك كان نجاحا مؤقتا · لان كل الاهداف التي ترتبط بنهج السادات تتعارض مع المستوى الذي بلغه تطور مصر اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، كما تتعارض مع مصالح الاكثرية الساحقة من جماهير الشعب المصري · فقد كان في رأس هذه الاهداف القضاء على كل ما قدمته ثورة يوليو من مكاسب لمصر وشعبها وجماهيرها الكادحة بشكل خاص · واهم هذه المكاسب على الصعيد الاقتصادي وضع اسس لسياسة تنمية مصر صناعيا وزراعيا وتكنولوجيا واقامة قطاع عام كبير الاهمية والوزن في اقتصاد مصر ، وعلى الصعيد الاجتماعي تحرير الفلاحين من نير الاقطاع عبر تحقيق الاصلاح الزراعي واقامة تشريعات لحماية مصالح العمال والمستخدمين ، وعلى الصعيد السياسي تحرير مصر وتعميق ارتباطها بالبلدان العربية بأفق تحقيق التكامل الاقتصادي والسياسي وصولا الى الوحدة العربية بمضمونها المعادي للامبريالية · ان هذه المكاسب برغم كونها غير جذرية وتتميز بثغرات ونواقص كبرى ، قد نقلت مصر من حال الى حال اخر مختلف اختلافا اساسيا ، ووضعت جماهيرها على الطريق الذي يقودها الى مزيد من التحرر والتقدم · فهي ، اي جماهير الشعب المصري ، اذن ، بالضرورة في موقع النقيض لنهج السادات ، لا من حيث المصالح الطبقية وحسب ، بل من حيث الوعي لهذه المصالح والتمسك بها والدفاع عنها · وبهذا المعنى يمكن القول ان نهج السادات ظل طيلة الفترة التي نشأ وتكون فيها يواجه معارضة حقيقية لكن في ظروف داخلية وخارجية غير ملائمة · وجدير بالذكر انه في عهد السادات بالذات ، تبلور بشكل اكثر وضوحا وعي طبقي وسياسي وجد تعبيرا عنه بأشكال مختلفة اهمها : ولادة الحزب الشيوعي المصري وولادة حزب اليسار المصري « التجمع الوحدوي التقدمي » كصيغة متقدمة للجبهة التي تضم ماركسيين وناصريين يساريين وتقدميين مستقلين ، وقيام انتفاضات جماهيرية عمالية وفلاحية وطلابية ، وبين المثقفين تميزت بالجراة وباتساع المشاركة فيها والعمق في محتوى الشعارات التي رفعتها · وليس صحيحا ادعاء السادات ان هذه المظاهر الصارخة لمعارضة نهجه هي تعبير عن الديمقراطية

التي « منحها » للجماهير بعد ان كانت محرومة منها · فان ديمقراطيته هذه لم تمنع سلطته من استخدام كل اشكال القمع في مواجهة هذه القوى وتحركاتها بما في ذلك العزل السياسي والحرمان من العمل فضلا عن الاعتقالات ومنع حرية التعبير الشفهي والمكتوب · وهو الامر الذي يزداد تفاقما مع ايغال السادات في نهجه الذي وصل في العامين الماضيين الى الخيانة القومية بعد زيارة القدس وتوقيع اتفاقية « كامب ديفيد » وسعيه الراهن لعقد « معاهدة سلام » مع اسرائيل·

وليس صحيحا ايضا في هذا السياق ان مظاهرات التأييد المنظمة بأوامر بوليسية خطية ومشاركة جماهيرية من قوى السلطة نفسها هي ادلة على ان نهج السادات يحظى بتأييد شعبي · فبالاضافة الى طبيعة هذه المظاهرات وطبيعة تنظيمها وطبيعة قسم كبير من المشاركين فيها ، لا بد من الاشارة الى عاملين يساعدان في توضيح الصورة : العامل الاول هو ان للسلطة في مصر عبر التاريخ هيبة تترك دائما تأثيرها على الجماهير في اي سلوك تسلكه تجاهها · العامل الثاني ، هو ان حالة التردي في الوضع السياسي والاقتصادي بتأثير من نهج السادات وبفعل الهزائم العسكرية واخطرها هزيمة حزيران خلقت لدى قسم من الجماهير ، اسير العفوية في تحركه ، حالة من اليأس والقدرية جعل منه احتياطا لسياسة السادات حتى ليكاد يبدو تحركه مرسوما بقرار من فوق ، قرار من السلطة ·

اذن الجانب الاساسي في حركة الجماهير ، عمالا وفلاحين وطلابا ومثقفين ، هو الجانب المرتبط بتعاظم الوعي السياسي والطبقي وتعمقه · ومن هنا يبرز الاساس في تطور النقيض السياسي والطبقي لنهج السادات داخل مصر انطلاقا من ان هذا النهج يزداد وضوحا كل يوم في تناقضه مع المصالح الاساسية ، ليس فقط للعمال والفلاحين وجماهير الكادحين المصريين ، بل لكل شعب مصر ولمصر كدولة لها تاريخ ولها موقع ولها دور في هذا العالم العربي المترامي الاطراف ، الغني بثرواته ، العميق التأثير في الوضع السياسي على صعيد المنطقة وعلى الصعيد العالمي · فليس من مصلحة مصر ان تنكفىء عن هذا العالم العربي الى نوع من المصرية الفرعونية او سواها وهي الاكثر حاجة الى الارتباط بهذا العالم العربي اقتصاديا وسياسيا وثقافيا · وليس من مصلحتها بالتأكيد ان تستبدل هذه العلاقة بالعلاقة مع اسرائيل المرفوضة عربيا ، المتناقضة مع هذا العالم العربي ، المغروسة فيه غصبا عنه وضد مصالح شعوبه وعلى حسابها · وليس في مصلحة شعب مصر ان تتحول بلاده الى مركز للتآمر على الشعوب العربية وحركتها التحررية الوطنية وان تكون دركيا بيد الامبريالية الاميركية في قمع حركات التحرر الوطني الافريقية · وليس في مصلحة شعب مصر اخيرا ان يتحول اقتصاد بلاده من اقتصاد وطني نام متطور متناسق الى اقتصاد تابع

بالمطلق للامبريالية واحتكاراتها يخدم حاجاتها المتناقضة مع حاجات مصر شعبا ودولة ٠

لهذه الاسباب جميعها كان نهج السادات نهجا متناقضا مع طبيعة الاشياء ٠ حتى فئات واسعة من البورجوازية ، بما في ذلك قسم من فئاتها العليا ، لم تستطع ان تنسجم مع هذا النهج وانتقلت الى معارضته ٠ وبذلك تكونت وتتكون داخل مصر طيلة هذه الفترة من حكم السادات ، ولا سيما في الظرف الراهن ، أسس واضحة لجبهة معارضة واسعة تلتقي عند نقطة واحدة عامة هي رفض هذا النهج حتى اسقاطه ٠

كل ذلك يشكل جزءا من الاسباب العامة التي تجعل السادات في حالة الارتباك التي يعاني منها الان وتضع نهجه على طريق الانحدار بعد ان بلغ ذروة صعوده ٠ اذ ان كل ما حظي به السادات من دعم وتأييد من قبل الامبريالية واوساط واسعة من الرجعية العربية لم يمكنه من تجاوز المأزق الذي يشتد اكثر فأكثر ولن يكون الخروج منه امرا سهلا ، حتى ولو اقدم على توقيع معاهدة سلام بشروط اسرائيل كلها او بجزء منها ٠ فالسادات محكوم عليه بالسقوط ٠ وبسقوطه الذي بدأنا نشهد مقدمات له ، يكون قد تحول نقيض نهجه ، ولو جزئيا ، الى موقع الهجوم المضاد من اجل الخروج بمصر من حالة الارتداد فيها ، ومن اجل وضعها من جديد على طريق التطور التقدمي المنسجم مع تاريخ شعبها الحديث ، المنسجم مع موقع مصر الطبيعي في قلب العالم العربي وفي قلب الحركة الوطنية التحررية فيه ٠

وبالتأكيد ، فان الرد الشامل الذي واجهت به حركة التحرر الوطني العربية ، جماهير وقوى وطنية وتقدمية ، في السلطة وخارجها ، « مبادرات » السادات المعادية لمصالح الشعب المصري والشعوب العربية ، يشكل عاملا اساسيا في دعم هذا التحول الذي يجري داخل مصر باتجاه اسقاط نهج السادات وممثليه في السلطة ٠ وقد تجسد هذا الرد في حركة جماهيرية واسعة شملت ارجاء الوطن العربي ٠ كما تجسد في قيام جبهة الصمود والتصدي ، وفي توقيع ميثاق بغداد ـ دمشق ، وفي القرارات التي انتزعت في قمة بغداد بعزل السادات ورفض اتفاقية كامب ديفيد ٠ وهو يتجسد منذ اربع سنوات في هذه المقاومة اليومية للمؤامرة على الساحة اللبنانية ، هذه المقاومة التي تضطلع بها بشرف وبطولة الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية ٠

وهذا الرد العربي الذي تنشط القوى التقدمية العربية من اجل تحويله الى خطة حقيقية شاملة في مواجهة الهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية وادواتها المحلية ، يترافق مع نهوض للقوى الثورية على الصعيد العالمي ، وانتصارات تتحقق هنا وهناك ، بما في ذلك في المنطقة على حدود العالم العربي (اثيوبيا

وافغانستان وايران) في المعركة العامة ضد الامبريالية التي تتعمق ازمتها وتصبح اقل قدرة على مواجهة تطور العملية الثورية على الصعيد العالمي ٠

من هنا ، قناعتنا بأن القاعدة الاساسية الثابتة لمواجهة الهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية والتصدي الحقيقي لها تتوفر ظروف تكونها وتطورها ٠ ومن هنا ، مصدر الثقة بأن حركة التحرر الوطني العربية ، التي تنتقل الان الى مرحلة جديدة ، قادرة على احباط نهج الارتداد والخيانة ، في اطار هجومها المعاكس للهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية ٠

هـاني حـوراني

التطور الاقتصادي والصناعي في الاردن

واثره على تشكل الطبقة العاملة (١٩٥٠-١٩٥٧)

ا ـ الاقتصاد الاردني في الخمسينات : سماته واتجاهاته وتطوره

على الرغم من اتسام التطور الاقتصادي في ضفتي الاردن في الخمسينات بتسارع وتيرة نموه العام سنة بعد اخرى ، الا ان هذه السمة لا تطمس السمة الابرز والاكثر جوهرية للتطور الاقتصادي وهي : تعاظم تبعية الاقتصاد الاردني للخارج وازدياد طابعه العام تشوها واختلالا في توازنه وانسجامه الداخلي · وهي السمة التي تفقد تسارع النمو الاقتصادي مدلوله ومغزاه الضروري ·

لقد قدرت المصادر الرسمية الاردنية نسبة نمو الانتاج المحلي الاجمالي سنويا بنسبة ٥ر١١٪ ، وارتفع الانتاج المحلي الاجمالي بسعر الكلفة من اقل من ٣٥ مليون دينار عام ١٩٥٠ الى ٤٥ مليون دينار عام ١٩٥٣ ، الى ٥٠ مليون دينار عام ١٩٥٤ ، الى ١١١ مليون دينار عام ١٩٦١ (١) · ويقدر الخبير بورتر قيمة الانتاج المحلي الاجمالي في السنوات ٥٤ ـ ١٩٥٧ كما يلي وبملايين الدنانير الاردنية : ٨ر٤٧ ، ٠ر٤٣ ، ٤ر٦١ ، ٩ر٦١ بالترتيب (٢) · وتشير المصادر الرسمية الاردنية الى ان نسبة الزيادة الحقيقية في الانتاج المحلي الاجمالي كانت توازي اكثر من ٩٪ سنويا بالمتوسط ، بعد حذف تأثير الغلاء والزيادة السكانية· وتبرز هذه المصادر هذه الزيادة في الانتاج المحلي الاجمالي كافة حصيلة زيادات الانتاج في القطاعات المختلفة بالنسبة التالية : فقد كان معدل نمو الانتاج الصناعي (اي الصناعة والتعدين والكهرباء والانشاءات) يوازي ١٣٪ بالاسعار الثابتة ما بين عامي ٥٤ ـ ١٩٦١ ، في حين كان انتاج قطاعات الخدمات ينمو

بمعدل مشابه ، اي ١٢٪ سنويا في الفترة ذاتها ، لكن معدل نمو الانتاج الزراعي اقتصر على ٢٪ سنويا فقط (٣) ٠

اما التكوين الرأسمالي الاجمالي للاقتصاد الاردني فقد كان ينمو بنسب متزايدة توازي ١٥٪ في متوسطها السنوي ٠ فقد ارتفع حجم التكوين الرأسمالي الاجمالي (اي المعدات والالات والتجهيزات وادوات النقل) من ٥ر٥ مليون دينار عام ١٩٥٤ الى ١٨ مليون دينار عام ١٩٦٢/٦١ ، وبذلك ارتفعت نسبة التكوين الرأسمالي الى الانتاج المحلي الاجمالي من ١١٪ عام ١٩٥٤ الى ١٨٪ عام ١٩٦٢/٦١ (٤) ٠

ان توزيع الانفاق على التكوين الرأسمالي ما بين قطاع الدولة والقطاع الخاص في هذه المرحلة ، يبرز غلبة استثمارات القطاع الخاص بمقدار الضعف على استثمارات القطاع العام ٠ اما توزيع هذه الاستثمارات قطاعيا ، فيظهر ان نسبة الاستثمار في معدات النقل والالات كانت توازي ٣٤٪ من مجمل التكوين الرأسمالي ، مقابل ٣٣٪ تعود الى الاستثمار في المساكن والابنية ، فيما يعود ٢٥٪ من مجموع التكوين الرأسمالي الى الاستثمار في الانشاءات العامة (٥) ٠

لكن مؤشرات النمو السريعة هذه ، لا تعكس الا جانبا واحدا من اتجاهات تطور اقتصاد الاردن بضفتيه ، بينما الجوانب الاخرى الاكثر جوهرية تشير الى ازدياد تبعيته وطابعه الطفيلي ـ الكولونيالي ، الامر الذي يبرر عدم اخذ وتائر النمو السريع للاقتصاد على علاتها ، حيث انها لا تعكس نموا حقيقيا في الانتاج ولا ترسيخا متناميا للقاعدة المادية للانتاج بقدر ما تعكس تعاظم مكانة القطاعات الخدمية ـ غير الانتاجية في الاقتصاد الوطني ، هذا التعاظم الذي يعود بدوره الى تزايد هيمنة السوق الرأسمالي من جهة ، والمساعدات الخارجية للامبريالية من جهة ثانية على الاقتصاد الوطني ٠ فالعجز في الميزان التجاري والاعتماد على المساعدات الخارجية في تمويل الموازنة الحكومية ظلا يطبعا الاقتصاد الاردني منذ بداية الخمسينات ، تماما كما كانا يطبعانه خلال السنوات السابقة ومنذ ١٩٢١ ، بسمات التبعية للامبريالية والسوق الرأسمالي ٠

لقد ارتفع العجز في الميزان التجاري من ٥ر١٠ مليون دينار عام ١٩٤٨ الى ٨ر١٥ مليون دينار عام ١٩٥٢ الى ٥ر٣٠ مليون دينار عام ١٩٥٧ (٦) ٠ وكان متوسط العجز التجاري يوازي ٣٩٪ من الانتاج المحلي الاجمالي خلال ٥٤ ـ ١٩٦١ (٧) ، وكان هذا العجز يتزايد بمتوسط ١١٪ سنويا خلال الفترة ذاتها ٠

اما الايرادات العامة للدولة ، فقد كانت تمول بنسبة ٥٧٪ خلال ٥٤ ـ ٦١ من المصادر الخارجية ، مقابل ٤٣٪ هي حصة الايرادات المحلية ، المعتمدة اساسا على الضرائب غير المباشرة ٠ وكانت نسبة الزيادة السنوية للايرادات الخارجية للموازنة توازي ١ر٧٪ خلال الفترة ذاتها ٠ لقد تراوحت نسبة الايرادات العامة

للحكومة من الانتاج المحلي الاجمالي بين ٧ر٣٣٪ عام ٥٦/٥٧ و ٣ر٤٠٪ عام ٥٨ ـ ١٩٥٩ (٨) ، مما يشير الى تعاظم دور الانفاق الحكومي ودور المساعدات الخارجية في رفع القيمة الاجمالية للانتاج المحلي وفي اضطراد نموه العام من خلال ارتفاع مساهمة قطاع الادارة العامة والدفاع في الاقتصاد الوطني ·

يعود تسارع وتيرة النمو العام للاقتصاد الاردني ، منذ مطلع الخمسينات ، الى جملة من العوامل الموضوعية ابرزها اتساع السوق المحلي للاقتصاد بعد ان تضاعف عدد سكان الاردن الى ثلاثة اضعاف عددهم في منتصف الاربعينات ، والى ضرورة تعويض الهيكل الانتاجي الذي فقد في فلسطين ، والذي كان يزود سكان الضفتين بقسم هام من موادهم الاستهلاكية ، وقيام حاجات ملحة لتوفير المساكن ووسائل النقل والمرافق الخدمية الكافية للسكان · ومما لا شك فيه ان تعاظم اعداد الايدي العاملة الماهرة منها وغير الماهرة ، وانخفاض اجورها ، قد ضاعف من فرص الاستثمار العام وعوض الى حد كبير عن تدني مستوى التجهيز الرأسمالي · ولقد شكل وجود اعداد كبيرة من الايدي العاملة أساسا مكينا لنمو القوى المنتجة في المدن والريف على حد سواء · وفي هذه الظروف اتيحت فرص واسعة للرأسمال المحلي للنشاط ، كما تضاعف عدد الشركات العاملة في الضفتين في سنوات قليلة · على ان تبعية الطبقة الحاكمة للامبريالية واستمرار توجيهها للتطور الاقتصادي ، ضمن التوجيهات نفسها التي سادت الاقتصاد قبل عام ١٩٥٠ ، وتزايد حاجة الامبريالية لتعزيز وجودها في الاردن ولدعم قدرة السلطة من خلال المساعدات المالية على اداء دورها الالحاقي والقمعي ، وعلى مجابهة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تلت الحرب الفلسطينية والنزوح والضم ، ادى هذا كله الى اضعاف قدرة البرجوازية الوطنية على التوجه نحو الاستثمار الانتاجي ، مما ادى بالتالي الى توجيهها نحو التطور بافق ومنظور كومبرادوزي ـ خدماتي بصورة متزايدة ·

ان ارقام الانتاج المحلي الاجمالي المبينة في الجدول رقم « ١ » (وفقا لتقديرات بورتر) توضح السمات العامة للاقتصاد الوطني الاردني في الخمسينات · ومنها يلاحظ انطلاق الاقتصاد الوطني للاردن (بضفتيه) من قاعدة اختلال مستوى تطور القطاعات الاقتصادية وانعدام التوازن في نموها ، وتحديدا انطلاق هذا الاقتصاد من واقع هيمنة القطاعات الخدمية وغير الانتاجية على التركيب العام للاقتصاد ، وتدني مكانة القطاعات الانتاجية الاساسية فيه ، حيث نلاحظ ان متوسط مساهمة القطاعات الانتاجية (الزراعة والصناعة والتعدين والكهرباء والانشاءات) في الانتاج المحلي الاجمالي لا تتجاوز ٣ر٣٦٪ ، في حين تسهم بقية القطاعات ، اي القطاعات الخدميه بالحصة الاعظم من الانتاج المحلي الاجمالي وهي ٧ر٦٣٪ (٩) ·

فمن الجدول المذكور نلاحظ ايضا ان القطاع الانتاجي الرئيسي ، **الزراعة** ، يعاني من استمرار اعتماده الشديد على المطر والعوامل المناخية ، الامر الذي

يفسر تذبذب انتاجيته وبالتالي تذبذب مساهمته في الانتاج المحلي · ان عدم استقرار نمو الانتاجية الزراعية تفسر تأرجح مكانة هذا القطاع في اطار الاقتصاد الوطني ، ما بين المرتبة الاولى والثانية والثالثة من حيث المساهمة في الانتاج الوطني · وغني عن البيان ان هذا التأرجح بل والتراجع في المراحل التالية انما يعود الى غلبة الزراعة البعلية ، غير المروية على الزراعة عموما ، وضعف الاعتماد على الري القديم واستغلال مصادر المياه ، وتدني مستوى تطوير وسائل الانتاج في الريف ·

لقد تركت ازمة نمو القطاع الزراعي في الاردن ، اثارها الضارة على الاقتصاد الوطني عموما ، حيث ادت الى تزايد الاعتماد على استيراد السلع والمواد الزراعية والغذائية ، كما ان هذه الازمة تفسر انخفاض معدلات الدخل العام للسكان ، الذين هم في غالبهم سكان ريفيون ، وارتفاع معدلات البطالة بأشكالها المختلفة في صفوفهم ·

جدول رقم (١)

المصدر الصناعي للانتاج المحلي الاجمالي بسعر الكلفة (بملايين الدنانير)

القطاع	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٥٧
الزراعة والحراج	١٤ر٢	٦ر٢	١٩ر٠	١٢ر٨
التعدين والصناعة والكهرباء	٤ر٢	٥ر٢	٦ر٣	٦ر٨
الانشاءات	١ر٢	١ر٥	١ر٧	١ر٩
النقل والمواصلات	٤ر٤	٥ر٥	٦ر٨	٨ر٣
التجارة والبنوك	٩ر٣	٩ر٣	١٠ر٥	١٢ر٠
ملكية المساكن	٢ر٣	٢ر٣	٢ر٩	٣ر١
الادارة العامة	٩ر١	٩ر٧	١١ر٥	١٣ر٣
الخدمات	٣ر١	٣ر٣	٢ر٧	٣ر٧
المجموع	٤٧ر٨	٤٣ر٠	٦١ر٤	٦١ر٩

المصدر : مجلة « التنمية » الاردنية ، دائرة المطبوعات والنشر ، عمان ، العدد ٢٧ ، السنة الرابعة ، نيسان ١٩٧٦ ، ص ١٩ ·

ولا يعود تدني مكانة القطاعات المنتجة في الاقتصاد الوطني الى تذبذب الانتاجية الزراعية ومساهمتها في الانتاج الوطني وعدم اضطراد نموها فقط ، وانما يعود ايضا ، الى ان الاقتصاد الوطني للضفتين قد حافظ على بنيته الكولونيالية الكومبرادورية الموروثة منذ فترة الاستعمار البريطاني ، سواء في فلسطين او شرق الاردن · هذه البنية التي تقوم في اساسها على غلبة القطاعات غير المنتجة وذات الطابع الخدمي الصارخ · ولقد جاءت ظروف الحرب الفلسطينية ، ثم فترة اعادة بناء الاقتصاد الوطني في ظل التبعية للامبريالية ،

ورغم الاستقلال السياسي الشكلي الذي حظي به الاردن ، لتحافظ على نفس السمات البنيوية السابقة للاقتصاد الاردني ، على مواقع الهيمنة للقطاعات الخدمية التي نمت بوتيرة سريعة ، الامر الذي اغلق فرص تعديل التركيب غير المنسجم للاقتصاد الوطني لصالح تغليب القطاعات المنتجة ، والصفة الانتاجية على الاقتصاد الوطني · فلقد نمت القطاعات الخدمية بمعدلات توازي معدلات نمو القطاعات المنتجة ، مما جعل من المستحيل التغلب على الطابع الخدمي ـ الكومبرادوري للاقتصاد الوطني في ظل استمرار سياسة التبعية للامبريالية والاعتماد على نموذجها التنموي ·

ان التقدم المضطرد لنمو **قطاع الادارة العامة** ، المترافق مع تزايد اهمية مساهمته في الانتاج المحلي الاجمالي ، قد جعل هذا القطاع يحتل المكانة الاولى في ترتيب القطاعات الاقتصادية المختلفة ، وفي كل الاحوال ادى هذا التقدم المضطرد لنمو قطاع الادارة العامة الى احتلاله المكانة الثالثة او الثانية من حيث مساهمته في الانتاج المحلي الاجمالي ، وحيثما نجحت الزراعة في الحفاظ على مكانتها الاولى ·

وغني عن البيان ان المكانة الراسخة والتي تزداد تعززا لقطاع الادارة العامة في الاقتصاد الوطني ، لا يعود الى وجود مساهمة حقيقية لهذا القطاع في الانتاج ، وانما لاعتماد هذا القطاع على المساعدات والهبات الخارجية ، التي تراوحت نسبتها ما بين ٢٤ ٪ و ٣٤٫٩٪ من الدخل القومي الصافي ، كما يبين الجدول رقم «٢» ·

جدول رقم (٢)

ارقام الدخل القومي الاجمالي والصافي وارقام المساعدات الخارجية ونسبتها الى الدخل الصافي (بملايين الدنانير الاردنية)

السنة	الدخل القومي الاجمالي	الدخل القومي الصافي	مجموع المساعدات الخارجية	نسبة المساعدات الخارجية الى الدخل القومي الصافي
١٩٥٢	٤٥٫٦	٤٣٫٧	١٠٫٥	٢٤٫٠
١٩٥٣	٣٩٫٩	٣٨٫٣	١٢٫٩	٣٣٫٧
١٩٥٤	٥٢٫٤	٥٠٫٣	١٣٫٩	٢٧٫٦
١٩٥٥	٤٩٫٨	٤٧٫٨	١٦٫٧	٣٤٫٩
١٩٥٦	٦٨٫٥	٦٥٫٧	١٦٫٦	٢٥٫٣
١٩٥٧	٧٠٫١	٦٧٫٢	١٦٫٦	٢٤٫٧

المصدر : IBRD—IDA, *Current Economic Position and Prospects of Jordan*, Dec, 1969, p. 23 .

ان ما يسمى بمساهمة قطاع الادارة العامة في الانتاج المحلي الاجمالي ، اي الدخول الناجمة عن العمل في هذا القطاع ، ليس محصلة اعادة توزيع الدخل المنتج محليا ، كما هي الحال في البلدان الاخرى (بغض النظر عن اعتبار الطريقة البرجوازية المعتمدة في حساب الانتاج القومي لقطاع الخدمات قطاعا منتجا للدخل ، بينما هو في الواقع قطاع يقتسم الدخول المنتجة في قطاعات الانتاج المادي ، المنتجة الحقيقية للفائض) ، وانما يعود القسط الاكبر من مساهمة قطاع الادارة العامة في الانتاج المحلي الاجمالي الاردني الى مصدر خارجي للدخل ، اي الى المساعدات والهبات الامبريالية الخارجية ، والتي تصب في قطاع الادارة العامة والدفاع وتعطيه قوة متعاظمة التأثير ، سواء من حيث كونه يشغل قسما كبيرا من القوة العاملة ومصدرا لدخلها ، ومن حيث قدرة هذا القطاع على تحريك القطاعات الاقتصادية الاخرى وتوجيهها ، مما يضفي عليه دورا قياديا لبقية القطاعات ·

ولم يتسبب نمو قطاع الادارة العامة في الحد من اهمية ومكانة القطاعات المنتجة في اطار الاقتصاد الوطني فقط ، وانما تسبب بذلك ايضا تعاظم الاعتماد على التجارة الخارجية وتنامي اهميتها · فلقد شكل **قطاع التجارة والبنوك القطاع** الثاني من حيث « مساهمته » في الانتاج المحلي الاجمالي عامي ٥٤ و ١٩٥٥ والقطاع الثالث في عامي ١٩٥٦ و ١٩٥٧ · حيث بلغت بالنسب المئوية ٥ر١٩٪، ٦ر٢١٪ ، ١ر١٧٪ ، ٤ر١٩٪ بالترتيب (١٠) ، ان نمو مساهمة هذا القطاع في الانتاج المحلي يعود الى تنامي الارباح الناجمة عن الاستثمارات التجارية والمالية بعيد الحرب الفلسطينية ، مع تزايد عدد السكان واتساع السوق الداخلية وتعاظم اهمية التبادلالبضاعي ، وازدياد الحاجة الى السلع الاستهلاكية الجاهزة في ظروف ما بعد الكارثة الفلسطينية ، في حين لم يكن مستوى تطور الانتاج المحلي كافيا لمجابهة الاحتياجات المستجدة للسكان ·

ان المعطيات المختلفة تؤكد ان هذا القطاع كان منشغلا بشكل رئيسي في التجارة الخارجية ، وبالاستيراد · اما ارباح التداول البضاعي في السوق المحلي فكانت متأتية عن تداول البضائع المستوردة اساسا · ان الجدول التالي رقم « ٢ » ، يظهر ارقام التجارة الخارجية في السنوات التي سبقت الحرب الفلسطينية والتي تلتها ، ويشير الى ازدياد وتيرة اعتمادها على الاستيراد في تامين السلع الاستهلاكية والضرورية ·

جدول رقم (٣)

التجارة الخارجية خلال سنوات ١٩٥٧/٤٦ (بالالف دينار)

السنة	المستوردات	الصادرات الوطنية	البضائع المعاد تصديرها	المجموع	الميزان التجاري
١٩٤٦	٨ر٧٨٧ر٠	٢ر٠٤٤ر٢	٦٥٠ر٠	٢ر٦٩٤ر٢	ـ ٦ر٠٩٢ر٨
١٩٤٧	١٠ر١٤٦ر٨	٥٠٦ر١	٣٦٥ر٢	٨٧١ر٣	ـ ٩ر٢٧٥ر٥
١٩٤٨	١٢ر٦٢٧ر٨	٧٢٧ر٦	١ر٧٨٣ر٦	٢ر٥١١ر٢	ـ ١٠ر١١٦ر٦
١٩٤٩	١٤ر٦٦٢ر٤	١ر٠٥٣ر٤	٤ر٥٠٥ر١	٥ر٥٥٨ر٥	ـ ٩ر١٠٣ر٩
١٩٥٠	١٠ر٧٦٦ر٦	١ر٥٣٧ر٠	٠٣٥ر٥	١ر٥٧٢ر٥	ـ ٩ر١٩٤ر١
١٩٥١	١٥ر٦٧٢ر٠	١ر٠٤١ر٠	٤١٢ر٩	١ر٤٥٣ر٩	ـ ١٤ر٢١٨ر١
١٩٥٢	١٧ر٣٣٤ر٥	١ر٢٨٠ر١	٢٥٢ر٧	١ر٥٣٢ر٨	ـ ١٥ر٨٠١ر٧
١٩٥٣	١٨ر٣٩٥ر٠	١ر٩٠٠ر٤	١٩٧ر٩	٢ر٠٩٨ر٣	ـ ١٦ر٢٩٦ر٧
١٩٥٤	١٩ر٨٤٠ر٥	٢ر٤٣٣ر٩	٣٨٩ر٨	٢ر٨٢٣ر٧	ـ ١٧ر٠١٦ر٨
١٩٥٥	٢٧ر٠٥٨ر٥	٢ر٦١٩ر٤	٢٤٨ر٨	٢ر٨٦٨ر٢	ـ ٢٤ر١٩٠ر٣
١٩٥٦	٢٧ر٨١٨ر٧	٤ر٣٧٩ر٣	٥٨٠ر٥	٤ر٩٥٩ر٨	ـ ٢٢ر٨٥٨ر٩
١٩٥٧	٣٤ر٠٢٩ر٧	٣ر١٣٩ر٣	٣٩٢ر٩	٣ر٥٣٢ر٢	ـ ٣٠ر٤٩٦ر٥

المصدر ـ : **النشرة الاحصائية السنوية** ، دائرة الاحصاءات العامة ، عمـان ١٩٧٣ ، العدد الرابع والعشرون ، جدول ١٠٢ ، ص ١٥٥/١٥٤ ٠

لقد قفزت ارقام المستوردات من ٨ر٨ مليون دينار عام ١٩٤٦ الى ٣٤ مليون دينار عام ١٩٥٧ ، اي انها تضاعفت باكثر من اربع مرات ٠ كما تضاعف العجز التجاري في نفس الفترة باكثر من خمس مرات ٠ ولو اخذنا الفترة التالية على عام ١٩٥٠ ، لوجدنا ان المستوردات قد ازدادت خلال سبـــع سنوات بنسبـة ٢٨٢ر٤٪ ، اي تضاعف نحو ثلاث مرات ٠ اما العجز التجاري فقد ارتفع مـن ١٥٨ر١٪ عام ١٩٥١ الى ٢٨١ر١٪ عام ١٩٥٧ ٠ ورغم ان الصادرات الوطنيـة قد ازدادت عام ١٩٥٧ بنسبة ٢٨٦ر٧ قياسا لعام ١٩٥٠ ٠ الا ان وتيرة زيـادة الصادرات ظلت ضعيفة جدا نظرا لضعف قطاعات الانتاج المادي ، ولضعف حجم التصدير منذ البداية ، ولزيادة المسـتوردات بقوة سـنة بعد اخـرى ٠ فنسـبة الصادرات الوطنية الى المستوردات ظلت نسبة محـدودة جـدا طوال هـذه السنوات ٠ ففي عام ١٩٥٠ كانت نسبة الصادرات الى المستوردات ١٣ر٩٪ ٠ وفي عام ١٩٥٧ لم تزد عن ١٤ر١٪ (١١) ٠ ان كون الصادرات الوطنية هـي صادرات زراعية في ، معظمها ، جعلها متفاوتة ومتقلبة ارتفاعا وهبوطا بسبب

خضوع انتاجية الزراعة وصادراتها للتقلبات الطبيعية الامر الذي عكس نفسه على الصادرات ارتفاعا وهبوطا ٠ كما ان ارتفاع المستوردات بين سنة واخرى بوتيرة عالية جدا ، كان بسبب ذبذبة نسبة الصادرات الى المستوردات ٠ فهي تنخفض الى ٣ر٦٪ عام ١٩٥١ ، او ترتفع الى ٩ر١٥٪ عام ١٩٥٦ ، هكذا (١٢)٠

ومن الاهمية بمكان ، ان نلاحظ في تركيب السلع المستوردة للاردن خلال هذه الفترة ، غلبة سلع الاستهلاك النهائي على الاستيراد وقلة السلع الرأسمالية والسلع الوسيطة ٠ الامر الذي لا يقدم اي اساس للتفاؤل بتعديل العجز في الميزان التجاري ٠ ان الجدول التالي ، رقم «٤» ، يبين ان ما بين ٧٦٪ و ٩٠٪ من المستوردات هي سلع استهلاك نهائي ، في حين تتراوح السلع الراسمالية بين ٢ر٣٪ و ٦ر٩٪ ، والباقي هي المستوردات من السلع الوسيطة ٠ ان هذه الارقام تفسر استمرار العجز التجاري ، الذي يعكسه الجدول السابق ٠ كما تشير الى محدودية تطور قطاعات الانتاج المادي المختلفة ٠

جدول رقم (٤)

السنة	قيمة المستوردات (مليون دينار)	سلع رأسمالية ٪	سلع وسيطة ٪	سلع استهلاك نهائي ٪
١٩٥٠	٨ر١٠	٧ر٣٪	٥ر١٨٪	٨ر٨٧٪
١٩٥١	٧ر١٥	٢ر٣٪	٢ر١٧٪	٦ر٨٩٪
١٩٥٥	١ر٢٧	٦ر٩٪	٤ر١٤٪	٧٦٪

المصدر : وديع شرايحة ، « **التنمية الاقتصادية في الاردن** » ، **معهد البحوث** والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٦٦ ٠

لقد حافظت بقية القطاعات على ترتيب مساهمتها في الانتاج المحلي ، فاحتل **قطاع النقل** المرتبة الرابعة مع ازدياد حجم اسهامه بالارقام المطلقة في الانتاج المحلي من ٤ر٤ مليون دينار الى ٣ر٨ مليونا بين عامي ٥٤ و ١٩٥٧ وبالنسب المئوية من ٢ر٩٪ الى ٤ر١٣٪ وحافظت بقية القطاعات الاخرى **كالخدمات وملكية المساكن والانشاءات والصناعة** على ترتيب مساهمتها في الانتاج المحلي مع بعض التغييرات وتبادل المواقع احيانا ٠ وفي هذا الاطار ظل **قطاع الصناعة والتعدين والكهرباء** يشغل الترتيب الخامس من حيث اهمية مساهمته في الانتاج المحلي الاجمالي ، رغم ارتفاع هذه المساهمة بالارقام المطلقة من ٥ر٤ مليون دينار عام ١٩٥٤ الى ٦ر٨ مليون دينار عام ١٩٥٧ (١٣) ٠

اما سمات التطور الصناعي واوضاع الصناعة الاردنية في الخمسينات فسوف نعالجها بشيء من التفاصيل لصلتها الوثيقة بنشوء الطبقة العاملة وحركتها النقابية ٠

ب ـ الصناعة والتطور الصناعي في الاردن (فترة الخمسينات)

اتسمت الصناعة الاردنية في فترة الخمسينات بغلبة الطابع الحرفي ونموذج المنشأة الصناعية الصغيرة على تركيبها العام ، كما اتسمت ايضا بصفتها الاستهلاكية وباستهدافها تلبية الحاجات المباشرة للسكان · الا ان هذه الفترة شهدت ايضا قيام العديد من الصناعات الكبيرة المتطورة التي لم تلبث ان شكلت العمود الفقري للصناعة الاردنية ، غير ان تأثيرها على التركيب العام لم يظهر خلال هذه الفترة ، أما لانها لم تكتمل او لم تبدا الانتاج الا في نهاية الخمسينات ومطلع الستينات (١٤) ·

استند التطور الصناعي في الاردن في مطلع الخمسينات الى قاعدة من المؤسسات الحرفية والصناعية الصغيرة القائمة في ضفتي الاردن قبل عام ١٩٥٠ ولا سيما في الضفة الغربية ، والتي نشأت قبل حرب ١٩٤٨ وضم الضفة الغربية او بعيد هذه الحرب وقبل الالحاق والضم الرسمي · فقد كان عدد المؤسسات الصناعية والحرفية في الضفتين قبل ١٩٥٠ ١٨٠٤ مؤسسات · ولقد شكلت المؤسسات العاملة في صناعة الملابس والاحذية الكتلة الاكبر بين هذه المؤسسات، اذ بلغ عددها ٧٦١ مؤسسة · تنتها المؤسسات العاملة في صناعة المواد الغذائية وعددها ٤٢٥ مؤسسة ، ثم كتلة مؤسسات المنتجات المعدنية وعددها ٢١٦ مؤسسة ، وصناعة الاثاث والمفروشات وعددها ١٧٤ مؤسسة (١٥) ·

ولقد تضاعف عدد المؤسسات الصناعية والحرفية في الاردن خلال الخمسينات حتى بلغ عددها عام ١٩٥٩ ، ٦٨٨٧ مؤسسة اي قرابة اربعة اضعاف قبل عام ١٩٥٠ (١٦) ، مما يشير الى الوتيرة السريعة للتطور الحرفي ـ الصناعي خلال سنوات الخمسينات ·

على ان التطور العددي للمؤسسات الحرفية والصناعية لم يغير من الطابع العام للصناعة في الاردن ، اذ ظلت تغلب عليها صفة الصناعة الاستهلاكية المكرسة لتلبية الحاجات المباشرة للسكان · ففي نهاية عام ١٩٥٩ ، كان ٤٦ر٥٪ من المؤسسات يعمل في صناعة الملابس والاحذية و ١٨ر٦٪ منها في صناعة المواد الغذائية ، و ١١ر٩٪ منها في صناعة الاثاث والمفروشات ، و ٩ر٧٪ منها في صناعة المنتجات المعدنية · لكن الى جانب هذه الصناعات نما عدد المؤسسات الصناعية والحرفية العاملة في فروع تصليح السيارات (١٩٠ مؤسسة) وفي المنتجات غير المعدنية (١٢٩ مؤسسة) والنسيج (١٠٣ مؤسسات) كما ازداد عدد المؤسسات العاملة في تصليح وصيانة المعدات الكهربائية وغير الكهربائية وفي صناعة الطباعة والنشر (١٧) ·

وتظهر مختلف المؤشرات من جهة اخرى ان الطابع العام لهذه المؤسسات هو الطابع الحرفي والصناعي الصغير ، فعلى سبيل المثال بلغ متوسط عدد العاملين

في هذه المؤسسات ثلاثة عمال فقط · ويؤكد الطابع الحرفي للصناعة الاردنية في الخمسينات المسح الاحصائي الذي قامت به دائرة الاحصاءات العامة في عام ١٩٥٤ · والذي اظهر ان عدد المؤسسات الصناعية التي يعمل فيها خمسة عمال فاكثر لا يتجاوز ٤٢١ مؤسسة· وبالمقارنة مع عدد المؤسسات الصناعية والحرفية في العام نفسه والبالغ ٢٣٤١ مؤسسة يتضح ان نسبة المؤسسات الصناعيـــة « غير الصغيرة » (اي التي تستخدم خمسة عمال فأكثر) لا يتجاوز ١٢ر٦٪ مقابل ٨٧ر٤٪ من المؤسسات هي من الحجم الصغير والحرفي (١٨) ·

يظهر المسح الصناعي لعام ١٩٥٤ السمات البنيوية للصناعة الاردنية ، سواء من حيث حجمها ، او من حيث فروعها الانتاجية ، او من حيث حجم استخدامها وانتاجيتها الاجمالية · ويؤكد هذا المسح ان المؤسسات الصناعية التي تستخدم خمسة عمال فاكثر تقترب هي ايضا من الطبيعة الحرفية ، اذ لم تتجاوز رؤوس اموال هذه المؤسسات (وعددها ٤٢١ مؤسسة) ٤ر٣ مليـون دينـار ، اي ان متوسط راسمال المؤسسة الواحدة هو ١٠ر٢١٦ دينـــار اردني · كمـا انهـا استخدمت ٨١٩٨ عاملا ، (بمعدل ١٩ ــ ٢٠ عامل للمؤسسة ــ تدفع لهم رواتب سنويا مقدارها ٦٧٣ر٤٤٨ دينارا ، في حين بلغت القيمة الاجماليـة لانتاجهـا الصناعي ٧ر٢١٤ر٩٧٩ دينارا اردنيا (انظر الجدول رقم «٥») ·

جدول رقم (٥)

المؤسسات الصناعية في الاردن لعام ١٩٥٤ (التي يعمل فيها خمسة اشخاص فما فوق)

الصناعة	عدد المؤسسات	الرأسمال الموظف	عدد العاملين	الاجور والرواتب (بالدينار)	قيمة مجمل الانتاج (بالدينار)	القوة المشغلة بالحصان
الصناعة الغذائية	٦١	١ر٠١٤ر٠٠٠	٩١٢	٨١ر٦٢٣	٢ر٧٩٦ر٧٢٠	٢ر٤١٦
المشروبات والمياه الغازية	٣٠	٢٦٦ر٨٥٥	٣٥٣	٢٥ر٥٩٨	٢٣٢ر٤٥٠	٣٧١
التبغ والسجائر	٥	٤٠٧ر٠٠٠	٥٨٣	٥٣ر٢٣٠	١ر٠٧٥ر٠٠٠	١٢٩
الغزل والنسيج	٢٦	١٠٢ر٠٠٠	٢٨٨	٢٢ر٦٦١	١٧١ر٢٧٨	١٧١
الملابس والاحذية	٥٧	٣٦٧ر٤٠٠	٩٠٦	٧٧ر١٧٤	٣٤٨ر٧٠٠	١٠٤
التجارة والخشب	٢٥	٧٧ر٩٥٠	٣٢٣	٣٠ر٩٨٤	١١٧ر٠١٠	٤٢٥
المفروشات الخشبية	٢٥	١١٧ر٦٠٠	٤٤٥	٣٦ر٩٠٦	١٧٣ر٤٧١	٥٢٥
الورق والكرتون	٨	٨٦ر٧٠٠	١٦٩	١٢ر٠٢٠	١٥٦ر٠٠٠	٧٥
الطباعة والتجليد	١٤	٢٠٠ر١٠٠	٣٥١	٢٤ر٥٠٩	١٧٦ر٤٤٨	١٤٥
منتجات جلدية	١١	١٨ر٢٠٠	٧١	٣ر٤٨٤	٥٥ر١٠٠	٥٣
امنتجات المطاط	٣	٣٢ر٥٠٠	٣٠	٢ر٥٠٠	٤٠ر٩٥٠	٥٢
المنتجات الكيماوية	٢٧	٢٣٦ر٠٠٠	٤٥٣	٢٩ر٥٨٣	٢٤٩ر٥٦٢	٧٠
المنتجات غير المعدنية	٣٧	١ر١٤٦ر٣٠٠	٨٦١	٩١ر٧٤٧	٩٤٢ر٢٥٠	٤ر٥٨٩
المنتجات المعدنية	٣١	١٣٣ر١٥٠	٣٩٣	٣٦ر١٢٠	١٩٦ر٧٥٠	٤٨٢
الخراطة والاعمال الميكانيكية	١٨	١٠٠ر١٠٠	٨٩٦	٦٧ر٠٠٠	٢٤٠ر٠٠٠	٤٢٨
صناعة اجسام السيارات	١١	٦١ر٦٥٠	٢٥٦	٢٩ر٧٠٠	٨٤ر٧٠٠	٢٧٦
اعمال الصياغة والمجوهـرات	٣٢	٣٤ر٢٠٠	٢٣١	١ر٥٠٠	٦٦ر٢٠٠	٣٣
مجموع الصناعات	٤٢١	٤ر٣٠١ر٢٠٥	٨ر١٩٨	٦٣٧ر٤٤٨	٧ر٢١٤ر٩٨٩	١٠ر٣٥٦

« *The Euonomic Development of Jordan* » (Report of amission organized by the I.B R.D.), Johns Hopkins Press, Baltimore, 1957 p.p. 207 - 209 .

جــدول رقم (٦)

مؤسسات الصناعات الغذائية في الاردن (٥ عمال فاكثر) لعام ١٩٥٤

	عددالمؤسسات	الراسمال الموظف	عددالعاملين	الاجـور والرواتب	قيمة مجمل الانتـاج	القوة المشتغلة في الصنـاعة
منتجات الالبان	٢	٢٧ر٠٠٠	٢٤	١ر٧١٦	١١ر٤٠٠	١٤
المعلبـات	٢	١١٨ر٠٠٠	٧٣	٧ر١٣٦	١٢٢ر٠٠٠	١٣٣
مطاحن الحبوب	١٧	٧١٣ر٠٠٠	٣٤٢	٤١ر٢١٢	٢ر١٧٣ر٥٠٠	٢ر٠٨٤
مخـــابز	١٦	٥٥ر٠٠٠	٢٠٠	١٨ر٨٢٠	٢٩١ر٠٠٠	١٣
حلويــات	٢١	٨٨ر٠٠٠	٢٤٤	١١ر٦٥٤	١٨٠ر١٢٠	١٣٠
Alimentary Paste	٣	١٣ر٠٠٠	٢٩	١ر٠٩٥	١٧ر٧٠٠	٤٢
المجمـوع	٦١	١ر٠١٤ر٠٠٠	٩١٢	٨١ر٦٣٣	٢ر٧٩٦ر٧٢٠	٢ر٤١٦

المصدر *Ibid*, p. 207 .

اما ابرز الفروع الصناعية فقد كانت التالية :

١ ـ **صناعة المواد الغذائية** : وتاتي في مقدمة الصناعات الوطنيـــة ، حيث تنتج ٣٨ر٧٪ من قيمة الانتاج الصناعي الاجمالي ، كما تشغل ١١ر١٪ من عمال الصناعة • ويبلغ متوسط عدد العاملين في المؤسسات الصناعية الغذائيـة ١٥ عامـــلا •

ومن الجدول رقم « ٦ » نلاحظ ان مطاحن الحبوب تاتي فيمقدمة مؤسسات صناعة الاغذية من حيث الراسمال المستثمر (حوالي ثلاثة ارباع الراسمـــال المستثمر في صناعة الاغذية) ، ومن حيث عدد العاملين (اكثر من ثلثهـم) ، وتدفع نحو نصف اجور عمال الصناعات الغذائية ، كما توازي قيمة انتاجهـــا الاجمالي ٧٧ر٧٪ من القيمة الاجمالية لانتاج صناعـة الاغذيـــة ، وتستاثـــر بـ ٨٦ر٢٪ من القوة المشغلة •

ويليها في الاهمية صناعة المعلبات ، من حيث الراسمال المستثمر • والمخابز من حيث قيمة الانتاج الاجمالي والحلويات من حيث عدد العاملين ، وهي علـى كل حال المؤسسات الرئيسية في صناعة الاغذية •

وعموما تستاثر صناعة الاغذية بـ ٢٣ر٦٪ من الراسمال المستثمر في الصناعة الاردنية ، وتشغل ١١ر١٪ من عمال الصناعة • وتنتج ما قيمته ٣٨ر٧٪ مـــن قيمة الانتاج الاجمالي للصناعة •

٢ ـ **صناعة السجائر والتنبك** : وتلي صناعة المواد الغذائيـة مـن حيـــث الانتاجية والكثافة العمالية ، فهي محصورة في خمس مؤسسات صناعية برؤوس اموال مستثمرة تبلغ ٤٠٧ر٠٠٠ دينار اردنـــي • الا ان عدد عمالهـا يبلـغ ٥٨٣ عاملا • ويبلغ مجمل قيمة انتاجها ١ر٠٧٥ر٠٠٠ دينار ، اي ١٤ر٩٪ من قيمـــة الانتاج الصناعي • في هذه الصناعة تحققت اكبر كثافة عمالية كمتوسط لكـــل

مؤسسة (١١٦) عاملا ، كما انها تستأثر بـ ٥ر٩٪ من الراسمال المستثمر في الصناعة • وعموما تعتبر صناعة التبغ من اكثر الصناعات الاردنية تطورا من حيث تجهيزها الآلي والراسمال المستثمر ، ومن حيث الانتاجية والعمالة •

٣ ـ تعود المكانة البارزة للصناعات غير المعدنية في الصناعة الاردنية ، سواء من حيث الراسمال المستثمر او من حيث قيمة الانتاج الاجمالي ، وارتفاع عدد العاملين فيها ، الى انشاء مصنع الاسمنت • اذ يحظى هذا المصنع بـ ٣ر٨٧٪ من الراسمال المستثمر في الصناعات غير المعدنية ، ويوظف ٨ر٢٧٪ من عمال هذا القطاع الصناعي ، وينتج ٥ر٧٩٪ من قيمة الانتاج الاجمالي للصناعات غير المعدنية • ويستأثر بـ ٩ر٨٦٪ من القوة المشغلة • كما يدفع نحو نصف الاجور المدفوعة في الصناعات غير المعدنية • وكما يظهر الجدول رقم « ٧ » فان باقي مؤسسات الصناعات غير المعدنية هي من الحجم المتواضع من حيث الراسمال الموظف وعدد العاملين والانتاج •

وبشكل عام تتمتع الصناعات غير المعدنية بمكانتها المتقدمة في الصناعة الاردنية ، من حيث حجم الراسمال المستثمر الذي يوازي ٦ر٢٦٪ من الراسمال المستثمر في الصناعة ، وتشغل ٥ر١٠٪ من عمال المؤسسات الصناعية وتوازي قيمة انتاجها ١٣٪ من قيمة الانتاج الاجمالي للصناعة • ومن بين كافة المؤسسات الصناعية ، كان مصنع الاسمنت اكبر مؤسسة صناعية في البلاد بمختلف المعايير •

جدول رقم (٧)

المؤسسات العاملة في الصناعات غير المعدنية (٥ عمال فاكثر) لعام ١٩٥٤

	عددالمؤسسات	الراسمالالموظف	عددالعاملين	الاجور والرواتب	قيمة مجمل الانتاج	القوة المشتغلة في الصناعة
الزجاج	٢	٤ر٠٠٠	٢١	٨٨٠	١٠ر٥٠٠	—
المرايا	٤	٢٣ر٠٠٠	٦٣	٦ر١٨٠	٢٨ر٦٠٠	٢١
الاواني الخزفية	٢	٥ر٢٠٠	٢٧	١ر٩٨٠	٣ر٥٠٠	٤
الاسمنت	١	١ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٤٠	٤٦ر٠٠٠	٧٥٠ر٠٠٠	٣ر٩٨٨
الادوات الصحية	٢٧	٣٩ر٠٠٠	٢٦٠	١٩ر٠١٥	٧٣ر٠٥٠	١٥٦
الرخام	١	٧٥ر٠٠٠	٢٥٠	١٧ر١٩٢	٦٦ر٠٠٠	٤٢٠
المجموع	٣٧	١ر١٤٦ر٣٠٠	٨٦١	٩١ر٧٤٧	٩٤٢ر٢٥٠	٤ر٥٨٩

المصدر *Ibid*, p. 209.

وتلي الصناعات المارة بالاهمية ، من حيث قيمة الانتاج ، صناعة الالبسة والاحذية ، والصناعات الكيماوية وصناعة المشروبات والكحول •

توزيع الصناعة بين الضفتين

ومن الجوانب التي تستحق الدراسة في هذه الفترة ، هي بدء قيام « تقسيمة عمل » داخلية بين الضفتين الشرقية والغربية • فمن المسح الصناعي لعام ١٩٥٤ يمكن ان نلاحظ انه على الرغم من نمو ٦٠٪ من المؤسسات الصناعية المشمولة بالدراسة في الضفة الغربية (٢٥٤ مؤسسة صناعية وتعدينية) ، فان حصة

مؤسسات الضفة الشرقية من العمال الصناعيين هي اكبر من حصة الضفة الغربية ، اذ يعمل داخل صناعة الضفة الشرقية نحو ٥٦٪ من العمال الصناعيين مقابل ٤٤٪ في المؤسسات الصناعية للضفة الغربية (١٩) هذا يعني ان المؤسسات الصناعية في الضفة الشرقية هي من ذات الحجوم الاكبر والاكثر قدرة على استيعاب وتوظيف العمال ٠ وان الصفة الغالبة لمؤسسات الضفة الغربية الصناعية هو صغر حجمها بالمقارنة مع المؤسسات الصناعية في الضفة الشرقية ٠

ويؤكد هذه الحقيقة الارقام المتعلقة بالقيمة الاجمالية للانتاج الصناعي ، حيث كانت مؤسسات الضفة الشرقية تحقق ٥ر٦٧٪ من قيمة الانتاج الاجمالي للصناعة مقابل ٥ر٣٢٪ تحققها المؤسسات الصناعية في الضفة الغربية ٠

وتتعزز هذه الحقيقة اذا ما قارنا بين انتاج القطاعات الصناعية المختلفة في الضفتين ، فنجد ان قيمة الانتاج الاجمالي للمؤسسات الصناعات الغذائية والمشروبات والملابس والاحذية والخشب والمفروشات والطباعة في الضفة الشرقية اعلى بكثير من تلك المتحققة لدى المؤسسات العاملة في الضفة الغربية، رغم ان الاخيرة تفوقها بالعدد مما يبين ان احجام وطاقات مؤسسات صناعة الضفة الشرقية هي اعلى بشكل ملحوظ ، حتى في هذه المرحلة المبكرة ٠

كما ان الضفة الشرقية تنفرد بوجود عدد من الصناعات ، لا نجدها في الضفة الغربية ، كالصناعات الاستخراجية الاساسية ، وصناعة الاسمنت (وفيما بعد تكرير البترول) ٠ في حين تكاد تنحصر صناعة المنتجات الكيمياوية في الضفة الغربية ولا سيما صناعة الزيوت والصابون ٠ فغالبية المؤسسات الصناعية والانتاج الكيماوي يقع ضمن صناعة الضفة الغربية ٠ وتقع اغلبية المؤسسات الصناعية العاملة في الغزل والنسيج والملابس والاحذية ايضا ضمن الضفة الغربية ، وكذلك عدد الصناعات الاخرى المتنوعة ٠

ان الجدول التالي رقم « ٨ » يظهر التوزيع العام للصناعة بين الضفتين من حيث عدد المؤسسات والعمال ، ومن حيث قيمة الانتاج الاجمالي :

جدول رقم (٨)

المؤسسات الصناعية والتعدينية التي تشغل ٥ عمال فاكثر في الاردن لعام ١٩٥٤*

	الضفة الشرقية		الضفة الغربية		المجموع للضفتين
عدد المؤسسات	٤٠٪	١٧١	٦٠٪	٢٥٤	٤٢٥
عدد العمال	٥٦٪	٤٥١٢	٤٤٪	٣ر٥٦٢	٨٠٧٤
قيمة الانتاج الاجمالي	٥ر٦٧٪	٤ر٦٧٨ر٧١٢	٥ر٣٢٪	٢ر٢٥٠ر٤٦٥	٦ر٩٢٩ر١٧٧

المصدر : جميل هلال ، الضفة الغربية ، التركيب الاجتماعي والاقتصادي (١٩٤٨ / ١٩٧٤) ، بيروت ، مركز الابحاث ، ١٩٧٤ ٠

* يتضمن هذا الجدول بعض الاختلافات عن الجدول رقم «٥» الخاص بالمسح الصناعي لعام ١٩٥٤ فالجدول الاخير لا يتضمن المؤسسات الاستخراجية وعددها ٣ مؤسسات · كما ان عدد العمال والقيمة الاجمالية للانتاج في هذا الجدول (اعلاه) اقل من عدد العمال والقيمة الاجمالية التي يظهرها المسح الصناعي · وهذا يعود الى عدم شمول الجدول اعلاه ، الذي اشتققناه من مصدر آخر ، لكن هذا لا يؤثر على صحة الاستنتاجات التي سقناها ·

واخيرا ·· يعود ضعف التطور الصناعي والسمات الحرفية ــ الاستهلاكية للصناعة في الخمسينات الى الطابع العفوي والعشوائي الذي رسم التطور الصناعي والاقتصادي عموما · ففي ظل غياب التخطيط والتوجه الحكومي لتسريع التنمية الصناعية ، قام النمو الصناعي على مبادرة القطاع الخاص الذي انهمك في الدرجة الاولى بالاستجابة لتلبية الطلب المتزايد على السلع الاستهلاكية والضرورية في السوق المحلية · ان الخلل الواسع بين الحاجات المتنامية للسكان في فترة ما بعد الحرب الفلسطينية وخصوصا مع اتساع القاعدة السكانية للبلاد ، وبين ضآلة قدرة المؤسسات القائمة على الاستجابة لهذا الطلب، شكل العامل الرئيسي في توجيه الرأسمال الخاص الى الاستثمار الصناعي ، ولم يكن من شأن هذا النشاط الصناعي ، القائم على المبادرة الفردية وعلى رؤوس الاموال الصغيرة غالبا ، ان يعني باكثر من التوجه لتلبية الحاجات المباشرة للسكان ، ولذلك نشأت الصناعة الاردنية دون ان ترتبط بالموارد والخامات المحلية او القابلة للانتاج المحلي ، وانما بالاعتماد على المواد الخام والوسيطة وشبه المصنعة المستوردة من الخارج · ان تحليل السلع المستوردة في هذه الفترة ، وفي الفترات اللاحقة يؤكد الارتباط الوثيق بين تطور الانتاج الصناعي والمحلي والمواد الخام والوسيطة المستوردة ، ولذلك فان النمو الصناعي لم يكن ليؤدي الى الحد من العجز التجاري والمديونية للخارج والى تعزيز القاعدة الانتاجية والاستقلال الاقتصادي ، وانما على العكس ، ادى الى استمرار الاعتماد على الخارج والمديونية العامة للسوق الرأسمالي ·

لقد ترك الطابع الحرفي ــ الاستهلاكي للصناعة الاردنية اثاره وبصماته على حجم وتركيب الطبقة العاملة ولا سيما على العمال الصناعيين ، اذ بالاضافة الى ضآلة حجم النواة الصناعية للطبقة العاملة ، فان الطابع الحرفي للصناعة يفسر تبعثرها العددي وعدم تجمعها وغلبة الطابع الحرفي والشخصي عى انتاجها ، فالعلاقات والوشائج التي تسمها وتصوغ منظورها الى الحياة والى المجتمع وعلاقاته بقيت علاقات وروابط حرفية وشخصية وعائلية ، مما اضعف فرص

امتلاكها المزايا التاريخية للطبقة العاملة وقدرتها على ان تلعب دورها الطليعي ٠ ان دراسة الاستخدام لعام ١٩٥٧ ، تلقي الضوء على اوضاع العمال والمستخدمين في قطاع الصناعة وفي القطاعات الحديثة الاخرى ، رغم عدم شمولها لقطاعي البنوك ومؤسسات النقل الافرادية ، بل وعدم شمولها التام للقطاعات التي قامت بمسحهما ٠

العمال والمستخدمون في الصناعة وفي القطاعات الاخرى

اظهرت دراسة الاستخدام لعام ١٩٥٧ ان مجمل عدد العاملين في المؤسسات المشمولة وعددها ١٣٩ر١٧ مؤسسة قد بلغ ١٨٧ر٤٨ شخصا كان بين هؤلاء ٥٠٧ر١٩ يعملون في ٤٧٢٩ مؤسسة صناعية ، و ٠٣١ر٣ شخصا يعملون في قطاع التعدين ، و ٧٣٣ر١٤ شخصا يعملون في ٨٨١٥ مؤسسة في قطاع التجارة (الجملة والمفرق) (٢٠) ٠

ان الجدول رقم «٩» يقدم ملخصا لهذه الدراسة ، ويبين عدد المؤسسات والعاملين فيها حسب النشاط الاقتصادي والجنس والحالة العملية ٠ كما هي عام ١٩٥٧، وبناء على دراسة الاستخدام هذه، يمكننا استخلاص الملاحظات التالية٠

أولا : انه من بين ١٨٧ر٤٨ شخصا ، هم مجموع العاملين في المؤسسات المشمولة في التعداد كان هناك ٢٢٨ر٢٠ شخصا يعملون لانفسهم او للعائلة ، اي لا يتقاضون اجورا عن اعمالهم ولا يعتبرون عمالا مأجورين ٠ وهؤلاء يوازون ما نسبته ٩ر٤١٪ من مجموع العاملين في المؤسسات المذكورة ٠ الامر الذي يشير الى هيمنة الطابع الانتاجي العائلي والحرفي على قسم هام من مؤسسات القطاعات المختلفة ٠

لقد كانت اكبر كثافة للعاملين لانفسهم او للعائلة ، في قطاع تجارة الجملة والمفرق ، حيث بلغ عددهم ٥٢٥ر١٠ شخصا من ٧٣٣ر١٤ هم جميع العاملين في القطاع ، اي ان نسبتهم قد بلغت ٤ر٧١٪ ، ويلي قطاع التجارة في كثافة العاملين لانفسهم او للعائلة قطاع الخدمات ، حيث كان ٣٣٤٠ شخصا هم عاملون لانفسهم او للعائلة ، اي ما نسبته ٨ر٤٤٪ من مجموع العاملين في القطاع وعددهم ٧٤٥١ شخصا ٠

اما في قطاع الصناعة فان ما يزيد على ربع العاملين في القطاع هم عاملون لانفسهم او للاسرة ، حيث بلغوا ٥٧١٣ شخصا من ٥٠٧ر١٩ اشخاص ٠ وبذلك كان ٩ر٣٣٪ من العاملين هم من غير العمال المأجورين ٠

ويلي قطاعات التجارة والخدمات والصناعة في كثافة العاملين لانفسهم او للعائلة قطاعات النقل ، الانشاءات والمؤسسات المالية ٠

ثانيا : يستفاد من التعداد ، ان اكبر كثافة للاناث العاملات هي في قطـاع الصناعة ، ثم في الخدمات ، ثم في التجارة · وبشكل عام كانت نسبة الاناث العاملات الى مجموع العاملين هي غاية في التواضع اذ لم تزد على ٤ر٣٪ ·

وبلغ عدد العاملات في قطاع الصناعة ١٤٦٤ر١ فتاة ، اي ما يوازي ١ر٨٪ من عدد العاملين في الصناعة · ومع اخذنا بالاعتبار ان التعداد المذكور لم يشمـل العاملات بمهن الخياطة في بيوتهن · فأن عدد العاملات في الصناعة ، وفـي المؤسسات بشكل عام كان متواضعا جدا ·

جـدول رقم (٩)

عدد المؤسسات والعاملين فيها حسب النشاط الاقتصادي والجنس والحـالة العملية لعام ١٩٥٧

النشاط الاقتصادي	عدد المؤسسات	مجمل العاملين			العاملون لحسابهم الخاص والعاملون للاسرة			العاملون باجور		
		المجموع	ذكور	اناث	المجموع	ذكور	اناث	المجموع	ذكور	اناث
مصائد الاسماك	٣	٢٠٧	٢٠٧	—	١٠	١٠	—	١٩٧	١٩٧	—
التعديـن (١)	٢٣٨	٣٠٣١	٣٠٢٤	٧	١٦٢	١٦٢	—	٢٨٦٩	٢٨٦٢	٧
الصنـاعة	٤٧٢٩	١٩٥٠٧	١٨٠٤٣	١٤٦٤	٥٧١٣	٥٤٧٦	٢٣٧	١٣٧٩٤	١٢٥٦٧	١٢٢٧
الانشـاءات	٩٦	٧٣٠	٧٣٠	—	٩٠	٩٠	—	٦٤٠	٦٤٠	—
النقـل	٢١٣	٢١٦٣	٢١٤٤	١٩	٣٦٤	٣٦٤	—	١٧٩٩	١٧٨٠	١٩
تجارة الجملة والمفرق	٨٨١٥	١٤٧٣٣	١٤٦٦٩	٦٤	١٠٥٢٥	١٠٤٨٦	٣٩	٤٢٠٨	٤١٨٣	٢٥
المؤسسات المالية (٢)	٣٦	٨٧	٧٨	٩	٢٤	٢٤	—	٦٣	٥٤	٩
الخدمـات	٢٩١٧	٧٤٥١	٧٣٧٧	٧٤	٣٣٤٠	٣٣١٨	٢٢	٤١١١	٤٠٥٩	٥٢
شركات النفط والضخ	٢	٢٧٨	٢٧١	٧	—	—	—	٢٧٨	٢٧١	٧
المجمـوع	١٧١٣٩	٤٨١٨٧	٤٦٥٤٣	١٦٤٤	٢٠٢٢٨	١٩٩٣٠	٢٩٨	٢٧٩٥٩	٢٦٦١٣	١٣٤٦

القوى العاملة لعام ١٩٧٠ (دائرة الاحصاءات العامة ، اذار ١٩٧٢) اشتقاق حسابي من جدول رقم ب – (ص ٤٩ و ٥٠ و ٥١) ·

١ – يشمل هذا القطاع شركة استخراج الفوسفات وتشغل ١٩٣١ عاملا ، والمقالع ٢٨٤ مؤسسة تشغل ٤٢٤ عاملا و ٥٢ كسارة حجارة وتشغل ٦٦٦ عاملا ·

٢ – المؤسسات المالية هنا تشمل شركات التأمين وعددها ١١ وتشغـل ٦٤ شخصـا ، وصرافوا النقود وعدد مؤسساتهم ١٥ وتشغل ٢٣ شخصا ·البنوك غير مشمولة بالاحصاء المذكورة ·

ثالثا : اما من حيث الاهمية النسبية للكثافة العمالية في مختلف القطاعات ، فان الجدول السابق يشير الى ان متوسط عدد العاملين في المؤسسة الواحدة كان على النحو التالي :

١ ـ مؤسسات النفط ومحطات الضخ	١٢٧ عاملا للمؤسسة الواحدة
٢ ـ مصائد الاسماك	٦٩ عاملا للمؤسسة الواحدة
٣ ـ النقل	٧ـ٨ عمال للمؤسسة الواحدة
٤ ـ التعدين	٨ عمال للمؤسسة الواحدة
٥ ـ الانشاءات	٧ـ٨ عمال للمؤسسة الواحدة
٦ ـ الصناعة	٤ عمال للمؤسسة الواحدة
٧ ـ المؤسسات المالية	٣ـ٤ عمال للمؤسسة الواحدة
٨ ـ الخدمات	٢ـ٣ عمال للمؤسسة الواحدة
٩ ـ التجارة	١ـ٢ عمال للمؤسسة الواحدة

ان المتوسط العام المنخفض لعدد العاملين في المؤسسة الواحدة يشير الى تفتت الطبقة العاملة العددى ، والى غلبة المؤسسات ذات الطابع الحرفي والصغير ٠ لكن ينبغي ان نأخذ بعين الاعتبار ان المتوسط يطمس الفوارق بين المؤسسات الكبيرة والصغيرة ٠ فعلى سبيل المثال نجد ان قطاع التعدين الذي كان متوسط عدد العمال فيه ٨ عمال للمؤسسة الواحدة ، كان يتضمن شركة واحدة لاستخراج الفوسفات تشغل وحدها ١٩٣١ر١ عاملا وهي بذلك اكبر مؤسسة من ناحية الكثافة العمالية ٠ كما اشتمل قطاع التعدين على ٥٣ كسارة تشغل ٦٦٦ عاملا (بمتوسط ١٢ ـ ١٣ عاملا) و ٢٨٤ مقلع للحجارة تشغل ٤٣٤ عاملا (بمتوسط ١ ـ ٢) ٠

رابعا : من بين جميع العاملين مقابل اجور (العمال المأجورين) البالغ عددهم ٢٧٩٥٩ عاملا ، كان عدد العمال الصناعيين مقابل اجور ١٣ر٧٩٤ عاملا ٠ وتبلغ نسبتهم ٣ر٤٩٪ من مجموع العمال المأجورين ، اي ان كتلة العمال الصناعيين كانت اكبر كتلة عمالية في سائر القطاعات الحديثة المذكورة ، ويأتي بعدها عمال تجارة الجملة والمفرق ونسبتهم ١٥٪ من مجموع العمال مقابل أجور، ثم عمال الخدمات ونسبتهم ٧ر١٤٪ من مجموع العمال ، ثم عمال التعدين (٣ر١٠٪) وعمال النقل (٤ر٦٪) ٠ ان هذه القطاعات هي قطاعات الاستخدام الرئيسية ٠ واذا اخذنا ارقام هذا التعداد كمؤشر على حجم الطبقة العاملة في قطاعات الانتاج الحديثة ، فان ابرز فئات الطبقة العاملة تعمل في الصناعة والتعدين والنقل والانشاءات ومحطات ضخ النفط ، حيث تتكون فيها الصفات البروليتارية للطبقة العاملة ، رغم ان حجم المؤسسة المتوسط ، ومستوى التجهيز الآلي ، ونظام علاقات العمل يضعف من فرص هذا التكون البروليتاري للعمال في هذه المرحلة ٠

بيد اننا نتحفظ على الارقام السابقة لناحية شمولها عمال كافة المؤسسات التي تدخل في نطاق الدراسة ٠ وسبق ان اشرنا الى ان العاملات في الخياطة

في بيوتهن غير مدرجات في عداد العاملات في الصناعة ، كما ان الجدول «٩» يشير في حاشيته الى عدم شمول المؤسسات المالية للبنوك ، وذكرنا ان الدراسة لم تشمل عمال النقل المنفردين ٠ ولدينا شكوك حول دقة الارقام الخاصة بالعاملين في الانشاءات حيث لم يتجاوز عددهم في التعداد لعام ١٩٥٧ ٧٣٠ عاملا ٠ في حين كان قطاع الانشاءات والبناء ينمو بوتيرة سريعة ويستقطب الايدي العاملة ، ولو بصورة مؤقتة للعمل في المشاريع الانشائية وغيرها ٠ غير ان انعدام وجود المعطيات الاحصائية الكافية للمقارنة تجعلنا نحجم عن تصحيح او تعديل هذه الارقام ، رغم تحفظنا على دقتها (٢١) ٠

واذا ما قدرنا حجم القوة العاملة في البلاد (اي الناس الذين هم في سن العمل) سنة ١٩٥٧ بنسبة ٢٢ر٩٪ من السكان (تعداد السكان ٢٨٠ر٥٣٨ر١ نسمة) وكان مجموعهم ٢٠٨ر٣٥٢ شخصا ، فان نسبة العاملين في مختلف المؤسسات المشمولة بالتعداد لا تزيد عن ١٣ر٧٪ من القوة البشرية العاملة ، اما العاملين منهم مقابل اجور (العمال) فلا تزيد نسبتهم عن ٨ر٧٪ من القوة البشرية العاملة ٠

جدول رقم (١٠)

عدد المؤسسات الصناعية والعاملين فيها حسب الحالة العملية لعام ١٩٥٧

النشاط الصناعي	عدد المؤسسات	مجموع العاملين	العاملون لحسابهم او للاسرة	العاملون بأجور
صناعة المواد الغذائية	٧٥٠	٣١٦٧	١٠٣٨	٢١٢٩
المشروبات	١١٠	٦١٩	١٠٦	٥١٣
التبغ والسجائر	٤	٧٦٦	—	٧٦٦
النسيج	٤٣	٣٥٨	٣٢	٣٢٦
الملابس	٧٦٧	٢٦٠٧	٩٢٨	١٦٧٩
الاحذية	٩٣٦	٢٤٢١	١٠١٤	١٤٠٧
الخشب والفلين	١٥	١٠٦	٩	٩٧
الآلات والمفروشات	٧٤٧	٢٨٣٥	٩٥٠	١٨٨٥
الورق ومنتجاته	٣٢	٣٢٥	١٣	٣١٢
الطباعة	٣١	٣٩٩	٢٤	٣٧٥
الجلود	٤٥	١١٨	٦٣	٥٥
المطاط	٣	١٥١	٦	١٤٥
الصناعة الكيماوية	٢٤	٤٠٤	٢٥	٣٧٩
الصناعة غير المعدنية	١٠٦	٩٢٩	١٢٨	٨٠١
الصناعة المعدنية	٧١٩	٢١٠٣	٩٠٨	١١٩٥
صناعة معدات النقل	٢٣٢	١٤٧٨	٢٧٦	١٢٠٢
صناعة متنوعة	١٦٥	٧٢١	١٩٢	٥٢٨
المجموع	**٤٧٢٩**	**١٩٥٠٧**	**٥٧١٣**	**١٣٧٩٤**

القوى العاملة ، ١٩٧٠ (دائرة الاحصاءات العامة ، آذار ١٩٧٢) ، المقدمة ٠

وهذا يشير ، (مع اخذنا بالاعتبار العاملين في الادارة الحكومية والقطاعات المدنية غير المشمولة بالدراسة) الى انخفاض مستوى التشغيل ، وارتفاع نسبة البطالة باشكالها . وهو ما سوف نعود اليه لاحقا .

خامسا : اما فيما يتعلق بالعمالة داخل قطاع الصناعة ، فنجد في الجدول رقم «١٠» صورة عن توزع العاملين مقابل اجور والعاملين لحسابهم او للاسرة، في كل فرع من فروع الصناعة . وفي هذا الجدول نلاحظ ان عددا من الصناعات يخلو او يندر فيه العمل غير المأجور (العمل لحساب العامل او للاسرة) كما هو في صناعات التبغ والسجائر والطباعة والورق والنسيج والمطاط والصناعة الكيماوية. فهذه الصناعات تعتمد بصورة كلية او شبه كلية على العمل المأجور، وفي بعضها ، يشكل العاملون لانفسهم او للعائلة نسبة كبيرة من مجمل العاملين في الصناعة ، منهم يشكلون ٤ر٥٣٪ من مجموع العاملين في الجلود و ٢ر٤٣٪ في الصناعات المعدنية و ٤٢٪ في صناعة الاحذية و ٦ر٣٥٪ في صناعة الملابس ، و ٥ر٣٣٪ في صناعة المفروشات ، و ٨ر٣٢٪ في صناعة المواد الغذائية . وتنخفض نسبة العمل غير المأجور في الصناعات الباقية ، فلا يزيد عدد العاملين لحسابهم او للاسرة عن ٧ر١٨٪ في صناعة معدات النقل ، و ١ر١٧٪ فيصناعة المشروبات و ٨ر١٢٪ في الصناعات غير المعدنية .

وبشكل عام فان ٢٩٪ من العاملين في الصناعة هم عاملون لحسابهم او للاسرة ، مقابل ٧١٪ من العاملين ، كانوا عمالا مأجورين . وتعتبر هذه النسبة عالية ، بالنظر لطبيعة الصناعة في هذه المرحلة ، ونظرا لان المؤسسات الصناعية الكبيرة التي نشأت فيالخمسينات لم تبدأ الانتاج بعد .

سادسا : عند تعداد الطبقة العاملة في الضفتين ، لا بد من الاخذ بعين الاعتبار ، فئات العمال التي لم يشملها التعداد ، او لم يكن بالامكان عدها آنذاك لطابعها غير المنتظم . مثل عمال البناء غير المرتبطين بمؤسسات منتظمة ،وهؤلاء يشكلون غالبية العاملين في قطاع البناء . وهذه الفئة العمالية تكون كتلة هامة في عداد الطبقة العاملة ، ويمكن التوكيد على اهميتها من خلال ملاحظة ارتفاع مساهمة هذا القطاع وقطاع الانشاءات في الانتاج المحلي الاجمالي عن ٥ر٣ مليون دينار عام ١٩٥٤ الى ٥ مليون عام ١٩٥٧ . وارتفاع مساهمتها النسبية من ٣ر٧٪ الى ٨٪ خلال السنتين ٥٤ و ١٩٥٧ (٢٢) وكان عدد رخص البناء قد تضاعف بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٢ ثلاث مرات ، من حيث المساحة ومن حيث قيمة هذه الرخص بالدنانير (٢٣) .

الى جانب عمال البناء المرتبطين بمؤسسات منتظمة ، هناك العمال الزراعيون الذين تحولوا الى كتلة بارزة ايضا في المجتمع ، اغلبية هؤلاء هم من اللاجئين الفلسطينيين ، ويتركز غالبية العمال الزراعيين في وادي الاردن . اذ كان يعيش ٨٨٥ر٨٥ لاجيء فلسطيني في وادي الاردن وفقا لتقرير وكالة الغوث عام ١٩٥٢

كان يعيش منهم ٨٣٣ر٢٩ في اماكن متفرقة من الضفة الشرقية للوادي والباقون في ضفته الغربية ، وفي عام ١٩٥٣ نما عدد اللاجئين في الوادي الى ٠٥٧ر٩٣ شخصا منهم ٧٦٧ر٣٣ كانوا في ضفة الوادي الشرقية (٢٤) ٠ واستمر التدفق نحو الوادي في السنوات اللاحقة ٠ وعلى اكتاف هؤلاء جرى تحويل الزراعة في الاغوار من حيث المحاصيل ، كما زرع الوادي في كل سنة بدلا من تركه لثلاث سنوات بلا زراعة ، كما تحسن ري الاراضي واصطلحت الاراضي غير المستغلة وباتت الزراعة تتجه نحو السوق بدلا من زراعة الاكتفاء الذاتي ٠ ان قسما هاما من لاجئي الوادي باتوا عمالا زراعيين ، كما تحول قسم منهم الى مستأجر للارض على اساس المحاصصة وفي كلا الحالتين كان العامل الزراعي والمحاصص يتعرض لاستغلال ملاكي الاراضي ٠ وكان العمال الزراعيون في الاغوار وفي المناطق الاخرى يتلقون اجورا قليلة ، كما سنرى ، بالاضافة الى تعرضهم للبطالة بعد انتهاء الموسم الزراعي ٠

هناك ايضا عمال اجهزة الدولة ، وهؤلاء ايضا لا توجد اية احصاءات حول عددهم وتوزعهم المهني ٠ المهم انهم لا يختلفون عن بقية العاملين مقابل اجور ، فهم غير مرتبطين بالنظام الخاص بالموظفين « نظام الخدمة المدنية » ولا يتمتعون بالتالي بحقوق المواطنين ٠

الحواشي

(١) راجع خطة التنمية الخمسية ، ٧٦/١٩٨٠ ، المجلس القومي للتخطيط ، عمان ١٩٧٦ ، ص ١ ٠

(٢) راجع مجلة « التنمية » الاردنية ، عمان ، دائرة المطبوعات والنشر ، العدد ٣٧ ، السنة الرابعة ، نيسان ١٩٧٦ ، ص ١٩ ٠

(٣) راجع « خطة التنمية الخمسية » ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢ ٠

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢ ٠

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣ ٠

(٦) راجع : النشرة الاحصائية السنوية عمان ، دائرة الاحصاءات العامة ، ١٩٧٣، العدد الرابع والعشرون ، جدول ١٠٢ ، ص ١٥٤/١٥٥ ٠

(٧) « خطة التنمية الخمسية » ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣ ٠

(٨) المصدر نفسه ، ص ٤ ٠

(٩) مجلة « التنمية » الاردنية ، مصدر سبق ذكره . العدد ٢٧ . نيسان ١٩٧٦ ، ص ١٩ ٠ النسب مستخرجة من الجدول رقم «١» من هذه الدراسة ٠

(١٠) المصدر نفسه ، النسب مستخرجة من ارقام الجدول رقم «١» ٠

(١١) انظر مصدر الحاشية (٢) ٠

(١٢) راجع الجدول نفسه ٠

(١٣) النسب التي تشير الى مساهمة مختلف قطاعات الاقتصاد في الانتاج المحلي مشتقة من الجدول رقم «١» في مطلع هذه الدراسة ٠

(١٤) ابرز الصناعات الكبيرة التي اقيمت في الخمسينات : صناعة الاسمنت، مصفاة البترول ، مصنع الدباغة ، الزيوت النباتية ٠

(15) « *Manufacturing Industry In Jordan,* Report on the Industrial Census » Statistics Department, Amman 1959.

(16) *Ibid.*

(17) *Ibid.*

(18) *The Economic Development of Jordan* , « Report of a mission organized by the I.B.R.D» Baltimore, 1957. p.p. 207 - 209 .

(١٩) راجع هلال ، جميل ، **الضفة الغربية ، التركيب الاجتماعي الاقتصادي** ٤٨ ــ ١٩٧٤ ، بيروت ، مركز الابحاث ، ١٩٧٤ ، ص ٥٣ ٠

(٢٠) **دراسة الاستخدام في المملكة الاردنية الهاشمية** ، عمان ، دائرة الاحصاءات العامة، ١٩٥٧٠ انظر ملخصا لها في دراسة القوى العاملة لعام ١٩٧٠ ، دائرة الاحصاءات العامة ، آذار ١٩٧٢ ، ص ٤٩ و ٥٠ و ٥١ ٠

(٢١) من الواضح ان الارقام الخاصة بالعاملين في الانشاءات قد شمل فقط العمال المنتظمين ، فالى جانبهم يوجد الاف العمال العاملين في البناء والانشاءات ٠

(٢٢) راجع تقديرات بورتر للانتاج المحلي الاجمالي ، مجلة « **التنمية** » ، العدد ٣٧ ، السنة الرابعة ، نيسان ١٩٧٦ ، ص ١٩ ٠

(٢٣) راجع : شرايحة ، وديع ، **التنمية الاقتصادية في الاردن** ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤ ٠

أديب ديمتري

هزيمة الديمقراطية وصعود القومية الرجعية

الصراع بين البورجوازية والاقطاع

كان اكتمال الدولة الوطنية المتحررة ، ونموها ، هو الحدث البارز في تاريخ القرن التاسع عشر ، وكان نضال البورجوازية ضد الاقطاع في بداية القرن (١٧٨٩) هو الذي اشعل الثورة الفرنسية ، وهيأ السبيل لانتشار المبادىء القومية والحرة الديموقراطية التي جاءت ثمرة لهذه الثورة في اوروبا · ولقد تمكنت البورجوازية المتوسطة الثورية في ظل المبادىء الوطنية الديموقراطية من ان تؤسس على صعيد الغرب الاوروبي كياناتها الجديدة ، ودولها القومية على انقاض العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الاقطاعية القديمة · وقد اقترن ذلك بنضج المشاعر القومية لدى الشعوب ، وانبعثت في كل مكان في اوروبا حركات قومية ترفع شعارات الوحدة القومية والديموقراطية ، وتناضل من أجل دولها وحكوماتها على هذا الاساس · ولا جدال في ان عهد السيطرة البونابرتية على القارة واكتساح جيوشه للعروش والامبراطوريات الاقطاعية قد اكد النصر الذي احرزته البورجوازية ضد الاطقاع ، ولكنه اشعل من ناحية اخرى المشاعر القومية لدى الشعوب التي خضعت لسيطرته ، والقى عليها وقودا مجددا · ولقد كان نضال البورجوازية عنيفا في الفترة التي تلت سقوط نابليون ، وقيام الحلف المقدس الرجعي ، عندما حاول الملوك والامراء العائدون ، والذين استردوا عروشهم ، تجاهل الحقوق

التي اكتسبتها البورجوازية · وكان من المستحيل ان تتخلى البورجوازية الثورية والنامية عن حقوق عرفتها ومارستها بل وتتطلع الى المزيد منها من خلال المشاركة في السلطة او الانفراد بها اذا تيسر لها ذلك · لذلك ناضلت هذه البورجوازيات نضالا متصلا في مطلع القرن ، من اجل تغيير اسس السلطة والحكم بصورة تسمح لها بالمشاركة الفعلية على أقل تقدير ، في ادارة دفة الامور والغاء امتيازات الطبقات القديمة وحقوقها الموروثة · ومن هنا ، فقد سار النضال الوطني القومي من اجل التحرر من كل سيطرة اجنبية ، وتحقيق الوحدة القومية ، جنبا الى جنب مع النضال الديموقراطي من أجل تقييد سلطة الملوك والامراء وازالة الفوارق الطبقية الاقطاعية · وقد سجلت البورجوازيات المظفرة الحقوق الجديدة التي اكتسبتها فيمواثيق هي دساتيرها الليبرالية (١)·

الحركة الرومنسية والقومية

نما تيار الرومنسية في الفن والحياة ، في عصر الاستنارة ، كتيار سفلي في اول الامر تحت سطح العقلانية ، ثم تمرد على سيطرتها مع الوقت · وفي حين طالب العقليون بتحرير العقل من اغلال الماضي الصدئة ، تاق الرومنسيون كما شهدنا الى حرية العاطفة والانفعال والخيال ، وقد كرسوا سعيهم في بداية الامر على اصلاح الادب ، وبخاصة الشعر ، ولكنهم سرعان ما اصطدموا بالقيود والمواضعات الاجتماعية الاقطاعية الجاثمة (٢) ، فأمتدت حركتهم بشكل طبيعي الى ميدان السياسة ، ودخلوا حومة النضال الثوري ضد النظم الاقطاعية السائدة ، وسرعان ما جاءت غزوات نابليون وفتوحاته في اوروبا ، لتشعل مشاعر القومية والطموح القومي فيجميع انحاء القارة · وكانت كتابات الرومنسيين وحركتهم بوجه خاص في هذه المرحلة من عوامل تفجير المشاعر القوية وتأجج نارها ، كما تأثرت هي بدورها بالموجة المتعاظمة من الوعي القومي التي زودت الرومنسية بمثل اعلى يتجسد في « الوطنية » ، تحيط بها هالة من مشاعر الولاء والحب والانتماء التاريخي ، وتأكيد الشخصية القومية، بعد الشخصية الفردية ،من خلال التراث وعراقة التاريخ والاصل ·

وكان من سمات الادب الرومنسي الاهتمام « بعوام الناس » وبالاشياء الصغيرة العادية ، مما نبه الاذهان الى دراسة الادب الشعبي والاساطير والموسيقى والاغاني الشعبية ، وقد اسهمت هذه الاهتمامات بدورها في تكوين ودعم الطوابع القومية ، كما اشادت الرومنسية كحركة ادبية بلغات الشعوب وثقافاتها ، وخصت كل شعب بصفات عقلية وعرقية متأصلة ، وانماط في الحياة وعادات متميزة ، فكرست الخصائص القومية الحياتية · والواقع ان الحركة القومية بلغت على يد الرومنسية دفعة بالغة القوة ، سواء ذلك بالنسبة

للفرنسيين او الانجليز او السلافيين (٣) وبالنسبة للالمان بوجـــه اخص ٠ واصبحت القومية والوطنية هما الشغل الشاغل للجميع ، تتجسد في العادات والتقاليد الشعبية ، وفي اللغة ، قبل كل شيء التي تربط الامة وتحفظ تراثهـا وتحمل روحهـا وتاريخها ٠

وقد تحولت الرومنسية كما ذكرنا مع العصر لتعكس كل البلبلة وصـــراع الايديولوجيات في ذلك الزمان المضطرب ، فقد جمعت في السياسة بين خليـط مشوش من الافكار التقدمية والرجعية ، والثورية والمحافظة ، اختلط فيهـــا السعي الانفعالي نحو الحرية العاطفية وخيبة الامل في العقل الانساني ٠ تصدت لمؤسسات البورجوازية ومعتقداتها واعتبرتها مؤسسات مصطنعة ، وبدت عقلية البورجوازي واخلاقياته في أعينها كئيبة ، ولكنها من جهة اخرى وقفت ضـد الراديكالية في الاقتصاد والسياسة لانها في نظرها تفسد روح الفرد بالتركيـز على الكتل والجماهير (٤) ٠ وبعد فشل انتفاضات سنة ١٨٤٨ حدث التحـول الكبير في اواسط القرن في اتجاه الردة والمحافظـــة ٠ ووقفت الحركـــة الرومانسية بشكل عام في صف الرجعية والقوى المحافظة ٠ فقد تحول الكثيرون من الليبراليين الديموقراطيين بتأثير الهزائم المفجعة لحركة الثورة في اوروبا، الى قوميين محافظين ٠ وتقدمت قضية الوحدة القومية لتحتل مركز الاهتمام الاول على حساب قضية الحرية والديموقراطية في بعض الاحيان ، كما حدث في المانيا البسماركية ٠ واتجهت بعض المذاهب الرومنسية الى عبادة الدولة ذاتها ، بصرف النظر عن طبيعة الحكم او السلطة فيها ٠ وفي انجلترا كانت الرومنسية من عوامل دعم الاتجاهات المحافظة ممثلة في دزرائيلي (١٨٠٤ ـ ١٨٨١) وحزب التوري (المحافظين) ، وكان هذا الحزب يدعو الى نوع من الاصلاح الاجتماعي ، وتحسين حال الجماهير ، من خلال التعاطف والمحبـــة واحياء نماذج العصور الوسطى في التنظيم الاجتماعي ، خاصة في « الجلد » الذي اصبح رمزا للانسجام والتآلف بين أرباب المهنة واتباعهـــا ٠ وروجت الرجعية لدعاوى التعاون بين العمال واصحاب الاعمال والسلام الاجتماعي ، وكانت رؤى الرومنسيين الرجعيين مما ينسجم وهذا الاتجاه ، في نزوعهم نحو الماضي والسلام المفقود ، وحياة الهدوء في جنة الفلاح البسيط الراضي وصور الفروسية والشهامة والحب في الماضي الغابر ٠ كانوا يبحثون عن طريق لا هو بالبرلماني المقيت ولا الراديكالي الاشتراكي (٥) ٠ طريق بين هذا وذاك ينهـي الخلافات ويطرح الصراع والتوتر ، فانتهى بهم المطاف الى دعم الحكومـــات الاستبدادية والرجعية التي تكبت حركة الجماهير وتخمد صوت الطبقة العاملة، التي كانت قد بدأت تتبلور وتستقطب وتعي ذاتها كطبقة في هذه المرحلة ، وجاء الاحياء الديني المسيحي والكاثوليكي بوجه الخصوص، في هذا الجو الرومنسي السائد ، ليدعم مفاهيم التعاون والتعاطف والحب بالمضمون السلفي ، وفـــي

اطار التنظيم الاجتماعي للعصر الوسيط وقيمه الابوية العائلية ، وكان ذلــك كله مما ينسجم وجو الرومنسية ونزوعاتها للعودة الى سلام العصور الوسطى، وهدوء البلدان النائية ، وحياة البدائي والفلاح ·

والواقع ان بروز الطابع الاجتماعي الراديكالي لانتفاضات سنة ١٨٤٨ ، ودور الطبقة العاملة المتعاظم خلال هذه المرحلة ، وتشكيل تنظيماتها واحزابها المستقلة ، اثار خشية اقسام من الليبراليين ، كما اوقع الرعب في قلـوب بعض قادة الطبقة الوسطى ، ودفع بهم الى صفوف المحافظين · لقد اصبح الفكــر الاشتراكي العلمي ، طرفا في الساحة الاوروبية ·

في ظل هذه الصراعات الاجتماعية المحتدمة ، والازمات الخانقة التي تطحن الطبقة الوسطى الصغيرة بوجه الخصوص ، ومن بينها اعداد كبيرة مـــن اليهود ، ليس من الغريب ان تتحول بعض فئاتها عن مثلها واهدافها الثورية ، وتسقط في مهاوي العدمية واليأس المطلق ، وقد تجد الملجأ والامان في احــلام الرومنسية السلفية او احضان الكنيسة والتصوف ، او في عبادة الدولـــة والنزعة القومية المجردة عن اي مضمون اجتماعي متقدم · وقد تنشد الســلام المفقود في بلاد بعيده وفي الارض البكر التي لا يقطنها انسي ولا يفسدها توتر ولا صراع · وستصادف هذا المفهوم الرومنسي والديني السلفي عن الســـلام الاجتماعي والتآخي والمحبة ، والتعاون كأساس للتنظيم الاجتماعي ، كأحــد دعامات الفكر الصهيوني ومفهومها القومي ، وان قام على اساس عرقي ، وفي اخلاقيات الرواد او المستعمرين اليهود الاول لفلسطين ·

لقد تخبط الرومانسيون بين التغني بجلال الشعوب ولغاتهـــا واشعارها ، وجلال الملك ·· بين النزعة الانسانية ، والتعصب المحلي ، بين كراهيـــــة البورجوازية واخلاقياتها المنحطة والرعب من الطبقة العاملة وحركتها ، ولكنهم وضعوا انفسهم آخر الامر بعد منتصف القرن في خدمــــة القوى المعاديـــة للديموقراطية الليبرالية والرديكالية (٦) ·

الرومانسية واللغـــة

كان الاهتمام الكبير الذي أولاه الرومانسيون اللغات القومية ، لصيقـــا بالدور البارز الذي لعبوه في الحركة القومية · وكان من الطبيعي أن تحتـل اللغة هذا المركز في حركة هي في الاساس حركة ادبية ، وثورة على المعاييـر الكلاسيكية في اللغة والادب · وقد كان للرومانسية الفضل في الكشف عمـــا للغات القومية والشعبية من قيمة فريدة ، فهي رمز شخصية هذه الشعـــوب وأصالتها ، تتجسد فيها روح الشعب وتراثه ، وأصبحت اللغة اساس الرابطـة القومية بديلا عن العــرق ·

وقد لعبت اللغة دورا خاصا ومبرزا في ايديولوجية النزعة القومية الالمانية بوجه الخصوص ، حيث ظلت هذه الامة لظروف تاريخية مشتتة ومقسمة على رقعة واسعة من الارض لا يجمعها سوى رباط اللغة ، وقد اشاد فختة باللغة الالمانية في خطاباته الشهيرة الى الامة الالمانية سنة ١٨٠٧ ـ ١٨٠٨ ، والتي يستنهض فيها الامة الالمانية ضد السيطرة النابوليونية ، مؤكدا ان الشعب الالماني له رسالة روحية واخلاقية كبرى لمصلحة الجنس البشري ، وهو ينفرد بها ، لانه الشعب الوحيد الذي احتفظ بلغته الاصلية في رأية ، بعكس الفرنسيين والانجليز ٠

وكانت وجهة النظر هذه ، باعتبار اللغة الاصلية للشعوب اللغة العامية والدارجة واللغة التاريخية هي وعاء روح الشعب ورمز اصالته وينبوعه الخلاق ، من الافكار العميقة الجذور في الفكر الرومانسي الثوري ، بعكس فلسفات الاستنارة التي وجهت همها الى الطبقات المثقفة ، الى جانب احتفائهم بالاساطير والقصص الشعبي والاغاني والموسيقى الشعبية وبكل ما يشكل التراث ويصوغ العبقرية الخاصة للامة وشخصيتها المتفردة ٠

ولا تحتاج الامور الى جهد كبير لاثبات اثر هذه النظرة الرومانسية ، وبالاخص الرومانسية الالمانية ، في اللغة باعتبارها الوعاء الحافظ لروح الشعوب واصالتها وتفردها ورسالتها التاريخية ٠ خاصة وان تراث التفرد والاصالة التاريخية له مكانته الخاصة في تراثهم الديني ـ ويشير هيرتز (٧) الى هذا الاثر ٠ فقد احتفظ اليهود بلغاتهم الالمانية والاسبانية ، مع شيء من الاختلاط بالعبرية عند نزوحهم الى بولندا وتركيا اثر الاضطهادات الدموية في العصور الوسطى ٠ وعند العودة الى الغرب في مطلع العصر الحديث احتفظوا بكثير من سماتهم اللغوية الخاصة ، ولكنها سرعان ما اختفت وذابت مع انتشار التربية الغربية ، واتساع حركة الذوبان والاندماج في شعوبهم ، واصبح الكثير منهم من ابرز الكتاب والمتحدثين والخطباء باللغات القومية ، بل ومن ابرز اساتذة الالمانية والفرنسية وغيرها من اللغات الغربية ٠ ثم جاءت حركة الردة ودعوات الصهيونية للعودة الى فلسطين ، فكان الاهتمام المفرط من جانب المفكرين والدعاة الصهيونيين الاول من امثال هس سمولنسكين وبن يهودا وأحدهاعام وغيرهم ، ببعث اللغة العبرية كلغة قومية ، ووعاء للتاريخ والتراث اليهودي ، ورمز للتفرد والاستعلاء ، واداة لتحقيق الحلم الصهيوني٠

حركة القومية الالمانية وتطور الفكر العنصري والعرقي

لم يكن من قبيل الصدفة ان حركة الاصلاح اليهودي والاندماج على يد مندلسون تنبع من المانيا ، وان حركة الردة الصهيونية على يد موسى هس

(١٨١٢ ـ ١٨٧٥) الرائد الاول للفكر الصهيوني والدعوة الصهيونية في كتابه الشهير « رومه والقدس » ، والذي قال عنه هرتزل « كل شيء حاولناه يمكن العثور عليه في آثاره » ، ولدت ايضا في المانيا ، فقد ولد هس وعاش في المانيا ، خاض غمار السياسة الالمانية في اواسط القرن الماضي • صعد مع حركتها الثورية الى ذروتها ، وهبط الى قاعها العرقي والهمجي بعد هزيمتها وتبعثرها •

والواقع ان المانيا ، بحكم المواطنة اليهودية الواسعة فيها، منذ بداية العصور الحديثة وعودة اليهود الى بلدان الغرب ، وبعد ان تزايد اضطهاد اليهود في شرق اوروبا ، ظلت من مراكز التأثير الاساسية في الفكر اليهودي ، وفي تيارات السياسة والحركة بين اليهود يضاف اليه ان المانيا بحكم موقعها في وسط اوروبا ، وامتداد اللغة الالمانية في انحاء الشرق خاصة ، كانت على الدوام مركزا اساسيا من مراكز التأثير الفكري في اوروبا ، وكان للفلاسفة والمفكرين والمصلحين الدينيين الالمان تأثير عميق وبعيد على الصعيد الاوروبي كله ، منذ الاصلاح الديني وعصور الاستنارة ، وفي القرن التاسع عشر بوجه اخص • ومن المعروف ان ضعف البورجوازية الالمانية وعجزها عن تحقيق الاهداف الاساسية لثورتها ، وبالاخص الوحدة القومية والديموقراطية ، بالطرق الثورية او الدستورية على غرار ما حدث في الغرب ، ضاعف من دور الفكر والمفكرين الالمان ، وحول جانبا كبيرا من الصراع بين القديم والجديد ، بين الثورة واعدائها ، من مساحات السياسة العملية والواقع ، الى جبهة الفكر والايديولوجية ، واحتلت معارك الفكر والفلسفة في « امة العقل » كما كانت تلقب عادة ، مركز الصدارة ، واصبح لها تأثيرها الواسع في اوروبا ، خاصة في مناطق الوسط والشرق • ومن هنا لم يكن غريبا ان تكون المانيا هي مهد الاصلاح الديني المسيحي واليهودي معا ، حيث انجبت لوثر وموسى مندلسون ، كما اصبحت فيما بعد مهد الردة الصهيونية على يد موسى هس ، يوم فقدت الثورة الالمانية والاوروبية زخمها في اواسط القرن ، وبدأت الردة القومية ، والقومية الرجعية الشوفينية في الصعود ، وبدأ الفكر العرقي والعنصري في اكثر صوره فجاجة وبشاعة ، حتى اوصلنا آخر الامر الى الفاشية والنازية •

ولا شك ان عجز البورجوازية الالمانية نتيجة ضعفها التاريخي ، وسيرها تحت مظلة طبقات الاقطاعيين واليونكرز الرجعيين ، بعد الهزائم المتوالية التي لحقت بالثورات القومية الديموقراطية تحت لواء الليبرالية ، قد اصاب البورجوازية الصغيرة الالمانية ، وكان اليهود يشكلون قسما كبيرا منها ـ بالاحباط الشديد ، واوقعها في كل صنوف الحيرة والتشتت • كما زاد من تعقيد الحركة السياسية فيالمانيا ، وضراوة الصراع الذي انتج لنا قمة الاستنارة والراديكالية في الماركسية ، واتساع الحركة الاشتراكية الالمانية التي

ضمت بين صفوفها اعدادا كبيرة من المواطنين اليهود من جانب ، وفي الجانب الاخر برز الفكر الرجعي والعرقي في اكثر صوره صراحة وبشاعة ٠

لهذه الاسباب يحتل الفكر الالماني بوجه الخصوص اهمية خاصة في تفهم جذور العرقية الاوروبية والصهيونية معا ٠

القومية الثقافية

تخلف المانيا عن بقية دول الغرب ، وخاصة انجلترا وفرنسا جاء نتيجة لعاملين : اولهما اكتشاف امريكا وطريق الهند وتحول طرق التجارة لمصلحة القوى المعادية الاطلنطية ، وثانيهما فشل حرب الفلاحين ، وفقدان المانيا لخيرة عناصرها الثورية ، والخراب الذي اصابها نتيجة هذه الحرب ٠ ولم تتمكن المانيا من الخروج عن هذه الازمة بسبب التدهور الاقتصادي ، لهذا تخلفت لمدى قرنين عن الثورة الصناعية التي قلبت الاوضاع في انجلترا وفرنسا (٨) ٠

ترتب على ذلك ضعف البورجوازية الالمانية ، مما جعل تأثير الافكار السياسية لعصر الاستنارة ، يختلف في المانيا عنه في دول الغرب الاخرى اختلافا بينا ٠ ففي فرنسا ، وبصورة اخرى انجلترا ، ادت هذه الافكار الى اندلاع الثورات البورجوازية الكبيرة ، ووصول البورجوازية الى السلطة وانفرادها بها ، او على الاقل المشاركة فيها بدرجة فعالة ومؤثرة ، بعكس ما حدث في المانيا ، فقد تحولت الاستنارة الى المثالية الميتافيزيقية على يد كانت ولسنغ وفختة (٩) ، وحتى حركة الاصلاح الديني التي صاحبها تدمير الامتيازات الفيودالية ، ودعم السلطة والدولة المركزية في كل من فرنسا وانجلترا ، أدت فيما تتصل بالمانيا الى دفع هذه الامتيازات الى مرتبة السيادة، بحيث أصبحت كل من الوحدات الفيودالية تتمتع بنفس الحقوق التي للدول الكبرى ، فالحرب الدينية مزقت المانيا تماما ، وجاء صلح اوجسبورج (١٥٥٥) ليؤكد هذا التمزق بالسماح لكل حاكم بأن يختار الكاثوليكية او البروستنتينية (١٠) ٠

يضاف اليه عمق الصراعات الاجتماعية كما ذكرنا ، والعداء الشديد المتأصل بين طبقات المجتمع نفسه ، وهو الامر الطبيعي نتيجة قوة الفيودالية ، مما زاد من اتساع الهوة بين الطبقات الاجتماعية وتمسك الطبقات العليا من اليونكرز بعزلتها واحتقارها لعامة الشعب ، بل لقد استطاعت هذه الطبقات في كثير من الاحيان استقطاب جماهير الشعب على حساب الطبقة البورجوازية ونداءاتها الليبرالية (١١) ٠

وترتب على ضعف البورجوازية الالمانية هذا وعجزها عن تحقيق ثورتها ،

وبناء دولتها المستقلة الحرة والموحدة • واحساسها بهذا العجز والقصور . ترتب عليه تزايد مشاعر الارتباط بالثورة البورجوازية العالمية ، وعقد الامال على انتصارها ، والانبهار بانجازاتها في البلدان المجاورة وهو ما ادى بدوره الى التعلق بمفاهيم « العالمية » التي شاعت في فكر الاستنارة ، ويقول هرتز ان الشعور العام بين الطبقات المتعلمة في المانيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان عالميا (١٢) •

ولكن ذلك ادى في نفس الوقت الى نمو ما سمي بالقومية الالمانية الثقافية التي مهدت بدورها لظهور القومية السياسية اثناء حرب التحرير • والحقيقة ان فلاسفة الاستنارة ومفكريها الالمان حولوا عجز طبقتهم في الواقع العملي الى نجاحات وانجازات ضخمة في الفكر والثقافة وحلت « القومية الثقافية » والاعتزاز المفرط بالثقافة والفكر الالماني محل القومية السياسية المحبطة والمفتقدة ، ومحل الوحدة القومية التي بدت بعيدة المنال •

ولنا ان نقدر الاثر البعيد لهذا الفكر الالماني التقدمي في الاساس ، سواء في دعواته الى العالمية ، او القومية الثقافية في الفكر اليهودي في المانيا ، وفي شرق اوروبا حيث امتد نفوذ هذا الفكر • لقد كانت له جاذبيته الخاصة بين مثقفي اليهود وفئاتهم المستنيرة • فالمفهوم العالمي يتسع ليحتضن كل الثقافات دون تمييز ، ويرتفع على كل التحيزات القومية ضيقة الافق ، كما ان مشاعر الاعتزاز والفخر بالثقافات القومية من الجانب الاخر ، يفسح المجال ايضا للاعتزاز بالتراث الثقافي الانساني اليهودي •

ولكن هذا المفهوم بالذات ، مفهوم القومية الثقافية ، انقلب الى نقيضه عند رواد الفكر الصهيوني الاول ، مع طغيان موجة القومية الرجعية في المانيا واوروبا عموما • فقد وجد هؤلاء المفكرين الصهيونيين الاول في مفهوم القومية الثقافية مبررا وسندا للمناداة بقومية اخرى تبدو مشابهة في الظاهر ، وتفتقد الوحدة هي ايضا ، وهي القومية اليهودية • نجد هذا المفهوم عند هس الالماني وسمولينسكين الروسي (١٨٤٢ ـ ١٨٨٥) في دعاواه عن الامة الروحية التي ترتكز الى التوراة وعند اليعازرين يهودا الليتواني (١٨٥٨ ـ ١٩٢٣) ، والذي كان يكتب في مجلة الفجر التي كان يصدرها سمولينسكين ويعتنق نظرية القومية الثقافية • وقد عمل بدأب واصرار على أحياء اللغة العبرية الحديثة ، واسرائيل عنده شعب روح وكذلك نجدها عند ليبينسكر (١٨٢١ ـ ١٨٩١) وغيرهم وتكاد تكون قاسما مشتركا شائعا بين هذا الرعيل الاول من المفكرين الصهيونيين (١٣) وكأنما بهؤلاء المفكرين الرجعيين السلفيين ، والذين وقفوا في مواجهة تيار الاندماج اليهودي الجارف ، قد وجدوا في مفهوم القومية الثقافية الالماني ضالتهم لينصبوا في قالبها قوميتهم المتخيلة التي تفتقد

مقومات تحقيقها في الواقع ٠ واذا كانت القومية الثقافية الالمانية بمثابة الامل المحرك لقومية حقيقية لا بد ان تنتصر وتحقق وحدتها في النهاية فان مفهوم الامة الروحية والاخلاقية والقومية الثقافية العبرية كان لا بد ان يحرف انظار البورجوازية الصغيرة اليهودية في ظروف التخبط والحيرة والبلبلة ليصرفها عن هدفها الحقيقي في الديموقراطية والحقوق المدنية والاندماج في شعوبها ٠ كان لا بد ان يتحول الى عامل ردة ونكوص ٠ وان يجرد المفهوم الالماني التقدمي في الاصل من مضمونة ليحوله الى مفهوم يوتوبي رومنسي رجعي في « القدس الجديدة » عند موسى هس وغيره ممن سار على دربه ٠

الرومنسية الرجعية تركب موجة القومية في المانيا

كان لتحطيم الامبراطورية الالمانية القديمة على يد بونابرت والاطاحة بنظامها الاقطاعي ، اثر بعيد في انتعاش الافكار الثورية والتيار الليبرالي في المانيا ، خاصة بين المثقفين الالمان ٠ ولكن هذا التيار اكتسب سمة وطنية وقومية بارزة نتيجة السيطرة والقهر البونابرتي ، تطلعا في نفس الوقت الى التحرير والتوحيد القومي المفتقد (١٤) ٠

ولكننا نشهد ايضا مولد الاشتراكية مع الثورات البروليتارية الالمانية الاولى سنة ١٨٣٠ ، ومنذ ذلك التاريخ تتميز الحركة السياسية في صفوف المعارضة للنظام الاقطاعي القائم ، بتواجد الحركتين الليبرالية البورجوازية والاشتراكية جنبا الى جنب ٠ ولكن كان هناك ميل واضح الى الانفصال والتباعد بينهما يزداد بالتدريج نتيجة نمو البروليتاريا وضعف البورجوازية النسبي ٠ ومن هنا لم تأخذ الليبرالية الالمانية نفس الطابع الثوري الذي اخذته فرنسا في القرن الثامن عشر بل اتجهت البورجوازية الالمانية الى انتهاج سياسة وسط مثلها مثل البورجوازية الفرنسية بعد ثورات سنة ١٨٣٠ ٠ سياسة تتسم بالمحافظة والجنوح الى صف الرجعية ٠ ولكن هزيمة ثورة ١٨٤٨ هي التي وجهت ضربة قوية وقاصمة لحركة الليبرالية دفعت اقساما متزايدة من المثقفين الالمان الى اليأس ، وفقد الثقة في العقل ، والتشاؤم ٠٠ وطغت الرومانسية الرجعية على الساحة كما اضفت الرجعية الالمانية على كل ما هو متخلف وبربري همجي في التراث الالماني ، صفات « القومية » ٠ واصبحت السلفية ، واحياء التقاليد التيوتونية هي التعبير عن الروح الالمانية والاصالة الالمانية اما الديموقراطية البرلمانية المنتصرة في فرنسا وانجلترا وغيرها من بلدان المغرب ، فقد اعتبرت « لا المانية » « ومستوردة » تخون اصالة الامة وعبقريتها الخاصة » (١٥) ٠

والحقيقة ان القوى المحافظة والرجعية منذ قيام الحلف المقدس وسياسة مترنيخ ، في خضم الحروب ضد الثورة ، كانت قد تعلمت درسا وعته جيدا ،

هو ان الوطنية تشكل اقوى راية يمكن ان تلف حولها الامة · وحاولت ـ وهي العدو الحقيقي للقومية المتحررة الديموقراطية ان تركب موجة القومية الصاعدة وان ترفع رايتها ، ولكن بشرط ان تفصم ما بين الحرية والانبعاث القومي من علاقة ، وان تحول القومية الليبرالية العقلانية ، الى قومية همجية لا عقلانية · عدوانية توسعية · لقد استغل المحافظون المشاعر القومية الملتهبة ضد القهر البونابرتي ، لدحر الثورة ، ولكنهم سرعان ما افصحوا عن نواياهم الحقيقية المعادية للقومية ولحقوق الامم في التحرر والوحدة عندما طبقوا مبادىء الشرعية ضد تطلعات القوميات المشروعة في الاستقلال والوحدة ـ خاصة في وسط وشرق اوروبا · وتكمن مأساة النصف الثاني من القرن التاسع عشر في استيلاء قوى الرجعية والمحافظة هذه على قومية ثورات سنة ١٨٤٨ وسلبها للراية القومية بعد ان جردتها من كل مضمون ديمقراطي ، وحولتها الى معاني التوسع والغزو والضم والالحاق تحقيقا لمصالحها ·

صنع المحافظون من هذه المعاني دينا صوفيا جديدا ، هو مزيج من التقاليد الهمجية القديمة والمشاعر الوطنية الملتهبة المتهوسة واللاعقلانية ، واستمدوا من تراث الفكر والفلسفة الالمانية اكثر جوانبه رجعية وتخلفا بعد ان اسقطوا منه كل ما هو ثوري وتقدمي · اسقطوا من هيجل ، هذا الفيلسوف الشامخ ، اروع ما قدمه للبشرية من مفاهيم ثورية : جدل التاريخ ، او الحركة والتطور الذي لا ينقطع من خلال الجدل في الفكر والتاريخ والواقع صوب الهدف الاسمي وهو الحرية ـ وتمسكوا بأسوأ ما يحمله فكره وتراثه من دعم للدولة البروسية الرجعية · فقد اعتبر هيجل في كتابه « فلسفة الحق » ان روح العالم افصحت عن نفسها في الماضي ، في الشرق وفي اليونان وفي روما ، اما اليوم فقد اكتمل نموها وتطورها في الامة التيوتونية والدولة البروسية ، التي هي التجسيد الاسمي لارادة الله وغايته على الارض · ولم يكن يصعب على القوى الرجعية حيثما كانت ان تستبدل هذا المفهوم الصوفي اللاعقلاني عن الامة التي تجسد كمال التطور والفكر على الارض ، وتنقله من الامة التيوتونية الى السلافية الى العبرانية حسبما تشاء لها الاهواء ·

هذا المسعى لتجسيد المثل الاعلى والروح في التاريخ ومن خلال التاريخ ، كان سمة عامة في الفكر الرومنسي كما رأينا ، ووصل به هيجل الى القمة ، ليمد الرجعية بسلاح لا يبارى عندما تلوى رقبة التاريخ ، وتثبت هذا المثال في العصور الوسطى ، أو ما هو اكثر قدما وتوغلا في التاريخ·· ومن ثم تصاعدت النداءات بالتمسك بالتقاليد وبالتراث · واخذ الناس يكبون على دراسة التاريخ ، لا كما كانوا يقبلون عليه في عصر النهضة والاستنارة ، ليستخرجوا منه اروع ما تكنه الروح الانسانية بل يهدف اضفاء صفات النبالة والمجد على الماضي والباسه اكاليل الغار · وقد بجل سافيني والفقهاء الالمان بشكل عام التاريخ

ورفعوه فوق جميع الاشياء (١٦) ، وقد انقلب هذا الحس التاريخي الذي نما وترعرع في بوتقة الفكر الرومنسي خلال القرن التاسع عشر ، وكان من مكتسباته التقدمية ، انقلاب في مفهوم الرومنسية الرجعية في اواخر القرن لتبني نماذج العصور الوسطى ، او ما هو اقدم منها ، كمثال اعلى للتنظيم الاجتماعي فيوتوبيا خيالية يسكن اليها معذبو الارض ويلجأون اليها من جحيم الحاضر :

هردر ، فختة ، شليجل ، شوبنهور ، نيتشة ، شبنغلر ٠

ولكي تفهم مأساة العصر ، مأساة الفكر القومي الذي يبدأ من الثورية ، ودعوات الانبعاث القومي ، والاعتزاز بالشخصية القومية مجسدة في اللغة والتراث والطوابع القومية والتاريخ القومي ، ثم ينحدر ويسير في طريق الانحطاط حتى ينقلب في اخريات العصر الى اشكال التعصب وضيق الافق القومي ، ومعاني التفرد والاستعلاء العرقي والردة الى جوف التاريخ ، لكي نفهم مسار القومية من الصحوة والبعث ، حتى انهار الدم في حربين عالميتين على يد القوميين المتهوسين ، ثم الفاشيين والنازيين ومن بعدهم ورثتهم من الصهيونيين ، لا بد ان نتتبع حركة الفكر القومي الرومنسي حتى يسقط في يد الطبقات الرجعية والاستعمارية الامبريالية في اخريات القرن التاسع عشر لنستخرج اكثر عناصره سوءا ودناءة وتخلفا ، وقد اختلطت في هذا الفكر منذ البداية كما رأينا جوانبه الثورية والرجعية التقدمية والمتخلفة ولا يتسع المجال سوى لعجالة ولمحات خاطفة ٠

ونبدأ بهردر (١٧) فقد كان من رواد الفكر الرومنسي مثل روسو ، وظل مخلصا للمبادىء الاخلاقية الجوهرية للاستنارة ، وكان هو البادىء بالاهتمام الحماسي « بروح الشعب » كما تعبر عنها اللغة والشعر والفن والتقاليد ٠ وقد اشاد بصفة خاصة بالتراث الثقافي العظيم للشعب الالماني ، وكان يتوق لاحياء مجده في ميادين الادب والفن والعلم ، وكانت عواطفه مع الامة التي رأى فيها نموا طبيعيا مثل العائلة ، وكان يعتقد ان كل شعب مهما كان صغيرا ومتخلفا يحمل شعلة مقدسة من الجمال والحرية (١٨) ٠

وقد انكب على دراسة الاساطير الشعبية واشعار القدماء واغاني الحب واهازيج الحرب واغاني البحار من الشعوب الشمالية في فنلنده والنرويج حتى بحار الجنوب ، ثم اصدر مؤلفه في الادب الالماني الجديد سنة ١٧٦٧ ، نحا فيه منحى جديدا فلم يقتصر نقده الادبي على المقاييس الفنية وحدها ، بل حاول فهم الروح التي تتجلى في كتابات الادباء الالمان ، بحثا عن عبقرية الامة ، والعوامل التي تتضافر في تكوين وانماء عبقرية الشعوب (١٩) ٠

وقد توفر بعد ذلك على دراسة الكتاب المقدس ، وتاريخ الشرق القديم ،

واثمرت دراساته في بحث عن (الشعر العبري) نشر سنة ١٧٧٣ ، ولم تكن دراسته من الناحية الدينية بل الانسانية ، محاولا ان يفهم حركة الروح الانسانية كما تمثلت في المدنيات الشرقية القديمة التي عاصرت الكتاب المقدس (٢٠) ، وعنى هردر بشكل خاص بدراسة فلسفة التاريخ ونشر بين سنتي ١٧٨٤ ـ ١٧٩١ · اعظم مؤلفاته اطلاقا (اراء في فلسفة تاريخ الانسانية) ثم رسائله عن تقدم الانسانية سنة ١٧٩٣ وفي مؤلفه (صوت الشعوب) سنة ١٧٧٨ نشر مجموعة من الاناشيد الشعبية من مختلف البلدان والفضل يعزى لهردر في انشاء المدرسة التاريخية ، ويرى هرتز (٢١) ان مونتسيكيو وهردر هما اللذان اثارا الحس التاريخي لدى هيجل ·

وقد قدم هردر منحى جديدا في دراسته للادب وتاريخ اللغة ، فقد عنيبابراز الجانب القومي وتتبع كل مرحلة تاريخية من مراحل نمو الشعوب وتطورها ، وصولا الى الاسس التي تقوم عليها عبقرية الشعوب ، وفي رأيه ان لكل شعب خصائصه التي يتميز بها عن غيره شأن الافراد وان الثمار التي تنبت من الاعماق ، ومن تلقاء نفسها هي التي تفصح عن عبقرية الشعب ، وان كل تقليد او خضوع لمؤثرات خارجية او اجنبية تشوه شخصية الشعوب وفكرها ·

ويرتبط بهذا المنهج ايضا القول بان اللغة او لسان الشعب ، هي أداته الاساسية في الافصاح عن عبقريته ، وفي تجسيدها لروح الشعب ، ومزاجه واحساسيه وفكره ، وتتبع الاطوار التي تمر بها اللغة يعني التعرف على تاريخ الشعوب ·

والامة في رأي هردر ان هي الا كائن حي ، وجسم نابض له وجوده الذاتي والبدائي ، وتتمتع بغريزة حية نشطة وعبقرية خاصة تفصح عن نفسها تلقائيا في لغة هذا الكائن وعاداته البدائية واخلاقياته ، وبذلك اصبحت القومية كائنا طبيعيا ، من صنع الصدفة ولا ارادة لاحد فيه ولا حيلة لانسان ازاءه ، وله حياته التاريخية (٢٢) ·

ومفهوم هردر عن القومية يختلف بلا شك عن نظرية روسو وحركة الاستنارة عموما · وقد انتشر مفهومه في المانيا بصورة مزدوجة : في شكل الحركة الرومانسية في الادب معتمدة على عناصر الحياة البدائية والتاريخ الالماني ثم في شكل حركة علمية قوامها فقهاء اللغة والمؤرخين الذين يدرسون تاريخ الاديان والشعوب على اساس ارتكاز عبقرية الشعوب على لغاتها الاصلية · وعلى الرغم من كل الجوانب الايجابية في فكر هردر ، الا ان تأثيره الضخم في المانيا كان من العوامل الهامة في ارتداد الفكر الالماني ونكوصه على عقبيه ، من فلسفة التنوير العقلانية فنظريته التاريخية والقومية تنتهي اخر الامر الى لا عقلانية مطلقة ، وسيطرة قوى غريزية على حركة الامة · والانسانية

ليست من صنع الانسان ، ولا ثمرة لجهوده ، بل من صنع الطبيعة والغريزة وهي عكس افكار التنوير التي تعطى للعقل والارادة البشرية قـوة الحسم · وبذلك يكون هردر قد افسح مكانا عريضا في نظرية لفعل قوى تتصف بالغموض · وواقع الامر ان المذهب العضوي في تفسير حركة التاريخ والبشرية وصحوة الامم ، تنتهي الى تغلب القوى اللاواعية واللاعقلانية ، قوى الغريزة العميـاء والنمو التلقائي والعبقرية التي تفصح عن نفسها في الاشكال البدائية · اما قوة العقل فتشغل حيزا ضئيلا ، ولا تبدل الحياة او تغيرها او تؤمن تقدمها (٢٢)، لقد وضع هردر اللبنة الاولى في التيار اللاعقلاني المدمر الذي حل الغريـزة والطبيعة والتفتح الطبيعي والاسطورة محل العقل والارادة ·

اما فخته (١٧٦٢ ــ ١٨١٤) فهو بلا جدال من الرواد الاول للقوميـة الالمانية ، امتلأ حماسة للثورة الفرنسية ، وكانت تحركه الافكار العالميـة والثورية والانحياز للطبقات الشعبية ، ولكن هزيمة بروسيا امام نابليون وسحق جيوشها في يينا سنة ١٨٠٦ كان له وقع عميق من نفسه ، احدثت فيه تحول بعيدا ، فقد اصبح الداعية الاول للوطنية والقومية الالمانية · ففي سنة ١٨٠٧ وجه خطاباته المشهورة الى الامة الالمانية عزا فيها الكارثة المروعة التي حاقت بالمانيا الى انحطاط الخلق الالماني ، وبخاصة انانية الطبقات العليا ، وعقـد آماله مثل روسو على الطبقات الدنيـا ·

والشعب الالماني في نظره هو شعب العقل ، له رسالة روحية واخلاقية كبرى عليه ان يحملها لمصلحة الجنس البشري ، وهو وحدة الذي يصلح للقيام بهذه الامة ، حيث انه احتفظ بلغته الاصلية وهي لغة حية شعبية وخلاقة اما الامـم الاخرى فقد لحقها العجز ·

والعالم الجديد الذي يدعو اليه فخته ، يبدأ في نظره من حقل التربية : «لقد اضعنا كل شيء ولم يبق لنا سوى التربية » هذه التربيـة ستظهر « ارض الميعاد » « الفكرة الحقة » · ومن هو القادر على تقبل « التربيـة الجديدة » الـ « الثقافة الجديدة » ؟ انه الالماني والالماني وحده ·· الالماني في ذاته ولذاته، وذلك بسبب « طابع اساسي » يحمله الالمان دون غيرهم من الامـم الاخرى ، فلقد بقي الالماني في مكان الاقامة الاصلي للقبائل الجرمانية التي غزت اوروبا الرومانية واحتفظ بلغته ·· وباختصار فان الشعب الالماني هو شعب العقـل ، وهو المؤهل وحده لانشاء دولة العقل ، وانسان العقل ، بواسطة التربية وهـو امة الخلاص · المؤهل وحده لخلاص البشرية هكذا خاطب مواطنيه في خطابه الرابع عشر والاخير ·

ولم تكن افكار فخته هذه بدافع من التعصب العرقي أو أفكار الاستعـلاء القومي ، بل كانت خطابات ملتهبة تستنهض همم أمة تواجه قضية تحريـر ،

ولكن لم يكن من الصعب بكل التناقضات التي يحملها هذا الفكر ، ان ينقلب على يد الرجعية الى معاني التفرد والاستعلاء القومي ، حتى لقب « بالفيلسوف التيوتوني » ٠

ونتابع بانوراما افكار الرومانسية الالمانية ، من الرسالة السامية للامة الالمانية ، والاصالة اللغوية والثقافية والاخلاقية ، حتى تنتهي الى معاني الاستعلاء والتفرد العرقي والعنصري ودعوات العنف والقوة ٠

فها هو فردريك شليجل (٢٤) (١٧٧٢ ـ ١٨٢٩) يعتبر الذكريات القومية التي تعادل روح الشعب ، هي مفتاح الخلود التاريخي ٠ والشعوب والامم التي لها « ذكريات قومية عظيمة » هي وحدها التي خلدت على مر التاريخ « والتاريخ هو الوعي الذاتي للامة » او « وعي الامة بذاتها » ، ولكنه يؤكد ان الفكرة الالمانية ليست مجرد ماض فحسب بل مثل للمستقبل وكان شليجل في البداية داعية جمهوريا قويا ، ثم تحول ليصبح كاثوليكيا محافظا ، من ذلك الفريق الذي يناصر النمسا وهو الاشد محافظة ، ويحلم بعودة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، رمز الروح الالمانية ٠

اما ادم مولر فكانت تربطه باليونكرز الرجعيين وشائج قوية ، واصبح اداة في يد مترنيخ ، وقد تحول الى الكاثوليكية واكتسبت افكاره السياسية مسحة صوفية ، وقد تصور الامة في اطار المفهوم الحيوي والصوفي ، تناسقا مقدسا وتفاعلا متبادلا بين المصالح الخاصة ، وحلقة تربط بين الفرد والانسانية وصفة التفرد هي القيمة العظمى للامة وكان يرى في الحرب وسيلة لا غنى عنها لتربية الامة ونموها وكان الامل الذي يحرك مولر هو قيام فيدرال عظيم يجمع الشعوب الاوروبية تحت الزعامة الالمانية (٢٥) وقد رأى في الزراعة تحقيقا للمبادىء المرسومة ، في حين رأي في حركة الاصلاح الديني والاستنارة ، والتصنيع والرأسمالية ، والثورة الفرنسية كلها نتاج الروح الرومانية الكئيبة ٠

ثم جاءت فلسفة شوبنهور لتعكس موجة التشاؤم السائدة بعد هزيمة ثورة سنة ١٨٤٨ ٠ واكتسبت فلسفته شعبية واسعة في اجواء اليأس والتراجع ، وبدت له الدنيا كابوسا كئيبا لا يحكمه العقل بل الغريزة العمياء الجشعة ، وهي ارادة الحياة ٠

وكان نيتشه هو الوريث الاخير للرومنسية على غير ارادته ، وكان هو ايضا يعتقد ان العالم لا يسيره العقل بل الارادة ، وهي ارادة القوة ويبدو انه استوحى الفكرة من مسيرة الجيوش الالمانية الى ساحات القتال في حرب ١٨٧٠ وهو يحتقر النفعية الانجليزية ، ومعها الديموقراطية الليبرالية ٠ فالانسان لا يطلب السعادة بل القوة ويحب القسوة ، اما المسيحية واخلاقياتها فهي تخفي

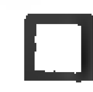
السعي الى القوة من جانب الضعفاء ورجال الدين ·

ولا شك ان فكر نيتشه يزخر بالمتناقضات ولكن فلسفته حملت في طياتها الازدراء العميق للعقل البشري ، كما دعمت بالتحديد نزعات القومية الالمانية اللاعقلانية ·

وكان ريتشارد فاغنر ونيتشه صديقين وثيقي الصلة · وكان تأثير فاغنر عميقا في العقل الالماني ، كما كان تأثره بجوبينو وهوستون ستيوارت شمبرلين من غلاة القوميين العرقيين لا شك فيه ·

الداروينية والقومية العرقية

تركت البيولوجيا الحديثة كما تمثلت في الداروينية خلال القرن التاسع عشر بصماتها على الرومنسية ، وامتزج المذهب الطبيعي بالرومنسي ، واتخذت الرومنسية مسحة طبيعية علمية فقدمت الانسان بنزعاته الغريزية الشريرة ، حيوانا كاسرا ، على انه الانسان الطبيعي ، ونيتشه يتيه اعجابا بهذا الوحش الادمي العجيب · ووجدت نزعات العرقية ضالتها في مفاهيم البيولوجيا الحديثة ، وبالاخص فكرتي « الوراثة » و « الصراع من أجل البقاء » · ويدفع شينجلر بهذه الاتجاهات بعد الحرب العالمية الاولى الى نتائجها الطبيعية في « افول الغرب » ، وغيره من كتاباته التي كان لها ابلغ الاثر في تفكير المثقفين الالمان ، وهو يدعو صراحة للدكتاوترية العسكرية ، وقد اسهمت فلسفته بقوة في تغذية تيار القومية العرقية ، وفي تسميم عقول الشباب الالماني ، فقد حرقت ومهدت الارض أمام هتلر ، وشعاراته الديماجوجية ، حتى تحول هذا الشباب على حد تعبير هرتز الى اداة في يد اكبر نخاس العبيد في العصر الحديث (٢٦)·



القدر ـ في نظر هؤلاء المفكرين الرومانسيين ـ قد وكل الى الامة الالمانية تنمية الطبيعة البشرية والسمو بها الى اعلى القيم الثقافية والاحلام ، وهذه رسالتها الى كل الشعوب ·· ولتكن السيطرة عن طريق الروح لا السيف عند البعض · هذه الفكرة ذات الجذور العميقة في التراث المسيحي والعبري ، عندما اختلطت بمفاهيم الداروينية الاجتماعية ، وفي اجواء الازمات المتتابعة التي بدأت تأخذ بخناق النظم الرأسمالية الاوروبية ، والبطالة المتفشية ، ومع صعود الامبريالية ، ونزعات العدوان والتوسع والعنف ، ومحاولات الراسمالية الاوروبية تهجير ازمتها الى ما وراء البحار ، وفي المناخ الفكري السائد والمسيطر على القارة ، مناخ الرومنسية الرجعية ، ونزعات الهروب الى الجنة

المفقودة في الماضي الغابر ، او الغد المأمول في بلاد بعيدة ·· كل هذه العوامل مجتمعة ، شكلت التربة التي نبتت فيها اشواك العرقية والعنصرية ، وحركات الاستيطان العنصري ·· من كل لون وصنف ·

لا غرابة اذن في ان نجد نفس الافكار ، بل العبارات نفسها والالفاظ احيانا تتردد وتلوكها السنة الصهاينة الاول ، وقد تخلقت حركتهم وولدت داخل نفس الرحم ، ورضعت من نفس الثدي الملوث · وقد نقلت هذه الافكار وترجمت في قاموس الصهيونية ـ كما سنرى في مقالنا القادم ـ الى مقابلاتها العبرية والتراثية : شعب الله المختار ·· الامة العبرية عبر التاريخ ، ذات الرسالة الروحية والاخلاقية ، والتي اوكل اليها كهانة البشر وقيادة البشرية وهدايتها، بالروح لا بالسيف !!· مزاعم كذبها الواقع والتاريخ ·

الحواشي

(١) فؤاد شكري ، **الصراع بين البورجوازية والاقطاع** ، المجلد الاول ، ص ١٤ ـ ١٥ ·

(٢) فردريك هرتز ، **القومية في التاريخ** والسياسية ، ترجمة د· عبد الكريم احمد ص ·· ٤ ·

(٣) عبد الكريم احمد . **القومية والمذاهب السياسة** ، القاهرة الهيئة المصرية للتأليف والنشر ، ص ١٦٢ ·

(4) George I. Mosse, *The Culture of Western Europe*, p. 22.

(5) *Ibid*, p. 38.

(6) *Ibid*, p. 237.

(7) *Ibid*, p. 107-108 .

(8) A. Cornu, *Markx & Engels Tom I* p. 4.

(٩) احمد ، **مصدر سبق ذكره** ·

(١٠) **المصدر نفسه** ، ص ٢١٧ ·

(١١) **المصدر نفسه** ، ص ٢١٨ ·

(١٢) **المصدر نفسه** ، ص ٢١٩

(١٣) راجع **الفكرة الصهيونية ـ النصوص الاساسية** ، اشراف الدكتور انيس صايغ ، سلسلة كتب فلسطينية ، وسنعود الى هؤلاء المفكرين الصهيونيين تفصيلا فيما بعد ·

(14) Cornu, *op. Cit*, p. 4.

(١٥) الياس مرقص ، **بعد الفكر القومي ـ ساطع الحصري** ، بيروت دار الطليعة ، ص ٤١٠ ·

(١٦) جون راندال ، **تكوين العقل الحديث** ، ج ٢ ص ٧٨ ·

(١٧) جوهان جوتفريد هردر Herder (١٧٤٤ ـ ١٨٠٧) ·

(١٨) هرتز ، **القومية في التاريخ** والسياسة ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ ·

(١٩) شكري ، **مصدر سبق ذكره** ، مجلد (١) ص ٦٢ ـ ٦٣ ·

(٢٠) **المصدر نفسه** ، مجلد (١) ، ص ٦٤ ·

(٢١) هرتز ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٩٢ ·

(٢٢) شكري ، **مصدر سبق ذكره** ، مجلد (١) ، ص ٦٧ ·

(٢٣) نور الدين حاطوم ، **دراسات مقارنة في القوميات** ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٦ ، ص ٣٢ ·

(24) Mosse *op. Cit*, p. 40.

(٢٥) هرتز ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٠٦ ·

(٢٦) **المصدر نفسه** ، ص ٤١٠ ·

مسعود ضاهر

فيليب حتي
المؤرخ العربي في الولايات المتحدة

مدخل تاريخي

بين الولادة في شملان ، القرية الوادعة في متصرفية جبل لبنان ، في الرابع والعشرين من حزيران ١٨٨٦ ، والوفاة في الولايات المتحدة الاميركية في الرابع والعشرين من كانون الاول ١٩٧٨ رحلة قرن شبه كامل من الزمن ·

لقد ابصرت عيناه النور في « لبنان الصغير » او المتصرفية · وكانت ذكريات مذابح ١٨٦٠ الطائفية لا زالت حديث كل الناس بالرغم من « وطنيات » المعلم بطرس البستاني التي تجاوزت الثلاث عشرة وطنية تبشر بالمحبة وتدعو لازالة الاحقاد الطائفية · وينهي البستاني وطنيته العاشرة بالقول : « يا ابناء الوطن الذين قد اتصفتم واشتهرتم بالكرم والنخوة والحماسة والحذق والمروءة والسماحة ، وانتم الان ممتطون سنام الجيل التاسع عشر ، جيل المعرفة والنور ، جيل الاختراعات والاكتشافات ، جيل الاداب والمعارف ، جيل الصنائع والفنون ، جيل التقدم والتمدن ··· لا تدعوا تلك الفتن الشديدة تحملكم على هجر هذه الخلال الحميدة ، بل هبوا ، انتبهوا ، استيقظوا ، شمروا عن ساعد العزم والهمة ··· ها الاداب والتمدن ووسائل الاتحاد والالفة واقفة من كل جهة ، مزدحمة على ابوابكم تقرع بقوة وسرعة طالبة الدخول الى مدنكم الزاهية الشهية وجبالكم الشامخة البهية ، واوديتكم وصحاريكم وسهولكم التي زينتها الطبيعة بحلاها الفاخرة وقواها الباهرة ، فانبذوا عنكم تعصباتكم الدينية ، وتحزباتكم المذهبية ، وعداواتكم الطائفية ، واغراضكم النفسانية ، وافتحوا الابواب لتلك الضيوف الفاضلة ، وترحبوا بها ، وقدموا لها يدا واحدة لمصافحتها واقبلوها بالفرح والحبور ، فتملأ بلادكم راحة ورفاهية وامنا ، وتكسو دياركم بهجة ورونقا وفخرا » ·

تلك « الوطنية » التي نشرتها « نفير سوريا » البيروتية في الثاني والعشرين من شباط سنة ١٨٦١ تختصر السمات الاساسية لهذه المرحلة على عدة مستويات : محاربة الداء

الطائفي دون العمل على محاربة الذين ينفخون بناره ، اي الارساليات والقنصليات الاجنبية، الدعوة الى « التغريب » حيث « الاداب والفنون والصنائع ... تنتظركم فاقبلوا عليها بالفرح والحبور » ، العمل على استنهاض كافة الصفات الرومانسية القروية دفاعا عن المتصرفية او النظام الجديد ذي الوجه الطائفي الواضح بثنائية مارونية ـ درزية ، وهيمنة مارونية . فالترقي اذا سيكون بالتوجه شطر الغرب ، ولا سبيل الى ذلك الترقي دون المرور في القناة الثقافية لذلك الغرب اي مدارس الارساليات . ذلك كان الحلم الذي راود سكان المتصرفية ، خاصة المسيحيين منهم . وكان فقراء المسيحيين يجهدون النفس لتعليم احد ابنائهم ، اذ لم يكن بمقدورهم تعليم جميع ابنائهم فيها نظرا لحاجتهم المادية الى عمل ابنائهم كي يستمروا على قيد الحياة .

هذا الواقع بالذات يرسم جوانب اساسية من الاطار التاريخي لولادة فيليب حتي ونشأته الاولى ودخوله في مدرسة « السنديانة » في القرية ثم في مدرسة الاميركيين في سوق الغرب حيث يبدأ بالترقي عبر قنوات التغريب ليصبح واحدا من اكثر المؤرخين العرب شهرة عالمية خاصة في ديار الاغتراب الاميركي ، وتنفتح له خزائن المخطوطات العربية فيبوب قسما هاما منها على رفوف مكتبة جامعة برنستون الاميركية التي اقتنت ، بفضل حتي بشكل خاص ، اضخم مكتبة اسلامية وعربية خارج الديار الاسلامية والعربية ، كما جاء في الكراس الذي تكلم عن حياة فيليب حتي .

يبدو هذا الوضع لافتا للنظر في الوهلة الاولى . اذ كيف تسنى لفيليب حتي امتلاك ذلك النفوذ عند الاميركيين بحيث يعتبر ركيزة صلبة للتاريخ بين مرحلتين من مراحل الدراسات الاسلامية والعربية في الولايات المتحدة الاميركية . فقبل فيليب حتي كانت هذه الدراسات شبه معدومة ،ان لم نقل معدومة تماما ، وبعده مئات المتخصصين الاميركيين وغير الاميركيين فيها . وقد تتلمذ على اياديه مئات الطلبة العرب على كافة مراحل التخصص العالي . وساهم شخصيا في حوالي ثلاثماية كتاب وبحث في دوائر المعارف العالمية ، ومقالة ، وتعليقات حول كتب تاريخية وادبية هامة تناولت مبحثا في الاسلام او تاريخ العرب .

ان الطريق التي سلكها حتي الى الشهرة مرت عبر الارسالية الاميركية في سوق الغرب الى الجامعة الاميركية في بيروت ، الى مؤتمرات الطلبة المسيحيين في العالم ، الى جامعة كولومبيا ، وكلها تؤكد على الثقافة المسيحية التي اثرت دون شك في تكوينه الفكري وكتاباته اللاحقة . وقد عمل طويلا في حقل الاهتمام بالطلبة اللبنانيين والسوريين والعرب عموما ثم الطلبة الاجانب في الولايات المتحدة الاميركية . وكان عمله ذاك بدافع من حاجته المادية لكسب لقمة العيش والاستمرار في تحصيل الدراسة الاكاديمية . فكانت له عدة دراسات اعتبرت دليلا يتناول وضع الطلبة الاجانب في الولايات المتحدة ، ومنهم الطلبة العرب .

لكن هذه المرحلة انتهت مع اكمال دراسته الجامعية ونيله الدكتوراه من جامعة كولومبيا ، اذ عاد للتدريس في الجامعة الاميركية في بيروت وكتب عدة ابحاث في المجلات العربية ، خاصة المصرية واللبنانية منها .

وكان عام ١٩٢٦ عاما مميزا في حياته حيث دخل جامعة برنستون برتبة استاذ معيد ولم يلبث ان اصبح فيها استاذا مساعدا في الدراسات السامية عام ١٩٢٩ . ومنح لقب بروفسور ورئيسا لقسم اللغات والاداب الشرقية منذ عام ١٩٤١ حتى تقاعده عام ١٩٥٤ .

ويعتبر حتي عام ١٩٣٥ نقطة تحول أساسية في الدراسات الاسلامية والعربية داخل الولايات المتحدة الاميركية ، وتحديدا في جامعة برنستون ٠ فقد عرض حتي على زملائه مشروعا يقضي بجمع المخطوطات العربية والاسلامية وتعزيز هذا القسم في الجامعة ٠ وكان رأيهم ان المشروع لن يستدر « ورقة طوابع بقيمة قرشين من الادارة الاميركية » استنادا الى تعبير كتاب التكريم ٠ وكانت دهشة حتي كبيرة جدا لكنها اقل من دهشة زملائه الآخرين اذ وافقت ادارة الجامعة على رصد كامل المبلغ المطلوب ذلك العام وهو ٢٥٠٠ دولار كتمويل اول للمشروع ٠ ويبدو ان سبب الدهشة ناتج عن قناعة مغلوطة لدى هؤلاء الاساتذة مردها الى الاهتمام الضعيف الذي توليه الولايات المتحدة الاميركية للشرق الاوسط والعالم الاسلامي ، وهي القناعة التي رسختها تقارير لجنة كينغ ـ كراين لعام ١٩١٩ وعجز الاميركيين عن زحزحة النفوذ الانكلو ـ فرنسي في المنطقة ٠ بيد ان ظروف ١٩٣٥ اي قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بقليل كانت تحمل معها تغييرات جذرية فيالتقرير السياسي والمخططات والمواقف ٠ فكل الدلائل تشير الى عجز الفرنسيين والانكليز عن الاستمرار في السيطرة على الشرق العربي وبالتالي فان انهيار نفوذهما سيكون قريبا وان خطر سقوط هذه المنطقة بيد السوفيات سيكون كبيرا اذا لم تسارع الولايات المتحدة الاميركية لتلعب دور البديل السياسي للانتداب السائر نحو التفكك والزوال ٠

هذا الاطار التاريخي يلقي اضواء كاشفة على الكرم الحاتمي الذي منحته الادارة الاميركية للبروفسور حتي وبرامج التدريب الصيفية التي اعدها في جامعة برنستون تحت رعاية « الجمعية الاميركية لدراسة المجتمعات » ٠ وكان عدد الطلاب يتزايد بشكل هائل ، ومن بينهم اسماء كل السفراء والملحقين السياسيين والثقافيين والعسكريين وغيرهم ٠ وادارة الجيش الاميركية تطبع خمسين الف نسخة من كتاب فيليب حتي « مختصر تاريخ العرب » ٠ وتتكاثر الجمعيات الاميركية المهتمة بشؤون الشرق الادنى بشكل ملحوظ ٠ فمن « اصدقاء الشرق الادنى في اميركا » الى « قسم تدريس العربية والتركية للعسكريين الاميركيين المتخصصين » الى « قسم اللغات والاداب الشرقية » الذي تحول الى « قسم الدراسات الشرقية » الى « برنامج دراسات الشرق الادنى » الى العديد من الاقسام التي تناولت اللغات والمجتمعات التركية والفارسية والصينية الهندية وغيرها ٠

وهذا الواقع الموضوعي يشير بوضوح الى حاجة الاميركيين الملحة الى هذه الدراسات نظرا للدور السياسي والعسكري الاستعماري الموكول اليهم تاريخيا بعد الضعف الشديد الذي انتاب الفرنسيين والانكليز واليابان والايطاليين اي استعماريو المرحلة السابقة واللاحقة على الحرب العالمية الاولى حتى الحرب العالمية الثانية ٠ لكن هزيمة هؤلاء جميعا في هذه الحرب الاخيرة وثبات وتعزز مواقع الاتحاد السوفياتي وقيام المنظومة الاشتراكية جعلت الولايات المتحدة الاميركية تتبوأ دور قطب الصراع الاساسي في الصدام مع كافة حركة التحرر الوطني في العالم وتصبح الدركي العالمي للقمع دون منازع ٠

فالظروف الموضوعية لتلك المخططات كانت تفرض التفتيش عن باحثين متخصصين في شؤون الشرق الادنى والعالم الاسلامي عامة ٠ فكان حتي واحدا من هؤلاء ، لا بل اكثرهم شهرة علمية ٠ فاغدقوا عليه كل النعوت وحفلات التكريم والمواطنية الاميركية والمناصب الاكاديمية تماما كما فعلوا مع الكثيرين غيره من اميركيين وغير اميركيين ٠ ويمكن التأكيد على فقدان العلاقة المباشرة بين الباحث العلمي والمخططات الاستعمارية ٠ لكن من الخطأ القول ان المؤسسات العلمية الاميركية لم تكن على علاقة وثيقة بتلك المخططات

لان دراسات الباحثين تشكل حجر الزاوية في تكوين الاستراتيجية التي تعتمدها تلك الدول • ولنا في دراسات الرحالة الفرنسيين والانكليز ، منذ القرن السادس عشر ، الى المشرق العربي ، خير نموذج على صحة ما نقول •

فالبروفسور حتي استحق هذه المنزلة العلمية المميزة بفضل جهوده وابحاثه العديدة • وهذه الابحاث كتبت اساسا باللغة الانكليزية ، ونشرت في الاوساط الاميركية بشكل خاص، ومهدت الطريق لتأسيس العديد من المؤسسات السياسية ذات الوجه الثقافي لتدريب السفراء والملحقين الاميركيين في الخارج • اي أن الظروف الموضوعية التي دفعت السياسة الاميركية للاهتمام المتزايد بشؤون الشرق الادنى والعالم الاسلامي افسحت المجال امام البروفسور حتي كي ينال هذه الشهرة العالمية الفائقة • وكانت أبحاثه ، وسعة اطلاعه وعمق تحليلاته ، ووفرة طلابه ومعارفه تلعب الدور الاساسي في ترسيخ تلك الشهرة وديمومتها زمنا طويلا حتى ارتبطت باسمه مؤسسات ثقافية اميركية هامة لدراسة الشرق الادنى والعالمين العربي والاسلامي • وما يؤكد وجهة تحليلنا هذه ان مركز الدراسات الشرقية التابع لجامعة برنستون الذي اسسه ورعاه فيليب حتي فترة طويلة من الزمن وجعله واحدا من اهم المراكز لدراسة التاريخ العربي والاسلامي في الغرب، تعرض لهجمات المنظمات الصهيونية الاميركية التي استطاعت اخيرا السيطرة عليه بعد تقاعد فيليب حتي عام ١٩٥٤ • مما يثبت جدلية النفع المتبادل بين مراكز الابحاث العلمية ومراكز القوى السياسية التي تسيطر عليها •

المنشأة الاولى : فيليب حتي بقلمه

في العشرين من تشرين الثاني ١٩٥٤ ، اقام نادي الخريجين في جامعة برنستون حفلة كبيرة على شرف البروفسور فيليب حتي لمناسبة تقاعده من رئاسة قسم الدراسات العربية والاسلامية في جامعة برنستون • وقد أقيمت الحفلة في « تاون هول » في نيويورك سيتي وكان بين المتحدثين الدكتور شارل مالك الذي ركز على جوانب اربعة في حياة حتي : نشاطه الطلابي ، مرحلة التعليم الاكاديمي في الجامعة الاميركية في بيروت ثم في برنستون ، الدراسات العربية والاسلامية الخاصة بالشرق الادنى ، اهتمامه المميز بالقضايا اللبنانية• ان رحلة فيليب حتي الزمنية هي رحلة الولد الفقير في قرية لبنانية صغيرة وصولا الى رئاسة واحد من أبرز المنابر الاكاديمية العالمية ، وفي اوج مجده الثقافي وشهرته العالمية لم ينس فيليب حتي شيئا من ذكريات طفولته القاسية بل فاخر بها في حفلة تكريمه بالذات ، مشيدا بالدور البطولي لابيه وأمه وشقيقه الذين كدحوا طويلا في سبيل تنشئته • كما لم ينس صراعه المرير مع الفقر ولقمة العيش داخل الولايات المتحدة الاميركية بل فاخر بها في حفلة تكريمه ايضا • فقد عمل حارسا ليليا وموظفا في دائرة التسجيل يوم كان على ابواب التخرج الجامعي برتبة دكتور في الدراسات الاسلامية •كما لم ينس فيليب حتي موطنه لبنان وقضاياه العربية ، خاصة القضية الفلسطينية ، بل دافع عنها بنشاط في أكبر المحافل الدولية وداخل الولايات المتحدة الاميركية نفسها حيث تتمتع المنظمات الصهيونية بقدرة هائلة على التصفية الجسدية والحرمان من المناصب • لكن فيليب حتي لم يبال بل اندفع يرد على دعاوى الصهيونية بحقها في اقامة وطن قومي في فلسطين• وكان دفاعه صلبا مما يقتضي بالضرورة افراد بحث ، لا بل ابحاث خاصة لابراز هذا الجانب الهام من نشاط فيليب حتي التاريخي والسياسي • في حفل التكريم تكلم فيليب حتي مطولا عن جوانب حياته المديدة نحاول ان نقدم عرضا مكثفا لهذه الكلمة النابعة من

القلب . يقول حتي : « ان من بين الذين ادين لهم في نجاحي بشكل خاص هما أبي وأمي، هذان القرويان اللبنانيان الساذجان والعفويان . واشير هنا الى أمي ، تلك المرأة التي لا تحسن القراءة والكتابة ولا الكلام بلغة أجنبية ، لكنها تتكلم لغة بسيطة يفهمها كل الناس . كانت تكلمنا لغة الحب . هذه الام القديسة التي تتمنى الخير للجميع ولا تطلب السوء حتى لاعدائها ، كانت تقوم بتدبير اعمالها البيتية من الفجر حتى وقت متأخر من الليل لتعيل ستة صبية وابنتين ، وتوفر من راتب زوجها الضئيل ما تدفع به قسطا دراسيا لابنها الذي يتعلم في المدرسة الاميركية المجاورة في سوق الغرب . تلك المرأة الفقيرة والاب الضئيل الراتب كانا يجهدان نفسيهما لدرجة الاختناق كي يرسلا ولدهما الى مدرسة لم يدخلها احد من ابناء القرية (شملان) حتى ذلك الحين . وكان الاخ الاكبر من الصبية الستة يعمل مساعد نجار ، يحمل عدته على كتفيه متنقلا من قرية الى قرية كي يساهم أيضا في تعليم أخيه . كان ذلك الاخ يحمل عدته ويضيف اليها عدة معلمه من القرية المجاورة ويتنقل بحمله اليومي الثقيل بين قرى عاليه ويحمدون وصوفر على قدميه ليبني أو يرمم سطوح القرميد لمنازل البيروتيين الاثرياء . فكان هؤلاء يتنعمون في فراشهم الوثير حينما يعود اخي في المساء الى البيت كي ينام على لوح خشبي جعل منه فراشا املس . تلك الذكريات لا زالت تعصف برأسي حتى اليوم .. واذكر هنا حادثة كان لها تأثير كبير على مجرى حياتي كلها . ففي ذات يوم كسر ذراعي كسرا مزدوجا استعصت معالجته على « المجبرين » في شملان والقرى المجاورة لها .

وبدأ مرض « الغرغرينا » يدب في ذراعي واتحمل منه الالام المبرحة وانا الولد الطري العود . واذا بشاب جامعي من مدرسة الطب التابعة للجامعة الاميركية يعلم بالقصة ويزورني في المنزل ينصح بنقلي حالا الى الجامعة الاميركية حيث أجريت لي على الفور عمليتان جراحيتان ساعدتا في انقاذ ذراعي وحياتي معا . فقد كان كسر ذراعي سببا في ادخالي الى المركز الاميركي للتعليم . وكانت بنيتي الجسدية الضعيفة تؤكد لدى الجميع ، خاصة اهلي ، ان لا بد من مهنة اكسب بها عيشي وان هذه المهنة ستكون بالضرورة فكرية لا يدوية .

وذكريات المدرسة القروية الاولى ماثلة في ذهني لانها تختلف تماما عن اية مدرسة يمكن للغربي أن يتصورها بخياله . انها مدرسة لا جدران لها بل سقف من اغصان شجرة سنديان ذات وقار وشيخوخة لا تزال شاهدا حيا حتى الآن . وكانت المقاعد حجرية . والهيئة التعليمية ليست سوى راهب متشح بالسواد ، ومخيف المنظر . كان يؤمن بقول لا ينفك يردده « انك تفسد الاولاد عندما تترك العصا جانبا . » وكان عالما بتحديد الوقت من خلال رصده الدائم لظلال اغصان السنديانة . وتنتهي الدراسة عندما يصبح بمقدور الطالب قراءة المزامير بالعربية او السريانية اذ لا يبقى له مكان في « المدرسة » ولا مواد اخرى يدرسها ... وكان ان دخلت مدرسة سوق الغرب الاميركية حيث تعلمت الانكليزية والفرنسية ... وفي ذات يوم من ايام الصيف دخلت مكتب مدير المدرسة الذي كان قد أرسلني للتدريب في قرية درزية مجاورة على امل توفير خمس ليرات فرنسيه تساعد اهلي على ادخالي الى الجامعة الاميركية في بيروت . حينئذ كان القسط المدرسي كله لا يزيد على ثمانية عشر ليرة فرنسية تشمل المأكل والمنامة والتدريس .

استقبلني المدير مرحبا بالمدرس الذي لا يتجاوز عمره الرابعة عشرة وراتبه الشهري ليرة فرنسية واحدة . وكانت لحظة تاريخية لا انساها مدى الحياة . فقد واجهت المدير بالحقيقة المرة : « لم استطع توفير اكثر من اربع ليرات فرنسية طيلة العام » . نظر الي

المدير ، السيد هاردن ، نظرة طويلة ودون ان ينبث ببنت شفة اخرج ليرة من جيبه واضافها الى ليراتي الاربعة وربت على كتفي قائلا : رافقتك السلامة ·

ومرت الاعوام وانا ادرس في الجامعة الاميركية في بيروت · وفي أحد أيام آب المحرقة اجتمعت بالرئيس بليس في مقره الصيفي في قريتنا ، شملان الساحرة · فابلغني انني رشحت من قبل الجامعة لالقاء محاضرة في مؤتمر الجمعية العالمية للطلاب المسيحيين في صيف ١٩١٣ في ولاية نيويورك · وأبلغني ايضا أن بامكاني متابعة دراستي الجامعية العليا في احدى جامعات اميركا مشيرا الى ان الجامعة ستستمر بدفع راتبي الشهري ثلاث ليرات تضاف اليها بعض النفقات وان الجمعية ستتكفل بنفقات السفر ·

لم أصدق ما سمعته أذناي ، فهل اكون أول جامعي من الناطقين بالعربية يكمل دراسته العليا في جامعات الولايات المتحدة الاميركية ؟ لكن الصعوبة التي واجهتني انني أساعد اخوتي على تحصيل دراستهم الجامعية · ولحسن الحظ ان واحدا اكبر مني ، واثنين آخرين دوني سنا قد اكملوا دراستهم · والاكبر مارس التدريس في المدرسة الاميركية في سوق الغرب ، والاثنان الصغيران باتا الان طبيبا ومهندسا في بيروت ·

·· ومضت رحلة الدراسة اشواطا طويلة في جامعة كولومبيا · وكان علي ممارسة العمل نظرا لضآلة الراتب · فكنت أعمل حارسا لغرفة الجرائد اليومية فيمكتبة الجامعة وموظفا في دائرة التسجيل فيها · وفي ذات يوم تعرفت على صبية من وتربري في ولاية كونكتيكت جاءت تتسجل في المدرسة الصيفية التابعة للجامعة · وكانت تلك الصبية برفقة صديقة لي · وسرعان ما تعارفنا واصبحت شريكة حياتي والسند المتين لي خلال سنوات الدراسة الصعبة في كولومبيا والما مارتر Alma Marter واخيرا في جامعة برنستون · ثم مارست التدريس في برنستون بعد سنوات من التدريس في الجامعة الاميركية في بيروت·

وفي صيف ١٩٣٥ قررنا وضع برنامج لتدريس اللغة العربية والتعريف بالدراسات الاسلامية · وكان احد الاساتذة يشك بقدرتنا على تحصيل طابع بريدي بقيمة قرشين يرصد من أجل تنفيذ المشروع · لكن اول اجتماع برئيس الجامعة اثمر عن ٢٥٠٠ دولارا صرفت باسم الجمعية الاميركية للتعريف بالمجتمعات · ونشطت الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الاميركية وتكاثر عدد خريجيها وطلابها · واغتنت مكتباتها بمئات المخطوطات والوثائق النادرة والدراسات العلمية ·

فاليكم يا زملائي الخريجين ، اليكم يا ابناء العروبة المقيمين في اميركا او في الوطن الام عبر البحار ، الى صحفنا العربية التي افسحت لي صدر صفحاتها لاكتب واناقش وانا مدين لها بكل ما قدمته من أجلي ، اليكم جميعا جزيل شكري وامتناني » ·

مكانته العلمية ونشاطاته الاكاديمية

بدأت شهرة فيليب حتي مع ترجمته الى الانكليزية وشروحه لكتاب « فتوح البلدان » للبلاذري · ثم لكتاب « الاعتبار » لاسامة بن منقذ ، ودراسته عن « الدروز » · وهذه الاعمال لا زالت تعتبر من الركائز الاساسية لدراسة هذه الموضوعات في الولايات المتحدة الاميركية · لكن كتابه « تاريخ العرب » الذي صدر عام ١٩٣٧ وطبع عدة طبعات وترجم الى اللغات الفرنسية والعربية والاردنية والاسبانية والهولندية وغيرها كان في اساس الشهرة العالمية التي احتفظ بها حتي · كذلك كتاب « تاريخ سوريا ويشمل تاريخ لبنان وفلسطين »

الصادر عام ١٩٥١ · وبدأ حتي باعداد كتاب « الشرق الاوسط في التاريخ » · منذ تلك الفترة · ويعتبر اصدار حتي لكتاب « لبنان في التاريخ » عام ١٩٥٧ تحولا واضحا في المنحى العام الذي اختاره في البداية اي الكتابة الشمولية عن المشرق العربي بشكل خاص ، وتاريخ العرب بشكل عام ، بالاضافة الى العديد من الدراسات الاسلامية · ويعتبر الكتاب اضعف الحلقات في سلسلة حتي التاريخية · هذه المؤلفات الهامة ساعدت حتي على تبوء مكانة علمية مرموقة في الولايات المتحدة الاميركية وخارجها · فقد كان عضو اللجنة الثقافية لمعهد الشرق والغرب التابع للجمعية اللبنانية والسورية في الولايات الشرقية الاميركية · كما ترأس جمعية أبحاث الشرق الادنى التابعة للجمعية الاميركية لدراسة المجتمعات الاخرى · وترأس ايضا المركز الاميركي لنشاطات الشرق الادنى · وكان عضوا مؤسسا لجمعية الاميركيين اصدقاء الشرق الادنى ·

وكان حتي سكرتيرا لجمعية الاميركيين الجغرافيين ، وعضوا في مجمع اللغات في اميركا ، وعضوا في الجمعية التاريخية الاميركية ، وعضوا في الجمعية الشرقية الاميركية ثم رئيسا لها ، وعضوا في الجمعية الاميركية للدراسات الاكاديمية عن القرون الوسطى . وعضوا مشاركا في جمعيات المدارس الاميركية المتخصصة بأبحاث الشرق الاوسط ، وعضوا في لجنة توزيع المنح لدراسة الشرق الاوسط ، وعضوا في مجلس امناء الجامعة الاميركية في بيروت ، وفي مجلس أمناء الكلية الاميركية في سوق الغرب ·

يضاف الى ذلك ان فيليب حتي كان عضوا في المجمع العلمي العربي في دمشق ، وعضو جمعية الابحاث الاسلامية في بومباي ، وعضو شرف في الجمعية الثقافية الهندية — العربية في بومباي ، وعضو دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد · وقد ساهم حتي كذلك بالقاموس العالمي المشهور « ويبسترز » الجديد ، كما كان مشرفا على مجلة جامعة برنستون المتخصصة بشؤون الشرق الاوسط التي أصدرت ١٨مجلدا حول الدراسات الاسلامية والعربية وغيرها ·وكان مساعدا في الاشراف على دائرة المعارف البريطانية ، ودائرة المعارف المتخصصة بالعلوم الاجتماعية ، ودائرة المعارف الاميركية ، ودائرة المعارف المتخصصة بالعلوم الاجتماعية المجردة · كما كان مستشارا في مجلة « المختار » ومشرفا على اصدار « المجلة العربية » · وقد حاضر فيليب حتي في جامعة برنستون ، وجامعات سان باولو ، والجامعة الاميركية في بيروت والعديد من الجامعات الاخرى ، وحضر مؤتمرات تاريخية كثيرة ·

وخلال سنوات ١٩٤٤ — ١٩٤٥ عمل مستشارا للوفد العراقي وغيره من الوفود العربية في سان فرنسيسكو · كما طلب للشهادة امام اللجنة الخارجية التابعة لمجلس النواب الاميركي حول القضية الفلسطينية وقدم ادلة قاطعة حول بطلان المزاعم الصهيونية في فلسطين · وخلال اقامته في برنستون استضاف حتي العديد من الملوك والرؤساء في الشرق الاوسط خاصة الملك سعود آل سعود ، والامير فيصل آل سعود ، والشاه رضا بهلوي ، والامير عبد الاله ولي عهد العراق ، والامبراطور هيلا سيلاسي وغيرهم ·

وقد نال وسام الاستحقاق اللبناني ووسام الارز من رتبة فارس ، ووسام الاستحقاق السوري من الدرجة الاولى « اعترافا من الحكومة السورية ومؤسساتها العلمية باسهامه العظيم في تطوير البحث العلمي حول دراسات التاريخ العربي عامة ، والسوري خاصة» ونال كذلك مدالية الدكتور هيوارد بلس ، وهي اعلى مدالية تمنحها الجامعة الاميركية في بيروت · ومنحته الحكومة اللبنانية وسام الارز · وكان العربي الوحيد الذي تسجل اسمه في المعرض العالمي في نيويورك للاميركيين والاميركيين المولودين من أصل غير اميركي

« نظرا لدوره المميز في تطوير المجتمع الاميركي الديمقراطي » · وقد نال حتـــي جوائـز واوسمة عديدة من مؤسسات ثقافية في مختلف انحاء العالم ·

بقي ان نقول ان مكانة حتي العلمية وجدت ركائزهـــــا في البحث العلمي الهـــادىء والدراسات العديدة التي نشرها او حققها · وكانت معرفته لعدة لغات ركيزة اساسية فـي اتساع أفق دراساته الرصينة · فقد كان يتقن الانكليزية والفرنسية والالمانية والايطاليـــة بالاضافة الى العربية · وكان يتقن لغات قديمة أيضا منها البابلية والاشورية والسريانيـة والعبرية · وقد استمر حتى آخر حياته في العطاءالعلمي الجاد فكان آخر كتبه « المعارك الحاسمة في التاريخ العربي » ، صدر بالانكليزية عام ١٩٧٥ عندما كان حتي يقـــارب التسعين من عمره ·

بعض الملاحظـــات

يعتبر فيليب حتي واحدا من كبار مؤرخي هذه الحقبة التي تمتد على الربع الثاني مـن القرن العشرين · فقد نال شهرة عربية وعالمية مكنته من المساهمة الفكرية في العديد من دوائر المعارف العالمية وتخرج على يديه عدد كبير من المؤرخين العرب ومن شتى ارجـاء العالم · لذا لا بد من التأكيد في هذا المجال ان محاولة تقليص ظل فيليب حتي الثقافي الى حدود مرضى الوهم من الطائفيين اللبنانيين ستكون تشويها اكيدا لكامل تراثـه الكبير · فالجانب اللبناني لم يشمل سوى مساحة ضيقة جدا من اهتمامات فيليب حتي قياسا الـى الحجم الضخم لدراساته العربية والاسلامية · وفي اعتقادنا ان « لبنانيـــات » البروفسور حتي هي الجانب الشديد الهزال في حجم تراثه التاريخي وهو الجانب الذي ارتكــز الـى اسقاطات كثيرة حاولت عزل تاريخ لبنان عن محيطه العربي الواسع · ودراسات فيليـب حتي الاخرى ، خاصة كتابه المترجم بعنوان « تاريخ العرب المطول » ، وكتابه الاخر المترجم بعنوان « تاريخ سوريا ويشمل لبنان وفلسطين » يقدمان ردا مباشرا على تلك الاسقاطات ، ويقلم فيليب حتي بالذات · ولا يتسع المجال هنا لدراسة هذا الجانب اللبناني في تراث فيليب حتي التاريخي (ولنا عودة اكيدة اليه) بل نود انصاف البروفسور حتي واخراجه من دائرة القوقعة اللبنانية التي فرضت على مؤلفاته ودراساته العربية والاسلامية · ولعل نظرة تحليلية لعناوين الدراسات التي قام بها حتي او تلك التي قدم لها او عرضها ونقدها، تشير بوضوح الى سخف الدعوة الرامية الى اظهار فيليب حتي « المؤرخ اللبناني » كبديل لفيليب حتي « المؤرخ العربي » والباحث المتعمق في الدراسات الاسلامية ·

فهذا الفيض من الدراسات العربية والاسلامية يؤكد بطلان مثل تلك الاسقاطات دون ان ينفي الجانب اللبناني لديه · لكن هذا الجانب ، اذا ما طغى على الجوانب الاخرى ، واذا لم يوضع في اطاره التاريخي الذي كتب خلاله ، فان شخصية حتي العربية يتضاءل ظلهـا كثيرا ويتقزم المؤرخ الكبير الى احدى شخصيات مي المر او سعيد عقل او بطرس ضـو وغيـرهـم ·

ان تراث فيليب حتي التاريخي يضعه في عداد كبار المؤرخين العرب في النصف الاول من هذا القرن · وشخصية هذا المؤرخ شديدة الصلة بالواقع الموضوعي الذي عاشت فيه حيث طغت ثقافته الاميركية وتنشئته المسيحية وارتباطه الوثيق بالمراكز الثقافية الاميركية ذات النفوذ · فبقدر ما أفسح الاميركيون امام حتي للظهور عالميا ، بقدر ما استفادوا من كتاباته في اطار مشاريعهم السياسية في العالم العربي والشرق الادنى وكانت له منزلـــة

خاصة بين الاميركيين المتحدرين من أصل غير أميركي ، كما كان عميد الاميركيين المستعربين والمهتمين بالدراسات الاسلامية ٠

ويعتبر فيليب حتي احد الرواد الاوائل لجيل الاساتذة العرب الذين تعلموا في الجامعات الاميركية ثم عادوا للاستقرار في الولايات المتحدة والتدريس في جامعاتها ونالوا الجنسية الاميركية دون ان يفقدوا صلاتهم الوثيقة ببلدانهم وقضاياهم العربية ٠ فقد ساهم حتي وغيره من هؤلاء الاساتذة في التعريف بالمشاكل العربية وطرح وجهة نظر علمية حولها في الجامعات والاوساط السياسية والثقافية والشعبية وكتبوا العديد من المقالات العلمية ، وعقدوا الندوات والمؤتمرات تعريفا بالثقافة العربية واهتماماتها القديمة والحديثة والمعاصرة ، دون ان يغيب عن بالنا الحيز الضيق لنتائج هذه الاعمال بسبب النفوذ الصهيوني داخل الولايات المتحدة الاميركية ٠

كما ان دراسات فيليب حتي العربية ودفاعه الصلب عن القضية الفلسطينية في وجه الاطماع الصهيونية اكسبته مكانة خاصة لدى الحكام والشعوب العربية خاصة وان ذلك الدفاع يأتي داخل الولايات المتحدة الاميركية نفسها حيث للصهيونية العالمية بالغ القوة والنفوذ ٠ وقد كتب البروفسور حتي سلسلة من المقالات ردا على زميله في جامعة برنستون العلامة المشهور انشتاين الذي انبرى للدفاع عن حق الصهاينة فيفلسطين ٠ وفند حتي حجج انشتاين واحدة واحدة مختتما مقالاته بالقول : « ان انشتاين يعرف عن القضية الفلسطينية بقدر ما اعرف انا عن علم الذرة » ٠ لذا لا بد من جمع مقالات حتي وتبويبها ودراستها في كافة جوانبها خاصة الفلسطينية منها ٠

ونشير هنا الى شهادة صادقة قالها الدكتور قسطنطين زريق في ذكرى استاذه فيليب حتي (جريدة « النهار » بتاريخ ١٩٧٨/١٢/٢٩) : « لقد تميز حتي بوضوح التفكير وسلامة التعبير ، فكانت له المحاضرات والخطب في المحافل الدولية العلمية والادبية . انصب اكثرها على مآثر الحضارة العربية حتى قيل فيه انه اكثر من اي شخص آخر استطاع ان يعرف الاميركيين بعمق الاثر العربي فياوروبا ٠٠٠

وقبل ان يبدأ الاعلام العربي فياميركا ، كان الدكتور حتي في الثلاثينات والاربعينات في مقدمة المدافعين عن القضايا العربية ، وعن الحق العربي في فلسطين ٠ وكثيرا ما صارع الاساتذة الصهيونيين ونقض دعاواتهم بالحجج التاريخية ، وتحمل من اذاهم ما لا يعرفه الا المقربون اليه ٠ وصوب الصهيونيون هجماتهم على المركز الذي انشاه في برنستون للدراسات العربية ٠ ولكنهم لم يستطيعوا ان ينالوا منه مأخذا خلال ولايته ، ثم نجحوا ـ مع الاسف ـ في التسرب اليه بعد أن تخلى عنه » ٠

وحتى آخر لقاء صحافي معه (راجع ملحق النهار العربي والدولي الصادر في ٢٢ كانون الثاني ١٩٧٩ ـ ص ٦٢) ٠ كان الهم الفلسطيني يرافق فيليب حتي طيلة ايام حياته ٠ فهناك قناعة راسخة لدى هذا المؤرخ ان اسرائيل زائلة حتما و « ان هؤلاء الصهاينة ستبتلعهم الصحراء » تبعا لعبارة شارل ديغول ٠ واذا كانت الظروف الموضوعية قد حالت الان امام دراستنا لهذا الجانب الهام من شخصية حتي ، اذ لم نستطع بعد جمع الدراسات الفلسطينية التي كتبها فاننا نحدس موقفا قوميا عربيا صلبا لفيليب حتي دفاعا عن قضية فلسطين وحق شعبها في العودة وتقرير المصير ٠ يدلنا على ذلك رفضه وتفنيده للمزاعم الصهيونية بحقهم في فلسطين وذلك داخل الولايات المتحدة الاميركية نفسها ٠ وفي اللقاء الصحافي الاخير معه لا ينسى حتي ان يكرر هذه العبارة « اسرائيل كدولة

الصليبيين » معللا التشبيه بالقول : « تذكرني اسرائيل بفترة الصليبيين الذين اسسوا مملكتهم في القدس عام ١٠٩٩ والذين سيطروا على الساحل الشرقي للبحر المتوسط حتى عام ١١٨٨ عندما وحد صلاح الدين مصر وسوريا وتغلب عليهم في معركة حطين · مملكة القدس آنذاك تذكرني باسرائيل اليوم » · تلك هي عبرة التاريخ التي يراها حتي ماثلة امام عينيه · فعاجلا ام آجلا ستزول اسرائيل تحت ضربات حركة التحرر الوطنية العربيــة وقواهـا الاكثر جذرية ·

نخلص من كل ذلك الى وجود جوانب عديدة بحاجة الى الدراسة والتحليل في كتابات حتي التاريخية · ولعل هذا الثبت الملحق بالبحث يوضح اهم الدراسات والمقالات العلمية التي كتبها في مجالات متنوعة حتى يتم جمعها ودراستها بعمق وشمولية · لكننا نشير الى ان هذا الثبت لا يطال سوى المرحلة الزمنية التي تنتهي بتقاعد فيليب حتي من رئاسة قسم « دراسات الشرق الادنى » في جامعة برنستون عام ١٩٥٤ ، وهي بحاجة الى استكمال حتى وفاته عام ١٩٧٨ ·

فيليب حتي في سطور

ـ ولد في ٢٤ حزيران ١٨٨٦ في قرية شملان ، قرب سوق الغرب ، التابعة آنـذاك لمتصرفية جبل لبنان او لبنان الصغير ·

ـ والده اسكندر حتي ووالدته سعدى نوفل ·

ـ درس علومه الابتدائية في مدرسة « تحت السنديانة » في قريته شملان على يد المعلم جرجس صفير ·

ـ اكمل دراسته الثانوية في مدرسة سوق الغرب التي كانت تسمى « المدرسة الاميركية العالية في سوق الغرب » حيث امضى فيها ثلاث سنوات ١٩٠٣ ـ ١٩٠٦ ·

ـ نال شهادة بكالوريوس في الآداب B. A. برتبة الشرف الاولى من الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٠٨ ودرس التاريخ فيها حتى عام ١٩١٣ ·

ـ ارسلته الجامعة الاميركية في بيروت كمندوب عنها الى مؤتمر « جمعيــة الطلبــة المسيحيين في العالم » الذي عقد في اسطمبول عام ١٩١٠ ·

ـ عام ١٩١٣ ذهب الى الولايات المتحدة الاميركية مندوبا عن الجامعة الاميركية فـي مؤتمر الجمعية نفسها التي عقدت مهرجانها الثامن في موهونك في نيويورك ·

ـ بدأ دراسته الاكاديمية في جامعة كولومبيا بدعم من الجامعة الاميركية في بيـروت وجمعية الطلبة المسيحيين في العالم بالاضافة الى عمله كحارس ليلي لغرفة الجرائد فـي الجامعة وموظف في دائرة التسجيل فيها ·

ـ تخرج من جامعة كولومبيا بدرجة دكتور في الفلسفة عام ١٩١٦ بعد ان ترجم القسـم الاول من كتاب « فتوح البلدان » للبلاذري ، وضبط حواشيه وعلق عليه ·

ـ بقي في جامعة كولومبيا برتبة محاضر في قسم اللغات الشرقية حتى عام ١٩٢٠ حيث نال الجنسية الاميركية في السنة ذاتها ·

– في عام ١٩١٦ تراس الجمعية التربوية السورية كما تراس نادي مدينة نيويورك للتنسيق بين المعاهد ٠

– في ٢٢ ايار ١٩١٨ تزوج من ماري جورج من مدينة وتربري في ولاية كونكتيكوت ورزق منها ابنة وحيدة هي فيولا ٠

– في عام ١٩٢٠ عاد الى الجامعة الاميركية في بيروت حيث درس التاريخ الشرقي ٠
– بين اعوام ١٩٢١ – ١٩٢٤ كان عضوا في مجلس ادارة المدرسة الوطنية في بيروت وعضوا في الجمعية الادارية لشؤون الشرق الادنى خاصة سوريا ولبنان ٠

– في عام ١٩٢٦ حصل على دعوة ليحاضر في جامعة برنستون ولم يلبث ان اصبح استاذا مساعدا فيها عام ١٩٢٩ متخصصا بالدراسات السامية ٠

– في عام ١٩٢٥ حتى ١٩٢٨ ثم ١٩٤١ اشرف على دورات تدريب باللغة العربية واللغة التركية حول شؤون الشرق الادنى ٠

– في عام ١٩٤١ اصبح رئيسا لقسم اللغات والآداب الشرقية الذي تحول الى قسم الدراسات الشرقية في جامعة برنستون ٠ واستمر في رئاسة هذا القسم حتى تقاعده عام ١٩٥٤ ٠

– حاضر في العديد من الجامعات العالمية وشارك في كثير من المؤتمرات التاريخية ٠

– توفي في ٢٤ كانون الاول ١٩٧٨ في الولايات المتحدة الاميركية ٠

اهم الكتب والدراسات التي نشرها تبعا لتسلسلها التاريخي ٠

١ – الكتب والتحقيقات

– « **انطانيوس البشعلاني اول مهاجر سوري الى العالم الجديد** » ، نيويورك ، المطبعة السورية الاميركية ١٩١٦ ٠

– « **جذور الدولة الاسلامية** » ٠ ترجمة كتاب فتوح البلدان للبلاذري ، نيويورك منشورات جامعة كولومبيا ، ١٩١٦ ٠

– « **التهذيب العصري** » ، بوسطن ، المطبعة السورية ، ١٩١٦ ٠

– « **الدليل التربوي للطلبة السوريين في الولايات المتحدة الاميركية** » ، نيويورك ، المطبعة السورية – الاميركية ، ١٩٢١ ٠

– « **دليل الطلبة الاجانب في الولايات المتحدة الاميركية** » ، نيويورك ، المعهد الدولي للتربية ، ١٩٢١ ٠

– « **السوريون في الولايات المتحدة الاميركية** » القاهرة ، مطبعة المقتطف ، ١٩٢٢ ٠

– « **اميركا في نظر شرقي او ثماني سنوات في الولايات المتحدة الاميركية** » القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٢٤ ٠

– تحقيق ونشر كتاب « **مختصر كتاب الفرق بين الفرق** » لابي منصور البغدادي تبعا لمخطوطة عبد الرزاق ابن حلف الرسيقي ، الهلال ، القاهرة ، ١٩٢٤ ٠

ـ « **السوريون في اميركا** » نيويورك ، مطبعة دوران ، ١٩٢٤ ٠

ـ « **سوريا والسوريون من نافذة التاريخ** » نيويورك ، المطبعة السورية ـ الاميركية ، ١٩٢٦ ٠

ـ تحقيق ونشر كتاب « **نظم العقيان في اعيان الاعيان** » ٠ لجلال الدين السيوطي ـ نيويورك ، المطبعة السورية ـ الاميركية ، ١٩٢٧ ٠

ـ « **اصول الدروز وعقيدتهم الدينية ، مع مقتطفات من كتاباتهم المقدسة** » نيويورك ، منشورات جامعة كولومبيا ، ١٩٢٨ ٠

ـ « **قائد ومحارب سوري زمن الصليبيين : مذكرات اسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار** »٠ نيويورك ، منشورات جامعة كولومبيا ١٩٢٩ ٠

ـ تحقيق ونشر « **كتاب الاعتبار** » لاسامة بن منقذ ، برنستون ، منشورات جامعة برنستون ، ١٩٣٠ ٠

ـ « **تاريخ العرب** » لندن ، مطبعة ماكميلان ، ١٩٢٨ ٠

ـ « **تبويب ووصف لمجموعة غاريت Garrett عن المخطوطات العربية في مكتبة جامعة برنستون** » ٠ بالاشتراك مع نبيه امين فارس وبطرس عبد الملك ، منشورات جامعة برنستون ، ١٩٢٨ ٠

ـ « **تبويب ووصف لمجموعة غاريت عن المخطوطات الفارسية والتركية** » ـ بالاشتراك مع محمد موغادم ويحيى ارمجاني ، منشورات جامعة برنستون ، ١٩٢٨ ٠

ـ « **مختصر تاريخ العرب** » قام بالاختصار المكثف بيرون داكستر ، منشورات جامعة برنستون ، ١٩٤٣ ٠

ـ « **تاريخ الشعب الاميركي** » لفرحات زيادة وابراهيم فريجي ـ باشراف فيليب حتي ، برنستون ، ١٩٤٦ ٠

ـ « **مؤتمر التحضير للدروس العربية لتدريب الفرق العسكرية الاميركية المتخصصة** » ، برنامج عامي ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ ـ برنستون ، ١٩٤٨ ، باشراف فيليب حتي ٠

ـ « **تاريخ سوريا ويشمل تاريخ لبنان وفلسطين** » لندن ، ماكميلان ، ١٩٥١ ٠

ـ « **لبنان في التاريخ منذ القرون الاولى حتى اليوم** » لندن ، ماكميلان ، ١٩٥٧ ٠ ترجم الى العربية ثم اعيدت طباعته بعنوان « **تاريخ لبنان منذ اقدم العصور حتى اليوم** » ، دار الثقافة ـ بيروت ، ١٩٧٢ ٠

ـ « **مختصر تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين** » لندن ، ماكميلان ، ١٩٥٩ ٠

وبعد تقاعده صدرت له عدة مؤلفات ابرزها « **الشرق الادنى في التاريخ** » و « **الاسلام والغرب** » و « **الاسلام منهج حياة** » و « **صانعو التاريخ العربي** » وكلها نقلت الى اللغة العربية ٠ وفي اواخر ايام حياته كان لا يزال منكبا على تاليف كتاب حول « **النساء العربيات الشهيرات** » ٠ فكان حتي واحدا من اكثر المؤرخين العرب المعاصرين نشاطا في مجال البحث التاريخي ٠

ب ـ المقالات والابحاث

ـ « حياة صلاح الدين استنادا الى تاريخ ابي الفداء » بيروت ، مجلة الكلية ، ١٩١٠ ٠

ـ « سمات الطلاب السوريين » لندن ، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لجمعية الطلبة المسيحيين ، ١٩١١ ٠

ـ « مؤتمر جمعية الطلبة المسيحيين في العالم » بيروت ، مجلة الكلية ، ١٩١١ ٠

ـ « صديقة للسوريين ـ كتاب يتضمن تاريخ حياة فقيدة العلم والادب والمروءة الانسة ايفي ستيوارت هاردن » بيروت ، مطبعة صبرا ، ١٩١١ ٠

ـ « اصدقاء ميرتل » ملجة الكلية ، ١٩١٢ ٠

ـ « الامة الدستورية » بيروت ، مدرسة التهذيب ، ١٩١٣ ٠

ـ « استعمار السوريين بين العهدين » ، المقتطف ، ١٩١٧ ٠

ـ « مهاجرة السوريين واستعمارهم : العهد الفينيقي والعهد الحاضر » ، نيويورك ١٩١٩ ، المطبعة السورية ـ الاميركية ٠

ـ « الوضع التربوي في السلطنة العثمانية » ، مجلة الطالب العالمي ، ١٩١٨ ٠

ـ « المسألة السورية » ، مجلة عالم القضاء ، ١٩١٨ ٠

ـ « وضع سوريا » ، جريدة نيويورك تايمز ، شباط ١٩١٩ ٠

ـ « تجار جنوى السوريون في القرن الثاني عشر » ، في المجلة التجارية السورية الاميركية ، ١٩١٩ ٠

ـ « السوري كمهاجر وتاجر » ، المجلة التجارية السورية الاميركية ، ١٩٢٠ ٠

« تعليل المهاجرة السورية الحديثة ومميزاتها » ، المجلة التجارية السورية الاميركية ، ١٩٢٠ ٠

ـ « بين نظامين » ، مجلة المعارف ، تشرين الثاني ١٩٢١ ٠

ـ « حاجة سوريا لشبابها » ، مجلة المرأة الجديدة ، تشرين الثاني وكانون الاول١٩٢١٠

ـ « جمعية الشبان المسيحيين وأعمالها في الولايات المتحدة » ، مجلة النشرة اليسوعية، تشرين اول ١٩٢١ ٠

ـ «المرأة الاميركية والمرأة السورية » ، مجلة المورد الصافي ، نيسان ١٩٢١ ٠

ـ « مسؤوليتنا الجديدة » ، مجلة الكلية ، تشرين الثاني ، ١٩٢١ ٠

ـ « الطلبة الشرقيون في اميركا » ، مجلة الكلية ، ايار ، ١٩٢١ ٠

ـ « الصهيونية » ، مجلة الفتاة ، ١٩٢١ ٠

ـ « التهذيب العصري » ، مجلة الكلية ، كانون الاول ١٩٢١ ٠

– « البهائية في الولايات المتحدة » مجلة الكلية ، كانون الثاني ١٩٢٢ ·

– « الحالة الاقتصادية والحضارية في سوريا » ، المجلة التاريخية السورية الاميركية – آب وايلول ١٩٢٢ ·

– « اللغات السامية المحكية في سوريا ولبنان » ، مجلة الكلية ، شباط واذار ونيسان وايار ١٩٢٢ · ثم طبعت المقالات في كتيب صدر عن المطبعة الادبية في بيروت ١٩٢٢ ·

– « آثار السريانية في اللغة العربية » ، مجلة الكلية ، حزيران ، ١٩٢٢ ·

– « القديم والحديث في عالمنا الميكانيكي والادبي » ، المجلة التاريخية السورية الاميركية ١٩٢٢ ·

– « سهرة مع طاغور » – الكلية ، كانون الاول ١٩٢٢ ·

– « اهداء للدكتور هيوارد بلس » ، منشورات جامعة نيويورك ١٩٢٢ ·

– « العالم المدرسي الذي نعيش فيه » · مجلة الكلية ، تشرين الثاني ١٩٢٣ ·

– « سفراء في الارض الموعودة » – مجلة الكلية ، كانون الاول ١٩٢٣ ·

– « اسعد يعقوب الخياط » – مجلة الكلية ، اذار ونيسان وايار ١٩٢٣ ·

– « هل وصل العرب الى اميركا : اشارة جامدة في الادريسي » ، مجلة الفجر ، تشرين الاول ١٩٢٣ ·

– « كلمة تاريخية حربية » مجلة المعارف ، كانون الثاني ١٩٢٣ ·

– « حبيب رزق الله افندي – درس في احوال سوريا الاجتماعية » ، مجلة الكلية ، نيسان وايار وحزيران ١٩٢٤ ·

– « طلاب درسوا في سوريا » ، مجلة الطالب العالمي ، تموز ١٩٢٤ ·

– « وظيفة رجل العلم في عصر الانتقال » ، الكلية ، تموز ١٩٢٤ ·

– « التعرف الى مذهب التصوف » ، مجلة الكلية ، تشرين الثاني ١٩٢٤ ·

– « اثر تذكاري لاحق لسليمان البستاني » ، مجلة الاخلاق ، حزيران ١٩٢٥ ·

– « فنادق شركة ستيتلر الاميركية ونظامها البديع » ، مجلة العالم الجديد ، تموز ١٩٢٥·

– « كيف اهل سوريا بعدهم طبيبين » ، مجلة الاخلاق ، عدد خاص ١٩٢٥ ·

– « ماذا استفاد الغرب من الشرق : الحروب الصليبية ؟ » ، مجلة العالم الجديد ، تشرين الثاني ، كانون الاول ١٩٢٥ ·

– « المجمع العلمي العربي في دمشق » ، العالم الجديد ، آب ١٩٢٥ ·

– « مشاكلنا » ، مجلة السائح ، عدد خاص ١٩٢٥ ·

– « تحضر السوريين واللبنانيين : الشعوب السامية » ، العالم الجديد ، ايلول وتشرين اول ١٩٢٥ ·

ــ « كلمات لتهدئة الخواطر » ، نشرة حركة الطلاب المتطوعين ، كانون الاول ١٩٢٥ ·

ــ « الآثار القديمة على نهر الكلب » ، مجلة العالم السوري ، نيويورك ، ايلول ١٩٢٦·

ــ « اقدم كتابة هجائية اكتشفت حديثا في جبيل » ، العالم الجديد ، حزيران ١٩٢٦ ·

ــ « غنى نهر الكلب بالآثار التاريخية » ،العالم الجديد ، تموز ١٩٢٦ ·

ــ « تحديث الشعوب الناطقة باللغة العربية » ، العالم السوري ، تشرين الاول ١٩٢٦ ·

ــ « المساهمة الفكرية للشعب السوري » ، العالم السوري ، كانون الاول ١٩٢٦ ·

ــ « سوريا في اعلى قمم مجدها ــ العصر الاموي الزاهر » ،العالم الجديد ، شباط واذار ١٩٢٦ ·

ــ « تحفة الشرق في مدينة الغرب ــ في القرون الوسطى » ، الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسيني ، مطبعة المقتطف والمقطم ، القاهرة ١٩٢٦ ·

ــ « المصادر العربية ودانتي » ، العالم السوري ، نيسان وايار ١٩٢٧ ·

ــ « اكتشاف امبراطورية قديمة : الحثيون » ، العالم السوري ، شباط ١٩٢٧ ·

ــ « قيادة سوريا للسياسة العربية » العالم السوري ، آب ١٩٢٧ ·

ــ « قائد ومحارب سوري في زمن الصليبيين » ، العالم السوري ، ايلول وتشرين اول ١٩٢٨ ·

ــ « فصل من كتاب اسامة بن منقذ » العالم السوري ، ايار ١٩٢٩ ·

ــ « مقام جبران في الادب العصري » ، مجلة المقتطف ، آذار ١٩٢٩ ·

ــ « مكافأة الشهامة وقصص اخرى من كتاب اسامة بن منقذ » ، العالم السوري ، حزيران ١٩٢٩ ·

ــ « مساهمة الريحاني في الفكر القومي العربي » ، العالم السوري ، نيسان ١٩٢٩ ·

ــ « تاريخ التجارة السورية في المهاجر الاميركية » ، مجلة الكشاف ، آب ١٩٢٩ ·

ــ « ابو العلاء واسامة » ، مجلة المجمع العلمي العربي ، ايار ١٩٣٠ ·

ــ « درس في حياة اسامة بن منقذ وكتاب الاعتبار » ، مجلة المجمع العلمي العربي ، ايلول وتشرين الاول ١٩٣٠ ·

ــ « رد على انتقاد » ، مجلة المشرق ، شباط ١٩٣٠ ·

ــ « كلمات عربية في اللغة الانكليزية » ، الفجر ، ١٩٣١ ·

ــ « هل اللبنانيون عرب » ، العالم السوري ، شباط ١٩٣١ ·

ــ « الفروسية العربية » دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية ١٩٣١ ·

ــ « الفروسية عند العرب والمسلمين » العالم السوري ، ١٩٣١ ·

– «الفروسية العربية» ،مجلة الكلية ، ايلول ١٩٣١ ٠

– « الادريسي » دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية ١٩٣١ ٠

– « الاستشراق في الولايات المتحدة » ، مجلة السمير ١٩٣٢ ٠

– « ماذا استفاد الغرب من الشرق ؟ » ، مجلة المعارف ، ١٩٣٢ ٠

– « تحضر السوريين واللبنانيين » ، مجلة المعارف ، كانون الثاني ، شباط ١٩٣٢ ٠

– « الفنادق كيف يجب ان تكون » ، المعارف ١٩٣٣ ٠

– « المسعودي » و « معاوية » ، دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية ١٩٣٣ ٠

– « السكر واصله » ، مجلة السمير ، ١٩٣٣ ٠

– « الدراسات الاسلامية والعربية في اميركا » ، مجلة المعاهد الجديدة للشرق الادنى، ١٩٣٤ ٠

– « الخطوط الكوفية » ، منشورات جامعة برنستون ، ١٩٣٤ ٠

– « من المعلوم » ، مجلة المعارف ، ١٩٣٤ ٠

– « الاداب والعلوم الشرقية » ، المنشورات الاسبوعية لرابطة الطلبة في برنستون ، حـزيران ١٩٣٤ ٠

– « عالم الطب العربي » ، مجلة المقتطف ، شباط ١٩٣٥ ٠

– « التمايز بين السوريين واللبنانيين » ، المجلة الفينيقية ، آذار ١٩٣٥ ٠

– « لمحة تاريخية في الطب العربي » مدخل لترجمة الدكتور يوسف حتي « معضلـة السرطان » عن كتاب وليام بايندرج ، منشورات المطبعة الاميركية ١٩٣٥ ٠

– « دراسات في الثقافة الشرقية » ، المنشورات الاسبوعية لرابطة الطلبة في برنستون، نيسـان ١٩٣٥ ٠

– « ياقوت الرومي الحموي » ، دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية ١٩٣٥ ٠

– « الدروس العربية في الولايات المتحدة » ، المعارف ١٩٣٦ ٠

– « كلمة في نعوم فائق : ذكرى وتخليد » ، دمشق ١٩٣٦ ٠

– « قوم لبنان في التاريخ » الكتاب اللبناني ، نيويورك ١٩٣٦ ٠

– « نهر الكلب » ، مجلة ليبانو ، البرازيل ، ريو ديلبارو ، كانون الاول ١٩٧٣ ٠

– « شرعية انفصالنا عن سوريا » ، الاذاعة السورية ، تشرين الثاني ١٩٣٧ ٠

– « المجموعة الطبية التاريخية » ، التقرير السنوي للادارة ، مكتبة جامعة ستانفورد ١٩٣٧ ٠

– « ادوار الهجرة الثلاثة » ، جريدة الهدى ، نيويورك ١٤ كانون الاول ١٩٣٩ ٠

ـ « لماذا الدراسات السامية ؟ » ، يوميات مواطن من برنستون ، نيسان ١٩٣٩ ٠

ـ « الدراسات العربية في أميركا » ،المجلة السورية ـ الكندية الوطنية ، آب ١٩٤٠٠

ـ « القلاع الصليبية » ، مجلة الاسبوع الاميركي ، ايار ١٩٤٠ ٠

ـ « الاستعراب في العالم الجديد » ، مجلة العصبة ، كانون الثاني وشباط ونيسان ١٩٤٠ ٠

ـ « الاستعراب في الولايات المتحدة » ،مجلة الهلال ، نيسان ١٩٤٠ ٠

ـ « الدراسات العربية والاسلامية في جامعة برنستون » ، مجلة العالم الاسلامي ، تموز ١٩٤١ ٠

ـ « مشاكلنا والحلول المقترحة لها » ، مجلة اتحاد التحكيم ، حزيران ١٩٤١ ٠

ـ « الشرقي والغربي » ، مجلة السلام ، نيسان ١٩٤١ ٠

ـ « مساهمة العرب في العلوم » ، مجلة الشرق الادنى ، شباط ١٩٤٢ ٠

ـ « المخطوطات العربية والاسلامية » ، مكتبة جامعة برنستون ، حزيران ١٩٤٢ ٠

ـ « اول كتاب طبع باللغة العربية » ، مكتبة جامعة برنستون ، تشرين الثاني ١٩٤٢٠

ـ « اول دبلوماسي اميركي في سوريا ولبنان » ، مجلة اتحاد التحكيم ، كانون الاول ١٩٤٢ ٠

ـ « مستقبل الدراسات العربية والاسلامية » مجلة اتحاد التحكيم ، ايار ١٩٤٢ ٠

ـ « خطبة في حفلة الامير فيصل » ، جريدة الهدى ، نيويورك ٤ تشرين الثاني ١٩٤٣٠

ـ « امكانية الاتحاد بين الدول العربية » ٠ مجلة الدراسات التاريخية الاميركية ، تموز ١٩٤٣ ٠

ـ « الصهيونية » ، مجلة الاستقلال ، ايلول ١٩٤٣ ٠

ـ « صقلية العربية » ، مجلة المقتطف ، ١٩٤٣ ٠

ـ « اميركا والتراث العربي » ، مجلة التراث العربي ، منشورات جامعة برنستون ١٩٤٤ ٠

ـ « الاحلام العربية تتحقق » ، مجلة المركب السوري ١٩٤٤

ـ « وثائق تاريخية للدفاع عن حق العرب في فلسطين » ، دار الطباعة ،بيروت ١٩٤٤٠

ـ « الاتحاد العربي : هل هو ممكن ؟ » ، مجلة الهلال ، تموز وآب ١٩٤٤ ٠

ـ « الفلسطينيون العرب ما قبل ابراهيم » ، مجلة تحكيم برنستون ، نيسان ١٩٤٤ ٠

ـ « مقالة عن الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، قدمت للجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الاميركي ، ١٥ شباط ١٩٤٤ ٠

ـ « الفلسفة العربية ـ اللغة العربية ـ الادب العربي ». دائرة المعارف الاميركية، ١٩٤٥٠

ـ « الجزيرة العربية ـ باب المندب ـ حسا ـ نجد ـ عمان ـ يمن ـ عدن ـ حجاز ـ حديدة ـ جدة ـ كويت ـ مكة ـ المدينة ـ مسقط ـ قطر ـ رياض ـ صنعاء ٠٠ » ، دائرة المعارف البريطانية ١٩٤٥ ٠

ـ « مخطوطة ابي العلاء المعري في مكتبة جامعة برنستون » ، المهرجان الالفي لابي العلاء المعري ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٤٥ ٠

ـ « النهضة العربية » ، مجلة الهلال ، ايلول ١٩٤٥ ٠

ـ « قرطبة جوهرة العالم » ، مجلة الاستقلال ١٩٤٥ ٠

ـ « شهادة امام لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب الاميركي : اوراق عن فلسطين» شباط ١٩٤٤ ، منشورات المعهد العربي ، الاميركي ، نيويورك ١٩٤٥ ٠

ـ «الصراع في المشرق العربي » ، منشورات فرجينيا ، ١٩٤٦ ٠

ـ « الادعاءات الصهيونية والحقوق العربية في فلسطين » ، عالم الاعمال ، آذار١٩٤٦٠

ـ « الوحدة العربية » ، الكتاب السنوي لدائرة المعارف البريطانية ٠

ـ « هل يتلاقى الغرب بالشرق ؟ » ، مجلة الكلية ١٩٤٧ ٠

ـ « فضل العرب على المدنية الغربية » ، مجلة العصبة ، نيسان ، أيار ١٩٤٧ ٠

ـ « الفنون الجميلة عند العرب » ، تشرين الثاني ، كانون الاول ١٩٤٧ ٠

ـ « الحقوق العربية والدعاوي الصهيونية » ،الفكر الحديث ، ١٩٤٧ ٠

ـ « الكتب العربية في مكاتب الولايات المتحدة ، خزائن الكتب العربية في الخانقين » ، منشورات فيليب طرازي ، مطبعة صيقلي ، بيروت ١٩٤٧ ٠

ـ « الثقافة والمجتمع في الشرق الاوسط : العالم العربي والاسلامي ، دراسات ومشاكل» محاضرات جامعة برنستون ١٩٤٧ ٠

ـ « الفنون الجميلة : انطولوجيا الكتاب اللبنانيين باللغة الانكليزية » دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٨ ٠

ـ « لبنان ، الدليل الاخضر » المطبعة الدولية ، بيروت ١٩٤٨ ٠

ـ « اليوم العربي العظيم » ، مجلة العروة ، كانون الثاني ١٩٤٨ ٠

ـ « الاشعاع الروحاني » ، العصبة ، شباط ١٩٤٩ ٠

ـ « الاسلام ، محمد ، الطوائف الاسلامية» دائرة المعارف الاميركية ١٩٤٩ ٠

ـ « لبنان » ، جريدة الهدى ، ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٩ ٠

ـ « خلاصة الخطبة » ، جريدة بيروت ، ٥ تشرين الثاني ١٩٥٠ ٠

ـ « ما اتحف به متكلمو العربية المدنية الغربية ، ولا سيما الاسبانية والبرتغالية ،

ونهوض الدول العربية الحديثة ، اصل اسباني ثم ترجمة الى العربية ، المطبعة التجارية ، سان باولو ١٩٥١ ٠

ـ « دقيقة حاسمة في حياة فتى قروي لبناني » ، النشرة ، حزيران ١٩٥١ ٠

ـ « التيارات الاسلامية الحديثة » ، مجلة الاسلام في العالم المعاصر ٠٠ معهد دراسات الشرق الاوسط ، واشنطن ١٩٥١ ٠

ـ « الحضارة العربية » ، مجلة الضاد ، تشرين الثاني ، كانون الاول ١٩٥١ ٠

ـ « ماذا قال لي نابغة التاريخ ؟ » ، مجلة العصبة ، كتب المقال نجيب حنكش ، تموز ١٩٥١ ٠

ـ « محاضرات » ، العصبة ،تموز ١٩٥١ ٠

ـ « مستقبل الثقافة والمجتمع في الشرق الادنى » ، منشورات جامعة برنستون ١٩٥١ ٠

ـ « رسالتنا روحية » ، مطبعة الصفدي التجارية ، سان باولو ١٩٥١ ٠

ـ « الخلافة العربية : نهوضها وسقوطها ، مقدمة لدراسة الشرق الاوسط » ،منشورات جامعة كورنيل ١٩٥٢ ٠

ـ « فضل المدنية العربية على المدنية الغربية » مجلة الرسالة ، اعداد ٢ و ٩ و ١٦ حزيران ١٩٥٢ ٠

ـ « تاريخ سوريا ولبنان الوسيط والحديث ، نماذج ومراجع من كتب ودوريات باللغات الغربية » ، المركز الاميركي لدراسة المجتمعات ١٩٥٢ ٠

ـ « مقدمة تاريخ سوريا » مجلة الاجيال ، حزيران ١٩٥٢ ٠

ـ « قصة الحضارة العربية » ، مجلة الحديث ، كانون الثاني ١٩٥٢ ٠

ـ « العباسيون ، الخلافة العربية ، الدروز ، الفاطميون ، الامويون ، الساسانيون ، السلوقيون » ، دائرة المعارف الاميركية ١٩٥٣ ٠

ـ « البيروني ، المسعودي ، ابن النديم ، ابن الاثير ، ابن بطوطة ، ابن جبير ، ابن خلدون ، ابن قتيبة » ، دائرة معارف « عالم الادب » ، ١٩٥٣ ٠

ـ « الدراسات الاسلامية في الولايات المتحدة الاميركية : ندوة حول الثقافة الاسلامية في علاقتها بالعالم المعاصر » ٠ جامعة برنستون ١٩٥٣ ٠

ـ « الاتجاه الحديث في الاسلام » ترجمها اسحق موسى الحسيني بعنوان « الاسلام في نظر الغرب » بيروت ١٩٥٣ ٠

ـ « لتكن آراؤك من وحي ضميرك » سلسلة « علمتني الحياة » ، كتاب الهلال ١٩٥٣ ٠

ـ « الموارنة » ، دائرة المعارف البريطانية ١٩٥٣ ٠

ـ « مقابلة صحفية » صوت المرأة ١٩٥٣ ٠

ـ « الجزيرة العربية ، لبنان ، الموارنة » ، دائرة المعارف الدينية ١٩٥٥ ٠

ـ « الدراسات العربية والاسلامية في الولايات المتحدة » ، مجلة الشرق الاوسط تشرين اول ١٩٥٥ ·

ـ « الفاطميون ، الحاكم ، الحكيم ، الحريم » ، دائرة المعارف الاميركية ١٩٥٥ ·

ـ « ازمة الغرب في سوريا ولبنان في القرن التاسع عشر » ، مجلة « عالم التاريخ » ، ايلـــول ١٩٥٥ ·

ـ « خاتمة الكلام » ، «الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة » ،اصدار محمد خلف الله ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ ·

ـ « مساهمات الادب العربي في الفكر والثقافة الغربية » ، عالم الادب ، جامعـــة بتسبورج ١٩٥٦ ·

ـ « العلاقات العربية الاميركية مع مراجع خاصة عن اسرائيل » ، مجلة كارافان ، كانون الثانـي ١٩٥٦ ·

ـ « حدثنا » ، مجلة الحكمة ، ايلول ١٩٥٦ ·

ـ « حديث » جريدة التلغراف ، ١٢ ايلول ١٩٥٦ ·

ـ « محطة تاريخية : المملكة الاردنية الهاشمية » ، منشورات نيو هافن ، ١٩٥٦ ·

ـ « محطة تاريخية : الجمهورية السورية » ، منشورات نيو هافن ، ١٩٥٦ ·

ـ « محطة تاريخية : الجمهورية اللبنانية » ، منشورات نيو هافن ، ١٩٥٦ ·

ـ « المفاضلية ، الشافعي ، الزبير ابن العوام ، الحاكم الاول ، الحاكـــم الثانـــي ، السبئيون ، صلاح الدين ،السلاجقة ، الشيعة ، السندباد ، الصوفية ، سليمان الاول ، السنة ، سوريا ، طرابلس ، صور ·· » ، دائرة المعارف الاميركية ١٩٥٦ ·

ـ « الشرق الادنى في الماضي والحاضر توتر في الشرق الادنى » معهد دراســـات الشرق الادنى ١٩٥٦ ·

ـ « تحفة الصحافة العربية » ، القلم الصريح ، آب ١٩٥٦ ·

ـ « امير ، هارون الرشيد ، حمص ، حسين بن علي ، ادريس ، الادارسة ، اللاذقية·· » دائرة المعارف الاميركية ١٩٥٧ ·

ج ـ مراجعة بعض الدراسات العلمية

وتجدر الملاحظة هنا الى ان الدكتور فيليب حتي قام بمراجعة وتقديم ونقد اكثر من مئة كتاب في مجلات مختلفة ابرزها كتب : « خطط الشام » لمحمد كرد علي · و « اصول الدولة الاسلامية » لمور غوتن · و « لبنان في الدوامة » لاسكندر ابكاريوس · و « سوريا » للاب لامنس · و « البينات في الدين والاجتماع والادب والتاريخ » لعبد القـــادر المغربي · و « مساهمات العرب في التربية » لخليل طوطح · و « مجموع الالفاظ السريانية ··· » لالياس بالاك · و « المعجم العصري في الانكليزي والعربي » لخليل سعد · و « تحليـــل

للالفاظ العربية السائدة في لبنان » لميشال فغالي ۰ و «ابراهيم باشا في سوريا » لسليمان ابو عز الدين ۰ و « النجوم الزاهرة » لابن تغري بردي ۰ و « مجموعة نصوص غير منشورة تتناول تاريخ التصوف في الاسلام » للويس ماسينيون ۰ و « مشكلة الجريمة في سوريا ولبنان وبلاد العلويين وفلسطين » لفؤاد عمون ۰ و « ملوك العرب » لامين الريحاني ۰ و « معجم البستان » لعبد الله البستاني ۰ و « النقوش الملكية في سومر واكاد » لجورج بارتون ۰ و « اكتشافات معابد بنو في نينوي » لطومسون ۰ و « سوريا المعاصرة » لمايو سترامسي ۰ و « علم الجبر عند الخيام » لداود كازير ۰ و « احداث دمشق زمن الصليبيين » لهاملتون جب ۰ و « هارون الرشيد وشارل الكبير » لبوكلر ۰ و « ابن رشد في كتاب تهافت التهافت » لموريس بويغس ، و « الاسكندر الكبير » لاندرسون ۰ و « الافكار الاقتصادية عند ابن خلدون » لصبحي محمصاني ۰ و « كتاب الاكليل »للهمداني ۰ و « تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية » لطوبيا العنيسي ۰ و « تلخيص كتاب المقالات لابن رشد » ۰ و « أمراء الشعر في العصر العباسي » لانيس الخوري المقدسي ۰ و « ابو نواس في الحياة والاسطورة » لانغرامس ۰ و « بدائع الزهور في وقائع الدهور » لابن اياس ۰ و « كتاب فرق الشيعة » للنونجتي ۰ و « كتاب الوافي بالوفيات » لابن ايبك الصفدي ۰ و « النصف الاول من كتاب الزهرة » لابي سليمان الاصفهاني ۰ و « الرحلة الدانتية في الممالك الالهية » لعبود ابو راشد ۰ و « امراء غسان من الجنة » لتيودور نولدكه ۰ و « ابن عبد ربه وعقده » لجبرائيل جبور ۰ و « تاريخ الصحافة العربية » لفيليب طرازي ۰ و « جيولوجية لبنان وسوريا وفلسطين » لالفرد داي ۰ و « المجالس البلدية في لبنان » لريختر ۰ و « الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا» لاسد رستم ۰ و « الاسلام والتجديد في مصر » لادامس ۰ و « النظام النقدي والصيرفي في سوريا » لسعيد حمادة ۰ و « اليزيديون ماضيا وحاضرا » لقسطنطين زريق ، و « تطور الاساليب النثرية فيالادب العربي » لانيس الخوري المقدسي ۰ و « عمر بن ابي ربيعة » لجبرائيل جبور ۰ و « لبنان في عهد الامراء الشهابيين » للامير حيدر الشهابي ۰ و « قصص واساطير وتقاليد شعبية في لبنان وسوريا » لميشال فغالي ۰ و « النوادر الطبية » لبول سباط ۰ و « النصوص العربية السودانية » لهيلا لسون ، و « مخطوطة هامة عن التقاليد للبخاري » نشر مينغانا ۰ و « النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان » لسعيد حمادة ۰ و « الفارابي » للخوري الياس فرح ۰ و « الفرقة القطاشية والدراويش » لبيرج ۰ و « العراق دراسة في التطور السياسي لايرلند ۰ و « الاسلام » لهنري ماسيه ۰ و « الفكر العربي ومكانته في التاريخ » لاوليري ۰ و « المتوسط » للودفيغ ۰ و « الشرق الاوسط ملتقى الطرق في التاريخ » لبن هورين ۰ و « تاريخ الاسلام » لحسن ابراهيم الحسن ۰ و « التيارات الحديثة فيالاسلام » لهاملتون جب ۰ و « سوريا ولبنان » لالبرت حوراني ۰ و « تاريخ الشعوب الاسلامية » لكارل بروكلمان ۰ و « مختصر تاريخ الشرق الاوسط » لجورج كيرك ۰ و « العرب في التاريخ » لبرنارد لويس ، و « المجتمع الاسلامي والغرب » لجب وبوون ۰ و « خلافة المعتصم استنادا الى الطبري » لالما مارين ۰ و « ابن خلدون وتيمورلنك : ولقاؤهما التاريخي في دمشق » لفيشل ۰ و « الشرق الاوسط اثناء الحرب » لجورج كيرك ۰ و « الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية » لغوستاف فون غراونباوم ۰ و « محمد في المدينة » لمونتغومري واط ۰ و « ثورة على النيل » لانور السادات ۰ و « دلالات التقاليد الاسلامية » لغيسنيك ۰ و « تاريخ الصليبيين ومملكة الفرنج في القدس » لرينيه غروسيه ۰ و « مملكة الصليبيين » لمونرو ۰ و « الفرق بين الفرق » للبغدادي ۰ وعشرات الكتب والدراسات العلمية الاخرى ۰

جـان دايــه

النفائس العصريـة

١٩٠٨ ، هو تاريخ بداية الحياة الدستورية في السلطنة العثمانية · وهذا التاريـــخ، هو في الآن نفسه ، تاريخ ولادة الحركة الصحفية الحرة في فلسطين وسوريا ولبنـان · حيث صدرت مئات الصحف والمجلات السياسية والادبية · وهذا يعني ، ان نضال الصحافة في سبيل حريتها لم يكن ممكنا ، الا في اطار الحد الادنى من الحرية نفسها · وهـــذا يفسر ، هجرة الصحفيين الفلسطينيين واللبنانيين الى مصر وباريس واميركا ، في المرحلة السابقة على اعادة الاعتبار للدستور العثماني ، حيث اصدروا ، من هناك ، المطبوعـات الصحفية ذات النزعة التحريرية والتحررية ·

وما ان ارغم السلطان عبد الحميد على اعتماد الحياة الدستورية في السلطنة ، حتـى ظهرت فجأة ، وبكثافة ، الصحف والمجلات في فلسطين · فمنها من عاد من ديار الغربة القسرية ، ومنها من ولد لحظة ولادة الحرية ·

كان ظهور المجلات الادبية فيتلك الحقبة ملفتا للنظر . سواء من جهة العدد المتزايـد للمطبوعات والصفحات ، او من جهة المضمون والمستوى الرفيع · ولا عجب · فقد سارت الصحافة الادبية في هاتيك الاعوام على الطريق نفسها التي سارت عليها الصحافـــة السياسية : اي الحرية ، والمزيد من الحرية · خصوصا ، وان الحرية في نظر صحافة الامس ، السياسية منها والادبية ، كانت المفتاح الوحيد لكل القيم الاخرى التي ناضـل رواد النهضة ، وضحوا واضطهدوا من اجل انتصارها ·

ولم تشذ « النفائس العصرية » عن القاعدة · فقد اصدرها الروائي خليل بيـدس بعد اشهر قليلة من عودة الدستور العثماني · وقد توسل من مضمونها الادبي ، الروائي وغير الروائي ، حرية الانسان في وطنه ، بأسلوب ادبي مداور في اكثر الاحيان بل ان هذه المجلة الادبية كانت في طليعة مجلات فلسطين ، سواء في استمراريتها ، او فـــي التزامها الادبي عبر الروايات التي كان يعربها بيدس عن الروسية بشكل خاص · لذلك ، رأينا ان تخصص لها حلقة كاملة في سلسلة التعريف والتعرف بالصحافة الفلسطينية .

فضلا عن تكريسنا الحلقة الاولى من الحلقات الخاصة بصحف فلسطين الادبية ، لها ٠

صدرت « النفائس العصرية » في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٨ (١) ، وكانت اسبوعية ، ثم تحولت الى نصف شهرية ، فشهرية ٠ واختصر بيدس هوية مجلته فقال على غلاف العدد الاول انها : « مجلة لطائف وفكاهات » ٠ ومما قاله في الافتتاحية الاولى : « لا يخفى ما للروايات على اختلاف مواضيعها من التأثير الخطير في القلوب والعقول ، حتى اعتبرت انها من اعظم اركان المدنية ، بالنظر الى ما تستبطنه من الحكمة في تثقيف الاخلاق وما تنطوي عليه من العبر والمواعظ في تنوير الاذهان » (٣) ٠ ولكن ما علاقة اللطائف والفكاهات بالروايات ؟ كانت الرواية ، في القاموس الادبي ـ الصحافي ، مرادفا لـ اللطافة والفكاهة (٤) ٠ ومن هنا اعتماد المجلات الخاصة بالقصة عنوان « اللطائف والفكاهات » (٥) امثال مجلة «سلسلة الفكاهات » لنخلة قلفاط (بيروت ١٨٨٤) ، و « الفكاهات العصرية » لعبد الله غزالة الحلبي (القاهرة ١٩٠٨) ٠

ثم ان اسم المجلة كان « النفائس » فقط ٠ وقد أضاف بيدس كلمة « العصرية » بدءا من العدد العاشر الذي صدر في اول كانون الثاني (يناير) ١٩٠٩ ٠ وكالعادة ، اوضح بيدس في الافتتاحية سبب تعديل اسم مجلته فقال : « اننا اصدرنا هذه المجموعة باسم « النفائس » وليس لنا علم بالغيب او اطلاع على خفايا الامور ٠ وقد قدمنا الى جانب الحكومة المحلية وقتئذ عريضة بطلب الرخصة فمضى على ذلك نحو الشهرين ونحن نعد انفسنا بقرب صدور الرخصة ، الى ان وردنا في الاسبوع الفائت بواسطة الحكومة المحلية بلاغ رسمي من لدن الولاية الجليلة مفاده ان هذا الاسم (النفائس) مختص بغيرنا بموجب رخصة رسمية موجودة في يده ٠ فأصبح هذا الاسم ملكا شرعيا له ، وملك علينا حق استخدامه ، مع ان المدعي لم يصدر الى الان مجلته ، ولم نر في جريدة من الجرائد اعلانا او اذاعة بصدور الرخصة الرسمية اليه بامتلاك هذا الاسم » ٠ ويضيف بيدس بكلام لا يخلو من المرارة والسخرية : « وما كنا ، يعلم الله ، لنضن على هذا الاديب بهذه اللفظة ، لولا ان المجلة اشتهرت الان بها وذكرتها جميع الجرائد ٠ ولذلك فقد اضفنا الى لفظة « النفائس » التي هي ملكه الشرعي لفظة « العصرية » ليكون لنا نصيب من هذا الملك » (٦) ٠ ومما يجدر ذكره هنا ، ان المجلة قد تحولت من اسبوعية الى نصف شهرية ، بدءا من العدد الذي صار اسمها « النفائس العصرية » (٧) اضف الى ذلك ان عدد صفحات « النفائس » الاسبوعية كان ١٦ صفحة فقط ، في حين صار عدد صفحات «النفائس العصرية » ٦٤ ، ثم ٨٠ صفحة (٨) والتغيير شمل ايضا هوية المجلة ومضمونها فبعد ان كان تعريف بيدس لمجلته بأنها « مجموعة لطائف وفكاهات » ٠ صار التعريف بـ « النافئس العصرية » على انها « مجلة فكاهية ادبية » (٩) ٠ وقد تغير التعريف تبعا للتعديل الذي طرأ على المضمون ٠ ذلك ان « النفائس العصرية » لم تعد تقتصر على الروايات ، كما كانت عليه يوم كان اسمها « النفائس » ، بل اصبحت تتضمن ، اضافة الى الروايات ، العديد من الموضوعات الادبية ، بل والابحاث الفكرية والتاريخية (١٠) ٠ ومن الاضافات التي طرأت على المجلة بعد تعديل اسمها ، انها لم تعد تحرر بقلم خليل بيدس وحده ٠ فقد شارك بيدس عدد من المحررين ، نذكر منهم اسكندر الخوري البيتجالي ، وانطون بلان ، وعبد الله البستاني ، وقسطاكي الحمصي ، وحليم دموس ، وشبل دموس، وابراهيم سليم النجار، وعلي الريماوي، وجورج متى، وخليل مطران، وبولس خولي (١١)٠

وكسائر المجلات الصادرة في تلك الاعوام ، فان زميلاتها قد استقبلتها بالترحاب. باعتبار ان المنافسة الايجابية هي التي كانت تسود اجواء صحافيي الامس ، بعيدا عن اي

شتيمة او تجريح · قال عنها جرجي زيدان في « الهلال » ، مجلد ١٧ ، ص ٢٥٤ ، انها « مجموعة لطائف وفكاهات تصدر في حيفا ـ سوريا مرة في الاسبوع لمنشئها خليل افندي بيدس ، بدل اشتراكها ستة بشالك في حيفا ومجيدي واحد في الخارج » ·

أما جرجي نقولا باز فقد كتب في مجلته « الحسناء » ، مجلد ١ ، ص ٢٢٢ ، بأن « النفائس » هي « مجلة فكاهة ادبية تاريخية تصدر في حيفا مرة في الشهر بنحو تسعين صفحة لمنشئها خليل افندي بيدس صاحب المؤلفات العديدة · بلغت عامها الثاني بنشاط دل عليه جزؤها الاول بما حواه من مختلف المواضيع وأهمها » ·

وورد في مجلد « العروس » مجلد ٢ ، ص ١٤٤ ، « النفائس العصرية مجلة تصدر في القدس ، لها من اجتهاد صاحبها خليل افندي بيدس الكاتب الروائي المشهور ما يكفل لهـا النجاح » ·

أما التقريظ الذي تدفق على ادارة المجلة من قبل القراء فحدث عنه ولا حرج ·

ولاقت المجلة انتشارا واسعا خصوصا في اميركا اللاتينية · وهو امر تؤكده الصفحه الاخيرة من كل عدد ، حيث تنشر اخبار الهدايا التي هي اعداد من المجلة نفسها يتبادلها القراء · فمثلا في العدد الثاني من السنة الخامسة الصادر في شباط ١٩١٣ ، نقرأ في الصفحة ١٠٤ الاخيرة ، تحت عنوان « اهداء المجلة ، مجموعة من الاهداءات التي يقدمها القراء لاصدقائهم ، والملفت انها تشمل مدن وقرى الوطن ، ومدنا في المهاجر الاميركية (كندا ، البرازيل) او في اوستراليا . وهذا يدلل على سعة انتشار المجلة ·

وهنا ، تجدر الاشارة الى ان معظم هؤلاء القراء ينتمون الى طائفة الروم الارثوذكس· وهذا امر طبيعي وبديهي ، اذ ان خليل بيدس كان ارثوذكسيا ومسؤولا في المجلس الملي الارثوذكسي في فلسطين ، وهو أول من درس اللغة الروسية ودرسها للعديد من ابناء الطائفه الارثوذكسية ، امثال الاديب الكبير ميخائيل نعيمة ·

والسؤال الان : ماذا عن كتابات بيدس وسائر محرري النفائس العصريه ؟·

لنبدأ بمحرر المجلة الرئيسي خليل بيدس ، وذلك عبر ما كتبه من افتتاحيات وتحقيقات، وعربه من روايات · بالنسبة للافتتاحيات ، لا بأس من استعراض البعض منها ، على غرار عرض الافتتاحية الاولى · خصوصا وان افتتاحيات « النفائس العصرية » هي التي ترسم هوية المطبوعة ، ودقائق التطور والتبدل التي حصلت في سياق صدورها على مدى سنوات ·

يقول بيدس في افتتاحية العدد الاول (١٢) ، من السنة الثانية : « لقد كانت هذه المجلة في اول عهدها كراسة صغيرة مقتصرة على الفكاهات فقط ، غير اننا ، اجابة لاقتراح جمهور من القراء ، لم نلبث ان ادخلنا فيها بعض الادبيات على قدر ما اتسع لنا المجال »· واضاف : « لقد الينا ان لاندخل سنة جديدة الا ونزيد في صفحاتها وترقيتها وترتيبها رجاء ان تعيش وتنمو شأن كل ما يؤمل له الحياة والدوام » · ويوضح بيدس ان زيادة الصفحات يعود الى ان « حجم المجلة لا يتسع لكل هذه المواضيع ـ الروايات الصغيرة والمتسلسلة ، المقالات ، المنثورات ـ » مقابل « ان نصدرها مرة واحدة في الشهر ونزيد في اتقانها وتوسيع فوائدها لتنال بين القراء اوفر حظ من الرغبة والارتياح » · واخيرا

يطلب بيدس من الله ، كعادته في نهاية كل افتتاحية ، « ان يوفقنا في خدمة الامة والوطن الى كل عمل مفيد وقول سديد » ٠

حتى نهاية السنة الثانية ، بقي بيدس يصدر المجلة في حيفا ، ويمارس ، في الوقت نفسه ، مهنة التدريس (١٣) ٠ ولكن ، حصل تغيير في مكان الصدور قبل بدء السنة الثالثة لصدور المجلة ، اضافة الى تفرغ بيدس الكلي للنفائس ، وفي هذا الصدد يقول صاحب المجلة في افتتاحية العدد الاول من السنة الثالثة (١٤) ٠ « مر على النفائس سنتان » كنا على وشك اصدار المجلة في وقتها ، اي في تشرين الثاني الذي هو بدء كل سنة من سنيها ٠٠٠ وقفت في طريقنا عوائق ٠٠٠ فاضطررنا الى حجبها شهرين كاملين، واهم تلك العوائق انتقال صاحبها من حيفا – مكان ادارتها – الى القدس لبعض شؤون طائفية وطنية لا محل لذكرها هنا » ٠ ويضيف بيدس في ختام الافتتاحية : « اننا قد تفرغنا منذ الآن للمجلة ، ولم يبق ما يشغلنا عنها من الواجبات المدرسية التي كانت تستغرق اكثر ساعات نهارنا » ٠

لم يكتب خليل بيدس افتتاحية لكل عدد ، وخصوصا في السنتين ١٩١٢ و ١٩١٤ ٠ كان العدد من « النفائس العصرية » يبدأ برواية معربة بتصرف او بتحقيق عن الجرائد في التاريخ وما شاكل ٠ اما اذا اراد صاحب المجلة ان يبلغ قراءه شيئا مما تتضمنه عادة الافتتاحيات ، فانه يكتب ذلك في احدى صفحات العدد الاخير ٠ وهذا ما قام به مرتين في العام ١٩١٣ ٠

تحت عنوان « الى حضرات المشتركين الافاضل » (١٥) كتب خليل بيدس يقول . « انقطعت المجلة عن القراء الشهرين الماضيين لاسباب كثيرة اعترضت في سبيلها لم نستطع الانباء بها قبل وقوعها ، فنلتمس من حضرات المشتركين الكرام عذرا » ٠ ويؤكد بيدس « اهم تلك الاسباب » ، وهو اضطراره الى « ترك العمل بضعة اسابيع من هذا الصيف » ، تماما كما جرى له مثل ذلك في « الصيف الماضي ، وكانت المجلة قد تأخرت وقتئذ عن الصدور ، ولم يزل هذا التأخر ملازما لها حتى الان » ٠ وتلافيا لهذا التأخير ، وبعد استشارة للعديد من المشتركين ، « واقتداء بغيرنا من اصحاب المجلات العربية في مصر وسورية » قرر صاحب المجلة توقيف اصدارها « في شهري الصيف من كل عام » ٠ ويعدد بيدس فوائد التدبير الجديد ، فيشير الى دور العطلة في تجديد النشاط ، ويحول ذلك دون « التشويش والخلل » في عملية وصول المجلة الى المشتركين الذين « يغيرون محل اقامتهم في شهري الصيف » ٠ ويستدرك بيدس ليؤكد للمشتركين بأنهم لن يخسروا شيئا بفعل احتجاب المجلة خلال شهري الصيف ٠٠ « فقد زدنا عدد صفحات المجلة ابتداء من هذا الجزء ، وسنستمر على هذه الزيادة في السنية الآتية ان شاء الله، فتصبح المجموعة السنوية للمجلة على هذه الصورة : ٨٠٠ صفحة في عشرة اجزاء اي ٨٠ صفحة لكل جزء مع ابقاء قيمة الاشتراك بحالها » ٠ اكثر من ذلك ، فالربح لا الخسارة هو الحاصل من جراء التدبير . لان ادارة التحرير قد عزمت ان تقدم للمشتركين « كتابا خارجا عن المجلة نجعله هدية للمشتركين » ٠ بل ان بيدس قد عين « هدية السنة القادمة، وهي « الجزء الاول من رواية » حنة كارنين » وهي اشهر روايات الفيلسوف تولستوي ، بل اشهر الروايات الاجتماعية على الاطلاق ، وقد ترجمت الى جميع لغات العالم المتمدن ما عدا العربية » ٠ ويؤكد بيدس لقرائه في هذه « الافتتاحية » ، بأن المجلة سوف تصدر « في اول كل شهر بدون ابطاء ، ولن تتأخر عن ميعادها بعد الآن » ٠ واخيرا ، يبشر صاحب المجلة القراء بادخال « كل تحسين في المجلة ، فنهيىء لها اجزل المباحث فائدة ،

واحسن الروايات فكاهة ومغزى ، ونزينها بالرسوم الجميلة وبكل ما يلحقها بارقى المجلات موضوعا وحجما واتقانا » ·

ويعود خليل بيدس في ختام السنة الخامسة ليكتب افتتاحية (١٦) · في الصفحة الاخيرة من العدد السادس ، يعيد فيها معظم ما كتبه في الافتتاحية السابقة · وفي هذه « الافتتاحية » يعلن بيدس ان « النفائس العصرية بهذا الجزء تتم السنة الخامسة وتدخل مع سنة ١٩١٤ في سنتها السادسة » ·

كذلك يكتب بيدس في نهاية الجزء العاشر من السنة السادسة « الى حضرات القراء الافاضل » (١٧) ، مؤكدا انه قد باشر بطبع الهدية ، وهي رواية « حنة كارنين » لتولستوي · وهنا يطالب بيدس المشتركين بتسديد قيمة اشتراكاتهم ، « فنزداد نشاطا في خدمتهم ورغبة في اطراد تحسين هذه المجلة واتقانها لتصل الى الهيئة المثلى التي نسعى نحوها » ·

قبل ان ننتقل الى روايات المجلة المعربة بتصرف من قبل بيدس ، لا بد من ابداء ملاحظة حول افتتاحيات صاحب النفائس العصرية · ذلك ان ما يلفت النظر في الافتتاحيات انها كانت قليلة العدد ، قليلة الكلمات ، قليلة الوعود · وربما يعود ذلك الى منحى بيدس العملي ، بحيث يترك للقارىء ان يقيم مضمون المجلة من غير ان يتدخل هو في التقييم · اضافة الى ان بيدس كان يخشى ان يكثر من الوعود البراقة ، ثم يجد نفسه عاجزا عن تحقيقها · وعلى الرغم من انه قد اختصر وعوده حتى الحد الادنى ، فقد بقي مقصرا في مجال التنفيذ · اذ ان مجلة « النفائس العصرية » لم تكثر من الرسوم الجميلة الملونة كما وعد صاحبها قراءه في احدى افتتاحياته التي اشرنا اليها سابقا ·

اما القصص التي كانت السبب الاساسي ، بل الوحيد في بادىء الامر لاصدار المجلة ، فقد نشر بيدس في مجلته الروايات الطويلة ، والقصص القصيرة على حد سواء · ويقول بيدس عنذلك في احدى افتتاحياته (١٨) : « اما المواضيع التي ستتضمنها المجلة في سنتها الرابعة فهي كما يأتي : الروايات ، وينشر منها في كل جزء روايتان او اكثر من الروايات الصغيرة التي تبدأ وتختم في نفس الجزء · ورواية كبيرة متسلسلة في جميع الاجزاء · وستكون كلها من احسن ما كتب في هذا الموضوع فكاهة وادبا وفائدة» وتجدر الاشارة هنا ، الى ان عدد من كتاب القصة قد ساعدوا بيدس في كتابه بعض قصص المجلة ، امثال انطون بلان ، وجبران مطر ، وكلثوم عوده ، وفارس مدور ، وابراهيم حنا (١٩) ·

ولنستمع الى بيدس نفسه وهو يقدم رواية « شقاء الملوك » التي افتتح بها سلسلة الروايات في المجلة · يقول بيدس : « هذه الرواية تتضمن من العبر والحكم تحت ثوب اللهو والفكاهة ما يجعلها من انفس الذخائر ، فانها تمثل باسلوب شائق حالة الملوك ونسبتهم الى الرعية وواجباتهم نحوها ، ونسبة الرعية اليهم وحقوقها عليهم ، وما يتصل بذلك من شؤون الملك واحوال رجال الدولة والبلاط وقوة الشعب ، بصورة مختلفة تنطبق على الحقيقة » · ويضيف بيدس ، ان الرواية تنطوي على « حوادث مشوقة ومباحث فلسفية اجتماعية يستعذبها السمع ويتعشقها الطبع ·· الفتها ماري كورلي الكاتبة الانكليزية الشهيرة ، ونقلتها ز· جورافسكايا الى اللغة الروسية بعنوان « تحت نير السلطة » فعربناها عن الروسية باسم « شقاء الملوك » وتصرفنا فيها بزيادة واسقاط

وتغيير وابدال وتبويب وغير ذلك لتوافق ذوق القراء ، فعسى ان يتلقاها ابناء العربية بما هي اهل له من الايثار والاقبال ، وعلى الله الاتكال » .

وعن رواية « اهوال الاستبداد » التي نشرها في الاعداد الاخيرة لعام « النفائس العصرية » الثاني ، يقول بيدس : « وضع هذه الرواية المؤلف الشهير والكاتب البليغ الشاعر الذائع الصيت الكونت الكسي [أم ليون ؟] تولستوي الروسي وهي من خيرة الروايات الادبية لما تتضمنه من العبر والحكم في تثقيف الاخلاق وتنوير الاذهان وحث النفوس على الكمالات الانسانية فضلا عما تنطوي عليه من الحقائق التاريخية والوقائع المؤثرة ، والحوادث المشوقة الى غير ذلك مما يتفكه به المطالع ، ويستفيد منه المتأمل بصيرة وعلما » . ومن ادلة بيدس على الشهرة العالمية للرواية كونها « ترجمت الى اكثر اللغات الافرنجية كالفرنساوية والنمساوية والانكليزية والبولونية والايطالية وغيرها » . الى ان يقول : « ولقد تصرفت في تعريبها بزيادة واسقاط وتغيير وابدال وتبويب لتكون موافقة لذوق قراء العربية .. وسميتها « اهوال .. الاستبداد » لما يراه المطالع فيها من الاستبداد والجور والعسف والظلم وغير ذلك من الفظائع والكبائر التي تعافها الانسانية .. اما اسمها الحقيقي فهو «كنياز سيريبرياني» اي الامير سيريبرياني وهو احد ابطالها »(٢٠).

أما الروايات التي نشرها بيدس في النفائس العصرية فهي ، حسب التسلسل الزمني: شقاء الملوك . اهوال الاستبداد . الحسناء المتنكرة (للكاتب الايطالي اميل سلغاري). ملوك الروس . هنري الثامن وزوجته السادسة (تأليف الكاتبة الالمانية فـ. ملباخ) . العرش والحب . حنة كارنين (لتولستوي) .

وعن قصصه القصيرة التي نشرها في النفائس ، ثم عاد وجمعها في كتاب اسماه « مسارح الازمان » ، يقول خليل بيدس انها « مجموعة ادبية فنية روائية في حقيقة الحياة » (٢١) .

وقد نشر بيدس الكثير من القصص القصيرة . فلو اخذنا على سبيل المثال المجلد الخامس من النفائس ، لرأينا ان الاجزاء العشرة من المجلة قد احتضنت ٢١ قصة منها : الاب (رواية واقعية جرت حوادثها في عصر الثورة الفرنسية) . الاسبانيولية الحسناء (وهي رواية حقيقية جرت وقائعها في قرطبة ، عاصمة الدولة الاموية في الاندلس في ايام السلطان عبد الرحمن الثالث الذي ولي الملك سنة ٩١٢ م) . التعب والموت والمرض (لتولستوي) . اليد السوداء للكاتب (ماك دونتيل) . كاترين (رواية واقعية جرت حوادثها في بعض المدن الشرقية) الخ (٢٢) .

بالنسبة لروايات وقصص خليل بيدس التي نشرها في النفائس العصرية ، يمكن تسجيل الملاحظات التالية : اولا : ان الروايات والقصص في المجلة تحتل معظم الصفحات ، فضلا عن مراكز الصدارة . وهذا امر بديهي . ذلك ان خليل بيدس قد اصدر مجلته لكي ينشر فيها قصصه ورواياته ، وليس العكس . وهو لم يبدأ بكتابة هذا اللون الادبي منذ بدء صدور النفائس ، ولا هو اوقف كتابة القصة حين احتجبت مجلته في ١٩٢٣ . فالقصص والروايات المنشورة في المجلة هي جزء قليل من انتاج بيدس القصصي ، الذي اعطاه قبل صدور المجلة وبعد توقفها .

ثانيا : ان قصص وروايات بيدس في النفائس هي انتاج ادبي « لرأس مدرسة قصصية في القصة الطويلة (الرواية) ، كذلك كان بيدس رأس المدرسة القصصية في القصة القصيرة ، وعنايته بالقصة القصيرة من اجل مجلته « النفائس » لا تقل عن عنايته بالقصة

الطويلة للغرض نفسه (٢٣) · وهذا امر يجعل « النفائس العصرية » مجلة ادبية غيـــر عادية ، بل مجلة فلسطينية رائدة على صعيد الادب القصصي ·

ثالثا : ان جميع قصص بيدس المنشورة في المجلة هي معربة وليست موضوعــــة · ومعظمها ، بالتالي ، مأخوذ عن الادب الروسي الذي كان يتقنه بيدس دون سائر اللغات الاجنبية · ولكن بيدس كان « يفلسطن »القصة ، بحيث تصير وكأنها في نقطة وسط بين الترجمة والتأليف · ولعل سر احجام بيدس عن تأليف القصة يعود الى خوفه من ملاحقة السلطة العثمانية ، أما الترجمة ، فقد كانت تشكل له ، ولغيره من الادباء الملتزميـن ، غطاء واقيا ضد غارات المكتوبجي المتلاحقة ·

رابعا : كان بيدس في قصصه مصلحا اجتماعيا ، يهدف الى حرية مجتمعه ووطنـه ، عبر تحرير الانسان من كل المثالب والمعوقات التي تحول دون تحقيق قيم الحياة العليا ، وعلى رأسها الحرية · من هنا ، سر تصرفه في الترجمة ، وعدم نقله القصة كما هـــي اي بأحداثها ومناخها واشخاصها التي تكون شبه غريبة عن اشخاص واجواء واحداث فلسطين وشعبها والمحيط ، مما يفقدها الكثير من دورها التثقيفي التحريري ·

خامسا : استعمل بيدس في قصصه المنشورة في النفائس لغة عربية سليمة ، ولكـن بسيطة واضحة ، بعيدا عن العبارات الغامضة ، والكلمات القاموسية ·

لم تقتصر كتابات خليل بيدس على القصة والافتتاحية · فجميـع المقالات والدراسـات في المجلة التي لا تحمل اي توقيع هي بقلمه ، انطلاقا من تأكيد بيدس ان كل الموضوعات الخالية من التواقيع هي بقلمه (٢٤) · ولعل ابرز واهم ما كتبه بيدس في هذا النطاق هي التحقيقات التي كان يصدر بها اعداد مجلته · فمثلا ، كتب بيدس في العدد الاول ، من السنة السادسة ، الصادر في كانون الثاني ١٩١٤ ، تحقيقا عن « الجرائد » في العالم « منذ ثلاثمئة عام » · والتحقيق يمتد في ثماني صفحات · وبعد أن يظهر الكاتب كيف كانت صحف القرن السابع عشر تنشر اخبار همجية الانسان ، يقول : « الحمد للــــه اننا من اهل القرن العشرين ، لا من اهل القرن السابع عشر » · ولكنه يستدرك قائـلا : « ولسنا نعلم كيف نكون في نظر ابناء القرن الثالث والعشرين · وهذه جرائدنا طافحة بأخبار الحروب والاهوال والشدائد والدواهي التي تقشعر لها الابدان ، فيستعاذ بالله من شر الانسان » · هنا ، يتبع خليل بيدس الاسلوب الادبي نفسه ، لجهة توظيفه كـل تحقيق في خدمة الانسان في بلاده · والكاتب لا يكتفي بان يستنتج قارئه الفكرة الاساسية التي يريد ان يؤكد على صحتها ، من خلال النص الادبي ، بل تراه يلخص تلك الفكرة في نهاية التحقيق ، او المقال ، خوفا من ان تفوت القارىء مما يقضي على رسالة الاديب واهدافها التوجيهية ·

ولنقلب الصفحة · ثمة ادباء شاركوا بيدس في تحرير المجلة تطوعا · فمن هم هؤلاء ؟ وما هي ابرز الكتابات التي نشروها في « النفاس العصرية » ؟·

نجيب ميخائيل ساعاتي القدسي ، دكتور في الحقوق ، يكتب في النفائس (٢٥) ، عن « بعض مزارع يهود فلسطين من سنة ١٨٦٠ الى سنة ١٩٠٠ » · ويمهد الكاتب لدراسته ، المعززة بالجداول الرسمية ، بكلمة طويلة عن فلسطين ، يشير فيها الى ما وصلت اليه «في سالف الاجيال من المقام المنيع والشأن الرفيع » · ويضيف أن ارجاء فلسطين الرحبـــة « كانت آهلة بكثير من الاسرائيليين ولا تزال هذه الاراضي المقدسة ملجأهم الوطيــــد

ومحط رحالهم الوحيد ، فيصعدونها زرافات ووحدانا ، افرادا وازواجا فرارا من مقاومات الغرب والشمال لهم » · ويقول الكاتب ان « هذه الحركة طالما استوقفت انظار القوم وغدت بحكم الضرورة من المسائل الشاغلة لافكار اولي الامر والنهي ، ولا غرو اذا شغلت كثيرا من الصحف العربية وغيرها وشحذت قرائح كتبتها · فالامر جلل والتقاعد عن استقرائه يحملنا على الندم ، ولات ساعة مندم » ·ويوضح انه « لا يقصد بذلك التنديد بمساعي زيد وانصاره او الاستخفاف بمزاعم عمرو وخدمة افكاره ، بل ارغب في الالماع الى واقع الحال حذرا من الخطر المقبل » · ذلك ان الاسرائيلي « اينما حل ونزل وايان سار وقصد ، لم يزل طامح البصر الى اراضي الميعاد منازل يعقوب واسحق ، فينفق الابريز الخالص واللجين المصفى في سبيل امتلاكها مهما كلفه ذلك من انواع المشقات وضروب العذابات ، وهيهات ان يعود عن سعيه هذا بصفقة الخاسر الواجم » ·

بعد المقدمة الطويلة ، يدخل الكاتب صلب الموضوع ليعود الى خمسين سنة خلت او اكثر حين « انتبه يهود فلسطين الى امر الزراعة فوطنوا النفس على مزاولتها وممارستها لعلمهم اليقين ان في ذلك مدعاة للثروة ومجلبة لرغد العيش ، وسعته · فلذا خصصوا قسما وافيا من مستعمراتهم الفلسطينية لهذه الغاية وجل ما اعتنوا به غرس الكرمة » · ويقول الدكتور ساعاتي ان « ما يلفت النظر . ويسترعي الخواطر ، ان ليهود فلسطين مكتبا زراعيا في « منزل اسرائيل » على مقربة من طريق يافا المؤدية الى اورشليم » · اما المكتب المذكور فهو « عبارة عن حديقة واسعة الارجاء كثيرة الاشجار وافرة الغلات ، تبلغ سعتها نحو ٢٤٠ هكتارا وقد جعلها منشئها شرل نتر سنة ١٨٧٠ كمكتب زراعي يتخرج فيه زهاء ستين شابا من اليهود على الفنون الزراعية » · ويستدرك الكاتب في نهاية كلامه عن المكتب الزراعي ليقول بان منافعه « لا تتجاوز الشعب الاسرائيلي شأن مشاريعهم الخيرية » ·

ويضع الكاتب جدولا عن مزارع اليهود في فلسطين وذلك على النحو التالي :

مزارع القدس وضواحيها

اسم المزرعة	مؤسسها	سنةتاسيسها	مساحتها بالهكتار	موقعها
منزلاسرائيل	شرل نتر	١٨٧٠	٢٤٠	قرب يافا
ملبس	روتشيلد	١٨٧٨و١٨٨٢	١٣٠٠	قرب يافا على طريق نابلس
عيون قاره	تحت حماية روتشيلد	١٨٨٢	٥٩٤	على طريق غزة هاشم
محطة عاقر	روتشيلد	١٨٨٣	٧٠٠	قرب الرملة
قطرا	جمعية احباء صهيون	١٨٨٤	٢٨٠	على بعد ساعة من عاقر
قسطينة	روتشيلد	١٨٨٨	٦٣٠	على بعد نصف ساعةمنقطرا
خربة ديران	جمعية اعيان اليهود الروسيين	١٨٩٠	٩٥٠	قرب الرملة
ملك راوبين	الحاخام راوبين	——	١٣٥	وادي حنين

مزارع حيفا وملحقاتهـا

اسم المزرعة	مؤسسها	سنةتأسيسها	مساحتها بالهكتار	موقعها
زمـــــــــار	تحت حماية روتشيلد	١٨٦٢	١٣٠٠	بين القيسارية والكرمل
حضيــــرة	شركات روسية	١٨٩٠	ـــــ	بقرب زمار
ابو شوشـــــه	اسرة برغيم	ـــــ	٤٠٠٠	في سهل مـرج ابن عامر

مزارع صفد وبلاد بشارة

اسم المزرعة	مؤسسها	سنةتأسيسها	مساحتها بالهكتار	موقعها
بوس فنــــا	اليوم لروتشيلد	١٨٨٢	٧٢٠	بين صفد والاردن
خربة زيــــد	اليوم لروتشيلد	١٨٨٣ـ١٨٨٨	٢٦٠	على شاطىء بحيرة الحولة
جسر الاردن	بعض اليهود	١٨٨٤	٢٠٠	ـــــ
عين الزيتون	بعض اليهود	١٨٩٠	٤٣٠	شمالي صفد
محنايـــــم	روتشيلد	ـــــ	٤٧٠	بين صفد وبحيرة الحولة
شمر همبردن	رباني من صفد	ـــــ	١٨٠	قرب مستعمرة جسر الاردن

ويضيف الكاتب الى ان لليهود « مزارع ذات شأن في حوران وعبر الاردن ، فمساحتها تنيف على ٢١٠٠٠ هكتار منها ١٢٠٠٠ على مقربة من قرية شيخ سعد قد ابتاعتها اللجنة الفلسطينية ، الباريزية سنة ١٨٩٢ و ١٩٠٠ بقرب دمشق عند سفح جبل حرمـــون » . ويؤكد ان « لهم ايضا مزارع واسعة عند جبل الطور في سهل مرج ابن عامر تربـــو مساحتها على ٢٠٠٠ هكتار » . ويسمي الدكتور ساعاتي «جمعية هجليليم (اي الجليليين) المؤسسة في صفد سنة ١٨٩١ » لكونها ابتاعت لليهود « نحو ٢٠٠٠ هكتار في ميـــرون (غربي صفد) وكفرسبت (بين الناصرة وطبرية) وزعيم (قرب صفد) وحطين ، الى غير ذلك » . اضافة الى ما لليهود « في ارجاء فلسطين من البساتين الغناء ، نخـص منها بالذكر بستان السيد موسى مونتيفيوري الثري الشهير الكائن في شمالي شرقي يافا على طريق نابلس » .

ينتهي الكاتب في ختام دراسته الى القول : « ان عزيمة الجمعية الصهيونية المعروفـة بالصيونيزم بوليتيك لمؤسسها تيودور هركل (هرتزل) سنة ١٨٩٧ ، فلا يبعد ان تصبـح فلسطين مستعمرة كبيرة يؤمها اليهود الاسبانيون المعروفون بالسفرديم والاشقنازيم اي السكناج من كل صقع ، فتجمع شملهم وتغص بهم اراضيها الرحبة » .

مما تقدم ، يلاحظ الدور الرئيسي الذي لعبه روتشيلد في مجال انشاء المـــزارع اليهودية في فلسطين ، توطئة لتهويد فلسطين وصهينتها · ولكن من هو روتشيلد ؟

هذا السؤال أجابت عليه النفائس العصرية بنشرها تحقيقا عن « بيت روتشيلد » ، نقلا عن « تاريخ الاسرائيليين » ، و « مجلة اسبوع الكلمة العصرية » الروسية (٢٦) ، ومما ورد في التحقيق ، ان « اول من غرس دوحة مجد هذا البيت هو ماير انسليم روتشيلد · ولد في فرنكفورت سنة ١٧٤٣ وتوفي فيها سنة ١٨١٢ · واصله من عائلة اسرائيلية فقيرة الحال ، ارسله ابوه من صغره الى مدينة فرس ببفاريا فدخل احدى مدارسها حيث تلقى الدروس الابتدائية ثم استعد لدرس العلوم الدينية لان اباه كان يريده ان يكون حاخاما · ولكنه غير فكره عند رجوعه الى فرنكفورت وعزم على الدخول في مضمار التجارة لشدة ميله اليها من صغر سنة » ·

ومن القطع الادبية القليلة المنشورة في النفائس ، التي تتناول فلسطين بصورة مباشرة، قصيدة لاسعاف النشاشيبي عنوانها « فلسطين والاستعمار الاجنبي » (٢٧) ·
يقول النشاشيبي في قصيدته الوطنية :

انهـــــا اوطانكم فاستيقظـــوا ... لا تبيعوهـــا لقـــوم دخـــلاء
كيف ترجـون حياة بعدهـــا ... ونعيمـــا وهنـــاء وصفـــاء
فاعلموا يا قـوم ان لـم تعلمـــوا ... ان عقبـاكـم هـــلاك وفنـــاء
اذكـروا ان غركـم ما لهمـــو ... عـزة لانفس دومـا والابـــاء
لن يفيـــد المـــال شيئا ان اضـــا ... ع الفتـى في الكون مجدا وعـــلاء

واعلنت النفائس ، في سنتها السادسة ، لقرائها ، عن موضوع لمسابقة كتابية تـدور حول « فلسطين والمهاجرة » (٢٨) · ثم عادت النفائس وكررت الاعـلان نفســه في سـياق سنتها السابعة (٢٩) · والغريب ان كلمة واحدة لم تنشر في موضوع المسابقة ، كما ان رئاسة تحرير المجلة لم توضح سبب ذلك ·

هذا تقريبا كل ما كتب عن القضية الفلسطينية ومسألة الهجرة اليهودية · ولكن النفائس كانت تتناول الموضوع مداورة عبر نشرها المقالات والدراسات العديدة لبيدس وغيره من كتاب النفائس ·

لعل قسطاكي الحمصي هو ابرز واغزر كتاب المجلة ، خصوصا عبر الرسائل المتبادلة بينه وبين ابراهيم اليازجي ، حيث تولت النفائس نشرها في المجلد الخامس ، في الاعداد السبعة الاولى · والرسائل تتمحور حول موضوعات ادبية ولغوية وقصائد مديح متبادلة، فضلا عن أمور شخصية تتعلق بانتاج اليازجي الادبي ، الا ان قسطاكي الحمصي كتب في النفائس ، موضوعات اخرى وطنية ، تشكل المسألة الفلسطينية جزءا منها ·

تحت عنوان « هل يرجى اصلاحنا ؟ » (٣٠) كتب قسطاكي الحمصي يقول : « ان اوجه الشبه بيننا وبين اليابان اقرب ، ولكن تنقصنا اخلاقهم » · كيف ؟ « نحن نبيع الوطن بدينار ، وهم يبذلون دونه ارواحهم وابناءهم ·· نحن اذا فتشنا في كتب مدارسنا لا نجد فيها كلمة وطن ، ويحتاج الغلام عندنا الى ان ينبش عن معناها في كتب اللغة فيرى انها (محل الانسان ومستقره ومواطن الغنم ومرابضها) فيفهم من ذلك ان لا فـرق بين الغنم والانسان ولا فرق بين الوطنين » · ويضيف هذا الكاتب المسيحي : « المسلمون شركـــاء

حياتنا ومقاسمو لذاتنا وخيرنا وشرنا ، شئنا وشاؤوا ام ابينا وأبوا ، لا غنى لاحدنـــا عن الاخر فان سعدوا سعدنا وان شقوا شقينا » . وعن الوطن ومحبته وهويته يقـــول الكاتب ، ان محبة الوطن ليست سوى « محبة المواطنين وهم اهلي وجيراني ومعارفـــي ومن ربيت بينهم وعاشرتهم دهراً ... والمراد بذلك ما جاورني مـن البـلاد وهم ابنـاء جنسي من العرب ، ثم كل من انتمى الى الحكومة العثمانية » .

وتناول انيس متري الحلو من « المشتى » ـ قضاء صافيتا ـ موضوع النظر والعمل في دراسة بعنوان « العلم الاعزل » (٣١) ، متسائلا : «ما بال العلم عقيماً في بلادنا مع قدم العهد به » ؟ وللاجابة ، يقارن الحلو بين نتائج العلم في اليابان ونتائجه في سوريـة ، فيقول : « لو قابلنا بين دخوله الى بلادنا على يد البعثات والارساليات العلمية والدينية الاوروبية والاميركية ، ودخوله الى بلاد اليابان على يد تلك البعثات او الارساليـــات نفسها ، لوجدنا تاريخ دخوله الى البلادين واحداً اذا لم نقل ان دخوله الى بلادنا كان اولا » . ويسارع الكاتب الى التأكيد بان « الفرق عظيم والبون شاسع فاليابانيون بفضل ما اتاه العلم في بلادهم من الصالحات الطيبات اصبحوا في عداد امم الارض المتمدنة والشعوب الراقية المرهوبة ، واما سوريا ـ من ضمنها لبنان وفلسطين وشرقي الاردن ـ فلم تزل هي هي سوريا المنحطة » . ما هو سر ذلك ؟ يجيب الكاتب : « معلوم ان العلـم ينهض بالامم المنحطة وهو سبب الرقي في كل مكان وزمان بشرط استعماله فنا اي بحسب مدلول لفظة « فن » التي تطلق على العلم والصناعة مجتمعين . والفرق بين استعماله في بلادنا واستعماله في بلاد اليابان هو الذي اوجب وجود تلك المباينة السحيقة ، لان اولئك استعملوه فنا فنجحوا وارتفعوا ، ونحن استعملناه نظريا او « اعزل » فلبثنا فـي جمودنا وهبوطنا » . ويرى الحلو ان نجاح سورية لن يكون الا « بالمزاوجة بين العلـم والصناعـــة » .

هذه المقالات هي ايضا قليلة العدد في « النفائس العصرية » تماما كما هو حـــال الكتابات التي تناولت الشأن الفلسطيني مباشرة . ذلك ان «النفائس العصرية » قـــد توسلت في الدرجة الاولى الادب ، في كل الوانه ، من اجل النهوض بالانسان بعد تثقيفه وتعميق مجتمعيته . لذلك امتلأت مجلة خليل بيدس بالروايات ، والقصص القصيـــرة ، والتحقيقات التاريخية ، والحكم ، والاخبار التي تضج بالعبر .

ولنقرأ اولا ، وعلى سبيل المثال ، عناوين بعض محتويات المجلـد الخامس مـــن « النفائس العصرية » : « اتصبح الصحراء بحرا » (ص ٢٣٥) ، « أمـم البلقـــان (ص ٣) ، « سكان سوريا » (ص ٣٢٤) ، « هل الخوف مرض » (ص ٨٥) ، « بنت مصر وبنت الشام » (ص ٢٢٠) ، « شهيدة العلم » (ص ٢٩١) ، « هديـــة ولاء » (ص ٢٤٠) ، « أصل الفلسطينيين » (ص ٢٤١) ، « امثال تركية » (ص ٢٣١و ٢٥٤)، « الثورة في المكسيك » (ص ٥٦٩) ، « ديوان الدول » (ص ١٠٠) ، « الذهب فـــي العالم » (ص ٤٩٤) ، « زنوج الولايات المتحدة » (ص ٥٦٤) ، « ست وصايا للمـرأة الهندية » (ص ٤٨٨) ، « السكك الحديدية في العالم » (ص ٢٧٣) ، « شهيد القطـب الجنوبي » (ص ١٥٠) ، « قتلى حروب نابوليـــون » (ص ٥٦٢) ، « لص شريف » (ص ٥٤) ، « متحف اسرائيلي في القدس » ، «مرفأ يافا » (ص ٤٩٦) ، « مهـــارة فتاة » (ص ٤٩٣) ، « النساء في الجيش الصيني » (ص ٢٤١) ، « نسبة النساء الى الرجال » (ص ١٩٦) .

ولا بأس من قراءة بعض المقالات الادبية ، وتسجيل بعض مقتطفاتها · تحت عنـــوان « زنابق الحقل » (٣٢) كتب اسكندر الخوري البيتجالي مقالا ، اكد في نهايته ، ان « بين البراميل والمخلوقات شبه اقرب من اليوم الحاضر لامس الغابر ، فكما انك تسمع للبرميل الفارغ اذا دحرج على الرصيف دويا لا يسمعك اياه البرميل المملوء ، هكذا اصحـــاب الرؤوس الفارغة يملأون الدنيا صراخا وتبجحا والحقيقة غير ما يظهرون » · وجوابا على السؤال « كيف تتمنى ان تكون ابنتك » (٣٣) · عرب الشاعر حليم دموس عشرين جوابا قرأها فيمجلة برازيلية فكاهية ، وينص احد الاجوبة ، وهو الجواب الثامن ، على الآتي : « اتمنى ان تكون ابنتي برازيلية حرة ، اي ان تحب وطنها قبل كل وطن فـــي العالم · وان تدرس جغرافيته فتعلم مثلا طول نهر الامازون وعرضه وعمقه قبل أن تتعلم اسم النيل والمسيسيبي والهدسن والسين · وان تحفظ تاريخ وطنها وتردد اسماء مشاهير رجالنا وملوكنا وابطالنا كما تردد كل يوم « السلام عليك يا مريم » في الكنيسة » ·

وكتب المؤرخ بولس مسعد عن « تدمر » ، فتمنى « لو كانت حكومتنا الدستورية تتمثل بالحكومات الاوروبية فتصرف بعض عنايتها الى الآثار القديمة الحافلة بها البلاد السورية، فان في جمع هذه الاثار في متاحف خصوصية من الفوائد المادية ما لا يقل قيمة في اعتبار الامم المتمدنة فضلا عما في ذلك من عبر التاريخالبالغة والفوائد الادبية للبلاد التـــي تشتمل على آثار جليلة كآثار تدمر وبعلبك ودمشق والقدس وغيرها مما يعرض لنا كـل يوم ان نورده مثلا من الامثلة العديدة على بلوغ التمدن الشرقي اقصى درجات الكمـال في زمن كانت اوروبا تتخبط في دياجي الجهل والانحطاط » (٣٤) ·

ويقول بولس خولي ، في حفلة تكريم جرجي زيدان ، التي اقيمت في القـدس ، « ان للجامعة الوطنية واللغوية شأنا عظيما في قيام الامم وتكوين اخلاقها الاجتماعية ، ونحن ابناء الوطن العثماني وابناء اللغة العربية اذا قمنا اليوم نكرم واحدا من ابناء وطننا ولغتنا ، فكأنما نحن نكرم الوطن العثماني والامة العربية ونعمل مع العاملين علـــى تنشئة الحياة القومية وترسيخ الاخلاق الراقية في نفوس افراد الامة » (٣٥) ·

وفي احدى رسائل ابراهيم اليازجي لصديقه قسطاكي الحمصي ، يقول الاول للثاني ، ان « العرف الطيب قد تيسر لي بمدد الله تعالى ورضى الاخوان اتمامه ، ولكن حال من دون توزيعه صدور الامر العالي بحبس المطبوعات في ضمن جدر المطابع ووراء زجـــاج المكاتب ، لا يقام لها دعوى ، ولا يسمع منها شكوى ، ولا يقبل فيها شفيع ، ولا يعرف فيها جرم الا ما جره بعض اهل العبث ·· فأخذ البريء باثم الجاني واقتص من الكل فـــي جريرة البعض ، بل استغفر الله ان هذا الكل لا يرضى ان يكون ذلك الجزء له بعضا ، انما هم في منزلة الجمر من الفحم ، او في مثابة السرطان من اللحم ، نسأل اللـــه العافية وقطع دابر المفسدين » (٣٦) ·

وبعد ، ان « النفائس العصرية » التي صدرت في فلسطين ، من ١٩٠٨ الى ١٩٢٣ ، والتي كانت في طليعة المجلات الفلسطينية الادبية التزاما وفنا ادبيا رفيعا ، هي ، الان، موضوعيا ، جزء من التراث الفلسطيني في حقل الصحافة الادبية ·

الحواشي

(١) ناصر الدين الاسد ، **محاضرات عن خليل بيدس** ، ١٩٦٣ ، ص ٣٠ ٠

(٢) **المصدر نفسه** ، ص ٣٠ ٠

(٣) عبد الرحمن ياغي ، **حياة الادب الفلسطيني الحديث** ، ص ٤٤٢ ٠

(٤) محمد يوسف نجم ، **القصة في الادب العربي** ، القاهرة، ١٩٥٢، ص٦٦٠

(٥) **المصدر نفسه** ، ص ٦٨ ـ ٦٩ ٠

(٦) الاسد ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٢ ٠

(٧) **المصدر نفسه** ، ص ٣٠ ٠

(٨) **المصدر نفسه** ، ص ٣٢ ٠

(٩) **المصدر نفسه** ، ص ٣١ ٠

(١٠) **النفائس العصرية** ، القدس ١٩١٣ المجلدان السادس والسابع ٠ (انظر مكتبة يافت التابعة للجامعة الاميركية فيبيروت، او دار الكتب الوطنية اللبنانية) ٠

(١١) **المصدر نفسه** ، السنة الخامسة ، ١٩١٣ ٠

(١٢) **المصدر نفسه** ، تشرين الثاني ، ١٩٠٩ ٠

(١٣) الاسد ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٩ ٠

(١٤) **المصدر نفسه** ، ص ٢٠ ٠

(١٥) **النفائس العصرية** ، المجلد الخامس الجزء السابع ، ١٩١٣ ، ص ٣٦٧ ٠

(١٦) **المصدر نفسه** ، الجزء العاشر ، ١٩١٢ ، ص ٥٧١ ٠

(١٧) **المصدر نفسه** ، المجلد السادس ، الجزء السادس ، ص ٣٣٦ ٠

(١٨) **المصدر نفسه** ، المجلد الرابع ، ص ٤ ٠

(١٩) ياغي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٥٢ ٠

(٢٠) **المصدر نفسه** ، نقلا عن مقدمة الرواية المنشورة في ختام السنة الثانية من مجلة النفائس ، ص ٤٤٦ ٠

(٢١) **المصدر نفسه** ، نقلا عن كتاب « مسارح الاذهان » ، ص ٤٥٣ ٠

(٢٢) **النفائس العصرية** ، المجلد الخامس ، ص ٢٠٨ ، ٤١٣ ، ٤٨٥ ، ٢٦٢ ، ٥٣٧ ٠

(٢٣) ياغي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٥٢ ٠

(٢٤) **النفائس العصرية** ، المجلد الخامس ، ص ٥٧٦ ٠

(٢٥) **المصدر نفسه** ، المجلد الثالث ، الجزء العاشر ، ١٩١١ ٠

(٢٦) **المصدر نفسه** ، المجلد الخامس ، ص ١٨٢ ـ ١٨٧ ٠

(٢٧) **المصدر نفسه** ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني عشر ، ١٩١٠ ٠

(٢٨) **المصدر نفسه** ، المجلس السادس، ص ٢٦٧ ٠

(٢٩) **المصدر نفسه** ، المجلد السابع ، ص ١٩٢ ٠

(٣٠) **المصدر نفسه** ، المجلد الثالث ، الجزء التاسع ، ١٩١١ ٠

(٣١) **المصدر نفسه** ، المجلد السادس ، ص ١٩٥ ٠

(٣٢) **المصدر نفسه** ، ص ٢٦٠ ٠

(٣٣) **المصدر نفسه** ، ص ١٣٧ ٠

(٣٤) **المصدر نفسه** ، ص ٢٠١ ٠

(٣٥) **المصدر نفسه** ، المجلد الخامس ، ص ٣٥١ ٠

م . ش . ع .

الفلسطينيون في السجون الاسرائيلية

مقدمة

تحاول هذه الدراسة ان تتقصى اوضاع السجناء الفلسطينيين في سجون الاحتلال الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، كما تهدف الى القاء نظرة موثقة على اساليب التعذيب والقمع والقهر والاذلال التي يرزح تحتها اولئك السجناء ، من خلال تصور كامل للموقف الاسرائيلي ومراميه في سحق كل شكل من اشكال المقاومة للاحتلال سواء كانت هذه المقاومة عسكرية او سياسية او حتى على شكل نضال جماهيري او حركة في الراي العام تعمل على المطالبة بانهاء الاحتلال ·

لقد انتشرت السجون والمعتقلات التي تضم السجناء من الاسرى الفلسطينيين داخل الضفة والقطاع وكذلك داخل فلسطين المحتلة ، ودأبت سلطات الاحتلال على رصد وتعقب كل شكل من اشكال النضال الوطني ، بل كل حالة اشتباه بسيطة ، واخـذت تزج بآلاف المواطنين الفلسطينيين في السجون والمعتقلات الرهيبة لتمارس ضدهم افظع انواع التعذيب الجسدي والنفسي بهدف القضاء على المقاومة واسكات كل صوت يرتفع مطالبا بانهاء الاحتلال وارهاب كل من يفكر بمقاومة المحتلين ، وكذلك محاولة معرفة اية جهة تتحرك في الخفاء ضد الاحتلال · ولذلك فان الشين بيت ــ المخابرات ــ والشرطة تعطي اهمية لا حد لها للتحقيق وما يمكن ان ينتج عنه من جمع معلومات عن النشاطات السياسية والعسكرية لقوى المقاومة الفلسطينية وجيوش الدول العربية · ان مجرد الاشتباه بان هناك معلومات لدى السجين تحفز المحقق على التنكيل بذلك السجين وشعارهم في ذلك : « اما ان تعطينا ما عندك من معلومات او نصفيك هنا ، ولا احد يعرف انك عندنا » (١) ·

يبدأ التحقيق مع السجين بالترغيب والتهديد ، واما الترغيب فهو يتضمن اغراء المعتقل بان يقبل بالتعامل مع الاسرائيليين ، واذا فشل هذا الاسلوب فانهـم يبدأون بالتعذيب الجهنمي · وفي كثير من الحالات فان التعذيب لا يؤدي الى نتيجة ، اما لصلابة المقاتل او لان المعتقل هو اصلا بريء ولا يملك اية معلومات وبالتالي لا يسمح له ضميره بان يتهم اناسا ابرياء · من هذا النوع من المعتقلين رشاد محمد الصغير من الخليل الذي اعتقل

في سجن القدس (المسكوبية) وقد ضربوه وكووه في بطنه بالنار وضربوه على الراس حتى سقط على الارض وقال انه سيوقع على كل ما يريدون اذ ليس لديه شيء يقوله ولا يستطيع ان يتهم احدا (٢) ٠ وكذلك فهمي الحموري المقاول المقدسي الذي حاولوا ان يمنعوه من اكمال بناء مدرسة في القدس وعندما فشلوا اعتقلوه اعتقالا اداريا وضربوه وعذبوه وليس له ذنب كما لا يملك اية معلومات (٣) ٠ وفي حالة ما يعرف المحقق بان المعتقل ينتمي الى تنظيم فلسطيني او عربي فان الانكار من جانب المعتقل لا يفيد في شيء ، كما ان صلابة المعتقل تتعرض لافظع تعذيب غوستابي بهدف ابتزاز الاعتراف ٠ ان العدو يعرف ان كل منظم ينتمي لخلية والتي تضم من ٣ـ٧ اشخاص ٠ ولا بد من ان يستمر التحقيق والتعذيب الجهنمي الى ان يعترف المعتقل ٠ شيء اخر له اهميته ، فاذا عرف المحقق ان المعتقل ينتمي للتنظيم منذ فترة طويلة ، فان اساليب التحقيق والتعذيب تطول لابتزاز اكبر قدر من المعلومات (٤) ٠ وهكذا فان المحقق يبدأ بطرح اسئلة عديدة عن الوضع الاجتماعي للمعتقل ليستغل كل ذلك ضده اثناء رحلة التحقيق الطويلة ٠ وخلاف ذلك فان المعتقل الصلب يمكن ان يحقق نجاحا بالخلاص من ايدي سجانيه اذا لم يعترف في البداية واستمر في الصمود رغم التعذيب والتنكيل (٥) ٠ من هذا النوع من الصمود الاسطوري ما مارسه سليمان النجاب عندما قال له المحقق الاسرائيلي ، بعد ان عراه وضربه على اعضائه التناسلية لمدة اربع ساعات ، بانه سيأمر بالاعتداء على زوجته ، وجعله يسمع صوتها ٠ لقد كان سليمان النجاب مقتنعا تمام الاقتناع بان شرف زوجته الحقيقي هو في صموده ، اما استسلامه فمعناه تقديم زوجات رفاق آخرين الى العدو ٠ وصمد سليمان النجاب الى ان طرده الاسرائيليون الى حدود لبنان في ٧٥/٢/٢٨ (٦) ٠ ولقد لاحظت من خلال دراسة مئات الحالات لمعتقلين فلسطينيين في السجون الاسرائيلية تلك القدرة غير المحدودة على الاستمرار من جانب المقاتلين والمواطنين الفلسطينيين في الصمود والتمسك بالمبادىء رغم التعذيب الفاجر والفظيع ، ونجد ذلك وقد تجلى في الاضرابات والمصادمات التي تشهدها سجون الارهاب الاسرائيلي ، وهكذا فلقد اصبح السجن بالنسبة للمعتقلين مكانا جديدا للنضال ضد جلاوزة الاحتلال ، واصبح ذلك النضال يدور حول المطالبة بمعاملة افضل للسجناء ، ومن اجل الاعتراف بهم كأسرى حرب (٧) ٠

وتنطلق الشرطة ، الشين بيت والقضاة العسكريون الاسرائيليون من منطلق عنصري وحقد اسود على المعتقلين الفلسطينيين ، وتصدر الاحكام القاسية الفظيعة في ظل التحزب العنصري البغيض وتكون نتيجته حكما قاسيا قراقوشيا ٠ ويذكر ان عقوبة الاعدام فرضت في ٨ ايلول ١٩٧٢ في اوج الهستيريا المعادية للعرب التي نشأت اثر حادثة ميونيخ ٠ واخذت احكام الاعدام تصدر من قبل القضاة « بمبادرتهم » ، دون ان يطلب ذلك النائب العام ! (٨) ٠

لقد احضر نعيم قيلاني امام مدير سجن عسقلان وهناك ركله سجان في بطنه ، بحضور المدير ، فرأى انه لا يرى اية فائدة من الشكوى حيث يجري التنكيل امام مدير السجن نفسه ! (٩) ٠

وحاول احمد حسن ناجي بحيص ان يشتكي من الفظاعة التي يتعرض لها ، ترى ماذا كانت النتيجة ؟ لنسمعه يقول : « بعد ان اشتكيت لووا ذراعي خلف ظهري ودفعوني مرة اخرى الى مكتب التحقيقات ، وضعوا شيئا على عيني لكي لا ارى من يضربني ، كانوا يضربون من الخلف ، على الظهر ، لم اعرف من الضارب ، احدهم بدأ يخبط رأسي بالحائط ، ثم اعادوني الى السجن بعد الساعة التاسعة والنصف مساء » (١٠) ٠

وعندما مثل بحيص امام المحكمة وشرح قضيته وعرض جروحه قال المساعد حـــداد للمحكمة (١١) :

« علامات الضرب يبدو انها حدثت بسبب هياجه ، في اليوم نفسه الذي حققت معه فـي ٦٩/٨/٣ وسألته عن حادثة البيت بدأ يهيج وبدأ يضرب رأسه بالحائط ، لم الاحظ علامات، ولكن بعد بضع ساعات ربما كانت هناك علامات » ·

ان مسؤولي السجن يصرون على انكار تعذيب المعتقلين ، وحين يسألون يقولون : «هذا لم يحدث هنا · نحن لا نعلم من فعل له هذا » (١٢) · وكذلك يصم القضاة اذانهم عـــن اصوات المضروبين ، فعندما صرخ فيهم بشير الخيري قائلا : « تعالوا معي الى مسافــة امتار من هنا الى زنزانات سجن رام الله لكي تروا بأعينكم المضروبين والمعذبين هناك » قالوا : ان هذا ليس من شأننا !! (١٣) · وتبلغ الوقاحة بالمفتش كليتش الى ان يقول : « انهم يجرحون انفسهم ثم يوجهون التهم ضدنا ! » (١٤) · ترى اي كذب يضاهي هـــذا الكذب واية صفاقة هي اكثر من هذه الصفاقة ! وكثيرة هي امثلة التحايل والمراوغة التي يمارسها البوليس الاسرائيلي ، فمن اجل مقابلة معتقل يجب الحصول على تصريح مـــن المدعي العسكري والذي يؤكد ان الامر صعب للغاية ، وفي كثير من الحالات لا يمكن معرفة الجهة التي يجب ان تصدر التصريح · لقد حصلت المحامية لانجر على تصريح لزيـــارة السيوري في سجن الخليل ، ومع ذلك لم تره لان حالته لا تسمح بذلك (المقصود وضعـه الصحي المتردي من التعذيب) · واما اسحق الراغي الذي كانت جروح رأسه متقيحـة من الضرب فقد ابعد الى الضفة الشرقية من الاردن حتى لا يروي القصة في المحكمة (١٥)·

ويحاول السجانون التستر على اضراب السجناء ··· خمسة ايام مرت على اضــراب سجناء كفار يونا عن الطعام حتى علمت المحامية لانجر بذلك واخبرت عضو الكنيست مئير فلنر الذي نقل الخبر الى وكالة عيتيم· وعندما جوبه مدير السجون أ· نير بذلك قال ان السجناء لا يتناولون الا الطعام الذي يأتيهم من البيت · اما الوزير هيلل فكان اكثر شجاعة وصرح بأن لكل سجين الحق في الاضراب !! (١٦) ·

ان السلطات الاسرائيلية لا تعتبر رجال المقاومة الفلسطينية او رجال التنظيمات الوطنية المحلية في الضفة والقطاع عندما يقعون في الاسر اسرى حرب ، ولكنها تعتبرهم مخربيــن ومجرمين وتسجنهم مع اللصوص والقتلة اليهود ، كما تسجن المناضلات الفلسطينيات مع المجرمات والمومسات اليهوديات · وحتى اسرى معركة الكرامة لم يحصلوا على حقوق اسرى الحرب ، على الرغم من ان المعركة جرت بين قوات اسرائيل النظامية وقوات عسكرية تابعة للمقاومة الفلسطينية · هذا فضلا عن ان اسرى الكرامة قد وقعوا في الاسر الاسرائيلي وهم في مواقعهم خارج « فلسطين » المحتلة ، وان المبـــــادرة بالاعتــــداء جاءت من جانب الاسرائيليين · ان اسرائيل بذلك تخالف المادة الرابعة من حقوق الانسان (١٧) · والتـي تعطي حقوق اسرى الحرب « لاعضاء القوات المسلحة لطرف من النزاع وكذلـك الميليشيـــا والمتطوعون » · لقد ادى الوضع الشاذ للوطنيين الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية الى مصادمات بين هؤلاء الوطنيين والسجناء المجرمين اليهود ، وقد جرى الكثير من هـــذه المصادمات بتحريض السجانين الشوفينيين الاسرائيليين · لقـد اقتتـل رجـال المقـاومة السجناء (١٨) في سـجن شـطا في مرج ابن عامر مع الـسجناء اليهود وسـبعة مـن السجانين ، ويجوز لنا الشك بان ذلك كان بتحريض من سلطات السجن وحجتنا في ذلـك اشتراك سجانين يهود في العراك · وبدا الهدف واضحا من ذلك ، وهـو محاولــة اذلال

رجال المقاومة ، عندما رفض السجناء اليهود العودة لغرفهم حتى لا يدخل معهم رجـال المقاومة العرب (١٩) · لقد ارادوا الايحاء بان المعتقـل الفلسطيني احط من المجـرم الاسرائيلـي !!

من هذا النوع من محاولة الاذلال ما تعرضت له السجينة الفلسطينية عبلة طه ، قالت عبلة « بعد اعتقالي ادخلت الى غرفة سجنت فيها الومسات · هـؤلاء هاجمنني وضربنني بقسوة حتى فقدت الوعي · لقد مزقن ملابسي امام عيون رجال الشرطة وبقيت عارية · بعد ذلك ادخلوني مدة ثمانية ايام في زنزانة بدون مرحاض » (٢٠) · وقد قصت الومسـات الاسرائيليات جزءا من شعر لطفية الحواري ، والسؤال : « من اين للمومسات مقص في السجن ؟ » يؤكد دور سلطات السجن التحريضي ضد السجناء الفلسطينيين ·

لقد احتجزت السجينات العربيات داخل غرف السجن كعقوبة يوم عيد الفطر ، ومنعـن من الاستماع لصلاة عيد الفطر بواسطة المذياع ، في حين ان الاحتجاز يوم العيد غيـر متبع بالنسبة للمعتقلات اليهوديات · حتى في السجن ليس لديهم مساواة ! (٢١) ·

وبعد انفجار محني يهودا بدأ المجرمون من السجناء اليهود يقذفون نعيم الاشهب بكل ما كان في ايديهم في سجن الرملة · وعندما استغاث نعيم بالسجان طالبا ان يسمح لـه بالخروج الى غرفة اخرى رفض السجان الطلب ، وهكذا اخذ المجرمون اليهود يضايقون نعيم ، صبوا الماء على فراشه وجسده ، وظل نعيم الليلة بطولها قرب الباب · كان يصرخ ويستغيث ولكن ما من مجيب · وظل نعيم يعيش مع اخطر المجرمين اليهود · ذات يوم ضربه سجين محرض من اليهود بطبق الحديد على رأسه ، واراد ذلك المجرم الاستمرار ، لكـن السجناء العرب انتزعوه من يده وهو يقطر دما ·

لقد بلغ التمادي في محاولة اذلال سلطات السجون الاسرائيليـة للمعتقلين العرب ان عينت هذه السلطات سجناء يهود محكومين احكاما جنائية ليحلوا محل رجال مصلحـة السجون · والحراس المجرمون الجدد يفعلون كل ما بوسعهم لجعل حياة السجين العربـي مريرة للغاية بهدف ان ينال المحكوم اليهودي تخفيض ثلث مدة سجنه · ان مصلحة السجون ترمي الى خلق عداء عنصري مستحكم بين العرب واليهود ، وتريد ان تكبح جماح ايـة مطالب انسانية لدى السجناء الفلسطينيين بتخويفهم بواسطة الرادع اليهودي المتمثـل في تحريض السجناء اليهود على العرب وتعيين المجرمين اليهود في وظائف سجانين · ان السجين الفلسطيني يبذل ما في وسعه للمحافظة على صورته كسجين سياسي قاتل ضـد الاحتلال وما زال يناضل حتى داخل السجن من اجل المبادىء الانسانية العادلة المتمثلة في حقه بالمعاملة كانسان ، لكن سلطات السجون الاسرائيلية تمعن في تشويه صورة المناضـل الفلسطيني عندما تغري السجانين المحكومين احكاما جنائية بادخال الافيون والحشيش في حجرات المعتقلين بهدف الاساءة الواضحة والادعاء بان مثل تلك الاشياء تخص السجيـن الفلسطيني ·

ان الجلادين الاسرائيليين لا يكتفون بتحطيم المعتقل الفلسطيني جسديا ، بل ويحاولون تحطيم روحه المعنوية وتشويه صورته كسجين سياسي ومناضل ضد الاحتلال ·

التعـذيب

« فليتسيا ، رأيت الموت بعيني ! »

هكذا قال مصطفى الشاعر للمحامية اليهودية فيلتسيا لانجر · ان الكلمات لتعجز عن وصف فظاعة التعذيب فيالسجون الاسرائيلية ، ففضلا عن الضرب ، والتعذيب بالكهرباء وهدم الجسد بالعقاقير الكيمياوية ، وكلها اعمال موجهة لتهديم المناضـــل كجسد يقـوم الجلادون الاسرائيليون بتعرية المناضل وعصر اعضائه الجنسية وممارسة اقذر ما يمكن ان يتصوره العقل مثل ادخال المخاط من الانف الى الفم ، البصق في الفم او البصق علـى الثياب والطلب الى السجين لعق البصاق ·

ولكن يكون القارىء صورة عن وضع السجين الذي يصمد بعد التعذيب ندون هنا مـا قاله سجان اسرائيلي ·

« مديرنا يرفض استلامهم بعد التحقيق وهم شبه اموات · نحن نرفض هنـا استـلام اي معتقل بعد تحقيق الشين بيت ان لم يكن كاملا » ·

يبدأ السجين مع رجال الشين بيت ـ المخابرات ـ ويهدف التحقيق المصحوب بالتعذيب الفظيع الى مـا يلي :

١ ـ الحصول على معلومات استخبارية عن الوضع السياسي والعسكري للمنظمـات الفلسطينية والدول العربية · ولا تقتصر استخباراتهم على الاشخاص الذين يقعون فـي اسرهم ، بل على « زوار الصيف » من العرب الذين تكون لدى المخابرات الاسرائيليـة معلومات في انهم يعملون في اجهزة عسكرية او امنية خاصة ، من ذلك ما حصل لذلك الفني العربي الذي يعمل مع شركة بن لادن في المملكة العربية السعودية في انشاء مطار عسكري، لقد قبض رجال الشين بيت عليه دون ذنب اقترفه ، وعندما سألوه عن المطارات العسكرية في المملكة العربية السعودية ولم يعط معلومات افهموه انهم يعرفون جيدا كل المطـارات التي عمل فيها ويريدون المزيد ·

٢ ـ الحصول على معلومات استخبارية تفيدهم في الحرب الوقائية التي يشنونها ضـد المنظمات الفلسطينية في الداخل والخارج ، وضد التنظيمات الوطنية في الضفة والقطـاع وبين عرب الارض المحتلة وانصارهم من اليهود المعادين للصهيونية · ولذلك فانهم يمارسون ابشع صنوف التعذيب في محاولة لمعرفة خلايا الفدائيين في الداخل التي تخطط لضـرب منشآت العدو وتخزن السلاح في « تخوم الارض الفلسطينية » ، لكنهم كثيرا ما يحاولون اعتصار المعلومات من شخص بريء لا يمتلك السلاح ولا ينتمي لاي تنظيم مثل صلاح مداح الذي قال لمعذبيه :

ـ « انا بريء : اذا اعترفت ، في اعقاب التعذيب ، بان لدي سلاحا ، وهو كذب ، فمن اين آتي به ؟ » ·

فأجابه المحققون بسخرية :

ـ « اشتر ! »

فقـال :

ـ « أقتلوني ، انا بين ايديكم · خير لي ان اموت انسانا بريئا ، من ان اعترف ، خوفـا منكم ، بشيء لم افعله » (٢٢) ·

٣ ـ واذا لم ينجح المحقق الاسرائيلي في الحصول على معلومات من المعتقل فانه يعرضه

لتعذيب فظيع سادي بهدف هدم جسده ومحاولة النيل من صموده ، او ان المحقق يلجأ لوسيلتين :

الاولى : مطالبة السجين بالموافقة على ابعاده ، فلقد طلب حاكم غزة العسكري من مفيد رمضان العودة الى المانيا الشرقية حيث امضى مفيد فترة دراسته الجامعية ، كما اقترح نفس الشيء على تيسير العاروري ٠

الثانية : قتل السجين وانهاء حياته ٠

٤ ـ كما يهدف التعذيب الى تحويل السجين الى مواطن مهدم من الناحية الفسيولوجية وضرب روحه المعنوية وتحويله الى انسان ذي عاهة غير قادر على مواصلة النضال بعد ابعاده او الافراج عنه ٠

لقد قال استاذ جامعي لبعثة من بعثات الامم المتحدة التي زارت اسرائيل بان التعذيب يجري خلال الاستجواب ، وليس في السجن الرسمي (٢٣) ، لكن مئات الوقائع دلت على ان السجناء الفلسطينيين عذبوا بعد صدور احكام المحاكم عندما حاولوا المطالبة بتحسين الاحوال او اضربوا من اجل الضغط باتجاه تحقيق هدفهم في المعاملة الانسانية ، او ردوا على استفزازات ادارة السجون والسجناء اليهود ٠

لقد خرج الكثيرون من السجناء الفلسطينيين من سجون العدو ، او استمروا في تمضية مدة الحكم بعد ان فقدوا سمعهم ، نظرهم ، اعضاء من اجسادهم وعاشوا في عاهة مزمنة ، فهذا يوسف العلي يعيش في سجن الرملة مقطوع الرجلين وترى السجان يكسر العصا التي يتوكأ عليها على رأسه ٠ لقد تسبب السجين محمود ابو دنهش في اثارة الاضراب العام في سجن عسقلان لانه اعمى ومريض ويمضي فترة حكمه السوداء ٠ لم يتمكن السجين الاعمى والمريض من الوقوف في حالة استعداد اثناء تفقد السجناء وظل مستلقيا بسبب عماه ومرضه فاقترب منه السجان واخذ يضربه حتى جرح في جميع انحاء جسده ٠ وكانت تلك الشرارة التي اشعلت الاضراب ٠

ولا بأس من ان نعطي فسحة للتحدث عن العاهات التي اصابت بدر دعنا ، سالم وعبد وعبد اللطيف ابو رميلة من جراء التعذيب في سجون اسرائيل ٠

اصيب بدر دعنا بانهيار عصبي وهو محجوز على انفراد ، بدا يثور ثم يهدأ وهو ملاحق بالمخاوف ، ويظن انهم يريدون قتله ، وان الجميع يكرهونه ، انه لا يريد مقابلة احد، ويتصرف كطريدة هاربة ، فالطبيب يعطيه اقراص النوم فينام طويلا ثم يستيقظ ويجلس منطويا على نفسه ويرفض تناول الطعام (٢٤) ٠ واستمر بدر دعنا يرفض مقابلة والديه والمحامية ويرفض الطعام ٠ وحتى اليوم لا يوجد من يوافق على معالجة بدر دعنا او نقله الى المستشفى ، وليس هناك من هو مسؤول عن صحة بدر غير سلطات السجون الاسرائيلية التي تضاهي سجاني العهد النازي ٠

واما سالم بن جاد عبيد من بيت لحم فقد اصيب بالجنون بسبب فظاعة تصرف رجال الشين بيت ٠ لقد جاء الاسرائيليون لاعتقال اخيه ٠ كان سالم نائما ، ولم يكن يعرف شيئا ٠ لقد ايقظوه واوقفوه الى جوار الحائط وبدأوا يضربونه على ظهره ورأسه ٠ لقد سمعت الام والاخت ، ورأتا ولكنهم لم يسمحوا لهما بمساعدته او الاقتراب منه (٢٥) ٠ يبدو انهم ضربوه ضربة في المكان غير الصحيح ٠ وبعد ان ذهبوا في اليوم التالي كان

سالم يعاني من الم شديد في الرأس وبدأ يهذي حتى دخل مستشفى الامراض العقلية ٠

والحالة الثالثة هي حالة عبد المطلب ابو رميلة الذي عذب بالهراوات والكهرباء وبادخال عيار بندقية في شرجه ٠ هددوه بانه اذا لم يتكلم فانهم سيأتون بزوجته ويضاجعونها امامه ٠ كانوا يضربونه بعنف ، لكن حايم ـ احد الجلادين والذي كان يرتدي قميصا احمر ـ كان يضربه اكثر من الاخرين ٠ وهكذا اصيب ابو رميلة باكبر عقدة من اللون الاحمر ، وصارت تصيبه نوبة هسيترية كلما شاهد اللون الاحمر ٠ في البدء قالوا ان لا مكان له في مستشفى الامراض العقلية التابع للسجن ٠ وحكموا عليه بالسجن عشر سنوات ٠ وظلت تعود اليه الكوابيس واخيرا لم يعد يرى بسبب خلل في جهازه العصبي ٠

وسائل التعذيب في جحيم السجون الاسرائيلية :

١ ـ الضرب

« هؤلاء هنا لا يفهمون سوى لغة الضرب » ٠

هكذا قال سجان اسرائيلي نازي الطبع ٠ نعم الضرب ٠٠٠ والضرب بهدف السحق والكسر والتهديم وخلق العاهة ٠٠٠ انه ضرب لا اخلاقي بالدرجة الاولى ٠ لقد لخص يسرائيل شاحاك ، رئيس عصبة حقوق الانسان في اسرائيل ، عمليات الضرب في السجون الاسرائيلية بأنها : صفع على الوجه ، لكمات ، ضرب الرأس بالجدار ، وضرب في كل مكان في الجسد (٢٦) ٠

هناك حالات يضرب فيها المعتقل في البيت (٢٧) ، ويضرب المعتقل في الطريق الى سيارة الشرطة وداخل السيارة ٠ لنسمع افادة يوسف العجوري : « بدأوا يضربونني مباشرة بعد اخراجي من البيت وعندما ادخلوني في مصفحة الجيش ضربوني بعقب البندقية وعيناي معصوبتان » (٢٨) ٠

انه ضرب يحمل أهداف التدمير التام ، لقد القوا يوسف محمود على الارض ٠٠ واخذوا يضربونه ويدوسون عليه (٢٩) ، في نفس الوقت ، كانوا كمن يرقصون رقصة جنونية شاذة ، وضربوا طالب سمارة بشارة على الاعضاء الجنسية حتى اغمى عليه ، وعندما كان يفيق كانوا يستأنفون الضرب (٣٠) ٠

لقد ضربوا عبد الله من بني نعيم ما لا يقل عن ثمانين بسطارا بمجرد دخوله الى صرفند ، سألوه عن اسمه فقال : عبد الله ،وهنا انهالت البساطير ٠ ويشترك في الضرب اكثر من شخص واحد ، ولدي اربع حالات اشترك في ضرب المعتقلين فيها على التوالي : اربعة سجانين ، ستة سجانين ، سبعة سجانين وعشرون (!) سجانا بين نفر وضابط ٠

احاط اربعة رجال بالسجين احمد راعي بمجرد ولوجه غرفة التحقيق [للايحاء بالطبيعة الجهنمية للغرفة !!] وبدأوا يضربونه على كل مكان من جسمه وعضوه التناسلي ورأسه واشترك ستة سجانين في ضرب صبحي نعاراني اثناء التحقيق (٣١) اما زياد عاشور فقد دخل الى غرفته سبعة رجال واحاطوا به وضربوه جميعا بعد ان علقوه على قضبان الشباك (٣٢) ٠ كان زياد في وسط ذلك الجحيم من الكراهية يتلقى سبع ضربات كل طرفة عين ومئات الشتائم المهينة ٠ كان في بحر من الكراهية الفاشية ٠ واشترك عشرون سجانا بين نفر وضابط (٣٣) ، في ضرب يوسف الحمدان ٠

وللتدليل على ان اسلوب الضرب في السجون الاسرائيلية هو اسلوب لا اخلاقي

وهمجي نورد الحالات التالية :

* افادت عبلة طه ان الشرطي دويك رفسها وشتمها بينما كانت مستلقية ومغشيا عليها من شدة الضرب · كانت حاملا في شهرها الثاني !! وبدأت تنزف دما ، وعندما طلبت طبيبا لم يلب احد طلبها (٣٤) ·

* قال احمد الهدهد بأنهم ضربوه بكاوتشوك عريض ، املس وناعم ، وهذا النوع من الكاوتشوك يترك على جلد الانسان علامة حمراء تختفي بعد ساعة ، لكنها تترك جرحا داخليا تحت الجلد ، ومن قلة الغذاء والمعالجة فانه يترك التهابات داخلية تتحول بعد ذلك الى امراض فتاكه · وغرض هذا ان لا تظهر اثار التعذيب امام اللجان الطبية (٣٥) ·

* ضربوا نجيب سليم محمود على مكان « قطب » عملية اجريت له في المرارة والمعروف ان مثل هذا الضرب الهمجي قد يؤدي الى تخريب العملية الجراحية والوفاة ·

* لقد ضربوا عبد الله من بني نعيم بوسيلة ضرب مزدوجة ، كانوا يوقفونه ووجهه ملتصق بالجدار ، بحيث كلما ضرب ضربة واحدة نتج عنها ضربة في الظهر واخرى في الوجه ناتجة عن اصطدام الوجه بالجدار · لقد استمر الضرب والتحقيق مدة ستة شهور كاملة ·

* طلبوا من عبد الجابر السيوري ان يخلع ملابسه ثم كبلت يداه ، وهو عار ، الى الخلف ، وتم تعليق عبد الجابر بحبل ربط بجسده بحيث اصبح يتأرجح وهو معلق وعار لتظهر كل الاماكن الحساسة للضرب · واخذوا يضربون بحقد (٣٦) ·

* كلما كانوا يأتون لاحضار الطعام ليوسف العجوري في زنزانته كانوا يضربونه ضربا موجعا وطويلا ، وكأنهم ارادوا ان يلقوا عقدة كبرى لدى يوسف من الطعام ليمتنع عنه ويموت جوعا · وليتصور القارىء وضع سجين يرتبط بذهنة الطعام بالضرب ·

* ادخل جميل الحسن الى الزنزانة وربطوه بالسلاسل ووضعوا الى جواره سجانا مهمته ان يضرب السجين كلما « داعب النوم اجفانه ! » (٣٧) · ترى اي حقد اسود يعمل على الربط بين النوم والضرب ؟!

التعذيب بالنار

واي شيء اكثر اثرا من النار ؟ هذه النار يعاقب فيها المقاتل الفلسطيني من اجل الحرية ومواطنو الضفة والقطاع الرافضون لاحتلال بلادهم ·

لقد اشعلوا اوراقا ودسوها بين اصابع قدمي فندي فارس وكان الرجل يراقب اللهب وهو يأكل الورق ويأكل ايضا جلده فيما كان السجان يساوم ·

وكانوا يصلبون عبد الله يوسف عدوان في سجن طولكرم (٣٨) ثم يأتون بعلبة كبريت ويأخذون في اشعال عود بعد اخر ويقربونه من شفتي عبد الله ليبدأ الجلد بالذوبان · كان ذلك بمثابة تسلية للسجانين !

واما عبد اللطيف ابو رميلة فكانوا يكوونه بالسجائر المشتعلة في شفتيه وحلمتي ثدييه واعضائه التناسلية ، ثم ادخلوا عيارا ناريا في قفاه ·

وتعرض المهندس حسني حداد لاطفاء السجائر المشتعلة في باطن القدم ، حتى احترق الجلد ، ففضلا عن الالام التي ليست في طاقة الانسان والتي كان يعانيها من جراء حروق السجاير فانه وجد نفسه غير قادر على المشي او الحركة ٠

التعذيب بالكهرباء

اعلن يسرائيل شاحاك مأساة شوقي الخطيب عندما كتب عن تلك المأساة في جريدة الاتحاد (٣٩) ٠ لقد اودع شوقي الخطيب فيزنزانة واخذوا يعذبونه بالصدمات الكهربائية بحيث يدق سجان كل ربع ساعة على باب الزنزانة ويخرجه ليضرب بصدمات كهربائية متعاقبة ، ثم تتم تعريته ورشه بالماء البارد ٠ والمعروف ان الماء يساعد على زيادة اثر الصدمة الكهربائية ٠

ان تناوب تغطيس السجين في الماء البارد (٤٠) والصدمة الكهربائية يمكن ان يؤدي لمضاعفات توصل الى الوفاة ٠ وهذا النوع من التعذيب الذي تمت ممارسته مع شوقي الخطيب انتهى بان احرق السجان الاعضاء الجنسية لشوقي بصعقات كهربائية متلاحقة ٠

وظل شوقي الخطيب يرزح تحت تأثير الصدمات الكهربائية التي كانت تسلط على كل مكان في جسده (٤١) ، دون استثناء ٠

وعذب زياد عاشور بالكهرباء وذلك بوضعها في قفاه ، وعندما طلب فحصا طبيا لم يجبه احد ، حتى شلت يده اليسرى ٠

وتتم عملية تعذيب السجين بالكهرباء وهو مقيد او معلق الى السقف ، وتربط ذراعا السجين من الخلف لتقيد الى السقف ، وهكذا يتدلى جسد السجين في الهواء ، وبعد ذلك تعصب عيناه ثم يبدأ السجان بتقريب الرأس الكهربائي في صدمات مفاجئة ٠ ولهذه الصدمات مفعول مزدوج : الالم والخوف المفاجيء ، اذ لا يدري السجين الذي عصبت عيناه متى تأتيه الصدمة ٠

وهناك اسلوب اخر واسمه اسلوب التليفون ، وفي هذه الحالة يجلس السجين الذي يراد تعذيبه على مقعد وتعصب عيناه ثم تشد ذراعاه الى الوراء ٠ بعد ذلك يربط مصدران من مصادر الكهرباء بحلمتي اذني السجين ٠ وتبدأ الصعقات الكهربائية كما تأتي موجات الكلام من التليفون ٠

لقد تعرض زياد العزة (٤٢) ، لتيار فظيع من تلك « السماعات » التي تزود الرأس بآلام لا حد لها ٠

التقييد ، الشد والتعليق

ويقوم السجانون بربط السجين بسلاسل حديدية وشده الى السقف ، الجدار ، باب الزنزانة ، أو ارضيتها ، والهدف من هذا الشد هو تقييد الحركة او جعلها غير مريحة بحيث لا يستطيع السجين ان يحصل على قسط من النوم والراحة ٠ كما يهدف التعليق الى جعل ثقل الجسم محملا على الرسغين ، الذراع الواحدة ، الذراعين المربوطين الى الخلف او اي عضو يتم تعليق السجين منه ٠ وهناك نوع من التعليق يهدف الى جعل كامل الجسد

معروضا ومتأرجحا لينتقي السجان المكان الذي يبدأ منه التعذيب بسهولة ويسر · وبصورة عامة فان الشد والتعليق يهدفان الى شل حركة وقدرة السجين على المقاومة او مجرد حماية نفسه او اي عضو في جسده ، اذ ان السجين بصورة غريزية يحاول دفع الاذى عن نفسه او تغطية المواقع الحساسة من جسده ، ولو بالاعضاء اذا كان عاريا ، فالانسان بصورة غريزية يحمي رأسه وعينيه واعضاءه التناسلية او يتكور كما يفعل القنفذ ليحمي جسده · وهكذا يهدف السجان الى حرمان السجين من هذه الوسائل الغريزية البسيطة وجعل جسد السجين صفحة بيضاء مفتوحة امام الجلاد النازي ·

من اشد انواع التعليق ما تعرض له عبد السلام التميمي من النبي صالح عندما قيدوه الى باب الزنزانة بقيد ذي اطراف حادة جارحة ، حتى اذا ما حاول السجين الاسترخاء اصطدم معصماه بالقيد الجارح فيجرح وهنا يضطر الى البقاء منتبها ورافعا يديه الى اقصى حد يطيق ليحمي يديه من الجراح ·

لقد علقوا سليمان النجاب في قبو حجمه ٦٠ سم × ٦٠ سم × ١٦٠ سم وتتألف ارضيته من حجارة مدببة تلمس ارجل السجين (٤٣) ·

لمدة ٣٢ يوما ظل يوسف العلي مقيد الايدي والارجل في زنزانة مرصوفة الارض بحجارة مدببة (٤٤) · وكانوا ينقلونه الى التعذيب مجنزرا بالحديد ومغطى الرأس بكيس من القنب السميك الاسود ، ويجبرونه على الزحف فوق الحصى الخشن · ظلوا يجبرونه على الزحف عاريا معقود الايدي خلف العنق ثلاث مرات يوميا بعد وجبات الطعام ، كما ارغموه على السير في اخدود متناهي الضيق والكيس يغطي رأسه بحيث يسقط عند كل خطوة · اجبروه على القفز داخل الاخدود ليقع ويؤذي نفسه والكيس يكتم انفاسه عن الهواء ، وعندما يخطيء في التنفيذ كانوا يضربونه بشكل همجي ويقفزون على اكتافه او يدوسون بين معصميه · لقد كان كل ذلك التعذيب البشع والسجين مقيدا معصوب العيون امعانا في التضييق عليه وشده الى جحيم دنيوي لا يطاق ·

لقد مارسوا ضد عبد الله ، من بني نعيم ، نوعا من التعليق (٤٥) الذي يذكر بعقوبة الاعدام ، فقد علقوه بالكلبشات في سقف الغرفة بعد ان اوثقوا ذراعيه من وراء وظل مستندا على طاولة بثقل جسده ، ثم بدأت اسئلة التحقيق حتى اذا ما وصلت الاسئلة الى النقطة الحرجة اسرع المحقق يسحب الطاولة من تحت قدمي عبد الله ، ليصبح كل ثقل الجسم على الذراعين ·

واجبر فواز تركي على ان يظل مشدودا في وضع غريب للاشيء · احضروا طاولة ووضعوا فوقها علبة من التنك وتركوه يقف على العلبة برجل واحدة (٤٦) ·

وشدوا سليمان النجاب برجله اليمنى الى الباب بواسطة سلسلة طولها ٣٠ سم بحيث لا يقوى على الوقوف الا مستندا الى الجدار · اما اذا رام النوم بين نوبات التعذيب فكان يتكور بحذاء الباب الحديدي · وفي حالات اخرى كانوا يوثقون السجين بحيث تشد رجل للسقف واخرى للارض ·

اما احمد راعي ، فقد اوثقوا قدميه ويديه خلف ظهره بحبل وعلقوه في وتد مثبت بالنافذة · وراح واحد من السجانين يؤرجحه بينما قام اخر بجلده على اخمصيه حتى تحولت اصابعه الى لون الفحم ·

التعذيب بالعقاقير الكيماوية

اي تهديد سادي احقر من ان يحمل المحقق محقنا ويقول للمعتقل : عما قليل ستصبح امرأة بعد ان احقنك بهذا المحقن ؟ (٤٧) ·

لقد حقنوا عطا القمري حقنة بعضوه الجنسي حتى اغمي عليه ، وعندما افاق بدأوا يضربونه على خصيتيه (٤٨) · وكذلك احمد الهدهد فقد حقنوه بابرة في الوريد انتفخ بعدها جلد رأسه بالماء ، ونقلوه الى المستشفى لرفع هذا الماء من رأسه ، لكن العملية فشلت ونزل الماء على عينيه · وعندما اعادوه الى سجن الرملة منعوا عنه الدواء ليفقد بصره تدريجيا · وكانوا يجرحون جسمه ويرشونه بالملح (٤٩) ·

وافاد المقاتل عبد الله من بني نعيم ان السجانين زرعوه في حفرة وصبوا عليه الماء والملح تدريجيا ليرتخي لحم الجسم ويتعفن (٥٠) ·

وقال احد المعتقلين لمندوب الديلي ستار ، ان السجانين ربطوا شكلا من اشكال البلاستر اللزج على رأسه ورجليه ، واحس المعتقل انه بحاجة ماسة لان يصرخ ، لكنه لم يستطع اخراج الصوت وكأنه اصيب بالخرس ·

وافاد سليمان النجاب بأن السجانين استخدموا مادة محرقة رشوها على خصيتيه ، فاضطرم فيهما الم يجل عن الوصف ، وشعر بأن نارا حامية تغرق الخصيتين · كما رشوا من نفس المادة على حلمتي صدره (٥١) · ومثل ذلك حصل لزياد العزة (٥٢) ·

ويتجلى الحقد النازي بالممارسة القذرة التي مارسها السجان الاسرائيلي مع عبد الرحمن حمدان المصلح والذي تعرض لوضع قطعة قماش مغمسة بحامض النيتريك بين شفاهه (٥٣)·

التعذيب بالماء البارد

بصورة عامة يمكن القول ان سلطات السجن في اسرائيل تتعمد ترك السجناء يعانون من شدة البرد وذلك بمنع ادخال الالبسة والاغطية الدافئة في الشتاء ، كما تتعمد حشر السجناء في غرف مكتظة او زنازين انفرادية غاية في الضيق مليئة بالرطوبة وتكاد تكون عديمة التهوية ·

وبالاضافة لكل هذه الاجراءات الحاقدة فان سلطات السجن تسخن وتبرد السجين على التوالي لتدمير صحته واصابته بالربو وامراض الرئة وتشقق الجلد وما شابه ذلك ·

لقد كانوا يتعمدون تعرية احمد هواري وصبحي نعاراني ورشهما بالماء البارد · اما علي شجار فتركوه يجلس فترة طويلة الى جانب فرن ثم اخذوا يصبون عليه ماء مثلوجا · وقال عبد الله السرياني في افادته انهم كانوا يعرونه في الليل من ثيابه ويشدون وثاقه الى باب الزنزانة ثم يسكبون عليه الماء البارد ، وفي احدى الليالي الثلجية اخرجوه الى العراء ثم راحوا يدحرجونه على الثلج ويضعون الثلج تحت ابطيه وبين فخذيه (٥٤) ·

التعذيب بالحرمان من الحاجات الاساسية

من اشد وسائل الضغط من جانب سلطات السجون على السجناء حرمانهم من الحاجات

الاساسية للانسان مثل الاكل والنوم وقضاء الحاجة والعلاج الضروري ٠

لقد كان اصعب شيء عاناه عبد العزيز شريف هو حرمانه من الخروج الى المرحاض ٠ لقد فعلوا ذلك وكان صعبا للغاية (٥٥) ٠ ومنعوا سليمان النجاب من النوم لمدة ثماني واربعين ساعة ٠

ومن استقراء افادات السجناء والمعتقلين يتبين ان المعالجة الطبية هي نوع من الضحك على العقول ، وفي كثير من الحالات يحرم السجين من اي معالجة ليموت موتا بطيئا ٠ من الامثلة الكثيرة على الحرمان من العلاج ما عانته لطفية الحواري من التأخير في العلاج ، وعندما فحصها طبيب العظام صعق لان مريضة مثلها بقيت دون فحص طبيب العظام طيلة ثلاثة اشهر ٠ لقد سأل الطبيب ادارة السجن اذا كان لديها طبيب للمعالجة الفيزيائية ، وعندما سمع اجابة سلبية علق على ذلك بقوله :

« فقط زنزانات يوجد لديكم » (٥٦) ٠

لقد اظهرت فحوصات دم لطفية فقرا في السكر وفي الدم وفقرا في الكريات الحمراء (انيميا) ٠ كانت تشعر احيانا بضعف عام لدرجة انها لم تكن تستطيع تحريك اعضائها ، ولكن برغم نوبات الالم ونتائج الفحوص كانت ادارة السجن تدعي ان لطفية تمثل وان مرضها ليس مرضا صعبا الى هذا الحد ٠

وتصر سلطات السجن على حرمان لطفية من العلاج بالتحايل والتمسك بحرفية النصوص، اذ زار لطفية عدد من اطباء القدس العربية المشهورين وقد اوصى احدهم بمعالجة مرضها لكن شيئا من ذلك لم يتم بحجة ان العلاج يجب ان يتم في المستشفى !

اشياء اخرى كثيرة يعاقب بها المسجوجون مثل الحرمان من التدخين والقراءة وشراء الحاجيات من الكانتين او الخروج الى النور والشمس ٠٠ وكذلك الحرمان من تقديم فحص البجروت (الشهادة الثانوية) او الاستماع الى صلاة العيد ٠

الحقن بالماء

تتم عملية التعذيب هذه بواسطة انبوب يوضع طرفه في مؤخرة المعتقل ويوصل الطرف الاخر بحنفية الماء ٠ وهكذا بعد فتح الحنفية يتم حقن الماء داخل بطن السجين حتى يمتلىء ٠

التعذيب بواسطة الكلب

للكلاب البوليسية دور كبير في اسرائيل في مجال ملاحقة ومطاردة العناصر الوطنية ، كما تستعمل الكلاب ايضا في حراسة السجون والمعتقلات ومرافقة الدوريات ، وفوق ذلك فهي تستغل فى تعذيب وايذاء المعتقلين والسجناء ٠

لقد افاد احمد الهدهد بأن سلطات السجن احضرت اليه كلبا ملوثا ومنزوع الشعر وجسده مليء بالدمامل وينزف منها القيح الابيض ٠ وقد عروا احمد الهدهد وعلقوه من معصمه فى السقف ٠ وجاءت فتاة واخذت تمسك بالعضو التناسلي للمعتقل وتحثه حتى احمر واتسعت مسام جلده الخارجية ، وبعد ذلك جعلت الكلب يهجم على احمد ويبصق عليه قيحه ، وبعد ذلك ظهرت على جسمه نفس الدمامل المتقيحة التي كانت على الكلب (٥٧) ٠

اما عبد الله من بني نعيم فقد عراه السجان تماما ثم علقه من رسغيه في السقف ، واحضر كلبا اخذ يلعق كل نقطة في جسده العاري ٠

ويستفاد من افادات المعتقلين ان سلطات السجون كان تلقي بالسجين داخل زريبة الكلاب لتقوم هذه بنهشه وتمزيق ملابسه وتجريحه حتى يغمى عليه ٠

التعذيب النفسي

يمكن ان نلخص مفهوم التعذيب النفسي بأنه محاولة لتدمير معنويات السجين وبث الرعب في نفسه واذلاله وسحق كل امكانيات الامل لديه بهدف ان يدلي بكل ما لديه من معلومات والتعاون مع سلطات السجن ٠

اولى اساليب التعذيب النفسي هي تحقير السجين واذلاله من خلال الشتائم الفاجرة التي تمس شخص السجين وعرضه وعائلته ودينه وشعبه ٠ وهناك ممارسات اخرى للتحقير مثل البصق في وجه السجين وداخل فمه او مؤخرته ٠ وقد يعمد الجلاد الى « نتف » شوارب السجين وعانته لانه يعرف ان شاربي السجين العربي يرمزان الى كرامته ٠ ومن وسائل الاذلال ان يضع السجان عصا في دبر السجين ، كما فعلوا مع عثمان (٥٨) ٠

وهناك وسيلة تعرية السجين من ملابسه بهدف فضح عوراته وجعله مثار سخرية السجانين وسخرية كل من يراه ، هذا فضلا عن استعمال التعرية لنشر الالام في كل مكان من الجسد بالضرب وعند الزحف ونحوهما ٠

ان الجلاد الاسرائيلي يعرف اهمية حفظ العورة عند العربي ولذلك فهو يضغط من هذه الزاوية ليذل ضحاياه ، فمثلا يعمد الجلادون الاسرائيليون الى تعرية النساء بحجة التفتيش وايقافهن شبه عاريات ، او عاريات تماما مدة طويلة امام الجدار ٠ لقد تصرفوا على هذا النحو في باص للممرضات كن في طريقهن الى المستشفى في الشارع الرئيسي ٠ وبعد تدخل هيئات دولية اوقف هذا التصرف في الشوارع الرئيسية ولكنه استمر في الازقة (٥٩) ٠

هناك معتقل عراه ضابط التحقيق تماما ، وربط خصيتيه بخيط من النايلون وربط الخيط بمسمار في طاولة التحقيق ، وبدأ بتوجيه اسئلة من نوع : متزوج ؟ ٠ قال المعتقل : لا ٠ قال السجان : يا للخسارة ! سوف اقطع خصيتيك بموسى الحلاقة وبحيث لا تتمكن من الزواج ٠ اما اذا اعترفت انقذت نفسك (٦٠) ٠ ترى اي عذاب نفسي يمكن ان يسببه هذا التهديد بالحرمان من الرجولة ! ان الجلاد يريد ان يبث رعبا ما بعده رعب في نفس السجين عن طريق الايحاء بأنه على وشك ان ينهي حياة السجين ٠ فمثلا يضع السجين في حفرة ويطلق النار فوق رأسه ويفهمه بأن الحفرة ستكون قبره ٠ وقد يعمد السجان الى اسماع السجين اصوات اطلاق نار غزير وانفجارات او صراخ شديد ٠ وكذلك فهناك وسيلة التعذيب اثناء عصب العيون ، والمقصود منها ان يظل السجين في رعب دائم وتحسب مستمر حول ما يمكن ان يحيق به على يدي ذلك السجان الذي لا يرحم ٠

ويطالب السجين بأن يقول كلمة « سيدي » للسجان بعد كل كلمة يقولها ، وان لم يفعل ذلك ضرب ضربا شديدا ٠ ترى اي اذلال اكبر من ان ينادي المقاتل عدوه بكلمة « سيدي ؟! » ٠

ويمكن ان يزرع المقاتل في حفرة ليأتي حارس فيلعب الكرة بالرأس البارز ٠ ثم يقدم

الطعام لذلك الشخص المدفون حيا ورأسه فوق التراب ليأكل لعقا مثـــل الكـــلاب ، ويقول السجان : « كل يا كلب ! » · وفي حالات اخرى يدفع السجان الطعام الى السجين بواسطة ركله بالقدم ·

ان تهديدات السجان لذوي السجين تبعث بآلام نفسية لا حد لها ، كما ان تهديدهم بنسف بيت السجين تجعله يعاني عذابا نفسيا لا حد له · لقد هددوا احمد الهدهد بنسف بيتـه ، وهدد وليد الديسي باحضار والديه وسجنهما · كما هددوا سليمان النجاب بالاعتداء على زوجته ، واسمعوه صوتها ، لكن الرجل قال :

« كنت مقتنعا ان شرف زوجتي الحقيقي هو في صمودي ، واستسلامي هو تقديـــم زوجات رفاق اخرين الى العدو » ·

وهددوا رشاد الصغير بنسف بيته وباحضار شقيقاته وامه ومضاجعتهن امامه ·

السجون والمعتقـلات

يمثل الاحتلال الاسرائيلي بحد ذاته سجنا كبيرا لاعتقال الشعب الفلسطيني والشـــعب العربي في الاراضي المحتلة · فبالاضافة الى تقييد التنقل واشتراط الحصول على التصاريح، فان العربي مهدد في اية لحظة بالاعتقال عند وقوع اي حادث امني مهما كانت طبيعـــة وجوده في منطقة الحادث · وفي حين تمر السيارات اليهودية بأمان ويسر تتوقف السيارات العربية عند الحواجز للتفتيش ، وينزل الركاب لتقلب مقاعد السيارة ايضا · وبالاضافـة لوجود السجون في كل مدينة فهناك معسكرات الاعتقال الجماعية التي يعتقل فيها الوطنيون وعائلاتهم واقاربهم · وكذلك هناك معسكرات تجميع السكان في مختلف انحاء قطاع غزة · وتتوفر القوانين التعسفية اللازمة لجلب اي مواطن عربي وحجزه وحتى اعتقاله اعتقـــالا اداريا اذا لم تكن هناك اسباب منظورة لاعتقاله ·

وتحت هذه الفقرة نحاول القاء نظرة على السجون ذاتها من خلال المعلومات المتوفرة عن مواقع هذه السجون وظروف تكوينها وطبيعتها القمعية والحياة اليومية للسجناء فيها ·

١ ـ **سجن عسقلان** : هذا السجن مخصص للسجناء الفلسطينيين الذين صدرت بحقهـم احكام فوق العشر سنوات ، ويرسلون اليه لقضائها ، ولذلك فهو اشبه بمعسكر اعتقال ، والاجراءات فيه صارمة وقمعية · وهو سجن محروس بشكل جيد · فبالاضافة للحراســـة العسكرية والالكترونية ، هناك حراسة الكلاب البوليسية · عن هذه الكلاب نقتبس مـن لانجـر :

« كان كلبان كبيران يدوران في الفناء · كلاب اخرى احتجزت في منطقة مسيجة · وهذه نبحت بغضب خاص · الاثنان اللذان كانا طليقين رافقاني حتى المكتب · ليس لدي مـــا اقوله · حرس شرف حقيقي · احد الكلاب كان خاصا بالمدير · وهذا لم يفارقني · بينمـا يبتسم نائب المدير وهو يقول : « لقد اعجبته ! » · اعترف بأن الاعجاب لم يكن متبادلا » ·

الطبيعة القمعية لهذا السجن واضحة تماما ، لا يسمح للسجين بأن يرفع رأسه وهو يكلم احدا من السلك · يقف السجين مخفوض الرأس والعين ، ويتلقى الضربات على اليميـــن وعلى اليسار ·

وينام السجناء على حصير رقيق جدا ، وطوال اليوم يجلسون على ارضية الباطـــون

والكثيرون يشكون من انهم اصيبوا بالروماتيزم · ان جميع السجون الاخرى بما في ذلك الخليل جنة عدن اذا قورنت بهذا السجن (٦١) ·

ولا يسمح بادخال الكتب او الصحف الى هذا السجن ، ويسيطر عليه نظام صارم ، وعندما لا يطيع السجناء الامر يقمع المتنعون بالقوة ·

ويرى السجناء في سجن عسقلان محشورين في القفص طيلة ثلاث وعشرين ساعة في اليوم بمعدل عشرين سجينا او اكثر في كل غرفة · وعندما زار مندوب الصليب الاحمر هذا السجن في ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ تموز من عام ١٩٧٥ وجد فيه :

القطر	عدد السجناء
مصر	١٠
الاردن	٢٠٧
سوريا	٢٢
لبنان	٩
العراق	٨
غزة	١٣٣
المجموع	**٣٨٩**

وتوفي في سجن عسقلان الدموي في ٧٥/١/٢١ عمر احمد عوض الله عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني في قطاع غزة ، كان عمر يقضي حكما بالسجن مدى الحياة منذ عام ١٩٧٠ بصفته قائد الجناح المسلح للحزب الشيوعي والجبهة الوطنية المتحدة (٦٢) ·

وعلى جدران احد غرف سجن عسقلان رسم السجناء لوحة تضم ستة وجوه عربية وشعار المنجل والشاكوش وقد انبثقت منه زهرة وكتبوا تحت اللوحة : « اهداء فيليتسيا » ·

٢ ـ سجن الخليل :

يقع سجن الخليل على هضبة وكان السجن في ٢٠ و ٢١ آب من عام ١٩٧٥ يضم مائتين وثلاثين عربيا كلهم من اهالي الضفة الغربية ·

يتألف من القسم العام ـ تحت ـ وطابق الزنازين ـ فوق ـ ، وهي الزنازين الانفرادية والتي يشرف عليها رجال ـ الشين بيت ـ مباشرة ، فيقررون بأية زنزانة يزج بالمعتقل ، وعدد الحرامات وعدد مرات الاغتسال وتغيير الملابس وفتح الكوة وكثافة الشتائم من السجانين !

وفي هذا السجن قضى عبد الجابر عبد الله السيوري واحدا وثلاثين يوما دون ان يسمح له بتبديل ثيابه او الاغتسال ، ودون ان يرى نور الشمس ، وطيلة هذه الفترة كانت لديه بطانيات رقيقة فقط ، وكان ملقى على ارض باطون وجسمه كله يؤلمه ، وهو يرتعد من البرد ·

ونجد وصفا لزنزانة في هذا السجن قضى فيها فتحي توابته ٢٣ يوما ، والزنزانة هي عبارة عن غرفة صغيرة مظلمة بدون نافذة ، والنور الوحيد نفذ اليها من ثقب في السقف، وحجمها نحو متر ونصف في مترين ، ارض باطون بدون بلاط · وجدرانها خشنة مع جص

مرشوش بصورة فظة · وفي داخل هذه الزنزانة كان فتحي ينام على الارض ولم يكن لديه سوى عدد من البطانيات ، وكان ذلك في شهر كانون الاول وفي الركن كان دلو لقضاء الحاجات ، وكانوا يفرغونه مرة كل ثلاثة ايام · ولم يكن فتحي يخرج الى الهواء الا عندما كانوا يأخذونه الى التحقيق (٦٣) ·

٣ ـ سجن غـزة

هناك وصف للحياة في هذا السجن من خلال اقوال السجين دحمان لحاميته (٦٤) ، فالسجانون يضربون السجناء دون تمييز ودون سبب ، حتى عندما يطلب هؤلاء اشعال سيكارة وهو الامر المسموح به في السجن · وترفض جميع الطلبات لمقابلة المدير ، كما لا يجوز الاشتكاء من الضرب · ان السجان دائما صادق ، والمشتكي فيما بعد يتلقى حصة مضاعفة من الضرب ، بالاضافة الى التقرير الذي يسجل ضده · وبعد تسجيل التقرير تنفذ عقوبة خاصة بحق السجين ·

في هذا السجن زنزانة للعقاب يلقى فيها المعاقب عاريا وبدون ملابس وبدون بطانيات ، كما يصب ماء على ارض الباطون لكيلا يستطيع ان يستريح او يستلقي ·

والنوم في النهار ممنوع وشفرة واحدة تعطى لسجينين لمدة طويلة بحيث لا يستطيعون الحلاقة الا بصعوبة ، ولا يتوفر الماء الساخن للحمام الا مرة كل اسبوعين · ولا يجوز للسجناء تبادل الاحاديث فيما بينهم ، ومن يتحدث يخرج من الغرفة الى زنزانة ويضرب بتهمة التحدث في السياسة (٦٥) ·

وحجم الزنازين ١٠٠ سم × ١٠٠ سم ، وفي الزاوية مرحاض لا غطاء له ، والنور مبهر ومثبت في السقف ، والزنزانة حارة رطبة وعديمة الهواء · ولا يحق لساكن الزنزانة الخروج الى الفسحة ، وكل ما لديه روائح كريهة سامة وحرارة خانقة ، وهو يأكل ويقضي حاجته وينام على حصير مطاطي سمكه سنتمتر واحد مفروش على الارض مباشرة ·

في القسم العام تقيم النسوة بعد انتهاء التحقيق · لا توجد اسرة هناك · ويسمح بالفسحة ساعة واحدة في اليوم ، وليس لدى السجينات من عمل سوى الجلوس على البساط المطاطي ودون ان يسمح لهن بالحديث في السياسة ، وكل من تتكلم منهن تمنع من الخروج الى المرحاض وعليها ان تقضي حاجتها في الجردل لتزعج كل من في الغرفة · لقد علقوا على باب السجن لافتة تقول : « سجن غزة » والواجب ان يكتبوا مكانها : « جحيم غزة » · هكذا قالت رسمية عودة للمحامية لانجر (٦٦) ·

وعندما زار مندوب الصليب الاحمر هذا السجن في ٥ ، ٦ ، ٧ اب ١٩٧٥ كان فيه سبعمائة وثمانية معتقلين :

القطر	العدد
غـزة	٦٥٤
مصر	٠٥٠
الضفة الغربية	٠٠٢
الضفة الشرقية	٠٠٢
المجموع	٧٠٨

٤ ـ سجن بئر السبع :

يقع سجن بئر السبع منعزلا في الصحراء على طريق ايلات في ارض قاحلة من كل شيء، وهو سجن صحراوي يبنى بايدي ساكنيه المعتقلين والسجناء العرب من الاراضي المحتلة. ويشبه السجن بلدة صغيرة محاطة باسوار عالية واسلاك شائكة ، وابراج مراقبة ، حجم كل واحدة منها كحجم غرفة واسعة . والجو لافح الحرارة ، لا وجود للظل . وللسجن فناء ضخم فارغ في احدى زواياه قطعة ارض مسفلتة (٦٧) .

يعتبر السجناء في هذا السجن سجناء عمل، فهم يصنعون صناديق بآلاف الاطنان ويخيطون ملابس جاهزة مقابل اجر مقداره ٦ سجائر في اليوم . كما يكلفون بصنع شبكات التمويه للجيش الاسرائيلي .

وعندما زار مندوب الصليب الاحمر في ١٣ ، ١٤ ، ١٥ تموز من عام ٧٥ كان في السجن ٤٩١ معتقلا :

القطر	العدد
مصر	١٠
من الضفة الغربية	٩٧
من الضفة الشرقية	٦٠
من ليبيا	١٠
من سوريا	٣
من غـزة	٣٠٨
من العراق	٣
المجموع	**٤٩١**

٥ ـ سجن كفار يونا :

يقع في بيت ليد على الطريق بين حيفا وتل ابيب ، وشروط السجن فيه اسوأ من شروط بقية السجون ، وازدادت سوءا في عام ١٩٧١ عندما تحول السجن الى سجن انتقامي .

يقضي السجين في هذا السجن ثلاثا وعشرين ساعة ونصف الساعة ، ويسمح بالفسحة لمدة نصف ساعة دون كلام ، واذا ارتكب احدهم جريمة الكلام مع زميله يوضع في الزنزانة.

يقضي في هذا السجن الشيخ ابو طير مدة حكمه ، وعندما زاره مندوب الصليب الاحمر في ٨ تموز ٧٥ وجد في هذا السجن مائة وتسعة وعشرين سجينا عربيا :

القطر	العدد
من القدس العربية	٥٠
من الضفة الغربية	٣٠
من الضفة الشرقية	٣
من غـزة	٣٦
من ليبيا	١
من سيناء	٤
من مصر	٥
المجموع	**١٢٩**

٦ ـ سجن رام الله :

يضم القسم العام وكذلك مجموعة الزنازين والتي مساحـــة كل منها ٢ × ٢م ويحشر في كل واحد عشرة سجناء · هناك ينامون ويأكلون ·

وعند ما زاره مندوب الصليب الاحمر في ٧ آب ١٩٧٥ وجد فيه ١٤٧ معتقلا :

الضفة الغربية	١٣٨
الضفة الشرقية	٠٠٥
القدس العربية	٠٠٢
ســوريا	٠٠٢
المجموع	**١٤٧**

٧ ـ سجن القدس :

يقع في ساحة الروس في القدس ويسمى سجن المسكوبية ، وتوفي في هذا السجن قاسم ابو عكر (٣٠ سنة) بعد اعتقال اسبوع · وقاسم من سكان بيت حنينا · وعند موتــه اطلق سراح زوجته · ولم يحضر الدفن سوى الزوجة ووالدها وحفار القبور · وقالــت الشرطة ان قاسم توفي لانه تزحلق وسقط على الدرج (٦٨) ·

٨ ـ سجن الرملة :

خرجت من هذا السجن الى الحرية المناضلة فاطمة برناوي بتاريخ ٧٧/١١/٢٩ ·
وبتاريخ ١٦ ، ١٧ تموز ١٩٧٥ زار مندوب الصليب الاحمر هذا السجن ووجد فيه :

من القدس العربية	١١٠
من الجولان	٢٤
من الضفة الغربية	٩
من الضفة الشرقية	٢
مـن ليبيـا	٣
مـن غـزة	٣
من العراق	١
المجموع	**١٥٢**

٩ ـ سجن طولكرم :

عندما زاره ممثل الصليب الاحمر في ٧٥/٨/٢٥ وجد فيه مائة وواحدا وعشرين عربيا من الضفة الغربية ، وسجينا واحدا من سيناء ·

١٠ ـ سجن الدامون

زاره مندوب الصليب الاحمر في الثاني عشر من آب ١٩٧٥ وكان فيه مائة وثلاثة مـــن المعتقلين العرب :

من القدس العربية	٦٧
من الضفة الغربية	١٠
من الجولان	٢٠
من غـــزة	٦
المجموع	١٠٣

١١ ــ سجن نفي ترزا :

وجد فيه مندوب الصليب الاحمر ٢٧ معتقلا عربيا في ٧٥/٧/١٠ :

من الضفة الغربية	١٥
من الضفة الشرقية	١
من القدس العربية	٤
من غـــزة	٧
المجموع	٢٧

١٢ ــ سجن الجلمة :

تنتصب من حول السجن الجبال ، وتكاد الاشجار الباسقـــــة الخضراء تخفيه بيـــن كنفاتها (٦٩) ٠ وفي الناحية الشمالية من السجن تقع زنازين العزل ٠ ويتألف هذا القسم من سرداب مظلم وطويل تنتشر على جانبيه غرف مهجورة وموحشة ، انها غرف التعذيب [المسلخ !] ٠ وقد تدلت من اعلى الجدار لافتة تقول : خارج النطاق ، وهي عبارة تعلـق فوق الاماكن الخاصة بالشين بيت ، وترمز الى الخطورة والسرية (٧٠) ٠

١٣ ــ سجن جنين :

وضعوا في هذا السجن ما تبقى من اسرى معركة الكرامة وعددهم خمسة وستون ٠ وفي هذا السجن كان مائة وخمسة وثلاثون معتقلا عندما زاره مندوب الصليب الاحمر في ١١ آب ١٩٧٥ :

من غـــزة	١
من الضفة الغربية	١١٣
من الضفة الشرقية	٤
من ســوريا	١٦
من العـراق	١
المجموع	١٣٥

١٤ ــ سجن صرفند :

وهو سجن قمعي يضم مجموعة من الزنازين المعبأة بجو ارهابي ٠ وقد ورد في افـــادة احد المعتقلين (مؤيد عثمان البحش) انه حشر في زنزانة داخـل هذا السجـن حجمهـا ٥٠ سم × ٥٠ سم (٧١) ٠

١٥ ـ سجن نابلس :

بتاريخ ٢٦ ، ٢٧ آب ١٩٧٥ وجد فيه مندوب الصليب الاحمر ٤٦١ معتقلا ٠

من الضفة الغربية	٤٤٣
من القدس العربية	١
من الضفة الشرقية	١١
من سوريا	٢
من العراق	٢
من غزة	٢
المجموع	٤٦١

١٦ ـ سجن شطا :

زار هذا السجن مندوب الصليب الاحمر في ١٣ آب ١٩٧٥ ووجد فيه ١٦ عربيا :

من القدس العربية	١٠
من الجولان	٥
من غزة	١

ومن السجون الاخرى : سجن ياجور ، سجن عكا ، سجن بيت شيش ، سجن تلموند ، سجن النبي صالح ٠

المعتقلات الاسرائيلية

لا بد من التمييز بين نوعين من هذه المعتقلات :

الاول : معسكرات الاعتقال الجماعية ، وقد اقامت سلطات الاحتلال في البدء ثلاثة منها هي : نخل ، ابو زنيمة والقصيمة ، ثم اقيمت في مطلع ١٩٧١ معسكرات اعتقال اخرى في وادي موسى بالقرب من مدينة الطور وفي منطقتي دير سانت كاترين والعريش ٠ وقد نفت السلطات الاسرائيلية الى هذه المعسكرات الاف السكان المدنيين٠من اقارب رجال المقاومة بحيث يتم نفي العائلة بكاملها الصغار والكبار، واحيانا يشمل النفي ابناء العمومة٠

تكون هذه المعسكرات قريبة او ملحقة ، باحد معسكرات الجيش الاسرائيلي ، والمعسكر عبارة عن عدة خيام محاطة بالاسلاك الشائكة ، وتعطى لكل عائلة خيمة واحدة ، واحيانا تحشر عدة عائلات في خيمة كبيرة ، ويفصل بين عائلة واخرى ستار من قماش ، ولا يسمح لهذه العائلات باحضار اي متاع او ملابس اضافية ٠

يتولى الجنود حراسة المعسكر ولا يسمح لاحد بالخروج منه ، كذلك يحظر على اي كان الاقتراب منه حتى للجنود الاسرائيليين غير المكلفين بالحراسة ، ويعزل المعتقلون عن العالم عزلا كاملا ولا يسمح لهم بسماع الراديو او اقتناء الكتب او قراءة الصحف ٠

وكان معسكر نخل يتألف من جناحين منفصلين احدهما للعائلات والاخر للرجال وقد ضم جناح

الرجال في مطلع عام ١٩٧١ نحو ٤٠٠ رجل معظمهم من المهنيين والمثقفين ورجال الاعمال المعروفين بتعاطفهم مع حركة المقاومة · وتعيش العائلات الفلسطينية في هذه المعسكرات حياة رهيبة وقاسية وهي لا تتجاوز كونها مجرد احتجاز في الصحراء ·

الثاني : معسكرات تجميع السكان في مختلف انحاء قطاع غزة · وقد احيطت هذه المعسكرات باسلاك شائكة وحظر على المواطنين مغادرتها دون اذن مركز الحراسة القائم على مدخل المعسكر · وكان يطلب من الجميع ان يأووا الى بيوتهم بعد الغروب وفرض على اشخاص اثبات وجودهم مرتين داخل المعسكر ·

وفي منطقة رفح ثلاث مناطق تجميع للسكان داخل الاسلاك الشائكة . وقد اجبرت مئات العائلات على ترك منازلها والانتقال الى داخل الاسلاك الشائكة للعيش في الخيام والاكواخ· ومناطق التجميع في رفح :

١ ـ منطقة البيوك (شمالي رفح) ويقدر عدد المقيمين فيها بنحو ٣٥٠٠ شخص بينهم عائلات ابو الحصين والحمامشة والمغاصية والدبارين وابو سيتمة ·

٢ ـ منطقة ام الكلاب شمالي رفح ويقدر عدد المقيمين فيها بنحو ١٥٠٠ شخص بينهم آل المصري وابو شعث وابو معمر وغيرهم ·

٣ ـ منطقة مشروع عامر (شرقي رفح) ويقدر عدد المقيمين فيها بنحو ٦٠٠ شخص من عائلات الملالحة وابو طعيمة وبعض ال ابو ماضي وجميعهم من الذين رفضوا التعاون مع سلطات الاحتلال ·

وتشير معلومات مؤكدة الى ان قرار انشاء معسكرات الاعتقال الجماعية في سيناء قد اتخذ من جانب اعلى القيادات السياسية والعسكرية الاسرائيلية · لقد اعرب الصليب الاحمر عن قلقه لما يجري في قطاع غزة . لكن اسرائيل نفت ما نشر عن معسكرات الاعتقال· وفي ٧٢/٢/٢ جاء في تقرير لصحيفة « جيروزالم بوست » ان حاكم قطاع غزة رفض اعطاء فرصة للصحافيين لزيارة هذه المعتقلات ·

وقد اضطرت اسرائيل الى اغلاق معسكر نخل الكبير في شباط بعد تدخل الصليب الاحمر واعيدت ٢٨ عائلة فقط الى مساكنها بينما نقل الباقون الى معسكرات اخرى · وفي ٧١/١١/٢٩ تم اغلاق معسكر ابو زنيمة ونقلت معظم العائلات المحتجزة فيه الى معسكرات اخرى ·

أما المعسكرات التي لا تزال قائمة فهي وادي موسى وسانت كاترين والقصيمة والعريش· وعندما استفسر الصليب الاحمر في مطلع شهر اذار ١٩٧٢ عن امكان زيارة معسكر وادي موسى في منطقة الطور اجاب الاسرائيليون انه لم يكن هناك في اي وقت معسكر للاعتقال·

الرفض والمقاومة داخل السجون الاسرائيلية

يعيش السجناء الفلسطينيون في السجون الاسرائيلية حياة لا انسانية قطيعة ، حيث يرزحون تحت التعذيب والاذلال وسوء المعاملة والتمييز العنصري والحرمان من الحقوق الاساسية . ولذلك فان السجين الفلسطيني اعتبر السجن ميدانا جديدا لمقاومة الاحتلال الاسرائيلي مارس في هذا الاحتجاج الوانا من الاضراب ، التظاهر ، الاحتجاج الجماعي وحتى مقاتلة السجانين بالعراك ·

النضال من اجل الحقوق القانونية : حسب رواية المقاتل عبد الله من بني نعيم (٧٢) ، رتب المعتقلون من اسرى معركة الكرامة حملة اضراب شاملة وبدأوا بالمطالب الصغيرة من اجل نشر الصمود في السجن ، وطالبوا بحضور مدير السجن لتوجيه سؤال اليه عن سبب اعتقالنـا فقال :

ـ لانكـم مخربون !

« وجادلناه فيذلك وقلنا بأننا اسرى حرب ، ولا بد من ان يتحول اعتقالنا الى مشكلـة سياسية ، واعلنا الاضراب الشامل بناء على مطالبتنا بان نكون اسرى حـرب » (٧٣). « وبواسطة ام واحد منا جعلناها تطوف على كل السجون نشرنا فكرة الاضراب الذي تحقق واستمر سبعين يوما · ثم طالبنا بحضور مندوب الصليب الاحمر وقدمنا المطالب التالية :

١ ـ لا بد من اعتبارنا اسرى حرب ·

٢ ـ نعلن الاضراب عن الطعام حتى الموت أو الخروج من السجن ·

واستمر ذلك حتى افرج عنا في ٧٠/٥/١٣ » (٧٤) ·

رفض الاعتراف بمحاكم الاحتلال : لا يعترف السجين الفلسطيني بشرعيـة الاحتلال ، وبالتالي فهو لا يعترف باهلية محاكم الاحتلال لمحاكمته · لقد سأل القاضي المعتقل صبحي الذي جاء الى بيته بدون تصريح :

ـ وماذا تقول دفاعا عن نفسك ؟

فأجاب صبحي :

ـ وهل مذنب انا حتى ادافع عن نفسي ؟ ومن المؤهـل لان يمنعني من العودة الـى الوطـن ؟ (٧٥) ·

وخاطب بدر دعنا القضاة رافضا الاعتراف بهم ورافضا في نفس الوقت ان يطلب الرحمة·

« كعربي فلسطيني اعمل على تحرير العرب وتحريركم انتم اليهود ايضا من الصهيونية والامبريالية ، انني لم اقم بالعمل الذي نسب الي ، انا بريء ، ولكن اذ اكنتم مع ذلك قد ادنتموني فانني لا اعترف بكم ، فقط محكمة من ايام العصور الوسطى كان من الممكن ان تتصرف كما تصرفتم » ·

الاضراب : في الثلاثين من ايلول من عام ١٩٧١ ركل السجان توليدانو سجينا مريضا واعمى في سجن عسقلان وضربه مسببا جروحا في جميع انحاء جسمه لانه لم يقف فـي حالة استعداد ، وهنا ثار السجناء وردوا ردا عفويا على السجان النازي ، وبعد ذلك رد السجانون بقوة كبيرة وانتقموا من السجناء ، كثيرون منهم ضربوا ضربا مبرحا وكسرت ايدي عدد منهم او اسنانهم ونقل ١٨ سجينا للمعالجة وهم حفاة وثيابهم ممزقة ·

لقد ضج الرأي العام ، واكتفى مدير السجون ارييه نير بالقول ان تمرد سجن عسقلان هو محاولة لتقليد تمرد السجناء الكبير في سجن اتيكا بولاية نيويورك الذي قمع بوحشية·

واوصد السجن ـ سجن عسقلان ـ في الحال بوجـه الصحفيين ، واما التلفزيـون الاسرائيلي فلم يصور مقابلات مع السجناء بل اكتفى بتصوير نير وغليونه من جميـع

الزوايا الممكنة (٧٦) ، وعزل سجن عسقلان عزلا تاما عن العالم وقلصت زيارات الاقارب، وقد عزز كل ذلك الاشتباه بان لدى الشرطة ما تخفيه ٠

وطالبت جمعية حقوق الانسان في اسرائيل بلجنة تحقيق عامة ، كما اقترح عضو الكنيست م٠ فيلنر من قبل كتلة راكح تشكيل لجنة تحقيق برلمانية مؤلفة من جميع الكتل لتحقق في تمرد سجن عسقلان ٠ لكن مدير السجون ارييه نير كلف ضابطين من ضباطه بالتحقيق والذين يجب ان يكونوا هم المحقق معهم ، ولم ينشر تقريرهم !

وفي ٧٣/٧/٧ بدأ اضراب ٦٧٨ سجينا في سجن بئر السبع احتجاجا على تشغيل السجناء بانتاج شبكات تمويه للجيش الاسرائيلي على اعتبار ان ذلك يؤدي للنيل من مشاعر السجناء القومية وكرامتهم وقال احدهم ـ ابو علي ـ لمدير السجن :

« انت تريد ان نساعد الدولة التي تقتل اشقاءنا على قتلهم بأيدينا ! لن تستطيع ارغامنا على ذلك بالرشاشات » ٠

لقد اضرب سجناء بئر السبع في هذه المرة عن حلق ذقونهم وقص شعورهم ، ورفضوا قبول الزيارات العائلية وكذلك تسليم اغراضهم للغسيل ٠ وبهذه الطريقة احتج السجناء على القذارة في السجن ٠ وطالبوا بتحسين الطعام والنظافة ووقف المعاملة القاسية للاسر التي تأتي لزيارتهم ٠

وتسترت سلطات السجن على الاضراب الى ان كشفته لانجر بعد خمسة ايام وسارعت الى نقله الى عضو الكنيست فلنر الذي اسرع بنقله الى وكالة عيتيم ٠

وعندما جوبه نير ـ مدير السجون ـ بوجود الاضراب قال بان جميع المعلومات جاءت من مصدر واحد ، وبعد ان ضيقوا عليه قال بان السجناء لا يتناولون الا الطعام الذي يأتيهم من البيت ، اما الوزير هيلل فكان اكثر شجاعة وتملص بالقول بان لكل سجين الحق في الاضراب (٧٧) ٠

وفي ٧٢/١١/٤ اضربت جميع الموقوفات والسجينات العربيات في سجن صرفند احتجاجا على حرمان لطفية الحواري ، المشلولة ، من العلاج ، وارسلن عريضة الى مدير السجن تطالبه بالمعالجة الطبية للطفية ويقلن بان على السلطات ان تعالجها بصورة انسانية والا تسمح بأن تتعذب لطفية ، بالاضافة الى اعتقالها ، بالالام ٠

وفي الحال وضعوا السجينات في زنزانات ، ومن داخل الزنازين اطلقت السجينات نداءات تشجيع للطفية : « نحن معك ٠٠٠ لن نتركك » واطعموا لطفية بالقوة ثم نقلوها الى المستشفى ٠

تصفية جاسوس : « بعض رفاقنا كان قد نفذ حكم الاعدام في حق احد الجواسيس الذي قررت محكمتنا اعدامه ، فأعدموه بمقص الحلاقة بضربه ٣٦ ضربة » (٧٨) ٠

الحواشي

(١) **الطليعة** ، القاهرة ، ايار ١٩٧٥ ، ص ٣٨ ، من افادة سليمان النجاب ٠

(٢) فيليتسيا لانغر ، **بأم عيني** ، ص ١٠٦ ٠

(٣) **المصدر نفسه** ، ص ١٧٠ ٠

(٤) **فلسطين الثورة** ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٥ ، من افادة احمد الهدهد ٠

(٥) **الطليعة** ، ايار ١٩٧٥ ، ص ٣٨ ٠

(٦) **المصدر نفسه** ، ص ٢٩ ٠

(٧) **فلسطين الثورة** ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٧ ٠

(٨) لانغر، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٧٠٠

(٩) **المصدر نفسه** ، ص ٢٩٤ ٠

(١٠) **المصدر نفسه** ، ص ٦٤ ٠

(١١) **المصدر نفسه** ٠

(١٢) **المصدر نفسه** ، ص ٦١ ٠

(١٣) **المصدر نفسه** ، ص ١٧٤ ٠

(١٤) **المصدر نفسه** ، ص ٢٥٣ ٠

(١٥) **المصدر نفسه** ، ص ١٠٢ ٠

(١٦) **المصدر نفسه** ، ص ٢٨٧ ٠

(17) *3 Rd Geneva Canvention articale 4 .*

(١٨) **عل همشمار** ، ٢٧ آب ، ١٩٧٣ ٠

(١٩) **ديلي ستار** ، ٢٣ آب ، ١٩٧٣ ٠

(٢٠) لانغر، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٥٠

(٢١) **المصدر نفسه** ، ص ١٩٦ ٠

(٢٢) **المصدر نفسه** ، ص ٤٠٨ ، كان صلاح مداح في سجن عكا ٠

(٢٣) **جيروزاليم بوست** ، ١٢ نيسان ، ١٩٧٣ ٠

(٢٤) لانغر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٧٤ ٠

(٢٥) **المصدر نفسه** ، ص ٢٩٣ ٠

(٢٦) **الاتحاد** ، ١٩٧٣/١/١١ ٠

(٢٧) مثلما ضرب اولاد جاد عبيد في بيت لحم ٠

(٢٨) لانغر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٨١ ٠

(٢٩) **الاتحاد** ، ٢٢ ايار ، ١٩٧٣ ٠

(٣٠) **الغارديان** ، ٢٦ شباط ، ١٩٧٣ ٠

(٣١) لانغر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٣ ٠

(٣٢) **المصدر نفسه** ، ص ٧٥ ٠

(33) *I.V.*

(٣٤) **فلسطين الثورة** ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٥ ٠

(٣٥) لانغر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٠٧ ٠

(٣٦) **المصدر نفسه** ، ص ٢٩٦ ٠

(٣٧) **الاتحاد** ، ٦ آذار ، ١٩٧٣ ٠

(٣٨) لانغر ، **مصدر سبق ذكره** ٠

(٣٩) **الاتحاد** ، ١٩٧٣/١/١١ ٠

(٤٠) **جيروزاليم بوست** ، ١٢ نيسان ، ١٩٧٣ ٠

(٤١) **الاتحاد** ، ٢ شباط ، ١٩٧٣ ٠

(٤٢) لانغر ، **اولئك اخواني** ، ص ١٨٩٠

(٤٣) **الطليعة** ، القاهرة ، ايار ١٩٧٥ ، ص ٣٨ ٠

(٤٤) لانغر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٦٢ ٠

(٤٥) **فلسطين الثورة** ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٧ ٠

(٤٦) **الاتحاد** ، ١٩٧٣/١/١١ ٠

(٤٧) لانغر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٨٦ ٠

(٤٨) **المصدر نفسه** ، ص ٤١٧ ٠

(٤٩) **فلسطين الثورة** ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٥ ، افادة احمد الهدهد ٠

(٥٠) **ديلي ستار** ، ٢٣ ايار ، ١٩٧٣ ٠

(٥١) لانغر ، **مصدر سبق ذكره** ٠

(٥٢) **المصدر نفسه** ٠

(٥٣) **الاتحاد** ، ١٩٧٣/١/١١ ٠

(٥٤) لانغر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٣٧ ٠

(٥٥) **المصدر نفسه** ، ص ١٨ ٠

(٥٦) **المصدر نفسه** ، ص ٢٨١ ·

(٥٧) **فلسطين الثورة** ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٥ ·

(٥٨) لانغر ، **مصـدر سبـق ذكـره** ، ص ٨٩ ·

(٥٩) **المصدر نفسه** ، ص ٣٥٠ ·

(٦٠) **فلسطين الثورة** ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٥ ·

(٦١) لانغر ، **مصـدر سبـق ذكـره** ، ص ١٤٢ ·

(٦٢) ولد في المسمية سنة ١٩٣٤ وفي الخمسينات التحق بصفوف « عصبة التحرر الوطني » التي اسسها الشيوعيون العرب الفلسطينيون منذ العام ١٩٤٣ · وفي آب ١٩٥٣ تحولت هذه العصبة الى « الحزب الشيوعي الفلسطيني » ·

(٦٣) لانغر ، **مصـدر سبـق ذكـره** ، ص ٤٢٣ ·

(٦٤) **المصدر نفسه** ، ص ٣٥٢ و ٣٥٨ ·

(٦٥) **المصدر نفسه** ، ص ٣٥٨ ·

(٦٦) لانغر ، **مصـدر سبـق ذكـره** ، ص ١٧٧ ·

(٦٧) **المصدر نفسه** ، ص ٢٨٣ ·

(٦٨) **المصدر نفسه** ، ص ١١٧ ·

(٦٩) لانغر ، **اولئك اخوتي** ، ص ٦٧ ·

(٧٠) **المصدر نفسه** ، ص ٥٥ ·

(71) *I.V.* p. 41 .

(٧٢) **فلسطين الثورة** ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٧ ·

(٧٣) **المصدر نفسه** ، ص ٧٧ ·

(٧٤) **المصدر نفسه** ·

(٧٥) لانغر ، **بأم عيني** ، ص ١٢٥ ·

(٧٦) **المصدر نفسه** ، ص ٢٩١ ·

(٧٧) **المصدر نفسه** ، ص ٣٨٧ ·

(٧٨) **فلسطين الثورة** ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٧ ، شهادة عبد الله من بني نعيم ·

الحبيب

ليست بيروت هي المدينة الوحيدة التي لا نستطيع أن نضرب فيها موعدا · فـي باريس ايضا ، تاخر عز الدين قلق عن الموعد الاخيـر ، فلـم يات الى مطعـم الخبز الطازج ، ولم يحدثنا عن علاقته الاليفة بالموت الذي يرافقه · القى تحيـة الصبـاح على شاب يشرب القهوة عند مدخل البناية ، فرد عليه باحسن منها ·· وبقنبلة

وفي لندن ايضا ، تاخر سعيد حمامي ، فلم يف بوعده ان نذهب معا الى بحيـرة شعراء انجلترا الرومانتيكيين ، أو الى طريق اكسفورد حيث توقف فجاة وتساءل عن بيروت التي تشبه غرفة على الطابق الاعلى من بركـان ، تذكـر شارع الكومـودور المظلم الذي كانت تضيئه ، بين القنبلة والاخرى ، قذائف الهاوتزر التي هدتنا الـى الفندق ·

واضاف غسان كنفاني سببا آخر لذبذبة مواعيده ، فلـم يأت الى الجريدة ، ولـم يعتذر عن موعد الغداء ·

فلماذا نصدق علي حسن سلامة اذن ، ما دام هؤلاء الفتيان الفلسطينيون يكذبون على أصدقائهم جميعا ، في بيروت وخارجها ، ولا يأتون الى مواعيدهم !

انتهز ابو حسن فرصة وجودنا في دمشق ، وانفجـر كوردة ضخمـة في فردان ، قريبا من دم كمال وكمال وأبي يوسف الذين أعطوا أيضا مواعيد لا تتحقق ·

نعرف ابا حسن كما نعرف الكهرباء التي تسري بين العظم واللحم في تراجيديـا فلسطينية ، ونعرف صموده الطويل في المبارزة المضنية مع موت يشتهيه ومع حيـاة يشتهيها · هذا السيف الذي صك من شهـوة ودم لم يغمد لحظـة واحـدة في حياة يوقن أنها خاطفة ، كحياة الذيـن لا يمشون الا علـى حبـال البـرق · واذا كان قد استطاع أن يبتكر هدوء وسكينة للتعامل مع الآخرين ، فلأنه كان قد نجح في ترويض الهاجس الذي يحتله ·

لقد صاغ حياته كلها ، بنظامها وتفاصيلها ، وذوقها المنتقى ، وشهيتها المفتوحـة على الربيع ، كما املتها عليه لياقة الفرسان وشجاعتهم في نزولهم ، أو صعودهم ، الى الموت المختبيء وراء كل لحظة · كان عريسا جاهزا للزفاف الدموي الخاطف · وكان الفارس يعرف أنه الخاسر ، ولكنه كان يعرف ايضا ان معادل الربح في هـذه المبارزة هو خسارة الحياة والتاريخ معا ، وسلالة تتحدر من ذهب ·

دائما كان يقول ·· سأموت غدا ، فماذا ستكتبون عني ؟ أنتم تكتبـون ونحـن لا

يبقى منا غير ملصق على حائط ، وما اسوا حظ الذين يموتون في الشتاء لان المطر يجرف ملصقاتهم !

ويحب القراءة ، والنهارات الجميلة ، وينتزعه ابو عمار من اي وقت ومن اي مكان · كان اسمه الحبيب · ومن فرط ما كان قويا ووسيما ووفيا ويقظا لم نصدق انه سيذهب · وفي الشتاء ، في الشتاء الذي لا يريده ، كانت جدران بيروت واشجارها تنفجر صورا للشهيد البطل ابو حسن ·· علي حسن سلامة ، كما تنفجر ارض فلسطين بزهر البرقوق بعد قليل · كنا نبكي في آخر الجنازة ، لاننا ادركنا ان عليا لم يكن يمزح ، وانه تحول الى ملصق على حائط والسماء تمطر ·

لا ، لن يجرفه المطر من القلوب التي يسكن ، ومن فلسطين التي اعطاها آلاف الازهار · ولا يتمجد بالشهادة وحدها ، فهذا الفتى الذي هو ابن ابيه ، كان يعرف كيف يعد حياته حجرا في بناء فلسطين الغد ، ويعرف كيف تولد فلسطين الغد بالثورة ، ويعرف كيف يقوم بواجبه اليومي ، الصامت حينا والصارخ حينا ، ويعرف كيف يتبارى مع الموت الذي لاحقه من باب الى باب ، ومن موجة الى موجة ، ومن سطوح المنازل وأزقة الشوارع ، ومن درجات السلم ، ومن دقات الساعة ، ومن رنين الهاتف ، حتى أعاده الى أبيه ···

ولا نسأل كثيرا : لماذا يغتالون هذا الجمال ؟ لماذا يرسلون هذه الرسالة بخمسين كيلو غراما من المتفجرات ! الان ابا حسن مر في ميونيخ كما يقولون ، أم لان الغزاة الاسرائيليين مروا في بلاده واحتلوها منذ ثلاثين سنة ! هذه الطفولة ــ الشاهد التي تحولت الى ثورة هي التي تشكل جوهر المبارزة · انهم يريدون تدمير الذاكرة الفلسطينية التي تورث الاجيال فلسطين جديدة ، طازجة ، تولد من ذاتها ومن ابنائها ومن كل نبض العرب ، ومن إيران الجمهورية ··

انها حرب الابادة التي اعلنها الاسرائيليون علينا منذ اعلنوا حضورهم على ارض فلسطين · وابو حسن احد المقاتلين الذين يعلنون حضور فلسطين في العالم ، فاذا حضرت فلسطين غابت اسرائيل · وفي حرب الحضور ــ الغياب التي لا تتوقف ، نودع الحبيب ابا حسن ، وندرك ان مواعيدنا لن تصدق الا هناك ، حيث يصوب شهداؤنا خطاهم ، وحيث سيكون حضورنا كاملا على أرضنا التي تتوهج ·· وننتصر ·

« شؤون فلسطينية »

شهادات

حوار مع البروفيسور يسرائيل شاحك :

الدور الاسرائيلي في المآزق

اجرى هذا الحوار مع البروفيسور شاحاك احد الصحفيين العرب المقيمين في اوروبا · و « شؤون فلسطينية » تنشر هذا الحوار نظرا للمعلومات الهامة التي يتضمنها ، وبوصفه شهادة من احد كبار المفكرين الاسرائيليين المعادين للصهيونية ·

★ كيف نقيم وضع اسرائيل خلال السنوات الخمس الاخيرة التي اعقبت حرب اكتوبر ؟

□ اعتقد ان اهم التطورات التي تعرضت لها اسرائيل ، او لنقل الصهيونية العالمية ، في السنوات الخمس الاخيرة ، تتعلق بتزايد دورها العسكري والاقتصادي خارج الشرق الاوسط · فالكثيرون ، والفلسطينيون خاصة ، وهم الطرف الاساسي الذي يخوض الصراع ، يسقطون من اعتبارهم الدور الهام الذي تلعبه اسرائيل كجزء من السياسة الاميركية خارج المحيط العربي ·

لنبدأ بثورة نيكاراغوا ضد نظام سيموزا · المسألة المجهولة بشكل كامل ، هي الدور الهام الذي لعبته اسرائيل ضد الثورة · ففي بداية عام ١٩٧٨ ، وبعد مقتل رئيس تحرير احدى الصحف في نيكاراغوا ، عم الاحتجاج اوساط الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة · فاوقفت الولايات المتحدة ، او لنقل قللت من كميات الاسلحة المرسلة الى نيكاراغوا · لكن اسرائيل وابتداء من شهر نيسان (ابريل) ١٩٧٨ ، قامت بالدور الذي كانت تلعبه اميركا · فارسلت كميات من الاسلحة ، وخاصة الاسلحة الخفيفة الفردية ، بنادق رشاشة من نوع « جليل » ، وكذلك بنادق « عوزي » ·

الواقع ان بعض الصحف في الولايات المتحدة وفرنسا لم تشر الى هذه المسألة · لكن الصحف البريطانية وخصوصا « الغارديان » و « التايمز » ، كما ان الصحف العبرية نشرت بعض التقارير والشهادات من داخل نيكاراغوا · ومن واجب جميع المعادين

للصهيونية معرفة هذه الحقائق ، ومعرفة الدور الذي تقوم به اسرائيل في دعم الانظمة الرجعية · فنيكاراغوا هي الدولة السابعة في اميركا اللاتينية التي تتلقى معظم حاجاتها من الاسلحة من اسرائيل · والدول الست الاخرى هي : **تشيلي ، الاكوادور ، سان سلفادور هندوراس ، غواتيمالا والمكسيك** · ولقد عبرت بعض الصحف التقدمية في المكسيك عن احتجاجها على وصول شحنات من الاسلحة الاسرائيلية · ومنذ اشهر ، قام الجنرال غور، الرئيس السابق لاركان الجيش الاسرائيلي ، بزيارة تشيلي ، وظهرت صوره في الصحف الى جانب الجنرال بينوشيه ، بعد ان تم التوصل الى اتفاق مشترك لتزويد تشيلي بالاسلحة الاسرائيلية · ولقد اعرب غور عن تقديره الكبير ، للانتصارات التي حققها الجيش التشيلي · واريد ان اشير هنا ، الى انه عندما يقال عن اسلحة حفظ الامن الداخلي ، فان هذا يشتمل ايضا على ملابس عسكرية وخوذات تصنع في كيبوتز داخل اسرائيل يدعى كيبوتز « مشمار هعيمك » ، وهو تابع لحزب المبام الذي يملك مصنعا يسمى تامي ·

بالاضافة الى البلدان السبعة التي ذكرت ، هناك بلدان اخرى تتلقى بعض الاسلحة · واود ان اشير الى **الارجنتين** بشكل خاص · فالارجنتين هي اكثر بلدان العالم عداء للسامية · وبالاضافة الى الاسلحة التي ترسلها اسرائيل الى الارجنتين ، فان اسرائيل تساعد ايضا في منع اية حملات ضد العداء للسامية في الارجنتين · كما قام بعض المسؤولين بزيارة الارجنتين ومن بينهم الجنرال غور · وساهمت اسرائيل في العمل من اجل منع نجاح مقاطعة مباريات بطولة العالم في كرة القدم والتي جرت في الارجنتين العام الماضي ·

اما الدور الاسرائيلي في **هايتي** ، فانه لا يشتمل فقط على شحنات الاسلحة ، بل يمتد الى مجال البعثات الزراعية · وفي **نيكاراغوا** بعثة زراعية اسرائيلية ارسلها وزير الزراعة شارون ، بهدف المساهمة في تعطيل مستوى انتاج البندورة هناك ·

وفي القارة الافريقية تلعب اسرائيل دورا كبيرا · فبالاضافة الى التدخل الاسرائيلي في القضايا الامنية في **جنوب افريقيا** ، فانها بنت شريطا امنيا بين كل من جنوب افريقا وكل من انجولا ونامبيا · وقليل من الناس يعلمون ان الاجهزة التي يستخدمها البوليس في جنوب افريقيا هي من صنع اسرائيل · واود ان اشير الى الدعم الاقتصادي · وكما هو معروف فان جنوب افريقيا لا تستبعد من اية تخفيضات جمركية او اية تسهيلات اقتصادية في اسواق الولايات المتحدة او مع السوق الاوروبية المشتركة . غير ان اسرائيل ، وهي العضو المشارك في السوق الاوروبية المشتركة ، تتمتع بتخفيضات جمركية عادية في السوق المشتركة · فترسل جنوب افريقيا الكثير من صادراتها الى اسرائيل وخصوصا الحديد والصلب . وتوضع عليها شارات انها صنعت في اسرائيل ، ويعاد تصديرها الى الاسواق الاوروبية واسواق الولايات المتحدة · ونشرت مجلة اميركية تدعى «Buisness Week» اسم الشركة المتورطة في هذه العملية وهي شركة « كور » التي تتبع الهستدروت · هذا الواقع بالاضافة الى دور كيبوتز « مشمار هعيمك » ، يكشف ان الاحزاب المسماة « اشتراكية » تذهب بعيدا في التعاون مع انظمة من هذا النوع · اما العلاقات الاقتصادية بين اسرائيل وجنوب افريقيا . فان مثال **ترانسكاي** يعطي عنها صورة كافية · فالمعروف ان الدولة التي تدعى ترانسكاي لا تتمتع باعتراف اية دولة في العالم غير جنوب افريقيا · وهذا يعني . ان اية دولة في العالم لم تبد استعدادا لارسال خبراء اقتصاديين الى

ترانسكاي من اجل دعم اقتصادها · غير ان اسرائيل فعلت ذلـــك · ويمكنني تسمية الاسرائيلي الذي ذهب الى هناك · وهذه المعلومات مستقاة مـــن الصحافة العبرية والتلفزيون الاسرائيلي · فمنذ بضعة اشهر ظهر الرجل بنفسه على شاشةالتلفزيون ، انه البروفيسور جوزف بنتاك · وهو استاذ في جامعة حيفا · كما انه ينظم مؤتمرات سـلام للبحث عن حل للمسألة الفلسطينية · لقد ذهب هذا البروفيسور بنفسه الـى ترانسكاي ، وقدم مساعدات لحكومة ترانسكاي فيمسائل هامة جدا · فكما هو معروف يستطيع العمال الذكور في ترانسكاي ، الخروج من هذا البانتوستان والذهاب للعمل في جنوب أفريقيا ، وهو شيء يحدث مع العمال الفلسطينيين من المناطق المحتلة · قدم البروفيسور بنتـاك ، وباسم حرية المرأة ، اقتراحا باقامة مزارع لا يعمل فيها غير النساء · هكذا ، وبينمـا يكون العمال الذكور يعملون في مزارع جوهانسبرغ ، تعمل نساؤهم ، باسم حرية المرأة ، في مزارع خاصة من اجل دعم الاقتصاد · ومن المؤكد ، انه لم يظهر اي احتجاج فـــي اسرائيل على هذا النوع من الاقتراحات ، باستثناء احتجاجات من جماعات صغيـــرة معادية للصهيونية ، وهي في مجملها ، احتجاجات ضد الانغماس الاسرائيلي في جنـوب افريقيـــا ·

سوف اشير الآن الى بعض الدول الافريقية باختصار · فبينما التعاون الاسرائيلي مـع دولة كينيا هو امر معروف جيدا ، غير ان الامر غير المعروف هـــو البعثـة الزراعيـة الاسرائيلية هناك · وقدمت هذه البعثة مشورات للحكومة الكينية من اجل اقامة مـزارع ضخمة ، بدل ان تشير بضرورة توزيع الاراضي على الفلاحيـــن · ويعمل الخبـــراء الاسرائيليون في ادارة هذه المزارع · كما ان هناك علاقات اسرائيلية مع ملاوي ، حيـث ان حركة الشبيبة ، التي يقودها دكتور باندا ، وهي مجموعة من القتلة المعادين لقـوى السلام في ملاوي ، يقوم خبراء اسرائيليون من مجموعات الشبيبة التي تعـرف باسـم « جاهنا » بتدريبها · كذلك هناك علاقات مع دولة شاطىء العاج · اما المثـل الاهم على علاقات اسرائيل الافريقية ، هو العلاقة مع امبراطورية افريقيا الوسطى التي يحكمهـا الامبراطور بوكاسا · فالمستشار الاول للامبراطور المذكور هو الجنرال غونين الذي كـان قائدا لمنطقة خط بارليف خلال حرب ١٩٧٣ · ولقد نال الجنرال غونين تسهيلات كبيرة في مجال تجارة استخراج الماس · ويشيع الجنرال غونين دعاية حميدة عن الامبراطـــور بوكاسا في اسرائيل ، باعتباره يختلف عن الشاه ·

ومن المؤكد في مجال العلاقة الاسرائيلية مع ايران ، هو العلاقـــة الامنية وتبـادل المعلومات مع جهاز السافاك · غير ان الامر المجهول كليا ، هو دور البعثة الاسرائيليـة الزراعية التي قدمت المشورة والنصائح للشاه فيما عـرف بالاصلاح الزراعي والثورة البيضاء · اشير الى هذا ، لانني اخشى من حدوث ما يشبهه في مصر ، الا اذا كان هذا قـد حـدث فعـلا !

الذي تم في هذا المجال ، هو انشاء مزارع ضخمة في ايران ، نحو الف او خمسمايـة هكتار للمزرعة الواحدة · اي تم تجميع بضع قرى من أجل ان تكون مزرعـة واحدة · ولقد تحول الفلاحون في هذه القرى الى مجرد عمال زارعيين ، حيث يسكن هؤلاء العمـال في منازل تملكها الشركة التي تملك كل شيء في المزرعة · والمزارع مغلقة ، بحيـث يصعب على اي كان مغادرتها · اما الشركات التي تمتلك المزارع فهي شركات متعددة الجنسية ، لكن تغلب عليها دائما الجنسية الاميركية ، كما ان عائلة الشاه هي شريكة في ملكية هذه

الشركات · والملاحظة التي اود الاشارة اليها ، وهي مأخوذة من شهـادات ادلى بهـا الخبراء الاسرائيليون الذين عادوا من ايران ، هي ان هذا الاصلاح الزراعي ، وبكـل المقاييس الانسانية ، هو اسوأ من الوضع الاقطاعي الذي كان سائدا في السابق · فرجال الاقطاع يمارسون الاضطهاد عبر الضرائب التي يفرضونها ، اما هذا الاستغلال المفضوح فهو اكثر سوءا من الاقطاع · ثم اسمح لي ان اشير الى بلدان اخرى · وسأوجز حـول العلاقات الاسرائيلية مع تايلاند وسنغافورة · فالجيش في سنغافورة يقوم بتدريبه خبراء من الجيش الاسرائيلي · اما الانغماس الاسرائيلي في تايلاند فانه يعود الى عام ١٩٧٦ ، بعد سنة على سقوط سايغون · فلا اظن ان اية دولة في العالم ، بمـا فيهـا الولايـات المتحدة ، كانت قادرة على تحدي الرأي العام العالمي عبر ارسال اسلحة الى القوى المضادة للثورة في تايلاند · لكن اسرائيل فعلت ذلك · كما توجد بعثة زراعية اسرائيلية فـي تايلاند ، ويقوم افراد العائلة المالكة في تايلاند بزيارات دائمة لاسرائيل · والرأي السائد في تايلاند ونيكاراغوا ومناطق اخرى ، هو ان اسرائيل تقوم بالاعمال القذرة بالنيابة عن الولايات المتحدة ، التي لا تستطيع القيام منفردة بهذه الاعمال ، بسبب من ضغط الـرأي العـام الداخلي ·

ان هذا الواقع هام جدا من اجل القاء ضوء جديد على كامب ديفيد ، اذ انه ساهم في ازدياد التأثير الاسرائيلي على الرأي العام الاميركي ·

نحن نعرف ان المكانة الخاصة التي تحتلها اسرائيل في واشنطن تأتي من الدور الـذي تلعبه اسرائيل في منطقة الشرق الاوسط · غير انه في السنوات الخمس الاخيرة ، اصبح دور اسرائيل في بلدان من خارج منطقة الشرق الاوسط يساوي تقريبا دورها في المنطقة· لذلك ، يجب ان تكون حملتنا ضد الصهيونية عالية في توجهها · اي يجب فضح وكشف الدور الاسرائيلي في جميع بلدان العالم · وعلينا القيام بالاعلام ضد الصهيونية ، ليس فقط لانها تقوم بدورها في خدمة الامبريالية في منطقة الشرق الاوسط فحسب ، بل بسبب دورها في نيكارغوا وتايلاند ··· ايضا · وبذلك نحرز نتائج افضل فـي حربنـا ضـد الصهيونية ، لاننا نقدم للشعوب حقائق ووقائع تعرفها بنفسها ·

ولكن ، ما هي الفائدة التي يجنيها المجتمع اليهودي في اسرائيل من صفقات تصديـر الاسلحة هـذه ؟

نستطيع ان نؤكد ، استنادا الى الصحافة العبريـة ، ان كل الصناعة المعدنية فـي اسرائيل ، وهي صناعة كبيرة ، موضوعة في خدمة الانتاج الحربي · فالصناعات المدنية، كصناعة البرادات مثلا ، قادرة ايضا على انتاج قطع غيار للاسلحة · كما تقوم الصناعات الالكترونية بانتاج متنوع · فهي تنتج شبكات اتصال لجنوب افريقيا ، كما تنتج اجهـزة راديو عادية · اي ان كلا الصناعتين ، المعدنية والالكترونية ، موضوعة في خدمة الانتاج الامني والعسكـري ·

اما بخصوص العمل في هذه المصانع ، فمن المعروف ان الحصول على وظيفة في مصنع مرتبط بالانتاج الامني ، بشكل مباشر او غير مباشر ، تتطلب الالتحاق بالجيش · وبذلـك يكون جميع الفلسطينيين العرب مستثنين من هذا العمل · ثم يخضع طالب الوظيفة لعملية غسل دماغ يقوم بها البوليس السري الاسرائيلي ·

وبالاضافة الى مسالة انتاج الاسلحة ، هناك ما يمكن تسميته بالدور الامني المباشر ، اي

الجيش . فعلى سبيل المثال ، يقوم الجيش بنشر اعلانات دائمة عن حاجاته للطاقة البشرية ، وعن الحاجة الى رجال من جميع الاختصاصات . حتى ان اعلانات المدارس المهنية تتضمن الاختصاصات التي يحتاجها الجيش بما فيها الطبخ . كذلك ، فلم ترتفع فقط اعداد رجال البوليس في اسرائيل ، بل ان اعداد حرس الحدود وهو المعروف عند الفلسطينيين بذوي القبعات الخضر قد ارتفعت ايضا . وما علينا سوى مطالعة الصحف من اجل اكتشاف طرق تجنيد رجال الشرطة . وكمثال على ذلك هناك اعلان يقول ان بمقدور الشباب الذين انهوا دراستهم الثانوية العمل في المناطق المحتلة مقابل مرتبات جيدة وسيارة خاصة . كما ان هناك اعلانا آخر يقول ان الذين يرغبون في العمل في المناطق المحتلة يحصلون على مبالغ جيدة وسيارة خاصة .

نلاحظ كذلك ، ان الكثير من الشركات الخاصة في اسرائيل يديرها جنرالات . وربما كانت اهم هذه الشركات هي تلك التي يديرها الجنرال رائيفي ، الذي عمل قائدا للمنطقة الوسطى ومستشارا لرابين . وشركته تصدر الان خبراء امنيين الى اميركا اللاتينية .

ثم هناك اعلانات تعد الخبراء بمبالغ كبيرة من المال ، وبالمناسبة فان الاعلانات تحدد ان هذه المبالغ ستدفع بالدولار . كما تعدهم برحلات سياحية في اوروبا كوسيلة للاغراء .

هكذا نلاحظ ،ان التوجه العام هو توجه نحو اخضاع الاقتصاد الاسرائيلي للاغراض الحربية والامنية .

هناك الآن عدد كبير من اليهود ، كانوا يعملون قبل عام ١٩٦٧ في وسائل الانتاج ، فصاروا اليوم يعملون في النشاطات الامنية . هنا ، يقوم الفلسطينيون من المناطق ، بتلبية الاحتياجات الاقتصادية التي شغرت . تقول صحيفة « يندستيتسمن » البريطانية في عدد ٧٨/٩/٢٨ ، بان حاجتنا الى الايدي العاملة العربية ستبقى في حالتي التوصل الى سلام مع العرب او الفشل في ذلك .

قبل البحث في اوضاع الفلسطينيين في المناطق ، اريد ان اعطي بعض الارقام وبموجب التعبير العبري العام المستخدم ، فان الفلسطينيين يمرون في سوق الاستخدام . وعليه ، فان الارقام التي تقدمها الحكومة والمستوحاة من مكاتب العمل لا تنطبق باية حال على الحقيقة . غير اني استطيع ، واستنادا الى ارقام استقيتها من البوليس ومن مصادر اخرى ، ان اقول بأن عدد العمال الفلسطينيين القادمين من المناطق وحتى نهاية عام ١٩٧٨ هو ٢٥٠ الف عامل ، هذا دون ان يشتمل هذا الرقم على العمال الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الاسرائيلية . اي هناك ربع مليون عامل فلسطيني . ويعود الارتفاع الكبير في هذا الرقم ، بحسب اعتقادي ، الى كونه يشتمل على عدد كبير من الاطفال والنساء . فهناك الكثير من الاطفال الفلسطينيين في سن الثامنة يعملون في اسرائيل . اما الصبيان الذين هم في سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، فهم عمال عاديون ويمكن النظر اليهم على هذا الاساس . اما السبب الثاني فيكمن في كون فرص العمل قليلة جدا في قطاع غزة ، كما ان الاقتصاد الزراعي في الضفة الغربية قد دمر بسبب المصادرات التي يقوم بها الحاكم العسكري ، وبسبب الاسعار المنخفضة للمنتوجات الزراعية . وعلى سبيل المثال فان المزارعين في الضفة الغربية لا يزرعون القمح لان اسرائيل تحصل على كميات كبيرة مجانية من القمح الاميركي .

وبناء على هذا الواقع نستطيع ان نقول ، ان الفلسطينيين في المناطق المحتلة وحتى

داخل اسرائيل قد اصبحوا من الطبقات العاملة التي تعتمـــد على اجورهـــا · وحسب تقديراتي فان نسبة الذين يتقاضون اجورا هي حوالي ثمانين بالمئـــة من الفلسطينيين · وبما انهم لا يجدون اماكن للعمل في الضفة الغربية او في غزة فانهم يضطرون للعمل في اسرائيل · واريد هنا ان اوجه نداء انسانيا · فانت لا تستطيع ان تقول لكل الشعب الذي يعاني من الجوع والبطالة لا تذهب للعمل وعان الجوع · فانا اعتقد انهم مجبرون علـــى العمل ، كما هو الحال في جوهانسبرغ وفي شروط شبيهة بشروط العمل المفروضة علـى شعب سوتيـو ·

هناك مسألتان هامتان فيها يتعلق بشروط عمل الفلسطينيين في المناطق في اسرائيل ·

النقطة الاولى : هي ان الفلسطينيين في المناطق ممنوعون من الاقامة في مناطق تدخـل في نطاق الحزام الاخضر او التواجد فيها ما بين الواحدة والثالثة صباحا · وهذا يعني ان على جميع العمال العودة ليليا الى مناطق سكنهم ، والعودة منها صباحا الى اماكـن عملهم · هكذا يصبح العمال مرهقين الى درجة لا يستطيعون بعدها القيام بشيء ما عدا النوم · فالذي يعمل ثماني ساعات يحتاج الى ساعات اخرى للعودة الى منزله ، ولا يتبقى له من قوة للقيام بأي عمل اخر سوى النوم · ان هذا القانون هو قانون عنصري فأضح ويشبه القانون الذي يطبق في جوهانسبرغ · ان هذا التشابه بين اسرائيل وجنوب افريقيا هو امر بالغ الاهمية ·

النقطة الثانية : هي العدد القليل من العمال الفلسطينيين الذين يعملون عن طريـــق مكاتب العمل الاسرائيلية · فالعدد الاكبر من العمال يعمل على مسؤوليته الفردية ·

فالذين يعملون عن طريق مكاتب العمل يخضعون لسلطة الحاكم العسكري بشكل كامل· حتى انهم يحصلون على اجورهم عن طريقه ، كما انه يحسم ما بين ٣٥ـ٤٠٪ من هذه الاجور للخدمات الاجتماعية · وهم غالبا ، لا يحصلون على اجورهم فورا ، بل بعـــد مرور حوالي شهرين او ثلاثة · والاهم من ذلك ، هو ان الحاكم العسكري يحتفظ بقائمـة باسماء العمال بحيث يصعب التهرب او ابداء الرغبة في التوقف عن العمل · ولا يحـق للعامل في حال مرضه اختيار الطبيب ، فالحاكم العسكري هو الذي يختار الطبيب ·

واخيرا اريد ان اقول انه في فلسطين ، وهنا سأستخدم تعبير صحيفة « نيوستيتسمن » يجري خلق اوضاع شبيهة باوضاع جنوب افريقيا ، وهذه مسألة ملائمة جـــدا للولايـات المتحـدة ولدورهـا العالمـي ·

★ كيف يمكننا ، وانطلاقا من هذا الدور الاسرائيلي الذي اشرت اليه ، فهـم لحظـــة التوصل الى اتفاق ثنائي بين مصر واسرائيل · هنـــــا ، وبالنظر الى توسع الـــدور الاسرائيلي ، فان اسرائيل لن تكون بحاجة الى العمال الفلسطينيين فقط ، بل ستكتشف الطاقة البشرية المصرية العظيمة · ومنذ فترة قصيرة تقدم وايزمان باقتراح الى السادات من اجل الاستفادة من مياه النيل من اجل تحقيق مشروع زراعي كبير في سيناء والنقب ما هي رؤيتكم لهذه المرحلة القادمة ؟ وما هي النتائج الاجتماعية للتحولات المحتملة ؟

☐ انني اوافق مع جميع ما اشرت اليه · بل انني اتخوف من نتائج اسوأ · امامـي الآن تقرير نشرته مجلة « نيوزويك » الاميركية عن نتائج كامب ديفيد بقلم كبير محرريهـا « انولد دي بورجرك » ، يقول فيه ان من بين اســرار كامب ديفيد هو ان الولايات المتحدة ستمارس مزيدا من الهيمنة على الصناعة الاسرائيلية · وانا اعتقد بان التعاون المصري

الاسرائيلي سيكون هاما على اكثر من مستوى · فعلى المستوى السياسي ، سوف يمتد ليشمل الخدمات السرية · اما على المستوى الاقتصادي ، فانا اعتقد بان مصر لديها الكثير الذي تعطيه لاسرائيل ، بينما ليس لدى اسرائيل الا القليل الذي تعطيه لمصر · ويمكن كمثال على ذلك ، ايراد مشروع تزويد النقب او سيناء بمياه النيل · والسؤال هو عن النتائج الاقتصادية والسياسية لمشروع من نوع نقل المياه هذه مسافةكبيرة بدل استخدامها قرب النيل نفسه · ان نقل المياه الى النقب لا يزيد في قوة مصر ، بل يزيد في مصالح السادات على المستوى الشخصي ، اذ ستذهب بعض المبالغ من المال الى عائلته مقابل المياه · وبالقدر نفسه ، فانا لا اعتقد ان مصر ستنال فائدة على المستوى الاقتصادي من هذا السلام · دعنا اولا نرى الفائدة التيجناها نظام السادات من الولايات المتحدة خلال السنوات الاخيرة · لقد اقيمت الفنادق والنوادي الليلية ومصانع الكوكا كولا ، ولم اسمع عن انشاءات في مجالات الصناعات الثقيلة ، كما لم اسمع عن اصلاحات في التعليم او في شبكة التلفونات او المواصلات · ومساعدات الولايات المتحدة لمصر لا تختلف عن مساعداتها لبلدان اخرى تثور الان ، كما هو الحال في ايران ، لان هذه المساعدات تذهب اساسا من اجل شراء الاسلحة · ثم ، ان جميع الاضطرابات في مصر هي بسبب فساد نظام السادات ، فالشعب يزداد فقرا ·

يقول السادات ان جميع المشاكل هي بسبب الحرب ، وهذا غير صحيح · فالصحيح ان سبب المشاكل هو نظام السادات · كما اني لا اعتقد بان السلام سيحل كل المشاكل · فالسادات بحسب ما جاء في « النيوزويك » ، يقول بانه لن يرفع عدد افراد القوات المسلحة الى اكثر من ٢٠٠ الف رجل ، مما يستوجب تسريح حوالي نصف مليون رجل · وفي جميع الحالات ، فليس هناك نصف مليون وظيفة شاغرة في مصر · فخلال سنة على توقيع اتفاقية السلام ، يمكنك توقع أزمة في مصر تشبه ازمة كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧·

وبالمناسبة فان الاوضاع الاقتصادية في اسرائيل لا تختلف كثيرا في سوئها عن اوضاع مصر · فاسرائيل تعاني مستوى عاليا من التضخم · وحسب ما تورده المصادر الرسمية ، فان نسبة التضخم في اسرائيل هذه السنة قد تصل الى ١٠٠٪ ، رغم ان تقديراتي الشخصية هي بنسبة ٧٢ بالمئة · ولقد اورد نسبة المئة بالمئة نائب وزير المالية الاسرائيلي السيد فلومن · فالنسبة الكبيرة من الضرائب في اسرائيل مستوفاة من اصحاب الاجور وليس من اصحاب الشركات الخاصة وهذه احد اسباب التضخم ، وهو يشبه الوضع فيمصر · وهذه الاموال التي لا تستوفي دفع الضرائب لا يمكن انتوضع في الانتاج · وهي لذلك تصرف على الكماليات ، والكماليات تزيد من التضخم والحقيقة انك في اسرائيل يمكنك توقع مصاعب اقتصادية · وهي ستكون في البداية مصاعب محض اقتصادية · من نوع زيادة الاجور ودعمها · لكن ما الذي تستطيع اسرائيل بيعه لمصر · حسب ما اسمع برادات وادوية ومكيفات · لكن السؤال كم عدد المصريين الذين يستطيعون شراء هذه المنتوجات · ان الحالة هي ان الامر بالنسبة لاسرائيل ومصر كحال مفلسين يودان دعم بعضهما ·

★ **اذا عدنا للمسالة الفلسطينية ، فان هذه المحصلة تعني ان الاثار السلبية لاتفاقية السلام المنفردة والازمة التي سيعانيها الفلسطينيون لن تطولا لفترة طويلة ·**

☐ انني موافق الى درجة كبيرة · نعم · هذا صحيح واعتقد ان الفترة الزمنية لن تكون اطول من سنة او سنتين · غير ان نصيحتي للفلسطينيين هي ان يستمروا في اثبات

وجودهم عن طريق نضالهم وان يحافظوا على وحدتهم خلال هذه الفترة · ولا شيء يمكن رؤيته او اخذه بعين الحسبان خلال الاشهر التي تلت توفيـــع كامب ديفيد ســوى ان الفلسطينيين ما زالوا موحدين وحريصين على هويتهم الوطنية ويصرون على الاستقـــلال وحق تقرير المصير · وانا اعتقد ان الوضع في الفترة القادمة لن يتغير فقط ، بل سيتطور نحو الافضل · لانه ما الذي يمكن للسادات ان يقوله بعد ان يتوصل الى اتفاقية لا يمكن تطبيقها · ثم ما الذي يمكن لبيغن ان يقوله بعد ان يتوصل الى اتفاقية سلام مع السادات من غير ان نقدم حلا للمسألة الفلسطينية ·

★ عندما كنت تتكلم عن الوحدة الفلسطينية ، اعتقد انك تعني من بين ما تعنيـــه ان مشروع « تقرير المصير » سوف ينهار ايضا في الضفة الغربية وقطاع غزة ولن يكـــون ذلك حلا حقيقيا للمسألة الفلسطينية ·

□ انني اتفق كلية حول ذلك مع التحفظ بخصوص انهم في اسرائيل لا يسمونه حق تقرير المصير · بل هم يتجنبون كلمة تقرير · ويسمونه الحكم الاداري او المجلس الاداري وهذا لن يعطي ، في رأيي ، اية شخصية او هوية وطنية فلسطينية · وهو برأيي كذبـــة كبيرة لانه لن يشتمل على اي نوع من المضمون الوطني ليس فقط بما تعبر عنه منظمـــة التحرير بل حتى بما يعبر عنه الفريق الذي يدعم الملك حسين ، وهو يضم اسماء مثـــل مصطفى دودين وعبد الرؤوف فارس من نابلس · ولن احكي شيئا عن السيد دودين لانكـــم انتم العرب تعرفونه اكثر مني · لكنني سـأخبرك ان السـيد دودين ظهر عـلى شاشـة التلفزيون وادعى ان ياسر عرفات ليس فلسطينيا بل هو مصري · ودعني اخبرك انه بعد ذلك اصبح اليهود بغالبيتهم ينظرون اليه باحتقار · ان الذي يريـــده الاسرائيليون ليس ذاتيا او تقريرا للمصير · انه شيء آخر تماما · واذا اردت مثلا فربما كان يشبه الحكـم الذاتي الذي تحاول جنوب افريقية تطبيقه في سويتو · او كما هو الحال بالنسبة للهنود في الولايات المتحدة الاميركية · ان اسرائيل تريد اناسا يحتقرهم ويرفض ٩ر٩٩٪ مـــن الشعب الفلسطيني من غير ان يكون لهم اي تأثير اكان عائليا او اقطاعيا او اي شـيء غيره · واستطيع القول انه اذا استطاع الفلسطينيون تجاوز هذه الازمة كما فعلوا فـي الشهر الماضي ، فانهم سيخرجون اشد قوة مما كانوا عليه · ودعني اضيف شيئا آخـر بخصوص الوضع الداخلي للمجتمع اليهودي · ان الاسرائيليين يمـرون الآن بامتحان ·

فقد ظهرت باسم مجلس اسرائيل من اجل السلام في المـــدة الاخيرة ، مجموعة مـــن المقالات ذات الدلالات السياسية ومن بينها مقالات تطلب مـــن الفلسطينييـــن الاعتـراف بصهيونية دولة اسرائيل · وانا لا اتكلم كرجل معاد للصهيونية لكنني اتكلم كرجل يعرف بعض الشيء عن مرحلة الاستقلال والسيادة · فاذا طلبت الولايات المتحدة مـــن الاتحـاد السوفياتي الاعتراف بالولايات المتحدة كدولة رأسمالية واذا طلب الاتحاد السوفياتي من الولايات المتحدة الاعتراف بالسيادة وبالايديولوجية التي تقوم عليها الدولة · ان الطلب من الفلسطينيين الاعتراف بصهيونية الدولة الاسرائيلية والاصرار على القول اننا صهيونيون وتجنب القول اننا اسرائيليون هي سابقة لا مثيل لها في تاريخ العلاقات الدبلوماسية خلال السنوات المائتين الاخيرة · غير ان هناك امرا اكثر اهمية · يتعلق بالتعذيب · يمكنـــك القول انه بالاضافة الى المسائل الايديولوجية التي تقسم المجتمع اليهودي للاختيار بيـــن السلام والعدل · ان سلام السيد بيغن هو ســلام هؤلاء الذين يغفلون ما ســتؤول اليه الاوضاع خلال السنتين القادمتين · وهم سيحققون السلام مع مصر وربما مع دول عربية

اخرى الا اذا كانوا عازمين على شن عدوان . ثم ان رأيي كان دائما ، خصوصا في السنوات الاربع الاخيرة ، هو ان الذين ينتقدون التزامات ايديولوجية ، خصوصا بمعاداتهم الصريحة للصهيونية ، لن يكون بمقدورهم مواجهة الامور عندما يحل السلام . وانت تعرف ان المنظمة المعروفة باسم « السلام الان » تدعم بيغن وهي تتظاهر من اجله ، غير ان الذي اود قوله ، ليس حول هذه المنظمة غيرالمنظمة جيدا ، بل حول اليسار الصهيوني ، لان ما اقوله بصراحة وامانة ليس هدفه النقد بل من أجل المستقبل اود الكلام عن اليسار الصهيوني ، عن اشخاص مثل الجنرال بيليد وافنيري انهم جميعا يدعمون السيد بيغن . ففي رسالة مفتوحة الى السيد عرفات دعاه افنيري لقبول الحكم الذاتي الذي دعا اليه مؤتمر كامب ديفيد . ان احدهما مثلا يقول ان قطار كامب ديفيد سائر وليس امام الفلسطينيين الا اللحاق به وهو امر سيقرر مصيرهم . وهو في كل الاحوال امر يعود الى تقديرهم . وبمقدوري القول بصراحة وبصدق ان حق تقرير المصير ، الذي لم تلحظه اتفاقية كامب ديفيد او حكومة بيغن ، لن يكون من بين ما سيدافعان عنه .

وهناك مسألة التعذيب والصهيونيون يطبقون افواههم تماما حول قضايا التعذيب التي يتعرض لها الفلسطينيون. وبالمناسبة فان افنيري كتب عدة مقالات عن المجرمين اليهود الذين يعذبون . وهو محق في هذا الامر الا ان افنيري ليس فقط كان يرفض الكتابة عن تعذيب الفلسطينيين بل هو يدعي ان الفلسطينيين لا يتعرضون للتعذيب . ان التعذيب الذي يتعرض له الفلسطينيون الان والذي نستمر في محاربته هو الجانب الاخر لتقرير المصير. ان الاشخاص الذين لا يصرحون بالحد الادنى ضد عمليات التعذيب التي يتعرض لها الفلسطينيون يقفون الى جانب كامب ديفيد .

وثائق

محاكم البدو الشرعية في فلسطين

(١) يبحث هذا النص الذي نقدمه في هذا العدد من « شؤون فلسطينية » وضع المؤسسات التشريعية التقليدية لدى بدو فلسطين ، وهي ، بطابعها الاصلي ، ذات اهمية كبيرة من اجل التعرف على بنى المجتمع الفلسطيني التقليدي ، وهذه المؤسسات ـ على العكس من محاكم الدولة التي تتجلى فيها ، عبر مفهوم العدالة ، علاقة الفرد بالسلطة المركزية ـ انما هي جملة اساسية للمعرفة ، لكونها نوعا من الانبثاق الداخلي النابع من تركيبة العشائر نفسها · وهي ، بالمعنى نفسه ، تتحلى بصفة اجماع كبيرة من العناصر المنضوية تحت هذا الشكل من العدالة · فهذا النوع من ممارسة العدالة ، والذي يلتمس الواقع من الداخل بمعنى ما ، اكثر فعالية واكثر قبولا · فبينما تكون سلطة الدولة القمعية هي التي تجعل القرارات نافذة ، نجد ، تقديرا ، ان قرارات قاضي العشيرة تنبع من شكل قبول محدد وارادي لدى اعضاء المجموعة او العشيرة · ويجب الا نخطيء في الفهم : فالقبول هنا ليس منبعه نوعا من « المواطنية البدائية » ، بل ناتج عن اقتناع الافراد بأن هذه العدالة ، التي تسري منذ قرون ، على الارجح ، هي ميزة تخلق الانسجام داخل العشائر ، وهذا ما يجعلها مقبولة ·

(٢) النص نفسه مكتوب بقلم تقني · فقد مارس الكاتب بنفسه ، ولمدة طويلة ، دور القاضي في هذه المحاكم · ولذا تكمن احدى اهم مواصفات هذا النص في دقته ، وفي شموليته ، طالما يتناول جميع نواحي المؤسسات التي اراد ان يعرفنا عليها ·

(٣) من دون ان ندخل في التفاصيل التي يعرضها النص بطريقة بليغة ، واضحة ودقيقة ، يمكننا ان نشير الى بعض المسائل · فعلى الرغم من ان الانقسام العام بين القيسيين واليمنيين موجود في هذه المحاكم ، الا ان الانقسام ليس قاطعا ، فكأنما ثمة اقرار بأن العدالة والذات القبلية هي فوق المنازعات · ويمكننا معرفة قدرة هذا الجهاز على كسب الولاء قياسا الى الهوة في العلاقات القيسية ـ اليمنية · ويمكننا ايضا ، ملاحظة ان مهنة القضاء هي وراثية لدى اعضاء العائلات نفسها ، وهذا يعكس، بالتاكيد ، موقعا سلطويا ، ولكنه يعكس متطلبات تقنية ايضا : فهذه العدالة تقليديةوشفوية، ومن هنايجب توفير اطار محدد لنقله، وخاصةمن اجل جعله احترافا في العشيرة ، حيث النواة الاساسية هي الحمولة · وهنا نفهم بالطبع مبدا ان تلعب

احدى العائلات ـ ذات النفوذ ـ هذا الدور الذي يقوم به ، عادة ، موظفون مجمعون في مؤسسات الدولة ٠

(٤) ولهذه العدالة اهمية اخرى على صعيد اصدار الاحكام ، فهي ، من ناحية ، تقدر الاحكام حسب الحالات ، مما يحتم ضرورة وجود قضاة منصفين ، بل هم مضطرون الى ان يكونوا منصفين ، اذ ان قبولهم من قبل افراد العشيرة ، هو الذي يعطيهم وزنهم ٠ وهم ، من ناحية ثانية ، يلجاون الى المصالحة في حال وجود معطيات كثيرة التعقيد ، قد تؤدي الى اعتراضات كثيرة حين اصدار الحكم ٠

(٥) تبدد هذه المعطيات استغراب القارىء حين يقرا ان هذا النوع من القضاء يتلاشى طالما اقتربنا من المدن ، حيث يكون لوجود السلطة المركزية تاثير كبير من ناحية ، وحيث ـ وهذا هو الاهم ـ ـ تكون البنى العشائرية اكثر اضمحلالا ، اذ ان وجودها هو الشرط الضروري لنمط تشريعي كهذا ٠

وهنا تجدر الاشارة الى ان نفور اهل السلطة الكبير من الذين يقومون بالقضاء ليس نابعا من ان العدالة البدوية هي عدالة غاب ، بل نابع من ان يتعاطى الناس القضاء بعضهم بين بعض ، في معزل عن اهل السلطة ٠

(٦) والنقطة الاهم ، في هذا كله ، ان المتهم ، في حيثيات هذا النمط من القضاء ، لا ينتابه شعور فرد معزول في مواجهة سلطة هي سلطة المجتمع باسره ، تدعي الدولة انها تمثلها ، بل هو في وضع تاخذ فيه العدالة ، بعين الاعتبار ، البنية القبلية ، حيث المتهم هو جزء من كل ، وليس معزولا ٠ وهذا ما يجعل الحكم اكثر فعالية نتيجة لركون المتهم اليه ، وتقبله له ٠

الياس صنبر

قانون البدو هو واحد من اكثر الفروع اهمية واثارة للاهتمام في الفلكلور العربي ٠ ولان الموضوع واسع ، فقد اخترت لهذه الدراسة مرحلة واحدة منه : « المحاكم الشرعية بين البدو » (١) ، وأرجأت الموضوعات الاخرى : قانون الضيافة ، قانون الاجازة (القانون الجنائي) ، قانون العرض ، قانون الحقوق (القانون المدني) ٠

كان هناك نظام شرعي بين العرب قبل الاسلام بزمن ، وقد بقيت اسماء بعض المحامين المشهورين مثل أكثم بن صيفي (٢) ، حاجب بن زيرارة (٣) ، أمير بن الظرب (٤) ، عبد المطلب بن القرشي (٥) ٠ وكانت هناك ايضا محاميات مشهورات مثل هند بنت الحسن (٦) ، وجمعة بنت حابس (٧) ٠ ومع انتشار الاسلام تأثرت تلك القوانين والشرائع وعدلت بدرجة او بأخرى بقوانين الدين الجديد ٠ وكان ، وما زال ، من المألوف انه حين يختلف فردان او قبيلتان ، ان يتم عرض الامر على قاض ، هو الذي يقضي في الخصومة تبعا لقوانين الوراثة ٠ وهذه القوانين تناسب العرب اكثر من الاخرين ، حيث تتفق مع حالتهم النفسية ، وعاداتهم واسلوب حياتهم ٠

هذه المبادىء التشريعية تحكم ايضا التشريعات القانونية بين فلاحي فلسطين ، مع اختلافات سنلاحظها دائما ، فيقسم سكان بلادنا في حزبين سياسيين : قيسي ويمني ٠

ولكلا المحكمتين قضاة يساعدون على حل القضايا وتسوية النزاعات · وليس ثمة اعتراض اذا ما احضرت احدى المحكمتين القضية الى قضاة المحكمة الاخرى ، لان القضـــاة لا يتحزبون ولا يخطئون في البحث عن الحقيقة · وهم عادلون · ولا تختلف القضية عندما يأتي قيسي او يمني يملك حجة الى قاض ينتمي الى واحد من القسمين · فالقاضي يقضي فقط بما يعتقد انه الصحيح ، لانه يخشى من مجالس الضحى ، اي من الاحاديث التـــي تدور في المضافة (٨) قبل الظهر (صبحية القدل والقال) (٩) ·

وتولي منصب القاضي حق لعائلات معينة فحسب ، مثل عائلة المناصرة في بني نعيم (١٠)، وعائلة ابو عيرام من يطه (١١) ، وعائلة الحامدة في السامو (١٤) ، الخ · ولا تستطيع عائلات اخرى ان تتبوأ القضاء · وهكذا فان ادارة القضاء وراثية ·· فالاب يدرب ابنــه الاكثر ذكاء ومهارة ، او يدرب العم ابن اخيه ويشركه في محكمته حتى يصبح متمرسا على جميع انواع القضايا ، وبعد ذلك يسمح له بأن يحكم ويفصل في قضايا بسيطة تحت اشراف الاول ، وعندما يحصل على تدريب كاف ، ويتمتع بثقة الناس ، تقدم له القضايا الصعبة ، وبالتدريج يكتسب الثقة الداخلية للقرويين (١٥) ·

وقد يكون هناك قاض او اكثر من عائلة واحدة · والاكبر هو الاكثر احتراما · واذا تساوى اثنان في السن ، يكون الاغنى والابرز هو الاكثر قبولا · في حالة ما ، اذا كانـا متساويين في الغنى والشهرة ، يختار منهم من كان ابوه قاضيا أفضل من القاضي والد الاخـر ·

ولا يزال القضاة حتى الان ، ينتمون لانبل عائلات الناحية (١٦) · ولهؤلاء سلطة كافية ، وهم غير ملزمين بتبرير قرارهم بأي قانون يحوي عقوبة قصوى او دنيا · وأهم واجباتهم ان يعرفوا مراتب العائلات المختلفة · فان ارتكاب جريمة او انتهاك شرف انثى او حـق نبيل واسرة قوية السلطان ، له وزن اكبر من جريمة او اغتصاب ، الخ ، يرتكب ضـد عائلات اخرى · و « الحمولة » (اي الاسرة) التي انتهكت فيها كثيرا اعراض الاناث ، او قتل كثير من افرادها ، تكون محقرة وتعتبر ضعيفة وبلا كرامة ، ومن ثم فانها تتدرج في مرتبة ادنى من العائلات الاخرى (١٧) · ويتمتع القضاة بسلطة كاملة لزيادة العضوية او ضعفها ، آخذين دائما في الاعتبار الرفاهية العامة والنفوذ الشخصي للطرفين · وهم احيانا يعاقبون على جريمة بنصف « الدية » ، وفي اوقات اخرى ، وعلى الجريمة نفسها ، بثلث الدية ، وحتى في احوال اخرى ، فانما يعاقبون على الجريمة ذاتها بأكثر من « دية » و « جرة » (١٨) · ولا بد للقاضي ان يعرف المركز الاجتماعي للمتهمين وعائلاتهم عـلى وجه الدقة · والمعرفة الدقيقة بكل هذه التفاصيل تختلف بين القضاة ، حيث ان بعضهـم امهر من الآخرين ، ولديه خبرة اكبر ، واكثر تعودا على القضايا المعقـدة · واحيانا لا يكون باستطاعة القاضي ان يتخذ قرارا في قضية ما ، لانها اكثر تعقيدا من ان يحكـم فيها (١٩) · فاذا لم ينجح لجأ الى تأجيل قراره ، الى ان يكتشف القرار الصحيـح بمساعدة قاض آخر يطلب نصيحته ·

واليوم يتناقص عدد القضاة ، ولم يعد يوجد اي منهم في شمـال فلسطين · فالبـدو واشباه البدو محافظون للغاية ، وكلما ازددنا اقترابا من المدن كلما ندر وجود قضـاة حقيقيين ، وازداد لجوء الناس الى المحاكم الحكومية الرسمية ·

ويدفع للقضاة اجر عن التحقيق في القضايا والفصل فيها ٠ ويطلق على الاجر في القضايا الجنائية « الرزقة » (٢٠) ، بينما في قضايا الملكية والقضايا الاخرى المهمة يسمى « الجعلة » ٠ ويتحدد الاجر وفقا لاهمية كل قضية : فالاجر على قضية قتل او انتهاك عرض هو ١٠٠ مجيدي تركي ، والاجر على قتل من غير عمد ، او اصابة عضو هام في الجسم ، ٥٠ مجيديا ، وفي قضية السرقة أو الجرائم الصغيرة الاخرى ١٠ مجيديات ، وهناك ايضا رسم يدعى « البسلة » يدفع الى « الشريعة » (القانون الديني) والذين يطلب منهم احيانا ان يفتوا في مسائل معينة ٠ وهذا المبلغ الذي يتراوح بين عشرة ومائة مجيدي ، يقدره بصورة عامة الطرفان المتنازعان والقاضي معا (٢١) ٠ وهناك اربعة انواع مختلفة من الدفع : ١ « رزقة مبتل » وهي الغرامة التي يدفعها المتهم ، اي اذا تشاجر زيد وعمرو وكسب الاخير القضية فان الاول يدفع الغرامة ٠ ٢ ـ « رزقة مجرم » وهي الغرامة التي يدفعها المجرمون ٠ ٣ ـ « رزقة مناصفة » وهي تسوية بالتراضي يدفع فيها كل طرف النصف ٠ ويتم هذا الدفع حينما تكون القضية متوازنة وقابلة للشك ، وكل طرف فيها يطالب باكثر مما يستحق ٠ ويعرف هذا الدفع ايضا بالقانون الكنسي ٠

٤ ـ « رزقة منتصر » ويدفعها الطرف الذي يكسب الانتصار ، او الشخص المتهم الذي بريء من الذنب ٠

وقبل تناول القضية يتقرر اي نوع من « الرزقة » سيدفع ، ومن الذي سيدفعه ٠ وبمجرد ان يتفق الطرفان مع القاضي على احد انواع الدفع هذه ، تأخذ القضية مجراها العادي٠ ولما كان من الطبيعي ان يكون الشك قائما حول الذي سيكسب القضية ، فان الطرفين لا يدفعان في البداية ، انما يقدمان للقاضي ضمانة ، كأن تكون عقدا او غليونا او علبة تبغ او حقيبة ٠ وعلى الرغم من ان هذه الاشياء لا تعد ذات قيمة في ذاتها ، فانها تدل على ان الطرفين المتقاضيين قد اعطيا كلمة شرف ٠ فاذا لم يدفع احدهما غرامة الحكم عليه ، فانه لا يستطيع ان يقطع وعدا ، ويصبح محتقرا الى اقصى حد (٢٢) ٠ وبعد ان يتخذ القرار يحتفظ القاضي بضمانة الشخص الذي يتعين عليه دفع الغرامة ، وينبغي على هذا الاخير الا يغادر غرفة الاجتماع (المضافة) حتى يدفع دينه (٢٣) ٠ ويعاد الضمان الى الشخص الاخر فورا ٠ ولا يحدث الا نادرا ان يقدم بيت او بندقية كضمانة ٠ ولا يخجل القاضي من ان يطلب اجره ويشهد الناس انه دفع ٠ فاذا نشأت اية مصاعب ، فان عائلة المتهم تجبره على ان يدفع ما يتوجب عليه ٠

وينقسم القضاة الى اربع فئات :

(١) « قضاة الضيوف » ٠ (٢) « قضاة الصلح » ٠ (٣) « قضاة الدم » ٠ (٤) « قضاة السيوف » ٠

والفئتان الاخيرتان هما الاكثر اهمية والاكثر سلطانا ٠ وتنقسم محاكم « قضاة الدم » الى ثلاثة انواع :

(١) المحاطيط (المفرد المحطوط) (٢٤) ، وهي محاكم الدرجة الاولى ، وتل الزهيرية محكمة من هذا النوع ٠

(٢) المناصد (المفرد : المنصد) (٢٥) ،محاكم الاستئناف · محكمة الحمامدة في السامو هي من هذا النوع · وحينما يستأنف شخص امام هذه المحكمة يقول المرء لخصمه « عليك بالمنصـد » ·

(٣) المناقع (المفرد : المنقع) (٢٦) ، محاكم الاتهام ، محاكـــم الاستئناف العليا · وقراراتها نهائية · وتمثل « دار التلج » هذا النوع من المحاكم ·

هذه المحاكم الثلاثة تقضي في قضايا الدم وحدها · أما حالات انتهاك العرض فانهـــا تعرض على محكمة « العرض » في « بني عقبة » · واي قضية قتل يمكن ان تعرض مباشرة على اي من هذه المحاكم من دون عرضها على محاكم ادنى في البداية ، ولكن باستطاعـة المرء أن يوافق من البداية على اللجوء الى المحاكم الثلاث ·

وليست لقضاة الضيافة اية سلطة رسمية ، في كل قرية يوجد قاض فقط من هذا النوع ، يكون بوجه عام شخصا ذا شعبية ، او من الاعيان · فاذا وصل ضيف الى قرية فـــان القرويين يتنافسون على حق وشرف اكرامه · وحتى النساء يمكن ان يشتركن في هـــذه المنافسة ·

ويمكن تقسيم القرى الى نوعين فيما يتعلق باسلوب اظهارها لحسن الضيافة تجـــاه الضيف :

١ ــ قرى توفر مسبقا شروط تقديم الواجبات للضيوف ·

٢ ــ قرى حيث يتنازع الناس ، كما ذكرنا آنفا ، على شـرف اعـداد وجبة للضيـوف · وهناك اربعة « قواس » يتشكل كل منها بعصا ربط في كل طرف منها خيط · وتعلق فـــي الخيوط قصاصات ورق ، كل قصاصة تحمل اسم قروي ·

ويقسم القرويون الى اربعة اقسام : (أ) الاغنياء الذين لا بد ان يقدموا وجبة طيبة للزوار النبلاء ، وتتألف الوجبة من خروف والمقبلات · (ب) اولئك الذين لن تسمح لهم امكانياتهم بان يقدموا اكثر من دجاجة · (ج) اولئك الذين يعدون وجبة من الطعام المتوافر دائما في البيت ، مثل الجبنة والزيتون والبيض والزبد ، واللبنة ، الخ · (د) الاكثر فقرا ، الذين لا يستطيعون أن يقدموا الا العلف لدواب الضيوف ·

هذه الفئات الاربع تسمى ، على التوالي : « دور كبير » ، « دور صغير » ، « دور نهار»، « دور مخلة » · فاذا وصل ضيوف كثيرون معا ، فان واحدا من « الدور الكبير » لا بد ان يطعمهم ·

ويعلن القاضي حكمه لصالح احد الاشخاص المنتمين الى هذه الفئات بناء على السلطة المخولة له ، ويكون ذلك دائما وفقا للقواعد التالية :

(١) رفيق الطريق للضيف في رحلة ، يكون له الحق اولا في تقديم الوجبة (لا بتقاضي ولا بتحاكم) ·

(٢) الضيف يكرمه شخص من مرتبته ·

(٣) الشخص الميسور يختار مرات عديدة لاكرام الضيف ، طالما ان الفقير لا يستطيع ان يوفر نفقات ذلك (٢٧) ٠

فاذا كان هناك رجلان يودان استضافة الضيف نفسه ، فان احدهم يدعم مطلبه بالقـول بأنه لم يقدم وجبة منذ وقت طويل ، بينما الآخر فعل ذلك مؤخرا ٠ وفي مثل هذه الحجج تستخدم التعابير التالية : ما سبق لي تنيه ، تنيته خضرا ، ويش تقول بالعفي اللي لزاد الضيوف مستحي ، الله يحيي الضيوف في قدر ما ضرهم الخيل ووفق البعيل ، وانـا الموعود فيهم من زمان ٠ وهناك قول اكثر اسهابا هو : « ويش تقول وعيني تراهم مـن مساهم للفاهم ، احيي الضيوف احيي لحيتك ولحاهم ، احيي قاضي اتاني اياهم (٢٨) ٠ وانا السمن المقدر » ٠ اي ماذا تقول ، وعيني ترقب الضيوف من نقطـة البدء الـى حضورهم ، فاهلا بالضيوف ، اهلا بلحيتك ولحاهم (٢٩) ، واهلا بالقاضي الذي اعطاني اياهم ٠ وهذه العادة آخذة بالانقراض او هي ــ لا تمارس الآن الا بين بدو غزة والمنطقة المحيطة بها ، بين بني حسن (٣٠) ، وبني سالم (٣١) ، وفي الخليل والقدس (٣٢) ،وخاصة حيث يوجد اتصال وثيق بالبدو ٠

ويختار قضاة الصلح من بين اعيان القرى ورؤسائها وهم حين يسمعون عن صراع في قرية ، فانهم يذهبون على الفور الى المكان ، ويوقفون الشجار بالفصـل بين الطرفيـن المتشاجرين ٠ وبعد هذا فانهم يقفون حول قبر الرجل المغدور ٠ فاذا كان المجني عليه من اسرة طيبة فان الرجل الذي يطلب الثار له ، اخ « ولي الدم » ــ او ربما كبير العائلة ــ ــ يقف عند الجانب العلوي من القبر ٠ وعادة ما يأخذ في قبضة يده حفنة من التراب ، ويلقيها ويقول : « اشهدوا يا ملائكة السماء والارض اني نثرت دمي على الحاضرين وهم احق مني بطلب الثار » (٣٣) ٠ ثم يشجع الحاضرون طالب الثار ، ويوجه كلامه الـى المغدور : « انت عليك النوم وحنا علينا القوم » (٣٤) ٠ ويساعد المتفرجون عائلة المغدور على انزال الثار بالقاتل او تأمين ديته ٠ بعد هذا التمهيد القصير لمهمتهـم المضجـرة والعسيرة يغادر الجميع المقبرة ويمضون الى القرية ، حيث يمنعون اقارب المغدور مـن مهاجمة بيت القاتل ٠ وينظر القاضي او القضاة في القضية واهميتهـا ، ويحاولون ان يقدموا تسوية ٠ فاذا ما اخفقوا فانهم يحاولون تحقيق هدنة اولية « عطوة الفتوح (٣٥)٠ وهي تدوم من ايام قليلة الى عدة اشهر ٠ احيانا يرفض اصحاب الدعوى قبول الهدنة التي رتبها قضاة الصلح ٠ وفي هذه الحالة يأتي على الفور واحد من قضاة الدم ، ويرتـب هدنة على النحو الذي نصفه فيما يلي وهكذا فان اية هدنة يرتبها قضاة الصلح هي اكثر فاعلية من تلك التي يأمر بها قضاة الدم ، الذين هم اكثر اهمية بكثير من الفئة الاولى ٠ فهم يتمتعون بالثقة الكاملة للناس الذين يقرون بعدالة وانصاف قراراتهم ، ومـن ثـم يحترمونهم ويخشون قراراتهم ٠

ونظرا لانتشار القانون الحديث ، فان عدد هؤلاء القضاة قد تناقص كما لاحظنا سابقا٠ وبين قضاة الدم من البدو والقبائل شبه البدوية يمكننا ان نذكر : حجاج ابو فهد من قبيلة حطيم ، ويمكن الرجوع بعائلته الى بهيلة التي ينتمي اليها ايضا قتيبة بن مسلم القائـد العظيم لعبد الملك بن مروان وابنه وليد ، ومحمد الزير من التعامرة ٠

اما قضاة السيف فانهم يقومون بعمل المحكمة العسكرية ٠ ومن بين هؤلاء القضاة ابو غوش (٣٦) ، البراغتي (٣٧) ، الجيوسي (٣٨) ودار الجرار (٣٩) ٠ وهم ليسوا قضاة

حقيقيين ولا يحكمون طبقا لقانون البدو · فاذا ما نشأ نزاع او صراع في ناحيتهم فانهم يذهبون الى اطرافه او يرسلون في طلبهم ، ويتخذون قرارهم على اساس اعتبارات سياسية بحتة ، بغض النظر عن العدالة · ولهذا فانهم مكروهون من الناس ، الذين يبذلون ما بوسعهم لكي يقضي بينهم قضاة الدم ، ليتأكدوا من ان المجرم سيعاقب · وهؤلاء القضاة يفرضون غرامة يأخذون منها نصيبهم · وكثيرا ما يصحبون معهم رجلا على علم بالقانون الاسلامي (عالم) ، يتبع في اتخاذ قراره احكام الشريعة ، التي يستطيع المحكوم عندئذ وضعها موضع التنفيذ · وعندما تجتمع الجمعية يقول « قاضي السيف » : « هنا الجنة (مشيرا الى العالم) وهنا النار (مشيرا الى نفسه) وهنا السيف (مشيرا الى نفسه مرة اخرى) وهنا المصحف (مشيرا مرة ثانية الى العالم) » ، وبعبارة اخرى يقول « من تريدون ان يقضي بينكم ، انا ام الشريعة » (٤٠) · وبالنسبة للجيلين الاخيرين فان هؤلاء المحكمين لم يعد لهم ــ عمليا ــ اي وجود ·

اما وقد تناولنا القضاة تناولا كاملا ، فلنصف الاجراء التمهيدي في احدى القضايا ، ثم الخطوط العامة لمسار المحاكمة · فاذا لم تتخذ خطوات قانونية ، لا بد ان يموت القاتل او المغتصب · وفي هذه الحالة لا سبيل الى الوفاق ، وستستمر العداوات ·فصاحب الدم والمطالب بالعرض (٤١) ، جسوران للغاية ويملكان حق قتل خصومهم حيثما واينما قابلوهم ، ولا يعتبران مسؤولين عن فعلهم · وتبعا لذلك فان اقارب القاتل يبذلون كل ما بوسعهم للحصول على هدنة (عطوة الفتوح) (٤٢) ، كما ذكرنا سابقا · ويدفع القاتل ١٠٠ مجيدي (٤٣) ليتمتع بهدنة ، ولا تحسم هذه النقود فيما بعد من الدية · وبعد انقضاء الهدنة الاولى ، تدفع ٥٠ او ٧٠ مجيديا لهدنة ثانية ــ (عطوة القبول) (٤٤) ــ وهذا المبلغ يحسم من الدين · فاذا منحت هدنة ثالثة او رابعة لا يدفع شيء عنها (٤٥) · بل انه يمكن تمديد الهدنات لسنوات الى ان يعلن الصلح ، ولكن الصلح لا يتم ابدا من دون الهدنة الاولية · وينتظر ذوو المغدور فرصة للثأر لانفسهم ، ولكن الهدنة تمنعهم من تنفيذ غرضهم · فاذا ما ارتكبت جريمة عن غير قصد فان الغرامة التي تدفع من اجل الهدنات لا تتجاوز نصف المبلغ المذكور عن قضايا القتل او الاغتصاب المتعمدة · وعندما يتهم عضو في احدى العائلات بجريمة وتكون عائلته عاجزة عن معارضة المتهمين ، فانهم يلجأون (يطنبوا) الى وجيه قوي (مطنب) (٤٦) ، يكون قادرا على حمايتهم ، ويبدأ الاخير التفاوض على الصلح · بل يمكن ان يجبر عائلة الشخص المتهم على أن تنقل ممتلكاتها القابلة للنقل الى مكان آخر ، حيث تكون آمنة ، حيث ان ما من شيء يسرق خلال الايام الثلاثة والنصف التالية للجريمة وتحسم قيمته من الدية · وفي حالة ما اذا تساوى المذنب وعائلته في المركز والشرف مع خصومهم ، فانهم يبحثون في طلب اناس يحترمهم اصحاب الدعوى · ويستجيب هؤلاء للدعوة ويبدأون المهمة الصعبة ، مهمة تحقيق هدنة · واثناء الهدنة فان المشاعر المتحفزة تهدأ ، وقد تقوم علاقات افضل بين الطرفين · ويجبر الوسطاء الطرف المذنب على ان يدفع اية غرامة يفرضها القاضي ·

ويمكن اجبار عائلة المتهم وذويهم حتى الدرجة الخامسة (٤٧) ، على النزوح من القرية، ويتعين على اولئك الذين يرغبون في البقاء في منزلهم ان يدفعوا غرامة لا تتراوح قيمتها بين ٣٠ و ١٠٠ مجيدي (تسعة النوم) (٤٨) · وعدة قطع من الملابس لعائلة المدعي · وهم

لا يكونون بمأمن من الثأر الى ان يفعلوا ذلك ٠ وهذا المبلغ لا يحسب من الدية ما لـــم يكن دافعه قريبا من بعيد (ابعد من الدرجة الخامسة) ٠

ومزايا الهدنة هي : انها تمنع استمرار الاعمال العدائية ، وقبولها اعتراف جزئي من جانب الشخص المتهم ٠ مع مضي الوقت تختفي الحرارة المصاحبة للجريمة ٠ وتصـاغ الشروط بواسطة اتفاق بين الطرفين ٠ ومن بين هذه الشروط : الا يسمح للقاتل بدخـــول القرية حيث يسكن ذوو المغدور ، لا يسمح له بالاقتراب مـن نبـع يرتاده الطرف الاخـر مرارا ٠ واحيانا يطلب المدعون فقط الا يدخل حيهم ٠ وبعد الاتفاق يصبح القاتل حرا في الذهاب الى حيث يشاء عدا الاماكن المحددة في الاتفاق ٠ فاذا التزم بالاتفـــاق فانه لا يتعرض للاهانة من الطرف الآخر ٠

ولا تتحقق الهدنة الى أن يكون القضاة قد عينوا رجلا للقيام بدور الضامن للمتهمين ٠ ويسأل القاضي الضامن : « هل تضمن انهم (المدعون) لن يتعدوا على المتهمين ولن يأتوا اي عمل شرير ، انما سيعيشون مع المتهمين بسلام كما خيوط التماس (٤٩) ، وانهـــم سيضعون على الناقة حملها معا ويخرجون الماء من الحوض معا في سلام ؟ » (٥٠) ويسأل الرجل او الرجال الذينيقومون بدور الضامنين ــ المدعين : « هل تقبلوننا كضامنين ضـد الخديعة والحنث بالقسم ، والمس باعدائكم ، وتغيير رأيكم [اي خرق الهدنة] » (٥١) ، فاذا اجابوا بالايجاب قامت هدنة في قرية المغدور ٠ ولا بد ان يكون الضامنون ، الذيـن يكونون قد عينوا هكذا ، من مرتبة اعلى من اولئك الذين يضمنونهم ، وهم يختارون عادة من جانب المتهمين او القضاة ٠ ويحتفظ المدعون بحق الاعتراض على هؤلاء الاشخاص ، اذا كانوا ، على سبيل المثال ، اعداء لهم ٠ واختيار « الوجوه » قد يتم في غيابهم ٠ويمكن ان يقف « امير » ضامنا لنبيل او وجيه ٠ ومهما تكن الظروف مثيرة للتوتر فانه لا يكون باستطاعة المدعين خرق قواعد الهدنة ومهاجمة اعدائهم ٠ انما هم يحاولون تخليص انفسهم من « الوجوه » بان يطلبوا من الضامن ازالة « وجهه » ٠ فاذا قبل ان يكونون أحرارا في ان يفعلوا ما يحلو لهم ٠ ويستخدم تعبير « عداهم اللوم » (٥٢) ، عن الداعين في مثـل هذه الحالة ٠ أما اذا لم يقبل فعليهم ان يحافظوا على الهدنة سلميا حتى انقضاء أجلها ، ولكن عليهم عندئذ ان يرفضوا تجديدها ٠ فاذا خرق المدعون الهدنة يحق للضامن ان يقتل المعتدين اذا قابلهم اثناء الايام الثلاثة ، والنصف الاولى ٠ اما اذا لم يقابلهم فانه يقدمهـم للمحاكـمة (٥٣) ٠

وحقوق الضمان اكبر من حقوق الدم ، من حيث انه يتناول عددا اكبر من الاشخاص ولا يدافع عنها الضامنون وحدهم ، انما يدافع عنها ايضا شاهدو العيان بوجه عام ٠ فـــاذا رفض الشخص الذي خرق قواعد الهدنة المثول امام القاضي ، استدعاه الاخير نفسه ٠ فاذا ظل على رفضه ، استبيحت حياته واملاكه لاولئك الذين مس شرفهم بخرقه للهدنة (٥٤) ، كما لا يعود له اي حق في ان يطلب تعويضا عما حدث ٠ فيتـرك دمـه ديـة ودون « وجاهة » ، (بلا عوض ولا قوة) (٥٥) ٠ ويتعين على الضامن أن يدفع تعويضا عـــن العطل او الضرر الذي يكون قد لحق بالطرف المسالم نتيجة خداع الطرف الآخر ، حتـــى لا يقال : « المتغافي بوجه فلان مثل المتغافي بالسحاب » (٥٦) ٠ ونظرا للقسوة المتناهيـة للعقوبة التي تلحق بالمخادع المنتهك للهدنة ، ونظرا للعار الذي ينتج عنها ، فانها نادرا ما تحـــــدث ٠

وعندما يؤجل النظر في قضية ما لفترة كافية للسماح بتهدئة المشاعر المتأججة ، فـــان الطرفين يتوصلان الى اتفاق ، ويختاران القضاة . ويمكن ان يطلب من القاضي ان يأتي الى قرية المدعين ، او الى قرية مجاورة ، او يمكن ان يتفقوا على الذهاب اليه ، الـــى « بيت المقاضاة » . ولست اعرف الا بيت مقاضاة واحدا في الوقت الحاضر بين الفلاحين، هو بيت موسى هريب النواية . وهنالك ايضا واحد بين بنى عقبة من قبيلة التياهة .

ولا بد لاهل القرية من اكرام القضاة ، ويتحمل نفقات ذلك اهل القرية جميعا . وفي حالة عقد الجلسة في قرية الطرف المذنب يتعين على عائلته ان تدفع كل النفقات . ويسير المدعون في المقدمة ويتبعهم المتهمون ، ولكنهم لا يلتقون . ويقيـــم كل طرف في بيت ضيافـــة مختلف (٥٧) ، يصلون اليه في الصباح السابق على المحاكمة . وقبل دخول المحكمة يمكن لاحد الطرفين او كليهما ان يعينا محامين يقال لهم « الحجاج » (بضم الحاء) . ويقوم العميل بتوكيل محاميه علنا قائلا « اني اعطيت لساني لفلان ليدافع عني » . ومع ذلك فانه من المسموح به لكل طرف أن يدافع عن نفسه . ويمكن لاي من الطرفين ـ لاسباب وجيهة ـ ان يغير محاميه او ينحيه اثناء اجراءات المحاكمة . واسباب تعيين محام هي :

(١) عدم القدرة على الدفاع عن النفس بسبب نقص المعرفة بالقانون .

(٢) في حالة ما اذا كان احد الطرفين امرأة .

(٣) حينما يكون المدعي والمتهم من مرتبتين اجتماعيتين غير متكافئتين . فالانبل بينهما يعتبر انه من العار ان يواجه خصمه الادنى منه .

(٤) حينما يكون احد الطرفين او كلاهما في حالة هياج شديد .

(٥) حينما تكون الجريمة وضيعة الى حد يجعل المتهم يخجل من الظهور امام المحكمة .

(٦) حينما يكون طرف مكونا من عدد من الاشخاص ، حتى ليصبـــــح من الصعـب الاستماع اليهم جميعا .

ولا يدفع رسم معين للمحامين . انما يحاول المحامي عن كل من الطرفين كسب القضية لعميله ، ومن ثم ان يرفع مستوى فريقه . والمحامي الرابح يعطى عادة رداء جديدا (هدم) . وهناك محامون كثيرون في كل ناحية . وهم يكتسبون شهرة من خلال مهارتهم في الخطابة ، وخطبهم الشعرية ، واسلوبهم الرفيع في صياغة الجمل . كذلك يختار القضاة من صفوف اولئك الذين اكتسبوا شهرة كمحامين .

حينما تفتح الجلسة ، يجلس القاضي وحده ويمثل الطرفان المتنازعان أمامه . وينشـر كل طرفا من « عباثيته » على الارض ويقول ، هي فرج عباتي للحق » ، اي انه مفتوح الصدر للحكم . ثم يطلب القاضي « الرزقة » ، ويطلب مجموعتين من الضامنين ، واحدة لضمان دفع كل النفقات من جانب الطرف المذنب (كفالة الدفع) ، والثانية لمنع الطرف المتهم من ارتكاب تعديات اخرى ضد الطرف الاخر (كفالة المنع) . ولا بد ان يكون الضامنون مساوين او متفوقين في المرتبة على اولئك الذين يضمنونهم .

يقول القاضي للضامن الاول : « يتكفل هادا القاعد على الدية وبنت الدية ؟ » والمقصود بتعبير بنت الدية الجاهة والوجاهة . فاذا توصل القاضي والطرفان الى اتفاق على الامر

فان القاضي عندئذ يطلب رجلا ليقف ضامنا لحسن سلوك المتهم ٠ وعندما يتم ايجـــاد الضامن يسأله القاضي : « بتكفل الامان هادول وتوقفهم الحق وابن الحق ؟ » ، فاذا كان الرد بالايجاب تبدأ المحاكمة ٠

واثناء المحاكمة يمنع الكلام والتدخين وشرب القهوة (٥٨) ٠ ويتابع الجميع سيـــر الاجراءات بصمت وانتباه ٠ ويحق للمدعي ان يبدأ ٠ فيقول : « الله يمسيك بالخير يا قاضي ٠ ويش تقول في ابن عمي او خويي (٥٩) ، طيب الاصل (٦٠) جيد الفرع طاهـــر الذيل (٦١) ، طاعم الزاد قاهر الاعداء ، مفرج الكروب ، ناقل السيف ، محيي الضعيف ، ساتر الرحم (٦٢) ، جابر العظم (٦٣) ، ابن ثلاثين ما شبع من زمانه وما فرح بصباه ، فجاه فلان بن فلان ، وطرف البارود ما عليه فالح ، عطاه النار فتيهه وارداه وانا طالب حقي منه وناثر دمي (٦٤) ، عالحاضرين » ٠

ثم يتقدم الطرف المتهم خطوة ويقول « الله يمسيك بالخير يا قاضي ٠ ويش تقول والدم فاير والعقل حاير واللي ــ ما بينصر ابن عمه في الكونة ما بيعرف اباه (٦٥) ، وضـــاع صوابي وطار حسابي وضربت ويشهد الله اني ما اريد الشين ولا بنيتي السد ، وصار ما صار ، والحكم عندك (٦٦) ٠ ويش تقول ما بيني وبين فلان لا عطوة ولا قدوة (٦٧) ٠ وهو قابل ابن عمي وصدفني وما تنحى ، واللي ما بياخد التار بيكون راضي الحال (٦٨) ٠ فاخوته واصطديته دم بدم ٠ وابن عمي ما هو روي ، ان ما كان غير منه ما هو دونه ،واللي يسال محل العدل تاره ما ينغلب ٠ ويش تقول ٠ اذكر اللـــــه يا قاضي ، في العيفـــي الديفي (٦٩) ، والجهل بواق والصبي مزراق (٧٠) ، والصوت جماع وانا سمعته فطرت له وساعدت ولد عمي وانا من لحم ودم ٠ واللي بينكل قومه ما يستر رحمه وفرجت (٧١) ٠ لكني اي والله ما تهزمت بين عمه ولا ادري له خصم ، والله الوكيل » ٠

الفقرات السابقة هي صورة عامة موجزة لدفع نموذج في قضية دم ، اختصرت خشيـة التكرار الممل ٠ وفي قضية اغتصاب ، اي انتهاك عرض انثى ، تكون الدفوع النموذجيـة كالتالي : « ايش تقول فللي من مي وطين ، ومعرض للخطأ واغراء الشيطان كما اغـرى ابونا آدم وكل ما فيه شهوة يسوقه الحب ، ويدفعه الشباب الى محادثة النساء فلانة ، والله يستر عليها وانا ما بريد منها السوء لكن حبه ولعبه » (٧٢) ٠

وهناك تنويعات كثيرة على الدفاع الاولي في قضايا القتل والاغتصاب ، التي اعطينا امثلة منها ٠ كذلك تدخل تنويعات اخرى بفضل مهارة المحامين ٠ فاذا حللنا انواع الدفاع سنجد الفئات التالية :

(أ) اعتراف كامل واعتذار ٠

(ب) اعتراف بالفعل ، مع تفسير بان الجريمة كانت نتيجة صراع (كما في الحالـــة المذكورة اعلاه) ٠

(ج) اعتراف ، ولكن الجريمة كانت عارضة وغير مدبرة ٠

(د) انكار الذنب الشخصي ٠ فالذنب كان جماعيا ٠ واذا كان ثمة صراع اشترك فيـه كثيرون ، ينكر المتهم ذنبه ويعزوه الى واحد او اكثر من الفريق ، دون ان يستطيع تحديـد

الذنب الذي ارتكبه واحد او آخرون على وجه الدقة ٠

(هـ) انكار تام مع الادلة ٠

ويتصت القاضي الى القضية كما يعرضها كل من الطرفين ، ثم يطلب البينة من الطرف المدعي والدفاع من المتهم ٠ ولكن البينة كثيرا ما يصعب العثور عليها في قضايا القتل والاغتصاب ٠ ومن هنا القول : « لا دم عليه شهود ولا عيب عليه ورود » ٠ ويكون لانواع البينة التالية وزن في القضية :

(١) شهادة المغدور قبل موته بأن شخصا معينا هو المذنب ٠

(٢) اعتراف القاتل بجرمه في حضور اناس متحررين من الكراهية او الشهوة فيما يتعلق بالمتهم (خالية الغيظ والطمع) (٧٣) ٠

(٣) حينما يضبط المذنب بالجرم المشهود ٠

(٤) علامات الجريمة على الشخص المتهم ٠

وفي كل قضية لا بد ان يكون الشهود رجالا شرفاء ٠

فاذا كان لا يمكن اثبات الاتهامات بواسطة شهود قادرين وثابت كونهم صادقين على الاطلاق ، عندئذ يطلب القاضي من المتهم ان يعطي « التسع ويمين وخمسة » ، و « التسع » يعني تسع الدية ، او ٣٦٧٠ قرشا ، وهو مبلغ يدفع فورا ٠ اما « الخمسة » فتشير الى اليمين الذي لا بد ان يحلفه المتهم وواحد من اقاربه ـ بينما يردد ثلاثة من اقاربه اليمين ، بان يقسموا على حسن النية ٠ والشخص الذي يقسم مع المتهم (« جيد الامانة ») يختاره المدعي ،ويكون دائما اكثر افراد عائلة المتهم شرفا وتميزا ٠ اما الثلاثة الآخرون فيسمون « المزكين » ٠

ويذهب الاشخاص الاربعة الذين يقسمون مع المتهم الى « ولي » او « نبي » معروف ليتنوا اليمين (٧٤) ٠ واما ان يذهب القاضي معهم بنفسه أو يرسل شخصا ما لينوب عنه ٠ وهم يخلعون نعالهم ويدخلون في وجل ٠ و « يقرفص » المتهم في المحراب ويمد يده ويقسم ٠ ويأتي بعده « جيد الامانة » الذي يعتبر اهم الجميع ٠ ويتلوه الثلاثة الآخرون لتأكيد يمين الاثنين ٠ فاذا كان احد غائبا حل محله فرد يمسك به واحد من المزكين ٠ ويمضي اليمين ـ الذي ينبغي الا يقاطع من احد ـ على النحو التالي : « والله العظيم (تكرر ثلاثا) خالق الليل والنهار ، الواحد القهار ، ميتم الاطفال ، مرمل النسوان قاهر الملوك ، ومبين الظالمين ، اني ما فعلت ، ولا قتلت ، ولا رأيت ، ولا سمعت ، ولا دريت ، ولا قدمت اسية ممسية » ٠ ويقسم المزكون الثلاثة : « نشهد بالله ان يمينكم وكل ما قالوه صدق » ٠

وحينما يقسم « جيد الامانة » فان القاضي يحكم على المتهم بتسع الدية فقط (انظر اعلاه) او بالف قرش عند دخوله (الدخلة) ، وبألف آخر عند خروجه (الخرجة) ، او بناقة بيضاء عند دخوله واخرى عند خروجه (٧٥) ٠ وتدفع هذه المبالغ حينما يدخل الشخص المتهم بيت المدعي للمصالحة وعندما يغادره (٧٦) ٠

فاذا رفض « جيد الامانة » ان يحلف اليمين طلب منه ان يفسر سبب رفضه ، واديـن المتهم بدفع مبلغ الدية كاملا اذا كان قد قبل قسمية « جيد الامانة » · وللمتهم حق رفض رجل سماه المدعون ليكون « جيد الامانة » ويتم هذا حينما يكونون على علاقة غير وديـة. ولا بد ان يعلن المتهم صراحة : « اذكروا الله يا ناس وبيني وبين فلان شال ومال » ·

وسيرفض المزكون الثلاثة تأكيد يمين الآخرين فقط حينما لا يكون اي عضو من قبيلتهـم موجودا لحمل هذه المسؤولية على عاتقهم · وبوجه عام لا يملك احد ـ باستثناء الاقوياء ـ حق اداء اليمين · وبعد اليمين يدفع المتهم تسع الدين ، ويتم الاعلان عن حريته · ويطلق على هذا الحفل اسم « التسع والبراءة » ·

وفي حالات السرقة والخصومة الناشئة عن تحويلات تجارية يقبل الشهود ايضا بعد ان يقسموا على المصحف او بولي او نبي ·

واذا قتل شخص واتجهت الشبهة الى عديدين ، يلجأ الى « نار التجربة » او « نـار البراءة » او « البشعة » ، وهي قطعة من الحديد ، او « مهمزة » تحمى حتـى تصبـح متوهجة ، ويتقدم المشتبه فيهم واحدا بعد آخر للعقها بالسنتهم · ويتم هذا العمل الوحشي تحت اشراف شيوخ الدراويش من الطائفة الرفاعية ، الذين يلقبون « المبشعين » · ويقول الشخص المتهم : « انا بكونك البشعة ، محمول ، مزموم ، والبشعة والغرامة علي » · وكل من يمتحن بهذه المحنة لا بد ان يدفع رسما قدره ٥٠٠ قرش ، وهذا الرسم هو « البشاعة»· ويصحب الشهود المدعي والمتهم · ويلعق الاخير الحديد المحمي · اما من يفزع او يصرخ او يظهر علامات الالم فيعد المتهم · ولعل هذه العادة ادخلت في الاصل بهدف اخافـة الناس ، واجبارهم على قول الصدق · وكثيرا ما يحاول الرجل الذي يشعر بذنبه ان يجد سرا ـ واحدا يرتب الامر مع المدعي قبل ان يؤتى به الى « نار التجربة » (٧٧) ·

وثمة اختبار آخر من هذا النوع ، وان كان اكثر انسانية الى حد كبير ـ هو « البلعة » ويقوم على الابتلاع السريع ودون تردد اما لشيء صلب ـ كالخبز الجاف ـ او شيء مثير للغثيان او كريه كالدواء · ومن يتردد او يشكو او يتقيأ يتهم ، حتى على الرغم من انـه ربما يكون شخصا ذا معدة ضعيفة · اما اولئك الذين يؤدون هذا الفعل سريعا وبرباطـة جاش فتعلن براءتهم ، على الرغم من انهم قد يكونون الجناة الحقيقيين · ويخيف الشيخ المتهم بتكرار بعض الكلمات السحرية والادعية على الاشياء التي يتوجب ابتلاعها ، زاعما انها بذلك تكتسب مقدرة خاصة ، لها تأثير مختلف على المذنب منه على البريء (٧٨) · ولا اعتراض على نتيجة هذه التجربة ·

وبعد ان يكتمل التحقيق يسأل القاضي المتهمين عما اذا كان لديهم ما يضيفونه ، او اي اعتراض يقدمونه ، قائلا : « لقد قررت ···· » ثم يأمر الضامن بتنفيذ القرار · ويمكن للقاضي ان يؤجل القرار الى ان يتم حلف يمين · وقد يحدث هذا في الحالات التاليـة : (أ) لتأمين دليل جديد ، (ب) لاعطاء وزن اضافي لالتماسات احد الطرفين ، (جـ) لاتاحـة الوقت لدراسة اكثر عناية للقضية ، ومقارنتها بقضايا اخرى ذات طبيعـة مماثلة ، (د) وحينما يكون هناك احتمال لتسوية بالتراضي · ويعلن الحكم عادة في ختـام الجلسة الاولى ، حيث ان امتداد القضية قد يفضي بالناس الى الاشتباه او الشك في نقاء ضميـر القاضي ·

ولا يضم قانون البدو الجنائي اية مواد وملحقات بها · انما هو يتألف من قوانين تحكم قضايا معينة وعقوبات في كل قضية منها · والعقوبات الاساسية التي يفرضها القاضي تنتمي الى الفئات التالية :

(١) القصاص · (٢) الدية · (٣) الجلي · (٤) العين بالعين ·

ولا يفرض القصاص الا في الحالات التالية :

(أ) ينتهك رجل عرض امرأة متزوجة ، زوجها لا يزال على قيد الحياة ·

(ب) حينما يقتل رجل احد الوجهاء ·

وفي الحالة الاولى ـ وحتى اربعين سنة مضت ـ كانت المرأة وعشيقها يعدمان · أما الآن فتعدم الانثى الزانية وحدها ، بينما يسمح للرجل بان يخلص نفسه · اما بدفع مبلغ من المال او بتقديم بنتين على النحو الذي نصفه ادناه · وفي الحالة الثانية كان القاتل يعدم دائما · اما اليوم فان هناك حدا اكبر من الرأفة ، ويكتفي الناس بدفع دية او اكثر·

ويصدر الامر بالطرد لمدة شهور او سنوات معدودة حينما يتهم شخص بالاغتصاب او القتل ، وفي تلك الاثناء فان الانطباع الذي تخلقه الجريمة يزول جزئيا · فاذا لم يكن الطرفان قد توصلا الى وفاق فان القاتل يكون معرضا للقتل على يد واحد من افراد الطرف المدعي (الغارم) ، وهو فعل يذهب دون عقاب ·

ولا يقضي القاضي بدفع تعويض الا في حالة الضرر او في حالة سرقة ملكية منقولة غير النقود ، بما في ذلك انواع الملكية المعروفة ب « العروض » (٧٩) · فمثلا ، اذا سرقت شاة لا بد من دفع شاة كتعويض ، وناقة مقابل ناقة ، وحمار مقابل حمار ، وهكذا · ودفع ثمن الشيء مسموح به ايضا وخاصة في الحالات التي لا يمكن فيها اعادة الشيء الاصلي، كما في حالة احتراق خيمة او في حالة افساد كومة قمح · وحينما لا يكون بالامكان اعادة الشيء المسروق نفسه ، يستعاض عنها بملكية مماثلة ، او فان الثمن المقدر يدفع للمالك · والاصايل (الخيول الاصيلة) (٨٠) حالة يكون فيها مثل هذا التقدير صعبا · فكما ان الخيل الاصيلة لا تباع ابدا دون « فوايد » (٨١) ، فان المالك يصر على ان يتلقى حصانا مساويا في قيمته للحصان الذي فقده ، او ثمنه مع اضافة « الفايدة » · وعقوبة سرقة الفرس الاصيلة تكون شديدة ، ويجبر السارق على ان يدفع تعويضا عن مهورها ايضا ·

والدية هي اهم عقوبة · وتحدد بـ ٣٢ الف قرش ، وهو مبلغ يفترض انه مثل قيمة ١٠٠ ناقة · وثمن مائة جمل مقابل رجل مغدور هو عادة قديمة سابقة على الاسلام ، استمرت ممارستها حتى الوقت الحاضر · وفي حالة والد النبي دفعت مائة جمل او ٣٢ الف قرش، على اساس انهم اعضاء في قبيلة اقوى بأسا او في فريق اكثر نبالة · وهذه بدورها عادة قديمة جدا ، فقد كان الملوك والامراء يفدون بمبلغ يعادل اربعة امثال الدية العادية ·

والممتلكات التي ينهبها الطرف الواقع عليه الجرم خلال فترة ثلاثة ايام وثلث يوم من يوم جريمة ، لا تكون واجبة الاعادة ، ولا تحسم من الدية · اما الممتلكات التي تنهب بعد انقضاء هذه الفترة فانها اما ان تستعاد عينيا او ثمنها كما يقدره محكم نزيه ، يعين باختيار مشترك من الطرفين ، ويدفع المبلغ الذي يحدد الى اصحاب تلك الممتلكات ·

والدية لا بد ان تدفع تحت كل الظروف ، الا حينما يكون القتل عارضا ، وفي هـــذه الحالة لا يدفع الا نصف دية · ولا فرق بشأن الكيفية التي ارتكبت بها الجريمة ، او لماذا ارتكبت ، او اذا كانت قد ارتكبت في حالة هجوم او دفاع ، بوجه حق او بغير وجه حق · ويستحق مبلغ الدية نفسه عند رجل او صبي ، او عبد مولود في البيت (٨٢) · او عبـــد معتوق (٨٣) ، او زنجي حر (٨٤) · والدية التي تدفع عن عبد كان مالكه الحالي هو الذي اشتراه تكون نصف الدية الكاملة · ويدفع رجل محرر وعبد مولود في البيت نصيبهما في الدية ، ولكنهما لا يتلقيان اي تعويض ، اي انهما لا يشتركان في دية يقبضها فريقهـما · وتدفع الدية كاملة عن امرأة مغدورة من بين البدو ، وما يتراوح بين نصف الدية وديـــة كاملة عن واحدة من بين الفلاحين · والمرأة الحامل يدفع عنها ما يتراوح بين دية كاملة ودية ونصف ، حيث يؤخذ طفلها في الحسبان · والاخير لا يعد كائنا حيا كاملا بعد ، حيث لا يزال معرضا لاخطار جسيمة (« تحت الفرق والسرق ») (٨٥) · فاذا قتلت امـــرأة رجلا فان ابويها – وليس زوجها – يكونان مسؤولين عن الدية · فاذا قتلت فان زوجهـــا يشارك مع اعضاء عائلتها في الدية · وهذا التمييز يصوره المثل الذي يقول : « خير المرا لجوزها وشرها ع اهلها » · وفي حالة ما اذا قتلت انثى بيد مغتصب تدفع عنها ديـــة تتراوح بين دية ونصف واربعة امثال الدية العادية ، وذلك بسبب اجتماع جريمتين بشعتين واسقاط جنين عمره اقل من سبعة اشهر يعاقب عليه بنصف دية·· وغالبا ما يتم صلـــح على اساس دفع خمسين جنيها او جملين · ويقدم احد هذين الجملين في بداية المصالحـة في بيت المدعي (الداخلة) ، والثاني يسلم بعد الاتفاق (الخارجة) · أما اذا تـــم الاجهاض بعد الشهر السابع فان الدية تحسب كاملة اذا كان الجنين ذكرا ، ونصف ديـــة اذا كان انثى ، وعندما يكون القاتل صبيا صغيرا فان اولئك الذين في مثـــل سنه فـــي عائلته (٨٦) ، يكونون مسؤولين عن الدية ·

في عراك عام ، حينما لا يكون القاتل معروفا ، فان القبيلة كلها او العائلة لا بد انتدفع الدية ، وهي تسمى عندئذ « دية مغلولة » واذا وجد رجل ميتا خارج قرية فان القرية كلها تكون مسؤولة ، بل قد يشارك ذووه في جمع المبلغ · وعندما يقتل رجل في بيت آخر ، فلا بد للقاتل ان يعطي لمالك البيت ناقة بيضاء وعبدا اسود · ولا يستطيع القاتل ان يجلبهذه الاشياء بنفسه ، انما تؤخذ بمقتضى مبدأ « الجاهة » ، ويعتقد ان هذه الهدية ترد كرامـة الرجل الذي ارتكب في بيته هذا الفعل الشائن ·

ويمكن التمييز بين الانواع الهامة التالية للجريمة :

١ – قتل افراق ، حينما يموت المغدور فورا ، او في خلال ساعات قليلة ·

٢ – قتل دغمة ، قتل عند الغسق او في الليل ·

٣ – قتل انثية ، قتل شاب غير متزوج ، وهو ما يعني القضاء على امكانية انجابه نسلا ، وبالتالي طمس اسمه ·

٤ – نزلة العرض ، قتل شخص على وشك اغتصاب امرأة · وفي مثل هذه الحالـــة لا تدفع ديــة ·

وحينما يكون القاتل معروفا فانه يدفع ثلث الدية ، ويدفع ذووه الثلثين ، ويتلقى ورثة

المغدور ثلث الدية وذووه الثلثين · ويقول مثل عربي : « حطاط في الدية اخاد فيها » · واذا شارك شخص في عراك ، وكان لا ينتمي لاي من العائلتين المتعاركتين ، لا بـد ان يشارك في دفع الدية اذا كان قد ساعد جانب القاتل ،ولكنه لا يشارك في الدية المدفوعة ، اذا كان مع الطرف الاخر · ويعبر عن هذا المبدأ بوضوح المثل الآتي : « من فرح كفه في الضرب فرحها في الدفع » · وفي صراع كبير بين فريقين ، يقتل فيه عديد من الطرفين ،فان زيادة المقتولين من طرف او آخر لا يكون موضع نظر عند المصالحة ، حيث انه يقال : «حفر وغفر على ما غاب وبان » · بمعنى دعنا ننس كل ما حدث · ويصبح الشيء نفسه عـن الاضرار في مثل هذه القضية ، ذلك انه لا القضاة ولا اي شخص غيرهم يمكنه ان يقرر بالعدل في مثل هذه المسألة الصعبة ·

واذا مات القاتل قبل المصالحة تدفع عائلته وذووه الدية ·

وفقد اي عضو حيوي او طرف من الجسم ، مثل العين او الذراع او الساق ، يوجب دفع ما يتراوح بين ربع ونصف دية · وعند اصابة انف يدفع نصف دية · وعندما يصاب عضوان ـ عينان او عين وساق ، الخ ، يدفع ما يتراوح بين نصف دية ودية كاملة ·ومقابل جرح في الوجه يترك ندبة قبيحة يدفع نصف دية ، وتدفع « جاهة ووجاهة » لمزر ـ «هواية الوجه المشهر » · وفي حالة الجرح البسيط تقدم شاة كوجاهة ، الى جانب تعويض كامل عن الضرر والنفقات او الخسائر الحاصلة (٨٧) ·

والعقوبة في حالة الاغتصاب تختلف تماما · فاذا ما تحرش رجل بفتاة ولكن لم يتـم الفعل ، فان عليه ان يقسم انه لم يكن يقصد سوءا من لمسها ، وان يثبت صحة قسمـه بشهادة خمسة شهود صادقين تعرف باسم « دين وخمسة » · وبالاضافة الى هذا فانـه عندما يدخل بيت ابيها لا بد ان يدفع عند مغادرته اياه بعد المصالحة (خارجة) · فاذا كانت البنت تنتمي الى مرتبة اجتماعية دنيا يدفع مبلغ اصغر · فاذا اغتصبت البنت حكم على الرجل بدفع ضعف مبلغ مهرها · ثم تمنح له كزوجة · ومع ذلك فانها اذا كانت من عائلة احسن تعين عليه ان يقدم فتاتين كاعتراف بخطئه وكطلب للصفح · والرجل الـذي يخطف بنتا برضاها يحكم عليه القاضي بتقديم بنتين ومهرين ، وبان يأتي بشاهد ليشهدبانه لم يمسها الا بعد اتفاق رسمي · ويطلق على هذا الشاهد اسم « المبري » (٨٨) ، فـاذا اخفق في الاتيان بالشاهد تعين عليه ان يدفع خمس ناقات بالاضافـة الى ما ذكرناه · والمرأة المتزوجة التي ترتكب الزنا تعدم ، ويدفع المعتدي قيمة مهر لزوجها وآخر لعائلتها ، او بنتين · واذا اباحت بنت نفسها لرجل فان على الاخير ان يأتي بشاهد ليشهد على انه لم يمسها الا بعد ان تزوجا رسمياً ، ولا بد ان يدفع لها مهراً · هذه هي القاعدة في شرق الاردن · اما في فلسطين فان ذويها يذبحونها · وانتهاك عرض ارملة يعاقب عليه عـادة بما يتناسب مع اهمية عائلتها · ولا بد ان يدفع المغتصب مهرها ويتزوجها ·

اذا اعتدى رجل على امرأة في وضح النهار ، او بالقرب من تجمعات بشرية ، وطلبت النجدة (٨٩) ، فان حياة المعتدي تصبح في ايدي ذويها لمدة ثلاثة ايام وثلث يوم · فاذا افلت من الموت تكون العقوبات التالية هي المعتادة (على ان الممارسة الآن اصبحت اقـل تشددا في هذه الناحية) : يقطع ذراعه ، يتعين عليه أن يسلم كل الاسلحة التي بحوزتـه وكذلك حصانه الذي كان معه الى ذويها · والى جانب هذا عليه ان يضع صفا من الجمال

او الغنم من المكان الذي ارتكب فيه الاغتصاب او محاولة الاغتصاب الى المكان الذي سمع فيه صياح الفتاة · وبعدها يقوم آخرون بدور المحكمين وينخفض عدد الحيوانات تدريجيا الى ان يصبح في حدود قدرته على الدفع · فاذا كان بامكان المعتدي اقامة الدليل على انه لم يمسها الا بعد اتحاد قانوني سمح لها بالزواج منها ، ويقال عن الفتاة « ثوبها قـادر وخرزها بادر » · ولا يحق لمثل هذا الرجل ان يطلب هدنة (عطوة) وانما يعرف بانـــه « مشمس » ويبقى على هذه الحال الى ان تنتهي القضية ·

من المعروف ان البنات العربيات ملكية لعائلاتهن ككل · ومن ثم فالبنت ليست ملكية ابيها وحده ، ولا اخيها وحده · فاذا ما طلب احدهم يدها دعا الاب كل ذويه ، ويتوقف زواج الفتاة على رضاهم او استيائهم · وابن العم هو صاحب الحق الاول في فتاة ،حيث انه اقرب ذويها خارج المحارم ، ويأتي بعده ابن الخال ، ويليهم الآخرون في العائلة وشقيق زوج اختها ، لكل منهم حق أولوية يتناسب مع درجة قرابته ·

وابن العم يدفع دائما نصف المهر المعتاد · ويقول المثل : « ابن العـــم بيتيه عـــن الفرس » (٩٠) ، و « دور الدورة ولو دارت خذ بنت العم ولو بارت » · ويتراوح المهـر بين ٢٠٠٠ و ٤٠٠٠ قرش عادة · ولاتتلقى الفتاة من مهرها الا ربعه فقط وتحرم من نصيب في ميراث ابيها وزوجها · وهي تعرف اجحافـــده المعاملة ولكنها لا تجرؤ على طـــلب حقوق اكبر بسبب صرامة العادة · وليس من الواضح لماذا تعامل بهذا القدر من الظلـم في هذه الناحية ، وتراعى باحترام كبير فيما عدا ذلك (٩١) ·

ولا يوجد نص بين القضاة العرب لتناول حالات اللواط ، حيث ان مجرد ذكر هذا الفعل محرم · وفي العربية لا يوجد تعبير محلي عن هذا الفعل المستمد في الواقع من اسم لوط شقيق ابراهيم النبي (٩٢) ·

ذكرنا بالفعل بعض اساليب العقاب في قضية السرقة ، ولكن اساليب اخرى قليلة تحتاج بعد لان توصف · حينما يسرق قطيع ماشية فان القاضي احيانا ما يامر بدفع رأس غنـم عن كل خطوة من الموقع الذي تمت فيه السرقة الى اول وقفه بعده · ولكن ـ كما رأينا ـ فان المعتاد ان تنخفض هذه العقوبات المبالغ فيها تدريجيا « لاجل خاطر الحاضريـــــن » وتختلف عقوبة السرقة طبقا للعلاقات بين القبيلتين المتنازعتين :

١ ـ فالسرقات من قبيلة معادية : « رد ناقة » (اعلان حرب) · ولا يمكن ان تستعاد الاشياء المسروقة طبقا للمثل القائل : « التهاية رايحة » ·

٢ ـ في حالة القبائل او العائلات الصديقة ، يطبق مبدا « عين بعين » (٩٣) ، علـــى النحو الذي سبق وصفه (٩٤) · وهذه ايضا تسمى « بوقة » ·

٣ ـ حينما يكون الطرفان محايدين تعاد الاشياء المسروقة مضاعفة لاربعـة امثالها ، ولكن لا بد من التوصل اولا الى اتفاق بين الطرفين ، وهو اتفاق يمكن ان يعدل المبدا العام، وعندما يتم التوصل الى تفاهم فيما يتعلق بـ « التربيع » (أي دفع اربعة امثال المسروق) يقال الآتي : « السرقة بينا مربعة تا ينشف البحر وينبت عالكف شعر . شـاتنا بأربـع وحلالنا تربيع (٩٥) . وكل ما راح بيننا مربع » ·

والهنسة او الهجزة (٩٦) ، اي الدخول الى مكان مغلق ليلا للسرقة يعاقب عليه بغرامة ٥٠٠ قرش ، ولا بد من دفع ٥٠٠ قرش اخرى عند المصالحة تسمى « السددة » ٠

وبعد اعلان قرار من اي نوع يقول القاضي : « هذا حكمي ، فاذا لم يكن احد راضيا به فليرفع الدعوى الى قاض آخر او يأخذ نصيحة بني عقبة (٩٧) ، ويتعرض القاضي لخطر النقد من جانب اولئك الذين يكونون حاضرين ويسمعون قراره ، ومن جانب القضاة الآخرين ، ومن ثم يكون وشرفه وسمعته في الميزان ٠ وقد يؤدي خطأ واحد لا الى سقوطه وفصله فحسب ، انما ايضا الى فقدان الثقة بكل افراد عائلته ٠

اما اذا قبل الطرفان كلاهما القرار المعلن من القاضي فانهما يمضيان الى تحديد وقت وشروط تنفيذ الحكم ٠ فاذا اعتبر احد الطرفين نفسه قد عومل معاملة ظالمة فانه يطلب نسخة من القرار موقعا عليها من القاضي ، ويستأنف لدى قضاة آخرين ، فاذا وافق القاضي او القضاة المستأنف لديهم على الحكم ، تعين تنفيذه ٠ فاذا لم يوافقوا يكتب الاعتراض على نسخة القرار وتعاد الى القاضي الذي اتخذه ٠ ويتعين على الاخير ان يتحادث مع القاضي المحتج ويحاول اقناعه ٠ فاذا نجح تأكد حكمه ٠ واذا لم ينجح يتعين على القاضي الاول ان يدفع للخاسر في القضية الفرق بين حكمه ، وحكم القاضي الثاني٠ واذا كان الحكم خاطئا كلية يمنع القاضي من اية ممارسة بعد ذلك ويحتقر احتقارا شديدا ٠ وعندما يرفض القاضي الاول وخصمه التسليم اي منهما للآخر ، يرفع الاستئناف الى قضاة آخرين يكونون عادة من اعضاء « التياهة » في ناحية « بئر سبع » ، او « ولاد عمور » في ناحية الخليل ، او « المساعد » او « الفاعور » وكليهما في « الغور »(بوادي الاردن) جنوبي نابلس ٠ ٠

ويعرض الحكم الاول والاحتجاج عليه كلاهما على هؤلاء القضاة ، وفي النهاية يرضخ الطرف الخاسر للطرف الاخر ٠ ويعلن الطرف الرابح ـ الذي تأكد او صدق عليه ، في جميع انحاء البلدة ٠ ولا بد للخاسر (المفلوج) ان يعتذر وان يقدم شاة ، الخ الىالقاضي الذي يتغلب قراره ولكلا الطرفين من الاستئناف ويطلق على هذا الفعل اسم « لفية المفلوج » ٠

وفي قضية قتل حينما يعلن الحكم النهائي ـ يحدد وقت ويخطر اهل المغدور ٠ ويجتمع اعيان الناحية في قرية او مخيم القاتل ٠ فاذا كان الطرفان ينتميان الى القرية نفسها فانهم يلتقون في حي الطرف المذنب ٠ ويأخذ الاخرون معهم « الوجاهة » ، وتتألف من ارز وشاة وزبد وطحين وبن وتبغ وسكر وشعير ، وحتى خشب (٩٨) ٠ ولا بد ان تسبق « الوجاهة » قليلا « الجاهة » ـ او الاعيان ـ الذين يحرسون الشخص المذنب الى مسكن الطرف المجنى عليه ٠ وعندما يقترب الموكب من غايته تزال عمامات المجرم وعائلته او اغطية رؤسهم وتوضع حول اعناقهم دلالة على المهانة والخضوع ٠ ويختبىء المجرم خلف الاعيان اثناء دخول بيت الطرف المجني عليه ، الذي يبقى افراده جالسين ٠ ثم ينهض الآخرون ويرتبون عمامات المجرم وعائلته ، وبعدها يقدم هؤلاء القهوة للجميع ٠ وفي حالة مقتل شخص مغمور ، فان والده او عضوا اخر من عائلة المغدور يعفى من اعداد الوجبة لوفد الصلح، ولكن هذا الامر يترك للاعضاء الآخرين في العائلة والاقارب الابعد فيها(٩٩)٠

وفي القضايا المتصلة بشرف الانثى ، يمكن ان تعد عائلة المجني عليها الطعام ٠ ولا يقال شيء عن غرض الاجتماع الى ان يكون الطعام معدا ٠ عندئذ يلح المضيفون عليهم ان

يأكلوا · بينما يرفض الضيوف · وبينما يستمر هذا يقول القاضي ـ الذي يحتل ارفع مكانة بين الحاضرين ـ لاهل البيت : « لن نأكل ابدا ما لم تعدونا باعطائنا ما جئنا من أجله » · ويدور نقاش طويل حتى يقطع الوعد في النهاية ، وعندئذ يشارك الجميع في تناول الطعام · وهذا تصوير جيد لضيافة وكرم المضيفين ، الذين يكونون مستعدين للتضحية بكل شيء من اجل ارضاء ضيوفهم ·

وعندما ينتهي الطعام وتقدم القهوة ثانية ، ينهض احد الاعيان ويقول : « احنا اللحم وانتو السكين » · بمعنى اننا في حماكم ، وباستطاعتكم ان تفعلوا بنا ما شئتم · ويأخذ القاضي عصا طويلة وقطع من نسيج الموصلين الابيض ، ويعقدها بطرف العصا ، جاعلا ثلاثا وثلاثين عقدة ، اشارة الى ان الدية هي ٣٣ الف قرش · ويعتبر من قبيل التشريف الكبير لرجل ان يربط هذه العقد ،اذ انه عندئذ يجري الحديث عنه بانه الرجل الذي «يعقد الراية » بعد اراقة دم او انتهاك عرض انثى · ثم يعطي القاضي العصا للقاتل او المغتصب ، فيقف هذا ويمسك بها عاليا · ويناشد القاضي شرف وكرم وفروسية الطرف المجني عليه بأن يسأل : « كم تقدرون وجه الله والنبي وابراهيم وفلان (ذاكرا اسم احد الاعيان الذين لا يكون حاضرا بالضرورة) ؟ » وبعبارة اخرى يسأل القاضي كم يستعد الطرف المجني عليه للحسم من المبلغ الكلي ، الذي يتجاوز قدرة الشخص المتوسط · ومع ذكر اسماء اعيان عديدين يخفض المبلغ الاصيل تبعا لكرم الناس المعنيين ، وعن كل الف قرش تحسم يحل القاضي واحدة من العقد : ويستمر القاضي في ذلك حتى يصبح المبلغ الباقي معقولا · وفي حالة ما اذا كان الجاني فقيرا يسمح له بأن يدفع بالتقسيط ، الثلث مقدما ، والثلث الثاني بعد ستة اشهر والثالث بعد سنة · وقبل ان يغادر الشخص المذنب المكان ـ بعد التسوية ـ ينهض احد الحاضرين ويقول : رايتك بيضا يا راعي الغرمة (١٠٠)·

ونظام « الجاهة والوجاهة » (الذين يأتون مع الجانب المذنب) والهدية (من الطعام الذي يأتي به هؤلاء) ـ كما ظهر بين عرب الصحراء ـ هو افضل اسلوب ممكن لتأمين خفض الدية وتقليص العقوبة · كما انه يبرهن على كرم الطرف المجني عليه ويشجع على هـذا الكرم ·

أما عندما يهرب القاتل من قريته او قبيلته فانه لا يمكن ان يعود ما لم ، او الى ان . يتكفل شخص معروف بمسؤولية اعادته الى القبيلة كمجرم ، وتسليمه سالما الى اهله (« يورده زالم ويصدره سالم ») · ويمضي الاجراء بعدئذ على النحو التالي : يقيد القاضي يدي المذنب معا ، ويقوده الى خصومه ، اما وحيدا او مصحوبا باهله · ثم يوجه خطابه الى الطرف المجني عليه : « خذ فلان بن فلان عوض عن فلان » (١٠١) · وينهض اقرب اقرباء القاتل وفي يده سيف او سكين ، ويسأل المتهم : « هل لديك ضامن او ضمان ؟» ـ « لا » ـ « هل لي ان اقتلك اذن ؟ » ويجيب المجرم بالايجاب ، وعندها يقطع الآخر قيده ويعفو عنه ·

فاذا كان المجرم مصحوبا بذويه فانه لا ينضم اليهم ، انما يجلس وحدة · وعندما يقدم الطعام لا يشارك ضامنه الى ان يتأكد من ان الجزء من الدية سيدفع · وبعد ان يتم هذا يشارك الجميع في تناول الطعام ·

ولا يقوم القاضي بنفسه بأي محاولة لخفض الدية او تخفيف القرار الذي اتخذه ، بل

انه ــ على النقيض من ذلك يطلب من الضامنين ان ينفذوه ، ويتعيــن على الاخيرين ان يتأكدوا من تحقيقه · فاذا رفض الطرف المجني عليه لسبب او لاخر تخفيف قسوة الديــة اجبر الضامنون المجرم على ان يدفع المبلغ المطلوب باكمله ، ويتسلم الضامنون عشر المبلغ الذي يأخذونه من المجرم · ومع ذلك فان المدعين لا يكونون ابدا من الناحية العملية بهــذه الدرجة من القسوة . انما هم يتصرفون بنزاهة ويسلمون · وهكذا يتم الصلح وتتصافى قلوب الاخصام المليئة بالمرارة . وبعد ان تسوى قضية دم او عرض · وتنفذ كل الشكليات تصبح القبيلتان على ود من جديد . ويعقدان تحالفا · وتسمى العلاقة الجديدة « امومية»·

وقد جاء ذكر بعض العقوبات القاسية وحتى التي لا تغتفر . فاذا لم يعاقب المجــــرم بقسوة فانه سيواصل فعل السوء ، ويحذو آخرون حذوه ، حتى يتعرض الامن العــــام للخطر · فكانت العقوبات البالغة القسوة ــ التي عدلت الآن ــ مفيدة للغاية غالبا فــي مجتمع بدائــــي ·

وختاما نجد أن لمعظم القانون المدني ما يقابله في نظيره البدوي · فاذا قارنا بينهمــا سنجد ان الاخير اكثر دقة واكثر تعادلا في كثير من جوانبه ، كما هو الحال مثلا فــي مسالة اليمين والشهود والاستئناف ورد القضاة · وما شابه ذلك ·

عمر افندي البرغوثي (القدس)
نقلت النص الى العربية
اجلال عبده

الحواشي

(١) كاتب هذا البحث مسلم ، هو ابن واحد من ابرز شيوخ جنوب فلسطيــن · تعرف عن قرب منذ صباه على عــادات وممارسات الفلاحين والبدو الذين لا يكاد يوجد بينهم فرق في جنوب فلسطين · حيث تمتزج تدريجيا طبقة في الاخرى · وقــد عكف على جمع المواد الفولكلورية والاثنية طوال ١٣ عاما مدونا اياها في يوميــات ومذكرات خاصة ، ومن المؤسف ان عــددا منها قد وقع في يد العدو اثناء الحــرب ، واتلف · وستكتسب معرفتنا بتاريخ ولغة وعادات جنوب فلسطين الكثير من المعرفة الواسعة ومن المجموعات الضخمة التــي قام بجمعها · وتأمل ان تكون هذه مجرد دفعة اولى ·

اود ان اعبر عن تقديري للدكتور و·ف· اولبرايت والدكتور ط· كنعان للتشجيــع والمساعدة اللتين قدماها لاعداد هــــذا البحث ·

(٢) من قبيلة بني تميم ، بين يمامــة واحسا · وقد توفي عقب ظهور النبــي مباشرة ·

(٣) معاصر للاول ومن رجال قبيلته ·

(٤) ديتو ·

(٥) من قريش · مسقط رأس النبي ·

(٦) ابنة امير الحسا امير بني تميم ·

(٧) ابنة محارب موهوب من بني تميم ·

(٨) « المضافة » غرفــة للاستخــدام الشاعي للقرويين ، حيث يتم اكــــرام الضيوف · وتوجد عادة المضافة في كـل قرية تقريبا في جنوب نابلس ، وبين بنــي صعيب على شاطىء البحر · وفي شمــال نابلس نجد بدلا مــن « المضافــات » ــ « دواوين » ، وهي حجرات للزوار فــي بيت كل من الاعيان · وينفق كبار السن في القرية معظم وقتهم في « المضافة » ·

(٩) احاديث المسنيــن والخدم فـــي

المضافة ، بينما يكون الاخرون في العمل ٠

(١٠) في جبل الخليل ٠

(١١) ديتو ٠

(١٢) ديتو ٠

(١٣) الوعدية منطقة تقع الى الشرق والجنوب الشرقي من القدس ٠

(١٤) في ناحية جنين ٠

(١٥) فيما يلي اسماء القضاة الحاضرين من هذه العائلات ، وكلهم من الفلاحين : الحاج حسين وعيسى محمد من المناصرة ، شحادة من ابو عرام ،عبد الرحيم تالج من الحامدة ، وحسن ابو كارب من دير جرير ، وسنذكر اسماء القضاة البدو واشباه البدو فيما يلي ٠

(١٦) امر النبي بأن يسوي اعيان القوم القضايا التي تنشأ بين الناس ٠ ويحذر حديث نبوي من خطر العهدة بمنصب الى شخص غير كفؤ ٠

(١٧) الامثلة التي تشير الى النظر من هذه الزاوية هي : « دم رخيص وعرض رخيص » ٠ « هالعيلة لا بتوخذ التار ولا بتنفي العار » ٠ ويشار الى الانتهاك المتكرر لعرض الانثى بجملة تقول ما معناه : الزيتون دعس قبل خزنه ٠

(١٨) الدية هي ثمن الدم ٠والجرة فتاة تؤخذ من فريق القاتل وتزوج الى رجل من العائلة التي فقدت مغدورا ٠ وتزوج الفتاة دون مهر ٠

(١٩) « اطيب عليهم » في حالة القتل او الاغتصاب ، وعدا ذلك « اساليهم » ٠

(٢٠) عادة الرزقة (الرهان) عادة قديمة جدا ٠ قصة القمت الفحل والدين طفيل في « رسالة بن زيدون » ٠

(٢١) فيآراء فضلالقاضيانهيمكنان يأخذ شاة او قماشا بدلا من النقود ٠ وعندئذ يسمى « معارض » ٠

(٢٢) عادة العهد قديم للغاية ، ونجد في وقت يرجع الى زمن الجاهلية ، قارن قصة حاجب بن زرارة وكسري في « العقد الفريد » لابن عبد ربه ٠ المجلد الاول ، ص ١٢٠ ٠

(٢٣) لكل مضافة ناطورها الخاص ، ويختاره المسنون ٠ وهو في بعض الاماكن يتلقى اجرا يصل الى مائة مجيدي في السنة وفي قرى اخرى يأخذ ما يصل ١١ مائة صاع من القمح اي من ٦:٣ رطل او من ١٨:٩ كيلو ٠

(٢٤) حرفيا « الشخص المختار » ٠

(٢٥) حرفيا « مكان اليمين » ٠

(٢٦) حرفيا « مكان التوقف ، حيث يتوقف سير العدالة ٠

(٢٧) في مثل هذه الحالة يمكن ان يقول الغني « مصاريف اقوى من عظامه » ، بمعنى اموال اكبر من امواله ٠

(٢٨) يستخدم الفلاحون كلمة عطاني او انطاني من اعطاني ٠

(٢٩) بين العرب ، اللحية او الشارب رمز لشرف الرجل ٠ ولما كانت اللحية بهذا القدر من الاهمية فانها لا تحلق ابدا ، ومن الهزوء حلقها ٠

(٣٠) يعيش بنو حسن في قرى بيتعير ، ولوجة ، مالي ، بيت جالا ، الخ ٠

(٣١) في قرى الطيبة ، دير جرير ، كفر مالك ورمعون ٠

(٣٢) يستخدم هذا المصطلح هنا ليشمل جبل القدس ٠ اي القرى المحيطة ببيت المقدس حتى « البيرة » نحو الشمال ٠

(٣٣) ذر التراب يمثل نثر الدم ٠ وكل من يقع عليهم التراب لهم حق والتزام بأن ينتقموا للمغدور ٠

(٣٤) انظر حداد « بلوتارخ في فلسطين » ، (الماني) ١٩١٧ ٠

(٣٥) احيانا ما تعطى هدنة قصيرة لمدة اربعة ايام تسمى « عطوة كم ولم » اي هدنة لبضعة ايام لجمع النقود ٠

(٣٦) من قرين العنب (بني مالك) ٠

(٣٧) من دير غسانة (بني زيد) ٠

(٣٨) من كور (بني صعيب) ٠

(٣٩) من سعنور (مشارق الجرار)٠

(٤٠) هو بهذا يعزو الاوامر الدينية الى الرجل المتعلم والسلطة الدنيوية الى نفسه ٠

(٤١) على التوالي اقرب اقرباء المغدور وطالب الشرف (في قضايا الاغتصاب) ٠

(٤٢) كلمة « فتوح » من « الفتح » تشير الى فتح المفاوضات على الهدنة ٠ ولم اسمع ابدا تعبير « عطوة الفورة » الذي ذكره حداد في المصدر المذكور ٠

(٤٣) مجيدي تركي او خمس جنيه تركي ، يساوي ٢٠ قرش صاغ ، او نحو ٤½ فرنك ٠

(٤٤) يستخدم تعبير « القبول » لان قبول هدنة ثانية يمهد الطريق لاتفاق نهائي ٠

(٤٥) في بعض الاماكن تدفع النقود عن كل هدنة ، حتى الهدنة الرابعة والخامسة . الخ ٠

(٤٦) كلمة « طنب » من « طنبة » ، وهي نشر خيمة الى جانب اخرى ٠ « انا طانب عليك » تعني اود ان تقبلني جارا لك ٠

(٤٧) حرفيا « الجد الخامس للاب » ٠

(٤٨) تعني الامان والاطمئنان (قارن حداد) ٠

(٤٩) صفوف من القماش معلقة بجانب بعضها في تناغم تام ٠

(٥٠) معناها ، ابتكفل انهم لا يعدو ولا يبدو مثل حبال الغسيل ، ايشيلو على بير ويريدو على بير ؟

(٥١) هل قبلتم وجوهنا من الحق والبق والعاطل والباطل ؟

(٥٢) حرفيا « لا لوم عليهم » اي انهم لا يلامون على ما يفعلون حيث ان الوجه قد انسحب ٠

(٥٣) يقال عن اولئك الذين يخرقون الهدنة ، طاحو بالوجه اي انتهكوا الضمان ٠

(٥٤) « هدنة » هي الكلمة العربية المقابلة لكلمة عطوة الفلاحين ٠

(٥٥) كلمة « قود » تعني حرفيا حيوانا يقاد بواسطة حبل ، مثل العنزة او الشاة ٠

(٥٦) هناك قول اخر هو : « اللي متحزم به عريان » ٠

(٥٧) عادة توجد مضافة واحدة في كل قرية ، ولكن عندما تكون القرية منقسمة الى فريقين مختلفين ، يؤسس كل منها مضافة خاصة به ٠ واحيانا ما تطلق على المضافة اسماء اخرى مثل الساحة والقنق (وهي من اصل تركي) والجامع ٠ وهي عادة غرفة كبيرة لها وجاق شرقي مبني في الحائط البعيد عن الباب ٠

(٥٨) يظهر هذا السكون رصانة المناسبة، ذلك انه اثناء الصلاة في مسجد او قراءة القرآن يراعى مثل هذا السكون ٠

(٥٩) خويي ، مثل « خيي » الفلسطينية ٠

(٦٠) هذا يعني ان العائلة تحظى باحترام شديد ، ولا احد يجرؤ عادة على مهاجمة افرادها ٠

(٦١) حرفيا « نظيف القميص » ، اي

انه لم يقتل بسبب فعل وضيع ٠

(٦٢) حرفيا « الفرج » ولكن هنا « علاقة انثوية » ٠

(٦٣) العظم تعني هنا حرفيا عضوا او اعضاء فقراء في العائلة ٠

(٦٤) دم ابن عمي هو بالفعل دمي انا ٠

(٦٥) اي انه ابن زنا ٠

(٦٦) هذا تمهيد يصور قضية القتل فيها معترف به ٠

(٦٧) اي انه لم يتم شيء للتعويض عن موت ابن عمي ٠

(٦٨) تصويرا لهذا المفهوم يمكن تذكر بعض الامثال : « تلتين الولد لخاله » ـ « ما بترك التار الا راضي البال » ٠

(٦٩) حرفيا « صحـــي ودافـــيء » ، ومعناها رجل موفور الصحة والثروة ٠

(٧٠) حرفيا « الشاب رمح » ٠

(٧١) معناها فقدت السيطرة على يدي ٠

(٧٢) هذه حالة نموذجية حيث الذنب معترف به ٠ اما حيث ينكر فانه تستخدم صيغة كالتالي : « صلي عالنبي يا قاضي ، ويش تقول في النايم ليله وحافظ ديله . لا بيعلم ولا بيدري وبيرموا عليه بحال ملبه ، ومن يوم لحقت مقعدك وصلت محـــل الانصاف تراني ما انتهم على كلام سايـح بن رايح » ٠

(٧٣) الفلاح العادي والصقار (الـذي لا يزرع الا قطعة ارض صغيرة) والسياف، الخ لا يملكون حق الادلاء بالشهادة ٠ ويقال ان هذه القاعدة وضعها ابن السمير مـن الحرشان (سحور) ٠ وهي قاعدة قديمة ٠ ان ناشف الجلد (اي الرجل بلا لحية) والمقطوع الولد لا يحـق لــه ان يدلـي بالشهادة ٠

(٧٤) اولئك الذين يقسمون اليمين لا بد ان يكونوا طاهرين قبل الدخول ٠ وعادة يعين يوم الجمعة لليمين ، لجعل القســم اكثر تبجيلا ٠

(٧٥) يتم هذا عندما تكون العائلـــة المدينة معروفة بأنها فقيرة جدا ٠

(٧٦) هناك تعبيران اخران للدخلـــة والخرجة هما التيهة والطلعة ٠

(٧٧) اهم اماكن الاختبار هي العلا، خان يونس (في اراضي قبيلة الايادة) شيخ مبروك (بين الخرازنة وبين بن عطـية (شرق الاردن) ٠

(٧٨) قارن الاختبار بواسطة نزح الماء المقدس (ماء الغيرة) العـــدد ٥٠ ص ١١ : ٣١ ٠ الذي يصبح مرا ويسبب مرضا في جسم المرأة غير العفيفة ، ولكنه لا يؤثر على العفيفة ابدا ٠

(٧٩) كل شـيء يعرضـ للبيـــع الا الحيوانات والنقود والغلال والسوائـل ، طبقا للمادة ١٣١ من القانون المدنـــي التركي ، المجلة ٠ « الفلاح » يدخـل الان تحت هذه كل شيء الا النقود ٠

(٨٠) جمع اصيل ٠

(٨١) جمع فايدة ٠ كما بيعت فرسة قوية البنية يوقع عقد يقضي بان يعطي اثنـان من ذريتها الاناث لمالكها الاول وتسمى هذه الذرية من الاناث فوايد او متاني ٠

(٨٢) عبد مولد ، عبد مولود لاب عبد في بيت سيدة ٠

(٨٣) عبد معتوق ٠

(٨٤) عبد هنا تعني الزنجي ٠

(٨٥) حرفيا : تحت خطــر الغـــرق والاختناق (في الرحم) ٠

(٨٦) في جانب الاب ٠ يقـول حديـث « الدية على القيلة » ٠

(٨٧) يقتضي فقد كل سنـة أولـى من

القواطع ٥٠٠ قرش كتعويض ، والثانية ٢٥٠ : وللناب من كل ناحية ١٢٥ ! ولكل من الضرسين ٦٢½ ، وللضروس الاخيرة ٣١¼ ٠

(٨٨) لا بد ان يتم حفل الزواج الرسمي في حضـــور القاضي او العالـــم او الخطيب ، ولكن عمليا يكفـــي ان يطلب الرجل الفتاة في حضـــور شخص ثالث ، لا بد ان يكون مـــن الاعيـــان لكي يقبلـه زوجا لها ٠

(٨٩) تعرف مثل هذه المرأة بصيحـــة الضحى ٠

(٩٠) اذا منحت فتاة لغريب فانه يحق لابن عمها ، حتى فـي اخـر لحظـة ، ان يأخذها ٠ وهو عندئذ يأخذها مـن فـوق حصانها في موكب الزفاف ويصحبهـــا الى البيت ٠

(٩١) بين البدو تشـــارك المـــرأة في صراعات الرجل وتصاحب المحاربين ، بل انها تذهب الى الحرب معهم ٠ وكـل من يضرب امرأة ، حتى ولو كانت قد اصابته بجرح يحتقر ٠ فاذا وقعت نساء في الاسر فانهن لا يبقين اسيرات ، انما يرسلن الى موطنهن مع الحماية والتكريم اللازمين والبدو في غزواتهم يأخذون النساء الاسيرات مـن قبيلة العدو معهم لا لسبيهن انما لاعادتهن الى أهلهن بما يلزم من احترام فـي أول فرصة ٠ وللاغنية التـي ترددهـا النساء اثناء القتال أثر محفز علـى الرجـال ٠ فيدعونهـم لان لا يخافـــوا مـن العـدو ويلمنهم على الجبن حتى يجبرنهم علـى الصمود ٠ ويقال أنه عندما تنازع رجـال قرية ما بدأ القتال فظهرت النساء بقيادة واحدة من ارفع السيدات ينشدن كلمـــات ملتهبة : «هياعليكم يا رجاجل (رجل)الكلب بيعوي بـاب داره ، والجهـاز بتحـارش عا مزابلهـا وبتناهـق عـــا مداودهـــا وبتربرون عند النمورة والديابة واللي مـا يصغر لابن امه ما يكبـر عنـد عـدوه ٠ تحداكم البين واتعداكم النيه واتحدفكـم القوم ، حارب عداكم يأخذونا غداكم » ٠

بعد هذه الانشودة تملك الرجال الخجل فاوقفوا القتال ، وتصالحوا فيما بعد ٠

(٩٢) تطبيق حكم الموت في مثل هـذه الحالة ٠

(٩٣) كلمة « عين » تعني ايضا « عين الشجاعة » ٠

(٩٤) قارن

Ex 21, Len 24, Dent 19 Cet.

(٩٥) يفهم البدو بالحلال الغنم والماعز والجمال والخيل والحمير والخ ٠

(٩٦) فلاح : الحتاسة تعـادل الحتاسة (قارن محيط المحيط ، الجزء الثانـي ، ٢١٨٢) ٠

(٩٧) محكمة الاستئناف العليا ، التي يلجأ اليها عادة في قضايا الشرق ٠

(٩٨) هناك ايضا وجاهة صغيرة يقال لها لافية ٠ ويذهب الطرف المذنـب الـى منزل الخصم اخذا معه شاة او اثنتين ٠ وبعد ان يعترف ويعتذر يطلب المصالحة ٠ وهذا هو المتبع فقط بين عـــدام النـــاس وحين تكون الجريمة صغيرة ، مثـل قطع اشجار الزيتون وسرقة الثمار ، الخ ٠

(٩٩) حينما يكون المغدور منتميا الـى عائلة نبيلة فان ذويه لا يعدون الطعام انما يتركون ذلك لعائلة القاتل ٠

(١٠٠) هذا يعني « المالك » طبقـــا للاستخدام العربي الحديث ٠

(١٠١) هذه عادة عربية قديمة للغايـة (سابقة على الاسلام) ٠ انظر ابن الاثير المجلد الاول : حرب البسوس ٠

مراجعات

ميشال شيحا

فلسطين

منشورات ميشال شيحا ، بيروت ١٩٦٨ ٠

ميشال شيحا هو أحد أهم منظري الكيان اللبناني ان لم يكن الاهم ، وهو في مقالاته الصحفية التي كتبها وجمعت تحت عنوان « فلسطين » (١) يتناول القضية الفلسطينية وقيام دولة اسرائيل وما تلا قيامها تناولا متعدد الابعاد والاتجاهات ٠

ففي كتابه قراءة « لبنانية » للمسألتين الفلسطينية واليهودية معا ، ومساهمات في صياغة سياسة عربية في التعاطي مع اسرائيل والغرب والشرق ، وقبل هذا وذاك ، محاولة لتطبيق قوانين الصياغة اللبنانية على فلسطين ، ومحاولة موازيه لقراءة الوضع اللبناني على ضوء نشأة اسرائيل الدولة والمستجدات التي تطرحها ٠

لقد جاء كتاب شيحا وسط ظروف تميزت بالتالي :

ـ **لبنانيا** : نشأة « الدولة » والبحث عن ظروف سلمية ملائمة ، خصوصا بعد انقضاء الحرب العالمية الثانية ، لتكوين عصبية لبنانية تسير الى جانب التوطيد الاقتصادي والسياسي ٠

ـ **عربيا** : بلوغ الانظمة القديمة ، التي ساومت الغرب لانشاء لبنان ، مستوى بالغا من التعفن يقربها الى حدود الانهيار، سيما وان نهاية الحرب كانت تطلق في « العالم الثالث » موجة تحررية وطنية مالبثت أن ترجمت نفسها عربيا في مصر ٠

ـ **دوليا** : تراجع الاستعمار الاوروبي القديم ممثلا ببريطانيا وفرنسا والمانية المهزومة لصالح العملاقين الصاعدين : الولايات المتحدة الاميركية من جهة والاتحاد السوفياتي من جهة اخرى ٠

وسط مجمل هذه التحولات كان لبنان الناشيء حديثا يبحث عن موقع له وضمانات جديدة لاستمراره ٠

ولم يخل البحث على يد شيحا من ماضوية تحمل على الدوام بذور تراجيديا قد تصيب لبنان ، فهناك تمسك بأوروبا بدل الصعود الاميركي السوفياتي ، (٢) ورغبة في ابقاء الوضع العربي بعيدا عن الرياح التحررية ، (٣) ونزوع الى التمسك بالسلم « العالمي » بعد الحرب الثانية بدل الحرب التي هي لا مندوحة آتية الى المنطقة العربية (٤) (وهذا ما جعل شيحا يتنبوء باهر يطلق على الحرب « حرب المائة عام ») ٠

بل وصل الامر بشيحا الى ما يشبه الوقوف المبكر على اطلال لبنان « فنحن اللبنانيين مدعوون الى رؤية هذا السلطان على حدودنا يتسع واحتمال العبء الساحق بوجوده ومحاولاته والى الاشتراك في تحبير المراثي » (ص ١٢٥) ٠

على ان شيحا لم يكن « انعزاليا » بالمعنى المبسط والمتعارف عليه اليوم ، والاصح ان يقال ان موقف شيحا غير

الانعزالي ذاك هو بالضبط جذر الحالة التراجيدية التي أثبت لبنان (بعد تجاوز ماض مؤقت) انه لا يتسع لها · (٥)

وبقدر ما يخطىء الذي يقول ان سعد حداد هو الوجه الاخر لميشال شيحا ، يخطىء كذلك من يقول ان سعد حداد لا يتصل بميشال شيحا ، اذ الشيحوية هي حالة من تأجيل الواقع ، ومع ولادة اسرائيل والعناصر الاخرى المستجدة تحرك الواقع بسرعة فكان سعد حداد حفيد ميشال شيحا الوحيد ·

وبلغة اكثر وضوحا يمكن القول ان تحولا قد حصل في المناخ الامبريالي بين الفترة التي تلت الحرب الاولى والفترة التي تلت الحرب الثانية ، ففي الاولى كان المناخ الامبريالي « معتدلا » يجد رموزه في استعمار اوروبي ووسائط محلية (لبنانية مثلا) لكن جدلية العملية الاستعمارية الغت او اهملت الكثير من العناصر التي اوجدتها في تلك الفترة ·

فاذا وجد لبنان عام ١٩٢٠ من ضمن ترتيب الوضع القائم لمصلحة الغرب ، ففي المرحلة الثانية حيث بات المناخ الامبريالي حارا باتت الرموز البديلة مغايرة : أميركا بدلا عن اوروبا ، وهزيمة العرب بدل المساومة معهم ، اي اسرائيل بدل لبنان ·

ولبنان لا يستطيع ان يلعب دوره كاملا الا في مناخ من المساومة العربية الغربية ، مساومة مغلفة بلون من التوازن ·· فهو كائن يمتنع عن « التطرف » ولا يرتاح اليه ، خصوصا وان نشأة اسرائيل قد تقود الى هيجان سياسي في العالم العربي كثيرا ما حذر منه شيحا ·

والتراجيدية تأخذ شكلا ناجما عن مخاطبة « المتطرفين » بلغة « معتدلة » ·

(وهذه تراجيدية نراها اليوم في الافق المسدود امام مواقف بعض الاقطار العربية التي لم تؤيد سياسة السادات) : فمن موقع الحرص على « المساومة » في المنطقة حرص شيحا على مطالبة الغرب وخصوصا الولايات المتحدة ، بايجاد « حل سلمي » اكثر تقدما بكثير من الحالة الساداتية الراهنة ، (٦) واقل بكثير من الدعوة لجعل الشعب العربي يمارس نضاله التحرري ضد اسرائيل، وهي دعوة لشد ما خافها شيحا و « لبنان » الذي كان مؤجلا ·

فلنحاول ان نعين كيف أعاد شيحا قراءة « الصيغة اللبنانية » على ضوء اسرائيل ، بل تلاوة هذه الصيغة على اسرائيل تلاوة لا تخلو من التبشير اللبناني الذي لم يطل به العمر ·

لقد مثل تقسيم فلسطين بالنسبة له انكسارا في « نظرية » النموذج اللبناني ، فهو يطمح الى « لبننة » الكائن الجديد عن طريق « تعايش الطوائف » فيه ، ووقف الجنوح الى الصهينة والعنصرية بوصفهما يقطعان مع ما يمثله « التعايش » اللبناني·

وبلغة أخرى ، قدم « لبنان » عبر شيحا رده ـ بالطوائف ـ على اسرائيل ، فهذا يضمن عدم استنهاض الرد الاخر : الرد بالجماهير ··· وهو ايضا يوفر تعميم الغلبة المارونية (وهنا الغلبة اليهودية) بدل الهيمنة العنصرية الكاسحة والشمولية التي تضع المنطقة بكاملها على فوهة البركان ، (٧) وهذا التصور يشكل امتدادا طبيعيا لمحاولة الحفاظ الماضوي على مناخ امبريالي معتدل (بدل ان يكون متطرفا) ·

والخوف من اختلال الصيغة اللبنانية على يد الصيغة الاسرائيلية يجعل شيحا يدق أعلى نواقيس الخطر واكثرها مباشرة ووضوحا فـ « اعتبروا ان الدولة اليهودية قد صنعت · حتى بتنا نرتقب على ريبة

واحتراز ، هذه المحنة الخطابية والجدلية التي يهيأ لها في بقعة من جبل لبنان ، فتشرف بها لبنان » (٤٣) ٠

ان الدعوة الى اللقاء على الاديان تحمل أوضح تعابير الفهم الرجعي للمسالة الدينية ، بوصفها مستعدة لالغاء الاسلام (التحرري) شرط أن يرافقه الغاء اليهودية (المعادية) وصولا الى حالة من التصالح « اللبناني » الذي « يتساوى » امامه التطرف العربي والتطرف «اليهودي» الصهيوني ، ولا يبقى من خطر سوى « الالحاد والشيوعية » ٠ ويتذكر المرء امام دعوة لبنان هذه ، الاستهلال الديني الملفت الذي استهل به انور السادات خطابه الشهير في الكنيست الاسرائيلي (توافق مع اسرائيل أوله الدين وآخره العداء للشيوعية مرورا بالتصالح مع الغرب « المؤمن ») ٠

و « التطرف » الذي تمثله اسرائيل يهدد عظيم التهديد وظيفة « الاعتدال الذي مثله لبنان وليس ايديولوجية فحسب ، فهناك خوف اقتصادي (١) من التطور الاسرائيلي وتقدم « العلوم والعقول اليهودية » وهناك خوف استراتيجي من ذلك البلد التوسعي الذي يقع « في امت الجوار » (٩) ممزوج بخرافية النظرة الى اليهود وامكاناتهم التي « لا تحد » (والتي « سيطرت » على اميركا وبريطانيا) ٠

والتلاوة التبشيرية للصيغة اللبنانية ، لم تكن تلقى على اسرائيل فحسب ، بل على العرب أيضا ، حيث حدد لهم شيحا « اللبناني » للصراع مع اسرائيل : الاعتدال والاهتمام بالاعلام والصداقات الدولية وغير ذلك ٠ (١٠) وفي لحظة من لحظات المخاطبة يبدو شيحا معلما لبنانيا أهله الموقع للاطلاع على الحضارات واللغات وأساليب السياسة مما خوله مخاطبة العرب من على منصة « فالبلدان العربية لم تدرك بعد ان خطر الدولة اليهودية اعظم ما يهددها من مخاطر » (١٠٨)

من هذا الموقع يريد شيحا للعرب الا يرجع نضالهم ضد « الغرب » (١١) على نضالهم ضد اسرائيل ، ورغم ملامات كثيرة يوجهها للسياسات الغربية عموما والاميركية خصوصا ، فهو يلتقي عند هذه النقطة مع منطق تاريخي تمسكت به الرجعيات العربية ومفاده ان بالامكان مقاتلة اسرائيل من ضمن الصداقة مع الغرب ممثلا مرة ببريطانيا ومرة اخرى بالولايات المتحدة ٠

ويحذر العرب من الاندفاع نحو « الشيوعية » ، (١٢) فـ « لاشك في ان العرب سوف يوازنون ما بين الروس والاميركيين » (١٩٤) ويوظف في هذا كل طاقته الاقناعية لبرهنة الدور الروسي – الاميركي في انشاء اسرائيل ، بل وأحيانا لايحاء ان اميركا ارتكبت خطأ لن يستفيد منه سوى الروس فـ « من المحتم ان الدولة اليهودية – كما شاءتها واشنطن وموسكو – ستكون مدعاة لخلاف أبدي داخل حدود الشرق الاوسط جمعاء ، وخارجها ٠ أهذا ، ترى ، ما يلائم واشنطن حقا ، أم تراه يلائم موسكو ؟ » (٦٣) ٠

أما وقد قامت اسرائيل فماذا اختار شيحا ردا عليها يقي لبنان شر العثرات المقبلة ؟

ان « الحل » هنا لا يتعدى التنظير المبكر للشهابية ، اي بناء جيش « يحمي الحدود » واقتصاد له توجه « انمائي » مع المحافظة الوطيدة على الصداقات والعلاقات الديبلوماسية مع الغرب (١٣) ، وبالنظر المجرد الى هذا الحل فهو يبدو أشد تماسكا من الحل الانعزالي الراهن

حول ضرب الفلسطينيين وتوزيعهم فـ « مشكلة اللاجئين مهما بدت جارحة ، فحلها لن يستتب السلام » (٢٢٢ ·

لكن تقدم شيحا على الانعزالية الراهنة هو تقدم لخطة استثنائية دامت بين ١٩٤٣ و ١٩٤٨ ووجدت أن عليها بعد ذلك ان تمارس الاختفاء شيئا فشيئا اذ كل مقوماتها السياسية والمادية تنهار او تسير نحو الانهيار ·

فالعرب تغيروا بصعود الناصرية ثم المقاومة الفلسطينية ، اما اسرائيل فتوطدت وازدادت جنوحا نحو التطرف مع مجيء مناحيم بيغن ، واما لبنان فكيف يمكن ان يستشعر بعد الان بخطر اقتصادي وخطر استراتيجي طالما ان « البورجوازيه » المالية لا تلعب اي دور في رسم الحياة السياسية ، وأن « وحدة البلد وعدم التفريط بترابة » ما عادت تشكل امورا حيوية في الوعي السياسي اللبناني ·

لقد ولد فكر ميشال شيحا في لحظة من الوهم : وهم انشاء دولة وتأسيس سيطرة رأسمالية تستدعي وضوحا في حدودها وموقعها المتميز ، لكن انبثاق « الحقيقة اللبنانية » كشف استحالة الدولة والرأسمالية وأكد طابع الانقسام الجوهري المؤسس على ترابط المسألتين القومية والطائفية ·

وهنا يظهر الخبل اللبناني في ميشال شيحا ، خبل تحويل لبنان الى دولة ومجتمع ، وهنا تكمن بذور التراجيديا ·

واذا كانت « دولة لبنان » استطاعت ان تحافظ على ذاتها بعد انشاء « دولة اسرائيل » بصعوبة فائقة ، فكيف يمكن ان تصان « الدولة » الاولى ، اذ مثلما انتهى ميشال شيحا على يد سعد حداد انتهت اسرائيل الاولى على يد حزب «ليكود»،

وها هي حكومة بيغن تستعين مؤخرا بالاخصائي الاقتصادي الاميركي فريدمان لاحلال المزيد من الحرية في الاقتصاد الاسرائيلي ورفع بعض القيود التي أقامها « حزب العمل » ·

هذا حتى لا نقول شيئا عن الاحتمالات انكبيرة للصلح الاقتصادي المصري ـ الاسرائيلي بعد كامب ديفيد ·

لقد حاول شيحا ، لابقاء العرب في موقع « الاعتدال » ، أن يقنعهم بالدور « الماركسي » في انشاء دولة اسرائيل ، وان هذه الدولة تعتمد الاشتراكية والرأسمالية على السواء في نظامها الاقتصادي (١٤) ·· لكن ماذا يستطيع « لبنان » أن يقول اليوم للعرب بعد أن حسم مناحيم بيغن هذه « الالتباسات »

باتجاه المزيد من « التطرف » الاقتصادي والسياسي والدولي ؟

والحقيقة ان اسرائيل كانت دائما اعرف من شيحا بـ « لبنان » وانتقاليته ، والميول الحتمية والاخيرة للانعزال اللبناني ، فـ « النقاشات بين انصار التعنت والعناصر الاكثر اعتدالا حول لبنان قديم قدم ايجاد الدولة (الاسرائيلية) ، وقد قدمت معاريف في عدد ٢٢ تشرين الاول ١٩٧٨ نموذجا لهذا المناخ عندما اوردت جزءا من مذكرات موشي شاريت وزير خارجية اسرائيل السابق ، الذي ذكر ان بن غوريون قد طالب في شباط ١٩٥٤ بدفع الموازنة الى « اعلان دولة مسيحية في لبنان ، قلت له ان ذلك سراب ، فرد بن غوريون بغضب وبدأ يدلل على القاعدة التاريخية للدولة المسيحية الصغيرة في لبنان » · وامام اعتراضات موشي شاريت الذي لفت النظر الى مخاطر مغامرة كهذه، قال بن غوريون « انه يكفي ارسال

المبعوثين ودفع الاموال (··) واذاك يحدث تغيير عميق في الشرق الاوسط ويبدأ عصر جديد » (١٥) كان ذلك السجال عشية الصدام مع مصر عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٦ وانتهى شاريت نهاية ماساوية (كنهاية شيحا) فيما اعتبر بن غوريون مؤسس الدولة الذي وجد امتداده في من كانوا دائما على يمينه ·

حازم صاغية

الحواشي

(١) كتاب صادر عن منشورات مؤسسة ميشال شيحا ، بيروت ١٩٦٨ ، ترجمه عن الفرنسية انطون غطاس كرم ·

والكتاب ينقسم الى مقدمة هي كناية عن مقال مؤرخ في ١٥ حزيران ١٩٤٤ وثلاثة أقسام تتوازى مع تطور الاحداث السياسية في فلسطين ·

– القسم الاول يتناول الفترة الممتدة بين ١٩٤٥ و ١٩٤٧ · تحت عنوان « الاخلاق في انهيار » ·

– القسم الثاني بين ١٩٤٨ و ١٩٥٠ بعنوان « التخلي عن ارض المقدس » ·

– القسم الثالث بين ١٩٥١ و ١٩٥٤ بعنوان « النكبة زاحفة » ·

(٢) كثيرة هي تعبيرات التمسك بأوروبا ومحمولها السياسي الذي مفاده ان الاستعمار القديم يصالح الوضع اللبناني مع الوضع العربي ولا يستفز الاخير فيما المستجد الاسرائيلي – الاميركي يهدد المعادلة : « لن ينقضي زمان طويل حتى تضحي انكلترا في الشرق الادنى هدفا لضغط متزايد من قبل روسيا والولايات المتحدة (معا او مداولة) وذلك عن طريق اسرائيل » (١٤١) » وبازاء الامبرياليات المستحدثة تضحي امبرياليات الماضي (كالكومنولث البريطاني) الاحلاف الطبيعية ثلاثي وضمانته » (٢٠١) وبمعزل عن شعطة الجنون المثالية هذه (واللبنانية بالضرورة) يبدو ان موقف شيحا متعادل مع جماعة الحوار العربي – الاوروبي » الراغبين في تمايز نسبي عن الولايات المتحدة ، وهو تمايز مسدود الافق كما يشير « الحوار » ·

(٣) « كيف بهم يبتغون انتقال اليهود (··) والا يهيج انتقالهم اليها عرب فلسطين معهم جوارهم قاطبة » (١٦) ، وهم « يؤلبون عليهم هذا المقدار من الشعوب » (١٨) · « ان الجار الهائل (··) لكفيل وحده بتحريك الثورة والحرب » (١٤١) · ويقول بلغة اوضح « ولكن كيف لا يبتغون ان يتسلح العالم العربي ايضا والا تنتهي المغامرة الجنونية الى ليل من القنابل والى مجزرة ؟ وحسبنا ان نستمع الى الزعيم الشيشكلي واللواء نجيب لندرك ماهية الجو الذي نعيش فيه » (١٧٦) وهو يصل الى مطالبة « الله » و « الاقدار » بالحل لقطع الطريق على حل يأتي به الشعب العربي « فلا بد من ان نرى يد المدبر الحكيم ، مرة اخرى ، ولونا من السخط والعقاب غير منتظر » (٥١)· « والحق يقال انه لا بد في هذه القضية من تدخل القدر او مشيئة فوق ارادة البشر ، كمثل ما تم منذ تسعة عشر قرنا ، اذ حل الدمار ببيت المقدس » (٦٥) ·

(٤) « ولا بد والحرب مؤذنة بانتهاء ان نفكر في السلم » (١٦) ، « فبينما ينبغي ان تسهر الامم لتبرأ النار عن التهام الارض جمعاء بداعي تشاحن العقائد الذي يزحزح اركانها راحوا هم يصلون النار ويجعلون لها مركزا جديدا » (٨٠) ٠

(٥) « فعلى كل لبناني وكل سوري ان يتذكر باننا من هذا المطمح وهذا السلطان في أمت جوار وان المغامرة اليهودية لن تؤتي توسعها المنشود الا بمشيها على اجسامنا » (٥٥) ويلوم سياسة الملك عبد الله (١٤٦) وتقصير الجامعة العربية (٢٠٨) ويستعد للانخراط في « دفاع مشترك » (٢٠٥) ٠

(٦) رفض شيحا المساومة والمصالحة والهدنة مع اسرائيل ما لم تكن مضمونة بضمانات دولية جدية اوجزها بـ « تدويل القدس والضمانة التعاقدية للحدود » وحرص على عدم الصلح الاقتصادي ٠ بل وصل بعد انشاء اسرائيل مباشرة الى الدعوة لـ « المقاومة العربية » واعتبارها « امرا حيويا » (٩٥) وظل يحرص على « ان تحل مشكلة اللاجئين المفجعة » (١٨١) واقترب في بعض الاحيان من منطق جمال عبد الناصر في مواجهة الاحلاف ومشاريع دالاس وايدن فـ « خطر الحرب ، بالنسبة الى العرب ، لا يكمن في روسيا بل في اسرائيل » (٢٠٤) على ان ترسخ القناعة سنة بعد سنة بتوطد دولة اسرائيل قادت شيحا الى قبول الاعتراف السياسي في النهاية (١٨٢) ٠

(٧) الغلبة تكفي ولا حاجة للهيمنة : « كان في وسع العرب واليهود ان يتعايشوا بفلسطين في سلام ٠ وحسب ازدهار اليهود في ارض المقدس دليلا عليه » (٧١-٧٢) ٠ و « غير ان الاقلية اليهودية في فلسطين (ورؤساءها الموزعون في المعمورة) على جانب من الخطورة يكفل توجيه مصير العبريين داخل فلسطين ، وان لم تقسم ٠ ولا مرية بأن في حوزة هذه الاقلية اليهودية عناصر القوة جمعاء » (٣٢) ويرد بالطوائف معمما « لبنان » (متجنبا العرب) « ان المغامرة الصهيونية يعسر ان تلقى مسوغا (٠٠٠) اذا ما هي قوبلت بموقف المسيحيين وموقف المسلمين من ارض المقدس » (٢١) « فيتحد جميع المتعبدين لله » (٤٩) « واذا نرى (ما اتيح لنا ان نراه حتى الان) اليهود وحدهم من جانب والمسلمين والمسيحيين من جانب ، بئس ما صارت اليه في هذا العصر سياسة كبرياء وطموح الخ » (٧٨) ويظهر الخوف على المعادلة اللبنانية من « النموذج » الاسرائيلي فـ « كانه لم يتبق في العالم مسيحية ولا اسلام » (١١٥) والحل هو باللبننة وضبط الاندفاع الى الصهيونية الآحادية « فهذا هو الحل اللبناني (٠٠٠) حب التعايش المشترك الى مجلس مشترك في بلد يتكون من اقليات مجتمعة » (٢٨) « فاي رجاء لا يتولد انذاك من التعبد الثلاثي ، القرير ، الاخوي ، لاله واحد » (٤٥) « ونرى انئذ ، وما اروع ما نرى ، العرب واليهود ، والمسلمين والمسيحيين واليهود يتعاونون بفلسطين في قلب حكومة واحدة » (٨١) « ولكان يعترف العرب بوجود اسرائيل السياسي في الشرق الادنى لو انه حد من دولة اسرائيل » (٢٣٦) « انما تقسيم فلسطين الى شطرين هو بمثابة تجديد لقضية « السودات » في تشيكوسلوفاكيا او افتعال مأساة اجلة او عاجلة » (٤١) ٠

(٨) « فهو مشروع وقاح ، جسور ، من الاستيلاء الاقتصادي والمالي والصناعي والتجاري » (١١٨) « فلربما كان للعلاقات الاقتصادية مع اسرائيل مغزى مباشر الا وهو انفراج اسرائيل او هي المحاولات المختلفة ليتمكن جيراننا في الجنوب من

وضع يدهم على اقتصادنا الخاص وعلى مصادر طاقتنا » (١٨٠) · ويقول في كتابه « لبنان في العالم » : « اما على الصعيد الاقتصادي فان اسرائيل لا يلين لها عيش دون صناعة ضخمة · فاذا هي صنعت نفسها بما لديها من وسائل تقنية ومالية ، اكتسحت جوارها وقضت على كل شيء · واسرائيل من جهة اخرى لا تستطيع التنفس بدون تجارة مكثفة · وما ان تجارتها تفيد من علائق لها صلات ، من حضور في العالم واسواق ، من استلافات شتى وتيسيرات··· ولسوف تكون التجارة الاسرائيلية ، في شرقي المتوسط ، بفضل ما توفره لها الدولة من حوافز ، تحديا لا مناص منه ، لكل المشروعات ، لكل المرافيء ، لكل التجارات والوكالات · ولكل المهن التي تقتضي خدمة معينة » (نقلا عن: فواز طرابلسي ، **قضية لبنان الوطنية والديمقراطية** ، دار الطليعة، ص ١٠ـ١١)·

ولذا كان شيحا متحمسا للمقاطعة الاقتصادية التي تضمن للبنان تفرده بدور الوساطة دون منافسة اسرائيل بنتيجة وصولها الى العالم العربي ، احد طرفي الوساطة ·

(٩) « وما لعب ان يستشعر البلد الصغير خطرا مثل هذا الخطر يرهق منه الحدود » (١٠٠) « ولا يتم نمو اسرائيل ولا يسعه ان يتم الا على حساب جيرانها » (١٨٧) « قد نضحي بعد الان في ناظر اليهود الزاحمينا من الجنوب ، ارض الميعاد ، وهجرتهم تفوق الحصر » (٩١) · واشار الى مخاطر اكثر تحديدا بشكل يذكر بمنطق ريمون اده « اما نرى حقا نهرنا ، الليطاني ، يتراءى في الافق ؟ فهذا المسيل ، وهذا النهر الصغير لا يضاعف هواجسنا الا بداعي مشاريع اسرائيل ومطامحها » (١٦٢) ·

(١٠) انظر مثلا ، لا حصرا ، الصفحتين ٢٨ و ٣٤ ·

(١١) من هنا يخاطب شيحا جون فوستر دالاس مطالبا اياه بشيء يشبه اقامة حلف يوازن بين العرب واسرائيل ضمن التوازن

الاميركي (١٩٦) ويرى وجوب التضحية بمعركة السويس حيث « لا بد لمصر من ان تتنازل في السويس بعض التنازل المقبول لتخلص القدس » (٢٤٢) ·

(١٢) يقول بعد الخلاف السوفياتي ـ الاسرائيلي « ان في اضطهاد البلدان السوفياتية اليهود الان ، استمالة منهم للعرب ، لدعاة لحذر اللبنانيين ، لا سيما وقد دعمت هذي البلدان عينها اسرائيل على التوالي » (١٩١)·

(١٣) ترى هذا الاتجاه مبثوثا في كل كتاباته ومنها « لا بد لنا ان نمعن الفاتا الى ان فلسطين تتاخم لبنان من جهة الجنوب ، وان لبنان في هذه الجهة وغيرها من الجهات مفتقر الى اراضيه برمتها ، مفتقر الى اخر سنبلة من سنابلها واخر

زيتونة » (١٢) و « ساعة سياسة وديبلوماسية بصيرتين ولسنا نحاشي اللجوء الى القوة » (١٩٣) « اننا نرى انه لا ندحة عن امتلاك حد من القوة ادنى ، يكفيها لدرء التطاول عنها · وغني عن البيان ان قوة الامم لا تتأتى مما في خوزتها من الات الحرب فحسب ، وانما نلقاها ايضا ، وفوق ذلك ، في ما تنتهج من سياسة ومحالفات » (١٤٨) ·

(١٤) « ليس افضل من اسرائيل معين على الثورة حيثما كان ، وهذا ما يعلمونه جيدا في موسكو » (٩٦) ومثل هذا يتردد بكثرة في كتاب شيحا ·

(١٥) من مقال للصحفي الاسرائيلي عمنون كابليوك منشور في جريدة « السفير » ، ١٩/١١/٧٨ ·

حسين عبد الرازق

، مصر فـــي ١٨ و ١٩ يناير

دراسة سياسيــة وثائقية ، بيروت دار الكلمة ، الطبعة الاولى ١٩٧٩ ٠

ويبدو صدور هذا الكتاب في هذه الايام بالذات ، بعد مرور عامين على الانتفاضة الجماهيرية في مصر ، ذا اهمية خاصــة ، فبعد انقضاء هذين العامين الكامليـــن ، يمكن القول ان تأثيرات تلك الاحداث التي يتناولها قد انسحبت على كل ما مر علــى مصر بعد ذلك من تطورات متلاحقـــة ٠ وانعكست على توجهات الحكم ووسائـــل معالجته للسياسة الداخلية والخارجية على السواء ٠

ففي المجال الداخلي ، لا جدال في ان احداث كانون الثاني ١٩٧٧ قد احدثـت تأثيرات واسعة ومتلاحقة فرضت ــ في النهاية ــ الاطاحة بحكومة ممدوح سالــم التي حملت وزر رفع الاسعار ، الذي كان هو السبب المباشر في تفجير الاحداث ، كما اطاحت ايضا بحزب مصر الذي كان ممدوح سالم رئيسا له ٠ ورأى الرئيس المصري انور السادات أن يقبض بنفسه ، بعـــد ذلك ، علــى زمـــام العمــل السياســـي الجماهيري مما جعله ينشىء حزبا يتولى هو رئاسته ليحل محل الحزب السابـــق الذي تحمل الادانة وكل تهـــم الفســـاد والرشوة والعجز عن مواجهة مشكلة رفع الاسعار ٠ ثم بدأ الترويج بعد هذا ، في حملة اعلامية رسمية واسعة ، لما ينبغــي عمله من اجل « رفع المعاناة عن الجماهير » وتحقيق « الامن الغذائي » فضلا عـــن « السلام الاجتماعي » واقامة « المجتمعات الجديدة » وغير هذا وذاك من الشعارات التي ترددها وسائل الاعلام المصرية بــلا توقف وبصخب شديد ٠

وفي المجال الخارجي ، شهدت نهاية عام ١٩٧٧ ــ الذي وقعت الاحداث في بدايته ــ مبادرة الرئيس انور السادات الاستسلامية وزيارته للقدس بكل ما لحق بذلك مـــن تطورات تمثلت في توقيع « اتفاقيتي كامب ديفيد » ٠ وقد اصبح من المعروف كيـف ان الحكم في مصر قد استغل الوضـــع الاقتصادي في البلاد ، ومعاناة الجماهير في مصر ، لتبرير الاندفاع في خطوات التسوية التي صورت للمصريين على انها هي التي ستحقق له السلام ٠٠ والرخاء

وقبل ان نعرض للكتاب ، الذي يسجل عنوانه انه « دراسة سياسية وثائقية » من المفيد ان نشير الى ان المؤلف لم يكـــن بعيدا عن الموضوع الذي عالجه ، بل انه ــ على العكس ــ كان لصيقا به طوال الوقت والى ابعد حد ٠ ويكفي هنا ان نقول ان حسين عبد الرزاق هو واحد من الصحفيين والكتاب المصريين البارزين الذين يعملون بنشاط في الحقل السياسي ، كذلك فانــه عضو بسكرتيرية حزبه التجمع الوطنـــي التقدمي الوحدوي الذي حاولت الحكومة المصرية ، عقب احداث كانون الثانـــي ١٩٧٧ ، ان تلصق به تهمة التحريض على اعمال الشغب التي رافقت هذه الاحداث ، وقد تعرض حسين عبد الرزاق باعتباره من قيادات الحزب النشطة ، لالقاء القبض

عليه ، وما زالت قضيته معروضة علـى القضاء المصري الذي لم يبت بها حتى الان ·

ينقسم الكتاب الى قسمين خصص اولهما للدراسة ، التي اجراها المؤلف من موقعه القريب جدا من الموضوع ، بينما خصص القسم الثاني للوثائق ·

وتشتمل الدراسة ، بعد المقدمة ، على اربعة فصول تعالج الوضع السياسـي الداخلي في مصر منذ « انقلاب ١٣ مايو (ايار) ١٩٧١ » كما اسماه المؤلف وتشرح كيف فتحت الطريق الى « هبة يناير » ·· ثم تتعرض لاسباب تحـول المظاهـرات السلمية الى العنف والاتهام الذي وجـه لليسار بالتحريض على الشغب ، الى ان تتدرج لتشرح كيـف انهـارت مؤامـرة الحكومة ·

في المقدمة ، التي جعلها المؤلف تحت عنوان « ١٨ و ١٩ يناير » ·· مؤامرة ام انتفاضة شعبية ،يسجل حسين عبد الرازق شهادات الصحافة العالمية ووجهات نظر حزب التجمع الوحدوي والحزب الشيوعي المصري في الاحداث . والتي جاءت جميعها مخالفة لوجهة نظر الحكومة المصرية التي اتهمت الشيوعييـن وحـزب التجمـع والناصريين بتدبير مؤامرة لقلب نظـام الحكم · فقد وصفت الصحف ووكـالات الانباء العالمية هذه التهمة « سـانجـة » واجمعت كلها ، تقريبا ، على ان قرارات رفع اسعار السلع كانت هي السبب المباشر للانفجار نظرا لما تعانيه الجماهير مـن اعباء اقتصادية ·

فالحكومة تصف احداث ١٨و١٩ يناير ـ على لسان رئيس الوزراء ممدوح سـالم امام مجلس الشعب ـ بانها « مؤامـرة سافرة استهدفت وثوب المتآمرين الـى الحكم عن طريق العنف وانهاء ثورة ١٥ مايو المجيدة ·· ولعل خط سير الاحداث يكشف عن ان العناصر الشيوعية المنظمة ، وبعض قيادات حزب التجمع ، كانت ترصد تطورت الموقف الاقتصادي ، ومن وجهـة نظر واحدة ، تقف على ارضية سياسيـة واحدة ، هدفها الانقضاض على الساحة الجماهيرية والسيطـرة عليهـا · وان الفريقين ، تشاركهما بعض العناصر مـن مدعي الناصرية التـي اشتركـت فـي المظاهرات ، سارعوا الى تحديد توقيت التفجير بمجرد اعلان القرارات الاقتصادية التي اصدرتها الحكومة · وكان اسلـوب التفجير متجها منذ البداية الى اثـارة مشاعر السخط الجماهيري ، الى الحـد الذي يصل بالامور الى اثارة الاضطرابات علـى مستوى محافظـات الجمهوريـة باكملها ·· » ·

وبعد بيان الحكومة ياتي بيان ٢٤ يناير الذي صدر عقب اجتماع رئيس الجمهورية بالقيادات السياسية ،الذي نلمس التناقض فيه واضحا ، فالبيان يقول « ان حدوث ردود الفعل بالنسبة للقرارات الاقتصادية التي صدرت اخيرا وان كان امرا طبيعيا لما تمثله من اعباء على بعض قطاعات الشعب ، الا ان العناصر التخريبية التي يهمها عدم خروج البلاد مـن ازمتهـا الاقتصادية التي تكون المناخ الصالح لتنفيذ اهدافها ركبت موجة رد الفعل الشعبـي واخرجتها عن مسارها السلمي ، وحولتها الى الاحداث المؤسفة ··· » ·

وينهي حسين عبد الرازق مقدمته بالتنبيه الى ان المدخل الصحيح الذي على ضوئه تفهم احداث يناير في مصر ، هو تقييم قرارات ١٧ يناير بشان رفـع الاسعـار وعلاقتها بالممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي بدأت في معركة التصحيح

في ١٣ مايو ١٩٧١ وتأكدت بعد حرب اكتوبر . وهذا ما تعرض له في الفصل الاول .

في هذا الفصل يحلل حسين عبد الرازق طبيعة نظام مايو وتركيبه فيتحدث عن ثلاثة تيارات يراها داخل التركيبة الحاكمة .

التيار الاول : ويعبر عن الجزء الغالب من الطبقة الجديدة « التي تكونت اساسا خلال ثورة يوليو من الفنيين والعسكريين واقاربهم واصهارهم ، الذين استفادوا من تصفيات الطبقات القديمة . وقد شارك هذا التيار في اقامة سلطة مايو .

التيار الثاني : ويعبر عن تحالف الراسمالية الطفيلية من السماسرة والمضاربين ووكلاء البيوت الاجنبية والمقاولين وتجار الجملة ونصف الجملة والعاملين في الاستيراد والتصدير والتهريب . والمناطق الحرة وكبار المسؤولين من اصحاب العمولات الضخمة .. مع البرجوازية الريفية من اصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة والمتوسطة .

ويعتبر المؤلف ان هذا التيار هو اقوى تيار في تركيبة نظام مايو الذي يتميز بالضحالة الفكرية وانخفاض مستوى الثقافة ، وضيق الافق السياسي والاجتماعي ... ولكن اهم صفاته ، كان غياب احساس الانتماء للوطن او الامة . والاندفاع المحموم للارتماء تحت اقدام الاستعمار الامريكي . وبثمن شخصي رخيص .

التيار الثالث : ويستند الى بعض قيادات القطاع العام واجهزة الدولة وقيادات العمل السياسي في الحقبة الناصرية ، وقد حاول طرح نفسه كيسار لسلطة ١٥ مايو واستمرار ديمقراطي لما كان يمثله علي صبري وشعراوي جمعة في السلطة الناصرية .

ومع ازمة الديمقراطية يتناول المؤلف قضية الحريات العامة في مصر والاجراءات التي اتخذتها سلطة مايو فيما يتعلق باعادة انتخابات الاتحاد الاشتراكي عام ١٩٧١ والذي سبقه القاء القبض على المئات من انصار علي صبرى وشعراوي جمعة ... ثم محاصرة قرية كمشيش واعتقال العديد من ابنائها التقدميين وابعاد البعض الاخر عن القرية .. ثم حادثة (أبو كبيرة) وتدخل السلطة المباشر لصالح مرشحها والاصطدام بالجماهير الرافضة ، ثم الغاء اللجنة التنفيذية العليا ، وتعيين الامين الاول للاتحاد الاشتراكي من قبل رئيس الجمهورية واعضاء الامانة العامة .

ومن الاتحاد الاشتراكي الى الاتحادات العمالية وتدخل السلطة في الانتخابات والمصادمات التي تمت بسبب ذلك التدخل في كل من شبين الكوم وحلوان .

وبعد العمال ياتي دور الصحفيين حيث تم فصل (١٠٢) صحفي ما بين شباط واذار ١٩٧٣ .

وتتدرج الاحداث ، فمع نهاية عام ١٩٧٥ وبداية عام ١٩٧٦ طرحت الحكومة قضية تعدد الاحزاب وشروط قيامها ثم الانتخابات البرلمانية وقوائم الاحزاب وملابسات النشاط الدعائي وبرامج الترشيح ومضايقات السلطة وحملة الاعلام المضاد ضد حزب التجمع الوطني ومرشحيه .

من خلال كل هذه الاجراءات والممارسات يكشف حسين عبد الرازق عن طبيعة النظام اللاديمقراطي ، منتقلا فيما بعد الى ما يسميه بالازمة الوطنية بعد حرب ١٩٦٧ وما تمخض عنها من اتجاهات :

- اتجاه يدعو الى حرب تحرير شعبية .
- اتجاه يدعو الى التفاهم مع امريكا .
- اتجاه يدعو الى ممارسة ضغوط

سياسية واقتصادية وعسكرية ·

وقد اختار عبد الناصر الاتجاه الثالث في خلال اعادة بناء الجيش وحرب الاستنزاف وتوثيق العلاقات بالاتحاد السوفياتي الصديق وبالاستعانة بالخبراء السوفيات ··· وقد انتهى هذا الاتجاه بوفاة جمال عبد الناصر ومجيء سلطة مايو التي اختارت اتجاه التفاهم مع الامريكان بتجديد وقف اطلاق النار الذي اتخذاثر مبادرة روجرز واجراء الاتصالات السرية مع الولايات المتحدة وتازيم العلاقة مع الحليف السوفيتي واخراج الخبراء السوفيات ، الى ان جاءت حرب اكتوبر وكانها تبرير للاندفاع اكثر نحو الولايات المتحدة واعلان العداء التام للاتحاد السوفيتي ، وشن الهجوم عليه في حين فتحت ابواب مصر لتستقبل هنري كيسنجر ومخططاته · فتم اتفاق فك الاشتباك الاول والثاني ثم بدأ « الانفتاح الاقتصادي » الذي ضرب الصناعة المصرية لحساب البضائع الاجنبية ، وزاد في الغلاء وعجز ميزان المدفوعات مع العالم الخارجي وزيادة الديون ، وسوء توزيع الدخل وانتشار الفقر · وهكذا « خطوة خطوة » ياتي قرار المجموعة الاقتصادية : زيادة مباشرة في اسعار السلع الضرورية للجماهير وكانتمجملهذه الاجراءاتتحمل المواطنين عبئا يقرب من خمسمائة مليون جنيه ·

لقد جاءت القرارات مفاجأة للجماهير الكادحة والتي يعيش قسم كبير منها دون حد الكفاف بعد حملة رسمية واعلامية تحدثت طويلا عن تثبيت الاسعار وتخفيف الاعباء عن كاهل الجماهير ··· كما تحدثت عن الانفتاح الاقتصادي الذي جاء « لتمليك الناس لا تجريدهم من ملكيتهم ، وانه سوف يحل جميع مشاكلهم ··· الخ ·

في الفصل الثاني (المظاهرات السلمية تتحول الى العنف) يصف حسين عبد الرازق مظاهرات الاحتجاج التي اجتاحت مصر كلها من اسوان الى الاسكندرية الى السويس ··· حسبما اوردتها تقارير اجهزة الامن المصرية ·

بدأت مظاهرات القاهرة في ضاحية حلوان اولا من شركة الغزل والنسيج ثم من جامعة عين شمس· وفي الاسكندريه بدات من الترسانة البحرية ·· وبعد ان تحدد التقارير بداية المظاهرات واماكن انطلاقها اذ بها تتحول من اسلوب الوصف الى اسلوب الاتهام بادعائها ان التظاهرات تحولت باتجاه الشغب والعنف ، لكنها لا تحدد المسؤولين · وهنا يتساءل المؤلف عن سر ذلك وعن سر رفض طلب خالد محي الدين الذي طالب فيه بتشكيل هيئة برلمانية للتحقيق فيما جرى يوم ١٨ و ١٩ يناير ·· وبناء عليه وعلى دلائل اخرى يذكرها يتهم المؤلف السلطة ـ ممثلة باجهزة الامن المركزي والمباحث ـ في انها كانت وراء تحول المظاهرات باتجاه العنف ·

وفي الفصل الثالث ، تتصاعد الحملة المباحثية والاعلامية ضد اليسار الوطني المصري · وتبدأ موجة الاعتقال باوامر غير قانونية وبتهم لا تستند الى دلائل منها ما سمي بقضايا الشغب ومنها ما سمي بقضايا التحريض ومنها ما سمي بالتنظيمات السرية ·

ومن الطرائف النادرة التي يذكرها حسين عبد الرازق ان المباحث داهمت بيت المرحوم الدكتور محمد القويسني الذي توفي قبل الاحداث باسبوع لالقاء القبض عليه ·· وصدور امر من النيابة بالقاء القبض على اخر مضى على خروجه من مصر ثلاث سنوات ·

حسين فجار

تقارير

I

الثورة الايرانية والصراع العربي ـ الاسرائيلي

ان الانتفاضة المتواصلة للشعب الايراني ، ضد نظام الشاه ، الذي يشكل جزءا من الاستراتيجية العامة للامبريالية الاميركية ، سوف يكون لها تاثير بالغ على النضال المعادي للمصالح والنفوذ الاميركيين بصورة عامة ، وعلى مسار الصراع العربي ـ الاسرائيلي بشكل خاص ٠ ان انتصار الثورة وتمكنها من اقامة نظام وطني ديمقراطي معاد للامبريالية الاميركية واسرائيل ،سيغير بشكل حاسم وجه الخارطة السياسية في المنطقة ويحدث اختلالا حادا في ميزان القوى الاقليمي القائم ، بما ينتج عن ذلك من تغيير في شكل وطبيعة مجرى الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠

لقد طرحت الثورة ، بقوتها واتساعها واستمرارها ، بشعاراتها واهدافها وممارساتها ، الكثير من القضايا النظرية والسياسية ، واثارت مظاهرها والطابع الديني البارز لقيادتها ، الدعوة لـ « اعادة النظر » او تفحص عدد من الافكار والقناعات والمسلمات التي كانت سائدة ، وذلك بهدف نفيها أو تجديدها او التأكد من صحتها ٠٠ الا أن رصد ومتابعة التأثيرات السياسية لتلك الانتفاضة على مجرى الصراع الدائر في المنطقة ، وخاصة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، هي مسألة تحتل الاهتمام ذاته ، بل وتشكل التطبيقات العملية ، التي تمتحن بها ، في الواقع ، تلك الافكار والقناعات والمسلمات ٠

التدخل الاميركي العلني يترافق مع تصاعد الثورة

مع بداية الخريف ، وتحديدا ، بعد مظاهرات السابع من ايلول الماضي الشهيرة ، أبرزت الانتفاضة قوتها من جهة ، واظهرت انعدام قابلية القضاء عليها بسهولة من جهة اخرى ٠ وخلال ذلك بدأت تتبلور بوضوح اكبر اهدافها وشعاراتها المعادية للولايات المتحدة ومصالحها الاستراتيجية في ايران ٠ وهذا ما دفع القوى الاقليمية والدولية التي ظلت تراقب الاحداث منذ بدايتها ، بعدم اكتراث او بحذر شديد ، دفعها الى تحديد مواقفها من الصراع الجاري ٠ وحيث ظلت نظم الخليج والسعودية تعبر عن هواجسها بالاعلان عن خطورة الاحداث وتدعو الدول العربية الاخرى « لمساندة الشاه » ، كان الموقف الظاهري للادارة الاميركية يقتصر على ترداد « عدم السماح بزعزعة الاستقرار في المنطقة » ٠ لكن ما ان تطورت الاحداث حتى بادر زبغنيو برجنسكي ، مستشار الرئيس كارتر لشؤون الامن القومي وناظر سياسة ادارته ، الى الحديث عن الخطورة التي تنطوي عليها تلك الاحداث بالنسبة للولايات المتحدة ٠ ففي تصريح له في نهاية شهر تشرين الثاني الماضي قال برجنسكي : « اذا ترك شاه ايران يسقط وتسقط ايران ٠٠ حتى ولو لم يكن سقوطها لحساب الاتحاد السوفياتي ، انما لحساب المصدقيين (نسبة الى الدكتور مصدق رئيس

الجبهة الوطنية السابق) والخمينيين ، فما فائدة كل ما نحن بصدده من تحويل لمجرى الصراع بين العرب واسرائيل عن طريق التمهيد لسلام مصري - اسرائيلي ، وما فائدة كل محاولاتنا لاقناع العرب بالاعتدال واغراء نظمهم بالمساعدات وتخويف نظمهم الاخرى من خطر الشيوعية ؟٠٠ » ٠

هكذا رسمت بدايات الضغط العلني للادارة الاميركية على الانتفاضة ، بهدف اجهاضها ودعم الشاه وانقاذه ، مؤشرا بارزا للذعر الذي اصاب تلك الادارة من جراء تطور الانتفاضة وقوتها من جهة ، مثلما اوضحت ، من جهة اخرى ، طابع الانتفاضة المعادي للامبريالية وللولايات المتحدة الاميركية ومصالحها ونفوذها في ايران بشكل خاص ، وبما كان يعنيه ذلك ايضا ، من دخول مباشر للعوامل الخارجية ، لتلعب دورها ، وبالتفاعل مع العوامل والاسباب الداخلية الاخرى ، في تحديد وجهة سير الانتفاضة واستمرارها ٠

اما انعكاس ذلك ، على مواقف بعض قوى المعارضة في الداخل ، فقد اوضحه التقرير الذي كتبه « جان غوبراس » في صحيفة « اللوموند » الفرنسية (اعادت السفير البيروتية نشره في ٧٨/١٠/٢٦) ٠ ففي مقابلة شخصية للكاتب مع (سيد جوادي) وهو كاتب سياسي ومؤسس مشارك في حركة الدفاع عن الحريات وحقوق الانسان في ايران ، قال جوادي : « ان المجموعات المعارضة تعرف الان ان عليها ان تكون واقعية بسبب الوضع « الجيوبوليتيكي » لايران ، وترجمة هذا تعني اننا لا نستطيع ان نطالب بتنازل الشاه ، لانه مدعوم اميركيا » ٠ اما شاهبور بختيار (الذي كلفه الشاه لاحقا بتشكيل حكومة مدنية وطردته الجبهة بسبب موافقته على هذا التكليف) ، فقد قال انذاك ، للصحفي : « اذا لم يتم التوصل الى تسوية قوية ودائمة ٠٠ فانه سيكون من الخطر - بالنظر الى وضع ايران الجغرافي السياسي « الجيوبوليتيكي » - اللجوء لاي حل اخر سوى الحل الذي يطرحه الدستور » ٠ ومن هنا يتضح ، ومهما كان مصير تلك التوقعات ، - خطأها او صوابها - فان الامر الهام في تلك التقديرات هو التأكيد ، بشكل مبكر على دور الجغرافية السياسية، اي دور العوامل الخارجية الاقليمية والدولية ، في التأثير على سير الاحداث والانتفاضة في ايران ، وهو ما اكدته بوضوح التطورات اللاحقة ٠ وحيث رمت الولايات المتحدة بثقلها ، للتأثير على سير الاحداث ، الى درجة تحريك السفن الحربية بالقرب من الشواطىء الايرانية ، والى استخدام شتى اساليب التدخل ، انتقل الاتحاد السوفياتي من موقف المراقبة والتحفظ الى موقف التأييد الضمني للانتفاضة باعتبارها حركة شعبية معادية للنفوذ والمصالح الاميركية ، ثم الى التحذير المستمر من التدخل في شؤون ايران الداخلية ٠

اما النظم العربية ، وخاصة في الخليج ، فقد تحركت بشكل نشيط وملحوظ « لتحقيق وحدة دول الخليج ! » لمواجهة التطورات التي تجري في المنطقة ٠ واشتركت صحافة هذه الدول ، مع الصحافة المصرية في التنديد بالانتفاضة والدفاع عن الشاه ونظامه وفي التحذير من مخاطر امتداد تأثيرات الانتفاضة الى تلك الدول ٠

الاهمية الاستراتيجية لايران ودور نظام الشاه

ان الذعر الذي اصاب الادارة الاميركية وحلفاءها ، وكذلك دول المنطقة الحليفة للشاه ، يعود الى التهديد الجدي الذي طرحته الانتفاضة لاسقاط نظام الشاه ، الذي يعني سقوط

ركيزة اساسية من ركائز الاستراتيجية الاميركية في المنطقة · فبعد انقلاب الجنرال زاهدي الذي دبرته وكالة الاستخبارات المركزية ضد حكومة مصدق الوطنية عام ٥٣ ، وحتى اندلاع الانتفاضة ، عملت الولايات المتحدة على دعم نظام الشاه ومده بكل اسباب القوة والاستمرار ، لكي يتمكن من القيام بالادوار التي تناط به · وقد اصبحت ايران بذلك « ذات اهمية استراتيجية عظمى » وجزءا من « شبكة الدفاع » الاميركية و « محور الاهتمام الاميركي في الشرق الاوسط وافريقيا » · كما ان « الاستراتيجية الشاملة الاميركية تعتبر ايران اهم موقع لها من اسرائيل واليابان » ، كما تؤكد على ذلك باستمرار الصحف الاميركية · ويذهب الخبراء الاميركيون المهتمون بالشؤون الايرانية الى القول بأن المصالح الحيوية لاميركا في ايران تنبع من موقعها الاستراتيجي اولا ، ومن المصالح الاقتصادية والسياسية والعسكرية المتواجدة فيها ثانيا ·

فعلى الصعيد الداخلي ، تتمثل هذه المصالح ، بكون ايران تشكل سوقا تجارية ضخمة للبضائع الاميركية ، ومركز استثمار هام لرؤوس الاموال الغربية · وهي مستورد كبير للسلاح الاميركي ، ومصدر للنفط بما يغطي اكثر من ٧٥٪ من احتياجات اوروبا واليابان وجنوب افريقيا واسرائيل ، عدا عن وجود اكثر من ٤٥ الف خبير اميركي يعملون في الجيش وباقي المؤسسات الحكومية الايرانية ·

اما على صعيد دورها في الخليج ، فانها تعتبر « عنصر استقرار » بالمفهوم الاميركي ، وتشترك مع عمان في السيطرة على مضيق هرمز ، وتشرف على الممر الجوي (ر ــ ٢١) في النصف الشمالي من الخليج ·

لقد عبر الشاه عن طموحاته ومخططاته التوسعية منذ ان اعلنت بريطانيه « الانسحاب من الخليج » ، فبدأ بتعزيز قواته العسكرية الى الحجم الذي لا تتحمله طاقة البلاد · وفي العام ١٩٧١ قامت القوات العسكرية الايرانية باحتلال الجزر العربية الثلاث (طمب الكبرى ، طمب الصغرى ، ابو موسى) ·

وببروز نظرية « غوام » للرئيس الاميركي الاسبق نيكسون عام ١٩٧٢ ، والتي تقول بتشجيع القوى المحلية وتسليحها للقيام بمهمة الدفاع الاقليمي ، اختيرت ايران لتكون نقطة الارتكاز الاساسية في السياسة الاميركية في الخليج وفي منطقة شبه الجزيرة الهندية · وفي عام ٧٥ تدخل نظام الشاه علنا لدعم حكومة سلطنة عمان لضرب الثورة الوطنية في ظفار ·

وعدا ذلك ، فقد تزايدت الادوار والمهمات التي انيطت بنظام الشاه : شرقا ، باتجاه الهند والمحيط الهندي لتحقيق هدفين : محاولة اعادة الاحلاف العسكرية في تلك المنطقة وربطها بالولايات المتحدة ، والعمل على اقامة سوق اسيوية مشتركة يكون فيها لنظام الشاه الدور المسيطر ، والتابع استطرادا للسوق الرأسمالية العالمية · وغربا ، باتجاه البحر الاحمر والشرق الاوسط وافريقيا ، وهو الدور الذي عبر عنه الشاه بالدعوة والعمل لتحقيق الشعارين الاميركيين : أمن الخليج ، وأمن البحر الاحمر · وكذلك دور المساندة والدعم لحكومة جنوب افريقيا ، ودعم القوى الرجعية في القرن الافريقي في صراعها ضد النظام الاثيوبي ، وفي تأييد نظام المغرب في صراعه ضد الجزائر حول مسألة الصحراء الغربية · اما على صعيد الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، فان نظام الشاه ، عدا عن كونه

يقيم امتن العلاقات الودية مع اسرائيل ويزودها بالنفط ، فانه أيد ، بحماسة ودعم ، نظام السادات والنظم العربية المتحالفة معه والموالية لاميركا ، ومن ثم تبنى الدعوات الاميركية والاسرائيلية لفرض « السلام » والهيمنة الاميركية ـ الاسرائيلية على المنطقة العربية ٠

مواجهة نظام الشاه ٠٠ مواجهة النفوذ الاميركي

منذ البدء ، كانت الدعوة لاسقاط الشاه ونظامه ، تعني المواجهة غير المباشرة للنفوذ والمصالح الاميركية في ايران ، وذلك قبل ان تحدد الانتفاضة بوضوح ، شعاراتها المعادية لاميركا ٠ فبعد ان خرجت شعارات ومطالب الانتفاضة من اطارها الاصلاحي والمطلبي والديمقراطي ، اتخذ مضمون الدعوة لاسقاط الشاه ، معنى الدعوة لاسقاط سياسته وادواره في ايران والمنطقة ، والتي هي اساسا في خدمة السياسية الاميركية ٠ واضافة الى ما تعنيه مهاجمة المتظاهرين للمصالح والمؤسسات الاميركية في ايران ، فانهم والقيادة الدينية (الخميني) ، قد رفعوا اهدافا محددة لانهاء النفوذ الاميركي ، وتمثلت في الدعوة الى : طرد الخبراء والمستشارين الاميركيين ، الغاء النهب الامبريالي لثروة البلاد الاساسية (النفط) وبيعها بأسعار عادلة ، الغاء تبعية الاقتصاد الايراني للاقتصاد الاميركي واعادة بنائه على اسس تخدم مصالح الشعب والبلاد ، انهاء النفوذ الاميركي في الجيش وادواره التوسعية واعادة تنظيمه بما ينسجم مع مصالح الشعب والدفاع عن سيادة البلاد ٠٠ الخ ٠ ان هذه النقاط « البرنامجية » كانت تعني توجيه ضربة قوية للعديد من المرتكزات المادية للوجود الاميركي في ايران ، كما وتعني ايضا الغاء « دور الدركي » لها ، الذي جعله الشاه ركنا اساسيا من اركان سياسته ٠

لقد طرحت الانتفاضة ، وبشكل مبكر ، معارضتها القوية للسياسة التي ينتهجها الشاه ازاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي ومن مسالة اعترافه باسرائيل ، فرفعت الشعارات التي تدعو لقطع العلاقة معها ، وقطع البترول عنها ٠ وفي مقابل ذلك عبرت ، وعبر شعاراتها ايضا ، عن دعمها للثورة الفلسطينية ٠

وتتجسد اهمية الموقف من القضية الفلسطينية ، بأنه يتعدى التعاطف والمساندة المؤقتة ، ويتبلور الى موقف سياسي ٠ لم يقتصر تبنيه على الحركة الدينية (الائمة ورجال الدين) ، بل تعداه الى مواقف « الجبهة الوطنية » ، ومن قبلها ، حزب « تودة » ٠

وعندما اقام نظام الشاه شكلا محددا وسريا ، من العلاقة بينه وبين اسرائيل بعد عام ٤٨ ، ألغت حكومة الدكتور مصدق اعوام ٥١ ـ ٥٣ هذه العلاقات ٠ وكانت صحف حزب « تودة » تهاجم الصهيونية واسرائيل ٠ اما بعد وقوع الانقلاب الاميركي عام ٥٣ وعودة الشاه الى الحكم ، فقد استأنف مجددا هذه العلاقات ، بل وعمل على تطويرها وتوسيعها على امتداد العقود الثلاثة الماضية ٠

وابان عدوان حزيران عام ١٩٦٧ ، خرجت المظاهرات الجماهيرية التي تندد بالعدوان وتؤيد البلدان العربية وتطالب بقطع العلاقة مع اسرائيل ٠ اما موقف رجال الدين ، والقيادة الدينية للانتفاضة (الخميني) المعادي لاسرائيل ، والمؤيد للقضية الفلسطينية ، فقد تم التعبير عنه في الكتابات والخطب « منذ ١٧ عاما » ، كما يقول الخميني نفسه ٠

ومن هنا يتخذ موقف الانتفاضة الشعبية من المسألة الفلسطينية ، بطابعه الموضوعي . وبجذره التاريخي ، اهمية كبيرة في دعم الثورة الفلسطينية ، وفي التأثير على مجرى الصراع العربي ـ الاسرائيلي في حال تغيير الموقف الايراني الرسمي ، من موقف معاد الى موقف حليف ·

تاثير الانتفاضة على الصراع العربي ـ الاسرائيلي

اذا كانت اية ضربة توجه الى النفوذ والمصالح الاميركية في اي بلد عربي تنعكس ايجابيا على مجرى الصراع في المنطقة ، لصالح قوى حركة التحرر الوطني فيها ، فان ضرب وازاحة النفوذ الاميركي تماما من ايران سيعكس تأثيرات ايجابية كبيرة الاهمية على مجرى ذلك الصراع ، بسبب قلب الدور الايراني ، من دور مساند ومؤيد لاسرائيل وللنظم العربية المتحالفة مع اميركا ، الى دور معاد لاميركا واسرائيل ، ومؤيد ومتحالف مع حركة التحرر الوطني العربية ، وخاصة الفلسطينية ، ويؤثر كذلك على اوضاع ومواقف البلدان العربية ، التي لا تسمح لها علاقاتها العلنية وغير العلنية ، مع الولايات المتحدة ، ولا انظمتها اللاديمقراطية من القيام باية مواجهة حقيقية وجادة ضد العدو الاسرائيلي ـ الاميركي ·

ومن هنا ، فان النظم العربية المعنية بالصراع المباشر مع اسرائيل ، ستتأثر كثيرا بانهيار ايران كركيزة اساسية لهذه السياسة وسيضعف من اوضاع بقية الركائز العربية . عدا عن التهديد الذي يمثله تأثير الاحداث في ايران عليها · فالموقف في ايران ، كما يقول كيسنجر ، « قد يصيب دولا مثل مصر والمغرب ، وكذلك اسرائيل » · اما شليسنجر ، وزير الدفاع الاميركي الاسبق ، فانه يعترف بأن « ما يحدث في ايران سيمثل خسارة واضحة للغرب ومكسبا لصالح الاتحاد السوفياتي ، وتحذيرا جادا للدول الاخرى المنتجة للبترول في الخليج وخاصة العراق والسعودية » ·

ان ضعف النظم العربية الموالية لاميركا بسبب احداث ايران وانهيار نظام الشاه ، سينعكس ايجابيا لصالح حركة التحرر الوطني العربي وعلى الصراع ضد اميركا واسرائيل · فحتى اذا لم تحدث تغييرات قريبة في النظم المجاورة لايران بفعل تأثير احداثها ، فان قدرة هذه النظم على مواجهة قوى حركة التحرر الوطني العربية ستضعف . وتشل من قدراتها على القمع وتهديد النظم التقدمية ، كما هو الحال في قمع سلطنة عمان للثورة في ظفار ، او قمع بقية النظم لشعوبها وحركاتها الوطنية والديمقراطية · وهذا الشلل في قدرات وادوار النظم الموالية ، سينعكس ايجابيا على امكانيات تصعيد قوى حركة التحرر الوطني لنضالها سواء ضد الوجود والنفوذ الاميركي في بلدانها ، او في تزايد قدراتها للضغط على حكوماتها لانتهاج سياسات وطنية وجدية في الصراع العربي ـ الاسرائيلي · هذا من جهة ، اما من جهة اخرى ، فان هذه النظم ستضعف قدراتها في فرض هيمنتها السياسية او دعمها للنظم العربية الاخرى التي خضعت لهيمنتها وقبلت بالكثير من شروطها السياسية خلال السنوات الماضية ·

ان هذا الشلل والضعف الذي اصاب ، نسبيا ، وسيصيب كليا في حال انهيار نظام الشاه ، الانظمة الموالية لاميركا ، سيدفعها الى اعادة النظر في صياغة سياسات جديدة ،

تأخذ في الاعتبار ما يجري حولها من تطورات ·

اما نظام السادات ، فانه هو الاخر ، ستفرض عليه الاحداث اعادة صياغة لسياسته ، سواء بسبب التأثير المباشر لها على مصر وفقدان حليف مهم لنظامه ، او بسبب اضطراره للتلاقي مع النظم العربية الاخرى المختلفة معه ، بهدف مواجهة « الخطر المشترك » الناتج عن الاحداث ، ومحاولة تعطيل تأثيراتها الحادة على اوضاعهم الداخلية ·

وبالاساس ، فان الولايات المتحدة الاميركية ، التي رهنت تلك النظم سياستها اليها ، هي المعنية ، بشكل مباشر ، « باعادة تقييم » لاستراتيجيتها في المنطقة · وخلال بحثها عن حليف او حلفاء بدائل ، بعد انهيار حليفها في ايران ، ستواجه مسألة القدرة على تعويض ذلك عبر بعض النظم العربية ·

كامب ديفيد والمحادثات المصرية ـ الاسرائيلية ··· والانتفاضة

ان كون مؤتمر كامب ديفيد ومقرراته ، هو حصيلة لسياسات النظم العربية الموالية لاميركا ، والتتمة الطبيعية للزيارة التي قام بها السادات لاسرائيل في تشرين الثاني عام ١٩٧٧ ، فان التهديد بضرب النفوذ والمصالح الاميركية في ايران والمنطقة بفعل الانتفاضة، قد اثر وسيؤثر على طبيعة تطبيق الاتفاقيات الناتجة عن كامب ديفيد ·

واذا كانت خطوط وعناصر الاستراتيجية الاميركية ، والاسرائيلية « الجديدة » ، لم تتم بعد بشكلها النهائي ، انتظارا لنتائج الصراع في ايران ، فان ما اثرت به الانتفاضة ، خلال تلك الفترة ، على المحادثات المصرية ـ الاسرائيلية ، وعلى مواقف النظم العربية المعنية بشكل مباشر او غير مباشر بالصراع يبرز مؤشرات هامة لطبيعة تلك التأثيرات في الفترة القادمة التي سيتبلور خلالها الوضع في ايران اكثر فأكثر ·

تحدث الشاه في نهاية شهر ايلول الماضي الى صحيفة « كوريبرووي » الايطالية مبديا مخاوفه من التطورات التي تجري في ايران ، ومحجما لنتائج مؤتمر كامب ديفيد ازاءها ، فقال : « حتى ولو كان قد انبثق في كامب ديفيد منفذ صغير ·· فان « الاستقرار » في الشرق الاوسط وفي القرن الافريقي يجتاز مرحلة دقيقة ·· واذا وقع شيء هنا (في ايران) فاني اعتقد ان ذلك سيكون بداية النهاية ، اذ اننا نتحكم في مضيق هرمز » ·

وبعد تعثر المفاوضات الثنائية بين اسرائيل ونظام السادات ، تزايدت المخاوف من احداث ايران وانعكست على سير المفاوضات · ففي اسرائيل كان « الموقف في ايران يستأثر بجانب مهم من مناقشات الحكومة الاسرائيلية » ، وان « تطورات الوضع الايراني اثرت في معالجة الوزراء الاسرائيليين لموضوع استئناف المفاوضات مع مصر » · هذا ما نقلته وكالات الانباء في اوائل شهر كانون الثاني الماضي · اما في مصر ، فاضافة الى المخاوف التي عكستها الصحافة وتصريحات المسؤولين هناك من احداث ايران ، فان روبرت ويلسون ، النائب الجمهوري في مجلس النواب الاميركي الذي كان قد التقى السادات في الاسبوع الاول من شهر كانون الثاني الماضي ، صرح « بأن الرئيس السادات قلق للغاية بشأن تطورات الموقف في الشرق الاوسط وخاصة في ايران وتركيا ، وهو

يرغب في ان يقول لبيغن ان هذه التطورات تحتم الاسراع في اقرار السلام بين البلدين »·

وفي محاولة لابتزاز الموقف المصري . وصفت الاذاعة الاسرائيلية (١/٤) البيان المصري الذي دعا لاستئناف المفاوضات الثنائية المتوقفة ، بأنه يتضمن الحاجة الى تحقيق تسوية مع اسرائيل في ضوء التطورات الاخيرة في ايران . ويشير الى الاهمية التي توليها مصر للسلام في ضوء المتغيرات السياسية الاخيرة في الشرق الاوسط ·· وان الحكومة المصرية تريد تحديد المفاوضات وكسب الوقت نتيجة تقدير الموقف في المنطقة عقب ما حدث في ايران وارتفاع اسهم العرب في الولايات المتحدة بسبب ما لعبته سياستها في ايران وسيكون موقف اسرائيل ضعيفا » ·

وهكذا نجد ان مواقف معظم الاطراف المعنية بالصراع تنتظر بترقب ما سيسفر عنه الصراع في ايران ، في حين شل مجرى الصراع المحادثات الثنائية بين مصر واسرائيل ·

وستكون الخيارات امام الادارة الاميركية ، وبتأثير الظروف والوقائع الجديدة ، متعددة : اما انها ستواصل مخططها السابق الذي ادى الى كامب ديفيد ونتائجه ، وافرز حالة من الاستقطاب في الوضع العربي ، واحراج للنظم العربية الموالية لها ، او « قلب » موقفها شكليا بالتوجه لارضاء هذه النظم وطرح مشاريع جديدة تساعد على « تضامنها » ازاء الاخطار التي نتجت او ستنتج عن الاحداث الايرانية ، ومن ثم تقليص اندفاعها في الدعم العلني المطلق للمواقف الاسرائيلية ، وذلك بهدف مساعدة السادات في التقدم خطوة باتجاه النظم العربية الاخرى ·

ان نسجا جديدا من التحالفات ، والتغييرات في مواقف القوى المعنية بالصراع في المنطقة ، ستفرضه ضرورات تطور الاحداث في ايران سواء بهدف « التكيف » مع المستجدات التي افرزتها ، او بهدف ايجاد معادلات جديدة لمواجهة امتداداتها وتأثيراتها ، الا ان قوى التحرر الوطني العربية وخاصة الثورة الفلسطينية ستكون قادرة ، وبظروف افضل ، على الفعل وتوظيف الاثار الايجابية للاحداث ، لتغيير الوجهة التي يدار بها الصراع العربي ـ الاسرائيلي الان ، لصالحها ·

اما « قوة المثال » و « النموذج » الذي تعطيه الثورة الايرانية لشعوب البلدان العربية، خاصة المتأثرة مباشرة بالاحداث ، فان من المرجح ان يكون عامل الهام يساعد، في تفاعله مع الظروف الداخلية ، على فتح الافاق للنضال ضد النفوذ والمصالح الامبريالية وخاصة الاميركية في تلك البلدان ، وبما يعنيه ذلك من تغيير في ميزان القوى لمصلحة النضال ضد اسرائيل وضد الوجود الاميركي في عموم المنطقة ·

حليم احمد

II

اسرائيل... الخاسر الأكبر من ثورة ايران

مهما اجمعت الاوساط السياسية الاسرائيلية ، على أن اسرائيل هي « الخاسر الاكبر » من الثورة الايرانية ، بما سيترتب عليها من نتائج ، سواء بالنسبة لمنطقة الشرق برمتها ، او بالنسبة لما احدثته من خلل في التوازن الدولي على الصعيد الاقتصادي والسياسي والاستراتيجي العام · اذ تشكل انذاراً لاسرائيل ، بل وربما « الانذار الاخير » · « لا يمكن لنا ان نقف مكتوفي الايدي ازاء هذا « التحول الذي يحدث امام اعيننا في اكثر المناطق حساسية في العالم ،وعلى عتبة بيتنا · فسياسة أمننا القومي ، وبقدر ما لها من اعتبارات محلية وقطرية خاصة ، ترتبط ارتباطا وثيقا بميزان القوى العالمي ، واي خلل حاد لميزان القوى هذا لا بد وان يترك آثاره مباشرة على مكانتنا ايضا » (معاريف ، ٧ / ١ / ١٩٧٩)·

وعبر اسحق رابين (يديعوت أحرونوت ١٢ / ١) عن فهمه لموقع ايران في ميزان القوى العالمي النفوذ بقوله : « وما تدخل الدول الكبرى في النزاع العربي الاسرائيلي في اساسه ، الا وسيلة ثانوية فقط ، فبينما حاول الاتحاد السوفيتي ويحاول استغلال هذا النزاع للوصول الى هدفه المركزي : السعودية وامارات النفط العربية ، فان الولايات المتحدة حاولت وتحاول الوصول الى تسوية هذا النزاع ، لسلب الاتحاد السوفييتي الوسيلة لزيادة نفوذه في المنطقة ومنعه من التغلغل الى السعودية »·

واضاف : « ان التطورات الاخيرة في ايران وانتصار الثورة فيها تشير الى امكانية تغلغل سوفييتي مباشر الى مصادر الطاقة الشرق اوسطية ، وتحول النزاع العربي اسرائيلي ، من حجمه المصغر ، لنزاع ثانوي من وجهة نظر الدول الكبرى » (المصدر نفسه) ·

ولهذا ، فلا بد وان يكون هناك تأثير على المفاوضات الجارية بين اسرائيل ومصر ، بعد انهيار الدعامة الرئيسية في الحلف الاستراتيجي الذي كانت الولايات المتحدة تسعى الى اقامته من مصر ــ اسرائيل ــ الرجعية ــ ايران ، بعد توقيع معاهدة سلام بين اسرائيل

ومصر ٠ الا انه وعلى الرغم من وجهات النظر المختلفة للطرفين فان القلق من الثورة الايرانية وما قد يترتب عليها من نتائج على الساحة الشرق اوسطية يجمعها ويوحدهما . ولا بد وان يقودهما الى عدة استنتاجات عملية :

١ ــ « الاسراع في توقيع معاهدة السلام بين اسرائيل ومصر لانشاء حلف مصري اسرائيلي موال للغرب ٠ فكلما استمرت المفاوضات ، قد تظهر عقبات متوقعة وغير متوقعة تؤثر على نهايتها الايجابية ٠ موجة اسلامية متطرفة قد تطغي على العالم العربي فتثقل على السادات وتقيد خطواته ، وفشل خطوات الرئيس المصري ، اي عدم الوصول الى سلام اسرائيلي مصري قد يضع علامة ستفهم على اسمرار سياسته ٠ وهذه السياسة ترتكز ومنذ يوم الغفران على الولايات المتحدة ، وهي تسعى لسلام مع اسرائيل ٠ وثمة خطر فيما اذا تفجرت المفاوضات بان يحصل تغيير سياسي في مصر فتعود الى حظيرة النفوذ السوفييتي » ٠

٢ ــ « بعد توقيع معاهدة السلام مع مصر ، هناك مكان لاعادة نظر اسرائيلية لمواقفها من موضوع الحكم الذاتي ٠ وذلك لايجاد طريق تؤدي الى اشراك الاردن في العملية السياسية ٠ فالاردن هو نظام موال للغرب ومستعد لسلام كامل مع اسرائيل ، وقد تورط رغما عنه في جبهة الرفض العربية المتطرفة نتيجة لسياسة حكومة اسرائيل الحالية التي لم تترك له اي منفذ يستطيع الانضمام من خلاله الى الحلف المصري الاسرائيلي الذي سوف ينشأ مع توقيع معاهدة السلام ٠ وفي مواجهة الاخطار النابعة من التطورات في ايران وانعكاساتها على العالم العربي الاسلامي ، فهناك اهمية كبرى لاخراج الاردن من الدائرة العربية المتطرفة » ٠

٣ ــ « العمل على تحييد الاتجاهات السلبية التي نشأت بعد فوات الاوان في الولايات المتحدة ، بسبب الازمة الحادة التي المت بها ٠ فمن المعلومات الواردة في هذه الايام من الولايات المتحدة ، نستدل على ان استنتاج راسمي سياسة هذه الدولة ستكون على ما يبدو، عودة الى الحل الشامل ، اي العمل بشكل اسرع للوصول الى سلام شامل في جميع اطراف النزاع العربي ٠ وكل ذلك سيتم على حساب اسرائيل ٠ فاذا كان ثمة مكان فعلا لاحتمال اشراك الاردن في المفاوضات الاسرائيية المصرية من وجهة نظر الولايات المتحدة أيضا ، فليس لديها ما تعتمده بالنسبة لسوريا ٠ » (اسحق رابين ، يديعوت احرونوت ، ١٢ / ١ / ١٩٧٩) ٠

٤ ــ « استقطاب اهتمام كل الذين يسعون للمحافظة على مصالحهم في الشرق الاوسط ومصالح دولة اسرائيل ، بصفتها الدولة الديمقراطية الوحيدة في هذه المنطقة والتي هي قوة عسكرية اثبتت نفسها في امتحان التنفيذ والقدرة، واقناع الشعب الاميركي ، ان التوظيف الامثل من وجهة نظر أمن الولايات المتحدة وامن الغرب الذي كرسته حتى الان بنفسها في الشرق الاوسط ، هو التوظيف في اسرائيل ، والتأكيد على الخاص والمهم في مكانة اسرائيل في المنطقة في مواجهة التطورات في الشرق الاوسط وحوض البحر المتوسط » (حاييم هر تسوغ ، معاريف ٢٢ / ١ / ١٩٧٩) ٠

هذا من حيث ما ترتبه الثورة الايرانية على دولة اسرائيل من خطر على مستقبلها على المدى القصير والبعيد ، كجزء في المعادلة الدولية في الشرق الاوسط ، وما احدثته هذه

الثورة من خلل في هذه المعادلة · أما تخوف اسرائيل مما يجري في ايران « اكثر من اي طرف آخر في العالم » بشكل خاص ، فذلك لان « اية الله الخميني وانصاره هم اعداء دولة اسرائيل بكل معنى الكلمة » (اوري افنيري ، هعولام هزية ١٧ / ١ / ١٩٧٩) ·

بل لا يوجد في اي « مكان في العالم العربي ظاهرة عداء اعمى كهذا لاسرائيل ، كما هو قائم بين الثوار الدينيين في ايران ·· ولذلك عدة اسباب عملية وعقائدية ·· والنتيجة هي رهيبة ومخيفة » (المصدر نفسه) ·

الاسباب العملية معروفة وخطيرة :

١ ـ السافاك

« فوفقا لمعلومات متكررة كانت قد نشرت في الخارج ، والتي يؤمن كل ايراني بصحتها ، فان ضباط السافاك دربوا على أيدي الاسرائيليين في اسرائيل نفسها وفي ايران ··· ويكفي ان يقرن اسم اسرائيل باسم السافاك ، كي يجعل من اسرائيل عدوة الثورة الايرانية حتى بدون اي سبب آخر » (اصدر نفسه) ·

٢ ـ اصدقاء الشاه

« رجال الاعمال اليهود انتعشوا لدى الشاه وترعرعوا تحت سلطته وكانوا مخلصين له من كل قلوبهم · وفي اعين الغالبية الشيعيه في ايران . لم يخطىء اليهود بسبب كفرهم الديني وحسب ، وانما بسبب مساندتهم غير المحدودة للنظام الكريه والفاسد والقمعي ، والوحشي أيضا · وتعامل الشاه مع اسرائيل دعم صورة الحلف الرباعي ـ الشاه ـ اليهود ـ اسرائيل ـ اميركا ـ والتي سوف تنتقم الان من اسرائيل ومن اليهود » · (اصدر نفسه) ·

٣ ـ عقائدنا

« بين اسرائيل والعالم العربي ثمة نزاع عميق قائم ، مصدره الصدام التاريخي بين الصهيونية والشعب الفلسطيني · انه صراع سياسي وعقلاني ، على ارض يرى فيها الطرفان وطنهما . وكل واحد منهما يدعيها لنفسه · حتى مشكلة المدينة المقدسة ـ القدس ـ تعتبر في اعين الطرفين مشكلة سياسية في اساسها ، على الرغم من ان كليهما يستغل شعارات دينية لتبرير مواقفهما . فالعرب يطالبون بأعادة القدس ـ للسيطرة العربية ـ وليس ـ لسيطرة دينية ـ ·اما بالنسبة للخميني وانصاره ، فالقدس مدينة عربية ، من الممكن ايجاد حل لها يكون مرضيا للعرب · فهذا لا يعنيهم البته · القدس في نظرهم هي المدينة المقدسة ، مدينة الاسلام . والتي من اجلها يتوجب عليهم خوض حرب مقدسة لتحريرها من الكفار ، ومن أجل القدس فانهم يكرهون اسرائيل ، ومستعدون لمحاربتها حتى الموت » (المصدر نفسه) ·

أما على مستوى الخسارة المادية والاستراتيجية السياسية المباشرة التي الحقتها الثورة الايرانية بالنسبة لاسرائيل في استمرار اغتصابها لفلسطين وحربها التي تشنها ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية واحتلال اراضيها . « فميزان الخسارة لاسرائيل كبير سواء من ناحية ما تخسره على الصعيد المادي ، ومن ناحية ما يحصل عليه اعداؤها على نفس الصعيد كما على الاصعدة الاخرى » (يديعوت احرونوت . ١٩ / ١ / ١٩٧٩) ·

فاسرائيل تفقد :

● « مصدر النفط الذي كان يعد في الماضي مضمونا » .

● « المزود الوحيد والدائم لخط انابيب البترول ايلات ـ عسقلان ، والذي كان معدا لنقل بترول الخليج الفارسي الى اوروبا » .

● « زبونا مهما جدا للمنتوجات الزراعية والصناعية الاسرائيلية » .

● « احدى البلدان المجاورة القليلة جدا التي تستطيع اسرائيل ان تزودها بامكانياتها التكنولوجية من خلال ضمانها لعمل وارباح طائلة جدا لشركات اسرائيلية معينة » .

● « حليفا قويا على الصعيد الاستراتيجي ـ السياسي في مواجهة اي سيطرة عربية جنوب البحر الاحمر » .

● « حليفا قويا في صراعها ضد التغلغل السوفييتي » .

● « احدى الدول الاسلامية القليلة التي كانت مستعدة لدعم مبادرة الرئيس السادات لخلق علاقات طبيعية بين اسرائيل وجاراتها العربية حتى في شروط تكون فيها اسرائيل غير مستعدة لقبولها » . (المصدر نفسه)

الا ان ميزان الخسارة هذا يكون اثقل اذا ما اخذت « اسرائيل بالحسبان ما يربحه اعداؤها ... وبشكل خاص النصر الذي حققته م.ت.ف » (المصدر نفسه) .

اذ ان ما حدث هو « انتصار للاسلام » . وقد تحول الخميني الى « رمز الاسلام المنتصر والى رمز المعارضة للانظمة المحافظة » وهذا مما سيشجع والى حد كبير ، تطرف ونشاط الاوساط الاسلامية المتطرفة في اماكن اخرى ايضا ، في اسيا وافريقيا » وان هذا النشاط سيوجه قطعا « ضد اسرائيل ممـا سيزيد من عزلتهـا » (المصدر نفسه) وباستثناء ذلـك ، فان سقوط الشاه وانتصار الثورة الايرانية ، هو « انتصار كبير لـ م.ت.ف ، التي دعم اعضاؤها الخميني وتحملوا جزءا مهما جدا في الاحداث ويمنحها الشعور بانها تسير في الطريق الصحيح . وان مصر ـ كمـا قال ياسر عرفات ـ سوف تجد خمينيهـا » (المصدر نفسه) .

توفيق فياض

المقاومة الفلسطينية

البرنامج السياسي والتنظيمي للوحدة الوطنية الفلسطينية

ان التسوية الاميركية للصراع العربي الصهيوني التي تجسدت في اتفاقيات كامب ديفيد تشكل اخطارا مصيرية على قضية فلسطين وقضية التحرر الوطنية العربية · فهي تسلم للعدو الصهيوني بمواصلة اغتصاب التراب الوطني الفلسطيني ، وتلغي حق الشعب العربي الفلسطيني الثابت في وطنه فلسطين وحقه في العودة اليه وتقرير مصيره وممارسة استقلاله الوطني فوق ارضه وتفرط فيه اجزاء اخرى من الارض العربية وتتجاوز منظمة التحرير الفلسطينية قائدة الكفاح الوطني لشعبنا وممثله الشرعي الوحيد الناطق باسمه والمعبر عن ارادته ·

كما ان هذه الاتفاقيات تشكل اعتداء على الشرعية الفلسطينية والعربية والدولية وتمهد الطريق لاحكام السيطرة الامبريالية والصهيونية على منطقتنا العربية والبلدان الافريقية ولاستخدام النظام المصري – في اطار التحالف مع الامبريالية والصهيونية – كأداة قمع لحركة التحرر الوطني العربية والافريقية·

وادراكا منا لخطورة المؤامرة الجديدة وابعادها ، فان مسؤولياتنا الوطنية في منظمة التحرير الفلسطينية كممثلة لشعبنا العربي الفلسطيني بجميع فصائله وقواه الوطنية تحتم علينا رفض المخطط التآمري الجديد والتصدي له والدفاع عن شعبنا وحقوقه الوطنية الثابتة في وطنه فلسطين وثورتنا الفلسطينية ·

ان موقف جماهيرنا الفلسطينية الباسلة داخل الوطن المحتل وخارجه وموقف جماهير امتنا العربية في رفض اتفاقيات كامب ديفيد ، واعلانها العزم على التصدي لهذه المؤامرة الجديدة على شعبنا وحقوقه الوطنية الثابتة وامتنا العربية يمنحنا المزيد من التصميم على مواجهة المؤامرة والمزيد من الثقة على دحرها ·

وفي الوقت نفسه فانه تقع على عاتقنا مسؤولية كبرى لا يمكن القيام بها الا عبر موقف وطني وشعبي موحد من خلال منظمة التحرير الفلسطينية ·

واستجابة منا لارادة شعبنا وللتحديات التي تواجهنا وايمانا منا بالوحدة الوطنية في منظمة التحرير الفلسطينية طريقا وحيدا لانتصارنا وانطلاقا من الميثاق الوطني الفلسطيني وقرارات المجالس الوطنية الفلسطينية ووثيقة طرابلس الوحدوية بين فصائل الثورة الفلسطينية وحق شعبنا في اقامة الدولة الديمقراطية على كامل ترابه الوطني وفي مواجهة هذه المرحلة الدقيقة والخطيرة من نضال شعبنا نعلن نحن ممثلي كافة فصائل الثورة والقوى الوطنية الفلسطينية ما يلي :

في المجال الفلسطيني

اولا : التمسك بالحقوق الوطنية الثابتة لشعبنا في وطنه فلسطين ، وحقه في العودة اليه وتقرير مصيره على ارضه دون تدخل خارجي واقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني دون قيد او شرط .

ثانيا : الدفاع عن منظمة التحرير الفلسطينية والتمسك بها ممثلا شرعيا وحيدا لشعبنا وقائدا لنضاله الوطني ، وناطقا باسمه في كافة المحافل العربية والدولية ومقاومة كافة المحاولات التي تستهدف النيل من منظمة التحرير او تجاوزها والالتفاف حولها ، او خلق بدائل او شركاء لها في تمثيل شعبنا الفلسطيني والتمسك بقرارات القمة العربية في الجزائر والرباط وقرارات الامم المتحدة وخاصة القرارين رقم ٢٢٣٦ ـ ٢٢٣٧ التي تؤكد حقوقنا الوطنية الثابتة والاعتراف العربي والدولي بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني .

ثالثا : التصميم الثابت على مواصلة وتصعيد الكفاح المسلح وكافة اشكال النضال السياسي والجماهيري خاصة داخل الارض المحتلة باعتبارها تشكل ميدان الصراع الرئيسي مع العدو الصهيوني ، وذلك لتحقيق الحقوق الوطنية غير القابلة التصرف او التفاوض للشعب العربي الفلسطيني .

رابعا : التأكيد على ان قضية فلسطين هي جوهر الصراع العربي ـ الصهيوني واساسه ، ورفض جميع القرارات والاتفاقيات والتسويات التي لا تعترف او تنتقص من حقوق شعبنا الثابتة في وطنه فلسطين . بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته الوطنية المستقلة وبشكل خاص قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢

خامسا : رفض ومقاومة مشروع الحكم الذاتي في الوطن المحتل الذي يكرس الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لارضنا المحتلة ويتنكر لحقوق شعبنا الفلسطيني .

سادسا : التأكيد على وحدة شعبنا العربي داخل الوطن المحتل وخارجه ووحدة تمثيله من خلال منظمة التحرير الفلسطينية والتصدي لجميع المحاولات والمشاريع التي تستهدف تجزئة شعبنا او الالتفاف على منظمة التحرير الفلسطينية والعمل على دعم نضال شعبنا في المناطق المحتلة وتعزيز وحدته وصموده .

سابعا : تدعيم بناء الجبهة الوطنية الفلسطينية في الداخل باعتبارها جزءا لا يتجزأ من منظمة التحرير الفلسطينية وتوفير كل وسائل الدعم السياسي والمادي لها بما يمكنها من تعبئة جماهير شعبنا في الداخل في مواجهة الاحتلال الصهيوني ومخططاته ومشاريعه المعادية لشعبنا وحقوقه الوطنية الثابتة .

ثامنا : التمسك بفلسطين وطنا تاريخيا لا بديل عنه للشعب الفلسطيني ومقاومة كافة مشاريع التوطين او « الوطن البديل » التي يطرحها العدو الامبريالي الصهيوني لتصفية قضية فلسطين والنضال الوطني الفلسطيني والالتفاف على حق العودة .

في المجال العربي

اولا : التأكيد على ان مواجهة اتفاقيات كامب ديفيد وملحقاتها ونتائجها بما تمثله من اخطار مصيرية على قضية النضال العربي والتي هي مسؤولية الجماهير العربية باسرها وقواها الوطنية والتقدمية وان الجبهة القومية للصمود والتصدي وحلقتها المركزية سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية هي القاعدة الرئيسية للتصدي لمؤامرة التسوية الاميركية الصهيونية .

ثانيا : العمل على تعزيز وتدعيم جبهة الصمود والتصدي وتوسيع دائرتها على قاعدة مقاومة مخططات التسوية الامبريالية والصهيونية والتمسك بهدف تحرير الاراضي الفلسطينية والعربية المحتلة ، والحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني وعدم التفريط او المساس بها، وتوفير كل امكانيات الدعم الجماهيري والمادي لجبهة الصمود والتصدي بشكل خاص لمنظمة التحرير الفلسطينية والقطر العربي السوري ·

ثالثا : تدعو منظمة التحرير الفلسطينية كافة الاحزاب والحركات والقوى الوطنية والتقدمية في الوطن العربي الى مساندة وتوفير كل امكانيات الدعم الجماهيري والمادي لجبهة الصمود والتصدي كما تدعوها الى التضامن والنضال على قاعدة مقاومة مخططات التسوية الامبريالية الصهيونية ·

رابعا :

أ ـ تؤكد منظمة التحرير الفلسطينية تمسكها الثابت بوحدة وعروبة واستقلال لبنان واحترامها للسيادة اللبنانية والتزامها باتفاقية القاهرة وملحقاتها التي تنظم العلاقات بينها وبين السلطة الشرعية اللبنانية ·

ب ـ تثمن منظمة التحرير الفلسطينية الدور الذي قام ويقوم به الشعب اللبناني وقواه الوطنية والقومية والتقدمية في دعم نضال الشعب الفلسطيني ودفاعها عنه وهي اذ تعبر عن اعتزازها بالتلاحم بين شعبنا الفلسطيني والشعب اللبناني وقواه الوطنية والقومية والتقدمية في الدفاع عن الارض اللبنانية والثورة الفلسطينية ضد العدوان الصهيوني ومخططاته وادواته المحلية تؤكد على اهمية استمرار هذا التلاحم وتعزيزه ·

خامسا :

أ ـ تؤكد منظمة التحرير الفلسطينية على العلاقة ذات الطبيعة الخاصة التي تربط بين الشعبين الشقيقين الفلسطيني والاردني، وحرصها على استمرار التلاحم بين الشعبين الشقيقين ·

ب ـ تعلن منظمة التحرير الفلسطينية تمسكها بقرارات القمة العربية في الجزائر والرباط التي تؤكد ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، وحق شعبنا في اقامة دولته الوطنية المستقلة ، وتعتبر التزام النظام الاردني بهذه القرارات ورفض اتفاقيات كامب ديفيد ونتائجها والتورط فيها وتمكين منظمة التحرير الفلسطينية من ممارسة مسؤوليتها النضالية والشعبية ضد العدو الصهيوني الذي يمثل القاعدة التي تحكم علاقة منظمة التحرير الفلسطينية مع النظام الاردني ·

سادسا : تؤكد منظمة التحرير الفلسطينية حقها في ممارسة مسؤولياتها النضالية على المستوى العربي والقومي وعبر اية ارض عربية في سبيل تحرير الاراضي الفلسطينية المحتلة ·

سابعا : تعلن منظمة التحرير الفلسطينية ان مواقفها وعلاقاتها مع اي نظام عربي تتحدد على ضوء موقف اي نظام من الالتزام بمقررات قمتي الجزائر والرباط ومن رفض اتفاقيات كامب ديفيد وملحقاتها ومقاومتها ·

ثامنا : تدعو منظمة التحرير الفلسطينية كافة القوى القومية والعربية والانظمة الافريقية والصديقة الى دعم ومساندة الشعب المصري وحركته الوطنية ، لتمكينه من التصدي لمؤامرة السادات واسقاط اتفاقية كامب ديفيد وانعكاساتها

على الشعب المصري وعروبته وتاريخه النضالي ضد الصهيونية والامبريالية ·

في المجال الدولي

اولا : ان الدور الذي تلعبه الولايات المتحدة الاميركية ضد شعبنا الفلسطيني ونضاله الوطني وضد حركة التحرير الوطني العربية واهدافها في التحرير والاستقلال ، سواء من خلال دعمها للكيان الصهيوني او من خلال ادواتها في المنطقة العربية يشكل عدوانا سافرا على شعبنا وقضيته الوطنية ، وان منظمة التحرير الفلسطينية بالتلاحم مع جميع فصائل حركة التحرر الوطني العربية وقواها وانظمتها الوطنية والتقدمية تعبر عن عزمها على مقاومة سياسة الولايات المتحدة واهدافها وممارساتها في المنطقة·

ثانيا : تؤكد منظمة التحرير الفلسطينية اهمية تحالفها مع البلدان الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي باعتبار هذا التحالف يشكل ضرورة وطنية في مجال التصدي للمؤامرات الاميركية

الصهيونية على قضية فلسطين وحركة التحرر الوطني العربية ومنجزاتها ·

ثالثا : تؤكد منظمة التحرير الفلسطينية على اهمية تعزيز وتدعيم تعاونها مع دول عدم الانحياز والدول الاسلامية والافريقية والصديقة المؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية ونضالها في سبيل الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني في العودة الى وطنه وتقرير مصيره واقامة دولته الوطنية المستقلة ·

رابعا : تعبر منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها حركة تحرر وطني عن تضامنها مع حركات التحرر الوطني في العالم وخاصة في زيمبابوي وناميبيا وجنوب افريقيا وتصميمها على تعزيز علاقاتها النضالية معها باعتبار ان النضال ضد الامبريالية والصهيونية والعنصرية قضية مشتركة لكافة قوى التحرر والتقدم في العالم ·

خامسا : تعلن منظمة التحرير الفلسطينية تمسكها الثابت بالانجازات التي تحققت للنضال الفلسطيني على الساحة الدولية ، من اعتراف دولي واسع بمنظمة التحرير الفلسطينية وبحق الشعب العربي الفلسطيني الثابت في وطنه فلسطين وفي العودة اليه وتقرير مصيره واقامة دولته الفلسطينية المستقلة فوق ترابه الوطني، وهي الانجازات التيتجسدت في قرارات الامم المتحدة منذ عام ١٩٧٤ حتى اليوم وخاصة القرارين رقم ٣٢٣٦ و ٣٢٣٧ وتؤكد حق منظمة التحرير الفلسطينية بالاشتراك في جميع الاجتماعات والمؤتمرات التي تبحث قضية فلسطين على هذه الاسس وتعتبر ان اي بحث او اتفاق في غيابها فيما يتعلق بقضية فلسطين باطل من اساسه ·

في المجال التنظيمي

١ ـ تشارك فصائل الثورة والقوى الوطنية الفلسطينية وكافة مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية وفي مقدمتها المجلس الوطني المركزي واللجنة التنفيذية وعلى اسس جبهوية ديمقراطية ·

ثانيا: القيادة الفلسطينية قيادة جماعية بمعنى ان القرار مسؤولية الجميع سواء من حيث المشاركة في اتخاذه او تنفيذه وعلى اساس ديمقراطي بالتزام الاقلية برأي الاكثرية طبقا للبرنامج السياسي والتنظيمي ، وقرارات المجالس الوطنية

ثالثا : ضمان قيام دوائر المنظمة

ومؤسساتها واجهزتها بممارسة صلاحياتها كاملة وفق الاختصاصات المحددة لهـــا في النظام الاساسي للمنظمة ، وتشكـل اللجنة التنفيذية مجالات عليا متخصصـة على اسس جبهوية تتولى وضع الخطـط ومراقبة التنفيذ لمؤسسات منظمة التحريـر الفلسطينية وخاصة في المجالات العسكرية والاعلامية والمالية ٠

رابعا : تشكل اللجنة التنفيذية والمجلس المركزي حسب ما يتفق عليه وضمن مـا ينص عليه النظام الاساسي لمنظمـــة التحرير الفلسطينيـــة وقرارات المجلـس الوطني ٠

خامسا : تتولى اللجنة التنفيذية القادمة في بداية عملها وضع الخطط اللازمـة لوضع البرنامج المرحلي موضع التنفيـذ وتعيد النظر في دوائر اجهزة المنظمـــة بشكل تراعي الكفاءة والنوعية لضمـان تحقيق المردود الافضل من عمل هـــذه الدوائر والاجهزة ٠

بيان سياسي عن اعمال الدورة الرابعة للمجلس الوطني الفلسطيني « دورة الشهيد هواري بومدين »

جاء انعقاد الدورة الرابعـــة عشـرة للمجلس الوطني الفلسطيني في الفتـــرة ما بين يومي ١٥ـ٢٢ كانون الثاني مـــن ١٠م ١٩٧٩ الموافق ١٦ ـ٢٣ صفر ١٣٩٩ بمدينة دمشق العاصمة السورية بعد ان تعذر انعقاده بمقر جامعة الدول العربيـة في القاهرة بسبب ابرام مصر لاتفاقيـات كامب ديفيد ، وقد حملت هذه الدورة اسم المغفور له الشهيد « هـــواري بومدين » رئيس الجمهورية الجزائرية تعبيرا عـــن تقدير ووفاء شعب فلسطين لنضال القائد الراحل في سبيل قضية فلسطين وقضايا الامة العربية وللدور العظيم الذي قام به في تحرير الجزائر وتقدمها ونصرة قضايا العالم الثالث ٠

استقبل المجلس في يوم انعقاده الاول سيادة الرئيس المناضل حافظ الاسد رئيس الجمهورية العربية السورية الذي تفضل بافتتاح المجلس وبتوجيه حديث له، اكد فيه عن تلاحم نضال شعب فلسطين العربـــي بشعب سوريا العربي وابرز خصوصـيـــة الثورة الفلسطينية في حركة النضـــال العربي ، وحدد التزام سوريا بفلسطيـــن قضية وثـــورة وحقوقا وطنيـــة ثابتة ٠ وحضرت جلسات المجلس وفود كثيرة من الدول العربية الشقيقة والدول الصديقـة وحركات التحريـر الوطنـي والتنيمـــات السياسية في هذه الدول ٠ واسهمت هذه الوفود في كلماتها في مناقصات المجـلس مؤكدة تأييدها لنضال شعب فلسطيـــن العربي وقضيته العادلة ٠ وخصص المجلس جلسة خاصة لتكريم سيادة مطران القدس المنفي المناضل ايلاريون كبوجي بـعد ان اختاره بالاجماع عضو شرف تقديــرا لجهاده في سبيل قضية شعبنا العادلـــة وتكريما لكل مناضلي شعبنا في سجـــون الاحتلال وجميع المدافعين عن قضية الحرية والعدالة ٠

لقد جاء انعقاد هذه الدورة في مرحلة حاسمة تعرضت خلالها المنطقة العربيـــة لاخطر حلقات هجمة الامبريالية الصهيونية مجسدة في اتفاقيات كامب ديفيد منهجـا ومضمونا ونتائج واثارا تستهدف تصفية قضية فلسطين والحقوق الوطنية الثابتـة

لشعبنا الفلسطيني ، واخراج مصر على يد النظام الحاكم فيها من واقع الصراع العربي الصهيوني خطوة على طريق اخضاع المنطقة العربية ومقدراتها باسرها للامبريالية والصهيونية، والقضاء على منجزات الثورة الفلسطينية وحركة التحرر العربي ، الامر الذي واجهته جماهير شعبنا بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية وجماهير الامة العربية ، وفي طليعتها شعبنا العربي في مصر ممثلا بقواه الوطنية والقومية والتقدمية من خلال مواقفها النضالية التي تجسدت في قيام الجبهة القومية للصمود والتصدي وقراراتها ، ومؤتمر الشعب العربي العام واعلان ميثاق العمل القومي المشترك بين القطرين الشقيقين سوريا والعراق ، وانعقاد مؤتمر القمة العربي التاسع في بغداد ، فكشفت بذلك عن مدى عمق قضية فلسطين ، في واقع النضال العربي ووجوده والتصميم الواعي والحازم على التصدي لهذه الهجمة الامبريالية ـ الصهيونية على المنطقة العربية ، ودعم النضال الفلسطيني فيداخل الوطن المحتل وخارجه بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، كما كشفت عن مدى عزلة سياسة الولايات المتحدة الامريكية والسادات في المنطقة العربية ·

ومن خلال وعي قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ومجلسها الوطني لخطورة هذه المرحلة المتجسدة في هذه الاتفاقيات الاستسلامية ، ودور النظام المصري المدمر فيها ، جرت مناقشات المجلس واتخذت قراراته الخاصةبواجبات الثورة الفلسطينية وجماهيرها داخل وخارج الوطن المحتل· واخذا بعين الاعتبار النهوض العربي ، الذي عبرت عنه عمليا، قرارات قمة بغداد والخطوة الوحدوية السورية ـ العراقية ، وانطلاقا من ذلك كله ، اتخذ المجلس قراراته السياسية والمالية والعسكرية والاعلامية كما ركز بشكل خاص على البرنامجين السياسي والتنظيمي ، الخاصين بتعميق فاعلية، وشمولية الوحدة الوطنية الفلسطينية واقرهما بالاجماع ·

هذا ، وقد اكد المجلس اعتبار منهج اتفاقيات كامب ديفيد وما نتج وينتج عنها بما في ذلك مشروع الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، مؤامرة يجب رفضها ومقاومتها بكل الوسائل الممكنة ، واعتبار المحافظة على الموقف العربي الجماعي النضالي من هذا المنطلق على ارضية قرارات جبهه الصمود والتصدي ومؤتمر الشعب العربي وقرارات قمة بغداد ، انجازات لا بد من التمسك بها والعمل على تطويرها ، كما اعتبر المجلس ميثاق العمل القومي بين سوريا والعراق مرتكزا اساسيا لمواجهة المؤامرة. واستعادة التوازن الاستراتيجي مع العدو الصهيوني ، الامر الذي يحتم الوقوف الى جانب هذا الميثاق ، ودعمه ليحقق اهدافه في اسرع وقت ممكن ·

كما اكد المجلس اهمية العمل لدعم صمود اهلنا في وطننا المحتل ونضالهم ضد مشروع الحكم الذاتي والاحتلال الصهيوني ، وما يترتب على ذلك من تصعيد نوعي وكمي للكفاح المسلح ضد العدو الصهيوني في وطننا المحتل ·

كما اقر المجلس موضوع الحوار مع الاردن ، وفق الضوابط والاهداف التي اقرها البرنامج السياسي في هذا المجال وخاصة ما يتصل فوريا بمقاومة واحباط اتفاقيات كامب ديفيد ومشروع الحكم الذاتي · كما بحث المجلس المؤامرة الصهيونية ـ الانعزالية على لبنان الشقيق

واكد تمسكه بوحدة واستقلال وعروبة لبنان وعلى ضرورة تعميق العلاقات النضالية الوثيقة مع القوى الوطنية والقومية اللبنانية وجماهير الشعب اللبناني البطل على اختلاف طوائفه ، انطلاقا من ان القيادات الانعزالية ـ اللبنانية لا تشكل ارادة من تدعي تمثيلهم من جماهير شعب لبنان البطل ، وقد دعا المجلس الوطني كافة القوى الوطنية والقومية والتقدمية في العالم العربي وخاصة في مصر للتنسيق فيما بينها وتطوير علاقاتها لاسقاط اتفاقيات كامب ديفيد ، ولاسقاط منهج التسوية الامريكية الصهيونية ، ودعم الثورة الفلسطينية في تحقيق اهدافها الوطنية . وقد لاحظ المجلس بقلق التأثير الامريكي الرامي الى تعطيل دور وكالة غوث الفلسطينيين . وكذلك المؤامرات المتوالية التي اخذت تمارسها الوكالة تجاه اهلنا في المخيمات الفلسطينية داخل وخارج الوطن المحتل .

وقرر اتخاذ الاجراءات والاتصالات اللازمة في هذا المجال بما يضمن مصالح جماهير شعبنا ، ويحبط هذه المؤامرات ، وان المجلس الوطني يحمل وكالة الغوث مسؤولية ما سيترتب على ممارساتها الاخيرة ، المشبوهة من اضرار بمصالح شعبنا ومن ردود فعل الجماهير الفلسطينية على ذلك .

ان المجلس الوطني الفلسطيني اذ يعي الدورالامريكي الصهيوني في التآمر الشرس على قضية فلسطين وشعبها وقيادة هذا الشعب ممثلا بمنظمة التحرير الفلسطينية ، فانه يحيي كافة القوى الصديقة في العالم التي تقف الى جانب شعبنا في نضاله من اجل استعادة حقوقه المغتصبة ، وخاصة الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي ، الى جانب اصدقائنا وحلفائنا من الدول الاسلامية ودول عدم الانحياز والدول الافريقية والاسيوية والقوى والاحزاب الديمقراطية التي تناصرنا في العالم . كما بحث المجلس الوضع في ايران واكد وقوفه الى جانب ثورة ايران بقيادة المجاهد الكبير الامام اية الله الخميني ، ومواقفها الحاسمة الى جانب قضية فلسطين ونضال شعبها ضد العدو الصهيوني . وقد حيا المجلس هذه الثورة الفتية وتمنى لها النصر الكامل ، لكي تتمكن من وضع امكانات ايران وشعبها البطل الشقيق الى صفوف النضال ضد الامبريالية والصهيونية لتحرير فلسطين والقدس الشريف .

هذا ، وقد كلف المجلس الوطني اللجنة التنفيذية وضع ما ورد في قرارات المجلس المتعلقة بالبرنامج السياسي والبرنامج التنظيمي وقرارات اللجان السياسية والمالية العسكرية وغيرها موضع التنفيذ واعطاء عناية خاصة للمؤسسات الاجتماعية الفلسطينية ورعاية اسر الشهداء والاسرى المعتقلين وبذلك تتابع اللجنة التنفيذية الحالية مسؤولياتها وفقا للنظام الاساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، على ان تجري دراسة واقرار القواعد الجبهوية الخاصة بهذا الموضوع قبل انتهاء مدة المجلس الوطني الحالي .

وقد اختتم المجلس اعماله بارسال برقية شكر وتقدير الى سيادة الرئيس حافظ الاسد رئيس الجمهورية العربية السورية على افتتاحه ورعايته لاجتماعات المجلس وبرقية شكر اخرى الى اتحاد عمال سوريا المناضل لما قدمه للمجلس من تسهيلات اسهمت في تسيير اعماله .

ان المجلس الوطني الفلسطيني اذ

يحيي صمود ونضال شعبنـــا في الارض المحتلة ويحيي شعب لبنان وقواه الوطنيـة التي تعمل من اجل وحدة لبنان وعروبته واستقلاله ويحيي كلاصدقاء وحلفـــاء شعب فلسطين في العالم والقوى الوطنية المصرية ، التي ترفض مؤامرة كامب ديفيد ليعاهد شعب فلسطين وكل احرار العالم بان يستمر النضال حتى تسقط كل المؤامرة ويتحقق النصر ٠

المناطق المحتلة

أ ـ ١٩٤٨

العرب الدروز في الارض المحتلة والتجنيد الاجباري

منذ ثلاثين عاما والدولة الصهيونيـة تحاول وبالتعاون مع كبـار المتعاونين والنفعيين من زعماء الطائفـة العربيـة الدرزية في فلسطين المحتلة ، تنفيذ ابشع الجرائم ضد ابناء هذه الطائفة ، وهـي طمس هويتهم القومية والدينية، واجبارهم على حمل السلاح لمقاتلة ابناء شعبهـم العربي ، بل وابناء وطنهـم الفلسطيني داخـل فلسطين المحتلة وخارجهـا ، باعتبارهم « امة » منفصلة قائمة بذاتهـا تختلف عن الامة العربية ، لاجئة في ذلك، وبالتعاون مع عملائها من زعماء هـذه الطائفة الى تزييف التاريـخ والتنكـر للانتماء القومي العربي الصريح لابناءهذه الطائفة ، واختلاق « القومية الدرزية » ، ومن ثم الى انتهاج سياسـة القمـع والملاحقة ٠ الا ان التاريخ الوطني لابناء هذه الطائفة في سوريا ولبنان ولكثير من ابنائها في فلسطين المحتلة ، وتلاحمهـا بالقومية العربية وتفاعلها مع الثـورة الفلسطينية في السنوات الاخيرة وخاصة في لبنان ، عرقل تمرير هذه المؤامـرة « وانشأ جيلا من الشبان المتمردين الذين وضحت لهم الرؤيـا وانكشفت الحقيقة » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٢٨) ٠

وكانت هذه المؤامرة قد بدأت بتكليـف العصابات الصهيونية ابان حرب عـام ١٩٤٨ ، اكبر المتعاونين معها من الزعماء الدروز ، وهو الشيخ صالح خنيفس مـن مدينة شفا عمرو ، للعمل على تجنيـد الدروز في الجليل وفي جيش الانقـاذ للقتال الى جانبها ٠وقد « استطـاع الشيخ صالح خنيفس هـذا ، ان يقنـع شكيب وهاب ، قائد الكتيبة الدرزية التي كانت تعمل في اطار جيش الانقاذ التابـع للجامعة العربية بقيادة فوزي القاوقجي ، بان يجري مباحثات مع قادة عصابـة الهاغاناه في عام ١٩٤٨ ، والوصول الى اتفاق مع موشي ديان ، تنسحب بموجبـه الكتيبة الدرزية وتحل نفسها ، وقبول كل من يريد الانضمام من جنودها الىالجيش الاسرائيلي » (هآرتس ، ١٩٧٨/٩/١٥)٠

ومنذ ذلك التاريخ و « حتى عام ١٩٥٦ ظل التطوع للجيش الاسرائيلي جزءاً طبيعيا من حياة الاكثرية للشباب الدروز فـي

اسرائيل » (المصدر نفسه) · ففي عام ١٩٥٦ « طلب الشيخ صالح خنيفس والشيخ ابو ركن من عسفيا وآخرون من دفيد بن ـ غوريون، رئيس الحكومة ووزير الدفاع آنذاك ، ان يطبق واجب الخدمة العسكرية الاجبارية على جميع ابناء الطائفة الدرزية » (المصدر نفسه) · وهكذا اعلن بن ـ غوريون انه قرر « الاستجابة » لذلك الطلب و« اصدر امرا عاما يقضي بفرض التجنيد الاجباري على كل الشبان الذكور بين الدروز ··· مما ادى بدوره الى وقوع خلاف داخل الطائفة بين معارضي التجنيد ومؤيديه » (صبري جريس · العرب في اسرائيل ص ٣٢٧)· الا ان معظم الشباب الدروز اضطروا للخدمة العسكرية الاجبارية دونمااعتراض اللهم الا من « بعض الذين عارضوا تجنيدهم وطلبوا تأجيلا او اعفاء بحجة انهم متدينون او انهم حيويون لاعالة عائلاتهم ··· اما الذين حاولوا ان يمثلوا دور المجانين كي يحصلوا على الاعفاء من الخدمة العسكرية الاجبارية ، فقد واجهوا صعوبات في حياتهم المدنية مما ادى الى زوال هذه الظاهرة ··· والاول الذيطرح اسبابا عقائدية ضد تجنيده ، كان الشاعر سميح القاسم ، الا انه اعتقل بعد ان تهرب لعدة اسابيع ، وجند حتى نهاية خدمته » (هآرتس ، ١٩٧٨/٩/١٥) · وهكذا ظل الوضع قائما حتى عام ١٩٦٧·

بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧ ، بدأت ظاهرة معارضة الشباب الدروز للخدمة الاجبارية تتسع اكثر فاكثر ، مما ادى الى قيام « لجنة المبادرة الدرزية » ، التي تأسست عام ١٩٧٢ ، كأول تنظيم سياسي لمقاومة التجنيد الاجباري » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٢٨) حيث التف حولها المئات من الشبان الدروز معلنين « اننا نرفض التجنيد في الجيش الاسرائيلي لاسباب قومية وسياسية وانسانية وضميرية » (المصدر نفسه) · مما حدا بالسلطات الاسرائيلية هذه المرة لاستعمال كل « اساليب الارهاب والاعتقالات والسجن بل وحتى البطش » (المصدر نفسه) ·

ففي « ليلة الخميس ١٩٧٨/٤/٢٩ ، شنت السلطات الاسرائيلية في منتصف الليل هجوما بوليسيا على قرانا » ـ كما ورد في المنشور الاحتجاجي الذي وزعته لجنة المبادرة الدرزية فرع قرية البقيعة ـ « واعتقلت العديد من شبابنا الرافضين للخدمة الاجبارية في الجيش » (الاتحاد، ١٩٧٨/٥/٢) · وفي نهاية هذا المنشور دعت لجنة المبادرة الدرزية السلطات الاسرائيلية الى « الغاء التجنيد الاجباري حالا وعدم المس بمشاعر الدروز القومية واطلاق المعتقلين فورا » (المصدر نفسه)·

الا ان السلطات الاسرائيلية استمرت في حملة المداهمات والاعتقالات هذه ، حيث بلغ مجموع من « سجنوا من قرية البقيعة وحدها ٤٠ شابا ، كان من بينهم الاستاذ الشاعر مهنا حسين مهنا الذي حكمتعليه المحكمة العسكرية في حيفا في ١٩٧٨/٦/٨ بالسجن لمدة سنتين ، وذلك بتهمة التهرب من الخدمة العسكرية في الاحتياط في الجيش الاسرائيلي ·· ولم يحسب في احصاء المسجونين هذا الا الذين سجنوا من الستة اشهر فما فوق » (الاتحاد ، ١٤ و ١٩٧٨/٦/١٥) · وقد بلغت هذه الحملة ذروتها في ١٩٧٨/٦/٢١ حيث « قامت قوات عديدة من الشرطة والجيش في ساعة متأخرة من الليل ، باوسع حملة اعتقالات ومطاردة في قرية دالية الكرمل بحثا عن عشرات الشبان الهاربين من الخدمة العسكرية الاجبارية

وداهم افراد الشرطة البيوت بصورة استفزازية مما اثار الرعب بين النساء والاطفال ، واعتقلوا حوالي ٢٠ شابا ، بينهم الكثيرون ممن لم يبلغوا الثامنة عشرة بعد ، ونقلوهم في سيارات الجيش الى مكتب التجنيد في حيفا ٠٠ بينما تمكن الكثيرون من الهرب » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٦/٢٣) ٠ ثم تلتها عدة مداهمات مماثلة في العديد من القرى الدرزية ، بحيث اصبح شهر حزيران « شهر ارهاب الدروز حيث شملت الهجمة الارهابية جميع القرى الدرزية كافة » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٤) ، مما دفع « لجنة المبادرة الدرزية » الى اصدار بيان الى الرأي العام تستنكر فيه حملة الارهاب البوليسية هذه ، وتستصرخ الرأي العام « لانقاذ ابناء هذه الطائفة العربية من الاضطهاد والظلم وسياسة التمييز العنصري التي تفرضها عليها السلطة بالاعتقالات والارهاب » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٤) ٠

ويؤكد هذا البيان « اصرار ابناء هذه الطائفة على رفض التجنيد وتمسكهم بعروبتهم رغم كل السياسة العنصريةالتي تنتهجها حكومات اسرائيل منذ ثلاثين عاما » (المصدر نفسه) ٠ كما ويستدل من البيان ان « عشرات الشبان الدروز يقبعون الان في السجون العسكرية ، ومنهم من حكم عليهم لمدد تتراوح بين سنة واحدة وسنتين » (المصدر نفسه) ٠ اما في ختام هذا البيان فقد جاء : « اننا نحذر المسؤولين من استمرار هذه السياسة الهوجاء ونقول لهم : ارفعوا ايديكم عن قرانا ٠ وكفوا عن مطاردة شبابنا ونهب اراضينا ٠ ان قرانا لن تبقى مزارع ومحطات تجارب لاجهزة الظلام وزبانيتها ٠ وان غرف نوم نسائنا واطفالنا لن تبقى اهدافا لغزوات مهووسيكم ٠ وان شيوخنا لن يبقوا رهائن في ايدي المعتدين على البيوت والحرمات ٠ وان شعور نسائنا لم تكن في الماضي ولن تكون في المستقبل العوبة للجر والشحشطة في ايدي مبعوثيكم المهاويس » (المصدر نفسه) ٠

ورغم كل هذه الاحتجاجات ، فان السلطات الاسرائيلية زادت من حملتها ومطاردتها للشباب الدروز الرافضين للخدمة الاجبارية ، بل وعمدت هذه المرة الى رفض اعفاء بعض رجال الدين من الخدمة العسكرية الاحتياطية ، ممن كانوا قد خدموا في الجيش الاسرائيلي قبل انخراطهم في الحياة الدينية ، رغم الشهادات التي يحملونها من الزعماء الروحيين التي تشهد على ذلك ٠ وكان من بين المعتقلين لهذا السبب « الشيخ مفيد ابو ايمن من قرية الرامة في ١٩٧٨/٦/٢٣ ، بحجة غيابه عن الخدمة الاجبارية في الاحتياط ، على الرغم من انه يحمل شهادة متدين ، ويعمل بموجبتعاليم الدين من ٨ سنوات ، اي منذ عام ١٩٧٠ » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٧) ٠ كما وبدأت هذه السلطات تمنع تأجيل الخدمة العسكرية عن شباب متدينين كانوا قد التحقوا بالجامعات » (هآرتس ، ١٥/٩/١٩٧٨) ، مما ادى الى « ادراج موضوع التجنيد الاجباري المفروض على العرب الدروز ، ولاول مرة ، على جدول اعمال الكنيست » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/١٨) ٠

فقد تقدم النائب الشيوعي توفيق طوبي باسم كتلة « الجبهة الديموقراطية للسلام والمساواة » باقتراح عادي لجدول اعمال الكنيست لبحث موضوع تجنيد الشبان العرب الدروز ٠ وجاء في اقتراح النائب طوبي : « ان حملة اصطياد الشبان الدروز ، وحملات الارهاب البوليسية التي

شنتها قوات الجيش والبوليس على ابناء الطائفة العربية الدرزية ، تثبت ان هناك ضرورة ملحة للاخذ بعين الاعتبار رفض الشبان الدروز خدمة سياسة الاحتلال والتمييز لاسباب تتعلق بالضمير · ولذلك فاننا نطالب بادراج هذا الموضوع على جدول اعمال الكنيست لالغاء التجنيد الاجباري المفروض على ابناء هذه الطائفة العربية وتحويله الى خدمة اختيارية » (المصدر نفسه) · كما تقدم النائبان توفيق طوبي وحنا مويس « بثلاثة استجوابات الى وزيري الداخلية والدفاع الاسرائيليين حول مطاردة الشباب الدروز ودخول الشرطة الى البيوت دون اوامر من المحكمة · ومعاملة سلطات السجن العسكري للشيخ مفيد ابو ايمن واهانته والمس بمشاعره الدينية ، اذ اجبروه ان يخلع لباسه الديني ولفته ووضعهما مع الحذاء في كيس واحد » (المصدر نفسه) ·

غير ان سلطات الجيش والبوليس امعنت في المقابل « في تكثيف حملتها وتوسيعها ، حيث قامت « على مدار عشرة ايام متواصلة بحملات اعتقال وارهاب موسعة ومركزة في القرى العربية الدرزية لاكراه مئات الشبان من رافضي التجنيد الاجباري على الخدمة » ، وتجري هذه الحملات الارهابية في «ساعات الليل المتأخرة في جو من الاستفزاز والتخويف في الشوارع العامة وداخل البيوت، وكذلك باطلاق الشتائم واستعمال الضرب » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٣٠) ·

مما دفع النائب طوبي لان يتقدم « بطلب مستعجل الى رئاسة الكنيست لتدرج على جدول اعمالها موضوع هذه الاعتداءات (المصدر نفسه) · كما واثارت هذه الحملات « موجات عارمة من السخط والاستنكار بين ابناء الطائفة الدرزية » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٢٨) · واعلن عشرات الشباب الدروز على اثرها انهم « توجهوا الى المحكمة الشرعية مطالبين بتسجيلهم كعرب مسلمين للتخلص من التجنيد » (المصدر نفسه) · اذ ان السلطات الاسرائيلية كانت قد اعلنت في عام ١٩٥٧ اعترافها بالدروز « كطائفة دينية مستقلة » (الوقائع الاسرائيلية ، مجموعة الانظمة ٢٩٥ ، ١٩٥٧/٤/٢١ ، ص ١٢٨٠) ومن ثم تسجيل كلمة «درزي» بدلا من « عربي » فيبند « القومية » في بطاقات الهوية الاسرائيلية وباقي المستندات الرسمية · وفي مقابلة مع الشاب الدرزي صالح سلمان ، احد الرافضين للتجنيد الاجباري كانت قد اجرتها معه جريدة «عل همشمار» المبامية في ١٩٧٨/٧/٢١ في معرض التحقيق الصحافي الذي اجرته في ملحقها الاسبوعي عن شبان قرية يركا الدرزية الذين طالبوا بتسجيلهم « مسلمون » في وزارة الداخلية ، قال صالح سلمان : « انا عربي فلسطيني قوميا ، ومسلم انتمي الى المذهب الدرزي دينيا » وكعربي مسلم ، فانني لست على استعداد ان احمل السلاح واقاتل ابناء شعبي العرب الذين خلف الحدود ، وكذلك فانني لست علىاستعداد ان انفذ الاوامر لضرب ابناء شعبي داخل الحدود ، كما حدث في يوم الارض وفي مجد الكروم » (عل همشمار ، حوتام ، ١٩٧٨/٧/٢١ · والاتحاد، ١٩٧٨/٧/٢٨)·

واضاف صالح سلمان : « الدروز في نظري هم مذهب من مذاهب الاسلام ، وما فعلته جاء ليؤكد هذه النظرية وليضع حدا لمحاولات طمس هويتهم كمسلمين وعرب·· والدوافع قومية وضميرية وذاتية ولاتراجع عن هذا القرار ، ولا يستطيع احد غيري

ان يقرر ان كنت عربيا ام لا · انني انتمي الى عائلة متدينة وكان بامكاني ان احصل على اعفاء من الخدمة لاسباب دينية » (المصدر نفسه) ·

وقد اقامت هذه الظاهرة السلطات الاسرائيلية واقعدتها ، الى حد ان وزير الدفاع عيزر وايزمان ، سارع واعلن ان « الشباب الدروز الذين يعلنون اسلامهم لن يعفوا من الخدمة الاجبارية » (الاتحاد، ١٩٧٨/٧/٢٨) · كما و « تناولت الصحف الاسرائيلية خبر لجوء الشبان الدروز الى الاسلام ، بكثير من الاهتمام لانها تعتبرها ظاهرة خطيرة » (المصدر نفسه) · وخاصة بعد ان تقدم الطالب الجامعي كمال محمد كيوف بالتماس الى محكمة العدل العليا يطلب فيه « اقرارا معلنا يقضي بانه استنادا الى انتمائه القومي ، هو عربي ، وانه معدود على الطائفة الدرزية من الناحية الدينية فقط . والتي هي دين فقط وليست قومية ·· واستنادا الى ذلك فانه يطالب بان يسجل في بند القومية في بطاقة هويته : عربي » (هآرتس ، ١٩٧٨/٩/١٥) · الا ان محكمة العدل العليا قررت بان «ليس لديها الصلاحية للبحث في هذه المسألة ، وانما الصلاحية معطاة للمحكمة المركزية في حيفا » (المصدر نفسه) ، حيث عارضت نيابة القضاء العامة للمحكمة المركزية الطلب بدورها بحجة ان « الدروز هم ذوو قومية منفردة من ناحية الارتباط الاقليمي ومن الناحية الحضارية والطائفية » · (المصدر نفسه) ·

اما « لجنة المبادرة الدرزية » فقد صعدت في المقابل من تصديها لحملات الارهاب هذه ومن مقاومتها للتجنيد الاجباري ، حيث قامت بحملة واسعة « لجمع التواقيع على عريضة من ١٨ قرية درزية في الجليل وفي جبل الكرمل تطالب فيها السلطات الاسرائيلية بالغاء التجنيد الالزامي » (دافار ، ١٩٧٨/٩/١٠) ·

كما وعقدت اللجنة « مؤتمرا صحافيا في ١٩٧٨/٨/٢٩ في بيت سوكولوف في تل ابيب ، حضره مجموعة من مراسلي الصحف المحلية والاذاعة والتلفزيون ومراسلي الوكالات الاجنبية ووكالة عيتيم الاسرائيلية ، طرح ممثلو لجنة المبادرة الدرزية ، الشيخ فرهود قاسم فرهود – رئيس اللجنة – والشاعر سميح القاسم والسيدان حاتم حلبي وجهاد سعد اعضاء لجنة المبادرة ، جميع قضايا الطائفة العربية الدرزية ، وفي مقدمتها التجنيد الاجباري » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٩/١) ، حيث قال الشاعر سميح القاسم ان « الاكثرية الساحقة من شبابنا ترفض التجنيد والذي يطبق باساليب تركية تماما · والدليل على ذلك كبسات البوليس الليلية على عشرات البيوت في قرانا وتعرضه للاهلين بالضرب والاهانات ، ومئات الفرارية ، والمساجين بشكل دائم » (المصدر نفسه) · وردا على سؤال وكالة عيتيم الاسرائيلية : « كيف نعرف ان ما تقولونه صحيح وليس انجرارا وراء هيئات سياسية ضد الدولة ؟ » اجاب سميح القاسم رافعا رزمة كبيرة من العرائض التي وقعها ابناء الطائفة من معارضي التجنيد مشيرا الى مضمونها : « لدينا حقائق وباستطاعتك ان تأخذ ذلك وان تتحقق مما نقول ، وامامك قرانا العربية ، يمكنك زيارتها والتحقق من ذلك ·· اننا نمثل الالاف من ابناء طائفتنا» (المصدر نفسه)·

وهنا اردف حاتم الحلبي : « لدينا ٧ آلاف توقيع » (المصدر نفسه) · وفي نهاية المؤتمر توجه اعضاء لجنة المبادرة الدرزية الى الصحافيين ، طالبين اليهم ايصال

مطالب الطائفة العربية الدرزية في فلسطين المحتلة الى صحفهم وعلى رأسها « الغاء التجنيد الاجباري على شبابنا ، وعدم التدخل في شؤوننا الدينية واعيادنا» (المصدر نفسه) • واعدة على مواصلة الكفاح من أجل ذلك • الا ان معظم الصحف ووكالات الانباء الاسرائيلية والاجنبية كانت قد انتهجت سياسة التعتيم الاعلامي على هذا المؤتمر تمشيا مع سياسة الحكومة الاسرائيلية حيال هذا الموضوع الذي تعتبره من اخطر القضايا التي تواجهها مع الجماهير العربية داخل الارض المحتلة •

وفي يوم ١٩٧٨/٩/٩ ، عقدت لجنة المبادرة الدرزية مؤتمرها القطري الاول في مدينة شفا عمرو ، حيث خرج المؤتمر بعدة قرارات تتلخص في « تعزيز اللجنة وتقويتها وتشديد الكفاح من اجل تحقيق اهدافها ومطالبها العادلة ، وهي الغاء التجنيد الاجباري والكف عن التدخل في شؤون الطائفة الدينية والقومية والمساواة التامة بدون اي تمييز او تفرقة والاشتراك الفعال في جميع معارك شعبنا العربي » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٩/١٥) •

ت • ف

ب ـ ١٩٦٧

منذ مطلع العام الجديد ، وعلى اثر المؤتمرات الشعبية العديدة خلال الربع الاخير من العام الماضي ، ومع ارتفاع وتيرة شهوة التوسع الاسرائيلي المصاحب لمشروع الادارة الذاتية ، والمناطق العربية المحتلة تشهد بين الفينة والاخرى تفجر مظاهرات واضرابات وطنية في هذه المدينة او تلك ، غدت مع حلول شهر شباط ظاهرة يومية في مدينتي رام الله وحلحول ، وعادية تحدث في اوقات متقاربة في سائر مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية • والمنظر المألوف في هذه المظاهرات : حواجز يقيمها المتظاهرون في الطرق ، ودواليب مشتعلة ، واعلام فلسطينية مرفوعة ، وهتافات تشجب الاحتلال والاستيطان ومصادرة الاراضي وهدم البيوت ومشروع الادارة الذاتية ، وتشيد بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ، وقوات احتلال تصطدم بوحشية مع المتظاهرين وتلقي القبض على العديد منهم ، ووقوع اصابات •

لم يسبق للمناطق المحتلة ان شهدت فترة ، تفتحت فيها شهوة التوسع الاسرائيلي ، كالفترة التي اعقبت اتفاقيتي كامب ديفيد اللتين تضمنتا موافقة رسمية من جانب اكبر دولة عربية على المشروع الاسرائيلي القديم ، مشروع الادارة الذاتية • ففي هذه الفترة استولت سلطات الاحتلال على عشرات الالاف من الدونمات، واقرت مشروعا لتدعيم المستوطنات القائمة الى جانب العمل لاقامة مستوطنات جديدة• ولعل ابلغ مؤشر على تفتح شهوة التوسع هذه ، التوصيات التي خرجت بها لجنة المدراء العامين برئاسة مدير مكتب رئيس الحكومة ، والداعية للاستيلاء على مليون دونم من اراضي الضفة الغربية خلال فترة الاعوام الخمس القادمة ، ووضعها تحت « الوصاية الاسرائيلية » ، والاستيلاء «الدائم » على مصادر المياه الجوفية في

الضفة الغربية ، بحجة الحفاظ على ... عذوبة المياه الاسرائيلية ! ٠

اخذ التوسع الاسرائيلي مؤخرا اشكالا عـدة :

١ـ « التكثيف » الاستيطاني : ظهـــر اصطلاح « التكثيف » نتيجة تزايـــــد الضغوطات الدولية ضد تكاثر النقـــاط الاستيطانية ، وخاصة ابان ارتفاع حرارة الحديث حول التسوية ، وذلك رغبة مـــن سلطات الاحتلال في تقليص الضغوطات ، ودعم الاستيطان القائم في الان نفســه ٠ والحقيقة ان الاستيطان الاسرائيلي فـــي المناطق المحتلة ، المتمثــل بوجــود ٩٥ مستوطنة و ١٥ الف مستوطن، ليس بحاجة اليوم الى زيادة في عدد المستوطنات بقدر ما هو بحاجة الى زيادة في حجمها ٠ ومن هنا فان سياسة التكثيف ، اخذا بعيـــن الاعتبار واقع المستوطنات الصغيـــرة المتناثرة ، تشكل خطورة اكبر على طابــع ومستقبل المناطق العربية المحتلة٠ وانطلاقا من ذلك صادقت لجنة المالية التابعـــة للكنيست في السابع عشر من كانـــون الثاني الماضي ، على ميزانية لتكثيـــف الاستيطان في المناطق المحتلة ـ باستثناء سيناء ـ وشق طريق جديدة في الضفـــة الغربية ، بمبلغ ٧٤٠ر٨ مليـون ليـرة ٠ وتوزع المبلغ على المناطق المختلفة كالتالي:

المنطقة	وحدة سكنية	مليون ليرة
الهضبة السورية	١١٢	٠ر٧٧
غور الاردن	٨٦	٢ر٥٨
غوش عتسيون	٢٢	٤ر١٤
منطقة نابلس	١٥٠ +	٠ر٥٢١
قطاع غزة	٢٠	٠ر١٠
شق طريق في الضفة	ــــ	٠ر٦٠

ومن الملاحظ ان منطقة نابلس هي اكثر المناطق العربية المتضررة من سياســـة التكثيف الاستيطاني ، اذ خصص لها اكثر من نصف مليار ليرة ٠ ومن الجديـــــر بالذكر ان المؤسسات الاستيطانية الاخرى ـ غير الحكومية ـ تساهم هي الاخرى في سياسة التكثيف ، بمشاريع وميزانيـــات خاصة بها ٠ فالهستدروت الصهيونية مثلا خصصت لكل مستوطنة، لهذا العام ، مبلغ ٥٠ مليون ليرة ، وكذلك قررت اقامة مئـة وحدة سكنية في كريات اربع ٠

٢ـ اقامة مستوطنات جديدة : الى جانب التكثيف ، تعمل سلطات الاحتلال جاهـدة لاقامة مستوطنات جديدة ٠ وقد اعلنت منذ مطلع شهر شباط عن اقامة مستوطنـــة جديدة تحمل اسم « ناحال ناعمه » ، تقع على بعد كيلومتر واحد من العوجة ٠ ومن المقرر اقامة مستوطنة ثانية في المنطقـــة الشمالية من غور الاردن ، وثالثة فـــي قطاع غزة ٠

ومما تجدر الاشارة اليه ان حركة جوش ايمونيم الاستيطانية ، تمكنت خلال الجـزء الاول من كانون الثاني ، عقب سلسلة من المسيرات الاستيطانية في الضفة الغربية ، من دفع سلطات الاحتلال للموافقة عـــلى اقامة مستوطنة بالقرب من مدينة نابلس ، تكون بمثابة كريات اربع ثانية ، بهـــدف البدء في تهويد المنطقة ٠ وتم الاتفاق بين غوش ايمونيم والحكومة على اشـــادة المستوطنة في جبل هواره الى الشرق مـن المدينة ٠

وفيما يتعلق بمدينة القدس العربيـــة التي اصبحت محاطة بسوار من الاستيطان اليهودي ، اخذت انظار المستوطنين ، عقب اخلاء السكان العرب من « الحي اليهودي» في البلدة القديمة ، تصبو نحو مزيد مـن

التوسع داخل المدينة · فعند مطلع هـــذا العام قامت مجموعة من تلامذة مدرســة دينية بعملية استيطانية « في قلب الحـي الاسلامي في البلدة القديمة » كما بشـرت بذلك الصحف الاسرائيلية ·

٣ـ مصادرة الاراضي وهدم البيـوت :
انطلاقا من سياسة التكثيف ، واقامة معالم جديدة على انقاض معالم قديمة ، استولت سلطات الاحتلال وصادرت مؤخرا عشرات الالاف من الدونمات العربية ، وهدمـت بعض البيوت · فعند اواسط كانون الاول استولت على مئتي دونم من اراضي مدينة الخليل تقع الى الشمال الشرقي منهـــا ، وقامت بتسييجها · ويوجد في هذه المنطقة المسيجة ٢٨ منزلا مرشحا للهدم في حـال تثبيت المصادرة · وفي الوقت نفســـه صادرت مساحة واسعة من اراضي بلـدة ساجور تقدر بـ ١٢٤٠ دونما ، اعادت بعد مدة ٢٤٠ دونما الى الاهالـي عقـب المظاهرات الاحتجاجية التي اعقبـــت المصادرة ، في محاولة منها لتقليص حدة الاستياء الشعبي ·

كما واستولت ايضا على ٣٠٠٠ دونـم اراضي قريتي خزما وجبع الواقعتيـــن بالقرب من القدس · وقد رفض حوالـي مئتي مزارع عربي وجهت لهم سلطــات الاحتلال عند اواخر كانون الثاني رسائل لتلقي تعويضات عن اراضيهم ، الاستجابة لطلب سلطات الاحتلال، وطالبوا باستعادة اراضيهم ·

ومع بداية هذا العام فوجيء ســكان قرية ابو دبس العربية القريبة من القـدس بجرارات تقوم بتمهيد اراضيهم البالغــة حوالي ١٥ الف دونم وقسم منها مزروع · وازاء ذلك توجه الاهالي الى مقر الحاكـم العسكري في بيت لحم يشـكون اليــه الجرارات الغريبة واستيضاح امرهـا · وحظوا هناك بمفاجأة لا تقل عن مفاجـأة الجرارات الزائرة · فقد ابلغهم جهــاز الحكم العسكري بعد ان اتصل بـــوزارة الدفاع انه كان قد صدر قبل خمسة اعوام امر بمصادرة اراضيهم ، ويمكن لهـم الوقوف على هذا الامر في ملفـات وزارة الدفاع ، ولذا فان شكواهم لا محل لها · وامام هاتين المفاجأتين ، وعلى الرغـم منهما، بقيت الجرارات الاسرائيلية تواصل عملها لخلق معالم جديدة بهدف تهويـد المنطقة · وقد اكدت وزارة الدفاع فـي الصحافة الاسرائيلية ، ان الجرارات تعمل لتمهيد الارض لاقامة مستوطنة مدنيـــة ثالثة في المنطقة لتشكل مع مستوطنتـي « معاليه ادوميم » و « متسبيه يريحـو » والمنطقة الصناعية في الخان الاحمر ، كتلة استيطانية يهودية الى الشرق من القـدس العربية ·

الى جانب ذلك تعرضت قرية ابو دبس عند اواخر شهر كانون الثاني لعمليـــة تطويق واقتحام وحشية من قبل الجيـش الاسرائيلي بحثا عن فدائيين محتملين في القرية ، على اثر عملية محنيه يهــودا الاخيرة · واستمرت عملية البحث اياما عدة ، مصاحبة بفرض حظــر التجـول واعتداء على السكان وهدم بعض المنازل·

لم تقتصر زيارة الجرارات على قريـة ابو ديس لوحدها ، بل « حظيت » بهـــا ايضا قرية ياسوف الواقعة الى الجنوب من مدينة نابلس ، حين فوجيء الاهالي خـلال الجزء الاول من كانون الثاني بجـرارات تقوم بتمهيد اراض تخص اهالي القرية · ومن الجدير بالذكر ان الجرارات ذاتهـا كانت قد زارت القرية قبل بضع سـنوات عقب مصادرة سلطات الاحتلال مئتي دونم من اراضي القرية « لاغراض عسكرية » ، ومهدت حينذاك الارض لاقامة مسـتوطنة

« تبوح » • ولم يجد السكان امامهم ، حيال الزيارة الجديدة ، الا الاحتجاج ضد التوسع الجديد لمستوطني « تبوح » على حساب المزيد من اراضيهم •

٤ـ **الاستمرار في نهب بترول سيناء :** الى جانب الاجراءات الاستيطانية وما يستتبعها من مصادرة للاراضي العربية ، تستمر سلطات الاحتلال في نهب البترول من الاراضي المصرية المحتلة ، وذلك بحفر المزيد من ابار التنقيب • ويصل الانتاج اليومي من ابار الطور التي تحمل اسم « علما » الى ٢٢ الف برميل • ويقدر الخبراء الاسرائيليون ان الانتاج اليومي المستخرج من الاراضي المصرية سيرتفع في عام ١٩٨٠ الى مئة الف برميل بقيمة ٢ر١ مليون دولار • ويقدر مخزون البترول في منطقة الطور بـ ١٥٠ مليون برميل • وقد اخذ مؤخرا اصحاب الامتيازات في الشركات الاجنبية يضغطون على بيغن ، حسب المصادر الاسرائيلية ، لدفعه الى عدم التنازل عن الابار ، وابقائها تحت الاشراف الاسرائيلي ، بحجة ان التنازل سيؤدي الى «انتحار اقتصادي وعسكري» •

التوسع في الحرم الابراهيمي تمهيدا للاستيلاء عليه

يعتبر الحرم الابراهيمي مسجدا اسلاميا منذ ١٣٠٠ عام ونيف • وبعد سقوط الضفة الغربية عام ١٩٦٧ ، دخل الحاخام الرئيسي جورين المسجد ووضع في احد اقسامه توراة ، اصبح فيما بعد وعقب قيام مستوطنة كريات اربع بمثابة كنيس للمستوطنين • وعلى الرغم من احتجاج العرب في ذلك الوقت ، وتحريم الشرع اليهودي على اليهود من تأدية الصلاة في مقبرة الحرم الذي يضم مقابر لشخصيات تاريخية مثل ابراهيمواسحاق• على الرغم من ذلك ، فان وزير الدفاع موشيه ديان في ذلك الحين احدث نوعا من الترتيبات تمكن اليهود من تأدية الصلاة داخل المسجد في اوقات معينة وفي جزء معين •

وعند مطلع سبتمبر ١٩٧٢ . واثناء الاستعداد لاداء فريضة صلاة يوم الجمعة، قامت مجموعة يهودية باحتلال المسجد ، وعاثت بداخله فسادا ، ومزقت كتبا مقدسة اسلامية ، وذلك بغرض احداث تغييرات جديدة على الترتيبات السابقة • وعلى الرغم من ان قوات الامن قامت باعتقال هؤلاء ، الا ان سلطات الاحتلال حققت غرضهم ، وقامت بتقسيم المسجد الى قسمين ، قسم مخصص لليهود واخر للعرب ، مع تحديد اوقات للصلاة • وقد اخذ المستوطنون بعد ذلك ، ومن اجل الحصول على ترتيبات اخرى افضل يقومون بين الحين والاخر بالاعتداء على المصلين العرب بالشتم او الضرب وباتلاف نسخ من القرآن ووضعها في مراحيض المسجد ، وذلك بهدف احداث ضجة تتمخض عنها تغييرات اخرى في الترتيبات تؤدي الى التوسع اليهودي داخل المسجد •

وعند اواخر العام الماضي افتعل المستوطنون المصلون ضجة • ففي ٣٠ كانون اول الماضي ، واثناء قيام فريق من مستوطني كريات اربع باداء شعائر الصلاة في القسم المخصص لليهود داخل الحرم الابراهيمي ، توسع قرابة ٣٠٠ مصلي يهودي واحتلوا المكان المخصص للعرب داخل المسجد ، وعندما تحرك الجنود لمنعهم من ذلك ، قاموا بـ « ضرب الجنود.

ودفعوهم ، وركلوهم بأقدامهم ، وبصقوا عليهم وشتموهم بأقذع الشتائم، وناشدوهم بعدم اطاعة الاوامر » وفق ما ذكر عضو الكنيست يوسف سريد في الكنيست استنادا الى شهادة ضابطين (دافار ٤/١/٧٩) ٠

وفي اعقاب هذا الحادث المفتعل ، بأيام معدودة ، جرى لقاء في كريات اربع بين وزير الدفاع عيزر فايتسمان وجمع من سكان المتوطنة بزعامة الحاخام موشيه لفنجر ، اعلن خلاله فايتسمان بأنه لن يسمح ثانية بالتعرض لجنود الجيش الاسرائيلي كما حدث داخل الحرم الابراهيمي ٠ وبعد ان تبادل الهدايا مع ممثلي المستوطنة ، ركز المستوطنون على القول بأنه قد حدثت منذ ١٩٦٧ تغييرات عدة في ترتيبات الصلاة في الحرم الابراهيمي » والان ، وحيال **الزيادة الكبيرة التي طرات في عدد المصلين اليهود ، فان المطلوب اجراء تغيير من هذا النوع** » (هآرتس ٥/١/٦٩) ٠

وبعد هذه المقابلة ، والحادث المفتعل ، نشط الحاخام لفنجر مع المستوطنين في الدعوة للسيطرة على الحرم الابراهيمي ، وربط الحاخام لفنجر في تصريحاته بين مسألة « توسيع حدود اسرائيل » بـ « حق اليهود في الصلاة في الحرم الابراهيمي »٠

وفي التاسع عشر من كانون الثاني ادخلت سلطات الاحتلال تغييرات على الترتيبات السابقة لصالح التوسع اليهودي الصهيوني في المسجد ، يحق لليهود فيهما تأدية فرائض الصلاة في القسم المخصص للعرب ، شرط أن ينتهي ذلك قبيل رفع الاذان الى الصلاة بنصف ساعة ! ٠

وفي ٢٠ كانون الثاني جرى تنفيذ « التسوية » الجديدة في الحرم الابراهيمي بحضور قائد الضفة الغربية ثات الوف بنيامين بن اليعيزر وسط تدابير امنية مشددة ، ادى خلالها قرابة ٥٠٠ مستوطن من كريات اربع شعائرهم الدينية ٠

وازاء هذا الهوس التوسعي الذي يشكل حلقة في سياسة التهويد ، لم يبق امام العرب الا الاحتجاج ٠ وفي الثاني من شباط تحركت وفود شعبية اسلامية ومسيحية من جميع ارجاء فلسطين المحتلة، وأمت مدينة الخليل لاداء الصلاة في المسجد والتظاهر وسط المدينة ٠ بيد ان سلطات الاحتلال وضعت عراقيل امام رؤساء البلديات وحالت دون وصولهم الى المدينة ٠ والقى رئيس بلدية الخليل فهد قواسمه كلمة في الوفود التي تمكنت من الوصول ، شجب فيها اعمال التهويد وانتهاك المقدسات الاسلامية والمسيحية ، ووصف التوسع داخل الحرم بأنه جزء لا يتجزأ من اعمال التهويد ٠

بيان الهيئة الاسلامية

في اوائل شباط الماضي ، وعقب التوسع الصهيوني الجديد داخل الحرم الابراهيمي، الذي جاء على شكل « تسوية » جديدة بناء على تعليمات وزير الدفاع عيزر فايتسمان ، اصدرت الهيئة الاسلامية العليا في القدس بيانا للرأي العام العربي والعالمي ، جاء فيه :

« منذ احتلال الضفة الغربية في حزيران عام ١٩٦٧ والاعتداءات تتوالى على الحرم الابراهيمي الشريف. وقد ابتدات هذه الاعتداءات بالتسييج ثم تطورت لتأخذ شكل الاستيلاء على بعض الاجزاء ، الى ادخال اثاث مثل طاولات وخزائن وكتب دينية ، الى استيلاء على قبر يعقوب وصحة ألحرم ٠٠٠ ثم في كل يوم صلوات

وممارسات جديدة ورقص ونفخ في الابواق ، وتشويش على المصلين المسلمين والاستيلاء على ابواب الحرم الابراهيمي. ومنع السدنة والموظفين من دخول الحرم . ومنع المؤذن من رفع الاذان في موعده ، ثم تطور الاعتداء ليشمل القرآن الكريم وتمزيقه وبعثرته » .

وبعد ان تطرق البيان الى الاعمال الاستفزازية التي درجت على القيام بها جماعات من مستوطني كريات اربع ، مثل احراق غرفة رئيس السدنة واتلاف الكتب الدينية وسرقة اثاث من المسجد ، ناشد البيان « اصحاب الضمائر وانصار الحقائق في كل مكان » بالقول « ... ان هذه الترتيبات هي اعتداءات جديدة على الحرم تؤدي الى تحويل الحرم الى كنيس يهودي بما تحويه الكلمة من معنى . ان الهيئة الاسلامية العليا اذ تعلن عن رفضها لاية حقوق او ادعاءات لغير المسلمين في الحرم الابراهيمي الشريف تؤكد ما اعلنته مرارا ان هذا المسجد هو مسجد اسلامي. وهي لا توافق ، ولا تملك ان توافق على التفريط في هذا المسجد الاسلامي العظيم. وهي اذ تستصرخ كل عاقل وصاحب ضمير حي التدخل لحماية هذا المسجد ومنع غير المسلمين من التدخل فيه او في شؤونه او ممارسة اية طقوس دينية » .

عبد الحفيظ محارب

قضايا دولية

ثورة ايران والصراع العربي الاسرائيلي

اذا كانت الثورة الايرانية الشعبية قد تقدمت على احداث الصراع العربي — الاسرائيلي من حيث قوة الاندفاع واتساع الاثار والاهتمام العالمي خلال الشهور السابقة ، فانها في الشهر المنقضي (كانون الثاني — يناير) قد صحبت معها قضية الصراع العربي — الاسرائيلي الى دائرة الضوء .

فلم يسبق منذ انطلاق هذه الثورة الشعبية في بدايات عام ١٩٧٨ ان ارتبطت الى مثل هذا الحد الوثيق الذي ارتبطت به بالصراع العربي — الاسرائيلي خلال احداث الشهر المنقضي .

تم ذلك بالتحديد من خلال عدة زوايا :

☐ اولا — وضوح تأثيرات الثورة الايرانية على مسار الصراع العربي — الاسرائيلي في اكثر من جانب . اهمها التأثير الواضح المتبادل بينها وبين الثورة الفلسطينية ، ومنها تأثير هذا التأييد المتبادل وتأثير توجهات الثورة الايرانية في حد ذاتها على مسار محاولات « السلام » الاميركية بين النظام الحاكم في مصر والعدو الاسرائيلي . فقد اصبح من الواضح ، من تصريحات الاطراف ومواقفها ، ان للثورة الايرانية تأثيرات كابحة لجموح كل من هذه الاطراف — ومن زوايا مختلفة — نحو «الصلح» فيما يسمى عملية السلام . وصار من الواضح ان الفصل الذي تم في « كامب ديفيد » لا يجد

تتمته لاسباب من بينها تاثيرات احداث ثورة ايران ·

كذلك وضوح هذه التاثيرات على مواقف وبيانات الاطراف العربية ذات الادوار غير المباشرة في « عملية السلام » وفي اتفاقات « كامب ديفيد » · وبمعنى اوضح انعكاسات احداث ايران على مواقف دول عربية مثل السعودية والاردن وبلدان الخليج العربي ، وتعتمد نظرتها الى دور الولايات المتحدة وقدراتها كحليف ، والى الاحتمالات التي يمكن ان يسفر عنها السير على الطريق الاميركية التي سار فيها شاه ايران من قبل ·

□ ثانيا ـ محاولة العدو الاسرائيلي خلق مشكلة جانبية للثورة الايرانية عن طريق اثارة ما اسماه بمشكلة اليهود الايرانيين (حوالي ٦٠ـ٨٠ الف يهودي) والحديث عن اخطار تتهددهم وعن دور ينتظر من اسرائيل ان تقوم به بهدف « انقاذهم » ، فضلا عن توجيه الاتهامات لقيادات الثورة الايرانية بالعداء للسامية· ومن خلال هذا بروز خلافات داخل الكيان الصهيوني في شأن السياسة الاسرائيلية تجاه احداث ايران وتجاه اليهود الايرانيين ·

□ ثالثا ـ تاثيرات الثورة الايرانية على دور النفط الايراني خاصة بالنسبة لاسرائيل ، وهو ما انعكس على المحادثات المصرية ـ الاسرائيلية قبل غيرها ، وادخل النفط عنصرا من عناصر التأثير المباشر على الموقف الاسرائيلي بوجه خاص ، بعدما اصبح واضحا منذ الان ان نفط ايران لن يتجه الى اسرائيل بعد رحيل الشاه ، وحتى قبل انهيار حكومة شاهبور بختيار ·

□ رابعا ـ تاثيرات الثورة الايرانية على اوضاع النظم المحيطة ، حيث باتت تشكل نموذجا تخشى منه تلك النظم ، وتتطلع اليه الشعوب والقوى الثورية فيها كعامل ملهم ومشجع لها · وفي المرحلة الراهنة فانه من الواضح ان خشية النظم المحافظة والرجعية في المنطقة ، وخاصة التي ارتبطت استراتيجيا وسياسيا واقتصاديا بالولايات المتحدة الاميركية ، من نموذج الثورة الايرانية هي اقوى بكثير من الاستجابة العفوية للجماهير والقوى السياسية في المنطقة التي شجعتها هذه الثورة · وهذا يؤكد ان ردات الفعل الخائفة قد ظهرت سريعا في سلوك النظم، في حين ان التفاعلات الجماهيرية في المنطقة تحتاج لوقت حتى تعطي نتائجها ·

ولعل تصريح رئيس النظام المصري انور السادات (٢/١) يعطي نموذجا لمخاوف النظم اكثر « صراحة » من غيره ·
فقد اعلن السادات (في حديث الى كوادر حزب السلطة ـ الحزب الوطني الديمقراطي) انه يعارض بشدة تسييس الاسلام في مصر قائلا : « انني ضد تدخل الدين في السياسة ··· من يريد ان يتعبد فدور العبادة امامه ، ومن يريد ان يمارس السياسة فالقنوات الشرعية للاحزاب امامه » · وحذر السادات من استغلال الدين ومن « احتمال ظهور آيات الله مصريين » ·

ويعكس هذا التصريح رؤية احادية الجانب للثورة الايرانية هي رؤية لطابعها الديني وحده دون السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، كما يعكس تصورا مبسطا بأن الثورة الايرانية لا تعدو ان تكون آية الله الخميني رجل الدين ·

اما رد الفعل السعودي ـ مثلا ـ فقد جاء اكثر تعبيرا عن الطابع اللاانفعالي الذي تتسم به السياسة السعودية عامة ،

على الرغم من ان السعودية ليست اقل انزعاجا بأحداث ايران من النظام المصري ، وهو ما دل عليه اسراع الولايات المتحدة الى ارسال سرب من طائرات ف-١٥ التابعة للسلاح الجوي الاميركي الى السعودية « بناء على طلبها » و « لتأكيد اهتمام الولايات المتحدة بأمن المملكة » ·

وفي تصريح من طراز مغاير لطراز تصريح السادات قال الامير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي في حديث لصحيفة « السياسة » الكويتية (٥/٢) انه ليست للسعودية سياسة معينة تجاه التغييرات التي تحدث في ايران طالما ان هذه التغييرات لا تحدث بفعل تدخل خارجي · واعرب الفيصل عن اعتقاده بأن « التغييرات التي تحدث حاليا في ايران طبيعية جدا اذا كانت انعكاسات لمطالب الايرانيين انفسهم ··· لكننا نعترض فقط عندما تكون هناك متغيرات تحدث تدخلا خارجيا قد يقلب موازين القوى في المنطقة » ·

☐ تأثيرات الوضع الداخلي في ايران ذاتها · فحتى نهاية الاسبوع الاول من شباط (فبراير) كانت قوى الثورة تتقدم نحو مواقع اكثر تأكيدا لانتصارها ، والقوى القديمة تتراجع نحو مواقع يصعب معها تصور امكانية عودتها الى ادوارها القديمة · ومع ذلك فان الصراع بين الطرفين مستمر · القوى الثورية لم تقتنع بما حققته من اهداف ، والقوى القديمة لم تستسلم نهائيا وتحاول ان تناور للاحتفاظ بما تستطيع الاحتفاظ به ، او انقاذ ما يمكن انقاذه ·

وهكذا فانه حتى بداية الاسبوع الثاني من شباط (فبراير) كانت التطورات قد انتهت الى : (١) رحيل الشاه عن ايران (١/١٦) في اكبر انتصار حققته الحركة الجماهيرية الايرانية بضغطها المتواصل على النظام الامبراطوري، (٢) عودة الامام آية الله الخميني زعيم الحركة الجماهيرية الى طهران (٢/١) بعد ١٥ عاما قضاها في المنفى ، (٣) نشوء ازدواجية في السلطة بين القديم ممثلا في حكومة شاهبور بختيار والجديد ممثلا في « الحكومة المؤقتة » التي اعلنها الخميني وكلف الزعيم المعارض مهدي بازركان بتشكيلها (٥/٢) ·

وفيما يتمسك بختيار بـ « شرعية » حكومته في مواجهة المد الجماهيري المؤيد للخميني يبدو ان للجيش الايراني دورا لم تتحدد معالمه بعد في محاولة حسم هذا الصراع ·

ومن الطبيعي ان القوى الخارجية ترقب هذه التطورات الخارجية باهتمام شديد ، وخاصة البلدان القريبة من ايران جغرافيا وهي نفسها البلدان الداخلة بطريقة مباشرة او غير مباشرة في الصراع العربي ـ الاسرائيلي · وفي هذا الاطار يأتي تصريح زعيم المعارضة الاسرائيلي شمعون بيريز الذي وصف (٥/٢) نجاح آية الله الخميني بأنه سيكون من بين اخطر التطورات التي يتعين على اسرائيل مواجهتها · واعرب بيريز عن اعتقاده بأن الخميني ربما يكون قد قام بدور حاسم في التقارب السوري ـ العراقي ·

كما يقع في هذا الاطار ما نقلته وكالة الصحافة الفرنسية (٥/٢) عن خبراء اسرائيليين في الشؤون العربية والاسلامية من ان القلق الناجم عن التطورات الايرانية يتطلب للتغلب عليه اقامة « محور استقرار مع مصر » ، وان ايران « ستتحول الى دولة توسعية اذا ما اعلن الامام الخميني قيام الجمهورية الاسلامية فيها » ·

وبطبيعة الحال فانه مع بداية التطورات السريعة لاحداث ايران التي شملت خروج الشاه من ايران وعودة الخميني واعلانه تشكيل « حكومة مؤقتة » استأثرت الثورة الايرانية باهتمام كل اطراف الصراع العربي ـ الاسرائيلي بشكل مكثف ، كل حسب زاوية موقفه وهمومه ازاء تلك الثورة ·

وفي تل ابيت (١/١) قالت مصادر مطلعة ان الموقف في ايران استأثر بجانب مهم من مناقشات الحكومة الاسرائيلية ،

وان تطورات الوضع الايراني اثرت على معالجة الوزراء الاسرائيليين لموضوع استئناف المفاوضات مع مصر ، وانه سادت مجلس الوزراء الاسرائيلي وجهتا نظر متناقضتان :

☐ بعض الوزراء ـ وبينهم موشي دايان وزير الخارجية ـ يرى ان تطورات الموقف في ايران تستوجب توقيع معاهدة الصلح المصرية ـ الاسرائيلية في اسرع وقت ممكن · وبناء على تحليل اجرته وزارة الخارجية الاسرائيلية فان اختلال توازن القوى في الشرق الاوسط كنتيجة لسقوط نظام الحكم الامبراطوري الايراني قد يهدد بالخطر مستقبل المفاوضات ·

☐ بعض اخر من الوزراء الاسرائيليين يرى عدم الثقة بالنوايا المصرية ، ويرى بالتالي ان الازمة الايرانية تفرض تناولا يتسم بالترقب ، ولو ادى ذلك الى تجميد المفاوضات ·

وفي تل ابيب (١/١٠) قال مناحم بيغن رئيس الوزراء الاسرائيلي ان احداث ايران ادت الى تغيير في الموقف الاستراتيجي في المنطقة ، واصبحت تشكل تهديدا « للعالم الحر » وانه ليس في المنطقة من « ديمقراطية » مستقرة غير اسرائيل ·

وفي نيويورك (١/٨) صرح هنري كيسنجر وزير الخارجية الاميركي السابق (في حديث لمجلة « تايم » الاميركية) بأن على الولايات المتحدة واوروبا الغربية واليابان ـ بازاء ما يحدث في ايران ـ ان تحدد استراتيجية شاملة لمواجهة « خطر الانهيار التدريجي للحكومات الموالية للغرب في الدول النامية » · وقال :

ان ما يحدث في ايران قد يصيب دولا مثل مصر والمغرب واسرائيل ، كما انه قد يشجع الحكومات المتطرفة . بغض النظر كما اذا كان الاتحاد السوفياتي يساندها بطريقة فعالة ام لا » ·

وفي واشنطن (١/٩) قالت مصادر ديلوماسية انه يبدو ان الازمة في ايران وتطورات الهند الصينية (اشارة الى احداث كمبوديا) قد جعلت ازمة الشرق الاوسط تسقط من رأس اولويات الولايات المتحدة ·

وفي واشنطن ايضا (١/١٠) اصدر الرئيس الاميركي كارتر امره بأرسال ١٢ طائرة من طراز فـ١٥ القاذفة المقاتلة في « زيارة للمملكة السعودية » بناء على طلبها · ويصحب الطائرات ما بين ٢٥٠ و ٣٠٠ من الطيارين والفنيين الاميركيين محمولين على تسع طائرات نقل من طراز « سي ـ ١٤١ » ·

وقالت مصادر حكومية اميركية ان الغرض من هذه « الزيارة » هو اظهار اهتمام الولايات المتحدة « بأمن المملكة والقلق على الوضع في ايران » ، وهو ايضا ازالة « قلق بلاد مثل مصر والسعودية واسرائيل حول مدى استعداد الولايات المتحدة للوفاء بالتزامها بأمن المنطقة » ·

وقال هودنغ كارتر المتحدث باسم وزارة

الخارجية الاميركية في اليوم نفسه ان ارسال الطائرات الى السعودية لا يعبر فقط عن اهتمام واشنطن بأمن السعودية، وانما عن اهتمامها بأمن المنطقة كلها ·

وفي تل ابيب (١/١٠) ذكرت وكالة « رويتر » ان شعورا متضاربا ساد امس المسؤولين الاسرائيليين بشأن قرار الولايات المتحدة ارسال سرب الطائرات اف-١٥ الى السعودية · وقالت ان المراقبين الاسرائيليين فسروا قرار واشنطن بأنه اشارة الى قلق الولايات المتحدة من تطورات في الخليج في وقت تستمر فيه « الاضطرابات » في ايران ·

ونقلت الوكالة تصريحا لمسؤول اسرائيلي قال فيه ان اسرائيل تبلغت سلفا

امر ارسال الطائرات الى السعودية ، وان ذلك يجري استجابة لطلب سعودي ولمدة قصيرة · وذكر هذا المسؤول باعتراض اسرائيل الشديد على قرار واشنطن في العام الماضي بيع السعودية الطائرات في سنة ١٩٨٢ ·

وفي موسكو (١/١٦) قالت صحيفة « برافدا » الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفياتي : ان وصول الطائرات الاميركية الى السعودية هو وسيلة ضغط على الايرانيين والعرب على السواء ، وليس صدفة ان تقوم واشنطن في الوقت ذاته بارسال كبار دبلوماسييها الى الشرق الاوسط في سبيل تحريك الجمود والاتجاه نحو ابرام الصفقة المنفردة بين مصر واسرائيل » ·

في طهران (١/١٦) كان رحيل الشاه الذي سجل انتصارا اساسيا للثورة الشعبية الايرانية ، وكانت له ردود فعل واضحة من اطراف الصراع العربي - الاسرائيلي :

- اعربت اسرائيل عن قلقها لرحيل الشاه واثاره على امن « الجالية اليهودية » في ايران · واعربت الحكومة الاسرائيلية في بيان لها عن قلقها المتزايد بشأن مصير اليهود الايرانيين · واعربت عن خشيتها ان تؤدي المظاهرات المعادية لاسرائيل في ايران الى حدوث موقف صعب بالنسبة لهؤلاء اليهود · وقررت اسرائيل وقف جميع انشطة مؤسساتها في ايران (الطيران ، التجارة ··· الخ) واستدعت جميع خبرائها في الزراعة والبناء والتجارة ·

في باريس (١/١٧) قال الزعيم الديني الايراني الامام آية الله الخميني تعليقا على ذهاب الشاه الى اسوان واستقبال الرئيس المصري انور السادات له : « لقد ذهب الشاه والتحق بحليفه اسرائيل » ·

وفسر مساعدو الخميني هذه العبارة بأن الخميني يقصد السادات وانه لا يفرق بين السادات واسرائيل ·

وفي مونتريال (١/١٧) قال ييغال يادين نائب رئيس الوزراء الاسرائيلي انه يتوقع ان يؤدي رحيل الشاه الى تفاقم العلاقات بين تل ابيب وطهران · واضاف : « ان التهديد لنا (الغرب واسرائيل) كبير للغاية ، واحداث ايران مهمة للجميع في المانيا الغربية وكندا والولايات المتحدة ، وحتى في مصر » · وذكر ان احداث ايران يمكن ان تسرع وتيرة المفاوضات بين مصر واسرائيل · واشار بدوره الى وجود « جالية يهودية » في ايران قدر عددها بـ ٦٠ الف نسمة ، وقال : « نأمل الا يواجه اليهود صعوبات » . واعرب عن استعداد اسرائيل لاستقبال المهاجرين منهم ·

وفي تل ابيب (١/٢٤) طالب رئيس الوزراء الاسرائيلي مناحم بيغن كلا من الولايات المتحدة والدول الغربية بصورة عامة بالعمل على المحافظة على اسرائيل قوية « على ضوء الوضع غير المستقر في ايران والشرق الاوسط » . واضاف انه « اذا كان هناك عامل مستقر وثابت مرتبط بالعالم الحر فهذا العامل هو اسرائيل ». وقال : « ان على الغرب ان يتذكر هذا في ضوء الواقع الحالي للشرق الاوسط حيث يسقط البلد تلو الاخر تحت قبضة الانظمة الشمولية » .

وفي واشنطن (١/٢٦) اعلنت وزارة الخارجية الاميركية ان وفدا اميركيا يضم بعض العاملين في وزارتي الدفاع والخارجية قد غادر واشنطن مساء امس متوجها الى القاهرة ، في حين ذكرت مصادر مطلعة ان هارولد براون وزير الدفاع الاميركي نفسه سيقوم بجولة في الشرق الاوسط خلال الشهر المقبل . وقال الناطق باسم الخارجية الاميركية ان الوفد الاميركي سيتوجه بعد انتهاء زيارته للقاهرة الى السعودية برفقة بعض الخبراء المصريين .

وفي القدس المحتلة (١/٢٦) قالت صحيفة « جيروزاليم بوست » نقلا عن مصادر مطلعة في واشنطن ان وزير الدفاع الاميركي سيزور مصر واسرائيل والسعودية والاردن لاظهار اهتمام الولايات المتحدة بأمن اسرائيل واستقرار منطقة الشرق الاوسط بعد الاحداث الايرانية .

وفي باريس (١/٢٦) قال موشي دايان وزير الخارجية الاسرائيلية انه بعد التطورات الاخيرة التي حدثت في ايران والشرق الاوسط تبقى المسألة الرئيسية هي معرفة ما « اذا كان المصريون على استعداد لعقد معاهدة صلح منفردة مع اسرائيل رغم معارضة الدول العربية المتطرفة» . وقال :« ان السادات والمحيطين به سيصلون بدافع من الحرج لما يجري في ايران الى نتيجة مؤداها ان صلحا منفردا مع اسرائيل ضار اكثر مما هو نافع وقد يغيرون رأيهم بالنسبة للصلح .. اما بالنسبة لما يتعلق باسرائيل فانها تريد التأكد من تأمين احتياجاتها النفطية التي انقطعت بعد احداث ايران قبل ان تنسحب من سيناء » .

وفي تصريح اخر في باريس ايضا (١/٣٠) قال دايان ان ازمة ايران تبطيء التقدم نحو معاهدة صلح بين مصر واسرائيل ، وان احداث ايران لن تجعل المفاوضات بين مصر واسرائيل سهلة . « ان ما يحدث في ايران ستكون له نتائج سلبية . فستحاول مصر ان تتضامن مع الدول العربية الاخرى محاولة البقاء في اتجاه الفكر الاسلامي » . واضاف : « اننا قلقون على الـ ٨٠ الف يهودي في ايران وتأثير الاحداث الايرانية على دول العالم الثالث وعلى علاقات هذه الدول مع اسرائيل » .

في موسكو (١/٣١) قالت صحيفة « برافدا » السوفياتية ان احداث ايران كانت احد اسباب فشل مهمة المبعوث الاميركي الفريد اثرتون الاخيرة في الشرق الاوسط والتي استهدفت اعادة استئناف مفاوضات الصلح بين مصر واسرائيل . واضافت ان سير الاحداث احبط السيناريو الذي وضع في « كامب ديفيد » . ولقيت الصفقة المعقودة هناك ادانة شديدة على الصعيد الدولي . وقد اضحت مصر عمليا معزولة عن العالم العربي ، وخيم فوقها خطر فرض عقوبات سياسية واقتصادية

في حالة عقدها معاهدة منفردة مع اسرائيل . وما كانوا يستطيعون في القاهرة تجاهل ان القروض السنوية التي تستلمها مصر من البلدان العربية تبلغ وحدها ملياري دولار . واضافت «براقدا» ان الولايات المتحدة « لا تتخلى عن المحاولات لربط اسرائيل ومصر في آن واحد بقوة اشد الى عجلتها السياسية . وهي قد اعلنت – مثلا – انها ستوفد الى القاهرة قريبا وفدا عسكريا اميركيا برئاسة وزير الدفاع هارولد براون . وبعد ذلك سيزور الوفد اسرائيل والسعودية... وليس من الصعب التكهن بمدى بعد اهداف مثل هذه الزيارات من مطامح شعوب الشرق الاوسط في السلام الوطيد والعادل. ذلك انه لا يمكن احلال مثل هذا السلام بواسطة الصفقات المنفردة المعقودة من وراء ظهر العرب وخلافا لمصالحهم » .



العلاقات الفرنسية – الاسرائيلية

علقت الاوساط الاسرائيلية، والصهيونية عامة . وبصفة اخص الاوساط الصهيونية بين يهود فرنسا اهمية خاصة على الزيارة التي قام بها موشي دايان وزير خارجية اسرائيل لفرنسا (٢٨–١/٣٠) نظرا لانها تتم في اجواء فتور في العلاقات تبذل اسرائيل محاولات مستميتة لتبديلها .

وهكذا بدأت الزيارة يوم ١/٢٨ في وسط تأكيدات الاعلام الاسرائيلي والصهيوني بأن دايان « سوف يستقبل في باريس بالترحاب والحرارة وليس فقط من قبل الجالية اليهودية ، بل كذلك من قبل الحكومة الفرنسية ، وهو الامر الذي يمكن استنتاجه من خلال حرص فرنسا الجديد على التوازن في سياستها الشرق اوسطية الذي وضع حدا للخط السابق غير السليم الذي حال دون قيام شخصيات اسرائيلية بزيارة لفرنسا ، في حين ان عددا كبيرا من الوزراء العرب زاروا باريس » . (هذا نص ما قاله مراسل اذاعة اسرائيل في باريس قبل ساعات من وصول دايان) . وقال المراسل ايضا : « وتنسب وسائل الاعلام هنا (في باريس) اهمية كبيرة للزيارة ، وقد خصصت صحيفة لوموند مقالا رئيسيا لها امس . كما ان جميع محطات الاذاعة ومعظم الصحف حاولت في الايام القليلة الماضية اجراء مقابلة خاصة مع السيد دايان دون ان توفق في ذلك » .

وفي اليوم التالي مباشرة – اي بعد ان تمت عملية استقبال دايان – كان الوصف الاسرائيلي معاكسا تماما للتوقعات السابقة . فقد لاحظ الاعلام الاسرائيلي ان جان فرنسوا بونسيه وزير الخارجية الفرنسي لم يكن في استقبال دايان في مطار شارل ديغول ، انما استقبله نائب وزير خارجية فرنسا (اوليبيه ستورم) وسفير اسرائيل في باريس والسفير الفرنسي لدى اسرائيل وزعماء الجالية اليهودية . وفي المطار اتخذت اجراءات امن مشددة .

وتحدث المراسل الاسرائيلي نفسه عن الاستقبال فقال (١/٢٩) : « فوجئنا حين عرفنا مساء امس ان لدى الحكومة الفرنسية نية بعدم حصول زيارة دايان على تغطية اعلامية موسعة ، حيث ان اي صحفي فرنسي لم يكن في المطار امس . كذلك فان السلطات الفرنسية لم تسمح للصحفيين الاسرائيليين بالدخول الى قاعة الاستقبال كما هو متبع » .

اما دايان نفسه فقد صرح قبيل مغادرته مطار بن غوريون الى باريس

(١/٢٨) بأنه من الممكن ان يتباحث مع الفرنسيين حول مواضيع عملية معينة ربما لا تكون ذات قيمة حاسمة ، ولكنها قد تكون لها اهميتها في مستقبل العلاقات بين اسرائيل وفرنسا ·

وقالت المصادر الاسرائيلية ان هذه الموضوعات ستشمل : (١) الاعداد لزيارة رئيس الحكومة الاسرائيلي مناحم بيغن لفرنسا (٢) اتفاقات « كامب ديفيد » والمفاوضات مع مصر في اعقاب جولة المبعوث الاميركي الفريد اثرتون في المنطقة . (٣) ترميم وتشديد العلاقات بين اسرائيل والسوق الاوروبية المشتركة . وبينها وبين فرنسا ، خاصة في المجال الاقتصادي ، (٤) الوضع في جنوب لبنان وقوات الامم المتحدة وموقف فرنسا في هذا الصدد ، (٥) ابعاد طرد الشاه من ايران وتأثيرات الاحداث هناك على الوضع في الشرق الاوسط عامة وعلى اوروبا الغربية خاصة ·

وقالت المصادر الاسرائيلية – اثناء الزيارة – انه لا مجال لتوقع تغييرات جذرية تطرأ على المواقف الفرنسية المعلنة كنتيجة لهذه الزيارة . وخاصة في كل ما يتعلق بالصراع العربي – الاسرائيلي ·

اما الجانب الفرنسي فقد اكد مواقفه من جديد في تصريحات ادلى بها وزير الخارجية الجديد بونسيه (١/٢٦) قال فيها

ان تعيين وزير خارجية جديد في فرنسا ليس له تأثير كبير على مستقبل العلاقات الدبلوماسية وسياسة الحكومة · وقال ان فرنسا معنية باقامة علاقات صداقة مع اسرائيل وانها أيدت باستمرار حق اسرائيل في الوجود ، وانها تسعى الى اتباع سياسة ثابتة في الشرق الاوسط ، وانها واثقة بأن من مصلحة اسرائيل ان يتحقق سلام عادل ودائم · واضاف بونسيه ان السلام الشامل هو الضمان الوحيد لمستقبل اسرائيل · واكد استناد موقف فرنسا من الصراع العربي – الاسرائيلي الى قرارات الامم المتحدة · وقال ان اتفاقات « كامب ديفيد » تشكل مرحلة جديدة في تاريخ هذا الصراع ، وان فرنسا تأمل ان تؤدي المحادثات الدائرة بين مصر واسرائيل الى شق الطريق امام اتفاق شامل · واضاف ان حكومة باريس تدرك حقيقة وجود صعاب تعترض المفاوضات ، ولذا فهي معنية بأن تعيش دول المنطقة داخل حدود معترف بها وآمنة ·



القمة الرباعية

سيطرت احداث ايران والشرق الاوسط على جانب كبير من مناقشات القمة الرباعية الغربية التي عقدها في « غواديلوب » (٤ – ١/٦) الرئيس الاميركي كارتر والرئيس الفرنسي جيسكار – ديستان ، والمستشار الالماني الغربي شميت ورئيس الوزراء البريطاني كالاهان ·

فقد اكدت مصادر القمة الرباعية ان البحث فيها تركز على « مسائل ذات اهمية ستراتيجية مشتركة للدول الغربية وعلى رأسها : الوضع في ايران ، الوضع في الشرق الاوسط ، التطورات السياسية في الصين وعلاقات الصين الدبلوماسية والاقتصادية الجديدة مع الغرب ، ومحادثات الحد من الاسلحة الستراتيجية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي (سالت – ٢) ، بالاضافة الى مسائل

اسعار النفط ومركز الدولار والعمـــلات الغربية الاخرى والتعاون الاقتصـــادي الغربي ٠

وقد لوحظ ان القمة الرباعية الغربيـة انتهت دون اصدار بيان رباعي ، انمـــا انتهت باصدار تصريحات منفردة لكل من الزعماء المشتركين فيها ، وان كان المتحدث الرسمي باسم مقر الرئاسة الفرنسية وباسم القمة الرباعية قد اعلـــن (١/٦) ان الاقطاب الاربعة قد بحثوا على التوالي : الوضع في ايران ـ الشرق الاوســط ـ مشكلة الطاقة من زاوية امدادات النفـــط في ظل الوضع الدولي الراهن ـ الوضـع في تركيا ـ الوضـــع فـي باكســـتان ـ ومعونات التنمية لافريقيا ٠

وقالت مصادر المؤتمر انه بالنسبة الى « المناطق الملتهبة في العالم » دار البحـث حول كيفية قيام حلف الاطلسي بمواجهـة الازمات حاليا وفي المستقبل ، باقصـــى قدر من الكفاءة ٠

سمير كـرم

يزهـار سميلانسكي

خـربـة خـزعة ٢

ـ ٥ ـ

والان ، ونحن نتوغل منحدرين في احد الازقة داخل القرية ، مستغربين ما اذا كان عرضه سيتسع لمرور سيارة الجيب ، ومتأهبين لكل المفاجآت التي قد تحدث ، كان صمت القرية يعود فيوغل في السكون ، خلف اخر واحد منا في الطابور ، مباشرة · وكانت البيـوت السجينة بأسوار باحاتها لا تزال تبدو ، لاول وهلة ، تتنفس كسابق عهدها ، ولكن بشيء من الدهشة الحديثة ، ونسيج الاجيال ، ذلك الذي كان قد نسج خطا خطا ، وخيطا خيطا ، بفيض من تفاصيل التفاصيل التي محت معالم كل واحد منا ، وتلاشت ربما منذ زمن ، في التعبير الشامل لشكل ثابت الملامح ، دأب النمل هذا لبناء شيء ما ، ذرة بذرة ، والـذي كلما كان اكبر واكمل ـ كلما تكشف عار سخفه وتعرى ، وبكى ذل مآله مصيره : كان قد ادين وتم الحكم في الحال عليه ، وتلول الدخان الاولى ، سوف تتصاعد عما قليل هنا وهناك مترددة ، مستحيية بأن كل شيء هنا رطب ويأبى الاشتعال ·

تصاعد بعد ذلك انفجار اخر ، كبير وقوي ، فتلاه العويل على الفور · كان يبدو لنا في البداية انها الصرخات التي سرعان ما ستصمت وتهدأ حين يكتشفون اننا لا نمـــارس القتل · الا ان العويل ، صرخة حادة ، عالية ومتمنعة ، متمردة ، تبعث على القشعريرة ، كانت لا تزال مستمرة ومتواصلة ، ولا تستطيع الفرار منها · انك لا تستطيع التفكيـــر بشيء اخر ، نافد الصبر انت ، تهز كتفيك وتحدق في رفاقك ، وتود لو تبتعد ، الا ان تلك الصرخة لم تعد زعيق دجاج مطارد خائف ـ بل زئير نمرة لا يزيدها الالم الا غضبـــا وشرا ، صرخة محكوم بالاعدام يقاد الى المشنقة كارها لجلاده ، متمردا عليه ، صرخـة ذات زئير ، صرخة لن اتحرك ، لن استسلم ، اموت ولكن لن تمسوا ، الى ان تشـــرع الحجارة بالصراخ معها ـ صرخة رهيبة كانت تتعاظم متقطعة ، تقطعات قصيرة لنفس

خاطف ، بل وكان يمكن تمييز الكلمات التي تعقبها ، الا انها لم تكن مفهومة ٠

« لماذا يصرخون هكذا هناك ، لماذا ؟ » ، لم يستطع عامل اللاسلكي ضبط نفسه ٠

« كأن الشيطان حل فيها » قال شلومو متبرما وهو يزم عينيه كما لو كان ثمة من يصر له بقطعة من التنك قرب اذنه ٠ ثمة شيء قاتم مر بالقرية ٠ ثمة بقرة شرعت تخور هي الاخرى ، بيأس ، باضطراب ، ببلاهة متكررة ، وكأن مجرد خوارها يمنحها نقطة تشبث في عالم حاد عن مساره ٠

شعرنا فجأة وكأن هجوما صاعق المفاجأة قد يداهمنا ، لقد انهارت الاسوار الغريبة كلها علينا ، حاصرتنا بحقد غاضب يفح ، وبدورنا معزولين على حين غرة ، لا حيلة لنا ولا ندري من اين ستنزل الضربة علينا فجأة ـ اللهم ما لم تكن غير ذلك ـ الا انها كانت « نحن » ها هنا ، على هيئتنا وصورتنا ٠ وصلنا مفترق ازقة ٠ انطلقنا نفتش البيوت المجاورة ٠ كانت كلها خاوية خواء كارثة مباغتة ٠ كان ملل متوتر قد بدأ يلوح بنا ٠ تلك الصرخة الرهيبة لم تتوقف ، بل تحولت الى نواح مكظوم يرتفع بصورة متقطعة ، نواح مبحوح كان قد فقد القدرة على ان يكون صرخة حادة ، وقد اصبح واضحا ان كل شيء قد انتهى واندثر ، ولا شيء ينفع او يتغير ٠

باغتنا احد الرجال خارجا علينا فجأة من باب احد الاسوار التي كانت تكيد لنا من الخلف في صمت ، وقد تصور انا كنا قد ابتعدنا ومضينا قدما . فبوغت بنا وقفز ثم راح يجري في مرتقى الطريق ٠

« توقف ايها الكلب ! » صرخ به غابي واطلق صلية من الرصاص فوق رأسه ، الا انه قفز وانبطح خلف حجر ملقى بجانب السور ، ودس رأسه بقدر ما سمحت له زحمة الارض ٠

« انهض ! » صرخ به غابي ، « نقول لك انهض » ٠

فلم يعارض ، ونهض ٠ كان مروعا بشدة ٠ صوب غابي المدفع الرشاش نحوه بدقة وهو يقول لنا : « يوحي بانه قذر ! » وضغط على الزناد في الحال واطلق طلقة منفردة . كانت قد مرت قيد شعرة من فوق رأسه عمدا ٠ فالتفت الرجل الينا ومد يده وتجمد هكذا ، وعنقه يغوص بين كتفيه ٠

« تعال جاي ! » ، صرخ به غابي ٠

حاول الشخص ان يتحرك ٠ كان واضحا ان لا علاقة البتة بين رجليه وجسمه ٠ الا ان رجليه تحركتا من تلقاء نفسيهما ، اما الجسم فقد كان مشلولا ٠ ملامح سحنته كانت فارغة من دمها ليس الى حد الشحوب ، وانما اليرقان والصفرة المخجلة ٠ وفي النهاية بلع الرجل ، بعد لأي ، ريقه ، ثم عاد ومد يديه مذعنا وهو يحاول ان يبتسم ابتسامة قناع بائس ، او ربما ليقول شيئا ما ، فلم يسعفه صوت من داخله او صدى ٠

ـ « ما الذي تفعله هنا ؟ » استجوبه غابي ٠

عاد الرجل وحاول الابتسام بحظ من النجاح لم يكن بأكبر من سابقه ٠

ـ « يوحي بانه قذر » ، عاد غابي وكرر مشيرا اليه بابهامه ٠

كان للرجل فرشاة ـ شارب رمادي ، ولسانه كان يلعق شفتيه ثم يعود ويلعقهما ثانية كما لو كان وجوده كله قد تركز في هذا اللعق · قرب يديه من صدره وراح يحركهما بدوائر صغيرة يائسة معللة ، من دون ان يجد الارضية لنفسه بين ما كان حتى هذه اللحظة تماما ، وبين ما يجري تماما في هذه اللحظة ـ وها هو الان امامنا في صميم انسحاب الارض من تحته ، في استدارة الدولاب تماما ·

ـ « لماذا يحوم هنا ؟ فالمشاكل لا تأتينا دائما الا من اولئك الذين يحومون هكذا بين الارجل من امثاله » ·

ـ « لمجرد انه لم يستطع الهرب من هنا » ، قال شلومو وهو ينظر حوله يبحث عن شيء ما يقلق ·

ـ « ولماذا يهرب ؟ كلا كلا · ثمة شيء اخر هنا · انني اعرف هذا الطراز · ما كل ذلك الذي يفعله سوى مسرحية ، انه محتال ! » ·

ـ « لقد حشوه ، كما يبدو ، قصصا شتى عنا ـ انه يكاد يموت خوفا ! اسأله يا غابي ، اسأله ما الخبر » ·

وهنا تدخل مويشي وقال ان ثمة من يطرح الاسئلة ، وما علينا الا ان نتركه وشأنه . وان نستمر اذا كنا نريد ان ننتهي · ثم التفت الى العربي وهو يشير الى الجيب ، ولكي يجنبه الوقوع في اي خطأ ، دفعه دفعة قوية الى داخله ، الى حد انه انغرس في جداره يتعلق به وهو يطوي نصف جسمه الاعلى داخله ، بينما بقيت ساقاه وذيل قمبازه وصندله تتدلى خارجه وهي تتخبط تخبطات مضحكة محزنة على السواء · شدوه ، دحرجوه ، تدحرج كيس داخل الجيب ، وحين اعتدل اكتشفنا ان تلك الحركات السريعة جعلته يصحو من ذهوله ، ويعثر في الاخير على لسانه ، وبابتسامة يائسة تلفت نحو غابي ، وقد ظنه رئيسنا ، وقال :

ـ « سأقول كل شيء ، يا سيدي ، سأقول كل شيء ··· » الا انه لسوء حظه ، كان قد الم به تشنج هنا وانتابه غثيان فراح يتقيأ حوله ، ونحن نتقافز بعيدا عنه بقرف ·

ـ « جيفة ! » صرخ غابي · « لا بد وان هذا الحقير يضمر شيئا » ·

ـ « انه الخوف ! » قال شموليك معللا ، « انه يلوث كل شيء » ·

كان العربي الذي في الجيب ينحني صاغرا ، وهو لا يزال يحاول اخفاء آلامه بابتسامة اعتذار شاحبة سخيفة ، ويمسح نفسه بطرف قمبازه ، يتقل ويسعل ويبتسم ويختنق في داخله شهقات محشرجة ومغصا وألما · وكان منزويا كله امتعاضا بقيئه وبخوفه وببسمته ، بالحيف الذي ربما أحيق به ، بهيئته هيئة المواطن الفاضل الذي تدحرج في مجرور قاذورات ـ رمينا له كيسا من الخيش صادفنا ، فراح يبذل كل جهده وبحرص مفرط ، طاويا كل شيء داخله : يجفف وينظف ويمسح ، وهو يحاول طيلة الوقت ان يهدأ ، ان يسيطر على نفسه ، لولا ان يديه كانتا ترتجفان فتخونانه · وفي النهاية خيل اليه انه قد انتهى فالتفت الينا ، يمتدحنا ، على ما يبدو ، الا ان رجفة مفاجئة كانت قد ارجحته فتغير وجهه للحظة ، ثم سرعان ما عاد يبتسم لنا بسمة غبية متشابكة ، بسمة معتوه ·

ـ « ربما كان مريضا » ، قال احدنا ·

ـ « اي مريض » ، قال غابي ، « انه سليم كثور ، محتال ، وهذا كل ما في الامر » ٠

ـ « لا دم البتة لهؤلاء الاعراب في عروقهم » ، قال أربيه ساهما . « ما كنت لاتـــرك قرية كهذه بهذا الشكل ! فلو انني كنت في مكانه هنا ـ لكنتم تجدونني في انتظاركم والبندقية في يدي ٠ والا ماذا حسبتم ! أقسم انني كنت سأفعل ذلك ! ٠٠٠ قرية كبيرة كهذه ، ولا يوجد فيها حتى ولا ثلاثة اشخاص يكونون ، هكذا ، رجالا ٠ انهم ما ان يروا اليهـــود حتى يتغوطوا في سراويلهم ٠ جيب واحد ـ كم نحن هنا ـ مجرد جيب وبضعة رجـال : نحتل قرية كاملة ٠ انني لا افهمهم ! » ٠

كنا قد ترجلنا في هذه الاثناء ، وفي الوقت الذي كان فيه أربيه لا يزال يعرض آراءه ـ افكاره ، وتقدمنا نتفقد الباحات المقفرة ، تنادي ونعلن عن كل ما يمكن ان يكون « لقطة » . بينما كانت الارانب والدجاج تفر من امامنا ، نصب القليل بعض الاحيان من المازوت الذي كنا قد جهزناه في الصفائح ، ووضعناه في الجيب سلفا . ونشعل تبانا او بوابة خشبية او سقف قش منخفض ، ثم ننتظر الى ان نرى كيف انها ستتحول الى نيران تقل وقاحتها مع احتراق المازوت ، نركل شيئا ما هنا واخر هناك ، عل ما هو أثمن مخبأ تحتـــه ، حريصين على ان لا ندخل البيوت خشية البراغيث ، ونجتاز غازين جزءا من حياة لبيوت وباحات وبشر ، سحقتهم لحظة واحدة في اوج جريهم ، ولم تذر منهم سوى ايمـــــاءة متحجرة ، ستأخذ منذ الان فصاعدا بالاهتراء والاندثار في غبار الزمن ٠

وفي احدى الباحات في اسفل القرية عثرنا على امرأتين سرعان ما طفقتا تبكيان عند رؤيتنا ، وتعولان بشيء ما وكأنهما تبغيان قول شيء كان لا يمكن فهمه ، لان شـــكوى احداهما كانت تتداخل بشكوى الاخرى ، ولان منظر دموعهما الكبيرة وبكائهما بكــــاء الاطفال ، كان يثير الاشمئزاز اكثر مما كان يثير الاشفاق ، ولاننا كنا مع ذلك قد ارتبكنا امام بكاء النساء ، لولا ان خرج يهودا مشيرا الى الباب امامهما ، ويـده الاخــــرى تستحثهما على الخروج كما لو كان يكش سرب دجاج ، ولسانه يلهج بسرعة : « يا لله ، يا لله ، يا لله » ٠ فخرجت الاثنتان وهما تجففان دمعهما بطرفي منديليهما الابيضيـن الكبيرين ، تنتحيان بصمت واذعان ٠

وفي الباحة التي تليها مباشرة ، وجدنا عجوزا كان يجلس على حجر بجانب البيت ، وكأنه ينتظر قدومنا ، فنهض يستقبلنا ، وانهال علينا يثقل كاهلنا بكامل الحفاوة تأهيلا وترحيبا ، بل وهم بتقبيل يد عامل اللاسلكي (الذي جعله جهازه الغريب اكثر الجميــــع احتراما) ، والذي سارع وسحب يده اليه غاضبا : « اغرب عن وجهي ، انت الاخر ! » ٠ وسرعان ما راح ذلك الرجل ، ذو العمامة البيضاء والحزام الاصفر ، يحاضر امامنا وفقا للاصول ، كيف انه لا يوجد في القرية حتى ولا شاب واحد ، وكيف ان الجميع هنا هـم عجائز ونساء واطفال فقط ، وكيف انه توسل الى اولئك الذين فروا في الصبـــاح ان لا يفروا ، لان اليهود لا يؤذون احدا ، وانهم ليسوا كالانجليز « يلعن ابوهم » ، والخ والخ ٠ التصق بكل من ظنه يصغي اليه او قد يصغي لحديثه ، الى ان دفعه احدنا في ذروة حديثه قائلا له باختصار ان ينصرف الى هناك ويصمت ٠

ولم نكد نصل الى مستديرة صغيرة في اسفل القرية ، حتى كان سبعة من ابناء القرية يسيرون امامنا ، وبينهم اعرج كان يقفز على عكازه ٠ كانوا يسيرون من دون ان يلتفت احد منهم الى رفيقه ، لم يتفوهوا حتى ولا بكلمة واحدة ، ولم ينظر احد منهم الى الاخر ٠ وهكذا ، ودونما قصد ، تحولنا الى مسيرة صامتة وكئيبة ، كما لو كانت مظاهرة صغيرة في

الشوارع المقفرة · فبئا كل ذلك يفتت اعصابنا · وكان لا بد وان نتخلص منهـــم ، وان نتمدد في مكان ما ونفكر في اشياء اخرى ، ونستريح قليلا · الزقاق المتعرج ، اســـوار الباحات المطينة بالطين المخلوط بالتبن ، والمتراصة بأعواد القصب المكدسة بأطوالهـــا المتفاوتة ، والتي كانت تفوح ببقايا من شذى صيف (هه ، صيف بعيد) ، رائحة القريـة الرطبة ، وضجيج صمت الخرائب ، بدت كلها غريبة وخانقة وتافهة · والى ان تفجـــر غضبنا كنا قد وصلنا الى تلك المستديرة الصغيرة في اسفل القرية ، حيث كان هناك شابان من فصيل اخر يحرسان جمهورا صغيرا كانوا قد جمعوه اثناء عملية التمشيط ·

ـ « كم قطعة لديكم ؟ » سأل احدهما متبجحا بكلمة « قطعة » ، وسعيدا بمظهـــــره ، مظهر المغتصب الكبير الفظ ·

ـ « لدينا هؤلاء » ، قال يهودا من دون ان ينظر اليهم الا بمقدار ايمـــاءة الـــرأس والاشارة بعلبة الكبريت في اتجاههم حين اشعال سيجارته ·

ـ « انظروا ما اكثرهم ! » قال الشاب ، « فلو انهم قصدوا لاستطاعوا انهاءنــــــا بالبصاق فقط · انظروا اليهم كيف يقفون ! » ·

كان ذلك الجمهور الصغير الذي يقف بجانب الجدار ، بنسائه ورجاله كل على حدة ، هامدا كسل سمك اخرج من الماء لتوه ، ولا يزال يذكر بالبحر · حملقوا الينا بنوع من التجمد واليأس ، وبلمحة بارقة مع ذلك من حب الاستطلاع الذي يطل من خلال الرعـــب والذل واليأس والدمار ، ومن خلال مباغتة الكارثة التي حلت لتوها · كانوا يتصورون ، على ما يبدو ، بأن ثمة طلاسم سوف تتضح لهم الان ، ويتوقعون حدثا خاصا لا بد وان يحـــدث ·

ولكن مويشي قال للشابين ان يأخذا هذا الجمهور المنتظر وينقلاه الى مكان التجمع ، وان يخبرا القائمين على الحراسة هناك بأننا سنتابع التفتيش قبل ان نأتي اليهم ، وارسل الجيب معهما ايضا · وسرعان ما نهض الشابان وهما يصرخان في المعتقلين بحـــدة ، ويلوحان بأيديهما وبندقيتها كراعيي بقر في مراعي فاسباس ، متأهبين لان يقمعا ويسحقا اي تمرد كان ، لو لم ينطلق المعتقلون كلهم ويسيروا عند سماع الصيحة الاولى مباشرة ، محتشدين ، متحاشرين باذعان ، ودونما اعتراض ، ولم تكن الضجة التي اثارها الشابان الا من أجل التفاخر بالبطولة وحسب · تقدم أحد الاثنين وانتزع العصا من يد أحدهم ، عصا كروية الرأس ، ثم اكتتف بندقيته ، وامسك بالعصا المغتصبة وراح يلوح بهـا ، وهو يدفع هذا تارة وذاك تارة اخرى ، ويهوي بها على كل باب يصادفه ، ويطرق كـل بوابة ، متبخترا باتكاء وجيه عليها وهو مفعم بالحبور · ثم انطلق الجيب ، اما اولئك فقد انحنوا بعدئذ في الزقاق المتعرج وغابوا فيه جميعهم ·

اتجهنا نسير في زقاق متعرج ، وما أن انتهينا من التسكع فيه حتى كنا قد خرجنــــا من القرية ، وانفتحت امامنا مريجة مخضوضرة ، مسيجة بعدد من اشجار الاثل ، يليها سـياج لقطعـة ارض اخرى محروثة · ويبدو انه كان ثمة بيـدر في الخريـف هنـا ، فشب حبه الوفير المتساقط في ارضه نبتا غزيرا مستوي السطح وكان قدمــا لم تطأه ، وزغب الندى الذي كان يتلألأ على نصاله الشعوعـــرة ، المغتسلـــة بالضوء الشمسي الشفاف ، كان يجعل من هذه المريجة المستديرة بركة بهية الخضرة وترفرف أنفاسا عذبة متناعسة ، فخلبنا بمشهدها حتى اننا لم ننتبه باديء ذي بدء لمهر كان يقف عند حدودها

يقضم العشب الوفير أمامه متأنيا ، ويكمل رفاه اللوحة ٠

ـ « أح ، ما اجمله مهرا ، انظروا ! » قال عندها شموليك ، وهو يشير الى ذلك المهر الضارب الى الحمرة ، الذي كان قد قدالتفت الينا رافعا رأسه مستغربا ، وهو يلوح بذيله ويدق الارض برجله كما لو كان يذب عنه الذباب ٠

ـ « جميل ! » قال غابي ، « أي فاتن ! »

ـ « يبدو وكأننا في عالم آخر تماما هنا ! » قال شموليك ٠

ـ « وليس مقيدا البتة » ، قال غابي « انه سيفر لو قربناه » ٠

ـ « لن يفر ـ انه يألف الناس قطعا » ، قال شموليك ٠

تقدم الاثنان منه خطوة اثر خطوة ، بينما ربضنا نحن كلنا في ظل السياج نرقبهما من دون ان نعقب ٠ انحنى شموليك قاطفا ملء قبضتيه شعيرا كي يغري به ذلك المخلوق ، فان لم يكن بنوع الغذاء المتوافر حوله ـ فبحسن تقديمه بمثل ذلك الاهتمام المزخرف والمزين بالصفير والصمصمة ، اللذين كان يطلقهما شموليك ، دون ان ينتبه الى أنه يدك اثناء ذلك اخضرار المريجة المستديرة بنعليه الثقيلين ، تاركا خلفه ثلما معكرا موحلا ٠

ـ « تعال ، تعال ! » تعطفه شموليك ابتهالا ٠

تحفز المهر جذلا ، ودق الارض بقائمته الامامية استقبالا لصديق لهو آت وهو يتضافر بخفة ، فاتضح بأنهم كانوا قد اوثقوا كاحليه الاماميين بالاغلال وقيدوه ثم تركوه هكذا ٠

كان يتموج بعصبية عند كل لمسة مداعبة ، لست ادري ، أأمواج اقبال كانت هي ام ادبار٠ نخر بمنخريه الرطيبين ، الاسودين في داخلهما ومن خارجهما مقلدين باكليل ابيض ، ومرر شفتيه على العشب الذي كان في يدي شموليك الذي راح يربت على عنقه برقة ويمسد شعر ناصيته ٠

ـ « جميل انت ، جميل » ، غنى له شموليك متوددا ٠

اما غابي الذي كان قد تقدم منه يشق طريقه الوحل في العشب ، فقد ربت على عجز المهر قائلا : « هذا ، مثلا ، كنت آخذه معنا » ٠ ثم تراجع قليلا ونتف نزرا من العشب حشاه في فمه هو سارحا ، وراح يلوكه راطنا : « كنت اجعل منه افضل جواد » ٠

ـ « فلتقل عنهم ما تقول » ، قال شموليك ، « اما الخيل فعندهم ، لا جدال في ذلك ! »٠

قرر المهر ، الذي كان الثناء قد أسكره ، ان يتغندر بالرقص فوق المريجة امامنا ، الا انه ما ان تحنجل حتى تعثر بأغلاله وتكبلت رقصته ، فأثار ذلك غضبه فراح يقمص قمصات عجيبة ، يقمص ويرفع ذيله وكامل عنقه بحركات تروم الانفلات والتحرر من شيء ما ، وحور عينيه يتقلب في مقلتيه ٠

ـ « لا بد وان نفك له تلك ! » قال شموليك الذي كان قد نكص متراجعا ٠

ـ « الافضل ان لا تمسه ـ والا رفسك » ، قال غابي الذي قال وفعل ، بابتعاده عنه مسافة آمنة ٠

ـ « اي وحشية ، اي تمرد ! » ، قال شموليك منفعلا . « تعال نفك قيوده » ٠

ـ « بل الافضل ان تبتعد ! » قال غابي ٠

ـ « هيا كفى ، هيا كفى ! » ، قال شموليك للمهر مهددا ، وهو يصالحه بغمر من لعشب عن بعد ٠ الا انه لم يستجب الى هذه الهدية العبث ، وراح يتراقص تراقص قيد متمرد ، وبغضب متزايد ، بحركات مبتورة لقوة الحبال ، ومكبوحة الجماح بانشداد القيد ، وبلبطات تذهب عبثا فتتورط بذاتها وتتعثر باندفاع الحركات التي لم يكن لها اي مدى ٠

ـ « انه سيكسر احدى قوائمه ! » ، صاح غابي ٠

ـ « لا بد وان نفتح له هذا » ، اجاب شموليك ٠ « مستحيل هكذا » ٠

ـ « انه سيكسر احدى قوائمه ! » عاد وصاح غابي ٠

تجرأ شموليك مقتربا منه واحدى يديه ممدودة بالهدية العشبية المصالحة ، بينما امتدت الاخرى للتربيت والتهدئة ، يقترب ويهدئه ، يقترب ويمصمص بلطف ، وبشيء من التجنب استعدادا لقفزة ارتداد . توقف المهر ٠ عنقه مشدود بعنف وكأنه يستعد للنطح ظهره مقنطر متقوس ، ذيله متوتر ، مشدود ، قوائمه الاربع منحرفة حتى وكأن حوافرها تكاد تكون متلاصقة ، كجندب يهم بالقفز ، كقوس مشدود قبيل انطلاق السهم ، ماكثا هكذا برهة ، فولاذيا ، مرنا ، يزخر قوة متماسكة ، ويكاد يندفع برغبة جامحة ، بنشوة طليقة ، بنفس لا نهائي ، مسافات ومسافات ومسافات ٠ استوى بعد ذلك دفعة واحدة ، مشرئب العنق والرأس ذي الاذنين الصغيرتين المنتصبتين ، مزورا ، كما لو كان يتعقب هبوب الريح ، مصغ كله ٠ ثم سرعان ما استرخى ٠ وبالتفاته حسن لعوب رنا الى شموليك ، ومد الى العشب شفتيه الطفوليتين ٠

اقترب شموليك منه مكللا بالنصر ، يمسد عنقه الحريري ، وبطنه المهتز ، وقوائمه الغزلانية الضاربة الى الحمرة ، يناجيه بكلمات حب عذبة رقيقة :

ـ « وسيم أنت ، لطيف أنت ، أجل ، أجل ، وسيم ، لطيف ! » ٠ كذا همهم شموليك ٠ ثم سرعان ما ركع مستلا خنجره يقطع قيد رجليه ، دافعا برأسه ومعظم جسمه بين قوائم المهر الصافن ٠

ـ « الافضل ان لا تحشر رأسك هناك ! » قال غابي غاضبا ، وخطا خطوة واحدة الى الامام ٠ فقفز المهر قفزة واسعة ، وذيله متطاوس ، وناصيته منتصبة ، ثم قفز قفزة اخرى الى الامام ، وبرأس يسبقه اندفع في عدو عاصف ، قفز من فوق السياج الواطيء (وبقية من حبل تتدلى فوق حافره) ، ثم لاح مرة اخرى عند نهاية الحقل المحروث واختفى ٠

نهض شموليك فاغر الفم ذاهل العينين واستدار نحونا والخنجر لا يزال في يده ، كله ذهول ودهشة ولا يستطيع التكلم : « مم ، أرأيتم ! ٠٠ ـ اي مهر ! ٠٠٠ »

اما غابي فقد فغر فاه وانفجر ضاحكا ، كان يضحك ويسعل ، يضحك ويضرب ركبتيه، يضحك ويستدير خلفه ، الينا ، وامامه ، الى شموليك ، وهو يحاول ان يقول شيئا ، الا انه كان يضيع في صخب الضحك الذي انتابنا جميعا ، الى ان تفجرت ضحكة ، شاملة ،

صاخبة ، ساخرة ، كانت قد انتشلت كل الاشياء التي لم نقلها طيلة النهار من اعماقنا ، واعتقتها بصوت مرتفع ، علني ، ودفعة واحدة ، وعندئذ قال اربيه ـ بتنهد بسمة متارجحة (اذ انه لم يتعد البسمة في حياته) للمسكين شموليك : « لقد خسرت خمسين ليرة على الاقـــل ! »

ـ « احش ليراتك الخمسين ··· » ، رطن شـموليك غاضبا وهـو يتحسس خنجـــره ويغمده في جرابه ، ثم اشاح عنا ونظر بعيدا . الى المجهول ، بينما كانت الحقول تتبخر صدى رائعا لوقع حوافر خيول من أجل الحرية ·

ولكن سرعان ما اتضح لنا اننا كنا قد اضعنا وقتا طويلا · نهضنا على غير رغبة منا وانطلقنا عائدين الى أزقة القرية · فتشنا البيوت متكاسلين · نظرة خاطفة هنا واخـرى هناك اسقاطا للواجب ، ونحن نعلل الخواء الذي كان قد حل بنا وكأنه ليس الا دقـات الساعة لموعد الغداء · وكان شموليك ، الذي كان يسير خلفنا ببطء مقفر الروح ، اكثرنا خواء ، وعندما استعجلناه اجابنا مبتعدا عن الموضوع قائلا : «ماذا تعرفون انتم ! حصان كهذا لا نراه كل يوم ! » ثم عاد يتأمل حزنه · وفي هذه الاثناء كان قد توفر لدينا بعض العرب والعربيات الذين التقطناهم هنا وهناك ، فجمعناهم وسقناهم امامنا دون ان نعيرهم اي انتباه ، سواء كان ذلك بالنسبة الى شكلهم . او توسلاتهم . او الى بكاء يرتفع هنا ودموع تتساقط هناك ، حتى ولا الى ذلك الذي كان قد اعد لنفسه ، لسبب ما ، علمـــا ابيض ، مما تيسر لديه ، وخرج الينا يلوح به ويتمتم خطابا ، كما لو كان رئيس بلديـة يحمل مفاتيح الاستسلام في يده ـ لم يثر فينا غير السأم ، وغضب لا يفسر ، كان يزداد بنا حدة شيئا فشيئا ، الى ان تحول الى قسمات مضطهدة على وجوهنا ، وكأننا نحـــن الذين خدعنا ، ونحن الذين اغتصبنا ـ ولسنا مستعدين للتنازل عن اي شيء ، او نسمح بأي شيء ، ومن دون ان ندري ما الذي لن نسمح به ·

اذ من الذي كان في الواقع هناك ، غير بعض النساء واطفالهن على اذرعهن (اطفال عرب دامعون ، رائلون ، ملفعون بالاسمال والخرق) وبعضهن الاخر كان يسير متمتما · كما كان بعض الشيوخ يسير بمشية جنائزية صامتة كما لو كان يسير الى يوم الديـن · وآخرون من الكهول الذين كانوا يشعرون بأنهم ليسوا شيوخا بما فيه الكفاية كي يكونوا آمنين من شر ما سيحل بهم من غضب ، تعتريهم رغبة في الشرح ، وغريزة في التمرد ، تتكشف هنا وهناك في نظرة او نظرتين · وكان ثمة اعمى بينهم يقوده ولد ، ربما كـان حفيده ، يسير وعيناه تجولان بذهول وفضول ، لاهيا عن الكف المبسوطة فوق كتفــــه والمصيبة النازلة فوق رأسيهما ، حتى انه كان لا يكاد ينتبه كلما تعثر بين حين واخر ، خشية ان يلهيه ذلك عنا · كان كل اولئك العمي ، والعرج ، والعجز والنساء والاطفال سوية ، كما لو كانوا يطلعون من مكان ما من التوراة ، حيث تقص علينا عن شيء كهذا، لا اذكر اين ، وبالاضافة الى هذا الاصحاح من التوراة الذي كان يثقل القلب ، وصلنا الى مكان مفتوح ، حيث كانت ثمة جميزة وارفة الاغصان تنتصب في وسطه ، وتحتها ، كانوا يجلسون اكداسا ، لقد شاهدنا جمهور القرويين كله مكدسا وصامتا ، كتلة هائلة وملونة ، كل الذين كانوا قد جمعوا · جمهور واحد صامت ويرافق بعيونه كل ما يحدث، وبين الفينة والاخرى كان ثمة من يتأوه منهم ويقول « اخ يا رب » ·

كان اولئك الذين احضرناهم نحـن قد وجـدوا مكانـا لهـم وتجمعوا في الحـال تحـت الشجرة ، الرجال وحدهم ، والنساء وحدهن ، واجلسوا اردافهم بتثاقل ، ولـم يعـد

بالامكان تمييزهم من بينهم جميعا • كان قد جمع الكثيرون هنا ، صيد اكثر مما كان متوقعا ، داكنو الثياب ، بيض العمائر (مناديل ملفوفة حول طرابيش صغيرة للرجال ، ومناديل بيض ومطرزة للنساء) • كان ثمة من جلسوا وتمايلوا بظهورهم كما لو كانوا في صلاة ، بينما دحرج آخرون سبحات العنبر العسلية بشكل عام ، او مجرد سبحات سوداء • وهنالك من كتفوا ايديهم الكبيرة الخشنة ، أيدي فلاحين ، على صدورهم ، بينما راح آخرون يفركون اعواد القش والعشب بأيديهم لمجرد ان يفعلوا شيئا ما ، وعيونهم جميعا كانت تجولنا ، وتتعقب كل حركة لنا ، ولا يقولون شيئا سوى تلك التنهيدة التي تطلق بين الحين والاخر « اخ يا رب » •

اما بين النساء فقد كانت تدور جلبة باكية رتيبة ، كما لو كانت غير صادقة ، وحين كان البكاء يعول احيانا ويختنق ، كان بعضهن يخرجن اثداءهن لرضعهن ، وبعضهن يقنعن معظم وجوههن تاركات فيها عيونا خائفة ، وبعضهن كن يثرثرن احيانا ويصرخن بالصبية الذين نفد صبرهم فراحوا يقفزون ، ويقتربون منا ، ويتكئون بأكف ارجلهم الحافية على ركب ارجلهم الاخرى ، ويلتهموننا باعينهم ، مستغربين كل ما نفعله ، كما لو كان عرضا مسرحيا • الا ان ثمة بكاء ما كان ينفجر بين حين وآخر ، فاتحا معه كل مغاليق القلوب والدموع ، فيعم عندها بكاء نسوي شامل ، الى أن يصرخ بهن احد الشيوخ يزجرهن ، فيكبتن بكاءهن شيئا فشيئا •

ولكن عندما انفجر احد البيوت الحجرية بصوت يصم الآذان فجأة ، وبعمود من الغبار المتصاعد ، وشوهد سقفه من هنا وهو يرتفع قطعة مسطحة واحدة وسليمة ، كما هي ، ثم تصدعت وتحطمت في الفضاء فجأة ، فتناثرت وسقطت كتلا كتلا ، نتفا ، نتفا ، بغبار وبرد من حجارة ، قفزت امرأة كان البيت ، كما يبدو ، بيتها ، وانفجرت بصرخة متوحشة ، وانتصبت تهم بالجري في اتجاهه ، طفل على يديها واخر بائس كان قد بلغ السن التي يستطيع الوقوف فيها على رجليه ، يتعلق بذيل ثوبها ، وهي تصرخ وتشير بيديها ، وتتكلم وتشهق ، فانتصبت رفيقة لها تتبعها اخرى وشيخ ، ثم بدأ الآخرون بالنهوض بينما اندفعت هي تركض ، والطفل المتعلق بذيل ثوبها ينجر خلفها برهة ثم تهادى على الارض يثغو باكيا وعجزه الاسمر عار • انطلق احد شبابنا يعترضها صارخا بها يستوقفها • فراحت تتكلم شارعة بالصراخ اليائس بين الفينة والاخرى وهي تدق صدرها بيدها الفارغة ، وقد ادركت دفعة واحدة ، كما يبدو ، بأن الامر ليس مجرد انتظار تحت اغصان الجميزة لسماع ما سيقوله اليهود والعودة بعد ذلك الى البيت ، وانما هي النهاية لبيتها ولعالمها ، وان كل شيء كان قد أظلم وتهدم ، لقد تعرفت فجأة الى شيء ما ، مبهم ، فظيع ، لا يصدق ، ينتصب امام عينيها دونما حاجز ، ملموسا وقاسيا ، وجسدا لجسد ، ويستحيل رده • وكان ذلك الشاب قد تجهم كمن سئم الاستماع فعاد وصرخ بها يأمرها أن تعود الى مكانها ، الا ان المرأة كانت قد تخطت كل الانذارات، فنحته من دربها وراحت تجري الى مكان الانفجار ، غير انه وبحركة من يده كان قد أمسكها بمنديلها ، فانحسر شعرها وتشعث امعانا في اهانتها ، الامر الذي اثار امتعاض الجميع ، وغضبا جامحا في قلب المرأة • فاختطفت منديلها وعادت تغطي به رأسها وطفلها الذي كان على ذراعها بحركة محتجة ودفعة واحدة ، بينما راح طفلها بزعق بكل ضالته ، ثم اسرعت وامسكت بذيل ثوبها الثقيل وراحت تعدو في اتجاه بيتها الذي كان قد هدم •

ـ « دعها » ، قال شخص ما ، « فانها ستعود » •

ـ « خواجا » ، كان احد الشيوخ قد انتصب حينئذ ، وهو من وجهاء القرية على ما يبدو ، وخرج من بين شعبه في اتجاهنا ، واحدى يديه معقودة على صدره ، بينما امتدت الاخرى امامه تسترعي انتباهنا ، وبنوع من الطقوس الادبية التي يجدر بالطرفين الاعتراف بها كقاعدة لاية مفاوضات ، وكما يليق بالوجهاء ، تقدم منا واختار واحدا من بيننا جميعا يتفاوض معه · الا ان ذلك الذي كان قد وقع اختياره عليه ، لم يمكنه من قول كلمة واحدة وراح يشير الى مكان ذلك الشيخ صارخا في وجهه : « انت تجلس هناك في مكانك الى ان يستدعوك » ·

والشيخ الذي حاول ان يجيبه ، او ربما يثبت له شيئا ما ، تمالك نفسه وهز كتفيه عائدا الى مكانه ببطء ، مستعينا بعكازه وببعض الايدي التي امتدت من بين الجالسين اليه ، ثم عاد وجلس في مكانه ببطء وهو يتنهد قائلا : « لا اله الا الله » · وثمة شيء ما توراتي عاد وتالق في الفضاء ، سرعان ما كان يعقبه شيء آخر ينذر بالشؤم ، فيحل محله ويتعلق في الفراغ · وكل من كان قد نسي كيف سينتهي كل ذلك الذي يجري ، عاد وايقن ما الذي ينتظره ·

ـ « ما اسم هذا المكان بالمناسبة ؟ » قال شلومو حينئذ سائلا ·

ـ « خربة خزعة » ، رد بعضهم ·

ـ ٧ ـ

دعونا في هذه الاثناء للغداء ، ولم يكن موعد الغداء في محله مرة كما كان هذه المرة· اذ اننا سنتخلص من كل تلك الاشياء التي تجري تحت من ناحية ، وسنسعد بذلك النزر القليل من الشمس الدافئة المتبقية لهذا اليوم من ناحية ثانية ونستطيع التفكير في اشياء اخرى ، كما اننا ، وبكل بساطة ، كنا جائعين تماما · وبينما كنا لا نزال في الطريق قال لنا شلومو :

ـ « ان ما يدور هنا في اسفل القرية سيء · لا بد وان تكون ثمة مشاكل » ·

ـ « لا عليك ! » اجابه يهودا بثقة ديكية ،

« أهؤلاء يثيرون مشاكل ؟ اين ! » ·

ـ « لا يروقني كل ذلك » ، قال شلومو ·

ـ « فليكن » ، قال يهودا ، « فذلك ليس بسيئما » ·

ـ « اني استطيع نسيان تينك العجوزتين ، اللتين كانتا تجلسان هناك ، شيء مر ·· عب ! » ·

لا احد سايره في الحديث ، فاستمر وحده : « لقد انتابني هناك ما انتابني في البداية، عندما شاهدت القتلى والجرحى والدماء لاول مرة · هل تذكرون ؟ لقد كان ذلك رهيبا ، ظننت عندها انه سيلاحقني دائما · وماذا اليوم ؟ فالقتلى والدماء اليوم بل وكل شيء اصبح لا شيء لدى ! » ·

ـ « نتعود » ، كلمة واحدة قالها يهودا له ، كانت هي الاخرى مليئة بالايماء والعزاء الساخر ·

وصلنا أحد الحقول المجاورة لبيوت القرية ، والمحاذية لطريق ترابية كبيرة تربط هذه القرية بالطريق العمومي الكبير ، البعيد • فجأة ولسبب ما راودتني فكرة بأن هذه الطريق المداسة بآلاف الخطى منذ اجيال واجيال ، قد تنبت منذ الان اعشابا ، وانها ستتشابك وتوحش لخلوها من المارة • وسرعان ما عاودتني تلك الانغام التي كانت تطن في ، وانبعثت في الاعماق مني موجة سخط ، وذلك الشخص القانط في اعماقي كان يتجسد لي كيف انه يصك الآن اسنانه ويطبق قبضتيه •

حاولنا المحافظة على روحنا اللامبالية ، والتنفض من كل ما كان في الاسفل ، كبطة تخرج من الماء • وزعنا علب المحفوظات والبسكويت والكلمات المختلفة والدسمة ، بصخب ، ونحن نتمدد فوق سقيط تينة عادية متعفن ، نحاول ان نجد شيئا ما علنا نزيد به من ضحكنا ، الا ان ثمة شيئا ما اصم كان يتراكم في الفضاء بدلا من ذلك ، وان كان صفاؤه ، وبدون اية علاقة لما يدور هنا ، قد تكلس في هذه الاثناء ، وتكدر ، وشاشات بيض ، ضبابات او ربما ارتعاشات ابخرة متراكمة ، كانت تتقاطر وتنعقد في زرقة صافية اكثر فاكثر ، وكان واضحا ان المطر سيعود ويهطل غدا او بعد غد •

حاول شموليك ، الذي كان لا يزال يندب مهره الذي فر ، ان يدير حديثا خاصا جدا ورفاقيا مع غابي ، فقال وهو يدير ظهره الينا صانعا له ولصاحبه غابي دائرة مغلقة ومنفردة ، وينهش من لحم العلبة :

ـ « الا تعجبك ؟ »

ـ « من ؟ » زفر غابي زفرة جافة •

ـ « دققلي • الا تجدها ، كيف اصفها ، هيا ، انها ، هكذا ، فلنقل انها لا تشبه ـ سائر ـ الفتيات ، ما رأيك ؟ »

ـ « بل تشبه ونصف » ، قال غابي •

ـ « لا • ليس هذا ما اعنيه »، قال شموليك • « اتعتقد انها مغرورة ؟ »

ـ « اطلاقا لا » ، قال غابي • « وربما كان صحيحا • ما الذي يهمني » •

ـ « الا يهمك ؟ » ، استغرب شموليك ، « أما انا فلي بالذات رغبة في ان اعرفها قليلا » •

ـ « تجنبها » ، تدخل اريبه ، « كي لا يحدث لك معها ما حدث مع ذلك الحصان ! » •

كنا جميعا نبتسم ، ونأكل ،نهدىء جوعنا ، ونمرر الوقت ، وقد بدأنا نتدبر امرنا بسهولة • وان لم تخني اذني فان قارب « الى البيت » كان قد تردد ذكره مرة هنا واخرى هناك (وقلبك يطير بك فرحا الى امكانية رائعة كتلك للحل والخلاص :) • وحين كنا قد بدأنا نلتهم البرتقال ونتعطر بعصيره القاطر كان غابي يستجوب مويشي من خلال فمه المملوء ـ عما تبقى لنا هنا نفعله ، شارحا له ما هي الفوائد التي ستعود علينا جميعا ، اذا ما انتهينا الآن وعدنا ، اما ما تبقى من عمل فان الآخرين سيتولون امره ، ومع هذا اضاف مغمغما ـ فان المدفع الرشاش في حاجة للصيانة ايضا ، الا ان مويشي لم يستجب الى هذا الاغراء وقال لنا :

ـ « قبل كل شيء علينا ان نفحص جميع العرب الذين جمعوا تحت بدقة ، لتمييز الشباب المشتبه بهم من بينهم • وثانيا فان الشاحنات ستأتي لكي تشحنهم جميعا ونبقى القرية فارغة ، اما ثالثا فعلينا ان ننتهي من الحرق والنسف • وبعد ذلك نذهب الى البيت » •

كانت امعائي قد تقلصت لسبب ما وعفت الاكل • شعرت كيف انني ارثي لنفسي وللتجارب التي تواجهني • لا ادري ما الذي احس به الآخرون • انتظرت غابي بفارغ الصبر عله يستمر في تذمره كعادته ، كي اصل الى ما كنت اسعى اليه كعادتي ، وبالفعل ، فانه لم يقف مكتوف اليدين • وسرعان ما راح يتذمر مما كنا قد فعلناه اليوم وما الذي كان قد فعله الآخرون ، كم مشينا نحن ، وكم مشوا هم • كم سحبنا المدفع الرشاش وصناديق الذخيرة ، وكم جلسوا تحت الجميزة يضيعون الوقت عبثا • كما وادعى بأنه يحق لنا ان نعود قبلهم ولو مرة واحدة ، وانهم يركبوننا دائما ، واشياء اخرى كثيرة ـ وهذا ما طرح وفسر رغبتي المكبوتة والمتحفزة اكثر فاكثر لان اقوم وانسحب من هنا بسرعة ، قبل ان تبدأ العملية وتتجسد بالفعل • فاذا كان لا بد من التلوث فليلوث الاخرون ايديهم ـ اما انا فلا استطيع • وبكل وضوح • الا انه سرعان ما انطلق في داخلي صوت آخر ينشد : يا ايتها النفس الجميلة ، يا ايتها النفس الجميلة، يا ايتها النفس الجميلة ، باستفزاز متزايد وبترنيمة للنفس الوديعة التي تترك العمل الخسيس للآخرين ، لتلك التي تغمض عينيها بورع ، وتنحيهما جانبا كي تنقذ نفسها مما قد يغضبها ، ـ كذا طاهر العينين عن رؤية السوء انت ، والى الظلم لا تستطيع ان تنظر • وكنت كارها لكل وجودي برمته •

الا ان مويشي لم يجد ما يعقب به على خطاب غابي كله باكثر مما قاله باختصار :

« هيا انتهى ! » •

جمعنا ادواتنا وانحدرنا الى الجميزة ـ المعتقل • ترددت محاسبا نفسي ، ثم تشجعت وقلت لمويشي :

ـ « الا بد لنا من طردهم ؟ ما الذي يستطيع هؤلاء فعله بعد : لمن يسيئون ؟ فالشباب على اية حال ••• ما الفائدة ؟•• »

ـ « آه ! » قال لي مويشي مترددا ، « هذا ما هو مكتوب في امر القتال » •

ـ « ولكن ذلك خطأ » ، ادعيت ، ولم اعرف ايا من بين كل الادعاءات والخطب المتخبطة في داخلي اطرحها امامه كاثبات قاطع ، ولذلك عدت وكررت : « انه لخطأ حقا ! » •

ـ « ما الذي تريده اذن ؟ » قال مويشي وهز كتفه وتركني • كنت اختار ، لاسباب شتى ، وليست جميعها صلفا ان اصمت انا ايضا ، ولكنني ما دمت قد بدأت ، وما دام يهودا يسير الى جانبي ، فقد انهلت عليه سائلا :

ـ « اي حاجة لنا في طردهم ؟ » •

ـ « قطعا » ، قال يهودا ، « ما الذي تفعله بهم ؟ اتكرس لهم سرية من الحرس ؟ » •

ـ « اي اذى يستطيع هؤلاء الآن الحاقه ؟ » •

ـ « يستطيعون واي استطاعة · فعندما يبدأون بزرع الالغام في الطريق لك · وينهبون المستوطنات ، وفي كل فرصة تلوح لهم ـ فانك ستشعر عندها بهم جيدا » ·

ـ « هؤلاء ؟ » ·

ـ « لم لا ؟ اهم اصغر مما يجب ، ام انهم ابرياء اكثر مما يجب ؟ وعلاوة على ذلك ، فلا بد وان يكون بينهم صعلوكان او ثلاثة دائما ، وربما اكثر ، لا تعرف بوجودهم ايضا » ·

ـ « انها مجرد تخمينات » ، قلت ·

ـ « ماذا تقترح اذن ؟ » قال يهودا ·

ـ « هذا ما لا اعرفه بعد ··· » ·

ـ « اذا كنت لا تعرف ـ فاصمت اذن » ، قال يهودا ·

ويبدو ان هذه النصيحة كانت تجْمل بي منذ البداية · ولكنني كنت مثقلا بما اقوله · وكنت قد نطقت ولم اعرف كيف اسكت · ولانه لم يكن ثمة من اشتكيه امري ـ شرعت بالتشكي لنفسي احدثها : « هي ذي الحرب ! احرب هي ام ليست حربا ؟ فان حربا كانت ففي الحرب اذن كما هو في الحرب (صوت ثان : حرب ؟ ضد من ، اضد هؤلاء ؟)ـ الصوت الاول (مواصلا كمن لم يسمع شيئا) : الابرياء الكاملون بالقطع ليسوا هنا (اذن اين هم ؟) ··· حتى وان كانت نيتنا سليمة ومستقيمة وصادقة ـ فلا يمكن لك ان تدخل الماء وتخرج دون ان تتبلل (عجب عجاب !) · ان تدرك وتوافق بانه يتحتم علينا ان نفعل ـ شيئا ، وان نقوم ونغلظ القلب ، ونرتكب من الافعال ما هب ودب ـ فهذا شيء آخر دائما ··· ومن ثم ، من ذا الذي ينبغي عليه ان يجهد نفسه ويغلظ قلبه ؟ ـ فهو بالطبع غليظ ، لا ابالي ـ لا ابالي ·وقفة قصيرة · وعلى الفور ، وبحنق الاعتذار الذي يتحول الى هجوم مضاد : اذن فان تلك القرى التي اخذناها بعصف الحرب لم تكن شيئا آخر ؟ او اولئك الذين فروا وخوف خفي يلاحقهم ؟ او قرى اللصوص التي ما نهاية سدوم بكثيرة عليها ـ لم تكن كلها سوى شيء آخر تماما ! ··· ولكن ليس هذا ··· ليس هذا ··· فان ثمة شيئا لا يزال مبهما · نوع من الشعور السيء فقط · كما لو كانوا يفرضون عليك كابوسا مزعجا ، ولا يدعونك تستيقظ · انك مشوش بعدة اصوات · انك لا تعرف ماذا · قد يكون ذلك ان تنهض ، ان تنهض وتعترض ؟ او ربما كان ذلك ، العكس ، ان ترى ، وتوجد ، وتحس حتى النزيف ، كي ·· كي ماذا ؟ يمر الوقت ·الوقت يمر · يا ابن آدم (وقفة عاطفية) · انك لمخلوق ضعيف · (وقفة اخرى) · فلتثر ولتتفجر · (ايتها النفس الجميلة · ايتها النفس الجميلة ·ايتها النفس الجميلة !) ·

كان الازدحام قد ازاد تحت الجميزة في تلك الاثناء · كان قد اصبح في الدائرة عشرات كثيرة ، ربما مئة شخص · فاذا ما وقفت على الحياد ونظرت متغاضيا عن الظروف ، فبامكانك ان تخطيء بكل سهولة ، وتتذكر ايام السوق الريفية · او ايام المولد النبوي ، او ربما الاحتفال بنبي ما او شيخ ، حين كان الجميع يتجمهرون بالازدحام نفسه ، تحت كل شجرة فارعة ، وفي كل ظل ، وينتظرون بحشد محتفل ثقيل الحركة ، كالعجين المتخثر ، لا يبالي بالذباب ولا بالروائح الكريهة ولا بالعرق المتصبب ولا بالازدحام والضجيج ، شريطة ان يحدث ذلك الشيء الاحتفالي الذي ينتظرونه ـ غير

ان هذا الصمت لم يكن ليترك اي مجال لمثل هذا الخطأ ، حتى وان كان يسمع ، في الوقت الحاضر على الاقل ، كما لو كان طنين خلية من النحل ، او ازيز مخلوقات خفية ، يعلو ويخفت في ظل الشجرة الكبيرة · شخص ، ذو شارب غليظ ، كان يجلس في طرف الدائرة ويلف بيديه القرويتين السمراوين وبهدوء ، لفافة ، جاعلا من حجره ورشة صغيرة لهذا الغرض ، كان يجمع اوراق التبغ ويفركها ثم يحشوها في اللفافة جيدا ضاربا عليها من كلا طرفيها ، ثم ينهمك بالقداحة الصوانية يستقدحها الى ان اورت له في النهاية شرارة صغيرة ، اوقدها بالنفخ عليها وهو يخفيها بين يديه ، ثم اشعل اللفافة وراح ينفث مستمتعا ، دخانا عفنا ، مظهرا به فضلات حرية تبقت ، واملا بالمستقبل ، شيء من « يكون خيرا » ، والذي يوجد دائما من يذكيه بقوة ارادة هادفة ، سرعان ما يؤمن بها كما لو كانت البداية للخلاص ، بل وينقلها الى جيرانه بالايمان الخالص ــ هذه الميزة الجميلة ، التي غدت الآن بائسة جدا وساذجة جدا ما دمت (كما لو كنت ، الاله الذي في السموات) ، تعرف ما لا يعرفه بعد ·

والى جانبه ، كان ثمة رجل آخر ، يجلس ويخطط باصبعه على الرمل خطوطا متقاطعة ومتواربة ، ومتداورة ، ويمرر اصبعه في الطرق الرملية بشرود نفسي ما هو في الواقع سوى تركيز نفسي آخر · وليس من الصعب قراءة اقوال انسان مقهور ، فيما كان قد خطط ·

لعل واحدا يقوم من بينهم ويقول : اننا لن نتحرك من هنا ، يا ايها القرويون اصمدوا وكونوا رجالا ·

تجولت بعيني هنا وهناك · لم ارتح · من اين اطل في الوعي بأنني متهم · وما الذي بدأ يضغط علي كي اعتذر ؟ كان الهدوء الذي يخيم على مشية رفاقي لا يزيدني الا محنة· احقا انهم لا يعرفون ؟ ام انهم يتظاهرون بانهم لا يعرفون ماذا ؟ ولو انني قلت لهم فانهم لن يصدقوني ، ناهيك عن انني لا اعرف حقا ما الذي اقوله ، بل ليتني اعرف قول ماالذي بي فقط · قلق هو الذي بي · ثمة شيء ينقصني ، وسيلة ، اتشبث بها · تشبثت باولئك الـ « مبعوثين في مهمات معادية » الامجاد ، المذكورين في امر القتال · استعرضت امام ناظري كل تلك المصائب والمآسي التي جرها العرب علينا · رددت اسماء الخليل وصفد وبئر طوبيا وخولدا · تشبثت بالضرورة ، وهي ضرورة مؤقتة ، ستنتفي مع الايام هي الاخرى ، عندما يستتب كل شيء · فعدت وتأملت ذلك الجمع الهامس هنا على قدمي، همسة خافتة ، بريئة وحزينة ــ ولم ارتح · تمنيت لو ان شيئا ما يحدث فيمسكني ويقذفني بعيدا عن كل ذلك فلا ارى كيف سيكون ·

وفي هذه اللحظة بالذات طلب الي مويشي ان اعتلي الجيب مع عامل اللاسلكي ، ومع شلومو ويهودا ، كي نخرج ونستطلع المنطقة · من السهل فهم كيف انني انطلقت وكيف اننا ابتعدنا عن مكاننا (والعيون كلها ترافق ما نفعله) بسرعة واندفاع على الرغم من الازقة والمنحنيات · خربة خزعة القذرة هذه · هذه الحرب · وكل الاشياء ·

تسلقنا سفح تلة ، لم تر حتى في احلامها شيئا سيارا فوقها ، بمغامرة مدوخة ، بينما كان المنحدر يفلت من تحت العجلات ، التي كانت تعود وتتشبث بحصاه المنزلق في اللحظة نفسها التي كان فيها الجيب ينطلق ويندفع كطرف العين ، ويتقد بكامل قوته ، وبرغبة تياهة الادراك بالعنفوان للصراع ، وصل الجيب الى قمة التل بسرعة ، حيث اخذنا هناك مكانا لنا نشرف منه على البراري في الجانب الآخر ·

نظرة اولى واذا بالارض الرحيبة تتمطى امامك ، مبرزة كل خطوطها المتناسقة ، المثقلة المعقرة بخصب ريان ، بنور اسطع ، وبريح خفيفة كانت قد هبت لينا في هذه الاثنـــاء هبوب حسن ومتعة الى حد الاحساس بالتذوق واستثارة الشهوة · فأضفي علــى الكــل حينئذ ابعاد جديدة ، آفاق فتحت واخرى اغلقت ، وبدا وكأن شيئا ما كان قد لفـــه النسيان تقريبا ، مع انه في الظاهر صلب ويمكن الاتكاء عليه ــ حتى اللحظة التاليــة التي يتجسد فيها وجوده ــ واذا بمربعات الحقول ، المحروثة والمورقة ، والبساتين الظليلة ، والوشائع الشجرية التي تقطع السهل قوالب مسترخية وممتدة ، والتلال الملونة التــي تخفي وتكشف آفاقا لازوردية بعيدة ، قد خيم عليها كلها اسى اليتم ولفها الحداد · حقول لن تحصد بعد وكروم لن تروى وسبل تقفر · كما الضياع كانت كلها كما العبث · كتشابك العليق والاشواك فوق كل شيء ، وكصفرة اليباب ونهيق الخواء · واذا بتلك العيــون المتهمة تحدق من قلب الحقول بك ، انه صمت النظرة المتهمة ، تمامـــا كتلك التـــي للحيوانات المهانة ، تحدق بك وتصحبك ولا مفر ·

ومن بعيد رأينا بعد ذلك ، فوق احدى التلال التي تشقها الطريق الترابية الكبيرة ، عدة شاحنات تتقدم منا ببطء ، تزحف كخنافس عمياء ، وتصارع حفر الطريق ولا صوت يسمع لها بعد · ويبدو ان ما كنت قد فكرت به ارتسم على وجهي دون ان ادري ، اذ ان عامل اللاسلكي التفت الي في نفس الوقت الذي كان يتصل فيه ، قائلا :

ــ « انك سيء المزاج اليوم ، ما الخبر ؟ » ·

ــ « لست سيء المزاج اليوم ، وليس من خبر » ، اجبته بنغمة لا تذكر في الواقع بنغمة ازواج خراف تجتر عند الغروب ، وان كنت لا تكترث منها هي تصرخ ــ هل تود الضرب ، تعال فاليك الضربات لك ! بالحماسة نفسها التي يهين شخص ما رفيقه بسبب كراهيتــه لوجهه الذي وشى بقلبه ·

انحدرنا من فوق التل ، على شفا هاوية (كانت قد تملقت هواجسي) الى أحد الكروم ، وبينما كنا نغوص في الاثلام الطينية الموحلـــة ، مندفعين الى الامام والى الخلـــف نشق طريقنا ، اصيب يهودا ، الذي نزل من الجيب يدفعه ، بكتلة طينية كثيفة ، فعاد الينـــا ملطخا كله وراشحا ومرشوشا ، وهو يشتم السائق والاعيبه التي لم تعـــد الاعيب ، غاضبا من ضحكنا وسخريتنا ومتوعدا بانه سوف يرينا ما الذي سيفعله بنا ، ولم يهدأ غضبه حتى عندما خرجنا وسرنا اخيرا في الطريق الترابية ، بل ولا عندما رحنا نعزيه بأن كل شيء سرعان ما سيزول مجرد ان نجلس ولن يبقى اي اثر ، اذ ان الوحل ليس بوسخ وانما هو تراب رطب ليس الا ·

تجولنا من بعد بالمسارب اللاهثة ، تسكعنا بين الوشائع المكتظة كقطيع مذعور ، قطعنا ممرات حقول شعرية ــ اسفنجية مفتوحة ، كانت الغلال تنبت على جوانبها كما في كــل عام ، تمشطها الريح امواج ظلال واطئة ، متدفقة سائرة باستمرار كعادتها · اما انــا فقد تخيلت ان ثمة كف ليد تخط عليها عنوة « لن تحصد » ، ومرت على الحقل كلـــه وما جاوره بسرعة ، تتخطى البور والمحروث ، واختفت في التلال واجمة · تقصينا كل مشروع زراعة في القرية وحقولها ، فادركنا اختيارهم لاماكن الكروم ، وفهمنا دوافعهـــم للحواكير ، وبساتين الخضار ، كما واتضح لنا المنطق في حقول الفلاحة والكراب ، البور منها والمحروث ، لقد كان كل شيء واضحا جدا (مع انه كان من الممكن التخطيط لما هو افضل في رأينا ، وقد شرعنا في ذلك دونما قصد منا ، كل يخطط لنفسه) ــ ولا ينقصها

سوى ان يأتوا ويواصلوا اعمالهم فقط ، قسائم كانت قد بورت واخرى زرعت بحساب ، وكل شيء كان متوقعا ومحسوبا بحذر ، لقد قرأوا السحب وراقبوا الريح ، وربما توقعوا القحط ، والسناج ، واليرقان ، وحتى فئران الصيف ، بل تدارسوا الاسعار التي تعلو والتي تنخفض ، واذا ما ضربت هذه الاسعار من هنا ، كيف تعدل من هناك ، فاذا ما خسرت الحبوب ، يربح البصل – اللهم ، بالطبع ، الا الحساب الوحيد الذي لم يكن بالحسبان ، والذي يسرح الآن بالذات ويمرح ، ويغشى المزارع الشاسعة كي يرثها ٠

ولان السبل كلها كانت موحلة ، ولاننا كنا قد جبنا اطراف الحقول كلها (لم يظهر رجل واحد ٠ سوى مرة فوق تلة مجاورة ، حين رأينا عدة اشخاص ، شردتهم طلقة واحدة وكأن الارض كانت قد انشقت وابتلعتهم) ، عدنا الى الطريق الترابية الكبيرة متأخرين جدا ، وحين خرجنا اليها كانت اربع شاحنات كبيرة تنتظر في رتل واحد، امام بركة ماء مستطيلة ، كانت قد أحبت العبث فغفت في منتصف الطريق تماما ، دون ان تترك اي ممر سواء الى هنا او هنا ، بينما وقف السائقون ومساعدوهم على ضفافها يتصايحون البيانات والتصريحات مع الجانب الاخر ، وبغض النظر عن العبارات المختلفة الاخرى قالوا ايضا بانهم يكتفون بما غاصوه حتى الان – ومن بعد نهاية العالم! وانه لن يضير – في رأيهم – اي اعرابي في العالم اذا ما اجهد رجليه الناعمتين واتى اليهم بنفسه ، وليقل شكرا على ذلك ! وفي المقابل كان ملازمنا يقف في الناحية الثانية زاعقا بما يقوله من ناحيته ، الا انه كان لا يستطيع اقناعهم ويبدو انه كان هو الخاسر٠ فادعاؤه بان ارضية المياه الراكدة ليست موحلة ، لم يقنع احدا بعد ان كانوا قد كفروا بوجود اية ارضية تحت الماء ٠ ولذلك فقد وقع الاختيار على سيارتنا الجيب لان تكون رائد – تجارب ، مقترحين علينا ان نقطع الماء بسرعة وكأن شيئا لم يكن كي لا نغوص ، ورويدا رويدا كذلك وكأن شيئا لم يكن كي لا نغوص ٠ وبالطبع وفي وسط البركة بالضبط، ولسبب ما ، انطفأت السيارة ، ولا فرق بعد ذلك ما اذا كانت قد عادت بعد لحظة واديرت ثم قطعت البركة بسهولة وكأن شيئا لم يكن (وهي تفج امواجا قذرة مزبدة) ، باشتثناء خرطوم مياه عكره كان قد وجد طريقه الى ما كان لا يزال جافا من ثياب يهودا بالذات (والمسكين وصل به غضبه الى حد السكوت المنذر شرا ، والمخجل حتى الخزي) – والامر لم يحسم ، فقد رفض السائقون الاستماع ، واعلنوا انهم سيستديرون بشاحناتهم ، بشتى الحيل ، وفي الحال ، استعدادا للعودة في الطريق الترابي ، اما عربنا فما علينا الا ان نحضرهم الى هنا عبر الثغرة التي في السياج من فوق ، ولم يكن الوقت الطويل جدا الذي اضعناه الا عبثا ، اذ هذا ما كانوا قد طالبوا به منذ البداية ٠ وعندها صعد ملازمنا الاول الجيب عائدا الى القرية ، بينما كلفنا نحن بتوسيع الثغرة واعداد الطريق٠

وبالطبع لم نحرك ساكنا ، اللهم عدا اثنين او ثلاثة الواح من الصبير كنا قد دسناها باعقب البنادق صدفة ، وجلسنا بدلا من ذلك نشاهد صراع السائقين مع سياراتهم الهوجاء في الطريق الضيق ، وندرس كل حركة لها بمعرفة مهنية ، وبادراك فني ودخان سجائر ٠ اما يهودا فقد انتقل الى الجانب الاخر ، جانب الشمس ، ووقف هناك يحدق بالشمس بنظرات مخيبة للآمال يفكر في جبروتها مليا ، وبالتالي لم نشعر كيف تقدمت منا فجأة ، جماعات العرب الاولى ، وطلعت علينا برائحة ثيابها الخاصة ٠ فانقطع ضحكنا حالا ، وتقنعنا بوجوه فضولية ووجوه القائمين بواجبهم ، ومع هذا ، يخيل الآن الي ، أننا كنا نشعر بأن ثمة شيئا اكبر بكثير مما كنا قد توقعناه ان يكون ، كان قد بدأ ٠ لا أدري ما اذا كانوا قد قالوا لهم ، قبل ان يخرجوا ما الذي ينتظرهم ، والى اين يسوقونهم ٠ ومهما

يكن ، فقد كان منظرهم ومشيتهم لا يشهدان الا على قطيع خائف مذعن هامس متأوه ، ولا يحسن السؤال . ومع ذلك ، فقد كان من بينهم من يتوقع كل شر ، بل وربما كان من بينهم من يساوره الشك في القلب ، والغثيان المعتور في الاعماق ، دون ان يتكلم – ان ما ذلك الا اقتياد الى الاعدام .

كانت المجموعة الاولى قد توقفت أمام الثغرة التي في السياج . من يدري ، فربما كانت قطعة الارض هذه لاحدهم . وان هذا المكان المجرد في اعيننا ، ما هو الا مكان محدد لديهم قريب من شيء ما وبعيد عن شيء ما ، وله من المعاني اكثر مما هو مجرد طريق ترابي كبير معين . علقوا بالشاحنات عيونا بدأت تدرك ما الذي كان قد حل بهم ، فالتفتوا الينا ، يتلمسون أيا من بيننا جميعا يمكن التحدث اليه ، او ربما يتلمسون فيه الرجاء . وسرعان ما انبرى من بينهم أحد الرجال بقمبازه المقلم وحزامه الجلدي اللامع الابزيم ، وهو يرفع يسراه المعقوفة : اصابع رجل عامل تعطل عن العمل ، ويسعل قائلا شيئا ما . فصرخ بهم في الحال احدنا صوتا ، لا اعرف في الواقع كيف كان ، الا انه سمع حادا وصاحبنا اكثر مما كان ينبغي : « يا لله ، يا لله ! » والكتلة الآدمية المجهولة تلك سرعان ما تحركت وانحنت في الثغرة ، تعبر الواحد تلو الآخر ، يتابعون خطوهم في طابور واحد صاعدين ، في محاذاة سياج الصبار الواطيء ، ثم عادوا وخرجوا من الناحية الاخرى للبركة بالقرب من الشاحنة الاولى ، التي كان بابها الخلفي قد انزل .

كان السائق ومساعده قد وقفا هناك يستحثان الصاعدين ، فيمدان يدا لهذا ويدا لذاك يساعدانه بدفعة ، يقولان كلمة لفلان ، يعقبان على ذلك السمين ، وذاك القذر الكبير قطعا ، او ذياك العجوز الثمانيني الآخر او التسعيني قطعا . والغريب ان احدا منهم لم يحتج ولم يعترض . بل تسلقوا مستسلمين للقدر صاعدين وتراصوا في الشاحنة .

– « هوذا ! » كان السائق راضيا .

– « عدهم ، كم هم لديك هناك ؟ صاحوا اليه من الجانب الآخر للبركة .

– « كيف ذلك ، انهم لا يأخذون اي شيء معهم ؟ » سأل السائق .

– « اي شيء ؟ » سألوه .

– « اي متاع ، حرامات ، لست ادري ! » .

– « لا امتعة ، لا شيء ، فلتأخذهم من هنا وليذهبوا الى الجحيم » ، أجابوه من جانبنا . ومرة اخرى كان هنالك ما يبدو سيئا وخاطئا ، الا ان احدا لم يتدخل .

وهنا توجه الينا عربي من فوق الشاحنة فجأة ، ذلك المقلم اللامع الابزيم يخاطبنا :

– « يا خواجا ! (وصوته يشتد من خلال حديثه) – يا خواجات » ، مصححا لصيغة الجمع ، كي يخاطب الجميع ، ثم شرع في الحديث متكلما دون انقطاع ، مؤكدا ، شارحا ، وكأنه يقرأ من الكتب المقدسة ، وبشيء من حزم الواثق ببراءته ويستطيع اثبات ذلك ، الا اننا لم نفهم الكثير مما قاله . وكانت العينات والحاءات الحادة في مرافعته تنهال علينا غريبة كما لو كانت مضخمة واصواتا قائمة بحد ذاتها . وكان سكوتنا قد شجعه فراح يرفع يسراه دعما لدعواه . ويبدو ان همهمة بالموافقة كانت تتردد داخل الشاحنة ، بينما راحت العيون تترصد وقع الصدق في كلامه علينا . الا ان المجموعة

الثانية كانت قد تقدمت واقتربت فلم نوليه انتباها بعد ٠

كان هؤلاء الذين اطلوا يتقدمون في طوابير ، وقد صدمهم مشهد سابقيهم داخل الشاحنة فتوقفوا عن المسير ٠ وكان في اخر الطابور ثمة نساء كذلك فانطلق من بينهن عندها صوت ينتحب ٠ (اقشعر جلدي) ٠ بدا وكان شيئا ما سيحدث هذه المرة ٠ مر بي شيخان ، كانا يغذان السير ويتمتمان ، ولا ادري أكل الى صاحبه ام كل الى نفسه ، محاولان التوقف امام الجيب وقد بدا لهما مجلس جاه يرفعان اليه شكواهما ، الا انهم كشوهما هناك بالايدي لكي يتابعا طريقهما ويعبران : « يا لله ، يا لله » ٠ فتابعا طريقهما وعبرا ٠ الا انهما بدلا من ان يعبرا الثغرة ، واصلا السير في بركة الماء مباشرة يخوضان في الماء بأقدامهما الحافية وهما يرفعان ذيلي ثوبيهما بأيديهما ، كما لو لم يكن العبور في بركة ماء بشيء خاص ٠ فسار الاخرون في اثرهما يخوضون في الماء معتقدين ان هذي هي الطريق التي يتوجب عليهم سلوكها ٠ وكان ثمة من انحنى من بينهم متنهدا ، ثم خلع نعليه من قدميه وراح يقطع الماء ٠ لن اعرف لماذا بدا المشهد بالغ الاذلال والاحتقار ٠ كالحيوانات ، فكرت ، كالحيوانات ٠ ولكن عندما مرت بنا النساء مالت علينا احداهن وتعلقت بكم قميص شلومو وبكت امامه مستعطفة ٠ نفض شلومو يده يخلصها منها ، وراح يتلفت حوله يبحث عن مخرج ، او ربما ، مستسمحا معاملتها برفق ٠ الا ان يهودا الذي كان يقف هناك ناسيا ثيابه الملطخة ، صرخ بها بقسوة : « يالله ، يالله ، انت ايضا ! » ٠ اما هي فقد ارتعبت وذهبت ، وشلومو يعزي النفس ، ولا ادري أكان يشرح ، ام كان يعلل :

ـ « ما الذي كانت ستفعله هناك في القرية وحدها ؟٠٠٠ » ٠

داهمتنا بعد ذلك امرأة في حضنها رضيعة هزيلة ، تتأرجح كأداة لا نفع فيها ، طفلة غبراء اللون ، نحيلة ، عليلة ومتقزمة ٠ وكانت امها ترفعها بأسمالها وترقصها امامنا متوسلة ، بلهجة ليست هي بالساخرة ولا هي بالحاقدة ، كما ولا بالبكاء المجنون هي ، وانما هي ، قد تكون ، كلها معا : « أتريدونها ؟ خذوها ، خذوها لكم ! » ٠ تجهمنا بامتعاض ، فرأت في ذلك ربما نجاحا فتابعت ترقص ذلك المخلوق التعيس ، المقمط بالاسمال الملطخة بالغائط ، في احدى يديها ، وتربت بالاخرى على صدرها : « ها هي خذوها ـ اطعموها خبزا ، خذوها لكم ! » الى ان حزم احدنا امره وصرخ بها : « يالله ، يالله » ، وهو يرفع يده ـ لا اعرف لماذا ـ فتراجعت بينهن ضاحكة وباكية تغوص في البركة وهي لا تزال ترقص طفلتها بين يديها ، تضحك حينا وتبكي اخر ٠

ـ « انهم كالحيوانات ! » قال لنا يهودا شارحا ٠ فلم نعقب بشيء ٠

جمعوا النساء كلهن في شاحنة اخرى وهن يصرخن وينتحبن ، فلم يحسد احد منا اولئك المكلفين بهن ٠ وكان ثمة من يقف من الشباب بالقرب من الشاحنة صارخا بالمقابل بأنه لا ينبغي عليهن ان ينتحبن ما داموا لا يفعلون بهن شيئا ، بل يأخذونهن الى ازواجهن٠ وسواء كانت لغته العربية غير مفهومة ، او ان تفسيراته لم تقبل ، فان العويل والبكاء كانا قد ازدادا ، وانهلن عليه كلهن ، وقد فتح الباب لهن ، بسبع وسبعين شكوى واحتجاج وتهمة وتوسل ورجاء ، الى ان تراجع مرتبكا ، ولم ينقذه من ورطته هذه غير الصرخة التي اطلقها احدنا عليهن يسكتهن ٠

مر بنا بعد ذلك عدة رجال اخرين دون ان يتبسوا ببنت شفة ودون أن ينظروا الينا ٠

وكان منظرهم قد جعلنا نشعر بأننا ما نحن الا متسكعين وتافهين ومجرد صعاليك سفلة · ثم اعقبهم أعرج يمر بنا وهو يدمغ الرمل الرطب برأس رجله الخشبية وعكازيه ثقوبا · تضاحك الرجل ، لسبب ما ، لنا كما لو كان يعتذر ، وغاص يتقافز في البركة ، في نفس اللحظة التي قفزت فيها الفكرة لدينا بأنه كان ينبغي علينا في الواقع ان نقترح عليـــه العبور من حول البركة ، او على العموم ، ابقاءه هنا · قزم اخر مر ، وكان قد هم ، عندما وصلنا ، بالصراخ ، ولكنه راح يتنفس بصعوبة وهو يبتلع ريقه ، لكي لا يبصقه علينا ، او لكي يفسح ، ربما ، مجالا لصرخته ، ولكنه اكتفى بهزة قوية من يديه تفسر ــ تنـــذر ــ تطالب ــ تطلب ، وتنهد عميقا ، ثم عاد وتنهد ومر · تقدم من ثم اربعة عمي ، كل يـده على كتف سابقه ، وبالاخرى تلمسوا الطريق جاهدين بعصيهم ، محاجرهم تشخص الـى الاعلى نزرا ، واكثر مما ينبغي جانبا ، وكأن آذانهم هي التي تقودهم · وبالاضافة الــى اصغاء العمي الخاص ، وخوف الاصطدام في الخطوة المقبلة ، كان ثمة خوف كبير وعام ينسكب عليهم دون ان يعرفوا الى اين يذهبون وما الذي هناك في المكان الذاهبين اليه ، وما الذي يفعله الاخرون · تلمسوا وتلمسوا (أعجب كيف اهتدى واحدهم الى الاخر في جماعة واحدة) ، حين وصلوا البركة تقدم منهم شخص ما وامسك بيد الاول ، الذي هز رأسه العثنوني مستجيبا له بجهد اصغائي متزايد ، وقال لهم : « اقعـــدو هـــون » · فتراجعوا الى الخلف حتى حاجز الطريق واقعدوا حيث وقفوا ، قادحين زناد افكارهـــم لادراك ما الذي يحدث · ومر عجوز اخر محدودب حتى الانحناء فأجلسوه الى جانـــب العميان · عمنا جو من التسول ، والصديد والصرع ، ولم يكن ينقصنا سوى النحيـــب ورحمة تخلصنا من الموت ·

ــ « اي قرف هنا ! » قال شلومو ·

ــ « فليموتوا افضل لهم ! » قال يهودا ·

ــ « ما اكثر ما لديهم من العمي والعرج في هذه القرية ! » ، قال شلومو ·

ــ « لقد فر الاخرون ، وتركوهم لنا » ، قال يهودا · « ولكن الحبل لا بد لاحق بالدلو الان ، فيعودون الى مالكيهم » ·

ــ « ما لنا ولكل هذه الورطة » ، اندفعت الكلمات من فمي بلهجة احتجاجية اكثر مما أملـت ·

ــ « صحيح » ، وافقني شلومو ، « عشر معارك افضل لي من هذه الورطة » ·

ــ « ما بكما ؟ » دمدم يهودا ، وهو يكشط القطع الوحلية المتجمدة بأظافره · « ما الذي نفعله بهم ؟ انقتلهم ؟ كل ما في الامر اننا ننقلهم الى مناطقهم · فليجلسوا هناك اذن وينتظروا · وهذا جميل جدا من جانبنا · اذ لا يوجد مكان واحد في العالم حيث يعاملونهم فيه هكذا · وبغض النظر عن ذلك ، فان احدا لم يطلب اليهم بأن يبدأوا المشاكل » · تريث قليلا ثم اضاف قائلا بعد ان فكر مليا : « ما الذي سيحل بهم وما الذي سيشربون ؟ كان عليهم ان يفكروا في ذلك قبل ان يبدأوا ! » ·

ــ « بدأوا ماذا ؟ » قلت ·

ــ « فلتكف انت عن جعل نفسك صديقا كبيرا » ، قال يهودا بغضب شديد · « لقــد اشعنا النظام الان والهدوء هنا في هذه المنطقة » ·

وكان منظرهم قد جعلنا نشعر بأننا ما نحن الا متسكعين وتافهين ومجرد صعاليك سفلة · ثم اعقبهم أعرج يمر بنا وهو يمغ الرمل الرطب برأس رجله الخشبية وعكازيه ثقوبا · تضاحك الرجل ، لسبب ما ، لنا كما لو كان يعتذر ، وغاص يتقافز في البركة ، في نفس اللحظة التي قفزت فيها الفكرة لدينا بأنه كان ينبغي علينا في الواقع ان نقترح عليـــه العبور من حول البركة ، او على العموم ، ابقاءه هنا · قزم اخر مر ، وكان قد هم ، عندما وصلنا ، بالصراخ ، ولكنه راح يتنفس بصعوبة وهو يبتلع ريقه ، لكي لا يبصقه علينا ، او لكي يفسح ، ربما ، مجالا لصرخته ، ولكنه اكتفى بهزة قوية من يديه تفسر ـ تنـــذر ـ تطالب ـ تطلب ، وتنهد عميقا ، ثم عاد وتنهد ومر · تقدم من ثم اربعة عمي ، كل يـده على كتف سابقه ، وبالاخرى تلمسوا الطريق جاهدين بعصيهم ، محاجرهم تشخص الـى الاعلى نزرا ، واكثر مما ينبغي جانبا ، وكأن آذانهم هي التي تقودهم · وبالاضافة الـى اصغاء العمي الخاص ، وخوف الاصطدام في الخطوة المقبلة ، كان ثمة خوف كبير وعام ينسكب عليهم دون ان يعرفوا الى اين يذهبون وما الذي هناك في المكان الذاهبين اليه ، وما الذي يفعله الاخرون · تلمسوا وتلمسوا (أعجب كيف اهتدى واحدهم الى الاخر في جماعة واحدة) ، حين وصلوا البركة تقدم منهم شخص ما وامسك بيد الاول ، الذي هز رأسه العثنوني مستجيبا له بجهد اصغائي متزايد ، وقال لهم : « اقعـــدو هـــون » · فتراجعوا الى الخلف حتى حاجز الطريق واقعدوا حيث وقفوا ، قادحين زناد افكارهـــم لادراك ما الذي يحدث · ومر عجوز اخر محدودب حتى الانحناء فأجلسوه الى جانـــب العميان · عمنا جو من التسول ، والصديد والصرع ، ولم يكن ينقصنا سوى النحيـــب ورحمة تخلصنا من الموت ·

ـ « اي قرف هنا ! » قال شلومو ·

ـ « فليموتوا افضل لهم ! » قال يهودا ·

ـ « ما اكثر ما لديهم من العمي والعرج في هذه القرية ! » ، قال شلومو ·

ـ « لقد فر الاخرون ، وتركوهم لنا » ، قال يهودا · « ولكن الحبل لا بد لاحق بالدلو الان ، فيعودون الى مالكيهم » ·

ـ « ما لنا ولكل هذه الورطة » ، اندفعت الكلمات من فمي بلهجة احتجاجية اكثر مما أملـت ·

ـ « صحيح » ، وافقني شلومو ، « عشر معارك افضل لي من هذه الورطة » ·

ـ « ما بكما ؟ » دمدم يهودا ، وهو يكشط القطع الوحلية المتجمدة باظافره · « ما الذي نفعله بهم ؟ انقتلهم ؟ كل ما في الامر اننا ننقلهم الى مناطقهم · فليجلسوا هناك اذن وينتظروا · وهذا جميل جدا من جانبنا · اذ لا يوجد مكان واحد في العالم حيث يعاملونهم فيه هكذا · وبغض النظر عن ذلك ، فان احدا لم يطلب اليهم بأن يبدأوا المشاكل » · تريث قليلا ثم اضاف قائلا بعد ان فكر مليا : « ما الذي سيحل بهم وما الذي سيشربون ؟ كان عليهم ان يفكروا في ذلك قبل ان يبدأوا ! » ·

ـ « بدأوا ماذا ؟ » قلت ·

ـ « فلتكف انت عن جعل نفسك صديقا كبيرا » ، قال يهودا بغضب شديد · « لقـــد اشعنا النظام الان والهدوء هنا في هذه المنطقة » ·

اما شلومو فقد كان يواصل الخط الذي بدأ : « فعندما تذهب الى مكان ما تكون فيه انت الاخر معرضا للموت ـ هذا شيء ، وعندما تذهب الى مكان يكون الاخرون فيه فقط معرضين للموت ، وما عليك الا ان تشاهدهم اثناء ذلك ـ فهذا شيء اخر تماما ، هذا ما افكر به » ٠

ـ « انت ايضا ! » صرخ يهودا ، « لا تفكر اكثر مما ينبغي ٠ وما دمت الى هذا الحد كذلك ، فانك تستطيع الذهاب معهم سوية ، الى حيث يذهبون ، اذا كنت الى هذا الحد كذلك ! » ٠

ـ « لا تصرخ به » ، صرخ به شلومو ، « فانني لن اسألك الى اين اذهب » ، قال ذلك واستدار مبتعدا ٠

ـ « متأثرون ! » قال يهودا للعالم بأسره وليس لشخص محدد ما » ، كنت اود لو اني ارا ـ هم والعرب يحتلون قريتـ ـهم ! »

ـ « ولهذا بالذات » ، شرعت قائلا ٠

ـ « ما الذي بالذات ! ان احدا لم يطلب اليهم ان يبدأوا هذه الحروب وهذي المشاكل ٠ الاتقياء الكبار ٠ لقد سفكنا الكثير من دمنا لاجلهم ! هؤلاء الرحل ! فليأكلوا ما طبخوا بأنفسهم ! » ٠

رأينا امرأة تمر حينئذ في جماعة من ثلاث ـ اربع نساء اخريات ٠ كانت تمسك يد طفل يقارب السابعة ٠ كان بها شيء خاص ٠ كانت تبدو حازمة ، متماسكة ، صلبة بحزنها ٠ كانت الدموع تنهمر على وجنتيها وكأنها ليست دموعها ، والطفل ينشج بما يشبه « ماذا فعلتم بنا » مزموم الشفتين ٠ وبدا لوهلة انها الوحيدة التي تدرك ما الذي يحدث بالضبط هنا ، الى الحد الذي شعرت فيه بالخجل امامها ، فغضضت الطرف ٠ كان ذلك وكأنه صرخة تستغيث من خلال خطوها ، اشبه ما تكون « والملعونون » أكره ٠ رأينا كيف انها كانت اسمى من ان تعيرنا ولو ذرة من الانتباه ٠ ادركنا انها ام ـ لبؤة ، رأينا كيف ان تجهم التماسك للنفس وارادة التحمل يزيد من قسمات وجهها صلابة ٠ فكيف بها الان ، وعالمها كان قد باد ـ لقد ابت الانكسار امامنا ، ومتعاليان بآلامهما واحزانهما على وجودنا ـ الخسيس الآثم ـ مرا يواصلان طريقهما ، وفي خلد الطفل رأينا كذلك ذلك الشيء الذي كان يدور ، والذي لا يمكن ان يكون حين يكبر الا حية سامة ، ذلكم هو الذي الان بكاء طفل قاصر ٠

تكشف لي كالبرق شيء فجاة ٠ كل شيء دفعة واحدة كما لو كان يبدو مغايرا ، بل على اصح : المنفى ، ها هو ذا المنفى ٠ هكذا هو المنفى ٠ هكذا يبدو المنفى ٠

لم استطع البقاء في موطئي ٠ مكاني لم يعد يحملني ٠ انطلقت ودرت الى الجانب الاخر ٠ كان العمي يجلسون هناك ٠ اسرعت اتجنبهم ٠ عثرت الثغرة ٠ وخرجت الى القسيمة المسيجة بالصبار ٠ كانت الاشياء تتكدس في داخلي ٠

لم اكن في المهجر مرة ـ حدثت نفسي ـ لم اعرف ولو مرة كيف يكون ٠٠٠ ولكنهم حدثوني ، قصوا علي ، علموني ، ثم عادوا ولقنوني في كل زاوية ، في الكتاب ، في الصحيفة ، وفي كل مكان : المنفى ٠ عزفوا على كل أوتاري ٠ سخط شعبنا على العالم : المنفى ! لقد كان في ، كما يبدو ومع حليب امي ٠ ما الذي فعلناه هنا اليوم ؟٠

لم يكن لي الى اين اتسكع ، ولم يكن لي الى اين ابتعد · فانحدرت واختلطت بهم كما لو كنت ابحث عن شيء اريده ·

الكلمات تطن في اذني · لا اعرف من اين · مررت بينهم كلهم · بين المعولين بصوت مرتفع ، بين الكاظمين غيظهم بصمت ، الذائدين عن انفسهم وعن ممتلكاتهم ، بين المقارعين لمصيرهم ، والمذعنين له بصمت ، بين المزدرين انفسهم وعارهم ، والمخططين الخطط لانفسهم للتدبر كيفما اتفق ، بين النادبين حقولا ستقفر ، والصامتين تعبا وسغبا ورهبة · كنت ابحث عما اذا كان بين كل هؤلاء ارميا واحد ايضا ، غاضب ومتقد ، يطرق في القلب غضبا ، وينادي الاله ـ العجوز اختناقا ، من فوق قاطرات المنفى ···

كانت بركة الماء في الطريق قد تظللت ، والمويجات المتساوقة على وجهها سرعان ما انعكست على صفحة السماء تتثنى غزلا · فوددت لو انني اعرف لهذه الارتعاشات التي كانت تسري في جسدي معنى ، ومن اين هذا الصدى لخطوات منفيين اخرين ، ينبعث خافتا ، بعيدا ، وكأنه صدى خرافي ، ولكنه ثائر ، معذب ، يتدحرج كرعود بعيدة ، متوعدة وتنذر بالظلمة ، ومن بعدها ، صدى يفزع ـ لا استطيع اكثر ···

ـ « لماذا تنظر الي هكذا ؟ » ، قال مويشي ·

ـ « انها حرب قذرة » ، قلت مختنقا بعض الشيء ·

ـ « دخيلك » ، قال مويشي ، « ما الذي تريده اذن ؟ » ·

وانا كنت فعلا اريد · وكان لدي ما اقوله · ولكنني لم احسن قول شيء يكون حكمة ـ عملية وليس مجرد انفعال عاطفي فقط · لا بد من زعزعته بشكل ما · لا بد من اطلاعه باختصار وفي الحال على خطورة ما يحدث ·

وبدلا من ذلك قال لي مويشي ، وهو يدفع قبعته الى ما وراء جبينه ، كمن اعياه الاضطراب ، وكحديث رجل الى صاحبه ، باحثا عن السجائر والكبريت في جيوبه ، ومحاولا الباس فكرة كانت قد لمعت لتوها في خاطره بالكلمات ، اجاب قائلا :

ـ « فلتسمع ما الذي سأقوله لك ! » قال مويشي وعيناه تبحثان عن عيني ، « الخربة ، ما اسمها هذه ، سيأتي قادمون جدد ، هل تسمع ، وسيأخذون هذه الارض ، ويفلحونها ، وسيكون هنا رائعا ! » ·

بالطبع ، والا ماذا ؟ فليكن ! كيف لم افكر في ذلك من قبل · خربتنا خزعة ، مسائل اسكان ومشاكل استيعاب ! بالهتاف نسكن ونستوعب ، بل وكيف : سنفتح استهلاكية ، وننشيء مركزا ثقافيا ، وربما كنيسا ايضا · وسيكون هنا احزاب ، يتجادلون على اشياء كثيرة · يحرثون حقولا ، يزرعون ، ويحصدون ، ويصنعون العجائب · فلتحيا خزعة العبرية ! من ذا الذي سيطرأ على ذهنه ذات يوم ، بأنها كانت ذات مرة خربة خزعة التي طردنا اهلها وورثناها · واننا جئنا ، اطلقنا النار ، حرقنا ، نسفنا ، ركلنا ، دفعنا ، وهجرنا ؟ ·

ما الذي نفعله ، الى الجحيم ، في هذا المكان !

نظرت هنا وهناك ، الا ان نظراتي سقطت عن كل مكان · من الخلف كانت القرية قد بدأت تصمت وتلم بيوتها في اعلى التل ، مقيدة هنا وهناك بذرى الاشجار التي كانت

الشمس قد فصلت منها ظلالا ساكنة خلفها ، غارقة في التأمل ، تعرف اكثر مما نعرف نحن ، وترقب صمت القرية ، ذلك الصمت الذي كان يتواصل اكثر فاكثر ، فخلق جـــوا خاصا به وحده ، واقع اطلال ، آلام حزن فراق لبيت خاو ، لشاطىء مقفر يضربه الموج تلو الموج والافق فراغ ، وتنفس السكون الغريب لجثمان ميت · ولم لا ؟ ـ لا شيء : يوم واحد غير مريح فقط ، وجذورنا تضرب من بعده هنا لايام مديدة · كما الشجرة على غدير مــاء · أجل · وفي المقابل ، المجرمون ··· ـ ولكنهم هؤلاء هم هناك في الشاحنات الان ولن يكونوا ، وفي الحال ، سوى صفحة قد انتهت وانطوت · بالتأكيد · أليست هي من حقنا ؟ أولم نحتلها ؟ ·

شعرت انني على شفير هاوية · نجحت في السيطرة على نفسي · كانت اعماقي كلهـا تصرخ · مستوطنون مغتصبون ، صرخت من اعماقي · كذب ، صرخت · خربة خزعـــة ليست لنا ، لم يمنحنا الشباندا‌و اي حق قط · ها ـ ها ، صرخت اعماقي · ما الذي لم يرووه لنا عن المهاجرين وعن نجاتهم وانقاذهم ··· مهاجرونا بالطبع · اما هؤلاء الذين نهجرهم نحن ـ فهذا موضوع اخر البتة · انتظر : الفا عام من المنفى · ماذا لا · يقتلون اليهود · اوروبا · نحن الاسياد الان ·

أحقا ان جدران هذه القرية سوف لن تصرخ في آذان اولئك الذين سيسكنونها ؟ أحقا ان كل تلك المشاهد ، الصرخات التي صرخت والتي لم تصرخ ، البراءة المروعة لقطيـــع منصعق ، اذعان الضعفاء ، وبطولتهم ، البطولة الوحيدة للضعفاء ، الذين لا يعرفون ما سيفعلون ولا هم بالقادرين أن يفعلوا ، الضعفاء ـ المخرسون ـ أحقا انها لن تملأ الهواء هنا بفيض من الاشباح والاصوات والنظرات ؟·

اردت أن افعل شيئا · عرفت انني لن اصرخ · لماذا ، الى الجحيم ، انا المتأثر الوحيد هنا · من اي طين جبلت ؟ لقد تورطت هذه المرة · كان ثمة شيء متمرد في ، يفجر كل شيء · من ذا الذي اخاطبه فيسمعني · انهم سيسخرون مني وحسب · كان في انهيار صاعق · كان لدي وعي واحد كمسمار مثبت ، بأنه لا يمكنني التسليم بشيء ، ما دامت تتلألأ دموع طفل باك يسير مع امه المتماسكة لنفسها بغضب دموع صامتة ، ويخرج الـــى المنفى ، حاملا معه صيحة ظلم ، وصرخة لا يمكن ان لا يكون في العالم ثمة من يلتقطها في الوقت المناسب ـ فقلت اذ ذاك لمويشي : « ليس لنا ، يا مويشي ، اي حق في اخراجهم من هنا ! » ، ولم ارد لصوتي أن يرتعد ·

واما مويشي فقد قال لي : « ثانية ، أتبدأ ثانية ! »

فعرفت أن لا فائدة فيما اقول ·

وأسفت ، اسفا حتى الاختناق ·

كانت الشاحنة الاولى ، لم اعرف متى ، قد تحركت وراحت تصعد الطريق الترابـــي الكبير · (لو انني استطيع الذهاب اليهم الواحد تلو الاخر وأسر اليهم : عودوا ، عودوا الليلة ، فنحن ذاهبون من هنا حالا ، وستظل القرية فارغة ـ عودوا · لا تتركوا القريـــة خالية !) · وحالا تحركت الشاحنة الثانية ، شاحنة النساء ، اللواتي كن يزركشـــن الشاحنة بزرقة ثيابهم وابيضاض المناديل ، ومندبة واحدة تصاعدت هناك ، واندكـــت بعويل الشاحنة الثقيلة التي كانت قد اصطكت وتشبثت بالطريق الموحل في الرمل الرطب · (اما العمي فلا بد وينسونهم هنا على قارعة الطريق) · لقد كان الوقت اصيلا · وعلى

سكينة السماء حل غضب الريح التي كدرت النهار ، وانذرت بمطر جديد ، غدا ـ او بعد غد · ومن القرية تعالى هنا بردة ، وبرهة هناك ، عمود من دخان ابيض لصلصال رطب يأبى الاشتعال ، ويأبى الانطفاء فيستمر في دخانه هكذا . يشتعل لعدة ايام ولا يشتعل ، الى ان يتقوض جدار منه او سقف · ثمة بقرة خارت في مكان ما ·

حين يصلون الى المكان الذي يطردون اليه ، سيكون الليل قد حل · غطاؤهم ثيابهم وبها ينامون · حسن · ما الذي يمكن فعله ؟ فالشاحنة الثالثة بدأت تقعقع · وهل تنبأ استغنين ولو مرة واحدة في مواقع نجوم سماء القرية وابراج البشر ـ اي منقلب ستنقلب الامور هنا ؟ وأي لا أباليه فينا ـ وكأننا لم نكن قط سوى كاشفي مكتشفات ـ وسئمنا العمل · وليس هذا هو الاساس ايضا ·
والمخرج ؟ ·

كان السهل مسترخيا · وثمة من بدأ يتحدث عن وجبة العشاء · وفي الطريق الترابي في البعيد ، وبالقرب مما كان يبدو كعاصفة ـ كانت ثمة شاحنة بعيدة تغور وتتلاشى وتسود وتتأرجح ، ككل الشاحنات الثقيلة المحملة بالفواكه او المحاصيل او اي شيء · وجع الذل وغضب العجز ايضا سرعان ما يتحولان الى نوع من الخدش العرضي المستحيي المرتبك المتلاشي · لقد اصبح كل شيء شاسعا فجأة ، كبيرا ، كبيرا · ونحن كلنا اصبحنا صغارا ولا اهمية لنا · عما قليل وتحل في العالم تلك الساعة التي تجمل العودة فيها من العمل ، العودة متعبا ، تصادف شخصا ، او تسير وحيدا ، ثم تصمت وتسير · كان الصمت قد خيم من كل حدب وصوب ، وعما قليل يطبق على المدار الاخير · وبعد ان يطبق السكوت على كل شيء ، ولا يهتكن الصمت احد ، ويعج بما خلف السكوت خفية ـ يخرج الله عندها ويهبط السهل كي يطوفه ويرى كيف تكون صرخته ·

ترجمة
توفيق فياض

حسن داوود

مدخل إلى النتاج الثقافي الانعزالي

حين يحاول منظروا الايديولوجية اللبنانية الخوض في اكثر التفاصيل دقة ، فانهم لا ينسون بأن السحر هو ما يعطي للبنان وحدته وتميزه . وهم يحاولون بكثير من السحرية ان يوحدوا بين القيم التي اضفوها على لبنان وبين التفاصيل التي تأخذ طابع التشريع للعلاقات الاجتماعية الراهنة بين اللبنانيين . هذه العلاقة الجوهرية بين تاريخ لبنان وحاضره ، بين قيم لبنان المطلقة وانسانه ، قد تمت صياغتها في نظرية واحدة ، استطاعت ان توحد بين الفروق الشاسعة التي تمتد من المطلق حتى علاقات الطوائف اللبنانية . وحين يحاول ميشال شيحا ويوسف السودا ان يشرعا للبنان الحاضر ، فانهما ياتيان اليه من الماضي ، من نظرية الماضي ، التي تم احكامها بشاعرية مطلقة . هذا الماضي خال من اي صراع مهما كان نوعه ، انه ، في العصر الفينيقي ، بلغ كماله وتحدد به . وان كان المنظران قد زرعا في ايديولوجيتيهما مجموعة من القيم الثابتة التي يتميز بها لبنان ، فان هذه القيم الثابتة انبثقت من ذاك العصر فحسب ، واكتسبت عندهما صفة سرمدية . من هذه القيم اتى المنظران الى علاقات الواقع والسياسة . اذ يستمر الماضي في كل الازمنة ، دون ملاحظة للخصوصية التي تميز كل عصر من العصور ، تبعا للصراعات الاجتماعية الداخلية ، وتبعا للعلاقات الخارجية التي تحيط بلبنان .

هذا الشعر الذي يصبغ الماضي حين يرى منظروه اليه ، يتحول الى سحر حين يحاول الالمام بالحاضر والتشريع له ورسم سياسته . وقد يلاحظ من الكثير من الكتابات التي رأت الى الحاضر ، ان التفاصيل تغيب في حضورها او تحضر في غيابها . اذ الفقراء والاغنياء والعلاقة بالاستعمار والطوائف الشتى ، لا ينظر اليها من خلال الثقل الحاضر الذي تتوجد فيه ، بل من خلال نزوع طبيعي يميل به اللبناني الى التسوية وتقديس التجربة الفريدة . ليس للتفاصيل فاعلية في النظرية التي صيغت ، انها منتفاة ومحتواة في التصور الكبير الذي يعطي للبنان فرادته وقيمه الثابتة . وحين تتأزم العلاقات السياسية وتشذ عن الصيرورة التاريخية للانسان اللبناني ، عند ذاك لا يشكل هذا الشواذ امتحانا للنظرية ـ التاريخ او تحديا لها ، بل ينتج هذا الشواذ عن تاثير من العناصر الخارجية التي تحاول دائما ان تنال من لبنان .

وما يعطي للانسان اللبناني ثباته : الجغرافيا الفريدة وموقع لبنان الجغرافي الذي هياته العوامل الداخلية والخارجية « ليكون وطنا لا كالاوطان » · ان الجغرافيا والتاريخ يمتزجان في الايديولوجية اللبنانية لدرجة ان الفصل بينهما يصبح مستحيلا · ومن امتزاجهما هذا تنبثق الروح اللبنانية المحددة باختلافها عن اي من النزعات الاخرى عند الشعوب ·

« هذا الجبل الذي يشكل ملاذا للاقليات المضطهدة » على حد تعبير شيحا ، كان لا بد له ان يجدد ناسه باستمرار · والطوائف التي تأتي تلوذ به هربا من الخوف والاضطهاد ، هي بطبيعة الحال ، بحسب منطق شيحا ، اقليات طائفية هربت من جور الاكثرية في بلدانها ، لهذا ، حين يقصد لبنان اللائذون به ، فانما يقصدون بقعة جغرافية من الارض ، ليس للطغيان الاكثري وجود فيها · ان لبنان ، عند شيحا ، يتشكل من مجموعة من الاقليات يحكمها الولاء الى الملاذ · ومن هذه الاقليات تنبثق صيغة من العيش والتبادل الثقافي والحرية ·

ولكن قد يسأل السائل ، كيف يستطيع لبنان ان يحتفظ بقيمه ومثله الخاصة المميزة له وهو لا يدين بالولاء لشعب ثابت على ارضه ؟ · قد يأتي الجواب على هذا السؤال من اطروحات شيحا التي تحاول التمييز بين لبنان والاوطان والامم الاخرى · ان للجغرافيا اللبنانية الفريدة روحا خاصة تحدد العادات والعلاقات والنوازع الانسانية الطبيعية واشكال الوعي والقيم ، هذا على صعيد الجغرافيا · اما على صعيد الاجتماع البشري ، فتبدو تجربة الاقليات المضطهدة في العيش عاملا على انشاء صيغة ديمقراطية هو جوهر العلاقات الاجتماعية بين الطوائف · وليس ادل على هذا التلازم بين الجغرافيا وصيغة التعايش من كتابات يوسف السودا الذي يقول في كتابه « تاريخ لبنان الحضاري » : « لقد هياته الجيولوجية الفريدة لان يكون مركز التقاء الشعوب المظلومة المتعطشة الى الحرية بعيدا عن مرمى سهام البطش والاستبداد » ·

تلك الصيغة ، التي تشكل الخيط الناظم للاطروحات الاجتماعية كلها عند المنظرين اللبنانيين ، تصبح ، حين النظر الى اسفل ، الى العلاقات الاجتماعية بين اللبنانيين ، حلما يتفتت · في قرارة الذين يعتقدون بها ، تبقى الصيغة السحرية تعبيرا عن حنين الى وطن هو كالاوطان · اذ ان الجوانب التشريعية من الايديولوجية اللبنانية ، انبنت على الخوف من مضاعفات العلاقة بين الطوائف · في السحر ، تبدو الطوائف صانعة للحرية ، وفي الواقع والتشريع يبدو الخوف من الانفجار ملازما لصيرورة التعايش · هكذا استطاع الدستور اللبناني ان يبتكر تمثيلا سياسيا ينبع من الرغبة في المحافظة على كيانات الطوائف والخوف من صراعها في ما بينها في آن معا · وهكذا يصبح لبنان الملاذ لبنان النزاع حين النظر الى اسفل ·

هذا الواقع المرسوم بدءا من الخوف يشكل حالة مأساوية عند الكثير ممن يعلنون الولاء للبنان الصيغة · خاصة عند اولئك المتمسكين بالحلم التاريخي الذي يعطي لبنان دورا وشرعية وجود ، عند من يجدون ضرورة في انكفاء لبنان عن محيطه الجغرافي والبشري · ان الايديولوجيا التي صاغها شيحا والسودا بما يشبه الشعر ، تصبح الملاذ النفسي الذي يتطلب الوصول اليه شكلا من الاعلاء والارتفاع عما يجري على الارض · ويلاحظ من الكتابات التي صدرت في فترة الحرب ، سواء تلك التي صدرت عن الاحزاب اليمينية او عن المؤرخين والمفكرين اليمينيين ، ان هناك ترددا كبيرا بين سحر الصيغة اللبنانية وبين الاقرار بعجزها في آن معا · وفي نداء الشيخ بيار الجميل الى اللبنانيين الذي اصدرته

الكسليك في كراس ضمن سلسلة منشوراتها ، محاولة لايقاف الصراع الدائر بين المسلمين والمسيحيين على قاعدة التذكير بأهمية ان يعود اللبنانيون الى المستوى الحلمي من العلاقات في ما بينهم ، اذ كما يستنتج من كراسه ، ان حزبه قد سقط في متاهات التحديات اليومية المسفة عبر الكثير من التصريحات والادبيات ، وكذلك فعل الطرف الاخر ، فيجب ايقاف حملة التدمير للصيغة ٠

كراس اخر من منشورات الكسليك « شرعة الجهاد » يحاول الاثبات على مدى صفحاته ان المسلمين في لبنان اتبعوا في الحرب اسلوبا هو ذاته الذي اوحى به الرسول في حروب الفتح ٠ ويقول الكراس ، ان شرعية القتل والتهجير والسبي والاستباحة هي في صلب الحرب الاسلامية كما ارادها الرسول ٠ وها يحارب المسلمون اليوم مزودين بوصايا الرسول ، فلا خلاف بين ما شرع في بداية الدعوة الاسلامية وبين الحرب التي خاضها المسلمون في منتصف السبعينات من هذا القرن ٠

وقد خصص معهد الكسليك الكثير من كراساته لدرس مواقف المسلمين من الصيغة اللبنانية والحرب اللبنانية ٠ وبالمقابل نجد في كراسات اخرى صادرة عن معهد الكسليك ايضا دراسات تقر بدور الموارنة في انشاء لبنان وصيغته والمحافظة عليه ٠ هكذا يرى الفكر اليميني في لبنان ، في فترات الانفجار ، ان الطوائف في لبنان لا توحد بينها روح لبنانية اصيلة ، ان الطوائف تتصارع ، ليس فقط بسبب من ضرورات العيش ، بل بسبب من الولاءات ٠ هذه الولاءات تكتسب قدرة على كسر الصيغة حين تكون « خارجية »٠ وكراسات الكسليك ومواقف الاحزاب اليمينية وادبياتها تعلن ان الولاء عند المسلمين في لبنان هو للخارج العربي وللدين الاسلامي اكثر منه للبنان ٠ بهذا يكون المسلمون ، برأي احزاب الموارنة ، غير قادرين على تقديس الصيغة ٠ انهم خائنون لها بسبب « من المحيط العربي الذي يدعمهم » ٠

وهكذا يعلن اليمينيون أن اختلافهم عن الجناح الاخر ينبع من طبيعة متأصلة فيه ٠ وبهذا يصبح المسلمون في لبنان ، بسبب من ظهيرهم الاسلامي والعربي ، ليسوا اقلية مضطهدة تلوذ بلبنان ، بحسب تعبير شيحا ، بل يصبحون اكثرية نتيجة لمحاولاتهم كسر الحدود العازلة بين لبنان واكثرية المنطقة الاسلامية العربية ٠ وحين يعلنون ذلك ، يبدو اليمينيون يقرون بالانكسار الابدي للصيغة اللبنانية ٠ اذ حين ينكسر هذا الجانب الاساسي من التركيبة المغلقة بالحلم ، تصبح الجوانب الاخرى ، الاقل اهمية والاكثر شاعرية ، غير قادرة على الوقوف والثبات ٠

ولا اسرع من ان تتغير لهجات المخاطبة والتوجه ، فحينا يكون المسلمون اعداء لبنان ، بحسب تصريحات الزعماء اليمينيين ، وحينا ، تاتي تجربة لبنان الفريدة والرائدة « في مقدمة الصيغ حضارة اصيلة ، وانسانية راقية ، ونموذجا فريدا لتعايش مسيحيي العالم ومسلميه » بحسب تعبير الشيخ بيار الجميل ٠

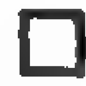
هذا التواتر وهذا التردد بين تقديس الصيغة والشك باركانها في الفكر السياسي اليميني يرتبط بحالات السلم والحرب ٠ الحرب تعني موت الصيغة ، والسلم يعني شرعيتها وثباتها٠ وقد يلاحظ ان ازمنة الحرب والسلم تتسارع ، كما في الحرب الاخيرة ٠ عندها تموت الصيغة في يوم وتنبعث في اليوم الاخر ٠ وحين تهدأ الجبهات بعد قتال ، تفتتح الاذاعة اللبنانية برامج الاحاديث السياسية والتاريخية عن التعايش ٠

الصيغة تتطلب السلم ، او تتطلب ايقاف الحرب · لان الحرب الاخيرة امعنت في الاطالة والانتشار لدرجة انها حددت المجتمع اللبناني على انه مجتمع يعيش ابناؤه في حالة حرب دائمة ، وما فترات السلم الا استراحة لاراحة السلاح واعادات النظر ·

هكذا ، في حالات الصراع تضمر الصيغة وتصبح الحلم الهزيل ، ثم تعود لتنفتح في ازمة الهدنة · وهكذا يعيش المؤمنون بالحلم اللبناني المتميز الفريد في جدلية تتردد بين الايديولوجيا والواقع ، بين السلم والحرب ·

وليس في هذه الحرب وحدها عانى « اللبنانيون » هذه المعضلة المأساة · في ١٨٦٠ ارتد الكثير من الادباء اللبنانيين الى ما وصفه امين ناجي في دراسته حول « القومية العربية » المنشورة في العدد الثاني من ملف العمل الشهري ، الى ما اسماه « بالثورة العثمانية » ·· وكذلك في ١٩٥٨ كانت الصيغة اللبنانية ارتباكا ما كان ليؤجله سنوات الا اتفاق ارباب الصيغة ·

ويصل هذا التردد بين تقديس الصيغة والشك بأركانها حدا يقوض الحلم والتشريع والمؤسسات المدنية والتربوية التي فصلت على قياسها · عندها تتقدم الهوية الوطنية ويتجزأ لبنان ، في ممارسات اليمينيين ، الى مجموعة من الطوائف تنغلق على نفسها وتصبح لها شرائعها الخاصة المنبثقة من الدين · عند ذاك تتقدم فاعلية المؤسسات التمثيلية ، ويصبح المجلس النيابي مجلسا لتصريف الاعمال والقوانين التي تمت صياغتها قبل الحرب · هذا الاتجاه نحو الانكفاء الطائفي الذي يأتي بعد الولاء اللبناني نلاحظه في الكثير من السلوك السياسي والفردي · فجريدة « العمل » مثلا ، استمرت اشهرا تحاول القاء الضوء على الادباء اللبنانيين كجبران خليل جبران ومارون عبود وحتى عمر فاخوري ، بمحاولة للتذكير بالقواسم المشتركة بين اللبنانيين · الا انها عادت ، نتيجة لظروف سياسية داخلية وخارجية الى التذكير على مدى حلقات عديدة ، ومن ضمن خطة مدروسة ، برجال الدين الموارنة الذين قدموا للطائفة الكثير · هذا الانكفاء يأتي بعد مرحلة اليأس من ترويض الفئات اللبنانية الاخرى ، ودفعها نحو القبول بالصيغة التي تعزل لبنان مما يتيح للحلم ان ينبعث من جديد وللسيطرة ان تتم ·



كيف يحضر مفهوم الوطن في هذه العلاقة المأساوية والصراعية بين الحلم والواقع !·

يحضر الوطن حقيقية كلية ، انه روح في التاريخ تستمر ولا تقف · انه حقيقة سابقة على كل تشكيل اجتماعي او بشري · ولا يدرك ، الا بواسطة الافكار التي ترتفع عن كل ما هو مادي · واذا تصارع ابناؤه فانما يتصارعون لا على ماهيته لانه اكثر قدسية من الصيغة ، ولانه سابق على التاريخ ويبقى بعد زواله فهو غير قابل للتطوير او التعديل ، وكل تعديل به يشكل مساسا بجوهره · لان التعديل من صنع الانسان المفترض فيه ان يحاول الاقتراب من الوطن باعتباره حالة صوفية · الوطن يمنح الهوية النفسية ويضفي على الواقع البائس بعدا يوحي بالاتحاد مع القيم المطلقة · والخشية الاشد ان يحجب الواقع وقضاياه رؤيا الوطن · وقد اتهم « مفتعلو الشغب » في لبنان بانهم حاولوا ضرب الانتماء للوطن · ففي احد كراريس الكسليك اتهام للمطالبين بتحسين اوضاعهم المعيشية بانهم ضربوا الوطن · ويقول جورج مصروعة في الصفحة ٧٠ من « العمل الشهري » الثاني « لان الاحوال ،

والظروف ، والممارسات ، والتفسخ الاجتماعي ، والدولة ، والادارة العامة ، حجبت عنهم حقيقة انتمائهم الى هذا الوطن » ٠

هذا الوعي للوطن يقبع في مستوى من مستويات الوعي المتعددة ، ويمكن القول انه يحتل في الذهن حيزا مستقلا يتعدى الوعي الى الاحساس النفسي والعضوي به ٠ انه يشكل حالة غامضة غير قادرة على التبلور والصياغة ٠ ولانه فوق التعاريف ، وفوق الذكريات ، وفوق المتناول الحسي يصبح مستقرا يفضي الى انطوائية عند الفرد ، ولكنها انطوائية تعتمل فيها قيم مطلقة مبهمة ولكنها تنضح بالكبرياء والشموخ والعلو فوق التاريخ ٠

هذه الحالة تفضي الى ما هو غير واضح ، وتخلق نوعــا من الاحساس بالجوهرية ٠ « الشخصية اللبنانية لم تذب ولم تنحل ، بل كانت ، في لا وعيها ، تشعر بأنها شيء ، غير أنها لم تكن تقدر ان تعرف ما هو » ٠ هذا ما يقوله مناف منصور ٠ وفي هذا القول يحاول ان يصيغ هذا الاحساس الغامض ، ويحاول ان يغير من طبيعة التعاريف التي اعطيت له، فالشموخ والكبرياء والمجد ، كلمات بحاجة الى اعادة صياغة ، ويحاول مناف منصور ان يهتدي الى ذاك الاحساس بطرق اكثر ملموسية من الكلمات ـ القيم ٠

ولكن كل صياغة تصطدم بالعجز ، بسبب من طغيان الوهم النفسي الذي يحضر كتلــة واحدة ، دون ان يمنح اصحابه القدرة على تفتيته الى اجزاء صغيرة حية ٠ وقد كـــان اللجوء الى ابطال من التاريخ اللبناني القديم ، كقدموس مثلا المحاولة الاكثر خصبا وقدرة على تجسيد هذا الواقع النفسي ، ولكن قدموس ، كما تقدم لهم ، يمثل القيم : الكبرياء الشموخ ، المجد ، ولا يتقدم حالة شمولية تعبر عن الحلم الصوفي ٠ لهــذا عقب منــاف منصور على المبدعين في الفن والادب لاستنكافهم عن « صياغة رموز ممثلــــة لجوهــر الشخصية اللبنانية ، تعادل ما شخصه الغربيون في بروميثيوس ، وفاوست ، وسيزيف »٠

هكذا يصبح المجال الوحيد لعقد الصلة مع الواقع ، كامنا في الاستنباط الداخلي الذي يلجأ الى تطهير الواقع المعقد والمختلط والمغترب عن العلاقات الاجتماعية ٠ تتطهر الـذات عبر نسيان الواقع ٠ علاقات الحياة لا تتم السيطرة عليها الا عبر اهمالها ٠ وانها محاولة عليا ، على الصعيد الروحي ، ان يتم تجاوز المشكلات الاجتماعية والصراعات ليس عبــر الانخراط بالقوى الحاضرة ، بل عبر الغوص في الذات ، واستذكار القيم التي يوحيها ذلك الغامض الحقيقي ٠

« أين نجد الراحة والاستقرار ؟

في مكان واحد هو : اليقين ٠ »

هذا ما يقوله جورج مصروعة معتبرا اليقين مكانا ٠ وهو يحاول بذلك ان يعطي لليقين صفة التجسد والوجود الماديين ٠ هنا يهبط السعي الصوفي ويحتل مكانا ، وهنا تستدعــي القيم الكبرى كي تنزل الى الارض ، لان الحاجة الى ذلك ملحة ، ولان ما يجري في الارض يستدعي اليقين ليلغيه او يبعث فيه قناعات جديدة ٠

في الادب الذي واكب ظهور الايديولوجية اللبنانية مع ممثليها يوسف السودا وميشال شيحا استكمال تعبيري وفني للملامح العامة لتلك الايديولوجية ٠ وفي ايديولوجية تهدف الى الشعر باعتباره اقنوما اساسيا من اقانيمها ، تصبح وظيفة الشــعر اكثر قــدرة عــلى تمثل الخط العريض لها ، ويصبح الشعر ، بالتالي قادرا على التعبير عن هذه الايديولوجية

وايصالها باعتبارها مناخا روحيا صافيا لا تعوقه ضرورات التكلم على التفصيلات التي تشرع للعلاقات الاجتماعية ، ولا نستطيع القول ان الشعر اللبناني في تلك الفترة واكب او اقتبس النظرية السياسية التاريخية ، اذ ان المسألة اكثر تعقيدا من ذلك ، ولكن ما يعنينا هنا ، هو نجاح الشعر في ان يكون المعبر الاكثر قدرة عن القيم المطلقة التي تكونت في الوعي اللبناني ، وانه لمن السهولة القول بأن شاعرا كسعيد عقل مثلا مثالي او رمزي مثلا. ان لسعيد عقل تجربة فريدة في الشعر . لقد حمل الشاعر المفاصل الاساسية التي كانت تقولها النظرية اللبنانية ، وانشأ علاقات بين القيم الروحية وتكلم عن الجغرافيا والطبيعة اللبنانية بوصفها موضوعا للوصف والتأمل ، وليس للصراع او الاندماج . وهذا ما يميز المنطلق الاساسي للنظرية اللبنانية حين تنتقل الى الشعر . ففي النظرية الجغرافيا ، وفي الشعر الطبيعة التي تنتج القيم .

« الى فيثاغورس ، أحد علية العقول في جميع الازمنة ، يرقى القول : « ساخاطب الحكيم فابعدوا الجهال » . اذن منذ عهد باعد في القدم ، شعر سراة الفكر بان العامة خطر على اصحاب التعاليم الرفيعة » .

هذا الكلام للشاعر سعيد عقل . قاله في محاضرة القاها في الجامعة الاميركية في بيروت في ١٣ كانون الثاني ١٩٥٤ ، واستعيدت في الكتائب اللبنانية ببيروت في ١٨ اذار من العام نفسه .

ويقترح سعيد عقل في محاضرته مجتمعا خاصا للنخبة ، يبتعد بها عن ضجيج العامة وتفاهتها « ان لم تكن (للنخبة) انديتها المتنفسة بالرفعة ، اضطر افرادها الى انتجاع الراحة في ملاهي الطبقات الاخر حيث الاثر مزدوج الاساءة : يبدد جو النبل ويزعزع ثقة العلية بعليتها .

ويبدو الشاعر منسجما مع مثله الثقافية العليا في طلبه عزل (طبقة) المثقفين عن سائر الطبقات الاخرى . فالطبقات تلك قد انجرفت مع متطلبات الحياة واستغرقتها الشؤون الصغيرة ، ولم تعد تملك متسعا من الوقت والروح لاقامة الصلة مع القيم التي تكونت بمعزل عن مسارات الشعوب . الانتماء للنخبة ، برأيه ، انتماء لتاريخ خاص ، ازلي ، لا ينبثق عن التاريخ الاجتماعي ، بل يعلو فوقه ويستمر في الزمن دون تقاطع ، والفكر الذي تنتجه النخبة لا تهم هويته او موقعه ، فالفكر ابداع وكفى . والمبدعون يلتقون مهما باعد بينهم التاريخ ، يلتقون في ذاك الامتياز الكبير الذي يجعل منهم صانعي التاريخ دون ان يلحقهم دنس الاقتراب من تفاهة الواقع .

ما تقوله تلك المحاضرة ، لا يتعارض بشكل من الاشكال مع اي من تجليات سعيد عقل الفكرية ، سواء في شعره او في اكتشافاته الاخيرة حول اللغة وتنظيم المجتمعات ، فشعره لم يخرج مرة في موضوعاته عن القيم النبيلة المطلقة ، وهذه القيم تحضر في كل صنوف الشعر بدءا بالشعر الوطني مرورا بالغزل ووصولا الى شعر المناسبات . لم يقل شيئا خارج جهاز القيم النبيلة السرمدية ، وفي عمله المسرحي ــ الشعري ، « قدموس » جعل الصراع والمأساة ينبعان من داخل القيم النبيلة .

هكذا ينطق سعيد عقل عن فكر كلي منسجم في عناصره ورؤيته للعالم . هذا الفكر الذي تكون عند صاحبه مرة والى الابد ، ولم تستطع اي من الاحداث الاجتماعية أن تغير في

طبيعته وتجعله يشكك بمنطلقاته ، الا على مستوى الاندماج الشخصي كما لاحظنا في الحرب الاخيرة ، حيث « اضطر » الشاعر الى الانخراط بالعمل السياسي ، دون ان يجد وسيلة ، رغم المحاولات ، لتفتيت القيم الكبيرة الى اجزاء تصب في ضرورات الوظيفة السياسية ٠

هكذا كان سعيد عقل في الحرب « ملهما » و « موحيا » ولم يكن قائدا سياسيا ٠ وحين كان يخاطب مقاتليه انما كان يحاول ان يبعث فيهم الروح الكامنة فيهم ويدعوهم الى السمو سواء في المحبة او الحقد ٠

صحيح ان « الملهم » لم يتخل عن اي من آرائه حول الابداع والنخبة ابان فترة الحرب، لكنه اقترب من العامة ، بحكم انخراطه السياسي ، اقترابا احدث بعض الخلل في نظريته حول « خطر العامة على أصحاب التعاليم الرفيعة » ٠ ما يبرر هذا الخلل الجزئي : نبل المناسبة ، فالحرب هي لحظة ابداع ، او لحظة صراع بين قوى مطلقة العنفوان واخرى مطلقة الهوان ، « بين جبابرة واقزام » ٠ لهذا رأى الشاعر ان القوى التي يؤيدها انما تحاول ، مرحليا ، ان تنصرف عن تفاهة العامة وتنخرط كيانيا بالمطلق ٠

الكلام ذاته الذي قاله سعيد عقل في العام ١٩٥٤ حول النخبة ، يعود شارل مالك ويؤكده في العام ١٩٧٧ « المثقف اذن ، يعيش في القمم مع اهل القمم ، ويملك من مقاييسه المستقلة ، المستمدة من أهل القمم انفسهم ، القدرة على تعيين ما هي القمم ومن اهلوها»٠

هذا الكلام قاله شارل مالك في معرض تقديمه « لقصر الثقافة » ، المؤسسة الثقافية الاكثر « رفعة » بين المؤسسات التي ابتكرها سياسيو « الجبهة اللبنانية » ٠

واذا كان سعيد عقل يعبر في كلامه عن النخبة عن مفهوم للثقافة فانه ينطلق في كلامه من وهم أيديولوجي غير موعى تماما ، وغير آبه بشكل كلي الى وظيفة هذا الكلام ودوره على الصعيد السياسي ٠ ان سعيد عقل منسجم في كلامه هذا مع تصوره للانسان الخارق ، المطلق القدرة ، الكلي القيم ، ومن الطبيعي ، انطلاقا من هذا التصور ، ان يكون للنخبة المختزنة بعقلها للمطلقات جميعا ، هذا الامتياز الذي يجعلها تشكل صنفا خاصا من البشر ٠

هذا الفهم لطبيعة المثقف ، الذي يعزل المثقفين « طبقة » متميزة اصلا عن سائر الطبقات الاجتماعية ، يفترض نوعا من النبوة او الرسولية ، المثقف اكثر التصاقا بما يلهم ، لانه استطاع ان يتمثل مجموعة القيم التي لا يمكن تمثلها الا بالارتقاء فوق مستوى العلاقات البشرية اليومية ٠ انه « يعيش في القمم » كما يقول شارل مالك ، وبالتالي ، فانه يعيش في القيم مع أهل القيم ٠ وقد يكون هذا التصور للمثقف او المبدع قديما قدم الاتجاهات المثالية ٠ ولكن المثاليين في الخارج استطاعوا ان ينفذوا الى اكثر الامور دقة وبقيت المثالية بالنسبة اليهم خلفية ثابتة لا تحضر في النصوص الا بما يقتضيه التحليل المتقصي لامالهم ونصوصهم ٠ ولكن عند سعيد عقل وشارل مالك ومجموعة المثاليين اللبنانيين لم تتفرع المثالية الى موضوعات تفصيلية ، بل بقيت الخاطبة عندهم ، او بقيت اعمالهم ، تستمد من المثال المطلق نفسه ٠ اذ برايهم ، ان المطلق لا يتوزع في العلاقات اليومية والاحداث ، بل يحضر فقط في عليائه ، واية محاولة لتفتيت هذه العلياء في موضوعات راهنة تكسر القدسية التي تتحلى بها العلياء ويتمتع بها المثقف ٠

هذا الموقف من الثقافة يحضر في الاعمال الثقافية التي تنتج ، ويتسرب الى عناصر القصيدة عند سعيد عقل ، بدءا بالمضمون النبيل وصولا الى الشكل الذي يماثله نبلا ٠

فاللغة عند الشاعر ترتفع عن الاستهلاك ، وتتم تنميتها وتصفيتها وترفع الى الجزالة المطلقة • وفي الكتابة البحثية التاريخية يتجلى هذا الموقف بشكل مختلف، فشارل مالك يرى في العادات والتقاليد نوعا من الاصالة التي تعلن جوهرا ما عند اللبناني ، ان شكل العيش هو نوع من الشعر الذي يفضي الى العلياء •

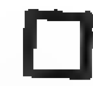
من هذه المنطلقات تأسس « قصر الثقافة » • وانها لدلالة كبيرة ان يتأسس القصر ابان فترة الحرب ، مع ما تقود اليه تلك الفترة من انحدار للصيغة السامية • في الحرب يضطر المحاربون الى التخلي عن الحلم •• وهذا التخلي يتجلى ممارسة يومية ، قتلا وعنفا وتخليا عن المثل • كان قصر الثقافة مؤسسة فريدة في تميزها عما يجري • كان قلعة محصنة بجدران سميكة تمنع انهيارات الخارج من التسلل الى حرم الفكر • انه يؤمن المستقر الروحي في زمن اضطر فيه « اللبنانيون » الى التخلي عن الروح •

ولكن هل يستطيع قصر الثقافة ، من ضمن المنطلقات التي حددها بيانه التأسيسي ، ان يتحول الى تيار ثقافي يوجه المثقفين ؟ وهل يستطيع حتى ان يتبنى ما ينتج من ثقافات وفنون ابان فترة الحرب ؟ وهل يحضر في الثقافة الراهنة فيحدد لها المنطلقات ؟ هذه الاسئلة واسئلة اخرى كثيرة حول دوره تصطدم بالنتاجات الفنية والثقافية التي لا تأخذ بعين الاعتبار المقدمات التي هيأت لتأسيس القصر • انه لا يتعاطى مع ثقافات الحرب ، بل ينكفيء الى ما قبلها • أنه يستلهم الماضي الثابت وثقافته المطلقة ، وهو لذلك متحف يعرض في ردهاته النصوص القديمة ، ويضيف اليها ، بين الحين والحين اثريات حديثة•

ان تسمية قصر الثقافة بهذا الاسم يحمل دلالة كبيرة ، وتنسجم التسمية مع ما قاله سعيد عقل في العام ١٩٥٤ حول « النخبة الثقافية » و « انديتها المتنفسة بالرفعة » • ولا شك ان هذه التسمية تستدعي الكثير من الصفات التي ترتبط بالوصية الثقافية ، قصر الثقافة ليس منتدى ثقافيا او اتحادا ثقافيا ، انه القصر الذي يحتضن النبيل والمترف ، والذي يؤمن الحصانة من وسخ الشارع وغوغائيته •

اذا ، تأسس قصر الثقافة ليكون رمزا ايديولوجيا ثابتا ، وليحافظ على النقاء المثالي الذي يميز لبنان •

هذه الحقيقة واضحة عند الذين عملوا على تأسيسه ، لانهم لاحظوا ان النتاجات الثقافية التي انتجتها الحرب تنصب في اتجاه يتلاءم مع السلوك السياسي ، ويختلف بالتالي عن الاتجاهات الفكرية في مرحلة السلم •



في الحرب ، استمرت الثقافة الوطنية تسلك الدروب ذاتها التي كانت تسلكها في الفترات السابقة • فالطبيعة الانسانية للاعمال الادبية ، والطموح للتعبير عن احلام الناس ، والرغبة في النفاذ من العلاقات الخاصة الى العالم •كلها استمرت في الثقافة الوطنية في مرحلة الحرب • وقد تم التعاطي مع الحرب ، بوصفها حالة انقلاب في الزمن ، وباعتبارها حافزا على تغيير جهات الرؤيا • كانت الحرب بالنسبة للادباء الوطنيين مفاجئة • ومعظم الاعمال الادبية التي انتجت في الفترة الاولى ، كانت تحمل الشكوى من فقدان القدرة على التخلي عن الماضي •

الادب الوطني في لبنان ، رغم قدرته على تفتيت الاحلام الكبيرة ، ورغم الطابع المتحول في مضامينه واشكاله ، لم يستجب للحرب ، وعانى من انعدام قدرته على الاستجابة ، وقد اعلن ذلك بنصوص كثيرة · كانت الحرب بالنسبة اليه ، زمنا انفجاريا ، انعطف عن الزمن السابق بما لا يكفي من المقدمات · وهكذا بقي الادب الوطني في تشكيلـــه ومضامينـه استمرارا للادب السابق ، رغم ان طموحه الرئيسي كان على الدوام ، يتمثل بالرغبـــة في تغيير المنطلقات ، مما يدفع الى الانسجام مع الجماهير وحركـــة التغيير السياســي الراهنـــة ·

الادب الانعزالي والثقافة الانعزالية كانا على الخلاف من ذلك · لقد استطاع هـــذا الادب ان يزيح عن كاهله ارثا كبيرا · هذا الارث هو السمة المثالية المطلقة للثقافة ومن ضمنها الاعمال الادبية · الثقافة الانعزالية استطاعت ان تنتقل فجأة وبدفعة واحدة من طور الى طور · فالثقافة القديمة ـ ثقافة السلم ـ كانت تتشبث بالمنطلقات الجمالية والسحرية· وقد تم الانعطاف ، دفعة واحدة ، مع ثقافة هي ثقافة الشارع المحارب · لقد انحدر الشعراء والادباء والفنانون في المناطق الانعزالية الى الحرب ، باعتبارها حالة استعداد وعيــش شاملتين ، وتخلوا ، بما يشبه المفاجأة عن المنطلقات التي حددت اعمالهم القديمة ·

وقد يتساءل السائل عن هذه المفارقة : كيف لم يستطع الادب الوطني ، رغم انطلاقه من منطلقات انسانية مخولة ورغم المراحل المتحولة التي عاينها في تاريخه الاخير ، كيف لم يستطع ان يتحول مع الحرب · بينما استطاع الادب الآخر المثقل الكاهل بالارث القديـــم والممتنع عن التحول ، ان يتحول دفعة واحدة الى التفاصيل الدقيقة للصراع ·

ان الاجابة على هذه المفارقة تنبع من البنيان الثقافي والنفسي لكـل مـــن الاديبين · فالاديب الوطني كان منسجما مع الثقافة التي ينتجها ، وكانت الثقافـــة المنتجة تحمـــل طموحاته وقضاياه وتعبر عن انتمائه السياسي والنفسي ، لقد كانت تلك الثقافة تعبر عــن الحلم المتحول في شخصيته ، فانسجم معها ، دون ان تتشكل كبعد اضافي من ابعاد وعيه، بينما كان الاديب الآخر « ينهل » من معين قديم غير متحول ، وتعني الثقافة بالنسبة اليــه محاولة للتوحد مع المجرد ، لهذا كانت تؤدي الى الانسلاخ عن الواقع الراهن · كانت بعدا اضافيا غامضا من ابعاد وعيه ، يتم الاندماج معه في الحالات الصوفية · بينما تركيبه الباقي ، « وعيه الحقيقي » يسعى في مسار آخر · كان الخاضع للايديولوجية الانعزاليـة مزدوجا بين ثقافته من جهة وعيشه من جهة اخرى · وكان العيش يخزن يوما بعد يــوم احتجاجات وغرائز فجرتها الحرب دفعة واحدة · كانت الحرب بالنسبة اليه لحظة تنفجـر فيها الغرائز ، كانت تعطي الجرأة على قول ما لم يكن شرعيا قوله · لهذا قال في ابانها ما لم يكن يعتقد مرة انه يشكل موضوعا للفن ·

السؤال الثاني الذي ينبثق عن هذه المفارقة ، يأتي من التشابه الكبير بين النتاجـــات الثقافية التي انتجت تحت وطأة هذه العلاقة · لقد قال الشعراء والادباء والفنانون قــولا واحدا في المناطق الخاضعة للسيطرة الانعزالية · يشعر القارىء او المشاهد انه يـــرى الى شيء واحد · فليس من فارق بين تلك النتاجات الثقافية حتى في التفاصيل · لقــد انطلق المثقفون المنتجون هناك من نفس القناعات وتوصلوا الى نفس اليقين · ولا نستطيع ان نرجع هذا التشابه الى المعين الواحد الذي نهلوا منه قبل الحرب ، اذ رغم انه واحــد ومتشابه ايضا ، فانه لا يفضي بالضرورة الى تغييرات متشابهة حين يتم تجاوزه ، التغيير او الانعطاف قد تأخذ مسارات متعددة ، او قد يبعثر الادباء كل في اتجاه · ولكن ما حدث،

لا ينطبق عليه هذا المنطق ، اذ توصل المثقفون الى نتيجة واحدة ، حتى ليمكن التقساط الجزء الواحد الذي وحد اعمالهم صياغة وتشكيلا وابعادا ٠

قد يؤدي هذا القول الى القناعة بالوحدة الجوهرية التي تصنف الخاضعين للسيطرة الانعزالية ، كشعب يشكل امة صافية ، ليس بها ما يخلخل نظام الانتماء عندها ٠ والواقع ان هناك الكثير من محاولات التعبئة التي سادت في الاوساط اليمينية تبدأ من مرحلة سابقة بكثير على الحرب ٠ لقد استطاعت هذه التعبئة ، نظرا لانها تنطلق من ثوابت ايديولوجية تاريخية ، ان توحد ردود الفعل تجاه العدو والوطن والغريب ٠ هذه التعبئة بلغت ذروتها في الحرب واقترنت بصراع دموي يؤكد كل لحظة ان التعبئة ذهبت بعيداً في الاقناع لانها تكتسب مصداقيتها من الدم الذي يهدر والارض المهددة بالزوال او الاحتلال ٠

التعبئة باتجاه التوحيد كانت تنمو باطراد مع استمرار الحرب ٠ كانت القيادة الثقافية والايديولوجية تبحث عن « كتلة بشرية » تتمتع برد فعل واحد ٠ ولم تكن تسمح بالطبع لاي من التمايزات والتباينات بين افراد الكتلة ٠ وقد ادى هذا المسعى نحو التوحيد الى الاستغناء بالقسر عن الكثيرين من الذين يملكون قولا مختلفا ، او يقفون موقفا مختلفا ٠ اذ المهم ، تنظيف الساحة ، وان اقتضى ذلك قلة العدد ٠ كان المهم عند اولئك القادة توحيد الولاء على قاعدة الولاءات الجديدة التي تعتبر ان الكتلة البشرية دخلت في حالة الصراع الذي اما يسحق الكتلة او يحقق لها النصر ٠

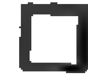
محاولة التوحيد هذه تعمد الى نزع الفوارق بين ابناء الكتلة الواحدة ٠ ليس هناك من مصالح استثنائية لكل من شرائحها ٠ الفرد يذوب في الجماعة ويتحد عضويا ومصيريا معهم ٠ ولا يدري ابناء الطبقات الاجتماعية الدنيا انهم في هذا الصراع يتعرضون للموت لاجل حماية الصيغة التي يستفيد منها القليلون ، انهم يشعرون في قرارة النفس ، بان هذه الوحدة التي تجمعهم في السلوك والوعي والانتماء مع الاسياد الاجتماعيين ، تدعو الى الغبطة الداخلية العميقة ، وتدفع الى الوحدة الشعورية والنفسية معهم ، وتؤكد بالتالي على علاقة الانخراط الانساني بالارض ــ الام

تبعا لذلك يتكون بين ابناء الكتلة البشرية الواحدة وعي جماعي يجد له ثوابت ومنطلقات سنمر على ذكرها في ما يلي من الصفحات ٠ ولكن ما تهم الاشارة اليه في هذا المجال ، ان ليس من تمايز يذكر بين الادباء المنتجين ٠ اذ ان التمايز ينبع عادة من الاختلاف في النظر والرؤيا ، واحتفاظ الاديب او الفنان بهامش ينفصل به عن العلاقات السائدة ٠ في ما انتج من أدب وفن نلاحظ ان هناك قولا واحدا يتفرع في أشكال التعبير المختلفة ، اذ حتى الجموح التخيلي غير مرغوب به في منطق الكتلة الواحدة ٠ وحين يلقي الاديب او الفنان رؤيته الخاصة ويندمج بالايديولوجي التعبوي ، يتحول الى حرفي يصوغ الحقد المتداول والمشاعر العامة التي يبدو نقلها الى حيز التعبير الفني ضروريا بسبب من ضرورة الدعاية وتعميم الايديولوجيا ٠

كان الادباء والفنانون حرفيين لانهم انتجوا اعمالهم انطلاقا من نسق طاغ ٠ هذا النسق لا يمثله نموذج فني ، كما في التقليد الادبي للانساق السابقة الطاغية ، بل يمثله الكلام الذي ينتشر بين أبناء الكتلة الواحدة ٠ هذا الكلام ينتقل بسهولة الى الاعمال الادبية والفنية بسبب من تعبيره عن الغريزة وتلازمه معها ٠ ويبدو طبيعيا الاستنتاج ان الغريزة لا تحتاج الى تجميل او صياغة جمالية ، لان اي مساس بها وتحويل في طبيعتها يؤدي الى التخفيف من حدة العنف « والبراءة » التي تحتويهما ٠ ان التركيز على الغريزة مقصود

لذاته ، لانه لا مجال لتعبير آخر اكثر عقلانية ٠ فالتعقل يؤدي الى خطر الانفصال عن الكتلة ٠

هذا النوع من الانتاج الادبي والفني ينبثق عن الشعور الغريزي عند الناس ويرتد اليه، ونتيجة لذلك نستطيع القول ان هذا الادب قد أدى وظيفة سياسيةكاملة ٠ مما يسمح بالكلام انه أدب جماهيري من نوع معين ، وقد التزم الادباء والفنانون هذه السياسية والجماهيرية بدقة فائقة ، عبر تعبيرهم عن مستويين من التوجه : الاول ، يتسم بوصف العلاقة المستجدة بين الانسان والارض والموت والدم ، والثاني يتصل بالحدث السياسي اليومي ونقله الى القصيدة او اللوحة كما هو دون اضافة او تعديل ٠ ونلاحظ من اللوحات التي رسمها بيار صادق في كتابه الذي أعده ابان فترة الحرب ، ان الحدث السياسي منقول من وجهة نظر الشارع المستنفر ، والرموز السياسية هي شخصيات الاعداء فحسب، هذه الرموز ، الشخصيات تحضر في اللوحات سيرة سياسية لكل من الرموز ٠ واستطاع الرسام صادق ان يعبر عن تاريخ المقاومة الفلسطينية في لبنان بثلاث من اللوحات ، تعبر برأيه عن مراحل « الاحتلال » المختلفة ، ولم يفت الرسام ان يمنع كل فنية عن لوحاته الكثيرة في الكتاب ، لانه يعبر بالفن الاكثر سهولة وقدرة على الوصول الى الناس ٠



يلاحظ من الكتابات التي صدرت ابان فترة الحرب ، أن هناك غلبة كبيرة للهجة المحكية على اللغة الفصحى ، فالشعراء الاكثر حضورا والاكثر صلة بالاحداث والاعلام كانوا شعراء اللهجة العامية ٠ ولا ننسى القصائد اليومية التي كان يصدرها يونس الابن باسم ابو لبنان وتنشر يوميا في الصفحة الاولى من جريدة العمل ٠ وقد نشر يونس الابن ديوانا شعريا كاملا عن الحرب اللبنانية « حرب السنتين » ٠ والشاعر الآخر العامي موريس عواد كان شديد الصلة بحزب الكتائب في الحرب حتى اصبح يهدي قصائده لرموز هذا الحزب وقادته ، وقد كتب موريس عواد مجموعات خمس « رجال بوجه الريح ، شي مثل الكذب ، لوح الصبير ، تل الزعتر ـ تل الشهداء ، أماريس » ٠ ونلاحظ الكثير من القصائد العامية التي نشرت في جريدة العمل وجرائد يمينية اخرى كثيرة ٠ كما أن هناك نشرات دورية كانت تصدر باللغة العامية ، ومنها « لبنان » النشرة التي اصدرتها « جبهة حراس الارز »٠ ولست ادري اذا كان بامكاننا ان نضيف الشعارات والاغنيات التي انتشرت على الجدران وبين المقاتلين ، اذ ان تراث الاغنية في لبنان والمكتوب باللغة العامية قد يبرر بشكل طبيعي بروز اغنية عامية في المناطق اليمينية ٠ وقد دعى قصر الثقافة في اكثر من مناسبة لنقاشات حول العامية والفصحى اشترك سعيد عقل في واحدة منها ٠ هذه « النهضة » للعامية نجدها ايضا في الدراسة المطولة التي كتبها امين ناجي في العدد الثاني من ملف العمل الشهري ٠ وقد حاول خلال دراسته ان يثبت عدم انبثاق العامية اللبنانية عن اللغة العربية الفصحى ٠ وقد رأى في دراسته ، باعتماد كبير على المقارنات اللغوية التفصيلية وجذور الافعال والكلمات ، أن المحكية اللبنانية ترجع في الاصل الى الارامية والكنعانية ولا يجمعها جذر واحد مع العربية ٠ كان امين ناجي اكثر وعيا من سائر الشعراء الآخرين بضرورة اعتماد اللبنانية واعتبارها تشكيلا لغويا خاصا ، منفصلا عن اللغة ـ الام (وبرأيه ان تعبير اللغة الام يرجع الى عهد مخاطبة الطفل لامه بالكلام الاول ، ليستنتج من ذلك ان اللغة الام عند اللبنانيين هي اللبنانية) ٠

رأى امين ناجي ان اللغة العربية عامل موحد للعرب وللمسلمين ، وقد قال اثناء حديثه

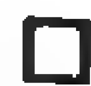
عن الوحدة الاسلامية « هذا الشعور المنغرس في لا وعي المسلمين العرب وفي وعيهم ، كان ولا يزال ذا تأثير بالغ عليهم ، حتى لخلق عندهم صوفية سياسية كاسحة · وقوة الدعوة القومية العربية اليوم مدينة بزخمها لهذه الصوفية المتدفقة · ويبدو ان الارتكاز على اللغة العربية ليس سوى تبرير ودعم في الوقت نفسه لهذه الصوفية » · ثم يعود في الدراســة نفسـها ليبين علاقة اللغة العربية بالمسلم « للغة العربية وقع مقدس لدى المسلم ، وجرس آسر يرفعه الى علاءات روحية ويذكره بماضي عز وانتصارات » ·

لقد حاول امين ناجي ان يثبت بالنظرية علاقة اللغة بالمجتمع ، واستطرد الى محاولـة اثبات الانعزال اللبناني عن طريق اثبات ان احدى ركائز العلاقة الاساسية بين العرب ، وهي اللغة ، لا تدفع باللبنانيين الى الانخراط « بالعروبة » لان « اللغة اللبنانية » ليسـت عربيـة بحـــال ·

عند الشعراء العاميين كانت هذه القضية مفرغة من اطارها النظري · كان يونس الابن وموريس عواد والكثيرون يشعرون ان اللغة العامية ليست حقل تجارب جمالية ، كما رأي ميشال طراد مثلا وكما رأى شاعرانا في فترات السلم أيضا ، بل ان هذه اللهجة ـ اللغة ، كما تبدو في قصائد الحرب ، هي التي تؤمن الاتحاد بالطبيعة الاصيلة لكيان الجبل · وما أشياء الطبيعة كالشجر والسماء والهواء الا حالات تغريب اذا قيلت بالفصحى · أما حين يقول موريس عواد (سجر وسما وهوا) ، فيحس بانه ينقل هذه الاشياء الى الشعر كمـا تحضر تماما في الطبيعة ·

لم يلجأ الشعراء العاميون الى العامية لانها أقرب الى التداول فقط ، بل لجأوا اليهـا انطلاقا من موقف اجتماعي نفسي ينسجم مع المضامين التي احتواها والتي سنمر عليهـا بعـد قليـــل ·

واذا اردنا ان نطور هذا الموقف الاجتماعي النفسي ونمده على غير اللغة · لوجدنـا ان اللبناني يرى في كاريكاتور بيار صادق لهجة عامية لبنانية · صحيح اننا انحرفنــا عن مسار الحديث عن اللغة ، ولكن الدلالة التي تؤدي اليها العامية ، قد تحضر ذاتهـا عندما يرى الانعزالي الى لوحة لبيار صادق · لقد استطاع بيار صادق ان يؤكد علــى لبنانية اعماله بان تخلى عن الرموز ـ القضايا وجعل رموزه تمثل السياسيين اللبنانيين وحدهم ، والعلاقات التي عقدها بيار صادق بين السياسيين اللبنانيين في لوحاته هــي علاقات عامية ، منبثقة من الذهنية الانعزالية المتداولة · كانت الصلات بيــن المثلين السياسيين عنده ، والعلاقات بينهم ، تتم وفق حقل من النكات هو السائد في المناطــق الانعزالية ، اضافة الى الحوارات التي تأخذ عادة طابع الازجال · والحوار بين سياسي وأخر او بين مجموعة من السياسيين يتم تماما كما في حفلة الزجل · بالاضافة ايضا الــى انتظامه في فترة الحرب بآلية الوعي التي حددت للمعركة مواقف وللبنان دورا · لقد عمد الى تبسيط لوحاته ، ونزع عنها كل ما هو شائك ومركب ، واعتبر في أعماله ان النكتـة ايضا تساهم في التعبئة ·



يقول ليونيل ريشار في كتابه « النازية والادب » (الذى نقل فصلا منه الى العربيــة جوزف سماحة) « ان الحرب بالنسبة اليهم ـ الى النازيين ـ ليست اساس الدينامية

الحيوية فحسب بل هي أيضا مصدر القيم الانسانية · انها مدرسة للبطولة ، تطور الروح الرفاقية ، وتمنح الفرد حس المجموعة القومية · وتعتبر تجربة الحرب كتمهيد لحيـــاة الراشد · فبالحرب ينكشف الانسان ، الجبان او الشجاع ، لنفسه · أما الامة فتشتد بقدر ما تخوض من المعارك : القبور فقط تحدث الوطن » ·

في الشعر الانعزالي تبدو الشهادة موضوعا قائما بذاته · انها شعار تنضوي تحتــه القصائد · ولشدة استقلالية الشهادة ، تتحول الى قيمة بين مجموع القيم التي يندرج تحتها الادب الانعزالي · ليس الموت نتيجة لمقدمات واضحة ، بل يغنى لنفسه ، لموضوعه الخاص·

وفي السياق الغريزي يتحول الدم الى ماء يعمد الارض · لان الارض اذا تركت دون هذه السقيا ، تتعطل العلاقة العضوية بين الانسان واشياء الطبيعة · يقول موريس عواد فـــي كتابه « رجال بوجه الريح » ·

« من زمان تعمدنا بالمي ، اليوم تعمدنا بالدم · صرنا ندق كتفنا بالموت وما نخاف » ·

وفي مكان آخر من الكتاب يقول :

« بس اليوم صارت البطولي انو نموت ، انو نمشي صوب الموت وعم نضحك » ·

وفي قصيدة اخرى له « تزكار من المعركي » يصف حوارا بين مقاتل ومقاتلة اصابتهـا رصاصة · القصيدة تتم على شكل حوار تعلن المقاتلة في متنه ان الاصابة جعلتها تغير علاقتها بالعالم ·· تقول :

« ـ صرت حب النوم بالمتاريس واتغطى بنجوم لبنان » ·

« ـ بعد هالجرح كل شي تغير · حتى حجار البيت صرت شوفن غير شكل »·

« ـ حسيت كأنه خلقت من جديد وعمري عشرين يوم » ·

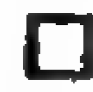
لقد اكتشفت المقاتلة علاقة جديدة مع الوطن بعد الاصابة · ونستنتج ان زمن الاصابـة كان زمنا ضائعا · في زمن ما قبل الاصابة ، لم تكنه شكل العلاقة بوطنها ، لم تستطع ان تتوحد عضويا معه ، « صرت حب النوم بالمتاريس واتغطا بنجوم لبنان » · الاصابة هنا ترتفع في جهاز القيم ، وبوصفها شبه موت ، او مقدمة للموت ، تخلق هذه الاصابة متعة لم تكتمل · ونستنتج من القصيدة ان اعادة اكتشاف العالم تمت لدى المقاتلة بما يشبــه التلمس الاولي لحقيقة الاندماج الكبرى بالموت · ولكن الاصابة تحقق بعض الغاية لانهـا اسالت الدم الذي وحده يحقق عمادة الانتماء للوطن ·

ونستطيع الى حد بعيد ان نقارن بين الكلمات التي انتخبناها من موريس عواد والنص الذي كتبه ليونيل ريشار عن العلاقة بالارض كما تظهر في أدب النازيين ·

الارض حاضنة القيم الخالدة ، والقيم مهددة دائما بالزوال او النسيان ·· ولا يخلص الارض وقيمها من الزوال الا الاثمان الباهظة · والفاشية تتطلب صراعا مريرا مع قوى غائبة كي يتحقق الاتحاد العضوي بين الانسان وارضه · لهذا تكون الحرب زمن تحـول القوى الغائبة الى قوى فعلية تتحرك وتهدد · لهذا تتحول الحرب الى ان تكون الزمن الاكثر حيوية ولهذا « يجب ان تغنى الحرب كي تصبــــح اسطورية ، والا سقطت فـــي النسيان ، وفقدت الامة رجولتها » ·

فى قصة لجورج شامي نشرت في ملف العمل الشهري العدد السادس تحت عنوان عارية

في البيت الخراب ، بذور شك تدفع المقاتل الى الطعن بمجموع القيم التي اكسبته اياها الحرب ، فيشكك بالعقيدة واليقين وينتابه شعور بالذنب لقتله الاطفال والنساء · وتتحول حالة الشك عند بطل القصة الى ما يشبه التوزع بين عالمين ، اليقين الكامل ، والتمرد على اليقين · وتقول القصة ، ان التردد والشك هما نتاج لحالة الهدنة التي وضعت البطل في بيته ومنعته عن القتال · ولكن ·· في نهاية القصة ، ينحل التردد ويذوب الشك ويرجع البطل الى حالة الاستقرار النفسي الذي اربكته الهدنة · يرجع البطل الى استقراره بعد ان يتقدم الاعداء من خلف الجبال ، فيأتيهم بطل القصة ويعمل فيهم تقتيلا وتسيل دماؤهم وتهبط جثثهم على الارض · عند ذاك يشعر البطل بأنه استرد ما اضاعه · اذ ان اليقين الكامل لا يتحقق الى بفعل الموت الذي يحقق هدأة النفس ويشبع ظمأ الارض ·



ولئن انحرفت بعض الكتابات عن السياق العام الذي نلاحظه في الشعر والادب الانعزاليين · فهذا الانحراف يرجع الى عدم قدرة صاحبه على اللحاق بشكل التعبئة الجديد ومضمونه · يونس الابن ليس شاعرا مقاتلا ولو انه يعلن انتماءه من القصيدة الاولى في ديوانه « ابو لبنان وسنتين حرب » · صحيح ان يونس الابن حقق النقلة النوعية في التوجه الى الناس نحو اعتماد اشكال فنية أقرب منالا وتداولا من شعره السابق على الحرب · لكنه لم يستطع الالتحاق بالشعر المقاتل · يونس الابن كان قبل الحرب يحاول في شعره ان يرفع لبنان الى مستوى الحقيقة الشعرية · ولا ننسى قصيدته التي غناها وديع الصافي « لبنان يا قطعة سما » · هذه القصيدة ترى للبنان بعيدا عن الصراعات الارضية والطموحات الارضية · دوره في العالم يتمثل بالشعر · اذ في حين ينشغل البشر بالاختراعات والاكتشافات ترى لبنان ثاقبا في الزمن :

« معرض الاهي ،

بالسما مسقوف

كيف ما التفتنا حولنا ،

منشوف

لوحات عا هالارض مشلوحة ،

كل لوحة تغار من لوحة ··· »

لبنان ينسيه صراعاته وهمومه الارضية · وطبيعي أن يكون سكان اللوحات الجميلة عرقا من البشر يختلف عن الاعراق الاخرى · وحين يشتعل لبنان ويتقاتل ابناؤه فانما بسبب الوافد الغريب ، القبيح الشكل السيء الطباع ·

هذا الوافد الغريب السيء الطباع المغتصب الارض والاعراض اتى ليزرع الشقاق بين « الاخوة اللبنانيين » ، يونس الابن ، رغم انسجامه مع متطلبات ادب الحرب التي تقتضي تغييرا في شكل التعبير ومداه · الا انه لم يندرج نهائيا في مجموع المقولات التي تبناها الجميع ، وهي مقومات لا تتجاوز منطق الشعار · قلنا ، يونس الابن يتسع في الادب الانعزالي حالة تقع فيسياق تطور الثقافة الانعزالية التي مرت بمراحل عديدة · فمنذ

لبنان الجمال والنبل الى لبنان الدم تقع تبدلات تطرأ على الثقافة الانعزالية · وكل مرحلة من المراحل المتعاقبة على هذه الثقافة يتشكل مفهوم ثقافي للبنان يتحدد بعلاقاته السياسية وصراعاته وسلمه · يونس الابن في كلامه الى الاخوة بين اللبنانيين وعلى وحدة الهدف والمصير التي تجمعهم يستقر في مرحلة من مراحل تطور الوعي اللبناني للبنان ، رغم انه يعلن انتماءه لفئة منهم على الصعيد العملي ·

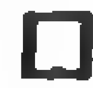
يشكل مصطفى جحا حالة فريدة في الكتابات الانعزالية . انه وافد الى المناطق الانعزالية طوعا · والاهمية التي منحته اياها جريدة العمل تنبع من هذا المنطلق · حاولت جريدة العمل التعريف به ، بانه « الهارب من جور الارهاب الفلسطيني » ·

وكتابات مصطفى جحا تختلف نوعيا عن الكتابات الاخرى · انه يميل يوميا الى تقرير الواقع السياسي المتبدل ، وهو ، في كتاباته يكتفي بالرسائل يبعثها الى اهله واعدائه و « المحتلين ارضه » · ولم تستطع جريدة العمل ان تدرجه في سياق الادباء والفنانين الذين حملوا قضيتها في الحرب · بقيت كتاباته دون تاريخ ، بقيت قولا سياسيا ليس له ما يؤهله في التراث الانعزالي المستمر منذ الكتابات الاولى حول لبنان · لهذا اكتفى مصطفى جحا بكونه حالة خاصة تمتعت بحق اللجوء الادبي دون ان يعطيه اللجوء ملامح « الامة » التي انتمى اليها ·

وقد يحتج الكثيرون عند قراءة هذه الصفحات على النماذج السيئة التي تم اختيارها · وقد يقال ، ان مصطفى جحا مثلا لا يجوز تناوله بالنقد لانه لا يستحق حتى ذكر الاسم ، وكذلك الامر بالنسبة للكثير من النصوص والادباء الذين تم التعرض لهم ·

الاجابة على هذا الاحتجاج تكمن في الادب الانعزالي نفسه · اذ الانعزالية والفاشية لا تحاولان الفن ، بل تحاولان في الكتابات التي تصدر عنهما الدعاية والتعبئة ، يريدان ان يكون الادب ذا فائدة فحسب · وقد تم تناول الادب الانعزالي في هذه المقالة باعتباره تعبيرا عن هذه الحالة · انه رديء في معظمه ولا يستحق حتى القراءة · ولكنه ، رغم رداءته ، يقول الكثير ، ويصل الى الاسس التثقيفية التي عبأ بها القادة العسكريون مسلحيهم المستنفرين ابدا ·

لهذا تكون دراسة الكتابات تلك تتسم بالمنحى الاجتماعي ، لانها تقدم مفاتيح للفهم ، دون ان تطمح الى ان تشكل اضافة ·



لقد رحل الادب الانعزالي بفترة قصيرة الى طروحات الادب الفاشي وموضوعاته · اذ ان الموضوعات التي تكلم عنها الشعراء الانعزاليون هي ذاتها التي تناولها الفاشيون · وكذلك طبيعة العلاقات الخاصة التي تحكم الفن تجدها متشابهة في الادبين · لقد استطاع الانعزاليون ان يصلوا الى ما قاله هتلر وموسوليني وزيغلر وغيرهم · ولدى متابعة النصائح التي اسداها كل من هؤلاء الى الادباء ، نجد ان النصائح نفسها تم الاستفادة منها في أدب حرب السنتين · العلاقة بالارض والوطن والموت والدم والغريب المغتصب هي ذاتها في الادبين ·

هذا يدفعنا الى الاستنتاج ان الانبثاق الاخير للايديولوجية اللبنانية كمن في تلاقيها مع الفاشية · ويبدو ذلك طبيعيا ، لان في الانعزال الذي يقوم على سحر الطبيعة وخصوصية العرق والحلم الذي لا يتحقق الا عبر القيم الغامضة · في هذه العناصر تكمن فاشية مؤجلة ، لا تلبث ان تتحقق وتكتمل حين « يتهدد الوطن » وتتطلب الارض الدم ·

محمد علي شمس الدين

ورشة القتلة

(١)

جسدي دافىءٌ
والإصابة مزقت الثوبَ
لكنها لم تزلْ معلّقهً بين جلدي وبين السماءْ
رئتي لم تزلْ في مهبّ الهواءْ
وقليلٌ من الدمع يجري
ولكنني كنت ألغيتُ هذا المصبّ إلى كربلاءْ
ليس للحزن ما يحفر الدمعُ
لكنه فرحي
إن سبعين ألفاً من النجم تهوي
لتلمس هذا الدم المستحيلْ
فاجرحوني
أنا ذبيحتكم في الزمان البخيلْ .

(٢)

جسدي قاربٌ
والطيور تحلّقُ مزهوّةً كالشعاعْ
قلتُ للطائر المنتمي لجناحيه : يا سيّدي

مَنْ يريح المعذّبَ من طعنةٍ في الشراعْ ؟
مَنْ يبادلني منزلي بقليلٍ من الريح
ويأخذ أربعةً من صغاري إلى المقصلهْ
إنّ أصغرهم ينتمي للعصافير
لكنه أجمل منها
وأكبرَهم جفّ كالوردة المهمله .

(٣)

جسدي غاربٌ
والقرى تدحرج خلفي نواقيسها :
قَصَبَ النهرِ
ثرثرةَ الماء في صمتهِ
حجراً لاجئاً في سلام الغبارْ
(جعفرَ) النبويَّ المسيطر من طرف الله
والقرويات شاخصة نحوهُ
وهو مئذنةٌ
أو دمٌ في الجدارْ .

(٤)

جسدي قاربٌ
والقرى تدحرجني في السيول
قلت للريح فوق الطبولْ
سلاماً

أنا غاربٌ فاتبعيني
قلت للنعجة المطمئنة في خوفها
سلاماً
أنا غاربٌ فاتبعيني
قلت للماء في صمتِهِ
قلت للحجر اللاجيء تحت الغبارْ
للمساء الذي يتشبّث بي وهو يلفظ شمساً أخيرهْ
(لسعدَى) التي متُّ عامين في حبّها
سلاماً كبيراً
أنا غارب فاتبعيني
ولكنني حين جاوزت حدّ الظهيره
لم أجد غير ظلي .

(٥)

جسدي هاربٌ
والقرى تدحرج خلفي جواسيسها :
قصبَ النهرِ
ثرثرة الماء في صمتِهِ
وشايته بي
(جعفرَ) الدمويَّ
والقروياتِ
والنعجة — الذئبَ
والريح
والمئذنهْ :

كل هذي الكلاب المدرّبة المؤمنه
تقتفيني .
أقول وداعاً بلادي
وداعاً قيودي الصغيره
لم يعد للمغنّي فمٌ
ولا طعمَ للعاشقينْ
والذي يفصل الشمس عن طفلها
ورَشْة القاتلينْ
هنا كل موتٍ بمقداره :

$\frac{١}{٢}$ كوبٍ من (الدال)

في

$\frac{١}{٢}$ كوبٍ من (المميم)

في

$\frac{١}{٢}$ نصف السماءْ

هكذا
ينتهي
آخر
الأنبياءْ .

سَعيد حورانية

حمّى ايتماتوف

قليل من متعلمينا من لم يقرأ ايتماتوف . والنادر فيهم من لم تصبه تلك الحمى التي اشتهرت في كل القارات باسم « حمى ايتماتوف » · ابتدات هذه الحمى المدوخة كضربة شمس ، عندما نشرقصته « جميلة » · وكما هزت قصة « آلام فرتر » لغوته شباب اوروبا الحكيمة الغارقة في مدرسيتها الوقور لتدشن عهد انعتاق الفرد الرومانتيكي في مطلع البورجوازية ··· دخلت قصة ايتماتوف التاريخ الادبي والاجتماعي كأغنية حب فريدة في هذا العصر الصناعي الذي تشيأت فيه العواطف . وخمدت حرارة العلاقات الانسانية ·

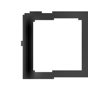
عبثا نفتش في حياة هذا الكاتب القرغيزي عن شيء غير عادي . بل يمكننا ان نقول انه عاش حياة لا تتميز عن ابناء جيله · فلقد ولد عام ١٩٢٨ وادرك الحرب وعمره اثنا عشر عاما · ذهب الرجال الى القتال ، واصبح الوطن يحتاج الى كل ساعد ، فترك جنكيز ايتماتوف المدرسة وهو في الصف الخامس . واخذ يعمل محاسبا في وحدة الحصادات ثم امينا للمجلس القروي · وعندما انتهت الحرب الرهيبة التي خطفت معها عشرين مليونا من زهرة شباب الاتحاد السوفييتي ، اتم ايتماتوف تعليمه في المعهد البيطري المتوسط ، ثم في المعهد الزراعي ، واخذ ينشر بعض الريبورتاجات والقصص القصيرة في الصحف لفتت اليه الانظار فاعتمدته « البرافدا » كمندوب خاص الى جانب عمله بضع سنوات في المزرعة التجريبية ، وهكذا اجاب ايتماتوف بتكليف من « البرافدا » فلوات قيرغيزيا وجبالها الرائعة. ملاحقا نبض الحياة فيها . ناهلا من منابع الحكمة الشعبية وغناها الاسطوري ، مستمعا بذهول الى جمال اغاني الرعاة ، وعزف الزوجات على « الكومور » فوق رؤوس رجالهن المتعبة ، مفعم القلب بالاسى وهو يرى ما خلفته الحرب من نكبات قاتلة . مضطرم الروح بالغضب وهو يلمس الاثر المدمر الذي تخلفه البيروقراطية والانتهازية التي طبعت بعض الادارات في زمن عبادة الفرد ·

« آه ايها الناس ايها الناس ! ما الذي لا تستطيعونه ؟ » هكذا هتف ايتماتوف في

« وداعا يا غولساري » وفي مثل هذه الجملة يكمن مفتاح ادب الكاتب · لقد كانت تأسره قوة الصلابة الاخلاقية في روح الرواد اللينينيين الاوائل الذين قاموا بأكبر ثورة في التاريخ ، ودحروا الاعداء وحطموا الفاشية ، والذين ابوا ان ينهزموا امام الكوارث الطبيعية او النذالة البشرية ، والذين كانوا يعتبرون الخوف احط الصفات الانسانية ، والموت اخا حنونا في سبيل ما يعتقدون ·

انها الام التي فقدت كل اولادها في الحرب في « ارض الام » تقف ثابتة فوق ارضها رافضة ان تتحطم روحها ، مفكرة في المستقبل · انه ذلك الجندي نصف المتعلم في « المعلم الاول » الذي وقف ضد التقاليد ، وحمى اكاديمية المستقبل ، وانتزعها من زوجها الضاري الذي اشتراها ليعذبها كل يوم ، وارسلها الى المعهد لتتعلم ، وابى ان يتراجع رغم الجروح التي المت به ، والعذابات التي انزلها به الزوج القاسي ومعاونوه · انه « تاناباي » في « وداعا يا غولساري » ذلك الذي لم تأخذه بأخيه رأفة فنزع ملكيته مع اندلاع الثورة ، وحارب الهتلريين ست سنوات ثم عاد ليرعى الاحصنة الشياة في اعالي الجبال في حال جحيمية ملأى بالصراع الضاري مع الطبيعة ومع المترهلين وراء مكاتبهم الدافئة يصدرون الاوامر ويعنفون · انه الطفل في « السفينة البيضاء » الذي يترك في نفوسنا تأثيرا عاصفا بنهايته الفاجعة كرمز لمحاولة قتل الطهارة والنبل ·

بطل ايتماتوف هو « انسان العمل » حسب تعبيره هو ، انه تجسيد الواقعية الاشتراكية التي اعادت بناء الحياة الاجتماعية « حين توجهت الى تصوير اولئك الناس الذين يعتبر عطاؤهم الابداعي ينبوع الحياة · ان عظمة الرجولة التي يظهرونها بكامل شكل حياتهم تتضمن الفلسفة الاعمق والانسانية حقا ، كما تتضمن شاعرية الاحساس التي لا يبلغها الانسان بواسطة التفكير المجرد الخيالي ، بل نتيجة النشاط الخلاق والعمل الدؤوب ، فانسان العمل – ذلك هو الشاعر بالمعنى الحقيقي للكلمة » (١) ·



كان من الممكن لهذا الكاتب الناشيء ان يقنع بريبورتاجاته وقصصه المرضي عنها ، وبهذه الرحلات التي لا تنتهي بين الجمهوريات ، ولكن قلبه المفعم شعرا وحبا وأسى ، وطموحه لان يعبر للناس عن كل تجربته الفنية ، دفعاه لان يترك المزرعة التجريبية لتربية المواشي ، بعد ان عرف كم هو عدد العروق النافرة في الحصان وهو ينطلق ، وسمع صوت الحليب وهو يغلي في الضروع الممتلئة ، وتلمس بيديه دقات قلب الحملان المبللة وهي تستقبل العالم ، واستطاع ان يفكر ويرى ويشم كالحصان الاصيل والنعجة المسالمة ، وحمل معه اصوات الريح وهسيس الثلوج وجلال الجبال وصمت السهوب ، وغضب العواصف ، حمل معه هذه الزوادة الكونية وذهب الى موسكو ليتم دراسته في المعهد الادبي سنة ١٩٥٨ وهي نفس السنة التي ظهرت فيها قصته « جميلة » ···

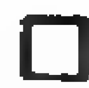
جميلة الفتاة الساحرة السمراء ذات العينين السوداوين والجدايل المضفورة المتوثبة كمهر بري ، المرحة النشيطة والمشاكسة ، لم يكن قد مضى على زواجها من الراعي صادق سوى اربعة اشهر عندما ذهب زوجها الى الحرب · وصادق هذا جامد الشعور ومحافظ على التقاليد البالية ، فهو رغم اعجابه بزوجته فانه يعتبرها ، كما هي العقلية القرغيزية القديمة ، متاعا من امتعة البيت اقل مرتبة من الحصان والنعجة ، وها هو صادق يرسل من الجبهة الرسالة تلو الرسالة يبدأها باجلال والديه والسؤال عن الاقرباء والحيوانات

والطقس وفي آخر سطر من الرسالة يقول باستحياء : « ابعث بتحية ايضا الى زوجتي جميلة » لا ·· مثل هذا الزوج لن يكون سيد قلبها الحر الابي ، لا ، ليست له هذه الاغاني التي تطلقها في السهب كالغيوم الحليبية ، وهكذا التقت بدانيار الجندي الجريح العائد من الجبهة ، الصامت ، الحالم ، الهزيل كعود من القصب ، ولكنه يملك ذلك القلب الذي يستطيع ان يحتضن العالم ، وتلك الصلابة الروحية التي جعلته يتحدى شرطه الانساني في حادث المحطة ، وهام دانيار بجميلة ، ولكنه اخفى بين ضلوعه حبه المستحيل · وذات يوم، وهما عائدان من تسليم الحبوب ، فاض الحب في قلبه فأخذ هذا الصامت الابدي ، هذا الخجول المتوحد يغني ·

يقول راوي القصة « في هذه الاغنية تكاد لا توجد كلمات فهي تفتح النفس الانسانية بدون كلمات ، ولم اسمع مطلقا لا قبل هذه الاغنية ولا بعدها اغنية شبيهة بها : فهي ما كانت تشبه الاغنيات الكازاخية ولا القرغيزية ، انما بها شيء من هذه وتلك ، وموسيقى دانيار كانت تحمل في نفسها احسن الحان هذين الشعبين الاخوين وتفرغهما في اغنية واحدة فريدة ،فكانت تلك الاغنية اغنية الجبال والسهوب ، وهي ترتفع احيانا عالية مثل جبال القرغيز ، واحيانا تسير سهلة دون حاجز مثل سهب كازاخي . كيف كان دانيار غنيا بالالحان الى هذه الدرجة ؟ ماذا حدث له ؟ ·· وفجأة بدا لي كل شيء مفهوما ·· لقد كان رجلا عاشقا ليس للانسان فحسب ، وانما للحياة والارض كلها » ·

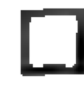
وفتح غناء دانيار امام جميلة كل العالم الارضي بجماله وقلقه . وكانت عندما تصغي اليه تحس برغبة الى ان تلقي بنفسها الى الارض وتعانقها . لقد شعرت بشيء جديد لا يقهر ، وهو ضرورة الاعراب عن نفسها ، واشراك الآخرين بفكرها وشعورها · وهكذا لقي هذا القلب الحر الابي نده الرائع ، وهكذا تركا كل شيء وانطلقا معا في ارض الله الواسعة يحدوهما هذا الحب المتألق وينير امامهما طريق المستقبل ·

القصة لا تلخص ، فليست جميلة ودانيار وحدهما بطليها . كل شخصية اخرى تتوهج بالحياة ، الطبيعة بجلالها تندغم بالصراع الانساني كبطل وليس كاطار مكاني او زماني · الايقاع يدور بشكل كوني ، اذا صح التعبير ، وهذه سمة شولوخوف ايضا ، ولكنها هنا مع شاعرية شرقية تأسر القلب ··· يقول الكاتب الفرنسي اندريه فورمسير « من يقرأ ايتماتوف لن تبقى في ذاكرته عينا جميلة السوداوان وضفائرها النزقة فقط ، ولا اغاني دانيار التي تعتصر القلب ، ولكنه سيتذكر طويلا كذلك ، الحقول والسهول الشاسعة ، والسيل الهادر ، والعربات المحملة بالحبوب وهي فيطريقها الى البيدر او الى المحطات ، وسيتذكر كذلك عاصفة آب الليلية » · لا يمكن الا للواقعية ان تضم مثل هذا الشمول الفريد ، هذه الشخصية التي تستيقظ من اعباء القرون الخامدة تحدوها الحماسة الى تحطيم كل الحواجز في طريقها ، تذكرنا ببعض سمات الدراما الاغريقية والشكسبيرية ، ودانيار يذكرنا ، وبالحاح ، بملامح ابطال بايرون ، ولكن جميلة لم تكن ، مع ذلك افضل روايات ايتماتوف ، لقد كان يعد نفسه لآفاق اوسع عبر اروع تعبير في روايته العظيمة « وداعا يا غولساري » ·

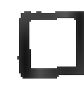


قصته الثانية المهمة « شجيرتي في منديل احمر » اثرت تأثيرا كبيرا على الجيل الشاب ·· ان بطل هذه القصة بائس بحد ذاته ·· تجرفه الميول الانانية واثبات الذات

لا بالمثابرة والصمود ، وانما بالمغامرة ·· تجرفه نحو السقوط · ولكنه بتصرفاته الشائنة يجرف معه في العربة الهاوية اكثر احبائه القريبين · ان احداث هذه القصة بسيطة جدا ولكنها بمجها بين الرومانسية الرفيعة والعميقة ، وبين الحقيقة الخيالية ·· اكتسبت بعدا دراميـا شاملا ، ولا عجب ان اعدت للمسرح الدرامي ولا عجب ايضا ان حولت الـى باليه « اسيل » (وهو اسم البطلة) رغم تخوفات المؤلف وشكوكه « اشعر وكأن ابطالي قد اداروا لي ظهورهم وقرروا بدء حياة مستقلة جديدة فتركوا الطرق الجبلية الوعرة الى عالم آخر هش وجميل » ولكن مخاوفه لم تكن في محلها ، فابطال قصته الرومانسيون ـ السائقون وعمال الطرق المهرة ـ ظهروا في مكانهم تماما على خشبة الباليه ، والعرض يجري بنجاح كبير على مسرح البولشوي الشهير في موسكو ·



ظهرت قصته الثالثة « عين الجمل » لتصور الصدام العنيف بين فهمين مختلفين للعالم : الفهم الاشتراكي وفهم الملكية الصغيرة الخاصة · لقد كان الصراع بينهما مهادا غطـى قضية حياتية ملحة في تلك السنوات التي حفلت بالانجازات والاحباطات ·



القصة الرابعة « المعلم الاول » وهي نشيد ملحمي للعمل المتفاني ، والاخلاص الذي لا ينثني لقضية الثورة ، وفيها يذكر ايتماتوف ـ حسب قوله ـ الشباب الحالي بآبائـه الخالديـن ·

يعود الجندي ديوشين من الحرب الاهلية الى قريته « كوركوريو » بعد ان هجر ابـوه القرية منذ زمن ، فلا يتذكره سوى المسنون ، عاد بمعطفه العسكري العتيق وجمع الاهلين وفاجأهم بأنه اصاب في الجيش بعض التعليم وانه مكلف بفتح مدرسة في قريته العزيزة ·

ويفاجأ بموقف الفلاحين المعاند الذي يتحول الى عداء عندما يطلب منهم خشبا لاقامـة جسر ، ولترميم اسطبل البك لتحويله الى مدرسة ، ولكنه لم ينثن عن عزمه بل بدأ وحده بالعمل بين سخرية اهل القرية ومشاكساتهم ، رغم قسوة الظروف وسوء التغذية ،وانعدام اي عون :

ـ اهذا هو المعلم ديوشين يحمل حزمة ·

ـ هو بنفسه !

ـ يا له من مسكين · الظاهر ان عمل المعلم ليس بالامر الهين ايضا ·

ـ انه لا يقل عن خادمة البك ؟

وكان ديوشين يسمع ويعمل غير آبه ، حتى استطاع ان يهيء ما سمي بـ « مدرسـة ديوشين » ·

ودار ديوشين بمعطفه وورقته الموقعة بختم السلطة السوفييتية يجمع الاطفال ، وبصعوبة استطاع التغلب على العقليات القديمة وخاصة عند عمة التيناي سليمانوفا بنت الرابعـة

عشرة التي كانت تستخدم قريبتها كالخادم وتسومها سوء العذاب ، والتي كـانت تحطـم رأس ديوشين بالمعـــول ٠

وهكذا بدأت تلك العلاقة الرائعة بين المعلم وتلامذته وخاصة التيناي الصبية المتفتحـــة على الحياة الجديدة ، والتي كانت تلتهم معارف ديوشين المتواضعة التهاما ، ونشأ حـب صامت عميق بين الفتى المعلم وطالبته الصبية ، ولكنه كان يتمنى ان تذهب التيناي الـى المدينة لتتعلم :

ـ انت لامعة الذهن يا التيناي ، وقابلياتك جيدة ٠٠ آه لو استطيع ان ارسلك الـــى المدينة الكبيرة ٠٠ لاصبحت شخصية ما اروعهـا ٠

العمة العجوز وقد احست بخطر العلاقة بين المعلم والصبية تستقدم احد الرعيان الاغنياء من الجبال لتبيع التيناي له كزوجة ثانية ، فتقبض مبلغا من المال وبعـض النعاج ٠

ويعلم المعلم بالخبر فيمنع التيناي من الذهاب الى البيت :

ـ سأكون مسؤولا عنك ، ستعيشين معنا ، لا تغيبي عني ابدا ٠

وبعد يومين اقتحمت العمة المدرسة ومعها ثلاثة فرسان ٠٠ حاول المعلم ببسالة الدفـاع عنها ، ولكنهم انهالوا عليه بالضرب حتى كسرت يده والقي في النهر بين الموت والحياة، واختطفت التيناي ، وفي نفس الليلة اغتصبت ٠

ـ « يا عمتي يا سوداء الروح ، عليك اللعنة الى ابد الابدين ٠٠ شـرقت بدموعـــي ودمي ٠ وفي تلك الليلة ، بعد خمسة عشر عاما من ولادتي اصبحت امرأة ٠٠ وكنت اصغر من اولاد ذلك المغتصب » ٠

فكرة واحدة كانت تعيش في روحها ٠٠ الهرب ٠٠ الهرب ٠ اخذت تحفر باظافرها الارض المتجلدة في الليل والراعي غارق في شخيره المخمور ولكن الصبح طلع واستفاقت القريـة تستعد للرحيل نحو الجبال نحو الموت ٠٠ حينما تقدم من باب الخيمة رجال الميليشيـــا وعلى رأسهم ديوشين المضمد المكسور الذراع ٠

كشف الغطاء عن الوجه الاحمر اللحيم صارخا :

ـ انهـض ٠

وامسك به من تلابيبه وهزه :

ـ « خنزير ٠٠ الان اذهب الى المكان اللائق بك ٠٠ اذهب ٠٠ تظن انك تدوسها كما تدوس العشب ، وتقتلها ؟ هراء ولى زمانك ، وجاء الان زمانها ٠٠وفي هذا نهايتك » ٠

وسار رجلا الميليشيا بالمجرم ، وركبت التيناي حصان ديوشين وعند النهر قال لها :

ـ « ستذهبين للدراسة في المدينة يا التيناي ، لقد قبلوا ٠٠ انزلي من الفرس واغتسلي سأذهب بعيداً ٠٠ انسي كل ما وقع سيخفف الاستحمام عنك » ٠

ونزلت التيناي الى الماء ، احست انها تتطهر :

ـ « احمل ايها الماء معك ضر ودنس هذه الايام ٠ اجعلني نقية مثلك ايها الماء » ٠

وفي المحطة اخذ القطار يتحرك ·

ـ وداعا يا التيناي وداعا يا نوري ·· تعلمي ·· تعلمي ·

ـ وداعا يا معلم ·· وداعا يا معلمي العزيز ·

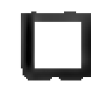
واندفع القطار واندفع معه ديوشين يصيح صيحته الاخيرة :

ـ التيناي التينـا ··· ي ·

صاح وكأنه نسي ان يقول لها شيئا مهما جدا ، رغم انه كان يعرف ان الاوان قد فات·· وما زالت تلك الصرخة الصادرة من صميم القلب ، من اعماق الروح ، تدفع التيناي فـي دراستهـا حتى اصبحت اكاديمية ·

ولم يلتقيا بعد ابدا ·

بدا ايتماتوف في المعلم الاول اكثر غوصا في اعماق النفس البشرية · واكتسبت لغتـه غنى وتلونا ، واكثر استخدامه للمونولوج الداخلي الهامس وكأنه يسر للقارىء بســـر شخصي ، وطرح بعض الاستطرادات التي كان يلجأ اليها في قصصه الاولى محافظا على الخط الدرامي ، متلاعبا بالزمن في قوة واقتدار ·



في روايته الخامسة « ارض الام » يصل تصوير فجيعة ام فقدت اولادها وزوجها فـــي الحرب الى شمولية غنائية تتجاوز الزمان والمكان ، ان تولغوناي الفلاحة القرغيزية العجوز لم تتحطم ولم تنحن انها راحيل التي بكت اولادها وترفض ان تتعزى ، ولكنها راحيـــل الحديثة التي وعت الاسباب ، والتي تثور فيها قوة عجيبة ، قوة محاربة الشر ، تدافـــع بحبها وحزنها عن حق نساء العالم كلهن بأن يكن امهات سعيدات ·

قمة المأساة في هذه الرواية هو ذلك المشهد عندما تنتظر تولغوناي ابنها المحبـــوب « ماسالبيك » القادم من سيبيريا في طريقه الى الجبهة في قطار عسكري ، فبعد ما يقارب يوما كاملا من الانتظار على الرصيف تسمع الام صوت ابنها من قطار مر امام المحطة وهو يصرخ « مامـا » ·

ماسالبيك قريب جدا « نفشت الريح شعره ، واطراف معطفه تضرب كأجنحة الطيـر ، وعلى وجهه وفي عيونه فرح وحرقة واسف ووداع » · لقد ذهب ابنها الذي لن يعود امـا تولغوناي فقد ودعته بأن ضمت القضبان الحديدية الباردة ·

وتتوجه تولغوناي الى الحقل الحبيب ، الى الارض المرضعة :

« ـ قولي لي ، ايتها الارض الحبيبة ، متى ، وفي اية ازمان قاست الام وتعذبـــــت هكـــذا ؟

ـ لست ادري يا تولغوناي ـ هذه هي الحرب التي لم يعرف العالم في عصرك مثيلا لها·

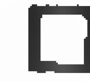
ـ اذن فلأكن انا آخر ام تنتظر ابنها هكذا ، لا قدر الله ان يضم احد القضبان الحديدية وان يضرب رأسه بالعوارض الخشبية » ·

انها تحني رأسها امام امجاد ابنائها بكرامة ، ولكنه مجد مر ٠

« لا يستطيع اي مجد ان يعوضه لي حيا ، ليسألوا اي ام ٠٠ ليست هناك ام تحلم بمثل هذا المجد ٠ الامهات يلدن الاطفال من اجل الحياة ، من اجل السعادة الارضية ٠



ثم اصدر ايتماتوف مجموعته الشهيرة « قصص الجبال والسهول » هتف الجميع : ان غوركي مالفا وماكار تشودرا ورادا بمتشرديه وغجرييه يستفيق مع ايتماتوف ويكتسي بعدا جديدا ٠٠ هؤلاء الابطال الذين وجدوا ذواتهم او اضاعوها ، يخوضون في صراع البناء وصراع الخلفيات الفكرية والطبقية والاخلاقية المتباينة ٠ لقد صور ايتماتوف بضربات ريشة حادة المحاسن والمساوىء ، النفوس الابية والوضيعة ، التفاني والانتهازية الابداع والبيروقراطية وبعيدا عن الابيض والاسود ، وبعيدا عن « الفرح المزيف والميلودراما التافهة اللذين سادا اكثر المؤلفات في عهد عبادة الشخصية ، شق ايتماتوف للواقعية طريقا بكرا غنيا كان يحلم به غوركي : ايقاع الحاضر الملحمي مع آفاق المستقبل القلق ، الحكمة لا السذاجة ، الرومانسية الشعرية العميقة المحبة للحياة والمقاتلة في سبيلها ، لا الرومانسية الشعارية المسطحة بالعواطف المشاعة الفارغة ٠ ونال ايتماتوف على مجموعته هذه جائزة لينين عام ١٩٦٣ ٠



بعد ثلاث سنوات ظهرت رواية ايتماتوف العظيمة « وداعا يا غولساري » التي اثارت عاصفة عالية من النقد ، واتفق الكثير بين مؤيد ومعارض انها خير ما كتب الجيل الثاني في الادب السوفييتي ٠

وداعا يا غولساري نقد صارم عنيف للانتهازية البيروقراطية التي تتمتع بسلطة مؤثرة ، والتي تعتصر العاملين المتفانين في سبيل المثل التي عاشوا لها ، لتنفيذ خطط مستحيلة تعهدت بها امام الحزب والدولة ، وجعلت العاملين ، بالمداهنة والكلمات الحماسية الفارغة ، يتعهدون بها بعد ان وعدتهم بالمعدات والآلات والابنية والاعلاف ٠ وهكذا تركتهم امام جبروت الطبيعة ، وقسوة الصقيع دون ان تفي بأية التزامات ، والنتيجة طبعا كارثة٠٠ البيروقراطية تعتصر فائض العمل والعاملون الابطال يجوعون ٠٠ ثم يتهمون لعدم تنفيذهم الخطط بشرفهم وايمانهم بالقضية ، وقد تصل الاتهامات الى درجة الخيانة ٠ ولكنهم لا ينحنون ٠٠ يقاومون بكل قوتهم كما قاوموا الاعداء الخارجيين ، وقد لا ينتصرون ، ولكنهم مؤمنون بان القضية اكبر من كل هذا الجهاز الذي نما متسلقا كاللبلاب على جذع الثورة في ظل عبادة الشخصية ٠

تاناباي من اوائل الشيوعيين في القرية ، كان شجاعا وصارما كالسيف في وجه الاعداء ، حتى انه نزع ملكية اخيه الصغيرة ، وعندما قامت الحرب ، مكث في الجيش ست سنوات ، وحارب في جبهات متعددة ، وجرح مرارا ولكنه ظل حيا حتى النصر ٠

عاد الجندي الاول تاناباي الى قريته « حسنا لقد انتصرنا على الاعداء ، والان ينبغي ان نعيش » ٠ « ان الماضي كله كان قد قدم ضمانة لكي يمكن الآن ، وبعد كل شيء ، بدء تلك

الحياة الحقيقية التي نشدوها طيلة هذا الوقت ، والتي من اجلها انتصروا واستشهدوا في الحرب ٠٠ ولكنه اتضح ان تاناباي كان مستعجلا ، مستعجلا جدا » ٠

استقبله صديقه القديم تشورو رئيس الكولخوز الشيوعي القديم والطيب والمريض بالقلب ٠٠ حسنا ٠٠ الآن انت تعمل بالحدادة ، تطرق الحديد كل يوم ٠٠ هذا عمل طيب ٠٠ولكن الشيوخ الرعاة في الجبال يتجمدون من البرد ويقولون : حسنا لقد انتصرنا ، وعاد الجنود فأين هم لرعي القطعان ٠٠ لا احد يا صديقي يريد الذهاب ، وانت طليعي ، فاقبل العمل في رعي الخيول ٠ وعند ذلك لن يتملص الشبان من الذهاب ٠

وذهب تاناباي الى الجبال ، لا مأوى للخيول ، سوى وهدة شبه محمية من العواصف ٠٠ لا علف كافيا ٠٠ وعاش في الخيمة المثقوبة التي ترقعها زوجته كل يوم مع ابنائه ، وهناك التقى بالمعادل الرمزي لحياته الجسور : وهو الحصان الرهوان « غولساري » ٠ ليس هناك بحدود قراءاتي ، وحتى عند شولوخوف ، وصف للحصان بمثل هذه الروعة ، التجربة الطويلة والحب العارم ساعداه هنا ، انه لكي يصف الكاتب حصانا بكل هذه الحميمية والدقة والغنى يجب ان يصاحبه كالبدوي او الفارس ، ولكنه يجب ان يكون حصانا حقا ورهوانا ايضا ، ليفكر كما فكر « غولساري » وليشعر كما شعر « انه لم يسمع قط عواء الذئب ، واستشعر كيف تجمد كل شيء في نفسه ، في لحظة ، وتخثر ، وتخشب من فرط رعبه كما لو ان شبحا ما انبطح في الظلمة على الثلج » ٠

« وهيمن الرعب على الحصان ٠ فشب مرة اخرى ، واخرى ٠ كانت الشمس تلوح مرة بعد اخرى في عينيه على نحو مضجر مزعج ، منشالة من دوائر حارة ٠٠ لم تعد تصهل وتقفز وتتواثب في الجبال ، بل جعلت الجبال ، والارض ، والناس تهوى منتكسة على ظهورها ، وما عتم ان اغلق العينين برهة فراغ اسود مرعب ، ما لبث الحصان ان انهد يدقه بقائمتيه الاماميتين » ٠

ان مشاهد ترويض « غولساري » و « السباق » ولعبة « المان بايغا » وهي صراع بين الفرسان على اقتناص عنز مذبوحة ٠٠ لمن اروع مشاهد الادب ، بما فيها من نضارة وفتوة وتلوين وحس ، ولقد أطلق ايتماتوف اللغة من عقالها كما اطلق « غولساري » فأخذت تخط طريقها بين الريح والانواء ، وصراخ الفرسان ، وغيوم الغبار ، ورجع الحوافر ، لتثبت اي غنى يمكن ان تفجره الواقعية عندما تدق ايقاعها الكوني ، وحين تتجاوز المعاش الى الممكن راسمة خطا ناريا محرقا في العصب والعرق ، متجاوزة مسافات الزمان والمكان ٠٠ هذا هو الادب الخالد ٠

« غولساري » الرمز المعادل لتاناباي الانسان الصلب الحر ، الشموس ٠ ففي نفس الوقت الذي تنفق فيه الخيول من العواصف والذئاب والجوع ، في الوقت الذي اخذ يدق فيه تاناباي طاولة تشورو ويصيح :

– لا تنظر الي بهذا الشكل ٠٠ لست بالفاشي امامك ، اين العنابر للقطعان ، اين العلف ، اين الشوفان ، اين الملح ؟ بالريح وحدها نعيش ، او هكذا اوصينا ان ندبر امورنا الاقتصادية ؟ الا ترى بأية اسمال اسير انا ، انظر الى مساكننا تعال لتعرف كيف نعيش اننا حتى الخبز لا نشبع ، وحتى في الجبهة كان الحال افضل بمئة مرة مما نحن عليه الان ٠

ويرخي تشورو الطيب رأسه ، ويعصر قلبه الضعيف ، ويقرر ان يستقيل من رئاسة الكولخوز ليعمل رئيسا للمنظمة الحزبية ، انه مسنن في الآلة الكبيرة وليس يدري ما يعمل ٠

ويأتي الرئيس الجديد نظراته مائلة ٠٠ كلماته كلها سطوة ٠ الوعد والوعيد ٠الشعارات المحفوظة والتهديد المبطن ٠٠ ولكن تاناباي اخذ يواصل الدق على الطاولة ٠ في هذا الوقت بالذات اخذ منه الرهوان « غولساري » الحصان الشهير الذي ربح السباق ، وقهر الفرسان في لعبة « المان بايغا » والذي خلق ليخصب الافراس حتى تلد مهورا حرة وقوية واصيلة٠٠ اخـذ ليصبح مركوبا ذليلا للرئيس ٠

ويرفض تاناباي بشدة في بادىء الامر ويقول المبعوث مؤنبا :

« ـ ولكن كيف يا تاناباي ؟ انه الرئيس ـ انه آمرنا ويتوجب علينا احترامه انه يسافر الى المركز المنطقي ، ويجيء الناس اليه ٠ ان الرئيس بارز دائما امام انظار الناس ، ان صح القول ٠

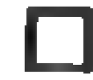
وتصرخ زوجته غايدار :

ـ اعقل اعقل ٠ اخفض يديك ٠ اغولساري حصانك الخاص ؟ ما هو ملكك الشخصي هنا ، كل ما عندنا هو للكولخوز ، والحصان كولخوزي ايضا ، اما الرئيس فهو سيـــــد الكولخوز ، فكما يقول فكذلك سيكون » ٠

ويؤخذ غولساري ليوضع عليه سرج مخملي ومسندة للظهر ، ولكنه يحرم السـّـــواس النوم (لاحظوا المضمون الرمزي) ويهرب الى القطيع مرتين ٠٠ الى الحرية الى الحب، وفي المرة الثالثة هرب الى القطيع وانطرح امامه مدمى ونظر تاناباي اليه : لقد كان قفل حديدي همجي يضم كاحليه ، والدماء تنزف منه ٠ وحطم تاناباي القيد وصرخ بالسواس الذين اتوا لاعادته :

ـ خذوه ٠٠ اما هذا القيد الحديدي القفلي فأعطوه الى رئيسكم وقولو له : ان تجرأ مرة اخرى على تقييد الرهوان ، فاني ساحطمن رأسه بهذا القيد ٠

وذات يوم خصوا الحصان الرهوان « غولساري » ٠



وفي اللجنة المنطقية يطلب تشورو من صديقه ، بعد ان اقنعه بالتحول الى رعاية الغنم، لانها فرع متأخر ، ولانه افضل الرعاة ـ ان يتعهد بان يسلم الكولخوز مئة وعشرة حملان من كل مئة نعجة ٠٠ ويحتج تاناباي :

« ـ كيف سأقول هذا ، ان لم اكن قد رأيت قطيع الغنم البتة ؟

ويقول المنطقي ٠

ـ امشكلة هذه ؟٠٠ تصور ماذا يقول ٠٠ قطيع الغنم ستتسلمه ٠ وقل ايضا انك ستختار للتدريب تحت رئاستك اثنين من الرعاة الكومسومولين الشبان ، اشيم وبكتاي ٠

ـ كيف ٠٠ ان لم اكن قد تحدثت معهما مطلقا ؟ ثم كيف سينظران الى الامر ؟

ـ اطرح ما يخصك انت ٠٠ الامر مقرر سلفاً ٠

ـ حسنا ، قال تاناباي بسخرية مستاءة اذا كان مقررا فعلام اجراء الحديث معي ؟٠٠ ومضى ٠

امسك به تشورو ـ هل تذكرت كي شيء ؟

ـ حفظت ٠٠ حفظت ٠٠ ومضى منفعلا متوترا » ٠

بالطبع لم يعطوه سوى « بكتاي » الشرس ، واخذ بكتاي يرتحل كثيرا ثم ترك العمـل في ريعانه ، وجاء الربيع وقرب موسم التوالد ، وكالعادة كانت الاغنام بلا مأوى ولا علف كاف ، وكانت الولادة مباركة ولكن الموت كان اكثر بركة ، وتشققت اطراف تاناباي وزوجته واولاده وتقرحت عيونهم وهم يحاولون انقاذ القطيع ٠

وذات يوم جاء « غولساري » يحمحم وعلى متنه مفتش المنطقية وتشورو ٠٠ الله اللـه يا غولساري عرف صاحبه القديم ٠

ـ « احم ـ تفضلوا لقد وصلتم اخيرا » بدأ يفكر بتشف ٠ هنا كان يمكنه ان يجـــأر بالشكوى ، وان يفرج عن نفسه بالبكاء ، ولكن لا لن يئن ٠٠ دعهـم يخجلوا » ٠ دعهـم يتضرجوا استشعارا بالخزي ٠٠ رموه للموت ومع ذلك هم قادمون ٠

نظر المفتش الى الحملان النافقة دون ان يحيي تاناباي وانفجر :

ـ يا لها من شناعة ٠٠ في كل مكان مثل هذا الامر ٠٠ لماذا هكذا ايها الرفيق كيف انت راع شيوعي ، وحملانك تنفق ؟

ـ اما هي ، الحملان ، فعلى الارجح ، لا تعرف انني شيوعي ٠

قالها تاناباي ساخرا لاذعا ، وفجأة ، وعلى حين غرة ، كما لو ان نابضا انكسر فيه ، فجعلت روحه تقفز ٠

ـ هل تقبلت الالتزامات الاشتراكية ؟

ـ تقبلت ٠

ـ ما الذي قيـــل هناك ؟

ـ لا اتـــذكر ٠

ـ ولهذا تنفق عندك الحملان ٠ ونهض بالركاب متشجعا بامكانية تعليم هذا الراعـــي الوقح ، وصب نقمته اولا على تشورو الذي لا يربي شيوعييه جيدا ثم التفت الى تاناباي٠

ـ انك اذن ، انك تقضي على ثروة الكولخوز ، انت عدو للشعب ، في السجن مكانـــك وليس في الحزب ٠ انك تسخر من المسابقة الاشتراكية وتستهزيء بها ٠

نظر تاناباي الى تشورو وصرخ :

ـ لماذا جئت ؟ اسألك انت بالذات ٠٠ لتقول لي ان الحملان نفقت ؟ هذا اعرفه ٠٠ لتقول لي انني كنت احمق كل حياتي عندما بذلت روحي للكولخوز ؟ اليك عني ٠٠ ودفعه بيده ـ لابصقن على كل التزاماتي ، على كل حياتي ٠٠ ان مكاني السجن ، لماذا جئتني بهذا السيد

الجديد في المعطف الجلد ، الاجل ان يستهزىء بي ·· عجل ايها الوغد والق بي في السجن ·· » ·

وانخطف تاناباي الى الذارى وامسك بواحدة وهجم على المفتش الذي كاد يموت رعبا ، وتلقى الضربات عنه ، قبل ان يلوذ وتشورو بالفرار ، الرهوان الصديق « غولساري » ·

وفي اليوم التالي حوكم تاناباي فلم يقر بذنبه ، ودافع عنه عضو الكومسومول فقط (رمز المستقبل) ، اما تشورو الطيب فقد صمت · وهكذا ·· لاقدميته وسجله ، اكتفى بطرده من الحزب وسئل :

ـ « ايها الرفيق باكاسوف ما الذي ستقوله عن اثمك ؟ ·

ـ لا شيء ·· اذا كنت وسأظل مؤذيا ، عدوا للشعب ·· فعلام اذن معرفة ما افكر به انـا ؟ ·

ومضـى ·

ـ الى اين ·· صرخوا به ، سلم بطاقتك الحزبية ·

وران الصمت ، وبحث طويلا ، « كان يحملها في حزام عبر كتفه ، واخيرا اخرجها من هناك ، وادرك البطاقة الحزبية مدفأة من حرارة صدره وانفاسه ، ووضعها دافئة مشبعة برائحة بدنه ، وضعها على الطاولة الباردة المصقولة جيدا ، وتقلص اثر ذلك حتى صار يشعر بالبرودة » ·

وهكذا خصي « غولساري » مرة اخرى ·

ولحقه تشورو ·· يا صديقي الشيوعي ·· ولكن تاناباي نهره :

ـ لست صديقا لك ، ناهيك من ان اكون شيوعيا ، اما انت فمنذ زمن بعيد لم تعد شيوعيا ·· انك تتظاهر ·

ـ هل انت جاد فيما تقول ؟ ·

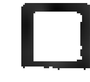
ـ بالطبع جاد ، فانا لم اتعلم بعد انتقاء الكلمـات · اذهـب : **طريقك يمتد باستقامة وطريقي ينحرف جانبا** » ·

سار وترك تشورو شاحبا يقبض بيديه على قلبه · ركب تشورو حصانه بصعوبة وسار نحو المركز الحزبي ، وامر بجمع الناس · انه يريد ان يقص عليهم كيف ظلم تاناباي وامثاله · ولما اجتمع الناس لم يمهله المرض ، ونقل وهو يسأل عن صديقه · ومات موصيا بأن يسلم تاناباي بالذات هويته الحزبية الى المركز كأوثق شيوعي بالنسبة له ·

ان غولساري الرهوان « لم يبق فيه سوى التحرق الشديد للركض ، اما الاشـياء الاخرى ، فقد ماتت كلها عنده منذ زمن طويل ، **اماتوها فيه لكي لا يعرف سوى السرج والطريق** · وكان غولساري يحيا بهذا الركض ويعيش » · اما تاناباي فلم يستطيعوا اخضاعه ، ان ما يحرز من تقدم هو من صنع يديه ، لقد وضعوه على الهامش ، واشعروه بالغربة ، ولكنه ظل يقاوم ، وعندما تغير جيل وعرض عليه من جديد استعادة عضويته كان قد شاخ وهرم هو وغولساري معا · وها هما يسيران في عمق السهب الشتائي ··

« غولساري » يحتضر وتاناباي يناجيه ويتذكر · وكان المونولوج هو البناء الدرامـــي للرواية ·· واخيرا يدفن تاناباي حصانه الحبيب والدموع في عينيه قائلا : « وداعــا يــا غولساري » ، وكأنه يودع بذلك حياته ذاتها ·

ومنحت هذه الرواية فورا جائزة الدولة ولقب ايتماتوف بأديب الشعب السوفييتي



اخيرا سنقف قليلا عند قصته الجديدة « السفينة البيضاء » التي اعترف الجميع انها تعبير واضح عن دياليكتيكية التصورات الشعبية حول الخير والجمال . وحول الاسس الاخلاقية للشخصية الانسانية ·

دارت حولها مناقشات حية ، اعترض الكثيرون على نهايتها اليائسة التي يعبر عنهـــا موت الطفل بطل القصة · وانتظر ايتماتوف ثم رد على ذلك بمقال شهير بعنوان « تدقيق لا بد منه » ·

علق على الكلام المكرر بان « الفن يجب ان يدعو الناس للفرح والتفاؤل » بقوله : « ولكن من الصحيح ايضا ان الفن يجب ان يوصل الانسان الى تأملات عميقة . وهزات شديدة ، وان يثير لديه احاسيس عنيفة من الالم والاحتجاج ضد الشر ، يجب ان يعطيه المحبــة للحسرة والحزن والتعطش لتثبيت وحماية الافضل في الحياة الذي يداس وينتهك » · يدعم ايتماتوف فكرة عدم التطابق دائما بين « اليأس » في الفن و« اليأس » في الحياة بأمثلـــة واضحة من الادب الكلاسيكي :

« ما هو موت جولييت من وجهة نظر الحياة ؟ انه اليأس . انه انتحار النفس الضعيفة · وما هو موت جولييت في الفن ؟ يبدو لك انه الشيء نفسه · ولكن هذا « اليأس » يمتلك بفضل ريشة شكسبير قوة هائلة للفعل المعاكس ــ انه القوة . انه عدم الخضوع ، انه عدم المساومة ، وهو في نفس الوقت حب وكره . تحد واخلاص . وهو في نهاية المطاف تأكيد للشخصية كان ثمنه الحياة » ·

ويختتم ايتماتوف « اجل . يقتل الطفل . لكن التفوق الروحي والاخلاقي يظل الى جانبه ، و « انتصار الشر » هنا خيالي وعابر . فالنصر ليس للشرير اوروزكول · النهاية غيــر الشكلانية من « المنتصر » ومن « المهزوم » ، تحمل في القص اهمية حاسمة بالنسبة للفن · اما النصر الحقيقي فيكمن في النتيجة الفكرية الختامية « المهم ان يكون القارىء قــادرا على القتال من اجل تلك الحقيقة التي لم يستطع الابطال الادبيون ــ لاســباب مختلفــة ــ تأكيدها فعليا ···» ·

صدرت لجنكيز ايتماتوف روايات اخرى لم اقرأها بعد وهي « الكلب المبقع يركض نحو البحر » ، و « ماناس » وغيرها · ان طريقه الابداعي لا يزال في اوله ، وهو قادر عــلى العطاء · ولا شك انه اغنى الواقعية الاشتراكية وعمقها وفتح لها طرقا وآفاقا ابعد · انه ينظر الى الواقعية بمنظار شمولي « الواقعية الاشتراكية قبل كل شيء هو ادراك عميــق لظواهر الواقع الطبيعي ولجوهر الصراعات والصدامات في الحياة المحددة ، وهي ايضـا الاقتراب الاقصى من انسان محدد · وهذا الاقتراب مبني على اساس الفهم الانســـاني الحقيقي لشخصية الانسان وقيمته الذاتية ، ومهمته التاريخية الرفيعة ·

وتتطلب الواقعية من الكاتب موقفا وطنيا فعالا ورؤية تقدمية **تسمح له باستشفاف النزعة قبل ان تتحول الى ظاهرة** ، وبالتعبير عن علاقته بها . ان مغزى الفن ، كما يقول تولستوي هو توحيد بني البشر · هذه المعادلة ، اذ تغتني بمضمون اجتماعي معين ، تساهم اليوم بصورة كاملة في الجدال المبدئي الايديولوجي للقرن العشرين بين الواقعية من جهة ، والحداثة التي يعتبر الاغتراب جوهرها واصلها ، من جهة اخرى » (٢) ·

ويساعد ايتماتوف على تصور حياة ابطاله الداخلية نزعته الى اقتناص اللحظات الطفولية في النفس البشرية « انا على يقين بأن الانسان يجب ان يحفظ افضل ما فيه عن الطبيعة » · « لئن رغبنا بالتحديق مليا في الطفولة فربما سنعاني شعورا مذهلا بالخلود » · « المحافظة على الطفل في الانسان ليست على الاطلاق خيالا او وهما لطيف مجرد ، بل شرطا ضروريا للحياة الكريمة القادمة ، فالطفولة ، برأيي مرادف دائم لشاعرية الروح الانسانية ، للابداع وحقيقة الالهام » · ويرتفع ايتماتوف بالطفولة الى معنى انساني شمولي ليكسبها قوة التجريد مع المحافظة على خصوصيتها ، كما فعل بالطفل في « السفينة البيضاء » انه رمز المستقبل الذي يحاول الاشرار والوصوليون عديمو الشرف ان يقتلوه · وكان موته تحذيرا رهيبا ودعوة للنضال ضد هؤلاء الطفيليين ·

ان ايتماتوف ليس وصافا للحياة وانما هو شاعرها ، لا يهتم بالاحداث العادية اليومية ، وانما يحشر ابطاله في ظروف غير عادية لاثبات جدارتهم ، او انهيارهم ، ليتجاوزوا ذواتهم وينتصرون او العكس · يبحث في قواهم الداخلية لكي يعيشوا « الحياة الكاملة » وما هي هذه الحياة الكاملة ؟ « معناها ان نعاني تلك الاحاسيس غير العادية والانطباعات التي تشكل الجوهر المكنون للحياة الحقة » ·

دوستويفسكي حاول ان يفعل ذلك ، ولكن اكثر ابطاله كانوا من مثقفي سكان المدن . فمن هم ابطال ايتماتوف ؟ « الكادحون ·· الكرامة التي يجسدها هؤلاء الخلاقون الارضيون الذين يحلمون بالعدالة الاجتماعية والسعادة للجميع · ان جموح هذا الحلم الذي اصبح مغزى الحياة ، يجعل الانسان العادي مساويا (يقصد في غناه الروحي) لذلك الذي يكتشف النجوم » · وايتماتوف يبحث دوما عن البطل النائم في الانسان ، كما كان يفعل « اكسوبري » · ويكره العادية ويدينها · فالعادي هو الانسان المنغلق على نفسه في معارك القرن العشرين الهائلة ، الغارق في اهتماماته ومصالحه الخاصة التي تشكل في النهاية تعبيرا عن الانانية الاجتماعية « لهذا تراني اقدر في البطل اكثر من اي شيء اخر ، شعور العزة والاباء والطموح الى الحرية الداخلية ، ان تأكيد هذه المبادىء يمكن ان يتطلب من البطل اعظم تضحية » · ويقترب ايتماتوف بهذه الكلمات اقترابا كبيرا من آراء غوركي في الرومانسية الثورية ، ولكنه يعطيها بعدا جديدا · فأبطاله سوفييتيون بنوا الثورة ، وهم اولاد الثورة بانجازاتها واحباطاتها ، ومن هنا جدة طرحه ·

---

(١) في الحديث الذي اجراه كوركين مراسل « المجلة الادبية » · ملحق الثورة السورية الثقافي ، العدد ١٧ تاريخ ١٩٧٦/٧/١ ، ترجمة نوفل نيوف ·

(٢) المصدر نفسه ، والاستشهادات التي تليه ·

جدول بالعـمليات العسكريـة لقوات الثورة الفلسطينيـة من ١٩٧٨/١٢/١٧ ـ ١٩٧٩/٢/٣

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	البلاغ العسكري الرقم	التاريخ
١ ـ	٧٨/١٢/١٧	٢٠ر٦	رامات جان ـ موقف باصات جنود العدو .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	ـ اكتشفت العبوة ، لكن تفجيرها ادى الى وقوع اضرار كبيرة في احد باصات العدو .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٦٦	٧٨/١٢/١٧
٢ ـ	٧٨/١٢/١٦	٤٠ر٣	تل ابيب ـ احد المباني الحكومية الواقعة في شارع العمل .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	ـ اصابة المبنى باضرار بالغة . تحطم زجاج معظم الابنية المجاورة . اصابة عدد من السيارات الموجودة امام المبنى .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٦٧	٧٨/١٢/١٧
٣ ـ	٧٨/١٢/١٧	صباحا	القدس ـ الحي اليهودي .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ اصابة عدد كبير من افراد العدو . تحطم عدد من السيارات القريبة من مكان الانفجار .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٦٨	٧٨/١٢/١٧
٤ ـ	٧٨/١٢/١٧	٣٠ر١٧	القدس ـ احد باصات شركة ايجد .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	مقتل وجرح (٢٥) من افراد العدو		ـ مقتل وجرح ما لا يقل عن (٢٥) من افراد العدو . تدمير الباص تدميرا تاما . اصابة عدد من المباني والمحلات الموجودة في الشارع .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٦٩	٧٨/١٢/١٨
٥ ـ	٧٨/١٢/١٧	صباحا	مستوطنة الون شبوتس .	قصف	صواريخموقوتة	(١)	غيرمحدد	ـ انفجر الصاروخ بين خبير المتفجرات .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٧٠	٧٨/١٢/١٨
٦ ـ	٧٨/١٢/١٦	١٥ر٢٣	مستوطنة غوشعتسيون .	قصف	صواريخ	ـ	ـ	ـ وقوع عدد من الخسائر داخل الاهداف المحددة	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٧١	٧٨/١٢/١٨
٧ ـ	٧٨/١٢/٢٠	مساء	القدس ـ تجمع لافراد العدو	هجوم	قنابل يدوية	قتل وجرح (٧) من افراد العدو		ـ قتل وجرح سبعة من افراد [illegible]	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٧٢	٧٨/١٢/٢١
٨ ـ	٧٨/١٢/٢٠	٠٠ر١٢	القدس ـ مدخل احد المطاعم .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	قتل وجرح (١٠)		ـ قتل وجرح (١٠) من افراد العدو .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٧٣	٧٨/١٢/٢١
٩ ـ	٧٨/١٢/٢١	٠٠ر٧	كريات شمونه ـ المواقع العسكرية .	قصف	صواريخ ثقيلة	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ اصابت الصواريخ اهدافها .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٧٤	٧٨/١٢/٢١
١٠ـ	٧٨/١٢/٢١	٠٠ر٢	كريات شمونه ـ مواقع المدفعية .	قصف	صواريخ ثقيلة	ـ	ـ	ـ خسائر في صفوف العدو .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٧٥	٧٨/١٢/٢١
١١ـ	٧٨/١٢/٢٧	١٥ر١٧	اللد ـ سوبر ماركت تابع لقوات الجيش .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	غير محدد	ـ اصابة عدد غير محدد من جنود العدو . تصدع جدران المبنى . اتلاف جزء كبير من محتويات السوبر ماركت .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٧٦	٧٨/١٢/٢٧
١٢ـ	٧٨/١٢/٢٨	١٥ر٧	العفولة ـ سيارة عسكرية .	هجوم	سلاح فردي	ـ	غير محدد	اصابة عدد من جنود العدو جراح احدهم خطرة .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٧٧	٧٨/١٢/٢٨
١٣ـ	٧٨/١٢/٢٨	٠٥ر١٩	القدس ـ السوبر ماركت الواقع في التلة الفرنسية .	تفجير	عبوات ناسفة مشركة	ـ	ـ	ـ تحطيم زجاج السوبر ماركت والابنية المجاورة .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٧٨	٧٨/١٢/٢٩
١٤ـ	٧٨/١٢/٣١	٠٠ر٧	تل ابيب ـ مدخل احد المحلات التجارية .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	قتل وجرح (٦) من افراد العدو		ـ قتل وجرح ما لا يقل عن ستة من افراد العدو . اعطاب احد الباصات العسكرية . تحطم زجاج عدد من المحلات التجارية المجاورة .	ـ	ـ	ـ	٧٨/١٧٩	٧٨/١٢/٣١
١٥ـ	٧٩/ ١/ ١	١٥ر١٦	غزة ـ احد باصات شركة ايجد .	هجوم	قنابل حارقة	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو . تدمير واحراق الباص بالكامل .	ـ	ـ	ـ	٧٩/١	٧٩/ ١/ ٣
١٦ـ	٧٩/ ١/ ١	٠٥ر٢٠	بئر السبع ـ مدخل سينما كيسرن .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	ـ اكتشفت العبوات قبيل انفجارها بقليل .	ـ	ـ	ـ	٧٩/٢	٧٩/ ١/ ٣

١٧ـ	٧٩/١/ ٥	١٥ر٧	بئر السبع ـ المحطــة الرئيسية للبنزين ٠	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	ـ	(١)	اصابة خبير المتفجرات بجراح خطيرة ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/٣	٧٩/ ١/ ٥
١٨ـ	٧٩/ ١/ ٧	٠٠ر٢	حولون ـ سيارة ضابط مخابرات ٠	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	ـ	(٢)	ـ اصابة اثنين من حرس الكتب ٠ تدمير جزء من الكتب والسيارات المتوقفة امامه ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/٤	٧٩/ ١/ ٨
١٩ـ	٧٩/ ١/ ٧	٠٠ر١٢	حيفا ـ محطة القطارات المركزية ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	ـ اكتشفت العبــوة وتــم تفجيرها بعيدا ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/٥	٧٩/ ١/ ٨
٢٠ـ	٧٩/ ١/١٣	٣٠ر١٩	نابلس ـ مبنى الحاكم العسكري ٠	هجوم	قنابل حارقة	ـ	ـ	ـ اندلاع النيران في المبنى واحــراق جــزء مــن محتوياته ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/٦	٧٩/ ١/١٤
٢١ـ	٧٩/ ١/١٥	٠٠ر٦	بني براك ـ مستودعات مصنع الكيماويات ٠	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	ـ	غيرمحدد	ـ اصابة عدد مــن افــراد العدو بجراح بالغـة ٠ احراق كامـل محتويـات المستودعــات والقســام المصنع كلها ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/٧	٧٩/ ١/١٥
٢٢ـ	٧٩/ ١/١٦	٤٥ر٨	القدس ـ قرب سينما مبيره ، العاصمة ، ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	ـ اكتشفت العبوات وتــم تفجيرها ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/٨	٧٩/ ١/١٦
٢٣ـ	٧٩/ ١/١٨	٤٥ر١٠	القدس ـ سوق محنى يهودا ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	قتل وجرح (٤٠) من افراد العدو		ـ قتل وجرح اربعين مــن افراد العــدو ٠ تدميــر اجزاء كبيرة من الحوانيت وتحطم زجــاج ونوافــذ البيوت وتصدع جــدران معظمها ٠ تعطيل شبكة الكهرباء فــي الســوق ٠ اعطاب عدد من سيارات العدو العسكرية والمدنية المتواجدة فــي مكــان الانفجار ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/٩	٧٩/ ١/١٩
٢٤ـ	٧٩/ ١/١٨	٠٠ر٢٠	حيفا ـ احــد المحلات التجــارية في شــارع هرتسل ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ تكبيد العدو خسائر بشرية ومادية ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/١٠	٧٩/ ١/١٩
٢٥	٧٩/ ١/١٩	[illegible]	[illegible] العسكرية ٠	[illegible]	عبوات ناسفة موقوتة	(١)	(٣)	ـ [illegible] الـ[illegible] التفجير فنقلها الى ساحة مجاورة فأدى ذلك الى مصرعه وجرح اثنين ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/١١	٧٩/ ١/١٩
٢٦ـ	٧٩/ ١/١٩	٠٠ر١٨	كريات شمونه ـ المنشآت العسكرية ٠	قصف	صواريخ ثقيلة	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ خسائر جسيمة بالارواح والممتلكات ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/١٢	٧٩/ ١/١٩
٢٧ـ	٧٩/ ١/١٩	مساءا	نهاريا وكفار جلعادي ـ الاهداف العسكرية ٠	قصف	صواريخ ثقيلة	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ تكبيد العدو خسائر مادية وبشرية كبيرة ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/١٣	٧٩/ ١/٢٠
٢٨ـ	٧٩/ ١/٢٨	٢٠ر١١	ناتانيا ـ السوق المركزي ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	(٥)	(٥٥)	ـ تدمير واحراق عدد مــن المحال التجارية ٠ اعطاب عــدد مــن السيارات ٠ تحطيم زجاج معظم الابنية المجاورة ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/١٤	٧٩/ ١/٢٨
٢٩ـ	٧٩/ ١/٢٨	٠٠ر٢	ريشون لتسيون ـ شــقة احد ضبــاط مخابرات العدو ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	غيرمحدد	ـ تدميــر شــقة ضابــط المخابرات ٠ جرح عــدد غير محدد من المتواجدين داخل الشقة ٠ اصابــة شقتين في نفس الطابق ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/١٥	٧٩/ ١/٢٨
٣٠ـ	٧٩/ ١/٣١	٢٠ر٧	جنين ـ مكتب للعمل ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	ـ تدمير اجزاء كبيرة مــن الكتب واتــلاف جميــع محتوياته ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/١٦	٧٩/ ٢/ ١
٣١ـ	٧٩/ ٢/ ٢	٢٠ر٢١	هرتســيليا ـ ســيارة متوقفة امــام احــدى المؤسسات ٠	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	ـ	غيرمحدد	ـ اصابة عدد من افــراد العدو بجراح مختلفــة ٠ تدمير السيارة تدميــرا تاما ٠ اصابة المؤسســة المواجهة لمكان الانفجار ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/١٧	٧٩/ ٢/ ٤
٣٢ـ	٧٩/ ٢/ ٣	٠٠ر١٨	رامات جان ـ احد المباني السكنية الجديدة ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	غيرمحدد	ـ جرح عدد غير محدد من افراد العدو ٠ تدميــر احدى الشقق تدميرا تاما ٠ اتلاف واحراق محتويــات عدد من الشقق ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/١٨	٧٩/ ٢/ ٤
٣٣ـ	٧٩/ ١/١٣	فجرا	معالوت ، ترشيحا ، ٠	التحام	اسلحةرشاشة ومتفجرات	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ احتجاز رهائن وحــدوث معركــة بيــن الفدائييــن وقوات جيش العدو ٠	٣	ـ	ـ	ر/ا العدد ١٦٧٥	/١٤ ٧٩/١

اعترافات العدو

٧٨/١٦٦ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : تم صباح اليوم اكتشاف عبوة ناسفة في شارع « جيها » في رامات جان وقد ابطل مفعولها خبير المتفجرات (٠٠٠)

راا الساعة ٠٠ر٨ الاحد ١٩٧٨/١٢/١٧ – ص ٣٠٦
العدد ١٦٥٣ ٠

٧٨/١٦٧ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : وقع انفجار شديد في شقة سكنية في شارع هعفوداه « العمل » في تل ابيب هذه الليلة (٠٠٠) ولم تقع اصابات لكنها احدثت اضرارا بالغة ٠

راا الساعة ٠٠ر٨ الاحد ١٩٧٨/١٢/١٧ – ص ٣٠٦
العدد ١٦٥٣ ٠

٧٨/١٦٩ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : انفجار في باص في القدس ، على الخط رقم ١٢ في شارع هئيد كار ٠ (٠٠٠) تشير التقارير الى ١٠ جرحى ، ٤ منهم في هداسا ٠

مستشفى شعارية تسيدك والباقون في

راا الساعة ٠٠ر١٩ الاحد ١٩٧٨/١٢/١٧ – ص ٣٢٠
العدد ١٦٥٤ ٠

٧٨/١٧٣ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : وقع انفجار قبل نحو ساعة بالقرب من بوابة يافا بالقدس ، وقد جرح اربعة اشخاص ادخلوا الى المستشفى في القدس الشرقية ، وقال مراسلنا ان الانفجار وقع امام مدخل مطعم في شارع ديفيد بالقرب من حانوت لبيع الخضار ٠

راا الساعة ٠٠ر١٣ الاربعاء ١٩٧٨/١٢/٢٠ – ص ٤٠٠
العدد ١٦٥٦ ٠

٧٨/١٧٢ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : ألقيت في القدس قبل نحو ساعة ونصف الساعة قنبلة يدوية من سور المدينة على شارع كتيبة المظليين بجوار بوابة الزهرية ٠ وكنتيجة للانفجار اصيبت فتاتان اسرائيليتان وسائح من بريطانيا بجراح طفيفة في اقدامهم ٠

راا الساعة ٠٠ر٢٢ الاربعاء ١٩٧٨/١٢/٢٠ – ص ٤١٤
العدد ١٦٥٧ ٠

٧٨/١٧٤ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : قبل نحو ساعة حصل قصف من الاراضي اللبنانية على كريات شمونه واصيب عدد من سكان البلدة وادخلوا المستشفى (٠٠٠) ٠

راا الساعة ٠٠ر٨ الخميس ١٩٧٨/١٢/٢١ – ص ٤٢٢
العدد ١٦٥٧ ٠

٧٨/١٧٧ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : في العفولة اطلقت النار صباح اليوم على احد جنود جيش الدفاع الاسرائيلي واصيب بجروح (٠٠٠) وقد ادخل المستشفى واجريت له عملية جراحية ٠

راا الساعة ٠٠ر١٠ الخميس ١٩٧٨/١٢/٢٨ – ص ٥٢٣
العدد ١٦٦٢ ٠

٧٩/٤ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : في الساعة الثانية بعد منتصف الليلة الماضية حدث انفجار تحت سيارة خصوصية كانت تقف في موقف « بيت ساره » في شارع هامعبيم في حولون لكن

احدا لم يصب بأذى في حين منيت السيارة ببعض الاضرار ·

را الساعة ٠٠ر٨ الاحد ٧ / ١ / ١٩٧٩ ـ ص ١١٠ العدد ١٦٦٩ ·

٧٩/٩ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : في سوق محني يهودا بالقدس وقع انفجار هذا اليوم واصيب ٢١ شخصا بجروح طفيفة ادخل ١٩ منهم الى مستشفى شعاريه تسيدك واثنان الى مستشفى هداسا (٠٠٠) ·

را الساعة ٠٠ر١٢ الخميس ١٩٧٩/١/١٨ ـ ص ٣٧٠ العدد ١٦٧٩ ·

٧٩/١٠ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : انفجرت الليلة في حيفا عبوة ناسفة بالقرب من الكنيس الكبير في شارع هرتسل · ويقول مراسلنا انه لم تقع اصابات (٠٠٠) ·

را الساعة ٢٦ر٢١ الخميس ١٩٧٩/١/١٨ ـ ص ٣٨٩ العدد ١٦٨٠ ·

١٢ـ٧٩/١٣ صرحت اذاعة العدو بالعمليتين قائلة : كرر « المخربون » قبل حوالي الساعة قصفهم بمدافع الكاتيوشا على مستوطنات الشمال وهو القصف الثاني من نوعه صباح اليوم ·

را الساعة ٠٠ر١٢ الاحد ١٩٧٩/١/٢١ ـ ص ٤٣١ العدد ١٦٨١ ·

٧٩/١٤ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : من جديد يحدث الانفجار وفي هذه المرة في ناتانيا وبالتحديد في ميدان « تسيون » ، المعلومات عن المصابين ليست وافية حتى الان فالتقارير تتحدث عن ٢٣ جريحا بينهم اربعة اصاباتهم بالغة (٠٠٠) ·

را الساعة ٠٠ر١٣ الاحد ١٩٧٩/١/٢٨ ـ العدد ١٦٨٧ ·

٧٩/٢٣ حول عملية معالوت « ترشيا » صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : (٠٠٠) فقد نجحت خلية « المخربين » التي دخلت معلوت امس في البقاء داخل الاراضي الاسرائيلية يوما ونصف اليوم ، حيث اكتشفت بعد ذلك ، وقد دخل « المخربون » الجدار الامني على الحدود الشمالية الى عيادة نقاهة تتبع كريات حوليم في معلوت وهناك اصطدموا بشجاعة بخلية جيش الدفاع الاسرائيلي ، فقتلوا بعد معركة قصيرة (٠٠٠) ·

را الساعة ٠٠ر٧ الاحد ١٩٧٩/١/١٤ ـ ص ٢٥٩ العدد ١٦٧٥ ·

محمد قدورة

مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبدالله الغنيم

مدير التحرير
عبدالعزيز السيد أحمد

صدر العدد الاول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥
تصل اعدادها الى ايدي نحو ١٠٠٫٠٠٠ قارىء

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على :

- مجموعة من الابحاث تعالج الشؤون المختلفة للمنطقة باقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشؤون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير — وثائق — يوميات — بيبليوجرافيا
- ملخصات للابحاث باللغة الانجليزية

ثمن العدد : ٤٠٠ فلسا كويتيا أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للافراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج « بالبريد الجوي » .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٥٠ دولارا امريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

العنوان : جامعة الكويت — كلية الاداب والتربية — الشويخ — دولة الكويت
ص.ب : ١٧٠٧٣ (الخالدية)
هاتف : ٨١٦٨٠٧ — ٨١٦٧٩٩ — ٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

المستقبل العربي

● وحدوية ● مستقبلية
● موضوعية ● جـــادة
● اهتماماتها من المحيط الى الخليج
● قراءتها من المحيط الى الخليج

المستقبل العربي

هدفهـــا
✱ وعي الوحدة العربية
✱ وحدة الوعي العربي

رئيس التحرير د. انيس صايغ
تصدر عن « مركز دراسات الوحدة العربية »
(ص.ب ٦٠٠١ ـ ١١٣ ، بيـــروت)

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدر عن جامعة الكويت

فصلية أكاديمية علمية محكمة بالشؤون النظرية والتطبيقية في مختلف حقول العلوم الاجتماعية

وتنشر موادها بالعربية والإنجليزية

رئيس التحرير الدكتور أسعد عبد الرحمن

* **الاشتراكات :**

للافراد سنويا ، دينار في الكويت ، ديناران كويتيان أو ما يعادلهما في الوطن العربي (بالبريد الجوي) ، ثلاثة دنانير أو ما يعادلها في سائر أنحاء العالم (بالبريد الجوى) ، وللطلبة أسعار خاصة مخفضة .

أما الأسعار للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية في الكويت وخارجها فمفتوحة بحدها الأقصى ، ولا تقل عن عشرة دنانير في حدها الأدنى .

توجه جميع المراسلات والأبحاث باسم سكرتير التحرير على العنوان التالي :

مجلة العلوم الاجتماعية - كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية ص.ب : ٥٤٨٦ - جامعة الكويت

الكويت - تلفون : ٥١٠١٨٨/٢٧٣/٢٥٠

Palestine Affairs

No. 87 / 88 Feb. / March, 1979

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

السعـــر: ١٠ ل·ل في لبنان
١٢ ل·س في سوريا
١٣٠٠ فلس في الكويت والعراق
٢٠ درهما في دولة الامارات العربية
١٥٠٠ درهم في ج·ع·ل
١٢ ل·ل· في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٨٧/٨٨ شباط/آذار (فبراير/مارس) ١٩٧٩



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : الياس خوري

٨٩ نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٩

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، رأس بيروت ـ لبنان ، ص·ب ١٦٩١
تلفون : التحرير والتوزيع ٣٥١٢٦٠ ·
برقيا : مرابحاث ، بيروت ·

مدير التوزيع : **غازي دانيال**

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل·ل· في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل·ل· في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل·ل· في اوروبا ، ١٢٥ ل·ل· في بقية بلدان العالم ·

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل·ل· في جميع الدول غير العربية ·

الغلاف للفنان
ضياء العزاوي

المحتويات

الصفحة

الصفحة

هـامش

٠٠ وها نحن يمتد بنا الاجل ونـــرى الى انسحاب مصر الاحتفالي منا ومـــن المعركة ، ونرى عملية سحب مصر من ذاتها الى المجهـول لفترة مـا مـن الزمـن ٠ فليترك السلام جثة هامدة على الارض والورق ، او لفظة ضرورية لنشر الوعـــي الزائف ٠ ان ما يحدث هو هجوم اميركي على رياح ستهب ٠ وان ما يحدث هـــو انتهاء شهر العسل بين الرجعية العربية ودورها في انجاز « السلام العادل » ٠ فلم يعد في وسع التضامن العربي ، الهادف الى تحرير الاوطان المحتلة ، ان يتسع للذين يغذون شريان آلة القمع الاميركية والاسرائيلية ، بعدما تحررت اميركا من المهـــام المستحيلة في الاحتفاظ بصداقتها الاستثنائية للصهيونية وللقومية العربية !٠ لقـد انتهى الصراع العربي ــ الاسرائيلي من حول اميركا الى النتيجة الوحيدة الممكنة : الوصول الى معاهدة صلح مع اسرائيل ٠ او الى النتيجة الاخرى المعدلة عن الاولى: العجز عن تدمير الاسس التي نشات عنها المعاهدة التي تعلن الحلف الجديد ، او الوحيد حتى هذه اللحظة ، في هذه المنطقة الثمينة من العالم التي لا تعادل هزيمة اميركا فيها الا هزيمة العرب في مصر ٠

سينال الحاكم المصري من هجاء اللغة العربية ما يعجز الاعلام الغربي عـــــن تعويضه ٠ ولكن الدهشة لا تستطيع الشفاعة للذين يقفون على الرصيف في انتظار التوبة ٠ فهذا الحاكم الفرد الذي يسرق الشرعية من ملايين الفقراء ، والذي يمثل احد تجليات المزاج الكريه الذي تفرج به ساعة من التاريخ عن سامها ، لا يستطيع العودة الى الوراء ، او الى « حظيرة » الامة كما يقول الوزراء المتحـررون مـــن حاسة الدلالة ٠ ولذلك فان الصبر الجميل الذي يتحلى به عرب اميركا ، القـادرون على لمس « التناقض » بين واشنطن وتل ــ ابيب ، هو بمثابة المشاركة في وضـــع سياق المعاهدة على الرغم من الاعتراض على بعض بنودها ٠ وان بحث العـــرب الرصين عن مدى الربح ، او الخسارة ، الذي تقدمه المعاهدة الاميركية ــ اليهودية ـ المصرية لهذا الطرف او ذاك ، او التساؤل عن قابليتها للتطبيق ، وعـــن صلاحية بنودها الغامضة في التفاصيل والواضحة في الجوهر ، لفتح باب الصراع علـــى التفسير على غرار قرار ٢٤٢ الشهير ، او طرح عشرات من الاسئلة في اطـــار المعاهدة المرجعي ، سيكون بمثابة غض الطرف عن الواقع الذي لم يخلقه التوقيـــع على المعاهدة ، بل ان هذا الواقع هو الذي خلق المعاهدة ٠ ولذلك فان الخـــروج العملي من منطقة المعاهدة ، يتطلب اولا محاكمة الواقع الذي انجبها ، لكـــي يكـون النقد الذاتي دليلا على صدق التحرك العربي لتجنيب الامة حتمية السادات ٠

فما الذي كان ينتظره التضامن العربي ليتحرك ؟ اليس خط السادات السياسي ، منذ انقلاب ١٥ ايار ، نذيرا بالتخلص من كل الكوابح الوطنية واحكام تبعية الوطن

لاميركا · الم يكن في زيارة القدس ما يشير الى ان خطوات السياسة المصرية ، داخليا وخارجيا ، موسومة بدقة في اتجاه اخراج مصر من المعركة العربية ضد القلعة الصهيونية ، واستبدال العدو الاسرائيلي بعدو وهمي هو الشيوعية الدولية ؟ لقد وجد السادات في التشجيع العربي العام لهذا الخط الاستراتيجي العام ما يمنحه الشجاعة الكافية لفضح التطبيق العملي والحرفي لصيغة التسوية الاميركية التي اندرج تحت صياغتها الكثيرون · فهل بقي الخلاف كبيرا الى درجة تتفق مع هذه الدهشة التي تضرب القارة العربية ؟ صحيح ان مؤيدي السادات ومموليه العرب يكابدون من اجل حلف علني او مبطن بين اميركا والرجعية العربية ، ولكن لياقة الادمان على ترديد اسم المسجد الاقصى تحول دون ان يجلس المسلمون واليهود في معاهدة واحدة · فكيف ستحل هذه المعضلة ؟ ليست تلك مشكلتنا · ولكننا نستطيع ان نرى ان الحلف الاميركي ـ المصري ـ اليهودي الذي قد يعوض اميركا واسرائيل بعض احزانهما الفارسية ، وقد يضع حجر الاساس لمبنى من العلاقات والتحالفات لحماية النفط العربي من العرب والامن الاسرائيلي من السلام والامن المصري من الاسلام ، يدفع صيغة « التضامن العربي » المفتوح بشروط هي لا شروط الى امتحان الفضيحة في مواجهة السؤال الذي يتعرض للطمس : الا يزال العرب يعتبرون اسرائيل عدوهم القومي ؟ اذا كان الجواب « نعم » فهل يستعدون لاعداد شروط محاربته والضغط المادي عليه لارغامه على قبول الحد الادنى من شروط السلام العربي على الاقل ؟· اذا كان الجواب « نعم » ، فهل يعرفون ان الذي يحارب اسرائيل يختلف مع اميركا ؟ اذا كان الجواب « نعم » ، فهل يعرفون ان اميركا هي صانعة الحلف الاسرائيلي ـ المصري ؟ اذا كان الجواب « نعم » فهل هم على استعداد لانزال العقوبات الممكنة باميركا وليس بمصر فقط ، هذا اذا افترضنا انهم سينزلونها بمصر ؟

نحن نسال ، ونتساءل لان الحملة الاميركية ـ المصرية لنشر الوعي الزائف ، تقابلها حملة مضادة من الوعي الزائف ايضا يقطع المعاهدة عن جذورها الاجتماعية التي لا يشكل الوضع المصري تجليها الوحيد ويحرمان مناقشتها من حق مناقشة الذات العربية التي ما زالت معلقة بسراب علاقة خاصة باميركا تحمي سياج « حظيرة » الامة من خطر التوسع الصهيوني والفزاعة الشيوعية · ولان هذا الوعي الزائف قد زيف تاريخية المعاهدة ، وحولها الى مسرحية على شاشة التلفزيون ، جعل المواطنين في هذه الامة مشاهدين محايدين في مباراة رياضية عتيقة ، استطاع كارتر في الدقائق الاخيرة ان يسجل الهدف في مطار القاهرة ·

فكم من الوقت سيمر لنعلم ان لحمنا هو الميدان ، وان اصابة كارتر التي مررها

له الجناحان السادات وبيغن قد استقرت عميقا في شبكات عيوننا !٠٠

والسادات هو الخائن ، وهو العدو ٠ ولكن ، هل يوافق « التضامن العربي » على ان كارتر عدو ايضا ؟٠ وبيغن يذكرهم بشيلوك الذي لن يتوقف عن ابتزاز ثمن باهظ للمعاهدة ٠ ولكن ، من اي نفط ومن أي مال سيدفع كارتر لبيغن ؟ كيف نكون جادين في معاقبة نظام مصر اذا كنا نعطي اميركا كل شيء ، ونمطا من الحكم يخرج الناس من السياسة ومناقشة مصائرهم ومصير اوطانهم ، ويحول الدولة الى اداة قمع للناس ، فلا يكون السادات هو الفرد الوحيد الذي يتصرف بالوطن كما يتصرف اقطاعي بمزرعة ٠ ان الثلاثين ساعة التي استغرقتها مناقشة البرلمان الاسرائيلي للمعاهدة قبل التوقيع عليها هي ، بالنسبة لنمط الحكم العربي ، فضيحة ودعوة ملحة لاعادة النظر في أمور البيت ٠ فاذا كان ايماننا بشعب مصر العظيم صادقا ، واذا كانت المعاهدة تعبيرا عن خيانة فرد يمثل طفيليات المجتمع ، فكيف اتيح لهذا الحاكم الفرد ان يحدث هذا الانقلاب في منطقة الشرق الاوسط ؟ ان الاجابة الديمقراطية عن سؤال الحكم هي التي تضمن للوطن مصيرا لا يقرره فرد ٠ اما القمع السائد وملاحقة الافكار والاحلام ، والاعدام بلا محكمة وتهمة ، وتفتيت المجتمع وسيادة الطفيليات على الدولة ، فانها حجر الاساس في المبنى الفاسد لاتخاذ القرار ، مما يحول اسرائيل من عدو الى ذريعة حكم في أكثر من وطن ٠

ان ظاهرة السادات ، الذي سيجمع مجلس الشعب المصري للتصديق على المعاهدة ، وسيمنع اي اعتراض عليها ، ويطلق الشرطة والجيش في الشوارع والمصانع والبيوت ، هي دعوة ملحة لوضع مسألة الحرية والديمقراطية البند الاول على جدول اعمالنا ، لكي لا يكون الملك هو الوطن ولكي لا يكون الملك قادرا ، بمثل هذه السهولة ، على تحويل مسألة في خطورة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، الى صراع اسرائيلي ـ عربي ضد العرب ، ولكي لا يتحول الجنود العرب الى صيادي ثوار ٠ فان اسرى الدولة ، اسرى المقاولين والتجار والسماسرة لا يستطيعون الدفاع عن دولة تسحقهم ٠

واخطر ما في السادات انه ظاهرة مألوفة ، تتحول الى جزء من حياتنا اليومية ، والى طراز متوفر ، متيسر ، ومنتشر كانفجارات بيروت التي يرتفع في سمائها دخان المطاط المحترق ، الذي قد يصل جزء منه الى الضفة الغربية ، ليبلغ اهلنا هناك انه ما زال فينا شيء يتنفس ، وان السادات هو الناطق الشرعي عن طفيليات الحكم العربي ، ويا ليته يكون الناطق الوحيد ٠٠٠

محمود درويش

نصير عاروري

مقدمات قضية كامب ديفيد
التناقض الظاهري لدبلوماسية كارتر

تريد هذه المقالة ان تقدم خلفية تاريخية مختصرة لترتيبات كامب دايفيد التي تم التوصل اليها في ولاية ماريلاند في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ ، بين انور السادات ومناحيم بيغن تحت رعاية الرئيس كارتر · لقد كتب وقيل الشيء الكثير حول سياسة كارتر في الشرق الاوسط طيلة العامين اللذين امضاهما في منصب الرئاسة · كان اول رئيس جمهورية اميركي يدعو الى الحاجة الى ايجاد « وطن » « للاجئين الفلسطينيين الذين عانوا العذاب لاعوام كثيرة كثيرة » (١) ، ويصرح علنا انه يحق لهم «التعويض » (٢) ، ويعترف بأن المسألة الفلسطينية هي قضية « جوهرية » في الشرق الاوسط (٣) ، ويحث اسرائيل بلغة لا غموض فيها على الانسحاب من جميع الجبهات العربية الثلاث (٤) ، والامر الابرز دلالة هو انه كان اول من استخدم العبارة التي كانت ممنوعة حتى ذلك الحين « الحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني (٥) · كان ايضا اول رئيس للجمهورية منذ دوايت ايزنهاوريتحدى القيادة الاسرائيلية بالكشف الواضح عن النوايا (٦) · واول من استخدم عبارة « غير شرعي » ضمن معنى القانون الدولي في الاشارة الى البناء الاسرائيلي للمستوطنات الاستعمارية في الاراضي العربية المحتلة والى التنقيب عن النفط في شبه جزيرة سيناء ، واول من منع اسرائيل من بيع المقاتلات ـ القاذفات المجهزة بمحركات اميركية الى فرقاء اخرين (٧) ·

غير ان سجل كارتر الكلامي المثبت للسوابق لم يكن مكرسا كليا ، او حتى في الجزء الاعظم منه ، للجانب العربي من النزاع · فالمرشح كارتر ، وهو معمداني جنوبي متحمس ، اكد لابناء دائرته الانتخابية اليهود انه ينظر الى

اسرائيل على انها « تحقيق للنبوة التو راتية » (٨) • وجلها من اي اثم عندما قال ان التسوية السلمية لن ترتكز على « القاعدة الخاطئة القائلة بان اسرائيل سببت المشكلة الفلسطينية » (٩) • وكان الرئيس كارتر كذلك اول من اضفى الصفة الشرعية علنا على اكتساب الاراضي بالغزو العنفي حين شدد على « حاجة » اسرائيل الى « حدود يمكن الدفاع عنها » ، وهي عبارة اسرائيلية مختزلة تعني ضم الاراضي العربية • وقال لمؤتمر صحفي في ختام زيارة رئيس الوزراء رابين الى الولايات المتحدة في التاسع من اذار (مارس) ١٩٧٧ ان « خطوط دفاع » اسرائيل يمكن ان تمتد الى ما وراء « حدودها الدائمة والشرعية » (١٠) • والى ذلك كان اول من دعا الدول العربية الى الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود « كدولة يهودية » •

ان اقواله المتناقضة ظاهريا حول حقوق وواجبات العرب والاسرائيليين في نطاق تسوية سياسية شاملة ادت الى تفسيرات مختلفة متباينة لسياسته • فقد ادعى بعض النقاد ان سعيه الظاهري الى الانصاف ستر ميلا ملحوظا نحو العرب ، في حين شعر آخرون ان ملاحظاته « الارتجالية » قد شردت الى ما وراء حدود الوضوح واتخاذ القرارات العقلاني • ومن الناحية الاخرى نظر الذين يتمنون الخير له الى ملاحظاته على انها مقدمة لفصل جديد في السياسة الخارجية الاميركية في الشرق الاوسط ، فهي تشير الى مشاركة نشيطة في عملية تحديد وتنفيذ الحل السياسي الصحيح ، اي الدور الذي يشير اليه انور السادات حين يتحدث عن « شريك كامل » • وهذا يعني ضمنا ، بالطبع ، ان تمارس الولايات المتحدة نفوذها مع اسرائيل للحصول على تنازلات من النوع الضروري لتحطيم المأزق الذي صار يتعذر الدفاع عنه في نظر العالم العربي والولايات المتحدة في اعقاب حرب تشرين اول (اكتوبر) ١٩٧٣ •

يمكن تبين طورين اثنين في تطور سياسة كارتر الخارجية : يمتد الطور الاول من الوقت الذي تسلم فيه كارتر منصبه في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧، عندما تم التشديد على تسوية شاملة من نوع جنيف ترتكز على انسحاب اسرائيلي على جميع الجبهات واعتراف بحق الفلسطينيين في وطن • وحتى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ عندما قام انور السادات بزيارته الى اسرائيل• كانت جهود الولايات المتحدة خلال الاشهر العشرة الاولى من ادارة كارتر موجهة نحو تنفيذ الاسس الرئيسية « لتقرير مؤسسة بروكينغز » لعام ١٩٧٦ ، الذي ادى بصورة محتمة الى مواجهة مع نظام بيغن ، بلغت ذروتها بورقة عمل دايان ـ كارتر في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٧ ، واشارت بذلك الى انتصار من نوع ما لموقف بيغن • ويبدأ الطور الثاني بما يسمى مبادرة السادات في التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ، التي ساعدت في حل معضلة كارتر

باعادة تركيز الانتباه الدبلوماسي على العلاقات الثنائية بين مصر واسرائيل ، اللتين تقاسم زعماؤهما ، مع معارضة كارتر السياسية ، عداء مشتركا للتورط السوفياتي عن طريق صيغة جنيف · وبلغ الطور الثاني ذروته بتوقيع ما يسمى اتفاقيات كامب دايفيد في واشنطن ، في السابع عشر من ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ ، مشيرة الى تراجع كارتر تراجعا واضحا عن موقفه الذي اعلنه في اول الامر ، فضلا عن تآكل خطير في التزام السادات بالوفاق العربي اللاحق لتشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ·

ان الضرورات الاستراتيجية لسياسة الولايات المتحدة الخارجية بالنسبة لكارتر وبريزنسكي تبقى كما كانت عليه بالنسبة لنيكسون وكيسنجر وفورد : فحرية الوصول الممتازة الى « المورد الاستراتيجي الضخم » ، في منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية رجحت على جميع المصالح والاعتبارات الاخرى بالنسبة للرؤساء الاميركيين من فرانكلين روزفلت الى جيمي كارتر · وقد اجتهدت الادارات الاميركية المتعاقبة لاقامة هيمنة من النوع القادر على منع الدول التي يمكن ان تنافسها من تحقيق الوصول الى المورد والطرق المائية الاستراتيجية · وفي حين بقي هذا الهدف الاستراتيجي ثابتا وراجحا طيلة العقود الثلاثة الماضية من الزمن ، فان الوسيلة التي استخدمت لتحقيق ذلك الهدف خضعت لتعديلات مختلفة وفقا للحقائق السياسية والاقتصادية المتغيرة · فقد حاول جون فوستر دالس ان يجعل ائتلافا من الدول المحافظة في المنطقة حجر الزاوية للسياسة الاميركية · وكان القصد هو ان يتحقق منع انتشار الثورة الاجتماعية والنفوذ السوفياتي بمساعدة رجال امثال نوري السعيد وعدنان مندريس والشاه والملك حسين · وعلى الرغم من كون الولايات المتحدة متورطة في النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، فان موردي الاسلحة الرئيسيين لاسرائيل لم يكن بينهم الولايات المتحدة ابان الخمسينات · الا ان انتصار اسرائيل الساحق في ١٩٦٧ ، مقرونا بالعجز الواضح للائتلاف المحافظ ، جعل ليندون جونسون يرفع اسرائيل الى مركز حجر الزاوية ، وهكذا تم اخيرا تحقيق علاقة خاصة ناشئة بين البلدين · وصارت الولايات المتحدة « الممول » والمورد الرئيسي للاسلحة والمؤيد الدبلوماسي الاهم لاسرائيل · وكانت هذه العلاقة الخاصة ، اكثر من اي شيء آخر ، هي التي مكنت اسرائيل من تثبيت احتلالها غير الشرعي للاراضي العربية · بيد ان حرب تشرين الاول ١٩٧٣ والتهديد العربي بأستعمال سلاح النفط ابرزا لنيكسون وكيسنجر الحاجة الى اعادة فحص الوسائل التي سيصار بها الى المحافظة على « مسؤوليات » اميركا العالمية · وفيما صار متعذرا الدفاع عن المأزق ، شرع كيسنجر في بعث المقدمة المنطقية لتوجه دالس في السياسة الخارجية · ولم يعد يستطيع مقاومة الاقتراحات السعودية والمصرية للاندماج في النظام الاميركي · وبالتالي لم تعد اسرائيل حجر الزاوية

الوحيد للسياسة الاميركية في المنطقة ، ولكنها بقيت الدعامة الرئيسية الى جانب ايران والعربية السعودية ومصر · واخذت سياسة الولايات المتحدة تتسم بانصاف ، بقي ظاهريا اكثر منه حقيقي ، فيما يتعلق بالنزاع العربي ـ الاسرائيلي · وكشف بيان الميزانية ، بالعبارات المالية الصرفة ، عن ان اسرائيل، التي كان لا بد من مساعدتها بمعدل خمسة ملايين دولار يوميا من خزينة الولايات المتحدة ومليوني دولار من القطاع الخاص لكي تنفق ٤٠ بالمئة من مجمل دخلها القومي على « الامن » ، هي عائق بالمعنى الصحيح للكلمة · وبالمقارنة ، كما يقول هارولد سوندرز ، مساعد وزير الخارجية الاميركية لشؤون الشرق الادنى ، فان الزيادة السريعة في « الفائض الممكن توظيفه الذي تملكه الحكومات العربية ـ وهو الآن ١٤٠ بليون دولار على وجه التقريب ـ قد اضافت بعدا جديدا الى مصالحنا في هذه المنطقة » (١١) · في حين ان واردات النفط الخام تمثل ٥٠ بالمئة من مجمل الواردات الاميركية ، والصادرات غير العسكرية الى العالم العربي تنوف على ٤ بلايين دولار · وعن هذا انه لم يعد باستطاعة اسرائيل ان تزعم ان مصالحها ومصالح الولايات المتحدة هي نهائية وانها مربوطة معا في كل الاوقات · وفي اعلان ملأ صفحة كاملة في النيويورك تايمز ، طالبت العربية السعودية بعلاقة خاصة مع الولايات المتحدة ، مستندة الى بيانات مالية مؤثرة ·

ان المقدمات المنطقية لسياسة ادارة كارتر في الشرق الاوسط جرى بحثها بصراحة في « مراجعة سنوية » قدمها هارولد سوندرز الى « اللجنة حول اوروبا والشرق الاوسط » المتفرعة عن « لجنة العلاقات الدولية » في مجلس النواب الاميركي في الثاني عشر من حزيران (يونيو) ١٩٧٨ ·

فالعمل مع ما يسمى الامم العربية المعتدلة يعتبر ضروريا من اجل تحقيق تسوية سياسية ، تضمن اسرائيل آمنة ومزدهرة وتؤمن المصلحة الاقتصادية للولايات المتحدة وكذلك للغرب الرأسمالي · وتوصف العلاقة الجديدة تمويهيا بانها علاقة اتكال متبادل ، وهي لا تعني بحال من الاحوال ميلا نحو العرب او انخفاضا في الالتزام الاميركي نحو اسرائيل · فمراجعة سوندرز تقول :

« ان احد الاسئلة يسبب قلقا عميقا للكثيرين من الاميركيين اليوم وكذلك لاصدقائنا في اسرائيل · والسؤال كثيرا ما يطرح بصورة غير مباشرة على هذا النحو : اي نوع من انواع العلاقة الاميركية مع الشرق الاوسط نستطيع ان نرى بعد ٥ أو ١٠ اعوام من الآن ؟ وفي كثير من المناسبات يكون السؤال الاساسي الحقيقي هو : ألسنا نخفض دعمنا لاسرائيل لمصلحة الامم العربية ؟ والجواب عن السؤال الاخير هو بوضوح : لا » (١٢) ·

كما يوضح سوندرز الى حد كبير مسألة حصر الثورة الاجتماعية بواسطة الوكلاء العرب :

« باستطاعة القوى الراديكالية ان تنتهز مجددا فرصة الاوضاع التي يمكن ان تعقب فشل مفاوضات السلام ـ فقد تحول الزعماء العرب المعتدلون نحو الولايات المتحدة من اجل التعاون في تحقيق كل من السلام والانماء · وسيحد نجاحهم من دور القوى الراديكالية · ودرجة نجاحهم ستقرر بدورها ، الى حد كبير ، ما اذا كانت اسرائيل تواجه المستقبل محاطة بدول راديكالية ومعادية او بأمم ملتزمة بالسلام وبالتقدم المنظم (١٣) ·

هذه المقدمة المنطقية ،التي تجسم علائق خاصة جديدة ، تعني ضمنا انصافا من نوع ما ، وتستخدم طرازا خاصا من الفتنمة Vietnamization في الشرق الاوسط · وتتركز جذورها في المبدأ الاستراتيجي الاميركي الذي يكمن تحت الحرب الباردة وقد اوحى به عراب سياسة الحصر ، جون فوستر دالس · وقام كيسنجر وخلفاؤه في ادارة كارتر بجهود مضنية لاقناع اسرائيل بان ما يجمعها مع الانظمة العربية المحافظة يرجح على الاختلافات التي تبقى هامشية بالنسبة للابعاد العالمية لنزاع الشرق الاوسط · ولذلك فان مبدأ التنازلات الاقليمية من قبل اسرائيل يؤلف افتراضا مهما للاستراتيجية العالمية الاميركية في الشرق الاوسط ، ويعتبر جزء من توجه المصلحة الذاتية المستنيرة الذي يدعو اليه الكثيرون من اصدقاء اسرائيل · هذا الامر توضحه بايجاز بليغ مقالة جورج بول في مجلة فورين أفيرز ، التي تحمل العنوان اللائق ، « كيف تنقذ اسرائيل على الرغم منها » ، ومقالة ستانلي هوفمان « سياسة جديدة لاسرائيل » ـ بين كتابات اخرى (١٤) · وقد ردد الاطروحة نفسها تكرارا كل من انطوني لويس وجيمس رستون في النيويورك تايمز · واوضح هارولد سوندرز النوع الجديد من حصر الراديكالية عندما قال : « السلام ، اذن ، هو ليس افضل ضمان لاسرائيل آمنة ومزدهرة فحسب، ولكن من شأنه ايضا ان يقوى الحكومات المعتدلة في المنطقة ويعزز المصالح العالمية للولايات المتحدة » (١٥) ·

اذن ، فان الدور العالمي للشرق الاوسط في التخطيط الاستراتيجي الاميركي كان محددا تحديدا جيدا قبل تسلم كارتر منصب الرئاسة · اما تصريح كارتر المحير ظاهريا ، والذي اشرنا اليه فيبداية هذه المقالة ، فهو لا يمثل تحولا عنمنطق كيسنجر · كما لا يمكن عزو الفضل الى كارتر للتضمين الجديد لفلسطين في تصاريح السياسة الرسمية حول الشرق الاوسط · وكان نائب كيسنجر في ادارة فورد ، هارولد سوندرز ، اول من اعترف بمركزية المسألة الفلسطينية بالنسبة الى نزاع الشرق الاوسط · والامر الذي كان مختلفا خلال

الطور الاول من سياسة كارتر الشرق اوسطية هو تركيز على الجهود لعقد مؤتمر في جنيف · وفي حين ان كيسنجر جرب دبلوماسية الخطوة خطوة ، فان كارتر ومستشاريه اعطوا الانطباع بان تسوية شاملة هي هدف سياستهم ، ومن هنا نشأ التوتر في العلاقة الخاصة بين اسرائيل والولايات المتحدة خلال الطور الاول ، الامر الذي جعل بعض النقاد يصفون المسألة كعلاقة مضطربة · لكن الحقيقة تبقى انه ليست هناك اية انقسامات او خلافات جوهرية بين الدولتين · لقد بدا على سطح الامور ان الولايات المتحدة واسرائيل تناقشان الاجراءات التي من شأنها ان تحكم تمثيل ومشاركة الفرقاء في النزاع · فسيكون على الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، بوصفهما مشاركين رئيسيين لمؤتمر جنيف ، ان يوجها الدعوات الى جميع الفرقاء · وفي حين ان الاتحاد السوفياتي التزم بمبدأ ان منظمة التحرير الفلسطينية ، بعد ما اعترفت بها الجمعية العامة للامم المتحدة ومؤتمر القمة العربية في الرباط عام ١٩٧٤ بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، هي مشارك كامل ، فان الولايات المتحدة ، من جهة اخرى ، التزمت بشروط اتفاق سيناء لعام ١٩٧٥ ، الذي منعها من التعامل مع منظمة التحرير الى ان تعترف الاخيرة بالقرار رقم ٢٤٢ · وبالطبع ، كانت اسرائيل اكثر عنادا من الولايات المتحدة حول مسالة مشاركة منظمة التحرير ، مفضلة استثناءها بصورة غير مشروطة · كانت هذه هي النقطة الاساسية في « النقاش » بين الولايات المتحدة وعميلتها المتعنتة · وكان خلافا محدودا تعمد تضخيمه دعاة الحرب الباردة القدماء من امثال دانيال موينيهان واللوبي الموالية لاسرائيل في الولايات المتحدة · وبصورة جوهرية كان كارتر ما يزال يحاول تعليم اسرائيل مزايا المصلحة الذاتية المستنيرة : فان منظمة تحرير فلسطينية مروضة ومرتبطة بالاردن وملتزمة بالوفاق العربي العام اللاحق لتشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، بدت في نظر كارتر هدفا اكثر حكمة وايسر تحقيقا من مطالبة اسرائيل بالاستثناء التام · واذا ما ثبت ان التأييد العربي لدور تلعبه منظمة التحرير في العملية الدبلوماسية هو خادع اكثر منه حقيقي ، فان كارتر لن يصر على ان حليفته العنيدة هي على خطأ · ويمكن فهم احداث الاشهر التسعة الاولى من رئاسة جيمي كارتر ـ بل يجب النظر اليها ـ في هذا السياق عينه : كيفية تأمين استقرار الشرق الاوسط وضمان سلام اميركي دون خسارة العملاء والوكلاء على جانبي النزاع ·

وثبت ان مسألة المشاركة الفلسطينية في العملية الدبلوماسية الاميركية هي احدى اعقد المسائل في هذه القضية كلها · وردا على سؤال حول المشاركة الفلسطينية ، قال كارتر في اول مؤتمر صحفي بعد تنصيبه : « اذا ما دعي الفلسطينيون الى الاجتماع (في جنيف) كما تتفق على ذلك الامم المشاركة الاخرى ، الى جانبنا نحن ، فانهم سيشكلون على الارجح جزءا من احد الوفود

العربية » (١٨) · كذلك فان الرئيس السادات ، الذي كان قد سبق له ان اعرب عن رغبة في قيام ارتباط رسمي بين « دولة فلسطينية » والاردن ، ردد الشيء نفسه في حضور وزير الخارجية سايروس فانس في القاهرة في السابع عشر من شباط (فبراير) ١٩٧٧ ، مضيفا ان هذا الارتباط يجب ان يكون « ارتباطا رسميا ومعلنا » ، اي اتحاد كونفدرالي يعلن قبل عقد مؤتمر جنيف (١٩) · كانت زيارة فانس الاولى الى الشرق الاوسط كوزير للخارجية تهدف ظاهريا الى الحصول على « الزاد الحرج » « Critical input » للعملية الدبلوماسية الاميركية · وقال للصحفيين قبل شروعه في الزيارة انه كان ثمة « كلام متزايد » عن تحول في الرأي الفلسطيني ، وانه « اذا كان هناك اعتدال في الموقف الفلسطيني ··· فانه من الواضح ان هذا سيكون خطوة مساعدة » (٢٠) · الا ان فانس ، في مراعاة واضحة للموقف الاسرائيلي ، شدد على انه لن يحصل على تقويمه في احاديث مع الزعماء الفلسطينيين بل في اجتماعات مع زعماء « البلدان الرئيسية » · كان يريد ان يعرف بصورة مباشرة مدى جدية الزعماء العرب حول تفويض الرباط لمنظمة التحرير الفلسطينية وما اذا كانت منظمة التحرير ، نفسها ، مستعدة لاعادة النظر في « الميثاق الوطني » وللاعتراف باسرائيل · واعرب معظم الزعماء العرب عن الرأي بان منظمة التحرير يجب ان تتلقى دعوة كشريك كامل في مؤتمر للشرق الاوسط ، ولكنهم كانوا مستعدين في الوقت ذاته ، لممارسة الضغط على المنظمة للقبول بأي « شرط اجرائي — من ان تصير جزءا من وفد عربي وحيد الى البقاء بعيدا كليا عن المؤتمر تاركة العرب الاخرين يتفاوضون نيابة عنها » (٢١) ·

ولا بد ان يكون وزير الخارجية فانس قد فوجيء بهذا الكرم العربي حتى انه اعترف بان السادات اظهر « مرونة اكثر ··· مما اعتقد قبل ان آتي الى القاهرة » (٢٢) · وبعدما كان السادات قد دعا الى « ارتباط رسمي ومعلن » بين فلسطين والاردن قبل جنيف ، فانه وافق في ختام زيارة فانس على ان يفكر تفكيرا جديا في اقتراح ان تعيد منظمة التحرير الفلسطينية النظر في ميثاقها وتقبل بالقرار ٢٤٢ · لقد حلت معضلة فانس اذ انه اريح من مهمة الضغط على اسرائيل من اجل تسوية حول مسألة التمثيل الفلسطيني · وصرح وزير خارجية اسرائيل ، الون ، في مؤتمر صحفي في الثامن عشر من شباط (فبراير) — وكان فانس الى جانبه — بان اسرائيل لن تقبل بموفدين فلسطينيين اذا ما عينوا في وفد اردني « كمسؤولين من منظمة التحرير الفلسطينية » ، مضيفا انه اذا تم التخلي عن ميثاق المنظمة وصار الاعضاء « فلسطينيين عاديين فلن تكون هناك اية مقاطعة حول الاشخاص » (٢٣) · هذا الموقف الاسرائيلي القياسي الذي يعني امتصاصا اردنيا لمنظمة التحرير الفلسطينية لم يكن مخالفا بصورة جوهرية للاقوال الجديدة التي رددها السادات على مسمع زائرة

الاميركي ، وبخاصة عندما لم يوضح السادات ان الارتباط الذي يدعو اليه هو مساواة بين نظيرين ·

كان موقف السادات حول المسألة الفلسطينية ، الى جانب مواقف زملائه في « البلدان الرئيسية » التي زارها فانس ، يشكل اعترافا ضمنيا بان دولة فلسطينية مستقلة ضمن معنى مقررات الرباط قد لا تكون قادرة على الوقوف على قدميها · ولم يفت يغئال الون او سايروس فانس المعنى الضمني لذلك الموقف ·

وتعليق ألون بان « هذا هو اول مسمار في نعش مؤتمر الرباط » «٢٤» ، لا يحتاج الى تفسير · هذا في حين ان فانس ، حتى قبل زيارته للشرق الاوسط في شباط (فبراير) ، اعترف « بحق » اسرائيل في رفض دولة فلسطينية · وفيما يلي ما جرى من اسئلة واجوبة حول هذا الشأن في مؤتمره الصحفي (٢٥) ·

سؤال : هل يجب ان تكون هناك دولة فلسطينية لكي يكون هناك سلام في الشرق الاوسط ؟

جواب : على **الفرقاء** ان يقرروا هذا الامر · واعتقد انه اذا ما اراد المرء ان يحقق تسوية فلا بد من الاعتراف **بالمتطلبات** المشروعة للشعب الفلسطيني ·

سؤال : هل تشتمل مصالحهم المشروعة على قيام دولة ؟

جواب : عليهم هم ان يقرروا كيفية مواجهة هذا الامر ·

سؤال : المعذرة ، عندما تقول « هم » ، هل تعني الفرقاء ام تعني الفلسطينيين ؟

جواب : **الفرقاء** · (التشديد من عندنا) ·

وبالفعل تم الحصول على « الزاد الحرج » الذي سعت اليه مهمة فانس للكشف عن الحقائق في الشرق الاوسط : فبالنظر الى الاحتياجات العربية الى بيئة مستقرة فضلا عن المخاوف من السخط الاجتماعي الذي سبق له ان ظهر على السطح فيمصر ولبنان وغيرهما ، كان « المعتدلون » يباشرون في هجوم سلمي يهدف الى توليد بعض الضغط الاميركي على اسرائيل للحصول على تدبير ينقذ ماء الوجه حول مسالة التمثيل الفلسطيني · هنري تانر ، الكاتب في النيويورك تايمز ، قدم الرواية التالية عن الاسباب العربية « للهجوم السلمي » هذا ، فهم [اي العرب] يعتقدون ان :

« باستطاعة اسرائيل ، على الرغم من معونة اميركية تبلغ بليوني دولار في السنة ، ان تتحمل حربا اكثر حتى مما نستطيع ان نتحملها نحن ، ويجادلون بان الولايات المتحدة لن تعود مستعدة لاعطاء اسرائيل

ذلك النوع من المعونة حالما يثبت العرب انهم مستعدون للقبـول بسلام بشروط معقولة » ٠ « التشديد من عندنا » (٢٦) ٠

وفي الواقع ، كانت استراتيجية ذلك الهجوم السلمي استراتيجية قديمة ٠ فقد كانت ترتكز ، كما ارتكزت لخمسة اعوام خلت ، على حاجة عربية لترويض منظمة التحرير الفلسطينية وتحجيمها على امل تحويلها الى شريك مفاوضات « مؤهل » ٠ الا ان سرعة ملحوظة في عملية محاولة الترويض كانت اكثـر وضوحا هذه المرة ٠

وفي هذه الاثناء ، انقضت سبعة اشهر على نهاية زيارة فانس ، وخلال تلك الفترة لم تؤد الاتصالات المكثفة بين الرئيس كارتر وزعمـاء « البلـدان الرئيسية » الى اية سبل جديدة لردم الهوة حول اي من القضايا الجوهرية في النزاع ٠ وسيطرت القواعد الاجرائية الحاكمة لمؤتمر الشرق الاوسط المقتـرح على المباحثات ، في حين استمرت التلميحات عن خطة من اجل التسوية يعدهـا كارتر تصدر عن واشنطن ، مما جعل الكثيرين يعتقدون انها ستبلغ ذروتهـا في حل مفروض ٠ ونشأ منطق ذلك التوقع عن كون الدول العربية لم تقبـل بمفهوم تعايش الدولتين فيفلسطين فحسب ، بل انها حتى كانت مستعدة لدرس فكرة اتحاد كونفدرالي فلسطيني ـ اردني ـ وهو موقف يكاد يكون مماثلا لاراء كارتر التي اعرب عنها تكرارا خلال حملة انتخابات الرئاسة وبعدها ٠ وكـان قبول منظمة التحرير الفلسطينية بهذه الاستراتيجية هو الامر الوحيد الذي يحتاجه هؤلاء الزعماء العرب لاثارة السؤال السياسي العميق بالنسبة لواشنطن ، اذ ان من شأن ذلك ان يجعل التزام واشنطن بالمقاطعة الاسرائيلية لمنظمـة التحرير امرا متعذر الدفاع عنه ٠ ويبدو ان بعض هؤلاء الزعماء اخذوا على عاتقهم امر التأكيد لكارتر ان المنظمة ستقتنع مع الوقت ، وكان كارتر مستعدا للانتظار ٠ ذلك انه كان يوجد اجماع دولي حول ضرورة تمثيل الفلسطينيين في عمليـة السلام للشرق الاوسط ، في حين ان اسرائيل تزداد عزلة في المجتمع العالمـي بسبب تصلبها حول المسألة الفلسطينية ٠ والى ذلك استنتج الامين العام للامم المتحدة ، كورت فالدهايم ، في ختام زيارته للمنطقة في الثاني عشر من شباط (فبراير) ١٩٧٧ ، ان رفض اسرائيل السماح بمشاركة منظمة التحرير فـي جنيف هو « المشكلة الرئيسية التي تواجه مهمتي في الشرق الاوسط » (٢٧) ٠ وباختصار ، كان على كارتر ان يعمل ، في اعقاب عودة فانس من الشرق الاوسط في شباط ٠ كان قد سبق له ان اعلن ، بعد اقل من اسبوعين من توليه الرئاسة، عن نيته تسوية نزاع الشرق الاوسط ٠ والآن ذكره وزير الخارجية السعودية ، في الوقت ذاته تقريبا ، بان الزيادة في سعر النفط الخام كانت محددة بمجـرد خمسة بالمئة ، في حين لم يكن على السادات الا ان يشير الى ان استمراره في

السلطة يعتمد على انهاء حالة « اللاسلم واللا حرب » ، وان الولايات المتحدة لا يسعها ان تخسر ما وظفته في نظامه ·

كانت رسالة العرب الى كارتر واضحة جدا : اننا مستعدون للتسوية على الشروط الاميركية ، ولكن لا تدفعونا الى تلبية جميع شروط اسرائيل ، ومعنى هذا انه في حين ان المنتصر يفرض عادة « سلاما » على المنهزم ، فان الاستسلام لا يجب ان يكون تاما · كانت هذه هي المشكلة التي اضطر كارتر الى معالجتها خلال الاشهر التالية لرحلة فانس الى الشرق الاوسط · وهو اما انهمك في مهمة ممارسة الضغط على اسرائيل ، وهي مهمة لم يسبق لها مثيل «جريئة (حتى بالنسبة لرؤساء الجمهورية الاميركيين) ، او افاد من المزاج السخي للزعماء العرب ، الذين قدموا لفانس « زاده الحرج » · هل قبل ، في الواقع ، بالتحديد الاسرائيلي « للسلام » عندما وصف ما يساوي اطاراً للسياسة الاميركية في كلينتون بولاية ماساشوستس في السادس عشر من اذار (مارس) ١٩٧٧ ؟ سنجادل بانه قبل بذلك التحديد فعلا ، بشرط ان تفهم اسرائيل حاجته الى تزويد الزعماء العرب « المعتدلين » باداة انقاذ ماء الوجه التي سعوا اليها حول المسألة الفلسطينية ، ومن هنا استعماله لعبارة « وطن » التي نظر اليها الطرفان خارج سياقها الكامل · ويجب ان يقرأ تصريح كارتر بكامله لتقدير مدى مطابقة الموقف الاميركي للموقف الاسرائيلي :

« اعتقد ان احد اروع اعمال امم العالم التي حدثت ابدا هو تأسيس دولة اسرائيل · ولذا فان اول شرط لسلام دائم هو اعتراف جيران اسرائيل بها ، حق اسرائيل في الوجود ، حق اسرائيل في الوجود الدائم ، حق اسرائيل في الوجود بسلام ، ويعني هذا انه خلال فترة اشهر او اعوام يجب ان تفتح الحدود بين اسرائيل وسوريا ، بين اسرائيل ولبنان ، بين اسرائيل والاردن ، بين اسرائيل ومصر ، للسفر، للسياحة ، للتبادل الثقافي ، للتجارة ، بحيث انه كائنا من كان الزعماء في تلك البلدان ، يكون الناس انفسهم قد الفوا تفاهما وفهما متبادلين بمعنى الهدف المشترك لتجنب الحروب المتكررة والموت الذي طالما اصاب تلك المنطقة ، ذلك هو الشرط الاول للسلام ·

الشرط الثاني هو مهم جدا وصعب للغاية : انه اقامة حدود دائمة لاسرائيل · فالبلدان العربية تقول ان على اسرائيل الانسحاب الى حدود ما قبل ١٩٦٧ · واسرائيل تقول ان عليهم ان يعدلوا خطوط تلك الحدود الى حد ما لكي يضمنوا امنهم · وهذه مسألة ينبغي التفاوض عليها بين البلدان العربية من جهة واسرائيل من جهة اخرى · لكن الحدود ما زالت مسألة متاعب جمة ومسألة صعوبة فائقة ، وثمة اختلافات قوية في الرأي الآن ·

والشرط النهائي الثالث للسلام هو التعامل مع المشكلة الفلسطينية ، فالفلسطينيون يدعون حتى هذه اللحظة انه لا يحق لاسرائيل ان تكون هناك ، وان الارض هي للفلسطينيين ، ولم يتخلوا قط عن التزامهم المعبر عنه علنا بتدمير اسرائيل · ولا بد من التغلب على هذا الامر ·

لا بد ان يكون هناك وطن للاجئين الفلسطينيين الذين عانوا العذاب لاعوام كثيرة كثيرة · والطريقة الصحيحة لحل المشكلة الفلسطينية هي طريقة تتوجه قبل كل شيء الآن الى البلدان العربية ومن ثم ، ثانيا الى البلدان العربية المتفاوضة مع اسرائيل ·

تلك العناصر الرئيسية الثلاث لا بد من ان تحل قبل ان يمكن وصف حل شرق اوسطي ··· » (٢٨) ·

يلاحظ ان شرط كارتر الاول يجعل اعتراف العرب بحق اسرائيل في الوجود غير مشروط ، مستثنيا اية اشارة الى الطريقة التي تحدد بها اسرائيل نفسها ، او الى التزاماتها للشعب الذي طردته من بلاده في العام ١٩٤٨ ، او لهؤلاء الذين تعاملهم اليوم كمواطنين من الدرجة الثالثة · ومبدأه الثاني يجسم اعترافا ضمنيا بالتوسع الذاتي في الاراضي ، والمبدأ الثالث ، الذي وجده الكثيرون من الاسرائيليين مقلقا (٢٩) · يتكلم عن « وطن » وليس عن «دولة » ، وعن لاجئين فلسطينيين وليس عن شعب له حق تقرير المصير · الا ان مبدأ كارتر الثالث ، فوق كل شيء ، وانسجاما مع ما تأكد منه فانس لدى الزعماء العرب ، يعتبر المشكلة الفلسطينية مشكلة « تتوجه الآن الى البلدان العربية ، ومن ثم ثانيا ، الى البلدان العربية المتفاوضة مع اسرائيل » · وهكذا فان خطة كارتر استبعدت دولة فلسطينية مستقلة ·

وسرعان ما جاء التحدي الرئيسي لصيغ كارتر من حكومة ليكود الجديدة برئاسة مناحيم بيغن ، وليس من اية حكومة عربية ، فيما يتعلق بالبعد الفلسطيني للنزاع العربي ـ الاسرائيلي ، فان ايا من الحكومات الاسرائيلية التي سبقت حكومة بيغن لم تدع علنا السيادة على الضفة الغربية وغزة · كانت دائما تشير الى المنطقة تمويهيا على انها الاراضي « المدارة » · الا ان بيغن اعلن ان مستوطنات اسرائيل الاستعمارية في الضفة الغربية وجدت هناك لتبقى ، كجزء من « الوطن اليهودي التاريخي » · واعاد تسمية الارض والشعب : اليهودية والسامرة ، و « عرب ارض ـ اسرائيل » كانت تسمياته الجديدة · وشدد على ادعائه السيادة على الضفة الغربية وغزة فنفى وجود ميول للضم لديه بقوله : « لا تستطيع ان تضم ما هو ملك لك » ·

وشعر كارتر ان الوابل السريع والمتواصل من التصاريح التي يدلي بها بيغن تهدد بتقويض دعمه (اي كارتر) لصيغة كلينتون في العالم العربي ، فطور

استراتيجية كلامية لمواجهة الواقع الجديد · وفي هذا السياق بالذات يجب النظر الى المقابلة الشهيرة التي اجريت معه في مجلة تايم في الثامن من آب (اغسطس) ١٩٧٧ والتي تحدى فيها بيغن للكشف عن نواياه · فردا على سؤال يتعلق بعدم قبول اسرائيل بالمبادىء التي عرضها من اجل مؤتمر جنيف ، قال :

« اعتقد انه اذا ما وجد زعيم معين (يعني بيغن) لاحد البلدان ان موقفه يتعارض تعارضا مباشرا مع موقف جميع الفرقاء المعنيين الآخرين ، بما فيه موقفنا نحن وموقف الاتحاد السوفياتي ، وكان مسألة ضيقة التحديد في بلده هو ، فانه سيكون هناك دافع عظيم لذلك الزعيم للتكيف مع الرأي الغالب » ·

وحتى على نحو اوثق صلة بالموضوع ، هدد كارتر بتعبئة عدة دوائر انتخابية ، بما فيها دائرة بيغن الانتخابية فضلا عن الجالية اليهودية الاميركية ، اذا ما استمر تصلب بيغن ، وعندما سئل كارتر عما اذا كان سيجد وسيلة ما للضغط او الاقناع اذا اختلف الموقف الاسرائيلي في جنيف كل الاختلاف عن موقفه ، اجاب :

« ··· سأحاول ان احصل على تأييد الزعيم ، قبل كل شيء · ثانيا ، رأي شعبه في بلاده ، والدوائر الانتخابية التي قد توجد في بلادنا نحن والتي قد يكون لها تأثير حول العالم ، والرأي الموجود في الاسرة الاوروبية ، وفي الامم العربية ايضا » ·

وحول مسألة التمثيل الفلسطيني تعهد السيد كارتر ، في المقابلة نفسها ، بادخال منظمة التحرير الفلسطينية في العملية الدبلوماسية اذا ما قبلت الاخيرة بالشروط الاميركية : « اذا تبنى الزعماء الفلسطينيون ذلك الموقف (القبول بوجود اسرائيل) او تبنوا قرار الامم المتحدة ٢٤٢و ٣٣٨ كأساس للمفاوضات في جنيف ، فسنبدأ على الفور خططا للشروع في محادثات مع الزعماء الفلسطينيين · ، واعاد التأكيد على عرضه في مؤتمر صحفي في ايلول (سبتمبر) ، بقوله انه لا يمكن ان تكون ثمة تسوية للشرق الاوسط الا اذا كان هناك « تمثيل فلسطيني كاف » في جنيف ، وان منظمة التحرير الفلسطينية في رأيه تمثل « جزءا كبيرا » من الشعب الفلسطيني ، ولكنها ليست الناطق الاوحد بلسانه ·

وبلغ « هجوم » الرئيس كارتر ضدبيغن ذروته في البيان المشترك ، الاميركي ــ السوفياتي ، حول الشرق الاوسط في الاول من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٧ ، الذي قبلت فيه الولايات المتحدة لاولمرة بفكرة « الحقوق المشروعة » الفلسطينية (٣٠) · ومع ان البيان المشترك لا يحتوي على اية فوارق جوهرية عن صيغة كلينتون ، فقد استقبل بمنتهى العداء من قبل حزب ليكود الحاكم

والمعارضة العمالية الاسرائيلية والجالية اليهودية الاميركية واعضاء الكونغرس والنقابيين الاميركيين النافذين ، وهي فئات تعتبر ان دخول السوفيات في دبلوماسية الشرق الاوسط من جديد يجب ان يقاوم مهما كلف الثمن · وهكذا فان الانتقاد الموجه الى ادارة كارتر من قبل المصالح المنظمة تحول الى احدى المعارك السياسية الاكثر صخبا التي تورطت فيها ادارة كارتر · وتمحور هذا الجدل حول نقطتين : اولا ، في حين بدا كارتر مستعدا للسماح لبعض اعضاء منظمة التحرير الفلسطينية بالمشاركة كجزء من فريق فلسطيني في وفد عربي موحد في جنيف ، فان بيغن اوضح ان اسرائيل لن تتعامل مع منظمة التحرير حتى ولو قبلت القرار ٢٤٢ · وكان هذا الموقف متفقا مع ادعاءات بيغن بالسيادة على الضفة الغربية وغزة · وتعلق المصدر الثاني للخلاف بانعاش دور نشط للاتحاد السوفياتي بعدما كان يقف جانبا لعدة اعوام ·

وبعد مرور اقل من اسبوع على اعلان البيان المشترك الاميركي ـ السوفياتي، قررت ادارة كارتر التراجع عن المواجهة مع اسرائيل · ذلك ان ورقة عمل دايان ـ كارتر التي تم التوصل اليها في جلسة مرثونية في الرابع والخامس من تشرين الاول (اكتوبر) وحضرها كارتر وفانس ودايان ، كان لها تأثير جعل البيان الاميركي ـ السوفياتي المشترك عديم الفعالية · وانتهت المسودة التي نشرتها ادارة كارتر على النحو التالي : ان قبول الفرقاء بالبيان الاميركي ـ السوفياتي المشترك في الاول من تشرين الاول ١٩٧٧ ليس شرطا لاعادة عقد واجراء مؤتمر جنيف (٣١) · وفي هذه الاثناء اذاع وزير الخارجية الاسرائيلية دايان في الكنيستمسودة لورقة العمل السرية تكشف عن انكارتر وفانس لم يتراجعا عن التزامهما بتمثيل ما لمنظمة التحرير الفلسطينية في جنيف فحسب ، ولكنهما في الواقع قبلا بتحديد بيغن لتسوية تتعلق بالضفة الغربية وغزة · ويتمثل هذا التراجع في نقطتين وردتا في النسخة الاسرائيلية من المسودة (٣٢) · اولا ، سيمثل الاطراف العربية وفد عربي موحد يضم فلسطينيين في الجلسة الرسمية ، وبعدها سينقسم المؤتمر الى اربع فرق عاملة ستتفاوض على معاهدات سلام بين اسرائيل ومصر ، اسرائيل والاردن ، اسرائيل وسوريا ، واخيرا اسرائيل ولبنان · ثانيا ، ان الفرق العاملة نفسها ستبحث قضايا الضفة الغربية وغزة ، ولن تتفاوض عليها ·

اذن ، فان المواجهة بين كارتر وبيغن حلت لمصلحة الاخير · وثبت ان تهديدات كارتر المعبر عنها في المقابلة التي اجرتها معه مجلة تايم كانت فارغة ، ومرة اخرى وضع في مركز الضغط على الزعماء العرب من اجل تنازلات اضافية ·

الا ان الطريق المسدود الذي نشأ عن « هجوم » كارتر السيىء الطالع ، قاطعه قرار السادات المفاجيء والذي لم يسبق له مثيل ـ قراره القيام برحلته

غير المقدسة الى القدس المحتلة في التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ · لقد التقت مصلحته ومصلحة بيغن في حاجتهما لابقاء الاتحاد السوفياتي خارج دبلوماسية الشرق الاوسط · وهكذا تحول مركز الانتباه بعيدا عن جنيف ونحو الشرق الاوسط ·

الطور الثاني لسياسة كارتر الخارجية نحو النزاع العربي ـ الاسرائيلي يبدأ برحلة السادات في التاسع عشر من تشرين الثاني · واتصفت هذه السياسة بتحول ملحوظ نحو موقف بيغن ، مما القى شكوكا خطيرة حول نوايا كارتر تنفيذ البيان الاميركي ـ السوفياتي المشترك الصادر في الاول من تشرين الاول· ابتدأ دمج خطة بيغن من أجل تسوية في السياسة الاميركية ، في ورقة عمل دايان ـ كارتر وتم تثبيته وانهاءه في كامب دايفيد في السابع عشر من ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ · واكدت عبارة زبيغنيو بريزنسكي الشهيرة ، « وداعا منظمة التحرير الفلسطينية » ، تخلي ادارة كارتر عن الجهود الجارية وراء الستار لجعل منظمة التحرير شريكا « مؤهلا » للتفاوض · وحتى لم يعد مقبولا بدور مساعد لمنظمة التحرير ضمن اطار الوفاق الدبلوماسي العربي المحافظ ، وذلك بالنظر الى انتصار بيغن على كارتر والسادات في تشرين الثاني ١٩٧٧ ·

مهدت رحلة السادات لدخول عهد جديد في التاريخ الدبلوماسي للشرق الاوسط الحديث ، عهد تصوغ فيه اسرائيل وحدها الخطوط الهادية للتسوية · وخسر كارتر والسادات اية مبادرات قد تكون كانت لديهما في الماضي · وطرحت خطة بيغن ، التي ازيح الستار عنها في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٧ ، على انها « تقدمة اسرائيل للسلام » ، وذلك ردا على مرحلة السادات · وتصورت الخطة تشكيل مجلس اداري في الضفة الغربية وغزة له سلطة الاشراف على التعليم المحلي والشؤون الدينية والتجارة والزراعة والسياحة والشرطة وستبقى السلطات الاسرائيلية مولجة شؤون « الامن » والشؤون الخارجية والاقتصادية · وتعطى لجنة تضم ممثلين عن الاردن واسرائيل والمجلس الاداري السلطة لتقرير شرعية جميع اعمال المجلس الاداري ، في حين يستمر تأسيس المستوطنات الاسرائيلية بلا انقطاع · والخطة نفسها شكلت اعادة تأكيد لادعاءات بيغن بالسيادة على الضفة الغربية وغزة · ومن هذه الناحية كانت على خلاف مع السياسات المعلنة لكل من الولايات المتحدة ومصر · ومع هذا فان كلا من كارتر والسادات قبلا في النهاية بهذا الموقف الذي ارتبط طيلة ثلاثين سنة بحزب حيروت خلال وجوده في المعارضة في اسرائيل ، وهو موقف اعتبر من باب المغالاة البلاغية في افضل الحالات ووصفته المؤسسة الحاكمة الاسرائيلية تكرارا بانه متطرف وغير مسؤول · وصار ذلك الموقف يحتل وسط المسرح في دبلوماسية الشرق الاوسط في اعقاب رحلة السادات ، وقدم اطار العمل والخطوط الهادية للتسوية المقترحة في كامب دايفيد · ونلاحظ ان سياق مقترحات كامب دايفيد

يجعل من المتعذر اجتناب كون السيادة القانونية على الضفة الغربية وغزة هي خلاف · وبالنسبة الى الولايات المتحدة ومصر كانت هذه حقيقة جديدة تقبلتاها بطريقة هادئة الى حد مدهش · واستجاب جيمي كارتر لخطة بيغن بقوله انهـا تؤلف أساسا لاتفاق · وفي هذه الاثناء قدم صيغة اخرى للحقوق الفلسطينية لم تكن تتعارض مع قرار قمة الربـاط فحسب ، بل مع الوفـاق الدولـي كذلك. ودعت صيغته المسماة صيغة اسوان ، والتي اعلنها خلال زيارة قصيرة لمصر في الخامس من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨ ، فيما كان في طريقه لزيارة الشاه ، الى حل للمشكلة الفلسطينية « في جميع وجوهها » ، يرتكز عـلى الاعتـراف « بالحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني · بيد ان هذه الحقوق لم تشتمل على « تقرير المصير » كما تفهـم هذه العبـارة في القانـون الدولي · فالشعـب الفلسطيني ، بحسب كارتر ، لم يكن يحق له الا « المشاركة في تقرير مستقبله »· و « الحكم الذاتي » الـذي تكلـم عنه بيغن هـو الوسيلـة لتلك « المشاركـة » · وكتبت النيويورك تايمز في افتتاحيتهـا ، قبل تبنيهـا لهـذه الخطة : « لا يتطلب الامر عينا عربية لتقرأ في هذه الخطة الكثير من « الحكم » ولكن القليـل مـن (الذاتي) » (٣٢) ·

وثبت ان جوهر خطة بيغن مقبول ايضا لدى انور السادات الذي عاد ، بعـد بعض التردد خلال النصف الاول من عام ١٩٧٨ ، فقبل دعوة كارتر الى كامـب دايفيد وذلك ظاهريا لان كارتر وافـق على ان يكـون « شريكـا كاملا » فـي المفاوضات · ولا بـد ان مكافأة السادات على تنازلاته فـي كامب دايفيد كانـت موافقة كارتر على تحقيق الرغبة المصرية القديمة العهد للاندماج في النظـام الاميركي كعميل ، وهي مهمة كانت قيد التنفيذ منذ ما سمي بدبلوماسية كيسنجر المكوكية ·

وفي الختام يمكن القول ان سياسة كارتر لا تمثل بحال من الاحوال افتراقا كبيرا عن اطار الاسناد الدبلوماسي الذي يتضح تقليديا في التوجه الاميركي الى النزاع العربي ـ الاسرائيلـي · ويبقى صعـود الراديكالية وانتشار النفـوذ السوفياتي الكابوس الذي يعذب الدبلوماسية الاميركيـة باستمـرار في الشرق الاوسط · ويبدو التحالف الفعلي او الضمني الصامـت بين اسرائيـل والانظمة الاخرى الموالية للغرب في المنطقة ، واكثر من اي وقـت مضـى ، الآلية التـي تفضلها الولايات المتحدة لصد الراديكالية وضمان الهيمنة الاميركية · وكانـت زيادة عدد العملاء العرب محط اهتمام رئيسي للدبلوماسية الاميركيـة ، واكبـر « انتصار » حققه كيسنجر ثم كارتر في ذلك الاتجاه هو عزل مصر عن التيـار الرئيسي للفكر العربي · ويفتقر رجال الدولة الاميركيون الى سياسة متماسكـة واضحة في توجههم الى البعد الفلسطيني للنزاع ، الذي اعتبرته الاسرة الدولية

جوهر السلام في الشرق الاوسط ٠ لقد استعملوا حقوق وامتيازات الشعب الفلسطيني كاداة للمصلحة الدبلوماسية يمكن قبولها او رفضها كما يلائم ذلك الولايات المتحدة على رقعة شطرنج استراتيجياتها العالمية ٠ انها سياسة امال خيبت ووعود حنث بها ، خليط دبلوماسي من التناقضات والتقلبات ٠ وثبت ان التصاريح المتصفة بالشجاعة والصدق التي ادلى بها كارتر ومرؤسوه من حين لآخر كانت خادعة الى حد كبير ٠

ويبدو ان اهتمامات اميركا العالمية قد غلبت اهتماماتها العربية ـ الاسرائيلية ٠ فالاخيرة خضعت لسلسلة من التحولات بينما بقيت الاولى ثابته ٠ وبالفعل كان الدور العالمي للشرق الاوسط في التخطيط الاستراتيجي الاميركي محددا تحديدا واضحا قبل تسلم كارتر رئاسة الجمهورية الاميركية ٠ الا ان السخط الاجتماعي الذي يبدو ان هذا الدور ولده في ايران سيكون على الارجح معديا ٠

الحواشي

(1) *New York Times*, March 17, 1977.

(2) *Ibid*, June 1, 1977.

(3) *Ibid*, June 28, 1977.

(4) *Ibid*.

(5) Joint Statement by U.S. and U.S.S.R. of October 1, 1977. Text in *New York Times*, October 2, 1977.

(6) See Carter's Interview in *Time* Magazine, August 8, 1977.

(7) *New York Times*, February 15, 1977.

(8) *Ibid*, April 1, 1976; *U.S. News And World Report*, May 24, 1976; *Jewish Telegraphic Agency*, October 18, 1976.

(9) *Ibid*.

(١٠) على هذا النحو وصفت مذكرة لوزارة الخارجية ، العربية السعودية في عام ١٩٤٥ ٠

(11) George W. Ball, «America's Interests in the Middle East». *Harper's*, October 1978, p. 2.

(12) Annual Review of U. S. Middle East Policy. Washington: Department of State. Based on a statement by Harold H. Saunders, assistant secretary for Near Eastern and South Asian Affairs, before the subcommittee on Europe and the Middle East of the House International Relations Committee. June 12, 1977, see pp. 6 - 8.

(13) *New York Times*, May 24, 1977.

(14) *Annual Review of U. S. Middle East Policy*. p. 11.

(15) *Ibid* pp. 12 - 13.

(16) *Foreign Affairs*, April 1975 and April 1977 respectively.

(17) *Annual Review of U.S. Middle East Policy*, p. 10.

(18) *New York Times*, January 14, 1977.

(19) *Ibid*, February 19, 1977.

(20) *Ibid*, February 11, 1977.

(21) *Ibid*, February 15, 1977.

(22) *Ibid*, February 19, 1977.

(23) *Ibid*.

(24) *The Economist*, January 8, 1977, p. 63.

(25) The Secretary of State, February 11, 1977. Washington Bureau of Public Affairs, Office of Media Seruices.

(26) *New York Times*, February 6, 1977.

(27) *Ibid*, February 13, 1977.

(28) *Ibid*, March 19, 1977.

(٢٩) انظر تصريح يتسحاق رابين في النيويورك تايمز ، ٨ اذار (مارس) ، ١٩٧٧ ، الذي قال فيه ان التعليق اقلقه ، وانه اراد ان يكون للفلسطينيين وطن ايضا وانه بامكانه ان يقبل بصيغة كارتر « اذا كان الوطن جزءا من دولة اردنية ـ فلسطينية في سلام مع اسرائيل » · تنبغي الملاحظة ان هذا يتفق مع سياسة السادات المعلنة ·

(30) Text in *New York Times*, October 2, 1977.

(31) Text in *New York Times*, October 6, 1977.

(32) Text in *New York Times*, October 14, 1977.

(33) *Ibid*, January 2, 1978.

الهيثم الأيوبي

الابعاد الاستراتيجية للزلزال الايراني

احتل مفهوم الحفاظ على الاستقرار موقعا محوريا في السياسة الخارجية الاميركية منذ مطلع الخمسينات · ولم يكن الاستقرار بالنسبة الى الولايات المتحدة هدفا ، بل وسيلة لتأمين استمرار « الوضع الراهن » الذي افرزته الحرب العالمية الثانية ، وكان يضمن الى حد بعيد المصالح الاميركية الاقتصادية والاستراتيجية ، وفي مقدمتها : السيطرة على مصادر المواد الاولية في العالم الثالث ، وتطويق الاتحاد السوفياتي ، وتثبيت مرتكزات المناورة الاستراتيجية للاساطيل الحربية · ومن ضرورة الحفاظ على الاستقرار انبثقت نظريات « الدمينو » و « الحرب المحلية المحدودة » و « بناء المناطق المتجانسة » التي لم تكن سوى أساليب عملية لاحتواء او تصفية عوامل عدم الاستقرار التي تظهر في بلد ما ، ومنع انتشارها بالعدوى الى البلدان المجاورة ·

ولا ينبغي أن نفهم هنا ان سعي الولايات المتحدة الى تحقيق الاستقرار كان سياسة ثابتة مطلقة · فهناك حالات وجدت فيها واشنطن ان بقاء « الوضع الراهن » لا يتناسب مع مصالحها ، فعملت ما في وسعها لتبديل هذا الوضع ، واثارت العوامل المحلية الكامنة لخلق بؤرة عدم استقرار تسمح لها بالتدخل تحت لواء تأمين الاستقرار . بغية اعادة ترتيب الاوضاع ، واقامة «وضع راهن» جديد يخدم اغراضها ·

الخطوط الدفاعية عن المصالح الاميركية

لم تخرج السياسة الاميركية في الشرق الاوسط عن اطار مفهوم الاستقرار .

عندما تسلمت مفاتيح المنطقة من حليفتيها بريطانيا وفرنسا في النصف الاول من الخمسينات · فلقد وجدت واشنطن ان هذه المنطقة الهامة (بحكم موقعها الاستراتيجي ونوعية ثرواتها الاستخراجية) حبلى بعوامل عدم الاستقرار . الناجمة عن تنامي حركة التحرر الوطني العربي (بمعناه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الواسع) ، والتوجه الوحدوي الرامي الى تحطيم الاطر الاقليمية . والخلافات العنيفة داخل كل بلد على اساليب الانماء وتوزيع الثروة ، ووجود الدولة الصهيونية بكل ما تمثله هذه الدولة من عدوان خارجي وديناميكية توسعية · ولهذا وضعت الولايات المتحدة منذ البداية مخططات طموحة لتهدئة الاوضاع ، واعادة الاستقرار الى الشرق الاوسط ، وتأمين الانسجام بين دوله · وطرحت فكرة بناء حلف عسكري اقليمي يضم دول المنطقة ويرتبط مباشرة بالبنتاغون ·

ولجذب الحكومات المعنية الى الحلف ، طرحت الولايات المتحدة طعما مثلثا يتمثل في المساعدات الاقتصادية ، واعادة بناء القوات المسلحة ، وحماية البلاد من الخطر الشيوعي · وكانت غالبية حكومات المنطقة آنذاك مستعدة للوقوع في فخ الاغراء الاميركي ، نظرا لتكوينها الاجتماعي ، وحاجتها للاموال والتكنولوجيا والاسلحة ، ومعاداتها للشيوعية لاسباب دينية وقومية ، ورغبتها في احتواء عوامل عدم الاستقرار التي تخلق المناخ المناسب لنمو حركات راديكالية تهدد مرتكزات الحكم الاقطاعي – العشائري السائد في تلك الحقبة · بيد ان فكرة انضمام اسرائيل الى الحلف اصطدمت بالشعور القومي العربي ، وتمغنط الجماهير العربية نحو تحرير الارض المغتصبة ، واستعدادها لتأجيل كل الاهداف ، بما فيذلك الانماء ، بغية تحقيق هدف التحرير ·

بسبب هذا الصدام الحاد بين المخطط الاميركي وموقف الجماهير العربية . سقط مشروع الحلف العسكري الاقليمي · وساعد على سقوطه النضال الذي شنته ضده قوى سياسية عربية فاعلة (البعث ، الناصرية ··· الخ) الامر الذي دفع الولايات المتحدة الى الاكتفاء بمشروع تهدئوي اكثر تواضعا واشد تعقيدا وكلفة · وكان هذا المشروع يتمثل في النقاط التالية :

١ – خلق حلف بغداد الذي يضم ، بالاضافة الى الولايات المتحدة وبريطانيا. اربع دول محلية (العراق ، ايران ، تركيا ، باكستان) ·

٢ – تعزيز العلاقة الثنائية مع عدد من دول المنطقة (السعودية ، الاردن ، لبنان ، الحبشة ، ··· الخ) ·

٣ – بناء علاقة ثابتة ومتميزة مع الدولة الصهيونية ·

ومنذ ذلك الوقت اصبحت المصالح الاميركية في المنطقة محمية بالتهدئة

النسبية ، وبأربع خطوط دفاعية متعاقبة ومتكاملة هي : حلف بغداد ، والدول العربية التقليدية ، والدولة الصهيونية ، والاسطول السادس ٠

وكان **الخط الدفاعي الاول** (حلف بغداد) ، المحاذي للحدود السوفياتية الجنوبية ، سياسي الاغراض رغم طابعه العسكري الظاهري ٠ اذ لم تكن قدراته الدفاعية تسمح له بصد اي هجوم سوفياتي جدي ، رغم تعزيز الولايات المتحدة لهذه القدرات ٠ وكان اقصى ما يستطيع هذا « الجدار الواقي » تقديمه ، هو ضبط حركة الجماهير في دول الحلف ، ومنع انتشار عدوى الفكر الراديكالي التحرري المعادي للامبريالية بين صفوفها ٠

واخذ **الخط الدفاعي الثاني** (الدول العربية التقليدية) مهمتين هما : تأمين التهدئة القطرية عن طريق ضبط حركة الجماهير داخل كل قطر والحد من انتشار الفكر التحرري الوحدوي بين صفوفها ، ومشاغلة الدول العربية الراديكالية المعادية للاستعمار بكل اشكاله واستنزافها ، الامر الذي جعل انظمة الدول المشاركة فيه تلعب دور الدركي القطري المحلي ٠

بيد ان هذا الخط كان يحمل في داخله بذور انفجاره ٠ اذ ان تأييد انظمة الخط لمصالح الولايات المتحدة ، المتعارضة مع مصالح الجماهير التواقة الى استعادة ثرواتها ، يضعه في خط الصدام مع هذه الجماهير ، ويجعل مصيره غير ثابت ومعرض للاهتزاز في كل لحظة ٠ لمواجهة مثل هذا الاحتمال ، والحفاظ على الامن الاقليمي ، القيت مهمة حماية **الخط الدفاعي الثالث** على عاتق الدولة الصهيونية ٠

وكان اختيار اسرائيل لهذه المهمة نابعا من ثلاث حقائق هي : ١ ـ تطابق المهمة المطلوبة مع استراتيجية اسرائيل التوسعية واحساسها الامني المرتفع بسبب طبيعتها كرأس جسر في منطقة معادية٠ ٢ ـ استقرار الدولة الصهيونية النسبي ، نظرا لان قيام جهازها الحاكم بحراسة المصالح الاستعمارية في المنطقة لا يتعارض مع تطلعات غالبية الجماهير الاسرائيلية المستوردة وغير المنهوبة امبرياليا ، الامر الذي يلغي امكانية حدوث تغيرات داخلية جذرية وغير محسوبة ، تخرج اسرائيل من فلك السياسة الاميريكية٠ ٣ ـ معاداة اسرائيل لشعوب المنطقة ، وعدم تعاطفها مع مصالح هذه الشعوب ، واستعدادها للمشاركة في نهبها وقمعها ٠ وفي هذا المجال يمكن القول (للتشبيه فقط) بأنه اذا كانت الانظمة العربية التقليدية اشبه بجيوش المجندين النابعة من الجماهير والمرتبطة بقضاياها والمعرضة للتأثر بالتيارات السائدة فيها ، فان الدولة الصهيونية اشبه بجيش من المحترفين المرتزقة، المعزولين عن الجماهير وقضاياها وتطلعاتها ٠ ومن المعروف ان جيشا من هذا الطراز اقدر على القمع من جيش المجندين ، واكثر منه تماسكا خلال الغزوات الاستعمارية ٠

ولقد كانت هذه الخطوط الثلاثة كافية لحماية المصالح الاستعمارية · ولكن البنتاغون وجد من الضروري تعزيزها **بخط رابع** ، يؤمن دعمها معنويا ولوجستيكيا في الازمات ، ويرفع قدرتها على الردع اللازم للاستقرار ، ويكون في الوقت نفسه قوة احتياطية جاهزة للعب دور الدركي العالمي عند اللزوم . وفي الحالات التي تتعرض فيها الخطوط الثلاثة لخطر جدي محلي او خارجي (سوفياتي) · ولقد القيت مهمة هذا الخط على عاتق الاسطول السادس وجزء من القوة البحرية العاملة في المحيط الهندي ·

تثبيت الاستقرار القسري

بفضل هذه الخطوط الاربعة . كان بوسع الولايات المتحدة حماية مصالحها . والاكتفاء بتأمين التهدئة القسرية في هذه المنطقة الحساسة من العالم ، نظرا لان حدة النزاعات وضخامة الاهواء الكامنة وراءها . واهمية هدف الرهان فيها ، كانت تمنع ظهور المناخ المناسب للتهدئة الطوعية ·

ولقد اثبتت الخطوط الاربعة فاعليتها التهدئوية الى حد ما طوال ربع قرن تقريبا · ان صمد الخط الدفاعي الاول بعد خروج العراق من حلف بغداد وتحوله الى « حلف مركزي » · واستطاع الخطان الثاني والثالث الثبات امام مؤشرات التغيير التي شهدتها المنطقة · ومما لا شك فيه ان قوى التغيير استطاعت اكتساب مواقع جديدة ، وتحقيق العديد من الانجازات · ولكن ذلك لم يؤد الى قلب موازين القوى جذريا لصالحها · وبقيت قوى الحفاظ على « الوضع الراهن » قادرة على تحديد حركة قوى التغيير . ومجابهة نجاحاتها ، وان لم تتمكن من تصفيتها في معركة حاسمة ونهائية · والمهم في الامر بالنسبة الى واشنطن . هو ان الخطوط الثلاثة قامت بدورها في الدفاع عن المصالح الغربية في المنطقة ، دونما حاجة لتدخل الخط الدفاعي الرابع على نطاق واسع ، الامر الذي انقذ الولايات المتحدة من فخ التورط العسكري المباشر ·

وكانت حصيلة ربع قرن من الصراع بين قوى التغيير وقوى الحفاظ على « الوضع الراهن » · زوال النفوذ الاستعماري في عدد من البلدان العربية . وانتهاء عهد السيطرة على مصدرين من مصادر الطاقة (العراق ، ليبيا) · ولكن الولايات المتحدة حافظت رغم كل ذلك على اكبر ثلاثة مصادر نفطية (السعودية والخليج العربي وايران) ، وضمنت ضبط التحرك الشعبي الايراني المعادي للامبريالية بواسطة القوات المسلحة والشرطة السرية (السافاك) ، كما ضمنت دفع حركة التحرر الوطني العربي الى مواقع بعيدة عن السعودية والخليج العربي · وامنت ردعها بواسطة العسكريتاريا الصهيونية ، وسددت اليها في العام ١٩٦٧ ضربة اسرائيلية افقدتها جزءا من توازنها وثقتها

بنفسها · ثم عززت القدرات العسكرية الاسرائيلية لتضمن لها التفوق ، وتجعل شعار حركة التحرر الوطني « تصفية آثار العدوان » غير قابل للتنفيذ ·

وكان من اهم نتائج الصراعات المسلحة بين العرب واسرائيل طوال ربع قرن ، تزايد ثقة الولايات المتحدة بقدرة الدركي الاسرائيلي على خدمة مصالحها وحمل اعباء التهدئة نيابة عنها · وفي مطلع السبعينات ، ومع اتساع طموحات شاه ايران ورغبته في مد نفوذه ، وانتقاله من مهمة ضبط قوى التغيير الايرانية المحلية الى المشاركة في ضبط قوى التغيير على مستوى المنطقة ، ظهر الدركي الايراني في منطقة الخليج العربي · ولم يكن الدركيان الايراني والاسرائيلي مجرد اداتين بين الولايات المتحدة ، بل كانت لهما مصالحهما الاستراتيجية الخاصة المتطابقة مع المصالح الاميركية · واذا كان قيام شاه ايران بدور التهدئة العزيز على واشنطن يعني حصوله على الدعم الاميركي اللازم لتحقيق احلامه الامبراطورية ، فان قيام اسرائيل بهذا الدور كان يتطابق مع اطماعها التوسعية. ومخططها البعيد الرامي الى اختراق المنطقة العربية والمشاركة في نهب ثرواتها. ويضمن لها الحصول على دعم اميركي يساعدها على تحقيق اغراضها الاستراتيجية ·

وبانضمام ايران الى خط الدفاع الثالث عن المصالح الاميركية ، غدا هذا الخط محميا بقوتين ، تربض احداهما على الشاطىء القابل لمنابع النفط العربية. في حين تربض الثانية على نقطة تمفصل المشرق العربي مع المغرب العربي . وازدادت بالتالي امكانات التهدئة وضمانات الاستقرار القسري المحقق · وكان مخططو الاستراتيجية الاميركية يفضلون تحويل هذا الاستقرار القسري الى استقرار طوعي اشد رسوخا · ولكن الفشل في تحقيق التصفية النهائية لقوى التغيير العربية ، وتزايد الوعي بخطورة الغزوة الصهيونية ، والحرص على استمرار نهب المنطقة اقتصاديا ، ورغبة اسرائيل في تكريس المكاسب الاقليمية التي حققتها في حرب حزيران ١٩٦٧ ، جعلتهم يكتفون موقتا بالاستقرار القسري ، ويعملون في الوقت نفسه على تدجين القوى الراديكالية العربية في اطار سياسة طويلة الامد ، تستهدف تيئيس هذه القوى وانتزاع ثقة الجماهير بها ودفعها الى الاستسلام ·

ولقد حملت الدول العربية التقليدية جزءا من اعباء التدجين وتأمين الاستقرار القسري طويل الامد . ولكن القسط الاكبر من اعباء هاتين المهمتين بقي ملقى على عاتق ايران واسرائيل وكما حققت السياسة الاميركية نجاحات لا بأس بها في مجال التهدئة القسرية . فان سياسة التدجين نجحت في اختراق الارادة العربية في عدة مواقع · فلقد ادى انفصال الوحدة السورية – المصرية ، وتعثر المسيرة الوحدوية . وفشل الدول العربية في تحرير فلسطين ، الى ظهور تيار

عربي مساوم ، يضع مفاتيح حل النزاع العربي ـ الاسرائيلي بيـــــد الولايـات المتحدة ، ويرى امكانية مصالحة الدولة الصهيونية والاعتراف بوجودها كدولة من دول المنطقة ، ويقدم الصراع الاقتصادي ـ الاجتماعي ضد الفكر الراديكالي وقوى التغيير على الصراع ضد العدو القومي ·

وكان من المفروض ان تؤدي حرب تشرين الى اضعاف هذا التيار ، بعد ان اثبتت وقائع الحرب قدرة العربعلى قلب موازين القوى العسكرية والحـــاق الهزيمة بالعسكريتاريا الصهيونية ، كما اظهر الحظر النفطي (رغم ثغراتـــه) امكانية الضغط على الولايات المتحدة وهز الاقتصاد الغربي بأكمله · ولكـــن الادارة الاميركية استطاعت تصفية آثار تشرين بسرعة ، بفضل المساعدة التي قدمها لها الرئيس المصري وعدد من القوى العربية التقليدية ، بالاضافة الـــى شاه ايران الذي تبنى سياسة نفطية انقاذية افقدت سلاح النفط العربي جــزءا مــن بريقـــه ·

مشروع الانتقال من الاستقرار القسري الى الاستقرار الطوعي

اعتقد الاميركيون بعد تصفية آثار تشرين ان بوسعهم الانتقال من الاستقرار القسري الى المنطقة المتجانسة والتهدئة الطوعية · وكانت حساباتهم مبنية على المعطيات التالية : ١ ـ استعداد الرئيس السادات للارتباط بالسياسة الاميركية وانهاء حالة النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، وتغطية هذه المواقـف التراجعيـــة بالهالة التي اكتسبها في حرب تشرين ، وبحالة الانهاك الاقتصادي الذي اصاب مصر من جراء المصروفات الحربية والتقتير المالي العربي· ٢ ـ تزايد ثـــروة الدول العربية النفطية بعد ارتفاع سعر البترول ، والانعكاسات التهدئوية الناجمة عن هذه الثروة المفاجئة (ظهور مجتمعات استهلاكية مسترخيـــة اقتصاديا ، امكانية تعزيز القوات المسلحة اللازمة لضبط التحرك الجماهيري ، زيادة قـدرة الدول النفطية على التدجين الاقتصادي للقوى العربية الراديكالية ··· الخ) · ٣ ـ تزايد المدخرات العربية من البترو دولار وانتقال الجزء الاكبر منها الـــى الولايات المتحدة ، الامر الذي يجعل ارتباط الدول العربية النفطية بواشنطـــن اكثر قوة وثباتا ، ويحول البترو دولار الى عوامل استقرار ، وقوة اميركيـــة ضاغطة قادرة على موازنة قوة الضغط النفطي العربي · ٤ ـ تنامي الدخـــل القومي الايراني ، وتزايد قدرة الشاه على بناء القوة المسلحة اللازمة للتهدئة على الصعيدين الداخلي والاقليمي ، دون ان تحمل الولايات المتحدة من جراء ذلك اية اعباء مالية اضافية ·

وكانت الخطوة الاولى على طريق التحول مـــــن الاستقرار القسري الى الاستقرار الطوعي عزل مصر عن القضية العربية · وكانت هذه الخطوة تتطلب

تصفية المرحلة الناصرية ببعديها الاجتماعي والقومي ، وقطـع خط الاتصـــال الاستراتيجي الذي اوجده الرئيس الراحل مع حركات التحرر العالمية ومصـدر السلاح السوفياتي · ولقد حقق الرئيس السادات هذه الخطوة بمساعدة القوى العربية التقليدية ، وجيوب الفكر القطري التي لم تقم الثورة المصرية بتصفيتها بشكل حاسم ، والقوى الاجتماعية المصرية التي تضررت من جراء ثوة ٢٣ يوليو، وبقيت مصممة على ضرب سياساتها (بما في ذلك سياسة ارتباط مصـــر القومي) ·

وكانت « المبادرة » وزيارة القدس المحتلة والاعلان عن استعداد مصر لانهاء حالة الحرب مع الغزاة الخطوة الثانية · ومنذ ذلك الحين تسارعت وتيـــرة الانجراف نحو الدولة الصهيونية والابتعاد عن العالم العربي بجناحيه الراديكالي والتقليدي · واستغلت الدولة الصهيونية تهالك الرئيس السادات على تحقيـق انجاز يبرر انجرافه ، وعجزه على التراجع الى نقطة البدء ، وموقفه التفاوضي الضعيف الناجم عن تناقص قدرات مصر الدفاعية ، فزادت مطالبهـــا وشددت شروطها · الامر الذي ادى الى تعثر المباحثات ، وتأخر حفلة التوقيع علـــى مراسيم الاستسلام المصري ·

ورغم هذا التأخر ، فقد كانت الامور تسير وفق خطة التهدئة الطوعية ، اذ ان خطوات الرئيس السادات قد اخرجت مصر عمليـــا مـــن النزاع العـــربي ـ الاسرائيلي ، حتى قبل توقيع اتفاق بهذا الصدد · وأنهت حالة العداء بيـــن اسرائيل واكبر دولة عربية ، وفتحت الباب امام توقيع اتفاق مماثل من الـــدول العربية المؤيدة للمبادرة رسميا او ضمنيا · ووضعت القوى العربية الراديكالية في موقف صعب يساعد على تدجينها او ضربها · ومن المؤكد ان الولايـــــات المتحدة لم تكن تعتقد ان هذه الامور ستتحقق خلال فترة وجيزة ، وان خلـــق المنطقة المتجانسة غدا قريب المنال · ولكنها كانت تقدر اهمية الاتفاق المصري ـ الاسرائيلي وحيويته بالنسبة الى تنفيذ المراحل المستقبلية لعملية التهدئة ·

ضربات الايقاف للمشروع الاميركي

في هذه اللحظة الحساسة وقع حدثان هامـــان معاكسان لمخطط التهدئـــة الاميركي وهما : التقارب السوري ـ العراقي ، وانتصار الثورة الشعبية فـــي ايران · واذا كان الحدث الاول قد اوقف تدهـــور ميـزان القـــوى العربي ـ الاسرائيلي الناجم عن انسحاب النظام المصري من المعسكر العربي المقاوم ، فان الحدث الثاني اسفر عن انهيار ركيزة من أهم مرتكـــزات سياسة الاستقرار ، وتحولها الى بؤرة عدم استقرار · وظهر من جراء ذلك وضع استراتيجي جديد

مختلف جذريا عن الوضع الذي سبقه · وسنقتصر في هذا المقال على دراسة نتائج الحدث الثاني وانعكاساته داخل الوضع الاستراتيجي الجديد ·

١ ـ انهيار الخط الدفاعي الاول

كانت ايران في السنوات الاخيرة من العهد الامبراطوري اقوى الدول المحلية المشاركة في الحلف (عسكريا واقتصاديا) ، واقدرها على تحديث قواتها المسلحة ، بفضل رصيدها الكبير من البترو دولار ، وارتفاع دخلها القومي السنوي بالنسبة الى حليفتيها المحليتين (تركيا وباكستان) · ففي العام ١٩٧٧ كان الدخل القومي الايراني ٧٢ر٦ مليار دولار مقابل ٤٦ر٦ مليار في تركيا و ١٧ر٦ في باكستان· ولقد خصص الشاه في الفترة الواقعة بين ١٩٧٤ و ١٩٧٨ اكثر من ١٠٪ من الدخل القومي السنوي لمصروفات الدفاع ، في حين خصصت تركيا وباكستان نسبة اقل من ذلك بكثير (الجدول الاول) ·

ويمكننا ان نتصور التباين في المستوى التكنولوجي والتدريبي والقوة الضاربة والقدرة الحركية بين القوات المسلحة الايرانية وقوات تركيا وباكستان، اذا عرفنا ان ايران ، التي تملك قوات مسلحة اصغر بقليل من القوات التركية او الباكستانية (٤١٣ الفا ، ٤٨٥ الفا ، ٤٢٩ الفا على التوالي) ، قد خصصت لموازنات الدفاع في فترة ١٩٧٥ ــ ١٩٧٨ مبلغ ٣٦ر١٣٦ مليار دولار، في حين لم تخصص تركيا والباكستان لهذا الغرض في الحقبة ذاتها سوى ٩ر٩٢٨ مليارات و ٣ر٢٥٨ مليارات على التوالي (الجدول الاول) · ولو قارنا عدد الجنود والدبابات والطائرات في جيوش الدول الثلاث ، للاحظنا تفوق ايران على حليفتيها في حقل عدد الطائرات وتفوق تركيا عليها في مجال الدبابات (الجدول الثاني) · وكن هذه المقارنة تأخذ بعدا آخر اذا عرفنا ان الاسلحة والمعدات الايرانية اكثر حداثة وتطورا ، وتتمتع بقدرات نارية وحركية اكبر ، اذ ان معظمها من جيل السبعينات وجزءا لا يستهان به من جيل الثمانينات · في حين

الجدول الاول

الدولة	مصروفات الدفاع (مليار دولار)					النسبة المئوية لمصروفات الدفاع بالنسبة الى الدخل القومي			
	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	المجموع	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧
ايران	٨ر٨٠٠	٩ر٥٠٠	٧ر٨٩٤	٩ر٩٤٢	٣٦ر١٣٦	١٤ر٠	١٧ر٤	١٢ر٠	١٠ر٩
تركيا	٢ر٢٠٠	٢ر٨٠٠	٢ر٦٥٢	٢ر٢٨٦	٩ر٩٢٨	٣ر٧	٩ر٠	٥ر٥	٥ر٧
باكستان	٠ر٧٢٥	٠ر٨٠٧	٠ر٨٠٨	٠ر٩٢٨	٣ر٢٥٨	٤ر٨	٢ر٧	٥ر٠	٤ر٦

الجدول الثاني

الدولة	قوات مسلحة (الاف)	طائرات	دبابات قتال رئيسية	عربات مدرعة
ايران	٤١٣	٤٥٩	حوالي ٢٠٠٠	اكثر من ٢٠٠٠
تركيا	٤٨٥	٣٣٩	٢٨٠٠	١٦٥٠
باكستان	٤٢٩	٢٥٧	١٠٠٠	٥٥٠

ان معظم اسلحة ومعدات تركيا وباكستان من جيل الستينات وجزء محدود فقط من جيل السبعينات ٠ بالاضافة الى ان قسما كبيرا منها على ابواب الخروج من الخدمة بسبب قدمه او عدم توافر قطع الغيار له ٠

من اجل هذا كانت ايران واسطة العقد في الحلف المركزي ٠ ولقد ادى انسحابها منه في ١٩٧٩/٣/١٢ ، بعد ان قررت الثورة الايرانية التخلي عن الانحياز والانضمام الى دول عدم الانحياز ، الى خسارة الحلف لاهم مرتكزاته٠ ولقد زاد من اهمية هذا الانسحاب موقع ايران الوسيط بين باكستان وتركيا ، وانقطاع الاتصال البري بين الدولتين ٠ لذا اعلنت باكستان في اليوم نفسه انسحابها من الحلف الذي لم يعد قادرا على تحقيق اغراضه ٠ وبعد ثلاثة ايام اتخذت تركيا قرارا بالانسحاب من الحلف الذي لم يعد موجودا ، ولم يكن الموقف التركي ناجما عن تعاطف مع ثورة ايران ، بل جاء من عدم اهمية هذا الانسحاب بالنسبة الى الامن الغربي ، على اعتبار ان بقاء تركيا في حلف شمالي الاطلسي يضمن قيامها بالمهمات التي كانت ملقاة على عاتقها في اطار الحلف المركزي ٠

وهكذا اسفرت الثورة الايرانية عن خسارة الولايات المتحدة للجدار الواقي الذي يحد الاراضي السوفياتية من الجنوب ، وضياع قواعد الرصد والانذار الالكتروني المنتشرة على الحدود الشمالية لايران وباكستان ، والمعدة للتعاون مع الاقمار الاصطناعية في التجسس على السوفيات ، ومراقبة تجاربهم العسكرية التقليدية والنووية والتزامهم بتطبيق اتفاقية « سالت ــ ١ »، والمشاركة في الرصد والانذار المبكرضد الهجمات السوفياتية الصاروخية والجوية المفاجئة٠

٢ ــ التأثير على ميزان القوى الدولي

لا تزال هوية مجتمع ما بعد الثورة الايرانية غير محددة بدقة ٠ ويرجع ذلك الى ان الزخم الجماهيري الكبير الذي اسقط نظام الشاه كان يعمل تحت لواء قيادات متعددة الاتجاه وتضم رجال الدين والليبراليين والاحزاب اليسارية الراديكالية ٠ وكانت هذه القيادات التي تحمل ايديولوجيات متباينة ، متفقة على معاداة الاستعمار ، ومصممة على اسقاط النظام القديم المشبع بالفساد

والديكتاتورية والتبعية السياسية ـ الاقتصادية · ولكن سرعة سقوط النظام جعلت القوى المشاركة في اسقاطه تنتقل من مرحلة تفجير الثورة الى مرحلة استلام السلطة وبناء المجتمع الجديد دون المرور في مرحلة الجبهة الوطنية ، وقبل وضع برنامج جبهوي يحدد هوية هذا المجتمع بعد انتصار الثورة · ومن هنا جاء التباين في المفاهيم والاساليب ، منذ الايام الاولى للعهد الثوري ·

ولقد ادى تعاطف الجماهير الواسع مع الزعماء الروحيين ، وحجم المشاركة التي قدمها هؤلاء الزعماء خلال مراحل النضال ضد الشاه ، الى اعطاء النظام الجديد طابعا دينيا · مع بقاء قوى اليسار الراديكالي في الصورة ، وتراجع الليبراليين الى الصف الثالث · ولكن الهوية الاجتماعية النهائية للحكم لم تتوضح بعد · وهذه مسألة داخلية يبقى تحديدها من مهمات الشعب الايراني· ونترك دراستها وتحليلها للباحثين المختصين بالتيارات السياسية داخل المجتمع الايراني · والمهم بالنسبة الى موضوعنا هو تأثير هذه الهوية على ميزان القوى الدولي ·

ان من الامور المتفق عليها من قبل المراقبين، ان القيادتين الدينية والراديكالية معاديتان للامبريالية الاميركية · لذا فان خروج ايران من فلك الدول الدائرة في فلك المعسكر الغربي ، امر واقع سواء بقيت السلطة بيد التيار الديني أم انتقلت الى يد ممثلي التيار الراديكالي اليساري · وهذا يعني ان المعسكر الغربي قد خسر جزءا هاما من القوة التي كانت تعزز موقعه الاستراتيجي (الاقتصادي ـ السياسي ـ العسكري) ·

ويعتبر الاتحاد السوفياتي هذه الخسارة ربحا له ، على اعتبار انها تمثل اقتطاعا من قوة الخصم · ولكن هذا الربح يدخل في باب الربح السلبي ، لان القوة المقتطعة من كفة الخصم لم تنتقل الى كفته ، خاصة بعد ان اعلنت الثورة الايرانية عن موقفها المحايد بين الدولتين الاعظم ، وقررت الانضمام الى دول عدم الانحياز ·ولا شك في ان واشنطن التي اذعنت امام خسارة ايران ، تفضل ان يبقى توجه الثورة نحو عدم الانحياز قائما ، حتى يظل الربح السوفياتي سلبيا · في حين تفضل موسكو بالتأكيد انتقال السلة الى القوى الراديكالية اليسارية ، على اعتبار ان هذا الانتقال سيؤدي الى تحويل الربح السلبي الى كسب ايجابي·

من هذا المنظور يمكن تصور حجم المحاولات التي ستقوم بها الدولتان الاعظم في السنوات المقبلة للتدخل في مسألة ايرانية داخلية (اختيار هوية النظام الجديد) ، نظرا لما تمثله هذه المسألة من تأثير على موازين القوى بينهما ، كما يمكن تصور حدة النزاع الذي ينتظر اندلاعه على الارض الايرانية بتحريض من مراكز القوى الخارجية ، وحالة عدم الاستقرار التي سيشهدها المجتمع الايراني ، اذا لم يتم التوصل الى اتفاق القوى الفاعلة في الثورة على برنامج

جبهوي متوازن يحدد صورة الجمهورية الايرانية المستقبلية ، بوجهيها الداخلي والخـارجي ٠

٣ ـ الطوق الاستراتيجي حول اسرائيل

تبنت الدولة الصهيونية عقب العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦) ، سياسة اقليمية تتمثل باقامة علاقات وثيقة وغير معلنة غالبا مع دول الشـرق الاوسط غير العربية (تركيا ، الحبشة ، ايران) المرتبطة مع الغرب ،والمعارضة قوميـا ومصلحيا لنهضة الامة العربية ٠ وكانت غايتها من هذه السياسة تطويق الطوق العربي المضروب حولها ، والافادة من تطويق التطويق لتخفيف آثـار التطويق العربي النفسية والاقتصادية والسياسية على الاقل ٠

ولكن العلاقات التركية تراخت مع الزمن بسبب التطورات التي شهدتها بنية الفئات الحاكمة في أنقرة من جهة ، والازمات التي مر بهـا الحلف الاميركـي ـ التركي من جهة اخرى ٠ ولم يعد من الممكن في اواخر السبعينات ملاحظة اي أثر للاتفاق السري الذي عقده دافيد بن غوريون مع عدنان مندريس في أواخـر الخمسينات ٠ ومع سقوط هيلا سلاسي اهتزت الروابط الاثيوبية ـ الاسرائيلية ٠ ولكن الاسرائيليين حافظوا على مواقعهم في الحبشة الى ان قام هيلا منغستـو مريام بطردهم نهائيا في العام ١٩٧٧ ٠ وهكذا لم يبق من حلفاء الخمسينـات سوى النظام الشاهنشاهاني ، الذي أقام مع اسرائيل علاقات اقتصادية متينة ، وتعاون معها في جميع المجالات الامنية (تدريب الطيارين ، تبـادل الخبرات ، تبادل المعلومات الاستخبارية (١) ٠ وبسقوط الشاه انهارت آخر حلقات سياسة اسرائيل الاقليمية ٠ وانتهى تطويق التطويق ٠ وخسرت الدولة الصهيونية آخر حلفائها غير العرب في المنطقة ٠

ولقد كانت خسارة اسرائيل للحليف الايراني مزدوجة ٠ لان قادة الثورة لم ينقلوا ايران من حالة التحالف مع اسرائيل الى حالة الحياد ، بل نقلوها مـن حالة التحالف الى حالة العداء ٠ الامر الذي جعل المعسكر العربي المقاوم يربح مرتين : مرة عندما خسرت الدولة الصهيونية قوة حليفة ، واخرى عندما انضمت هذه القوة الى معسكر حركة التحرر العالمي ، المعادي للامبرياليـة العالميـة وامتداداتها المحلية ، ومن بينها اسرائيل ٠ وهذا ما يفسر قلق اسرائيل مـن

---

١ ـ ذكرت وكالات الانباء في ١٩٧٩/٣/١ ، نقلا عن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات ، أنه تم العثور خلال وجوده في ايران على وثائق في مقر البعثة الاسرائيلية تبين حكومات الشاه السابقة ، وتشير الى ان هذه الحكومات كانت تقوم بعمليات تجسس في دول الخليج لصالح اسرائيل ٠

الوضع الايراني الجديد ، وحملتها العنيفة على الاسلوب الذي عالج به الشاه الازمة الثورية منذ بدايتها ، وتنديدها بالامبراطور الذي لم يستطع الحفاظ على عرشـــه (٢) ٠

وبانضمام الثورة الايرانية الى حركة التحرر العالمي ، يبدأ عهد جديد فـــي الصراع ضد الغزوة الصهيونية ٠ ومن ملامح هذا العهد انضمام دول غير عربية الى الطوق المضروب حول اسرائيل ٠ ولقد كانت اثيوبيا منغستو مؤهلة لافتتاح هذا العهد قبل ايران ٠ ولكن انشغال الحكم الاثيوبي بمعضلات الصراع مـــع قوى عربية (الصومال ، اريتيريا) القى الكثير من الظلال على امكانات التعاون العربي ـ الاثيوبي ضد اسرائيل ٠ في حين ان الثورة الايرانية غير مشتبكة في اي صراع مع العرب ، ولا ترغب في مثل هذا الاشتباك (بدليل تخليها عن دور الدركي الخليجي الذي كان يلعبه الشاه ضد الدول العربية النفطية) وهـذا مـا جعلها قادرة على افتتاح العهد الجديد ٠

ونظرا لان الايديولوجية السائدة الآن فـي قيـــادة الثورة الايرانية هـــي الايديولوجية الاسلامية ، فقد كان من الطبيعي ان تتجه الافكار نحـــو احتمالات انشاء طوق اسلامي يعزز الطوق العربي الذي حمل عبء المجابهة منذ بدايـــة الغزوة ٠ والحقيقة ان جماهير العالم الاسلامي كانت تتعاطف دائما مع النضال العربي ضد الصهيونية ٠ الا ان الانظمة الحاكمة في الدول الاسلامية كانـــت مرتبطة بالامبريالية الاميركية ، ولا تستطيع الخروج عن سياساتها او العمـــل ضد مصالحها ٠ لذا كان في طليعة اهتماماتها منع تجسيد هـذا التعاطـــــف الجماهيري ، والحد من ديناميكيته ، وسد السبيل امـــام تحولـــــه الى وزن استراتيجي مضاد لاسرائيل ، ومتعارض بالتالي مع السياسة الاميركية العليا ٠

ولا ينطبق هذا القول على الدول الاسلامية غير العربية فحسب ، بل ينطبق ايضا على عدد من الدول الاسلامية العربية ، التي رفعت لواء معاداة اسرائيـــل من منطلق قومي وديني ، ولكن مصالح الفئات الحاكمة فيها ، وارتباطاتهـــــا التحالفية مع الولايات المتحدة ، جعلت اطار عدائها مقصـــورا على الدولـــة

---

٢ ـ كتب أحد الخبراء الاسرائيليين ممن كانوا يعملون في ايران : « أنه كان علـــى الشاه ليحافظ على عرشه ، أن يأمر الدبابات والرشاشات بفتح النار على الجماهير ، وان يرسل زعماء الاضراب الى ساحات الاعدام ، وان يعطي شرطته السرية وعملاءه حريـــة عمل واسعة » (هآرتس ١٩٧٩/١/١٠) ٠ ويذكر اسحق رابين ان سبب سقوط شاه ايران يكمن في « الديموقراطية المفرطة » ، وهو يرى « ان قيام حكومة كارتر برفع لواء حقوق الانسان ، كان بمثابة اطلاق طلقة الخلاص على الشاه ، الذي اضطر تحت ضغط الولايات المتحدة الى اعطاء الحرية للصحافة والحياة السياسية في تشرين الثاني ١٩٧٧ ٠ الامر الذي ادى الى ضياعه » (يديعوت أحرونوت ١٩٧٩/١/١٢) ٠

الصهيونية ، ولا يمتد الى القوة العالمية الكبرى التي اوجدتها ودعمتها وجعلتها قادرة على قهر العرب واغتصاب الاماكن الاسلامية المقدسة ، وجعلت حدة هذا العداء محكوما بسقف عدم التصادم مع واشنطن ٠

ولكن انتصار الثورة الايرانية أوجد دولة اسلامية من نوع جديد ٠ واهم ما يميزها عن النماذج الاسلامية الاخرى (العربية وغير العربية) ، هو أن قادتها معادون أساسا للامبريالية التي استغلت الثروات الايرانية ، وعززت حكم الشاه التعسفي ، وحاولت تغريب الشعب الايراني وانتزاعه من جذوره وتجريده من هويته ٠ ومن عدائهم للامبريالية جاء عداؤهم لافرازاتها وامتداداتها ورؤوس جسورها ، ومن بينها اسرائيل وروديسيا وجنوبي افريقيا ، رغم أن هذه الدول لم تعتد على ايران ولم تحتل أراضيها ٠ من هذه الزاوية يمكن اعتبار موقف النظام الثوري الاسلامي في ايران متقدما على مواقف الانظمة الاسلامية غير العربية ، ومتقدما أكثر وأكثر على مواقف عدد من الانظمة الاسلامية العربية ٠

انطلاقا من هذا الموقف المبدئي تخلت الثورة الايرانية عن دور دركي الخليج ، وأمرت بسحب القوات التي كان الشاه قد أرسلها الى عمان لدعم السلطان قابوس واخماد الثورة في ظفار ٠ وانطلاقا من الموقف نفسه أعلن رئيس الاركان الايراني الجنرال محمد قرني في ١٩٧٩/٣/٣ : « ان الثورة جعلت من ايران دولة مجابهة مع اسرائيل» ٠ وبرر قرار حكومته الخاص بسحب الوحدة الايرانية (٣٩٠ رجلا) من قوة حفظ السلام الدولية العاملة في الجولان بقوله : « ليس من المنطقي أن تعمل القوات الايرانية كحاجز بين العرب واسرائيل ، في حين أننا نعتبر أنفسنا دولة مجابهة مع اسرائيل جنبا الى جنب مع الدول العربية » ٠

وبتحليل الموقف الايراني الجديد يمكن القول انه عبارة عن انهيار ركيزة من ركائز الخط الثالث وتوجه نحو تطويق الركيزة الثانية (اسرائيل) ٠ وفي هذا المجال لا بد لنا من ان نذكر بأن الدولة الصهيونية (على عكس الولايات المتحدة) لا تهتم كثيرا بهوية النظام الثوري ٠ لان هذا النظام سيكون معاديا لها سواء حمل الطابع الاسلامي أم اليساري الراديكالي ٠ سيبقى قوة ترفد المعسكر المقاوم العربي مع ما يعنيه ذلك من نتائج اهمها :

□ ضياع فرص التعاون العسكري بين ايران واسرائيل ٠

□ تحرير العراق من الهاجس الامني على حدوده الشرقية وفي منطقة الشمال . بشكل يجعله قادرا على حشد قوى اكبر في بؤرة الصدام مع العدو الصهيوني ٠

□ حرمان اسرائيل من مصدر نفطي كان يغطي في عهد الشاه ٥٠ ــ ٦٠ ٪ من حاجاتها النفطية ٠

□ خسارة السوق الايرانية التي كانت تمتص جـزءا كبيرا مـن المنتجـات الاسرائيلية الصناعية والزراعية ، وتفتح المجال أمام الاستثمارات والمشاريع ·

□ قدرة ايران على استقطاب بعض الدول غير العربية في المنطقة داخل حلف معاد للصهيونية يعزز المعسكر العربي المقاوم ·

□ ديناميكية العامل الديني (في حالة بناء الجمهورية الاسلامية) ، وقدرته على تحريك الجماهير التركية وتشجيعها على احداث انقلاب جذري يوقف رحلة التغريب التي فرضتها عليها الفئات الحاكمة ، ويضعها في صف القوى المعادية للامبريالية والصهيونية ·

□ الاحراج الذي يسببه الموقف الايراني للدول العربية المترردده او المـؤيدة لمبادرة السادات ·

□ انضمام قوة عسكرية كبيرة الى المعسكر العربي المقاوم ·

ورغم اهمية كل النتائج المذكورة · فان النتيجة الاخيرة تبقى اهمهـا علـى الاطلاق · وهنا لا بد من الاشارة الى ان القوات الايرانية ، التي بناهـا الشاه لتكون قوة تدخل مؤهلة للانتقال الى ما وراء الحدود وقمع التحركات الشعبيـة داخل امبراطوريته الواسعة ، عبارة عن قوات تتمتع بمرونة كبيرة وقدرات حركية عالية ، وتمتلك قوة النار والصدمة للحرب الحديثة · الامر الذي يجعلها مؤهلة (من ناحية المبدأ) للانتقال السريع الى بؤرة الصراع مع العدو الصهيونـي ، وتشكيل اضافة كمية ونوعية تبدل موازين القوى ·

ولكن الهزة التي تعرضت لها هذه القوات افقدتهـا عمليـا جزءا كبيـرا من تماسكها وانضباطها وجاهزيتها القتالية ، كما ان تصفية الكوادر المؤيدة للشاه، وابعاد كبار الضباط المحترفين (ومعظمهم من البهائيين) حرما الاداة المسلحـة من كفاءات مهنية لا يمكـن تعويضهـا بسرعة · وبالاضافـة الـى ذلك ، فـان الانسحاب السريع للخبراء الاميركيين الذين كانوا يساهمون في عملية استيعاب الاسلحة والمعدات المتطورة ، واحتمال تناقص قطع الغيار الاميركية ، سيؤديـان بالضرورة الى انخفاض الجاهزية التكنولوجية للجيش الايراني ، خاصـة وان معظم الاسلحة والمعدات التي اشترتها ايران في السنوات الاخيرة كانت اميركية الصنع ·

ومن المؤكد ان بوسع ايران تجاوز كل هذه المعضلات ذات الطابع التكنولوجي· ولكن عملية التجاوز تتطلب الاستقرار واعادة بناء الجهاز العسكري من اساسه خلال فترة زمنية غير قصيرة · وعلى هذا فان اشتراك ايران في الصراع الجدي ضد اسرائيل ، بقوات كبيرة فاعلة ، مرهون باعادة البناء · وبانتظار هذه المهمة، تبقى الثورة الايرانية قادرة على تقديم الدعم لقوى المعسكـر العربـي المقـاوم ·

بشكل يعزز قدرات هذا المعسكر الدفاعية ، ويقوي طوق الحصار المفروض على الدولة الصهيونية ، رغم الثغرة الواسعة التي فتحتها المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية في هذا الطوق ، ويبدل الى حد ما ميزان القوى على ارض المعركة دون ان يؤدي الى قلبه ·

٤ ـ دركي جديد وتحالفات جديدة

كانت المباحثات المصرية ـ الاسرائيلية تسير قبل انتصار الثورة الايرانية بوتيرة متباطئة ، رغم اهتمام الادارة الاميركية بالوصول الى اتفاق ما ، والحاح الرئيس كارتر على ضرورة حل الخلاف وتجاوز العقبات · وكان الاسرائيليون يناورون على اساس ان الزمن يعمل لصالحهم ، وان الرئيس المصري مضطر لتقديم التنازلات في النهاية ، بعد ان حدد بنفسه عدد وسعة الخيارات المتاحة امامه · وبسبب هذا التباطؤ ، مضى الموعد المحدد لتوقيع الاتفاق (١٩٧٨/١٢/١٧) دو نان يتوصل الطرفان الى مخرج مناسب ·

وفجأة تبدل كل شيء ، وغدا كارتر اكثر الحاحا ، واصبح السادات وبيغن اشد استعدادا للتفاهم ، وظهرت في الكتابات الاسرائيلية جملة « الزمن لم يعد لصالحنا » · ولقد جاء هذا التبدل السريع في المواقف كنتيجة مباشرة لسقوط الشاه ، الذي ادى الى انهيار الخط الدفاعي الاول وتضعضع الخط الدفاعي الثالث كما ذكرنا ، وتهديد استقرار الخط الثاني (الدول العربية التقليدية) بشكل جدي ، نظرا لامكانية انتقال العدوى الثورية من ايران الى هذه الدول ·

والجدير في الامر هو ان اندفاع الاطراف المعنية بالاستقرار نحو تسريع التفاهم المصري ـ الاسرائيلي لم يعد يستهدف جعل هذا التفاهم منطلقا لبناء المنطقة المتجانسة ، بل اصبح هدفه محصورا بجعل التفاهم نقطة ارتكاز لخط دفاعي استراتيجي جديد ، يوقف زحف عدوى التغيير من الشمال الى الجنوب ، ويحمي منابع النفط والمصالح الاميركية الاخرى من الضياع ·

ولقد وعى السادات وبيغن هذه الحقيقة · ولمسا مدى اهتمام واشنطن ببناء الخط الدفاعي الجديد وحاجتها الملحة لدركي يحل محل الشاه ، كما أحسا بخطورة رياح التغيير القادمة من الهضبة الفارسية على مواقعهم ، فعرضا على وزير الدفاع الاميركي براون خلال زيارته للمنطقة (١٣ ـ ١٩٧٩/٢/١٨) استعدادهما لتذليل العقبات التي تعرقل توقيع الاتفاق · وأعرب كل واحد منهما عن استعداده للعب دور الدركي مقابل الحصول على مساعدات اقتصادية وعسكرية كبيرة ·

الاستعداد للهجوم المعاكس

استنادا الى هـذا الواقـع ، زار الرئيس كارتر المنطقة في ١٩٧٩/٣/٨ ، وأمضى فيها ٦ أيام وضع خلالهـا اللمسات الاخيـرة على الاتفـــاق ، وساوم الطرفين على الثمن المطلوب ، وحدد لكل من ركيزتي خط الدفاع الجديد مهماتها المستقبلية • ولقد استطاع الرئيس الاميركي خلال ايام حل معضلات تعذر الاتفاق عليها خلال شهور طويلة • ومن المؤكد ان كارتر لم يحمل معه وصفة سحريـــــة ساعدته على النجاح ، ولكن شبح الامام الخميني كان ماثلا امام الجميع خـلال الزيارة • وهو الذي دفع السادات وبيغن الى العناق ، ودفعهما الى الاتفـــاق على توقيع معاهدة « السلام » في ١٩٧٩/٣/٢٦ •

وبعد نجاح كارتر في مهمة التوفيق ، لم يبق امامه سوى اجتذاب السعودية الى المشاركة في الخط الدفاعي • على اعتبار ان مثل هذه المشاركة ستجعـــل الدول العربية التقليدية مستعـدة للسير في السبيل نفســه • ولكـن معارضـة السعوديين لاى تحالف مع اسرائيل ، جعل الادارة الاميركيـة تكتفـي بموافقـة الرياض على المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ، او عدم معارضتها على الاقل •

ويمكن اعتبار زيارةزبيغنيو بريجينسكي مستشارالرئيسالاميركيللامنالقومي للسعودية والاردن في ١٧ ـ ١٩٧٩/٣/١٨ ، وتصريحات المسؤولين الاميركيين حول استمرار الدفع الاميركي للوصول الى الحل الشامل ، والتلويح بخطـــــر « المد الشيوعي » ، وعرض فكرة اقامة « تعاون وقائي » بين واشنطن والرياض ، وتصريحات وزير الخارجية الاميركية سايروس فانس حول استعداد الولايـــات المتحدة للقتال اذا تعرضت السعودية لهجوم ، جزءا مـن الحملـة السياسية ـ الاعلامية التي بدأتها الادارة الاميركية للحصول على « حياد » الرياض وعمـان تجاه المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية •

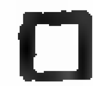
ولكن هذه الحملة تمت في ظروف غير مناسبة ، ووسط شك حلفاء الولايـات المتحدة بمصداقية تعهداتها (تايوان ، ايران) ، وقناعتهم بزوال اهمية التحالف معها • ولا يمكنها بالتالي التأثير على الدول العربية التقليدية وتليين موقفهـا ، الا اذا برهنت الاحداث المقبلة عمليا على نجاح الولايات المتحدة في الضغط على اسرائيل لاجبارها على الانسحاب على جميع الجبهات ، والاعتراف بحق شعـب فلسطين في تقرير مصيره ، الامر الذي قد تسعى الادارة الاميركية الىتحقيقـــه لتخفيف عوامل عدم الاستقرار الى الحد الادنى • ولكن السعي لا يعني بالضرورة تحقيق النتائج •

ان توقيع المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية يشكل خطوة علىطريق اعادة فرز دول المنطقة استراتيجيا (دول الوضع الراهن المرتبطة بالامبريالية ، ودول التغييـــر

المعادية للامبريالية) • وهو في الوقت نفسه الرد الاميركي الاول على انضمام الثورة الايرانية الى قوى التغيير وتخليها عن دور الدركي • واذا كانت الثورة الايرانية قد ادت الى حصول خرق في خطوط الدفاع الاميركية عن منابع النفط العربية ، فان المعاهدة هي التدبير الوقائي لسد الخرق وبناء خط دفاعي جديد • ولكن سد الخرق لا يمثل سوى مرحلة دفاعية تتبعها عادة مرحلة الهجوم المعاكس الذي سيستهدف في هذه الحالة ضرب قوى التغيير الاساسية في المنطقة (سورية، العراق ، ايران ، الثورة الفلسطينية) ، وهذا ما يجعل تعزيز مواقع قوى التغيير ضرورة امنية من الدرجة الاولى •

ويحاول الاميركيون اعطاء المعاهدة صفة سلمية • ويركزون على انها لا تستهدف سوى التهدئة وتامين الاستقرار • ولقد برهنا على خطأ هذه المقولة ، واثبتنا ان لا علاقة للمعاهدة بالاستقرار ، وان هدفها الوحيد هو تعزيز الدفاع استعدادا للانتقال الى الهجوم • وبما ان الهجوم يتناقض مع الاستقرار ، فان بالامكان اعتبار المعاهدة عاملا جديدا من عوامل عدم الاستقرار •

وهناك عنصر آخر يدفعنا الى التأكيد على مسالة عدم الاستقرار • ويتمثل هذا العنصر في رد الفعل السوفياتي على التحالفات التي تعقد في المناطق المجاورة له • فلقد برهنت الحرب الكمبودية التي اعقبت التحالف بين بكين ونظام بول بوت، على ان موسكو مستعدة للرد بعنف على مثل هذه التحالفات الاستفزازية • فهل يمكننا بعد ذلك كله اعتبار المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ، بكل ما تمثله من استفزاز ، عملا تهدئويا كما يقول الاميركيون ؟



ان نتائج الزلزال الايراني تتجاوز حدود ايران الى المنطقة بأسرها • وتؤثر في الوقت ذاته على ميزان القوى العالمي • ولقد هز هذا الزلزال حتى الآن مرتكزات السياسية الاميركية • وقد ينجم عنه تغيرات جذرية تؤدي الى تصفية التهدئة القسرية التي فرضها الاستعمار القديم على شعوب الشرق الاوسط ، ثم تابع الاستعمار الجديد فرضها بأساليب اخرى ، كما قد ينجم عنه هجوم امبريالي معاكس (بقوى مصرية ـ اسرائيلية) يعيد التهدئة القسرية الى ما كانت عليه• والاحتمالان مفتوحان بشكل متساو، ولا يقرر النتيجة النهائية سوى ميزان القوى العملي بين قوى التغيير وقوى الحفاظ على الوضع الراهن ، وقدرة قيادات الطرفين على استخدام هذا الميزان •

الياس خوري

الثورة الممكنة :
وكان كل شيء يريد ان يبدأ جديداً

١ ـ

كان ذلك في الخامس من حزيران ١٩٦٣ . صرخة الخميني تدوي وهو في سجنه ، والجماهير الايرانية تحتل الشوارع والساحات . والرصاص يعلو . وقيل انه استشهد في ذلك اليوم حوالي خمس عشرة الف مواطن . كان الجيش الذي بناه الاجانب يعربد في الشوارع كجيش احتلال . كانت ايران محتلة في ذلك اليوم الاسود . الخميني في السجن والايدي تواجه الدبابات والبنادق . وكان الدم يسيل في الطرقات كشلال غضب . والاحرار في السجون التي بنيت فوق الارض وتحت الارض .

لكن الخميني قال له : « ايها الشاه ، لعلك تجهل كيفية اضطراب الاوضاع عندما تدوي الصرخة في يوم من الايام ، اجل ، فاذا ما دوت الصيحة لن تجد احدا ممن يلتفون حولك اليوم رفيقا او نصيرا . فهؤلاء هم اصدقاء الدولار . ولا يؤمنون بدين وليسوا بأوفياء ، وانما هم يسعون لالقاء المسؤوليات على عاتقك انت ايها المسكين » .

لكن المسكين المتوحش كان قد سكر من نفطه ومن دماء شعبه . كان يحلم بابادة الامة من اجل ان تحيا العظام النخرة التي اسمها الامبراطورية . كان قد استسلم الى اسياده الاميركيين .

خرج الخميني شريدا . من تركيا الى النجف الى نوفل لوشاتو . دار

الخميني شريدا حول العالم • حوله كلماته والايدي التي قطعت والاجساد التي تطالب بالثأر •

دار الخميني حول الارض • دار طويلا • وقيل انه كان يتكلم ويدعو • وقيل ان شهداء المدرسة الفيضية التي اغتصبها رجال السافاك قبل طرده كانوا حوله، وقيل اشياء كثيرة •

لكن الخميني كان يدور حول عدوه • دار ثلاثا وقيل اكثر • خـرج وهو لا يحمل على جسده سوى عباءته • خرج فقيرا ، ليس معه سوى اصابعه التـي تشير الى القتلة الذين كانوا يقتلون •

وكانت ايران لا تشبه غير نفسها • شمس الآريين الشاحبة بالنيون تشرق على ظلامها الذي يشبه ظلام السجون التي اكتشفت والتي لم تكتشف •

وحين عاد ، محمولا على صوته الذي كان يوزع في الاف اشرطة التسجيل ، كان الشاه قد خرج ذليلا مع زوجته وكلبه • يبحث عن ملجأ بعد ان ارتفـع الزلزال فبدأ يكسر كل شيء • كان الشاه يكتشف ان شمسه التي اسماها شمس الآريين تذهب وتذوب كما الشمع امام وجه النار •

عاد الخميني واكتشف العالم كيف ينبع الناس من التراب • كان تراب ايران يتشقق عن الوجوه التي تأتي ولا يعلم احد من اين جاءت ولا كيف نبتت • كأن التراب يصير بشرا • او كأن البحر قد انتقل الى اليابسة ، فاختلطت الرؤوس بالمياه التي تدفقت •

وقيل انه نام في الطائرة • وقيل انه عندما هبط السلم الذي يصله بالارض كاد يبكي ، لكنه رفع يده فارتفعت ملايين الايدي• خرج وحوله دائرة من حوالي خمسين الف رجل من الشرطة الاسلامية • كانوا كدائرة لا تنكسر • ثم حصل شيء ولم يعد احد يفهم • انكسرت الدائرة من حوله • فالدائرة لم تحتمل بعدها عنه • جاءت اليه والتصقت به • بدأ رجال الشرطة الاسلامية يفقدون قدرتهـم على التماسك ويسعون ، للوصول اليه • فعاد بطائرة الهيلكوبتر • وتوقف في مقبرة « بهجت الزهراء » ، وقال هذا الحكم غير شرعي • قالها امام القبور • امام الرجال الذين خرجوا بأكفانهم يواجهون سلطـــة الشاه وجيشه • وذهب الى غرفة فقيرة . لا يوجد فيها غير سجادة للصلاة • شكل حكومته وانفجــر البركان • فتداعت السلطة الاميركية كعملاق م نطين • وانهمر الماء على ربيـع طهران وقد خرجت تثأر لمصدق وعبد الناصر •

من ١٥ خرداد يوم المذبحة المجنونة الى المذابح التي حولت ايران الى ذبيحة، كان الشعب يقاتل ببطء وصبر • السجون تمتلىء برجال من مختلف الاعمار • من الطالقاني الى منتظري الى بازركان الى آخره • مئات الآلاف في السجون

وعشرات الملايين خارجها· والصلوات تختلط باصوات طلقات الرصاص الخافتة· كل شيء ينحني ما عدا المآذن التي تقاوم والبنادق التي تتعلم اطلاق النار· سيل من الاعدامات المجنونة ، الاف من المشردين · والاف من الذين خرجـوا كي يعودوا الى ايران عن طريق فلسطين · يتعلمون كيف ان المعركة الواحدة تصير في قتال واحد · ويقاتلون الحصار الذي فرض منذ ان عادت الحروب الصليبية وقد لبست ثياب التقدم الحضاري ، ففتكت وابادت وسحقت الشعوب وثقافاتها·

حاربوا الشعب بكل الوسائل وعلى مختلف الجبهات · ضربوا الانتاج المحلي وسحقوه · حولوا ايران الى برميل نفط يضخ الى ما لا نهاية · اقاموا اصلاحا زراعيا اسود وسموه الثورة البيضاء · ضربوا كل اشكال التمثيل الاجتماعية التقليدية وشبه التقليدية · صفوا منجزات الثورة المشروطية ومنجزات ثـورة مصدق · واقاموا سلطة على المجتمع من خارج كل علاقاته · سلطة تقوم على التوحش المطلق والارهاب المطلق · ضربوا الثقافة الوطنية وصار كل شيء لا يشبه الغرب أو يقلده بشكل اعمى هو الرجعية · وحدوا ايران بعد ان حاولوا تفتيتها ، ليس لانهم مع الوحدة ، بل لانهم ارادوها قلعة عسكرية تشارك فـــي حصار الاتحاد السوفياتي ، ثم في فرض التجزئة على العرب··

لكن السلطة الخارجية كانت كقشرة على جلد المجتمع · كانت كقشرة جراحات الجسد التي لا بد وان تتساقط عندما تستطيع اليد ان تحك جراحاتها · وعندما امتدت اليد ، تهاوت السلطة وكأنها لا تستطيع المقاومة · تهاوت اميركا كحيوان متوحش دخل في الكهولة ·

وكان المسار الثوري طويلا · عشرون عاما من الانتفاضات التي لا تتوقف · عشرون عاما والبياض يغزو الرؤوس ، لكن المآذن لا تنحني والبنادق تتزايـد والايدي ترتفع ·

وفي ١١ شباط ١٩٧٩ ، تساقط كل شيء · هرب حارس النظام الاخير السيد شاهبور بختيار من الباب الخلفي ، واستقال جميع اعضـــاء مجلس النواب ، وامتلأت الشوارع بالاف البنادق التي تحاصر الثكنات ، الجنود يخلعون ملابسهم العسكرية ويبكون · الميليشيا المسلحة تملأ الشوارع ·

وقيل انه كان هادئا في تلك الليلة ·

وقيل انه قال هذه الحكومة غير شرعية ·

وقيل ان الاموات خرجوا من بهجت الزهراء في مسيرة طويلة . فامتـــلأت شوارع طهران بالادعية التكبير ، وسقط كل شيء · وكان كل شيء يريد أن يبدأ جديـــدا ·

٢ ـ

كانت الطائرة تحلق فوق سماء ايران ، ا!لمار لا يجيب ، وحولنا طائـرات الفانتوم · شيء من الخوف وشيء من الرهـ وكثير من الانتظار · ثم حين لوح قائدة طائرة الفانتوم بيده ورفع شارة النصر ، ارتفعت الحناجر في الطائرة التي بدأت تهبط · وحين نزلنا من سلم الطائرة ، كان رجال بملابس عسكرية وبملابس شبه عسكرية يحيطون بنا · ارتفع صراخ الله اكبر حين لمحوا عرفات وكـأن البنادق هي التي تصرخ وقد بح صوتها من شدة الصراخ · هبط عرفات وصحبه السلم وهم يرفعون شارة النصر · كان كل شيء من حولنا يبكي · سمعنـا الرجال يبكون والزجاج يبكي من شدة انفعاله فسقط على الارض وتحطم ·دخلنا ولم نكن نصدق ، هذه هي فلسطين · لماذا تبدو فلسطين دائما اكبر من فلسطين· كان المسلحون يقولون بأننا نحن فلسطين وكنا نشعر أن فلسطين هي اكبر مـن الاجساد واكبر من الحناجر · كانت تمتد في شوارع طهران ، كما تمتد في كل شوارع العالم ، اشارة على الحزن والغربة والاجساد التي تنفجر بموتها وتموت كالضحايا في الفجر الذي يشرق بطيئا ، الشعور نفسه ، هكذا نكون في كـل الشوارع التي يمتد بها موتنا · نفاجأ بفلسطين ، وننسى جراحاتنـا وتعبنـا واحزاننا ، وحين نريد ان نقول شيئا يسبقنا البكاء ·

دخلنا الى مدرسة علوي حيث مقر الخميني · كان المسلحون ورجال الديـن الشيعة بعمائمهم السوداء والبيضاء يحيطون بنا من كل جانب ، والصراخ واحد لا يتغير : الله اكبر · هذه هي كلمة السر التي اشعلت الانتفاضة كما اخبرونا بعد ذلك · وهذه هي كلمة السر التي تستقبل فلسطين ·

كيف نصف مدرسة علوي ·

شيء يشبه الكتب التي قرأناها صغارا بخشوع ولم نفهمها ، لكننا شممنـا رائحتها · غرف فارغة ، لا اثاث ولا شيء سوى سجاد ممدود على الارض · نخلع الحذاء وندخل · رجال يذهبون ويدخلون ·· حركة دائمة · تلفونات على الارض · السيد احمد الخميني نجل الامام الخميني يجلس معنا على الارض ، ثم يأتي آية الله منتظري ، ورجال في عمائم ودون عمائم · يأتون ، يسلمون ، يقولون اشياء كثيرة نفهم منها أنهم معنا واننا معهم · ثم نذهب الى المطعم الذي يقوم في الطبقة الارضية من المبنى · نجلس وراء طاولات خشبية والى جانبنـا وحولنا تجلس عشرات الكوادر الثورية من لجنة الخميني في طهران · نأكـل الرز المزوج بالعدس · وعلى جانب الصحن قليل من التمر · هكذا نأكل نحن وهكذا يأكل الجميع · التقشف الكامل ، حيث لا مظاهر سلطة · التقشف الاولي الذي يرد على البذخ وفجور الاستهلاك الذي جاءت به الحضارة الرأسماليـة المتعفنة · ثلاث طبقات في المبنى · والمبنى كالخلية الدائمة الحركة ، التي تقـع

في طهران الجنوبية الفقيرة · دائما يكون الفقر في الجنوب · شمالي طهـــران وجنوبها ، شمالي العالم وجنوبه · وفلسطين هي جنوب فقير يمتزج بهذا الجنوب الفقيـــر ·

المسلحون ينتشرون في ملعب المدرسة القسيح· ونحن ننتشر في المبنى، نحاور الرجال الذين صنعوا هذه البداية · وهم يجيبون بعفوية من اعتاد هذا النصر الجارف · هنا نجد النصر وقد خلع مفاجآته وانتشرت اسراره حتى فقـــدت سريتها · قبل الذهاب الى مدرسة علوي كنت اعتقد اننا نستطيع ان نعتاد كل شيء · نعتاد الموت ونعتاد الحرب ونعتاد الهزائم · لكنني فوجئت هنا بـــان الانسان يستطيع ان يعتاد نصره · نسمع القصص عن الثورة ببساطة الموت الذي انتشر في سماء طهران طويلا ·

نجلس مع الشيخ صادق الخلخالي · يحدثنا عن فلسطين ونحن نسأل عــن ايران · يحدثنا عن محاكمة الجنرالات الاربعة الذين اعدموا · قائد السافـاك الجنرال نصيري ، المسؤول عن عشرات آلاف الجرائم يعترف بملكيته لاربعـــة قصور · يتنصل من معرفته بارتكاب الجرائم ويتهم الشاه · الجنرال خسروداه، قائد القوى الجوية ـ البرية يعترف بتهريب اربعين طائرة ايرانيـــة خـــارج البلاد · ويتهرب الشيخ الخلخالي من الاجابة على اكثر من ذلك · المحاكمـــة دامت من السابعة صباحا حتى الثانية عشرة ليلا · والاعـدام نفـذ بسرعة · هؤلاء قتلة يقول الخلخالي ويجب الاقتصاص منهم ·

نمشي في ساحة مدرسة علوي، ليل طهران الجميل ، والربيع جاء قبل اوانه· الشتاء اضرب عن العمل يقول سكان طهران · لقد تضامن الشتاء مع الاضراب العام · وها هو بعد دعوة الخميني لفك الاضراب بدا يعود الى عمله ·

وفي اللقاء بين عرفات والخميني ، كانت وحدة الثورة في شرقنا وكأنهـــا ولدت منذ البداية · « لقد عانينا مثلما تعانون ، ولكن ثورتنا انتصرت ، وهـي نموذج لثورة تواجه عدوا يملك افضل الاسلحة ، ومن خلفه تقف الدول الكبرى في العالم ··· وعلى بيغن ودايان اللذين يعتقدان ان وراءهما الدول الكبرى ، ان يفهما ان هناك من هو اكبر من الدول الكبرى · فالله اكبر من كل شيء · » هكذا تكلم الخميني ، وقال لعرفات : « سنعمل معـــا على اعادة القدس الـى اهلها » ·

وفي الصباح ، كانت الجموع تزحف الى المدرسة · هذا هو التقليد اليومـي منذ عودة الامام · النساء يلبسن الخمار الاسود الذي يسمى هنا التشادور ، ويحملن الاطفال على اذرعهن واقفات الى يسار الملعب ، والرجال الى يمينـــه وفي وسطه · وفي غضون حوالي الساعة ، كان الملعب قد تحول الى غابة من البشر · سكان الاحياء الفقيرة الذين يأتون يوميا لتحية الامام ، آلاف لا يتسع

لها ملعب المدرسة لكنها تأتي والهتافات تعلو · هتافات من اجل الثورة الايرانية وهتافات من اجل الثورة الفلسطينية · والبحر الجماهيري يموج ، تعلو الاصوات وتهدر القبضات المرفوعة الى اعلى حيث التحدي · الجميع ينتظرون العناق بين الثورتين · يلقي عرفات كلمته فتعلو الهتافات وهي تمتزج بالترجمة الى الفارسية · ثم يأتي الخميني ، تتعانق اليدان وتلوحان ببساطة الى الجماهير الهادرة ·

اللقاء بين الجماهير وبين الخميني لقاء لا يوصف · يأتي الامام بلحيته البيضاء وعمامته السوداء · يمشي خفيفا على الارض وكأنه يلامسها او يكاد · يقف على الشرفة امام البحر وكأنه قبطان سفينة تقترب من الشاطيء · يقف هادئا وصارما · يرفع يده فترتفع الايدي · يرفع يده فتسكت الجموع · يأتي شيخ الى جانبه ويطلب بيده من الناس الجلوس · فيجلس الجميع على الارض· يمر الخميني بالناس · تندفع بعض النساء باطفالهن الى يده كي يبارك · يلمس جباه الاطفال وينحني · ثم يجلس على الارض · ويغادر كما دخل · خفيفا ، كأن جسده الذي يقع تحت العباءة يسبق خطواته · وتبدأ الناس في العودة الى بيوتها واعمالها ·

هذا هو التقليد اليومي ، قالوا لنا · منذ عودته من المنفى وهو يتجول في ايران داخل عيون الناس التي انتظرت الفجر طويلا · وها هي العيون تضحك في فرح البداية ·

عندما ذهبنا الى مقبرة « بهجت الزهراء » اي « جنة الزهراء » ، كنا نعتقد اننا نذهب من اجل الوفاء · الوفاء لآلاف الشهداء الذين امتلأت الشوارع بدمائهم · لكننا فوجئنا حين تحولت المقبرة الى عرس لفلسطين · آلاف القبور البيضاء ، العباءات السوداء تتلألأ وسط هواء يحمل الرمل الناعم الابيض · والجموع تتدفق على ياسر عرفات ،تنسى موتاها وتركض باتجاهه وتهتف· كأن الاموات قد نهضوا · او كأنهم يعيشون معنا هذا الفرح ·

لم يكن احد ينتظر زيارة الوفد الفلسطيني للمقبرة · ذهب الجميع الى قبورهم من اجل غسلها · وعندما فوجئوا بفلسطين في وسطهم ركضوا باتجاهها · كان عصر الجماهير الخارجة من قبر الظلام الامبريالي هو الذي ينتشر كالهواء الذي نتنفس ·

وفي مكان قصي من المقبرة · كان هناك نسوة ورجال يحيطون بالقبر الابيض· ذهبت باتجاههم · كانت المرأة تسكب الماء على بلاط القبر وتتكلم وتبكي · وحولها البكاء يرتفع · قال لي صديقي الايراني ان الجميع هكذا ، يأتون الى مقابر الشهداء ويتكلمون معهم · وكانت المرأة تقول كلاما يقع بين البكاء والتحدي · تنحني على القبر راكعة . تمسده بحنان ثم ترفع يدها الى السماء

وتتكلم • انهض كانت تصرخ • انهض وتعال معنا الى المدينة • هناك سوف ترى كيف هرب الشاه وهربت عائلته • سوف ترى السجون وقد فتحت والقصور وقد فرغت من سكانها • والشهيد لا ينهض ، والنسوة والرجال يبكون بصمت وبصراخ •

لكنني رأيت شيئا يشبه الشهيد • كان يزحزح حجر القبر بيده ، يجلس ثم ينهض ببطء • على كفنه بعض الرمل والطين ، لكن الكفن لا يزال ناصعا •وهناك نقطة حمراءتكبر وتكبر وتحجب الكفن • ينهض الشهيد لابسا كفنه ويقود التظاهرة التي يقتل فيها •

الماء يغسل القبور ، والشهداء يصنعون الثورة • كأن قبور الاجداد الذين اذلوا وقهروا حتى الموت تنفتح دفعة واحدة • وتخرج الازهار من داخلها • يمشي الموتى في التظاهرات الدموية ويقولون ان الموت لا يخيف • فالموت اليف وهادىء • يخرجون ويدمرون باحزانهم الحزن الذي قتل الفرح في عيون الاطفال •

من بهجت الزهراء الى وزارة الخارجية • ومن وزارة الخارجية الى ايران بأسرها • مشهد والاهواز • الالاف التي خرجت لتستقبل فلسطين في عرفات كانت تستقبل عصرا جديدا • لقد بدأ عصر جديد فيالمنطقة •

٣ ـ

في شوارع طهران ينتشر رجال الميليشيا وهم يحملون بندقية الجي ٣ • والى جانبهم يقف رجال سلاح الطيران • الجميع يحبون جنود سلاح الطيران • والجنود في كل مكان ببذلاتهم العسكرية الزرقاء •وبابتساماتهم الدائمة •

لماذا بدأت الانتفاضة انطلاقا من سلاح الطيران ؟ وكيف بدأت هناك ؟

الجيش الايراني هو مؤسسة بنيت للقمع الداخلي اساسا • انها مؤسسة حديثة جدا تقوم على مبدأ سحق جميع المؤسسات الاجتماعية الاخرى ، ورميها في التخلف المطلق • لكن الظروف المحيطة بالمنطقة بدأت تفرض مهمات جديدة لهذا الجيش • وبدأت الاستراتيجية الاميركية المتراجعة في العالم بأسره ، تحاول ان تسمح لعملائها بلعب دور اكبر • وهذا يعني ان ايران قد تحولت الى شرطي المنطقة • وهذا الشرطي يحتاج الى اسلحة معقدة جدا •

وفي سلاح الطيران ثبت كيف ان الاشياء تحمل تناقضها في داخلها • فالاكثرية الساحقة من تقنيي سلاح الطيران تلقوا تعليما متوسطا • وحوالي ٦٠٪ منهم ذهبوا في دورات تدريبية الى الولايات المتحدة • وداخل جميع قواعد الطيران كان الضباط الاميركيون هم الذين يأمرون • اي ان هذا السلاح

الحديث ، والذي انيطت به مهمة حماية المصالح الاميركية ، ينقلب من شدة محاولات امركته على الاميركيين · فالدراسة في اميركا وتواجد الضباط الاميركيين زادا من الحقد ومن الالتحام بالشعب ·

ورجال سلاح الطيران يروون قصة قاعدة فرح آباد · انها الشرارة التي انطلقت منها الانتفاضة ·

« لقد بدأت الانتفاضة في سلاح الطيران قبل الثورة بثلاثة اشهر · كانت الجماهير تملأ الشوارع وتتظاهر وتقاتل ، وكنا نحن في قواعدنا نحاول ان نكتشف اساليب مساعدة الشعب · كنا نخاف · فالسافاك في كل مكان ، والثقة كانت مفقودة بشكل كامل بين الجنود · والضباط الاميركيون يملأون قاعدتنا بصلفهم وكبريائهم · وكنا نسمع عن اعدام بعض اخواننا · قيل لنا ان ثلاثة ضباط وعشرة تقنيين اعدموا في همذان بتهمة التعاون مع الثورة · بدأنا النضال السلبي ، كنا نحاول تعطيل الطائرات لمنعها من المشاركة في ضرب الثورة ، وكنا نضع التأييد في قهوة الضباط الاميركيين ·

ومنذ ثلاثة اشهر ، كان النظام الشاهنشاهي قد وزع رجال الدرس الامبراطوري الخاص (الخالدون) بين مراكز وقواعد القوات الجوية ، وذلك بهدف شل كل تحرك · وكنا نحن طوال هذه الفترة نحاول استمالتهم بالاقناع وبالمحبة · نقدم لهم الشاي ونناقشهم في اوضاع البلاد العامة · لكن محاولاتنا انتهت الى الفشل · فلجأنا الى سلاح جديد ، كنا نقوم بالاضراب عن الطعام داخل الثكنات والقواعد ·

وفي يوم ٢/٨ ، شاركنا في التظاهرات امام مقر الخميني وكنا بكامل البستنا العسكرية · وقد احدثت هذه التظاهرة اثرا مباشرا داخل قواعدنا وفي صفوف الجماهير · نشرت صور التظاهرات في صحيفة كيهان ، فصدر بيان من السلطات بتكذيب الصور واذيع البيان في الراديو والتلفزيون ، غير اننا اصدرنا منشورات اكدنا فيها صحة اشتراكنا في التظاهرة ·

كان كل شيء قد اصبح واضحا · الصدام حتمي ، ورجال الحرس الامبراطوري يريدون القضاء على القوات الجوية ·

في قاعدة فرح آباد يوجد حوالي ثمانية الاف رجل من القوات الجوية · وكنا يوم ٢/٩ والاجواء مشحونة بالتوتر ، نتفرج في التلفزيون على عرض خاص لعودة الامام الخميني الى طهران · وعندما ظهرت صور الخميني ارتفع التكبير، وبدأ نقاش حاد بين الجنود وبين رجال الحرس الامبراطوري · وتحول النقاش الى صدام مسلح ، فقتل حوالي ٢٠ رجلا وجرح ٦٠ آخرين · كان الخالدون يحملون سلاحهم، وكنا نحن عزلا من السلاح · فالسلاح في المخازن ، ومفاتيح

المخازن مع الضباط • شعرنا اننا نواجه مذبحة جماعية ، فقد بدأت التعزيزات من قوات الحرس الامبراطوري تحيط بالقاعدة • هنا ارتفع تكبيرنا • صعدنا الى الاسطح وبدأنا نصرخ الله اكبر . ايها المسلمون ان اخوانكم في القوات الجوية يتعرضون للموت • شعرنا للحظة اننا نواجه الحرس الامبراطوري وحدنا • ثم بدأنا نسمع الهتاف يعلو ، فقد امتلأت اسطح المدينة المظلمة بصيحات التكبير ، وكانت هذه الصيحات وكأنها كلمة سر بداية الانتفاضة • فامتـــلأت الشوارع بمئات الالاف من الجماهير • زحف الشعب واحـــرق السيارات والاطارات ، ووضع الحديد المكهرب في وسط الشوارع وبين عجلات الدبابات • واحتـــــل الناس الشوارع المؤدية الى القاعدة : شارع الكوكا كولا وشارع فوزية وشارع طهران • هكذا تم ايقاف زحف القوات التي جاءت لتطويقنا • والجنرال ربيعي قائد سلاح الطيران كان يقود الهجوم علينا بنفسه • ثم حين ارتفع هتاف الناس بضرورة موت الخائن ربيعي هرب بطائرة هيليكوبتر •

اما نحن في داخل القاعدة فلقد استطعنا الاستيلاء على مخازن الاسلحة . ووزعنا الاسلحة على الجماهير • وخرجنا بعد ان فك الطوق عن قاعدتنا لنشارك الجماهير في انتفاضتها المسلحة • وها نحن نقوم الآن بواجبنا • نقف مع رجال الميليشيا الشعبية من اجل ان نحرس النصر » •

الذين كانوا في طهران ، وشهدوا ايام الانتفاضة ، ذهلوا من السرعة الفائقة التي انهار فيها النظام • فلقد انهار الجيش دون ان يقاوم فعليا • انهار كمـــن اصيب بالذهول وكمن يئس من امكانية المجابهة • فبعد مذبحة سبتمبر والتـــي ذهب ضحيتها حوالي اربعة آلاف شهيد ، صار القتل عبثا • صار القتل من اجل القتل ، ولم يعد هناك اي افق سياسي للمجازر • اما الجماهير الايرانية فقـــد فاجأت نفسها • مئات الآلاف من المسلحين الذين استولوا على اسلحة الجيـــش يستولون الآن على الشوارع والمراكز الرئيسية •الاذاعة تسقط ، قصور الشاه تتهاوى ، السجون تفتح ابوابها • ثلاثة ايام من الدهشة والنصر •

تبدو طهران اليوم وكأنها بلا سلطة • الحكومة المؤقتة تحاول تصريف الاعمال بانتظار الاستفتاء ، ولجان الخميني تملأ الشوارع بانتظـــار استلام السلطة ، والجيش شبه مفكك يحاول اعادة تجميع عناصره في الثكنات المهجورة • السلطة الفعلية في الشارع ، والقوى الاجتماعية المختلفة تبدو وكأنها تحاول اعادة تنظيم صفوفها ، تتنفس الحرية التي افتقدتها طويلا ، تستجمـــع نفسها ، بانتظار بناء سلطة جديدة •

والحوار يدور في كل مكان حول معنى السلطة الجديدة • حـــول التعابيـــر والصيغ • مجلس قيادة الثورة الاسلامية يعقد الاجتماعات المتواصلة ،والصحف تمتلىء بالنقاشات •

٤ ـ

حول شعار الجمهورية الاسلامية ، قاد الخميني الثورة من منفاه ٠ والشعار لا يثير جدلا ، لكن الجدل يثار حول مضمونه ، لكن قبل الوصول الى مناقشة الشعار ومضمونه ، ما معنى الطبيعة الاسلامية للثورة الايرانية ؟

في ايران حوالي ١٨٠ الف رجل دين شيعي ٠ هل يكفي هذا الرقم للدلالة على حجم الكوادر التي قادت الثورة ونوعيتها ؟ لكن المسألة تبدو اكثر تعقيدا من كونها مسألة تقنية تتعلق بالقيادة ٠

المسألة الاسلامية تقع في مستويين متداخلين : الواقع الاجتماعي وثقافة الشعب ٠

فعلى المستوى الاجتماعي قام النظام الاميركي في طهران بتدمير كل اشكال التمثيل الاجتماعية ٠ دمر التمثيل التقليدي القائم على العشائر ونقابات المدن باعتباره تمثيلا رجعيا ومتخلفا ، واقام نظاما تمثيليا غربيا ، اي شكليا مئة بالمئة ٠ فصار مجلس النواب مجرد اطار شكلي يتقبل اوامر القصر ولا يستطيع المعارضة بحكم تكوينه ٠ اي ان المجتمع المدني دمر من اساسه ٠ صارت السجون هي البرلمانات الحقيقية التي يلتقي فيها قادة المعارضة الشعبية ٠ ودخل النظام في دوامة العزلة ٠

كما ان الاقتصاد القومي جرى رهنه للنفط ، اي للاحتكارات الاجنبية ٠ فعرفت ايران تدهورا زراعيا خطيرا نتيجة دخول رأسمالية الاطراف المتوحشة الى الريف ، وقامت الصناعة الوسيطة التي تنتج بشكل كامل لمصلحة المراكز الصناعية الكبرى فيالعالم ٠ فصار الريع النفطي هو اداة السلطة في قمع الفئات الاجتماعية واخضاعها ٠ وصارت الدولة خارج المجتمع او فوقه ، تملك الرساميل الريعية التي تضرب بها دورة الانتاج الاجتماعية ٠

في ظل هذا الواقع القمعي ، كانت الجوامع والحسينيات ، مكان التجمع التقليدي ، قد بدأت تكتسب مدلولا جديدا ٠ ففي مواجهة قيم الاستهلاك والقمع المتوحش ، برزت القيم الاسلامية واطر الاجتماع الاسلامية ، كشكل ديمقراطي وحيد ممكن ٠ فصارت المعارضة تنمو في هامش النظام ٠ في القطاعات التقليدية التي همشت الى اقصى الحدود ٠ ومن الهامش بدأت الجماهير تحاصر المركز القمعي ٠

اما على المستوى الثقافي ، فقد برز الاسلام بوصفه ثقافة الشعب الاخيرة في مواجهة محو خصوصيته بشكل كامل ٠ الاسلام بهذا المعنى هو ثقافة صدام ٠ انه يحمي القيم الاجتماعية من الانحلال ٠ يحمي المجتمع من التدهور في التفتت الكامل الذي تريده السلطة القائمة فوق المجتمع ٠ فاذا كانت الرأسمالية الغربية

تحول المجتمع الى افراد كي تحكم قبضتها على المستوى السياسي ، فان رأسمالية الطرف الريعية تريد فرط كل اطار اجتماعي ، وتحول الافراد الى عبيد · ففي مواجهة العبودية ، تقف الثقافة الشعبية كنقطة دفاع اخيرة عن النفس ·

الاسلام هنا يستعيد دوره المعادي للاستعمار والذي برز واضحا في الثورة الجزائرية · لكنه بالاضافة الى كونه هوية ثقافية ، يلعب في الواقع الايراني دور الاطار الشعبي الديمقراطي الوحيد ·

هنا لا بد من الاشارة الى مسألتين خاصتين في الواقع الاسلامي الشيعي في ايـران ·

فهناك اولا استقلال المؤسسة الدينية · هذا الاستقلال الذي تكرس عبر تراث طويل من مقاومة السلطة الجائرة · باعتبار ان كل سلطة هي سلطة جائرة ما عدا سلطة الامام المنتظر · ويأخذ هذا الاستقلال شكله المادي في الزكاة التي يدفعها المسلمون طوعا لمراجع التقليد · حيث تقوم المراجع باعادة توزيعها في مشاريعها ومؤسساتها ·

وهناك ثانيا لا مركزية السلطة المرجعية ، حيث ان الانتخاب الشعبي الطوعي من قبل جمهرة العلماء ومن قبل الشعب هو الذي يحدد المراجع ويحدد دائرة سلطتها الشعبية · هنا يفلت الاسلام من يد السلطة المركزية ، ويصبح اطارا اجتماعيا ونضاليا في مواجهة القمع والعنف ·

وفي حوار طويل جرى في مدينة قم المقدسة مع **آية الله منتظري** ، الذي ينظر اليه هنا بوصفه المساعد الاول للامام الخميني ، حاول منتظري ان يحدد مفهومه لدور الاسلام ·

● كيف تفهمون علاقة الثورة بالاسلام ؟ وكيف تقيمون الحركات الثورية الاخرى في العالم الاسلامي ؟

□ الثورة الاسلامية هي ثورة من اجل جميع المناطق في العالم ، فنحن لا نؤمن بالعنصرية والاقليمية · نحن نسعى الى تحقيق العدالة الاجتماعية على ضوء التعاليم الاسلامية في جميع الاراضي الاسلامية ، خصوصا عند الشعب الفلسطيني الذي اغتصبت ارضه · وثورتنا ستبقى غير مكتملة ما دامت شعوب العالم تعيش تحت الاحتلال الاستعماري ، وما دامت العدالة الاجتماعية غير مطبقة · وننتظر من الشعوب الاسلامية ان تستلهم ثورتنا في ايران ، فنحن استطعنا التوصل الى نتائج جيدة رغم اننا لم نعط خسائر كبيرة · وعلى زعماء الدول العربية ان يأخذوا العبر من احداث ايران ، وكيف طرد الملك السابق وهرب ·

هناك ثلاثة عوامل ساهمت في انتصار النهضة في ايران :

١ ــ الايمان الكامل بالتعاليم الدينية الاسلامية ٠

٢ ــ اتحاد جميع قطاعات الشعب في الثورة والنهضة ٠

٣ ــ الزعامة الحقيقية التي جسدتها نهضتنا في آية الله الخميني ، الــــذي قاد ثورتنا عبر قطعيته الثورية الى النجاح الكامل ٠

● ولكن ما هو موقف الاسلام من التقدم العلمي والثقافي في العالم ؟

□ من وجهة نظر الدين ، فالدين لا يتعارض مع التقدم الحضاري او مـــع الثقافة ، بل يواكبها ٠ نحن في الاسلام ، نعتقد بضرورة مواكبة دول العالـــم والمشاركة في صنع الحضارة ٠ في الجاهلية ، كان العلم حكرا على فئة قليلة . ولكن الاسلام حرض الناس على التعلم عبر الثقافة والدين ٠

وفي الاسلام ، هناك ضرورة لتعميم العلم في مرتكزات خمس :

من جهة اولى ، هناك الحديث الشريف الذي يقول : « طلب العلم فرض على كل مؤمن ومؤمنة » ٠

من جهة ثانية ، هناك الحديث الذي يقول : « الحكمة ضالة المؤمن اينمـــا وجدها اخذها » ، اي يأخذها حتى من الكفار ٠

من جهة ثالثة ، يقول الحديث : « اطلب العلم ولو بسفك المهج وخـــوض اللجج » ٠

اما من الناحية المكانية : فيقول الحديث : « اطلب العلم ولو في الصين » ٠

من جهة خامسة ، يحضنا الحديث على طلب العلم طوال حياتنا : « اطلـب العلم من المهد الى اللحد » ٠

فالعلم ليس حكرا على طبقة دون بقية الطبقات ، والاسلام يحرض على طلبه تحريضا شديدا . فكيف يكون الاسلام ضد العلم ٠ فالاسلام الواقعي يواكـب تقدم الزمان . بل هو يحرض الناس على التقدم الحضاري ٠ فالامام عليه السلام يقول : « العالم بزمانه لا يهجم عليه الا ملابس » ٠

ومع ذلك يتصور البعض بان الثقافة والاسلام لا يتواكبان . او انهما ضدان ويدعون بان الاسلام رجعي ٠ لكن الاسلام الواقعي والحقيقي هو اسلام الدين والثقافة والتقدم العلمي ٠

● في تحليل الثورة الايرانية . ينسب الكثيرون ثورية المؤسسة الدينية الى

شيعيتها ؟· فهل تعتقدون ان ثورتكم تشمل جميع المذاهب الاسلامية ؟

□ هناك حقيقة واقعية، هي كون التيار الشيعي ، كان طوال التاريخ الاسلامي تيارا ثوريا · لكن جميع المسلمين الذين يتحملون مسؤولياتهم ، يجدون انفسهم في موقع الدفاع المسؤول عن الاسلام · ولقد شارك اخواننا السنة من كردستان وبلوشستان في هذه الثورة ·

الاسلام ليس دينا فرديا ، انه دين اجتماعي · وبناء على الحديث النبوي - « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » · فعلى المسلمين كافة ان ينهضوا في مواجهة الظلم والاستبداد · تقول الآية الكريمة : « ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » ·

وقال رسول الله (ص) : « اذا ظهرت البدع في امتي فعلى العالم ان يظهر علمه والا فعليه لعنة الله » · فالسكوت على الظلم غير مسموح في الاسلام · فلا يجوز للمسلم ان يكتم الحق ·

● تتحدثون عن العدالة الاجتماعية فيالاسلام ، فما هو تحديديكم لها ؟

□ العدالة الاجتماعية في الاسلام هي غير المساواة · فهي تتمتع بمفهوم كلي · فلكل ذي حق ان يأخذ حقه · لكن العدالة الاجتماعية تعني كذلك ، ان يعطى المحروم حقه ·

● هل هذا يعني انكم تؤمنون بالملكية الخاصة ؟

□ نحن نؤمن بالملكية الخاصة ، ولكن على اساس النشاط الفردي والعدالة الاجتماعية · لقد بنيت الشريعة الاسلامية على اساس النظام الطبيعي في المجتمع· فمن الناحية الطبيعية والتكوينية فلكل انسان حقه الطبيعي في المجتمع، وعطاء جهده يرجع اليه · غير انه على الحكومة الاسلامية التدخل في شؤون وقضايا المجتمع المسلم ، ومساندة المستضعفين في الارض ·

اما المعادن والمنابع الطبيعية في الارض ، فهي تحت تصرف الحكومة الاسلامية وهي توزع بشكل عادل في المجتمع · انها الاموال العمومية التي تسمى في القرآن بالانفال · وكما تقول الآية الكريمة : « يسألونك عن الانفال قل الانفال لله وللرسول » · وبمفهوم الفقه الشيعي فهي بتصرف الامام اي الحاكم الشرعي الذي يصرفها على مصالح المسلمين ويوزعها فيما بينهم ·

● ولكن ماذا يميز الجمهورية الاسلامية عن بقية الجمهوريات في العالم ؟

□ تتميز الجمهورية الاسلامية بكون رئيسها وحكومتها ينفذون التعاليم

الاسلامية · غير ان الحكومة الاسلامية هي حكومة ديمقراطية · فالحكومة الاسلامية ستقوم بتطبيق القوانين الاسلامية بعد ان تؤخذ هذه القوانين وتكيف مع الشروط والمقتضيات الملائمة لاحتياجات الشعب · فالشعب هو الذي سينتخب ممثلين عنه ، وهؤلاء سيقومون بتكييف التعاليم الاسلامية مع الشروط المستجدة ·

● اشرتم الى ان ثورتكم لن تكتمل ما لم تتحقق العدالة في ديار الاسلام · فهل هذا يعني ان الجهاد سيبقى قائما حتى تحقيق هذه العدالة ؟

□ نحن في ثورتنا لم نلجأ الى الثورة المسلحة لاننا قمنا باشكال من النشاطات الثورية المتعددة ، والتي قادتنا الى النصر · ونحن نتمنى ان تطبق اساليبا في بقية البلدان الاسلامية ، كما اننا سنساعد الشعوب في قضاياها المشروعة · غير ان الجهاد المسلح هو آخر حل لقلب نظام جائر ·

● هل تشاركون في الكفاح المسلح ضد اسرائيل ؟

□ نشارك بمقدار امكانياتنا · فعلى كل مسلم ان يشارك اخوته عرب فلسطين في جهادهم · وعلى كل مسلم سواء كان في ايران او خارجها ان يساهم في تحرير الاراضي المحتلة والقدس الشريف · ويتفاوت هذا الواجب بحسب المراتب والامكانيات · وبهذا يمكن لكل مسلم المساهمة في تحرير الاراضي المحتلة ·

● ما هو في رأيكم تأثير الثورة الايرانية على المنطقة ؟

□ كانت ايران في العهد البائد تلعب دور شرطي منطقة الشرق الاوسط لصالح اميركا · اما نحن ، فلن نلعب هذا الدور ، ونريد اقامة علاقات حسنة مع الدول الاسلامية وجميع دول العالم · لكننا نتمنى ان تتحكم الشعوب في مصيرها · كما نتمنى ان تؤثر الثورة الايرانية في المنطقة ، وانتعي شعوبها ويعتبر حكامها فيغيروا سياستهم المضادة لشعوبهم · فنحن نتمنى استقلال جميع الشعوب من الاستعمار ، ولن نظلم احداً غير اننا لن نقبل الظلم من احد ·

● نلاحظ في ايران وكأن هناك اكثر من سلطة واحد · سلطة الامام وسلطة الحكومة · فكيف ستحل هذه الازدواجية ضمن المفهوم الذي يتردد هنا بأن الامام الخميني سيلعب دور مرشد الامة ؟

□ سلطة الحكومة هي سلطة مباشرة ، اما سلطة آية الله الخميني فانها ستكون عبر الاشراف والتوجيه والنظر ، ومراقبة اعمال الحكومة كي لا تنحرف عن مسيرة الاسلام · فنائب الامام هو الذي يعدل اي انحراف اذا وجد · لقد شاهدتم كيف اسقط المجتهد وعلماء الدين الحكومة الجائرة ، فكيف بهذه الحكومة التي عينها نائب الامام ؟·

اسئلة الاسلام هي اسئلة حول الحكومة والسلطة واعادة تنظيم المجتمع بشكل متوازن ، حيث تستطيع جميع الفئات الاجتماعية التعبير عن نفسها بحرية · لكن النقاش حول الاسلام تحجبه قضية الحجاب ، وكأن مسألة المرأة تبدو المسألة التي تشغل الصحافة العالمية · ومسألة الحجاب تبدو اكثر المسائل اشكالية ، لكننا في مشهد ووسط الاستقبال الشعبي الحاشد الذي اعد لعرفات ، حيث مقام الامام الرضا ، رأينا النساء اللابسات التشادور يحملن البنادق في ايديهن · اما في طهران ، فقد كان التشادور يبدو وكأنه علامة نضالية ، كأنه موقف طوعي تتخذه النساء في مواجهة صلف الشاه وغروره وعدائه للحجاب·

احدى النساء روت لنا انها لبست التشادور منذ ستة اشهر فقط ، كي تثبت للشاه ان النساء معاديات له · ويبدو ان هذه الظاهرة شبه عامة في طهران الجنوبية الفقيرة · نساء بالتشادور يرفعن قبضاتهن في مواجهة القمع والارهاب· يلبسن العباءة السوداء كعلامة على انهيار مظاهر التغريب القسري الذي تعرضت له ايران · ولكن ، بعد استلام السلطة ، فان القضية تصبح اكثر تعقيدا · ما هو دور المرأة في المجتمع ؟ المقربون من الامام الخميني يتحدثون عن حق المرأة السياسي والاجتماعي · حقها في العمل ، وحقها في الترشيح وحقها في الانتخاب ·

لكن تطرح مسألة بالغة التعقيد ، كيف نرفض الغرب في الزي والعادات والقيم ؟·

وهل يمكن رفض الغرب وسط هذا الفرق الشاسع بين المدنية والريف ؟

المسألة تحتاج الى اجوبة اكثر تعقيدا ، ولن تأتي الا من المعاناة الثورية الحقيقية ، ومن عملية الصراعات الاجتماعية المقبلة التي تبشر بها البداية الثورية ·

والجميع متفقون على مسألة واحدة · كل ايران تتفق على ضرورة الجهاد في سبيل فلسطين ، كأن فلسطين هي الاسم الحركي لامتدادات الثورة الايرانية·

الجميع يتهم اسرائيل ، الجميع يتهم خبراءها بالمشاركة في تخريب ثروة البلاد الزراعية ، ويتهم ضباطها بتدريب الجيش الايراني على القتل ، ويتهم سفارتها بالتجسس على العرب ·

منذ لحظات الانتفاضة الاولى ، كان مقر البعثة التجارية الاسرائيلية هدفا للجماهير المسلحة · وعلي محمد رضا الشاب الايراني الذي رافقنا في الباص الى مقر السفارة الايرانية ، كان يحدثنا عن التظاهرة الصاخبة التي احرقت السفارة واستولت على وثائقها · وكيف قفز على السارية وانزل العلم الاسرائيلي · ويقول ان علما فلسطينيا ارتفع في تلك اللحظة ، لا يعرف من اين

اتى ، فرفعته الجماهير بايديها ، ثم وضعته على حائط السفارة ٠

وعندما ذهب ياسر عرفات برفقة الدكتور ابراهيم يزدي والامام احمد الخميني الى سفارة فلسطين الجديدة ورفعوا فوقها العلم ، كانت الجماهير تحتل شارع كاخ الذي صار اسمه شارع فلسطين ٠ وكانت فلسطين قريبة الى حد لا يصدق ، قريبة وجميلة على رغم الحروق في جسدها ٠ وكانت الازهار وصور الشهداء تملأ حيطان المبنى المتهدم ، وعرفات يتكلم ويكاد يبكي ٠ ثورتان في ثورة واحدة ٠ والثورة الواحدة ستنتصر ٠

الملاحظة الاساسية هي ان سفارة اسرائيل لم تكن مجرد مكتب تجاري . سفارة فيها حوالي المئتي غرفة ، واجهزة كومبيوتر واجهزة اتصال معقدة ، مما يشير الى الدور الذي كانت تلعبه اسرائيل في ايران ٠ والى عمق التحالف الايراني الاسرائيلي داخل الاستراتيجية الاميركية في المنطقة ٠

ـ ٥

الجميع يتهم اسرائيل واميركا ٠ حتى في سجن افين ، وهو السجن الحديث والنموذجي الذي بناه الشاه لسحق المعارضة السياسية ، نسمع المسلحين من لجنة الخميني ومن مجاهدي الشعب الايراني ، وهم يروون عن علاقة المخابرات الاسرائيلية بالسافاك الايراني ٠

يقع سجن افين في ضاحية طهران ، السيارة تبدأ صعودها شمالا ، وامامنا ينتصب جبل عال مكلل بالثلج الابيض ، كأنه يقف في نهاية الطريق ٠ الريح الشمالية الباردة تلفح الوجوه ، ونحن نمشي في طريق وعرة على سفح الجبل. هناك نرى بنايات متعددة متشابهة خلف باب حديدي سميك ٠ امام الباب يتجمهر الصحفيون الاجانب والفضوليون ٠ قال لي احد رجال الميليشيا ، الآن سوف ترى القمع المتوحش الذي كان يمارسه الشاه ٠ تجولنا بين بنايات السجن المختلفة ، لنكتشف ان الغرف الانفرادية هي التي تسيطر في هذا السجن ٠ غرف صغيرة لا نور فيها ولا اضاءة يحشر فيها ثلاثة او اربعة مساجين ٠ سجن النساء اكثر همجية من سجن الرجال وغرفه اضيق واكثر ظلاما ٠ ثم ذهبنا الى بناية حديثة جدا ، هنا نجد الآلات الالكترونية المعقدة التي تستخدم لتعذيب المساجين ، وهناك غرف للمقابلات تذكر بالافلام الاميركية ٠ غرفتان صغيرتان متقابلتان يفصل بينهما حائط زجاجي ٠ وهناك جهاز هاتف في كلا الغرفتين . هنا يقف المساجين وفي مواجهتهم يقف الزائرون ، ويتحدثون لمدة دقائق ٠

ولكنه سجن حديث وغير مخيف ٠ وبدأت اتكلم عن السجون الاخرى التي تنتشر في القارة العربية ٠ كنت مندهشا من ضراوة الحملة على سجون الشاه. فهي فعلا ، اذا كانت على نمط هذا السجن ، سجون انسانية بالمقارنة مع

السجون العربية · كان الشاب الايراني لا يلتفت ، يطرق الى الارض ولا يجيب. سألني عن السجون العربية فتكلمت وكان يستمع ويهز رأسه · ثم قال اتبعني · تبعته · خرجنا من دائرة بنايات السجن ، وبدأنا نسمع صوت الحفارات الكهربائية ونشم رائحة الغبار الذي ينتشر · اعتقدت انني اسمع عويلا واصواتا تخرج من القبور · تقدمنا · وسط الغبار كانت مئات الملاءات السوداء التي بدأت تلتمع فيها خيوط الغبار البيضاء تصرخ وتولول . ورجال الميليشيا يحاولون ابعاد النساء عن آلات الحفر · والاصوات تختلط بالغبار ·

هذا هو السجن الحقيقي قال صديقي الايراني · جميع الذين كانوا في هذا السجن يقولون انهم سجنوا تحت الارض · نحن نعتقد ان السجن الحقيقي يقع تحت الارض · وقد اكتشفنا عشرات السجون ـ القبور · لكن حتى الآن لا نزال نبحث عن السجن الحقيقي الذي يقع تحت سجن افين . ولم نستطع اكتشافه · ربما كان هناك في الجبل ·

وفي السجون الحقيقية التي زرناها . رأينا كيف يقبر الانسان حيا · دهاليز تحت الارض تشبه الآبار . رائحة عفونة . دماء متجمدة وايدي مقطعة ·

هذه هي الحضارة الغربية التي بشرنا بها · حضارة لا تأخذ الا شكل القبر · ورغم المقابر رأينا عبقرية السجين وغريزة الحياة . التي استطاعت في احدى قاعات افين ان تبني منصة للخطابة من اوراق الصحف بعد بلها بالماء وتكديسها فوق بعضها ·

وفوق المقابر ـ السجون ينبت العشب . فقد وجد سجن تحت الارض في باساركاد ، التي تبعد حوالي ١٢٠ كلم الى الشمال من مدينة شيراز . قرب قبر قورش الاكبر مؤسس الامبراطورية الايرانية . والذي كان قد كتب احدى اقدم وثائق حقوق الانسان عام ٥٢٩ ق·م· بعد تحرير بابل ·

مساحة السجن هي حوالي ١٥٠٠ متر مربع . وقد بني باسره تحت الارض · وعلاقته الوحيدة بالعالم الخارجي هو باب حديدي طوله متر واحد · جميع حيطان السجن مبنية من الحديد المقوى وهو مستدير في شكله · والسجن مغطى بالعشب الاخضر · وقد استطاع احد عمال البناء الذين شاركوا في بنائه اكتشاف بابه ، مما سمح لرجال الثورة بالعثور عليه ·

هكذا بنى محمد رضا بهلوي امبراطوريته · وعندما تهاوت الامبراطورية . اصبح الهدف الاساسي لجميع القوى الثورية في البلاد هو كسر باب السجن وتحطيم حيطانه . حتى لا تكون سجون مرة اخرى ·

هكذا يبدو مستقبل ايران السياسي · وحول هذا المستقبل يدور النقاش والحوار ·

اليسار يرفض تسليم اسلحته الى الحكومة ، **اية الله الطالقاني** الذي يشكل احد ابرز وجوه قيادة الثورة الايرانية، والذي يتردد على انه عضو في مجلس قيادة الثورة الاسلامية ، يرفض ضرورة تسليم الاسلحة · ويطالب بتصفية قيادات الجيش ، ويصرح بانه لا يعارض امكانية ان يصبح عريف قائدا للجيش ·

والجدل حول اليسار والجيش يدور في كل مكان ·

منظمة **فدائيي الشعب** تدعو الى التظاهر ، فتنتشر في جميع انحاء طهران قصاصات من الورق قامت لجان الخميني بتوزيعها ، تدعو الشعب الى عدم الاشتراك في التظاهرة · التظاهرة تلغى لكن اليسار يدعو الى تجمع ضخم في جامعة طهران ·

منظمة فدائيي الشعب تحتل احدى بنايات السافاك في شمالي طهران · المسلحون الملثمون يحيطون بالبناية من الخارج ، يفسر لي احد اعضاء المنظمة بانها لا تزال منظمة سرية ، وهي تخشى من كشف عناصرها ، فربما اضطرت الى العودة تحت الارض ·

يقدم احد اعضاء القيادة المركزية للمنظمة تحليله للواقع الايراني ·

« نحن نعتبر ان اسقاط الشاه هو المرحلة الاولى في مسيرة نضالنا من اجل تحقيق اهداف الثورة · فالثورة لا يمكن ان تحقق نصرها النهائي الا عبر تصفية الامبريالية وانهاء هيمنتها · فالامبريالية تملك جذورا قوية في بلادنا ، وعلينا ان نتحرك في سبيل اقتلاع جذورها بشكل كامل ونهائي · والمظهر الرئيسي لوجود الامبريالية في بلادنا هو وجود مؤسسة الجيش · هذه المؤسسة القمعية المتخصصة في سحق الجماهير · فلا بد اذن من تدمير هذا الجيش الذي بناه الامبرياليون والصهاينة من اجل قمع الجماهير والسيطرة على المنطقة · اما الجيش البديل الذي يستطيع المحافظة على المكتسبات الثورية فلا بد من بنائه من خلال القوى الشعبية التي ساهمت في الثورة ·

لكننا نشاهد اليوم عددا كبيرا من ضباط الجيش ، يتقدمون ليقدموا البيعة للحكومة المؤقتة · والعديد منهم ساهموا في اطلاق النار على الجماهير بهدف ضرب الثورة كما حصل مؤخرا في تبريز ·

« لقد بدأت الانتفاضة الشعبية المسلحة في منطقة فرح اباد · حيث قامت عناصر التقنيين في القوات الجوية بالانتفاضة ضد قياداتهم · وقد ترافق حصار الحرس الامبراطوري لقاعدة فرح اباد مع الاحتفالات الجماهيرية التي كانت تقيمها منظمتنا بمناسبة الذكرى التاسعة لانطلاقة الكفاح المسلح · عندما حوصرت قاعدة فرح اباد انطلق رفاقنا الذين كانوا متجمعين لنجدتهم ، وقد لعب رفاقنا دورا بارزا في كسر طوق الحصار المفروض على القوات الجوية · كما

استشهد العديد من كوادرنا ومن بينهم الرفيق قاسم سيادي عضو القيادة المركزية للتنظيم ·

« اما موقفنا من الامام الخميني ، فنحن نعتبره قائدا مناضلا ، استطاع ان يوحد القوى الجماهيرية ضد الدكتاتورية والامبريالية والصهيونية في بلادنا · غير اننا تنظيم ماركسي لينيني له هويته النضالية وبرامجه المستقلة · لذلك فنحن نركز على ضرورة وحدة القوى الشعبية انطلاقا من ضرورة تصفية النظام الامبريالي في بلادنا ·

« الاسلام مسألة معقدة · لكننا نؤكد اولا بان ثورتنا ذات طبيعة ديمقراطية معادية للامبريالية · وفي ظروف الدكتاتورية القمعية التي كانت تمارس بابشع صورها في عهد حكم الشاه ، فان القوى الديمقراطية والثورية لم تتمكن من تنظيم الجماهير الكادحة · بينما نرى ان القوى الفاعلة في الثورة الديمقراطية المتمثلة بالبرجوازية الصغيرة والبرجوازية المتوسطة ، الوطنية ، استطاعت ان تحتفظ طوال فترة القمع بمواقعها في المساجد والتكايا والحسينيات · الاساسي بالنسبة لنا هو قدرة قيادة الثورة بان تتحول الى رمز للجماهير ، وان تقودها في صدام طويل مع القوى الرجعية ·

« نحن ندعو الى عدم الصدام المسلح وتحت اي ظرف مع اية حكومة يؤيدها الامام الخميني · لكننا نعتقد ان الحكومة الحالية بعناصرها ، لا تلائم ميزان القوى الجماهيري الذي افرزه انتصار الثورة » ·

التحليل الذي تقدمه منظمة **مجاهدي الشعب الايراني** ، الاسلامية اليسارية ، يتقاطع في معظم جوانبه مع تحليل فدائيي الشعب· لكن منظمة المجاهدين تتميز بقدرتها على مزج الماركسية بالاسلام · فشعارها الاساسي « فضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما » ينتشر على حيطان المدن الايرانية ، فوق ملصقات الشهداء · يحللون بهدوء ، ويعلنون منذ البداية التزامهم بقيادة الامام الخميني للثورة · وهم يعتقدون ان الثورة الايرانية تمر فيمرحلتين ، المرحلة الاولى هي ضرب النظام الشاهنشاهي والمرحلة الثانية هي ضرب النفوذ الامبريالي في ايران · يحللون سبب تحالف الخميني مع الجبهة الوطنية ، ويعيدونه الى تخوف قيادة الثورة من محاولات تقسيم ايران ، بالاعتماد على الاقليات القومية الكثيرة المنتشرة فيها · ينتقدون الجيش ويدعون الى حله ، لكنهم حريصون على منع الصدام بين لجان الخميني ومنظمة فدائيي الشعب · لان هذا الصدام لن تستفيد منه سوى القوى الرجعية ·

الاستقطاب السياسي يبدو اكثر وضوحا حين نحاور آية الله **محمد كاظم شريعتمداري** في مدينة قم المقدسة · فشريعتمداري الذي كان في الداخل طوال فترة النضال ضد الشاه ، والمعروف بمواقفه المعتدلة والليبرالية ، يقدم في تحليله

للثورة الايرانية الصورة المعاكسة للاستقطاب الذي يقدمه التحليل اليساري . وشريعتمداري ولد في تبريز ودرس في تبريز وقم والنجف . وقد لعب دورا كبيرا في اعادة توحيد تبريز مع ايران بعد الحرب العالمية الثانية . نحاوره في منزله المتواضع ، حيث يجلس حوله رهط من علماء الدين ، يدخل بعض الرجال مع اوراق ، فيوقعها .

● ما هو الفرق بين الديمقراطية الاسلامية والديمقراطية الغربية ؟ وما هو رأيكم في مسألة تعدد الاحزاب ؟ وهل تعتقدون بامكانيـــة السماح للاحــزاب الماركسية بالعمــل ؟

□ الديمقراطية الاسلامية تعني ان مبدأ القدرة يجب ان يكون بيد الشعب ، بمعنى ان يحكم الشعب نفسه بنفسه ، وان لا يفرض عليـــه حكم الاستبداد والاستعمار . ولهذا يجب ان تكون هناك انتخابات حرة وبرلمان ومجلس شورى. فالشعب هو الذي ينتخب ممثليه الى مجلس النواب ، الذي يعطي ثقته للحكومة الشعبية . وبما ان الاكثرية الساحقة من الشعب الايراني مسلمة ، فلا بد وان ينعكس هذا الواقع فيالبرلمان والحكومة . ولهذا تكون ديمقراطيتنا اسلامية ، اي تكون في ظل التعاليـم الاسلامية .

اما حقوق المرأة السياسية ، فنحن نعتقد ان المرأة تتمتع بجميع الحـقوق . ولكن في الاسلام ، فان قضية امتزاج الشابات بالشباب هو امر غير مسموح . وهذا سينعكس على حق المرأة في دخول البرلمان .

على ضوء هذه القناعة ، فنحن نعتقد بضرورة وجود الاحزاب السياسيـــة المتعددة ، حتى لا نسقط في الاستبداد الحزبي ، فنحن لا نؤمن بالحزب الواحد.

اما الاحزاب اليسارية فاننا نسمح لها بالعمل ضمن شرطين : الاول هو ان لا تمت بصلة الى دول اجنبية . والثاني ، هو ان لا يكون العنف هو وسيلتها في العمل السياسي . اما من ناحية العقيدة ، فنحن نؤمن بحرية العقيدة ، واذا كان لليساريين عقيدتهم فهم احرار ، كما ان الرد على العقائد ونقدها سيكون حرا .

● ما هو في تقديركم دور المراجع الدينية في العمل السياسي ؟ وهل تميزون بين الحكومة والمرشد ؟ وما هي العلاقة بين السلطتين الحكومية والدينية ؟

□ خلال الحكم البائد ، كانت ايران تعيش في ظل الدكتاتورية ، ولم يكن لاحد القدرة على معارضة الحكومة . وكان علماء الدين خاضعين لضغط خاص من قبل السلطة . ولكن مع تغير الاوضاع الدولية (والمقصود هو رفع شعار حقوق الانسان ، وتحرر بعض الدول) اضطرت الحكومة ان تأخذ طابعا ديمقراطيـــا شكليا . ولكن على المستوى العملي ، كانت حكومة استبداد وقهر . هنا جاء دور المراجع الشيعية ، وانا من بينها ، فقد قمنا بالاعتراض ، وبدأنا بالمعارضة

عن طريق المحاضرات والبيانات واشرطة التسجيل التي انتشرت في البلاد ٠ وقدمنا الحلول للحكومة ، التي رفضتها ، وتصورت انها تستطيع اسكات الجماهير بالعنف والنار ٠ غير ان معارضتنا استمرت الى ان سقطت الحكومة٠ ولعبنا نحن في هذه المراحل دور المرشد ٠ والآن جاء دور البناء وتشكيل الحكومة المؤقتة ٠ وفي هذه المرحلة فاننا نلعب الدور الارشادي نفسه ، وبما ان الحكومة تسير في طريق الحق فاننا نؤيدها ، واذا غفلت عن العمل الصحيح فسننبهها، اما اذا فعلت خلاف ذلك ، فسنقوم بما قمنا به سابقا٠ والشعب سوف يؤيدنا كما برهنت التجارب ٠

● كيف تقيمون عمل مجلس قيادة الثورة الاسلامية ، وعمل الحكومة الثورية المؤقتة ؟

□ الحكومة الجديدة جاءت الى السلطة في ظروف غير عادية ، ولم تستطع ان تسيطر على الوضع بشكل كامل ٠ فهذه الحكومة تحتاج الى تأييد ، ونحن نؤيدها ٠

اما مجلس قيادة الثورة الاسلامية فنحن لم نتدخل فيه ٠ لنا اتصال يومي بالحكومة ، اما مجلس قيادة الثورة فنحن لا نعرف عنه شيئا ٠

● هل هناك اتفاق بين المراجع الشيعية حول مستقبل ايران السياسي ؟ وهل يمكنكم تحديد وجهة نظركم بشأن هذا المستقبل ؟

□ لقد جرت الاحداث والامور بسرعة شديدة بعد اسقاط الحكومة البائدة ٠ ولم يمهلنا الوقت لعقد اجتماع بين المراجع نتشاور فيه حول مستقبل ايران السياسي ٠ اذ يجب ان يكون لنا في المستقبل مجلس شورى ، حيث تتبادل المراجع وجهات النظر ، وترسم سياسة المستقبل ٠

نحن نعتقد ان النظام العادل هو الذي يجب ان يتحقق ٠ وحكومة الشعب على الشعب ، اي الحكومة الديمقراطية هي التي يجب ان تحكم بشكل عادل ، خاصة بالنسبة للاقليات الدينية غير الاسلامية ، التي تستطيع التمتع بالنظام العادل ٠ فابناء هذه الاقليات هم مواطنون ايرانيون ، ونعاملهم بحرية ، ونوفر لهم الامن ٠

اما بالنسبة للشعوب الاسلامية . فان تعاوننا معها يجب ان يكون وثيقا ، وخاصة الشعب الفلسطيني الشريف ٠ اما الشعوب غير الاسلامية ، فهناك الآية الشريفة التي تقول : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في دينكم ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروا اليهم وتحسنوا ٠ » وهذا ينطبق على جميع الدول ما عدا اسرائيل وجنوب افريقيا ٠

مع آية الله شريعتمداري تتضح اشكالية الاستقطاب السياسي في ايـران · لكن هذا الاستقطاب يبدو صحيا وضروريا · انه هواء الديمقراطية الذي يتنفسه الشعب الايراني بعد عهد طويل من القهر والاستبداد ·

هناك مسألتان هامتان : الاولى هي مسألة الافق السياسي والاجتماعي لايران ما بعد الثورة ، والثانية هي مسألة الجيش ، واخطار الانقلاب العسكري ·

حول المسألة الاولى أجاب الدكتور ابرهيم يزدي نائب رئيس الحكومة لشؤون الثورة ، وهو الذي كان برفقة عرفات طيلة اقامتـه في ايران ، وقد التقينـاه صدفة في السادسة صباحا · ذاهبا الى مكتبه في مبنى رئاسة الوزراء · وفي الحوار القصير الذي اجريناه معه ، كان يزدي يحاول ان يشير الى الافـق الثوري الايراني ، بالقليل من الكلام ، وبالكثير من انتظار نضج الظروف التي ستحدد هذا الافق ·

● هناك سلطتان في ايران ، سلطة رجال الدين وسلطة الحكومة ما هـي العلاقة بين السلطتين ؟

□ القادة الدينيون يتبعون خطى الامام الخميني ، والخميني هو مرشـد الشعب ، لذلك فسيلعب القادة الدينيون هذا الدور ، وهذا يعني انه لا وجـود لسلطتين مختلفتين ·

غير ان الاساسي الذي اشارت اليه ثورتنا هو تأكيدها على الدور الثـوري للاسلام · فلقد برهنا على ثورية الاسلام وقدرته على تعبئة الجماهير بشكـل فعال · وهذا سيكون نموذجا جيدا تستطيع شعوب اخرى الاحتذاء به · كما ان الافكار حول الاسلام بدأت تتغير وتأخذ وجهة جديدة ·

● كيف تقيمون دور ايران في المنطقة ؟

□ نحن لا نصدر الثورات ، ندعو جميع الشعوب المسحوقة للنهوض ، لكننا لا نستطيع ان نقوم بالثورة عنها · نحن لا نستطيع ان نقوم بالدور الذي على المصريين القيام به · ولكن حين يبدأون فاننا سنكون على استعداد لمساعدتهـم كما اننا لا نريد ان نكون شرطي المنطقة ·

● ما هو موقفكم من الدول الكبرى ؟

□ سوف نقيم علاقات صداقات مع جميع الدول ، طالما لا تتدخل في شؤوننـا الداخلية · اما اذا اختارت اميركا ان تكون عدوة لشعبنا فمـاذا نستطيع ان نفعل · ان علاقاتنا مع جميع دول العالم تقوم على اساس احترام المصالـح الايرانية ·

● ما هي العلاقة بين الجيش النظامي وحرس الثورة الاسلامية ؟

□ اولا ان الجيش الايراني سينخفض عدده كثيرا، فنحن لسنا بحاجة الى جيش بهذا الحجم · ودور الجيش النظامي سيقتصر على حماية حدودنا · امـا دور حرس الثورة الاسلامية فسوف يكون حماية الثورة · وحماية امن المدن والقرى، كما سيلعب دور حماية الثورة على المستوى السياسي ·

● وماذا بشأن الاحزاب ؟

□ حركة الامام الخميني هي حركة الامة بأسرها · بعض المنتسبين الـى الحركة اسسوا حزبا · لكن الحركة هي حركة الامة ·

وحول مسألة انشاء ميليشيا شعبية ، ودور الجيش ، تحدثنا مع **ابو احمد منتظري** · (وابو احمد هو الاسم الذي نعرفه به في الثورة الفلسطينية) ، يلعب اليوم دورا بالغ الاهمية في قيادة وتأسيس حرس الثورة الاسلامية ·

● ما هي مهمات حرس الثورة الاسلامية ؟

□ الهدف المباشر هو ضبط الامور من الناحية الامنية فـي البلاد · امـا هدفنا البعيد المدى فهو انشاء حرس اسلامي قوي يستطيع ان يحافظ عـلى الثورة الاسلامية ، ويسمح لنا بأن نؤدي دورنا في المنطقة والعالـم الثالث · وانا اقول انه يمكن لهذا الحرس ان يشارك في القتال من اجل فلسطين · امـا علاقتنا بالجيش النظامي فتتم عبـر مجلس قيادة الثورة الاسلامية وعبـر الحكومة ·

● ما هي علاقة الحرس بالحركة الاسلامية ؟

□ الحركة الاسلامية هي التي انشأت الحرس في سبيل تحقيق اهدافها الثورية، والذين سينضمون الى الحرس الاسلامي يجب ان يكونـوا في خط الثـورة الاسلامية ، وهنا لانميز في الدين ، اذ يمكن للمسيحيين الدخـول فـي حرس الثورة ، وحرس الثورة لا ينتمي الى اي حزب من الاحزاب ، اذ هو سيعمـل بالتعاون وباشراف الحكومة المنتخبة · ونحن نتوقع ان يصل عددنا الى حوالي خمسة ملايين ، وبهذا يستطيع حرس الثورة ان يلعب دورا مؤثرا ، ويمنـع اي انقلاب عسكري ·

● من يعين قيادة حرس الثورة ؟·

□ قيادة الحرس معينة من قبل مجلس قيادة الثورة والحكومة ·

● ولكن ما هو موقفكم من قضية تسليم اسلحة التنظيمـات السياسيـة الاخرى ؟

□ هل يسمح في اي بلد بوجود جيوش مختلفة · فهناك جيش واحد · وهنا ايضا سيكون جيش واحد وحرس اسلامي واحد ·

ايران هي داخل جدل الخيارات المتعددة · والوصول الى لحظة الاختيار لا تعني انتفاء الخيارات الاخرى · فالثورة الايرانية لا تستطيع ان تكون ، الا بهذا التعدد الذي يسمح للمنتجين بالتعبير عن انفسهم وعن تطلعاتهم · فهل تقدم ايران تجربتها الخاصة في الحرية ؟ وهل تكون الثورة في المنطقة هي افق هذه الحرية ؟

ـ ٦

قم هي عاصمة الثورة · نبتعد عن طهران المليئة بصخب وانتفاخ مدن رأسمالية الاطراف الهجنية ، وندخل في قم ، حيث تمتزج رائحة الريف برائحة السيراميك · وحيث تمتد محلات بيع الساهون في الشوارع · المدينة المقدسة هي مدينة الثورة · من هناك انطلقت الشرارة ، عندما دخل السافاك المدرسة الفيضية واقتحمها · وهناك انتصرت الثورة ، فعاد الخميني الى المدينة التي اخرج منها طريدا ، بعد ان تم اقتلاع حكم الشاه ·

مدينة صغيرة ، عدد سكانها حوالي ٧٥٠ الف نسمة ، تنتشر في سمائها القباب الذهبية والقباب الزرقاء · الفقر يشبه التقشف الطوعي · كل شيء في هذه المدينة فقير كمدارسها · الملاءات السوداء تملأ الشوارع ، سيارات قليلة . صراخ اطفال يلعبون في الساحات · فتيات صغيرات جميلات يمشين جماعات بملاءاتهن السوداء ، هنا نمشي ، لان الشوارع تضيق · وفي طهران كنا نمشي لان السيارات لا تستطيع التحرك من شدة ازدحام السير · هنا المحلات المنتشرة متراصفة . وهناك في طهران يبرز البازار بأزقته المتداخلة . وباختلاط بضائعه شاهدا على احد اهم الاضرابات التي حدثت في التاريخ واكثرها طولا ·

هذه هي مدينة قم المقدسة التي تستقبلك بيافطة كبيرة كتب فيها : « تحت رعاية الامام المنتظر المهدي ، مقدم مبارك لنائب الامام الخميني » · وعلى الحيطان كتابات وشعارات · « تحية للذين انتخبوا الموت » · في الشارع يقف رجل على الرصيف وهو يغسل التفاح داخل كيس من النايلون · لا يوجد اي دار للسينما في المدينة · يوجد حوالي ٢٠ الف رجل يدرسون العلوم الدينية ، يعيشون في مدارس داخلية ، يتقاضى الواحد منهم مرتبا شهريا يقدر بحوالي ٤٠٠ تومان (٩ تومان = دولارا اميركيا) · ياكلون بتقشف ، واكثريتهم تأتي من فقراء الريف ·

ندخل مدرسة خان للعلوم الدينية · تتألف المدرسة من ثلاثة دور ، حجارتها من الاجر الاحمر الذي بدأ لونه يميل الى الخفوت · المدرسة على شكل مربع حول باحتها الداخلية · وداخل هذه الباحة قام رجال السافاك برمي الكتب الدينية وضرب الطلبة · يدرس فيها حوالي ٢٠٠ طالب ، يتوزعون في غرف صغيرة · طول الغرفة حوالي خمسة امتار وعرضها ثلاثة امتار ، لا اثاث في داخلها ، فقط سجادة قديمة ، وهنا يعيش حوالي عشرة طلاب ·

يحدثنا احد تلامذة مدرسة خان · يروي انه يدرس ويدرس فيها منذ اكثر من خمس سنوات · وان الدراسة تشتمل على الادب العربي والادب الفارسي والفقه والمنطق والفلسفة والاصول وتفسير القرآن · مدرسة خان كانت خلال الثورة مركز النشرات السرية · فقد لعبت المدرسة دورا هاما في الثورة ، حيث كان ينطلق منها رجال الدين من اجل قيادة التظاهرات ، وتوزيع الكتب والاشرطة والمنشورات السرية على الجماهير · وقد قامت السلطات باقتحام المدرسة في منتصف الليل قبل حوالي ثلاثة اشهر ، وكسرت الزجاج واطلقت النار على الطلاب ، حيث اصيب بعضهم بجروح ·

نصعد طبقات المدرسة الثلاث ونصل الى السطح · فتبرز القباب · الى يسارنا مآذن لونها ازرق فاتح ، وفي الوسط قبتان ، احداهما كبيرة زرقاء والثانية ذهبية ، هنا مقام اخت الامام الرضا ، المعصومة · الى الجنوب تبدو المدينة ككومة من الحجارة المرمية في السهل الفسيح · وفي وسط كومة الحجارة هذه ، تبرز قبة كبيرة زرقاء وقبة بعيدة خضراء · اشجار الصنوبر حولنا ، والى اليسار حديقة تتوسطها بركة ماء · والبركة عبارة عن برك متداخلة · الآذان يختلط بنشيد الله اكبر الذي يبثه راديو الثورة · الى الشرق جبل عار ، ووراءه جبل مغطى بالثلج ·

نسأل عن المدرسة الفيضية حيث كان الامام الخميني يعطي دروسه قبل نفيه· انها هناك · قرب القبة الذهبية حيث المقام · ننزل ونمشي في الاسواق من اجل الذهاب لزيارة الضريح · ولكننا عوض الذهاب الى الضريح مباشرة نذهب الى منزل احد الاصدقاء الايرانيين · وهناك يروون لنا كيف انتصرت الثورة في مدينة قم ·

رأينا اولا القنابل اليدوية التي صنعها الثوار · ماسورة ماء محشوة بالكبريت ، يخرج منها فتيل متفجر · كنا نلقي هذه القنابل على طليعة قوات السلطة التي تحاول قمع التظاهرات · بعد تفريقهم تخرج تظاهراتنا الصاخبة· كثيرون قتلوا او فقدوا ايديهم وهم يصنعون هذه القنابل ، ولكن لم يكن امامنا من وسيلة اخرى · كانت التظاهرات تتجمع في صحن الجامع وتنطلق · ثم

بعد انتفاضة طهران ، تساقط كل شيء دفعة واحدة · قام العقيــد خلخالــي قائد الشرطة بتسليم اسلحة قواته ، ووضعت الاسلحة في منزل آية الله يزدي، حيث تم توزيعها على الثوار · اما الجيش فقد استسلم دون قتال ، واقامـت لجنة المدينة رقابة شعبية على مخازن سلاحه ·

آية الله محمد يزدي ، رئيس لجنة الخميني في قم ، يقسم الثورة الــى ثلاث مراحل : **المرحلة الاولى** ، هي خروج الاسلام تدريجيا من كونــه يهتـم بمسائـل العبادة فقط ، كما كان يشيع الاستعمار ، الى الانخراط في النضال السياســي الشعبي · **المرحلة الثانية** ، هي مرحلة منفى قائد الثورة الامام الخميني ، حيـث راح الامام يذيع محاضراته وبياناته بمختلف الوسائل ، مما ساهم فــي انتشار الوعي وفــي قيــام اشكــال نضاليــة تتمثــل فــي التظاهــرات والاضرابــات والاعتصامات · **المرحلة الثالثة** ، هي التحدي ومواجهة القوة العسكرية وتقديـم الاف الشهداء · وقد اشار الامام الخميني الى هذه المرحلة حين قــال : « يــوم انتصر الدم على السيف» · نخرج الى شوارع المدينة الضيقة، حيث قبب الاسواق الطينية مفتوحة على الفضاء ، وحيث يختلط راكبو الدراجات الهوائية بعربــات الفواكه والخضار · نرى سيارة شحن صغيــرة محملــة باجهــزة التلفزيــون ، والناس حولها · يخبرني مرافقي انه بعد الثورة بــدأت الناس تقتنــي اجهــزة التلفزيون بكثرة · في الماضي ، كان هناك اجهزة في المدينة ، لكنها قليلة العــدد نسبيا ، اما الآن وبعد ان اصبحت البرامج اسلامية ، فان الناس تريد اقتنــاء الاجهزة · ثم يروي كيف انه خلال فترة الثورة ، كان عمال الكهرباء يضربــون ساعة واحدة في اليوم · بين الثامنة والتاسعــة مساء ، وذلــك لان التلفزيــون يبث الاخبار الحكومية في الثامنة والنصف ·

ندخل حرم المسجد الذي يقودنا الى مقام حضرة المعصومة · على جانبــي الباب الخارجي محلات لبيع السبحات والخواتم الذهبية ، ندخل صحن الجامع الكبير ، ثم نقف امام مدخل الضريح · النقوش المذهبة ثم القبة المذهبة ، ومدخل ابيض تلتمع المرايا الصغيرة على جدرانه · في الوسط صورة صغيرة للامــام الخميني · وعلى الارض ، تجلس النسوة المحجبــات شبه الباكيــات · ووسط القوس ، تتدلى ثريا من الزجاج الاحمر ·

باب الضريح مذهب ، والنساء يتمسحن به ويبكين · رجل اعمى يقف ويرتل مظلومية الائمة ، وحوله ترتفع شهقات البكاء والادعية ·

نقرأ على باب الضريح هذه الكلمات : « روى خاتم المحدثين العلامة المجلسي قدس سره في البحار عن بعض الكتب المعتبرة عن علي بن ابرهيم القمي عن ابيه عن سعد بن علي عن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال يا سعد عندكم لنا

قبر قلت جعلت فداك قبر فاطمة بنت موسى عليه السلام قال نعم من زارها عارفا بحقها فله الجنة » ·

نتقدم من الضريح ، حيث الرجال والنساء كالدائرة التي لا تتوقف · فتحات صغيرة في الضريح ترمى منها الرسائل · وفي الداخل نعش مغطى بالقماش الاسود ، رائحة ازهار قديمة وكتابة « يا فاطمة الزهراء » ·

نخرج من الضريح الى قاعة وردية من الصخر الذي حفرت عليه آيات قرآنية · في وسط القاعة قبر شاه عباس الصفوي ، وهو من الرخام الذي يرتفع حوالي ٥ سم عن الارض ، والناس تدوس فوقه دون اي اكتراث ·

في الجامع ، حيث يجلس بعض الرجال ويصلي بعضهم الآخر ، نوافذ صغيرة على شكل دائرة في السقف ، وقد كتبت عليها اسماء الائمة بحسب التسلسل التالي · الله جل جلاله ، محمد رسول الله ، علي ولي الله ، فاطمة الزهراء ، الحسن بن علي ، الحسين بن علي ، علي السجاد ، محمد الباقر ، جعفر الصادق ، موسى الكاظم ، علي رضا ، محمد الجواد ، علي الهادي ، الحسن العسكري ، الحجة المهدي · هنا ، في القاعة الفسيحة في الجامع ، كان الامام الخميني يعطي دروسه الدينية · وهنا سوف يعود لاعطاء دروسه ، كما قال لنا علماء قم ·

نخرج من المسجد الى شوارع المدينة · ليل واصوات المؤذنين ، ونجوم تنتشر في فضاء لا يتناهى · رائحة الرمان ورائحة الساهون · ورجال الميليشيا ينتشرون في الطرقات · يبتسمون حين يشاهدون بطاقتنا الفلسطينية · يقولون كلمة السر ، ونسير الى طهران · كلمة السر تتغير ، حواجز المسلحين تتكثف · شيء ما يذكر ببيروت · لكننا لا نزال في بداية الثورة يقول صديقي الايراني · ونحن كذلك اجيبه · ـ انتم تتواضعون ـ وانتم كذلك · لكنها البداية ، جميلة ومليئة بالاسرار ·

ـ ٧ ـ

تبدو التجربة الايرانية غامضة في سريتها ، وكأن الافق الذي تبشر به مليء بالاحتمالات · الثورة التي قاد تظاهراتها رجال لبسوا اكفانهم ، تبدو في لحظة الاختيار الصعبة والحقيقية ·

فهي تواجه العديد من الاخطار · خطر التفكك وتقسيم البلاد ، الذي يبدو اليوم خطرا مستبعدا ، لكن واقع التركيب السكاني لايران ١٠ ملايين من التركمان ، ٦ ملايين كردي ، ٣ ملايين عربي ، ٣ملايين بلوش · في بلد تعداد سكانه هو حوالي ٣٥ مليون نسمة · وبسبب هذا الواقع ، فقد رفضت قيادة الثورة تفكيك الجيش · لان انهيار الجيش بشكل كامل ، في ظروف بدايات الثورة

يحمل معه اخطار التدخل الخارجي · خاصة وان الاقليات عانت الكثير من الاضطهاد القومي خلال فترة الحكم الشاهنشاهي ·

وهي تواجه اخطار النمو · اخطار بناء جيش شعبي حقيقي ، يستطيع ان يحمي الثورة من المغامرين الصغار عملاء الامبريالية · واخطار الخيارات الديمقراطية · حيث يبدو المجتمع المدني لاهثا خلف حرياته التي بدأت مع الثورة · وحيث العملية الاجتماعية المعقدة التي تسبق ولادة التوازن الشعبي الحقيقي الذي يبني الدولة ·

وهي تواجه اخطار العدو الاميركي ، الذي لم يلق سلاحه بعد · والذي يحاول استعادة قواه المنهارة ، من اجل الانقضاض على الطابع الثوري الذي بدأت تبشر به ايران الجديدة ·

تماثيل الشاه ملقاة على الطريق . بعضها مقطوع الرؤوس ، وبعضها مكسور الاعضاء · لقد انتهى عصر المتوحش الامبريالي فما هي سمات العصر الجديد ؟

لا اعلم لماذا تذكرت مصر · كنا نمشي في ساحة شاهياد سابقا ، والتي سميت ساحة الحرية · طهران الفسيحة امامي ، بازمة مواصلاتها الخانقة ، وبنسائها السافرات والمحجبات · وفجأة بدت القارة جميلة في اغلالها · هل نحن نعيش شكلا جديدا من اشكال النهضة الشعبية · كيف يستطيع الخميني ان يوحد في شخصه ورمزه مصدق وعبد الناصر داخل هذا البعد التاريخي الثقافي الجديد ؟ ·

وماذا لو ايران ومصر وتركيا · العالم القديم بكل مخزونه التاريخي والحضاري · ماذا لو انهارت الانظمة وتهاوت العروش ؟ ماذا لو تحول النفط الى نفط فقط ؟·

هـادي العـلوي

نسـخ الشـريعة في الـتراث الشـيعي

النسخ في اللغة هو ازالة الشيء واحلال اخر محله ، ومنه اخذ النسخ بمعنى الاستنساخ · وظهرت الكلمة كاصطلاح في ادبيات الاسلام الاولى ، حيث استخدمها القرآن بهذا المعنى التركيبي المنطوي على تزامن الازالة والاحلال · ويطلق على موضوع الازالة اسم المنسوخ ، وموضوع الاحلال اسم الناسخ · والناسخ والمنسوخ من الظواهر القرآنية المجمع عليها الا من اشتات لا ينخرق بهم الاجماع · وفي القرآن نصوص تصرح بوقوع النسخ في الآيات جاء احدها ردا على تشنيع ضد النسخ صدر من بعض خصوم النبي :

« واذا بدلنا اية مكان اية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر · بل اكثرهم لا يعلمون » (١٠١ ـ النحل) · وتتضمن هذه الآية شرحا لمعنى النسخ في القرآن واللغة وهو وضع آية مكان آية ، اي نسخ آية باخرى · بينما اشارت الآية (١٠٥ ـ البقرة) الى النسخ بلفظه : « ما ننسخ من آية او ننسها نات بخير منها او مثلها »· والانساء متعد من النسيان ، وهو زيادة في العبارة اقتضاها تنظيم السياق ·

وقد كتبت عدة مؤلفات لاستقصاء الناسخ والمنسوخ ، منها كتاب « هبة الله ابن سلامة » من السنة وكتاب « العتائقي الحلي » من الشيعة ، وهما مطبوعان وكتاب « العابدي » من السنة (مخطوط) وتحمل هذه الكتب عنوانا واحدا هو « الناسخ والمنسوخ » · ويقسم المفسرون الناسخ والمنسوخ الى ثلاث حالات :

١ ـ ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته ، وهو الاكثر ورودا ·

٢ ـ ما نسخت تلاوته وبقي حكمه ·

٣ ـ ما نسخ حكمه وتلاوته ٠

وثم خلاف حول الثاني والثالث يتسع حتى يتناول المحذوف من القرآن على سبيل النسخ او المراجعة ، وهما من اجراءات عهد الرسالة ، او الانتقاص الذي يراه بعض الشيعة كما سيأتي ٠ على ان مسألة النسخ قد تجاوزت التفسير الى علم الكلام الذي خرج بها من حدود النسخ القرآني الى مسألة نسخ الشرائع ٠ وكان ذلك حين اضطر المتكلمون المسلمون الى مجابهة اعتراضات اليهود والمسيحيين ضد نبوة محمد وشريعته ٠ وكان أحد أهم هذه الاعتراضات منصبا على خلود الشرائع السماوية وعدم جواز نسخها ، وبالتالي عدم شرعية نسخ المسيح لشريعة موسى ، اي عدم صحة نبوته فيما يتعلق باليهود ، وعدم شرعية نسخ محمد لشريعتي موسى وعيسى ، أي عدم صحة نبوته فيما يتعلق بليهود والمسيحيين على السواء ٠ وقد فرض ذلك على المتكلمين المسلمين البرهنة على نسخ الشرائع كمبدأ ضروري يترتب على تعاقب الرسل واختلاف شرائعهم ٠ واشهر من تعرض لهذه المسألة ابن حزم الظاهري الذي ناقش متكلمي الديانتين في جواز النسخ ، وقدم البراهين عليه في كتابه المعروف « الفصل في الملل والنحل » ٠ ويهدف القول بالنسخ الى الدفاع عن نبوة محمد والاقرار بشريعته كبديل عن شريعتي عيسى وموسى ٠ ومن الجدير بالذكر ان الاسلام اعترف بسماوية الشريعتين ، وتجاوز في الوقت نفسه احكامهما في العبارات والمعاملات ٠ ويتضمن هذا الاعتراف والتجاوز في حد ذاته مسلكا عقلانيا يقوم على الجمع بين احترام الشرائع الماضية وتعديلها في آن واحد ٠ وقد واصل الاسلام هذا النهج الدقيق بعد ان اصطدم باتباع الانبياء السابقين فلم يحمله رد الفعل على التسفيه الذي غالبا ما تخضع له الاطراف المتصارعة ، ولم يتراجع في نفس الوقت عن مقتضيات مرحلته التاريخية لحساب التكريم الذي اختص به اسلافه ٠ ويمثل هذا الموقف ايضا في النسخ القرآني ، فقد مر بنا ان الحالة الاكثر ورودا من حالات النسخ هي ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته ، لكن الآيات المنسوخة التي بقيت في القرآن لم تفقد قدسيتها بزوال حكمها وهي تتلى كما يتلى غيرها على سبيل الذكر او استكمال الفرائض ، كالقراءة في الصلاة ، بوصفها جزءا من الوحي المتضمن في القرآن ٠

على ان مسلك القرآن في النسخ ودفاع المتكلمين عنه يقف على حافة مفارقة جديرة بان تخلق ازمة في الذهن الاسلامي ، وذلك حين يضع في الحسبان اثارته المحتملة للسؤال عما اذا كان المبدأ الذي صح على شريعتي موسى وعيسى لا يصح على شريعة محمد ؟ ان البراهين التي ساقها المتكلمون على جواز النسخ لا تخص شريعة بعينها وانما انصبت على جوازه كمبدأ ٠ ولم

يكن في وسع المتكلمين توجيه براهينهم غير هذه الوجهة اذا اريد لآرائهم ان تحظى بفهم مشترك كمسائل عقلانية تتعين في اطار مبدئي شامل · لكن المبدأ يفقد عقلانيته في التخصيص ، ويمكن بالتالي ان يوفر للطرف الآخر مسوغا لمصادرات مماثلة ، لماذا يجوز نسخ آية دون اخرى ؟ ولماذا يجوز نسخ شريعة دون اخرى ؟ ان التخصيص يلغي الاساس البرهاني لهذا المبدأ ويجعله غير مفهوم ، فهو اذا صح كان ملزما لجميع الاطراف ، والا كان ضربا من التعسف المنطقي · وما دام الجدال حاصلا في دائرة البرهان دون الايمان فان الخصم يملك القدرة على الالزام بنتائجه ما لم يحسم الجدال برجوع كل طرف الى مسلماته على طريقة الحشوية واهل الحديث ·

نجد لدى الرجوع الى تاريخ الاسلام ، ان هذه التساؤلات قد طرحت فعلا ولكن بطريقة اخرى · وبقدر ما يتعلق بالمدافعين عن النسخ من المتكلمين السنة فان المسألة بدت خاضعة لروح الاستذهان السني الذي اتسم بأسلوب الجزم الرادع ، المستمد من الممارسة الطويلة الامد للسلطة الروحية والزمنية · ومحور اهل السنة هنا هو الحديث المنسوب الى النبي محمد : « حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة » · وتبعا لذلك لم ير الفكر السني حاجة للسؤال عما اذا كان اليهود والمسيحيون هم المخاطبين وحدهم بنسخ الشرائع · وتشترك في هذا المنحى طوائف السنة المختلفة من ايمانييهم، أهل الحديث ، الى عقلانييهم ــ الاشاعرة ·

ونأتي الى الشيعة ·

ان هذه الفرقة كغيرها من الفرق الاسلامية ذات فروع عديدة ، وان كانت تنقسم الى ثلاث طوائف كبرى هي الامامية ــ الاثني عشرية ، الزيدية والاسماعيلية · وهناك تفرعات صغيرة يمثلها افراد ، كأصحاب ابي الخطاب والشلمغاني ، او مجموعات داخل الفرقة الواحدة كما هو الحال في الاسماعيلية · وللشيعة بوجه عام خصوصيتها ، التي تتأكد في افكار وممارسات يتشكل منها خط منفصل ، بدرجات متفاوتة ، عن الخط السلفي الذي سار فيه اهل السنة · ويرجع ذلك الى جملة عوامل يمكن ان نرى في مقدمتها ان الشيعة وجدت خارج السلطة ونضجت في المعارضة قبل ان يتهيأ لبعض خطوطها الوصول الى السلطة في امكنة وازمنة معينة · وقد منحها ذلك قدرا من مرونة التفكير يتناسب مع تحللها من ضوابط الوضع الرسمي · ومن المعلوم من الناحية الاخرى ان الشيعة تحركت في اكثر من بيئة وتشكلت بنيتها التنظيمية من عناصر تنتمي الى اصول اجتماعية وحضارية مختلفة ، مما عرضها بدوره لتأثيرات خارجيه ساعدت على استضافتها معتقدات وممارسات لا تتطابق بالضرورة مع الاصول الدينية للاسلام · وقد عني البحث المعاصر باستقصاء هذه التأثيرات

كمحور للظاهرة الشيعية على امتداد تاريخها • ويبدو لي مع ذلك اننا لن نستطيع تقدير هذا الدور جيدا ما لم ندرس خلفية النشأة وملابسات الموقع الذي تحددت فيه الحركة الشيعية من خلال المرحلة الاولى لصراعاتها •

فلنرجع الى البداية • لقد ظهرت الشيعة كما قلنا خارج السلطة الاسلامية كمقابل ، وربما كنقيض ، لها وخاضت الصراع ضد عناصر اسلامية صرفة تتمثل في خلافة ابي بكر وعمر المدعومة باغلبية الصحابة ، ثم ضد الخلافة الاموية بدءا من عثمان • وقد واجهت في اثناء ذلك وضعين متعارضين يتشكل الاول من مؤسسي الاسلام ، والثاني من خصومه • وكان عليها ان تحدد موقفا ايديولوجيا ازاء ذلك يبرر لها المعارضة • ومن هنا كان الاستناد الى القربي في الصراع ضد الفريق الاول ، حيث امكن القول ان اهل بيت النبي اولى بخلافته من اصحابه • وهي حجة صيغت ببراعة ، لكنها لم تنقذ القائلين بها من الاشكال الناجم عن مجابهة زعامات كانت موضع ثقة النبي ، وكانت لها اشواط في تأسيس الاسلام ، دينا ودولة تعادل او تفوق ما قام به اهل البيت ، باستثناء علي بن ابي طالب • ومن الجدير بالملاحظة في هذا الصدد ان المعارضة الشيعية الاولى انحصرت بين اقلية من الصحابة لا تتجاوز بضعة افراد ، وهو ما تشير اليه رواية عن جعفر الصادق تقول : كان الناس اهل ردة بعد النبي الاثلاثة ، المقدار بن الاسود وابو ذر الغفاري وسلمان الفارسي (١) • وقد تفاقم الاشكال في خلافة علي حين اضطر الى خوض الحرب ضد ثلاثي الجمل المؤلف من زوجة النبي الاثيرة وصحابيين من العشرة المبشرة • وكان لهذه الحرب تاثيرات سلبية بين اتباع الامام علي لانها موجهة ، فضلا عن قدسية القيادة ، ضد جيش مسلم • ولذلك يشار الى علي بن ابي طالب بانه « اول من علم قتال اهل القبلة » ، اي اول من وضع المبادىء التي تحكم القتال بين المسلمين بوصفه اول من خاض هذه التجربة بشكل فرض عليه تبريرها دينيا • وفي حرب صفين ، تراجعت الاشكالات موقتا حيث استطاعت القيادة الشيعية استغلال تاريخ الامويين المناوىء للاسلام لاظهارهم كمشركين سابقين يطلبون ثارهم في بني هاشم • على ان ذلك لم يجنبهم ردود الفعل الدينية التي اثارتها مكيدة رفع المصاحف حين انشقت الفئات المتدينة في جيش علي (القراء) وفرضت عليه وقف القتال احتراما لكتاب الله وتجنبا لسفك المزيد من دماء المسلمين • وربما كانت هذه اول مجابهة بين الموقف الشيعي والموقف السلفي • ويحتمل انها لم تخل من افرازات ايديولوجية اذ يتردد في بعض مصادر الشيعة كلام ينسب لعلي وضع فيه نفسه مقابل القران : هذا كتاب الله الصامت وانا كتابه الناطق • وذلك ردا على مطالبة القراء بوقف القتال والاحتكام الى القران • وقوله لابن عباس حين انتدبه لمفاوضة الخوارج ونهاه عن مجادلتهم بالقران لانه (حمال اوجه) • وفي هذه العبارات ، سواء صدرت من علي او كانت اختلاقا

شيعيا لاحقا ، شيء من التساهل تجاه كتاب المسلمين المقدس ٠

مع استمرار الصراع ضد الامويين كانت المذابح تتوالى ضد الشيعة وائمتهم فتثير سؤالا مصحوبا بشيء من الدهشة عن موقف المسلمين ٠ ورغما عن ان هذا السؤال قد يتخطى الامويين الاوائل المشكوك في ايمانهم فانه يبقى محوما حول الايدي المنفذة ، حول الجهاز الضخم من المؤمنين العاملين في معية بني امية او المتعاونين معهم ٠ وقد جاء السؤال مبكرا في صيغة شكوى جأر بها حجر من عدى (٢) ٠٠ اللهم انا نستعديك على امتنا فان اهل العراق شهدوا علينا واهل الشام قتلونا ٠ وحين يقول عبد الله بن عمر لنفر من مسلمي العراق استفتوه في جواز قتل البعوض : تسفكون دم الحسين وتسألون عن دم البعوض ٠ فأنه يعبر عن شعور مر بالمفارقة كان يعتمل احيانا خارج الوسط الشيعي ٠ وبظهور العباسيين دخل السؤال نقطة التازم ، فالخلفاء الجدد من بني هاشم اى فصيلة من اهل البيت ليست بالضرورة اقل تمثيلا للدين من ائمة الشيعة ، وقد اعلنت الخلافة ممثلة في اوائل خلفائها حربا ضارية على الزندقة تساوقت مع حربها ضد الشيعة ضمن تأكيدها للحقيقة الدينية التي ينطوي عليها مجيء العباسيين الى الحكم ٠ ويجسد هذا الاحساس بالتأزم الفقيه المعارض سفيان الثوري حين يقول وقد بلغه مقتل ابراهيم بن عبد الله بن الحسن (٣) : لن تقبل الصلاة بعد اليوم ، معبرا عن الاحتجاج ضد هذا المد الدموي الذي بدأته الخلافة العباسية ضد كل الناس وعن اليأس من هذه الامة التي انقسمت بين قاتل ومقتول ومتفرج ٠ ويتحول السؤال الى ادانة على لسان ثائر زيدى يدعى بشير الرحال كان يأتي الى المسجد فيخاطب المنبر (٤) :

« عليك ايها المنبر وعلى من حولك لعنة الله ٠ فوالله لولاك لما عصي الله في ارضه » ٠

ويبدو هذا الخطاب محيرا للمؤرخ الذي يعسر عليه ان يتصور كيف تكون بيوت الله في عز الاسلام هي السبب في عصيان الله ؟ لكننا بازاء موقفين : مسجدي ، واجتماعي يؤكد الثائر الزيدي ، بداية انفصامهما البالغ حد التلاعن قبل ان يتفاقم ليصل الى ضرب الحجر الاسود بدبوس على يد باطني من مصر وهو يخاطبه بهذه الصيغة المهينة : « الى كم تعبد في الارض وآل محمد لا يظهرون ؟ » ٠

« تعطينا هذه المقتربات التي شكلت خلفية النشأة الشيعية وتأزمها من خلال الصراع اساسا لفهم تلك الاتجاهات التي توطدت خارج الخط السلفي على يد الفرعين الكبيرين للشيعة : الامامي والاسماعيلي ، من دون الزيدية ، التي انزوت بعد حين في موقع معتدل شبه سلفي ٠ وننظر الان في ثلاثة مواقف للشيعة في هذا المجال هي :

التأويل ·

القول بالتحريف ·

النسخ ·

التأويل

يقول الشريف الجرجاني في « التعريفات » ما يلي عن التأويل :

« صرف اللفظ عن معناه الظاهر الى معنى يحتمله اذا كان المحتمل الذي يراه موافقا للكتاب والسنة · مثل قوله تعالى : يخرج الحي من الميت ، ان اراد به اخراج الطير من البيضة كان تفسيرا وان اراد به اخراج المؤمن من الكافر او العالم من الجاهل كان تأويلا » ·

والتأويل بهذا التعريف اخراج الاية عن مدلولها المباشر ـ الحسي احيانا ـ الذي يتوصل اليه بالتفسير الى معنى مستمد من القرينة على افتراض مجازية العبارة الواردة في النص · واشتراط موافقة المعنى المؤول للكتاب والسنة هو قيد عام على التأويل يشترك فيه اهل السنة مع سائر الفرق من حيث المبدأ ، ويختلفون معها في مدى وطريقة استخدامه · فالاوساط السنية تتحفظ كثيرا في تطبيق المجاز على الايات وتميل الى الاخذ بمدلولاتها الحسية والمباشرة وان كانت تتفاوت في ذلك بحسب شعبها المختلفة ، فالفريق المتزمت من الحنابلة يرفض حتى تأويل ايات الصفات مما اوقعه في التجسيم بينما يظهر الاشاعرة قدرا من الحرية في التعامل مع هذه النصوص بحكم تأثرهم بالمنطق · وتأويل منصوص عليه في القرآن بالصيغة التالية :

« هو الذي انزل عليك الكتاب فيه ايات محكمات هن ام الكتاب · واخر متشابهات · فاما الذين في قلوبهم مرض فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون امنا به كل من عند ربنا » (ال عمران الآية ٧) ، وقد اثار الجزء الاخير من الاية جدالا بشأن اعراب (الراسخون في العلم) تحدد بموجبه مسلكان من التأويل ، فمن جعل « الراسخون » فاعلا معطوفا على « الله » اجازة ومن اعتبرها جملة استئنافية منعه · ونص الاية اقرب الى المنع لا سيما وقد قرنت التأويل بالفتنة ، كما ان سياق العبارة الاخيرة يرجح كونها جملة استئنافية بدليل ما بعدها وهو فعل ، « يقولون » الذي يجب ان يكون تبعا للنسق البلاغي للقرآن في محل خبر · وعلى اية حال فان فريقا من اهل السنة اقروا بالتأويل واستخدموه ضمن الشرط الذي نص عليه « الجرجاني » كما بينا وهو عندهم من وسائل الاجتهاد والفتوى · أما الفرق الاخرى فهي متفقة على اباحة التأويل ، مع التفاوت في مراعاة الشرط السني · فالفكر المعتزلي لا ينفصل عن التأويل ، لكن استخدامه لهذه الوسيلة

لم يتجاوز الشرط السني كثيرا ، وان حصل لديهم بحكم منطلقاتهم العقلية الصارمة تفريغ او تحوير لبعض النصوص من دلالاتها المباشرة ، لا سيما تلك المتعلقة بالقضاء والقدر والصفات · وظهر التأويل عند المتصرفة ، متحفظا اول الامر ، ثم انتهى مع تقدم الذوق الصوفي نحو المنزلقات الاشراقية الى جعل الايات رموزا قابلة لاي معنى يستشفه حدس المتصرف · ولجأ الفلاسفة كذلك الى التأويل في دفاعهم عن اطروحاتهم ضد الاتهامات السلفية ، وقد دارت حوله الكثير من دفاعات ابن رشد في كتابيه : مناهج الادلة ، وفصل المقال ·

اما الشيعة فيقبلونه عموما ، وقد اخذ عندهم منحيين :

الاول يقتصر على النصوص التي تتضمن احكاما شرعية · وهو مسلك الامامية والفاطميين من الاسماعيلية · وقد جمع هؤلاء بين الظاهر والباطن فأخذوا بالمدلولات المباشرة لايات الاحكام وأولوا ما عداها · وتأويلهم باطني صرف لا يلتزم باية دلالة ظاهرة في النص ·

الثاني يمتد الى نصوص الاحكام · وتتمثل فيه ذروة التأويل الباطني الذي ينتهي الى الغاء الظاهر في جملته أي الى تعطيل الشريعة ، وهو مسلك القرامطة والنزارية واسماعيلية الشام بعد الفاطميين ·

ويعتمد التأويل الباطني على الملكة النقدية والحس البلاغي لدى المؤول بقدر ما ينظر الى النصوص كاستعارات وكنايات يقصد بها المعنى المجازي لا الحقيقي · اما هدف التأويل فهو خدمة اغراض العقيدة والدعوة · وفيما يلي امثله منه :

المنحى الاول

في بحار الانوار للمجلسي عن ابي بصير عن جعفر الصادق في تفسير الاية : أاله مع الله بل اكثرهم لا يعلمون · قال الصادق : أي امام هدى ؟ مع امام ضلالة في قرن واحد ؟ ·

وفي تفسير آية : « وبئر معطلة وقصر مشيد » ينقل المجلسي ان البئر المعطلة هي الامام الصامت والقصر المشيد هو الامام الناطق · وهو معنى مشترك بين الامامية والاسماعيلية (٥) ·

المنحى الثاني

تأويل الصوم عند الاسماعيلية بانه كتمان سر الامام دون الامتناع عن الاكل والشرب · « اما ما يعمل من العنب والزبيب والحنطة وغيرها فليس حراما لانه مما تنبت الارض »·

وتأويل الجنابة بأنها موالاة الاضداد ، « اما المني فليس بنجس لانه مبدأ خلق

الناس والانبياء » · وتأويل الصلاة بانها محمد ·· وليس الركوع والسجود (٦)·

القول بالتحريف

ومن المتفق عليه بين المسلمين ان القران وصل الينا كما كان في حياة النبي محمد وانه جمع في زمن عثمان بنصوصه الكاملة التي تمت مراجعتها مع جبرائيل في السنة الاخيرة من حياة النبي · ويهدف الجمع الى ضم اشتات القران في كتاب موحد لان بقاءها متفرقة يعرضها للضياع والتحريف · ولم يختلف الصحابة على نسخة عثمان الا بشأن المعوذتين ـ سورتي الفلق والخناس ـ اللتين قال عبد الله بن مسعود انهما ليستا من القران واعترض على ضمهما الى النسخة الموحدة · كذلك لم تتعرض النصوص لاي تحريف اثناء الجمع بسبب رقابة الصحابة ، فيما خلا محاولة قال السيوطي في «الدر المنثور» انها استهدفت حذف الواو من آية الكنز في سورة التوبة ، وفشلت بعد ان هدد ابي بن كعب ، احد اعضاء لجنة الجمع ، بقية الاعضاء بقطع رؤوسهم اذا تجرأوا على حذفها ·

وتتفق الاكثرية الساحقة من الفرق الاسلامية ، على توثيق القران وانكار النقص او الزيادة فيه ويشمل ذلك اهل السنة ، بما فيهم الاشاعرة ، والمعتزلة والزيدية والخوارج ، مع استثناء يخص الفرقة الاخيرة وهو قول الميمونية ، احدى طوائفهم ، ان سورتي يوسف وحاميم عسق ليستا من القرآن كما نقله عنهم صاحب « البدء والتاريخ » · اما الشيعة ، فالاسماعيلية عنيت بالتأويل الباطني الذي يقوم على افتراض وثائقية القرآن ، اي انها اخذته كما هو واستخدمته لاغراضها على طريقتها · وفيما يتعلق بالامامية يتفق فقهاؤها على الاخذ بالقرآن المتداول كوثيقة تامة ، ولا يختلف الفقه الامامي من هذه الناحية عن الفقه السني الا في التفسير المأثور عن الائمة الاثني عشر ، وهو يتناول امورا جزئية في التشريع تدخل في باب الاجتهاد ، اي الخلاف على الفروع · لكن ذلك لا يعني ان الامامية توافق على نسخة عثمان ، فمصادرهم تدين خطة الجمع وتتهم القائمين بها بسوء القصد وهو احداث التغيير في القرآن بما يلائم مصالحهم واغراضهم · ويستدل من الروايات الواردة بهذا الشأن ان التغيير كان على شكلين : حذف ، وتحوير · ومن امثلة الحذف : ما نقله المجلسي عن جعفر الصادق انه تلا الاية : قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد فهل انتم مسلمون · واكمل : الوصية لعلي بعدي ـ ثم عقب : نزلت مشددة (٧)· وبهذا تصبح « مسلمون » وهي ختام الاية متصلة بعبارة محذوفة تكون مفعولا لها ·

ومن امثلة التحوير ما نقله المجلسي ايضا عن ابن سنان قال قرأت على ابي

عبد الله ـ الصادق ـ كنتم خير امة ٠٠ فقال : خير امة يقتلون امير المؤمنين والحسن والحسين ، فقلت جعلت فداك كيف نزلت ؟ فقال نزلت : انتم خير امة اخرجت للناس ٠٠ الا ترى مدح الله لهم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (٨) ؟

وللامامية ادلة على وقوع التحريف في القرآن واتهام عثمان به ٠ ويذكر الفخر الرازي في تفسيره للاية : بل الانسان على نفسه بصيرة ولو القى معاذيره لا تحرك به لسانك لتعجل به ٠٠ ان قوما من الروافض ادعوا ان هذا القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص ، واحتجوا عليه بانه لا مناسبة بين هذه الاية وما قبلها ولوكان هذا الترتيب من الله لما كان الامر كذلك (٩) ويعتمد هذا الاستدلال على النقد الادبي للقرآن حيث يلاحظ انقطاع في العلاقة المنطقية بين الايتين يترجح معه وجود عبارة محذوفة ٠ ثمة استدلال هام وقفت عليه في مخطوطة شيعية بمكتبة الفاتيكان تطرق فيه كاتبه الى حرق عثمان للمصاحف بعد ان تم جمع القرآن في مصحف واحد وقال : ان ذلك لان في هذه المصاحف اشياء يكرهها ٠ وتأكيدا لذلك تساءل الكاتب الشيعي اذا كانت المصاحف مطابقة لمصحفه فما الداعي الى حرقها ؟ ثم اجاب : انه فعل ذلك تعطيلا لما فيها من القرآن باجماع اهل النقل للانام من الخاص والعام ان هذا الذي في ايدي الناس من القرآن ليس هو القرآن كله وانه ذهب من القران ما ليس هو في ايدي الناس (١٠) والاجماع الذي يشير اليه هو اجماع الامامية لان بقية المسلمين كما ذكرنا مجمعون على خلاف ذلك ٠ وقد خصص شيعي متاخر كتابا لهذا الغرض سماه (فصل الخطاب في اثبات تحريف كتاب رب الارباب) استقصى فيه اجماع الامامية على التحريف باستثناء اربعة من فقهائهم حمل افكارهم لهذا القول على محمل التقية ومراعاة بعض المصالح ٠

النسخ

راينا آنفا ان التاويل الباطني يفرغ النصوص من مدلولاتها بوقوفه عند قرائنها اللغوية التي جعلت اداة للتفسير ٠ ويفتح التأويل بذلك بابا واسعا للاجتهاد من وراء ظهر النصوص ٠ اما القول بالتحريف فهو خطوة لاحقة تتضمن الطعن في وثائقية القرآن لتنتهي الى التحلل من الزاماته ٠

هنا اذن سبيلان يؤديان الى مقصد واحد هو ابطال الشريعة ٠ وهو ما فعله الجناح الاسماعيلي الذي اول ايات الاحكام ، وما صرح به الامامية في حديثهم عن الامام القائم الذي سيأتي بقرآن جديد يقوم على مصحف فاطمة ٠ وقبل التطرق الى تفصيل هذه الامور ارى ان الفت النظر الى اتجاهات مماثلة ظهرت لدى فئات وشخصيات من غير الشيعة ٠ ومن هؤلاء اليزيدية اصحاب يزيد بن

انيسة الاباضي ـ من شعب الخوارج ـ كانوا يقولون : سيبعث نبي من العجم بكتاب يكتب في السماء ـ وينزل عليه جملة واحدة ويترك شريعة محمد الى ملة الصابئة (١١) ·وهذا من الاعتقادات الغريبة عند الخوارج الذين عرفوا بتشددهم في الدين وقلة المارقين في صفوفهم · وهناك ميول لدى بعض المتصوفة لترك الظاهر اعتمادا على معرفة الباطن ، اى التحلل من الفرائض اتكالا على استبطانهم لاسرارها واغراضها · وهو نفس الاتجاه الذي اعرب عنه بعض فلاسفة الاسلام كالفارابي وابن رشد ، في تأكيدهم على دور الشريعة كمصدر للفضائل العملية لا يصلح للخاصة من اهل النظر · وقد جاهر بعض المتصوفة في تخطي الشرائع دون ان يعلنوا تخليهم عن الايمان ، كابن سبعين الذين نسب اليه تعليقا على مبدأ خاتم الانبياء (١٢) : لقد حجر ابن آمنة واسعا · وينقل عبد الكريم الجيلي عن ابو الغيث بن جميل : خضنا بحرا وقف الانبياء بساحله· وعن الشيخ عبد القادر الكيلاني : يا معاشر الانبياء اوتيتم اللقب واوتينا ما لم تؤتوه (١٣) · والكيلاني من سلالة اهل البيت وهو محسوب على التصوف السني وله مزار فخم في العراق مقدس عند اهل السنة · وعبد الكريم الجيلي بدوره لا يسجل هذه الشطحات الا لانها تجري على سننه ·

ولنعد الى الشيعة ·

جاء في اصول الكافي عن جعفر الصادق (١٤) :

« ان عندنا لمصحف فاطمة · وما يدريهم ما مصحف فاطمة ؟ مصحف فيه مثل قرانكم هذا ثلاث مرات · والله ما فيه من قرانكم حرف واحد » ·

واصول الكافي هو صحيح الامامية المعادل لصحيحي البخاري ومسلم عند السنة · وقد الف في حياة الامام الثاني عشر المعروفة بالغيبة الصغرى ويقال انه اطلع عليه ووثقه · وهو احتمال مقبول لاحد اعتبارين : مكانة مؤلفه كأحد مراجع الامامية في وقته مما يحمل على توقع اتصاله بالامام المختفي · ومع استبعاد ذلك يجب ان لا نستبعد الاطلاع على الكتاب بواسطة احد الوكلاء ، وهم الوسطاء بينه وبين اتباعه ، اذ من الصعب افتراض عدم معرفته بكتاب من هذا المستوى في حياته · وبناء على ذلك يمكننا اعتماد رواية الكليني لهذا النص موقفا رسميا للامامية اما ان يكون صادرا بالفعل عن جعفر الصادق او معبرا، على الاقل ، عن رأي الامام الثاني عشر · وقد ترددت هذه الرواية في المصادر التالية للكليني بصيغ مختلفة مرفوع معظمها الى جعفر الصادق · ويتمتع نص الكليني باهمية مخصوصة في دلالته على موقف شيعي متفرد نخلص منه الى تصور كتاب مغاير لنسخة عثمان كلها : **ما فيه من قرانكم حرف واحد** · وتأخذ هذه الدلالة منحى توكيديا حاسما عبر الصياغة البلاغية للنص حيث نجد : لام التوكيد في خبران ، الاستفهام لغرض التعظيم ، تكرار كلمة مصحف ثلاث

مرات ، ربط القران بضمير المخاطب الدال على الغير دون الانا ، مع القسم الدال على التشديد • كما يفهم من مضمون النص ان هذا المصحف شامل لكل الامور التي تناولها مصحف عثمان بدليل حجمه الذي يزيد عليه ثلاث مرات ، ولكن هل وجد هذا الكتاب حقا ؟ من المؤكد انه لم يوجد والا لاحتفظ به الامامية، وتبعا لمعلوماتي الشخصية كشيعي استطيع الجزم ان الامامية لا يملكون كتبا سرية •• فماذا اذن يعني الحديث المكرر عن مصحف فاطمة ؟ •

السؤال يعيدنا الى وضع الشيعة كفرقة مقابلة للفرق الممثلة للاسلام السني ، هذا التقابل الذي بدأ كما رأينا من النشأة عبر التصادم مع الصحابة ، وامهات المؤمنين ، والقراء ، مرورا بمقتل علي بن ابي طالب بسيف مؤمن متعصب وتلطخ اهل القبلة بدماء اهل البيت ، وانتهاء بظهور دعوى التحريف واخضاع القران للتأويل الباطني • وعند هذه المرحلة يأتي الحديث عن كتاب بديل لما في ايدي القتلة لا سيما ان « قرآنهم هذا » لا يوفر الا ضمن عموميات (حمالة اوجه) اسلحة قاطعة للدفاع عن الطرف المنبوذ من الاكثرية •• واذ نجزم بان الكتاب البديل لم يوجد فعلا فلا بد للذهن من ان ينصرف الى وجهة التحلل من الزامات الكتاب القائم ، او التحرك دون استشارته بقدر ما يترتب ذلك — كتسلسل تاريخي — على موضوعتي التأويل والتحريف ، الخلاصتين الايديولوجيتين لتاريخ الشيعة الدامي •

ولكن متى ؟

يتفق الامامية والاسماعيلية على ان ذلك رهن بظهور الامام المنتظر • هذا ما تدل عليه رواية للقرامطة عن جعفر الصادق (١٥) :

لو قام قائمنا علمتم القرآن جديدا •

ويختلفان على هوية الامام المنتظر ، وبالتالي على موعده • فقد سارت الامامية ، لظروف وملابسات تخصها ، على خط التعايش مع اهل السنة مما وضعها فعليا في دائرة الاسلام السني ، فتعاملت مع القرآن بنفس المنهجية السنية ، تاركة لمستقبلها السياسي ان يقرر الشريعة التي ستسير عليها دولتها المنتظرة ، المعلقة بظهور محمد بن الحسن في وقت غير معلوم • اما الاسماعيلية فقد دفعت بها استراتيجيتها الناجحة الى الامتداد خارج تخوم الاسلام السني حيث أصبحت اكبر الفرق الاسلامية بعد اهل السنة ما بين القرنين الثالث والسادس الهجري •ومع ظهورهم قوة من هذا المستوى قام قائمهم ، بصفة قائد للدعوة التي عمت سواد الكوفة وبادية الشام حتى سلمية مركز الدعوة الواقع على امتداد البادية ، ثم بصفة خليفة في الدولة الفاطمية وحاكم في دولة القرامطة • ويعني دخول الدعوة هذه المرحلة حلول الوقت المناسب لاعلان نسخ الشريعة • وهو ما حصل فعلا • وعلى الصعيد اللاهوتي قال الاسماعيلية ان

الشريعة نسخت على يد محمد بن اسماعيل بن جعفر ، الامام المكتوم ، اي قبل ظهورهم بنحو القرن · وتاريخ محمد بن اسماعيل يتعذر ضبطه لتناقض الروايات بشأنه · ومن المعروف مع ذلك ان قادة الاسماعيلية الذين انتهوا الى السلطة في شمال افريقيا هم من احفاده ، وهو عندهم الناطق السابع الذي تتبدل الشريعة بظهوره · ويرجع هذا التحديد الى اعتبارات نوميرولوجية بحتة· لان محمد المكتوم لم يكن في حال تسمح له باعلان نفسه ناطقا ـ اي ناسخا للشريعة ·

على صعيد الفعل ، لم يطبق الفاطميون مبدأ النسخ ، ويرجع هذا في بعض اسبابه ، الى قيام دولتهم في محيط سني واسع لم تستطيع الدعوة التأثير في عقائده ، وان استطاعت فرض سلطتها السياسية عليه (لنتذكر الزوال السريع للتشيع من مصر بعد زوال الفاطميين) · اضف الى ذلك ان اتساع الدولة الى امبراطورية افرغها من نزوع الحركة الاجتماعية الهادفة التي لا تتلاءم بطبيعتها مع الامبراطوريات ، حيث تطامنت الدعوة الى عقيدة خالصة ، منفصلة تماما عن السياسة الفعلية للدولة · وخلافا للفاطميين ، كان استيلاء القرامطة على رقعة صغيرة لا تملك كثافة سكانية ، عاملا مساعدا على المضي في الاسفار عن مبادئها وانشاء دولة لا علاقة لها بشريعة محمد · وتمثل دولة القرامطة في هذه الصيغة الثمرة النهائية لتطور الشيعة ، المحدد سلفا في رواياتهم عن جعفر الصادق ـ الامام المشترك للاثني عشرية والاسماعيلية ·· ومن الملحوظ هنا ان القرامطة حملوا الصفة المزدوجة للشيعي المتزندق ، فهم ـ باستثناء العناصر التي تأثرت باراء الرازي المناوئة للانبياء ـ مؤمنون بمحمد محبون لال بيته ، هذا الحب الذي حير بعض الكتاب فاحالوه الى التقارب في الاهداف الاجتماعية اذ خفي عليهم خط التسلسل التاريخي للقرامطة ، وهم في نفس الوقت اصحاب شرعة جديدة تختلف عن شريعة القرآن تمام الاختلاف تبنتها وطبقتها دولتهم بحرفيتها ، على النحو المعروف في تاريخ هذه الحركة ·

على ان نسخ الشريعة لم يقتصر على القرامطة ، فقد طبقه اسماعيلية اليمن واسماعيلية آلموت واسماعيلية الشام بعد الفاطميين والنصيرية والدروز · وتتفق هذه الشعب في صفتها المزدوجة : التشيع لآل البيت والخروج على شريعة محمد (١٦) ·

ويمكن ان نجد اتجاهات من هذا القبيل لدى شخصيات شيعية مستقلة · وقد مرت الاشارة الى باطني يدعى اسحق بن محمد النخعي ذكره الخطيب · ونشير الان الى شخصية اخرى لعبت دورا في الاحداث السياسية ببغداد في اوائل القرن الرابع هو محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن ابي العزاقر ، وهو امامي مشى في مسألة نسخ الشريعة الى مداها الابعد · وكان الشلمغاني يقول ، تبعا لرواية ابن الاثير ، ان محمد بعث الى كبراء قريش وجبابرة العرب ونفوسهم ابية

فامرهم بالسجود ، وان الحكمة الان ان يمتحن الناس باباحة فروج نسائهم ٠٠ وصرف النظر عن صدق الرواية في جزئها الاخير ، فان الشلمغاني ينطلق في هذا الرأي من فهم تاريخي خاص لدور محمد والقرآن ، مؤكدا وعيه للعلاقة بين الشرائع وظروفها ومنتهيا الى القول بشرعة جديدة قد لا تكون اباحة فروج النساء منها ، وقد لا تكون – اذا صدق ان الاثير – اهم بنودها !

يرتبط نسخ الشريعة كما رأينا بالمروق من احكام الدين ، ويعني ذلك ظاهرة (الشيعي المتزندق) التي اشرت اليها انفا ٠ ولهذه الظاهرة امتدادات تسبق الظهور الاسماعيلي وتستمر معه او من خلاله ٠ ففي وقت مبكر من تاريخ الامامية ، كانت الصلة بينها وبين الزندقة مبعث ريبة الخلفاء العباسيين ٠ وتردنا عن المهدي بن المنصور اشارة صريحة الى هذه الصلة (١٧) :

ما فتشت رافضيا الا وجدته زنديقا ٠

وفي تحف العقول لابن شعبة سؤال من هرون الرشيد الى موسى الكاظم – الامام السابع للاثني عشرية – جاء فيه (١٨) :

ان الزندقة كثرت في الاسلام ، وهؤلاء الزنادقة الذين يرفعون الينا في الاخبار – يعني في تقارير امن الخلافة – هم المنسوبون اليكم ٠ فما الزنديق عندكم اهل البيت ؟

وفي جوابه قال الكاظم : ان الزنديق هو الراد على الله وعلى رسوله ٠ وهم الذين يحادون الله ورسوله ٠ وهنا سأله الرشيد : اخبرني عن اول من ألحد وتزندق ، فقال موسى : انه ابليس استكبر وافتخر على آدم فعتا عن امر ربه فتوارث الالحاد ذريته الى ان تقوم الساعة (١٩) :

ومن البين ان ابليس ليس زنديقا بل متمرد على أمر الله ، اي انه مؤمن عاص وجوهر موقفه ليس الالحاد بل التكبر ، والحاده ، الوارد في عبارة موسى الكاظم مجازي لا يحتمل معنى الجحود بالخالق كما هو المفهوم من الالحاد وانما هو مرادف للعتو والعصيان ٠ ويمكن ان يلاحظ ان تحديد هذا النموذج للزندقة يستهدف ربطها بالسلوك دون العقيدة ، وهذا ضرب من التخلص يراد به تجنب الاحراج من جهة ،وادانة العتاة ، المتمثلين في خلفاء بنيالعباس من جهة ثانية ٠ وانا مع ذلك لا افهم من عبارة موسى الكاظم ، او المصدر الشيعي الذي نسبها اليه ، انه يوافق على اطروحات الزنادقة ، لكن من الواضح انه لم يستطع ، ولعله لم يشأ ، ان ينفي الصلة بينهم وبين الشيعة ٠ ويبدو ان اتهامات الخلفاء العباسيين لم تذهب سدئ ، فمصادر الشيعة تتردد في تكفير ابن الرواندي ، الملحد المشهور المعاصر للكاظم والصادق ، ويورد عباس القمي ما يفيد ان الشريف المرتضى كان يزكيه (٢٠) ٠ وقد نشأ ابن الراوندي في وسط

شيعي ـ معتزلي وكان من شيوخه الشيعي المتزندق ابو شاكر ، صديق هشام ابن الحكم تلميذ جعفر الصادق وابو عيسى الوراق ، من زنادقة الشيعة ٠ ويعاصر هذه الزمرة من الزنادقة عصبة المستخفين بالاحكام الذين يتصدرهم ابو نواس ، واغلبهم من ذوي الميول الشيعية ، وبين مؤرخي الامامية ما يقرب من الاتفاق على تشيع ابو نواس وقد افرد له محسن الامين العاملي فصلا وافيا في موسوعته « اعيان الشيعة » وخصه بمؤلف خاص به ، وابو نواس هو القائل :

هل جاءنا احد يخبرانه في جنة مذ مات او في نار ؟

البيت الشعري الذي ارغم الرشيد على حبسه رغم اعتزازه به كشاعر ونديم ٠

وتستمر هذه الصفة المزدوجة للشيعي المتزندق في الازمنة اللاحقة ، فيظهر الحلاج ، الذي بدأ حياته السياسية داعية لال محمد ، كما يخبرنا ابن النديم في الفهرست ، وانتهى حلوليا معطلا للشرائع ٠ وينقل الخوانساري في « روضات الجنات » عن « مجالس المؤمنين » ، وكلاهما من مصادر الامامية ، ان الحلاج كان من الشيعة الامامية وانه قتل بتهمة الزندقة والخروج من الدين بسبب نصرته لاهل البيت (٢١) ٠ ويمكن ان نذكر المعري كمثال اخر ، وقد عده الاسماعيلي المعاصر مصطفى غالب في (اعلام الاسماعيلية) من رجالهم ، واعتبره الامامي محمد حسين كاشف الغطاء في (المراجعات الريحانية) شيعيا باطلاق ٠ والمعري كما هو معروف زنديق يتردد بين ربوبية الرازي والحاد الدهرية ٠ اما تشيعه فينعكس في الكثير من اثاره النثرية والشعرية المتداولة ٠

مرتكسات النسخ عند الامامية

ان ابقاء الامامية على صلتهم بالشريعة لم يحل دون ظهور اثار لعقيدة النسخ في حياتهم الدينية ٠ ولدينا ما يشير الى حالات نقض مباشر للاحكام ، وحالات استبدال لبعض الرخص بالقاعدة المشرعة ٠ من ذلك الغاء صلاة الجمعة المنصوص عليها في اية غير منسوخة ، وهو تصرف يكرس المغزى السياسي لهذه الصلاة ، التي كانت تؤدى خلف شخص يتمتع بصفة سياسية كالخليفة او الوالي او من دونه ، تبعا لمستوى الوحدة الادارية ٠ وقد جرى الالغاء في الاصل لعدم السلطة المعترف بها عند الشيعة ، لكنه تحول بمرور الزمن الى قاعدة يلتزم بها الشيعي خلافا للنص القرآني ٠

وتقليص الصلوات اليومية الخمس الى ثلاث ، مع الابقاء على عدد الركعات، بدمج صلاتي الظهر والعصر ، وصلاتي المغرب والعشاء ٠ ويستند هذا التقليص الى رخصة من النبي تعترف بها بعض مصادر الحديث السنية ٠ لكن ، ورغم ان بعض روايات صحيح مسلم تصرح انه قام بالجمع لغير ضرورة ، فمن المتفق

عليه في مصادر السيرة والحديث انه لم يتابعها وانما واصل الصلاة في اوقاتها الخمسة ٠ ويعني ذلك ان الجمع استثناء لا يجوز ان يطرد ، ما لم يلجأ المجتهد الى استنتاج حكم من تصرف النبي يفيد النية في التقليص مستقبلا ٠ وهو استنتاج اذا اخذ به فتح بابا واسعا للتساهل في احكام كثيرة ٠

هناك ايضا الاضافات التي دخلت على الاذان ، ومنها : (١) شهادة علي ولي الله بعد شهادة محمد رسول الله ، حيث جعلت الشهادتان ثلاث شهادات خلافا للاصل الاسلامي المجمع عليه ٠ (٢) اضافة « حي على خير العمل » ٠ ويستند الشيعة في الدفاع عن هذه الاضافة الى روايات في بعض المصادر الثانوية لاهل السنة تفيد انها كانت على عهد النبي وحذفها عمر بن الخطاب ٠

واستحدث الامامية امورا غريبة على الشرع الاسلامي بجعل مراقد ائمتهم مزارات تعادل الكعبة في قدسيتها ٠ كما ترد احاديث في بعض مصادرهم ان زيارة هذه المراقد تساوي عددا من الحجج الى الكعبة ٠ وعوام الشيعة في العراق يعتبرون زيارة مرقد علي الرضا في ايران بمثابة حج ويطلقون على من يزوره اسم (حاج) ٠ ولهذا الاتجاه عند الشيعة جذور تمتد الى عصر الائمة الاثني عشر الذين صدرت من بعضهم اشارات عدم ارتياح الى تردد المسلمين على الكعبة ولثم الحجر الاسود وتركهم موالاة اهل البيت ٠ ففي المجلسي ، عن تفسير فرات بن ابراهيم ، ان محمد الباقر تساءل مستنكرا وهو يستمع الى آية : اني اسكنت من ذريتي ٠٠ افترون الله فرض عليكم اتيان هذه الاحجار والتمسح بها ، ولم يفرض عليكم اتياننا وسؤالنا وحبنا اهل البيت ؟ والله ما فرض غيره ٠

وتبنى الامامية معتقدات لا تأتلف مع روح الاسلام كالقول بالرجعة ،وهي معتقد فيثاغوري مستمد من اصول بوذية ٠ وقد يكون تسرب الى الشيعة من بعض الغنوصيات الشرقية التي مارست تأثيرها على الاستذهان الشيعي من خلال بيئاتها وعناصرها التي دخلت فيالتشيع ٠ ويتمسك الامامية بهذا المعتقد الغريب حتى اليوم ، وقد صدر في السنوات الاخيرة كتاب لمؤلف شيعي عراقي يحمل هذا العنوان المثير « ايقاظ الامة من الضجعة في اثبات الرجعة » ٠

وينسب الامامية الى ائمتهم صفات الهية تقترن باحداث غريبة تروى عنهم تتصل بهذه الصفات كالقول انهم قادرون على احياء الموتى وانهم يعلمون متى يموتون وان الامام يولد مختونا ٠ وانهم يسمعون الصوت دون الشخص اي يتلقون الوحي من جبرائيل دون ان يروه ، وينسبون الى علي قوله : لقد اقرت لي جميع الملائكة والروح بمثل ما اقرت لمحمد (٢٢) ٠ وغني عن البيان ان هذا القول مناقض لمبدأ خاتم النبيين ٠

لم يكن من الغريب اذن ان تواجه الشيعة اتهامات بالمروق والكفر من اهل

السنة وفي هذا الصدد نجد اجماعا على ان الاسماعيلية خارجة عن الاسلام وترددا بشأن الامامية بين الكفير والتبديع · واذا اخذنا الصيغة السنية للاسلام فان هذه الاحكام ليست جائرة بحق الشيعة · انها مسؤولية القرار الديني في ضوء الاصول المرعية · هو الاخر اي اصوله الثابتة في نفس الكيان ، هذا عندما نضع في الحساب انه يأخذ امتداده داخل المجتمع الاسلامي ، دون ان يتوصل الى حد اختراق الحاجز بين دار الاسلام ودار الكفر ، او ان يصبح شرخا في جسم الحضارة الاسلامية · نحن هنا بازاء امور لا يعيها الفكر السني الذي حكم على السهروردي بالاعدام ، فالمجتمع الذي ترعرعت فيه هذه الفرق والاتجاهات كان يؤلف وحدة انثربولوجية عريضة تندرج تحت ما سمي في التاريخ « حضارة الاسلام »· ومقومات هذه الحضارة تتألف من نفس تلك الاتجاهات المتعارضة في رؤيتها الدينية ما بين التشبيه الحنبلي والالحاد الفلسفي ·وبالتالي فاذا استطاع الفكر السني ان يخرج عناصر كالسهروردي او الرازي او ابو طاهر القرمطي من دائرة الدين فقد تعذر عليه اخراجهم من دائرة الحضارة ، اي من هذه الوحدة الانثروبولوجية التي وقفت خلال عصورها التاريخية المحددة في مواجهة الوحدات الاخرى المعاصرة لها · والمروق الشيعي قطاع من هذه الحضارة يمكن ان يختلف معه القطاع الاخر ويحكم عليه بالموت والنار لكنه لا يملك تغريبه الى عالم اخر ، فيضعه مثلا على ملاك صليبي او مغولي او صيني · ولا مناص من القول هنا ان الحضارة الاسلامية لم تكن تجسيدا حاصرا للعقيدة بقدر ما هي ظاهرة عامة ترتبت ، سياقيا ، على الحركة التاريخية التي اثارها محمد في مكة · ونحن نعرف ان هذه الحركة كانت منذ البدء ذات افق شمولي اقترن بالنزوع الى الامتداد ، ومن ثم ، الى التشكل في كيان حضاري متكامل · ونحن نعلم ايضا انها بدأت من كتاب ، ثم استمرت في صعودها الى ان تجاوزته لتصبح في نهاية المطاف نفيه التاريخي المحتوم ·لكنه نفي يحمل بقدر ما هو امتداد للبدء ، ضروري وغير مقطوع ، جوهر النفي الديالكتيكي المستند الى اتصال الحركة الحلزونية ، اي انه نفي يتضمن المنفي بالغائه واستيعابه في سيرورة تطور هيغلي متدرج من اشكال الفكر البسيطة ـ مصادر صدر الاسلام الى اشكاله الارقى ـ فلسفة العصر العباسي الاندلسي وبكلمة اخرى : ان الحضارة الاسلامية لم تكن لتظهر لو لا هذا الكتاب ، ولم تكن لتنضج وتدرك غايتها القصوى ، المحددة تاريخيا ، لولا ان تتجاوزه ، اي لو لم تدمجه في كيانها اللاحق ، لتجعل منه جزءا منتيا في الكل · وقد واصلت الحضارة صعودها ما دامت ضمن هذا المنحنى الجدلي ، حتى اذا دنت من مرحلةالسقوط استعادت دورتها في عملية ارتداد شاملة وحادة عاد بها الكل منفيا في الجزء ، الذي استعيد آنذاك في حالة من غربة الانقطاع عن الجذور ،

عن الظرف التاريخي ، كان بها مشلولا ، غير قادر على التأثير · وعندئذ توقفت وربما صح لنا ان نفهم من هنا لماذا تواقت السقوط مع هيمنة الخط السلفي على كل قطاعات الحياة في ديـــار الاسلام ، واذا زالت المعتزلة نهائيـــا ، وآلت الاسماعيلية الى طوائف صغيرة معزولة والامامية الى اقلية ، ولماذا انتقل ابن رشد من العالم الاسلامي الى العالم اللاتيني ·· انه القدر الذي تنتمي اليه كل مرحلة خلافة في التاريخ بعد ان تستنفد دورها لحساب المرحلة الاتية ··

ومن هنا ايضا لا يصح لنا القول بالرجعة على اية صورة كانت ·

الحواشي

(١) انظر : **الدرجـــات الرفيعة فـــي طبقات الشيعة** ، ط النجف ١٩٦٢ ، ص ٢١٢ · ترد هذه الملحوظة ايضا عـــن محمد الباقر ، وفيها يسأل عن عمار بن ياسر فيقول : كان حاص حيصة ثم رجع ·

(٢) ابن سعد ، الطبقات ١٥٣/٦ ·

(٣) ابو الفـرج الاصفهانـي ، مقاتـــل الطالبيين ، فصل ابراهيم بن عبد الله ·

(٤) **المصدر السابق** · نفس الفصل · والرحال من اتباع ابراهيم ، وقد قتل معه في معركة باخمري قرب الكوفة ·

(٥) ترد هذه التأويلات وامثالها في المجلد السابع ، ط ايران حجر ١٣٠٢ هـ ·

(٦) تراجع حـــول هذه التأويـــلات (**الرسالة المذهبة**) لابن حيون ضمـــن مجموعـــة (**خمس رسائل اسماعيلية**) لعارف تامر · « **اسرار الباطنية وفضائح القرامطة** » لليماني · اما التأويل الاخير فأورده الخطيب في تاريخ بغداد منسوبا الى اسحق بن محمد النخعي ، الـــذي استدل على تأويله (ان الصلاة تنهي عن الفحشـــاء والمنكر) مبينا ان النهي لا يكون الا من وحي قادر ·

(٧) **بحار الانوار** ، ج ٧٥/٧ ·

(٨) **المصدر نفسه** ص ١٢٢ ·

(٩) **التفسير الكبير** ، ج ٢٢٢/٣ ·

(١٠) المخطوطة ناقصة من الاول فلم يتهيأ لي معرفة عنوانها ولا اسم المؤلف· وقد جاء في اخرها : فرغ من تسويـــد هذه الرسالة في تاريخ شهر ربيـــع الاول سنة ١١٨٢ على يد اقل العباد ابراهيـــم بن عبد الله هزار جريبي ·

(١) **المواقف للايجي** ، ج ٨/٣٩٤/ط ساسي ١٩٠٧ م ·

(١٢) انظـــر : **رسائـل ابن سبعين** ، مقدمة المحقق ·

(١٣) **الانسان الكامل** ، ط القاهـــرة ١٣٣٤ هـ ج ٨٠/١ ·

(١٤) ج ٢٣٩/١ ايران ١٣٨١ هـ ·

(١٥) **فـــرق الشيعـــة للنوبختي** ، ط النجف ص ٧٢ ·

(١٦) هنـــــاك تفاوت في مواقـــــف الاسماعيلية وغيرهم من غلاة الشيعـــة بشأن تقييم النبي محمد في ضوء عقيدة النسخ ، ففي رواية لابن تيمية يقول غلاة الرافضة ان علي كان فيلسوفا وانه كان اعلم بالعلميات من الرسول ، وعندهـــم ان النبي كـــان يعرف العمليـــات دون العلميات التي هي شغل الفلاسفة (نقض المنطق · ص١٢١)· ومن هذه الزاوية يرى الاسماعيلية ان النبي سلم الامر الى علي

في حياته ، وان كان ذلك لا يعني انتقال النبـــوة الى علي فالوصي عندهم ليس نبيا وانما النبي هو الناطق السابع في سلسلة النطقاء، وهو محمد بن اسماعيل· (انظر فرق الشيعة للنوبختي ،والرسالة الكافية والرسالة المذهبة ضمن مجموعة خمس رسائل اسماعيلية لعارف تامر)· وللاسماعيلية رأي اخر يفيد ، تبعا لابـن تيمية، ان النبي كان كاملا في العلم وانه كان يظهر للعامة خلاف ما يبطن للخاصة (نقض المنطق ص ١٣٤) ولهذا الرأي ما يقاربـــه في حديث يرويه جعفـــر الصادق عن النبي : امرنا معاشر الانبياء ان نكلـــم الناس على قـــدر عقولهم ·

والحديث يرد فـي بعض المصـــادر السنية ايضا ·

(١٧) **سير السلف** ، لاسماعيـل بـــن الفضل الاصبهاني ، مخطوطة في مكتبة الاوقاف ببغداد مؤرخه في ٧٧٧ هـ رقـم ٤٨٨٣ ورقة ٧ ·

(١٨) **تحف العقول** ، ط النجف ١٩٦٣ ص ٣٠٤ ·

(١٩) من نفس الزاوية يحدد محمـــد الباقر في رواية للكليني مفهومي الكفـر والشرك فيقول : **الكفر اقدم من الشـرك واخبث واعظم** · ثم يفسره بقولـه : ان من اجترا على الله وابى الطاعة واقـام على الكبائر فهو كافر ، ومن نصب دينا غير دين المؤمنين فهو مشرك (ج ٢/٣٨٤) ونفهم من ذلك ان الكفر مسالـــة سلوك اجتماعي والشرك مسالة عقيدة · وان الاول اخطر على المجتمع · وفي الكليني ايضا عن جعفر الصادق : ان الكفر هو ما ينطوي على الاستخفاف مجردا مـــن الداعي اليه ، ولذلك لم يعتبر الزانـــي وشارب الخمر كافرا لوجود الداعي وهو الشهوة · وتـدور هذه التعريفات حـول نفس المعاني التي تضمنها النص المنسوب الى موسى الكاظم ·

(٢٠) **الكنى والالقاب** ، ج ٢٧٧/١ ط صيدا ١٣٥٧ هـ ·

(٢١) **روضات الجنات** ، ط ايـــران ـ حجر ـ ١٣٦٧ هـ ، ص ٢٧٧ ·

(٢٢) **الكليني** ، ج ١٩٧/١ ·

صبري جريس

العرب في اسرائيل ١٩٧٣ـ١٩٧٩

شهدت السنوات الخمس الاخيرة (منذ حرب تشرين الاول ١٩٧٣ وحتى اليوم على وجه التحديد) ، تطورات مهمة على اصعدة عدة بالنسبة للعرب الفلسطينيين الذين يعيشون داخل ذلك الجزء المحتل من فلسطين سنة ١٩٤٨ · وجاءت هذه التطورات موازية ، الى حد ما ، للاحداث التي شهدتها المنطقة خلال هذه الفترة ، والتغييرات التي نجمت عنها ، وخصوصا منها تلك التي اثرت في سير النضال الفلسطيني ، ايجابا او سلبا ، ومن هنا اهميتها على صعيد القضية الفلسطينية بأسرها · الا انه يلاحظ ، في هذا الصدد ، وجود فارق واضح بين مسار الاحداث التي شهدتها الساحة الفلسطينية خارج فلسطين عامة ، وبين ذلك الذي سيطر في داخلها ، ففي حين اتخذ النضال الفلسطيني في الخارج مسارا لولبيا ، تراوح بين مد وجزر ، نتيجة لظروف متغيرة واعتبارات سياسية عديدة ، سار ذلك الذي شنه الفلسطينيون في الداخل على خط مستقيم متصاعد·

تبلور الوعي القومي وبروزه

ان اول ما يلفت النظر ، عند متابعة اوضاع العرب في اسرائيل ونشاطهم ومواقفهم عامة ، خلال هذه الفترة ، هو تعاظم شعور الوعي والانتماء القومي لديهم ، بشكل لا مثيل له في السابق ، واصرار قطاعات واسعة منهم ، ان لم تكن اكثريتهم ، على التعامل مع السلطة الاسرائيلية كفلسطينيين اولا · وقد وصل ذلك الشعور ، وما ترتب عليه احيانا من ظواهر او ردود فعل ، الى درجة

من الحدة والوضوح دفعت عددا من المسؤولين الاسرائيليين الى التخلي عن المقولات التقليدية ، التي كانوا يطلقونها في السابق ، زاعمين ان هؤلاء العرب ليسوا الا مجرد « مواطنين اسرائيليين » ، ولا يمكن التعامل معهم اسرائيليا الا على هذا الاساس ، والاعتراف علنا ـ ولو على مضض ـ بأن اولئك «المواطنين» ليسوا ، في نهاية الامر ، الا عربا فلسطينيين ، يعتبرون انفسهم جزءا من الشعب العربي الفلسطيني ، يهتمون بمصيره ، ويفرحون لانتصاراته ، ويتألمون لآلامه ، ويتأثرون ، عامة ، بسير نضاله ومتطلباته وامانيه (١) ٠

وهذه النهضة القومية بين العرب في اسرائيل لم تتبلور ، او تبرز فجاة ، على كل حال ، خصوصا اذا اخذنا في الاعتبار اصولها « التاريخية » من جهة ، والظروف الموضوعية التي سادت خلال السنوات الاخيرة وساعدت على ظهورها من جهة اخرى ٠ فجذوة الشعور بالانتماء القومي بين اولئك العرب ، وان ضعفت احيانا ، لم تنطفيء ابدا ، حتى خلال فترة السنوات العشر العصيبة التي اعقبت قيام اسرائيل ، وعلى الرغم من سياسة « اليد القوية » التي سادت خلالها ، على ما تبعها من فرض الاحكام العسكرية على العرب ومصادرة اراضيهم واضطهادهم ، ثم ـ وهذا هو الاكثر ايلاما وضررا ـ قطع اية صلة لهم ، وبصورة مطلقة ، مع اخوانهم الفلسطينيين المحيطين باسرائيل خاصة ، والعالم العربي عامة ٠ بل ادت هذه السياسة القمعية الى تحقيق عكس ما كانت تصبو اليه تماما ، اذ تصاعدت المعارضة العربية لها ، واشتدت يوما بعد اخر ٠ وقبل ان يمر العقد الاول على قيام اسرائيل ، كانت تلك المعارضة قد تبلورت ، في صيف سنة ١٩٥٨ ، على شكل تنظيم سياسي (« الجبهة العربية » ـ وفيما بعد ـ « الشعبية ») هدفه المعلن مقارعة سياسة السلطة تجاه العرب (٢) ٠ وعلى الرغم من ان هذه الجبهة كانت قد انشقت فيما بعد ، لاسباب لا مجال لشرحها هنا ، فان مجرد انشقاقها لم يخل من خطورة ، من وجهة النظر الاسرائيلية ، اذ ادى الى نشوء تنظيم جديد ، ذي طابع قومي عروبي (« حركة الارض ») ، لم تجد السلطة وسيلة للتعامل معه ، في نهاية المطاف ، الا اصدار امر عسكري بحله وتصفيته (٣) ٠ الا ان ذلك النشاط العربي المعارض للسياسة الاسرائيلية ، عموما ، لم يذهب سدى ٠ اذ في الوقت الذي كان وزير الدفاع الاسرائيلي يصدر امره بحل « حركة الارض » ، كان هو نفسه ، بصفته رئيسا للحكومة ، يعلن عن عزمه على الغاء جهاز الحكم العسكري المفروض على العرب (وان تم الاحتفاظ بقوانينه ، للجوء اليها عند الحاجة) ، وهو ما تم تنفيذه في اواخر سنة ١٩٦٦ ، وذلك ضمن سياسة جديدة قررت الحكومة الاسرائيلية اتباعها آنذاك تجاه العرب في اسرائيل ٠ وكان جوهر تلك السياسة هو العمل على «دمج العرب في حياة الدولة » ، وذلك من خلال تشجيع العناصر « الايجابية » (اي

المتعاونة مع السلطة) مقابل مقاومة تلك التي وصفت بـ « السلبية » واحتوائها (٤) ٠

اما خلاصة ذلك التجربة من التعامل بين العرب والسلطة الاسرائيلية ، خلال الستة عشر عاما الاولى من قيام اسرائيل (١٩٤٨ ـ ١٩٦٦) ، التي بدأت بانتهاج سياسة قمعية صارمة تجاه العرب ، وانتهت بالغاء جهاز الحكم العسكري ، رمز تلك السياسة ، فلم تكن عمليا الا بمثابة اعتراف من قبل السلطات بفشل سياستها السابقة ، ومن ثم اتجاهها الى اتباع طرق جديدة لاحتواء اولئك العرب ٠ وبالنسبة للعرب والسلطة سوية ، فقد خرجوا من تلك التجربة بـ « اتفاق » فيما بينهم ، مفاده انه من « المفهوم » للسلطة ان العرب في اسرائيل ليسوا يهود صهيونيين ، وان من حقهم الاعتراض على ممارسات الحكم التي لا تروقهم ، وابداء عدم رضاهم عنها ، والاصرار على الاحتفاظ بـ « هويتهم القومية » ، دون ان يمس ذلك بـ « الامن » و « النظام العام » ٠ اما العرب ، انفسهم ، فقد خرجوا من تلك الحقبة وهم اكثر ثقة بانفسهم وبقدراتهم على التصدي للاجراءات المناهضة لهم ، مصممين على مجابهة التمييز المطبق ضدهم في مجالات معيشية اخرى ٠

كانت حصيلة هذه التجربة من التعامل بين العرب والسلطة الاسرائيلية هي الخلفية التي حكمت علاقات الطرفين ، وسيطرت على مواقفهما المتبادلة ، تجاه بعضهم البعض ، عشية حرب ١٩٦٧ ٠ وهذه الحرب ، التي لم تكن حدثا عابرا في تاريخ المنطقة ، لم تكن كذلك بالنسبة للعرب في اسرائيل ايضا ٠ فالاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة ، بالغائه الحدود بين هاتين المنطقتين وتلك المحتلة من فلسطين سابقا ، فتح الطريق امام العرب في اسرائيل للاتصال باخوانهم الفلسطينيين في المناطق المحتلة حديثا ، واقامة مختلف العلاقات معهم، والتعرف من خلالهم (وبواسطة الجسور المفتوحة) على معظم القضايا والمشكلات التي يواجهها الشعب الفلسطيني ، في كافة مناطق وطنه ، او في المهاجر ، او تلك التي تشغل بال العالم العربي ٠ وسرعان ما راحت بصمات هذا الوضع الجديد تظهر على مواقف العرب وتصرفاتهم ، اذ انضمت اعداد منهم الى منظمات المقاومة ، اثر تبلور العمل الفدائي (والقي القبض على بضع مئات منهم) (٥) ، كما ازداد موقفهم راديكالية فيالوقت نفسه ، وخصوصا تجاه السلطة الاسرائيلية اثر تصاعد نشاطها القمعي في المناطق المحتلة انذاك ٠ غير ان تطورا آخر بارزا للغاية قد حدث في موازاة ذلك ، لعله الاهم في ما حدث نتيجة لحرب ١٩٦٧ ٠ فـ « الانفتاح » على المناطق المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ومن ورائهما العالم العربي بأسره ، مكن العرب في اسرائيل من الوقوف على حقيقة الفروق العديدة والمشاحنات الدائمة بين الانظمة العربية المختلفة ، والتباين بين المواقف العلنية والحقيقية تجاه القضية الفلسطينية ٠ كما

اتضح لهم « ان الشعب الفلسطيني هو النعجة السوداء في العالم العربي » (٦)، وخصوصا اثر المذابح التي ارتكبت بحق الفلسطينيين ، من قبل هذا النظام او ذاك · وكانت ردة الفعل ان تحول معظمهم من كونهم اكثر الفلسطينيين ، وربما العرب ، عروبة ، الى اكثرهم فلسطينية (٧) ·

وان كانت حرب ١٩٦٧ قد ارست الاسس التي ذكرناها ، فقد جاءت حرب ١٩٧٣ لتزيدها رسوخا · ويكاد يكون هنالك شبه اجماع ، بين مختلف المسؤولين والمعلقين الاسرائيليين ، على ان حرب تشرين ، التي مست « هيبة » اسرائيل ، وادت الى ضعضعة مركزها على الصعيدين الداخلي والخارجي ،كان لها تأثيرها الواضح على موقف العرب في اسرائيل وتصرفاتهم ، ومن ثم اتجاههم الى « الاستخفاف » بالسلطة ، وذلك بعد ان اسفرت تلك الحرب بالنسبة لهم ــ على حد تعبير احدهم ــ عن « تعاظم قوة الدول العربية على الصعيدين العسكري والاقتصادي » ، مما سيؤمن لها « النجاح في المستقبل » ، ثم « ظهور العالم العربي كعامل ذي نفوذ وتأثير كبيرين في الامم المتحدة والاقتصاد العالمي ، الى درجة يستطيع معها فرض ارادته على تصرفات الدول الكبرى والتكتلات العالمية » (٨) · كما اثر على موقف العرب في اسرائيل ما نجم عن تلك الحرب من « اعتراف العالم بالقضية الفلسطينية [وتأييده] لاقامة دولة فلسطينية في [الضفة الغربية وقطاع غزة] بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية » ، ثم « ادانة اسرائيل في الامم المتحدة وعزلها عن العالم والافتراض بانها تضعف تدريجيا وتغرق » (٩) · وعلى كل حال ، ومهما يكن من صحة هذا التحليل او مصداقيته ، فمن الواضح ان « صورة اسرائيل المنكمشة » (١٠) ، كما بدت بعد الحرب ، بالنسبة للسكان العرب الفلسطينيين ، قد زادت من جرأة اولئك السكان ودفعتهم الى اتخاذ مواقف لا تنم عن « احترام » كبير للسلطة الاسرائيلية او خوف منها ، بل يمكن اعتبارها ــ من قبل قطاعات واسعة من الصهيونيين ــ « استفزازا » صارخا · والامثلة على ذلك عديدة · ففي تشرين الثاني ١٩٧٤ ، قام يتسحاق رابين ، رئيس حكومة اسرائيل آنذاك ، بزيارة للمدرسة الثانوية في الناصرة ووقف خطيبا في الطلاب العرب ، الذين راحوا يقاطعون كلمته بالتصفيق الحاد ، كلما ذكر اسم منظمة التحرير الفلسطينية ، ويجيبونه بصيحات الاستنكار عندما يعلن ان اسرائيل لن تخضع بالقوة (١١) · وفي الوقت نفسه ، كان عدد من الطلاب العرب في جامعة حيفا ينظمون « مسيرة » ، يصفقون ويهتفون فيها لاحد زملائهم ، الذي سار في المقدمة وهو يرتدي كوفية « على طريقة عرفات » (١٢) · وفي اواخر اذار ١٩٧٦ ، كان العرب ، في عدد من المدن والقرى ، يضربون ويشتبكون مع الشرطة ، في « يوم الارض » ، احتجاجا على مصادرة مساحات من الاراضي العربية ، حيث سقط عدد من القتلى منهم ، في حادث هو الاول من نوعه منذ قيام اسرائيل

(انظر ادناه) • وفي شباط ١٩٧٨ كان نحو ٥٥ مثقفا عربيا يوقعون ، ردا على تجاهل السادات لمنظمة التحرير الفلسطينية والقضية الفلسطينية اثناء زيارته لاسرائيل ، على بيان ، وزع على نطاق واسع ، يطالبون فيه باقامة دولة فلسطينية (١٣) • وفي كانون الثاني ١٩٧٩ ، بعث بعض الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية ، الذين اطلقوا على انفسهم اسم « الحركة الوطنية التقدمية » برسالة تأييد الى المجلس الوطني الفلسطيني ، المنعقد آنذاك في دمشق ، مطالبين فيها – من بين ما طالبوا به – بالمثابرة على انتهاج سياسة الكفاح المسلح • ثم عقد بعض اولئك الطلبة مؤتمرا صحفيا اعلنوا فيه انه ليست لديهم اية تحفظات تجاه نشاط م•ت•ف• ، وأنهم لا يعتبرون اسرائيل وطنهم ، لانهم يشعرون بالغربة فيها • وقد اثارت تلك الظاهرة زوبعة في اسرائيل ، ودفعت بعض المسؤولين الاسرائيليين الى اطلاق التهديد تجاه العرب في اسرائيل باسرهم، مذكرين اياهم «بما حدث للفلسطينيين سنة ١٩٤٨» (١٤)، و امكانية طردهم من اسرائيل •

الاكثرية مع المعارضة

ينعكس نمو الشعور القومي وتبلوره لدى العرب في اسرائيل بشكل واضح للغاية على مواقفهم السياسية . ويدفعهم الى تأييد المعارضة ، على اختلاف اتجاهاتها ، اكثر فأكثر • ويتمثل ذلك بشكل جلي في نتائج الانتخابات العامة للكنيست (البرلمان) الاسرائيلي وللسلطات المحلية (البلديات والمجالس القروية – المحلية) من جهة ، وفي الاطر السياسية التي يؤيدها العرب او يفضلون العمل من خلالها من جهة اخرى •

وفي مجال الحديث عن المعارضة العربية للسلطة في اسرائيل ، لا بد من الاشارة اولا الى ذلك الدور الفريد في نوعه الذي لعبه الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، راكاح (وماكي حتى سنة ١٩٦٥ ، عندما انشق الحزب على نفسه) في قيادة تلك المعارضة وبلورتها ، وهو الذي تزعم حركة الدفاع عن حقوق العرب في اسرائيل ، وقاد نضالها خلال فترة طويلة • وكان ذلك قد تم نتيجة للظروف الموضوعية التاريخية التي مر فيها العرب داخل اسرائيل• فماكي/راكاح كان الحزب الاسرائيلي غير الصهيوني الوحيد الذي سمح له بالعمل رسميا في اسرائيل منذ اقامتها ، لاسباب لا مجال لشرحها هنا • وبصفته هذه ، وبحكم وجوده في المعارضة ، وكذلك بحكم احتلال عدد من الكوادر العربية مراكز قيادية فيه ، وجدت الجماهير العربية في ماكي / راكاح العنوان الرئيسي لتلقي تظلماتها وشكاواها ، بينما عمل الحزب كل ما في وسعه للدفاع عن القضايا العربية ، الى درجة يمكن معها القول ان تاريخ نشاطه عامة ، بالاضافة الى

صحافته وخطب نوابه واستجواباتهم في الكنيست ، تكاد تشكل سجلا متكاملا لنضال العرب في اسرائيل ، ولصراعهم مع السلطة حول حقوقهم ، منذ سنة ١٩٤٨ وحتى اليوم · ونتيجة لذلك كوفىء الحزب بمزيد من الاصوات العربية لصالحه ، في كل انتخابات للكنيست او للسلطات المحلية ·

ومنذ اقامة اسرائيل وحتى مطلع السبعينات ، كان ماكي/راكاح يخوض معاركه الانتخابية ضد « زلم » الحكومة اساسا ، الممثلين ـ الى حد ما ـ بالقوائم الانتخابية العربية المرتبطة بالسلطة (حزب مباي سابقا ، ثم التجمع العمالي ، المعراخ) · ويلاحظ من متابعة نتائج « حروب » الانتخابات العامة بين الطرفين ، ان الغلبة ، في بداية الامر ، كانت للقوائم العربية المرتبطة بالسلطة ، التي كانت تحصل على اكثرية الاصوات العربية ، وان كانت هذه الاكثرية تقل من انتخابات الى اخرى ، حيث انخفضت ، مثلا ، من ٦ر٥٨٪ في الانتخابات للكنيست الرابع (١٩٥٩) الى ٨ر٤٠٪ في السابع (١٩٦٩) ، مقابل زيادة تدريجية في نسبة الاصوات التي كانت من نصيب راكاح · من ٣ر١١٪ الى ٥ر٢٩٪ ، خلال الفترة نفسها (١٥) · ومع بداية السبعينات ظهر التحول واضحا في موقف العرب نحو مزيد من الراديكالية ، فانعكس على نتائج الانتخابات التي جرت خلال السنين الخمس الاخيرة ، ودفعت راكاح الى مرتبة الحزب الاول ، من حيث نفوذه في الشارع العربي · ففي الانتخابات للكنيست الثامن (١٩٧٣) حصل راكاح على ٦٤٢ر٤٢ صوتا (٩ر٣٦٪) من مجموع اصوات الناخبين العرب ، في المناطق العربية الصرفة ، الذين اشتركوا في الانتخابات ، والبالغ عددهم ٤٥٠ر١١٥ ناخبا (يشكلون ٧ر٨٦٪ من اصحاب حق الانتخاب العرب في اسرائيل بأسرها آنذاك) ، بينما حصلت القوائم العربية المرتبطة بالمعراخ (وهي اربعة ، فازت منها اثنتان في الانتخابات) على ٥٢٥ر٤١ صوتا (٠ر٣٦٪) (١٦) · اما في الانتخابات للكنيست التاسع (١٩٧٧) ، فقد ارتفع عدد الاصوات التي حصل عليها راكاح ، في المناطق المشار اليها ، الى ٢٥٣ر٦٥ (٨ر٥٠/) من بين ٨٢٤ر١٢٨ صوتا (يشكلون ٧ر٨٤٪ من اصحاب حق الانتخاب العرب) ، بينما انخفضت نسبة الاصوات التي حصلت عليها القوائم العربية (وهي ثلاث ، فازت منها واحدة فقط) الى ٦٨٣ر٢٧ صوتا (٥ر٢١٪) فقط (١٧) · كما انخفضت ، في الوقت نفسه ، نسبة الاصوات التي حصلت عليها كافة الفئات السياسية الاخرى التي تنافس راكاح في الوسط العربي · ويلاحظ ايضا ان نسب الاصوات التي حصل عليها راكاح قد ازدادت في كافة التجمعات العربية (قبائل بدوية ، قرى صغيرة او كبيرة ، او مدن) ، والشيء نفسه صحيح بالنسبة لانخفاض نسب اصوات القوائم العربية ، وان كانت هنالك فروق بين تجمع وآخر ، نتيجة للتباين في الوعي السياسي او لعوامل اخرى (١٨) ·

ولا بد من الاشارة هنا ان في مقابل تصاعد التأييد لراكاح في الوسط العربي ، هنالك انخفاض واضح في شعبيته بين اليهود • وخلافا للرأي القائل ان راكاح هو حزب الطبقة العاملة اليهودية والجماهير العربية في اسرائيل ، ليس للحزب نفوذ يذكر بين اليهود • ففي الانتخابات للكنيست السابع (١٩٦٩) مثلا ، حصل راكاح على ٧٤١ صوتا فقط في المناطق اليهودية الصرفة (القرى اليهودية والكيبوتسات والموشافيم وما شابهها) ، وذلك من بين ٣٨٫٧٢٨ صوتا كانت من نصيبه في تلك الانتخابات ، في كافة انحاء اسرائيل ، اي ان ما نسبته ١٫٩٪ فقط من مجموع الاصوات التي حصل عليها الحزب جاءت من المناطق اليهودية الصرفة (١٩) • ثم انخفضت هذه النسبة الى ١٫٥٪ (٧٧٧ من بين ٥٣٫٣٥٣ صوتا) سنة ١٩٧٣ ، والى ١٫١٪ (٨٨٨ صوتا من بين ٨٠٫١١٨ صوتا) سنة ١٩٧٧ (٢٠) • وفي المقابل ، شكلت الاصوات التي حصل عليها راكاح في المناطق العربية الصرفة ما نسبته ٧٦٫٩٪ و ٧٩٫٩٪ و ٨١٫٤٪ من مجموع الاصوات التي كانت من نصيب الحزب عامة في انتخابات سنوات ١٩٦٩ و ١٩٧٣ و ١٩٧٧ على التوالي (٢١) • اما ما تبقى من الاصوات ، فقد حصل عليه راكاح في المدن والقرى المختلطة ، ومعظمه اصوات عربية • وبلغة اخرى ، يمكن القول ان نحو ٩٠٪ من مجموع الاصوات التي يحصل عليها راكاح في الانتخابات العامة في اسرائيل ، منذ ١٠ سنوات وحتى اليوم ، هي اصوات عربية •

وكان هذا التأييد المتزايد الذي حظي به راكاح بين العرب قد اثار غضب بعض الدوائر الصهيونية المتطرفة ، فطالب بعضها بحل الحزب وحظر نشاطه • الا ان بعض « العقلاء » سرعان ما تصدى لهذه الدعوات ، معلنا عن معارضته الشديدة لها ، ومحذرا من مغبة مثل ذلك العمل ، لان « راكاح ، كحزب في اسرائيل ، يمثل القومية العربية المعتدلة نسبيا » (٢٢) ، وهو بمثابة « صمام امان للعرب في اسرائيل ، يقيهم من الانزلاق القومي المتطرف » (٢٣) ، كما ان زعامته تدعو الى اتباع « طريق يهودية – عربية ••• ليست بالتأكيد طريق م•ت•ف » (٢٤) • وذهب احدهم الى حد القول انه « لو لم يكن راكاح قائما لوجب اقامته ، لان البديل اسوأ بكثير » (٢٥) ، والقول لا يخلو من الصحة ، اذ ان نشاط راكاح علني وقانوني ، يتم ضمن انضباط فائق في اطار « الشرعية » الاسرائيلية ، ولذلك فهو معروف للسلطة جيدا ، التي تستطيع مراقبته ، ومن ثم التحكم به – الى حد ما – وضبطه • والبديل ، فعلا ، اسوأ من ذلك بكثير •

فرق – ولا تسد

مما لا شك فيه ان تأييد العرب الفلسطينيين في اسرائيل لراكاح ، والذي وصل الى ذروته في الاونة الاخيرة ، بالمقارنة مع الوضع سابقا ، غير ناجم

فقط عن تبني الحزب لمشكلاتهم المعيشية اليومية ، بل أنه يعود ايضا الى تبنيه لقضايا النضال الفلسطيني وشعاراته ، وعلى رأسها ذلك الداعي الى اقامة دولة فلسطينية مستقلة ، وهو المطلب الذي يؤيده راكاح منذ فترة غير قصيرة ، ثم اعترافه بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا وحيدا للفلسطينيين ٠ كذلك لا بد من الاشارة الى ان التأييد العلني الذي حظي به راكاح من قبل بعض اجهزة م٠ت٠ف٠ كان له تأثير ما على زيادة عدد المؤيدين له ٠

غير انه على الرغم من الوقائع التي اشرنا اليها ، وحصول راكاح ، خلال الانتخابات الاخيرة ، على اكثر من نصف اصوات الناخبين العرب في اسرائيل، من الخطأ الاعتقاد ان ذلك يعني ، بالضرورة ، تأييدا كاملا من قبل اولئك الناخبين ، او حتى اكثريتهم ، لعقيدة راكاح ومواقفه واتجاهاته السياسية ، او ان ذلك التأييد هو خير معبر عن مواقف العرب السياسية ٠ فتصويت اكثرية الناخبين العرب على الشكل الذي اشرنا اليه يعبر ، عمليا ، عن مواقف احتجاج « ضد الحكومة » ، اكثر من دلالته على اي اتجاه اخر ، باعتبار راكاح الحزب الرئيسي المناوىء للسلطة سياسيا ، وعندما تكون اعتبارات الناخبين العرب غير ذلك ، تخف نسبة الاصوات التي يحصل عليها راكاح بشكل ملحوظ ٠ والامثلة على ذلك عديدة ، ونكتفي باثنين منها ٠ ففي اواخر الخمسينات واوائل الستينات ،عندما وقع الخلاف بين عبد الناصر وعبد الكريم قاسم ثم الشيوعيين، وقف الحزب بقوة الى جانب الاخيرين ، وراح يهاجم بعنف عبد الناصروالمناصر المؤيدة له بين العرب في اسرائيل ٠ وكانت النتيجة ان اعرض الناخبون العرب عن الحزب وتنكروا له ، وامتنع العديد منهم عن التصويت لصالحه ، فانخفض عدد نوابه نتيجة لذلك من ٦ نواب في الكنيست الرابع (١٩٥٩) الى ٣ في الخامس (١٩٦١) ، ثم عاد الى الارتفاع بعد ذلك ، عندما تغيرت الاوضاع (٢٦) ٠ وفي هذا المجال تلفت النظر ايضا الفروق بين نسب الاصوات التي يحصل‌عليها راكاح في الانتخابات للكنيست ، وبين تلك التي تكون من نصيبه ، عادة ، في الانتخابات للسلطات المحلية ٠ ففي سنتي ١٩٦٩ و ١٩٧٣، جرت في اسرائيل الانتخابات للكنيست والسلطات المحلية ، العربية واليهودية ، في اليوم نفسه ٠ وقد حصل راكاح في ٩ قرى ومدينة عربية (هي ام الفحم وباقة الغربية ودالية الكرمل وطمرة والطيبة والطيرة وقلنسوة وكفر قاسم والمغار ويافا الناصرة وشفا عمرو ، والتي يزيد عدد سكان كل منها على ٥ الاف نسمة) على ٤ر٣٨٪ (٩١٩ر١٠ من ٤٥٠ر٢٨ صوتا) من مجموع الاصوات في انتخابات الكنيست ، مقابل ٠ر١٠٪ (٠٤١ر٣ من ٤٩٢ر٣٠ صوتا) في انتخابات السلطات المحلية ، وذلك سنة ١٩٦٩ ، و ٥ر٤٦٪ (٣٤٤ر١٥ من ٩٧٨ر٣٢ صوتا) مقابل ٢ر١٢٪ (٥٣٤ر٤ من ١٤٢ر٣٧ صوتا) ، سنة ١٩٧٣ (٢٧) ٠ وتكاد تنطبق هذه النتيجة ــ القاعدة على كافة التجمعات العربية ، عدا ــ ربما

ـ الناصرة · وتفسير ذلك هو ان الناخب العربي ، على وجه العموم ، يفضل راكاح في الانتخابات للكنيست ، لانه يريد التصويت « ضد الحكومة » ، ولكنه يغير موقفه ، عند الاقتراع للسلطات المحلية ، ويفضل القيادات المحلية ويصوت لصالحها ·

ومن ناحيته ، يعي راكاح جيدا هذه التيارات وغيرها ، التي تتفاعل في الوسط العربي في اسرائيل ، ويعمل كل ما في وسعه للقضاء عليها او ، على الاقل ، الحد من تأثيرها وتجييرها لصالحه ، وذلك بمحاولة منع بروز اية قيادات اخرى للعرب قد تؤثر عليه ، وان برزت ، يحاول ربطها به وابقاءها تحت كنفه ، حتى لا تصب اصوات الناخبين العرب في غير طاحونته ، وتبقى زعامتهم السياسية معقودة له · والحصول على اصوات العرب هي مسألة مصيرية بالنسبة لراكاح ، فهو يعيش على تلك الاصوات ، ويكاد ـ كما رأينا ـ لايحصل على غيرها · ولتأمين ذلك ، يبذل راكاح كل ما في وسعه على اصعدة عدة · فهو ، من ناحية ، يحاول دائما منع قيام اية قائمة انتخابية قد تنافسه على اصوات العرب ، او ربطها بعجلته ان فشل في ذلك ، او يحاربها ان كانت مرتبطة بالسلطة والاحزاب الصهيونية المختلفة ، ومن ناحية ثانية يحث العرب على التصرف كـ « مواطنين صالحين » ، وفق قواعد « الشرعية » الاسرائيلية . والاشتراك « بجماهيرهم » في الانتخابات ، للتصويت لصالحه ·

وحتى منتصف الستينات ، استفاد ماكي / راكاح ، سلبا ، من السياسة الاسرائيلية الرسمية التي اتجهت الى قمع اي تنظيم قومي بين العرب في اسرائيل (ومثل هذا التنظيم هو الوحيد القادر على منافسة راكاح في الشارع العربي) ، فبقي الحزب الوحيد الذي تصدر النشاط بينهم ، وحظي بتأييدهم · الا ان هذا الوضع راح يتغير ، تدريجيا ، خلال العقد الاخير · فالاحداث والتطورات التي وقعت خلال هذه الفترة واثرت على مواقف الفلسطينيين في اسرائيل ، بعد ان ازدادت حدة الشعور القومي لديهم ، دفعت قطاعات واسعة منهم نحو اتخاذ مواقف اكثر راديكالية تجاه السلطة ، وبالتالي الى التفتيش عن طرق اخرى للتعامل معها ، مما ادى ، من بين ما ادى اليه ، الى بروز قيادات ، او تبلور تيارات سياسية ، غير راكاحية ·

واول ما يلفت النظر ، في هذا المجال ، هو انشاء اتحاد رؤساء المجالس المحلية العربية (نحو ٥٠ مجلسا) ، في منتصف سنة ١٩٧٤ ، بهدف تنسيق نشاطهم وطلباتهم عامة تجاه السلطة ، والتعاون في حل مشكلاتهم المشتركة (٢٨) · والواضح ان اقامة اتحاد رؤساء المجالس المحلية العربية ، باعتباره هيئة تضم معظم القيادات المحلية العربية وتنسق نشاطها ، كان اجراء موفقا ، وربما « ضربة معلم » ، من حيث تأسيس « تنظيم » عربي يصعب على

السلطة الاسرائيلية ، التي تبدي حساسية تقليدية واضحة تجاه قيام تنظيمات عربية قومية في اسرائيل ، المس به او التعرض لنشاطه ، اذ ان البلديات والمجالس المحلية ليست هيئات شرعية فقط ، بل ان السلطة مضطرة الىالتعاون معها لضمان حسن ادارة القرى والمدن العربية وحل مشكلاتها المعيشية اليومية، وما يتعلق باوضاعها عامة ، حاضرا او مستقبلا · ونتيجة لوضعه هذا ، تصرف الاتحاد ، منذ اقامته ، من خلال « ثقة بالنفس » واضحة ، ولم يمر وقت طويل الا ووجد نفسه يتصدى لمشكلات وقضايا عديدة ، يبدو ان بعضها ليس بالضبط ضمن صلاحياته· فقد كان الاتحاد ، مثلا ، احدى الهيئات البارزة التي عملت على تنظيم اضراب « يوم الارض » (١٩٧٦/٣/٣٠) ، احتجاجا على مشاريع مصادرة الاراضي العربية فيالجليل (٢٩) · ونتيجة للاضطرابات التي وقعت يومذاك ، قامت الحكومة الاسرائيلية ببحث موقفها تجاه العرب في اسرائيل مرة اخرى ، وقررت ، في اواخر ايار ١٩٧٦ ، الاستمرار في سياستها السابقة الهادفة الى « دمج » العرب في المجتمع الاسرائيلي ونشاط الدولة عامة « على اساس المواطنية الكاملة والمتساوية ومن خلال مراعاة وحدانيتهم الدينية والثقافية » (٣٠) · الا ان رؤساء المجالس لم يقبلوا بهذا القرار ، فاحتج وفد منهم ، اثناء مقابلته لرئيس الحكومة رابين في اواخر الشهر نفسه ، عليه ، ثم تقدموا بمذكرة ، في اواخر حزيران ، طالبوا فيها اخذ « واقع العرب القومي » بالاعتبار ، عند تقرير السياسة الرسمية بالنسبة لهم (٣١) · ومنذ ذلك الوقت راح بعض رؤساء المجالس المحلية يتحدث عن الحقوق القومية للفلسطينيين في داخل اسرائيل ايضا (٣٢) · وقبيل الانتخابات العامة الاخيرة للكنيست التاسع ، في ايار ١٩٧٧ ، تحالف رؤساء المجالس المحلية العربية مع راكاح وجزء من الفهود السود ، فشكلوا قائمة انتخابية جديدة ، هي القائمة الديمقراطية للسلام والمساواة (حداش) ، التي خاضت تلك الانتخابات وحصلت على ٥ مقاعد في الكنيست ، كان أحدها من نصيب حنا مويس ، رئيس المجلس المحلي للرامة ، باعتباره « ممثلا » للاتحاد ·

واذا كان اتحاد رؤساء المجالس المحلية العربية نوعا من قيادة محلية جديدة للعرب في اسرائيل ، يمكن وصفها بانها « معتدلة » ، تتصرف في تعاملها مع السلطات الاسرائيلية من خلال المثل القائل « ضربة على الحافر واخرى على المسمار » (وقد يكون احد الاساليب الرئيسية لذلك اضطرار رؤساء المجالس ، من ناحيتهم ، الى التعامل مع الاجهزة الاسرائيلية المختلفة ، بحكم مناصبهم ومسؤولياتهم تجاه قراهم ومدنهم وسكانها) ، فهناك ايضا قيادة ، او ، على وجه التحديد ، تيار آخر ، وان كان ذا تشعبات عديدة ، يختلف عنها من حيث موقعه وموقفه السياسي ونظرته الى الصراع العربي ـ الاسرائيلي · ويضم هذا التيار العناصر الاكثر راديكالية ، واحيانا تزمتا ، بين العرب في اسرائيل ،

ويتألف في معظمه من الشباب · ولعل خير ممثل لهذا التيار هو الحركة ـ وربما كان من المستحسن تسميتها جماعة ـ « ابناء البلد » ، التي كانت قد اسست اصلا قبل نحو ٨ سنوات ، من قبل المحامي محمد كيوان من ام الفحم، على شكل قائمة انتخابية للمجلس المحلي في تلك البلدة (٣٣) ، مما دفع بعضهم في قرى عربية اخرى ، خصوصا الطيبة وعارة وعرعرة في المثلث ودير الاسد في الجليل ، الى اقامة « تنظيمات » مماثلة في تلك القرى ، تحت اسماء مختلفة · والواضح ان تحصن هذه « التنظيمات » وراء قوانين الانتخابات للمجالس المحلية ، وعدم محاولتها اقامة اتحاد يجمع فيما بينها ، تنظيميا على الاقل ، ناجم عن خشيتها من ان تلاقي المصير نفسه الذي لاقته « حركة الارض » في منتصف الستينات (٣٤) ، عندما صفيت بأمر من وزير الدفاع ، بناء على انظمة الطوارىء ، اثر اعلانها عن نفسها كتنظيم سياسي · ولاول وهلة يبدو كأن حركة « ابناء البلد » ليست الا امتدادا وتجديدا لـ « حركة الارض » · الا ان مؤسس « ابناء البلد » يرى عكس ذلك ، فـ « الارض » بالنسبة له كانت « مجموعة عروبية ، حركة قومية عربية آمنت بالوحدة العربية والناصرية » ، بينما « المشكلة ··· الان هي ليست اقامة الوحدة العربية ، بل قضية الشعب الفلسطيني· ولذلك فان اهم شيء بالنسبة لنا ·· هو هويتنا الفلسطينية »(٣٥)· وانطلاقا من هذا الموقف يرى « ابناء البلد » ان « منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني ··· الذي يشكل ، اينما وجد ، كيانا واحدا»، ولذلك فان « اي حل للقضية الفلسطينية يجب ان يشمل اعترافا رسميا وضمانات دولية للحقوق القومية للفلسطينيين الذين يقطنون ·· اسرائيل ايضا » (٣٦) · وتحظى اراء « ابناء البلد » ومواقفهم السياسية بتأييد واضح لدى الطلاب العرب الجامعيين في اسرائيل · وكانت الانتخابات ، التي عقدت في اواخر سنة ١٩٧٧ ، للجنتي الطلاب العرب في الجامعة العبرية بالقدس وجامعة حيفا ، قد اسفرت عن فوز اكثرية ، في اللجنتين ، من الطلبة الذين يتعاطفون مع « ابناء البلد» (٣٧) ، (والذين فقدوا ، على كل حال ، السيطرة على لجنة طلاب القدس في انتخابات ١٩٧٨) · وتجدر الاشارة هنا الى ان وضع الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية ، ونشاطهم ومواقفهم ، كانت مواضيع نقاش وجدل في اوساط اسرائيلية مختلفة ، اكثر من مرة ، خلال السنوات الاخيرة : مرة لانهم يرفضون الاشتراك في حراسة مساكن الطلبة التي يقطنونها مع الطلبة اليهود ، اذ « ان الفدائيين لن يهاجموهم » ، واخرى لان بعضهم يعلن عن تأييده الواضح والعلني لمنظمة التحرير الفلسطينية، وغير ذلك·

وانصار التيار الراديكالي القومي بين العرب في اسرائيل ، من « ابناء البلد » والطلاب الجامعيين العرب (« وحلفاؤهم » من الماويين ، والتروتسكيين اليهود وغيرهم) لا يكتفون فقط بمقارعة السلطة الاسرائيلية ، بكافة الطرق المتاحة

لهم ، حتى وان ظهر ان بعضها عديم الجدوى احيانا ، وانما لا يبدون اعجابا كبيرا ايضا براكاح او برؤساء المجالس المحلية العربية · والخلاف بين الطرفين لا يتعلق بالاهداف التي يسعى اليها كل منهما فقط ، بل يتعدى ذلك ايضا ، وما شابه ذلك · وفي المقابل ، دعوة العرب ، مثلا ، الى الاشتراك في اطار « الشرعية » الاسرائيلية ، ويحرص دائما وابدا ، واولا واخيرا ، على البقاء ضمن ذلك الاطار (ويكاد رؤساء المجالس المحلية ينتهجون الاسلوب نفسه) · ولذلك يتخذ نضال الحزب ونشاطه طابعا هادئا للغاية : تحريض في صحافته العربية والعبرية ضد سياسة الحكومة ، تقديم الاستجوابات الى الوزراء او التقدم بمقترحات عاجلة لجدول اعمال الكنيست لبحث ما يتعلق بالعرب في اسرائيل ، عقد الندوات المرخصة ، او القيام بالمظاهرات المرخصة ايضا ، وما شابه ذلك ـ وفي المقابل ، دعوة العرب ، مثلا ، الى الاشتراك « بجماهيرهم » في الانتخابات للكنيست والتصويت له · وهذا بالذات ما لا يسعى اليه الراديكاليون ، ولا يريدونه ، اذ انهم لا يهتمون كثيرا بالاطر « الشرعية » ولا يسعون اساسا الى كسب اية « شرعية » ، ويفضلون انتهاج طرق اكثر صدامية في تعاملهم مع السلطة من خلال اظهار « عدم اعترافهم » بها ، دون طلب مساعدة احد او موافقته (٣٨) ·

ويجد موقف « عدم الاعتراف » بالسلطة ، من قبل العناصر القومية الراديكالية بين العرب في اسرائيل ، تعبيرا عنه في اشكال عدة ، لعل اهمها امتناع اعداد متزايدة منهم عن الاشتراك في الانتخابات العامة للكنيست ، والامتناع عن الاشتراك في الانتخابات للكنيست كان ، دائما وابدا ، بالنسبة لاوساط معينة بين العرب في اسرائيل ، وسيلة للتعبير عن « عدم اعترافهم بالدولة » برفضهم التعامل مع « البرلمان الصهيوني » · ففي الانتخابات للكنيست السابع (١٩٦٩)، مثلا ، امتنع ١٦٪ من اصحاب حق الانتخاب العرب ، في المناطق العربية الصرفة ، عن الاشتراك في التصويت · ثم راحت هذه النسبة من الممتنعين تزداد بشكل ملحوظ ، فيما بعد ، اذ وصل عددهم في الانتخابات للكنيست الثامن (١٩٧٣) ، الى ٢٩٫٨٧٣ من بين ١٤٩٫٥٠٠ ناخب ، اي ما يعادل ٢٠٪ من اصحاب حق الانتخاب · وفي التاسع (١٩٧٧) امتنع ٤١٫٣٩٠ من بين ١٧٤٫٠٧٤ من اصحاب حق الانتخاب ، اي ما يعادل ٢٤٫٨٪ (٣٩) ، وذلك على الرغم من دعوة دوائر معينة في منظمة التحرير الفلسطينية ، العرب في اسرائيل علنا الى التصويت لجانب راكاح · ومما يلفت النظر ، في هذا الصدد ، ان نسبة الممتنعين عن التصويت في الانتخابين العامين الاخيرين فاقت نسبة الزيادة في عدد اصحاب حق الانتخاب عامة · ففي سنة ١٩٧٣ ازداد عدد الناخبين في المناطق العربية ٢٣٫٣٠٩ ناخبين ، عن عددهم سنة ١٩٦٩ ، بينما وصل عدد الممتنعين الى ٢٩٫٨٧٣ (اي ما نسبته ١٢٨٪ من الزيادة في عدد الناخبين) ·

اما في سنة ١٩٧٧ فقد ازداد العدد ٢٤٫٥٧٤ ناخبا ، بينما وصل عدد المتنعين الى ٤١٫٢٩٠ (اي ما نسبته ١٦٨٪) ، مما يدل على ارتفاع نسبة الامتناع عن التصويت لدى جيل الشباب ، الذين يحصلون على حق الانتخاب لاول مرة ، على ما لذلك من دلالات رافضة للكيان الصهيوني ومعادية له ٠

ويبدو ، من ناحية ثانية ، ان ارتفاع نسب الامتناع عن التصويت هذه ، التي يمكن اعتبارها دلالة ، الى حد ما ، على اتساع الاتجاهات غير المؤيدة لراكاح في الوسط العربي ، ثم خشية الحزب من تقلص التأييد له بين العرب في اسرائيل ، هي التي دفعته الى اعادة النظر في مواقفه السابقة والتنازل عن « كبريائه » ، وذلك بالموافقة على التحالف مع عناصر قومية وطنية اخرى ، ذات نفوذ في الشارع العربي ، وهو ما كان يرفض ان يفعله سابقا ٠ ولذلك يلاحظ ان راكاح بدأ ، منذ عدة سنوات ، يخوض معاركه الانتخابية ، للكنيست او للسلطات المحلية ، بواسطة « القوائم الديموقراطية » ، وهي عبارة عن ائتلافات بين راكاح وعناصر وطنية اخرى ، هنا او هناك ٠ ويبدو انه كان لهذا الاسلوب فوائده ، بالنسبة للجميع ، نتيجة لتوحيد قواهم ٠ فتحالف القائمة الديموقراطية للسلام والمساواة هو الذي استطاع جذب اكثرية اصوات الناخبين العرب اليه ، في الانتخابات العامة الاخيرة ٠ كما ان قوائم الجبهة الديموقراطية ، التي خاضت انتخابات السلطات المحلية العربية ، خلال شهر تشرين الثاني الماضي ، فازت برئاسة ١٦ مجلسا محليا عربيا في اللواء الشمالي (اي نحو نصف عدد المجالس العربية في ذلك اللواء ، وثلث عددها في اسرائيل باسرها) ، بينما ارتفع عدد ممثليها عامة من ٥٤ شخصا في ٢٣ مجلسا محليا في الانتخابات السابقة ، الى ١٠٩ اشخاص في ٣٦ مجلسا (بالاضافة الى بلدية حيفا) في الانتخابات الاخيرة (٤٠) ٠ اما في قرى المثلث التسع ، التي عقدت فيها تلك الانتخابات ، فقد ضعفت قوة الجبهة الديموقراطية عامة ، كما يبدو نتيجة لمناوأة « ابناء البلد » لراكاح ، ففقدت رئاسة ٣ من القرى الاربع التي كانت قد فازت بها في الانتخابات السابقة (٤١) ٠ اما « ابناء البلد » انفسهم فيبدو انهم فازوا برئاسة مجلسين او ثلاثة في الجليل والمثلث (٤٢) ٠

وعلى كل حال ، ومهما يكن من امر الخلافات بين التيارات السياسية المختلفة الناشطة بين العرب في اسرائيل ، لا بد من الاشارة ، اخيرا ، الى ان النزاع فيما بينها ناجم ، اساسا ، عن الخلاف في وجهات النظر حول انسب الطرق التي ينبغي اتباعها لمقارعة السلطة من ناحية ، وتأمين المتطلبات المعيشية والحقوق القومية العربية من ناحية ثانية ٠ وليس في ذلك كما هو واضح ، ما يثلج صدر الكيان الصهيوني ، الذي بذل جهودا كبيرة في زرع بذور التفرقة بين العرب في اسرائيل لتسهل سيطرته عليهم ، فوجد نفسه ، في نهاية المطاف ، في مواجهة

تنظيمات او تيارات لا هم لها الا تحسين وسائل مقارعتـــه ، حتـى وان كانت وجهات نظرها ومنطلقاتها السياسية مختلفة ٠

بين التهويـد والتعريب

لم تكن العوامل الخارجية السياسية ، التي شهدتهـــا السا نان العربيـة والفلسطينية خلال السنوات الاخيرة ، هي فقط التي ادت الى نشوء حالة مـــن الزخم القومي بين العرب في اسرائيل ، اذ تضافرت معها ايضا عوامل سياسية داخلية وتطورات وتغييرات ملموسة ، ديموغرافية وثقافية ومهنية ومعيشيـــة وغيرها ، بالنسبة لاولئك العرب ، ساهمت في ذلك ايضا ٠

ولعل ابرز تلك العوامل هو ذلك الناجم عن التغيير الديموغرافي الملموس ، كما ونوعا ، الذي طرأ على اوضاع العرب في اسرائيل ، وزاد من ثقتهـــم بانفسهم ، وبالتالي قوى مركزهم وزاد قدرتهم على توجيه الضغوط في تعاملهم مع السلطة ٠ فخلال الثلاثين سنة الاخيرة ازدادت نسبة السكان العرب فـــي اسرائيل بنحو ٢١٥٪ ، فارتفع عددهم من حوالي ١٦٠ر٠٠٠ نسمة سنة ١٩٤٨ الى ما يقارب ٥٠٠ر٠٠٠ نسمة في اواخر سنة ١٩٧٨ (من دون العرب فـــي القدس القديمة ، التي تصر الاحصاءات الاسرائيلية الرسمية على اعتبار سكانها جزءا من العرب في اسرائيل ، اثر الاعلان عن ضم المدينة بعد حرب ١٩٦٧) ٠ وقد جاءت هذه الزيادة ، اساسا ، نتيجة لنسبة مرتفعة من التكاثر الطبيعي ، لعلها من اعلى نسب التكاثر الطبيعي في العالم ، ان لم تكن اعلاها على الاطلاق٠ وقد بلغ معدل هذه النسبة خلال السنوات ١٩٧٠ ـ ١٩٧٦ ، مثلا ، ٣٨ر٩ في الالف مقابل ١٧ر٢ لدى اليهود (٤٣) ٠ اما بين العرب انفسهم ، فقد بلغت هذه النسبة ، سنة ١٩٧٦ ، مثلا ، ٤٢ر١ في الالف لدى المسلمين (الذين يشكلـون نحو ٧٥٪ من العرب) ، ٣٨ر٩ لدى الدروز (ويشكلون ٩٪) و ١٨ر٢ لـــدى المسيحيين (ويشكلون ١٦٪) (٤٤) ٠ ونتيجة لهذه النسبة المرتفعة من التكاثـر الطبيعي من ناحية ، وانعدام الهجرة تقريبـــا بينهم (٤٥) مـــن ناحية ثانية ، استطاع العرب المحافظة على نسبتهم التي تراوحت بين ١١ ـ ١٣٪ من مجموع السكان في اسرائيل ، منذ سنة ١٩٤٨ وحتى اليوم ، وذلك على الرغم مـــن موجات الهجرة التي ضاعفت عدد السكان اليهود ، خلال الفترة نفسها ، بشكل ملحوظ ٠

ومع ارتفاع عدد العرب ، على الشكل الذي اشرنا اليه ، نمت وكبرت ، بالطبع كافة المدن والقرى والتجمعات السكانية العربية ، في كافة انحاء اسرائيل ، بل ويبدو كأنه نشأت احيانا تجمعات سكانية جديدة ٠ ويتضح من مراجعة المعطيات والمعلومات التي تستند الى سجل الناخبين للكنيست (وقد اعتمدنا هذا السجل

لكونه احد اكثر النشرات الاحصائية الاسرائيلية مصداقية ، نظرا لحرص كافة القوى السياسية المتناحرة في اسرائيل على ضبطه وتدقيق محتوياته ، لما لذلك من تأثير على نتائج الانتخابات العامة ، التي تعني الجميع) انه وجـد فـي اسرائيل ، في نهاية سنة ١٩٧٦ ، ١٣٩ تجمعا سكانيا عربيا : مدينتـان ، ١٦ بلدة يزيد عدد سكان كل منها على ٥٠٠٠ نسمة ، ٣٣ قرية كبيرة يتراوح عـدد سكان كل منها بين ٢٠٠٠ر٢ ــ ٥٠٠٠ نسمة ، ٥١ قرية صغيرة يقل عدد سكان كل منها عن ٢٠٠٠ نسمة ، ٩ قبائل بدوية يزيد عدد ابناء كل منها على ٢٠٠٠نسمة، و ٢٩ بطنا يقل عدد ابناء كل منها عن ٢٠٠٠ نسمة (٤٦) ٠ وتقع معظـم هذه التجمعات السكانية ، حيث تعيش ايضا اكثرية السكان العرب (الذين بلـغ عددهم ، في نهاية ١٩٧٦ ، ٧٠٠ر٤٥٤ نسمة) في ٣ مناطق رئيسية داخـل اسرائيل ٠ واول هذه المناطق هي الجليل (اللواء الشمالي ، اي اقضية عكا والناصرة وطبريا وصفد) ، حيث توجد ٨٣ قبيلة وقرية وبلدة ومدينة عربيـة صرفة ، بلغ عدد سكانها (بالاضافة الى اولئك الذين يعيشون في عكا ، المدينة المختلطة) ٤٠٠ر٢٦٠ نسمة ٠ اما المنطقة الثانية فهي ما يعرف باسم « المثلث »، وهو عمليا عبارة عن مستطيل يمتد داخل حدود ١٩٦٧ ،بمحاذاة مثلث جنين ــ نابلس ــ طولكرم في الضفة الغربية ، ويتبع اداريا الوية حيفا والمركز وتل ابيب. ويضم ٣٣ قبيلة وقرية وبلدة عربية ، بلغ عدد سكانها (بالاضافة الى اولئـك الذين يعيشون في المدن المختلطة حيفا ويافا واللد والرملة) ٣٠٠ر١٥٠ نسمة ٠ والتجمع الثالث هو عبارة عن بدو النقب ، الذين يشكلون ٢١ قبيلة وبطنا ، بلغ عدد ابنائها ٩٠٠ر٤٠ نسمة ٠ اما الباقون ، البالغ عددهم ١٠٠ر٣ نسمة فيعيشون في قريتين عربيتين تقعان الى الغرب من القدس (٤٧) ٠

والواضح ان توزيع السكان العرب على ٣ تجمعات رئيسية داخل اسرائيل ، في الجليل والمثلث والنقب ــ وهو ما تم نتيجة لاسباب « تاريخية » ، ناجمة عن حرب ١٩٤٨ ولا مجال لعرضها هنا ــ يضفي على تلك المناطق طابعا خاصا بها، يختلف عن ذلك الذي تتميز به المناطق ذات الاكثرية السكانية اليهودية ٠ كمـا يساعد هذا الواقع على المحافظة على مجتمع عربي متماسك وشبه مستقل لــه مشكلاته وطلباته ، وبالتالي قضاياه وتطلعاته الخاصة به ٠ وهذا ، بالطبع ، ما يقض مضجع السلطات الاسرائيلية ، على اختلاف مواقفها واتجاهاتها ،ويجعلها تتحسب من العواقب والقلاقل ، التي تثيرها الاقليات القومية في مثل هــذه الحالات ، خصوصا وان « الاقلية العربية » في اسرائيل ليست الا جـزءا مـن امة كبيرة تسيطر على المنطقة باسرها ٠ وتظهر حراجة هذا الوضع ، بالنسبة للاسرائيليين ، على اوضح ما يكون في الجليل ، حيث يعيش اكثر من نصـف السكان العرب في اسرائيل (٤٠٠ر٢٦٠ نسمة من بين ٧٠٠ر٤٥٤ نسمة ، فـي اواخر سنة ١٩٧٦ ، اي ٣ر٥٧٪) وتكاد نسبتهم تعادل نسبة السكان اليهود في

اللواء الشمالي بأسره (٤٠٠ر٢٦٠ عربي مقابل ٧٠٠ر٢٨٥ يهودي) ، بينما يزيد عدد العرب في قضاء عكا بالذات ، على عدد اليهود بما نسبته ٧٥٪ (٣٠٠ر١٤٤ عربي مقابل ٥٠٠ر٨٣) (٤٨) ٠ وتخشى السلطات الاسرائيلية ان يلجأ العرب ، في تلك المناطق ، استنادا الى اكثريتهم السكانية هناك ، وفي ظل اوضاع سياسية مناسبة الى المطالبة ، يوما ما ، بالانفصال عن اسرائيل ، مثلا، او اعلان استقلالهم ٠ وتتغذى هذه المخاوف ايضا من حقيقة كون تلك المناطق جزءا ، وفقا لقرار تقسيم فلسطين لسنة ١٩٤٧ على الاقل ، من الدولة الفلسطينية ٠ وبالاضافة الى ذلك ، يزداد الوضع حرجا بسبب موقع تلك المناطق الجغرافي ، اذ انها محاذية من جهة الشمال لجنوب لبنان ، حيث يتواجد الفلسطينيون بكثافة ، بينما تتصل في جنوبها بالضفة الغربية ، واي تغيير في وضعها قد يؤدي الى شطر اسرائيل الى قسمين ٠

ولا بد من التأكيد هنا ، على كل حال ، ان السلطات الاسرائيلية قد انتبهت باكرا لهذا « الخطر السكاني » العربي ، وعملت كل ما في وسعها للحد من « اضراره » ٠ فخلال السنوات التي اعقبت قيام اسرائيل مباشرة تمت عملية مصادرة واسعة لاراضي العرب في الجليل (وغيره من المناطق التي تواجد فيها العرب انذاك ايضا) ، اسفرت عن الاستيلاء على معظم الاراضي الزراعية الخصبة في المنطقة وتحويل ملكيتها الى المستوطنات اليهودية ، القليلة نسبيا ، التي كانت قائمة هناك انذاك ، في محاولة لتقويتها وتوسيعها ، وكذلك اقامة مستوطنات اخرى ، ومن ثم زيادة عدد السكان اليهود في المنطقة عامة ٠ الا ان هذا المخطط لم يحظ بنجاح كبير ، اذ راح العديد من اولئك المهاجرين ــ المستوطنين الجدد يتركون مستوطناتهم ، تدريجيا ، وينزحون الى المدن ، بحيث لم تكن نسبة من بقي منهم في المنطقة كافية لمعادلة نسبة الزيادة في عدد العرب، نتيجة لتكاثرهم الطبيعي ٠ وبعد غزوة سيناء سنة ١٩٥٦ ، ونتيجة لبروز مشاعر الانتماء القومي بحدة انذاك بين العرب ، وضعت خطة جديدة ، سميت مشروع تهويد الجليل (ولكن سرعان ما استبدلت كلمة « تهويد » بـ « تطوير ») بهدف تقطيع اوصال التجمع السكاني العربي الكثيف في تلك المنطقة ، وبالتالي تسهيل السيطرة عليه ٠ ولتنفيذ هذه الخطة ، تمت مصادرة المزيد من الاراضي العربية ، واقيمت في المنطقة ٣ مدن جديدة ، اولها الناصرة العليا ، بالقرب من الناصرة ، « عاصمة العرب في اسرائيل » ، في محاولة لـ « خنق » المدينة العربية ، وثانيتها كرميئيل ، التي اقيمت على الطريق الرئيسية عكا ــ صفد ، في وسط تجمع عربي كثيف ، يضم قرى الرامة ونحف والبعنة ودير الاسد ومجد الكروم وغيرها ، في قلب الجليل ، وثالثتها معلوت ، بالقرب من ترشيحا، في الجليل الغربي (٤٩) ٠ ومنذ ١٩٥٧ وحتى نشوب حرب حزيران ١٩٦٧ ،بذلت السلطات الاسرائيلية جهودا مكثفة لتقوية تلك المدن وزيادة عدد سكانها ، بكافة

الوسائل ، الا انها لم تحرز انجازات تذكر في هذا المجال ، اذ اتضح ، في نهاية الامر ، انه بدلا من ان تساعد تلك المدن على اضفاء طابع يهودي على تلـــك المنطقة ، تحولت هي ، الى حد ما ، الى تجمعات ذات طابع عربي ، اثر انتقال اعداد كبيرة من العرب للعمل فيها وسيطرتهم على الاعمال اليدوية والمهنيـــة هنـــاك ·

ومع انتهاء حرب ١٩٦٧ ، تحولت انظار السلطات الاسرائيلية ، تلقائـيـا ، نحو المناطق المحتلة حديثا ، وكادت « تنسى » العرب داخل اسرائيل · وبدا ، خلال فترة غير قصيرة ، كأن اجراءات مصادرة الاراضي والتهويد قد وصلت الى نهايتها ، بينما تصاعد الحديث عن ضرورة تحسين اوضاع العرب فـــي اسرائيل ومعاملتهم بالحسنى ، ولو تم ذلك فقط من قبيل محاولات منعهم مـــن التعاطف مع نضال اخوانهم في المناطق المحتلة حديثا ، او محاولة دق اسفيـــن بين الشطرين · الا ان هذا كله تغير فجأة ، مع تغيير الاوضاع السياسية ، على النحو الذي « اثار » اسرائيل · فقرارات الامم المتحدة ، الصادرة فـي اواخـر سنة ١٩٧٤ ، والتي شددت على حقوق الفلسطينيين واعترفت بـ م·ت·ف· ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني ، « اغضبت » الاسرائيليين وحكومتهم ، التي قررت الرد عليها ـ وكما يليق بكيان استيطاني ـ بتقوية الاستيطان اليهودي في الضفة الغربية ، وذلك بعد يومين فقط من صدور تلك القرارات (٥٠) · ولكـن هذه الاجراءات الاسرائيلية كانت موضوع نقاش حاد ، خصوصا بعد ان اتضح ان عددا من المسؤولين الاسرائيليين لا يؤيدهـا · وسرعان مـــا تحول ذلـــك النقاش ـ كالعادة ـ الى نوع من المجابهة الشاملة ، حول سياسة الاستيطـــان عامة ، بين « صقور » اسرائيل الذين ايدوا تلك الاتجاهات الاستيطانية بشدة ، وبين « الحمائم » الذين عارضوها بشدة اكبر · وكان « للحمائم » ما يقولونـه في هذا الصدد ، اذ عابوا على « الصقور » ضيق افقهـم ، وانعدام المرونـــة السياسية لديهم ، مشيرين الى انه ينبغي على « الوطني » الاسرائيلي ، الـذي يريد ان يعمل « في خدمة البلد » ، ان يتوجه للاستيطان في الجليل ، « الخالي من السكان » (اليهود طبعا) · ثم ان الجليل « اسرائيلي » ، والضفة ليسـت كذلك (اضافة الى ان الاستيطان فيها يثير ردود فعل دولية غير ضروريـة) ، فلماذا لا يوجه الاستيطان الى هناك ، الى الشمال ، خصوصا وان عرب الجليل ابدوا تأييدهم لـ م·ت·ف· ؟ وبسرعة ، اتفق الجميع على ضــــرورة تقويـة الاستيطان اليهودي في الجليل ، فيما كان « الحمائم » يعتقدون انهـم استطاعوا توجيه الزخم الاستيطاني الى داخل اسرائيل وتجنب الاعمال المربكة في الضفـة الغربية ، حتى تحين ساعة البت في مصيرها ، بينما شعر « الصقور » بالغبطة، لانهم استطاعوا حمل السلطات على تبني سياسة تكثيف الوجود اليهودي فـي الجليل ، دون ان يتعهدوا بايقاف غزواتهم الاستيطانية في الضفة الغربية ·

ولكن ، وعلى الرغم من هذا الاتفاق في وجهات النظر بين كافة الاطراف ، في شأن ضرورة الاستيطان في الجليل ، ترددت السلطات الاسرائيلية ، لفترة غير قصيرة ، في اتخاذ اجراءات لتنفيذه ، تحسبا من ردود فعل السكان العرب هناك ٠ فقد امتنع ، اولا ، مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية عن اصدار توصية بمصادرة اية قطعة من الاراضي العربية في الجليل ، وطالب باحالة الموضوع الى لجنة حكومية مسؤولة ، احالته بدورها الى لجنة وزارية ، التي اوصت بمصادرة نحو ٢٠ الف دونم ، في اماكن مختلفة في الجليل (معظمها بالقرب من الناصرة وقرية المكر) ٠ ولكن رغم موافقة هذه اللجنة ، امتنع وزير المالية ، الذي يملك حق المصادرة قانونيا ، عن التوقيع على اوامر المصادرة ، وطالب ببحث الامر في احدى جلسات الحكومة بكامل هيئتها ، التي جمعت باقي جرائتها ، وصادقت على مخطط المصادرة (٥١) ٠ وقد كان هنالك . على كل حال ، ما يدعو السلطات الاسرائيلية الى التزام جانب الحذر في اتجاهها لمصادرة المزيد من الاراضي العربية ، اذ ان العرب في اسرائيل قد ذاقوا الامرين من جراء هذه السياسة ، التي كانت قد ادت منذ اقامة اسرائيل الى مصادرة ما يزيد على مليون دونم من الاراضي الزراعية التي كانوا يملكونها ، ولذلك كان من المتوقع ان يعلنوا عن معارضتهم الشديدة لاية اجراءات مصادرة جديدة ، وهذا ما حدث فعلا ٠ فمنذ راحت استعدادات السلطات لتنفيذ اجراءات المصادرة تتخذ طابعا جديا ، بدأ العرب ايضا يستعدون لمجابهتها . فاقيمت لجان الدفاع عن الارض ، وتم تنسيق النشاط بين كافة الفئات في هذا المجال ، وخصوصا بين راكاح ورؤساء المجالس المحلية العربية ولجان الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية وغيرهم ، وعقدت عدة اجتماعات احتجاج وصدرت بيانات مختلفة في هذا الشأن ٠ وبعد الاعلان عن المصادرة ، اطلقت الدعوة الى الاضراب العام في « يوم الارض » ، ٣٠ اذار ١٩٧٦ ٠ ولم تشأ السلطات ان يمر ذلك اليوم هادئا ، وحاولت تحطيم الاضراب ، فعنفت المظاهرات واتسع مداها ، وقام الجنود الاسرائيليون باطلاق النار على المتظاهرين العرب وقتل ٦ منهم (ويقال ان الجنود قاموا بذلك لفك الحصار الذي فرضه عليهم المتظاهرون في بعض الاماكن ، وهو ما تكتمت عليه السلطات الاسرائيلية) ، لتتحول المظاهرات الى انتفاضة عارمة ، تلتقي مع تلك التي سادت الضفة الغربية ، تضامنا مع الجليل ، وتنتقل الى التجمع العربي الاخر في وسط اسرائيل ، في منطقة المثلث ، التي اعلنت تضامنها مع الجليل في انتفاضة مماثلة ، وان تم ذلك على نطاق اضيق (٥٢) ٠

وفي اعقاب تلك الانتفاضة ، قامت الحكومة الاسرائيلية ببحث سياستها مجددا تجاه العرب ، وقررت – على غرار قرارات سابقة في هذا الشأن – الاستمرار في العمل على « دمجهم في حياة الدولة » ٠ كذلك صدرت تصريحات،

عن هذا المسؤول الاسرائيلي او ذاك ، تكاد توحي كأن العرب سيستفيدون ايضا من الانشاءات التي ستقام على الاراضي المصادرة · غير ان هذه الوعود ، كما يتضح ، ليست الا من قبيل التخدير والضحك على الذقون ، لكي تستمر السلطات في تنفيذ مشاريع التهويد بأقل قدر ممكن من المعارضة · بل يكاد يتضح ان الطبيعة الاستيطانية العنصرية عادت لتتحكم في سياسة اسرائيل تجاه العرب داخلها ، كما كانت عليه الحال قبل ١٩٦٧ · ففي الوقت الذي عاد فيه مشروع تهويد الجليل الى حيز التنفيذ ، كانت ـ ولا تزال ـ تبذل المحاولات لتجريد بدو النقب مما تبقى بايديهم من اراض · ومشكلة اراضي بدو النقب لا تختلف كثيرا عن تلك القائمة بالنسبة لاراضي العرب في الجليل والمثلث ، من حيث تعرضها لاجراءات المصادرة ، خلال السنوات الاولى التي اعقبت قيام اسرائيل ، وان كانت لها « نكهة » خاصة بها · فخلال حرب ١٩٤٨ ، نقلت معظم القبائل البدوية ، التي تعاون عدد من زعمائها مع الهاغاناه ، من قبل الحكام العسكريين الاسرائيليين ، من اماكن تواجدها القدمة في كافة انحاء النقب الى مساحات محددة من الارض بالقرب من بئر السبع (٥٣) ، لتكتشف فيما بعد ، ان اراضيها القديمة قد صودرت من قبل سلطة الانشاء والتعمير باعتبار انها « اراضي غائبين » ، بينما لا تعتبر الاراضي الجديدة ، التي نقلت اليها ، ملكا لها · ولم يعبأ البدو كثيرا بهذه الفذلكات القانونية ، اذ انتشروا في الاراضي الجديدة ، وراحوا يقيمون بيوتا لهم عليها ، دون الحصول عادة على ترخيص من احد ، بينما رفضوا ، في الوقت نفسه ، التنازل عن حقوقهم في اراضيهم الاصلية · وازاء هذا الوضع حاولت السلطات الاسرائيلية ، اكثر من مرة ، العمل على تصفية هذه المشكلة ، وذلك بحمل البدو ، الذين تحولت اكثريتهم ـ عمليا ـ الى فلاحين يعيشون على الزراعة وتربية المواشي ، على التنازل عن حقوقهم في اراضيهم الاصلية او تلك التي استوطنوها، لقاء موافقتهم على الانتقال للعيش في قرى جديدة تنشئها السلطات لاجلهم في اماكن محددة ومعروفة · الا ان معظم تلك المبادرات منيت بالفشل ، ولاسباب عديدة ، اهمها ان الهدف منها كان الاستيلاء على حقوق البدو في اراضيهم ، دون ضمان سبل العيش لهم مع انتقالهم للسكن في اماكن جديدة ، التي بدا كأنها ستتحول الى تجمعات بشرية مصيرها تزويد المستوطنات اليهودية المجاورة بالايدي العاملة الرخيصة (٥٤) · اما اخر المحاولات التي بذلت في هذا الصدد فكانت عبارة عن تعيين لجنة حكومية ، سنة ١٩٧٢ (٥٥) ، بهدف دراسة الوضع وتقديم مقترحات لحل المشكلات الناجمة عنه · وقد اوصت اللجنة بأن يصار الى تعويض البدو عن اراضيهم المصادرة ، وذلك بدفع بدل مالي عن جزء منها ،وان كانت المبالغ المقترحة بخسة للغاية (اذ قدرت ، وفقا لقانون اسرائيلي قديم ، بموجب اسعار الاراضي في اول كانون الثاني ١٩٥٠) وتسليمهم اراضي في

اماكن جديدة لقاء الجزء الاخر (٥٦) · الا انه قبل البت في هذه المقترحات ، التي لم تقبل بها اكثرية البدو ، على كل حال ، قررت اللجنة الاقتصادية التابعة للكنيست ، التي كلفت ببحث الامر اثر مناقشة لمسألة اراضي البدو في البرلمان الاسرائيلي (٥٧) ، « ان التعويض ، مالا وارضا ، الذي اقترحته اللجنة ·· على البدو لحملهم على الاذعان لمطلبها ، فراحت ـ مثلا ـ تهدم من حين الى اخر ، النظر فيه » (٥٨) · وازاء هذا الموقف عاد الوضع الى ما كان عليه ، واستؤنف الصراع بين البدو والسلطات الاسرائيلية ، التي عادت الى توجيه الضغوط على البدو لحملهم على الاذعان لمطالبها ، فراحت ـ مثلا ـ تهدم من حين الى اخر ، بعض المساكن التي يقيمونها هنا او هناك ، بحجة انها انشئت دون ترخيص · او توقف ضخ مياه الشرب اليهم ، او تقلص مساحات اماكن الرعي المعدة لقطعانهم (٥٩) ، بينما اتجه اولئك الى التصدي لهذه السياسة ومحاولةفضدها، بعقد الندوات والمؤتمرات الصحفية او شن المظاهرات ، وبعضها امام مبنى الكنيست نفسه · غير انه مهما يكن من عناد البدو واصرارهم على التمسك بحقوقهم في اراضيهم واستعدادهم للدفاع عنها ، يكاد يبدو انهم يخوضون معركة خاسرة ، في وجه المخططات الاسرائيلية الهادفة الى « تطوير » النقب وتهويده ، خصوصا وان هذه العملية كادت تتوقف اثر حرب ١٩٦٧ لاسباب لا مجال لشرحها هنا ، مما ادى الى انخفاض عدد السكان اليهود في تلك المنطقة (٦٠) · ويتوقع ايضا ان تزداد الضغوط الاسرائيلية الهادفة الى الاستيلاء على تلك الاراضي حدة ، اذا وقعت اتفاقية سلم بين مصر واسرائيل ، واضطرت اسرائيل الى نقل جزء من مستوطني سيناء الى النقب ، واقامة معسكرات جديدة للجيش هناك ·

والواضح ان سعي السلطات الاسرائيلية الى الاستيلاء على المزيد من الاراضي العربية من ناحية ، واصرار العرب على التمسك بحقوقهم فياراضيهم او ، بصورة ادق ، بما تبقى في أيديهم منها من ناحية اخرى ، ليس فيه الا ما يبقي على العلاقات متوترة بين الطرفين ، ويدفع العرب نحو التمسك بحقوقهم القومية والتشديد عليها ·

من مجتمع زراعي الى طبقة عاملة

لم تكن العوامل التي اوردناها ، على اهميتها ، هي الوحيدة التي ساهمت في تغيير موقف العرب في اسرائيل ، على الشكل الذي تم فيه ذلك خلال السنوات الاخيرة ، اذ اضيفت اليها ايضا عوامل اخرى ، لا تقل اهمية عنها ، ناجمة اساسا عن تطورات اجتماعية ـ مهنية ، غيرت تركيب المجتمع العربي في اسرائيل بصورة ملحوظة ، خلال الثلاثين عاما الماضية ، وخلقت علاقات وقيما

جديدة لديه ، كان لها اثرها الواضح على تبلور الشعور القومي بين ابنائه ٠ ولعله من المناسب الاشارة هنا الى ان هذه التغييرات ، وما تبعها ، جاءت ـ الى حد كبير ـ نتيجة لـ « جهود » مختلفة بذلتها السلطات الاسرائيلية في هذا الصدد ، والسياسات المختلفة التي انتهجتها ، وردود الفعل التي ترتبت عليها، سواء اتم ذلك عن قصد او غير قصد ٠

لقد كانت اكثرية الـ ١٦٠٫٠٠٠ عربي فلسطيني ، الذين بقوا في اسرائيل بعد اقامتها سنة ١٩٤٨ ، من سكان القرى الفلاحين ، الذين يعيشون اساسا على الزراعة ٠ الا ان السياسة التي انتهجتها اسرائيل ، منذ خطواتها الاولى تجاههم ، مست هذا الوضع بشكل بالغ ٠ فمتطلبات توسيع الاستيطان اليهودي ـ وهو هدف صهيوني رئيسي ـ في كافة المناطق المحتلة انذاك ، وما نجم عنها من مصادرة المساحات الشاسعة من الاراضي العربية الزراعية الخصبة ، قلصت مساحة الاراضي الصالحة للزراعة ، بينما اتخذت ، في الوقت نفسه ، اجراءات تهدف الى تقوية الزراعة اليهودية على حساب العربية ، بمنح الاولى الدعم والمساعدات المالية والحفاظ على اسعارها وضمان تسويقها ، مقابل اهمال الثانية (٦٠) ، وهي سياسة لا تزال تتبع حتى اليوم ، مما ضيق امكانات عيش العرب من الزراعة عامة ٠ وبموزاة ذلك ارتفع عدد السكان العرب ، نتيجة لتكاثرهم الطبيعي ، وازدادت نسبة القوى العاملة بينهم ، ومعظمها من الشباب الذين اضطروا الى التسلل خلسة الى سوق العمل اليهودي ، حيث كانوا يتعرضون للاستغلال لكونهم « عمالا غير شرعيين » (٦١) ٠ ومع مرور العقد الاول على قيام اسرائيل ، في اواخر الخمسينات ، كانت الضغوط المعيشية على السكان العرب قد وصلت الى ذروتها ، ولم يعد بالامكان السكوت عليها ، فقامت الحكومة الاسرائيلية باتخاذ بعض الاجراءات الهادفة الى التخفيف منها ، كان من ابرزها الغاء بعض قيود التنقل المفروضة انذاك على العرب ، والسماح بدخولهم الى المدن اليهودية الرئيسية في مناطقهم ، وبالتالي وصولهم الى اماكن العمل هناك ٠ وبعد ذلك بفترة قصيرة ، وفي اوائل الستينات ، اتخذ اجراء اخر لا يقل اهمية عن الاول ، من حيث تأثيره على القوى العاملة العربية . وذلك عندما قررت الهستدروت ، النقابة العامة للعمال في اسرائيل ، قبول العمال العرب اعضاء فيها ، مما حسن من امكانات حصولهم على العمل ، بالمقارنة مع الماضي ، والمحافظة على حقوقهم النقابية ٠ ولم تأت هذه الاجراءات ، على كل حال ، مصادفة او من قبيل الاهتمام باوضاع العرب ، بل جاءت نتيجة لحاجة الاقتصاد الاسرائيلي الى الايدي العاملة العربية ٠

ومع اتخاذ تلك الاجراءات وتمكين العرب من العمل ، الى حد ما ، في اي مكان يجدون فيه عملا في اسرائيل ، بدأ تطور جديد في حياة اولئك السكان وطرق معيشتهم ٠ فقد راحت اعداد متزايدة منهم تتجه نحو المدن ، للتفتيش عن

عمل تعتاش منه ، حيث استوعب العديد منهم في تلك الانواع من الاعمال ، التي تتصف بصعوبتها او قلة الاجور التي تدفع من اجلها ، كأعمال البناء او المطاعم او الكراجات وما شابهها ، والتي كان العمال اليهود يتركونها متجهين نحـــو اعمال او مهن اخرى ، تدر دخلا اكبر · ومع مرور نحو عشرين سنة على بداية هذا التحول ، كان التركيب المهني للعرب في اسرائيـل قد تغير بشكـل جـذري واضح للغاية ، بتحولهم من مجتمع زراعي الى طبقة عاملة (٦٢) · ونتيجـــة لهذا التغيير انخفضت ، مثلا ، نسبة العاملين العرب في الزراعة (من مجمـوع العاملين العرب عامة) من ٨ر٤٨ ٪ سنة ١٩٥٥ الى ٤ر١٥ ٪ سنة ١٩٧٦ ، بينما ارتفعت النسبة ، خلال الفترة نفسها ، في كافة فروع العمل الاخرى ــ في فرع البناء والاشغال العامة : من ٧ر١٢ ٪ الى ١ر٢٢ ٪ ، المحاجر والمعادن : مـــن ٤ر١٣٪ الى ٧ر١٨٪ . المطاعم والفنادق والتجارة : من ٦ر٧٪ الى ٣ر١١٪ . المواصلات : من ٦ر٣٪ الى ٨ر٦٪ ، الخدمات العامة والموظفون : من ٢ر٩٪ الى ٣ر١٥٪ والخدمات الشخصية : من ٥ر٢٪ الى ٢ر٨٪ (٦٣) ·

وكان لهذا التغيير في التركيب المهني ، بالنسبة للعرب ، تأثيره على اوضاعهم الاقتصادية ، ومن ثم مواقفهـم السياسيـــة · فقـد تفككت الروابـط العائليـة ــ الحمائلية ــ « القبلية » التي كانت تشد الفرد العربي الى « مجتمعه » وبيئتـه الضيقين ، وخف تأثير الزعماء عليه ، بعد ان تضعضع مركزهم عامة · كمـــا اصبح الفرد ، على وجه العموم ، اكثر استقلالية من الناحية الاقتصادية ، وكذلك اكثر اعتمادا على نفسه ، وتغيرت نظرته نحو العديد من المشكلات والهموم التي تواجهه · ونتيجة لهذه التغييرات ، وما تبعها ، اضمحلت تدريجيا القيم القديمة، السائدة في المجتمعات الزراعية ــ القروية عادة ، وحلت محلها اخرى جديدة ، شبيهة بتلك التي تسود المجتمعات العمالية ، واحيانا الصناعية ، او تلك التـــي تسير على طريق التصنيع (٦٤) · وبالنسبة للعرب في اسرائيل ، وبحكم كونهم اقلية ليست على علاقات طيبة مع الاكثرية اليهودية ، التي تعيش بجانبها ، بـل انه تفصل بين الشطرين مشكلات سياسية اساسية وحادة ، كان من بين ابـرز القيم التي تبلورت نتيجة لتلك التغييرات الاقتصادية ــ الاجتماعيـــة ، ضرورة المحافظة على الهوية القومية ، ونمو مشاعر الانتماء القومي ·

« مواطنون من الدرجة الثانية »

لم تكن العناصر التي اشرنا اليها ، « الايجابية » ، هي الوحيدة التي ساعدت على تطوير المواقف السياسية للعرب في اسرائيل ، بل ساهمت في ذلك ايضـــا عوامل اخرى ، « سلبية » في جوهرهـا ، ناجمـة اساسا عن سياسة التمييـــز والتفرقة والاهمال التي تتبعها السلطات الاسرائيلية تجاه اولئك العرب ، وكافة

قضاياهم ومشكلاتهم وهمومهم · وعلى الرغم من شغف المسؤولين الاسرائيليين، عادة ، عندما يتطرقون الى الحديث عن اوضاع العرب في اسرائيل ، بالاشادة بمدى التقدم الذي حققه اولئك خلال الثلاثين سنة الاخيرة ، بالمقارنة مع اوضاعهم سنة ١٩٤٨ ، تكفي نظرة سريعة على واقعهم للاثبات انه لا اساس لتلك الادعاءات ، وان مدى التقدم الذي كان من نصيبهم يكاد لا يقارن مع ما حققه اليهود خلال تلك الفترة ، بل انه يقل عن ذاك الذي احرزه اكثر من تجمع فلسطيني اخر ·

ويظهر وضع السكان العرب المتردي بالمقارنة مع غيرهم ، على اوضح ما يكون ، في مجال التعليم ، على ما لذلك من تأثير على مستوى معيشتهم وتقدمهم عامة · فبعد مرور ٣٠ سنة على قيام اسرائيل ، مثلا ، وعلى الرغم من تطبيق احكام قانون التعليم الالزامي منذ مطلع الخمسينات ، فان نحو ٢٠ ٪ من الاحداث العرب لا يكملون تعليمهم الابتدائي (وبالنسبة للبنات ـ نحو ٣٠٪) (٦٥)، لاسباب لا مجال لشرحها هنا (مقابل ـ ٣ ـ ٥٪ بين اليهود) · أما نسبة اولئك الذين يستأنفون دراستهم في المدارس فوق الابتدائية فتصل الى ٤١٪ للذكور ، و ٣١ ٪ للاناث (٦٦) ·

كما ان اوضاع التعليم عامة في القطاع العربي غير مرضية ، وتؤثر على مستوى تحصيل الطلاب ، والاسباب عديدة ومتنوعة ومتداخلة بعضها ببعض ، وتكاد تكون قائمة منذ سنة ١٩٤٨ وحتى اليوم ، دون ان يطرأ على الوضع أي تحسين يذكر · بل يكاد يبدو ـ استنادا ، مثلا ، الى استنتاجات لجنة المعارف والثقافة التابعة للكنيست (٦٧) ، التي كانت قد حققت في الموضوع ، خلال النصف الاخير من سنة ١٩٧٦ ، اثر احالته اليها من قبل الكنيست ـ انه ليست هناك ناحية واحدة على ما يرام من نواحي التعليم العربي · « فخلال سنوات عديدة لم تبذل [بالنسبة للتعليم العربي] الامكانات والجهود الكافية فيما يتعلق بمسألة بناء [المدارس] وتطويرها » ، ولذلك « تنقص القطاع العربي نحو ٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ غرفة تعليم » ، بسبب الصعوبات في « تخصيص اراض [البناء] للاغراض العامة » · ونتيجة لذلك نجد « الصفوف مكتظة بكثافة » و « مباني [المدارس] المستأجرة موزعة على كافة انحاء القرية » ، وتعاني من « نقص شديد ··· في المختبرات والمكتبات وقاعات الرياضة وغيرها » (٦٨) · يضاف الى ذلك « ان الرسوب [بين الطلاب] في القطاع العربي يصل الى نسب تثير القلق » · اما « كتب التعليم فانها ليست على مستوى لائق » ، كما ان « التعليم المهني والزراعي غير متطور » · ثم « ان ٤٥ ٪ من المدرسين غير مؤهلين » ، نتيجة « لنقص شديد في القوى البشرية المؤهلة للتعليم » من ناحية ، ولعدم استخدام مدرسين مؤهلين ، من خريجي الجامعات او دور المعلمين الاسرائيلية ، لاعتبارات سياسية من ناحية اخرى · وقد انحت لجنة المعارف

والثقافة باللوم ، نتيجة لهذا الوضع ، على كل من السلطات المحلية العربية وقسم المعارف والثقافة العربية في وزارة المعارف والثقافة لعدم قيامهم بواجباتهم ، وطالبت السلطات باعداد خطة خاصة لتطوير التعليم العربي عامة (٦٩) ٠

والواضح، بالطبع ان اوضاع التعليم العربي غير المرضية، في المراحل الابتدائية والاعدادية والثانوية ، تؤثر سلبا على اوضاع التعليم الجامعي ، وتحد من عدد الخريجين الجامعيين العرب ، الذين لا يكفي عددهم لتلبية متطلبات مجتمعهم الضرورية للغاية ٠ فقد وصل عدد الجامعيين العرب في اسرائيل حتى سنة ١٩٧٤ ، مثلا ، الى ٨٠٠ر١ خريج (مقابل ٩٠٠ر٩٤ بين اليهود) ، منهم ٤٠٠ر١ انهوا دراستهم للدرجة الجامعية الاولى (٧٠) ٠ ويعمل نحو ٥٠ ٪ من اولئك الخريجين في التدريس ، و ٢٠٪ في المحاماة ، و ٨٪ في الطب و ٧٪ في الشؤون الاجتماعية و ٦٪ في المهن الهندسية ٠ كما ان ٧٥٪ منهم اجراء ، والباقون ذوو اعمال مستقلة (٧١) ٠ وليس انخفاض مستوى التعليم العربي عامة هو العامل الوحيد الذي يقلل من عدد الجامعيين العرب ، اذ تضاف اليه صعوبات الحصول على عمل بعد التخرج ٠ وكانت هذه الصعوبات قد وصلت الى حد دفع الحكومة ، سنة ١٩٧٤ ، الى تخصيص ٢٤ وظيفة كبيرة في مختلف الدوائر للعرب (٧٢) ، الا ان هذا القرار لم ينفذ ، نتيجة للمعارضة التي ابدتها دوائر اسرائيلية عديدة ذات نفوذ (٧٣) ٠

غير انه على الرغم من الصعوبات العديدة التي تعترض طريق التعليم الجامعي العربي ، يلاحظ ان هناك ، بالمقارنة مع الماضي ، ارتفاعا نسبيا في عدد الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية ، اذ ازداد عددهم من ٥٤٥ طالبا في السنة الدراسية ١٩٦٩ / ٧٠ الى ٨٦٠ و ٨٩٠ و ١٠٩٠ و ١٢٥٠ و ١٥٠٠ في السنوات التالية (٧٤) ، ويكاد يصل حاليا الى نحو ١٧٠٠ طالب ـ أي نحو ٣٢٠ طالبا لكل ١٠٠ الف نسمة (مقابل ١٣٠٠ لليهود و ٢٠٠٠ بالنسبة للفلسطينيين في الضفة الغربية و ٤٠٠٠ في الولايات المتحدة) (٧٥) ٠ ونتيجة لهذه الزيادة في عدد الطلاب ، ارتفع ايضا عدد الخريجين العرب ، بالمقارنة مع الماضي ٠ فمن بين الـ ٤٠٠ر١ جامعي عربي (للدرجة الجامعية الاولى) الذين وجدوا في اسرائيل سنة ١٩٧٤ ، تخرج ٣٢٥ شخصا خلال السنوات العشر : ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ (٧٦) ، بينما تخرج الباقون ـ اي ١٠٧٥ شخصا ـ خلال السنوات الاربع : ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ ٠

وتجدر الاشارة ، هنا ، من ناحية ثانية ، الى ان الطلاب العرب من اكثر العناصر راديكالية بين العرب في اسرائيل ، اذ تم ذلك نتيجة للصعوبات التي يواجهونها اثناء دراستهم او تفتيشهم عن عمل ، او لكونهم جيل التحول في

المجتمع العربي ، أو للاوضاع السياسية العامة التي يواجهها العرب هناك (٧٧)، ويكادون يقومون ـ على حد تعبير احدهم ـ بدور « وكيل الصراع » (٧٨) في علاقات السكان العرب مع السلطات ، ويستفاد من بحث حول اوضاع الطلاب الجامعيين العرب ومواقفهم ان جيل الشباب العربي المتعلم في اسرائيل ، على الرغم من « استعداده [لاقامة] علاقات اجتماعية وثيقة مع اليهود اكثر من ابناء الجيل السابق » ، فانه « اكثر تطرفا في قوميته من ذلك الجيل » ، بل يتضح « ان الطلاب اكثر تطرفا من ابناء جيلهم العمال » (٧٩) ٠

واوضاع التعليم المتردية بين العرب في اسرائيل تكاد تكون مثالا على اوضاعهم عامة ، في اكثر من مجال ، كالخدمات والاسكان ومستوى المعيشة وغيرها ٠ فعلى صعيد الخدمات ، مثلا ، تلعب السلطات المحلية في اسرائيل (البلديات والمجالس الاقليمية او المحلية) دورا بارزا في تقديمها ، لا يمكن الاستغناء عنه ٠ ولذلك يلاحظ ان تلك السلطات قائمة في كل تجمع سكاني يهودي ، مهما بلغ صغره ٠ وحتى سنة ١٩٧١ ، مثلا ، كان نحو ١ر٠٪ فقط من السكان اليهود يعيشون خارج نطاق السلطات المحلية (٨٠) ، بينما تصل هذه النسبة لدى العرب الى نحو ٢٠٪ ، يعيشون في نحو ٣٥ تجمعا سكانيا ، معظمها من القرى الصغيرة ، مما يؤدى الى انعدام وجود خدمات منتظمة في تلك القرى ٠ والوضع ليس احسن بكثير حتى في تلك القرى التي تعمل فيها السلطات المحلية ، اذ ان ميزانية تلك السلطات تعتمد الى حد كبير على الهبات والمساعدات التي تقدمها الحكومة لها ، والتي تنتهج سياسة تمييز واضحة بين القطاعين اليهودي والعربي ٠ ويتضح ، مثلا ، من تقرير قدمته لجنة جرايسي سنة ١٩٧٤ ، والتي كانت قد عينت سنة ١٩٧٢ ، من قبل وزارة الداخلية ، للتحقيق في اوضاع السلطات المحلية والعربية ومتطلباتها ، ان معدل الهبات التى منحتها الحكومة للسلطات المحلية ،حتى ذلك الوقت ،تراوح بين ٤ـ١٠ليراتللفرد في القطاع العربي ، مقابل ٧٠ ـ ١٢٥ ليرة في القطاع اليهودي (٨١) ٠ ونتيجة لذلك يبدو ، على سبيل المثال ايضا ، ان نحو ربع السكان العرب في اسرائيل لا يزالون يعيشون حتى اليوم في اماكن لا تصلها الكهرباء (٨٢) ٠

كذلك تعاني القرية العربية عامة من سياسة تهدف الى تضييق الخناق عليها ومنع توسعها ، لمجابهة ما يحلو لغلاة الصهيونيين تسميته « الاستيطان العربي في اسرائيل » وتحجيمه ٠ وانطلاقا من هذه السياسة ، لم تنجز حتى سنة ١٩٧٦ ، مثلا ، الخرائط الهيكلية ، الا بالنسبة لـ ١١ قرية عربية فقط ، بينما لا تزال ، بالنسبة لـ ٥٨ قرية اخرى ، قيد الاعداد ، منذ سنين عديدة (٨٣) ٠ والواضح ان هذا الواقع يعيق عملية تطور القرية العربية ، ويعرقل مخططات بنائها ، ويسيء الى وضع الاسكان فيها ٠ ونتيجة لهذا الوضع من ناحية ، وازدياد عدد سكان القرى من ناحية ثانية ، اضطر العديد منهم الى اقامة

المساكن دون رخص بناء ، مما دفع السلطات الى الرد على هذه الظاهـــرة بتقديم المخالفين الى المحاكمة ، واستصدار قرارات بهدم المساكن التي اقيمـت دون ترخيص · وحتى سنة ١٩٧٤ كانت المحاكم الاسرائيلية، بحسب رأي احدهم، قد اصدرت نحو ٣ الاف امر هدم من هذا النوع ، بالاضافة الى ٢٤ الف ملـف مخالفة ، كانت قيد الاعداد لتقديمها للمحاكم (٨٤) · ويبدو ان هذا العــدد الكبير من المخالفات قد « اخاف » السلطات ، مما دفعها الى الغاء عدد لا بأس به منها واغلاق ملفاته (٨٥).الآن السلطة تقوم ، على الرغم من ذلك ، ومـن حين الى اخر ، بهدم بيت عربي ، اقيم هنا او هناك دون ترخيص ، ممـا يثيـر ردود فعل غاضبة بين السكان العرب ويدفعهم احيانا الى الصدام مع الشرطة ·

وما تقدم لا يعطي الا فكرة مقتضبة عما تعانيه القرية العربية في مجـالات محددة فقط ، اذ ان المجالات الاخـرى ليست احسـن وضعـا · ولعل رؤوساء المجالس المحلية العربية هم المؤهلون ، اكثر من غيرهم ، لعرض المشكلات التـي تواجهها قراهم · ففي اجتماع ، هو الاول من نوعه منذ قيام اسرائيل ، كان عدد من رؤوساء تلك المجالس قد عقده في الناصرة ، قبل بضع سنوات ، تقدم اولئك بطلبات ، يكفي مجرد عرضها للدلالة على مدى التردي في اوضاع القرى العربية عامة · فقد نصت تلك التظلمات ـ الطلبات ، من بين ما نصـت عليه ، علـى « تحقيق المساواة التامة بين السلطات المحلية العربية واليهودية ، والتعجيـل بتنفيذ مشروع الخرائط الهيكلية في [القرى العربية] ، ومنح المجالس المحليـة العربية صلاحية ضم اراض الى نطاق سلطاتهـا ، واضافـة صفـوف تعليـم ، وتشجيع المعلمين العرب على اتمام دراساتهم ، وبناء منشآت رياضية ، ومنـح المجالس المحلية العربية صفة منطقة تعمير درجة أ[وهي المناطق التي تحصل على اكبر نسبة ممكنة من المساعدات والهبـات الحكوميـة] ، واسكـان الشبـان المتزوجين والعائلات كثيرة الابناء ، وتوسيع شبكتي المياه والكهرباء ، واعادة الضرائب التي جبيت كضرائب رأس منذ سنة ١٩٦٦، ولم تحول الى المجالس »(٨٦) · واضـاف مصـدر اخـر الـى هــذه المطالب : « الغـاء اوامـر الهدم ··· وشق طرق ··· والحصول على مساعدات لبناء ··· نواد وخدمات صحية ··· وتعميم المراسلات الرسمية ، باللغـة العربيـة ··· » (٨٧) · وكـان رؤوساء المجالس المحلية العربية قد تقدموا بهذه المطالب ، كما اشرنا ، قبـل بضـع سنوات ، الا انه ليس هنالك ما يؤكد ، ان تلك الطلبات لا تزال قائمة حتى اليوم. اذ لم يطرأ منذ ذلك الوقت اي تحسن يذكر على الاوضاع التي اشتكى رؤوساء المجالس منها · ولا يتوقع ، على كل حـال ، ان يحـدث تحسن يذكـر في هذا الصدد ، ولاسباب سياسية اساسا ، فالعرب في اسرائيل هم ـ على حد تعبيـر مستشار سابق لرئيس الحكومة الاسرائيلية ، وهو شموئيل طوليدانو ، الـذي

امضى في منصبه هذا ١٢ سنة ، حتى استقالته سنة ١٩٧٧ ـ « مواطنون من الدرجة الثانية » (٨٨) ٠

فلسطينيون ، لا اسرائيليون

كان العرب « مواطنين من الدرجة الثانية » في اسرائيل ، منذ اقامتها ، ولا يزالون كذلك ٠ والاسباب واضحة للغاية ، وناجمة عن طبيعة الكيان الصهيوني : فاسرائيل دولة صهيونية ، أقامها الصهيونيون ، لمصلحتهم وخدمة اهدافهم ٠ ومن لا ينطبق عليه مثل هذا التصنيف لا يمكن ان يكون الا مواطنا من الدرجة الثانية ، ان لم يكن اسوأ من ذلك ٠

ومشكلة العرب في اسرائيل مع الكيان الصهيوني ، او مشكلة ذلك الكيان معهم ، على كل حال ، ليست جديدة ، بل على العكس ان عمرها كعمر اسرائيل٠ وهي ايضا ليست مشكلة « مواطنين » او رعايا ، بل انها عبارة عن واقع غريب لطرفين لم يقبل اي منهما بالاخر ، على اقل تعديل ٠ فالفلسطينيون الذين شاءت ظروف حرب ١٩٤٨ ان يبقوا في اماكنهم في ذلك الجزء الذي احتل من فلسطين انذاك لم يرحبوا بالاحتلال الجديد الذي فرض نفسه عليهم ، بينما لم يكن النظام نفسه تواقا الى ضم عرب فلسطينيين ، مهما قل عددهم ، تحت كنفه ، بل ان بعض اركانه بذل كل ما في وسعه للتخلص منهم جميعا ٠ ولكن اتفاقيات الهدنة العربية ـ الاسرائيلية لعام ١٩٤٩ سرعان ما وقعت ، وبقي اولئك العرب في اماكنهم ٠

لقد احتار كل من الطرفين ، العرب في اسرائيل ، واسرائيل نفسها ، في شأن كيفية التعامل بعضهما مع بعض ، في ضوء ذلك الواقع الجديد ٠ الا ان السلطة ، بحكم كونها الطرف الاقوى ، كانت السباقة الى تحديد صيغة ذلك التعامل ، فاخضعت العرب لنظام عسكري قمعي لم يكن هدفه الا الاستيلاء على اراضيهم لتحويلها لاغراض الاستيطان اليهودي من ناحية ، والحرص على اتقاء « شرورهم » الامنية من ناحية ثانية ٠ ومع مرور بضع سنوات على قيام اسرائيل ، عندما استنفدت اغراض تلك السياسة ، تصاعدت الدعوات الى تغييرها واضفاء طابع ما من الليبرالية عليها ، فاعلن ان اولئك العرب ليسوا الا مواطنين اسرائيليين ، ينبغي التعامل معهم على هذا الاساس ٠ غير ان هذه الاعلانات لم تكن الا من قبيل الدعاية الجوفاء وذر الرماد في العيون ، فاسرائيل كانت منهمكة انذاك في حل مشكلاتها الداخلية ، من جهة ، والعمل لضمان مستقبلها وامنها ، بمحاولة فرض الصلح على العرب من جهة اخرى ، من خلال تجاهل وجود الفلسطينيين او قضيتهم ٠ ولذلك فان السياسة التي انتهجت تجاه

العرب في اسرائيل ، والتي جاءت مكملة لتلك المتبعة تجاه العالم العربي بأسره ، كانت في جوهرها سياسة اضطهاد لاولئك العرب ، همها « اطفاء الحرائق » التي قد تنشب بينهم ، على امل ان يذوبوا في المجتمع الاسرائيلي كافراد ، باعتبار انه ليست هناك اي طريق اخرى ، بالنسبة لهم او للسلطة ·

وانطلاقا من هذه المواقف ، لم تنتهج السلطة الاسرائيلية ، عامة ، تجاه اولئك العرب ، سياسة « كسر عظم » عنصرية مقيته ، كتلك التي اوحت بها ، مثلا ، وثيقة كينيغ (٨٩) والهادفة الى طرد العرب من اسرائيل من جهة ، ولم تصغ ايضا الى المقترحات « حسنة النية » والساذجة ، كتلك التي كان قد تقدم بها المستشارون الاخيرون لرئيس الحكومة للشؤون العربية (٩٠) والهادفة لتحويل العرب الى « مواطنين صالحين » من جهة اخرى ، بل سلكت ، عمليا ، طريقا ما في الوسط ، منتهجة اسلوب ضربة على الحافر واخرى على المسمار · ولم تعط هذه السياسة ، على كل حال ، ثمارا كثيرة ، الا انها لم تخلق ، في الوقت نفسه، مشكلات كبيرة ، خارجة عن قدرة السلطة على استيعابها · وكان بالامكان ، لو بقيت الاوضاع السياسية العربية والفلسطينية على ما كانت عليه ، المثابرة على انتهاج تلك السياسة الى اجل غير مسمى · الا ان تغير تلك الاوضاع ، الذي رافقته تغييرات سكانية ومهنية واجتماعية وغيرها لدى العرب في اسرائيل ، قلب الطاولة على وجهها ، وجعل من اولئك العرب جزءا من طليعة الفلسطينيين المناضلين من اجل حقوقهم ، مع تحول قضيتهم الى مسالة ولاء وانتماء في الدرجة الاولى ، قبل ان تكون موضوع مساواة في الحقوق بين العرب واليهود، وبعد ان نقلوا القضية الفلسطينية الى داخل اسرائيل نفسها ·

وتطورات المستقبل ، على هذا الصعيد ، جديرة بالمراقبة ·

الحواشي

(١) انظر ، على سبيل المقارنة ، **كتاب الحكومة [الاسرائيلية] السنوي ، ٥٧٣٧ (١٩٧٦/٧٧)** ، القدس ، مركز الاعلام ، ١٩٧٧ ، ص ٤٤٣ (بالعبرية) ·

(٢) انظر ، للتفاصيل ، صبري جريس، **العرب في اسرائيل** ، بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٣ ، الطبعة الثانية ، ص ٣١٦ ــ ٣١٨.

(٣) **المصدر نفسه** ، ص ٣٢٥ ·

(٤) **المصدر نفسه** ، ص ١٢٠ ــ ١٢٥ ·

(٥) يقدر عدد اولئك الذين القي القبض عليهم ، من العرب في اسرائيل ، بتهمة القيام بنشاط فدائي بنحو ٤٠٠ شخص ·

(٦) محمد وتد ، عضو سكرتارية حزب مبام ، في ندوة مع مجلة **بشاعار** ، العدد ١٢٠ ــ ١٢١ ، اذار ــ حزيران ١٩٧٥ ، ص ١١٣ ·

(٧) انظر ايضا **المصدر نفسه** ، ص ١١٣ ــ ١١٤ ·

(٨) النائب امنون لين ، اثناء تقديمه اقتراحا حول اوضاع العرب في اسرائيل، في **محاضر الكنيست** ، ٨ /١٢/١٩٧٥ ، ص ٦٣٣ ·

(٩) **المصدر نفسه** ·

(١٠) من اعلان ــ بيان للتكتل اليميني ليكود في **هآرتس** ، ١٩٧٤/١٢/٢٥ ·

(١١) راجع وصف اللقاء في **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٤/١١/٢٨ ·

(١٢) **دافار** ، ١٩٧٤/١٢/٢٠ ·

(١٣) راجع نص البيان في **الارض** ، آذار ١٩٧٨ ، نقلا عن **الشعب** · وانظر ايضا التعليقات التي نشرت ، عقب اصدار البيان ، في **معاريف** ، ١٩٧٨/٣/٢ **ودفار**، ١٩٧٨/٣/٣ **وهآرتس** ، ١٩٧٨/٣/٥ ·

(١٤) انظر ، مثلا ، تصريحات وزير الخارجية موشي دايان في هذا الصدد ، في **معاريف** ، ١٩٧٩/١/٢٤ ·

(١٥) انظر جريس ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٦ ــ ٢٨٧ والمصادر المثبتة هناك·

(16) Israel, Central Bureau of Statistics, *Results of the Elections to the Ninth Knesset, 17. 5. 1977*, Special Series No. 553 (Jerusalem, 1977), pp. 49 - 51.

(١٧) **المصدر نفسه** ·

(١٨) **المصدر نفسه** ·

(19) Israel, Central Bureau of Statistics, *Results of the Elections to the Eighth Knesset and to Local Authorities, 31. 12. 1973*, Special Series no. 461 (Jerusalem, 1974), pp. 46 - 47.

(٢٠) راجع المصدرين رقم (١٦) و (١٩) اعلاه ·

(٢١) **المصدر نفسه** ·

(٢٢) دانيئيل بلوخ في **دافار** ، ١٩٧٥/١٢/١١ ·

(٢٣) داني روبينشتاين في **المصدر نفسه** ، ١٩٧٥/١٢/١٨ ·

(٢٤) **المصدر نفسه** ·

(٢٥) انظر المصدر رقم (٢٢) اعلاه ·

(٢٦) انظر ، للتفاصيل ، جريس ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٠٤ ــ ٣١٤ ·

(٢٧) انظر المصدر رقم (١٩) اعلاه ، ص ٢٦ ــ ٣١ و ٢٤٤ و ٣٠٠ و ٣٠٥ ــ ٣١٢ ، **والعرب في اسرائيل** ، ص ٣١٢ ·

(٢٨) صحيفة **الاتحاد** ، ١٩٧٤/٦/٢١ ·

(٢٩) انظر ، للتفاصيل ، ايلي ريخس، **عرفي يسرائيل فيهفكعات هاكركعوت بجليل** (عرب اسرائيل ومصادرة الاراضي في الجليل) ، تل ابيب ، معهد شيلواح في جامعة تل ابيب ، ١٩٧٧ ، ص ١٧ ــ ٣٢·

(٣٠) **المصدر نفسه** ·

(٣١) **المصدر نفسه** ·

(٣٢) انظر ايضا **المصدر نفسه** ، ص ٢٢ ــ ٢٨ ·

(٣٣) من مقابلة مع المحامي محمد كيوان في

The Arab Nation : Some Conclusions and Problems, MERIP Reports, No. 68 , April 1978, p. 15.

(٣٤) انظر ايضا مقالة يوئيل دار في **دافار** ، ١٩٧٨/٢/٣ ·

(٣٥) انظر **المصدر** رقم (٣٣) اعلاه، ص ١٦ ·

(٣٦) **المصدر نفسه** ·

(٣٧) يوئيل دار في **دافار**، ١٩٧٨/١/١٠· **ويديعوت احرونوت** ، ١٩٧٨/١/١٦ ·

(٣٨) انظر ، لمزيـد من التفاصيل ، مقالة زاحي اسكندر في مجلة بمرحاف ، كانون الثاني ١٩٧٩ ، العـدد ٢٦ ص ١٢ ـ ١٤ · وانظر ايضا المقابلات مـع منصور كردوش ومحمد كيوان وسالـم جبران في المصدر نفسه ، ص ١٣ ـ١٥ ·

(39) Results of the Elections to the Eighth Knesset..., *op. cit.*, pp. 46 - 47; Results of the Elections to the Ninth Knesset ..., *op. cit.*,pp. 49 - 51.

(٤٠) نشرة ر·ا·ا ، العـدد ١٦٣٣ ، ١٩٧٨/١١/١٢ ، ص ٤١٢ ـ ٤١٣ ·

(٤١) المصدر نفسه ·

(٤٢) انظر ايضـا ملخص نتائـج الانتخابات في معاريف ، ١٩٧٨/١٢/٨ ·

(43) Statistical Abstract of Israel, 1977, p. 63 - 64.

(٤٤) المصدر نفسه ، ص ٦٥ ·

(٤٥) كتاب الحكومـة [الاسرائيلية] السنوي ، ٥٧٣٧ (١٩٧٦/٧٧) ، مصدر سابق ، ص ٤٣٤ ·

(٤٦) المعطيات مستخرجة من

Results of the Elections to the Ninth Knesset..., *op. cit.*, pp. 123 - 238.

(47)*Statistical Abstract of Israel, 1977*, p. 32.

(٤٨) المصدر نفسه ·

(٤٩) انظر ، للتفاصيـل ، جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٧ ـ ١٨٧ ·

(٥٠) التفاصيل في هآرتس ، دافـار ومعاريف ، ١٩٧٤/١١/٢٥ ·

(٥١) الجريدة الرسمية ، مجموعـة النشرات رقم ٢٢٠٦ ، ١٩٧٦/٣/١٩ ·

(٥٢) التفاصيل في ريخس ، مصـدر سبق ذكره ، ص ١٧ ـ ٢٤ ·

(٥٣) جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٩ · وانظـر ايضا بيانـي النائبين مئير باعيل ويوعاز موآف فـي محـاضر الكنيست ، ١٩٧٤/١٢/٦ ، ص ٢٥٧ و ١٩٧٦/٥/١٢ ، ص ٢٥٩٨ ·

(٥٤) من وقائع مؤتمر صحفي لاعضاء لجنة الدفاع عن اراضي البدو في النقب في تل ـ ابيب ، كمـا نقلته يديعوت احرونوت ، ١٩٧٧/١٠/١١ ·

(٥٥) وزير الزراعة أهرون اوزن ، ردا على استجـواب في محاضر الكنيست ، ١٩٧٤/١٢/٣٠ ، ص ١٠٢٤ · وانظر ايضا المصدر نفسه ، ١٩٧٤/١١/٦ ، ص ٢٥٩·

(٥٦) انظر ، للتفاصيل ، مداخلة لطيف دوري في ندوة بشاعار ، مصدر سبـق ذكره ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ·

(٥٧) انظر النقاش في محاضر الكنيست ١٩٧٤/١١/٦ ، ص ٢٥٦ — ٢٦٠ ·

(٥٨) استنتاجات اللجنة الاقتصاديـة بشأن مشكلة اراضي البدو فـي النقب ، المصدر نفسه ، ملحق جلسات ٢٦ـ٢٨/ ١٩٧٦/٧ ، ص ٣٩٥٢ ·

(٥٩) انظر ، للتفاصيل ، المصدر نفسه، ملحـق جلسات ١٠ـ١٩٧٧/١/١٢ ، ص ١٠٨٢ ـ ١٠٨٣ ·

(٦٠) انظر ، للتفاصيل ، « استنتاجات لجنة العمل [التابعة للكنيست] بشأن توطين النقب ، تطويره وتصنيعه » فـي المصـدر نفسه ، ملحـق جلسـات ١٤ـ١٩٧٧/٣/١٦ ، ص ٢١٢٢ ـ ٢١٢٧·

(٦١) انظر ، للتفاصيـل ، جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٧٦ ـ ٣٨٩ ·

(٦٢) راجع ، في هذا الصدد ، مقالة
Elia T. Zureik, *From Peasantry to Proletariat*, Journal of Palestine Studies, Vol. VI, No. 1, Autumn 1976, pp. 39 - 66.

(٦٣) النسب مستخرجة من *Statistical Abstract of Israel*. 1963, pp. 498 - 501; 1977, p. 301.

(٦٤) **كتاب الحكومة [الاسرائيلية] السنوي** ، ٥٧٣٧ (١٩٧٦ / ٧٧) ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٤ ٠

(٦٥) وزير المعارف والثقافة اهرون يدلين ، ردا على استجواب في **محاضر الكنيست** ، ١٩٧٧/٢/٥ ، ص ١٩٩٢ ٠ وانظر ايضا « استنتاجات لجنة العمل بشأن وضع المواطنين العرب في الدولة » في **المصدر نفسه** ، ملحق جلسات ٢٨ـ١٩٧٥/٧/٣٠ ، ص ٤٠٤٩ ـ ٤٠٥١ ٠

(٦٦) يدلين ، **المصدر السابق** ٠

(٦٧) « استنتاجات لجنة المعارف والثقافة بشأن اوضاع الطلاب في المدارس العربية في البلد » ، **محاضر الكنيست** ، ملحق جلسات ٢/٢٨ ـ ١٩٧٧/٣/٢ ، ص ١٧٧٦ ـ ١٧٧٨ ٠

(٦٨) **المصدر نفسه** ٠

(٦٩) **المصدر نفسه** ٠

(70) *Statistical Abstract of Israel, 1977*, p. 630.

(٧١) رئيس الحكومة يتسحاق رابين ، ردا على استجواب في **محاضر الكنيست**، ١٩٧٥/١/١٥ ، ص ١٣٠٠ ٠

(٧٢) **المصدر نفسه** ٠

(٧٣) شموئيل طوليدانو ، المستشار السابق لرئيس الحكومة للشؤون العربية في مقابلة ، بعد استقالته ، مع ملحق **هآرتس** ، ١٩٧٧/١/٢٨ ٠

(٧٤) رئيس الحكومة يتسحاق رابين ووزير المعارف والثقافة اهرون يدلين ، ردا على استجوابات في **محاضر الكنيست** ١٩٧٥/١/١٥ ، ص ١٣٠٠ و ١٩٧٤/٨/١٥ ص ٢٨٩٧ ٠

(75) Sami Mar'i *Arab Education in Israel*, Syracuse University Press, 1978, p. 109.

(٧٦) وزير المعارف والثقافة اهرون يدلين ، ردا على استجواب في **محاضر الكنيست** ، ١٩٧٤/٨/١٥ ، ص ٢٨٩٧ ٠

(٧٧) انظر التفاصيل في
Mar'i, *op. cit.*, pp. 115 - 123

(٧٨) ابراهام بنيامين وراحيل بيليغ ، **هاهسكلاه هاغفوهاه فيهعرافيم بيسرائيل** (التعليم العالي والعرب في اسرائيل) ، تل ابيب ، عام عوفيد وجامعة حيفا ، ١٩٧٧ ، ص ٥٦ ٠

(٧٩) **المصدر نفسه** ، ص ٢٩ ٠ ولتحليل أوضاع التعليم العالي بين العرب عامة ، انظر ص ٢٨ ـ ٥٦ ٠

(٨٠) انظر **العرب في اسرائيل** ، ص ٣٩٢ ، الجدول ١٤ والمصادر المثبتة هناك٠

(٨١) كما اوردها النائب توفيق طوبي في **محاضر الكنيست** ، ١٩٧٤/٧/٣٠ ، ص ٢٥٢٦ ٠

(٨٢) انظر ، على سبيل المقارنة، اقوال النائبة حايكه غروسمان في **المصدر نفسه**، ١٩٧٣/١/٣٠ ، ص ١٤٦٦ ٠

(٨٣) وزير الداخلية ، يوسف بورغ ، في **المصدر نفسه** ، ١٩٧٦/٧/٢١ ، ص ٣٧٢٩ ٠

(٨٤) النائب توفيق طوبي ، اثناء تقديمه اقتراحا لجدول الاعمال حول

اوضاع السلطات المحلية العربية ، في **المصدر نفسه** ، ١٩٧٤/٧/٣٠. ص ٢٥٢٦.

(٨٥) شموئيل طوليدانو في ندوة بشاعار ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٥٥ .

(٨٦) كما اوردتها **نشرة م.د.ف.** ١٩٧٥/٣/١ . نقلا على دافار . ١٩٧٥/٢/١٧ .

(٨٧) **المصدر نفسه** ، نقلا عن معاريف. ١٩٧٥/٢/١٧ .

(٨٨) من تصريحات طوليدانو . بعد استقالته . في مقابلة مع ملحق هآرتس . ١٩٧٧/١/٢٨ .

(٨٩) **عل همشمار** ، ١٩٧٦/٩/٧ . وقد نشرت ترجمة عربية لهذه الوثيقة في **شؤون فلسطينية** ، تشرين الاول ــ تشرين الثاني ، العدد ٦٠ ، ص ١٦٧ ــ ١٨٤ ، و**نشرة م.د.ف.** ، ١/٥ ــ ١٩٧٦/١١/١. ص ٢٣٣ ــ ٢٤٧ .

(٩٠) انظر ، مثلا ، مقابلة شموئيل طوليدانو ، بعد استقالته ، مع ملحق **هآرتس** ، ١٩٧٧/١/٢٨ ومقابلة الدكتور موشي شارون ، بعد استقالته ، مع **يديعوت احرونوت** . ١٩٧٩/٢/٢٦ .

الياس شوفاني

الحاضر الغائب والغائب الحاضر

الحاضر حاضر ، والغائب غائب · هكذا يستقيم منطق الامور · وهذا هو العرف والعادة · حتى ناطور القرية يعرف ذلك ، ويعيه تماما · وهو عندما يعمم على الناس اوامر السلطة ، ينادي عليهم بأعلى صوته : يا اهل البلد : الحاضر يعلم الغائب ··· فهو يميز بين الاثنين ، ويدعو كلا باسمه ، ولا يخلط بينهما · واذا فعل ، فأنما لامر في نفسه · اما في اسرائيل ، فالمسائل البسيطة كهذه ، والتي يفهمها ناطور القرية ، لا تقوم على منطق سليم · ولذلك يصعب فهمها ، وتبدو مستهجنة · والفلاحون يقولون : درب القيظ عوجاء · فاسرائيليا ، الفلسطيني الغائب غائب بطبيعة الحال · ولكن ، واسرائيليا ايضا ، قد يكون بعض الحاضر غائبا كذلك ، وهذه بدعة · وهي طريفة : فبحسب هؤلاء القوم ، لا يرتبط حضور الفلسطيني وغيابه بجسده ، وانما بارضه · فان احتاجوها ، غاب هو عنها · وان استغنوا عنها ، وهو الشاذ دون القاعدة ، حضر هو عليها · والارض في نظر الاستيطان الصهيوني ، هي العامل الثابت · اما الانسان ، خاصة الفلسطيني ، فهو المتغير · وعليه فبالامكان « تحضيره » او « تغييبه » وفقا لما تقتضيه حاجة ذلك الاستيطان · والاصل في الممارسة الصهيونية ، امتلاك القوة السياسية ، وبالتالي القدرة العسكرية ، لتجسيد ذلك في الواقع · وصاحب السلطة يرسم الحدود ، ويضع القوانين · وباستصداره « قانون املاك الغائبين » ، حول الكيان الصهيوني الاف الفلسطينيين ، ممن آثروا الاحتلال على التشرد ، الى بشر حاضرين باجسادهم ، غائبين بحقوقهم · وكنت انا منهم · وكذلك كان بعض اخوتي وامي ، دون البعض الآخر من الاخوة ، ممن كانوا في عداد « الحاضر ـ حاضر » · اما والدي

فكان من فئة « الغائب ـ غائب » · وعليه ، ونحن عائلة واحدة ، اصبحنـــا بنعمة الاحتلال الصهيوني من فئات ثلاث · وهذا التصنيف « القانونـي » ليس له علاقة بوجودنا المادي بطبيعة الحال ، وانما يستهـــدف بالاساس ارضنـــا وممتلكاتنا · وكذلك الحال بالنسبة الى الالاف من ابناء صنفنا ·

و « قانون املاك الغائبين » هذا ، هو الغطاء « القانوني » لعملية النهـــب الواسعة لممتلكات العرب الفلسطينيين · فاسرائيل « كيان سياسي حضاري » ، بواقع انتمائها الى الغرب الرأسمالي ، اصلا وفرعا · وعليه ، فلا يليق بها ان تستولي وتنهب الا بموجب «القانون » · وكيفمـــا اراد الفاخوري ركب اذن الجرة ·ولكي تستولي دولـة الاستيطـان الصهيونـي على الارض العربيـة فـي فلسطين وتهودها ، كان لا بد من تغييب سكانها الاصليين عنها · فكأنمـا ذلـك لا يستقيم دون تغطية قانونية · ومن لم تقتلعه الحرب ويشرده الارهاب والعنف الفاشي ، لحقه التغريب والابعاد · ومن افلت من هذا وذاك ، اطبق عليه التغييب بمقتضى قانون تهويد الاراضي العربية · والعبرة في هذا القانون ليست فـــي التهويد والاستملاك ··· الخ ، فهذه ظواهر نابية فعـــلا ، ولكنها رافقـت الاستيطان الصهيوني فيفلسطين منذ البداية · انمـــا العبـــرة في تعريف « الغائب » وفقا لهذا القانون · والغياب ، في هذا المجال ، لا ينحصر فيمـــن شردته الحرب ، فظل خارج رقعة الاحتلال الصهيوني ، وانما يتعداه الى مـن بقي داخلها · والغائب بحسب هذا القانون الاسرائيلي ، لا يتطابق تمامـا مـــع اللاجيء الفلسطيني ، في المصطلح العربي والدولي · فهناك غائبون عن اسرائيل فيهـا · وهناك لاجئون فلسطينيون في اسرائيـــل ، لم يخرجوا الى البـلاد العربية ، فيحظوا باللقب عن جدارة · وهناك من خرج من بيته ، او اخرج منه عنوة ، الى احد البلـدان العربية المجاورة ، فاكتسب « جنسية اللجوء » ، ثـم عاد الى فلسطين المحتلة ، محتفظا ، رغبة او قسرا ، بجنسيته المكتسبة · وكنت من هذه الفئة الاخيرة · ومثلي الالاف · وعلى اي حال ، هـــذا هو القانون ، والجهل به لا يعفي منه ·

•

لقانون « الحاضر ـ غائب » هذا قصة · وهي ، على حد تعبير الفلاحين فـي فلسطين ، « كقصة الافعى » ، لا تنتهي · لها بالتأكيد بداية ، ولكنها لم تنته بعد· بدأت بتاريخ ١٢ كانون اول (ديسمبر) ١٩٤٨ ، ولم تنته الى يومنا هذا (اذار ١٩٧٩) · وفي كل مرة ، يخرج القانون على الناس في صيغة تختلف شكـــلا عن سابقتها ، ولو بمقدار · لكن الجوهر واحـد : نهـب اراضي الفلسطينييـن وتهويدها · فكأنما روح ذلك القانون تتقمص في كل مرحلة من تقلباتها جسـدا جديدا · ولكل جسد اهاب للتمويه ، يتلاءم والظرف الراهن · والاصل في كل الصيغ المنمقة تغييب الفلسطيني عن ارضه وممتلكاته « قانونا » · امـا الالفـاظ فتختلف شكلا ولونا ، وفقا للزمان والمكان · وعن الاسماء حـــدث ولا حرج :

اموال الغائبين ، مناطق مغلقة ، مناطق امنيـــة ، الاراضي البـور ، الانشـاء والتعمير ، تركيز الاراضي الزراعية ، الاراضي الحرجية ، وغيرها كثير • وفي ذلك التاريخ (٤٨/١٢/١٢) ، اصدر وزير مالية الكيـــان الصهيوني حكـــم « الغائب » ، على كل فلسطيني غادر بيته ، طوعا او كراهيـــة ، منذ قـــرار التقسيم (٤٧/١١/٢٩) ، وحتى تاريخ صدور القانون • وعليه ، انتقلت املاك ذلك الغائب الى ايدي « القيم على املاك الغائبين »ورعايته • ولكن القانون ظل رهن التجديد والصدور بطبعات متتالية ، مع حفظ حقوق النشر كاملة ، فتـرة طويلة بعد ذلك • وظل تاريخ ١ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٨ ، الذي جعل مبدئيا حدا فاصلا بين الغياب والحضور ، يستبدل ليواكـب عمليـات الابعـاد والتهجيـر والمصادرة حتى اول (اغسطس) ١٩٥٨ • وعندها فقط حسم الامر ، وانتهـى تصنيف الناس الى فئات ، وفقا لاطماع الاستيطان الصهيوني في اراضيهـــم وممتلكاتهم • وبانتهاء عملية التصنيف هـــذه ، لم يسدل الستار على نهـب الاراضي العربية وتهويدها ، وانما راحت تستند الى « اساس قانوني » بديل •

وقانون « الحاضر ـ غائب » هذا لم يأت مقطوع الجذور ، فور قيام الكيان • فباستطاعة هذا الفرمان ان يدعي شجرة انساب عريقة في الفكـــر والممارســة الصهيونيين • والفكر الصهيوني غيبي بطبيعته ومنشئه • اما الحركة الصهيونية فتتميز عن قريناتها من حركات الاستيطان الاوروبي الاخرى بسمتها التغييبيـة البارزة • واذا كانت حركات الاستعمار الغربي قد مسخت الانسان من سكـان البلاد الاصليين في المستعمرات ، فان الصهيونية قد تفوقت عليها بـأن غيبت الفلسطينيين عن رقعة استيطانها بالمرة • وهي عندما القت عصا ترحالهـا فـي فلسطين ، نفت الوجود المـادي لاهلهـا الاصليين • ثـم خرجـت على الناس ، والمقصود « البيض » طبعا ، بمقولة « ارض بلا شعب ، لشعب بـــلا ارض » • وبذلك تجاوزت الصهيونية حتى اصولها اليهودية • فهذه الاخيرة ، وحتى فــي تاريخها الاسطوري ، لم تنف وجود الكنعانيين المادي في « ارض الميعـاد » • صحيح انها انتحلت ملكية الارض بعهد قطعه الرب على نفسه ، ولكنها ، مـــع الوعد الالهي ، اعترفت بان الارض تخص كنعان • وكنعان حي يرزق • وهـو يعمل ويبني ويتوالد • ولكن ارضه ميراث لشعب اسرائيـل • هكـذا جـاء فـي الاسفار ، وفي اساطير الاولين • وبقدرة قادر ، غاب الكنعاني عـــن « ارض الميعاد » • فصارت هذه حلالا لـــ « شعبالله المختار » • وعندما غاب الشعـب المختار عن الارض ، ظل كل منهما بلا تاريخ • فالاصل في الجمع بين الاثنين • اذ ليس للشعب تاريخ بدون الارض ، ولا لهذه تاريخ في غيابه عنها • والتاريخ، تاريخهم ، لا يستقيم مسارا الا اذا عبد الشعب ربه على ارضه • وان توانـى الشعب المختار عن العبادة ، فرق الرب بينه وبين الارض . واخرجهما معـا من دائرة التاريخ ، فبقيا في دائـرة الجغرافيـــا وحسب • وهـو جل جلاله ، لـن

يثوب على « شعبه » حتى يثوب هذا اليه · اما الصهاينة فلم يثوبوا الى ربهم ، وانما عبدوا الهة اخرى من دونه ، وقاموا على خدمة اصنامهم ، املا في دخول التاريخ من بابه الخلفي ، بعد الجمع بين مستوطنيهـــم والارض ، بنعمـــة الاستعمار الغربي وبركته · ومن اجل الاستئثار بالارض ، كلها ، كان لا بد من تغييب اهلها ، كلهم ، عنها ، فجاء الاستيطان الصهيوني اجلائيا · وبهذا تكمن فرادتـــه ·

ولكن الشعب الفلسطيني قاوم الاستيطان الصهيوني منذ البداية · وفلاحوه، المالكون منهم او المرابعون والمقاسمون ، لم يستكينوا للارض ننتزع من ايديهم ، فينقطع رزقهم ويضيع وطنهم · وقد قاوم هؤلاء بوسائلهم المتوفرة : هاجمـــوا المستوطنات · اغاروا على من فيها · خربوا مزروعاتها ··· الخ · والكتابات الصهيونية عن تلك الفترة ، تطفح بالكلام عن مقاومة فلاحي فلسطين وبدوهـــا لتهويد الارض · وهذا فصل من تاريخ نضال الشعب الفلسطيني لم يدون بعـد عربيا · واربكت هذه المقاومة قادة العمل الصهيوني ، كما كشفت بشكل فاضح زيف مقولة ان الارض كانت خالية خاوية ، وبالتالي ، فابوابها مشرعة للاستيطان الغريب · وازاء هذه المقاومة ، بدأ قادة العمل الصهيوني ببناء الاداة العسكرية لحماية مشروعهم · فكانت « حركة الحارس » · وتطورت هذه خلال فترة بنـاء الكيان ، فاصبحت بعد قيامه الالة العسكريـــة الاسرائيليـــة ، عبر تشكيلـة مـن التنظيمات السرية والارهابية · ولما لم يعد بالامكان انكار الوجـود المـــادي للشعب الفلسطيني ، بواقع الاشتباك الجسدي معه ، تحول الاعلام الصهيونـي الى تغييبه حضاريا · واستعانت ابواقه في هذا المجال ، بمـــا تفقت عنـــه عبقرية المستشرقين الاغيار من افرازات الحضارة الغربية عن الشرق ،واهلـه وارضه · وعاد الفلسطيني الى الوجود صهيونيا ، ولكن فيإطاره المرجعـــي العربي · فبدا في اللغو الصهيوني انسانا حقيرا متخلفا ، ينعم بكسله ، ويسعد بغبائه · ولما اكتملت اللوحة ، برز العربي ،وبالتالي الفلسطيني ، رمز العداء للحضارة والعمران ، وعنوان الفوضى والتخريب · بدا انسانا لا عقلانيـــا ، تحكمه نزواته وتسيطر عليه شهواته ، فظا ، جافي القلب والضمير ، لا يحلم بغير الشر والعدوان · كيف لا ، وقد حول الارض التي كانت تدر العسل واللبن ، الى رقاع من الصحراء قاحلة ، او الى مستنقعات موبوءة بالملاريا وغيرها · وشيـع هؤلاء ان الواحات الخضراء في صحراء فلسطين ، انما هي من صنع المستوطنين الصهاينة ، ونتاج عملهم وجهدهم · ودأب هؤلاء على تجريد الفلسطيني مـــن جميع معالم التمدن والحضارة ، ونفوا عنه كل المثل الانسانية والاخلاقيـــة · فصار بعملهم ، عدوا للبشرية والتاريخ ·

في تغييبها الحضاري للشعب الفلسطيني سخرت الصهيونية مجمل ما انتجـه الاستشراق والمستشرقون عن شعوب المنطقة ، من اجـــل خدمة اغراضهـــا

الاستيطانية الاجلائية · كما انتجت هي ايضا اسوة بالاستعمار الغربي من قبلها ، مستشرقيها واستشراقها الخاص · وليس ذلك غريبا ، فقد قامت الصهيونية على ارضية ذلك الاستعمار ، وفرخت في حضانته ، فجاءت تقليدا له، ولو على مستوى متدن · واذا جعل المستشرقون الاغيار من الاسلام وحضارته محاولة فاشلة لتزييف النصرانية وتراثها ومثلها ، فان المستشرقين الصهاينة نسبوا ذلك الى اليهودية ، وفي احسن الاحوال الى التراث اليهودي ـ النصراني · وبينما جهد الاولون في تمهيد طريق الاستعمار الغربي للنفوذ الى الشرق وحكمه ، عمل اتباعهم الصهاينة على الغاء الشعب الفلسطيني تمهيدا لاستيطانهم الاجلائي : وفي حين اعمل الاولون طاقاتهم الذهنية في تصوير شرق مستضعف ،عاجز عن حكم نفسه ، وحتى عن تمثيلها ، وبالتالي فهذه مهمة الغرب التحضيرية ورسالته ، نشط الاتباع في تجريد الشعب الفلسطيني من كل معالم الحضارة والتمدن ، وبالتالي اخراجه من عائلة الشعوب ، اعدادا لاحتلال مكانه · وما هذا الجهد الا تبريرا لجريمة تقترف بحق شعب كامل ، وتغطية لوعي زائف تخلقه الصهيونية على مستوى جماهيري فيإطارها المرجعي ـ الحضارة الغربية · فجاء هذا العمل وكأنه تزكية للعمل الصهيوني ، وتبرئة مما يقترف بحق الشعب الفلسطيني · وكأنما اراد الاعلام الصهيوني ، ومن ضمنه استشراقه ، ابراز أن ما يجري في فلسطين ليس منكرا في الاعراف الغربية ، ولا بالمعايير الرائجة هناك · وبالاختصار ارادوا القول بان ما يلغى في فلسطين ليس شعبا بالمعنى الدارج للمصطلح في الغرب ، لان افراد ذلك الشعب لا يتمتعون بالميزات اللازمة ، والتي تهيئوهم لانطباق التسمية على المسمى · من هنا ، فالعمل الصهيوني بريء من كل المنكرات ، وجدير اصلا بنيل الشرعية الدولية والتأييد الشامل · هذا طبعا الى جانب اراحة ضمائر ذلك النفر من اليهود ، ممن تأرجح بين ميوله الصهيونية وكوابحه الاخلاقية ·

وقد ادى التغييب الحضاري للشعب الفلسطيني مهمته الصهيونية ، اذ خلق مناخا غربيا ملائما لتأييد العمل الصهيوني ، استنادا الى أن ما ستقدمه الصهيونية الى الشرق وشعوبه ، يفوق مرات ومرات اذاها على اشلاء شعب متخلف · وعلى هذا الصعيد ، اسهمت اللاسامية بقسط وافر في خدمة المشروع الصهيوني · فبين الرغبة في التخلص من اليهود ، او الشفقة عليهم ، وكلاهما وجهان لعملة واحدة ، صار اقتلاع الفلسطيني من وطنه من اجل اقامة « الوطن القومي اليهودي » ، اهون الشرين · وفي هذا المناخ ، تحركت الصهيونية السياسية ، وطرحت فكرة الدولة اليهودية في فلسطين ، في قلب المشرق العربي· ولكن شعوب الشرق كانت قد هبت تناضل من اجل استقلالها وتقرير مصيرها · ولم يعد التغييب الحضاري كافيا لحذف الشعب الفلسطيني من اللوحة · فكان

لا بد من التغييب السياسي ٠وانصب جهد ألاعلام الصهيوني ،بما فيه استشراقه، على الغاء التاريخ السياسي للشعب الفلسطيني ، وبالتالي لفلسطين كلهـــا ، وعلى الحاقهما بالمراكز السياسية في الدول العربية المجاورة ، على مدى التاريخ العربي ٠ وكأنما اريد بذلك الايحاء بأن طرد الفلسطينيين الى الدول العربيـــة المجاورة ، وتوطينهم هناك ، انما هو وضع للامور في نصابها ٠ وذهب بعـض غلاة الصهاينة الى حد القول بعودة العرب الفلسطينيين الى الجزيرة العربية٠ فاذا « عاد اليهود الى مواطن ابائهم » ، والى « ارض ميعادهم » ، فالمنطـــق ، الصهيوني طبعا ، يقضي بعودة العرب الى ارض اجدادهم ٠ هذا ، وما زلنـــا الى يومنا (اذار ١٩٧٩) في اوج مرحلة التغييب السياسي للشعب الفلسطيني في العمل الصهيوني ٠

وفي اطار التغييب السياسي ، يغيـب حـق تقريـر المصيـر ٠ وفيـه يجـرد الفلسطينيون من جميـع ميزات الشعـوب ، حسب تعريفـات الاطـار المرجعـي الغربي ، وبالتالي من حقهم في الاستقلال ٠ واذا لم تقم في فلسطين دولة عربية مستقلة في الماضي ، فلماذا تقوم الآن ؟ وفيه يشوه النضال الفلسطيني ، ويحرف تاريخه ، القديم والحديث ، فتصبح الحركة الوطنية الفلسطينية اداة لقـــوى خارجية ، عربية او سواها ٠ ويصير الحاج امين الحسيني مثلا ، عميلا نازيا ، لا اكثر ولا أقل ٠ وتوصم الحركة بشتى النعوت ، ويشكك في قياداتها ، وفـــي شرعية تمثيلها لشعبها ٠ ويطرح على الـــدوام السؤال : مـن يمثـل الشعب الفلسطيني ، وهل انتخبت قيادته بشكـل ديمقراطي ؟ امـا حركـة الجماهيـر الفلسطينية العفوية فتصبح انتفاضات غوغائية ، تثور استجابة لتحريض بعض الديماغوجيين والعملاء ٠ وليس في نظر الصهاينة مـــا يدعـــو الجماهيـــر الفلسطينية للوقوف ضدهم ٠ فهم على العكس ، يرون ان من واجب هـــؤلاء الشكر والتقدير لهم ، لما جلبوه على الناس من خير وتقدم ٠ وما دام نضـــال الشعب الفلسطيني لا اساس شرعيا له ، فأنه يصبح بطبيعة الحال عدوانا على المستوطنين الابرياء ٠ وعندها تصير المساندة العربية لكفاح هذا الشعب تدخلا في الشؤون الداخلية للكيان الصهيوني ، وبالتالي عدوانا عليه ٠ والذريعة هي ان الجيوش العربية هاجمت اسرائيل المسالمـة فـور قيامهـا ، وليس العكس ٠ وعليه ، فقد تسبب الغزو العربي لاسرائيل بكارثة اللاجئين ٠ وعلى الدول التي دفعت جيوشها الى المعركة يقع وزر المسألة ٠ اما الثورة الفلسطينية فتصيـــر جيشا من المرتزقة المخربين ، اداة طيعة في ايدي الانظمة العربية المعاديـــة ٠ وتتركز وسائل الاعلام الصهيوني على التشهير بفكر الثـــورة وممارساتهـــا ٠ فتصور وكأنها مجموعة من القتلة الجبناء ، افرادها من محترفي اختطـــاف الطائرات وسواها ٠ والدولة الفلسطينية ، ان قامت ، فانما ستكون قاعـــدة سوفياتية ٠ وعندما يعترف العالم بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيـــا

وحيدا للشعب الفلسطيني ، تتكرم القيادة الصهيونية بالاعتراف بوجود قضية لذلك الشعب · وبالتاكيد فانها تستحق حلا انسانيا ، ولكن في اطار الاردن ومن خلاله · واذا جاز الكلام عن « تسوية عادلة » ، فانما تتحول التجمعات السكانية العربية في اطارها ، الى بانتوستانات تحت الاحتلال ، بغطاء الادارة الذاتية · ومع ذلك يتبجح قادة الكيان الصهيوني بأن ما يطرحونه من حل للقضية ، ينطوي على اعطاء الشعب الفلسطيني تعبيرا سياسيا ذاتيا ، لم يحصل عليه في كل تاريخه ·

« الهوية الحمراء »

لم تأت حمراء لانني اردتها هكذا · اي ليس على الطلب · ولا كان لونها مؤشرا الى انتمائي الحزبي · وانما توخى من منحني اياها تغييبي السياسي · كانت هذه بطاقة هويتي في أسرائيل · حصلت عليها بوساطة مطران الطائفة · ولم تكن لتصدر بسهولة · جرى ذلك بعد عودتي الى البلد بحوالي ثلاثة اشهر· عدت اليها من لبنان متسللا ، بعد ان ابعدتني سلطات الاحتلال · لقد ارادت في البداية تغييبي الجسدي ، لاكون من فئة الغائب ــ غائب · لكن بوساطة المطران وكفالته ، تحولت الى فئة الغائب ــ حاضر ، او العكس · والهوية الحمراء شهادة على ذلك · الفئة الاولى تحمل هويات زرقاء ، وهي للاقامة الدائمة · اما الحمراء الفاقعة فللمؤقتة · ولما كنت قد اكتسبت « جنسية اللجوء » ، اثر عبوري في البلدان العربية ــ الاردن ، سوريا ، لبنان ــ فقد استحق علي الغياب · وهذا بطبيعة الحال ، وفقا للقانون الاسرائيلي · وهو ما توخاه واضعوه · لكنني عدت الى البلد · وتوسط المطران من اجلي ، وقبلت الوساطة فبقيت · الا أن قبول الوساطة توقف عند حد الحضور الجسدي ، ولم يتجاوزه الى السياسي · فبقيت ، على هذا الصعيد ، غائبا · وهو ما تشهد به ، وتعلنه في كل مناسبة ، هويتي الحمراء · هكذا قضيت « اقامة مؤقتة » في بلدي ، امتدت من العام ١٩٤٩ الى ١٩٦٢ · بدأت بالابعاد فاللجوء ، وانتهت بالسفر في طلب العلم ، فالهجرة · ثلاثة عشر عاما من الاقامة المؤقتة في ظل الاحتلال الصهيوني هي حصيلة تجربتي مع ذلك الكيان · فيه وليس منه · يمد سلطانه علي ، ولا فعل لي فيه · يتعاطى معي ، ولا يتيح لي مجالا للتعامل معه · فانا حاضر متى شاء ، غائب متى اراد · والارادة في جانب واحد ·

لم تكن لي املاك يصادرها القيم على اموال الغائبين · وسواء حضرت ام غبت ، ام كنت في منزلة بينهما ، فلن يغير ذلك من الامر شيئا · اما املاك والدي فقد صودرت على اي حال ، اذ كان من فئة الغائب ــ غائب · لكن الهوية الحمراء كانت تحرمني ، ولو نظريا ، من ميراث والدي · فبالاضافة الى

كونها شهادة تغييب ، فهي ايضا صك حرمان • ولو حدث ، والكلام نظري ايضا ، ان امتلكت شيئا ، قطعة ارض او بيت ، حتى وان كان من نتاج عملي ، فباستطاعة القيم ان يصادره قانونا • والاكيد ان شيئا من ذلك لم يحصل • الا ان شبح المصادرة كان يطاردني ، اسوة بغيري من ابناء صنفي • والكلمة الاخيرة والحاسمة هي للقيم • وما دام هذا قد اعتمد المصادرة مبدأ ، فقد آليت انا الا افتح له بابا •

والهوية الحمراء فرمان فك ارتباط مع الحياة السياسية في الكيان • فهي تستثني صاحبها من حق الانتخاب مثلا • الا انها لا تذهب الى حد تخطيه في جباية الضرائب • وفي اسرائيل لعبة ديمقراطية ، بكل طقوسها الغربية • وبحسب قانونها الاساسي ، وكذلك في صك اعلانها دولة ، تعتبر اسرائيل الفلسطينيين تحت احتلالها مواطنين • وعليه ، فهم يشاركون في الانتخابات العامة للكنيست ، ولهم ان يرشحوا انفسهم ويخوضوا الانتخابات لعضويته • وبالفعل ، فقد كان هناك اعضاء عرب حتى في الكنيست الاول • ومنهم مثلا سيف الدين الزعبي ، الذي استقال قبل ايام ، دون ان ينهي الدورة الحالية ، وهي التاسعة في ترتيبها (شباط (فبراير) ١٩٧٩) • ولهؤلاء النواب العرب في الكنيست قصة ، سنفرد لها بابا خاصا • اذ لا يجوز تناولها مرور الكرام • اما هويتي الحمراء فلم تقف حائلا بيني وبين عضوية الكنيست وحسب ، وانما تعدت ذلك الى حقي في انتخاب من يمثلني هناك ايضا • والكلام في الموضوع نظري طبعا ، اذ لم تكن عضوية الكنيست تخطر لي على بال • اما القاء صوتي في صندوق الاقتراع ، مرة كل بضع سنين ، لصالح هذا المرشح او ذاك ، فلم تكن مسألة تهمني كثيرا •

والواقع انه اتيحت لي اكثر من فرصة لاستبدال هويتي الحمراء باخرى زرقاء • كان ذلك في الاعوام ١٩٥٥ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦١ • اي في مواسم الانتخابات العامة للكنيست • ففيها كانت الاحزاب الصهيونية تتنافس على صيد الاصوات العربية • وتتبارى فيما بينها على تقديم الخدمات ، بما فيها حل بعض المشاكل الفردية للناخبين الملتزمين • وهكذا يبدأ باستبدال بطاقة الهوية لمن هم في وضعي • والاجراء معروف : محكمة شكلية • ينال المدعي فيها حق الانتخاب ، بناء على شهادة حضور ، كما فقده بناء على شهادة غياب • وما دامت المهمة الاساسية قد انجزت ، والارض صودرت ، فالباقي تفاصيل هامشية• وقد حصل كثيرون ، ممن كانوا في حكم الغائب ، على حقهم في استبدال هويتهم ، وبالتالي الاقتراع في الانتخابات العامة • بل واكثر من ذلك ، ففي حالة واحدة على الاقل ، اعرف من جرى استبدال بطاقة هويته الشخصية ، كي يدخل معركة الانتخابات في قائمة عربية ملحقة بحزب العمال الحاكم • وكان هذا قد غادر قريته عندما وقعت تحت الاحتلال ، في نهاية العام ١٩٤٨ • وبقي

في لبنان بضع سنين ٠ ثم عاد الى القرية في اطار « جمع شمل العائلات » ، عام ١٩٥٣ ٠ فما كان منه الا ان دخل الانتخابات للكنيست الثالث (١٩٥٥) ، مرشحا في القائمة الديمقراطية ، المؤتلفة مع الحزب الحاكم عندئذ ، مباي ٠ وكان على رأس تلك القائمة سيف الدين الزعبي ، المذكور انفا ٠ وفيها عضو الكنيست الحالي ، جبر معدي ٠ اما صاحبنا فقد نجح في حل جميع مشاكله الفردية : استبدل هويته ، نال حق الانتخاب ، رشح نفسه لعضوية الكنيست ، ونجح ٠ ولكن ذلك لم يسعفه قيد انملة في صراعه من اجل استرجاع ارضه من براثن القيم على اموال الغائبين ٠ وهو على حد علمي ، لا يزال يصارع الى الآن ، لكن من خارج الكنيست ٠ واخيرا علمت انه انضم الى « لجنة الدفاع عن الارض » في الجليل ٠ اما انا فقد احتفظت بهويتي الحمراء ٠

كنت محصنا ازاء المصادرة ٠ لم املك ما يستهوي القيم على اموال الغائبين٠ فالابناء في القرى الفلسطينية لا يملكون في العادة وآباؤهم احياء ٠ والعيب كل العيب ان يقتسم الابناء التركة في حياة والدهم ، او حتى فور مماته ٠ وما دمت قد امنت شر المصادرة ، فلم يعد استبدال بطاقة هويتي امرا ملحا ٠ وعليه ، فلم اكلف نفسي عناء المحاولة ٠ كان مجلس القرية البلدي يعنيني اكثر من الكنيست ٠ وقانون الانتخابات البلدية في اسرائيل ، لا يحصر حق الاقتراع فيها باصحاب الهويات الزرق ، بطاقتي الحمراء كانت كافية لممارسة هذا الحق ٠ وقنعت ٠ اذ تحت الاحتلال يتعلم الناس القناعة ٠ هناك يصبح النزر اليسير نعمة ٠ وكان يهمني طبعا ان احصل على اذن عمل ٠ والهوية الحمراء كفيلة بذلك ٠ على اساسها جاز لي اذن العمل ، وكذلك التأمين الطبي والضمان الاجتماعي ٠ كل شيء بحسابه طبعا ٠ لقد عملت بأجر مقطوع ، استوفيت منه جميع الضرائب سلفا ٠ بما فيها ضريبة « الصندوق القومي » (الكيرن كاييمت) ، القائم على تهويد الاراضي العربية ٠ وكذلك « ضريبة الدفاع » ٠ عملت في التدريس ، فدخلت نقابة المعلمين ٠ وفي هذا الاطار تستوفى الضرائب جماعيا ٠ وفيه انطبقت علينا جميع الواجبات ، اما الحقوق ، فلها شأن آخر٠

وكنت بطبيعة الحال ، كغيري من العرب تحت الاحتلال ، ملزما بالحصول على تصريح عسكري للتنقل في الاماكن المفتوحة من البلد ٠ اما الاماكن المغلقة ، وحدودها اسرار عسكرية ، فمحظور دخولها قطعا ٠ والتصريح ينال بناء على بطاقة الهوية ٠ وصاحب الهوية الحمراء ، بين ابناء قومه ، كالثور الابلق ٠ وهي عندما تلوح في مكتب الحاكم العسكري ، او يلمحها الشرطي في الباص او الطريق ، يبدأ التحقيق ٠ والاكيد كنت احصل على تصريح للتنقل في داخل داخل البلد ، رغم هويتي الحمراء ٠ ولكن في كل مرة تقدمت بطلب تصريح كهذا ، عادت الاسطوانة القديمة من جديد : كيف ؟ ولماذا ؟ والى اين ؟٠٠٠ واذا

كانت حرية الانتقال محدودة للعرب عامة ، فهي لاصحاب الهوية الحمراء شبه معدومة ٠ وعلى العموم ، كانت هذه موضع شك وتساؤل ، وبالتالي مضايقات لا حصر لها ٠ في البداية ، كان التواجد خارج منطقتي العسكرية مسموحا في ساعات النهار فقط ٠ فبموجب التصريح ، وكما هو مرقوم في نصه ، لا يجوز لي التواجد خارجها بعد السادسة مساء ٠ والمخالفة جنحة ، ولها عقابها ٠ حتى وان كان ذلك خارجا عن ارادتي ، فانه لا يغير شيئا ٠ واذا تأخر الباص فرضا ، وضبطت بعد السادسة خارج المنطقة ، او في الطريق اليها ، تعرضت للمحاكمة ٠ وكانت محاكم اسرائيل تغص بالمخالفين العرب ٠ فكنت ترى طوابيرهم مصطفة امام تلك المحاكم كل صباح ٠ يدخلون على القاضي ، وكان عسكريا في البداية ٠ يعرضون دواعي مخالفاتهم ٠ يصغون بصمت الى الاحكام الصادرة بحقهم ، بالسجن او بالغرامة المالية ٠ ويتوجهون من ثم ، بناء على ارادتهم الحرة ، الى السجن او الى محاسب المحكمة ٠ والغرامات مصدر دخل وافر للدولة ٠ والقضاة يعون ذلك جيدا ٠ فكانوا يخفضون الغرامات المالية نسبيا ، ويرفعون معدل ايام السجن ٠ فكأنما لسان حالهم يقول : « الدين ممنوع ، والعوض على الله » ٠ الا انه والحق يقال ، بدأت وطأة الاحكام العسكرية تخف في النصف الثاني من الخمسينات ٠ فصار باستطاعتي مثلا ، عندما ذهبت لاستكمال تحصيلي في الجامعة العبرية في القدس (١٩٥٨) ، ان احصل على تصريح سنوي للاقامة فيها ٠ وكذلك للتنقل بينها وبين قريتي في الجليل الاعلى الغربي ٠

اذن ، للهوية الحمراء محاسن : تجيز الاقامة في البلد ، ولو مؤقتا ٠ تفي بالحد الادنى من الحاجات ، دون الانفلاش ٠ وليس في ذلك ضير كبير ٠ تسمح بالتنقل المحدود داخل البلد ، دون مغادرته الى الخارج ٠ ولا بأس ، فالسفر مؤجل ٠ ومن كان يفكر بالسفر اصلا ! هذا يحتاج الى جواز ٠ والجواز للمواطنين ، من حاملي وثيقة التجنيس ٠ ولن يصدر الا بشهادة اداء الخدمة في الجيش ٠ والا فباستصدار فرمان بالاعفاء منها ٠ وكل ذلك يستوجب معاملات ووساطات ، همها اكبر من جدواها ٠ وفوق ذلك ، فالتأشيرة رهن بموافقة السلطة ٠ وهذه لا تمنحها جزافا ٠ ولا تمنح للعرب على أي حال ٠ ولنيلها لا بد من سبب شرعي مقبول ٠ والقبول ينطوي على ترخيص بشراء مبلغ محدود من الدولارات ٠ وهذه لا تتداول في السوق الحرة ، وانما تخضع لرقابة حكومية صارمة ٠ لهذا كله فالسفر مؤجل ٠ وعندما انتهى الاجل ، وازمعت اخيرا على السفر ، تحملت وزر التجربة كاملا ٠ ومع ذلك ، شعرت بالاسى وانا افارق هويتي الحمراء ٠ لقد رافقتني ثلاثة عشر عاما ونيف ، وكانت رفقة مريحة نسبيا ٠ فلا قسوت عليها حتى تثور في وجهي ، ولا هي غررت بي فاجحد فضلها ٠ ويوم سلمتها لمامور احصاء النفوس ، وتسلمت مكانها اخرى رزقاء ، احسست فجاة باكبال

الانتماء التام الى الكيان ، رغم وعيي بصورية الامر كله · وكان عزائي ان موعد فك الارتباط مع الكيان قد اضحى قاب قوسين · وبالفعل ، فقد غادرت ميناء حيفا ، متوجها الى نيويورك ، بعد اقل من اسبوعين ، بتاريخ ١٥ آب (اغسطس) ١٩٦٢ ·

غمامة صيف

هكذا ، عدت الى بلدي ، معليا ، بعد حوالي نصف سنة على ابعادي عنها · عدت اليها وقد اكتسبت « جنسية اللجوء » ، بواقع مروري العابر في الاردن وسوريا ، واقامتي في لبنان حوالي خمسة اشهر · وبالفعل فقد جرى تسجيلي في احصاء اللاجئين الفلسطينيين هناك · واصدرت وكالة الغوث لي بطاقة تموين (اعاشة) · وفي الاردن ، كانت السلطة قد اصدرت لي بطاقة هوية ، لضرورات السفر الى لبنان ، مرورا بسوريا · وما دمت قد ابعدت ، واصبحت لاجئا في فترة معينة ، هي المحددة في « قانون احوال الغائبين » ، فقد حق علي الغياب قانونا في اسرائيل · وعليه ، ولتثبيت ذلك وتوثيقه ، اعطيت الهوية الحمراء · فصارت اقامتي في بلدي مؤقتة · وعزلت عن المشاركة في حياة الكيان السياسية · اذن ، الابعاد للتغييب ، والتغييب للعزل ، والهوية الحمراء تذكرة عدم الاستقرار · وما دام الكيان قد غيبني عنه ، فقد اصبح هو بطبيعة الحال غائبا عني ايضا · ولما عزلني عن الانتماء اليه ، وهو الاقدر على الحسم في الامر ، فقد فرض مبدأ الاعتزال المتبادل بيننا · واذا هو اصدر فرمانه بأن اقامتي في بلدي مؤقتة ، وذلك بشهادة الهوية الحمراء ، فانه لم يترك لي الا فرصة الرد بالمثل ، واعتبار اقامته هو في بلدي انا مؤقتة ايضا · ودونت سجل العلاقات بيننا بالاحمر ، كلون هويتي ، واعتبرت الامر كله غمامة صيف وترحل· وكذا فعل الكثيرون من « عرب الداخل » ·

نعم ، « عرب الداخل » · مصطلح جديد ، ومدلول مستحدث · كانت هناك اسماء لمسميات كثيرة ، قسمت العرب الى اعراب · واليوم كنية جديدة ، مؤشر الى مزيد من التفتيت · « عرب الداخل » لتمييزهم عن « عرب الخارج » ، الامر متعلق بالشعب الفلسطيني طبعا · وعرب الداخل هم ايضا « عرب اسرائيل » ، او « العرب الاسرائيليون » · وهذه مفارقة غريبة · ونحن في الداخل عشنا مفارقات كثيرة · لقد فرض علينا التقولب في هذا الاناء غير محدد الشكل · لا الاناء تكورليتلاءم مع شكلنا ، ولا نحن تقولبنا لنتكيف مع تضاريسه · وبقيت تنقصنا المرونة اللازمة للتأقلم فيه ، كما ظل تصلبه هو يحول دون تطابقه مع قدنا · وبتنا على تنافر مستمر · لقد حشرنا فيه قسرا · فاصبح لا يطمئن الى وجودنا في احشائه ، بقدر ما لم نستكن الى مستقرنا في جوفه · والاكيد انه

كان من الافضل له ان يلفظنا ، ويستريح من عناء المكابدة . كما كنا على يقين من ان اسارنا فيه لن يطول . كنا على قناعة بأن اطار العلاقة هذا سيتحطم ، فنأخذ راحتنا . او على الاقل ، سيلين بحيث يتيح لنا حرية الحركة والتنفس . ومهما يكن من امر ، فالغالب على تفكيرنا كان عبور الظاهرة ، ولا معقولية ديمومتها . اذ كيف يعقل ان يستديم الشواذ !

قام الكيان الصهيوني . حقا قام ! لكنه لم يحل « المسألة اليهودية » . كما انه لم يقف عند حد خلق « المسألة الاسرائيلية » ، بل تعداها الى ايجاد «مسألة عربية » جديدة ، هي مسالة « العرب الاسرائيليين » . لقد انطلقت الصهيونية السياسية من مقولة ان « المسألة اليهودية » لا تحل دون دولة يهودية ، تكون باليهود ، ومنهم واليهم . ونشرت مقولتها بأن اللاسامية هي اصل البلاء ، اذ جعلت اندماج اليهود في الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها مستحيلا . وبحركها الاستيطانية ، وارتباطها العضوي بالاستعمار الغربي ، خلقت الصهيونية «المسألة الاسرائيلية » ، المتمثلة في التجمع الاستيطاني خلف اسوار الغيتو الانعزالي ، على ارض فلسطين المحتلة . وعلاوة على ذلك ، اقتطعت جزءا من الشعب العربي الفلسطيني ، وعزلته عن امته داخل حدود استطانها . وكأنما ارادت الايحاء ، بانها اسوة بغيرها ، لها « فلسطينيوها » ايضا . ومسألة هؤلاء انهم يعيشون في كيان سياسي ، لا مجال لهم للذوبان فيه . بل اكثر من ذلك ، فهم مواطنون في الكيان الذي يشكل العدو القومي ، باجماع جماهير الامة . وهذه مسألة ، في الظروف المعطاة ، لا تحل الا بانسلاخهم عنه ، اي بالتحرر منه ،او بتحريره هو من عنصريته . ودون ذلك ، لن يتسنى لهم تحقيق ذاتهم ، وتقرير مصيرهم السياسي . والانسلاخ عنه يضعهم امام احد خيارين : فاما النزوح عنه واللجوء ، واما انتزاع حق تقرير المصير . والاول بمثابة الاستجارة من الرمضاء بالنار . اما الثاني فمؤجل . وعليه ، فالسكوت عنه مؤقت . والعيش في ظل الاحتلال ، دون هذا وذاك ، هو اهون الشرين . ولكن الى حين . المهم ان تقلب المعادلة الصهيونية ، ويثبت الناس على الارض ، فيصير هذان عاملين ثابتين ،وبالتالي يصبح المتغير هو السلطة السياسية . وهو عكس خط الصهيونية .

في « الداخل » ، كنا نعرف ما يلاقيه اخواننا في « الخارج » . كنا نعلم ان هاجسهم الاول هو العودة . لقد تشردوا وذاقوا الامرين . وكان طبيعيا ان يتطلعوا الى العودة . اما نحن ، فقد ذقنا المر مرتين ، ولكننا ، على العموم ، لم نتشرد . وعليه ، فلم تكن العودة على رأس همومنا . كنا في بلدنا ، وفي بيوتنا احيانا ، ولو اختلفت الاحوال وانقلبت الامور . كنا نتعاطف مع تطلعات ابناء شعبنا في « الخارج » ، ولكننا كنا نشفق عليهم من العودة . كنا نخشى ان يعودوا وينضموا الينا . كما نحن . فلا تكون عودتهم افتداء لنا من اسارنا،

كما لا تكون انعتاقا لهم من محنتهم · كنا نريدهم معنا ، ليس من اجلهم فقط ، وانما من اجلنا نحن ايضا · لكننا كنا نشفق عليهم ان يتخلصوا من اللجوء من اجل ان يغرقوا في القمع · والقمع الذي مورس علينا لم يكن قوميا فحسب، وانما تعداه الى النواحي الاقتصادية والاجتماعية من حياتنا · هم في وطنهم العربي الكبير ، يعيشون تناقض الانتماء والغربة · ونحن في وطننا الصغير ، نعيش تناقض الانتماء والعزلة · وكلانا يعايش تناقض الانتماء القومي والانتساب السياسي · هم عرب ولكنهم لاجئون في بلادهم العربية · ونحن عرب ولكننا « اسرائيليون » ، في بلادنا العربية ايضا · الخيار بين « الاسرائيلية » واللجوء وكلاهما مر · وكنا نأمل ان يحل التناقض ، بأي شكل · واعتقدنا اننا القلة القليلة ، التي نسيها الجميع وآمنا انهم الاغلبية الغالبة ، التي لا تغيب عن الذاكرة ــ ذاكرة اهل العقد والحل · وكيف السبيل الى نسيانهم ! الصحف والمجلات ، الاذاعات ، الخطابات ، البيانات ، الشعارات الخ ، كلها تتحدث عن اللاجئين ونكبتهم · واذا كان الكلام بهذه الغزارة ، فانه لا بد متمخض عن شيء · والشيء علمه عند ربي ، الا انه لا بد وان ينطوي على حل · والحل في اعادة الامور الى نصابها · والامر لا يحتمل التأجيل طويلا ، فمئات الالوف في مخيمات مؤقتة · وكما المخيمات مؤقتة ، كذا وضعنا الراهن · الكل مؤقت ، ظواهر عابرة ، لن تلبث ان تزول ·

انتظرنا ، وطال انتظارنا · وفي كل تشرين من كل عام ، توسمنا الخير · الجمعية العمومية ستنعقد ، والقضية على جدول الاعمال · القرارات اياها : حق العودة لمن اراد ، والتعويض على من اعرض · ويأتي التصويت الى جانب القرار باغلبية ساحقة · اذن ، اسرائيل معزولة · الضغط الدولي سيجبرها على الرضوخ · الدول العربية لا تتوانى عن القضية · الكتل الدولية ــ اسيوية ، افريقية ، غير منحازة وسواها ــ تدعم القضية · وصوت العرب في كل فج : « الله اكبر والعزة للعرب » · انقلابات فيسوريا · كلها بسبب فلسطين · اغتيال الملك عبد الله ، ثأرا لفلسطين · ثورة في مصر نتيجة للحرب في فلسطين · حرب السويس ··· فلسطين · انقلاب في العراق ··· فلسطين · طار نوري السعيد · انتصرت فلسطين · وحدة بين سوريا ومصر · اذن ، اسرائيل بين فكي كماشة · ايام صلاح الدين على الابواب · الحماس شديد · التحرير قريب · ولكن لا دلائل ملموسة · وانفكت الوحدة · واستولى اليأس على الناس · وفي خضم كل ذلك كأنما نسينا اهلنا في « الخارج » . وغابوا عنا كما غبنا عنهم ·

ومرت الاعوام تباعا · واتسعت الهوة بيننا في « الداخل » ، وبين ابناء شعبنا في « الخارج » · واختار كل طريقة ، او اضطر الى ذلك الخيار · وبين العمل والنضال او القعود والاتكال ، اصبح كل في واديه ، يغني على ليلاه · العودة من خلال النظم ، او الاحزاب ، او الحركات الوطنية والقومية · قالوا

التحرير قبل الوحدة · وقالوا الوحدة قبل التحرير · وقيل الكثير ، وانجز النزر اليسير · اما في «الداخل» ، فقد طورنا ، بفعل الظروف المحيطة بنا ، نمط حياة فريد · لم تكن هناك استكانة الى الوضع الجديد · ولا كان سكوت على الانقلاب السياسي في الوطن · ولكن لا ثورة عليه ايضا · وقالوا الثورة من الخارج · رهين القفص لا يثور ، وان فعل ، فلا مجال للنجاح · وبين الثورة والسكوت ، تأرجح السلوك · وظل يتأرجح دون حسم · هناك حماس للخروج على « الشرعية الجديدة » · لكنه مشوب بالقلق والخوف · واحيانا ، هناك ميل للقبول بها ، ولكنه مشوب بالتردد والحذر · التجمعات العربية جيوب · فيها اطمئنان نسبي الى الاكثرية العددية · ولا خوف من الذوبان · فالكيان يرفض ذلك بكل اصرار · والانتماء القومي الى الاكثرية الساحقة عبر الحدود، يحول دونه · ولكننا كنا اقلية ضئيلة داخل الكيان · بعيدين عن الهيمنة ، حتى على مناطقنا المحصورة · ويسودنا ارتباك وضياع · لقد شهدنا انقلاب اوضاعنا ، وكذلك اوضاع وطننا · ورأينا كيف تنتزع القدرة على تقرير العلاقة بين الناس والارض من اليد العربية ، لتودع الايدي الصهيونية · وشعرنا بغياب قيادة سياسية · وكان شعورنا صادقا · اذ لم تكن قيادة كهذه لنا · وبغيابها تعثرنا في اجتياز المحنة · لقد برزت قيادات جديدة فعلا · لكنها كانت من فئتين: متعاملة مع السلطة ، وهي مرفوضة ومشكوك فيها · واخرى ضدها ، لكن بلا مصداقية لفاعليتها · ولم تتبلور قيادة محلية حقيقية ، خلال سنين طويلة · والعلة فينا ، كما كانت في ممارسات السلطة ·

وسلطات الاحتلال كانت تمارس من موقع القوة · فكانت بالتالي ، الاقدر على تحديد العلاقات وتقريرها · لقد تركز جهدهاعلى تهويد الارض ، وعلى تدجين « العرب الاسرائيليين » ، وفرض شرعية الكيان السياسية عليهم · وارادات تحقيق ذلك دون استيعابهم في مؤسساتها ، ولا استثنائهم منها بشكل قاطع ، او طردهم من الكيان بشكل مباشر · ولم يستطع هؤلاء ان يفرضوا على الاحتلال استيعابهم في مؤسساته · وظلت مسألة الطرد كابحا لنضالهم · كما بقي هذا سيفا مسلطا عليهم· اما التدجين فمسألة في القلب· والقبول بالشرعية دونه « التقية » · وهكذا دار الصراع المكشوف حول التهويد · فارتبط نضال « عرب الداخل » بقضية الارض · ومن خلاله عبر هؤلاء عن مواقفهم ازاء المسائل الاخرى المطروحة · الارض ، شعار النضال ، اسم لحركات سياسية ، عنوان لجان الدفاع عن ··· الخ · الارض ، ليس كوسيلة انتاج فحسب ، وانما كوطن قومي ايضا · وامام الالتصاق بالارض ، والتمسك بها ، كان يهون كل امر · لكن النجاح الذي اصابه « عرب الداخل » في هذا المجال ، كان محدودا·

ولكن ، رغم انقطاع الصلة وانفصام العرى ، ظل نضال « الداخل » ضد التهويد ، متاثرا الى حد كبير بواقع « الخارج » · فكان يزداد حدة كلما تصاعد

المد القومي واتخذ اشكالا اكثر تحديا · وكان ينحسر ويتقلص كلما بدا ان الكفة تميل في صالح العدو · وقد بلغ هذا النضال اقصى درجات تراجعه في الستينات · فاصبح وجهه الغالب الدفاع عن الحق من خلال شرعية المغتصب · وتحول الناس الى الطعن في قانونية الاستيلاء على الارض استنادا الى القوانين التي استصدرتها سلطات الاغتصاب · وكان هذا النضال قد بدأ بخط مختلف · كما عاد واتخذ شكله الاصلي في السبعينات ، خاصة بعد حرب تشرين · عندها انقلبت صورة موازين القوى في المنطقة · وبدا ان كل تحجيم لسطوة العدو قد صب في كفة القوى القومية العربية ، ومن ضمنها الثورة الفلسطينية · وقد ترك كل ذلك اثره في نضال « عرب الداخل » ، الذي بلغ ذروته في انتفاضة « يوم الارض » (٧٦/٣/٣٠) ·

اذن ، كل شيء مؤقت ، الاقامة ، الوضع العربي العام ، الكيان الصهيوني ، الاحتلال ، اللجوء ، اغلاق الحدود ، الاستيلاء على الاراضي ، وكذلك قوانين الطوارىء · هكذا اعتقد الناس في الداخل · وكنت واحدا منهم ، لم يتميز موقفي بشكل يستدعي التنويه · وفي مجالسهم ، كان الشيوخ يستعيذون بالله مما يحصل امام عيونهم · هذا شيء لم يرد سابقا ، لم يخطر لهم على بال · بالتخصيص ، اجلاء الناس من ديارهم ، او الاستيلاء على املاكهم · لقد عرفوا القمع والظلم · خبروا التمييز ضدهم ، واعتادوا على العبث بكرامتهم · اما ما يحصل الان فهو محنة · وهي شيء لا شك مؤقت · قالوا رأينا الحرب العالمية الاولى (السفر برلك) ، وذهب الاتراك وجاء الانجليز · رأينا الحرب العالمية الثانية ، والحرب في فلسطين ، وذهب الانجليز وجاء اليهود · هكذا سنة التاريخ في فلسطين · الغزاة يأتون ويروحون ، والناس في ديارهم قابعون · جيل يأتي وآخر يذهب ، والارض هي هي · فلماذا يكون شأن اليهود مختلفا · وفوق كل هذا ، مكتوب في الاسفار ان حكم اليهود لن يطول ، والا كانت نهاية العالم · وهذا لا يبدو على وشك الانهيار · ولكن ربما ، فمن يدري سوى الله ! الشائع على اي حال ، ان حكم اليهود مؤقت · وعليه ، وما دام في عنفوانه ، فلا بأس من التعامل معه على هذا الاساس ، والانحناء امام العاصفة · وفي المجالس الخاصة ، الكلام عن الكيان الشيء ونقيضه على الدوام · والسائد الا دوام لغير وجه الله · اغلقت الحدود ، فقيل اجراء مؤقت ، او ستفتحها الجيوش العربية · قسمت البلاد الى مناطق عسكرية ، وقيل اجراء مؤقت ، او « اذا زال المسبب زال السبب » · بدأ الاستيلاء على الاراضي ،وبناء المستوطنات عليها ، واخذ الشك يتسلل الى القلوب · لكن ، وربما لضرورات ذاتية ، ظل الاصرار على عبور الظاهرة· يتحرك شيء في العالم العربي، فتتضاعف القناعة باقتراب الساعة · ويخمد التحرك فيقوى الشك في صدق المقولة · وبين هذا وذاك تمر الايام والاعوام ·

وكان طبيعيا ان يعمد الناس الى اختبار جدية سلطات الاحتلال في تنفيذ مراسيمها · فظلوا في البداية يعبرون الحدود ، ذهابا وايابا ، كأنما لا يعترفون بوجودها · وشددت السلطة مراقبتها على الحدود ، وكثفت دورياتها على طولها · ولما لم يرتدع الناس ، اعطيت الاوامر الى الدوريات باطلاق النار على العابرين · وقد قتل عدد كبير منهم عندها ، فعدل الناس عن العبور الحر وانتقلوا الى التسلل · ولم يمض وقت طويل قبل ان يصبح هذا محفوفا بمخاطر جسيمة ايضا · فتقلص الى اعمال التهريب ، ثم انقطع تماما · وسرعان ما تعلم الناس ان الانتقال داخل الكيان ، دون تصريح عسكري ، يعني العقاب بالسجن او الغرامة المالية ، فلزموا حدودهم · ثم فقهوا ان ايواء اي متسلل عبر الحدود قد يجلب عليهم الكوارث فتجنبوه · ولكن اصرار القرويين على فلاحة حقولهم كان اكثر عنادا · وكانت حدود المناطق العسكرية ، كل واحدة ورقمها ، تفصل بين القرى واراضيها المحكوم عليها بالمصادرة · وذهب المزارعون الى تلك الحقول ، كالعادة في كل موسم ، وكأنما شيئا لم يحدث · ودهمتهم الشرطة العسكرية وساقتهم الى قراهم · وعادوا الى الارض ، فاوقفوا وعاودوا المحاولة فاقتيدوا الى المحاكم وعوقبوا ، فانكفأوا · وقيل ان الامر متعلق بالاوضاع العسكرية وبالظروف الامنية غير المستقرة بعد · وعليه فانه سيزول بزوالها · واذا كانت هذه مراسيم طوارىء ، فمن طبيعتها ان تكون مؤقتة · وكذا الرضوخ لها ·واذن ، فالفصل بين الفلاحين وارضهم مسألة عابرة ايضا · والصبر مفتاح الفرج · ولم يقتنع الناس بان قوانين الطوارىء انما توظفها سلطات الاحتلال في خدمة مصادرة الاراضي ، الا بعد حين · وعندها ، عم الارتباك ، وقوي الشك في المقولات ، وتضاربت التقييمات · مع ذلك لم يفقد الامل ·

وبدأت سلطات الاحتلال عملية « تجميع » السكان والارض في السنوات الاولى لقيام الكيان · فضمت تجمعات قروية الى بعضها · خاصة حيث تخلف نفر من الاهالي دون الاكثرية · فاخلت بذلك عددا منها ، كان مصيره النسف ومسح المعالم · واستتبع ذلك نزع واسع للكية الاراضي في القرى المخلاة · كما ترتب عليه احيانا توزيع جديد للملكية في مراكز التجميع ، اتى على املاك الغائبين· ولكن الناس لم يروا في نقلهم الى اماكنهم الجديدة نهاية مطاف · كما لم يعتبروا نزع الملكية او اعادة توزيعها على يد سلطات الاحتلال ، الكلمة الفصل في الموضوع · فالملكية في عرفهم ، نزعها او منحها ، لها وجه آخر · والخروج عنه، او عليه، لا يمر دون سؤال · ومنهم من لا يزال يرى الاجراء مؤقتا الى الآن (١٩٧٩) · ويبرز بين هؤلاء اهالي قريتي اقرت وكفر برعم · لقد اخلي سكان هاتين القريتين بعد الاحتلال مباشرة ، بحجة الدواعي الامنية · وهم ما زالوا يناضلون من اجل العودة الى بيوتهم ، رغم تهديمها ، والى اراضيهم ، رغم

توزيعها على المستوطنات اليهودية المجاورة · وفي حينها ، ردت غولده مئيـر على مطالبة اهالي القريتين ومؤيديهم ، من عرب ويهود ، السماح لهم بالعودة الى قراهم ، بقولها ان ذلك يعني بداية تراجع الصهيونية وانحسارها · وبحسهم العفوي كان الفلاحون الفلسطينيون من « عرب الداخل » يعون هذه الحقيقة · فهم بتمسكهم بمبدأ « القديم على قدمه » ، ورفضهم الاعتراف بحق سلطـــات الاحتلال في ادخال تعديلات جذرية على العلاقة بينهم وبين الارض ، واصرارهم على اعتبار كل اجراءاتها مؤقتة ، حتى وان قبلوا بها الى حين ، انما يرفضون الاعتراف بشرعية قيام الكيان وديمومته ، ويطعنون في جميع الاجراءات المترتبة عليه ، او المستندة اليـــه ·

حسام الخطيب

القضية الفلسطينية
على منبر الاتحاد البرلماني الدولي

مدخـــل

تستند القضية الفلسطينية الى تاريخ طويل وحافل في المنابر الرسمية الدولية ، ابتداء من الهيئات التي تجمع معظم دول العالم مثل عصبة الامم المتحدة سابقا وهيئـة الامـــم المتحدة حاليا ، وانتهاء بالهيئات الاقليمية التي تضم مجموعة من الدول المتجاورة الباحثة عن أقنية للعمل المشترك ، مهما كان نوعه ، من مثل دول الكوميكون والمجموعة الاقتصادية الاوربية ومنظمة الوحدة الافريقية · الا أن تاريخ القضية الفلسطينية في المحافل البرلمانية الدولية سواء منها الشاملة او الاقليمية بقي حتى الآن محدودا جدا ، ولولا النشاط الذي تم خلال بضع السنوات القليلة الماضية لامكن القول ان هذا التاريخ قصير العمر لا يتجاوز المرحلة الجنينية · ولدى تلمس هذه الظاهرة يمكن ان تعتبر الاسباب التالية هي الاكثـر أهميـــة :

اولا : ضعف المؤسسة البرلمانية العربية ، وما يترتب على ذلك مـن ضعف اسهامهــا في المؤسسات البرلمانية الدولية او الاقليمية · ويتجلى هذا الضعف في النواحي التالية :

أ ــ غياب هذه المؤسسة من الحياة السياسية لعدد من الاقطار العربية لا يقل عن النصف في المعتاد · وبما ان البرلمانات العربية تروح وتجيء وفقا للتقلبات السياسية فانـــــه يمكن القول انه في احسن الحالات لم يتجاوز عدد البرلمانات العربية ثلاثة عشر برلمانا من البرلمانات العاملة (اي غير المعطلـة) ويتراوح عـدد البرلمانـات المشاركـة في الاتحـاد البرلماني العربي عادة بين ١١ ــ ١٣ برلمانا ·

ب ــ ضآلة الدور الذي يسند اليها في الحياة السياسية لكل قطر ، وفي اغلـــب الاحيان تكون مهمة هذه البرلمانات شبه صورية ، ومن النادر ان تكون لها سلطة تشريعية بالمعنى الحقيقي او حتى النسبي · وهناك عدد من البرلمانات يتم تشكيله عن طريق التعيين المباشر من السلطة التنفيذية ويقتصر دوره على ابداء الرأي بمسائل محدودة ·

جـ ـ تعلق مصير معظم البرلمانات ان لم يكن كلها بمشيئة السلطة التنفيذية ، اذ تستطيع السلطة التنفيذية ان تعطل البرلمانات او تلغيها او تعلقها · فمشكلة العضوية مثلا في كل دورة تعرض مشكلة برلمانات عائده الى الحياة وأخرى مختفية عن المسرح · وقد امتدت هذه المشكلة الى الاتحاد البرلماني الدولي حيث لا يخلو بند العضوية عادة من مناقشة مشكلة برلمان عربي ما يعود الى الحياة بعد توقف طويل او اعادة تشكيل ·

ثانيا : افتقار سياسة تشكيل الوفود البرلمانية الى الاسس الموضوعية في كثير من الاحيان · ومن الحق ان يقال ان هناك برلمانات عربية تراعي تعدد الاختصاصات في تشكيل الوفود وتحرص على انتقاء عناصر جيدة وذات كفاءة مقبولة · ولكن بالمقابل هناك حالات تظهر فيها الطبيعة السياحية للوفود البرلمانية العربية · كذلك تتفاوت الوفود العربية في مدى ما تعده من دراسات للمؤتمرات ، وفي حين يوجد برلمانيون متخصصون في موضوعات المؤتمرات وقادرون على اعطاء وجهة نظر علمية يوجد اعضاء آخرون لا يعرفون شيئا عن جدول اعمال المؤتمرات التي يحضرونها · بل يحدث في كثير من الحالات ان يأتي برلمانيون الى بعض المؤتمرات الدولية ويعودوا دون ان يكون في ذهنهم فكرة كافية عن طبيعة الموضوعات التي دارت او القرارات التي اتخذت · ويدخل في هذا الباب ايضا تغيير اعضاء الوفود بين مؤتمر وآخر · وبالطبع يعمد بعض البرلمانات ، من باب عدالة توزيع المهمات او تكافؤ الفرص ، الى تبديل اعضاء الوفود في كل مرة واذا كان لهذا التدبير فائدته من حيث منع احتكار عضوية الوفود فان له من ناحية المصلحة العامة آثارا سيئة جدا · لان مداومة حضور المؤتمرات تعطي الموفدين فرصة لادراك خفايا الامور ولتوسيع المعرفة الشخصية كما تنمي لديهم المقدرة على المرافعة والمناورة والاقناع · ونحن نلاحظ في وفود الدول الكبرى والمتقدمة بوجه خاص نوعا من السياسة المستمرة في تشكيل الوفود بحيث لا تحدث تغييرات اساسية في الوفود الا حينما تتغير موازين القوى الحزبية داخل البرلمانات بسبب الانتخابات او التحالفات السياسية الجديدة · ومن الحق ان يقال ان بعض الدول العربية يحقق هذه الثبوتية في سياسة تشكيل الوفود ·

وبالطبع هناك امور اخرى تتعلق بصلاحيات الوفود ووضوح التوجيه المعطى لها وقوتها السياسية الداخلية وغير ذلك مما لا يدخل في نطاق البحث الحالي ·

ثالثا : ضعف معرفة كثير من المندوبين العرب باللغة الاجنبية ، ذلك ان هناك مزايا كثيرة لمعرفة اللغات الاجنبية الحية في المؤتمرات من اهمها :

أ ـ سهولة الاتصال بالمندوبين الاخرين ، ليس من اجل شرح وجهات النظر فحسب ، بل من اجل المداولة في شؤون القرارات وتهيئة ماينبغي تهيئته في الاروقة تحضيرا لما يجري في الاجتماع العام ·

ب ـ سهولة الاسهام في اللجان الخاصة والمصغرة التي يقتصر الكلام فيها على لغة او اثنتين كالانكليزية والفرنسية ·

جـ ـ سهولة كسب الاصدقاء واقامة العلاقات الشخصية التي تعتبر شديدة الاهمية في المؤتمرات البرلمانية للسببين التاليين :

الاول ـ ان هذه المؤتمرات ليست ذات سلطة اجرائية وبالتالي تأتي اهمية قراراتها في الدرجة الثانية بعد أهمية الكسب الاعلامي من الاقناع ·

الثاني ـ ان الوفود البرلمانية بطبيعة تشكيلها غير الهرمي تمنح للافراد فرصة اكبر

للمداولة والاقتناع ، ولا سيما اذا كانت مشكلة من احزاب متعددة ، حيث تكون الوسيلة المجدية هي الاتصال المباشر ٠

ومن الملاحظ في الفترة الاخيرة ان هناك حملة قوية في البلاد العربية باتجاه التخفيف من اهمية معرفة الوفود للغات الاجنبية بحجة وجود ترجمة فورية في المؤتمرات الدولية ٠ وارجو ان اوضح ان المشاركة في المؤتمرات لا تعني القاء خطاب بالعربية تجري ترجمته الى اللغات الاخرى وكفى الله المؤمنين شر القتال ٠ ان اهمية الخطابات المكتوبة بالمعنى التقليدي تتضاءل يوما بعد يوم ٠

رابعا : وهناك بالطبع أسباب من وراء ضعف دور المؤسسة البرلمانية خارجة عن ارادة هذه المؤسسة ، من أهمها عدم وضوح سياسة البلدان التي يمثلها البرلمانيون تجاه كثير من القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية المطروحة ، وتذبذب سياسات هذه البلدان بشكل يجعل اسلم طريق للوفود الخارجية هي طريق السلبية والانتحاء الجانبي ويتجنب الدخول في صميم المشكلات ٠ وان معظم النقاط المذكورة سابقا تحتاج الى تفصيل ومناقشة لو كانت مقصودة لذاتها ، ولكنها ترد هنا مقدمة لفهم طبيعة تطورات المواقف البرلمانية الدولية من القضية الفلسطينية فحسب ، ونحن معنيون هنا بالمؤسسة البرلمانية العربية فقط من حيث انها الاداة الطبيعية لطرح القضايا العربية في المحافل البرلمانية الدولية ٠

على ان من الحق الاشارة الى ان المحافل البرلمانية الدولية ليست احسن ، حالا بكثير ، وهي محدودة دورا وفعالية ٠ ان هذه المحافل المتمثلة في الاتحاد البرلماني الدولي وفي اللقاءات البرلمانية الاقليمية لا تبدي اي اتجاه نحو اتخاذ المبادرات تجاه القضايا الدولية الكبرى التي تعرض عليها وتقنع في الغالب بتكرار المناقشات التي تجري في هيئة الامم المتحدة والمنظمات الاخرى الدولية المتخصصة ٠

وسوف ينحصر الكلام هنا على اي حال بالنشاط العربي من خلال الاتحاد البرلماني الدولي ٠

مع العلم ان المنبر الثاني الذي ظهر فيه نشاط المؤسسة البرلمانية العربية هو الحوار البرلماني العربي الاوروبي ، ويمكن ان يكون هذا المنبر موضوعا لدراسة مستقلة ٠

منبر الاتحاد البرلماني الدولي

الاتحاد البرلماني الدولي مؤسسة قديمة برزت الى الوجود عام ١٨٨٩ وظلت حتى اليوم تحمل تقاليد الديمقراطية الغربية من ناحية حرية الكلام وتنظيمه وحقوق وترتيب الرئاسات وغير ذلك ٠ ونظرا لقدم هذه المؤسسة (حوالي قرن من الزمان) ، فقد تعقدت انظمتها وتداخلت حتى أصبح فهم هذه الانظمة والنفاذ منها الى حق طرح الموضوعات على جدول الاعمال ومن ثم المناقشة وتقديم المقترحات اشبه بمشكلة ، ولا سيما بالنسبة للمشاركين الجدد من البرلمانيين او بالنسبة للبرلمانيين القادمين من العالم الثالث ٠ وقد ظلت ادارة هذا الاتحاد ورئاسات لجانه ومحاور نشاطاته بيد ممثلي البرلمانات الغربية الى عهد قريب جدا حيث بدأت تدخل روح جديدة في الاتحاد من البلدان الاشتراكية والعالم الثالث٠

ومن المعروف عن الاتحاد البرلماني الدولي انه منبر محافظ تحاول ادارته دائما ان تتناول

القضايا الانسانية الكبرى بروح تصالحية وعمومية ، وتبتعد ما امكن عن اضواء الصحافة وضجيجها · وبالمقابل لا تهتم الصحف العالمية الكبرى عادة باجتماعات هذا الاتحـــاد · ومع ذلك حدث تغيير واضح منذ ان بدأت تعرض قضية الصراع العربي الصهيوني (أو ما يسمى بقضية الشرق الاوسط) على منبر الاتحاد (١) ·

ولكن الامر غير مقتصر على الصحافة ، وهناك برلمانيون كثيرون ـ ولا سيما مـــن الاوروبيين ـ لا يترددون في اظهار ازدرائهم للاتحاد البرلماني الدولي ومقرراته ، ووجهة نظر هؤلاء ان الاحزاب المحافظة هي التي تسيطر على الوفود الاوروبية الغربية الى الاتحاد وان هذه الوفود جامدة ولا تمثل التغييرات الجديدة ، كما انها لا تعكس الصورة الصحيحة لبرلماناتها · ويبدو ان هذه الفكرة منتشرة في اوروبة الغربية الى درجة ان كثيرا مـــن البرلمانيين النشيطين لا يكترثون ابدا بمسألة المشاركة في اجتماعات الاتحاد (٢) ·

ولكن من الثابت ان هناك تغيرا كبيرا يأخذ مجراه في الاتحاد البرلماني الدولي ، وان المشاركة الاشتراكية والاسيوية والافريقية بدأت تعطي اجتماعاته لونا انسانيا جديدا ونغمة واقعية حارة كانت مفقودة في الاجتماعات السابقة ، ولا تخفي القوى التقليدية ومعهــــا المثلون الاسرائيليون ، امتعاضها من هذه الظاهرة التي تعتبرها خروجـا عـن تقاليــد الاتحاد (٣) · وعلى الرغم من اختلاف الآراء في هذا المجال فان مجرد حضور ما يقارب الالف من البرلمانيين والمستشارين الذين يمثلون حوالي ٧٥ دولة من قارات العالم الخمس يعتبر بحد ذاته فرصة سياسية واعلامية منقطعة النظير في مؤتمرات الاتحاد ·

وعلى اي حال يحسن بنا ان نلقي نظرة على جدول اعمال المؤتمـر البرلمانـي الدولـي الاخير الذي عقد في (بون) خلال النصف الاول من شهر ايلول ١٩٧٨ ، حتى نستطيـع تصور عمـل الاتحاد ·

هناك اولا بنود روتينية واجرائية متكررة مثل تقرير الامين العام وانتخاب نواب لرئيس المؤتمر وانتخابات اللجنة التنفيذية وتشكيل مجلس الاتحاد والعضوية وما اشبه ذلك · اما المسائل الاخرى فتتلخص فيما يلي :

١ ـ الحاجة الملحة لانهاء سباق التسلح ومنع انتاج اسلحة الدمار الشامل ·

٢ ـ مشكلة الشرق الاوسط ·

٣ ـ دور البرلمانات في دراسة وتمتين وسائل محاربة الارهاب الدولي ·

٤ ـ تثبيت اسعار السلع الاولية التي تقدمها بشكل رئيسي البلدان النامية ·

٥ ـ دور البرلمانات في محاربة الامية قوميا ودوليا ·

٦ ـ استمرار اقوى الجهود من أجل المحو الكامل للاستعمـار في العالم ·

والجدير بالذكر ان هذه الابحاث او ما يتصل بها تعتبر بنودا متكررة على جدول اعمال المؤتمرات السنوية للاتحاد ، وباستثناء البند المتعلق بالشرق الاوسط ، تتولى اللجــان المختصة عادة من سياسية واقتصادية وثقافية دراسة البنود خلال اجتماعــات مجلس الاتحــاد ووضع مشروعات القرارات المتعلقة بها · ويعقد الاتحاد في شهر ايلول من كل سنة مؤتمرا عاما في احدى عواصم الدول المشاركة ، ويبني قراراته ومناقشاته عــادة على الدراسات والمشروعات التي تعد اثناء انعقاد دورة الربيع (شهر نيسان) لمجلس الاتحــاد ·

البرلمانيون ومشكلة الشرق الاوسط

يجب الا يتصور المرء ان مناقشة مشكلة سياسية معقدة مثل مشكلة الصراع العربي الصهيوني تعالج على منابر الاتحاد البرلماني الدولي معالجة اختصاصية وافية ، كما يحدث مثلا على منابر هيئة الامم المتحدة · ان المسألة مختلفة هنا تماما ، ذلك أن اكثر البرلمانيين المشاركين في مؤتمرات الاتحاد قليلو الاهتمام بالقضايا العالمية الكبرى او بالمشكلات الاقليمية البعيدة عن مناطقهم ، وهم يهتمون بهذه المسائل فقط من الناحية التي يمكن ان تؤثر على مصالح بلدانهم او موقفهم الحزبي او موقعهم الانتخابي · وكثيرون منهم يكشفون عن جهل بأبسط حقائق قضية حساسة وعالمية مثل القضية الفلسطينية ، وبعضهم لا يبدي حماسة لسد جهله في هذا المجال ما دام ذلك لا يؤثر تأثيرا مباشرا في وضعه الانتخابي · ان الاحتفاظ بالمقعد النيابي هو الشغل الشاغل للنمط البرلماني العادي ولا سيما في بلدان اوروبا الغربية واميركا ، ولذلك ينفر البرلماني عادة من الخوض في مسائل سياسية قد لا يكون لها تأثير مريح في وضعه الانتخابي · وبالطبع يخشى النواب الغربيون عادة ان يؤدي تدخلهم في المشكلات المعقدة للصراع العربي الصهيوني بغرض فهم وجهة النظر العربية الى اثارة نقمة الناخبين اليهود والموالين للصهيونية ضدهم ·

على أن الاكثرية الصامتة – في جميع المؤتمرات – ليست هي التي تصنع القرار وتدير المناقشات · وفي اجتماعات الاتحاد البرلماني الدولي هناك (مجموعات ضاغطة) و (قوى محركة) و (شخصيات سياسية) تعي ما تفعله تماما وتصدر عن معرفة بشؤون الشرق الاوسط ومتابعة لتطورات الاحداث فيه · وبعض هؤلاء النواب يحاول جاهدا تفهم وجهات النظر المختلفة ، وبعض آخر يصدر عن موقف نفعي تماما ، فحيثما برزت مؤشرات تنبيء بتقدم وجهة النظر العربية بسبب عوامل سياسية واقتصادية واحيانا عسكرية (مثل حرب تشرين) يسارع هؤلاء الى الاعلان عن تأييدهم بدرجات متفاوتة طبعا · ويكثر الاهتمام بوجهة النظر العربية عادة كلما لاحت في الافق امكانات تدابير اقتصادية او سياسية عربية مثل قطع الامداد النفطي ، أو سحب الارصدة المالية من المصارف الغربية ، او تشديد احكام المقاطعة الاقتصادية العربية ، او قطع العلاقات السياسية الخ ··· مع الدول المتعاونة مع اسرائيل ·

على ان الملاحظات السابقة تنطبق بشكل اشد على موقف ممثلي البرلمانات الغربية من اوروبية واميركية وربما يابانية · ومعظم الكلام يدور حول هذه الفئة لان معاناة العرب في المؤتمرات الدولية تصدر عنهم · وبالمقابل يجد المرء ان المختصين بالشؤون السياسية في وفود الدول الاشتراكية وكثير من دول آسية وافريقية وبعض دول اميركا الجنوبية متفهمون جيدا لعناصر الصراع وصريحون في تأييد وجهة النظر العربية في فضح تعنت اسرائيل وعدوانيتها وارتباطها بعجلة الامبريالية ومخططاتها ·

القرارات والمواقف

جرى طرح مسألة الصراع العربي الصهيوني وايضاح الحق العربي في قضية فلسطين بشكل متدرج خلال السنوات العشر الماضية · وبالتدرج انتقل الاتحاد من خلال مقرراته ومناقشاته من موقع المؤسسة المحايدة المطمئنة للصيغ العامة المبهمة الى موقع الاعتراف بالوجود الفلسطيني وبالحق العربي على تفاوت في مدى تحديد الصيغ المتعلقة بهذه النقاط·

وتشير ملفات الاتحاد البرلماني الدولي الى ان مشكلة الشرق الاوسط طرحت لاول مـرة على منبر الاتحاد البرلماني الدولي في نيسان ١٩٦٨ خلال انعقـــاد الدورة ١٠٢ لمجلس الاتحاد في داكار · وقد فاز القرار باغلبية ٨٩ صوتا ضد لا شيء وامتناع ٤ اصوات ، وسر هذا الفوز الساحق ان القرار لا يتضمن أية اضافة الى قرار مجلس الامن المرقـــم ٢٤٢ ، وانما يستند الى تفصيلاته ·

ولكن الشيء الذي يلفت النظر هو ان هذا القرار اتبع بقرار آخر فاز فقط بأغلبيـــة خمسين صوتا ضد خمسة وثلاثين مع استنكاف ثلاثة عشر صوتا ·

وينص هذا القرار على ما يلي : مجلس الاتحاد البرلمانـي الدولي : يقرر تشكيل لجنـة تحقيق وارسالها باسرع وقت ممكن لتستقصي بنفسها الظروف الفعلية وطريقة المعاملـــة للشعب في تلك المناطق من الارض الاردنية المحتلة حاليا عن قبل اسرائيل · وعلى رئيس الاتحاد البرلماني الدولي بالوكالة ، السيد عبد الرحمن عبد النبي ، والسكرتير العـــام للاتحاد ، تنفيذ القرار المذكور » ·

ومن الملاحظة ان هذا القرار يستخدم مصطلح (الاراضي الاردنية) ويخلو من اية اشارة الى ادانة اسرائيـــل ·

وتشير القرارات التي اتخذت في الاجتماعات التالية الى أن لجنة التحقيق المذكورة في القرار لجات الى تحقيقات هيئة الامم المتحدة ، ولم تنته الى اية ادانة لاسرائيل مـن اي نوع كان ، وغلبت الصيغ العامة والحيادية تماما على قرارات الاتحاد حتى مؤتمر رومـا لعـام ١٩٧٢ ·

وبعد مؤتمر روما ظهر شيء من التغير باتجاه التمييز بين المعتدي والمعتدى عليه فـي مجلس الاتحاد البرلماني الدولي (الـــدورة ١١٣) في جنيـــف (٢٠–٢٣ تشرين الاول ١٩٧٣) ، اي في اعقاب حرب تشرين مباشرة ، ثم تصاعد هذا التغير حتى بلغ قمته في مؤتمر لندن لعـــام ١٩٧٥ ·

ويعتبر المؤتمر البرلماني الدولي الثاني والستون (لندن ، ايلول ١٩٧٥) نقطة التحول الرئيسية في مقررات الاتحاد ومواقفه ، ففي هذا المؤتمـر تمت الموافقة نهائيـا على دعـوة المجلس الوطني الفلسطيني للمشاركة بصفة مراقب في مجالس الاتحاد ولجانه ومؤتمراته، وتبين ان الاتحاد لا يستطيع ان يستمر في تجاهل المشكلة الفلسطينية ووجود الشعـــب العربي الفلسطيني · وبالطبع حين تتوافر مثل هذه القناعة تصبح النقاط الاخرى التفصيلية أقل اهمية ، ويصبح كذلك اختيار لهجة قوية او معتدلة في صياغة القرارات أمرا تابعا للمناخ السياسي وطبيعة المداولات والاتفاقات داخل المؤتمر ·

على ان الكلام على التدرج يجب الا يصرف النظر عن قصر المدة التي تم فيها التغيير ، فبين مؤتمري روما ١٩٧٢ ولندن ١٩٧٥ ليس هناك سوى ثلاث سنوات ومؤتمر واحد هـو مؤتمر طوكيو · وفي خلال هذه المدة القصيرة حدث التغير الكبير · واذا كان هذا التغيـر يعود في جانب منه الى النشاط البرلماني العربي فانه يعود في الجانب الاكبر منه الـــى تغير الجو السياسي العالمي لصالح العرب بعد انكشاف العدوانية الاسرائيلية ، واتضاح الوجود الفلسطيني في ساحة الصراع وكذلك على الساحة السياسية الدولية ، وصـدور مقررات هيئة الامم المتحدة الواضحة في تأييد الحق العربي وادانة العدوان الصهيوني ·

أ ـ مؤتمر روما لعام ١٩٧٢

ولقد كان قرار الشرق الاوسط في المؤتمر البرلماني الدولي الستين (١٩٧٢) آخر القرارات ذات الصياغة العامة ، وفي هذا القرار هروب الى صيغ عمومية قصد بها ان تتجنب ذكر اي طرف من اطراف النزاع او أن تشير الى اي موقف من أطراف النزاع ٠ وفيما عدا الاشارة العامة الى قرار مجلس الامن في المدخل والمتن فانه من الصعب العثور على أية نقطة نوعية في القرار ٠

ان القرار :

ـ يعبر عن أسفه لاعمال العدوان والعنف (دون ان يذكر من المعتدي او يشير اليه على الاقل من طرف خفي) ٠

ـ ويؤكد على احترام حقوق الشعوب (دون أن يسمي الشعب الذي مزق وشرد وانتهكت ابسط حقوقه) ٠

ـ ويطالب بتسوية سلمية ومقبولة مبنية على المصالح الشرعية للشعوب ٠ (دون ان يشير الى اي عنصر من عناصرها) ٠

ومثل هذا القرار هو الذي كانت الوفود الاسرائيلية تسعى الى اتخاذه لانه يساوي بين المعتدي والمعتدى عليه وبين القاتل والقتيل ، ويتجاهل تماما مسالتي الاحتلال وانتهاك حقوق الشعب العربي الفلسطيني ٠

ب ـ مجلس جنيف لعام ١٩٧٣

ولقد كان قرار روما آخر القرارات الغامضة ، وبعد سنة واحدة فقط من صدوره أمكن القفز بمقررات الاتحاد البرلماني الدولي خطوة مهمة على طريق ايضاح الحق العربي ٠ ولم تكن هذه الخطوة سهلة ولا كانت طريقها مفروشة بالورود ٠ وبعد نضال وجهد ودأب أمكن للوفود العربية أن تنجح قرارا في مجلس الاتحاد المرقم ١١٣ (تشرين الاول ١٩٧٣) يكاد يحتوي على جميع عناصر الموقف العربي ٠ ذلك انه تضمن النقاط التالية :

ـ المطالبة بالانسحاب الفوري للقوات الاسرائيلية من كافة الاراضي العربية المغتصبة بالقوة ، واعتبار ذلك أساسا للسلام ٠

ـ التأكيد على الحق الثابت لكل بلد باستعادة اراضيه المحتلة بكافة الوسائل المتوفرة٠

ـ ربط امكانية تحقيق التسوية باحترام شرعية حقوق الشعب الفلسطيني ٠

ـ التأكيد على ضرورة تطبيق قرار مجلس الامن المرقم ٣٣٨ (وخاصة البنود المتعلقة بانسحاب القوات الاسرائيلية المسلحة منجميع الاراضي العربية المحتلةمنذ حزيران١٩٦٧)٠

والملاحظ ان هذا القرار اغفل الاشارة الى القرار المرقم ٢٤٢ الذي جعله قرار روما اساس كل شيء واتجه اتجاها واضحا الى القبول بالعناصر الاساسية لوجهة النظر العربية ، ويعود هذا التغير الى العوامل التالية :

١ ـ المناخ العالمي الذي ساد على اثر حرب تشرين والذي بني على أساس الاعتقاد بعدم امكان اهمال وجود الطرف العربي وحقه في التخلص من الاحتلال وفي استرجاع حقوق الشعب العربي الفلسطيني ٠

٢ ـ اتفاق الكلمة العربية على موقف موحد ، والانطلاق من روح معنوية عالية (٤) ٠

٣ ـ تطور موقف هيئة الامم المتحدة باتجاه التأكيد على الانسحاب وأدانة اسرائيل واعتبار الطرف العربي صاحب حق وموقف ٠

جـ ـ مؤتمر طوكيو لعام ١٩٧٤

وفيما بعد سار المؤتمر البرلماني الدولي الحادي والستون في أتجاه مجلس جنيف من حيث :

أ ـ المطالبة بالانسحاب الاسرائيلي من جميع الاراضي المحتلة ٠ وكانت كلمة (جميع) موضع أخذ ورد، وقد جرى التصويت عليها فيجولة منفردة وأقرها المؤتمر باغلبيةواضحة٠

ب ـ التأكيد على الحقوق الوطنية المشروعة لشعب فلسطين ٠ وقد أضيفت هنا كلمة الوطنية الى كلمة المشروعة في القرار السابق ٠ وهي خطوة مهمة (٥) ٠

وكان الموقف العربي حينذاك قد تبلور في هذين المطلبين : الانسحاب وحقوق الشعب العربي الفلسطيني ٠ ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد ، اذ أضاف القرار ثلاث نقاط شديدة الاهمية هي :

أ ـ الاعتراف بسلطة المنظمات المؤهلة الممثلة لهذا الشعب ٠ وتعتبر هي الاساس لما حظي به المجلس الوطني الفلسطيني من انتساب بصفة مراقب الى الاتحاد البرلماني الدولي٠ وقد تم اتخاذ هذا القرار في وسط موجة من التضليل الاسرائيلي القائم على الصاق تهمة الارهاب الدولي بالمنظمات الفدائية ولم تكن هذه التهمة بعيدة عن قناعات كثير من البرلمانيين ٠ ولكن فيما بعد امكن تبديل قناعات الكثيرين من المشاركين ٠ الا أنهم طالبوا في تلك المرحلة بألا تذكر منظمة التحرير الفلسطينية بالاسم ، ولم تكن لدى الرأي العام البرلماني في ذلك الحين معطيات كافية للحكم على قضية التمثيل ولذلك جرى تفضيل الصيغة العامة ، وقبلت ذلك الوفود العربية بخطوة تمهيدية في طريق اعتراف الاتحاد بمنظمة التحرير الفلسطينية ٠

ب ـ الاشارة الى ضرورة التوصل الى حل عادل ودائم ، وكذلك شامل ، واعتبار اتفاقيات وقف اطلاق النار مجرد شرط جزئي للحل الدائم ٠

وفي هذا استبعاد للاتفاقات الجزئية والمنفردة وما اشبهها ٠

جـ ـ المطالبة الصريحة بتوقيف السلطات الاسرائيلية عن كافة الاجراءات التي من شأنها تغيير معالم القدس التي كانت عليها قبل عام ١٩٦٧ ٠

وبذلك اكتملت العناصر التي يقوم عليها الموقف العربي في المجال الدولي : المطالبة بالانسحاب الكامل ، العمل على احقاق تسوية عادلة وشاملة تتضمن اعادة حقوق الشعب العربي الفلسطيني ، بما في ذلك اعادة القدس الى وضعها السابق ٠

والجدير بالذكر ان بحث مشكلة الشرق الاوسط اثار توترا شديدا في مؤتمر طوكيو وظهر جليا بدء تحول الرأي العام البرلماني باتجاه الحق العربي ، وكانت المعركة حادة بين الاتجاهات المحافظة والغربية في المؤتمر وبين الاتجاهات الجديدة التي تمثلها الكتلة الاشتراكية ودول آسيه وافريقية ، وعبر كثير من البرلمانيين المحافظين عن خوفهم على مستقبل الاتحاد البرلماني الدولي ، وهدد بعضهم بالانسحاب من الاتحاد اذا ادينت اسرائيل بشكل صريح ٠ وفي الوقت نفسه بدا واضحا عقم المنطق الاسرائيلي وتخلفه ، ولم تلق مداخلات المندوبين الاسرائيليين اي تجاوب في الاجتماعات ، بل كان الاصدقاء التقليديون لاسرائيل ، في بعض الاحيان ، يتجاهلون مرافعات المندوب الاسرائيلي ، ولا سيما تلك التي تتعلق بانكار صلة اسرائيل بقضية الشعب الفلسطيني ، وهي اضعف نقطة في المناقشات الاسرائيلية ، ذلك أن الموقف الاسرائيلي الثابت من قضية اللاجئين الفلسطينيين بالذات هو ان هذه القضية مشكلة عربية وليست مشكلة تخص اسرائيل ، وان على الدول العربية ان تجد لهم الحل المناسب وان الدول العربية هي المسؤولة عن بقائهم في الخيام ٠ وقد لقي هذا الموقف اشمئزازا لدى اكثر الوفود ٠ وكان هناك فرق واضح بين الكلمات البليغة والمفعمة بالمفهوم الانساني وبالقيم الرفيعة التي القاها في الدفاع عن الحق العربي وعن قضية الشعب الفلسطيني برلمانيون بارزون عالميا مثل النائب المكسيكي (كاريو) الذي رفع القضية الفلسطينية يومذاك الى اعلى مستوى انساني ، والنائب البلغاري (تارابانوف) الذي قدم مرافعة سياسية دقيقة لصالح الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني ، وحق العرب في ارضهم المحتلة ، وبين الكلمات المتهافتة المهترئة سياسيا التي القاها مندوبون صهيونيون قدامى يعتقدون بان اسرائيل لها الحق في ان تدمر العالم وتقلب عاليه سافله في سبيل ان تضمن عدم تعرضها لاي خطر امني ولو بعد الف عام ٠ أما الفلسطينيون فأمامهم ارض الله الواسعة ويمكن للبلاد العربية ان تستوعبهم فلماذا الضجة حول الحقوق الفلسطينية ٠

ولا بد من الاشارة هنا الى ان الاتحاد البرلماني العربي الذي تأسس خلال صيف ١٩٧٤ قد حضر مؤتمر طوكيو لاول مرة ، وأصبح فيما بعد عضوا مراقبا ، وقد مثله الامين العام للاتحاد ، وكذلك حضر مع الوفد العربي السوري مندوب عن المجلس الوطني الفلسطيني، وكان حضوره لافتا للنظر ومدعاة للاهتمام لان معظم الوفود البرلمانية كانت خالية الذهن مما وصلت اليه منظمة التحرير الفلسطينية من تقدم في بناء مؤسساتها التنفيذية والتشريعية (٦) ٠ وفي هذا المؤتمر جرى التمهيد لادخال المجلس الوطني الفلسطيني عضوا مراقبا في الاتحاد البرلماني الدولي واتفق على اثارة الموضوع رسميا في اجتماع مجلس الاتحاد في كولومبو ٠

د ـ مجلس كولومبو لعام ١٩٧٥

في ربيع عام ١٩٧٥ عقدت في كولومبو الدورة الـ ١١٦لمجلس الاتحاد البرلماني الدولي٠ وحضرت هذه الدورة وفود من ٧٤ بلدا ووفود مراقبة لعدد من الهيئات الدولية ٠ وقد طرحت فيها عدة قضايا عربية من بينها نقطتان تتعلقان بالقضية الفلسطينية ٠

ففي لجنة القضايا السياسية والامن الدولي ونزع السلاح تعرض المندوبون العرب والعديد من الوفود الناصرة للحق العربي الى مسألة الاحتلال الصهيوني للاراضي العربية والى السياسة الصهيونية العدوانية ، وما تشكله من تهديد للسلام العالمي ، وايضا الى

استخدام القوات الاسرائيلية للاسلحة المحرمة دوليا كالنابالم والاسلحة الكيماوية ضـــد المدنيين والعسكريين العرب ٠

وفي لجنة الاقاليم غير المستقلة ودراسة القضايا العرقية تحدث العديد من المندوبيــن العرب والاجانب عن التمييز المبني على اسس دينية وعرقية ضـــــد السكان العرب فـي اسرائيل ٠ وحدث الامر نفسه في لجنة دراسة القضايا البرلمانيـــة والقضائية وحقـــوق الانسان اذ اشار المتحدثون الى المعاملات المهينة واللاانسانية التي يتعرض لها المواطنون العرب في فلسطين المحتلة والى ما تعانيه المراة خاصة ، من صنوف الاضطهاد والتنكيل ٠

على ان الشيء الاكثر اهمية في مؤتمر كولومبو هو مطالبة بعض المندوبين العرب ادراج القضية الفلسطينية فى جدول اعمال المؤتمر ٠ فقد تلقت رئاسة المؤتمر رسالة من الدكتـور رشدي سعيد مندوب جمهورية مصر العربية يطالب فيها ادخال مادة تحت عنوان (الوضع المتفجر فيالشرق الاوسط نتيجة لرفض اسرائيل الانسحاب من الاراضي العربية المحتلـة منذ ١٩٦٧) في جدول أعمال المؤتمر الـ ٦٢ للاتحاد البرلماني الدولي الذي سيعقد فـي لنــدن في خريــف ١٩٧٥ ٠

كما تلقت رئاسة المؤتمر رسالة من السيدة سلمى نجيب رئيسة الوفد البرلماني العربي السوري تنص على ما يلي :

« بالاشارة الى قرار الامم المتحدة المؤرخ في ١٩٧٤/١١/٢٢ الذي اعتـرف بحـــق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير المصير والاستقلال والسيادة الوطنية وبحقه في العودة الى وطنه واستعادة حقوقه بكافة الوسائل وبالاشارة الى نفس القرار الذي ادخل موضوع المسألة الفلسطينية في جدول اعمال الدورة الثلاثين للجمعية العامة للامم المتحدة ٠

اطلب من المجلس ان يتضمن جدول أعمال المؤتمر الـ ٦٢ للاتحاد البرلماني الدولـــي الذي سيعقد في لندن في أيلول القادم موضوع المسألة الفلسطينية » ٠

وفي رسالة اخرى طلبت السيدة نجيب ادراج قضية « التدمير لمدينة القنيطرة فـــي جـــدول الاعمـــال » ٠

وقد نوقشت هذه الرسائل في اللجنة التنفيذية لمجلس الاتحـــــاد البرلماني الـــدولي ٠ واوصت هذه اللجنة بادراج القضايا الثلاث على جدول اعمال المؤتمر الـ ٦٢ للاتحـــاد البرلماني الدولي في لندن تحت عنوان واحد هو : (الوضع في الشرق الاوسط) ٠

وفي نفس المؤتمر تقدم السيد محمود فلاحة ، بصفته عضـــوا في المجلس الوطنـــي الفلسطيني برسالة الى الامين العام للاتحاد البرلماني الدولي يطلب فيهـــا قبول المجلس الوطني عضوا مراقبا في هذا الاتحاد ٠ وفيما يلي النص الكامل لتلك الرسالة :

« السيد الامين العـــام

باسم المجلس الوطني الفلسطيني لي الشرف أن أطلب منكم ان تنظروا في قبول مجلسنا عضوا مراقبا في الاتحاد البرلماني الدولي ٠ وبهذا الخصوص يمكـن ان اذكر بقـــرار الجمعية العامة للامم المتحدة المؤرخ في ٢٣ تشرين الثاني – نوفمبر – ١٩٧٤ والذي دعا منظمة التحرير الفلسطينية الى المشاركة في مداولات كافة الاجتماعات الدولية التي تعقد برعاية هيئة الامم المتحدة ٠

يتألف المجلس الوطني الفلسطيني من ١٨٧ عضوا ويجتمع سنويا ليناقش ويقر السياسة العامة لمنظمة التحرير الفلسطينية ٠

ويتم اختيار الاعضاء كل ٤ سنوات ليمثلوا الفلسطينيين في تجمعاتهم في شتى بقاع العالم ٠

اني اتطلع الى دعمكم ومؤازرتكم » ٠

الا ان اللجنة التنفيذية رفضت طلب انضمام المجلس الوطني الفلسطيني الى الاتحاد البرلماني الدولي باكثرية خمسة أصوات مقابل ثلاثة ٠ وفي اليوم الاخير للمؤتمر عرض قرار اللجنة التنفيذية أمام الاتحاد ٠ فطالب الكثيرون من المندوبين اللجنة بتوضيح أسباب الرفض ٠ وكانت الاجابات غير المقنعة لاعضاء اللجنة مدعاة لفتح النقاش مجدداً حول قبول المجلس الوطني الفلسطيني عضوا مراقبا في الاتحاد البرلماني الدولي ٠ وبعد نقاش حاد وطويل صوت المجلس على الاقتراح واقره بموافقة ٥٤ صوتا ومعارضة ٣٤ صوتا وامتناع ١٤ صوتا ٠

وهكذا سجلت القضية الفلسطينية على الصعيدين السياسي والتنظيمي نصرا هاما في احدى الساحات الدولية ، واصبح لها صوت ناطق باسمها في الاتحاد البرلماني الدولي الذي يعتبر نافذة للصلة مع ممثلي مختلف الشعوب ٠

ومن هنا يعتبر اجتماع كولومبو خطوة للامام في الاتجاه الصحيح ونقطة تحول في موقف قطاع واسع جدا من الرأي العام الدولي ازاء القضية الفلسطينية ٠ وتعود أهمية اجتماع كولومبو أيضا الى أنه وضع الاساس الذي نال بموجبه المجلس الوطني الفلسطيني عضوية الاتحاد البرلماني الدولي ٠ بصفة مراقب من ذلك في مؤتمر لندن ٠

هـ ـ مؤتمر لندن لعام ١٩٧٥

تراكمت التحولات السابقة لتحدث القفزة الحقيقية في المؤتمر الثاني والستين للاتحاد البرلماني الدولي (لندن ١٩٧٥) ٠ وقد كان أمام هذا المؤتمر امتحانان كبيران :

الاول : تثبيت قبول المجلس الوطني الفلسطيني عضوا مراقبا في مختلف هيئات الاتحاد٠

الثاني : مناقشة القضية الفلسطينية وقضية الصراع العربي الصهيوني ٠

عضوية المجلس الوطني الفلسطيني

وبالنسبة للموضوع الاول كانت هناك مشكلة حقيقية ، ذلك ان انظمة الاتحاد البرلماني الدولي قاسية نوعا ما ، وليس فيها ما يسمح بادخال مجالس منظمات التحرير في اجتماعات الاتحاد لان النصوص المتعلقة بوضعية العضو المراقب تحصر هذه الصفة بممثلي المنظمات والخبراء ٠ ولذلك يجب ان تفهم موافقة مجلس الاتحاد وفي كولومبو على منح المجلس الوطني الفلسطيني صفة مراقب على أنها تجاوز لانظمة الاتحاد ومخالفة له ، والبرلمانيون كما نعلم هم اكثر الناس تمسكا بالانظمة ٠ ولقد كان أمام مؤتمر لندن ان يعالج هذه المسألة ، وظن الاسرائيليون انهم يستطيعون ان ينفذوا من خلال هذه الثغرة البسيطة ٠ وهكذا قدمت الشعبة البرلمانية الاسرائيلية الى اللجنة التنفيذية للاتحاد

البرلماني الدولي مشروع قرار يتضمن الغاء الدعوة الموجهة الى المجلس الوطني الفلسطيني التي أقرها مجلس كولومبو باعتبارها مخالفة لانظمة الاتحاد · وكان من المقرر ان يبحث هذا المشروع في جلسة الثاني من أيلول ١٩٧٥ وهي الجلسة التي تسبق عقد المؤتمر ·

وحاول الصهيونيون الضغط على اللجنة والمؤتمر من الخارج وذلك بتنظيم مظاهرات في لندن ، احتجاجا على قبول المجلس الوطني الفلسطيني في الاتحاد · وقد سارت مظاهرة يوم ١٩٧٥/٨/٣٠ من ميدان الطرف الاغر الى مبنى وزارة الداخلية في لندن لتطالب الوزير بالغاء تأشيرات الدخول الى بريطانيا التي منحت الى ممثلي المجلس الوطني الفلسطيني · ولكن الاسرائيليين ادركوا أن الجو العام للمؤتمر لم يكن مواتيا لهم ، ولذلك أقدموا على سحب مشروع قرارهم قبيل عقد جلسة اللجنة التنفيذية · ولكن المشكله ظلت قائمة واستمر الصهيونيون وانصارهم في التشويش · واخيرا تقدمت بعض الوفود بحل للمعضلة يتضمن مشروع قرار بتعديل انظمة مؤتمرات الاتحاد ومجالسه المتعلقة بوضع الاعضاء المراقبين بحيث يصبح النص اكثر مرونة ويتماشى مع تطورات مبدأ العضوية في أنظمة هيئة الامم المتحدة ، وهكذا اضيف الى المادة ـ ٢ ـ من أحكام مؤتمرات الاتحاد البرلماني الفقرة التالية : (ممثلو الهيئات الاخرى التي منحتها الجمعية العامة للامم المتحدة صفة مراقب يمكن ايضا ان يدعوا من قبل المجلس كمراقبين) ·

وقد عدل نظام لجان الدراسة التابعة للاتحاد على النحو نفسه · والجدير بالذكر ان الدعوة للمؤتمر الذي يليه ، ومن الواضح الآن أن مكانة المجلس الوطني الفلسطيني لم تعد موضع نقاش لان التجديد يتم دون اعتراض واحيانا دون علم عدد كبير من الوفود العربية ·

ولقد كان دخول المجلس الوطني الفلسطيني في عضوية الاتحاد البرلماني الدولي خطوة ذات مغزى سياسي كبير يجب الا يستهان به للاسباب التالية :

١ ـ لانه يعني الاعتراف العام بشرعية النضال الفلسطيني وبحق الفلسطينيين في ان يكون لهم كيانهم السياسي المتمثل في دولتهم ومؤسساتها ·

٢ ـ لانه يعني الاعتراف بأن الحركة الفلسطينية حركة موحدة وديمقراطية ولها مجلسها البرلماني المعترف به من قبل السلطة الشرعية الدولية الاولى وهي الاتحاد البرلماني الدولي

٣ ـ لانه يشير الى تحول جذري في الاتجاه السياسي للرأي العام البرلماني الدولي صريح وواضح وجريء · ذلك لان قبول المجلس الوطني الفلسطيني قد تم في ظل مخالفة أنظمة الاتحاد · وقد فضلت الاغلبية ان تخرق اولا ثم تعدله ثانيا ، وليس هناك ما يدل على وجود سابقة من هذا النوع في تاريخ الاتحاد البرلماني الدولي وربما في تاريخ المنظمات الدولية · وبالطبع دل هذا الامر على ان القانون الذي اعتادت الاقلية الغربية استخدامه لتقييد الاكثرية قابل للخرق والتعديل ·

٤ ـ لانه على الصعيد العملي يتيح للحركة الفلسطينية ان تخاطب ممثلي الرأي العام البرلماني بشكل مباشر ، والاتحاد كما أسلفنا منبر دولي كبير ، واجتماعاته منتظمة ، ويمكن من خلال هذه الاجتماعات ايضاح مختلف التطورات المتعلقة بالنضال الفلسطيني ·

٥ ـ لانه اخيرا اكد بما لا يقبل الشك حقيقة عزلة اسرائيل وانحسار تأييدها الدولي وتراجع مقدرتها على التأثير (٧) ·

مناقشة القضية الفلسطينية من جميع جوانبها

وكان الامتحان الثاني الكبير أمام مؤتمر لندن هو مناقشة القضية الفلسطينية من جميع جوانبها ، ويمكن القول ان مؤتمر لندن تعرض لجميع هذه الجوانب تقريبا واستوفاها استيفاءا جيدا ، واتى قراره بشأن الشرق الاوسط على معالجة المشكلة من حيث هي مشكلة شعب مضطهد مشرد يبحث عن حقوقه ، ومن حيث هي قضية احتلال واكتساب للاراضي بالقوة ومن حيث هي مشكلة انتهاك عدوان سافر تقوم في ظله سياسة استيطان منظمة ، وكذلك من حيث هي مشكلة انتهاك لحقوق الانسان والحاق للارض وتغيير في طبيعة الارض المحتلة · واخيرا وضع القرار أسسا للسلام العادل · وكانت المشكلة التي أثارت جدلا كبيرا هي مشكلة اتفاقية سيناء التي اثارت خلافا كبيرا بين المندوبين العرب وتسببت أيضا في انقسام مواقف المؤيدين للقضية العربية من غير العرب · وعلى الرغم من كل الصعوبات فاز قرار الشرق الاوسط للمؤتمر الثاني والستين بأكثرية ٤٨٣ صوتا مقابل معارضة ٢١٥ صوتا وامتناع ٥٧ عن التصويت · ان هذه الارقام تشير الى التعبئة التي قام بها الصهيونيون في ذلك المؤتمر ، وساعدهم وجود المؤتمر في عاصمة الاستعمار العريقه التي هي لندن فكان هناك ٢١٥ صوتا ضد القرار · وهي نتائج تصويتية مختلفة عما حصل في طوكيو · لكن من يقرأ القرار بدقة يتوقع ان تكون هناك معارضة اكثر في موضوع الشرق الاوسط · ان القرار يدعو : **اولا** : الى التنفيذ الفوري لقرارات الجمعية العامة ومجلس الامن للامم المتحدة حول الشرق الاوسط ولا سيما انسحاب اسرائيل الكامل من كافة الاراضي العربية المحتلة · **وثانيا** : يدعو اسرائيل الى وضع حد للقمع وانتهاك الحريات الانسانية في الاراضي العربية المحتلة · **وثالثا** : يطلب من برلمانات العالم ومن جميع الاعضاء البرلمانيين اتخاذ خطوات لدى حكوماتهم وشعوبهم لارغام اسرائيل على تطبيق قرارات الامم المتحدة · ويطلب استئناف مؤتمر جنيف للسلام لبحث المشكلة الفلسطينية ،ويطلب الضمان الكامل للحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وفقا لقرار الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ٣٢٣٦ تاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٤ · **رابعا** : يؤكد من جديد دعمه للقرار المذكور اعلاه للجمعية العامة للامم المتحدة الذي نص على ان الشعب الفلسطيني ممثلا بمنظمة التحرير الفلسطينية هو طرف رئيسي في اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط · **خامسا** : يؤكد الحقوق الراسخة للشعب الفلسطيني وبشكل خاص : أ ــ حقه في تقرير المصير · ب ــ حقه في الاستقلال والسيادة الوطنيين · **سادسا** : يؤكد الحق الراسخ للفلسطينيين في العودة الى بيوتهم واستعادة اطلالهم بعد ان كانوا طردوا واجتثوا منها · **سابعا** : يعترف بحق الشعب العربي الفلسطيني باستعادة حقوقه وفقا لمبادىء واهداف هيئة الامم المتحدة وفي هيئة الامم المتحدة مقررات تعطي الشعب المظلوم شرعية التوصل الى حقه بجميع وسائل النضال · **ثامنا** : يحث برلمانات العالم على بذل جميع الجهود الممكنة لتقديم الوسائل للفلسطينيين لاستعادة حقوقهم الوطنية الكاملة ورفض تقديم اية معونة او مساعدة قد تساعد اسرائيل على الاحتفاظ بالاراضي العربية المحتلة والاستمرار بتجاهل الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ·

ان الراى العام العالمي بعد ان اعطانا كل هذه الامور يحق له ان يقول : اذهبوا وحرروا بلادكم · ها نحن اعطيناكم الغطاء الشرعي اللازم · لقد كانت مقررات مؤتمر لندن صريحة وشاملة وعكست تصاعد القوة العربية عسكريا وسياسيا واقتصاديا وايضا عكست تصاعد دور المؤسسة البرلمانية العربية في المحافل البرلمانية الدولية · وقد اضطر المؤتمر الى تعديل انظمته حتى يتمكن من قبول عضوية المجلس الوطني الفلسطيني · وكان معنى ذلك كله ان

العرب استطاعوا ان يؤمنوا شرعية برلمانية دولية شاملة لحقهم ونضالهم ضد الصهيونية ٠

و ـ مؤتمر صوفيا لعام ١٩٧٧ ٠

تغيرت الخطة العربية بعد مؤتمر لندن واتجهت الى البحث عن صيغ معتدلة في سبيل التوصل الى ما يشبه الاجماع ، وكذلك الى طرح موضوعات خاصة تمثل جوانب مهمة من الصراع فمثلا في : مؤتمر صوفيا ١٩٧٧ طرحنا مسألة سلوك السلطات الاسرائيلية في الاراضي العربية المحتلة ، ومن جملة هذا المسلك طبعا اقامة مستوطنات وانتهاك حقوق الانسان ، اي حاولنا التركيز على نقطة فرعية خاصة لا يستطيع اي انسان ان يتأخر فيها عن ادانة اسرائيل لان السياسة المعلنة حتى للولايات المتحدة الامريكية تقول بالضبط : (أن سياسة الاستيطان غير شرعية وعقبة في وجه السلام) ٠ هذا النص الامريكي أعلن منذ سنوات ولم يغير الامريكيون موقفهم الظاهر المعلن من هذا الموضوع ٠ فقلنا نمسك الاميريكيين من فمهم ، وطرحنا هذا الموضوع على مؤتمر صوفيا ٠ وقدمت مرافعات عربية واجنبية غير عربية من الدول الاشتراكية بالذات كانت كلها تقريبا مرافعات علمية وموثقة تماما ، وكانت مبنية على حصيلة لجان التحقيق وحصيلة لجان هيئة الامم المتحدة ٠ ويمكن القول ان السيطرة العربية على الساحة كانت كاملة بمؤتمر صوفيا ، وساعدنا على هذه السيطرة تبدل الحكم في اسرائيل وبروز كتلة ليكود ، مما ادى الى تبديل في الوفد الاسرائيلي الذي يتألف معظمه من الاحزاب الحاكمة ومن البرلمانيين الاقل خبرة وتدريبا على العمل الدولي من الوفود السابقة وقد حمل الاسرائيلي معه تبجج ووقاحة حزب الليكود في اسرائيل ، وكان كثير من الكلمات التي القاها المندوبون الاسرائيليون هي كلمات استفزاز لاعضاء المؤتمر ، وللمرة الاولى كان الانسان يستطيع ان ينظر اليهم مستريحا فقد حدث تبادل الادوار ٠ كان العرب يتكلمون بهدوء وبدقة وبعلمية في معظم الاحيان وكان الاسرائيليون يصرخون في صوفيا ٠ ولقد كان الموقف العربي واضحا ومنسجما ، واستطاعت اللجنة التي شكلتها الوفود العربية لرسم خطوط الموقف ان تحدد خطين رئيسين للتصرف : الاول هو عدم المطلبة بقررات حادة وحازمة حتى لا نسبب خسارة بعض الاصوات ٠ الثانية التكلم بهدوء وروية مع الناس ٠ واعطت هذه الوسيلة ثمرتها وقد تقدم العرب بمشروع قرار معتدل مع انه كان بامكاننا أخذ قرار مشدد من المؤتمر ونجح القرار بأغلبية فائقة ، واخذنا نسبة ٧٧ في المئة من مجموع الاصوات الثمانمئة وكانت الاصوات المناهضة فقد ٩ فى المئة ٠ فكأنما كان هناك اجماع ٠ ويعنينا من هذا القرار الفقرة التالية: يقول القرار :

« مستذكرا القرارات السابقة للاتحاد البرلماني وهيئة الامم المتحدة ومعتبرا ان السلطات الاسرائيلية في اعلى مستوياتها صرحت بعزمها ومضاعفة المستوطنات في الاراضي العربية المحتلة وعلى تطبيق التشريع المدني المحلي الاسرائيلي فيها مما يحمل خطر جعل احتلالها دائما ،

ومعتبرا تزايد عدد الحوادث والمظاهرات المعادية لاحتلال تلك الاراضي ومعتبرا ان هذا الاحتلال يدفع السلطات الاسرائيلية الى اعمال انتقامية تضير الاشخاص والممتلكات ٠

اولا : يشجب بشدة هذه السياسة وتلك الممارسة التي تخرق خرقا خطيرا اتفاقية جنيف في آب عام ١٩٤٩ وكذلك قرارات كل من الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة ومجلس الامن ٠

ثانيا : يحث اسرائيل ان تحترم التزاماتها المتعلقة بالإعلام العالمي لحقوق الانسان وباتفاقية جينيف وان تجتنب كل الاجراءات التي من شأنها ان تزيد في توتر الموقف في الاراضي العربية التي احتلت عام ١٩٦٧ وتطيل امد الاحتلال اذ ان هذه الاجراءات لا تؤدي الى زيادة الصعوبات في وجه استئناف مؤتمر جينيف بين كل الاطراف المعنية .. الخ .. »

ونستطيع القول اننا كسبنا اجماعا عالميا في مؤتمر صوفيا عام ١٩٧٧ . وايضا في هذا المؤتمر لم يجد المندوبون الاسرائيليون من يدافع عنهم بل اكثر من ذلك عن طريق اعتدالنا استطعنا ان نحقق انشقاقا في موقف الوفود الامريكية والاوروبية الغربية فقد صوت الى جانب القرار ١٢ مندوبا امريكيا من اصل ٢٢ .وحدث ان دولة مثل كندا قسمت اصواتها الى قسمين ٧ اصوات مع القرار العربي و ٧ اصوات ضد القرار . اما استراليا فقد اعطت ستة اصوات للقرار وعارضته باربعة واستنكف ثلاثة . وكانت المانيا الغربية اسوأ دولة وكانت مناقشات مندوبيها منحازة انحيازا اعمى .

ز ـ مؤتمر بون

عقد المؤتمر البرلماني الدولي الخامس والستون في بون عاصمة المانيا الغربية في الفترة الواقعة بين ٣ ـ ١٣ ايلول ١٩٧٨ . وكان مجلس الاتحاد البرلماني الدولي « لشبونه ، نيسان ١٩٧٨ ، قد ثبت على جدول اعمال المؤتمر موضوع الشرق الاوسط . ولم تكن ظروف هذا المؤتمر طبيعية لعدة اسباب منها :

الاول : انه يعقد في ظل توقعات متعلقة بتوقيع اتفاق كامب دافيد . ان اجتماع كارتر ـ بيغن ـ السادات كان قدا بدأ مع بداية المؤتمر ، وكان معظم المندوبين الغربيين وعدد اخر من مندوبي كثير من الدول خارج نطاق المجموعتين الاشتراكية والاسلامية يفضلون ان يقدم المؤتمر تمنياته بنجاح عملية التسوية ، لان كل ما يعنيهم من الامر هو الوصول الى اتفاق .

الثاني : ما ترتب على اتصال السادات بالعدو الاسرائيلي واتفاقه مع الامريكيين من انقسام في الصف العربي فقد كان هناك طرفان عربيان متضادان ، وكان بينهما وفود تحاول ان ترأب الصدع باية طريقة ، ولم تكن سياسات هذه الوفود قد اتضحت بعد .

الثالث : النزاع الحاد بين المغرب والجزائر حول قضية الصحراء الغربية ، اذ ان مجلس لشبونة كان قد اقر توصية تتعلق بحق تقرير المصير للشعب الصحراوي ، وحاول الوفد المغربي ان يبطل هذه الفقرة في حين ان الوفد الجزائري تشبث بها . واثار ذلك نقاشا حادا وتراشقا في التهم ، واخفقت كل محاولات الوفود العربية واحيانا بعض وفود دول عدم الانحياز في ايجاد حل وسط يرضى عنه الطرفان . ولذلك لم يكن هناك بد من طرح الموضوع على المؤتمر العام للتصويت ١١ وقد شغلت هذه القضية جانبا كبيرا من اهتمام المؤتمر سواء في الجلسات العامة او في اللقاءات الثنائية .

الرابع : انعقاد المؤتمر في المانيا الغربية ، حيث الجو الاعلامي غير مؤيد للعرب من جهة ، وحيث امكن من جهة اخرى لعدد كبير من مندوبي الدول الغربية ان يحضر المؤتمر بسبب قرب المسافة من العواصم الاوربية . وقد علمتنا التجربة ان المناخ المحلي له تأثيره في مناخ المؤتمرات . وهكذا كانت الفرصة مهيأة للوفدين الاسرائيلي والامريكي لمحاولة

القيام بما يمكن ان يسمى هجوما مضادا يهدف الى محو الادانات التي لحقت باسرائيل خلال المؤتمرات السابقة ويضعها على قدم وساق مع الطرف المعتدى عليه ·

وقد عقدت الوفود العربية اكثر من اجتماع واحد لتعمل على تلافي الاخطار والتوجه الى المؤتمر برأى واحد · ولم يكن ذلك سهلا ، ولكن مرونه المندوبين المصريين ساعدت على ذلك ، وكان هؤلاء المندوبون من ذوى الاتجاه العربي السليم وممن لهم خبرة في المحافل البرلمانية · وهكذا جرى الاتفاق على مشروع قرار عربي يؤكد على القرارات السابقة لهيئة الامم المتحدة والاتحاد البرلماني الدولي ويهمل ذكر محادثات (كامب دايفيد) ويدعو الى انعقاد مؤتمر جينيف ، ويؤكد على الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي العربية المحتلة ، ويشير الى ضرورة احترام حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني (٨) · وكلها امور ايجابية ذكرت في القرارات السابقة ، ولكن اعادة الاشارة اليها هنا مع اغفال (كامب دايفيد) كانت خطوة جيدة لصالح القضية العربية ·

وفي نهاية القرار كانت هناك فقرة خاصة بالدعوة الى ضمان سيادة لبنان واستقلاله ووحدة اراضيه ووحدة شعبه ·

وقد تمت الموافقة على قرار بون بالاغلبية التالية : ٦٠٣ نعم ٣٥ ضد ١٦٣ استنكاف ·

وقد توافرت هذه الاغلبية الممتازة على الرغم من الظروف السياسية غير المواتية ، وهي ثمرة الجهود السياسية المكثفة التي بذلتها الوفود العربية ، والعقلية المرنة التي عولجت بها بعض النقاط المختلف عليها ، وتعكس هذه النتيجة حقيقة مؤكدة هي وصول الصوت العربي الى الوجدان البرلماني الدولي وسقوط الحجج المصطنعة للعدوانية الصهيونية ·

خلاصة

يتبين من العرض السابق ان القضية الفلسطينية حققت خطوات سريعة على صعيد الرأي العام البرلماني من خلال اجتماعات الاتحاد البرلماني الدولي · وقد انطلقت القضية من الصفر تقريبا في مؤتمر روما ١٩٧٢ حيث كانت الصيغ الغامة والحيادية هي التي تحكم موقف الاتحاد ، ثم تطور عرض القضية بسرعة مدهشة ، وظهر استعداد واضح لدى البرلمانيين من مختلف البلدان لتفهم عناصر الصراع العربي الصهيوني · وهكذا تم تحقيق الخطوات التالية في قرارات الاتحاد :

١ ـ الدعوة الى انعقاد مؤتمر جينيف والسعي لتحقيق تسوية سلمية عادلة على اساس مقررات هيئة الامم المتحدة ·

٢ ـ اعتبار الانسحاب الاسرائيلي الكامل من جميع الاراضي العربية المحتلة وتحقيق الحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني وخلق مناخ عام للتعايش في المنطقة هي الشروط الرئيسية لتحقيق السلام العادل والدائم ·

٣ ـ ادانة الممارسات الاسرائيلية في الاراضي العربية المحتلة ولا سيما سياسة بناء المستوطنات ورفض تطبيق اتفاقية جينيف السابقة على الاراضي المحتلة ·

٤ ـ الاعتراف بالمجلس الوطني الفلسطيني كبرلمان للشعب الفلسطيني وقبوله عضوا مراقبا في مجالس الاتحاد البرلماني الدولي ومؤتمراته ولجانه ·

ولدى دراسة توزع المواقف من مشكلة الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية يمكن القول ان المواقف البرلمانية لا تكاد تختلف كثيرا عن المواقف الرسمية للدول والاحزاب ، مع استثناءات قليلة تبدو فيها وجود قابليات لمحاكمات شخصية غير مرتبطة بموقف الحزب او الدولة ·

ويبدو اختلاف المواقف واضحا لدى الوفود البرلمانية القادمة من دول الديمقراطيات ذات الاحزاب المتعددة حيث يصوت ممثلو كل حزب على طريقتهم الخاصة ·

وبوجه عام يمكن تقسيم اتجاهات الرأى العام البرلماني على النحو التالي :

١ ـ **اتجاه الاغلبية المتمثلة في مندوبي الدول العربية والاشتراكية والاسلامية وعدد من دول عدم الانحياز** · وتتطابق وجهة نظر هذه المجموعات في المرحلة الحالية :

أ ـ من حيث التأكيد على ضرورة قيام سلام عادل ودائم في منطقة الشرق الاوسط ، وضرورة تطبيق مقررات هيئة الامم المتحدة بكاملها ، وفي مقدمتها الانسحاب الاسرائيلي الكامل وتحقيق حقوق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير وفي اقامة الدولة المستقلة على ارضه « المناطق المحتلة من فلسطين بعد الجلاء عنها » ·

ب ـ من حيث الادانة الكاملة للعدوان الاسرائيلي والتوسع وانتهاك حقوق الانسان في الاراضي العربية المحتلة والحاق القدس باسرائيل والتنكر لحقوق الشعب العربي الفلسطيني ·

وتنصب اصوات هذه المجموعات دفعة واحدة ودون تحفظ الى جانب الحق العربي · وهذه الاصوات وحدها تؤمن اغلبية مطلقة · ومن هنا تتجه الوفود العربية نحو الاعتدال لاخذ قرارات حاسمة تؤدي الى نفور الاقلية ، وليس لها بالتالي اى اثر عملي ، ذلك لان منبر الاتحاد الدولي ليس لمقرراته نتائج عملية مباشرة بل ليس لها اى مفعول الزامي ·

٢ـ اتجاه الاقلية المدافعة عن اسرائيل : وتتألف هذه الاقلية من الوفد الامريكي ووفد كوستاريكا وبعض مندوبي اوربا الغربية « بالاضافة الى الوفد الاسرائيلي طبعا » · وهي اقلية متناقضة ومعزولة فيما يتعلق بمشكلة الشرق الاوسط ووسائل التحرر من الاستعمار بوجه عام · والقضية الاساسية التي تطرحها هذه المجموعة هي أمن اسرائيل وهي تردد باستمرار حق اسرائيل في الوجود وفي حماية هذا الوجود ، وتعترض على حقوق الشعب العربي الفلسطيني من هذه الزاوية ، اذ تخشى ان يؤدى احقاق هذه الحقوق الى المساس بأمن اسرائيل · ومن هنا كان مفهومها للانسحاب ايضا مرتبطا بهذا الموقف ، فهي لا تؤيد مبدأ الانسحاب الكامل · وتقوم هذه المجموعة على تبني صيغ عمومية والمراوغة بشأن اية ادانة لاسرائيل ، وغالبا ما تحاول اثارة موضوع الارهاب الدولي والصاق جزء كبير من مسؤوليته بالفلسطينيين · وبوجه عام لا تشكل هذه الاقلية مجموعة ذات خط سياسي واضح بتفاصيله ، وانما هي مجموعة تعاطف وتآزر مع اسرائيل ·

٣ ـ اتجاه المترددين : ويتألف هذا الاتجاه من معظم ممثلي برلمانات كندا واستراليا واوربا الغربية باستثناء ممثلي الاحزاب الشيوعية · ويفضل هؤلاء التصويت بالاستنكاف على قرارات الشرق الاوسط كما يحاولون ان يلعبوا دور الوسيط · وفي خلال المناقشات يظهرون اهتماما شديدا بأمن اسرائيل ولكنهم لا ينكرون حقوق الشعب الفلسطيني · الا ان هذه الحقوق غامضة جدا في مصطلحهم السياسي ، وهم يلتزمون غالبا ببيانات دول

المجموعة الاقتصادية الاوربية ، ويتفاوت موقفهم من الحق العربي بتفاوت الظروف السياسية ، الا انهم دائما يفضلون عدم اغضاب الوفد الاسرائيلي · ويجب ان يعترف المرء بوجود تفاوت كبير في مواقف كل فرد منهم · ويتراوح عدد هؤلاء بين ١٥٠ ـ ٢٠٠ نائبة من بين حوالي ثمانمئة نائب يشكلون المؤتمر السنوي للاتحاد · ولكن تاثيرهم السياسي ، انطلاقا من مواقع حكوماتهم ومن تمرسهم بالعمل البرلماني ، يفوق بكثير عدد اصواتهم ·

وفي النهاية هناك حقيقة واضحة يجب التأكيد عليها وهي ان وجهة النظر العربية لم تعد مجهولة لدى معظم البرلمانيين وهي تبدو محقة الى درجة ان الجميع يتجنبون معارضتها بشكل سافر ، وان وجهة النظر الاسرائيلية لم تعد مقنعة على الاطلاق ، وانصارها غالبا بحكم الولاء الصهيوني او الاستعماري : يدافعون عنها باستحياء ·

وان استمرار الجانب العربي في سياسة المرونة والاعتدال كفيل بان يجعل من الرأي العام البرلماني قناة جيدة من قنوات الضغط العالمي على العدو الصهيوني باتجاه تنفيذ مقررات هيئة الامم المتحدة واحقاق الحقوق العربية ·

الحواشي

(١) خلال السنوات الاخيرة اصبحت هذه المسألة مثار مزاح دائم في الجلسات الخاصة للمشاركين في اجتماعات الاتحاد ، اذ كلما حاولت الاكثرية تجنب الخوض في موضوع الشرق الاوسط وما يتفرع عنه كان جواب مؤيدي هذا الموضوع بأن الاتحاد يجب الا يفوت على نفسه فرصة اثارة الاهتمام الصحفي والاعلامي وان طرح موضوع الشرق الاوسط يشكل نوعا من التهوية للهواء الخامل في الاتحاد · ولكن المسألة ليست بهذه البساطة لدى الصحافة الغربية التي ما زالت تميل الى اهمال الاتحاد على الرغم من حدة القضايا التي يعالجها الآن ، وذلك لان اتجاه المعالجة يسير في خط وجهة النظر العربية ·

(٢) حدث مثلا في لقاء روما البرلماني العربي الاوروبي (ايلول ١٩٧٨) ان ابدى كثير من ممثلي الجانب الاوربي استخفافهم بما يجرى في الاتحاد البرلماني الدولي وانكارهم للصفة التمثيلية للوفود الاوربية الغربية الى اجتماعاته ·

وقد اتى هذا الكلام في محاولة للتخفيف من سخط الوفود البرلمانية العربية على مواقف البرلمانيين الغربيين خلال المؤتمر البرلماني الدولي الخامس والستين (بون) ·

(٣) وهي تقاليد تاثرت تدريجيا بالروح السياحية التي اخذت تغلب على النواب المحافظين والموسرين ·

(٤) يقتضي الانصاف ان نشير هنا الى الجهود العظيمة التي بذلها الوفد البرلماني العربي السوري ومبادرته الفائقة في هذا المجال بالتعاضد الكامل مع سائر الوفود العربية ·

(٥) كاد العرب يضيعون الفائدة من هذا التقدم في التحديد النوعي للحقوق الفلسطينية ، بسبب عدم تمسكهم بمصطلح واحد وعدم مبادرتهم الى تعريف مدلولات كل مصطلح · وفيما بعد قامت لجنة خاصة منبثقة عن هيئة الامم المتحدة بتوصيف الحقوق الثابته او الراسخة او غير القابلة للتصرف ولكنها مع ذلك لم تدخل في تحديد المصطلحات ·

(٦) كان شرفا لكاتب هذه السطور ان يكون ممثل المجلس الوطني الفلسطيني في مؤتمر طوكيو ٠

(٧) لم يستطع الوفد الاسرائيلي لمؤتمر لندن تحمل الصدمة بهدوء ٠ وقد خرج الوفد الاسرائيلي من المؤتمر ، برئاسة أبا ايبان ،عندما تولى رئيس الوفد الفلسطيني الكلام ٠ وحين تحدث ايبان في المؤتمر شتم الاتحاد البرلماني الدولي « لدعوته الفلسطينيين لحضور المؤتمر بصفة مراقبين » ثم تشكى من « انحطاط » المعايير البرلمانية وتباكى على القانون المهزوم ، واتهم الاغلبية بالنفاق وممالاة العرب على حساب امن اسرائيل الذي يهدده الارهاب الفلسطيني ٠ والحقيقة انه منذ قبول المجلس الوطني الفلسطيني في الاتحاد البرلماني الدولي بدأت تتصف تصرفات المندوبين الاسرائيليين بالعصبية والنزق ٠

(٨) تمت الاشارة الى حقوق الشعب الفلسطيني بمبادرة من الدكتور جمال العطيفي ، رئيس الوفد المصري ، مما اثار استياء واضحا لدى الوفد الاميركي ٠

ادمون دانيـال

ادمون حنا دانيال · اسم عادي لرجل عادي من بلادي · قليلون سمعوا بالاسم من قبل · وقليلون عرفوا صاحب الاسم ·

قصته ، بل حياته ، هي قصة وحياة الاف الرجال في بلادي · قصة عادية وحياة عادية · ابن تسعة وعشرين عاما · فلسطيني ولـــد في واحد من المهاجـــر الفلسطينية : في لبنان · درس بعض الدراسة ثم عمل في التوزيع ثم الارشفة فـي مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بل انه كان اول موظف في هـذا المركز ، يوم تاسيسه في الاول من اذار (مارس) ١٩٦٥ · موظف عادي في عمـل عــادي ·

مع هذا كله ، يبرز ادمون حنا دانيال ، من هذا الاطار العــادي ، وينطلق · ويتفوق · ويصبح الشاب العادي معلما (بشداللام وكسرها) ومعلما (بفتح اللام) · ويصبح امثولة وقدوة · ويصبح سيرة تحتذى · ويصبح نبراسا يهتدى به ·

فالشاب الصامت الخجول الهادىء ، المنطوي على نفسه وقليل الصلات مـــع الاخرين ، شجاع · شجاع الى اقصى حدود الشجاعة ، شجاع بالارادة والتصميم وليس بالطيش والانفعال · شجاع الى درجة انه كان هو صاحب فكرة ان يتولى العاملون في مركز الابحاث حماية مركزهم وانفسهم ، امام الاعتداءات والتهديدات الصهيونية المتكررة ، وكان هو اول من حمل البندقيـة واشرف علـى حراسة المركز كجزء من عمله في المركز ، معتبرا ، بحق ، ان البندقية مكملة للقلم ، وان لا قيمة للواحد منهما بدون تكامله مع الاخر · وبدون كثير من التنظير والتفلسف ، ولكن بالممارسة والاثبات العملي ، تحققت فكرة ادمون داخل واحدة من اشهر المؤسسات الفلسطينية ، واصبحت الحراسة الذاتية اسلوبا اساسيا في العمل الثوري وفـي حمايتـــه ·

كان ادمون حنا دانيال فلسطينيا اولا واخرا · فلسطينيا عربيا · فلسطينيا امميا· فلسطينيا انسانيا · فلسطينيا اشتراكيا · فلسطينيا تقدميا · فلسطينيا علمانيا · فلسطينيا متحررا · لكنه في كل الحالات كان فلسطينيا · واعتمر قلبه وذهنه بهـذا الايمان الكبير · غير انه لم يعبر عن ايمانه بالكلام والتنظير والتشدق بتعابير اكبر منه ومن مستمعيه· انما عبر عن ايمانه بما هو اهم واكثر مغزى : بالممارسة· وهي

اسلوب في العمل تفقد امامها التعابير معانيها وتفقد الكلمات بالنسبة اليها اهميتها٠

فلسطين ، عند ادمون ، هي الكل ٠ هي الهدف ٠ وكل شيء أمامها وبالنسبة لها انما هو مجرد ثانوي ، مجرد تفصيل ٠ والتنظيمات الفلسطينية ، على اهمية وجودها ونضالها ، انما هي طرق ومسالك ترتسم على خارطة العمل الثوري ، فتتوازى احيانا وتلتقي احيانا وتصطدم احيانا ، ولكنها لا تعدو كونها دروبا تؤدي ، في حال نجاحها ، نحو الهدف الاسمى ٠
من هذا المنطلق عمل ادمون حنا دانيال مع التنظيمات الفلسطينية وتعامل مع اعضائها وتفاعل مع افكارها ٠

ومن اجل هذا الايمان ، والدفاع عنه ، وتعبيرا عن هذا الايمان والدفاع عنه ، دفع ادمون حنا دانيال حياته وضحى بشبابه وسمح بان يهدر دمه ويراق ٠

قرار واحد ــ حاسم حازم ، اتخذه ادمون لنفسه ، منسجما فيه مع نفسه (مع ايمانه ومع شجاعته الواعية) افقده حياته واعطاه الخلود ٠ وتحول ، ادمون حنا دانيال الفلسطيني العادي الى المعلم في طريق النضال والمعلم في دروب الثورة ٠ واصبحنا ، نحن الذين زاملناه ورافقناه في عمره القصير ، نغبط استشهاده ونقتدي بعبرته ٠

لقد لقن ادمون زملاءه ورفاقه ، ولقن الاساتذة والدعاة وكتبة البرامج ووعاظ المنابر وصانعي النظريات ، ولقن قاتليه ، درسا غاليا (بسعر دم ادمون الغالي جدا على محبيه) ان فلسطين اكبر منهم جميعا ، وان اكبرهم صغير جدا امام فلسطين ٠

جثمان الشهيد ، قيل لنا ، ضاع ٠ اتخيل ابتسامة على شفتيه ، وهو يتلقى الرصاصات [رصاصات الانتقام ، او رصاصات «التأديب» ، او رصاصات الغدر ، او سمها ما شئت] تسخر من القاتل ومنا جميعا ٠ نحن الذين تخاذلنا امام شجاعته ٠ وقد اصبح هو الكبير الكبير ٠ وكشف غيره ، كشفنا نحن ، كم نحن صغارا ٠

د٠ انيس صايغ

حول تسليح اسرائيل
للانظمة العنصرية الفاشية

كشف النزاع المسلح بين قوات نظام سوموزا الدكتاتوري وثوار جبهة التحرير الوطنية في نيكارغوا في شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ عن معلومات جديدة حول علاقات اسرائيل مع نظام سوموزا وغيره من الانظمة الفاشية في اميركا اللاتينية ومع سائر الانظمة العنصرية والفاشية في العالم · فقد كشفت تقارير الصحف الامريكية ان اسرائيل زودت الجنرال سوموزا بالاسلحة الاسرائيلية المصنوعة محليا والتي استخدمها لاخماد الجولة الاولى من صراعه ضد الثوار وضد الالاف من المدنيين في نيكاراغوا · وان هذه الشحنات من الاسلحة الاسرائيلية المنقولة الى مناغوا سرا هي الاسلحة التي سيستخدمها الجنرال الفاشي ضد شعب نيكاراغوا في الجولة او الجولات القادمة ·

اسلحة جديدة تحت ستار الليل ومنع التجول

ذكرت مجلة « نيوزويك » (٢٠ / ١١ / ١٩٧٨) في تقرير لمراسلها في مناغوا ،عاصمة نيكارغوا ، انه خلال الصدمات الدامية بين الثوار وحرس الدكتاتور سوموزا في ايلول (سبتمبر) الماضي وصلت من اسرائيل عن طريق الجو شحنات اسلحة سرا ، خلال الليل وخلال ساعات منع التجول ، وان هذه الشحنات اشتملت على صواريخ ارض – جو ·

واكدت صحيفة النيويورك تايمز (١٩٧٨/١١/١٩) هذا التقرير وكشفت النقاب عن ان اسرائيل زودت نظام سوموزا قبل احداث ايلول (سبتمبر) بالاضافة الى الشحنات الجديدة · بانواع عديدة من الاسلحة الاسرائيلية منها : المدفع الرشاش (عوزي) والبندقية الاوتوماتيكية (جليل) والذخائر المختلفة وزوارق الدورية وطائرات (عرفا) وغيرها · وذكرت النيويورك تايمز ايضا ان اسرائيل هي المزود الرئيسي ليس فقط لنظام سوموزا بل لكل الانظمة العسكرية في اميركا اللاتينية وخاصة الشيلي وبوليفيا والاكوادور والسلفادور وهندوراس وغيرها · ولكن هل تقتصر سوق الصناعات الحربية الاسرائيلية على النظم العسكرية الدكتاتورية في اميركا الجنوبية ؟

قائمة الزبائن طويلــة

ان السلطات الاسرائيلية تحرص على ابقاء قائمة زبائنها في الكتمان · وهو نفس الامر بالنسبة لقائمة الاسلحة التي تزود بها هؤلاء الزبائن · الزبون الوحيد الذي اعترفـــت اسرائيل بمده بالسلاح رسميا وعلى لسان رئيس وزرائها مناحيم بيغن هو الانعزاليون في لبنان · عدا ذلك من الصعب العثـــور على زبائــن اخرين في تصريحـات المسؤوليــن الاسرائيليين وعلى غير القليل في تقارير الصحف الاسرائيلية ·

لكن حسب مصادر الصحف الغربية ومعهد الدراسات الاستراتيجية في لندن ، هنـــاك قائمة طويلة لزبائن اسرائيل وهذه القائمة تشتمل على جنوب افريقيا وزائير وكينيـــا وتايوان وهندوراس والتشيلي وايران وبوليفيا والاكــــوادور والسلفادور والمكسيـــك والارجنتين وغواتيمالا وغيرها ·

وحسب هذه المصادر تبيع اسرائيل المدفع الرشاش (عوزي) الى اكثر من ٦٠ دولة ، منها الولايات المتحدة التي تجهز اجهزةمخابراتها بهذا السلاح · (النيويورك تايمــز ، ١٩ / ١١ / ٧٨) · اما انواع الاسلحة الاخرى التي تبيعها اسرائيل فتشمل البندقيـــة المطورة (جليل) ، طائرتي (عرفا) و (كفير) صاروخ بحر ــ بحر (جبرئيل) صاروخ جو ــ جو (شفير) بالاضافة الى اجهزة الاتصال الالكترونية وغيرها ·

والملاحظ ان حجم مبيعات الاسلحة الاسرائيلية ينمو باستمرار ، فبينما كانت تبيع مــن الاسلحة في العام ١٩٧٣ ما قيمته ٦٠ مليون دولار سنويا ، زاد حجم هذه المبيعات في العام ١٩٧٨ بنسبة كبيرة بحيث تقدر المصادر الغربية مبيعات اسرائيل من الاسلحة هذا العـام بقيمة ٤٠٠ مليون دولار · (النيويورك تايمز ١٩٧٨/١١/١٩) ·

وعلى الرغم من ندرة المعلومات وخاصة من المصـــادر الاسرائيلية حـــول التـــورط الاسرائيلي مع الانظمة الدكتاتورية العسكرية في العالم ، تبدو منطقة امريكا الجنوبية من حيث المعلومات المتوفرة وكأنها الساحة الاولى التي بلغ التورط العسكري الاسرائيلي فيها حجما كبيرا في هذه المرحلــة ·

لقد نشر الكثير في الماضي عن التورط العسكري الاسرائيلي في القارةالافريقية تحــت غطاء « مشاريع التعاون » المولة من قبل الولايات المتحدة الامريكية ، والتي كان هدفهــا لجم المد الثوري التحرري والابقاء على افريقيا تحت الهيمنة الاستعمارية · ولكن كما هو معلوم ، ادت الاحداث التي شهدتها افريقيا ومنطقة الشرق الاوسط خلال العقد الماضي الى تقلص الدور الاسرائيلي في هذه القارة ، الامر الذي ادى بدوره الى انفضاح وتقويـــة الروابط مع النظام العنصري في جنوب افريقيا · وقد يكون تقلص هذا الدور في افريقيـا احد العوامل التي ادت الى مزيد من التركيز في أمريكا اللاتينية ·

اشكال التــورط

لم تكن المعلومات التي نشرتها الصحف الغربية حول تزويد اسرائيل لنظام سوموزا في نيكاراغوا بالاسلحة الاسرائيلية المتنوعة (والتي استخدمها هذا النظام الدكتاتوري ليس فقط في حربه ضد جبهة التحرير الوطنية بل في ما اعقب ذلك من الفظائع ارتكبها حرسه الوطني ضد الاف المدنيين وهدم بيوتهم الى حد تخريب بعض المدن بكاملها) · لم تكــن

هذه المعلومات التي نشرت في اواخر عام ١٩٧٨ امرا مفاجئا ، فبعض المعلومات التي نشرتها الصحف الاسرائيلية قبل ذلك تكشف مدى تورط اسرائيل في بيع الاسلحة للانظمة الدكتاتورية العسكرية في اميركا الجنوبية ،بل هذه المعلومات كشفت ايضا ان هذا التورط لا يقتصر على تزويد الاسلحة بل انه يتسع الى ثلاثة اشكال : (١) التزويد بالاسلحة · (٢) التزويد بالخبرة والخبراء المتخصصين بالنشاط البوليسي و « مكافحة الارهاب » · (٣) الدعم الاعلامي والدعائي لهذه الانظمة ·

١ ـ تزويد الاسلحة

تحدث تقرير نشر في صحيفة هآرتس (١٩٧٧/٣/٢٢) عن زيارة قام بها كل من الجنرال (احتياط) رحبعام (غاندي) زئيفي والممثل الاسرائيلي المعروف حاييم توبل واسرائيليان اخران الى الاكوادور في تلك الفترة · وقال التقرير ان الاسرائيليين عرضوا على حكومة الاكوادور بيعها اسلحة ومعدات حديثة ، وبشكل خاص معدات حديثة تستخدم في «الحرب ضد الارهاب » · واضاف التقرير ان العرض نفسه قدم الى دول اخرى في اميركا اللاتينية ·

وفي مقابلة اجرتها صحيفة « يديعوت احرونوت » (١٩٧٧/٤/١) مع الجنرال رحبعام زئيفي ، قال : « ··· اقول لك بصراحة ليس من العيب ان يكون الانسان تاجر اسلحة ·· انها حقيقة ، اننا متحمسون لتصدير الاسلحة · اسرائيل متعطشة لاسواق ضخمة ولزيادة عدد زبائنها · وفي رأيي اننا نطمح الى بلوغ وضع تصبح فيه دول اكثر ، تحارب الارهاب داخل اراضيها ، قادرة على القضاء على هذا الارهاب بمساعدتنا » · ومن الجدير بالذكر ان هذه المقابلة اجريت مع الجنرال زئيفي عقب الاخبار التي تحدثت عن سفره الى دول اميركا اللاتينية لعرض خدماته عليها ·

وتحدثت صحيفة « هآرتس » (٧٨/٨/١٠) عن زيارة الجنرال مردخاي غور رئيس الاركان السابق الى كل من التشيلي والارجنتين ، واقتبست الصحيفة مقابلات مع الجنرال غور في الصحف المحلية في البلدين كشف فيها النقاب عن بيع الاسلحة الاسرائيلية بكميات كبيرة الى البلدين ·

وكتب الدكتور اسرائيل شاحك في نشرته رقم١٤(١٩٧٨) ما يلي : « ست دول هي التشيلي والاكوادور وهندوراس والسلفادور وغواتيمالا والمكسيك تتلقى معظم معداتها العسكرية من اسرائيل · وهناك دولتان هما الارجنتين ونيكاراغوا ، اصبحت الاسلحة الاسرائيلية تشكل جزءا هاما من اسلحتها · هناك مبيعات من الاسلحة بنسب اقل ولكن بكميات كبيرة كانت تتلقاها حتى الفترة الاخيرة كل من بوليفيا وبنما وهايتي وكولومبيا · ومن بين السلع الهامة الاخرى التي تتلقاها كل هذه الدول من اسرائيل الاسلاك الشائكة والاسلاك الشائكة المكهربة و « الالكترونية » والتي تصنعها « الصناعات الجوية » في اسرائيل · وهذه السلعة تنشر الاعلانات عنها بكثرة في مجلة « افييشن ويك » او نشرة غرفة التجارة لاسرائيل ـ اميركا اللاتينية · واما الخوذ التي يستخدمها الجيش التشيلي فهي مصنوعة في كيبوتس « مشمار هعيمك » التابع لحزب « مبام » ولا شك ان ذلك يتم باسم «الاشتراكية !» · وتهكم الدكتور شاحك على حزب مبام «الاشتراكي» في محله ، لان هذه الخوذ تباع الى الزمرة العسكرية الدكتاتورية التي تحكم شعب التشيلي اليوم بالحديد والنار والتي اطاحت بنظام سلفادور الليندي الاشتراكي في العام ١٩٧٣ ·

٢ ــ رجال ومعدات « لمكافحة الارهاب »

يتضح مدى تورط اسرائيل في مساعدة الانظمة العسكرية الدكتاتورية في قمع شعوبها وحماية هذه الانظمة من هذه الشعوب وحركاتها التحررية الوطنية من المعلومات التي تسربت حول زيارة الجنرال احتياط رحبعام-زئيفي وغيره من الجنرالات الى اميركا اللاتينية في العام ١٩٧٧ ٠

والجنرال (احتياط) رحبعام زئيفي كان قائد المنطقة الوسطى بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، وقد اشتهر حتى بين الاسرائيليين بقسوته وجرائمه البشعة ضد الشعب الفلسطيني ٠ وفي ١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ عين رسميا مستشارا لرئيس الحكومة (أسحاق رابين حينذاك) في شؤون « مكافحة الارهاب » وشغل هذا المنصب حتى آذار (مارس) ١٩٧٧ ٠

وفي ذلك الشهر كان الجنرال زئيفي في اميركا اللاتينية وكان معه الممثل حاييم توبل والمقاول من تل ابيب بتساليل مزراحي ورجل الاعمال مردخاي تصرفاتي الملقب « مينش » (والذي سبق وان نشرت الصحافة الاسرائيلية عن ارتباطه بالمافيا في تل ابيب) وشخص اسرائيلي رابع ٠ وقد ذكرت صحيفة « هآرتس » (١٩٧٧/٣/٢٣) التي نشرت هذا التقرير ان الاسرائيلي الرابع « لم تفصح المصادر في تل ابيب عن اسمه لانه ذو ماض امني وقد ترك خدمة الحكومة منذ فترة وانشأ شركة عملت على تقديم الحماية العسكرية لحكومات اجنبية ٠ وشركاء هذا الشخص كانوا نشيطين في افريقيا لسنوات طويلة وقد ارتبطت اسماؤهم بقضايا مختلفة ٠ وتقول الدوائر المهتمة بشؤون الاكوادور ان الاسرائيليين الاربعة قد عرضوا على حكومة الاكوادور خدماتهم ومعدات متطورة لمكافحة الارهاب في بلادهم وانهم عرضوا ايضا رجالا لتنفيذ خدمات مرتبطة بمكافحة الارهاب » ٠

ان لكيفية تسرب المعلومات عن رحلة الجنرال زئيفي الى الاكوادور وغيرها قصة ذات دلالات هامة ٠ فسبب تسرب هذه المعلومات تقرير بعث به السفير الاسرائيلي في الاكوادور الى وزارة الخارجية الاسرائيلية في اذار (مارس) ١٩٧٧ يطلب فيه كشفا عن الاسرائيليين الاربعة بعد ان طلبت حكومة الاكوادور ذلك منه ٠ فالسفير الاسرائيلي لم يكن لديه علم مسبق بطبيعة مهمة الاسرائيليين الاربعة ولا حتى بوصولهم الى الاكوادور ٠ وعندما وصل تقرير السفير الى وزارة الخارجية احيل الى مكتب رئيس الحكومة لان الوزارة نفسها لم يكن لديها معلومات عن هذه المهمة ٠ وكان جواب مكتب رئيس الحكومة على طلب تعليمات للسفير هو اعطاء كشف عن الاسرائيليين ولكن بدون اعطاء توصية لا ايجابية ولا سلبية ٠

هذا يدل على ان مكتب رئيس الحكومة وهو المشرف المباشر على المخابرات الاسرائيلية (الموساد) كان على علم بالزيارة على الاقل ٠ وهذا بدوره يدل على ان هناك خطة اسرائيلية محكمة يتم بموجبها تزويد الدكتاتوريات العسكرية بالاسلحة والرجال والخبرات لقمع الثورات الداخلية ، ليس بالطرق الرسمية المألوفة وبشكل يضمن عدم تورط الحكومة رسميا ٠واللفت للنظر ان ممثلا سينمائيا اسرائيليا معروفا ــ حاييم توبل ــ كان مشتركا في هذه المهمة ٠ وعندما اتصل به مراسل صحيفة « هآرتس » حاول الادعاء في بادىء الامر ان هدف رحلته الى الاكوادور هو فقط بيع افلام عن التوراة ، ولكن تبين فيما بعد وباعتراف الجنرال زئيفي انه كان معه في نفس المهمة ٠ مما يدل على محاولة التمويه في هذه العمليات وضمان امكانية تنصل الحكومة الاسرائيلية منها ٠

ولكن في المقابلة التي اجرتها صحيفة « يديعوت احرونوت » مع الجنرال (احتياط) زئيفي قال : لقد طلبت من الحكومة الاسرائيلية امرين : « ١ ــ ان يكون كل نشاطي في الخارج تحت اشراف السلطات الاسرائيلية ٠ ٢ ــ ان يكون هناك اشراف امني على كل ما اقوم به في الخارج وانني اوافق على كل فيتو او منع من الحكومة الاسرائيلية » ٠ (يديعوت احرونوت ، ١ / ٤ / ١٩٧٧) ٠

اما الرجال الذين يستخدمهم زئيفي في هذه البلدان « لمكافحة الارهاب » فقد صرح الجنرال في المقابلة المذكورة بانهم من مسرحي خدمات الامن الاسرائيلية والجيش الاسرائيلي ٠

ومن الجدير بالذكر ان الصحف العبرية تنشر الكثير من الاعلانات وباجور مغرية عن مثل هذه الاعمال « لمكافحة الارهاب » واحد الاعلانات الشائعة يعد : راتبا يصل الى ٨٥٠٠ ليرة اسرائيلية بعد الضريبة ، جزء منه يدفع بالدولار ٠ الطعام والسكن بالمجان واجازة سنوية مدفوعة كاملا في اوروبا وعلاوة بعد خدمة سنة متواصلة ٠

٣ ــ الدعم الاعلامي

يظهر التقرير الذي نشرته صحيفة « هآرتس » في ١٩٧٨/٨/١٠ للمراسلة مارسل زوهار في بيونس ايرس بالارجنتين الدعم الاعلامي الذي تقدمه اسرائيل بشتى الوسائل للدكتاتوريات العسكرية في اميركا الجنوبية ٠ فقد تحدث التقرير عن زيارة ثلاثة جنرالات اسرائيليين الى الارجنتين والتشيلي وغيرهما في فترة ٦ اسابيع سبقت تاريخ نشر الصحيفة ٠ وهؤلاء الجنرالات هم حاييم لاسكوف ومردخاي هود وموتا غور ٠ وعدا عن الصفقات العسكرية التي ابرمت مع هذه الدكتاتوريات ، فقد اتضح ان كلا منهم حاول اعطاء الدعم الدعائي لهذه الانظمة عن طريق المقابلات الكثيرة التي اعطوها للصحف ووسائل الاعلام المحلية ، وعن طريق المحاضرات التي القوها في النوادي والكليات العسكرية هناك ٠ ومن جملة ما قاله الجنرال غور في احدى حفلات الاستقبال احيتها له « الجونتا » في التشيلي « ان الجيش التشيلي معتاد على النصر ولديه شهية لاحراز الانتصارات » (المصدر نفسه) !! وطبعا لا يقصد الجنرال غور انتصارات الجيش التشيلي على جيوش دول اخرى بل على الشعب التشيلي نفسه !

هذا بالنسبة للدعم الدعائي الاسرائيلي داخل هذه الانظمة ٠ وهناك دعم خارج هذه الدول وخاصة في واشنطن حيث ان « اللوبي الاسرائيلي » قام بالضغط من اجل تزويد سوموزا بالاسلحة الاميركية ٠ بل ان الدكتور اسرائيل شاحك يذكر في نشرته رقم ١٤ (١٩٧٨) ان جماعات الضغط الصهيونية « توجه ضغوطا قوية على المنظمات المختلفة التي تؤيد او تدعي انها تؤيد حقوق الانسان لكي تبرىء او تقلل من هجومها على هذه الانظمة الدكتاتورية ، هذه الانظمة التي تبقي معارضي اضطهادها داخل اسلاك شائكة ٠

وهناك سؤال مهم هو : ما هي علاقة الولايات المتحدة الاميركية بكل ذلك ؟٠ ولكي نستطيع الاجابة يجدر بنا الالمام بالحقائق التالية :

اولا : بدون المساعدات الاميركية الخارجية كان من الصعب وجود صناعات عسكرية داخل اسرائيل ٠ فطائرات « كفير » مثلا ، التي تصنع في « المصانع الجوية الاسرائيلية »

تسير على محركات اميركية · وهذه الصناعات تقوم على التمويل والتكنولوجيا التي تقدمها الولايات المتحدة الاميركية لاسرائيل ·

ثانيا : الامبريالية الاميركية التي تكفل وجود الكيان الصهيوني هي نفسها التي اقامت وحافظت على وجود الانظمة العسكرية الدكتاتورية من نظام سوموزا في نيكارغوا الى نظام موبوتو في زائير مرورا بنظام الشاه في ايران · مما يجعل امرا بديهيا ضرورة التحالف بين كل هذه الاطراف ·

ثالثا : النظام الصهيوني في الارض العربية متفوق – بحكم كونه قطعة منقولة من الجسد الامبريالي الغربي – على الانظمة العميلة في العالم الثالث مما يجعله مرشحا طبيعيا للعرض ويجعلها مرشحة طبيعية للطلب ·

رابعا : النظم الدكتاتورية العسكرية في العالم الثالث غالبا ما تجد نفسها في حرب مع شعوبها الممثلة بحركاتها التحررية ، وفي نفس الوقت تواجه نزاعات على الحدود مع جاراتها وهي نزاعات تقليدية خلفها الاستعمار الغربي في كل المناطق المستعمرة · وخبرات اسرائيل الطويلة بحكم حربها الطويلة لاخضاع الشعب العربي الفلسطيني في الداخل وصد كفاحه المسلح من الخارج ، بالاضافة الى حروبها مع الدول العربية الاخرى يجعلها مرشحة لان تبيع خبراتها ومعداتها ورجالها المسرحين الى انظمة تعمل على قمع شعوبها وفي نفس الوقت تريد ان تكون مستعدة لكل مواجهة على الحدود ·

خامسا : قانون المساعدات الخارجية الاميركية لا يسمح للادارة الاميركية ان تزود بالاسلحة حكومات اجنبية تنتهك بشكل صارخ حقوق الانسان ضد شعوبها · وبما ان النظام الاسرائيلي هو النظام الوحيد الذي يستطيع التستر على انتهاكاته لحقوق الانسان بسبب نفوذه وامتداداته داخل المؤسسات الامريكية ، فهو من جهة يستطيع اعفاء مؤسسة الحكم الامريكية من مخالفة القانون ، ومن جهة اخرى يستطيع افساح المجال امامها في ان تواصل الحديث عن « حقوق الانسان » ·

سادسا : في محادثات الحد من الاسلحة وبيعها بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، تعتقد الولايات المتحدة انها ستكون في وضع افضل فيما اذا كان تسليح الانظمة العسكرية الدكتاتورية في العالم لا ياتي منها مباشرة ·

ان ارتباط النظام الصهيوني بالانظمة الفاشية العنصرية ناتج اولا عن الاساس الايديولوجي المشترك لهذه الانظمة من حيث ان الصهيونية هي في جوهرها نظرية عنصرية فاشية ، وثانيا من الارتباط المصلحي لهذه الانظمة بالامبريالية الامريكية · مع ذلك يحرص النظام الصهيوني على ان يكون مميزا عن غيره من الانظمة المرتبطة بالامبريالية بحيث يستحق منها دعما اقوى ومساعدات اكثر · وعندما تدعم اسرائيل نظام الشاه او نظام سوموزا فانها تستطيع ان تقول لمؤسسة الحكم الاميركية انها تفعل ذلك لصالحها ·

من هنا ان نظام السادات يستطيع من خلال تنافسه مع اسرائيل في خطب ود الامبريالية الاميركية ان يصبح شاهنشاها آخر او سوموزا اخر ، ولكن مع ذلك ستبقى اسرائيل مفضلة عليه ، فهي ستقول في النهاية ان هذا « الانجاز » تم بفضلها ·

يوسف حمدان
نيويورك

الطلاب العرب في مواجهة الفاشية الصهيونية

مرة اخرى يواجه الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية ، حملة تحريض واعتداء مسعوره (١) لم يسبق لها مثيل ، تشنها عليهم قوى اليمين الصهيوني العنصرية المتطرفة وفاشيو الليكود وغوش ايمونيم ، بوحي ودعم من اجهزة القمع والهيئات التشريعية واجهزة الاعلام الصهيونية ، متبارين في اكتشاف العلاج لمشكلة وجود الطلاب في الجامعات الاسرائيلية ، التي تقلقهم ، حيث يدور النقاش في ادارات الجامعات والصحف الاسرائيلية ووزارة التربية والكنيست الاسرائيلي حول اقتراحات العلاج المطروحة ، لطرد الطلاب العرب الذين يؤيدون م·ت·ف من الجامعات فقط ، ام من فلسطين المحتلة ايضا ؟! او تقديمهم للمحاكمة امام المجالس التأديبية في الجامعات ام تقديمهم للمحاكم الجنائية ؟! وما اذا كان ينبغي محاكمتهم وفقا للبنود ٩٧و٩٩و١٠٠ او البندين ١٣٤ و ١٣٦ من قانون العقوبات لعام ١٩٧٧ ؟! او المطالبة بأن تصل العقوبة على مواقفهم المؤيدة لـ م·ت·ف والمعادية للكيان الصهيوني الى السجن المؤبد فقط ان الحكم بالاعدام؟! مما يدل على مدى امعان هذه القوى وشراسة تحريضها ، وعلى مدى امعان الدولة اليهودية الصهيونية في عدائها وحقدها للشعب العربي الفلسطيني والشعب العربي برمته ، واللذين وصلا بموشي دايان وزير خارجيتها ان يقف امام وفد يهودي من الولايات المتحدة وكندا ليتوج هذه الحملة بتحريضه الدموي الفاشي على عرب فلسطين المحتلة كافة ، مهددا انه « اذا كان العرب في الضفة الغربية وفي اسرائيل لا يريدون العيش معنا بسلام ومساواة في الحقوق ، فعليهم ان يعرفوا بأنهم سيدفعون الثمن غاليا جدا كما دفعوا في عام ١٩٤٨ عندما رفضوا الفرصة في ان يقيموا معنا حياة سلام ومساواة » (عل همشمار ودافار ، و ، معاريف ، ١٩٧٩/١/٢٤) .

وتأتي هذه الحملة المسعورة في اعقاب المقال الذي نشره مراسل صحيفة يديعوت احرونوت للشؤون العربية في ١٩٧٩/١/١٨ حول البيان الذي اصدرته « الحركة الوطنية التقدمية » للطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية ، والذي وزعه اعضاؤها في الجامعات ، ابان انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني الاخير في دمشق ، والذي يعلن فيه الطلاب المنتظمون في هذه الحركة عن تضامنهم مع م·ت·ف وسياستها تجاه اسرائيل ، وعدم اعترافهم بالكيان الصهيوني ، وكان مراسل يديعوت احرونوت قد ادعى بأن « التنظيم الطلابي العربي الاسرائيلي الحركة الوطنية التقدمية ، والذي يضم غالبية الطلاب العرب في البلاد ، قرر ان يتوجه للمجلس الوطني الفلسطيني ، والذي يضم كل فصائل التخريب بما فيها جبهة الرفض ، ليعرب له عن تضامنه مع اهداف المخربين وسياستهم تجاه اسرائيل ، وانه لا يعترف بالكيان الصهيوني » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/١/١٨) . واضاف المراسل

(١) انظر شؤون فلسطينية ، العدد ٨٢/٨١ ، ١٩٧٨ .

توفيق خوري بأن نص البيان كان قد « سلم لي لنشره في جريدة يديعوت احرونوت لكي يصل عبر هذه الطريقة الى قادة منظمات التخريب ، وذلك لانهم لم يجدوا اية وسيلة مشروعة اخرى لابلاغ قرارهم للدول العربية » (المصدر نفسه) ومن ضمن القرارات التي جاءت في هذا البيان والتي اشارت هذه الحملة التحريضية العاصفة على الطلبة العرب:

☐ « ان الحركة الوطنية التقدمية ، باعتبارها جزء لا يتجزأ من الشعب الرازح تحت نير الاحتلال الصهيوني في كل فلسطين المحتلة ، والذي يقاوم ضد الاحتلال ببطولة نادرة ، لا تعترف بالكيان الصهيوني » ٠

☐ « ان شعبنا العربي الفلسطيني مستمر في نضاله البطولي ضد كل محاولات الابادة والحل السلمي ، في نفس الوقت الذي يواجه فيه كل مؤامرات وتحديات الاستعمار والصهيونية في عام ١٩٤٨ و ١٩٦٧ » ٠

☐ « اننا نرفض محاولات حزب راكاح في ان يتولى قيادة شعبنا العربي الفلسطيني لان حزب راكاح يعترف بالكيان الصهيوني وبنشيده القومي اهاتيكفا ، هذا النشيد الذي يجسد خلاصة الفكر الصهيوني. ان حزب راكاح يشكل حاجزا في وجه الشعب العربي الفلسطيني ابتداء من حركة الارض وانتهاء بيوم الارض. » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/١/١٨) ، هذا بالاضافة الى عدة قرارات تتعلق بادانة « الرجعية العربية العميلة التي انعكست في الزيارة الخيانية للسادات ، و « دعم الشعب المصري الكادح في نضاله ضد الحلول الاستسلامية وفقا للقرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ » و « اقامة جبهة وطنية عربية تضم معظم حركات التحرر والحركات الوطنية والشعبية في الوطن العربي » و « اقامة جبهة وطنية اردنية فلسطينية لاسقاط النظام الاردني الرجعي » و « تأييد الشعب الايراني في نضاله العادل ضد الحكم الرجعي للشاه و « تأييد توحيد فصائل المقاومة الفلسطينية وفقا لخطة عمل للنضال بما يتوافق وروح وثيقة طرابلس » و « تأييد جبهة الصمود والتصدي ، ما دامت هذه الجبهة تعمل على القضاء على مبادرة السادات الرجعية الخيانية » (المصدر نفسه) ٠ وينتهي البيان بالشعارات « يحيا النضال الفلسطيني » و « تحيا وحدة النضال لشعبنا العربي » و « تحيا الثورة الوطنية الشعبية الديموقراطية العربية» (المصدر نفسه)٠

وبما ان البيان تطرق في احد بنوده لحزب راكاح الشيوعي ، ولتوضيح بعض الملابسات التي قد تنجم عن تنصل اتحاد اللجان للجامعيين العرب في الجامعات الاسرائيلية من « الحركة الوطنية التقدمية » ومعارضته للبيان ، ونعتت جريدة الاتحاد الشيوعية لهذه الحركة بانها « مجموعة صغيرة وهامشية من الطلاب العرب في القدس تقف وراءهم وبينهم عناصر مشبوهة ومدسوسة على الحركة الطلابية لم تعد هويتها بخافية على احد » (الاتحاد ١٩٧٩/١/٣٠) ، فلا بد اذن من التطرق للتنافس بين الكتلتين العربيتين المتصارعتين بين الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية وهما حزب « راكاح » ومؤيدوه وتنظيم « اولاد البلد » ومؤيدوه ، الذي يتفرع منه واضعو البيان التأييدي لـ م٠ت٠ف من « الحركة الوطنية التقدمية »٠٠

فالمجموعة الاولى من « ابناء البلد » كانت قد تألفت عام ١٩٧٢ من حوالي ٢٠ عضوا من الشباب الوطنيين المتحمسين الذين يتمتعون بتأييد جماهيري واسع ، لخوض معركة الانتخابات

للمجلس المحلي بزعامة المحامي محمد توفيق كيوان ، احد اعضاء حركة « الارض » القومية التي نشطت في فلسطين المحتلة في الاعوام ١٩٥٩ ـ ١٩٦٥ ، حيث حلت بقرار من محكمة العدل العليا وحظر عليها اي نشاط ٠ ولذلك فان حركة « ابناء البلد » تعتبر لدى السلطات الاسرائيلية كامتداد لحركة « الارض » ٠ وسرعان ما برزت هذه الحركة كقوة سياسية منافسة لحزب « راكاح » في استقطاب الجماهير الفلسطينية وخاصة ابناء الجيل الجديد الذي يشكل حوالي ٧٥٪ من العرب في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، في الانتخابات للمجالس المحلية ولجان الطلاب في الجامعات الاسرائيلية ٠ برامجها المعلنة وصيغ انظمتها هي الكفاح من اجل تحسين اوضاع الحياة المعيشية في القرى والمدن العربية الفلسطينية ، الا ان معظم نشاطها الاجتماعي ينحصر في اساسه بالكفاح السياسي ضد مصادرة الاراضي وهدم البيوت ومن اجل المعتقلين السياسيين وضد « وثيقة كينيغ » ، ومن قبل مظاهرات الاحتجاج والاضرابات في « يوم الارض » وغير ذلك ٠ اما الخط السياسي لـ « ابناء البلد » فيما يتعلق بمنظمة التحرير الفلسطينية والقضية الفلسطينية ، فهو التأييد الكامل لمنظمة التحرير الفلسطينية بكل فصائلها واهدافها السياسية ، باعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، واقامة دولة فلسطينية على كامل التراب الفلسطيني ، وعدم الاعتراف بالكيان الصهيوني ووجود دولة اسرائيل ، على عكس حزب « راكاح » الذي يعترفبوجود دولة اسرائيل ، ولكنه يطالب بالانسحاب الشامل من الاراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، ويدعو لاقامة دولة فلسطينية الى جانب دولة اسرائيل ، ويعتبر منظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا ووحيدا للشعب الفلسطيني ٠

ولهذا ، ففي الصراع الحاد الذي نشب بين حزب « راكاح » و « ابناء البلد » في انتخابات اللجان الطلابية في معاهد التحصيل العالي السبعة التي تضم حوالي ٣٠٠٠ طالب عربي ، لعام ١٩٧٨ فاز « ابناء البلد » بالاكثرية الساحقة في اللجان المنفردة وبالتالي في اتحاد اللجان للطلاب العرب ، حيث احتلوا ٧ مقاعد من مجموع ٩ ٠ الا ان سلطات الجامعات سرعان ما سحبت اعترافها باتحاد اللجان العرب كجسم تمثيلي منفرد عن الاتحاد العام للطلاب الاسرائيليين في اعقاب الحملة التحريضية التي شنها اتحاد الطلاب الاسرائيليين واجهزة الاعلام الاسرائيلية وعدد من اعضاء الكنيست ، بعد المظاهرة التي نظمها اتحاد اللجان العربية ضد المفاوضات الاسرائيلية المصرية ٠

اما في الانتخابات الاخيرة فقد استطاع حزب « راكاح » ان « يزيد من قوته على حساب الكتلة المتطرفة [ابناء البلد] ، حيث حصل على الاكثرية في لجان الطلاب العرب في كل المعاهد الاكاديمية ، باستثناء جامعة حيفا ، حيث حصل راكاح على ٥ ممثلين في لجنة الطلاب والكتلة المتطرفة [ابناء البلد] على ٦ ممثلين ٠ ومن بين الـ ٥٥ مقعدا في كل لجان الطلاب العرب في الجامعات هناك ٢٨ مقعدا لراكاح ومؤيديه و ٩ مقاعد للكتلة المتطرفة [ابناء البلد] و ١٨ لغير المصنفين من الناحية السياسية » (دافار ١٩٧٩/٢/٢) ، وبهذا تكون السيطرة على اتحاد اللجان العربية في الجامعات قد انتقلت الى حزب « راكاح » ٠ وقد عقد مجلس اتحاد الطلاب الجامعيين العرب اجتماعه الاول في الناصرة في ١٩٧٩/١/٦ وبعد اقرار

البيان تم انتخاب سكرتارية للاتحاد ضمت كلا من الطلبة : « عزيز حيدر وجمال زحالقه من جامعة القدس ، وعصام مخول وهشام اسدي من جامعة حيفا ، ومحمد بركة ورياض قدسي من جامعة تل ابيب ، وجورج حلو من التخنيون ، ومازن نصار من جامعة بارايلان ، وثابت ابوراس من جامعة بئر السبع ٠ كما انتخب المجلس الطالب عصام مخول سكرتيرا للاتحاد وناطقا باسمه (الاتحاد ١٩٧٩/١/٩) ٠

ورغم هذه النتيجة في الانتخابات والتي اعتبرها المراقبون « انتصارا للخط الاكثر مرونة بين الطلبة العرب » (دافار ١٩٧٩/٢/٢) ، ورغم ان البيان المذكور لم يكن صادرا عن اتحاد الجامعيين العرب ولا يحمل توقيعه ، الا ان اتحاد الطلاب الاسرائيليين سارع بعد ساعات قليلة من نشره في صحيفة يديعوت احرونوت وتوزيعه ، الى شن حملة تحريض واسعة ضد الطلاب العرب بشكل عام وفي جميع الجامعات ، باعتباره « الحركة الوطنية التقدمية هي من متفرعات ابناء البلد » وان جمهور الطلاب العرب انتخب في الانتخابات الاخيرة لصالح « قائمتين من المرشحين فقط ، كتلة ابناء البلد وكتلة راكاح » ، وان « ابناء البلد » رشحوا انفسهم « في القائمتين وجرفوا نصف اصوات الطلاب تقريبا » وان الطالب العربي يكون بهذا قد « دعي للاختيار بين جبهة م٠ت٠ف بصيغة ابناء البلد وبين جبهة م٠ت٠ف بصيغة راكاح » (معاريف ١٩٧٩/١/٢٦) وبناء عليه فقد طالب الاتحاد العام للطلاب الاسرائيليين « بالطرد الفوري لعملاء م٠ت٠ف من الجامعات » ، كما وجه رئيس الاتحاد موشي شيف كتابا الى رئيس الجامعة العبرية في القدس ابراهام هرمان يطالبه بأن « تفي الجامعة بتعهداتها ولا تعترف بأي جسم تمثيلي للطلاب العرب بل باتحاد الطلاب الاسرائيليين فقط » (معاريف ١٩٧٩/١/١٩) وجاء في كتابه « يؤسفني بأن السياسة الليبيرالية التي وصلت بنا الى حد دعوتهم للتمرد » انتهجناها حيال الطلاب العرب هي التي معلنا ان اتحاد الطلاب الاسرائيليين «يقطع اتصالاته مع اتحاد الطلاب العرب ، الى ان يعلن شجبه لبيان التضامن مع م٠ت٠ف » (المصدر نفسه) ، في نفس الوقت الذي كانت تقوم فيه « مجموعة من الطلاب اليهود القاطنين في مساكن الطلبة في القرية الجامعية بتنظيم نفسها للنيل من الطلاب العرب ، والحديث هنا عن اعمال عنف ضد الطلاب العرب » (المصدر نفسه) ٠ وقد صرح رئيس الجامعة العبرية ابراهام هيرمان ردا على كتاب رئيس اتحاد الطلاب الاسرائيليين في نفس اليوم بأن « الجامعة العبرية كانت قد اسستها المنظمة الصهيونية كمشروع مركزي لحركة الفصل اليهودية القومية، ومن وجهة النظر هذه سوف تتعامل الجامعة مع اي نشاط داخلها » (المصدر نفسه) ٠ اما في الكنيست الاسرائيلي فقد سارع كل من الائتلاف الحكومي بلسان عضو الكنيست امنون لين (ليكود) و « المعارضة » بلسان نائبة رئيس الكنيست شوشانه اربلي الموزلينو (العمل) ، وفي نفس اليوم ١٩٧٩/١/١٨ ايضا ، لنقل حملة التحريض المحمومة هذه الى قاعة الكنيست الاسرائيلي بتقديم اقتراحين عاجلين على جدول اعماله ، طالبا فيهما « بحث بيان الطلاب العرب الذين يسمون انفسهم الحركة الوطنية التقدمية ، المعارضين للكيان الصهيوني، وبادانة تصريحات واعمال الطلاب العرب الذين يؤيدون م٠ت٠ف وطردهم من الجامعات باعتبار ذلك خيانة لدولة اسرائيل ٠٠ والغاء اعتراف الجامعة العبرية الذي منحته لاتحاد الطلاب العرب

باقامة اطار تنظيمي مستقل » (معاريف ودافار ١٩٧٩/١/١٩) · وفي شرحها لاقتراحها ذكرت نائبة رئيس الكنيست شوشانه اربلي الموزلينو بأن « القرار الذي اتخذه تنظيم الطلاب العرب الاسرائيليين الحركة الوطنية التقدمية ، بالتوجه للمجلس الوطني الفلسطيني الذي تنتظم فيه جميع فصائل المخربين ، والاعلان عن تضامنه معها مع اهدافها وسياستها تجاه اسرائيل ، هو عمل تآمري ، ويشكل خرقا للقانون وتحريضا علينا ضد الدولة » (المصدر نفسه) · واضافت شوشانه الموزلينو بأنه « نظرا للحقيقة في ان التضامن مع منظمات التخريب واعمال الارهاب والقتل التي تنفذها ، يجب اعتبار قرار التنظيم الطلابي العربي ونشره عملا معاديا لدولة اسرائيل لا يقل عن الخيانة » (المصدر نفسه) ·

وامام هذه الحملة التحريضية المخططة التي انتشرت بتنسيق كامل بين اتحاد الطلاب الاسرائيليين في كل الجامعات الاسرائيلية ، والذي راح يهدد « بشل الدراسة في الجامعات ما لم يطرد الطلاب الموقعين على البيان » و « ايذاء الطلاب» ، وبين السلطات الاسرائيلية واجهزة اعلامها في اليوم التالي ، سارع عصام مخول (راكاح) سكرتير اتحاد الطلاب الجامعيين ، لشن حملة هجومية على « تلك القلة من الطلاب التي تسمي نفسها الحركة الوطنية التقدمية » ، والتصريح في اجتماع اللجنة القطرية للدفاع عن الاراضي العربية الذي عقد في الناصرة يوم ١٩٧٩/١/٢٠ ، اي بعد يومين من نشر « البيان » ، بأن « هذا البيان لا يمثل موقف الطلاب الجامعيين العرب ، كما ان اتحاد الطلاب ولجان الطلاب لم يصدروه» (الاتحاد ١٩٧٩/١/٢٣ و ، علهمشمار ، ١٩٧٩/١/٢٤) ، واضاف الطالب عصام مخول ان « المواقف المغامرة التي رفعها اصحاب البيان المعزولون ، رفضتها الجماهير العربية في انتخابات السلطات المحلية في تشرين الثاني وفي انتخابات لجان الطلاب الجامعيين العرب » (المصدر نفسه) ، حاملا في كلمته على اتحاد الطلاب الاسرائيليين واجهزة الاعلام وعضوي الكنيست امنون لين وشوشانه اربلي الموزلينو لانتهاز « البيان » لشن الحملة التحريضية ضد الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية · وفي الاجتماع الطارىء الذي عقدته سكرتارية الاتحاد القطري للطلاب الجامعيين العرب برئاسة عصام مخول في تل ابيب في ١٩٧٩/١/٢٢ لتطويق هذه الحملة التحريضية العدائية التي اخذت تتسع وتزداد شراسة داخل الجامعات وفي كل اجهزة الاعلام الاسرائيلية ، اصدر الاتحاد بيانا جاء فيه :

١ ـ « ان الضجة الاعلامية التي اثيرت حول بيان ، غامض اصدرته مجموعة مجهولة الهوية ·· نحن نشجب محاولة نسب البيان لجمهور الطلاب العرب في البلاد، ونشجب حملة التحريض ضد هذا الجمهور » ·

٢ ـ « ان « البيان » لا يعبر عن رأي الطلاب العرب ، ولا عن رأي مؤسسات الاتحاد ، كما ان اية لجنة طلاب عرب جامعيين منتخبة في اية جامعة في اسرائيل لم تقم بارسال اية برقية او بيان » ·

٣ ـ « ان مواقف الاتحاد القطري للطلاب العرب معروفة وواضحة، فالاتحاد يطالب :

☐ بالمساواة التامة في الحقوق القومية واليومية للجماهير العربية في اسرائيل ، والتعايش على اساس الاحترام المتبادل ·

□ ويسلام عــادل يقـوم على اساس احترام الحقوق القومية العادلـة للشعب العربــي الفلسطيني ولشعب اسرائيل · وذلك يتم بالانسحاب من جميع المناطـق المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، واقامة الدولـة الفلسطينية المستقلة الى جوار اسرائيل ، والاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينيـة على انها الهيئة الممثلة للشعب العربــي الفلسطيني وعنوان التفــاوض في اي حل سلمي » ·

٤ ــ اننا نطالب حالا بوقـف حملـة التحريض التي لم يسبق لها مثيل ضــد جمهور الطلاب العرب حول قضية «البيان»، الذي لا يعبر عن رأي الطلاب الجامعيين العرب · ونحذر من المحاولات الخفيـة لاستغلال هذه الحملة للصيد فـي المـاء العكر ، ومحاولات المس بالطلاب العـرب في الجامعات » (الاتحاد ، ١٩٧٩/١/٢٣ و ، علهمشمار ، ١٩٧٩/١/٢٤) ·

كما ردت لجنة الطلاب فـي الجامعـة العبرية في القدس ، هي الاخرى بدورها علــى « البيان » فــي ١٩٧٩/١/٢٤ . موضحة في بيان لها ان « ناشري البيان لا يمثلون كل جمهور الطلبة العـرب » ، وان النشر في الصحف خلق انطباعا ليس له اساس في الواقع بأن الحركة الوطنية التقدمية ، تنظم في صفوفها معظم الطلاب العرب ، والحقيقة هي ان القائمة التــي حظيت بالاكثريـة فـي انتخابـات اتحـاد الطلاب ، تضمنت فــي برنامجها مبـدأ المطالبة بحق تقريـر المصيـر للشعبيـن » (عل همشمار ١٩٧٩/١/٢٥) كما ونددت لجنة الطلاب العرب في الجامعة العبريـة في القدس في بيانها بـ « حملة التحريض المغرضة والعنصرية التي يقودها اتحـاد الطلاب الاسرائيليين على الطلاب العرب في وسائل الاعلام ، وحملة التحريض التي يشنها عدد من اعضاء الكنيست د· بـن مئير وشوشانه اربلي الموزلينو وبالطبـع امنون ـين الذي لا يوفر فرصة للاعلان عن ارائه الفاشية وكرهه للمواطنين العرب » (المصدر نفسه) ·

الا ان اتحاد الطلاب الاسرائيليين في الجامعة العبرية في القدس ، اعلن بلسان رئيسه موشي شيف في رده على هــذا البيان الذي تسلم نسخة عنه : « نحـــن نرى في هذا البيان صفعة لنا ، بعد ان كنا نتوقع ان يتضمن تنديدا واضحــا ببيان الحركة الوطنية التقدمية ، واننــا سوف نتوقف عن اية مباحثات مع لجنـة الطلاب العرب الى أن تنشر اعتذارا علنيا عن هذا البيان » (المصدر نفسه) · اما في جامعة حيفا فقد قامت مجموعه مــن الطلاب اليهود « بجمع ٢٥٠٠ توقيع فــي الايام الاخيرة من زملائهم الطلاب عـلى عريضة تطالب بطرد مؤيدي م·ت·ف من معاهــد التعليـم العالي في اسرائيل » (المصدر نفسه) · كما وشـدد اعضاء الكنيست د· بن مئير (مفدال ، وامنــون لين (ليكود) وشوشانه اربيلي الموزولينو (العمل) في حملتهم على الطلاب العرب كافة في الكنيست ، رغم بيان اتحــاد الطلاب الجامعيين العرب ولجنة الطـلاب العرب في الجامعة العبرية في القـدس ، وطالبوا بأن « ليس لاولئك الطلاب الذين يؤيدون م·ت·ف واهدافها اي مكان فــي الجامعات التي تمولها الدولة اليهوديـة والشعب اليهودي ، وعلى الحكومـة ان تقدم واضعي « البيان للمحاكمة » موجهين انتقاداتهم التحريضية على انها « حكومة ضعيفة تزيد في قوة المتطرفين العـرب ولا ترى الواقع » (علهمشمار،دافار ، ١٩٧٩/١/٢٥) ، ثم انضم اليهم وزيـر التربية والتعليم زفولون هامـر (مفدال) معلنا بأن « ليس من حقوق طلابية لمـن يتآمر على كياننا » (المصدر نفسه) ·

ولكن زفولون هامر هذا الذي ساهــم في اذكاء حملة التحريض على الطـلاب

العرب دون استثناء ، ومن خلال موقعه الرسمي ، عاد و « قرر ان يعمل على « تهدئة » الخواطر في الجامعات فيما يتعلق بالبيان الذي اصدره عدة طلاب عرب بادانة دولة اسرائيل وبشرعية العمل الارهابي ضدها » (علهمشمار ١٩٧٩/١/٢٨) بعد حالة الغليان والاستنكارات التي عمت قرى ومدن فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ واوساط الطلبة العرب في الجامعات الذين راحوا ينتظمون لصد اي عدوان عيهم من قبل الطلاب اليهود الذين سيطرت عليهم الهستيريا الفاشية ، حاصرا تحريضه هذه المرة بـ « افراد من الطلبة غقد المعروفين للسلطات وفقا للمعلومات التي لدى وزارة التربية والتعليم » (عل همشمار ، ١٩٧٩/١/٢٨) ، اذ في رايه « يجب الحذر من الانجرار خلف الاتهامات ضد الاغلبية الساحقة من الطلاب العرب الذين يقومون بكل الواجبات المنتظرة من كل مواطن في الدولة » ، ولكنه مع ذلك يمهد الطريق لاجهزة القمع الاسرائيلية ويمنحها المبررات لاتخاذ اي اجراء قمعي « باعتمادها » السبل المتبعة حيال هؤلاء الافراد من الطلبة العرب « لانه » لا يحق لمن يتآمر على وجود الدولة ، التمتع بالحقوق المعطاة للطلاب ، ولكن يجب ابقاء ذلك للشرطة كي لا تتحول الجامعات الى ساحة قتال بين الطلاب اليهود والطلاب العرب ، كما مهد ذلك قبله رئيس الجامعة العبرية في القدس ابراهام هيرمان حين صرح بأن « لا شك لديه بأن موضوع « البيان » الذي يرى فيه تحريضا واضحا على التمرد ، يجب ان يحال لاهتمام الشرطة » (عل همشمارو ، معاريف ، ١٩٧٩/١/٢٤ · وعلهمشمار ، ١٩٧٩/١/٢٨) ناهيك عن تمهيد الصحف السوداء والكنيست الاسرائيلي ذلك ·

وبالفعل ، وكان الامر كان مدبرا سلفا بين سلطات الجامعة العبرية ووزير التربية واجهزة القمع الاسرائيلية ، اذ ما كانت تمضي عدة ساعات فقط على تصريح رئيس الجامعة العبرية فيالقدس ابراهام هيرمان ، ووزير التربية والتعليم زفولون هامر حتى « داهمت قوات من الشرطة في الساعة الثانية عشرة منليل ١٩٧٩/١/٢٥ مساكن الطلبة على جبل المكبر ، وسلموا ستة من الطلاب العرب اوامر بالاقامة الجبرية وفقا لبند ١١٠ من انظمة الدفاع في حالة الطوارىء لعام ١٩٤٥ تأمرهم بالعودة فورا الى قراهم واثبات وجودهم في مراكز الشرطة مرتين في اليوم في الساعة العاشرة صباحا واخرى في الثالثة من بعد الظهر ، بتهمة التضامن مع م·ت·ف (علهمشمار ، ١٩٧٩/١/٢٨ و ، الاتحاد ، ١٩٧٩/١/٣٠ و ، هعولام هزيه ، ١٩٧٩/١/٣١) وقد صدرت هذه الاوامر عن « حاكم منطقة الشمال الجنرال افيغدور بن غال » (المصادر نفسها) · وهؤلاء الطلبة الستة هم : « وليد امين عمري من قرية صندلة ، وجمال محاجنه من ام الفحم ، وسعود اعتبارية من قرية مصمص ، وناصر سمارة من كفر ياسيف ، ومصطفى عسلي من قرية عرابة، ولطفي ابو الهيجا من قرية طمرة ··· كما واصدرت اوامر متشابهة لعشرات من الطلاب العرب في الجامعات الاخرى (المصادر نفسها)·

وفي اعقاب اوامر الاقامة الاجبارية هذه اصدرت لجنة الطلاب العرب في الجامعة العبرية في القدس بالاشتراك مع منظمة « كامبوس » الطلابية التابعة لحزب مابام ، بيانا وزع على الطلاب اليهود والعرب في جامعة القدس « نددوا فيه باستخدام انظمة الطوارىء الانتدابية ضد الطلاب العرب » على اعتبار ذلك كما اكدا « يشكل اعتداء على حرية التعبير في الجامعة واسرائيل عامة » (الاتحاد ، ١٩٧٩/١/٣٠) · واشار البيان الى

ان « الآراء السياسية التي تضمنها بيان تلك المجموعة القليلة من الطلاب العرب ليست جديدة » واكدا « تحفظهما على تلك الآراء » · كما ندد البيان بدور اتحاد الطلاب الاسرائيليين العام في القدس والذي « ساهم في حملة التحريض على الطلاب العرب عامة ويؤيد الاجراءات المنافية لحرية التعبير في الجامعة » (المصدر نفسه) واتهم البيان « ادارة الجامعة بتأييد استخدام انظمة الطوارىء وبتشجيع وتدخل الشرطة في مثل هذه الامور » محذرا ادارة الجامعة ومؤكدا على ان « عليها ان تدرك انه لا يمكن قيام مؤسسة جامعية بدون ضمان حرية التعبير » ، داعيا اياها للمطالبة « بالغاء اوامر الاقامة الاجبارية المفروضة على الطلاب العرب وضمان حرية التعبير السياسي في الجامعة » (المصدر نفسه) ·

كما وتقدم النائب الشيوعي مايرفلنر بطلب مستعجل الى رئاسة الكنيست ، دعاها باسم كتلة « الجبهة الديموقراطية للسلام والمساواة » ، الى « بحث فرض اوامر الاقامة الاجبارية على الطلاب العرب الستة من اجل الغائها » وجاء في الطلب : « اننا ننظر بخطورة بالغة الى هذه الخطوة التي اتخذت بالنسبة لستة طلاب عرب بسبب تعبيرهم عن رأيهم السياسي ، رغم اننا نتحفظ على مضمون البيان الذي نشر · ان هذه الاوامر تعني ابعادهم عن مقاعد الدراسة، وهي خطوة غير ديموقراطية ومعادية للمواطنين العرب · بينما تنشر الصحف في الوقت نفسه وبتوسع تصريحات الراب كهانا ومئير هارتسيون والسيدة شمئور الذين يطالبون بطرد العرب من البلاد » (الاتحاد ، ١٩٧٩/١/٣٠) ·

اما « الحركة الوطنية التقدمية » للطلاب العرب فقد اصدرت بالاشتراك مع لجنة العمل للدفاع عن حرية التعبير والفكر في الجامعة العبرية بيانا تضمن دعوة « لالغاء اوامر الاقامة الجبرية ضد الطلاب العرب » (علهمشمار ١٩٧٩/١/٢٨) ، كما ويوضح البيان ان « هذه الاوامر اعطيت في اعقاب حملة تحريض شعواء محشوة بالاكاذيب والتزييف ، عبر وسائل الاعلام واتحادات الطلبة الاسرائيليين ضد الطلبة العرب »، ولذلك فان « الحركة الوطنية التقدمية ولجنة العمل للدفاع عن حرية التعبير تريان في اوامر الاقامة الاجبارية ظاهرة جديدة خلال السنوات الثماني الاخيرة وبداية لاعادة الحكم العسكري على المواطنين العرب في البلاد من جديد » (المصدر نفسه) · كما واصدرت « الحركة الوطنية التقدمية » بيانا اخر تشرح فيه « مضمون البيان الاصلي وكنهه » · وقد جاء في هذا البيان انه « صحيح ان «البيان» يعرب عن الرأي ضد الصهيونية كعقيدة وممارسة ، القائمتين على التمييز العنصري والاضطهاد القومي اللذين يطبعان النظام القائم بطابعهما · الا انها وجهة نظر مشروعة ولا يمكن المعاقبة لمجرد التفكير » (المصدر نفسه) · اما في البند الاخير من البيان فقد جاء : « صحيح ان البيان، يعرب عن الرأي الصريح المؤيد لنضال الشعب الفلسطيني من اجل تقرير مصيره، الا انه يخلو من اية اشارة او تلميح يفهم منهما التأييد لنهج هذا النضال ، وهذا يدحض دحضا قاطعا ما افترته الصحف بشكل حقير ومغرض وكأن«البيان» يدعو للكفاح المسلح ضد دولة اسرائيل» (المصدر نفسه) ·

اما جمال محاجنة من أم الفحم فقد قال معقبا على الامر بالاقامة الاجبارية في مقابلة صحفية اجرتها معه مجلة هعولام هزيه : « ···· اننا لسنا محرضين ، وانما نعبر عن رأي سياسي ··· اننا

حركة وطنية تقدمية ولسنا حركـة قوميـة متطرفة ، والفرق في اللفظ في هذه الحالة مهم جدا ··· حركتنا مؤلفة من جميـــع الطلاب والطالبات الذين يعتبرون أنفسهم عربا فلسطينيين ، ولكن بحكم الظـروف هم مواطنون في دولة اسرائيل · معظمنا اصحاب ميول ماركسية ونسعى الى تغيير الواقع الطبقي والسيادي للعرب في البلاد» (معولام هزيه ١٩٧٩/١/٢١) ،واضاف جمال محاجنة « ··· اننا نعتبر م·ت·ف الممثل الشرعيوالوحيد للشعب الفلسطيني كما اقر العالم بأسره ، ونحن كحركـــة نناضل ضد الرجعيـــة العربية وضـــد الاستعمـــار والصهيونيـــة والفكـــرة الصهيونيـــة ··· انتـــي موجـــود هنا في هذه البلاد بحق ، وليس منة من اي شخص ، انني موجود هنا منذ اجيال واجيال ··· في يوم الخميس في الساعة ١٢ ليلا داهمنا رجال الامن واعلمونـــي بأنهم يفرضون علي اقامة جبرية ، وان علي مغادرة غرفتي في مساكن الطلبـــة قبل الساعة السادسة صباحا ·· انهـــا اول الغيث ، فهم يسعون لتطبيق سياســة كاملـــــة على العرب في هذه البلاد » (معولام هزيه ١٩٧٩/١/٣١) ·

ان الحملة التحريضية التـــي يتعرض لها الطلاب العرب في فلسطين المحتلة ، لم تهدأ باعتقال الطلاب الستة ، وانما ازدادت حـــدة وسعارا ، وازداد الطلاب فـــي مواجهتها صلابة ، ويعدون لخوض معركة اعلاميـــــة واسعة مع اجهزة الاعـــلام الصهيوني الفاشي ، وينتظمون للتصـــدي لمجموعات الطلاب اليهود الفاشية التـــي تعد نفسها للاعتداء عليهم ·

توفيق فياض

النتائج الاستراتيجية للثورة الايرانية

لا شك في ان نجاح ثورة الشعب الايراني في اسقاط نظام الشاه في ١١ / ٢ / ١٩٧٩ ، وترسيخ السلطة الثورية الجديدة على اسس ديمقراطية وطنية قومية في وجه مؤامرات الرجعية المحلية والامبريالية الاميركية ، سيؤدي الى تحولات استراتيجية بالغة الاهمية في هذه المنطقة الحيوية من العالم ، خاصة بالنسبة لمنطقة الشرق الاوسط والخليج العربي وشعوب الامة العربية ، في نضالها الدائب والمستمر ضد العدو الصهيوني والامبريالية . فمنذ العام ١٩٦٨ ، اي في اعقاب الهزيمة العربية عام ٦٧ ، واثر اعلان بريطانيا عن نيتها في الانسحاب من منطقة الخليج العربي في العام ١٩٧١ ، بدأت ايران بزعامة الشاه ، وبدعم متزايد من الولايات المتحدة الاميركية ، في بناء قوة عسكرية متنامية تعمل في خدمة المصالح الامبريالية العالمية ، والاميركية منها خاصة ، والمتمثلة اساسا في تأمين المصالح النفطية للغرب الامبريالي في ايران ذاتها والدول العربية المطلة على الخليج العربي .

وعلى هذا الاساس تزايدت النفقات العسكرية الايرانية من ٣ر٣٦٦ مليون دولار عام ٦٧ الى ٧ر٤٦٥ مليون دولار عام ٦٨ ، ثم الى ٥ر٦١٩ مليون دولار عام ١٩٧٠ ، والى ٩١٥ مليون دولار عام ٧٢ . وجاءت القفزة الكبرى في العام ٧٣ اذ ارتفعت النفقات الى ٢٠٩٦ مليون دولار .

واستمر التصاعد في الميزانيات العسكرية الايرانية بصورة بالغة التزايد ، اذ بلغت النفقات المذكورة ٥٥٥٠ مليون دولار عام ٧٤ ، ثم ٨٨٠٠ مليون دولار عام ٧٥ ، ٩٥٠٠ مليون دولار عام ٧٦ ، و ٧٨٩٤ مليون دولار عام ٧٧ ، ثم وصلت الى ٩٩٤٢ مليون دولار عام ١٩٧٨ .

واتجهت معظم هذه النفقات الى صفقات اسلحة ضخمة ، عقدت في اغلبها مع الولايات المتحدة الاميركية ، بحيث اصبحت « ايران الشاه » هي الزبون الاول للاسلحة الاميركية ، التي شكل تصديرها وسيلة رئيسية لاستعادة الاموال المدفوعة في النفط ، واصلاح الخلل المتزايد في ميزان المدفوعات الاميركي ، فضلا عن تأمين الارباح لاحتكارات السلاح . وانتقلت ايران من دولة تتلقى المساعدات العسكرية والمالية من الولايات المتحدة في الخمسينات واوائل الستينات ، الى دولة مستوردة للاسلحة والمعدات الحديثة للغاية ، التي تفوق بعضها قدرات استيعاب قواتها المسلحة تقنيا ولا تتطلبها متطلبات امنها القومي ، مثل المقاتلات « ف ــ ١٤ » وطائرات الانذار المبكر «اي ــ ٣ او اكس» . ولم تقتصر صفقات الاسلحة الضخمة التي عقدها « الشاه » على الولايات المتحدة ، وانما امتدت ايضا الى بريطانيا التي اشترت منها ايران مئات من دبابات « تشيفتين » وتعاقدت معها على صفقة ، لم يتم تنفيذها بعد ، ضمت اكثر من ١٢٠٠

« شيرايــران » ، وهي تطوير لدبابــة تشيفتين من حيث التدريع ، كانـت ايران اول دولة ستستخدمه في العالم ، فضـلا عن شرائها لاربع مدمرات « فوسبـر » وقوارب حوامة « هوفركرافت » وصواريخ مختلفة · وامتدت ايضا الى ايطاليا التي اشترت ايران منهـا طائرات هليكوبتر ، وتعاقدت معها على شراء ٦ فرقاطـات حديثة من فئة « لوبو » · وكـذلك مـع فرنسا التي اشترت منها طائرات هليكوبتر وزوارق صواريخ ، والمانيا الغربية التي تعاقدت معها على شراء ٦ غواصات من طراز ٢٠٩ ·

وهكذا انتقل تسليح الطيران الايراني مثلا من نحو ١٠٠ طائرة مقاتلة « ف ـ ٥ أ » في اعوام ٦٥ــ٦٨ الى طائرات « ف ـ ٤ » « الفانتوم » التي بدأت تصل ايران عام ٦٩ ، في الوقت ذاته التي بـدأت تتسلمها اسرائيل ايضا ، وذلك الـى جانب النوع المطور من « فـ٥ » المسمى « ف ـ ٥ اي تايغر » ، ثم طائـرات « ف ـ ١٤ » التي بدأ التعاقد عليها عـام ١٩٧٢ وكانت كلفة الطائرة مـع قطـع غيارها وصيانتها نحو ٣٠ مليون دولار ، ثم طائرات « ف ـ ١٦ » التي تم التعاقد عليها عام ١٩٧٨ ولم يبدأ تسليمها بعد ·

وهــذا ما دفع صحيفـة « نيويورك تايمس » الى التعليق في ٧٤/٢/٢٥ قائلة « لقد اصبح الشــاه يبتاع الطائـرات الاميركية بصورة اسرع من انتاجها » !

وفي الوقت ذاته انشأ الشاه العديـد من القواعد البرية والجويـة والبحريـة الحديثة في مناطق قريبة من ، او مطلة على الخليج العربي مثل « بندر عباس » و « شاهبـا هار » قرب الحـدود الباكستانية ·

وقد صرح الشاه عام ٧٤ بأن «الجيش الايراني سيصبح قويا الى درجة لا تجعله محل اهتمام المنطقة وحدهـا ، ولكـن العالم كله سيجد نفسه مضطرا لادخاله في حسابه ، ومن المحتمل ان يتحقق ذلك في عام ١٩٧٧ » ·

وفي النتيجة اصبحت القوة العسكريـة الايرانية تضم عام ٧٨ قوة برية مؤلفـة من نحو ٢٨٥ الف جندي ، موزعين على ٣ فرق مدرعة و٣ فرق مشاة ، و٤ ألوية مستقلة اخرى (١ مدرع و ١ مشاة و ١ محمول جوا و ١ قوات خاصة) ، و ٤ كتائب صواريخ « هوك» مضادة للطائرات، ولدى هــذه القوات نحو ٧٦٠ دبابـة « تشيفتين » و ٤٠٠ دبابـة من انـواع « مـ٤٧» و « مـ٤٨»، ونحو ٤٦٠ دبابـة « مـ٦٠أ » و ٢٥٠ دبابة استطلاع خفيفه بريطانية الصنع من طراز « سكوربيون » ونحو ٨٢٥ ناقلة جنود مدرعة من انواع اميركية وسوفيتية · وحوالي ٧١٠ مدافع ميدان وهاوتزر مقطورة من عيـارات مختلفة (اميركية وسوفيتية) ، ونحـو ٥٠٠ مدفع ذاتي الحركة من عيارات ١٥٥ مـم و ١٧٥ مم و ٢٠٣ مم (اميركيـة الصنع) فضلا عن ٧٢ راجمة صواريخ « ب م ـ ٢١ » عيار ١٢٢ مم (سوفيتية الصنع) ، وعدد من قانصـات الدبابات « س يو ـ ٨٥ » (مدافع ذاتية الحركـة مضادة للدبابات سوفيتية الصنـع) · وبالاضافة الى نحو ١٨٠٠ مدفع مضـاد للطائرات مقطور من عيارات مختلفـة (بعضها سوفيتي من عيارات ٢٣ مـم و ٥٧ مم و ٨٥ مم) ، وحوالـي ١٠٠ مدفع م/ط ذاتي الحركة من نوعي « زدس يـو ـ ٢٣ــ٤» و «زدس ـ ٥٧ـ٢ » السوفيتية الصنع · فضلا عن نحو ٦٢٠ طائرة هليكوبتر من مختلف الانـواع منها نحو ٢٠٠ هليكوبتر هجومية مضادة للدبابات من طراز « كوبرا » ·

اما القوة الجوية الايرانية فتضم ١٠٠ الف رجل ونحو ٤٥٩ طائرة قتال ، منها

نحو ٢٢٥ « فانتوم » ، ونحو ٨٠ «ف ـ ١٤ » « توم كات » ، وحوالي ١١٠ طائرات نقل ، و ٢٥ طائرة امداد بالوقود في الجو · ولدى السلاح الجوي الايراني صواريخ جو ـ جو بعيدة المدى من طراز « فونيكس » لطائرات « ف ـ ١٤ » (يبلغ مداها نحو ٢٠٠ كلم) وصواريخ « سبارو » الخاصة بطائرات «الفانتوم»، وصواريخ ارض جو « شرايك » المضادة للرادار و « مافريك » و « كوندور » والاخير مداه ١١٠ كلم ·

أما القوة البحرية الايرانية الراهنة فتضم ٢٨ الف رجل ، و ٣ مدمرات بريطانية الصنع ، و ٤ فرقاطات بريطانية الصنع ايضا ، وكلها مسلحة بصواريخ « سطح ـ سطح » و « سطح ـ جو » ، و٤ كورفيت اميركية الصنع ، و ٥ زوارق صواريخ « لاكومباتانت » فرنسية مجهزة بصواريخ سطح ـ سطح من طراز « هاربون » الاميركية الصنع والبالغ مداها ١١٠ كلم ، و ٧ زوارق دورية كبيرة و ٥ كاسحات الغام ، وسفينتا انزال وزورقا انزال وسفينتا دعم لوجيستيكي و ١٤ مركبة « هوفركرافت »· وكان من المفروض ان تتسلم ٤ مدمرات اميركية حديثة من طراز « سبراونس » و ٦ فرقاطات ايطالية من طراز « لوبو » و٣ غواصات اميركية من طراز « تانغ » و ٦ المانية من طراز ٢٠٩ ، و ٧ زوارق صواريخ اخرى مسلحة بصواريخ « هاربون » ، و ٤ سفن دعم لوجيستيكي (وهي سفن امداد وصيانة تسمح بعمل الاسطول لفترة طويلة بعيدا عن قواعده)·

وهذه القوة العسكرية الضخمة ، والتي كانت في طريقها الى مزيد من القوة اذا ما استكملت صفقات الطائرات « ف ـ ١٦ » والدبابات « شيرايران » والمدمرات « سبراونس » الخ ، انما نشأت اصلا لتمارس دور « الحارس » القوي ضد شعوب المنطقة الغنية بالموارد النفطية ، اي الدول العربية المنتجة للنفط في الخليج العربي ، لصالح الامبريالية· واستعراض سريع لتصرفات حكومة الشاه منذ العام ١٩٦٨ تؤكد هذه الحقيقة ، فمنذ ان اعلنت بريطانيا قرار الانسحاب من المنطقة في كانون الثاني (يناير) ٦٨ طالب الشاه بامارة البحرين ، ولكن لجنة تابعة للامم المتحدة اجرت استفتاء عاما ١٩٧٠ اسفر عن تصويت الاغلبية العربية هناك الى جانب الاستقلال التام · وفي حزيران (يونيو) ١٩٧٠ ، طالب الشاه بثلاث جزر عربية قرب مضيق « هرمز » هي « ابو موسى » و « طمب الكبرى » و « طمب الصغرى » ، ثم احتلها بالقوة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ ·

وقبل ذلك حشد الشاه قواته على الحدود العراقية في ايلول (سبتمبر) ١٩٦٩ ، وجرت نتيجة لذلك عدة صدامات على الحدود مع القوات العراقية ، حتى اذار (مارس) ١٩٧٤ ، وطوال هذه الفترة كان الشاه يدعم الحركة الانفصالية للاكراد في شمال العراق ، كما شاركت قواته بفاعلية في القتال ضد ثوار « ظفار » لدعم السلطان «قابوس»، ومارس التهديد ضد اليمن الجنوبي الخ· أي ان القوة العسكرية الايرانية كانت في الحقيقة تحاول ان تلعب دور اسرائيل في الخليج العربي · ولذلك لم يكن الامر مصادفة ان يساهم الشاه بطريقة غير مباشرة في المفاوضات الهادفة الى اجراء صلح بين مصر واسرائيل · وبطبيعة الحال لم تكن القوة الايرانية موجهة اساسا ضد الاتحاد السوفييتي ، لان حجم هذه القوة وفاعليتها العملية لا تسمح لها بمثل هذا الدور · والاتحاد السوفييتي نفسه لم يكن يعتبرها كذلك ، بدليل انه امدها ببعض الاسلحة والمعدات الحربية (مدافع مختلفة الانواع وناقلات

جنود مدرعة وصواريـــخ « سام ـ ٧ » مضادة للطائرات) · ولا شك ان قيام نظام وطني ديمقراطي جديد في ايـران على انقاض النظـــام الرجعي القديـم المتحالـــف مع الامبريالية الاميركيـه واسرائيل ، سيؤدي الى اختلال ميـزان القوى في هذه المنطقة الحيوية من الشرق الاوسط ، حيث يوجد الاحتياطي الرئيسي للنفط العالمي ، وحيث توجد طرق الملاحة البحرية لتجارة النفط المذكور عبرالمحيط الهندي والبحـــر الاحمر نحو اوروبـا والولايات المتـحدة واليابان وجنـوب افريقيا واسرائيـــل ، وذلك بين قـوى الامبريالية والرجعية المحلية والقـــوى الوطنية الهادفـــة الى السيطرة عـلى ثرواتها الطبيعية ووضعها في خدمـــة مخططات التنمية الاقتصادية والاجتماعية على اسس وطنية ·

ومما يؤكد مؤشرات هـــذا التغيير ، موقف الثورة الايرانيـــة من اسرائيـل والثورة الفلسطينية ، الذي اكده بوضوح رئيس اركان القوات الايرانية الجديـد ، الجنرال « محمد قرني » ، في حديث نشرته صحيفة « الوطن » الكويتية يوم ٧٩/٣/٤ قال فيه ان ايران توقفـــت عن لعـــب « الشرطي » في منطقة الخليج نيابة عـن الولايات المتحدة ، وان بلاده تعتبر نفسها دولة مواجهة ضد الدولة العبرية الـــى جانب البلدان العربية الاخرى · وانهـــا ستسحب قواتها من « عمان » خـــلال ٤ ايام · ان شعوب الامة العربية تستطيـع الآن ان توجه جهودها بفاعلية اكبر فـي صراعهـــــا ضد عدوها الصهيونـــي والامبريالي بعد ان زال التهديد الايراني السابق لجناحها الشرقي الحساس ،حيث يكمن الجـــزء الرئيسي من ثروتهـــا النفطية · خاصة بعد ان اعلنت الحكومة الثورية الايرانيـــة ، يوم ٧٩/٣/١١ ، خروجها رسمياً من حلـــف « السنتو » ، الامر الذي نتج عنه خروج كل منباكستان وتركيا من الحلف ايضاً بعد ذلك ، ومن ثم اصبح الحلف غيـــر قائم عمليـــا وقانونيا ·

واذا ما استمرت الثورة الايرانيـــة قابضة على زمام السلطة بقوة ، وارست نظاماً وطنيا ديمقراطيـــا قادرا عـــلى الاستمرار وتطويـــر ايران اقتصاديـــا واجتماعيا على اسس وطنية وتقدميـــة لصالح اوسع فئات الجماهير ، فلا شك ان القوة العسكرية التي ورثتها ، والتـــي تستطيع تطويرها فيما بعد من مصـــادر اخرى للسلاح ، ستكون احتياطيا قويـا غير مباشر للقوى العربية المناضلة ضـد الصهيونية والامبريالية ·

طائرات «فـ١٤» الايرانية تقلق اميركا

مع ازدياد نمو حركة الثورة فيالايران في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ بـدأت الولايات المتحـــدة تقلق على مصيـــر طائرآتها الثمانين من طراز « فـ١٤ توم كات» ، التي باعتها لايران منذ العـــام ١٩٧٤ والاعوام التاليـــة له · فأعلنت وزارة الدفاع الاميركية في ٧٩/١/١٦ ان هذه « الطائرات وصواريخها من طـراز « فونيكس » في مأمن على الرغم من سفر الشاه والوضع الهش في البلاد » ·

وفي ٧٩/٢/٨ قالت مجلة « جافـان » الايرانية ان مقاتلات من طراز «فـ١٤» تابعة لسلاح الطيران الايراني نقلت اخيرا الى منطقـــة الظهران في السعودية · واضافت المجلة المذكـــورة « أن هـــذه الطائرات التي كانت في قاعدة خراسان القريبة من الحدود السوفيتية وضعـــت في مأمن لان فيها اجهزة متطورة سرية » · وتملك ايران نحو ٨٠ طائرة من هـــذا الطراز · واوضحت المجلة ان عمليـــة النقل تمت قبل ١٠ ايام في وقت كـــان المجال الجوي الايرانـــي تحت مراقبـــة

الجيش نتيجة اغلاق المطارات الايرانية ٠

وفي ٧٩/٢/٦ قالت صحيفة «الواشنطن بوست » ان الرئيس السادات عرض خلال اجتماعاته الاخيرة مع شاه ايران في اسوان السماح بنقل طائرات « فـ ١٤ » ٠ ولكن مصادر حكومية اميركية اوضحت تعليقا على هذا الخبر بأن ارسال الطائرات المذكورة الى مصر من اجل المحافظة عليها قد يثير قلق اسرائيل، لانها مجهزة بصواريخ «فونيكس» المتطورة وبأجهزة اخرى شديدة السرية ٠ وقد نسبت الصحيفة الى خبراء عسكريين قولهم ان انقلابا سيحصل في مجال الاستخبارات اذا استطاع الاتحاد السوفييتي الوصول الى هذه الطائرات ٠

وتجدر الاشارة الى ان للاتحاد السوفييتي ثأرا لم يحققه بعد تجاه الاستخبارات الاميركية ، منذ دبرت الاخيرة عملية فرار احد الطيارين السوفييت بطائرة مقاتلة من طراز « ميغ ـ ٢٥» الى احد مطارات شمال اليابان في ٧٦/٩/٦ وبقاءها هناك فترة كافية لفحصها بدقة لمعرفة كافة اسرارها التي ظلت مجهولة منذ العام ١٩٦٦ ، قبل السماح لحكومة اليابان باعادة الطائرة للاتحاد السوفييتي ٠

وفي ٧٩/٢/١٢ صرح الناطق باسم وزارة الخارجية الاميركية « هودينغ كارتر » ان الطائرات الاميركية المتطورة والصواريخ التي تستعمل فيها لا تزال في مأمن في ايدي العسكريين الايرانين ٠ واشارت اوساط اميركية الى ان الاتفاقات المعقودة مع ايران التي تمنعها من نقل التكنولوجيا العسكرية الاميركية الى بلد ثالث من دون اذن مسبق من واشنطن لا تزال قائمة على رغم تغيير الحكومة الايرانية ٠ واوضحت مصادر البنتاغون انه يمكن اقناع الحكومة الجديدة في ايران بهذه الاتفاقات لانها ستحتاج الى قطع غيار لا تتوافر الا في الولايات المتحدة ٠

والمعروف ان ايران هي الدولة الوحيدة ، خارج الولايات المتحدة ، التي تسلمت طائرات « فـ١٤» وصواريخها بعيدة المدى « فونيكس »٠ وفي ٧٩/٢/١٤ قالت صحيفة النيويورك تايمس « ان مسؤولا سعوديا اقترح في الاسبوع الماضي نقل الـ ٨٠ طائرة « ف ـ ١٤ » الى السعودية ، خشية ان تقع هذه الطائرات المتطورة في ايدي السوفييت ٠ وقالت الصحيفة المذكورة ايضا ان السعودية اقترحت على الولايات المتحدة شراء الطائرات المقاتلة المذكورة ، لكن « البنتاغون » رفض هذا الاقتراح ٠

وفي ٧٩/٢/١٥ اكدت وزارة الدفاع الاميركية ان السلاح الجوي الايراني يحتفظ بـ ٧٨ طائرة متطورة من طراز « فـ١٤ » في مكان امين الى جانب ٥٠٠ صاروخ من طراز « فونيكس » ، وذلك على الرغم من الاضطرابات الحالية في ايران ٠ واوضحت ان اجهزة القيادة فككت من هذه الطائرات وخبئت ٠ ونفت الوزارة المذكورة ان تكون فكرة ارسال هذه الطائرات الى السعودية طرحت جديا ٠

والمعروف ان هناك عددا كبيرا من الخبراء الاميركيين الموجودين في ايران كانوا يشرفون على طائرات « فـ١٤ » ، من حيث الصيانة والتشغيل والتدريب ، نظرا لصعوبة استيعاب السلاح الجوي الايراني لهذه الطائرات ٠ وهو ما اكده تقرير المسح الاستراتيجي الصادر عن معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني عام ١٩٧٦ حيث قال « ان العديد من الدول الاقل نموا تفضل الحصول على اسلحة يبدو انها لا تتلاءم مع حاجاتها على

الاطلاق ، علـــى الاقل في المستقبـــل القريب • فلقد شددت ايران ، مثلا ، بقوة على ادخال اكثـــر المعدات تطورا مثـل طائرات «فـ-١٤» ومدمرات « سبراونس » وانظمة انذار وقيادة وتحكم محمولة جوا (طائـرات اي ـ ٣ او اكس)، ضمــن مؤسستها الدفاعية التقليدية وغير الماهرة نسبيا • وقد وجد تقرير شهير صدر عـن هيئة تابعة للجنة الشؤون الخارجية فـي الكونغرس الاميركي في شهر تموز (يوليو) ١٩٧٦ ، انه لا سبيل الى تشغيل نسبـــة كبيرة من تلك الاسلحة بدون دعم خارجي ضخم • وفـــي غياب قدرة تكنولوجيـــة ولوجيستيكية وادارية لتشغيل كميات مـن الاسلحة التي تم الحصول عليها حديثا ، فان عملية تصدير الاسلحة الى ايـــران تطلبت انتقال اعداد واسعة • من الطواقم الماهرة للقيام بأعمال التدريب والصيانة والتشييد • ويقول التقرير انه مع حلول ١٩٨٠ سيكون مطلوبـــا وجود ٥٠ـ٦٠ الف خبير اميركي في ايران للمساعدة في استيعاب شحنـــات الاسلحة الراهنـــة والمتوقعة • وحتى اذا ما توفر مثل هذا الدعم فان العديد من البنود الاساسيـــة من المعدات التي تم شراؤها في السنوات الاخيرة لن تكون قيد الاستعمـــال لبعض الوقـــــت ••• ان معضلة استيعـــاب التكنولوجيا المتطورة تواجه كلا من ايران والولايات المتحدة بسلسلة من المسائـــل الحساسة • فطالما ظلت ايران تعتمـــد اعتمادا كبيرا على الدعم التكنولوجـــي واللوجستي الاميركي ، فسيكون صعبـــا القول انها حققت قدرا اعظم من الاستقلالية من خلال وارداتها من السلاح • وحتـــى العام ١٩٨٥ فانها ربما سوف تظل بحاجة للحصول على قطع غيار وتسهيلات اصلاح وترميم وانظمة استبدال اميركية » •

وتؤكد لنـــا هذه الفقرات ، المطولـــة نسبيا ، من التقرير البريطاني المذكـــور المغزى العملي لصفقات الاسلحة المتطورة العالية التكلفة التي تعقدها الدول المتخلفة مع الولايات المتحدة وتدفع قيمتها مليارات الدولارات من مدخولاتها النفطية الكبيرة التي تعود مرة اخـــري الى الخزائـــن الاميركيـــة محققة الارباح الخياليـــة لاحتكارات السلاح الصناعية ، ومدخلـــة بعض التوازن على ميزان المدفوعـــات الاميركي ، وصارفة في الوقت ذاته الدول المتخلفة المذكورة عـــن القيام بتنفيـــذ مشروعات تنمية اقتصادية واجتماعيـــة حقيقية لشعوبها الفقيـــرة والتي تنهـــب ثرواتها لصالح القوى الرجعية المحليـــة والقوى الامبريالية الخارجيـــة ، ومـــن ثم لن يؤدي دخل نفطهـــا المرتفع الـــى احداث تراكم رأسمالي وطني خاص بها •

بقي ان نعرف ان الطائرة «فـ-١٤» « توم كات» هي مقاتلـــة مطاردة ومعترضـــة اميركية حديثه دخلت الخدمة في السلاح الجوي الاميركي ، العامل مع البحريـــة ، في ١٩٧٢/١٠/١٢ • وهي معدة اصلا لتحل محل « الفانتـــوم » في حامـــلات الطائرات الاميركية من حيث اداء مهـــام الاعتراض الجوي بعيد المدى ، والقتـــال الجوي المتلاحم مع الطائرات المعاديـــة المهاجمة للاسطول في عرض البحر • وهي مزود بمحركين نفاثين قوة دفع كل منهما ٩٨٤٠ كلغ ، وذات مقعديـــن احدهمـــا للطيار والآخر للملاح • وتبلغ سرعتهـــا القصوى على ارتفاعات عالية ٢٥١٧ كلم /ساعة و ١٤٧٠ كلم على ارتفاع سطـــح البحر • واقصى ارتفاع عملي لها ١٧٠٧٠ مترا ، ويصل مداها القتالي في اثنـــاء قيامها بدور المقاتلة المطاردة ومع وقود اضافي خارج وتسليح محدود جو ـ جو الى نحو ٣٢٠٠ كلم •

وهي مسلحة برشاش عيار ٢٠ مم ، ذي ٦ سبطانات دوارة ، معدل سرعـــة رميه ٦٠٠٠ طلقة في الدقيقة ، ومـــزود

بنحو ٦٧٥ طلقة . فضلا عن امكان حملها ٦ صواريخ جو ـ جو من طراز « فونيكس » التي يقال ان مدى عملها يصل الى ٢٠٠ كلم . وقد اجريت مناورة عملية تم فيها اطلاق ٤ صواريخ «نونيكس» على اهداف طائرة تبعد نحو ٢٠٣ كلم ، واصيبت الاربعة اهداف في وقت واحد . وهذا يعني ان الطائرة مزودة بأجهزة الكترونية متطورة للغاية ، كما انها تستطيع ان تحمل بدلا من صواريخ « فونيكس » ٤ صواريخ جو ـ جو من طراز « سبارو » التي يبلغ مداها ٢٥ كلم و ٤ ـ ٨ صواريخ « سايدوندر » القصيرة المدى وذلك في المهام العادية . وفي حالة حملها للقنابل ومختلف اسلحة الجو ـ ارض فانها يمكنها ان تحمل ما مجموعه نحو ٦٥٧٧ كلغ .

نتائج زيارة « براون » للمنطقة العربية

على اثر تصاعد احداث الثورة في ايران ارسلت الولايات المتحدة وزير دفاعها « هارولد براون » الى منطقة الشرق الاوسط ليبحث مع دول المنطقة في الوسائل والاجراءات الكفيلة بتعزيز امنها في مواجهة التحولات الاستراتيجية التي ستطرأ على المنطقة نتيجة للثورة في ايران ، ويؤكد دعم الولايات المتحدة لهذه الدول عسكريا وسياسيا . وقد وصل « براون » الى السعودية في ٧٩/٢/١٠. وغادرها الى الاردن بعد يومين ، وصرح في ختام زيارته بأنه « اخذ علما بقلق السعودية حيال التطورات في ايران والمطامح السوفيتية والنشاط المحتمل للراديكاليين في المنطقة » كما قال « اني احمل معي افكارا اميركية لاستراتيجية عريضة لمواجهة هذه الاخطار » دون ان يفصح بوضوح عن ماهية هذه الافكار ؟ وكان من نتائج هذه الزيارة ان وافقت السعودية على دفع ثمن صفقة اسلحة اميركية للسودان تضم ١٢ طائرة « فـ ـ ٥ » وطائرتي نقل « سي ـ ١٣٠ » و ٥٠ دبابة « امـ٦٠ » و ١٠٠ عربة نقل جنود مدرعة . وصفقة اسلحة اخرى الى اليمن الشمالية تضم ١٢ طائرة اخرى من طراز « فـ٥ » ، وقد بلغت القيمة الاجمالية لهذه الصفقات نحو ٣٦٠ مليون دولار .

ثم زار الوزير الاميركي عمان ، لمدة يوم واحد ، في ٧٩/٢/١٢ ، ولم تعلن نتائج واضحة لزيارته هذه ، التي انتقل بعدها الى اسرائيل يوم ٧٩/٢/١٣ حيث صرح قائلا « ان الالتزام الاميركي بأمن اسرائيل الذي يستند الى اسس خلقية وسياسية اضافة الى مصالح امنية هو التزام قائم منذ امد بعيد واؤكد مرة اخرى التزام الولايات المتحدة بأمن اسرائيل اليوم » . وبحث « براون » مع المسؤولين الاسرائيليين في عدة مسائل تضمنت كميات الاسلحة التي ستحصل عليها اسرائيل في الثمانينات ، وعلى تمويل الولايات المتحدة للمطارين اللذين سيشيدان في النقب في حال الانسحاب من سيناء ، وكذلك في احتمال تحويل ميناء « حيفا » الى قاعدة اميركية . واسفرت الزيارة، التي انتهت يوم ٢/١٥ ،عن موافقة الولايات المتحدة على قسم من طلبات الاسلحة الاسرائيلية قبل انيضم في الاساس ٦٠ طائرة مقاتلة من طراز « فـ ١٦ » ، وذلك من اصل ١٦٠ طائرة من النوع المذكور كان من المفروض بيعها لايران ، وهذه الصفقة هي اضافة جديدة لصفقة الـ ٧٥ طائرة « فـ١٦ » والـ ١٥ طائرة « فـ١٥ »، التي عقدتها الولايات المتحدة في العام الماضي ضمن صفقات اخرى اقل اهمية عقدت مع مصر والسعودية . (سبق لنا عرض تفاصيل المواصفات الفنية والقدرات القتالية للطائرة « فـ١٦» في عدد ٧٧ من شؤون فلسطينية) . وقد اعلن « براون »

في ختام زيارته « ان الولايات المتحدة ستبقي عينها على امن اسرائيل العسكري عندما تبيع اسلحة الى جيرانها العرب »٠

ثم انتقل الوزير الاميركي بعد ذلك الى مصر وبدأت محادثاته فيها يوم ٢/١٧ حيث لم يغب عن عينيه امن اسرائيل وهو يبحث طلبات الاسلحة التي قدمتها اليه مصر ، واسفرت زيارته لها عن نتيجة عملية واحدة معلنة في ٧٩/٢/١٨ وهي ان صفقة الطائرات « فـ٥ اي تايغر » البالغ عددها ٥٠ طائرة ، والتي تضمنت صفقة الطائرات الثلاثية الشهيرة الى كل من اسرائيل والسعودية ومصر ، قد سويت الخلافات المالية بشأنها مع السعودية ، وان الاخيرة ستدفع ٥٢٥ مليون دولار بدلا ٣٥٠ مليون دولار كانت تمثل القيمة الاصلية للصفقة وذلك بدلا من ٧٣٠ مليون دولار كانت الولايات قد طالبت بها مقابل اشياء اضافية كانت طلبتها مصر ضمن الصفقة المذكورة ٠ وان مصر ستبدأ في تسلم الدفعة الاولى في تشرين الثاني من هذا العام (بخصوص قدرات الطائرة « فـ٥اي » راجع شهريات العدد ٧٧ ، وبخصوص اسباب تأخير تسليم هذه الصفقة لمصر راجع شهريات العدد ٨٥) ٠ وفي ٧٩/٢/٢٠ صرح مسؤولون اميركيون ان مصر قدمت الى الولايات المتحدة لائحة اسلحة كبيرة تشمل ٣٠٠ طائرة مقاتلة من طراز « فـ١٦» و ٦٠٠ دبابة ، و٥٠٠ مدفع ، واكثر من ٤٠ الف عربة عسكرية تضم عربات مدرعة وشاحنات الخ ٠ولكن يبدو ان « الكونغرس » لديه اتجاه لرفض مثل هذا الحجم والنوعية من التسليح الاميركي لمصر ، اذ قال السيناتور « فرانك تشيرتش » ، رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الاميركي ، في تعليق له حول الانباء المذكورة آنفا يوم ٧٩/٢/٣ « ان هذا النوع من الاقتراحات قد يلقى السقوط ، ولا اظن ان امامه أية فرصة لنيل موافقة « الكونغرس » ، الذي يستطيع بموجب القوانين الاميركية استخدام الفيتو ضد صفقات بيع رئيسية للاسلحة » ٠ وصرح « موريس درابر » ، نائب مساعد وزير الخارجية الاميركية لشؤون الشرق الادنى على الانباء ذاتها ، في اليوم نفسه بقوله « انه لا توجد خطط لبيع اسلحة الى مصر قبل عقد معاهدة صلح بين مصر واسرائيل » ٠ وهو الامر الذي كان « براون » قد صرح به يوم ٧٩/٢/١٥ ، اثناء زيارته لاسرائيل ، وفقا لما ذكره المعلق العسكري للتلفزيون الاسرائيلي ، حيث نسب اليه انه يعتزم ابلاغ الرئيس المصري انه « من الصعب على الولايات المتحدة ان تلبي مطالب مصر المتعلقة باعادة تسليحها قبل توقيع اتفاقيات السلام مع اسرائيل » ٠

الدبابة « مركافاه » دخلت الخدمة العملية

ذكرت وكالات الانباء في ٧٩/٢/٢١ ان الدبابة الاسرائيلية التصميم والتصنيع المسماة « مركافاه » (اي المركبة) قد وضعت في الخدمة العملية في الوحدات المدرعة الاسرائيلية ٠

وهذه الدبابة هي اول دبابة تصمم وتصنع في اسرائيل ، عدا المحرك فهو اميركي ، ويعمل بالديزل ، من طراز « كونتيننتال » بقوة ٩٠٠ حصان ، ومن ثم فهي ليست مجرد تحسين او اضافة اسرائيلية محلية ، كتلك التي كانت تجريها اسرائيل من قبل على الدبابات البريطانية والاميركية من مختلف الانواع بما يتلاءم ومتطلباتها التكتيكية المختلفة ٠

وقد صممت « المركافا » وفقا للنظرية الاسرائيلية في تكتيك قتال الدبابات ، التي تبناها وطورها اساسا الجنرال « تال » ، القائد السابق لسلاح المدرعات

الاسرائيلية والمشرف الفعلي على برنامج تصميم وانتاج الدبابة المذكورة ، والتي ترى ان الفاعلية الحقيقية للدبابة تتمثل في قدرتها على الحركة في ظل نيران العدو ٠ بمعنى ان تكون دروعها قوية الى الحد الذي يكفل لها حماية كافية ضد الاسلحة المضادة للدبابات من مسافات كبيرة نسبيا ، وبحيث تكون نيران الدبابة قوية وبعيدة المدى بحيث تسكت الاسلحة المذكورة حال كشفها عن نفسها من مسافة كبيرة في الارض المكشوفة ٠ ولذلك روعي في تصميم « المركافاه » قوة التدريع وقوة التسليح على حساب ضعف نسبي في القدرة الحركية الميكانيكية ، كما روعي فيها قدرتها على التنسيق مع المشاة ضمن مبدأ « المشاة المدرعة » المرافقة للدبابات ، وذلك باحتوائها على مقصورة خلفية تتسع لعدد يتراوح بين ٦ و ٨ جنود مشاة يستطيعون ركوب الدبابة او النزول منها من الخلف بسهولة وسرعة (وكذلك يفعل طاقم الدبابة لتيسير اخلاء الدبابة حال اصابتها) ، ويمكن لهذه المقصورة ان تستخدم في اخلاء المصابين من رجال الدبابات الاخرى وسط ساحة المعركة (وهو درس تعلمه الاسرائيليون جيدا في حرب ١٩٧٣) ٠ ويسبب وجود هذه المقصورة ، ولزيادة تأمين الطاقم ضد القذائف الامامية ، وضع محرك الدبابة في مقدمة هيكلها وليس في مؤخرتها كما هي العادة ٠

ويقدر وزن الدبابة بنحو ٥٨ـ٦٢ طنا، وقوة محركها ٩٠٠ حصان ، ونسبة القوة للوزن ١٤٫٥ـ١٥٫٥ حصان لكل طن (وهي نسبة متدنية للغاية با قياس لكل الدبابات الحديثة) وهي مسلحة بمدفع عيار ١٠٥ مم ورشاش عيار ٧٫٦٢ في الهيكل وآخر فوق البرج و١٢ قاذفا دخانيا ، ولها مقدر مدى يعمل بأشعة « ليزر » وحاسب الكتروني ، ولها معدات قيادة ورؤية ليلية تعمل بالاشعة تحت الحمراء ، ويوجد منها حاليا لواء مدرع على الاقل اي حوالي ١٠٠ دبابة ، وقد اختبرت بعض منها عمليا في جنوب لبنان في اذار (مارس) ١٩٧٨ ٠

محمود عزمي

مــراجعات

آية اللــه الخمينـــي
الحكومــةالاسلامية
دار الطليعة ، بيروت آذار ١٩٧٩

عدا البيانـات التـي اصدرهـا آيـة اللـه الخميني ، او التصريحات التي أدلى بها، او المقابلات الصحافية التي أجريت معه ، وكلها نصوص قد صاحبت مسار الثـورة الايرانية ، او تلتها ، وقد تابعها المهتمون يوما بيوم ٠ فان النص الخميني الاساسي، الـذي يحـــدد فيـه الامـــام مواقفـــه الاستراتيجية ، هو سابق بكثير للثـورة ، ولكننا لم نعـد اكتشافـه الا علـى ضوء الحدث ٠

لذلك ، فان النص الخميني مدين للثورة الايرانية ، بتحوله من « ثيقة سلفيـة » كتلك التي يقـــدم مثلهـــا رجـال الدين المنتشرون في ارجاء العالم الاسلامي في محاضراتهم او في خطـب الجمعـة او في غير ذلك من المناسبات ، الـى « وثيقـة ايديولوجية » راهنة ٠ والى نص ينتسـب الى الحدث وينتسب اليه الحدث ٠

واعـادة اكتشاف النـص الخمينـي ، عملية مزدوجة ، انها تمس هذا النص في ذاته ٠ هذا النص الذي قدمه لنا الامـام في غير زمن الثورة ، ولكن الحدث شغلنا عنه ، حتى جاء الحدث ليعيد تقديمه لنا ، وهي كذلك تمس منابع هذا النص اي الفكر الاسلامي الذي ينطلق هـذا النـص مـن رحمه ، والذي كنا منذ زمن طويـل قـد ركناه في متحف تاريخنا ٠ هذا التاريـخ الذي كثيرا ما كانت العودة اليه تشبـه القيام بجولة في احد المتاحف ٠

والآن ، جعلت الثورة الايرانية ، مـن اعادة اكتشاف النص الخميني ، الى جانب منطلقاته الفكرية ، أمرا ضروريا ٠ فالثورة الايرانية ، ربما كانت أول ثورة في «العالم الثالث» لا تطرح قضية التحرر من الغرب، فقط على المستويات الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، ولكن أيضا علـى المستـوى الثقافي والحضاري ، انها ثورة لا تريـد فقط ان تقيم نظاما اقتصاديا وسياسيـا و ٠٠ الخ ٠ مضادا للغرب ولكنهـا ايضا تجهد في ان تقدم انموذجا حضاريا ، غير ذلك الذي يحاول الغرب ان يعممه علـى الكرة الارضية ٠

وان اردنا التخصيص أكثر ، فانه يمكننا القول ، أن الثورة الايرانية ٠ قـد قدمـت جديدا على المستوى الايديولوجي بالقياس الى الثـورات التـي شهدهـا « العـالم الثالث » خلال الحقبة الامبريالية ٠

انها المرة الاولى التـي لا تلجـأ فيهـا ثورة في « العالم الثالث » الـى تبنـي ايديولوجية طرف مضطهد (بفتح الهاء) في الغرب ٠ انها المرة الاولى التي لا تتبنى فيها شعوب من « العالم الثالث تعاني من السيطرة الغربية ، الليبيرالية التي كانت تطالب بها البورجوازية الغربية في زمن تعرضها للاضطهاد (كما حدث عندنا ، في بعض اقطارنا العربية ، في فترة التحـرر من الاستعمار المباشر) ٠ او الفاشية التي قامت على البورجوازية الصغيرة في بعض بلدان الغرب في زمن من القهـر القومـي (وفي هذه الحالة أيضا ، فاننـا لا نعـدم

الامثلة فـي تاريخنـا العربـي القـريب والراهن) او ايديولوجيا الطبقة العاملة · والامثلة على ذلك عديـدة فـي « العالـم الثالـث » ·

الثورة الايرانية قطعت مع ذلك · ولـم تسع الى جعل الشعب الايراني يتبنـى ايديولوجيا طرف مقموع في الغرب ، بـل احدثت المصالحة التاريخية ، بين الشعـب المقهور وثقافته المقهورة · بين الشعـب المنتهك و « ايديولوجيته » المنتهكة ·

وهي كذلك ،بصدد احداث المصالحة بيننا وبين النص الخميني القديم (في ذاته وفي منطلقاته الفكرية) · وها ان دور النشر بصدد اعادة نشر النصوص الخمينية ، اذ اصبح بين يدي القراء حتى الآن كتابـان للامام الخميني ، اولهمـا « دروس فـي الجهاد والرفض » والثاني « الحكومـة الاسلامية » ، الذي صدر عن «دار الطليعة» في بيروت · وهو عبارة عن محاضـرات القاها آية الله الخميني منذ عشر سنوات، وطبعت في حينهـا فـي النجـف الاشرف تحت عنوان « ولاية الفقيه » ··

هذا الكتاب الاخير ، وهو الذي سنتناوله هنا ، موزع على ثلاثة ابواب ، بعد المقدمة:

١ ـ ادلة ضـرورة تشكيـل الحكومـة (الاسلامية) : من ص ٢٣ الى ص ٤٠ ·

٢ ـ نظام الحكم الاسلامي : من ص ٤١ الى ص ١٠١ ·

٣ ـ سبيل النضال من اجل تشكيـل حكومـة اسلاميـة : من ص ١١٩ الى ص ١٥٠ ·

بعد أن يدلل الامام الخميني في المقدمة على ان قوانيـن الاسلام لا تتعلـق فقـط « بالحيض والنفاس » كما يقول الاستنزاق الغربي والمحلي ، بل انها تمس جميع اوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمسلمين · يشير الى ضرورة « تشكيـل الحكومة الاسلامية » التي تسهر على تنفيذ قوانين الاسلام هذه · على ان تكون هـذه السلطة بيد « الفقهاء » ورثة النبي ، الذي كان اولا وقبل كل شيء رجـل الدولـة ، والامام في زمن الغيبة الكبرى · ذلك ان السلطة اذا كانت بعد غياب النبي (ص) من نصيب الائمة من نسل علي ابن ابـي طالب (ع) · فانهـا على اثـر اختفـاء الامام الثاني عشر ، وحتى ظهور المهـدي المنتظر ، يجب ان تكون بيد الفقهاء مـن كبار المجتهدين · كما جاء في الحديـث التالي :

« قال امير المؤمنين علي (ع) : قـال رسول الله (ص) : اللهم ارحم خلفائي ـ ثلاث مرات ـ ، قيـل : يا رسول اللـه ، ومن خلفاؤك ؟ قال : الذيـن يأتـون مـن بعدي يروون حديثي وسنتي ، فيعلمونهـا الناس من بعدي » (اورده الامام الخميني في الصفحة ٥٦ من الكتاب) ·

وفي الفصل الاخير ، يدعو الامام رجال الدين الشبان الـى محاربـة الحكومـات العميلة القائمة على القوانيـن الوضعيـة التي جاء بها الاجنبـي ، والتـي تخـدم المصالح الاقتصادية لهذا الاجنبي · داعيا الى طرد رجال الدين الذين يحاولـون ان يقدموا التغطية الدينية لهذه الحكومـات الكافرة · وقد حدد الامام الخميني طريقة القضاء « علـى الحكومـات الجائـرة » كالآتي (ص ١٤٥) :

١ ـ مقاطعة المؤسسات التابعة للحكومة الجائرة ·

٢ ـ ترك التعاون معها ·

٣ ـ الابتعاد عن كل عمـل يعود نفعـه عليهم ·

٤ ـ تأسيس مؤسسات قضائية ومالية واقتصادية وثقافية وسياسية جديدة ·

يصعب المضي في تلخيص ما جاء في الكتاب اكثر من ذلك . فالكتاب ليس استعادة لما جاء في الفقه الاسلامي حول الدولة وطريقة سياستها ومن يقوم بالسلطة فيها . فالنص الخميني على هذا الصعيد لا يأتي بجديد . انه نص ، لا يأتي ليستشرف آفاقا نظرية جديدة ، وهو لا يطرح على نفسه هذه المهمة . بل يأتي مذكرا بما قاله الاسلام (الاسلام الشيعي في هذه الحالة) في كل هذه المواضيع .

واذا ما رأينا جديدا في هذا النص ، فان هذا الجديد لا يتعلق بما جاء فيه ، بقدر ما يتعلق بعملية التذكير هذه . فجديد هذا النص ،ربما كان في اضطراره. في زمن الضعف الاسلامي .. الى اعادة البرهنة في قضايا كان الاسلام قد حسمها منذ قرونه الاولى .

اما فيما عدا ذلك ، فان النص الخميني، مكتمل التقليدية ، انه نص فقهي ، القاه فقيه يعود الى نفس أساليب البرهنة ، والى نفس البراهين التي استعملها الفقيه الاسلامي في تناوله لمثل هذه القضايا ، وهو اي ذلك ، يستعيد مواقف السلف الصالح . انه نص ينطلق من رحم النصوص الماضية ويستعيد ما جاء فيها .

فحتى عندما اقترح الامام طريقة محاربة الحكومات الجائرة . لم يدع الى تجاوزها بشكل « حديث » ، بل دعا ـ على الاقل في فترة أولى . وبواسطة الدعوة الى «مقاطعة المؤسسات التابعة للحكومة الجائرة » والى « تأسيس مؤسسات قضائية ومالية وثقافية وسياسية جديدة » الى اقامة الحكومة الاسلامية ، التي يقع نموذجها في الماضي، بشكل مواز « للحكومة الجائرة » الحديثة.

اذن ، يتوقف النص الخميني عند ضرورة بعث الماضي ، وذلك ما يبدو سواء على صعيد ما يدعو له النص ، او على صعيد منطقة الداخلي وحتى لغته ومنهجيته .

ومن هنا فان مفارقة الثورة الايرانية . أنها ثورة جديدة كلية ، لا تستلهم اي أنموذج لا في الماضي البعيد (لان الثوارات التي قامت آنذاك لم تستهدف امبريالية كتلك التي تسيطر الآن) ولا في الماضي القريب ، « عالما ثالثا » وعربيا . ولكنها في الآن نفسه ثورة قامت ـ ايديولوجيا وثقافيا واجتماعيا ـ على كامل القوى التقليدية في المجتمع الايراني ، قوى تنتمي الى ما يسمى « بالقطاع الرأسمالي » في المجتمعات « المتخلفة » .

جديد الثورة الايرانية (وجديد النص الخميني بالتالي) هي انها كذبت المقولة التي ما انفكت تؤكد أن القوى التقليدية في المجتمعات « المتخلفة » آيلة الى زوال .

اذن الثورة الايرانية تقليدية من حيث القوى التي صنعتها ، وتقليدية من حيث الفكر الذي قادها ، ولكنها جديدة من حيث ما تثيره من اشكالات نظرية حادة ، ومن اوضاع مستجدة على صعيد السياسة الدولية .

واذا ما اخذنا النص الخميني على انه انموذج للنص الاسلامي الثوري في زمننا هذا ، واذا ما اخذنا القوى التقليدية التي فجرت الثورة في ايران على انها انموذج للقوى الاسلامية الثورية في زمننا هذا أيضا ، فانه يمكننا ان نلاحظ ان هذا النص وان هذه القوى انما تتجدد في الفعل الثوري ، دون ان تحاول الاحاطة بظلال فعلها الثوري هذا .

ان النص الخميني بعد ان تحققة الثورة، او اثناء سعيه لتحقيق الثورة ، لا يحاول ان يستوعب ضمن منظومته او ان يكيف هذه المنظومة ، مع المستجدات والتساؤلات النظرية ، الجديدة كلية ، والتي يؤدي اليها انتصار هذه الثورة التقليدية ـ الجديدة .

هناك اذن تفاوت بين النص الخميني ، وانعكاساته ومستجداته النظرية في عالم اليوم هذا . وهي انعكاسات ومستجدات ربما تعذرت رؤيتها من داخل انتقليية الصرفة للمقولات الخمينية . فهل ان النص الخميني يحتاج الى نص وسيط يقف بينه وبين انعكاساته ، يستوعبه ويستوعب انعكاساته ؟ والى اي مدى يمكن للنص الخميني ان يكتفي بذاته . ان يكتفي باستعادة الماضي دون الالتفات الى ما يجد عن عملية استعادة الماضي هذه ؟

هي اسئلة نسوقها لا على سبيل النقد ، ولا على سبيل الاشادة بالنص الخميني ـ فذلك امر لا يتم بهذه البساطة تجاه نص ساهم في تفجير ثورة بهذا الحجم . ولكنها مسألة نرى ان لا بد من الانكباب عليها .

واخيرا فان دراسة الثورة الايرانية نصوصا وممارسة امر بات يعنينا اكثر فاكثر ، خصوصا بعد ما توارد من انباء عن انتعاش الحركة الاسلامية ، سواء في العالم الاسلامي (تركيا) او في البلدان العربية (تونس) .

صالح بشير

البروفيسور توماس سنتش :

الاقتصاد السياسي للتخلف

ثلاثة | اجزاء ، ترجمة فالح عبد الجبار

بيروت ، دار الفارابي ، ١٩٧٨

من الطبيعي ان تطالعك دراسة يتحدث صاحبها عن قضية التخلف من منظور ماركسي . ولكن ، حين يكونذلك الباحث ـ الماركسي ـ ينطلق من رؤية لا للافق المسدود الذي وصلت اليه الدراسات الغربية غير الماركسية لتلك القضية وحسب ، بل ومن وعي للمأزق الذي وصلت اليه النظرية الماركسية في تعاملها مع القضية المذكورة ، فهذا يعني اننا امام وضع متميز وذو اهمية خاصة واكثر من جدير بالاهتمام . والبروفيسور توماس سنتش في كتابه « الاقتصاد السياسي للتخلف » يمثل عينة ناصعة لمثل تلك الدراسات .

منذ الصفحات الاولى يقدم المؤلف دراسته بوصفها محاولة واعية لتجاوز الحالة التي وصلت اليها « الدراسات العلمية حول مشكلات التخلف » .والشيء الهام في هذا المجال هو التحديد الذي يطرحه سنتش للازمة الراهنة لتلك الدراسات : لقد « فقد التحليل العلمي صلته بالتطورات » ولا يقتصر ذلك على « الاقتصاد الغربي غير الماركسي » الذي لم يسر في الطريق الصحيح اساسا في نظرته الى مسألة التخلف ، وانما يمتد ليشمل التحليل الماركسي الذي « فقد حساسيته وقدرته على الاستجابة السريعة من جراء المرض الدوغمائي » . وعلى هذا الاساس فان سنتش حين يعلن عن هويته الماركسية ، فهو يلح في نفس الوقت على تمييز نفسه عن « الاتجاه التخطيطي ـ الدوغمائي الذي ساد فترة من الزمن » ذلك الاتجاه الذي «اختزل نقد الكولونيالية الى استقصاء احادي النظرة ، وقيم مسألة تحرير المستعمرات من زاوية كونها « احتياطي » الثورة الاشتراكية وحسب». كما نظر الى تطور البلدان المستعمرة بعد التحرير على انه « تكرار طبيعي لازم

(استنساخ) لنموذج تطور البلــــدان الاشتراكية الاولى بكل تفاصيله » ٠ وفي مواجهة هذا الاتجاه ، الذي يتحمـــــل مسؤولية ابتذال الماركسية ، نجد «المعالجة الماركسية الكلاسيكيـــة الديالكتيكيـــة الاصلية » والتي يعلن المؤلف انتمــــاء دراسته اليها ٠ ويجب الانتباه هنا الى انه على الرغم من ذلك يظل سنتش فـي اقصى حالات التيقظ والحذر من السقوط في مستنقع النزعة التقديسية . والتي لـم يكن الاتجاه الدوغمائي سوى احد اشكال تمظهرها٠ ، وبهذا فقط يصبح مفهوماً معنى الارق الذي لازم المؤلف حول مدى نجاحـه في « اضافة عناصر جديدة او عناصـــر اخرى الى مكونات الفكرة التي اوجـــزت في العديد من المؤلفات الماركسية والتقدمية اعني المفهوم (البسيط) القائل بان التخلف الراهن هــــو ثمرة التطور العالـــي للرأسمالية ولذلك لا يمكن فصلــه عنها »٠

نقد نظريات التخلف

يتألف كتـــــاب سنتش « الاقتصـاد السياسي للتخلف » من ثلاثة اجـــزاء مستقلة يحمل كل منها عنوانا فرعيـــا خاصا ٠ وقد خصص الجزء الاول مـــن كتابه ، والذي يحمل عنوان « نقد نظريات التخلف » ، لاجراء « مسح نقدي لمختلف النظريات التي تفسر التخلف » ، وفـــي سياق ذلك يقوم بمجادلات مع « مؤلفيـن بارزين ومرموقين » معتبرا ذلك « فرصة لعرض وجهات نظره في هذا الموضـــوع بمواجهة نظريات الخصوم » ٠

يصنف المؤلف النظريات المذكورة فـي ستة اتجاهات عريضة ٠ واجد هنـا مـن المناسب ان ناتي على استعراض سريــع لتلك الاتجاهات التي عالجها سنتش فـي عرض مركب وملىء بالحيثيات التـــي ينبغي ان لا يفهم اغفالها هنا كانكـــار لاهميتها القصوى :

١ ــ يبدأ المؤلف بالتعرض للنظريـــات التي قامت على أساس « تحديد التخلف بارقام المؤشرات الاحصائية » ويتوقـــف بصورة خاصة امام واحد مـــن اهـــم المؤشرات التي اعتمدها اصحاب هـــذا الاتجاه وهو « مؤشر الدخل القومي » ٠

٢ ــ الاتجاه الثاني يقوم على « مقارنة حالة (سكونية) معينة لاكثر البلـــدان الرأسمالية تطورا ٠٠٠ بحالة (سكونية) مماثلة للبلدان المتخلفة ٠٠٠ » من اجـــل استخلاص « بعض المميزات او العوامـــل (النموذجية) التي تعرقل التنميـــة او تحدها » ٠ ويتوقف المؤلف هنا امام اهم العوامل التي اعتمدها اصحاب هـــذه « المعالجة الطرفية » من الوضع السكانـي غير المؤاتي ، الى رداءة الخـــواص الطبيعية وضآلة الموارد الطبيعية ، الى نقص رأس المال وعدم كفاية نشوئه ، الى تدنى انتاجية العمل والنوعية الرديئـــة للسكان العاملين ٠

٣ ــ في الاتجاه الثالث تجدنا امـــام موقف ينظر الى التخلف « كشكل مـــن اشكال الحركة » ، فثمة من يفترض « ان التخلف نظام خاص من العلاقات المتبادلة بين العوامل المعرقلة والكابحة » ، ويتجلى هذا الموقف بصورة نموذجية فيالنظريـات التي اخذت بـ « فكرة الحلقة المفرغـة » حيث « لا يعود التخلف في هذه النظريات محض مجموعة من النواقص والعراقيل بل منظومة العلاقات المترابطة لهـــذه النواقص والعراقيل » ٠ وعلى اساس نفس الموقف ثمة محاولة ثانية طرحت نفسهـــا كتجاوز لقصور نظريات « الحلقة المفرغة »، وتتمثـل هـــذه المحاولـة في نظريـــة هـ٠ لايبشتاين عن « نظام التوازن شبـه ــ المستقر » حيث يكون « التخلف في نظـره حالة تعيد انتاج نفسها بنفسها . انـــه توازن دون تطور يعيد تأسيس نفسه عبـر

تصارع قوى التنمية مع القوى المضادة لها » ٠

٤ ـ الاتجاه الرابع من « نظريات التخلف » الذي يتعرض له المؤلف يكمن في النظريات التي حاولت تفسير التخلف بالاستناد الى «الخصائص السوسيولوجية للبلدان المتخلفة» ، ويميز سنتش بين « نمطين رئيسيين من انماط التفسير السوسيولوجي للتخلف » ٠ النمط الاول « يعتبر مجتمع البلدان المتخلفة ٠٠٠ متجانسا وراكدا وتقليديا » وهو يقوم في سياق ذلك برد «التخلف » الى «تخلف السكان » بمقارنتهم مع سكان « المجتمعات الرأسمالية المتقدمة » ٠ اما النمط الثاني فانه « يشدد على الطبيعة الهجينة ، المزدوجة بل وحتى المتعددة التي يتصف بها المجتمع المتخلف » ٠ وتتحدد نظريات هذا النمط بالنظر الى ازدواجية المجتمع المتخلف المتمثلة بـ « وجود قطاعين متنافرين هما القطاع التقليدي والقطاع الرأسمالي » بوصف هذه الازدواجية هي « المركز التحليلي ٠٠٠ الذي تشتق منه المعضلات الخاصة بالتخلف وقوانين حركته » ، وتظهر تلك النظريات في صيغتين هما :

أ ـ نظرية الازدواجية السوسيولوجية٠

ب ـ نظرية الازدواجية التكنولوجية ٠

٥ ـ من بين الاتجاهات التي تكتسب اهمية خاصة ـ ذلك الاتجاه الذي تمثله « التفسيرات التاريخية للتطور الاجتماعي ـ الاقتصادي » ٠ وفيما يخص موضوع البحث تبرز محاولات « تقديم تفسير تاريخي يشمل ظواهر التخلف الاقتصادي» والتي يختار سنتش كحالة نموذجية لها نظرية و٠ و٠ روستو صاحب المؤلف المشهور « بيان لا شيوعي » ، والتي مثلت دليلا هاديا للمحاولات التي عملت على تحليل واقع البلدان المتخلفة بتشبيه « حالتها الراهنة بماضي البلدان المتقدمة ، ومستقبلها بالوضع الحالي للبلدان المتقدمة » متوصلة بذلك الى ان « حالة التخلف الراهنة » هي « حالة بدائية » اصلية او مرحلة انتقالية طبيعية من مراحل التطور الاعتيادي » ، ممهدة بذلك للقول بان « الكولونيالية ليست مسؤولة عن هذه الحالة » ٠

٦ ـ في الاتجاه السادس من الاتجاهات التي مثلتها « نظريات التخلف » نقف امام وضع متميز ودقيق ، ذلك ان الظواهر الطافية على السطح تشير الى نوع من التشابه بين ما يرتكز اليه ممثلو هذا الاتجاه وبين الفكرة المحورية التي يتبناها المؤلف ٠ ومعلوم انه بفعل الوقائع التي فرضت نفسها ودللت على قصور «المفهوم الذي يرى ان التخلف مرحلة اصلية ، او مرحلة انتقالية طبيعية قابلة للتفسير في ذاتها » ، فقد بدأت « نظريات التنمية والتخلف » تضع في حسبانها دور « العوامل الخارجية والعالمية » في تفسير ظاهرة التخلف ٠٠ويمكن على هذا الصعيد التمييز بين تيارين اثنين حاولا ادراج «العوامل » الخارجية والعالمية » في تفسير ظاهرة التخلف ، يقوم التيار الاول ـ والذي يضم منظرين من أمثال ميردال ، بريتش ، آرثر لويس ـ على اعتبار « العوامل الخارجية حاسمة بهذا القدر او ذاك » دون ان يقترن ذلك لديهم بتحليل المنبع التاريخي والاجتماعي لتلك العوامل ، ودون ان يقترن بـ « نقد الكولونيالية والتقسيم الرأسمالي العالمي للعمل والتجارة العالمية » ٠ويقوم التيار الثاني ـ والذي يمثله هـ٠ مينيت ، ج٠م٠ ماير ، ر٠ بالدوين ، ج٠ فايز ، ر٠ نوركه ٠٠٠ وآخرون ـ على الكشف عن « بعض العوامل الخارجية غير المؤاتية معتبرا اياها من عوامل التخلف » دون ان ينسب اليها الاهمية الحاسمة » اذ انه يرجع الدور والتأثير السلبيين لتلك العوامل

الخارجية الى « عوامل داخلية صرفة» ·

احسب هنا انه من الواضح ان الفروق الدقيقة التي تكشف عنها معالجة سنتش لنظريات الاتجاه السادس ، والقائمة بينها من جهة وبين نظريته من جهة اخرى ، ذات اهمية قصوى الى الدرجة التي يصبح معها مشروعا له ان يدعي تميزه النوعي عن تلك النظريات ، على الرغم من ذلك التشابه الطافي على سطح كل منهما ·

على اساس هذا التصنيف ، وعبر ستة فصول تألف منها الجزء الاول ، يعمل سنتش على عرض وتفنيد اطروحات اهم رموز تلك الاتجاهات ، مبينا مدى هشاشة الارضية التي تقف عليها ، وموضحا اوجه عجزها وقصورها عن تغطية الوقائع المعاشة بتفسير كاف ، وفاضحا الدوافع الايديولوجية التي تنبعث منها معظم تلك النظريات ·

لقد اشرنا في بداية هذه المراجعة الى التميز الذي يتم به مؤلف توماس سنتش · **لقد عودنا « الاتجاه الدوغمائي »** الذي طفح على جلد الماركسية حينا من الدهر ، على نمط من التعامل مع « النظريات الغربية » يقوم على تجاهلها المطلق ، او – وهذا في احسن الاحوال – رفض جميع النتائج التي تتوصل اليها ، مرتكزا في ذلك الى ادانته الايديولوجية المسبقة لتلك النظريات · وكردة فعل على تلك الحالة ، شهدت الماركسية – خصوصا في الآونة الاخيرة – نزعات تقوم على الترفع عن نقد النظريات الغربية – غير الماركسية – من الوجهة الايديولوجية ، وابداء حالة تقزز مفتعل ازاء اي اجراء من هذا النوع · ولا اظنني هنا بحاجة الى التأكيد على ان خطورة الموقف الدوغمائي الذي عمل على « تحصين » نفسه من « خطر » النظريات الغربية ، لا تعادلها سوى الخطورة الناجمة عن ذلك « التطاوس » المضحك الذي بدأت تفوح روائحه في بعض الاوساط · ومن هنا فان نقد سنتش لـ « نظريات التخلف » يكتسب اهميته المتميزة من خلال التيقظ الذي ابداه المؤلف ، كمسألة مبدئية ، ازاء خطر السقوط في احد المطبين المذكورين · ان النظريات المنتقدة هنا ، ينظر اليها على انها في الوقت الذي تخدم فيه ، بشكل او بآخر ، مصالح الامبريالية ، فانها ليست محض هلوسة تفتقر الى اي اساس واقعي ، بناء عليه فان النقد الايديولوجي لتلك النظريات لا يعود يشكل مانعا امامنا من الاستفادة – بصورة ما – من بعض النتائج التي توصلت اليها ، على الرغم من ادراكنا لوجه القصور والعجز الذي تتسم به تلك النتائج ·

وبكلمة مقتضبة نقول ان بعض ما طرحته تلك النظريات هو في الحقيقة – وهذا وجه الفائدة فيه – وصف هام للواقع الذي تعيشه البلدان المتخلفة ، وتسليط للضوء على جوانب هامة من ذلك الواقع ، لكن قصور تلك الاطروحات يتجلى حين يراد تقديمها كتفسير تحليلي وسببي لظاهرة التخلف ·

وعلى هذا النحو فان سنتش – على عكس ما قد يقول البعض – يكون قد وضع قدما راسخة على طريق تحقيق بحث علمي جاد حين يدرك درجة اقترابه من « بعض النتائج الجزئية التي توصلت اليها النظريات التي انتقدها من قبل » ، وحين يعمل وفق ما يفرضه ادراك الحقيقة من هذا النوع ·

قوانين التخلف وآليته الداخلية

في الجزء الثاني من الكتاب والذي يحمل عنوان « قوانين التخلف وآليته الداخلية » يقدم سنتش « مسحا تاريخيا تحليليا لاسباب التخلف وخصائصه الداخلية ، واشكال علاقات التبعية

واستنزاف الدخل والتركيب الداخلي لنظام التخلف ، والآلية (الميكانيزم) التي تعيد انتاجه ، كما يدرس التركيب الاجتماعي للبلدان المتخلفة ودور واشكال البنى الاقتصادية » . وبكلمة اخرى فانه يطرح في هذا الجزء نظريته الخاصة التي يراد لها ان تكون بديلا ـ تجاوزيا ـ للنظريات التي عمل في الجزء الاول على تبيان قصورها وعجزها عن تقديم تفسير مقبول ومتماسك لظاهرة التخلف .

لقد كان المأخذ الاهم الذي استخلصه سنتش من معالجته لـ « نظريات التخلف» كونها قد اعتبرت « ان التخلف مرحلة اصلية او مرحلة طبيعية قابلة للتفسير في ذاتها » . والمسألة الجديرة بالتنبه هنا ان اعتبارا كهذا لا يعني ان سنتش يجد تميزه في عكس ميكانيكي للموقف السابق يعتبر ظاهرة التخلف نتيجة مبسطة لعامل خارجي عالي ، وذلك على الرغم من أقراره بان ذلك العامل يشكل المرتكز الاساسي لفهم تلك الظاهرة .

ان ظاهرة التخلف تفسر لدى سنتش على انها الوجه الآخر لعملية « انبثاق الكولونيالية المتجسدة اقتصاديا . اي النظام الكولونيالي للرأسمالية الاحتكارية ... » والتي نلمح وجهها الاول في المجتمعات المتطورة . وعلى هذا الاساس فان « تحليل الوضع الراهن للبلدان المتخلفة » يجد مبتدأه في « تفحص الكولونيالية وتقييمها » ، او ان توخينا الدقة نقول : بفحص الاقتصاد الرأسمالي العالمي وتقسيم العمل العالمي » . ولكن هذا بمجمله لا يمثل سوى الوجه الاول لطرح سنتش ، اما الوجه الاخر والذي يعطي طرحه الجزء الاكبر من اهميته فيتجلى في رؤية عملية التمثل الداخلي ـ التي تتم في البلدان المتخلفة ـ لآثار ذلك العامل الخارجي ، والتي يتم بموجبها ظهور « بنية اقتصادية واجتماعية مشوهة ومفككة كنتيجة لهذه العوامل الخارجية » . وتصبح هذه البنية بدورها » وبصورة مستقلة عن العوامل الخارجية ، المحدد والاساس لنظام العلاقات الخارجية وآلية التبعية واستنزاف الدخل » . وعلى هذا الاساس الجديد ، يصبح المرتكز المحوري لفهم ظاهرة التخلف وتفسيرها ماثل في تحليل آلية تلك العلاقة الجدلية المتشابكة ما بين الخارج والداخل ، والكشف عن « الميكانزمات » التحولية في تلك العلاقة .

على هذا الطريق ينتقل سنتش الى معاينة « العوامل الخارجية لنظام التخلف» ثم « العوامل الداخلية للتخلف وآليته » . واراني معنيا هنا بالتوقف لاسجل اعتراضا هامشيا على هذا الفصل المنهجي ما بين معالجة « العوامل الخارجية لنظام التخلف » ومعالجة « العوامل الداخلية » لهذا النظام .

اذا كان من الصواب ان نميز ، من الوجهة المبدئية ، بين « العوامل الخارجية التي انبثق التخلف على اساسها » وبين « البنية التي يتألف منها التخلف والتي تسهم في تأكيد نظام العلاقات الخارجية» فانه من الصواب ايضا القول أن « العلاقة المتبادلة والوثيقة بينهما » تجعل من هذا الفصل الشكلي في معالجتهما ضربا من الميكانيكية . وحينما نسجل هذا التحفظ اجد انه ينبغي لنا أن نعترف بأنه على الرغم من هذا الفصل المنهجي الذي اعتمده سنتش ، الا أن سياق المعالجة قد نجى من السقوط فيذلك المطب ، ولعل في ذلك دليلا اضافيا على ان المنهج الجدلي لا يمثل بالنسبة للمؤلف قبعة تزين البحث من الخارج ، بل هو قضيةموقف متمثل حتى الحدود القصوى ليكون لحمة البحث وسداه .

ان النظام الكولونيالي من حيث يمثل الناتج الذي افضى اليه تطور النظام

الرأسمالي ، يمثل في الآن نفسه منظومة لها بنيتها الخاصة وقانونية تطورها الموضوعية التي تمكنها من اعادة انتاج نفسها . ولما كانت ظاهرة التخلف لا تمثل سوى واحدا من وجهي النظام الكولونيالي ، يصبح واضحا ان البحث عن تفسير لـ « معضلة التخلف » يجب ان لا يجري خارج دائرة البحث عن تلك العوامل التي تفسر بقاء الظاهرة الكولونيالية وقدرتها على اعادة انتاج نفسها . ويحاول سنتش تلمس تلك العوامل عبر معالجة مركبة للمواضيع التالية :

١ ـ التبعية الاقتصادية التي تحدد سمة العلاقات القائمة ما بين البلاد المتخلفة (الاطراف ـ والبلدان الامبريالية (المتروبولات) . ويشير المؤلف في هذا المجال الى التطورات التي طرأت على علاقة التبعية هذه والتي ادت الى «اختفاء اغلب الاشكال المتطرفة من التبعية » اي « التبعية الاقتصادية المباشرة » . وينوه في سياق هذا الى ان « هذا الاختفاء بذاته لم يضع حد العلاقات التبعية » ذلك ان البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية للبلدان المتخلفة والمحولة وفقا لمتطلبات مصلحة النظام الكولونيالي « تقدم الآن ، والى حد معين ، الاساس والامكانيات للحفاظ على علاقات التبعية » ، ومن جهة ثانية فان البلدان الامبريالية « تدخل اشكالا وطرائق جديدة في اعادة تنظيم علاقات التبعية وتقويتها » عبر ما اسمي بـ « النيوكولونيالية » . وعلى هذا النحو تطرح الى جانب التبعية الاقتصادية المباشرة والتي تتمثل في « الوضع الذي تكون فيه المواقع الاساسية الاقتصادية ... بيد او تحت سيطرة الرأسمال الاحتكاري الاجنبي » ، الاشكال الاخرى من التبعية والتي تتمثل في التبعية التجارية والتبعية المالية والتبعية التكنيكية .

٢ ـ خسائر الدخل واستنزافه من البلدان المتخلفة الى المتروبول ، ويتجلى هذا في شكلين : الاستنزاف المباشر للدخل وذلك عن طريق « تصدير رأس المال الى البلدان المتخلفة » مما « يؤدي الى الاستيلاء على جزء من الدخل القومي الذي تنتجه هذه البلدان » ويتجلى ذلك سواء في « ترحيل وعودة الارباح والفوائد الى المتروبول » او في ابقاء « جزء منها في البلد المتخلف على شكل ارباح اعيد توظيفها » . أما الشكل الثاني فهو « استنزاف الدخل بشكل غير مباشر » وذلك « من خلال علاقات التجارة الخارجية . والعلاقات المالية النقدية » .

٣ ـ تفكك نمط الانتاج وتشويهات البنية الاقتصادية ، ويتمثل ذلك في انه يوجد في بنية المجتمع المتخلف « الى جانب القطاع الرأسمالي الحديث قطاع ما قبل رأسمالي كبير نسبيا . وان الاقتصاد ينطوي على قطاعين متضادين كليا » . ويرتكز هذا التفكك الى ان «التطور الداخلي للاقتصاد لم يكن هو الذي ادى بالبلدان المتخلفة لان تصبح اجزاء عضوية من الاقتصاد العالمي » والى ان الذي حدث هو عكس ذلك حيث «عناصر من نمط انتاج اكثر تقدما ، قد اقحمت على الاقتصاد التقليدي من الخارج بالقوة » ولذلك فلم تكن اكثر من « بقع دخيلة » . ان مركز الاشكال في هذه الحالة هو ان تلك البقع الدخيلة قد كانت بالاساس ، وبحكم قانونية اقحامها ،موجهة نحو الخارج ولذلك فقد ظلت قاصرة عن « ان تصبح القوة الدافعة للتطور الاقتصادي الداخلي » وعلى ذلك تكون النتيجة « غياب التكامل الداخلي للاقتصاد في البلدان النامية » . ان هذا الواقع المتمثل في « البنية المشوهة والمفككة » ، هو ، في التحليل الاخير ، نتاج لما فرضه تطور النظام الرأسمالي العالمي ، كما انه يمارس في الوقت نفسه تأثيرا على جوانب

حساسة من المجتمع المتخلف (مثل تأثيره على علاقات السوق وعلى عملية التراكم وعلى نمو السكان وعرض العمل ٠٠ الخ) مشكلا بذلك اساسا ممتازا لضمان استمرار النظام الكولونيالي ٠

٤ ـ البنية الاجتماعية المشوهة : حيث المجرى الطبيعي للتطور الاجتماعي ـ الاقتصادي » في البلدان المتخلفة و « حال قطع » تغلغل الرأسمالية الغربية الاجنبية دون ان تسير على الطريق والمعدل اللذين تحددهما القوانين الداخلية لتطورها السابق » ، فوضعنا بذلك امام تشوه وتفكك التركيب الطبقي لهذه البلدان حيث « القديم لم يختف كليا ، والجديد لم يقم على الانقاض بل بين بقايا القديم ، بالاضافة الى ان تغلغل وتعزز الجديد لم يتحقق في كل مكان » ٠

وبالتأسيس على واقع العلاقات الترابطية والتداخلية التي تسم الواقع الذي عالجه سنتش عبر المواضيع الاربعة المذكورة ، تتضح معالم الظاهرة الكولونيالية بوصفها منظومة تحوز على القانونية الموضوعية لتوازنها واستمرارها بصرف النظر عن الارادات الواعية والمقصودة لتحقيق ذلك الاستمرار ٠ وبالاستناد الى ذلك يتضح مدى زيف تلك المحاولات التي تبذلها بعض الاطراف (البلدان المتخلفة خصوصا) للخروج من اسار وضعها في تلك المنظومة عن طريق خدش احد جوانبها ، دونما اي ادراك (او قدرة على ادراك) لتلك القانونية الموضوعية التي يتم على اساسها انشداد اواصر المنظومة ، والشروط التي تمكن المنظومة من اعادة انتاج نفسها ٠ تلك المحاولات التي لم يكن محكوم عليها بالاخفاق اساسا فحسب ، بل كانت في بعض الاحيان قابلة لان تجير لصالح دعم استقرار المنظومة وامكانيات استمرارها ٠

في مطلع الجزء الاول من كتابه ذكر سنتش « ان طبيعة وهدف الكتاب لا ينطويان على تقديم (وصفة طبية) تفصيلية لما ينبغي ان تكون عليه السياسة الاقتصادية الرامية للخروج من التخلف »٠ وعلى اساس ذلك فانه حين اراد لكتابه ان لا يكون مجرد « تشخيص الاعراض الظاهرية التي تولد الاوهام وتبعد المرء عن المعالجة الصحيحة » ، يكون مفهوما مبرر حصر اهتمامه في هذا المجال بـ « الآفاق العامة للتنمية والمعضلات الاستراتيجية البعيدة المدى » ، وهذا ما كان في الجزء الثالث من كتابه والذي خصصه لهذا الغرض وقدمه تحت عنوان « كسر الحلقة المفرغة » ٠

مر معنا ان حجر الزاوية في التفسير الذي يتبناه سنتش حول معضلة التخلف يتمثل في اعتبار تلك الظاهرة ، في وضعها الراهن ، نتاجا لعلاقة متشابكة بين « العوامل الخارجية التي انبثق التخلف على اساسها » وبين « البنية التي يتألف منها التخلف » مع التشديد على ان « العوامل الخارجية » تمثل الطرف الحاسم في هذه العلاقة ٠ ومن طرح كهذا قد يشتق ـ وبصورة ميكانيكية ـ اقرار تبسيطي يقول بأنه يترتب « على كون التخلف نتاجا للرأسمالية العالمية انه لا يمكن عمل شيء لتصفيته قبل وبدون انهيار الرأسمالية العالمية » ، وقد تفتقت بعض القرائح عن تصورات متعددة حول الطرق التي ينبغي السير عليها لتحقيق « الثورة العالمية » والتي تمثل الشرط الضروري لـ « تصفية التخلف » ٠ لهذه الصيغة ، التي لا تخلو من تعسف وسذاجة ، يوجه سنتش نقده الحازم مبينا مدى خطأ تلك الاطروحات وخطورتها على اختلاف مزاعمها من اغلوطة اعادة توزيع الدخل عن طريق المعونات والتعويضات وما شابه ذلك ، الى وهم الاطاحة الثورية بالنظام الرأسمالي العالمي عن طريق الثورة العالمية للشعوب المتخلفة ، الى التفاؤل

الساذج بـ (ثورة الطبقة العاملة العالمية) منوها في سياق هذا النقد بأن « الطريق لتصفية التخلف عالميا ·· ليس طريقا مسدودا ، بل طريقا مناسبا للمرور فيما تواقت شروط معينة » وان « الحل العالمي» مرتبط بـ « الآفاق المفتوحة امام وفي داخل البلدان منفردة للتغلب على التخلف » · وهذا يضعنا بطبيعة الحال امام موضوع « آفاق تصفية التخلف في اطار اقتصاد قومي واحد » · يحاول سنتش في معالجته لهذا الموضوع الاخير ان يرسم خطوطا عريضة لـ « استراتيجية تصفية التخلف»، منطلقا في ذلك من التأكيد على أهمية الجانب الداخلي للمسألة (الاطار الوطني لسياسة التنمية) ومن رؤية الطابع المعقد لعملية تصفية التخلف الذي تفرضه « العلاقة الديالكتيكية بين العوامل المنفردة - المسببة للتخلف » لان « بقاء عامل واحد من العوامل دون تغير يهدد بالخطر كامل التقدم المحرز في تصفية العوامل الاخرى » · وعلى اساس التحديد المطروق سابقا لـ « العوامل المسببة للتخلف » . يرى سنتش ان السير الجاد على طريق تصفية التخلف يقتضي العمل المتكامل لتحقيق مهمتين مترابطتين هما : آ -تحطيم الموقع الاحتكاري لرأس المال الاجنبي ، وبتعبير آخر النضال ضد التبعية والاستغلال الاقتصاديين · ب - تحويل البنية الاجتماعية الاقتصادية المشوهة وازالة الاشكال الاجتماعية البالية · واستنادا الى الظروف العالمية والوطنية التي ينبغي على البلدان المتخلفة ان تخوض المعركة عبرها · يأخذ هذا العمل طابع العداء لـ « التحرك العفوي للقوى الاقتصادية » ، وعلى هذا يفترض فيه ان يكون عملا واعيا وتدخلا مقصودا ضد « آلية فعل القوى الاقتصادية العفوية » ·

وعلى اساس هذه المعطيات يشدد سنتش على اهمية الدور الذي ينبغي ان تلعبه « الدولة » في تحمل اعباء انجاز هذه المهمة · واجدني هنا معنيا بتسجيل التحفظ التالي حول هذا الطرح الذي يقدمه سنتش ، والذي لا ينسجم - فيما ارى - مع الطموحات التي اريد لمشروعه ان يحققها ·

انتهى سنتش من تأليف كتابه عام ١٩٦٩ ، اي حينما كان خط التطور عبر رأسمالية الدولة ما زال يملك بعضا من بريق ، وفي وقت لم يكن قد ظهر فيه بشكل سافر ان ذلك الزهو الذي ظهرت به بعض بلدان العالم الثالث لم يكن سوى انتفاخ كاذب (كما اثبتت النهايات التي وصلت اليها معظم تلك البلدان) ولم يكن مبنيا على اساس خطى سليمة وجادة فيطريق التنمية الاصيلة · واذا كان من المفترض بالنسبة لشخص كتوماس سنتش ان يكون قادرا على رؤية زيف ذلك الصخب الوطني الذي اطلقته بعض حكومات العالم الثالث في تلك المرحلة بالذات (وهذا ما لم يحصل) ، فان الوقائع المستجدة - على اقل تعديل - تجعل من الاهمية بمكان ان يعيد اولئك الذين راهنوا على ذلك الخط النظر في اسس مواقفهم ·ولعل اهم العناصر التي ينبغي طرحها للمناقشة على هذا الاساس ، هي مدى نجاح الحلول التي تأتي عبر سوبرمانية الدولة او - على اقل تعديل - حول الشروط التي ينبغي توفرها لتكون دولة ما مؤهلة لتحقيق اعباء التنمية الحقيقية ·

واذا كان كلاما كهذا يقال حولتصورات سنتش عن دور الدولة في تحقيق التنمية، فالاحرى بنا ان نتوقف امام ما طرحه حول « طريق التطور اللاراسمالي » · لقد اكتشف سنتش - ولو متأخرا - ان تلك التحولات التي جرت في صرح النظام الكولونيالي لم تكن سوى انتقال الى « نمط كولونيالي جديد من التبعية وتقسيم

العمل العالمي » لا يقل شراسة عن سابقه على الرغم من اناقة القفاز الذي يلبسه، (طرح سنتش ملاحظاته حول هذا النمط الجديد في ورقة عمل قدمها الى كونغرس الجمعية الكندية للدراسات الافريقية الذي انعقد في ٢٧ شباط الى ٢ آذار ١٩٧٤ ، وقد ضمت هذه الورقة على شكل ملحق للكتاب الذي بين ايدينا) · هكذا يضعنا سنتش امام تساؤل حول مبرر ممالأته لذلك الطريق ، وما اذا كان موقفه ليس اكثر من ضرب من التبريرية المخادعة ، والتي لم تكن بدورها سوى احدى موروثات «الاتجاه الدوغمائي » ، هذا الاتجاه الذي تكتسب محاولة سنتش الجزء الاكبر من اهميتها عبر رفضنا له·

وفي نهاية هذه المراجعة ، وعلى ضوء كل ما تقدم ، اجد انه من الاهمية بمكان ان انوه بان معارضة بعض ما حمله الجزء الثالث من كتاب سنتش (وان كانت هناك امكانية للاعتراض على بعض الاطروحات الثانوية في الجزئين الاول والثاني) يجب ان لا تجعلنا نقلل من اهمية الافكار الاخرى التي طرحها في معالجته للموضوع ، وهذا على اقل تعديل بعض ما يفرضه التطلع الجاد الى تجاوز ما خلفته هيمنة الاتجاه الدوغمائي على الماركسية ·

واخيرا يظل السؤال مطروحا وبجدية حول مدى نجاح توماس سنتش في تحقيق تطلعه الى اضافة جديد وهام الى النظرية الماركسية وخصوصا فيما يتعلق بموضوع اشكالية التخلف · ولنستذكر هنا الشعار المشهور الذي رفعه ابن رشد والقائل بان من اجتهد واصاب فله اجران ، ومن اجتهد واخطأ فله اجر واحد ·

عماد هرملاني

رفائيل البرتي

مختارات

● ولد سنة ١٩٠٢ ، في قرية (بويرتو دي سانتا ماريا) بمدينـــة (قادش) على شاطيء الاطلسي ، في اسبانيا ·

● انهى دراسته في مدرسة تابعة للجيزويت في قادش ، ثم انتقل مع عائلته الى مدريد سنة ١٩١٧ ·

● منذ صباه كان ميالا الى الرسم · وفي مدريد اخذ يتـــردد علـــى المتاحف ، ويحاول تقليد لوحات كبار الفنانين ·

● أصيب بمرض اقعده طويلا · وخلال مرضه بدأ بكتابــة الشعر · فكان ديوانه الاول « بحار في البر » وبه نال (الجائزة الوطنية للشعر) ·

● في بيت الطلبة بمدريد تعرف على فيدريكو غارسيا لوركا ،وسلفادور دالي ، ولويس بونويل · وساهم في النضال ضــد دكتاتوريــة بريمو دي ريفيــرا ·

● اصبح من ابرز شعراء « جيل ٢٧ » ، وهو الجيل الذي يضم أيضا : فيدريكو غارسيا لوركا (١٨٩٨ ـ ١٩٣٦) ، وبيدرو ساليناس (١٨٩٢ ـ ١٩٥١) ، فيثنتي اليساندري ١٨٩٢ ـ جائزة نوبـل ١٩٧٧ ـ ، وداماسو الونسو ١٨٩٨ ، ولويس ثرنـودا (١٩٠٤ ـ ١٩٦٣) ، وخورخي غيين ١٨٩٣ ·

● في ١٩٣١ سافر الى باريس ، ثم جال في اوروبا · وزار الاتحاد

السوفييتي عام ١٩٣٣ مع زوجته ماريا تيريزا ليون ·

● اصدر في مدينة ليون (الاسبانية) مجلة « اكتوبر » التي اوقفتها الرقابة بعد سنة من صدورها ·

● تعرف على بابلو نيرودا ، وتعاون معه في مجلة « الحصان الاخضر للشعر » ·

● في اوائل ١٩٣٦ زار نيويورك وهافانا والمكسيك والقى هناك عدة محاضرات · ولكنه عاد الى اسبانيا عند اندلاع الحرب الاهلية في تموز ١٩٣٦ ·

● كانت حكومة الجمهورية قد عينته مديرا للمسرح الجوال « الافرهول الازرق » · لوركا ايضا كان مديرا لفرقة مسرحية جوالة اخرى هي مسرح « لابركا » ·

● ساهم في النضال ضد الفاشية ، وكان خلال الحرب الاهلية سكرتيرا لاتحاد المثقفين المعادين للفاشية ·

● عمل مع نيرودا ومارلو واراغون وغيرهم في تنظيم مؤتمر «ادباء العالم يدافعون عن الشعب الاسباني » ، وذلك اثناء حصار مدريد ·

● في ١٩٣٩ ، بعد سقوط الجمهورية ، هاجر الى باريس ، ثم الى بوينس ايرس عام ١٩٤٢ ، وبقي فيها حتى بداية عام ١٩٦٣ · وفي هذه السنة زار الصين وتجول في اميركا اللاتينية واوروبا · ثم استقر اخيرا في روما ·

● بقي في روما حتى عام ١٩٧٦ ، حيث عاد الى اسبانيا بعد موت فرانكو وسقوط الدكتاتورية الفاشية · وفاز في الانتخابات البرلمانية التي جرت عام ١٩٧٦ · ولكنه استقال من منصبه هذا بعد شهور قليلة ·

● كتب للمسرح عددا كبيرا من المسرحيات · واعماله المسرحية لا تقل اهمية عن شعره ·

● نال مؤخرا جائزة « اكليل الغار الذهبي » في مهرجان الشعر الذي اقيم في يوغسلافيا · وهذه اكبر جائزة تقدمها يوغسلافيا وهي من الجوائز الهامة في العالم ·

● من اعماله الشعرية : « بحار في الارض » ١٩٢٤ · « فجر المنثور » ١٩٢٧ · « جير وغناء » ١٩٢٩ · « عن الملائكة » ١٩٢٩ · « انا كنت احمق وما رأيت جعلني احمقين » ١٩٣٥ · « اراك ولا اراك » ١٩٣٥ ·

« الشاعر في الشارع » ١٩٣١ ـ ١٩٣٥ · « بين لحظة واخرى » ١٩٣٩· « حياة بلغة مزدوجة للاجيء اسباني في فرنسا ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ · « بين القرنفلة والسيف » ١٩٤١ · « عن الرسم » ١٩٤٥ · « قصائد الطرف الشرقي » ١٩٤٥ ـ١٩٥٦ · « قصائد واغنيات لنهر بارانا » ١٩٥٤ · « روما خطر على المسافرين » ١٩٦٨ · « اسماء بيكاسو الثمانية « ١٩٧٠

● ومن اعماله المسرحية : « فيرمين غالان » ١٩٣١ · «منقذي اسبانيا» ١٩٣٦ · « اغنية الابطال والاخوة بين الشعوب » ١٩٣٨ · « القبيح » ١٩٤٤ · « البرسيم المزهر » ١٩٤٦ · « ليلة حربية في متحف البرادو » ١٩٥٦ ·

اذا ما مات صوتي على البر

اذا ما مات صوتي على البر
ارفعوه إلى مستوى البحر
واتركوه على الضفة .

ارفعوه إلى مستوى البحر
ونصبوه قبطاناً
على سفينة حربية بيضاء .

آه يا صوتي المتشح
بالراية البحرية :
على القلب مرساة ،
وعلى المرساة نجمة ،
وعلى النجمة ريح ،
وعلى الريح الشراع !

(من ديوان « بحار في البر »)

من اراندا دي دويرو[1]
إلى بينياراندا دي دويرو

يــا قشتــاليــو قشتــالــة
يــا مــن لم تــروا البحــر أبداً !

إحــذروا ، ففــي هــذه العيــون
الجنــوبيــة ، وفــي هذا الفنــاء
أحمــل لكــم كل البحــر !

انظــروني ، فالبحــر يمــر !

(من ديوان « العشيقة »)

العــروسـة

يقــــرع نــاقــوس
الكتــــدرائيــــة .
وأنـــا بـــلا حــذاء
مــاضيــــة إلى الزفــاف !

أيــن هــي طرحتــي ،
ايــن ثــوبي الأبيــض ،
واكليلــي الذي من زهــر البرتقــال ؟

أيــن هــو خاتمــي ،
طــوقــي الذهبــي
وعقـــدي البــديــع ؟

أســرعــي ، أمــاه !
فهـــا هــو ناقــوس الكاتدرائيــة
يقــــرع .

أيـن هـو حبيبـي ؟
عاشقـي الحبيـب ،
أيـن هـو الآن ؟

يـدق ناقـوس
الكتـدرائيـة .
وانـا بـلا عشيقـي ،
ماضيـة إلى الزفـاف !

(من ديوان « فجر المنثور »)

أطفال اكستريمادورا(٢)

أطفـال اكستـريمادورا
يمضـون حفـاة .
من سلبهـم الاحـذية ؟

يجـرحهـم الحـر والبـرد .
من مـزق مـلابسـهم ؟
المطـر
يبلل أحـلامهـم وفـراشهـم
من هـدم لهـم البيـت ؟

انهـم لا يعـرفـون
اسمـاء النجـوم .
من أغلـق مـدارسهـم ؟

أطفـال اكستريمـادورا
جـدّيـون
من هـو اللص الـذي سـرق ألعـابهـم ؟

(من ديوان « الشاعر في الشارع »)

شبح يخيم على اوروبا . .

« هناك شبح يخيم على اوروبا »
كارل ماركس

. . . والعائلات القديمة تغلق النوافذ ،
توصد الأبواب ،
والأب يهرع في الظلام إلى البنوك
ويتوقف نبضه في البورصة
ويحلم في الليل بالحرائق ،
بالمحاصيل تشتعل ،
وبانه سيجد اللهب بدل القمح ،
وبدل الحبوب شراراً ،
صناديق ،
صناديق حديدية مليئة بالشرر .
حيث نكون ،
اين تكون ؟
والفلاحون يجوسون دماءنا
ما هذا ؟

ـ لنغلق ،
لنغلق سريعاً الحدود .
انظروه يتقدم مسرعاً مع الريح الشرقية ،
ريح سهوب الجوع الحمراء .
لا تدعوا العمال يسمعون صوته ،
لا تسمحوا لصغيره بالدخول إلى المصانع ،
لا تدعوا رجال الحقول يلمحون منجله المشرع .
أوقفوه !
لانه يقفز البحار ،

يجتـاز كـل الجغـرافيـا ،
لانــه يختفي في أقبيـة سفن الشحـن
ويتحـدث إلى الوقـادين
ويسحبهـم ملوثين بالسناج إلى سطح المركب ،
ويجعـل الحقـد والبؤس يتمردان ،
وطـواقـم السفـن تنتفـض .

أغلقـوا ،
أغلقـوا السجـون
فصـوته سيفجـر الجـدران
مـا هـذا ؟

ـ أمـا نحـن ، فنتبعـه ،
نجعلـه ينزل عن الريح الشرقية التي تحمله
ونسأله عن السهوب الحمراء ، عن السلام
نجلسه على مائدة الفلاح الفقير ،
ونقدمه ليتعرف إلى صاحب المصنع ،
ونجعله يرأس الاضرابات والمظاهرات ،
ويتحـدث إلى الجنـود والبحـاره ،
ويـرى مكاتب صغـار المـوظفيـن
ويـرفع قبضته ويصرخ في برلمانات الذهب والدم .

شبـح يخيـم على اوروبا ،
علـى العـالم .
نحـن نسميـه رفيقـاً .

(من ديوان « الشاعر في الشارع »)

أنـا من الفرقة الخامسة[٣]

غـــداً ســـأتــرك بيتـــي ،
ســـأتـرك الجواميـس ، واغادر القرية .
ســـلاماً ! إلى أين أنت ذاهب ، قل لي ؟
ـ أني ذاهـب لانضم إلى الفرقة الخامسة .

مسيـــر دون مـاء ، علـــى الأقـــدام .
جبـــال شـــاهقـــة ، سهـــول فسيحـــة .
أصـــوات المجد والانتصـــار .
ـ انـــي من الفـــرقة الخامســـة .

(من ديوان « بين لحظة واخرى »)

كـم أنـا وحيد ! . . .

كم أنا وحيد أحياناً ، آه كم وحيد ،
وحتى كم فقيرٌ وحزينٌ ومنسيٌّ !
وهـكذا ، أرغـب في طلب صدقة
من شواطيء ميـلادي ، من حقـولي .
أعطـوا العائد ، أحلفكـم بالحب ، قطعة
من نـور هـاديء ، من سمـاء ساكنـة .
رحمـــة ! ألا تعرفـونني . . .
ليـــس كثيـــراً ما أطلـــب . . أعطوني شيئاً .

(من ديوان « قصائد من الطرف الشرقي »)

أغنيـــة ١٢

أريـد الغنـاء : أن أكـون زهـرة
لبـــلدي .

أن تـــأكلنـــي بقـــرة

مـــن بلـــــدي .
أن يضعنـــي على اذنـــه
فـــلاح من بلـــدي .

أن يستمـــع إلـــيّ
قمـــر بلـــــدي

أن تبللنـــي بحـــار
وأنهـــار بلـــدي .

وان تـــدفننـــي الارض
فـــي قلـــب بـــلدي .

لأننـــي ، كمـــا تـــرون ، وحيـــد ،
دون بلـــدي .
(مع انـي لسـت بـلا بلدي .)

(من ديوان « قصائد واغنيات لنهر بارانا »)

أغنيـة ١٥

أعـــرف أن الجـــوع يـــذهب بالاحـــلام .
ولكـــن علـــيّ أن أستمـــر بالغنـــاء .

وان السجـــن يغيـــم الاحـــلام .
ولكـــن عليّ أن أستمـــر بالغنـــاء .

وأن المـوت يقتـل الحلم .
ولكـــن علـــيً
علـــيّ أن أستمـــر بالغنـــاء .

(من ديوان « قصائد واغنيات لنهر بارنا »)

قصيدة الذي لم يذهب أبداً إلى غرناطة

الى فيدريكو غارسيا لوركا

كم بعيد ، تفصلني بحار ، حقول ، وجبال !
وشموس اخرى تنظر إلى رأسي الشائب .
لــم أذهــب ابداً إلى غـرناطـة

رأســي قد شـاب ، سنواتـي ضاعت .
أريـد العثور على الدروب القديمة المطموسة .
لــم أر أبــداً غرنــاطــة .

ضــع لــي غصــن نــور أخضــر في يــدي .
ولجــامــاً قصـيراً وخطــى طويلة .
لــم أدخــل أبـداً إلــى غــرنــاطــة .

اي أنـاس أعداء يسكنون دروبها ؟
مـا هـي الاصـداء النقية الحرة في هوائهـا !
لــم أذهــب أبــداً إلى غـرنـاطة .

مـن يسجــن حـدائقهـا اليوم ، ويضــع
ســلاســل على حــديث نوافيرهـا ؟
لــم أر أبـداً غـرنــاطة .

تعــالوا يا من لم تذهبوا أبداً إلى غرناطة .
فيهـا دماءٌ شهيدة ، دماء تناديني .
لـم أدخـل أبــداً إلى غـرناطة .

فيهـا دماءٌ شهيدة ، دماء الأخ الأفضـل .
دمـاء بين شجيرات الريحان ومياه الانهار .
لــم أذهب أبـداً إلى غرنـاطة .

دمـاء الصديق الأفضل بين الريحان .

دمـاء بين الدارو ، وبين الخنيل[٤] ، دماء .
لــم أر أبـداً غرنـاطة .

اذا كـانت الأبـراج عالية ، فالهمـة عاليـة .
تعـالوا من الجبال ، من البحار ، من الحقول .
ســأدخــل غــرنــاطة .
ســأدخــل غــرنــاطة .

(من ديوان « قصائد واغنيات لنهر باراناء»)

عندما أغادر روما

عنــدما أغــادر رومــا
مــن سيــذكــرنــي ؟

اســألوا القــط ،
اســألــوا الكلــب
والحــذاء المثقــوب .

اســألوا مصبــاح الطريق التــائــه ،
الحصــان الميــت
والشــرفــة الجــريحــة .

اســألــوا الريــح العــابــرة ،
البــوابــة القــائمــة
التــي بــلا بيــت .

اســألــوا المــاء الجــاري
الــذي يكتــب اسمــي
تحــت الجســـر .

عنــدما أغــادر رومــا ،

أســـألوا هــؤلاء عنـــي .

(من ديوان « روما ، خطرة على المسافرين »)

البحر . . البحر

البحـــر . . البحـــر .
البحـــر . فقـــط البحـــر !

لمـــاذا أحضـرتني ، يا أبي ،
إلـــى المـــدينـــة ؟

لمـــاذا بعثتنـــي
مـــن البحـــر ؟

في الاحـــلام ، تشـــدني
تموجـــات البحـــر من قلبـــي
وكـــأنهـــا ستنتـــزعـــه .

أبـــي ، لمـــاذا أحضرتنـــي
هنـــا ؟

(من ديوان « بحار في البر »)

ترجمها عن الاسبانية
صالح علماني

---

(١) دويرو : نهر يجتاز أراضي اسبانيا والبرتغال .

(٢) اكستريما دورا : منطقة جبلية في اسبانيا ، شهدت حرب عصابات عنيفة خلال الحرب الاهلية . وبها تدور أحداث رواية هيمنغواي « لمن تقرع الاجراس » .

(٣) الفرقة الخامسة : هي الفرقة الاممية التي حاربت إلى جانب الجمهورية خلال الحرب الاهلية الاسبانية .

(٤) دارو وخنيل : نهران في غرناطة .

محمود أحمد شاهين

الخطار

(قصة)

« ١ »

ها هي اول قافلة للخطار تطل من بعيد عبر التلال ٠٠ انفردت أسارير وجه « عائشة العلان » وهي تصالب يديها وتتكور على نفسها فوق قمة الجبل لتجابه القشعريرة التي اجتاحت جسمها من جراء نسيم الصباح ٠٠ « متى تقطع القافلة تلك الشعاب والتلال وتصعد منعرجات جبل المنطار وتصل اليها لترى فيما اذا كان ابنها معها ؟ ! » ٠

تخيلت نفسها بجناحين وطارت : « حلقت فوق القافلة ٠٠ شاهدت ابنها يسوق الحمير وقد حملها بأكياس الملح ٠٠ رفرفت بجناحيها فوقه ، حطت عليه ، ضمته ، قبلته ، حملته وحلقت به ٠٠٠ » ٠

أطلت الشمس من خلف جبال البحر الميت ٠٠ تأملت عائشة كل الجهات المشرفة عليها : ها هو البحر المالح يركد بين سلسلة من عشرات الجبال ، ادارت وجهها الى الشمال ، اشرفت على قرى ومدن كثيرة ، ثم الى الغرب حيث « رام الله » فالقدس ٠٠ بدا لها الندى وهو يطير عن قمة جبل الزيتون ، فجبل المكبر ٠٠٠ أرسلت بصرها الى الجنوب : ها هي بيت لحم تحيط بها عشرات القرى ٠٠ أخذت تقصر نظرها شيئا فشيئا ، جابت المراعي والجبال : عشرات الرعاة يخرجون بقطعاهم من الغرب والصيرة ٠٠٠ نظرت الى الشرق من جديد : ها هي القافلة تتقدم عبر التلال ، وها هي عشرات القوافل تطل من ورائها ٠٠٠

أخرجت جزة الصوف من الصرة الموضوعة الى جانبها ، لفتها حول ذراعها وأخذت تغزل ··· ثم عادت الى شرودها ·

« ٢ »

« قلت له يا ولدي انت صغير والملح لا يخطر اليه قبل سن الشباب ، لا تدعني انتظر على الدروب أسأل عن عيونك ، غدا يا ولدي تكبر ويكبر اخوتك وتخطر مع الخطار ·· بحر الملح يا ولدي ما ارسلك اليه ، تروح يا ولدي ، يشرق « عدوك » بماء البحر ، تنزل بجوفك ، تغرق يا ولدي وانا لا اطيق فراقك يا روح أمك ، اخوتك ينتظرونك يا حسن !! صبرت يا ولدي على الذل والذي أمر منه ، تحملت المهانة ، تعبت ، شقيت ، كلت عيني وانهد حيلي ، لكن العمر في سبيلك وسبيل اخوتك يرخص يا ولدي ··· » ·

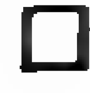
« عشر سنين يا ولدي ، عشر سنين مرت على وفاة أبيك في حرب النكبه ·· كنتم صغارا يا حسن ، خبأتكم ، ربيتكم ، منعت كل الشر عنكم داريتكم ، مثل حجلة تداري فراخها يا ولدي ·· في الشتاء أبيع البقول يا بني وفي الصيف أنسج البسط للشيخ « علي » وأغزل ··· تحملت الكثير يا ولدي ، اتحمل القليل حتى تصيروا رجالا وتتزوجوا ، وتدفنوني بأيديكم تحت التراب لما أموت يابني »·

« يا أمي ، يا أمي » قلت له « لا تقاطعني يابني ، خلني انه كلامي ، الله يرضى عليك » سكت · قلت له : « بحر الملح يا ولدي لن تروح اليه » قال « انا أفديك بعيوني يا أمي ، لا تقطعي قلبي بحياة تراب ابي ·· قلت لك : أنا لست صغيرا ، أنا كبرت يا أمي ، أنا شاب وشببت على يديك اللتين لم تعرفا الكلل ، وكيف لا تريدينني ان اخطر على الملح ، انسيت يا أمي عندما جئت البارحة ، وقلت لي : الشيخ علي هددنا ، يبغي ديونه . والا سيتملك قطعة أرضنا الوحيدة التي رهناها عنده ·· لا تحسبي يا أمي ولا تدعي الهم يشغل بالك ·· رطل الملح بقرشين ، اخطر كل خمسة أيام مره ، احضر مئة رطل ، لن ينتهي الصيف الا وانا جامع ديون الشيخ علي ، ونسترد قطعة أرضنا الوحيدة يا أمي » · قلت له « برضاي عليك يا ولدي ، أنا ارضى والله يرضى ، والسهل يرضى والسماء ترضى ، لا تروح يا ولدي ، اخاف عليك يا حسن ، أخاف أنقطع من رؤية عيونك يا بني ، يغرق عدوك في البحر مثل الناس الذين غرقوا ، او تقبض داورية الفرسان يا بني ، اشق ثوبي ، أجن ، ادور على الدروب يا ولدي ، لا تخلني اتحسر عليك كما تحسرت على اخوتك ··· برضاي عليك لا تخطر يا حسن ، ابق في المدرسة يا بني ، وليأخذ الشيخ علي قطعة الارض ، وعوضنا في عين الله يا ولدي ، وان شاء الله ان عينه ما تخيبنا وما تخطي عنايا بني !! » ·

قال لي : « يا امي يا امي !! قطعة الارض لن اتخلى عنها بدمي ، وحياة تراب

والدك المدفون وحده في البراري ، والمدرسة ما هو وقتها !! وعلى الملح يجب ان أخطر ، واطردي كل أفكار السوء من رأسك » ٠

قلت له : « رح يا ولدي عين الله تحرسك في كل خطوة تمشيها ، رح !! » ٠



سمعت ان « علي الخطيب » سيخطر الى البحر ٠٠ ذهبت اليه في الخشة : « يصبحك بالخير يا علي » « الله يصبحك بأنوار النبي » « يا أخي حسن يريد ان يخطر مع الخطار الى البحر ، خذه معك يا علي واعره انتباهك ، الله يطول عمر أولادك ، ما يزال صغيرا يا علي ودروب الملح كلها مخاطر وما هي هينة ، وعمره ما مشاها » قال « لا تهتمي يا أختي ، والله لاضعه في عيني ، وان شاء الله لن يصير عليه الا الذي يصير علي » قلت له « يكثر خيرك يا علي ويستر على عيالك ربنا من فوق !! » ٠

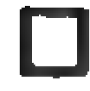
عدت الى البيت ٠٠ قال حسن « لا بد لي ان احضر حمارا آخر ، حمارنا لا يقدر ان يشيل شيئا ٠٠ راح ٠٠ استعار حمارا من عند بيت عوده ٠٠ قال لي « حضري لي زادي وزوادتي يا أمي » رحت ٠٠ نظرت في قن الدجاج ، وجدت أربع بيضات ، سلقتها ، وسلقت ست حبات بطاطا ، واحضرت أربع ازرار بندوره ، وقليلا من الزيتون وعشرة أرغفة خبز ٠٠ صررت له اياها في منديلي ٠٠ وضع رأسه ونام ، قال : « ايقظيني قبل صيحة الديك يا أمي كي لا « اتاخر عن الخطار » قمت علفت الحمير ووضعت لها قليلا من التبن ٠٠ نيمت الاولاد ٠٠٠ ما جاء عيني النوم ، قعدت أغزل صوفا لبيت الشيخ وأغني في الاولاد ٠٠٠ غنيت لحسن ووطفا ومحمد وندى ٠٠٠ ثم قمت قبلتهم وقعدت اتطلع اليهم وهم نائمون ٠٠ « يا احبتي ، تكبرون وتتزوجون وتخلفون صبيانا وبنات ٠٠٠ وتدفنونني بأيديكم يا أعزائي » ٠

سمعت « شبابة » « محمود ابي ردان » في هذا الليل ٠٠ احسست انه يجرح قلبي بعزفه ، يا ويلي عليه كم قلبه ملوع !! جعلني اتذكر كل الايام الماضية : ابي الضرير الذي كنت أقوده وهو يستعطي ، وموته في تلال النبي موسى ، ودفنه هناك لوحده بين الاودية !! الاب بطرس الطيب الذي رباني في الدير !! الاخت لويزا !! زواجي ٠٠ وفاة طفلي البكر ، وطفلي الثاني ، ووفاة البنت ، استشهاد زوجي بجانب القسطل في الثمانية واربعين ٠٠ تعبي وشقاي الى ان ربيت الاولاد ٠

تطلعت الى حسن ، شعرت بالخوف ٠٠ غدا سيخطر الى بحر الملح ٠٠ يا ولدي ، صغير ولا يعرف السباحة والبحر مرعب ، والملح تعب وشقاء ، وهو غير

معتاد على السفر والتعب والمخاطر ... ماذا أفعل لكي أمنعه من هذه السفره ؟! أأتركه نائما ولا اوقظه ؟ أخاف ان يجن اذا ما نهض ووجد انني فعلتها معه ، يا ربي أنت أعرف واعلم بحالي ، وتعرف كم تعبت وشقيت ، حتى جعلت من أولادي رجالا ، أنا أضمهم أمانة بين يديك يا ربي ، ونذر علي اذا رجع حسن من البحر سالما لاذبح لك كبشا في النبي موسى ولو انني سأستجدي ثمنه ، وسأوزع لحمه على الفقراء والمساكين ..

أحسست انه لن يغمض لي جفن ، وشبابة « محمود ابي ردان » جرحت قلبي ولوعتني ، وأثارت كل همومي :



أفاق حسن من النوم ، قال لي « أنت تبكين يا امي » مسحت دموعي .. قلت له « يا ولدي ، برضاي عليك لا تخطر الى البحر » غضب وثار .. قلت له « كفى يا بني ، الله يرضى عليك ويحن اليك ، قم صارت الدنيا منتصف الليل ، الان ينادي عليك علي الخطيب » قال لي « انما لا اريد ان اسمعك تقولين ، لا تروح ولا تجيء » قلت له « لن اتكلم يا ولدي ، فلقد تكلمت ما فيه الكفاية .. » قام . أحضرت له كأس شاي .. تركته يشربه ورحت .. حلست الحمارين ووضعت عليهما خرجين وثلاثة أكياس .. ملات القربة الصغيرة ماء ووضعتها في جانب خرج ، ووضعت في الجانب الثاني صرة الاكل ... ووضعت له بعض السكر والشاي ، وكيلتين وعلبة كبريت .

استيقظ محمد وندى ووطفا .. برهة الا علي الخطيب ينادي ... قام حسن . قمت معه ... قلت لمحمد « اعر انتباهك لاختيك يا بني ، ريثما اودع أخاكم » ساق الحمير أمامه .. وصلنا علي الخطيب ، صبحنا عليه .. قلت له « حسن وداعتك يا علي » قال لي « الوداعة على الله يا عائشة ، ان شاء الله لن يصير الا الخير ، روحي ارجعي لعند الصغار كي لا يخافوا وحدهم » « لا خوف عليهم يا علي ، ابقيتهم مستيقظين ، اريد ان امشي معكم الى ان اوصلكم لباقي الخطار » « الخطار بعيدون يا عائشة ، الى اين تذهبين معنا في هذا الليل ؟! » « في أي واد ينتظرونكم يا علي ؟! » « في وادي المنطار !! » « اذن دعني امشي معكم قليلا وسأرجع » مشيت معهم ... الدنيا ليل يا حسرتي ، قلت « يا ليتكم انتظرتم ريثما يطلع القمر يا علي » « القمر يطلع متأخرا يا عائشة » قال حسن « أرجعي يا امي ، الى اين تذهبين في هذا الليل ؟! » قلت له « قف لاقبلك يا بني» وقف يا حبيبي !! قبلته : «في حفظ الله يا بني ، اودعتك للذي لا يخون الودائع!! الله يفتح لك في كل ضيقة طريقا يا ولدي ، ويكف عين الظلام عنك !! ويعيدك بالسلامة يا بني ، وداعتك حسن يا علي » « اتكلي على الله يا عائشة » .

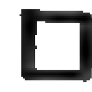
ركبا حمارين وتسهلا ··· رجعت وانا أناشد البحر ان يحفظ حسن ويرجعه لي سالما ، وتمنيت من الله ان يجفف ماءه اذا ما غدر به ·

« ٣ »

وصلنا مكان التجمع ·· لم نجد احدا ·· قال علي « دعنا ننزل عن الحمير يا حسن ، ونرتاح برهة ريثما يجيء الناس «نزلنا» متى نصل البحر يا علي ؟ » « غدا في الليل » « أبعيد الى هذا الحد ؟ » « لا والله ، ليس بعيدا يا عمي ، لكننا لا نقدر ان نمشي في النهار ، نخاف من داوريات الفرسان ان ترانا » فكرت قليلا ·· قلت « والله انني لا اعرف لماذا الدولة تمنع الناس ان يبيعوا الملح يا علي ؟ » قال « لانهم يضاربون على معمل الملح وعلى الملح المستورد !! » « كيف ؟ » « لاننا نبيع الملح بسعر أرخص من سعر المعمل يا عمي » « طيب !! لماذا لا يغلقون المعمل ، ما دمنا نحن نبيع الناس بسعر أرخص ، وحتى لا يستوردوا أيضا ، سنأتي بملح يكفي لكل المملكة ؟! » « لا يمكن يا عمي ، هذا المعمل كلف فلوسا كثيرة ، كيف يغلقونه ؟! » « وكيف نعيش اذن ؟ » « الذي رزق الدود في الصخر يا عمي ، يرزق الطير على الشجر !!! » ·

بدأ الخطار يصلون ·· تجمع اكثر من خمسين خطارا من خطار بلدنا ·· الذي جاء بحمارين والذي جاء بثلاثة أو ببغل وحمارين ، والبعض أحضروا جمالا ··· مشينا في هذا الليل !! صعدنا جبل المنطار ونزلناه ·· قطعنا تلالا وشعابا ·· انحدرنا الى اودية سحيقة ·· شعرت ان « عليا » خائف علي كثيرا، لانه اصر على ان أركب الحمار وامشي امامه ·· شاهدت قافلتنا وقد بدأت تجنح الى جانب واد بعد ان كانت تسير في منتصفه ·· وسمعت الناس يتهامسون ، كل واحد يهمس للذي خلفه ، التفت الرجل الذي امامي على ظهر حماره ، وقال لي « تصادفنا مع داورية مهربين ، لا أحد يتكلم معهم ، خفت ··· نهر علي حماره ، لحقني « ماذا قال لك ؟ » أخبرته ·· « لا تخف يا عمي » جعلني أحس بالخوف أكثر !! التفت لاكلمه ·· قال « هص ! » « هصيت !! » سمعت وقع حوافر خيل ·· حدقت ، شاهدت رجلين يركبان جوادين ويحملان بندقيتين ويتلثمان بكوفيتيهما ·· شكلهما مرعب ·· أطل وراءهم اثنان ثانيان ، ثم اطل اثنان آخران أيضا ·· ستة خياله ·· جانبت بالحمير الى محاذاة الوادي ، ريثما يمرون ·· اخافني علي عندما اقترب مني ، ووضع يده على ظهري ·· نظر الخيالة الينا ومروا دون ان يتكلموا معنا ، وانا أنظر الى بنادقهم ··· أطل أول القافلة ، من ورائهم : بغال محملة بأكياس ممتلئة ، عددت عشرين بغلا مرت من جانبي ، كل بغل يتبعه مسلح !! ثم أطل وراءهم ستة خيالة يحرسون القافلة من الخلف · مروا ·· تنفست ·· قلت لعلي « ما هؤلاء ؟! » قال هص ،

مهربو حشيش وفلفل !! » « ماذا ؟ » « قلت لك هص ! » « الى من يهربـون ؟ » اقترب مني ، همس في اذني « الى اسرائيل ، هص ، ايـاك أن تسأل أسئلة اخرى !! » ما سكت !! قلت « الا يوجد في اسرائيل حشيش وفلفل حتى يهربوا لها ؟! » « هص ، لكي لا يسمع أحد ، هذا حشيش وفلفل غير الذي نعرفه نحن!!» « كيف هو ؟! » « لا اعرف ، انما يقولون انه غال جدا !! » « من اين جاءوا ؟! » « يا ملعون الاب والام !! تريد ان توقعنا في داهية ؟! ٠٠ من الشرق !! » « من اين ؟! » « قلت لك من الشرق ، هص !! » ما هصيت !! « وهل يوجد شرقـا فلفل وحشيش غير الذي عندنا ؟! » « الآن اغضب منك ، هـذه القضية لا مـزح فيها ، هذا يجيء من بلاد بعيدة ، ولا يوجد في بلادنا منه !! » سكـت غضبـا عني ، وفي ودي ان اعرف الحشيش هذا ؟ والفلفـل ؟ ومن هم المهربون هؤلاء ؟ وكيف تصل البضاعة اليهم ؟ ولماذا يتسلحون ؟ وكيف يدخلون الى اسرائيـل ؟ والاهم من الكل ، لـماذا علي الخطيب يقول لي « هص » وكأنـي أسألـه فـي السياسه ٠



تابعنا سيرنا ٠٠ تجاوزنا قبر جدي دون أن أعرف ٠٠ قلت « ليكن ، سأقـرأ عليه الفاتحة وانا عائد » ٠

وقفت القافلة في واد تحوطه السدود من كل النواحي ٠٠ نزل الخطار عـن دوابهم وربطوها الى جوانـب الصخـور وفي المغر ٠٠ وتفرقـوا علـى جوانب الوادي ٠٠ فرشوا اكياس الخيش واستلقوا عليها ٠

استلقيت انا وعلي واحدنا الى جوار الاخر ، قلت له « الى متى نظل هنا ؟!» قال « حتى مساء الغد الى ان ننزل الى البحر » ٠

قام بعض الخطار يغلون الشاي ، هم علي بالنهوض ، حلفت عليه ان لا يقوم قمت جمعت قليلا من الحطب ، اشعلت النار ووضعت ابريق الشاي عليها ٠٠ قلت لعلي « البحر بعيد من هنا ! » قال « مسيرة عشر دقائق يا عم » انهيـت الشاي ، جلسنا نشربه ٠٠٠ البغال جننتنا ، وهي تضرب قوائمهـا بالارض و « تشخط » من انوافها ، تريد ان تقطع الاربطة ٠٠ سألت « عليا » « ما لها ؟! » قال « خائفة من الجمال؟!» « لماذا الحمير لا تخاف ؟ » « الحمير تربطها صداقة قديمة بالجمال ، بعكس البغال يا عمي » « ولماذا البغال محرومة من هـذه الصداقة ؟! » قال « لا اعرف ، انما البغل يحس ان الجمل هو الوحيد بيـن الدواب الذي لا تربطه به قرابة » « كيف ؟ » « أبوه حمار وامه فرس وخالـه حصان يا عمي ، لم يبق الا الجمل ، لا يمت اليه بقرابة ، من هنا صار العداء بينه وبين الجمل !! » « اذن البغلة ليست ام البغل ؟! » « كلا يا عمي البغلـة

لا تنجب ! » « كيف يشب الحمار على الفرس وتلد بغلا ؟! » « تلد يا عمي ، الا تسمعهم عندما يشتمون احدا ويقولون له « يا بغل يا ابن الحمار » ٠

سمعنا هرجا ومرجا يقدم من بعيد ٠٠٠ تبين انهم خطار « العبيدية » وجدونا نحتل المكان ٠٠ ذهبوا الى واد ثان ٠٠٠ بعد قليل وصلت قوافل « التعامـرة » اخبرناهم ان « العبيدية » مروا قدامهم ٠٠ ذهبوا يبحثون عن واد آخر ٠٠ قلت لعلي « ايوجد ملح في البحر يكفي لكل هؤلاء الناس ؟! » قال « يوجد ملح كثير يا عمي » ٠

خطرت لي اسئلة كثيرة ٠٠ لكن « عليا » قال « الآن نريد ان ننام يا عمـي ، غدا ، سأخبرك قبل ان ننزل الى البحر » ٠

لم تغمض لي عين ٠٠ مكثت طوال الليل ارقب القمر والنجوم ، والجبـال المحيطة بنا ، واستمع الى صرير الصراصير وعواء الذئاب و «فغير» الثعالب ٠

فوجئت بطلوع النهار ٠٠ قمت ، صعدت سفح الجبل ، اشرفت على البحر ، جلست على حجر وصرت اتفحصه ٠٠ ظللت الى ان طلعت الشمس ٠٠

كنت اسمع ان المياه في الاماكن التي فيها ملح ، ليست عميقة ، لكننـي احسست ، وانا انظر الى البحر ، أنه كله عميق ، وان الذي لا يعرف السباحة سيغرق ، مع انني سمعت ان مياه هذا البحر لا يغرق فيها المرء دون باقـي البحور ٠٠٠ حاولت اقنع نفسي بهذا ، لكنني لم استطع ، وشعرت ان البحـر ارهب بكثير من الصورة التي كنت اتخيلها عنه ٠٠ وبدأت اخاف ، ولاول مرة فكرت في كلام امي وخوفها وحزنهـا ٠

ـ ٤ ـ

قمت من النوم ٠٠ نظرت حولي ، لم اشاهد حسن ٠٠ ناديت « يا حسن » لم يرد احد ٠٠ ناديب مرة اخرى بصوت اعلى ٠٠ رد علي من فوق الجبل « ماذا تفعل عندك ؟ » انظر الى ألبحر » «ابق مكانك وسأجيء اليك » اطلقت الدواب لترعى ٠٠ حملت صرة طعامي وطعام حسن وابريق الشاي وقربة الماء ،وصعدت اليـه ٠

انتشر الخطار في الوادي وعلى التلال المشرفة على البحر ، واطلقوا دوابهم ترعى بين الاودية ٠٠ وصاروا يشعلون النار ، ليغلوا الشاي ٠٠ وعلى التـلال المقابلة لنا ، انتشر « العبيدية » و « والتعامرة » سألني حسـن « ألا تجـيء الداوريات في النهار يا علي ؟! » « لا يا عمي » « لماذا ؟! » « لانهم يعرفـون ان الخطار لا ينزلون الى البحر في النهار » « اذن ، دعنا ننزل !! » قلت له « الله

يرضى عليك يا عمي ، الف واحد سيشاهدوننا ويبلغون الحكومة » ٠

اشعلنا النار ٠٠ صعد الدخان من عندنا ومن الوادي ومن السفوح والتلال، التي صعد اليها « العبيدية » و « التعامرة » ولم نسمع الا واحد « العبيدية » يصرخ الينا من الجبل المقابل « يا ناس يحرق امكم في عزا أبوكم !! » كلكم أشعلتم النار في آن واحد ، حتى تكشفونا وتخربوا بيوتنا ، الم تعرفوا ان تشعلوا النار في الوادي ، وتغلوا الشاي وتصعدوا تزدردوه فوق ؟ » رد عليه واحد من جماعتنا « هو انت صبحت فاتح عقيرتك علينا في هذا الصباح لماذا ؟! هم الذين سيشاهدوننا ، سيعرفون اننا خطار ؟! » رد العبيدي عليه « لا ، سيعتقدون انك سائح يا ابا القمل !! » « قمل في بيت ابيك يا جيفة يا ابن الجيفة !! » « انا جيفة يا ابن عشيرة جائفة ، والله الان اجيء اليك ، ادحرجك من فوق هذا الجبل !! » « والله لاحرقن اضلاع الذي خلفك ، ابق عندك لنرى من الذي يدحرج الآخر ، باطل ! والا ما تكون ولدتني سحورية !!! » وانحدر يجري مع الجبل وهو يقول « باطل ، اين انتم يا سواحرة ، العبيدي النذل يسب على عشيرتنا ؟!! » ثارت نخوة رجالنا فانفضوا من اماكنهم ٠٠ قال حسن « ماذا نفعل يا علي ؟ » قلت له « ابق جالسا يا عمي » قمت ، ركضت خلف رجلنا ، لحقته ، امسكته وامسكت رجلا كان يندفع وراءه أيضا ، وحلفت على باقي الرجال ان يختصروا الشر ٠٠ قالوا « هو الذي بدأ يسب علينا » قلت « العبيدية جماعة طيبون وحقنا لن يضيع عندهم ٠٠ حاولوا الافلات مني فلم يستطيعوا ٠

وصل بعض العاقلين من جماعتنا ، وحجزوا « الهواشين » !! ورأيت رجلا من العبيدية ، يسبق كل الرجال الذين كانوا يركضون خلف العبيدي الذي دبت فيه الرجولة ونزل يجري ناحيتنا ٠٠ صرخ به « هيه يا ابن البغل الى أين تكر على السواحرة لوحدك ؟! » الآن دبت فيك الرجولة يا نذل ؟! قف والا والله اتيت بخبرك !! » توقف العبيدي في مكانه ، لحقه الرجل الثاني ، صفعه كفين وجعله يرجع مع باقي « العبيدية » ٠

رجع رجالنا بدورهم ٠٠ جاءنا ثلاثة رجال من العبيدية قالوا لنا « حقكم علينا يا سواحرة والذي تريدونه نحن نفعله » تشاورنا فيما بيننا ، واتفقنا ان نسامح العبيدية لانهم جاءوا مذعنين ٠٠ جئت ، حفرت حفرة ، وضعت فيها حصوة ، قلت للعبيدية « والله لو أنكم قتلتم رجلا منا ، وجئتم لعندنا ، لسامحناكم به !! هذا علينا يا جماعة !! » ودفنت الحصوة بقليل من التراب ، ووضعنا على كل هذه القضية حفرة وحصوة !!! واعتبرناها وكأنها لم تحدث ٠٠ خجلنا العبيدية، قاموا ، جاءوا برجلهم وجعلوه يقبل رؤوسنا كلنا ، لانه شتم العشيرة ، وشربنا الشاي معا ، واتفقنا ان لا نشعل النار مقابل البحر ، وان لا نتجمع حتى لا نلفت انتباه احد ، وان لا ندع الدواب تخرج من الاودية ٠

ارتفعت الشمس قليلا ٠٠ قال حسن « الا نعود لنجلس مقابل البحر ؟ » فكرت للحظة ٠٠ « والله يا عمي ان القعدة فوق لا تفوت ، يا الله ، لنصعد قبل أن تحمى الشمس ٠٠ صعدنا ٠٠ جاءت الى الشاطىء سيارات وباصات سياح ٠٠ نزلوا من السيارات ، رجالا ونساء ، تعروا ونزلوا الى البحر ٠٠ قال حسن « دعنا ننزل ونتفرج عليهم !! » قلت له « ممنوع يا عمي ، تطردنا الشرطة السياحية !! » « لماذا ؟ » « لان معهم حريما عاريات !! » ولا اعرف لماذا قال حسن « أنا ارى ان كل شيء ممنوع علينا الا التعب والشقاء !! » قلت له « تهون يا عمي يا حسن تهون !! » سكت وسرح بعينيه الى البحر ٠٠ سرحت انا ايضا نظرت الى الملاحات ٠٠ فكرت « مسكين هذا الولد ، كم تعبت امه حتى انتشلته هو واخوته من الموت ، والآن خائفة عليه ، يحق لها والله يحق لها ، وانا احس انه حمل على ظهري ولن ارتاح الا بعد ان أعيده اليها سالما ، الله يسامحها ، ما وجدت واحدا ترسله معه غيري ؟! »

فكرت في الامر كثيرا ، خفت ان تكون المياه عميقة في الملاحات ، فيغرق الولد ٠٠ قلت « افضل شيء ان لا ادعه ينزل الى البحر ، واذا ساعدني الخطار كلهم ، لن يصيب الواحد الا حفنة ملح ، نملأ هذين الكيسين اللذين معه ، ونحملهما على الحمارين ونعود ، المهم ان لا ادعه ينزل الى الماء ولو ملأت الكيسين وحدي » ٠

تطلعت اليه ، شاهدته سارحا يفكر ٠٠ « حسن ! » « نعم » « البحر صعب على من لم يعتد عليه يا عمي ، وأنت صغير وهذه اول مرة تخطر على الملح ، ابق عند الحمير يا عمي ونحن نملأ اكياسك » نظر الي « أنت خائف علي يا علي ؟! » « والله يا عمي ان اردت الصدق اني خائف ، ولا تنس ان امك اوصتني عليك ، ولا يهون علي ان يحدث لك شيء لا سمح الله » سكت قليلا ، رنا الى البحر وهو واجم ، ضم شفتيه ، عض على السفلى ، وكسر عودا صغيرا كان في يده ٠٠ نظر الي نظرة واثقة : « استمع يا علي !! » « انا مصغ اليك يا حسن » « الحقيقة انني ما كنت خائفا من البحر ، لكن ، عندما شاهدته وتذكرت خوف امي ، خفت ، وخوفك الآن جعلني احس بالخوف اكثر ، لكنني سأنزل في الماء واملأ أكياسي بيدي ، ولا اقبل ان تملأوها عني ، وليكن ما يكون !! » « لماذا هذا الاصرار يا حسن ؟ » « لانها ليست المرة الوحيدة يا علي ، ممكن ان يساعدني الخطار هذه الخطرة ، وخطرة اخرى ، لكن ليس من المعقول ان يحتملوني كل الخطرات ، ويظلوا يساعدونني ، لا بد من نزولي الى الملاحات يا علي ، حتى اعرف دروبها ومخاطرها ومتاهاتها ٠٠٠ » نظرت اليه لبرهة ٠٠ « كلامه صحيح » مددت يدي ، ربت على ظهره ٠٠ قلت له « لا تهتم يا حسن ، اتكل على الله يا عمي ، وان شاء الله لن يصير الا الخير » ٠

قعدنا حوالي الساعتين ، نزلنا الى الوادي ، تغدينا ووضعنا رؤوسنا ونمنا٠

قمنا في المساء · تعشينا · سقنا الحمير امامنا وربطناها عند باب الوادي بين التلال ، حتى لا تراها الداورية اذا جاءت ·· نزعنا ملابسنا كلها وتركناها عند الحمير ·· اخرجنا الصفائح من المخبأ ، أعطيت حسن صفيحة ، قلت له « هذه صفيحة مثقبة من تحت لتخرج فيها الملـح يا عمـي ·· » حملنـا الأكياس ومشينـــا ·

وصلنا الملاحات ·· وجدنا « العبيدية » و « التعامرة » قد سبقونا واحتلـوا رأس البحر كله ·· قلت « يا رب اجعل هذه الليلة تمضي على خير ، ولا تجعل العشائر تتقاتل على الملح فيها !! »

نزلنا الى الماء ، اختلط الناس ، الواحد بالآخر ، قلت لحسن « ابق واقفـــا يا عمي ، ريثما ابحث لك عن ملاحة قليلة الماء ·· رحت يمينا ، رحت شمالا ، توجد ملاحات لم أعرف ان اقطعها الا سباحة ·· بحثت علني اجد ملاحة تبخر من مائها كثير ، وصلت الى مصب الشريعة (١) ، فما وجدت ·· رجعت الى حيث حسن « والله لا يوجد يا عمي » انحنيت في الماء ، مددت يدي تحت ، تحسست الملح ، وجدته قليلا ، اخرجت بيدي بعضه ، قربته من عيني ، تاكدت انــه ليس نظيفا ايضا ·· أخذت حسن لملاحة اخرى ·· وضعنا الاكياس الى جانبها ونزلنا قلت له « ابق الى جانب الملاحة يا عمي ، اياك ان تتعمق لمنتصفها ، المياه عميقة» أمسكت بيده ، قدته حتى بلغ الماء حزامه ، قلت له « اياك ان تغوص اكثر مـــن هنا ؟ » انحنيت تحت الماء ، غرفت بالتنكة شيئا من الملح وخرجت ، اعطيته اياها ·· ذهب ، افرغها في الكيس وعاد ·· قلت له « عندما تنزل تحت الماء اغمـض عينيك ، واياك ان تتنفس هه ! » ومن خوفي عليه اعدته الى جانب الملاحة ،حتى لا ينزل رأسه تحت الماء عندما ينحني : « لكن الملح قليل » « لا بأس يا عمـــي سأساعدك بعد ما املأ اكياسي ، افهمت ؟! » قال « فهمت ، انما سأتقدم قليلاً !!» « لكن اياك ان تتجاوز المكان الذي قدتك اليه ؟! واياك ان تذهب يمينا او شمالا اذ توجد اماكن عميقة في الماء ، واذا دخلت مياه الملح في عينيك لن تقـدر ان تفتحهما ، واذا شرقت بها تصير لا تعرف « الطيط من الغيصلان » (٢) !! وقد تموت هه ؟! دير بالك يا عمي «الله يرضى عليك » قال « ولا يهمك ! » وقبل ان ابتعد عنه قلت له اهم شيء قلت « اذا جاءت داورية الشرطة وانت في الماء ، لا ترتبك يا عمي ، توقف وضع اصبعيك «السبابة والابهام » على انفك ، وعندمـا ترى ضوء الكشاف يتجه الى ناحيتك اغطس تحت الماء ـ اياك تنسى ان تغلـــق انفك ـ لحظة ويكون ضوء الكشاف قد ابتعد عنك ، تطلع ، اياك ان تتنفس تحت الماء هه !!··· وكيسك تتركه ممددا الى جانب الملاحة ، لا توقفه ، وعندما يصير

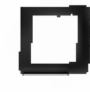
---

(١) نهر الاردن ·

(٢) نباتات برية ·

فيه قليلا من الملح ، اذهب وافرغه في الكيس الذي عند الحمير ، ثم عد بسرعة ، واذا جاءت الداورية وانت في الطريق ، تمدد على الارض او اكمن بجانب شجرة او اي شيء، افهمت ؟! قال « فهمت ولا يكن لك فكر » ٠

أبتعدت عنه قليلا ٠٠ بحثت علني اجد مكانا فيه ملح نظيف ٠٠ غطست تحت الماء ٠٠ تحسست القاع ٠٠ الملح قليل ٠٠ وجدت ضرسا صغيرا ، حملته وطلعت ٠٠ مسحت الماء عن رأسي ووجهي وعصرت شعري الى الوراء لكي لا ينزل الماء في عيني عندما أفتحهما ٠٠ « ايه لن نملأ الاكياس حتى الصباح على هذا المعدل ، ليت هذا البحر قريب من بلدنا لسرقنا المياه وجعلناها تجف عن الملح وما تعذبنا هذا العذاب » ٠



ملأت حوالي ربع الكيس ٠٠ حملته ، ارسلته الى عند الحمير ورجعت ٠٠ قلت ، اروح ناحية حسن اطمئن عليه ٠٠ وجدته متوغلا في الماء ، وقد جمع قليلا من الملح : « يعطيك العافية يا حسن » « الله يزيدك عافية » « كيف الشغل معك ؟ » « مليح لو لم يدخل الماء في عيني لملأت اكثر » « استرح قليلا يا عمي » « لا بأس سأغمض كل عين مرة وارى بالثانية » « الم اقل لك ان تبقى الى جانب الملاحة يا عمي الله يرضى عليك ؟ » « الملح قليل جدا في الجانب يا علي ، لم اجمع شيئا » « انتبه يا عمي » « توكل على الله » تركته ورجعت الى مكاني ٠

نظرت من حولي علني ارى الملاحين ، لم اشاهد احدا في هذا الظلام ، الناس متفرقون في الملاحات ، انما احسست بحركة بعضهم في الملاحة التي انا وحسن فيها ٠

غطست تحت الماء ، ملأت شيئا من الملح في التنكة وطلعت ، مسحت رأسي من الماء وفتحت عيني ، ما رأيت الا ضوء الكشاف وقد سلط على المنطقة من مسافة تقل عن الكيلو متر واخذ يمشطها من الشمال الى الجنوب ٠٠ لم أتمكن من النظر الى حسن لان الضوء جاء الى ناحيتي ، وضعت اصبعي فوق انفي وغطست تحت الماء ، اطلعت نصف رأسي بعد أقل من دقيقة ٠٠ شاهدت الضوء على منطقة حسن ٠٠ تأكدت انه غاطس تحت الماء ٠٠ قلت « يا ربي ابعد هذا الضوء عن منطقته واحفظه وارعاه بجاهك وجاه هذا الليل الميمون !! » ابتعد الضوء ناحية الجنوب ٠٠ مشيت ناحية حسن لاطمئن عليه ، لكن ضوء الكشاف رجع بسرعة ٠٠٠ همست « يا حسن » قال « نعم » « لا تخف يا عمي الآن « ينقلع !! » وداهمني ضوء الكشاف ولم اكمل ٠٠ غطست لحظة وطلعت؛ ٠ رأيت ضوء الكشاف يتجه ناحية الشمال وقد تجاوزنا ٠٠ قلت له الآن « ينقلعون » !! يا عمي ، اصمد قليلا وخذ حذرك هه !! » ولم اسمع ماذا قال

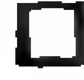
لان الضوء داهمني من جديد ٠٠ غطست « طلعت » ٠٠ ابتعد الضوء ٠٠ قلت « سمعت يا حسن ؟ » قال « سمعت ، لكن الماء دخل عيني ولا استطيع ان افتحهما نهائيا ، كيف سارى الضوء عندما يجيء الى ناحيتي ؟!! » قلت « امسح عينيك وتحمل يا عمي !!» وسمعت الناس يهمسون لنا « بدون كلام انت وهو ، تريدان ان توقعانا في داهية ؟! »

سرت ناحيته ، لكن الضوء داهمني ، قلت « اغطس يا حسن » غطس وغطست من بعده وحاولت ان اسبح الى ناحيته ٠٠٠ طلعت بعد لحظة صغيرة ٠ ٠قلت « اطلع يا حسن !! » لكنه لم يطلع ، تذكرت انه تحت الماء لا يسمع صوتي ٠٠ سبحت الى ناحيته ، رجع الكشاف ، غطست ٠٠ طلعت ، لم يطلع حسن « يا الهي صار له حوالي دقيقتين تحت الماء ! » شاهدته يطلع ٠٠ صرخت له « أنا قادم اليك يا حسن لا تخف يا عمي ؟! » قال « الحقني يا علي سأموت !! » قلت « أنا اموت عنك يا حسن ، روحي فداك يا عمي » سبحت ناحيته ٠٠ « يا رب توقف هذا الضوء قليلا لكي اصله ، حتى اغطسه واطلعه معي !! » رجع ضوء « البين » علينا ٠٠ صرخت له « اغطس » وغطست ٠٠ « يا ملعون ابو الذي انت ضوءه من أين جئت ؟! » طلعت من تحت الماء وعيناي على حسن ٠٠ لم يطلع ، رجع ضوء الكشاف ، طلع حسن ، ما كاد يتنفس يا ويلاه ، قلت له « اغطس » وغطست « يا رب امتني انا واعد هذا الولد سالما لامه » طلعت ٠٠ طلع حسن ٠٠ رجع الكشاف : « اغطس » وغطست ٠٠ طلعت ٠٠ لم يطلع حسن ٠٠ رجع الضوء مرتين وغطست وطلعت وهو تحت الماء » طلع فيما بعد وشاهدته يخابط بيديه ٠٠ استنجدت بكل الانبياء والمرسلين ٠٠ صار الضوء يروح ويجيء بسرعة مخيفة ٠٠ صرت اغطس واطلع وعقلي مع حسن ، وعلقت كلمة « اغطس » بلساني ، فما الحق ان اطلع واتنفس الا والضوء راجع، أقول لحسن « اغطس » وعلى الرغم من انني كنت اعرف انه لا يسمعني تحت الماء ، كنت اقول « اطلع » ، وظللت اتمنى من الله ان يفدي هذا الولد بروحي ويعيده سالما لامه ٠

ـ ٥ ـ

ها هو اول القوافل يقترب من سفوح جبل المنطار ، واطفال عائشة العلان يهرعون من البيت ٠٠ يتحلقون حول امهم ويرقبون القوافل من على قمة الجبل٠٠ يسألونها : « الم يأت اخونا يا امنا ؟! » فتقول « ان شاء الله يأتي بالسلامة يا اولادي » وتضع جزة الصوف والمغزل في خريطة الخيش وتنهض ٠٠ تحمل الخريطة على ظهرها ٠٠ تقود ابنتها الصغرى « ندى » من يدها وتأخذ في نزول الجبل يتبعها « محمد » و « وطفا » ٠٠ تطلق بصرها جاهدة لتتأكد من

هوية القافلة ، لا تستطيع .. تسير بخطوات حثيثة ... تقترب من القافلة .. تنغرس شوكة في احدى قدمي البنت العاريتين ، تتألم وتفلت يدها من يد امها وتجلس لتقلع الشوكة .



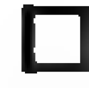
دواب منهكة تسير مثقلة بأكياس الملح ، العرق ينضح من اجسادها ، واللهاث يخرج صفيرا من انوفها ، والرجال يسيرون خلفها بخطوات متعبة ، وقد خارت قواهم ، والتصقت ملابسهم بأجسادهم من جراء العـــرق المتصبب ، وتقصفت شفاههم الجافة ، وارتسمت على وجوههم مسحات من الكآبة المفجعة ، وتورمت عيونهم وانتفخت من جراء مياه الملح ، تتعثر اقدامهم بين الفينة والاخرى ، وهم يداورون الم الحرقة الذي تحدثه مياه الملح في اجسادهم ، فقد تسلخ ما بيــن افخاذهم ، فأخذوا يسيرون وقد باعـــدوا ما بين ارجلهم ليتلافوا احتكـــاك افخاذهـــم .

تمر « عائشة العلان » من جانبهم . لا ينظرون اليها .. تتأمل الدواب المنهكة تحت الاكياس .. تسأل احدهم « الم تروا خطار السواحرة يا اخي ؟! » يشير الرجل بيده الى الوراء ويقول « مع الناس الذين وراءنا يا خالة » ويتابع سيره المتهالك خلف الحمار .

تتجاوز « عائشة » عشرات الحمير والبغال ، تمر عنها مجموعة اخرى ، ترى ثلاثة رجال يسيرون خلف احد الحمير .. تقترب منهم ، تتسمر عيناها علـــى جثة رجل مربطة بالحبال وقد تدلت قدماه ورأسه على جانبي الحمار ، تهـرع اليهم : « البقية في اعماركم يا اخي !! » يجيب احدهم بكلمات يثقلها الحزن : وعمرك يا خالة » « خير ان شاء الله ؟! » « جاءت الينا الداورية ونحن فـــي الماء ، شرق ومات ، الله يكون في عون امه ، ليس لها غيره !! » « يا حسرتي عليها !! » رددت ذلك وهي تهمد على الارض وتجلس في مكانها مذعورة ، هرع الرجل اليها « ما بك يا خالة ؟! » « ولدي يا ولدي ؟ » « ولدك مع الخطار ؟ » « اي يا بني !! » « مع اي خطار ؟ » « مع خطار السواحرة يا بني » « توكلي على الله يا خالة ، ما مات منهم الا واحد حسب ما سمعت ! » احست بقلبهـا يتقطع ، وجاهدت وهي تقول « الا تعرف كم عمره يا بني ؟ » « والله لا أعرف يا خالة » وانصرف الرجل خلف الرجال .

مكثت جالسة في مكانها لا تقوى على النهوض .. خاطبت الاولاد « ارجعوا الى البيت يا امي !! الله يرضى عليكم ، اخوكم قد يتأخر ، والدجاج بحاجة الى مـاء وعلف ، روحوا ضعوا لهـا ، والصيصان ، اخـــاف ان تخر العقبـــان

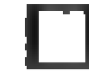
والصقور عليها وتخطفها ، ارجعوا يا امي ارجعوا ٠٠ » ورجعت البنتان والولد تحت الحاحها ٠



الخطار يمرون ٠٠٠ مر كل خطار « العبيدية » ، وها هم خطار التعامرة يطلون من سفح تلة ٠٠ تجاهد لتنهض على قدميها لكنها لا تستطيع ٠٠

مر حماران يتبعهما رجل ، ومر ثلاثة يتبعها ثان ومر اثنان يتبعهما آخر ٠٠ ويمر الخطار بدوابهم المثقلة المنهكة وهي تجلس خائرة القوى ٠٠٠

ها هي جثة اخرى يتبعها اربعة رجال تطل ٠٠٠ يمرون عنها ويبتعدون ٠٠ « اين قافلة البلد ؟ » لماذا لم تأت حتى الآن ؟ هل ستشاهد عيون حسن ؟ » لن تدعه للملح ثانية ، ولو سيأتيها ببحر الملح كله ، والشيخ علي ، الله يدهاه في ماله وعياله ، فهو سبب كل هذا الشقاء !! » نظرت فيما حولها ٠٠ شاهدت القوافل تصعد جبل المنطار وتتوارى خلفه ٠٠ حدقت لتشاهد اولادها ، لكنها لم تشاهدهم ٠٠ شردت : « طارت بجناحين من اقحوان !! قطعت التلال والاودية ، بلغت قافلة الخطار ، حلقت فوقها ، شاهدت حسن يسير خلف الحمارين والعرق ينضح من جبينه ، ضمته ، قبلته ، احتضنته سقته ماء باردا ، حملته وطارت به» ٠



ها هي قافلة البلد تطل ٠٠ تنفرد اسارير وجهها ٠٠ تجاهد لكي تنهض ، تنهض ، تسير ، تستقبل القافلة ٠

« هذا « احمد السلمي » خلف حماريه يدنو منها ٠٠ ينظر اليها متمعنا ثم يطأطيء رأسه الى الارض ويسير خلف الحمارين ٠٠ يتجاوزها دون ان ينظر اليها او يرد التحية ٠٠ تنده له « ابني يا احمد ، ما رأيت ابني ؟! » يشير بيده الى الوراء دون ان يلتفت نحوها ٠

تحس ان قواها عادت تخونها ، فها هم خطار البلد يمرون عنها ويتجاهلونها ولا يجيبون على تساؤلاتها او يشيرون بأيديهم الى الوراء ٠٠ تتهاوى متهالكة في مكانها ٠

اهل « علي الخطيب » من سفح التلة ٠٠ نظر ، شاهدها تجلس على قارعة الطريق ، لم يخطر له انها قد لا تكون هي ، لقد جاءت اللحظة التي حسب حسابها الف مرة ومرة ٠٠ « ماذا يقول لها بحق كل الانبياء ؟! هل يقول ان ضوء الكشاف حاصرهم لمدة تقارب الساعتين وان معظم الخطار قد شرقوا

بالماء ولم يسلموا الا لانهم اعتادوا هذه المياه اللعينة ، وانه عمل كل ما فـــي وسعه لينقذ حسن ، بل وتمنى ان يموت هو بدلا منه ؟! »

احس ان الموت اهون عليه من مواجهتها ، توقف ، فتوقف « حسين الرشود »! الى جانبه ، وتوقف الحمار الذي يقل جثة حسن امامهما ، ولم يعرفا مـــاذا يفعلان .

حدقت « عائشة العلان » باتجاههما ، ارتابت من وقفتهما ، ايقنت ان احدهما لا بد وان يكون علي الخطيب وإلا لما توقفا .. نهضت واقفـــة على ساقيهـــا الخائرتين .. هرعت نحوهما .. أحست بأن رجليها لن تبلغا بـــها المكان .. اقتربت منهما .. شاهدت الجثة على الحمار ، حدقت تتأملها ... خارت قواها اكثر من جديد ، جاهدت ، حنت ظهرها واستمرت في هروعها ، اقبلت علـــى الجثة ، تأملت القدمين البارزتين من تحت الكيس والمدلاتين على جانب الحمار « انهما قدما حسن » تعثرت خطاها .. سقطت ، حبت على اربع ... اقتربت ، مدت يديها ، تشبثت بقدمي حسن ، ضمتهما وسقطت متهالكة عليهما وهي تردد « الشيخ علي و « عدوينك » !! يموتون عنك يا ولدي » وخرت مغشيا عليها .

فيصل دراج

البهلول
الايديولوجيا الادبية والايديولوجيا المباشرة

يقدم توفيق فياض في مجموعته القصصية « البهلول » ثلاث صور فلسطينية : « الشيخ لافي الملك » . « أبو جابر الخليلي » ، و « البهلول » · ثلاث صور تؤلف وحدة في مادتها القصصية وفي الشكل الفني الذي تأخذه هذه المادة · تستعيد هـذه « القصص » ماضي الشعب الفلسطيني من حيث هو ماضي صراع ومواجهة ، وتتناول حاضره كامتداد لذلك الماضي واستمرار له ، وتعيد بناء هذه الحركة التاريخية فنيا ، فيتجلى الحاضر في الماضي وتتواشج لحظة الحاضر بلحظة الماضي حتى يقف « الزمن الفلسطيني » أمامنا وحدة حركية تنزع الى التحقق · يبدأ « توفيق فياض » انطلاقه من محرق اللحظة السياسية فلا يضيع في الهوامش ، يرسم عالما هو عالمه ، فيدخل الزوايا الحميمة ويصل الى التفاصيل الحقيقية دون ان يتيه في أرجاء العوالم الهجينة · يقف كاتبنا داخل « الدائرة الفلسطينية» ، يعيش ابعادها ، ويستلهم انتصاراتها وانكساراتها · يحكي عن مكان هو مكانه ويقص زمنا هو زمانه · وتتداخل الازمنة والامكنة حتى تستحيل الى لحظة وعي كثيفة يقف فيها الكاتب ذاكرة لشعبه او ذاكرة لذاكرة ، ذاكرة فردية لذاكرة جماعية ·

الشيخ لافي : بطل بلا بداية وبلا نهاية

في « الشيخ لافي » يعود الكاتب الى الماضي والجذور · يستلهم عبق التاريخ ويسترجع ما مضى · يبحث عن البداية في النهاية او يبحث عن النهاية في البداية او البدايات · واذا كانت « النهاية » ماثلة أمام العين وحاضرة في مجال الرؤيا فان البداية او البدايات تقف بعيدة وراء غيوم الذاكرة وكثافة الحكايات · والبداية هي القرية والبدايات هي حركة شعب مستمرة للحفاظ على هويته الوطنية والانسانية · وفي استرجاع البداية يتحرك الحاضر صاحيا ، ويمتزج بما مضى بما هو آت ، ويستحيل الزمان الى فيض والحكاية الى أمثولة : الحاضر هو كل الازمنة ، والقرية هي كل الامكنة ، و « الشيخ لافي » يكثف حركة شعب بأسره ·

حركة « الشيخ لافي » هي حركة جموع الفلاحين التي تعبر عن المنحى العام لحركة شعب نضال جموع البسطاء التي تقاتل من أجل الوطن ، ومن أجل الوطن فقط · تدور حياة « الشيخ » في قرية « البارد » ، عمرها هي عمر الشيخ أي نضاله : « عُمره كان من عمر أقدم بيت في القرية ــ ص ــ ٨ » · وبعد تحديد المكان يتحدد أمامنا « البطل » :

« الشيخ لافي » هو التجسيد المادي لشعب والمعادل الفني الذي تصوغه ذاكرة قروية بل يمكن ان نقول انه الكيان التاريخي الذي تبنيه ذاكرة جماعية · ذاكرة تبني الكيان وتتعرف على نفسها فيه · ذاكرة تحكي عن « الشيخ » وتحكي عن ذاتها ، انها فيه وهو فيها : النضال مساهمة جماعية / « والبطل » معادل فني تبنيه ذاكرة جماعية :

ــ « غير ان الرأي السائد في القرية ، وهو رأي الدراويش ··· ، يؤكد أن ليس جد الامام الملك هو الذي بناه » ص ٩ ·

ــ ولكي يعرف احدكم كان عمر الملك حين اختفى ، فلا بد وان يستمع الى العديد من الروايات » ص ٧ ·

ــ « أما لماذا لقب لافي الحمد ، بالشيخ ، ومن ثم بالملك ، فهي الرواية الوحيدة التي لا تختلف الروايات فيها » ص ١٠ ·

ــ « ويروى الشيخ محمود الحمد عن أبيه الشيخ المبروك احمد الحمد ، ان الشيخ لافي اصبح » ص ١٢ ·

يتتابع الحدث امامنا ابدا محمولا على الذاكرة الجمعية التي تستعيد الماضي عبر منطقها الخاص كي تمنحه دلالته وتربطه بالحاضر · يتكلم الرواة ، اذن ، فتتجمع « الحكايات » وتتقاطع ، ثم تجري لتصب معا في نهر ــ ذاكرة · والنهر ــ الذاكرة هو البطل في التاريخ · ذاكرة قروية تتحدث عن نفسها ، تعيد بناء ذاتها اعتمادا على ايديولوجيتها الخاصة ، فيتعانق الواقع والخيال ، الحقيقي والوهمي · فما هي هذه الايديولوجيا ؟·

المكان هو قرية ، والذوات فلاحون · وفي عالم القرية المغلق لا يتحرك كفكر الا الفكر الديني ، ولا يحكم العقول الا منطق التعالي والميثولوجيا والخارق · لذلك تتحرك القرية أمامنا محكومة بأقمطة دينية كاملة الحضور :

ــ « الدراويش الذين لا يزالون ينصبون حلقات الذكر كل ليلة جمعة » ص ٩ ·

ــ « ارتفعت دقات الطبول والصنوج من مقام سيدي الشيخ حامد » ص ٣٢ ·

ــ « راح الدراويش يدورون بحلقات ··· ، وهم لا يزالون يضربون الطبول والصنوج ويلوحون بالاعلام » ص ٣٣ ·

الذاكرة التي تروي الحدث ، تبدأ اذن من أيديولوجيا دينية ، لذلك فان تشكل الحدث لا بد من أن يتلون بهذه الايديولوجيا ويأخذ منطقها · وعندما ترسم الايديولوجيا الدينية كيانا ، ترسم وفقا لمنطقها ، أي بلا تناقض ، فيتقدم الكيان منسقا، كاملا، مستقيم الحركة، لا يعرف التطور لانه معطى دفعة واحدة · بمعنى آخر · ان الذاكرة الدينية لا ترسم الا بطلا ملحميا منفتحا على الزمان والمكان ، لا يعتوره نقص أو شذوذ ، انه كمال الوجود والوجود الكامل · بدء بلا حدود ونهاية لا تعرف النهاية · لذلك يصبح « الشيخ لافي »

أسطورة أو « ملاكا » • يتحرك بخصائص فوق ـ انسانية ، ويـــدور في حقل خاص لا يستطيع الانسان العادي الوصول اليه • لنر ما هي سمات « الشيخ » :

ـ « أصبح الشيخ لافي كلما أتى على ذكر السيدة خديجة يصمت ، ثم يغيب وعينـــاه تلمعان صبابة ، وكأنه يقص حكاية تناسخت معه منذ الازل » ص ١٢ •

ـ « عيناه لا تزالان معلقتين في البعيد وكأنه كان يتلقىما ينشده من وحي ينزل عليه » ص ١٣ •

ـ « كان يصغي لصوت بعيد يناديه من أعماق مغارة سويد فيءقمة الجبل » ص ١٥ •

ـ « انه لم يسمع الشيخ لافي يتأوه ولو لمرة واحدة » ص ٢٧ •

ـ « استدار بفرسه واندفع بها نحو مغارة سويد ، وعباءته تخفق كالبيرق مع الريحـة خلفـه » ص ٣٤ •

ـ « واختلفت الروايات في قرية البارد بعد ذلك اليوم ، حول اختفاء الشيخ لافي الملك » ص ٤٢ •

« الشيخ لافي » يحايث ، اذن ، الحركة التاريخية ، يختفي ويعود ، يتوارى ليرجع من جديد • فهو حاضر ابدا : « ان الشيخ لافي الملك ، لا يزال يحارب الباشوات والانجليـز واليهود في الجبال ، ولا بد أن يعود يوما بعد أن يهزم الاعداء وينتصر » ص ٨ ، يتداخل مع الحركة التاريخية كروح مطلقة مرتبطة بالمطلـــق ، ويدور في فضـــاء « الازل » ، و « البعيد » ، « الوحي » ، و « الاعماق » ••• صوفية كاملة دائمة التجدد ، تعبر عن ذاتهـا في حركاتها ، وفي مسارها المنتصر على الصعاب أبدا ، وفي حبها لـ « خديجـة » الذي ينطق بـ « الاشراق » ، و « الصبوة » ، و « التجلي » •

وهكذا فان توفيق فياض ينجح في رسم بطله كـ « كلية » بلا تناقض ، حيث تترابـط الامور وفق منطق متسق يتلاحم فيه الزمان والمكان والذات والحركة ، لكن هذا المنطق لا يلبث ـ للاسف ـ ان يكبو ، فينكسر منطق الحدث وتهتز « الكلية » ، وننتقل من عالم الى آخر • ينقل الكاتب « بطله » ، وبلا مقدمات ، من مستوى البطل الملحمي ، الى مستـوى البطل الاشكالي أو البطل ثنائي القيمة • يصبح « الملك » رجـلا عاديـا ، ويغـدو المتسق متناقضا ، ويمسي « الاشراق » و « الصبوة » مشاعر عادية تخضع للزمـان والمكان • يتنزل « البطل » من مكان الى مكان ويتنزل البناء الفني أيضـا من مكان الى مكان ، فيتراجع العمل الفني مكسورا :

ـ « يشده « الملك » من اذنه قائلا « وأنا اشعرفني يا حريق الوالدين » ص ٢٠ •

ـ « تفشت القآليل في جسده » ص ٢٧ •

ـ « اقترح عليه حسن ان يسال واحدا من اهل العلم » ص ٣١ •

ـ « وحين اقترح عليه الدراويش سجنهم ، أجاب بحدة ، ان « اقلعوا السن واقلعـوا وجعه معه » ، حالفا بالطلاق ثلاثا كلما حلت تحرم » ص ٣٧ •

يحيل هذا الانتقال من مستوى الكامل الى مستوى الناقص « البطل » الى بطلين ، بطل كان في البدء ملحميا ذا خصائص معينة، ثم اصبح فيما بعد اشكاليا ذا خصائص مغايرة•

ويطرح السؤال الضروري نفسه · لماذا يكسر كاتب نصه ، وكيف يجمع مستويين ادبيين متغايرين في بنية ادبية واحدة ، وهل يتم هذا الكسر بوعي او بدون وعي ؟· وفي تلمس الجواب ينبغي معالجة عناصر عدة ، لن نقوم بهذه المعالجة فمكانها ليس هنا ، لكننا سنشير باقتضاب الى عنصرين : مفهوم الاديب لطبيعة عمله الادبي من ناحية ، وشكل الثقافة المسيطرة من ناحية ثانية · ومن قراءة هذين العنصرين نصل الى الجواب او شبه الجواب · ان توفيق فياض يقوم بتدخل واع في نصه الادبي يؤدي الى كسر هذا النص وتنزل قيمته الادبية · يتضمن هذا التدخل موقفين ، احدهما يرتبط بموضوع الكتابة والآخر بالقارىء · فتوفيق فياض لا يميز بين ايديولوجيا قصته من حيث هي عمل فني وايديولوجيته هو كـ « ذات » ، اي يماثل بين الايديولوجيا العامة والايديولوجيا الادبية · يضاف الى ذلك ان فياض يريد ان يصل الى القارىء ، وهذا مشروع ، لكن هذا الوصول او تسريع الوصول لا يتم بأدوات فنية بل بمقال سياسي او أخلاقي مباشر · لذلك نجد في قصته الاولى والثانية (الشيخ لافي ، ابو جابر) ثنائية مستمرة ، صوت الكاتب بصوت العمل الفني ، الفني والايديولوجي ···

واذا رجعنا الى قصة « الشيخ لافي » نجد ثنائية البطل واضحة ، فالبطل الملحمي صنعته ذاكرة الرواة ، أما البطل الاشكالي فصنعته ذاكرة « الكاتب » الذي نسي في لحظة ما أن يوافق بين البطل وشكله التاريخي · « البطل » الاول اثر ذاكرة دينية أما الثاني فاثر ذاكرة أخرى ، لهذا كان « الشيخ لافي » يتحرك في البدء مدفوعا بارادته و « أشواقه » و « ايمانه » ، أما بعد تغير مستواه الفني فقد تغيرت حركته أيضا ، اصبح يتحرك مدفوعا بتناقض العالم وتناقضه مع العالم ·

ان « هدف » القصة ودلالتها الحقيقية ينبغي ان تكون كامنة في بنائها الفني نفسه وليست جسما ملصقا بهذا البناء خارجيا · فالعمل الفني وحدة بلا داخل ولا خارج ، وعندما نتكلم عن داخله وخارجه انما نتكلم عن « انكساره » · وهذا الداخل والخارج نعثر عليه في « ايديولوجيا » قصة « الشيخ لافي الملك » : الايديولوجيا الداخلية هي ايديولوجيا النص التي تعبر عن مفهوم ديني ــ قروي قائم على ثنائية الخير والشر · وتعكس هذه الثنائية الاخلاقية الشرط التاريخي ــ الاجتماعي لمكان الحدث وتتوافق مع الوضع الاجتماعي في زمانها · أما الايديولوجيا الخارجية فهي ايديولوجيا الكاتب التي تسقط الحاضر على الماضي وتتوجه الى القارىء كمقال سياسي مباشر ، اي أنها ايديولوجيا ارادية ، خارج ــ نصية ، راهنة ، فجة · راهنة لانها لا توافق شرطها التاريخي ، وفجة لانها لا توافق المنطق الداخلي للنص بل تجره الى « وضوح ايديولوجي » يتجاوز حدوده التاريخية · الايديولوجيا الاولى تقوم على الخير والشر أي على مقال اخلاقي ، أما الثانية فتقوم على التمايز الطبقي اي على مقال سياسي ·

عكست ثنائية المستوى الادبي نفسها على الاسلوب والكلمات ، فتلاشى عالم الوميض والبراق والبريق ··· وحل مكانه عالم اشكالي « دنيوي » يتطلب مستوى آخر من الكتابة :

ــ « انه لن يهدأ له بال حتى يقطع دابر كل هؤلاء الافندية والباشوات ، لانه على قول المثل « سوس الخشب منه وفيه »وما دام هؤلاء خلفه ، فانه لن يستطيع المحاربة أمامه » ص ٣٧ ·

ــ « فمنذ أن خلق لافي وهو يحارب الاتراك وكل من لف لف الاتراك ، ولم يحمل في حياته صليبا ولا قرآنا ليحاربهم به » ص ٣٠ ·

لا شك ، أن مستوى اللغة هذا ، يبارح عالم الاسطورة الاول ، ويصل الى ضفاف مقال سياسي مباشر ٠

لقد كان بامكان الكاتب ان يصل مستوى البطل الملحمي بمستوى البطل الاشكالي عن طريق وسيط أدبي ، راو جديد متمايز ، أو حامل ادبي يصل بين المستويين دون ان يصل بهما الى هذا التمازج المستحيل ٠

٢ ـ ابو جابر الخليلي : منطق الواقع ومنطق « الاديب »

في قصة « ابو جابر » يرسم لنا توفيق فياض ، وبموهبة فنية حقيقية ، صورة انسان فلسطيني « عادي » في زمن الاحتلال ٠ صورة انسان عادي ، واضح السمات والمعالم ، حي في سلوكه ، متكامل في خصائصه وممارسته ، بحيث يمكن ان نقول ان خصائص هذه الشخصية هي خصائص الاسلوب الذي رسمها ٠ فهي نتاج عمل فني صادق ، حي ومتكامل٠ أسلوب يأخذ قيمته الفنية من قدرته على النقاط العادي ورصده وتجسيده بشكل صادق وصحيح ٠

« ابو جابر » انسان بسيط يمارس حياة بسيطة ومحدودة ، عالمه بيته ورغيفه وزوجته ٠ عالم ضيق وفقير يركض ابو جابر في فضائه باحثا أبدا عن الرغيف و « ستر الحال » : « وهكذا ظل أبو جابر راضيا بمهنته هذه ، ويحمد الله عند طلوعها ومغيبها ، على رضاه ونعمته » ص ٤٩ ٠ وامام اتساع عالم الرغيف وضيقه ، تراجع عالم « ابو جابر » ، وتضاءلت اهتماماته ، وكيف لا وهو الذي يسلم باستمرار بـ « المثل القائل » : « اللي بتجوز أمي هو عمي » ٠ يترك العالم جانبا وينسحب الى مملكته الفقيرة ، فسيان عنده ان « حكمها الملك حسين او موشي ديان » ص ٥٧ ٠ يقود « ابو جابر » حياته او تقوده حياته في فراغ بارد الدلالات ، ضيق الجدران ، بطيء الحركة : «يتلفع معطفه الزيتي الثقيل ذي الازرار النحاسية المخضرة ، والتي لا تزال تحمل التاج البريطاني منذ عهد الامبراطورية الزائلة » ص ٤٧ ٠ انسان قروي ، بسيط ، في الثانية والخمسين من عمره ، يحمل وعيا بسيطا قليل الحركة ، ويرزح تحت عبء هموم كبيرة لحياة صغيرة ٠ و « صغر » هذه الحياة وفقرها جعله يراوح بالضرورة في حدود وعي محدود ، وعي القرية وأخلاقيات القرية التي تطرد العالم الخارجي جانبا وتدفع الانسان الى التحصن وراء حدود « ذاته » و « فرديته » ، وتجعل الانسان يسير بشكل أفقي بحثا وراء الرغيف وحماية الملكة الفردية ، وتجعله يسير أيضا حسب منطق ايديولوجيا أخلاقية ـ دينية (القناعة ـ الشرف ـ الدين) ٠ واذا نظرنا الى مسار « أبو جابر » ، الفلاح ـ الفلسطيني ، نلمس في البدء الفردية التي انتجتها الايديولوجيا الفلاحية ، ثم نلمس فيما بعد تحصن هذه الفردية وتمركزها الناتجة عن مجتمع القمع والعسف الذي عاش فيه بعد خروجه من فلسطين ٠ وعندما تتمازج الايديولوجيا الفلاحية مع الاثر الناتج عن مجتمع القمع يصبح الفرد ذرة وجزيرة مهجورة ، وتضبح السياسة ـ بالضرورة ـ دعارة وشرا وجسما موبوءا ينبغي تجنبه والحذر منه : « قال أبو جابر شتم الملك قال ! اي هو ابو جابر عمره شتم حدا ، ان كان ملك وللا زبال ؟ وللا عمره تعاطى السياسة وتخرف فيها ٠ ص ـ ٥٠ ـ » ، « لم يتعاط في حياته كلها ، لا سياسة ولا خساسة » ص ٥١ ٠ وقبل أن يطلع الفجر وهو لا سيرة له ولا شاغل الا الدعارة والسياسة » ص ٦٤ ٠ يكره ابو جابر ، اذن ، السياسة ويرى فيها امتدادا للدعاة وخروجا على العرف ، انها المنكر والضلال ٠ ولما كان ينأى عن

السياسة باعتبارها نقيضا للاخلاق ، فمعنى ذلك ان نسق معاييره اخلاقي في جوهره ، يطرد ويرفض كل ما يسيء الى نقاء الفرد و « شرفه » : « أما الخير الذي كان يعمله أبو جابر دائما ، فهو حفاظه على الاخلاق ، بادئا في بيته · اذ كان من أشد الناس حفاظا على الاخلاق والحشمة » ص ٤٩ · و « كان يرى ان مجرد النظر الى فتاة في الشارع ······· يعتبر من باب الزنا والفجور ، ويستحق صاحبه الجلد عليه » ص ٤٩ ·

اذا نظرنا الى « ابي جابر الخليلي » وفقا لصورته الفنية ، نرى أنه يمثل انسانا معينا يعيش في حقل نفسي مغلق ومتوازن · حقل متميز له خصائصه وسماته ،وجذوره ومعاييره، أحكامه وايديولوجيته ، وفي أركان هذا الحقل يتحرك هذا الانسان القروي ويعيش حاملا ذاتيته المحتفظة بقسماتها رغم الخدوش والعفار وعثار الطريق · وعندما جاء الاحتلال الاسرائيلي الثاني بعد الخامس من حزيران ، وصل ابو جابر الى شرط جديد ، ورغم حدة هذا الشرط حاول هذا « الخليلي » ان يتابع « ذاتيته » ، وان يحافظ على الحركة في أركان حقله المغلق والمتوازن · لكن هذا الجهد الارادوي انكسر على الرصيف ، فاهتزت « الذاتية » أمام شروط الحقل الجديد ، وبدأ أبو جابر مسار صراع جديد · في البدء كانت « الذاتية » تتوافق مع حقلها الخاص بها ، وعندما جاء الاحتلال جاء بحقل جديد يناهض الاول وينزع الى الغائه واعدامه ، وكان على أبو جابر ان يدافع عن معاييره المغتصبة . وعن « فرديته » المهانة ، عن عالمه القديم الذي تطأه اقدام الغزاة : « لطمه على وجهه لطمة أدارت الدنيا أمام عينيه ، وهو يصرخ به محتدا ، وبعربية سليمة « انت واحد كذاب يا ابو جابر ··· كذاب كبير » ص ٥٥ · هكذا تراجعت « الذاتية » وبدأت « الرجولة » بالانحسار وتحول أبو جابر ذو « الانف النسري الانقر » الى مخلوق مذعور يبحث عن الخلاص · الا أن ذاك « الخلاص » لم يكن يسيرا ، فالانحسار لا يمس فردية متوحدة بل ينشب أظافره في كلية العالم المتوازن السابق · كل شيء يغتصب ويفقد « الطهارة » :

ــ « قبل الاحتلال كان هذا الشارع كبقية الشوارع ساكنا » ص ٦٣ ·

ــ « اما بعد الاحتلال ، والعياذ بالله ، اصبح لا يلتقي الا بشبان يعانقون الفتيات ويقبلوهن في منتصف الشارع » ص ٦٤ ·

ــ « ومع ذلك يرى الفاسقين ينتصرون على أمة محمد ويحتلون المسجد » ص ٦٥ ·

ــ « شارع الزهرة هذا ، انقلب الى ماخور شبه رسمي ، ص ٦٦ ·

وتحت شروط الحقل الجديد ، فقد الحقل القديم توازنه وانغلاقه ، وأصبح التوافق بين الانسان وحقله الذاتي مستحيلا ، وسار أبو جابر لاهثا وراء مصالحة مستحيلة ، وفي المسار واللهاث تلاشى وهم الفردية ووهم التوافق ، واكتسبت الشخصية ابعادا جديدة ووقفت على مشارف وعي جديد : فالتوحد ليس خلاصا والفردية الساذجة ليست سورا ، والنصر والهزيمة لا يرتبطان بالدين والاخلاق ، والالتزام بقضية ليس اختيارا طوعيا بل مكتوب في سيرورة الحياة اليومية · وفي هذه السيرورة وصل ابو جابر الى حالة اللا توازن ، وركب قارب المعاناة الذي تدفعه أمواج خارجية ، وكان عليه ان يقبل الحقل الجديد الذي ينفي حقله الاول أو ان يصده ويتصدى له بمعايير جديدة · وعاش معاناة المخاض :

ــ « أنا ···· أبو جابر الخليلي ، أصير جاسوسا لليهود ؟ طب والله ما أنا صاير » ص ٦٢ ·

ـ « مرة أخرى استفاق أبو جابر لنفسه ، وراح يعنفها على افكارها وهواجسها ، اذ ما كاد يحولها عن الدعارة والفسق حتى أدخلته هذه المرة في السياسة » ص ٦٥ ·

أنتج الشرط المتناقض وعيا متناقضا · ولما كان التناقض يعني الحركة ، فان وعي ابي جابر أخذ ينمو ويتحرك مشروطا بممارسة حياته اليومية · فللرغيف ثمن وللخلاص الفردي المنشود ثمن ، لذلك كان على أبي جابر ان يدفع الثمن اما سلبا او ايجابا ، القبول بالامتثال لقواعد العدو ، أو وداع حقل التوازن وولوج حقل « المغامرة » · لم يكن الخيار اراديا بل محصلة لشرط يرفض المصالحة ·

الوعي سيرورة ، والمسار اليومي سيرورة أخرى تحدد الاولى ، ومع التراكم الكمي لشكل الممارسة في عالم الاحتلال والحصار ، اصبح الكم كيفا ، وغادر ابو جابر عالمه « القديم » : « لم يصح ـ ابو جابر ـ على نفسه الا وهو يركض في اتجاه باب العامود ، والدم لا يزال يقطر من نصل موس الكباس في يده » ص ٩٠ ·

وهكذا عبر أبو جابر مسار شرطه التاريخي ، اكتشف ذاته كانسان ، واكتشف ذاته كجزء من شعب ودفع الثمن · ضمن هذا المنطق المتسق الذي يرسم سيرورة الوعي رسم توفيق فياض صورة بطله « الخليلي » وأجاد ، ولكن !!

في « ابي جابر الخليلي » عاد توفيق فوقع في عثرة الايديولوجيا المباشرة ولكن بشكل آخر · في « الشيخ لا في » كسر النص عندما نقل البطل من مستوى الى آخر لا يتوافق معه · أما هنا فقد أدخل في جسم « الحكاية » جسما غريبا يشوه النص وينقله من مستوى الى مستوى آخر · أما هذا « الجسم الهجين » عن النص فهو لقاء أبي جابر مع « الشبان الثلاثة » · ان هذا اللقاء يشكل اغتصابا للنص وتشويها لدلالته ، لو كانت هذه الاضافة مجرد زوائد لهان الامر ، لكنها « زيادة » تحرف النص عن دلالته الاصلية وتجره من مستوى دلالي الى آخر ·

ربما اراد توفيق ان يصور صراع الخير والشر او ان ينقل الحدث الى مستوى الامثولة ·

لكن هذه « الارادة » لم تخدم صاحبها لانها ارادية او ارادوية تهدف الى الاقناع او الى البرهان ، حتى يخيل الينا ان « الكاتب » يريد أ نيبرهن على صحة ممارسة بطله

او يبررها · اي ان لقاء ابي جابر مع « الثلاثة » يشكل نصا جانبيا وهامشيا يهدف الى تبرير النص الاصلي واعطائه مصداقيته · لكن منطق النص الاول يعارض منطق الثاني لنر كيف · ؟

يشير النص « الاصلي » الى مسار انسان ينتقل من حقل الفردية الى حقل اللافردية : يصبح علاقة في نضال شعبه · ينتقل من الايديولوجيا الاخلاقية « الفردية » الى الوعي السياسي ، وهذا الانتقال لا يتم عبر « صراع الاخلاق » فحسب بل عبر المجابهة اليومية مع العدو المباشر · ان طبيعة الانتقال تناقضية لذلك تحمل في مسارها المتعرج انتقالا من شكل معين للوعي الى شكل آخر اكثر تقدما وشمولية : اكتشاف الذات والعدو واكتشاف ضرورة المواجهة · وباختصار يمكن ان نقول ان « النص الاصلي » يرسم تفتح الوعي القومي لدى انسان عادي ·

أما « النص المضاف » فيقول شيئا آخر : يرسم صورة انسان يدافع عن فرديته واخلاقه

أمام استفزاز واغتصاب مباشرين • وهـذا يعنـي ان النص الاول يرسم سيرورة الوعـي السياسي ، أما الثاني فيرسم سيرورة الوعي الاخلاقي • والوعي الاول يدفع الانسان الى ممارسة هي جزء من كل (الاخرون) ، أما الوعي الثاني فهو دفاع عن الذات والانا وليس دفاعا عن قضية جماعية ، بمعنى آخر : ان ابو جابر يقبل الاحتلال على شرط ان لا يمس ذاتيته او يتعرض لقيمه الاخلاقية • يضاف الى ذلك ان « الاضافة ـ البرهان » تلغـي التطور المادي للشخصية الفنية : فالقصة بجسمها الاساسي ترسم انتقال « الانسان » الى مرتبة « الفرد » ، تنقله من الاخلاق الى السياسة ، من الاحتجاج الى الحركة ، اي تحكـي مساره التناقضي الذي يرفعه من مرتبة الى اخرى اكثر ارتقاء • اما « النص الثانـي » فيلغي التطور التناقضي ليحل مكانه تطورا خطيا يجعل الشخصية تكرر ذاتها في دائريـة اخلاقية • ويتجلى الامر واضحا عندما نقارب قصة « ابو جابر الخليلي » من وجهة نظـر الزمن الحكائي :

يتطور النص الاول محكوما بزمنه الداخلي الذي يجعل موقف « الشخصية » في لحظـة ما من مسارها محصلة لتراكم لحظات سابقة ، أما النص الثاني فيتطور وفق زمن خارجي خاص به منعزل عن الزمن الاول ، فحركة الشخصية فيه لا تأتي كمحصلة لازمنة سابقـة بل كموقف آني ورد فعل مباشر مستقل بذاته •

ان عدم الوحدة الايديولوجية في مستويات قصة « ابو جابر الخليلي » جعل هذا العمـل الفني والاصيل يفقد « شيئا » من أدبيته •

البهلول

في قصة « البهلول » • يحكي توفيق فياض يوميات انسان منبوذ ، انسان هامشي فـي مخيم فلسطيني ، « بهلول » يعيش عالمه ويبني عالما هامشيا ، ويتحرك معاكسا تيار الحياة اليومية ، فيكسر العرف ويتجاوز القانون ويبقى على قارعة الطريق وهوامش الحديـث • لكن هامشية حياته لا تشده الى الظل والنسيان فهو في قلب الساحة وأمام مرأى البصر ، بل يمكن ان نقول ان شكل هذه الهامشية وسياقها التاريخي يلغي هذه الهامشيـة نفسهـا ويجعلها حضورا مستمرا بحيث تصبح الهامشية علامة حضور لا مؤشر غيـاب وانكفـاء ، فالبله تميز وتاكيد الذات سلبا محاولة لتأكيد هذه الذات • والانسان الابله او البهلـول رمز التداول فـي الادب العربـي والافريقـي وفـي ادب العـام الثالـث » بشكـل عـام • فالبلـه لعبـة واعيـة يولدهـــا واقـــع سلبـــي ، لعبـة صاحيـة تأتـي مـن واقـع معيـن ثـم تعـود اليـه مـن جديـد بعـد ان تكتشف اللغـة الموائمـة للتعامـل معـه ، فهـي والحالـة هـذه اشارة رفض واحتجـاج وتـلاؤم • فشخصيـة « البهلـول » ترفض الواقع وترفض العقل لان الشرط الذي تعيشه يرفض العقل أيضا ، فممارستهـا « البلهاء » استداره عقلانية تسمح لها بالقطع مع ما هو عادي ومتعارف عليه وتمنحهـا سلوكا جديدا ذا لغة متميزة ورموزا متميزة أيضا •

أمام عالم لا يساوق منطق العقل يفقد الانسان عقله ويرفض العالم كي يعود فيبني لنفسه عالما آخر موازيا وعقلانيا ، اي ان تزايل الذاتية الظاهري هو محاولة لصيانة هذه الذاتية وتاكيدها وتحصينها • لهذا فان « بهلول » توفيق فياض ذات تؤكد ذاتها نفيا في عالـم يتسم بالسلبية ومجافاة العقل ، وتدافع عن هويتها الانسانية والوطنية في شرط يحاول خنق هذه الهوية الثنائية البعد : ـ « تفح التنهدات اليائسة من ياقات المنامـات المخططـة • تشتعل السجائر ، واكواب الشاي الدبسي تتقافز نحو الشفاه المزمومة ، ثم تعود الـى

الطاولات الجرباء ، فتفرد فلسطين بيتها ٠٠ ص ٩٤ » ، « تتعلّق العيون بالقبعات الخضر٠ تتراكض بين نجوم داوود اللامعه على الجباه ٠ علـى الكـوف ٠ تقهـر ، فترتد مهزومـة حزينة الى العشرة الطيبة واحجار النرد المتراكضة من جديد ٠ ص ٩٤ »

في فضاء القمع والقهر يتحرك « سليم البهلول » ويتبدل ، يبدأ عالمه بقناع وينهيه بوجه حقيقي ، وبين الوجه والقناع ينمو ويتطور ويصبح مقاتلا ٠ وللقنـاع أسلحته وللوجـه حوامله ٠ يبدأ « سليم » احتجاجه « برش الصامتين برذاذ لعابه » وينتهي راضيا ببندقيـة تسلمه الى عالم الشهادة والموت من اجل الوطن ٠

لكل بداية بداية فالبدايات المطلقة لا وجـود لهـا ، و « سليم البهلـول » ذو الساقيـن المعوجتين لا يشكل بداية او نهاية ، فهو بداية لبدايـة سابقة ، واستمـرار لـ « بهلول » سابق ، لحظة في حركة مستمرة ٠ انه « حسن المعتوه » في زمان آخر ، أو « الشيخ لافي » الذي بشر « حسن » بعودته يوما ما ٠ فـ « سليم » يحمل في ذاته شيئا من « الشيخ لافي» يحمل رسالته وتميزه :

ـ « يعود الى مغارته ، وينزوي مرة أخرى ليفكر من جديد بقضية الاحتلال هـذه ومـا آلت اليه حاله ص ١٠٨ ٠

ـ « وقصة حب سليم البهلول « لفطومة » ، وفقدانه عقله ، يعـود الى اكثـر من خمس سنوات ٠٠٠٠٠ وثمة من يردها الى عام « الهجيج الاول » حين كان سليم لا يزال صبيا وفاطمة لا تزال صغيرة بعد ، وانه منذ ذلك الوقت وهو يبحث عنها في كل مكان» ص ١٠٢٠

ـ « الرصاص يتدافع من بندقيته الرشاشة نحو الجنود كالشهب » ٠

ـ « شع من جبينه نور الهي عجيب كاد يغشي بصره » ٠

ـ « رأت سليم البهلول عريسا فائق الجمال يزفه الناس في المخيم على فرس شهباء » ٠

على الرغم من تباعد الشرط والزمن ، فان « سليم البهلول » يتابع حركة « الشيخ لافي » ويحمل شيئا منه ٠ انه « لافي » المخيم بعد ان تباعدت القرية والجبل ٠

وعاد « البهلول » يدخل الى كهفه « ليبحث عـن الضوء ، ويعشق « فطومه ـ الارض » التي كانت ذات يوم تدعى « خديجة » ٠ وهو عندما يقاتل ويستشهد يستعيد ما مضى ويدخل الى عالم الفيض والشهب والنور ٠ ويستعيد سحر القرية الغابر وطقوسها التليدة ٠

« سليم البهلول » ليس تجريدا او كيانا متعاليا ٠ ينزع الى الماضي ، يتماثل معـه او يكاد ، لكنه لا يتخلع عن الحاضر ، فهو الحاضر أو هو في الحاضـر ، يعيش تناقضـه ويتكون بقوانينه ، اي أنه يتماثل مع الماضي عندما يعي حاضره ويناضل لتجاوز شرطه ٠ وعندما نقول ان « سليم » يعيش تناقض زمانه ، نقول وفي اللحظـة عينهـا ان « سليم » يتكون كفرد انساني واع عبر لحظات صراع ومخاض طويلين ، فالقناع لا يخفي الوجـه الحقيقي منذ البداية ، فزمن هتك القناع هو زمن تشكل الوجـه الفلسطينـي ٠ فالوعـي سيرورة ، وسيرورة « سليم » ومعاناته تذكرنا بالشرط الفلسطيني العام من ناحية وتذكرنا بمسار « أبو جابر الخليلي » من ناحية ثانية ٠ فالبطولة ليست اغنية والشهـادة ليسـت نشيدا ورديا ٠ انهما حزن وقلق وتضحية ووداع ٠

ـ« سليم » لم يكن بطلا منذ البداية : « كان في طفولته جميلا ووادعـا » ٠ ص ١٠٣ ٠

لكن صورة الوجه لا تغاير دائما صورة زمن تشكلها · وفي زمن الرحيل والمخيمات يضيع الوجه وتتبه الذاكره ويغرق « الطفل الجميل » في تناقض يبحث عن الحل :

ـ « أحس برعشة باردة تهزه ، وراح يلعن نفسه لوصوله الى مثل هذه الفكرة الخبيثة ، التي ستحوله الى « داسوس » وتقرب النجمة المسننة من جبينه » ص ٩٦ ··

ـ « شد سليم البهلول على رأسه بكلتا يديه ، وقلبه يكاد يطير من الهلع ، مجرد ان قفزت صورته الى مخيلته وهو يحمل البندقية الرشاشة ، وطلقاتها السريعة تتلاحق من بين يديه اللتين راحتا ترتعشان بسرعة عجيبة ، واقسم ان لا يعود الى التفكير في ذلك مطلقا » ص ٩٦ ·

لكن فكر « سليم » يعود من جديد الى البندقية ، تحملها يداه ، فيستعيد وجهه ووجه فاطمة ، ويماثل في قدره ، او يكاد ، قدر « الشيخ لافي » ومسار قروي فلسطيني بسيط اسمه « أبو جابر الخليلي » ·

يحاول توفيق في قصة « البهلول » تلخيص الشرط الفلسطيني وطبيعة مساره ، ورسم كثافة العلاقات ، ربط الحاضر بالماضي ، وربط الحاضر بالحاضر بحيث تبدو كلية نضال الانسان الفلسطيني في خصائصها وتناقضاتها · لبلوغ هذا الهدف يمارس توفيق « احتيال العقل » في الرمز ، في دلالة ومعنى البهلول ·

فالشعب الفلسطيني كان بهلول « الشعب العربي والعالم » لانه كان ينادي بما لا يقبله العقل : « عودة الشعب الفلسطيني الى ارضه » · و « سليم البهلول ـ الفدائي » هو بهلول المخيم الفلسطيني الذي رأى في حمل البندقية في البداية عملا انتحاريا · اي ان الشعب الفلسطيني قبل ـ في زمن مضى ـ صورة البهلول التي البسه اياها « العالم » ثم عكسها على ذاته من جديد لينتج « بهلوله الخاص » · اي أننا أمام انعكاس مزدوج او انعكاس الانعكاس ، بهلول ينتج آخر ، ولم يتوار هذا الانعكاس الا بعد تصاعد نضال الشعب الفلسطيني وتأكيده لهويته الوطنية والسياسية · تراجع الانعكاس القديم ليفسح مكانه لانعكاس جديد ، وصورة جديدة ·

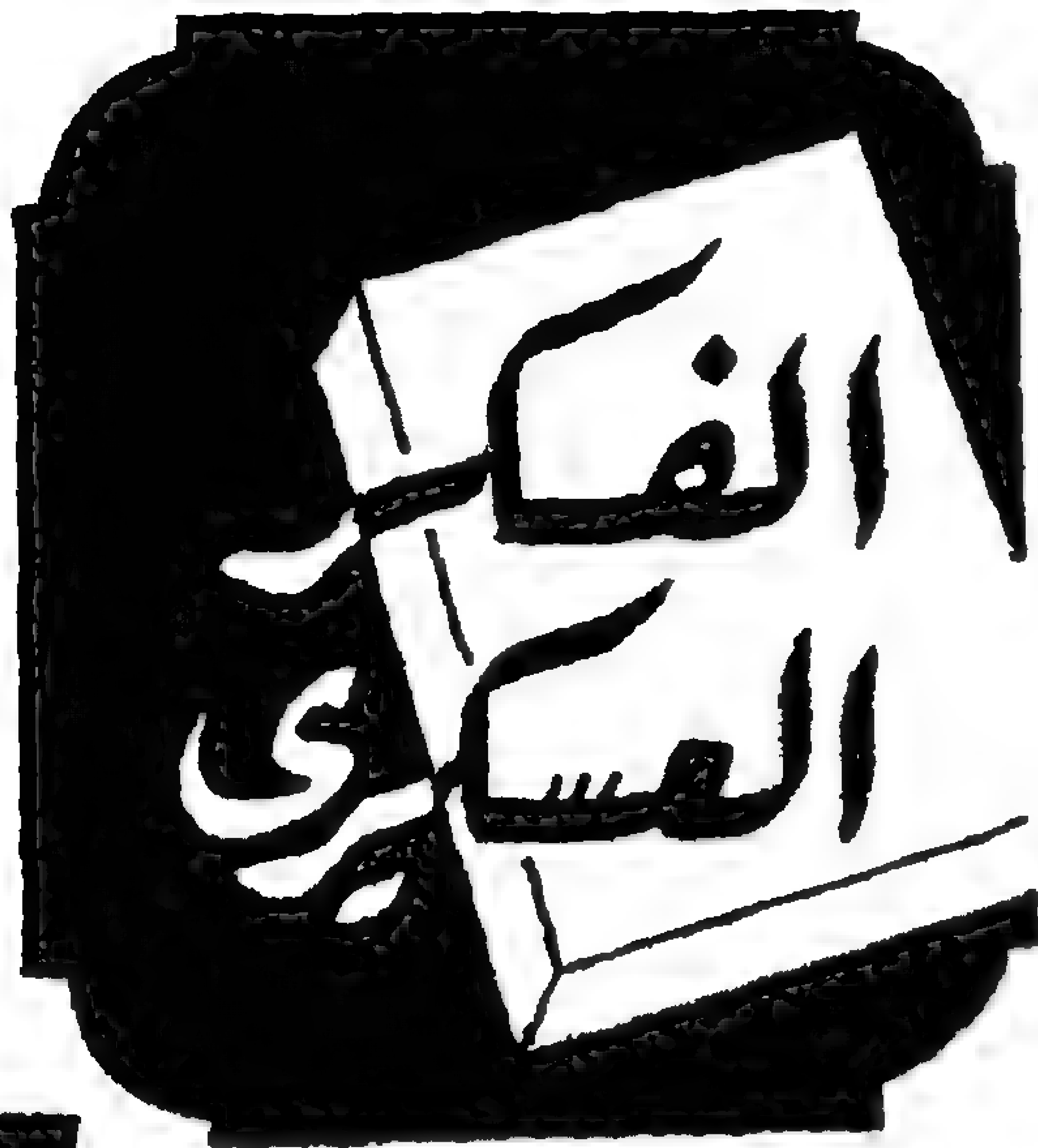
على الرغم من التماسك الفني لقصة « البهلول » فاننا نأخذ على توفيق **نزوعه الى المباشرة** (الاضافة ـ البرهان) الذي تجلى في اكثر من مكان في القصة ·

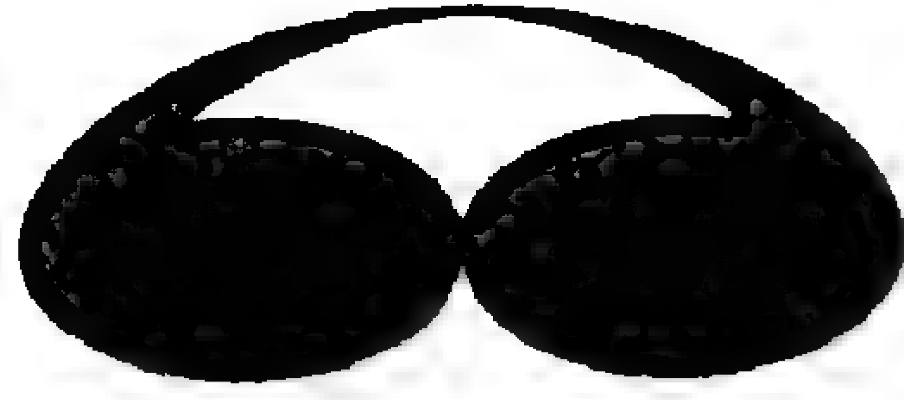
والمباشرة هنا لا تريد ان تسجل موقفا سياسيا او ايديولوجيا بل تريد « انارة الحدث » · لكن هذه « الانارة » جاءت زائدة وبلا وظيفة · فقد اراد توفيق ان « يبرهن » لماذا يتطور « بهلوله » باتجاه الفدائي ، ولهذا كان يسرع او يحرض هذا التطور بأفعال خارجية مباشرة او « مضافة » :

ـ « وجد نفسه فجأة ، يقف في عرض الطريق وحيدا ، دون ان يفقه ما الذي حصل ، وكيف انصاع الناس لكلام هذا الجندي المجنون بينما لم يستمع اليه أحد » ص ١٠١ ·

ـ « وقبل ان يسارع الى تجنبها دفعه أحد الجنود بعقب بندقية وهو يطلق ضحكة ساخرة ، فسقط سليم على وجهه وسط الغبار المنعقد فوق رأسه » ص ٩٧ ·

ان هذه الاضافة تعطي تطورا خارجيا وقسريا للشخصية ولا تغني الخط العام الذي يحكم مسار هذه الشخصية ·


الفكر العسكري



قضايا عربية

شهرية فكرية مفتوحة لمختلف الاتجاهات التقدمية

يكتب فيها أبرز الكتاب والمفكرين العرب من كافة اقطار الوطن العربي ـ تعالج اهم المشكلات والقضايا المعاصرة للامة العربية بروح الالتزام والبحث العلمي وفي مختلف المواضيع : السياسية ، الاقتصادية ، التاريخية ، الادبية ، الثقافية والفنية ـ أبواب شهرية ثابتة : عرض أهم الكتب ـ فن تشكيلي ـ سينما ـ وثائق ـ ببليوغرافيا شهرية : القضايا العربية في الدوريات العربية .

رئيس التحرير : د . عبدالوهاب الكيالي

مستشار التحرير : رجاء النقاش

المراسلات : ماهر الكيالي ـ ص . ب . ٥٤٦٠
بيروت/ لبنان العنوان البرقي : موكيالي ـ ت : ٣١٢١٥٦ .

Palestine Affairs

No. 89, April 1979

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

السعر: ٥ ل.ل. في لبنان
٦ ل.س. في سوريا
٦٥٠ فلساً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولة الامارات العربية
٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
٧٥٠ درهماً في ج.ع.ل.



